شؤون فلسطينية

٧٧ نيسان (أبريل) ١٩٧٨



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٧٧ نيسان (أبريل) ١٩٧٨

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ . تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل.ل. في اوروبا ، ١٢٥ ل.ل. في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للفنان المغربي محمد شبعة
(من المعرض التشكيلي العالمي من اجل فلسطين)

المحتويـات

الصفحة		
٤		تحية الاخ ياسر عرفات الى المقاتلين ٠
٦	محمود درويش	: في الجنوب ٠
١٠	الياس خوري	: حرب الجنوب ٠
٢٣	ابو جهاد	: الكرامة الجديدة ٠
٣٠	نزيه قورة	: التصفية المستحيلة ٠
٣٨	غازي الخليلي	: العملية ٠
٦٦	ماجد ابو شرار	: الصراع العربي ـ الصهيوني في مرحلته الراهنة ٠
٨٠	صبري جريس	: دروس الزيارة ٠
١٠١	سمير كرم	: ايران : يابان الشرق الاوسط ؟ (٢) : الخليج العربي الهدف،القومية العربية العدو٠
١٢٠	احمد صدقي الدجاني	: نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين (٢) : فلسطين ما بين ١٠٢٠ ق٠م الى ٦٣ ق٠م٠

الصفحة

١٢١ **تقارير** ندوة كمال جنبلاط : **تظاهرة تأييـد لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني**، جورج ناصيف **بيت اطفال الصمود** ، نجلا نصير بشور ·

١٤٣ **مراجعات** **تاريخ الصهيونية** ، ١ ــ عيسى الشعيبي ، ٢ ــ سمير ايوب ·

١٥٩ **شهريات** **المناطق المحتلة** ، عبد الحفيظ محارب · **اسرائيليات**، توفيق فياض · **قضايا عسكرية**، محمود عزمي ·

شؤون ادبية

١٧٦ جبرا ابراهيم جبرا : **اذا لم اكن فلسطينيا ، فأنا لست شيئا** ·

١٩٣ نجلا جريصاتي : **حول ادب الاطفال** ·

٢١٤ **كتب** : **الجيل الصغير** ، فيصل دراج · **الادب الصهيوني بين حربين** ، محمود سويد ·

تحية الأخ ياسر عرفات إلى المقاتلين

الى الابطال الابطال

الى المناضلين والمناضلات

الى صانعي ملحمة البطولة والفداء

الى الرفاق كل الرفاق في السلاح وفي الخندق

يا من حملتم الراية رغم كل المؤامرات والمتآمرين واقتحمتم بها الاتون والحمم لتصنعوا لثورتكم وامتكم امجادا خالدة وتكتبوا لها تاريخا مشرفا في سجل التاريخ والزمن ٠

لقد كانت المؤامرة الضخمة التي تقودها الامبريالية والصهيونية والاستعمار بقيادة الولايات المتحدة الامريكية تهدف الى القضاء عليكم والى ازالة ثورتكم والى اذلال شعبكم والى اهانة امتكم ٠

ولكنكم كنتم وما زلتم الامناء الاوفياء المؤمنين فتصديتم لهذه الهجمات العسكرية تذودون عن حياض امتكم وشعبكم في الجنوب العربي اللبناني ٠ فانقلبت بذلك معايير وتغيرت مفاهيم كانت معشعشة في مخيلة من قتلهم الوهم وهم احياء . ومن شلتهم المؤامرة وهم يتفرجون عليها ٠

لقد قالوا ان هذا العدو المدجج بأحدث الاسلحة الامبريالية الاميركية لا يقهر ٠ لقد قالوا ان هذا الجيش الذي يقوم بحماية مصالحهم الامبريالية الصهيونية لا يمكن التغلب عليه ٠

ثم كانت المفاجأة ٠ كانت الاسطورة التي انبعثت من خلال هذه الملاحم التي صنعتموها حين تصديتم له رغم قلة العدد والعدة رغم الفارق الذي لا يقاس في الحجم والسلاح ٠

لقد تكسرت تحت وقفاتكم الابية ، وارادتكم الصلبة هذه المؤامرة التي ظنها العدو نزهة عسكرية ينهيها وينهيكم فيها خلال ساعات في الجنوب

اللبناني ، فاذا بكم تنتصبون له عمالقة مقاتلين طوال حرب ضروس ثمانية ايام ولياليها ، وتلقنونه درسا ، بل دروسا بان من يضع يده في اعشاش النسور عليه ان يتحمل تبعاتها ٠

ولكن هل انتهت المؤامرة ، هل توقف المتآمرون ؟ لا لم تتوقف ولم يتوقفوا ٠ المؤامرة مستمرة ، وان تعددت اشكالها وسبلها وجميعها تريد ضرب هذه الثورة وحلفائها من القوى اللبنانية الوطنية . حلفاء المصير والخندق الواحد ٠ تريد تصفية هذه القضية ليمرروا حلولهم الاستسلامية الرامية الى تركيع شعبنا وامتنا ، واحتوائها ضمن المخطط الامبريالي الصهيوني الاستعماري الخطير ٠

ولكن ما حدث في الجنوب اللبناني هو بداية عهد جديد واشراقة فجر باسل ٠ انه زمن المعجزات الثورية لجيل التضحية والفداء لجيل الابطال الابطال لجيل المناضلين رفاق دلال وصحبها ٠

فالعهد العهد ، عهد الرجال للرجال عهد المناضلين والمناضلات ، ان نستمر في المسيرة وان يسير الركب بأتون الثورة المشتعل ، يصنع احداثا ، ويسطر امجادا ، ويهب لامته الحياة الحرة المجيدة من خلال عطائه السخي ، وتضحياته التي لا تتوقف ٠

هدفنا فلسطين ، هدفنا قدسنا الحبيبة ، لا نحيد عنه ولا نتراجع واننا بهذه الكبرياء العربية المتجمعة في جباهكم ، وبكل الايمان الذي تعتمر به قلوبكم ، لواصلون الى قدسنا ، الى فلسطيننا حرة عربية ٠

والمجد والخلود لشهدائنا الابرار
وانها لثورة حتى النصر

اخوكم
ابو عمار

٦

في الجنوب

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

حين كانت دلال تقطع الساحل الفلسطيني في اتجاه القلب ، لم يكن مهما ان يسأل احد : من أين جاءت ؟ من البحر او الهواء ، من حطام تل الزعتر ام من الحصار القادم · فالجهات كلها تبدأ من جوهر واحد : من القضية الفلسطينية ·

ولم تكن رحلة دلال هي الاولى ، ولن تكون الاخيرة · ليكن ذلك واضحا كيوم السبت الشهير · فليس لدم دلال هدنة ، ولا قوات مراقبة او حدود ولا موقع ثابت · فلماذا يقطع العالم انفاسه في انتظار الرد ؟ لماذا يصفق اعجابا بالانتقام الاسرائيلي القادم ؟

لم تتوقف الحرب الاسرائيلية ضد دلال حين كانت جنينا ، او ضد ما تحمله دلال واخوتها واخواتها من اجنة · فهم ليسوا اكثر من بيضة ، او لا وجود لهم ·· لا وجود لاسمائهم · والحرب عليهم حرب ابادة منذ وطيء المهاجرون الاوائل ارض فلسطين ، منذ احتلوا غرفة دلال وناموا في سريرها · ومنذ ذبحوها للمرة الاولى في دير ياسين طردوا الحرام عن قانون الصراع مع الفلسطينيين ، لان الفلسطينيين خارج القانون !·

من حق دلال ومن واجبها ان تسير على ساحل وطنها ، لا لتورط احدا وانما لتحدد مكان قلبها · ومن طبيعة العدو الصهيوني ان يكرر محاولات الابادة ، فالحرب بيننا دائرة ، ودائرة الصراع مفتوحة لا يغلقها العجز الطافي على السطح ، ولا اتفاقيات الهدنة مع الاخرين ، ولا اتقان لغة التخاطب الجميلة مع الضمير الغربي المثقل بذكريات

الصليبيين · سلام دلال وحده هو الذي ينقل الصراع الى مستوى آخر ·

لذلك ، لم يزج الاسرائيليون بالتهم الحربية في ارض الجنوب لينتقموا من رحلة دلال الاخيرة ، بل ليواصلوا حرب الابادة التي اعلنها وجودهم على الشعب الفلسطيني وثورته ، وليواصلوا غزوهم التقليدي ، وابتكار تعدد لنموذجهم العنصري ، وليعيدوا تنظيم شؤون العالم العربي الداخلية على هواهم ، ووفق ما يتطلبه فهمهم الخاص للامن ·

ان الامن الصهيوني لا يتأسس على خطوط وقف اطلاق النار مع البلدان العربية · انه يتأسس ، جوهريا ، على علاقة معقدة وغير منظورة مع كيفية بناء الداخل العربي التي تتفكك فيها قدرة الجماهير على المبادرة ، وترتبط مصلحة ما يمثله الحاكم بالقوى المعادية ، للثورة· ويتأسس ، جوهريا ، على تفريغ الوعي القومي من الخطر الواحد المشترك ، لتصير النجاة الاقليمية من اعباء الصراع هي الطابع المميز لمشهد العالم العربي في هذه اللحظة · ويتأسس ، جوهريا ، على تعليق احلام المسؤولين بحل المسألة الوطنية على قدرات خارجة عن ارض الصراع ، فتصير الارادة الدولية مصدرا ، لا مرآة ، لتوازن القوى على ارض المعركة · وهكذا يرتاح الامن الصهيوني رسميا ويتمدد ، وهكذا تجد قوى ادارة الصراع العربية نفسها اسيرة التعابير المتبدلة على وجه الرئيس الاميركي العاجز عن تدجين الذئب الاسرائيلي المتمرد · فهل هذه هي المسألة حقا ؟

سيواصل الفكر السياسي العربي ارهاق نفسه في البحث عن الخلية المتورمة في جسد الامة · وعلى الارض ، ستواصل دلال ، الرمز والتجسيد، رحلتها على الساحل الفلسطيني · وسيواصل العدو الصهيوني حرب الابادة على الشعب الفلسطيني باعتباره نقيضه التاريخي ، وباعتبار ثورته الاسم الحركي لنهج الامة في تطبيق طموحها الى التغيير ·

وفي حرب الجنوب ، التي تفوق فيها مقاتلونا على العقد والاوهام التي حكمت مسيرة الحروب العربية ـ الاسرائيلية ، تأسست من جديد مقومات ارساء الامن العربي ، وتبلورت طريقة تمزيق الامن الاسرائيلي · لقد دل الفدائي ، المدجج بالسلاح الخفيف والتصميم على القتال الطويل المتحرك ، على مصادر لا تحصى من قابلية العدو للهزيمة في هذا النوع من القتال ، بشكل جعل الناس تحلم بمعركة اطول ، وعلى جبهات اوسع ، تشترك فيها طاقات الامة التي لا حدود لها لو اتيح لها الحق في ممارسة دورها في الحرب ·

لقد فتحت صدور الفدائيين في الجنوب بوابات المستقبل العربي ، واحكمت الحصار على عقلية مسادة الصهيونية من جهة ، وعلى عقدة الخوف العربية من جهة اخرى ٠

ومع ذلك ، فقد دلت حرب الجنوب على مدى العجز الذي خلفته مسيرة التسوية ، على الطريقة الامريكية ، في صفوف القوى المكلفة بالمضي في ادارة الصراع ٠ فما زال فراغ الطاقات ، الناجم عن خروج اكبر دولة عربية من المعركة ، ممرا لحرية السلوك الاسرائيلي ، الذي استطاع دفع حوالى ربع قواته النظامية في الجسد العربي ، بحثا عن القلب الفلسطيني ، دون ان يشعر بخطر المواجهة الشاملة التي ربما كان يناديها لتحويل نهج الحاكم المصري الى حتمية ٠ فهل سيتحرر العرب من جاذبية التسوية الامريكية التي عكست حرب الجنوب احدى نتائجها التدميرية من ناحية ، وطريقة التصدي لها من ناحية ثانية ؟

وهل سيواصلون التضحية بامنهم القومي من أجل امن التسوية الوهمية ؟٠

وما هو البديل ؟ تسوية اخرى ؟ هنا يأخذ السؤال صيغة مختلفة : هل يستطيع العرب في وضعهم الراهن ان يفرضوا تسوية عادلة تتحقق فيها شروط الحد الادنى المتمثلة بالانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة وضمان حقوق الشعب الفلسطيني ؟٠٠ ان اميركا «عاجزة» عن انقاذ اقصى حدود التنازل بثمن زهيد هو « التنازل » الاسرائيلي عن ارض عربية . او هي عاجزة عن تحقيق الانسجام بين الدور الاسرائيلي والدور العربي المتزاحمين على فاعلية تأمين مصالحها ٠ صحيح ، ان لاميركا مصالح عربية لا تفرط بها ٠ ولكن الصحيح ايضا ان القوة الاسرائيلية ما زالت هي الاداة لوقاية هذه المصالح ، وهي التي دفعت بعض العرب الى الحضن الاميركي . بما رافق هذا الاندفاع من التخلي عن مهام حركة التحرر العربية والتغيرات السلبية في بنيتها ٠

ان التسوية الوحيدة المعروضة في السوق الان هي التسوية الاسرائيلية المعدلة بطريقة امريكية ٠ وقد اعلنت عن جوهرها في حرب الجنوب ، التي وضعت فيها اسرائيل طاقتها القصوى لابادة الثورة الفلسطينية ٠ وقد دلت الكفاءة التي خاض فيها الفدائيون الحرب الخامسة على ان الثورة الفلسطينية قد تجاوزت سن الخطر ، تجاوزت خطر التصفية ٠ ان لحرب الجنوب دلالات كثيرة اهمها اندلاع حرب الجوهر ٠ فقد واجهت اكبر الة حربية في الشرق الاوسط جسدا بشريا

لا ينكسر · كان الجنود الاسرائيليون المترعون بذكريات حرب الايام الستة او الساعات الست يرتعدون من الفدائي · ولم يتمكن هؤلاء الجنود المتفرغون لابادة الفلسطينيين من تحقيق النصر · عرفوا ان عدوهم الاضعف هو عدوهم الاقوى ·

لقد تجاوزت الثورة الفلسطينية خطر التصفية على يد الصهيونية ،لقد تخطت حالة الدفاع عن النفس · فهل يعيدها العجز العربي الناتج عن مسيرة التسوية الاستسلامية الى هذه النقطة ، اذا اصر العرب على المضي في التسوية الامريكية التي تقتضي انتقال الصراع العربي ـ الاسرائيلي الى مواجهة عربية ـ فلسطينية ، للتغلب على العقبة الفلسطينية في فرض الانسجام المطلوب ؟

ان لحرب الجنوب دلالات كثيرة منها : ان الانهيار العربي الرائج يمكن وقفه بتعزيز جبهة القتال التي تشكل الضمان الوحيد لتحقيق السلام العربي · وان ارادة الاعداء تتعرض للطحن حين تتاح للثوار والجماهير حرية الحركة والقتال · وان حج الحاكم المصري الى الكنيست لا يعني سقوط القارة العربية في الهزيمة · ولكن هذا الانهيار لا يوقفه تنقيح شروط التسوية الامريكية ، ولا التضامن العربي حول طبق الرئيس الاميركي ، بل يوقفه قتال القوى الثورية ، الذي تشكل حرب الجنوب احد نماذجه الساطعة ·

وذلك يقتضي انقلاب الذات العربية على ذاتها ، فتعرف ان قتال الفدائي ليس خروجا على القاعدة ، ولكنه قتال الدفاع عن الامة بأسرها ، عن نبضها وارضها ·· ونفطها ايضا · وهكذا تكون حرب الجنوب مثالا لطريق الحرب والنصر ، لا منعطفا لسيطرة الظلام العربي على فاتحة الفجر ·

محمود درويش

اليـاس خوري

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

حـرب الجنوب

« المقاومة في يدي كالبيضة » · هكذا كان يقول الجنرال موشيه دايان · لكن ابو محمود ، الفلاح الجنوبي الذي غادر قريته وهو يقود امامه قطيع الماعز ، ويحاول ان يتسلق به البيوت التي سوتها طائرات الفانتوم بالارض ، له رأي اخر ·

ـ « لم تستطع الطائرات سوى ان تقتل نصف قطيعي » ·

طبعا تركته · تركت القطيع وهربت · ما هذا ؟ الطائرة تلاحق الافراد ؟ تبعتني طائرة ، كنت اركض · وكانت هي كأنها تركض فوق رأسي · ثم دخلت في جوف شجرة زيتون · سمعت صوت الطائرة فوق الشجرة تزمجر وكأنها اضاعت شيئا او تبحث عن شيء · ثم راحت ·

خرجت ، كان القطيع مشتتا · دماء الماعز تلون الارض والاشلاء في كل مكان · لو نستطيع ان نأكل · لكنني لا اشعر بالجوع · جمعت الباقي وركضت بهم وقطعنا النهر على زورق خشبي · كيف ابقى ؟ لم ابق خوفا على الماعز · لا اريدهم ان يأكلوها · ثم اين ابقى ؟ لقد تهدم البيت · تداعى البيت كالبيضة ·

من الزهراني الى صور ، رائحة زهر الليمون تغطي رائحة القذائف · لبنان الجنوبي في عرس الموت ، والاعشاب الخضراء تتلون بالدم والشظايا ·

انها الحرب ·

احتلوا البحر ، من الناقورة الى صيدا ، كان هذا البحر الذي ترتعش

الاسماك في داخله ، قد تحول الى بركان من اللهب · يقصفون ، القذائف تتطاير بين المياه والزبد يعلو · واحتلوا الاجواء ليلا ونهارا ، كانت الطائرات تقصف وتزمجر وتعربد ، كأن سماء العرب صارت جحيما · البحر والسماء ، ولم تبق سوى شجيرات الليمون التي تنحني من ثقل ثمارها · ولم يبق سوى الجسد الذي يقف والاذرع التي لا تنحني · وفي الطريق الطويل بين القرية التي هدموا بيوتها واجبروا سكانها على الرحيل قبل دخولها ، وبين الشقق الفارغة والخيام المنصوبة ، مسافة من الحقد والاوجاع · سيارات المهجرين ، تمموه بالاشجار والاعشاب · وعندما تتوقف امام مجموعة من الفدائيين ، يقفز الاطفال اولا ، ثم يرفع الجميع علامة النصر · لم تعد المذابح ممكنة · لقد انتهى عصر الالات التي لا تقهر والحديد الذي لا يصدأ ·

عندما كنا نستمع الى اخبار الجنود الفيتناميين وهم يتسللون الى قاعدة اميركية ، ويوقظون الجنود ، عبر ضربهم باحذيتهم المطاطية ، كنا نقول ان الانسان اقوى من التكنولوجيا · نقولها ونرددها دون ان نعي ما نقول · نرويها، كما نروي حكايات الجن لاطفالنا ، والاطفال يخافون ويفرحون ، لكن شرط خوفهم وفرحهم هو عدم التصديق · في اعماقهم ، لا يصدق الاطفال القصص لانهم يعرفون نتيجتها · والان وبعد القصف الليلي دون اضاءة ، الذي قامت به طائرة ف ١٥ الاميركية ، اصبحنا نصدق لاننا نعرف النتائج · لا يستطيع العدو ان يحتل بالطائرات او بالقصف · من اجل ان يحتل عليه ان يقاتل · وحين نقاتله نهزمه · انه ينتصر فقط لاننا لم نقاتله في الماضي · وسيهزم غدا لاننا نقاتله الان ·

وفي اليوم السابع لم تسقط صور ، ولم تسمح للجنرالات بالراحة · بقيت صور · طوقت وقصفت وتهدم الميناء · لكن السمك في البحر لم يخش القصف ولم ينسحب · الى اين تنسحب الاسماك ؟

هكذا صور ، لا تنسحب · لانها اليوم وغدا مدينة الذين لا يسقطون · مدينة الالهة والمقاتلين والفقراء · مدينة الاسماك وقذائف الـ ب ٧ · لم تنسحب صور ولم تسقط ·

امتلأ البحر · بوارجهم تقصف والشاطىء يمتد · لا يستطيع احد ان يمتلك

البحر · هكذا كان الزورق المطاطي يتجول امام شاطىء فلسطين · يرى حيفا الممتدة في البحر · يتألق في الغروب حين يصبح الافق احمر ويمتلىء البحر بتوهج الشمس التي تغرب · ومن الغروب يشرق الرجال الذين يهبطون الى المدينة البيضاء يشرقون لحظة الغروب · النهاية هي البداية · ولا بداية الا بداية الموت · لكن الرجال الذين يشرقون من الغروب لا يفكرون بالذكريات · انهم بلا ذكريات · مليئون بالذاكرة ولكنهم يعلمون ان الوجود الوحيد الممكن هو في المستقبل · يشرقون ويرمون الذكريات لاعدائهم ، يتركون لهم الماضي ويمشون الى المستقبل ·

من الغروب ، حيث يتألق البحر ويبتلع الشمس ويحجب الرؤيا نولد ، ونخرج من البحر نحتل المستقبل ·

الطريق طويلة والحرب طويلة ، وهؤلاء الرجال الذين يخرجون من البحر ، هم بدايات هذا الشرق الذي يغلب ·

انها الحرب ·

احد المقاتلين يجلس بين الاعشاب وامامه كوب الشاي الساخن ، يدخن · يبتسم · ــ « لا · انهم لا يريدون القتال » · جبل نار ، حرائق ومفرقعات ثم يتقدمون بعد التأكد من انهم قتلوا كل شيء · الاعشاب والاشجار والحشرات · يريدون القضاء على كل شيء · هذا هو شرطهم للتقدم · يأتون بعد ان تفرغ القرى وتتهدم البيوت ويموت كل شيء ·

انهم لا يريدون القتال ·

جيش تأصلت فيه عقدة التفوق · دولة هي مجرد جيش وملحقاته · الجيش هو اثمن شيء في الدولة ، والدولة بأسرها في خدمة الجيش · لذلك يجب ان لا يضحى بالجيش · يجب ان لا يموت الجنود · يجب ان ينتصر الجيش دون ان يقاتل · فوجئوا في تشرين بأن الحرب تقتل · لذلك ارادوا ان يتجنبوا الموت هذه المرة ·

لكن الحرائق التي انتشرت من البحر الى العرقوب كانت زمنا للذين يقبضون على الموت · فالرجال الذين يطلعون من هذا الغروب ، كانوا يقفون بعد جرحتهم الهجرات ، بين الموت والموت · فصنعوا من الموت علامة · وفرضوا على الجيش الذي هو اثمن من الدولة ان يقاتل مرة اخرى · ان يعترف بانه فوجىء بالالغام والاجساد · ان يتراجع ويناور · وكانوا هم ، اجمل فتية العرب ، يرفعون بنادقهم وينغرسون في الارض ، ويتدفقون شلالات دم وماء ·

انها الحرب

العميد الركن سعد صايل مدير العمليات المركزية في الثورة الفلسطينية ، **يلخص الحرب** ، من مقره في غرفة العمليات على الشكل التالي :

لقد بدأت تحشدات العدو على طول الحدود قبل ١٢ اذار ٠ وكانت المعلومات التي تصلنا عن حجم الحشود ، تشير الى ضخامتها الى درجة اننا كنا ميالين الى عدم الاخذ بها ٠ ثم ظهر ان هذه الحشود تشير الى تبذير كبير في القوات الصهيونية والنيران ، وهدف العدو هو انهاء عمليته بسرعة ٠

تقديراتنا للقوات التي جرى حشدها تشير الى المعطيات التالية :

١ـ فرقة ميكانيكية ٢٠ ـ لواء مدرع ٣٠ ـ اسناد العملية بسربين من الطائرات وقوة بحرية لا يقل تعدادها عن ١٥ قطعة بحرية ٠

وبالاضافة الى هذه القوات ، كان هناك حشد اخر داخل الارض المحتلة بهدف تبديل القوات ٠ التبذير والمبالغة في تحشدات العدو ، هي عامل لم يستطع العدو التخلي عنه طيلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وهو يشير اساسا الى استهتاره بالقوات التي تقاتله ٠

في الدقيقة الاولى بعد منتصف ليل ١٢ـ١٤ اذار ، بدأ العدو قصفا تمهيديا ، مدفعيا وصاروخيا وبالطيران على القرى الحدودية وعلى كافة القواعد الامامية لقواتنا ٠

عندما بدأت تصلنا المعلومات ، عبر مشاهدات مراقباتنا ، قمنا ، بتغيير قسم كبير من اماكن القواعد ٠ وقد استمر القصف التمهيدي المعادي حوالي ساعة ٠ حجم المدفعية الملحقة بالقوات المعادية هو مدفعية فرقة زائد ٠ اما عدد كتائب المدفعية فلا يقل عن سبع كتائب ، وهي كتائب مدفعية مختلطة ، مدافع ميدان ومدافع بعيدة المدى ٠ خطة نيران العدو كانت منسقة ، تجمع بين المدفعية البرية والطيران والبحرية ٠ وبعد انتهاء القصف بدأ العدو هجومه في القاطعين الشرقي والغربي ٠

بعد تقدمه على المحاور ، بدا هدفه واضحا ، في القاطع الغربي : الاطباق على مدينة صور كهدف حيوي ٠ اما في القاطع الشرقي : فقد تقدم العدو شمالا وتم ايقافه عند نقطة خط سوق الخان ٠

منذ اللحظات الاولى ، بدا واضحا لنا ان هدف العدو ليس محدودا في رقعة الارض ٠ لكن الهدف الرئيسي ، كان تدمير قوات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ٠ وقد اتضح هذا الهدف منذ اليوم الاول للقتال ٠

قبل ان يبدأ العدو عملياته العسكرية هذه في الجنوب بمدة طويلة ، كان المجلس

العسكري الاعلى للثورة الفلسطينية ، يضع في الاحتمال امكانية قيام العدو بغزو جنوبي لبنان وكانت التوجيهات التي وضعها المجلس هي :

١ ــ اعتماد اسلوب القتال غير المباشر · والذي املى علينا هذا الاسلوب ، هو حجم القوى ، وطبيعة قوات الثورة وطبيعة قوات العدو ، من حيث التسليح والامكانيات المتوفرة لدى كل طرف ، وكذلك طبيعة الارض ·

٢ ــ القتال بمجموعات صغيرة لا تتعدى خمسة عناصر · نتمسك ببعض النقاط الحيوية في قتال تراجعي ، الغاية منه فرض اكبر وقت لاعاقة العدو وانزال الخسائر في صفوف قواته ·

لقد اعطي هذا التوجيه لجميع قادة القوات · وكان التوجيه يقضي ايضا بان يزج بثلث قواتنا في الخطوط الخلفية للعدو ، اما الثلثان فتمسك ببعض النقاط الحيوية في المنطقة سواء في القاطع الغربي او الشرقي · وقد تم تطبيق هذا التوجيه في القاطعين ·

والملاحظ ، ان موقف العدو كان صعبا في القتال نتيجة هذا الاسلوب ، رغم كثافة نيران قواته · اي ان قوات العدو لم تكن تجد امامها هدفا مجمعا لقواتنا تستطيع ان تضربه ضربة واحدة ·

اما موقف قواتنا ، والتي تشكل قوات العاصفة عمودها الفقري ، فهي تمتلك اسلحة خفيفة مضادة للطائرات ، وتساندها مدفعية مختلطة · النسبة بين عدد القوات في الطرفين كبيرة جدا ، ١ الى ٢٠ في الجانب المعادي · اما بالنسبة للتسلح وكثافة النيران فهي خارج كل امكانية تقدير ·

لقد كانت معارك الايام السبعة في الجنوب حربا حقيقية ، ولم تكن مجرد عملية · وقام العدو في هذه الحرب باستخدام كافة الاسلحة الحديثة · واجرى تجارب عملية على الاسلحة التي وصلته حديثا ، صواريخ ارض ارض وطائرات ف ــ ١٥ ، التي لاحظنا قدرتها على القصف الليلي دون انارة ، بينما تحتاج طائرات الميراج والسكايهوك الى الانارة كي تستطيع القصف ليلا ·

كثافة النيران

اسلوب العدو في القتال ، هو اسلوبه نفسه منذ بداية الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، **الجندي ثمين جدا** · لذلك تستخدم كثافة نيران هائلة قبل تقدم المشاة الى الموقع ·

القتال الليلي

الواقع ان الجيش الصهيوني يتقن القتال الليلي · وقد جرى التركيز على هذا القتال منذ انشائه · والاسلحة الحديثة التي حصل عليها مؤخرا كانت عاملا

مساعدا في هذا القتال · لكن رغم ذلك ، فقد وقع العدو في خطأ كبير عندما شن هجماته في الليل · فطبيعة اسلوبنا في القتال ، تعتمد اساسا على القتال الليلي · وبالنسبة لنا ، كان القتال الليلي افضل خاصة في المناطق التي توجد فيها سواتر طبيعية · ونحن نعتقد ان العدو اضطر الى استخدام القتال الليلي بشكل مكثف لاسباب سياسية ، وهو الوصول الى هدفه بسرعة ·

عدم تناسق المحاور

لم تكن سرعة تقدم العدو على المحاور المختلفة متساوية · رغم انه حاول تدارك ذلك عبر انزال مشاة بواسطة طائرات عمودية لدفع المحور البطيء · طبعا، كان العدو يخطط لمحاور متناسقة · لكنه لم يبذل جهدا متساويا على جميع المحاور، وقد دفعنا هذا الى الاستنتاج بأن الزخم الذي يضعه العدو على المحاور الرئيسية هو بهدف تدمير قواتنا · وهو الذي يطلق عليه عادة اسم **تفتيش وتدمير** وهو الاسلوب الذي تستخدمه الجيوش النظامية الغربية من اجل تدمير حرب العصابات ·

القوات البرية ·

الدور الاول في العملية كان للقوات البرية : المشاة بانواعها ، الدروع ، وحدات الاسناد المدفعية والهندسة · الدور الثاني كان للطيران · الدور الثالث، وهو ثانوي وغير كبير الفعالية كان للبحرية · لقد حاولت القوات البحرية القيام بانزال بين العزية والحنية ، بهدف اقامة رأس جسر على البر ، لكنها لم تتمكن·

الطيران

لقد استخدم الطيران بكثافة غير عادية · لم تنقطع النيران عن الاهداف التي ضربها العدو · لعب الطيران دورا رئيسيا، لانه لم يستهدف المقاتلين فقط، بل استهدف ايضا مراكز العمق المدنية والهدف من ذلك هو اخلاء المنطقة من المدنيين · الطيران هو السلاح الوحيد الذي كان يعمل **بحرية شبه كاملة** · الغاية من استخدام الطيران هي ضرب اهداف عميقة في كل الاراضي اللبنانية ، وتقديم الدعم للمشاة · فقد لوحظ انه عندما تتصدى احدى مجموعاتنا للمشاة ، ينسحبون ، ويأتي الطيران · وقد وصل الامر احيانا بقوات العدو الى التمرد على أوامر التقدم ، وطلب اسناد الطيران · لقد حدث هذا في مواقع عدة : راشيا الفخار ، بنت جبيل ، حاريص ، كفرا ، جويا ، مثلث دير دغيا ·

الاسطورة

عمت أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر ، نتيجة عدم وجود تصميم سياسي على القتال · الحقيقة ، ومن دون اية مبالغات ، فهذه هي احدى المرات

القليلة التي يقاتل فيها العدو قوات مصممة على القتال · واسرائيل الان سوف تكون مجبرة على اعادة النظر في حساباتها · في حرب حزيران ٦٧ ، لم تـــر الاكثرية الساحقة من القوات العربية جنديا اسرائيليا · تمت الهزيمة دون تماس مع العدو الا في بعض النقاط القليلة ·

ارادة القتـــال

ارادة القتال والتصميم هي سلاحنا الرئيسي ·· اسلحتنا المادية ليست سرا على العدو · انها اسلحة متواضعة وعادية · السلاح الاكبر هو موقف الجماهير اللبنانية والفلسطينية في المخيمات والقرى · فرغم جميع الهجمات ، فقد بقـــي موقفها صلبا ورائعـــــا ·

والجنرال غور رئيس اركان الجيش الصهيوني **يعترف** ·

ففي مؤتمره الصحفي الذي عقده يوم ١٧ـ٣ـ٧٨ ، اختفت لهجة التبجـح ، واصبح الجنرال يتكلم في السياسة ، كي يضع اللوم على السياسة نتيجــــــة عدم تمكنه من تحقيق اهدافه خلال ٤٨ ساعة كما صرح قبلا · لكنه يعترف ·

الفدائيون يحسنون زرع الالغام ·

« ان اكثر من نصف عدد القتلى الذي وقع في صفوفنا ، كان نتيجة اصطدام وحداتنا ببعض الالغام المزروعة ، لان الفدائيين زرعوا الالغام بصورة ماهـــرة جدا في بعض المناطق · وتم تمويهها في وسط الشارع وعلى جانبيه بشكل جيد»·

·· ويقاتلون بشراسة

« قاتل الفدائيون بشراسة في بعض الاماكن ·· قرب بنت جبيل كانت هنـــاك قاعدتان ، وحدث قتال ضار · وربما هرب عدد من الفدائيين نتيجة القصف · غير ان المعارك التي جرت هناك كانت ضارية بالفعل ، وذكر لي الجنود الذين اشتركوا في تلك المعركة انهم شعروا بانهم يقاتلون اهدافا محصنة وقد استخدم الفدائيون مختلف الاسلحة » ·

··· ومن بيت الى بيت ·

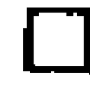
« مثلا في مارون الراس ، بعد القصف واقتراب قواتنا من بيوت القرية بعد ان تم تدميرها ، وبعد ان اوشكت قواتنا ان تدخل تلك البيوت ، عندها فتحـــت

نيران الفدائيين بكثافة ، وكان لا بد من اقتحام البيوت بالمشاة من اجل تطهيرها ٠ وقد حدثت اصابات في صفوفنا ٠٠ وكان قتال الفدائيين شرسا ٠

وفي بنت جبيل ، وعلى الرغم من القصف المدفعي وقصف الدبابات والطائرات كان هناك بيوت كثيرة لا بد من تطهيرها لتواجد الفدائيين فيها ٠ وفي بعض الاحيان ، لم يكن امام قواتنا اي بديل عن اقتحام بعض البيوت لتطهيرها وقد تعرضنا لاصابات » ٠

٠٠٠ ويصمدون

« وقد اتضح من خلال محادثاتي مع الجنود ، ان المعارك في عدد من القرى جرت من بيت لبيت ، وداخل البيوت نفسها ، وكان القتال بالغ الصعوبة ٠ »



« المنتصر هو الذي يملك اللغة » ٠

ولكن في عصور الحروب المتصلة ، وفي ازمنة انهيار التوازنات ، تسقط اللغة المنتصرة ، وتهجم التفاصيل الى اللغة ٠ تصبح اللغة هي لغة التفاصيل ٠ لغة الانهيارات والولادات ٠ لان المنتصر لم يعد منتصرا ، والتوازنات التي فرضته سقطت ، والحرب مستمرة ٠

هكذا تهجم التفاصيل الى اللغة ٠ وتصبح الكلمات جديدة ٠ ويمتليء الافق بالاحتمالات ٠ فالموت هو مجرد موت ، والحرب هي مجرد حرب ، والليمونة تروي الظمأ والعيون الجميلة تشعل الرغبات ٠

ومنذ ثلاث سنوات ، وبعد كل عدو جديد يدخل ٠ كانوا يبشرون بنهاية الحرب التي لم تبدأ بعد ٠ وكان الرجال المحشوون قشا ، يهزون رؤوسهم وهم ينظرون الى ظلالهم الشاحبة ويبتسمون ، مثل الاساتذة الذين يشمتون بطلابهم بعد ان يضربهم الشرطي ٠

لكن ومع كل انعطافة ، كانت الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، تجد شلالات من التفاصيل التي تصنع الحروب ٠ وكانت تقاتل باسم العرب باسرهم ومن اجل الجماهير العربية باسرها ٠ كانت جماهير المخيمات والقرى والاحياء الفقيرة ، تعلم ان العرب لم تستسلم ٠ وان لحظة التراجع هي بداية الزلازل التي ستحيل المشرق الى بركان من اللهب ، لذلك كانت تحشد التفاصيل، وتقاتل ٠ وكل مقاتل يحمل معه حقله الذي تحرقه الطائرات ، واحلامه التي يصنعها ببطء وهدوء ٠

حرب الجنوب ، ليست الحرب الاخيرة · لكنها احدى الحروب الاولى · وهي مليئة بتفاصيل البطولة التي لا تتسع لها اللغة·والتفاصيل صنعها ويصنعها رجال حقيقيون · لهم اسماء واباء وزوجات واطفال وصديقات · لكنهم قرروا ان يقتحموا السماء · واكتشفوا ان الاشياء الكبيرة هي اصغر الاشياء واكثرها بساطة · تماما مثل الاسئلة الحقيقية التي تنطلق اولا من البديهيات ·

تفاصيل حرب الايام السبعة في تفاصيل مثيرة ببساطتها · مثيرة من شدة التصاقها بما نعرفه لكننا لا نعرفه ·انها المسافة بين الحياة ورمزها ·لكن المسافة تضيق لتصبح الحياة هي رمزها · هكذا يعلمنا ابو وجيه في استشهاده · فابو وجيه تعرفه جميع الطرقات السرية المؤدية الى تل الزعتر · ويعرفه جميع المقاتلين الذين اخترقوا الجبال والوديان من اجل الوصول الى تل الزعتر · والان صار يعرفه الجنوب ، لانه عرف فيه تلك البساطة وهذا التوهج الذي يتعامل مع الموت كما يتعامل مع اكثر اشياء الواقع مباشرة · هكذا يسقط الرجال ، يسمرون اعينهم في الضوء ويتساقطون شلالات ضوء ·

هكذا لا يموت الفدائيون حين يموتون · صنين اجمل الجبال · برتقالي وابيض وسري مثل الفدائيين · وفي الافق الممتد من صنين الى الجنوب ، سقط الرجال، وصنعوا ملحمة من الابداع الجماهيري الذي لا ينقطع · لم يستشهد ابو وجيه وحده · الى جانبه كانت البنادق وكانت الاجساد التي تواجه الطائرات · ولن ينتصر ابو وجيه وحده · فالى جانبه وامامه سوف ينتصر الفقراء حين تشرق شمس الفقراء ، التي يصنع توهجها هذا الموت الفلسطيني اللبناني الذي لا يحدده شيء ولا يستطيع شيء ان يحيط به ·

التفاصيل التي يرويها المقاتلون عن حرب الجنوب ، تحتاج الى تاريخ خاص بها · الى كتابة اخرى لا تخوننا كما تخوننا الكتابة · ونحن هنا لا نؤرخ · نكتب فقط على هامش الموت العربي الكثير احتمالات الولادة · ونترك التفاصيل ان تتحدث ·

مارون الراس

في الثانية عشرة ليلا بدأ الطيران عملية قصف مركز لمارون الراس ، كان القصف تدميريا · لم يبق بيت في القرية · في الثالثة صباحا قام العدو بعملية انزال للمشاة بين مارون الراس وبنت جبيل · مجموعاتنا انتشرت خارج البلدة· وعندما بدأت المعركة على مداخل البلدة ، استطاعت احدى مجموعاتنا التي كانت قد اخلت مواقعها القديمة باتجاه الحدود ان توقع بسرية من جنود العدو في المصيدة · لقد توقعوا الهرب · لكننا تقدمنا من اجل ابطال فعالية الطيران وفاجأناهم من حيث لا يتوقعون ·

بنت جبيل

كانت معركة تلة مسعود وتلة شلعبون احدى اشرس المعارك التي فرضت على قوات العدو · تم تبادل تلة مسعود اربع مرات متتالية بين القوات الصهيونية والقوات المشتركة · كما امكن مشاهدة اربع جثث اسرائيلية داخل دشمة الدوشكا · اما تلة شلعبون فقد تمكنت القوات الصهيونية من تطويق الموقع اكثر من مرة ثم اجبرت على التراجع · وبعد كل تراجع للمشاة كان الطيران يتدخل ·

القنطرة

تعرضت القنطرة لـ ١٧ غارة جوية · وبعدها بدأ التقدم الالي · هوجمت القنطرة بحوالي سريتي اليات · ولم يستطع العدو دخولها الا بعد اعطاب سبع آليات ·

جويا

يروي احد المقاتلين في صفوف القوات المشتركة تجربته الشخصية في معارك جويا · انقسمت مجموعتنا المؤلفة من ستة عناصر الى مجموعتين صغيرتين · المجموعة مزودة بقاذف بـ ٧ وبناق كلاشينكوف · يوم ٣/١٩ ، الساعة السابعة الا ربعا صباحا تقدمت اربع آليات · رمينا على الدبابة الاولى قذيفة بـ ٧ فأصيبت في مؤخرتها واشتعلت · الدبابات الخلفية تراجعت وبدأت بالرماية بنيران الرشاشات · تراجعنا الى البلدة ، جاءت الطائرة وقصفتها ، انسحبنا ، وفي الليل عدنا الى جويا وسحبنا بعض تجهيزاتنا · الملاحظة الرئيسية هي ان الجنود الصهاينة لا يغادرون آلياتهم ·

العباسية

تعرضت العباسية لحوالي ٦٠ طلعة طيران عدوة ، وتم تدمير القرية · وقد تمكنا على مداخل القرية من ايقاف تقدم العدو حوالي ست ساعات ، وحدثت اشتباكات عنيفة ·

راشيا الفخار

العرقوب · حيث الصمود ، ومحاولات العدو المتكررة لدخول القرية ، وحيث عمل الطيران بكثافة وصمد المقاتلون ببطولة دفاعا عن العرقوب ·

صـور

صور وحدها تحتاج الى شهادات لا تنتهي · في كل موقع قصة · وعلى كل الشاطىء ملحمة · وفي الاسواق الداخلية التي قصفت لحظات كبيرة · اطبقوا على صور من جميع الجهات ، ولكن صور كانت تقاوم · وكانت تهيء لهم استقبالا حافلا ، لكنهم لم يدخلوها · قصفت صور وشوارعها ومخيماتها كما لم تقصف مدينة ، لكنها لم تركع · احد المقاتلين كان يطلق على الطائرة المغيرة ببندقيته الكلاشينكوف · لكنها غير مؤثرة · اعرف ذلك يجيب المقاتل ، لكنني اطلق النار كي اقول لهم اننا لا نزال هنا ؛ واننا لم نهزم · البحر في صور تحول الى لهب · والمقاتلون ينتشرون على الشاطىء وبين البساتين ويطلقون على البوارج المعادية بمختلف الاسلحة · ولم تسقط صور ·

اسماء القرى هي اسماء المعارك . في كل قرية معركة · والعدو يشعل الارض بالنيران ، المشاة والقوات المدرعة تتراجع الى الخلف عند سماعها الطلقات المؤثرة وتستدعي الطيران · هكذا سقطت الطيبة ، وهكذا سقطت مجموعة كبيرة من القرى · يقوم العدو باحراقها بالنيران ثم يتقدم ، وحين يواجه بمقاومة تعاود الطائرات الهجوم ثم يتقدم · والقوات المشتركة تقوم بقتال اعتراضي وحرب عصابات فعالة ، اذا تجمع العدو ننتشر · حرب عصابات حقيقية · هكذا يروي مقاتلو المنظمات ، فتح ، الشعبية ، الديمقراطية ، ومقاتلو الحركة الوطنية · وخلف خطوط العدو حدثت مواجهات لا تحصى · مجموعات كبيرة من المقاتلين حوصرت ، ثم كسرت الطوق ، قامت بمسيرة طويلة في الجنوب ، قاتلت واشتبكت وفاجأت العدو حين كان يعتقد ان المعركة انتهت في احد المواقع ، ثم انسحبت ·

احد المقاتلين كان يروي كيف استطاع اعطاب آلية للعدو · انبطحت ، وكان الشوك · وضعت قاذف الـ ب ٧ بين الشوك ، صوبت واطلقت · كانت هذه هي المرة الاولى التي استخدم فيها هذا السلاح · فاحترقت الدبابة · اشتعلت كالعشب اليابس . فكرت ان المسألة بالغة السهولة · غطى الرفاق انسحابي ، انسحبت ، ثم فوجئنا ان الدبابات الاسرائيلية تنسحب هي الاخرى · عدنا الى الموقع وجاء الطيران ·

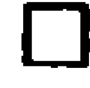
ـ هل تعلم كم ثمن الدبابة ؟

ـ لا ·

ـ مليون دولار ، اي ثلاثة ملايين ليرة ·

ـ انا مليونير اذن · ابتسم المقاتل · استطيع ان اشتري جميع اراضي القرية بهذا المبلغ ·

من الناقورة الى العرقوب ، تنتشر البطولات · وينتشر الـــدم اللبنانـي ــ الفلسطيني · وتمتد الهجرات وتتسع ·لكن قوى التحدي العربي على ارض لبنان، اثبت مرة اخرى ، انه لا يمكن سحقها · وان المسألة بالغة التعقيد ، وان المنطقة العربية ، تشهد بداية تحول عميق ·



توقفت حدة المعارك ، وابتدأ تطبيق قرار مجلس الامن القاضي بانسحــاب الصهاينة ، وحلول قوات دولية على الحدود اللبنانية ــ الفلسطينية ·

هكذا تقودنا الحرب الوطنية من جديد الى الازمة اللبنانية · وهكذا بعد دخول قوات الردع العربية ، يدخل طرف جديد مدعوم دوليا ساحة الصراع في لبنان، وتبدو المسألة اكثر تعقيدا ·

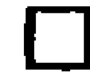
الملاحظات الاولية التي نخرج بها ، من التطورات التي رافقت واعقبت حــرب الجنوب تتلخص في ثلاث نقاط :

النقطة الاولى : هي ان تطبيق قرار مجلس الامن يعني اولا **انسحابا اسرائيليا** · فرغم المطامع الصهيونية في الجنوب وفي مياه الليطاني تحديدا ، فان القــوات الاسرائيلية تجد نفسها مجبرة على الانسحاب · وهذا لا يعود الى الصداقــات والحمايات الدولية ، بل يعود اولا الى عنف المقاومة وشراسة القتال ، التـــي ستجعل من بقاء العدو الصهيوني في الجنوب مكلفا للغاية ، ويعرض الوجــود الصهيوني لاخطار لا يستطيع تفاديها الا في الاندفاع نحو حرب شاملة ، ســوف تضع المشروع الاميركي للهيمنة على المنطقة العربية في مهب الريح · وهي تعني ثانيا ، **دخول قوات دولية** ومحاولة القوى المعادية شن هجوم سياسي واسع على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية ، بهدف دفعهما الى الزاوية · وهذه مسألــة بالغة الاهمية ، وهي سوف تشكل ارضية صراعات بالغة العنف على المستــوى السياسي وربما على مستويات اخرى ·

النقطة الثانية : هي ان اعداء الثورة ، لا يستطيعون شن هجماتهم عليهـــا مجتمعين · فالقبضة الامبريالية لم تعد تستطيع احكام سيطرتها على الصراع · والحلفاء الذين انيطت بهم مسألة تصفية المقاومة يترددون ، ويحاول كل منهم دفع الاطراف الاخرى الى الصدام · واذا حقق احد الاطراف انتصارات محدودة ، فانه يضر بمصالح الاطراف الاخرى ·وهذا يعني مأزقا لمشروع الهيمنة الاميركية على الوطن العربي · وهذا يقود الى حقيقة رئيسية ، فان الطريق الوحيد مـــن اجل اسقاط هجمة الاعداء ، **هي متابعة القتال ضد العــدو الصهيوني** وفي مطلق الظـــروف ·

النقطة الثالثة : هي ان حل ما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ، هو امر بالغ الصعوبة · فلقد سقط التوازن الاستعماري القديم الذي كان قائما على معادلة سايكس ـ بيكو التجزيئية · ودخلت المنطقة عبر الصراع العربي ـ الاسرائيلي في اشكاليات صراعات مفتوحة ، لم تتبلور معالمها بعد · فمن اين يأتي توازن جديد · ومن سيكون سايكس ؟ ومن سيكون بيكو · وهل تستطيع الايدي الامبريالية ان تتلاعب من جديد وبسهولة بمصير الشرق العربي ، وعلى ماذا يتم اتفاق سايكس ـ بيكو جديد ، قرب آبار النفط المشتعلة ، وامام حركة الجماهير التي تصبح تدريجيا طرفا في المعادلة ، **والجماهير حين تدخل المعادلة لا تدخلها بل تقلبها ·**

هذه الملاحظات الاولية تقود ، وانطلاقا من تجربة الحرب التي لم تتوقف منذ نيسان ٧٥ بمراحلها المختلفة الى صياغة اسئلة حقيقية ، وطرح اشكالية جديدة للنظر الى الصراع على الارض العربية ·



منذ البداية ، وهم ينتظرون الصهاينة ، ويعتقدون انه لم يعد امام حركة الجماهير الفلسطينية ـ اللبنانية الا الاستسلام ، او التقهقر من الناقورة الى مقبرة الشهداء ·

وعندما دخل الصهاينة طرفا ، اكتشف الجميع انهم مجرد طرف جديد ـ قديم، وان هذا الطرف يستدعي اطرافا دولية اخرى · وان معادلة الصراع ليست بالبساطة والسهولة التي توقعها الجميع ·

والحرب طويلة · بدايات للذي لم يبدأ بعد · وافق للافق الذي يلوح على فوهات الدم · ورهان موتنا ليس على الموت · انه رهان على القارة العربية التي تحبل احشاؤها بالجديد الوطني الجذري ، وعندما تتحرك احشاء هذه القارة وتنفض عن جسدها الهزائم والقهر والاستبداد ، فان النيران التي اشعلت في لبنان وفلسطين ، تكون بداية للحرائق المقبلة ·

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

الكرامـة الجديـدة

□ على طريق نضالنا في الثورة الفلسطينية فان الهدف يبدو واضحا · العدو يحتل ارضنا · واجبنا اذن ، هو تصعيد الصراع معه · ووسيلتنا الاساسية في هذا هي الكفاح المسلح · ومنذ بدأنا مسيرة الكفاح المسلح ، ونحن في فتح وفي الثورة الفلسطينية ، نخوض المعارك ونواجه المؤامرات دفاعا عن حق الثورة في النضال ·

منذ انطلاقتنا عام ١٩٦٥ وحتى هزيمة حزيران ٦٧ ، كان منهجنا في التعامل مع العدو يقوم اساسا على الدوريات الصغيرة ، الكمائن وزرع الالغام في مختلف مناطق الوطن المحتل · كنا نؤمن ان الطلقة الاولى ليست هدفا بحد ذاته ، بل هي اولا وسيلة من اجل تعبئة شعبنا ، وتجسيد ارادته في مواجهة العدو · وخلال مسيرتنا النضالية كانت تتضح امام شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية حقائق كبيرة · طبعا ، لم يكن العمل في بدايته مؤثرا على المستوى العسكري · ولم نكن نملك الامكانيات · اذكر ، اننا في بداية الانطلاقة ، كنا نبحث عن كمية صغيرة من المتفجرات ولا نجدها · الشهيد النقيب محمد حشمة كان ينطلق الى الحدود التركية من اجل ان يشتري ١٠ كلغ من المتفجرات التي كنا نفرح بها · تساءل الكثيرون عن الجدوى من عملياتنا العسكرية التي وصفت بالسطحية · نضع عبوة ناسفة الى جانب بيت ، تنفجر العبوة ولا يدمر البيت · فقط شظاياها تفتح ثغرة في جداره · العملية العسكرية لم تكن مطلوبة بالنسبة لنا لفعاليتها · كنا نوزع الكمية القليلة من المتفجرات على مجموعات كثيرة ، من اجل العمل في جميع ارجاء الوطن ونجسد بالتالي نضالنا امام شعبنا · ونجسد كذلك امام عدونا معنى الوجود الفلسطيني · **لقد بدأ شبح**

الضحية يستفيق · لقد كان لعملياتنا وقعها في بث الرعب في عمق الوجـــود الصهيوني · يتجسد هذا في مجموعة من العمليات ، تمت احداها في مستعمرة العفولة التي يقدر عدد سكانها بـ ٤٠ الف مستوطن · لم يكتـــف المقاتـل الفلسطيني بوضع العبوة الصغيرة في بيت على اطرافها · لكنه دخل الى قلبها، الى محطة الكهرباء ووضع العبوة على المحرك · لقد جعلت هذه العبوة ، كمـا اشارت الهيرالد تريبيون يومها ، من الاربعين الف صهيوني يخرجون مذعورين بثياب النوم ، وكل منهم يعتقد ان انفجارا سوف يحدث في منزله ·

بدأت هذه الامكانيات الضئيلة تنمو عبر النضال ، كما بدأت اساليبنا القتالية تتطور ، ومعها كان عملنا يمتد سواء عبر الحدود الاردنية او على امتـــداد الحدود اللبنانية او حدود قطاع غزة · ومع تطور العمل كنا نواجه العقبـات الكبيرة على الحدود العربية · في الاردن : امتلأت السجون بما يزيد على الـف مقاتل ، لم يطلق سراحهم الا في اليوم السادس من حرب حزيران · الشهيـد احمد موسى سقط برصاص الجيش الاردني · والشهيد تركي كنعان ، جـر جريحا بالصفحات الاردنية في الاغوار حتى الاستشهاد · في لبنـان : اذاق زبانية المكتب الثاني مناضلينا الويل · فسقط الشهيد جلال كعوش والشهيـد عطا الدحابرة · وفي غزة : كسرت ايدي المقاتلين في السجون ·

مرحلة اولى مليئة بالمرارات والمعاناة والالام ، تخطيناها بالتصميم عـلى الاستمرار بالنضال مهما كانت الصعوبات · واستطاعت هذه المرحلة ان تجسد الوجود الثوري كحقيقة والكفاح المسلح كمنهج · واصبحت هذه الحقيقة واضحة امام شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية وامام عدونا الصهيوني · بمعنى ، انها جسدت الشخصية الفلسطينية المناضلة ، بعد فترة طالت ، كان فيها النضـال حبيس الانفعال العاطفي او النضالات داخل الاحزاب من منطق اصلاحي ، يدعو الى اصلاح الواقع العربي اولا ·

في نهاية هذه المرحلة ، برزت عمليات عسكرية ذات تأثير ضد جيش العدو ، دفعته الى القيام بعمليات الانتقام والحشد في مواقع عدة على الحدود العربية ، كان اخرها الحشد على الحدود السورية ، الذي تطور فيما بعد ، الى ان وقعت حرب حزيران ٦٧ ·

عندما وجدنا انفسنا امام نتائج حرب حزيران ، وفي اليوم الثامـن لاندلاع الحرب ، عقدت قيادة فتح اجتماعا تدارست فيه الواقع الجديد · لم يكن هناك اي تردد ، بل كان القرار حاسما وفوريا : ان الطريق هي استمرار الكفـاح المسلح وتصعيده · خاصة وان واقعا جديدا قد نشأ · لقد اصبحت ارضنـا بأسرها تحت الاحتلال · وقاعدة النضال الشعبي موجودة ، وهي تواجـه الان العدو الصهيوني ·

كان جوابنا ، هو ارسال الرسل الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، للاتصال بأوسع اعداد ممكنة من ابناء شعبنا ودعوتها للالتحاق بالنضال · وبدأت افواج بالمئات العديدة تصل الى معسكرات التدريب التي كانت في سوريا انذاك · واصبح معسكر الهامة مركزا للتجمع · يدخلون دورة عسكرية مكثفة لايام عدة ، ثم توزع عليهم الواجبات ، ويزودون بالعتاد وينطلقون عائدين الى الوطن المحتل · موجات اطلقنا عليها اسم موجات الثقة والامل · وبدأت هذه المجموعات تنتشر داخل الارض المحتلة ، بما لديها من سلاح · وقد تمكنا من الحصول على السلاح عبر عمل مواز ، قمنا فيه بارسال دوريات ، الى مناطق القتال بين الجيوش العربية والعدو الصهيوني ، حيث كنا نجمع الاسلحة من بقايا المعركة ، ونأتي به الى قاعدتنا في الهامة انذاك · نأخذ منها ما يتناسب واسلوبنا القتالي ، اما السلاح الثقيل الذي لا نستخدمه فكنا نسلمه للاخوة العرب ·

كان الشهيد الملازم خالد ابو العلا ، يدخل بسيارته الى بقايا المعسكرات في المناطق المحتلة ، يجمع منها بقايا الاسلحة ويعود · وكذلك في سيناء والضفة الغربية · وفي أول ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ ، اي بعد حوالي ثلاثة اشهر من الهزيمة ، بدأنا الانطلاقة الجديدة بعمليات مسلحة داخل الوطن المحتل ، شملت معظم المناطق : القدس ، تل ابيب ، غزة ، رفح ، بئر السبع ، حيفا وبقية المناطق · تطورت هذه العمليات الى ان وصلت فيما بعد الى صدامات واسعة مع الجيش الصهيوني ، كمعارك بيت فوريك وطوباس وغيرها · قام العدو على اثرها بحملات تمشيطية للقواعد الارتكازية التي اقمناها في عمق الوطن · مما دفعنا الى الغاء القواعد الارتكازية واستبدالها بقواعد سرية · تلاها دوريات كانت تحمل الاسلحة والامدادات الى القواعد السرية هذه · وعبر مسيرتنا الى الوطن المحتل ، بدأنا نقيم بعض القواعد الارتكازية بالقرب من نهر الاردن · وقد حاول النظام الاردني التعرض لها اكثر من مرة · وقام رجاله بأكثر من حملة للقضاء على تجمعاتنا في الاغوار · ولكنه فشل بفضل يقظة الثوار ، ومساندة ضباط وجنود احرار داخل الجيش الاردني ، وبفضل انتفاضة جماهيرية في المخيمات · بعد هذا الفشل ، بدأ العدو الاسرائيلي يحشد قواته للقيام بدور المطرقة من اجل سحق وجودنا في تلك المنطقة ·

وكانت معركة الكرامة

كانت ارادة العدو ، تريد سحق وجود القاعدة الثورية وانزال اكبر الخسائر في صفوفنا ، من اجل انهاء قدراتنا وامكانياتنا · وفي المقابل كانت ارادة الثورة واضحة : لم تواجه هجمات عدونا بالصمود · لقد هزم الجيوش العربية سيكولوجيا قبل ان يهزمها على ارض المعركة · كان القرار ، هو ان نميط

الشام عن حقيقة غابت ، هي ان الانسان العربي بارادته وتصميمه قادر على مواجهة هذا العدو والتصدي له · لقد كانت معركة الكرامة قرار مواجهة وتضحية ، ولكن بايمان من يصنع حقيقة جديدة يمكن ان تكون نقطة تحول في تاريخ ثورتنا الفلسطينية ونضالنا العربي · وكانت معركة الكرامة نقطة تحول حقيقية ، رغم امكاناتنا المتواضعة واعدادنا القليلة ، حيث خسرنا حوالي ٩٧ شهيدا وبعض الاسرى والجرحى (كان هذا العدد يشكل انذاك اكثر من نصف قواتنا) الى جانب تدمير مخيم الكرامة ، وتشريد سكانه · الا ان هذه المعركة اعطت في تاريخ النضال الفلسطيني والعربي دفعة جديدة الى الامام · وهيأت للثورة الفلسطينية القدرة على النمو · اذكر على سبيل المثال ، ان كمية التبرعات من التموين والتجهيزات التي وصلتنا من ابناء شعبنا في الاردن او في انحاء الوطن العربي ، كانت تكفي حاجتنا لثلاثة اشهر قادمة · اضافة الى التدفق الجماهيري الهائل · كنا بعد يوم واحد من معركة الكرامة نجلس تحت اشجار مدينة السلط ، حيث تقف في مواجهتنا طوابير ممتدة من القادمين للتطوع والالتحاق بالثورة · نبدأ التسجيل في السابعة صباحا ولا ننتهي في الثامنة مساء · لقد تفجرت روحية العطاء لدى جماهير شعبنا وامتنا ، اثر تلك المعركة، فاعطت زخما جديدا لمسيرة ثورتنا · **فالتضحية والعطاء والمعارك تخلق دائما ارضية الانتصارات المقبلة ، وافاق تطور النضال وتصعيده ·**

وبعد الكرامة تصاعد نضالنا المسلح ضد العدو الصهيوني ، ولم يكن يضعف، الا حين كنا نواجه معارك الدفاع عن انفسنا من هجمات الانظمة العربية على ثورتنا · كما حصل في الاردن قبل ايلول وبعده ، او في لبنان ابتداء من عام ١٩٦٩ ·

لكن ، وفي اللحظات التي كنا نواجه فيها حملات التآمر على ثورتنا وشعبنا ، كان شعبنا في الارض المحتلة ، يؤدي دوره النضالي في مقارعة الاحتلال على جميع المستويات السياسية والعسكرية ·

لقد كانت مواجهاتنا المستمرة لحملات التآمر على شعبنا وثورتنا ، لا تجعلنا مطلقي الايدي في نضالنا المسلح ضد العدو الصهيوني · وكانت معارك العامين على الساحة اللبنانية ، شاغلا عن استمرارنا في قتال العدو ·

عملية الشهيد كمال عدوان

في الفترة الاخيرة ، وخاصة بعد ازدياد المؤامرات السياسية على قضيتنا ، كان لا بد لنا من تطوير اساليبنا في الكفاح المسلح ضد عدونا · من اجل ان نقفز فوق جميع محاولات التشويه المستمرة لمسيرة الثورة الفلسطينية · فكان الاعداد لعمليات ذات طابع خاص في عمق الارض المحتلة ، يشكل امتدادا لهذا

التصعيد النضالي الذي برز واضحا خلال الفترة الاخيرة ، من خلال العمليات المسلحة المتوالية في مختلف مناطق فلسطين ، ومن خلال انتفاضات شعبنا ٠

وكانت عملية الشهيد كمال عدوان ٠ حيث عبر ابطالنا عن روح العطاء الذي لا حدود له في ثورتنا ٠ فقد استطاعوا خلال عمليتهم فرض الاستنفار على الجيش الصهيوني ، وعاشت مناطق حيفا ــ تل ابيب اجواء حرب لم تعشها منذ ثلاثين عاما ٠ خاصة وان هذه المنطقة ، هي منطقة الحشد الرئيسي للمستوطنين الصهاينة ٠

لقد ولدت هذه العملية عبر جملة حقائق لا بد من ايضاحها :

١ ــ أن هذه العملية هي تعزيز لخط الاستمرار في الكفاح المسلح وتصعيده ضد العدو الصهيوني ٠ وهو منهج الثورة الذي لا تحيد عنه ٠

٢ ــ انها تخلق ارضية صلبة في صفوف الثورة الفلسطينية ٠ وتشجع كافة اطرافها على القيام بعمليات في العمق ، تشبه هذه العملية ٠

٣ ــ اثبتت هذه العملية ، ان اسطورة دفاعات العدو التي يتبجح بها ليست صحيحة ٠ فلقد قمنا بهذه العملية على منطقة تل ابيب ، وفي المكان نفسه الذي تمت فيه عملية سابقة هي « سافوي » ، على الرغم من جميع الاحتياطات ٠ علما بأن العدو كان يتوقع عملية !

٤ ــ انها تجسد قدرة الثورة على الوصول الى المكان الذي تريده ، في قلب كيان العدو ، رغم اجراءاته الاحترازية ووسائله الدفاعية المتطورة ٠

٥ ــ انها تجسد طبيعة الاصرار الذي يميز روحية المقاتل الفلسطيني ٠فعدد قليل من المقاتلين خاض حرب شوارع في قلب الكيان الصهيوني ، ولم يخش جيش العدو الكبير العدد ٠

٦ ــ لقد اطلق على العملية اسم الشهيد كمال عدوان ، وعلى القوة ، قوة دير ياسين ، وهذا ليس مصادفة ٠ فكمال عدوان اغتيل بيد العدو الصهيوني في عملية خاصة ، استهدفت بها الثورة في عدد من قادتها ، ودير ياسين هي رمز للجريمة التي اشرف على ارتكابها مناحيم بيغن ٠

حرب الجنوب

على ضوء فهمنا لطبيعة العدو الصهيوني المتطلعة الى التوسع الدائم في اجزاء من وطننا العربي ، كانت توقعاتنا ان يقوم العدو بتحرك عدواني يستهدف اجزاء من الجنوب اللبناني ٠ وقد سعى سابقا للسيطرة عليه ، عبر محاولات مباشرة : في هجماته السابقة ، والتي كانت اخرها معركة الاثني عشر

يوما في ايلول الماضي · او غير مباشرة ، عبر دفعه لعملائه في الجنوب ، كما جرى في معارك الطيبة ورب ثلاثين ومارون الراس ، والتي فشلت جميعها في تحقيق اهدافها · مما دفع العدو الصهيوني لتجهيز حملة جديدة ، تكون معدة للتنفيذ بقواته مباشرة ، خاصة وبعد ان قضت معركة مارون الراس على خرافة قدرة عملائه في تنفيذ ما يطلب منهم ·

كنا نتوقع هذه المعركة ، وكان استعدادنا بما لدينا من امكانيات متواضعة · لقد خطط العدو لاستكمال سيطرته على المنطقة وتصفية الوجود الفلسطيني واللبناني الوطني المسلح ، خلال ساعات · وكان يريد اعلان نتيجة حملته تلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده وايزمن في الساعة الحادية عشرة من اليوم الاول للحرب ·

لكن الارادة الوطنية الفلسطينية اللبنانية ، واجهتهم واستطاعت ان تتصدى وتصمد وتحقق الكثير في الايام السبعة الاولى من المعركة ·

لقد اعتمدت خطة العدو العسكرية على التكتيك التالي :

١ ـ حشد العدو الصهيوني قوى عسكرية كبيرة جدا ·

٢ ـ الاسلحة التي استخدمها كانت متنوعة ، طيران ، بحرية ، دبابات ومشاة ·

٣ ـ الاسلوب المستخدم ، كان التركيز على كثافة النيران وتعدد محاور الهجوم ·

٤ ـ القتال في جميع الاوقات ليلا ونهارا ·

٥ ـ استهداف المدنيين ، حيث دمرت قرى بأكملها واصيب الكثيرون بهدف اجبارهم على الهجرة ·

٦ ـ استخدام الاسلحة الحديثة التي تسلمها العدو مؤخرا من الولايات المتحدة الاميركية : طائرات ف ١٥ ، القنابل العنقودية والقنابل الذكية ·

وواجه ثوارنا العدو بأسلوب قتالي يتكافأ وضراوة هذه المعركة :

١ ـ مرونة الحركة والالتفاف للمناورة خلف خطوط العدو بشكل متواصل ، من اجل ارباك مواصلاته وتقدمه بعد قتال اعتراضي على محاور التقدم ·

٢ ـ التحرك بمجموعات قتالية قليلة العدد لا تسمح للعدو بالاستفراد بها ·

٣ ـ المحافظة على الذات . وذلك لمنع العدو من تحقيق هدفه والذي يتلخص في قتل اكبر عدد ممكن من الثوار وانزال الخسائر بنا ·

٤ ـ استخدام الاسلحة المتوفرة بكفاءة وقدرة شهد بها العدو ٠

٥ ـ توجيه الضربات الى نقاط تجمعه داخل فلسطين المحتلة ، مثل مستعمرات كريات شمونة ، كفار جلعادي نهاريا وغيرها ٠

٦ ـ الاهم من هذا كله ، روحية المقاتل وارادته الثورية وخبرته ، التي جعلت هذا المقاتل الفلسطيني والوطني اللبناني يعمل على مواجهة العدو بثبات ، رغم كثافة النيران التي استخدمها العدو ٠

٧ ـ قدرة المقاتل على المبادرة في كافة المواقف ٠ وخاصة تصرف المقاتلين الذين حاول العدو تطويقهم ، ولكنهم قاموا بواجباتهم وعادوا الى رفاقهم سالمين وقد اوقعوا في صفوف العدو بعض الخسائر ٠

٨ ـ التلاحم النضالي بين المقاتل الفلسطيني واللبناني والجماهير في الجنوب ٠ هذه الجماهير التي عانت وتألمت لكنها حافظت على روحيتها النضالية ودعمها للمقاتلين ٠

لقد حققت هذه المعركة على الصعيد الفلسطيني مزيدا من التلاحم بين مقاتلي الثورة الفلسطينية ، وسيكون هذا ارضية للنضال في سبيل **وحدة القوات العسكرية للثورة الفلسطينية** ٠ هذا الهدف الذي يزداد الحاحا كلما تقدم نضالنا وتوالت معاركنا ٠

كما انها عمقت التحام الثورة بجماهير الشعب الفلسطيني سواء في مخيماته او مناطق غربته او داخل الارض المحتلة ، عبر هذه الوقفة البطولية لجماهيرنا خلال ايام الحرب ، بشكل مليء بالتحدي للعدو ، عبرت عنها الجماهير بالتظاهرات والنضالات المختلفة ، الى جانب افواج المتطوعين الذين بدأوا بالتدفق للالتحاق بالثورة والمشاركة في القتال ٠

اما على الصعيد العربي فقد تعاظم التفاف جماهيرنا العربية حول الثورة وخط الكفاح المسلح ، عبر تدفق المتطوعين العرب ، والمساندة المادية والمعنوية ٠

اما دوليا ، فقد برزت قدرة الثورة الفلسطينية كحقيقة لا يمكن تجاهلها ٠

اما في صفوف العدو الصهيوني ، فان هذه الحرب ، سوف تساهم في تعميق أزمته ، عبر فرضها القتال الدائم والمستمر عليه ٠

ليست هذه الحرب الا احدى حلقات النضال ٠ فما دام العدو يقوم باحتلال ارضنا ، فان تصميمنا على المضي في الكفاح المسلح مستمر ومتطور ٠ ومعركتنا مع العدو ليست محصورة في جبهة واحدة ٠ بل هي تمتد الى كل شبر من الارض العربية يحتلها العدو ٠

نـزيـه قوره

التصفية المستحيلة

في الاسبوع الواقع بين الخامس عشر والثاني والعشرين من شهر آذار جرى في منطقتنا حدث له كل السمات التي تميز المراحل الجديدة والمختلفة نوعيا عن المراحل التي سبقتها ٠ ففي الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤/١٥ آذار تحركت القوات الاسرائيلية لتنفيذ اوسع عملية عسكرية تقوم بها هذه القوات منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣ ٠

الهدف المعلن لهذه العملية هو « اجتثاث الوجود الفلسطيني » ٠ هذا الهدف لم يكن هدفا جديدا ٠ فقد تحدث تيودور هرتسل ، مؤسس الحركة الصهيونية عن تكليف السكان « المحليين » بتنظيف البلاد من العقارب والافاعي قبل طردهم خارج بلادهم لافساح المجال للمستوطنين الصهيونيين لاقامة « الدولة اليهودية » ٠ وكان وايزمن ، احد رؤساء المنظمة الصهيونية ، واول رئيس دولة في اسرائيل ، يصف « اسرائيل » ، قبل قيامها ، بانها ستكون يهودية كما هي انجلترا انجليزية ٠ اما مناحم بيغن ، رئيس الوزراء الحالي ، ورئيس المنظمة العسكرية القومية (الارغون) في الاربعينات ، فقد تفاخر في كتابه « الثورة » بأن مذبحة دير ياسين التي نفذها رجاله في نيسان من عام ١٩٤٨ ، كان لها دور أساسي في دفع القرويين العرب الى هجر قراهم وبالتالي الى افراغ المنطقة التي أقيمت عليها اسرائيل ، من معظم سكانها العرب ٠

وبعد عام ١٩٤٨ لم تتوقف محاولات محو الاسم الفلسطيني ٠ وتبين احداث السنوات السابقة ان هذه المحاولات لم يكن من الممكن ان يكتب لها النجاح ٠ وهذا الفشل ليس عائدا لميزات خاصة يتميز بها الفلسطينيون عن اجزاء الامة الاخرى ، وانما يعود الى ان فلسطين تحولت الى رمز لمجموع طموحات جماهير

المنطقة العربية ، وذلك مقابل تحول الصهيونية الى رمز يجسد مجموع الاوبئـة التي تعاني منها منطقتنا · فأسم الصهيونية يرتبط في ذهن الانسان العربـــي بالتجزئة وباستمرارها ، وبالسيطرة الاجنبية وباستمرارها ، وبانعدام التطـور وباستمرار انعدام التطور ، وبالارهاب وبتجدده الدائم ، اي بالعقم الذي يعيـد خلق ذاته · اما فلسطين فيرتبط اسمها بتوحيد اجزاء وطننا ، وبانهاء التسلـط الاجنبي وتوفير شروط نمو القوى المنتجة والمبدعة ماديا وروحيا ، اي بالعافيـة المتجـــددة ·

فرض العقم مقابل الطموح الى العافية ، هذا هو جوهـــر التناقض بيـــن الصهيونية وفلسطين · ولان القانون الذي فرضه التسلط الاجنبي على منطقتنا هو قانون العقم المتجسد في التجزئة ، فقد كان مـــن غير المعقـول « دمـج » الفلسطينيين او تصفية القضية الفلسطينية · فلكي يتم دمج الفلسطينيين فـــي الكيانات التي توزعوا عليها كان لا بد ان يتوفر في هذه الكيانات الحد الادنى من الشروط التي تجعل هذه الكيانات قادرة على الدمج · والحد الادنى مـــن الشروط يعني توفر بنية اجتماعية اقتصادية نامية تطلب الطاقـــة البشرية ولا تطردها ، تتيح لهذه الطاقة البشرية ان تطور بأستمرار قدراتهـــا الانتاجيـة والابداعية ، ولا تشكل عوامل كبح وقهر للتطور والنمو · هذا الوضع ومـــا يتطلبه من بنى يتعارض مع الاهداف التي اقيمت من أجلها اسرائيل ·

لقد أرادت القوى الاستعماريـــة ان تصفي القضية الفلسطينية وأن تدمـــج الفلسطينيين في البلدان التي لجأوا اليها وان تحافظ على اسرائيل وعلى الكيانات الطفيلية العقيمة في آن معا · وبما ان هذه الاهداف لا يمكن تحقيقها معا فقـــد اعطت الأولوية للمحافظة على الكيان الصهيوني والكيانات العربية المجـزأة . واضطرت الى تأجيل حل مشكلة الفلسطينيين · لقد كان هناك حل واحد لمشكلة الفلسطينيين . وهذا الحل يكمن في ايجاد منطقة عربية موحدة وقابلة للنمـو ، اي في تعريب الفلسطينيين · ولكن القوى الاستعمارية لم تكن راغبة في تعريب الكيانات العربية نفسها . فكيف يمكن تعريب الفلسطينيين في منطقة تسعى فيهـا تلك القوى المعادية الى سحب العروبة من عروقها ؟

هكذا اصبحت فلسطين اسما حركيا للعروبة في مواجهة الصهيونية التي لـم تكن في يوم من الايام سوى اسم حركي للتسلط الانجلو سكسوني على منطقتنا · وبمقدار ما كانت تزداد القوة العسكرية الصهيونية ويبرز العجز عن مواجهتهـا كانت تتراجع العروبة وتتراجع فلسطين . ويصبـــح النهب والتسلط اللذيـن تمارسهما القوى الاستعمارية امرا طبيعيا لا يستدعي الجدل ·

الصهيونيون يعرفون ذلك · وقد عرفه زعماؤهم دائما · وقد عبر عن ذلـك الصحفي الاسرائيلي شوكن بقوله : « لقد اعطي اسرائيل دور لا يختلف عن دور

كلب الحراسة . ولا حاجة للخشية من ان تمارس اسرائيل سياسة عدوانية تجاه الدول العربية ، اذا كانت هذه السايسة تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا . ولكن اذا فضل الغرب . لسبب او لاخر ، ان يغمض عينيه ، فان بالامكان الاعتماد على اسرائيل لكي تنزل العقاب الصارم بتلك الدول المجاورة التي تتجاوز في قلة ادبها تجاه الغرب الحدود المناسبة » (١) .

الدولة التي كان يفترض انها مشغولة بالحفاظ على الذات وبانقاذ اليهود من الاضطهاد ، والتي لم يكن عدد سكانها قد تجاوز ٢ر١ مليون نسمة ، يتحدث صحافيوها في عام ١٩٥١ عن انزال العقاب الصارم بمن يظهر قلة الادب تجاه الغرب . وقلة الادب تعني التعبير عن اي طموح لتوفير شروط التطور الطبيعي . وفي عام ١٩٧٥ يتفاخر الصحفي الاسرائيلي تسفي لحسه بما انجزته اسرائيل : « منذ ٢٨ سنة واسرائيل هي التي تجعل الشرق الاوسط مستقرا . فنحن الذين منعنا العرب الراديكاليين من الاستيلاء على الدول المحافظة ... ونحن ايضا منعنا طرد الولايات المتحدة ، ومن الناحية الاستراتيجية ، هذا هو اساس المصلحة في تاييدنا . » (٢)

ان المهمات التي ينسب الصهيونيون لانفسهم القيام بها تدور كلها حول ترتيب وضع عام يسود المنطقة المحيطة بفلسطين . فمن ضمان الاستقرار في الشرق الاوسط الى منع طرد الولايات المتحدة الى منع الراديكاليين من الاستيلاء على الدول المحافظة (اي الوقوف في وجه اي وحدة تقوم بين قطرين عربيين) الى تأديب القوى التي « تقل أدبها » في وجه بريطانيا والولايات المتحدة كل هذه المهمات هي مهمات اداة قمع وليست مهمات ملجأ للمضطهدين او مهمات مركز تشع منه الحضارة .

مهمات كلب الحراسة التي تحدث عنها شوكن ، رئيس تحرير صحيفة هآرتس في عام ١٩٥١ ، عاد معلق دافار ليؤكدها في عام ١٩٧٤ . ودافار هي الصحيفة الناطقة باسم الهستدروت اي اتحاد العمال في اسرائيل . يقول هذا المعلق : « وبسبب ازمة الطاقة بالذات ، وارتباط الدول الغربية ، بشكل لم يسبق له مثيل . بدول النفط العربية ، يحتاج الغرب لاسرائيل مثل حاجته لكلب حراسة ذي اسنان حادة ، مربوط بالسلاسل الامريكية الطويلة جدا ، بحيث تأذن له بغرس اسنانه اذا تحدوه اكثر من اللازم .» (٣)

الاسنان الحادة ، السلاسل الامريكية الطويلة ، اساءة الادب من قبل القوى الوطنية المحلية ، تلك هي الموضوعات التي تتحدث عنها الصحيفة الناطقة باسم العمال . وهذه الموضوعات هي التي تتحول في اجهزة الاعلام ومكاتب العلاقات العامة الى حماية المدنيين الاسرائيليين والرغبة الجامحة في السلم والتفرغ لتعمير الصحراء وتجفيف المستنقعات ونقل الحضارة الى الشرق !!!!

اذا كانت الولايات المتحدة تحتاج لاسرائيل كحاجتها لكلب حراسة ، فان ما يعني الولايات المتحدة بالضرورة هو حدة الاسنان وصلابتها والاستعداد الدائم لغرس الاسنان . وهذا ما يوضحه وزير الدفاع الاميركي السابق ، جيمس شليزنغر : « ما دمتم واثقين بانفسكم ، وما دمتم مؤمنين بقوتكم العسكرية ، وتبرهنون على ذلك ، فأن الاميركيين الى جانبكم ، وكذلك البنتاغون والجيش بصورة خاصة . ولكن منذ ان بدأتم تولولون وتتذمرون تبدلت العلاقة . ان الامريكي احب اسرائيل القوية المنتصرة ، لكن اسرائيل المترنحة تعتبر مشكلة . ومن من الناس يحب المشاكل ؟ » (٤)

ان بقاء اسرائيل يرتبط بقوتها . وقوتها ليست تلك القوة المعدة للدفاع عن الذات وصد الهجمات الخارجية ، بل هي تلك القوة المؤهلة للعمل على مدى المنطقة العربية ، ولالحاق الهزائم بكل ما تستطيع هذه المنطقة حشده من قوى . وبالاساس منع قيام شروط تتيح للمنطقة ان تحشد قواها . ان القوة الاسرائيلية يجب ان تكون متفوقة تفوقا مطلقا لا نسبيا . وهذا يعني بالضرورة ان تكون المنطقة ضعيفة مطلقا . فالتفوق المطلق ليس سوى شق معادلة ، شقها الاخر هو الضعف المطلق . وتتجسد معادلة القوة المطلقة في الجانب الاسرائيلي والضعف المطلق في الجانب العربي في الاوضاع التالية :

١ ـ يجري التركيز على اسطورية القوة الاسرائيلية . مقابل التركيز على الفساد والتعفن والضعف في الجانب العربي . ويصبح شعار « العرب جرب » عقيدة تفقد الانسان العربي القدرة العقلية على التفكير بامكان مواجهة اسرائيل. وعندما تحدث مواجهة حقيقية فأن العقل الذي جرى تركيبه على اساس معادلة « العرب جرب » يرفض التصديق .وتكون العناوين التي تستعمل في وصف المواجهة هي نفس العناوين التي تستعمل في وصف الانهزام . « عدوان اسرائيلي » ، اسرائيل تقصف ، اسرائيل تعتدي ، فلان يستنهض الرأي العام ، فلان يستعجل انعقاد مجلس الامن .

٢ ـ بما ان القوة الاسرائيلية اسطورية ، وتستمد عناصرها من « اليهودية العالمية » المسيطرة على الشرق والغرب ، فأن الجيش العربي وقياداته يكون مهيأ سلفا لاوامر الانسحاب الى الخط الثاني ، عندما يطلق الجيش الاسرائيلي اولى قذائفه . وبهذا يتعمق الاحساس باسطورية الجيش الاسرائيلي . ويصبح هذا الانتصار الوهمي سلاحا من اسلحة الحرب القادمة .

٣ ـ عندما تتحقق الهزيمة ، ولقطع الطريق على الاسئلة عن أسباب الهزيمة ، يكون المندوب في الامم المتحدة قد صاغ الشكوى وقدمها الى مجلس الامن الدولي . وبما انه يجب اعطاء فرصة للعمل السياسي ، وللنشاط الديبلوماسي، ولكسب الرأي العام ، فأن اي نوع من الرد على الهزيمة يصبح عملا مغامرا

وضارا بمصلحة الوطن والنظام التقدمي في هذه العاصمة او تلك · وبهـــذه الطريقة يجري قطع الطريق على أية مبادرة جماهيرية ·

الفلسطينيون عرفوا منذ زمن بعيد ان العمل الهام الوحيد الذي قامت بـــه عصبة الامم التي تأسست بعد الحرب العالمية الاولى كان منح الانتداب لبريطانيا على فلسطين وتكليف الدولة المنتدبة تسهيل ظروف انشاء دولـــة يهودية فـي فلسطين · والفلسطينيون عرفوا ان العمل الهام الوحيد الذي قامت به هيئـــة الامم المتحدة التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية هو اصدار قرار التقسيم عام ١٩٤٧ · واذا حذفنا القضية الفلسطينية من جدول اعمال الامم المتحدة ، فمن المؤكد ان مقر هذه الهيئة سيصبح مكانا كئيبا ·

ومنذ البداية كان واضحا في ذهن الفلاحين الاميين في فلسطين ان الـــرد الوحيد على الصهيونية هو السلاح · وكان واضحا في ذهن هؤلاء الفلاحيـــن وفقراء المدن أن الرصاص يصيب الصهيونيين ويجرحهم ويقتلهم · وان بيـــت الصهيوني قابل للتفجير ، وان مقر الوكالة اليهودية في القدس قابل للنسف ·لم تكن الصهيونية اسطورة في الذهن الفلسطيني · ولم يكن الصهيوني مخلوقـــا خارقا للطبيعة · ويعترف المؤرخون الصهيونيون ان الفلسطينيين كانوا قادرين في عام ١٩٤٨ على احراز انتصارات عسكرية قبل دخول الجيوش العربية الـــى فلسطين · ولم يعد هذا ممكنا بعد دخول الجيوش العربية · ولان الفلسطينييـــن امتلكوا هذا القدر من المعرفة كان يجب منعهم من الوصول الى السلاح · واذا وصلوا اليه فيجب انتزاعه منهم بكل ثمن · لانهم ان وصلوا اليه واتيح لهـــم استخدامه انكشفت الخدعة وزال السحر وانتهت اللعنة النازلة على هذه المنطقة منذ اقامة الكيان الصهيوني ·

في الخامس عشر من اذار عام ١٩٧٨ قررت القيادة الاسرائيلية ان تجتـث الوجود الفلسطيني · وقالت الانباء انهم كانوا ثلاثين الفا · وقالت جريدة فـي بيروت ان الدبابة الاسرائيلية يحيطها جدار حراري يفجر قذيفة الار بي جي قبل وصولها الى الدبابة · وقال العسكريون انه لم يكن بوسع اسرائيل ان تستخدم في مثل هذه الجبهة عددا اكبر من القوات التي استخدمتها فعلا · ودخلت الحرب اسلحة لم تستخدم من قبل ، منها طائرة ف ــ ١٥ الامريكية · وتجاوب اسرائيل في حروبها مع العرب قالت لها ان المقاتلين سيفرون مـــن امـــام القـــوات الاسرائيلية المهاجمة في الساعات الاولى · واعد وزير الدفاع ورئيس الاركـان ورئيس الوزراء في اسرائيل انفسهم للاعلان عن انتهاء المقاومة الفلسطينيـــة وحلفائها قبل مضي ٢٤ ساعة على بدء الهجوم · ولكن المعادلات فـــي ذهـــن المقاتلين الفلسطينيين والوطنيين اللبنانيين لم تكن تتوافق مـــع الحسابـــات الاسرائيلية · واحدى هذه المعادلات كانت تقول ان قذيفة الدبابة او الطائـرة او المدفعية لن تؤذيك الا اذا وقعت على رأسك مباشرة · وهذا بعيد الاحتمـــال ·

ومعادلة اخرى كانت تقول ان عدد الضحايا في حالة الهرب يزيد عن عـــدد الضحايا في حالة الثبات والمواجهة · ومعادلة اخرى كانت تقول انه لكي تبطـل فعالية القصف الاسرائيلي يجب ان تندفع الى الامام باتجاه المواقع المعاديــة · وثبت في معارك الساعات العشر الاولى ان هذه المعادلات البسيطة تؤدي الـى تحقيق الاهداف المطلوبة : انزال اقصى ما يمكن من الخسائر بالعدو والمحافظة على الذات · وكانت الخسائر متدنية بشكل مدهش وغيــر قابلة للتصديــق وخسائر العدو مرتفعة بصورة اوقعت ارتباكا شديدا لدى قيادة العدو · وهكذا حدث ان بعض القرى والمواقع لم يجرؤ الاسرائيليون على دخولها الا بعد يومين من اخلائها · واضطر هذا العدو في بعض المواقع ان يستعين بالقصف المدفعي وقصف الطائرات لمدة سبع ساعات قبل ان ينجح في التقدم كيلومترا واحــدا باتجاه موقع لا يضم اكثر من ثلاثة مقاتلين · وخلال هذه الحرب دخلت عبارات جديدة على اللغة العسكرية الاسرائيلية : سنوقف القتال عندمــا يتوقــف الفلسطينيون عن اطلاق النار · لكن الفلسطينيين لم يتوقفوا عن اطلاق النار ·

وفي الماضي كانت هناك عقيدة اسرائيلية تقول في احد مبادئها ان الجيش الاسرائيلي يجب ان يمتلك المبادرة دائما : هو الذي يقرر بدء الحرب وهو الـذي يقرر انهاءها · وفي حرب اذار كانت قيادة الجيش الاسرائيلي تنتظر ان يقوم الفلسطينيون بانهاء الحرب ، لكي توقف هي اطلاق النار · ولا شك ان من لهم دراية بموضوع العقائد العسكرية يوافقون على ان الغاء مثل هــذا المبــدأ الاساسي من هذه العقيدة يلغي العقيدة بأكملها · فليس هناك أية قيمة لامتــلاك جيش ما القدرة على بدء الحرب اذا لم يمتلك القدرة على انهائها · ولان الوضع الذي وجدت القيادة الاسرائيلية نفسها فيه لم يكن مألوفا لديها فقد كان لا بد من تدخل جهة خارجية لانهاء الحرب ولاخفاء حقيقة الهزيمة المريعة التي لحقــت بالجيش الاسطوري · وهكذا تم استدعاء مجلس الامن وانتزاع قرار منــــه والبحث بصورة عصبية عن اية قوات جاهزة يمكن ارسالها للاشراف على وقف النار ·

في حرب اذار تحطمت كذبة كبرى ، عاش عليها الكيان الصهيوني عشــرات السنين · كان كل ما تقوم به اسرائيل يشكل معجزة · كل حروبهــا كانــت معجزات · كل مصنع تنقله احدى الشركات الاميركية الى اسرائيـل يعتبــر معجزة اسرائيلية · كل أداة من أدوات الري يكون قد مضى على استعمالهــا في كاليفورنيا عشر سنوات ، تصبح معجزة في اسرائيل ، ويصبح المصنع الذي ينتجها معجزة · ويصبح كل موظف في المصنع معجزة متحركة · كانت اسرائيل هي ذلك « البلد الصغير المسالم المشغول بصنع الحضارة » · وكانت تحيــط بها قبائل البرابرة المتعطشة للدم وللخراب ولحرق المزروعات والقرى · وكانت اسرائيل تترك اعمال صنع الحضارة لتتفرغ لبضعة ايام لهزيمة قبائل البرابرة

العرب · وكان الجندي الاسرائيلي متفوقا تفصل بينه وبين العربي هوة نوعية غير قابلة للردم · فالجندي الاسرائيلي عقائدي مؤمن بعدالة القضية التي يحارب من أجلها ، ومتعلم وذو خبرة في استعمال الاسلحة ، وذو مقدرة على استيعاب اخر ما تنتجه مصانع السلاح في الولايات المتحدة · وبالمقابل كان العربي همجيا ، ليست له قضية معينة ، هدفه النهب والقتل والتخريب ، مرتزقا يحمل السلاح لان هناك من يدفع له مخصصا شهريا ·

في حرب اذار كانت نسبة الجنود الاسرائيليين الى المقاتلين الفلسطينيين والوطنيين اللبنانيين تقارب ٢٠ : ١ لصالح الاسرائيليين · وفي مجال الطائرات والسفن الحربية والمدرعات لا يوجد مجال للحديث عن النسب · وفي هذه الحرب صدرت الاوامر من القيادة الاسرائيلية الى وحداتها باطلاق النار على من يفر من المعركة او يمتنع عن التقدم · وفي هذه الحرب كان قادة الوحدات الاسرائيلية يرفضون التقدم الى موقع لا يزيد عدد المقاتلين فيه عن عشرة الا بعد قصف مدفعي وقصف بالطيران لعدة ساعات · وعند أول اشارة لوجود مقاومة كان يقوم بالتراجع ليطلب القصف بالطيران والمدفعية · وفي هذه الحرب اضطرت الصحف الامريكية ان تعلن شكها بالبلاغات الاسرائيلية حول الخسائر · ففي جريدة انترناشيونال هيرالد تريبيون الصادرة بتاريخ ٢١ اذار ١٩٧٨ ، نجد على الصفحة الاولى تصريحا للجنرال غور يقول فيه ان عدد القتلى الاسرائيليين منذ بدء القتال بلغ ١٨ قتيلا · ونقلب الصفحة في نفس الجريدة فنجد على الصفحة الثانية خبرا يقول ان عدد القتلى يتجاوز ٥٥ قتيلا « حسب تقارير غربية موثوقة » · ويعرف المقاتلون ان عدد قتلى العدو يتجاوز اضعاف هذا الرقم ·

لقد تميزت حرب اذار بان العدو الصهيوني لم ينجح الا في انزال اقصى ما يستطيعه من الخسائر بالمدنيين وبقراهم وبحقولهم في حين كانت خسائر المقاتلين لا تزيد عن الحد الادنى الممكن ·

ان تعبير « الهوة النوعية » بين المقاتل الاسرائيلي والمقاتل العربي تعبير سيختفي سريعا من التداول · وستدرس جهات كثيرة النتائج الخطيرة المترتبة على اختفاء هذا التعبير من التداول · ومن هذه الجهات التي ستدرس هذا الموضوع تأتي الولايات المتحدة في المقدمة · ان اميركا تحب اسرائيل القوية المنتصرة · اسرائيل التي تنهزم امامها الجيوش قبل البدء باطلاق النار · اسرائيل ذات الذراع الطويلة · هذه هي اسرائيل التي تمتلك مبرر وجود في نظر اميركا والبنتاغون والجيش الاميركي · لكن اسرائيل التي لا يفر من امامها المقاتلون الوطنيون هي مسألة اخرى ·

لقد كان الفلسطينيون دائما هم الشبح الذي يقبر ويخرج من القبر · ولهذا

كان لا بد من تجنيد جيوش كثيرة لاعادة ادخاله الى القبر · كانوا ستمائة الف عام ١٩١٧ وقاتلوا ثلاثين عاما واصبحوا ٤ر١ مليونا عام ١٩٤٨ · وقاتلوا ثلاثين عاما اخرى وصاروا أربعة ملايين · ومع وجود المشروع الصهيوني لم يكن لهم في اي وقت مكان · ولهذا كانت لهم كل الامكنة · كانوا يعرفون السر ، ويعرفون اكثر مما كان مناسبا ان يعرفوا · ولهذا كان يجب اسكاتهم دائما ·

في اذار من عام ١٩٧٨ انكشف السر المستور · لم تعد الصهيونية اسطورة · اصبحت لحما يمكنُ للرصاص ان يخرقه · وعندما تصبح الصهيونية لحما يمكن خرقه بالرصاص ودما يمكن اسالته وحديدا يمكن تدميره وطائرات يمكن اسقاطها . لا يعود هناك من مبرر للبقاء · الاسطورة ماتت في الجنوب اللبناني . وبدأ عهد جديد ·

الحواشي

١ ـ هآرتس ٣٠ـ٩ـ١٩٥١ ، شوكن : نحن وعاهرة الموانيء : تأملات عشية رأس السنة (العبرية) الجديدة ·

٢ ـ يديعوت احرونوت ٢٢ـ١٢ـ١٩٧٥ ·

٣ ـ دافار ١٠ـ٦ـ١٩٧٤ ·

٤ ـ هآرتس ٨ـ٣ـ١٩٧٦ ·

غـازي الخليـلي

العَمليـة

دير ياسين ـ الذاكـرة

دير ياسين ٩ـ٤ـ١٩٤٨

قامت صباح هذا اليوم قوة مشتركة من عصابة الارغون وعصابة شتيرن والبالمـاخ بمهاجمة قرية دير ياسين ، غربي مدينة القدس · تقدر القوة المهاجمة بـ ١٣٢ رجـلا مزودين بسيارات مصفحة واسلحة رشاشة وقنابل يدوية ومدافع مورتر · وخلال ساعات تم « تنظيف » القرية من جميع سكانها البالغ عددهم (٤٠٠) نسمة بين رجل وامرأة وطفل· قتل منهم ٢٥٤ شخصا ، والاخرون جرحوا او لا يعرف مصيرهم ·

دير ياسين ١١ـ٣ـ١٩٧٨

قامت مجموعة دير ياسين الفدائية بتنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان ، بعد ظهر هـذا اليوم ، على الطريق بين حيفا وتل ابيب · افادت السلطات الاسرائيلية بمقتل ٣٧ اسرائيليا وجرح ٨٢ آخريـن ·

ثلاثون عاما ودير ياسين في الذاكرة ، ثلاثون عاما وهي مطارَدة مطـاردة،علـى انقاضها بنى صهيون جفعات شاؤول ، ومن جماجم شهدائها الـ ٢٥٤ بنت جفعات شاؤول بيوتا · وعلى صرخات اطفالها وصيحات عذاراها بنى صهيون مجدا · حجارتها التي لونتها شمس الغروب ازالها صهيون ، ليجتث الماضي وليجعل منها اسما بلا تاريخ ولا هوية ·

ثلاثون عاما وصهيون يحاول ان يمحوها من الذاكرة · ثلاثون عاما يطاردها تاريخـا وذكرى · ابناؤها الذين أفلتوا من الجريمة ، والمشردون في كل مكان ، يحاول صهيون ان يجتثهم ، حتى لا يبقى من يشهد على انها دير ياسين وليست جفعات شاؤول · حتى لا يبقى من يشهد على انها الحقيقة ، وأنها التاريخ والقضية ·

ثلاثون عاما والحراب تطاردها من مكان الى مكان · ثلاثون عاما وهي مطاردة ، تسكن الذاكرة وتمسك بخيوط الشمس · المجرم يطاردها ، وهي تطارد الجريمة والمجرم ·

من يذكر دير ياسين ؟!

دير ياسين كانت ٠٠٠ قرية عربية مسالمة ٠ سكانها اناس طيبون ، فلاحون بسطاء آمنوا — على عكس ما هو سائد — ان القادمين الجدد والذين استوطنوا ارضا قريبة من قريتهم ، طيبون مثلهم ٠ فلم يعادوهم ٠ فاكتوت دير ياسين بنار الصهيونية والمستوطنين الجدد ٠

مختار القرية كان دائما يزور جفعات شاؤول ، وسكان القرية كانت علاقاتهم حسنة مع مستوطني جفعات شاؤول ٠ ويذكر التاريخ ان اهالي القرية لم يشكوا امرهم الى السلطات العربية ، لما اشتد الصراع بين الفلسطينيين العرب والمستوطنين الجدد ٠ ولما كان موقع دير ياسين مهما على الطريق بين القدس وتل ابيب ، فان المقاتلين العرب غضوا طرفا عن هذه الاهمية ، تجاوبا مع شعور اهالي القرية ، الذين رفضوا ان يتمركز مقاتلون عرب فيها لحمايتها ٠ كانت طيبة اهالي دير ياسين فوق التصور ٠ كانوا يقدرون ان طيبتهم هذه لا بد وان تقدر عند « الاخرين » ٠ فيتركونهم لحالهم ، طالما انهم لم يتعرضوا لهم بأذى ٠

ربما كان هذا خطأهم ٠

فليلة التاسع من نيسان « ابريل » ١٩٤٨ نام اهالي القرية كعادتهم ، غير مأخوذين بما يدور من حولهم ٠ لم يهتموا بالحراسة ٠ تركوا حراسة القرية لبعض كبار السن من اهالي القرية كاحتياط ٠ وسلاحهم لم يكن الا بضعة بنادق تركية قديمة ، لا تجدي نفعا الا ربما في صيد الارانب او اطلاق النار بهجة في الاعراس ٠

كانت القرية تغفو ، وكان الاطفال يحلمون ٠ وكان بيغن زعيم عصابة الارغون ، يخطط بالاتفاق مع عصابة شتيرن والهاجناه ، ليس لاحتلال القرية ، بل لابادة وذبح كل سكانها ٠ لتكون الجريمة مدخلا لبث الذعر عند كل السكان العرب،ذعرا يدفعهم الى الهجرة والهروب٠

كانت دير ياسين هدفا سهلا ، وكان اهلها طيبين جدا ٠

في الساعة ٣٠ر٤ من صباح هذا اليوم كانت القوة المهاجمة تطوق القرية من جميع المحاور ٠ ومن بعيد ، من مكبر للصوت لا يسمعه الا من هو بقربه — كما يقول شاهد — انذر اهالي القرية النائمون ، ومدة الانذار كانت نصف ساعة ٠ ولما لم يسمع احد الانذار بدأ الهجوم ٠ وكان بيت المختار اول البيوت التي استهدفت ٠ وخلال ساعات انتهت العملية ونظفت القرية من جميع سكانها ٠ لقد قاتلت البنادق التركية القديمة وقتلت اربعة من المهاجمين ، كما قال بيغن ٠ ولكن ٠٠٠ ؟ كانت المحصلة ٢٥٤ قتيلا بين رجل وامرأة وطفل، ذبحوا وقتلوا بدم بارد ٠ مثل باجسامهم ، قطعت اوصال البعض منهم ، بقرت بطون الحوامل ، واغتصبت فتيات المدارس ٠ عندما يستعيد الانسان تفاصيل هذه الجريمة الان ، يكاد لا يصدق ٠ مندوب الصليب الاحمر الذي زار القرية في اليوم التالي ، لم يكن يصدق ما تراه عيناه ٠ كثير من التفاصيل التي رواها شهود عيان ، تكاد لا تصدق لهولها ٠

الشاهد فهمي زيدان ، عمره ١٢ سنة ٠ ★

كان الوحيد الذي نجا من بين ٣٥ شخصا ، جمعوا وقتلوا وظهورهم الى الحائط ، يقول فهمي : « امر اليهود جميع افراد عائلتنا ان يقفوا ويديروا وجوههم الى الحائط ٠ وما ان

★Hirst, David, The Gun And The Olive Branch Page 124

قمنا بذلك ، حتى بدأوا باطلاق النار علينا . اصبت بجنبي ·· ابي ، امي ، جدي جدتي ، خالاتي ، عماتي ، واطفالهم ، قتلوا » ·

الشاهد حليم عيد ، يقول :

« رأيت شخصا يطلق النار على اختي الحامل في شهرها التاسع ، ثم يبقر معدتها بسكين لحام » ·

الشاهد مئير باعيل يقول : ★

« كان الوقت بعد الظهر عندما انتهت المعركة وتوقف اطلاق النار · كان الوضع يبدو هادئا ، ولكن القرية لم تستسلم · افراد الارجون وشتيرن تركوا اماكنهم حيث كانوا مختبئين · ثم قاموا بعمليات « تنظيف » في البيوت · اطلقوا نيرانا من جميع الاسلحة التي كانت بحوزتهم ، والقوا بالمتفجرات على البيوت · واطلقوا النار ايضا على كل شخص كانوا يرونه في البيوت ، بمن فيهم الاطفال والنساء · وحقيقة ، لم يقم القادة بأي محاولة لمنع اعمال الذبح ··· في هذا الوقت تم جمع اكثر من ٢٥ شخصا ، احضروا من بيوتهم، ثم اركبوا سيارة شحن ، وطيف بهم في استعراض على طريقة الرومان ، في شوارع القرية ثم اخذوا الى محاجر، ومن هناك الى منطقة حجرية بين دير ياسين وجفعات شاؤول، حيث قتلوا بدم بارد » ·

والشهادات كثيرة ، والتفاصيل فظيعة · ولانها كذلك ، ولانها اثارت استنكارا عالميا، انكرت قيادة الهاجناه اشتراكها بها ، وادانت الوكالة اليهودية مرتكبيها · ولكن الحقائق واضحة · وكما يذكر بيغن واخرون يهود ، فالهاجناه كانت على علم كامل بالعملية ، وزودت المهاجمين بالسلاح والذخيرة ، كما امرت مجموعة من البالماخ بالاشتراك في العمليـة ·

ومنذ ثلاثين عاما ودير ياسين تفاصيل ··· وجريمة ، ودير ياسين تطارد الجريمة ·· والمجـرم ·

وفي ١١ـ٣ـ١٩٧٨ كان مناحيم بيغن ، رئيسا لوزراء اسرائيل ، وكانت دير ياسين تنطلق من الذاكرة ، وتتمشى على الشاطىء ، على الطريق بين حيفا وتل ابيب · كانت دير ياسين هناك تطارد المجـرم ·

II

دير ياسين ـ البطولة

كل شيء كان هادئا على الشريط الساحلي الممتد من حيفا الى تل ابيب ، بعد ظهر يوم

★ مئير باعيل ، احد عناصر البالماخ الذين شاركوا في الهجوم على القرية · لقد رفع تقريره هذا الى يسرائيل جاليلي قائد البالماخ انذاك ، ولم يسمح بنشر هذا التقرير الا بعد ٢٤ سنـة ·

السبت في ١١ـ٣ـ١٩٧٨ · لا احد كان يفكر ان هذا اليوم سيكون يوما غير عادي · وحدهم الذين سكنت دير ياسين ذاكرتهم كانـــوا يفكرون ·

كل شيء كان هادئا ، المصطافون والمتنزهون يقضون اوقاتا ممتعة · فحكومة اسرائيل قوية ، تطارد « المخربين » وتقصف مخيمات الفلسطينيين ، بعيدا عنـــهم · لا مكـــان للفلسطينيين · فالسادات يزور القدس طالبا « السلام » واثار حرب تشرين تبخرت فـــي الهواء ، فلا شيء يخيف ·

كل شيء كان هادئا وعاديا جدا ، والامور تسير على خير ما يرام · بيغن سيسافر غدا الى واشنطن بصحبة وزير خارجيته · وفايتسمان يتابع زيارته للولايات المتحدة ، ويعقـد صفقات جديدة من الاسلحة الاميركية لاسرائيل · والسادات قابع في استراحته ، يبحث عن جرعـة حياة « لمبادرته » التي تكاد تموت من الجفاف ·

كل شيء عادي ، وكل شيء هادئ · حسابات الساسة ومعادلات الكبار ، تمضي دون عوائق ··· لا شيء ينذر بالخطر ، ولماذا الخوف ، وممن الخوف ؟ وفجـــأة تنطلـــق الرصاصات ··· وفجأة تنطلق تفاصيل جديدة عن دير ياسين · ويتذكر بيغن المصطلحـــات التي تربى عليها : « ارهاب ، سفلة ، قتلة ··· الخ · »

دير ياسين لم تمت ، واستحضار دير ياسين الجريمة ، يجعل الانسان يفقد اعصابه ، ويجعل التفكير في الانتقام امرا لا بد منه · وحدهم المقاتلون الفلسطينيون كانوا اكبر مـــن الجريمة ، واكبر من فظاعتها ، وحدهم قالوا ، اننا نتذكر ، لنعيد ترتيب الامور من جديد ، ليس بالارهاب ، ولكن بالقتال · والحرب هي الحرب ، كما يقول الساسة الكبار في لندن وواشنطن ، وكما يقول بيغن · والحرب دائما لها ضحاياها · بيغن عنده الطائرات يقصف بها المخيمات والتجمعات السكنية · فهل هذه هي الحرب ؟

الشعب الفلسطيني لا يملك الطائرات ليدمر وليقتل على طريقة الساسة الكبار ، للشعـب الفلسطيني مقاتلوه ، ومناضلوه ··· في الضفة الغربية يرشقون الدبابـــات بالحجارة ، ويقاومون الرصاص المنهمر بأطارات الكاوتشوك المحترقة ··· هل هذه هي الحرب ؟ مـــن يملك الدبابة والطائرة ، فمعه القانون ، يقتل ويدمر كما يشاء ·· اما الذين يقاتلون مـــن اجل وطنهم ، فالقانون ضدهم ، ونضالهم ارهاب !! اي عدالة وأي قانون ؟

صحيفة اميركية لم تسمع ان هناك اطفالا عربا تحصدهم يوميا الطائرات الاسرائيلية ، وانه منذ يومين اجتاح سائق شاحنة عسكرية اسرائيلية جمعا من النساء والاطفال فـــي مخيم عسكر بنابلس هربا من حجارة الاطفال · فقتل طفلين وجرح اربعة آخرين · واعتبـر الاطفال مذنبين والسائق بريئا · هذه الصحيفة ذرفت كل الدموع وجندت كل كلمات الرثاء، لمقتل امرأة كانت تتنزه على الشاطيء على حد قولها · كانت على الشاطيء لانها كانـــت تستمع الى زقزقة العصافير فأصابتها رصاصات « القتلة » · تأسف لمقتل هذه المرأة ، ولكن من يأسف لمقتل اطفال فلسطين ، واطفال لبنان ، واطفال مدرسة بحر البقر في مصر ؟

كان كل شيء هادئا ، وعاديا جدا ، بشكل يبعث على الملل ، وفجأة ·· تتغير الصورة ، وتبدأ فصول جديدة ··· لم يدخلها الساسة الكبار في حساباتهم ومعادلاتهم ·

هل مـــن تفاصيـــل ؟

تبدو التفاصيل هنا مشوشة ، وغير دقيقة · ويبدو ان الاهداف السياسية تسقط بعض

التفاصيل ، وتخلق تفاصيل جديدة · ولكن تبقى بعض التفاصيل مهمة ، **وكما تــروي المصادر الاسرائيلية :**

مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين قدر عددهم في البداية بعشرة رجال وامرأة قدموا من منطقة ما من ساحل لبنان بزورقين مطاطيين فرنسيين من نوع « زودياك » ونزلوا في مكان على الشاطىء الفلسطيني قرب مستوطنة معجان ميخائيل التي تقع على بعد ٢٥ كيلو مترا جنوب حيفا · ثم اتجهوا صوب البر ، ولما وصلوا الطريق الدولية اوقفوا سيارة مرسيدس وركبوها في اتجاه تل ابيب التي تبعد ٥٦ كم عن المكان الذي نزلوا فيه ·

وفي الطريق اوقفوا باصا وانتقلوا اليه متابعين رحلتهم مع ركابه بعدما كسروا زجاجه الخلفي وراحوا يطلقون منه النار على السيارات الاتية من الاتجاه المعاكس · ثم اوقفوا باصا اخر واحتجزوا ركابه البالغ عددهم ٦٣ شخصا ، وضموهم الى هؤلاء · وانطلق الباص بالجميع في اتجاه تل ابيب ، في رحلة انشد خلالها الفدائيون اغاني ثورية وهتفوا بشعارات سياسية تندد بالتسوية السلمية وبالسادات ·

واستطاع الفدائيون اجتياز حاجزين اقامتهما الشرطة على الطريق الدولية بين حيفا وتل ابيب ، الا انهم اضطروا الى التوقف عند الحاجز الثالث الذي اقيم في منطقه هرتسليا قرب ناد ريفي يحمل اسم « كانتري كلوب » اطلق رماة اسرائيليون النار على دواليب الباص وعلى الاثر خرج افراد الوحدة الفدائية من الباص ، وانتشروا في الجوار ·· ونشبت معركة استمرت عشر دقائق ·

تفاصيــل جديــدة

ذكرت « الجارديان » ان الفدائيين لدى نزولهم الى الشاطىء ، صادفوا امرأة فاستجوبوها ثم قتلوها · وفي رواية اسرائيلية انهم قيدوها · واضافت الصحيفة ، ان الفدائيين كانوا على الطريق الدولي حوالي الساعة ٤ر٣٠ · كما ذكرت انه حوالي الخامسة مساء اطلق الفدائيون النار من الباص على سيارة جيب للشرطة حاولت اعتراض طريقهم قرب جيفات اولغا ·

اذاعة اسرائيل تكشف تفاصيل جديدة ، فتذكر في نشرتها الساعة التاسعة صباحا يوم ٣/١٣ ، ان المجموعة الفدائية التي نفذت العملية انطلقت من احد الموانىء اللبنانية قبل يومين ، بواسطة احدى السفن [ذكر لاحقا انها يونانية] التي نقلتهم قبالة الشاطىء الفلسطيني · وتضيف الاذاعة ، ان خطة الفدائيين الاساسية كانت السيطرة على فندق ضخم في منطقة تل ابيب ولكن خطأ وقع في قيادة السفينة ادى الى هبوطهم في منطقة معجان ميخائيل · وعندئذ عدل قائد المجموعة اهداف العملية · وذكرت الاذاعة لاحقا انه عثر مع الفدائيين على نداء مكتوب باللغة العبرية يطالب باطلاق عدد من المعتقلين الفلسطينيين ·

وفي رواية اخرى اوردتها اذاعة اسرائيل ، بلسان المفتش العام للشرطة ، المفوض حاييم طابوري ·

« توجه ١٣ مخربا قاصدين تل ابيب · واستقلوا سفينة كبيرة قرب شواطىء لبنان ونزلوا منها في ٧ـ٣ـ١٩٧٨ ، وظلوا يومين في البحر ، وعندما اقتربوا من الشاطىء انقلب احد القوارب قبالة الشاطىء ، فغرق اثنان من المخربين · وبعد وصولهم الى الشاطىء القى

المخربون القبض على فتاة ، وبعد ان عرفوا مكان وجودهم ، **قيدوها** ، واستمروا في طريقهم نحو الطريق العام · وسيطر اثنان من المخربين على سيارة اجرة ، كما سيطروا على سيارة باص · وكذلك استولوا على سيارة باص اخرى · وفي سيارة الاجرة التي تركها المخربون بعد ذلك ، عثرت الشرطة على كميات كبيرة من الاسلحة ، ومن ضمنها صواريخ من نوع «لاد» · وقد علمت الشرطة بنبأ هجوم المخربين قرابة **الساعة الخامسة** · وارسلت دوريات الشرطة الى المكان بسرعة ، وعلى طول الطريق اقيمت حواجز ولكن سيارة الباص نجحت في تجاوز الحواجز · وعندما اقترب الباص من تل ابيب ، صدرت الاوامر بايقاف الباص بكل ثمن ·

وحسب هذه التعليمات وضعت سيارات على عرض الشارع قرب مفترق « اكاديا » حيث اخذت الوحدة الخاصة لمكافحة الارهاب في الشرطة اماكنها على جانبي الشارع · ونجح الباص في اختراق حاجز السيارات ، لكن رجال الشرطة نجحوا في اصابة عجلات الباص وتوقيفه قرب مدينة السيارات · وهناك خرج من الباص بعض الرهائن وسبعة مخربين ، اختبأوا بين الشجيرات وكثبان الرمل الى جانب الطريق ·

وقام رجال الشرطة الذين كانوا هناك باقتحام مكان المخربين الذين نزلوا من الباص ، وقتلوا خمسة منهم واسروا اثنين · وعندها بدأ المخربون داخل الباص باطلاق النار في كل اتجاه ·· وكما يبدو فانه نتيجة لنيران المخربين ، انفجر الباص وعند الانفجار قتل ١٩ من الرهائن · واضاف طابوري «انه كان بالامكان الاعلان عن الحادث عبر الاذاعة وبالتالي الحيلولة دون اصابة مزيد من السيارات » ·

كيف انفجر الباص ؟

الروايات الاسرائيلية تبدو مشوشة هنا ، فمن ناحية تؤكد ان تبادل اطلاق نار شديد قد جرى لدى اعتراض الباص ، بين الفدائيين الذين **داخله** ورجال الشرطة الاسرائيلية في الخارج · ومن ناحية اخرى تؤكد ان الباص انفجر بفعل نيران الفدائيين · ولماذا ليس بنيران الشرطة الاسرائيلية ؟ سؤال يبدو ان السلطات الاسرائيلية تخشى الاقتراب منه ·

لم يكن رجال الشرطة الاسرائيلية يفكرون « بالرهائن » · كان شيء واحد يحركهم هو اطلاق النار كيفما كان لايقاف الباص حتى ولو ادى لقتل كل من فيه ·

تقول اذاعة اسرائيل :

« كان الامر الذي صدر الى وحدات الدورية التابعة لشرطة منطقة دان [المنطقة الوسطى] واضحا لا يقبل التأويل ، وهو انه يجب سد طريق سيارة الباص **باي ثمن** ، وعدم السماح للباص بالدخول الى قلب المنطقة الاكثر ازدحاما بالسكان في الدولة · وبموجب بعض التقارير اللاسلكية الصادرة عن سيارات الدورية المطاردة لسيارة الباص ، كان واضحا لقيادة شرطة تل ابيب ، ان المسألة تتعلق بمخربين مسلحين جيدا ولا يتورعون عن اللجوء الى اية وسيلة · اقامت الحاجز الاول سيارة جيب تابعة لشرطة مدينة هرتسليا ، كان فيها اثنان من افراد الشرطة وشرطية · وقبل ان يكملوا استعدادهم كان الباص قد اقترب منهم، ثم صلي الحاجز بصليات من البنادق الرشاشة ، ونجح الباص في تجاوز الحاجز بسرعة هائلة ، لكنه اصطدم بحاجز اخر اقامته شرطة منطقة « دان » قرب « الكانتري كلوب » ، وكانت قد وصلت الى هناك قوة صغيرة من حرس الحدود ، ولم تكن قد توزعت في المكان

كما ينبغي · وعلى الرغم من ذلك فقد تم ايقاف الباص ، ودارت معركة عنيفة في المكان، الى حين قدوم تعزيزات من تل ابيب ، أضافة الى قوات الشرطة التي كانت تلاحق الباص المختطف · وقتل واحد من افراد الشرطة كما اصيب تسعة اخرون ، بعضهم كانت اصابتـه خطيـــرة » ·

وبالنسبة للوحدة الخاصة لمكافحة « الارهاب » اوضح طابوري ان الوحدة لم تستطـع الوصول الى مكان الحادث في الوقت المناسب ، اذ في البداية اعطيت التعليمات لهـــا بالتوجه الى « معجان ميخائيل » ولكن بينما كانت الوحدة في الجو صدرت اليها تعليمات بالتوجه الى « الكانتري كلوب » حيث وصلت الى هناك بعد انتهاء المعركة ·

الاصابـــات

٣٧ اسرائيليا قتلوا و ٨٢ اخرين جرحوا ، وتكتمت المصادر الاسرائيلية عن القتلـــى والجرحى من الجنود الاسرائيليين ··

استشهد ١١ فدائيا بينهم الشهيدة دلال المغربي · تسعة استشهدوا لدى تبادل اطـــلاق النار ، واثنان غرقا ، اكتشف جثة احدهما خفر السواحل الاسرائيلية يوم ٣/١٨ ، واسر اثنـــان من الفدائيين بعد ان جرحـــا ·

تفاصيل جديدة في الرواية الاسرائيلية

في ١٩ـ٣ـ١٩٧٨ ، اوردت وكالات الانباء من تل ابيب ، ان السلطات الاسرائيلية رتبت مقابلة صحفية في بيت « الصحافي الاسرائيلي » مع احد المعتقلين اللذين اسرا في العملية، وهو الفدائي حسين محمود فياض ، ١٨ عاما من مواليد خان يونس ·

قال فياض انه ينتمي الى حركة فتح شأنه شأن رفاقه ال ١٢ الذين اشتركوا في العملية · واوضح ان خطأ وقع في العملية المقررة التي كانت تقضي بالسيطرة على احد الفنادق في تل ابيب واحتجاز رهائن والمطالبة بالافراج عن خمسة فدائيين معتقلين · وكشف فيـــاض انه ورفاقه الذين انزلوا في قوارب مطاط في عرض البحر ضلوا طريقهم بسبب ســـوء الاحوال الجوية · وقد تقاذفتهم الامواج طوال يومين ، ثم اهتدوا بانوار بدت عن بعـــد وهي(وصلتهم الى شاطىء مستوطنة معجان ميخائيل ·

تفاصيل العملية كما روتها الثورة الفلسطينية

مساء ١١ـ٣ـ١٩٧٨ اصدرت القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية سلسلة بيانـــات حول العملية كما يأتي :

بيان رقم ١ :

انطلاقا من ايمان حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) في الاستمرار بتصعيـــد كفاحها المسلح ضد العدو الصهيوني داخل الوطن المحتل والمضي في النضـــال على درب الثورة الفلسطينية المسلحة بكل عزيمة وتصميم ، وايمانا من حركتنا بان الطريق الاساسي

لمواجهة كل موجات التآمر على شعبنا ، وتحطيم كافة المحاولات التصفوية لقضيتنا انما يرتكز على تطوير العنف الثوري المسلح ضد الاحتلال الصهيوني ، وتدعيما لنضال شعبنا الصامد في الارض المحتلة، ووفاء لتضحيات ودماء شهدائنا الابرار ، فقد صدرت التعليمات الى قوة « دير ياسين » لتنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان داخل الارض المحتلة ٠

هذا وقد بدأت القوة بتنفيذ العملية الساعة ، ١٨ر٤٠ من يوم السبت في المنطقة الساحلية بين حيفا وتل ابيب ٠ وتجري الان معركة واسعة على كافة الاهداف المحددة بين قواتنا وقوات جيش وشرطة العدو الصهيوني ٠

بيان رقم ٢ :

في الساعة الثامنة وخلال قيام قوة «دير ياسين » بتنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان في المنطقة الواقعة ما بين مدينة حيفا وتل ابيب المحتلة قامت قوات العدو الصهيوني بزج قوة كبيرة من الجيش الاسرائيلي والشرطة وتمكنت قواتنا من تدمير شاحنتين تقلان جنود العدو الصهيوني تدميرا كاملا ٠ ولا زالت قواتنا مستمرة في تنفيذ مهمتها ٠

بيان رقم ٣ :

في الثامنة والنصف حاولت قوات العدو الصهيوني تطويق قواتنا ٠ وقد باءت المحاولة بالفشل ، وتمكنت قوة « دير ياسين » من شق طريقها بالقوة وقامت بعملية تنقل واسعة في المنطقة مستخدمة اليات العدو التي تمكنت قواتنا من الاستيلاء عليها ٠
هذا وقامت قواتنا باغلاق معظم الطرق ما بين حيفا وتل ابيب ٠

بيان رقم ٤ :

ما زالت قوة « دير ياسين » من (قوات الداخل) تعمل بحرية في المنطقة الواقعة بين حيفا وتل ابيب وذلك بسبب الارتباك الذي اعترى قيادات وقوات العدو الصهيوني٠ وتمكنت قواتنا لغاية الان الساعة ٢١ر٠٠ من ضرب الاهداف المخصصة لها في المنطقة واوقعت خسائر كبيرة في قوات العدو والياته ٠

بيان رقم ٥ :

حتى الساعة ٢١ر٣٠ ما زالت قوة دير ياسين (من قوات الداخل) تعمل في المنطقة الواقعة ما بين حيفا وتل ابيب بحرية وقد قامت القوة بمهاجمة الاهداف جميعها ٠ وجرت معركة تحت الجسر الواقع في غرب بلدة الطيرة قرب حيفا مما ادى الى مقتل ما لا يقل عن ١٥ من جنود العدو الصهيوني ٠ وتمكنت قواتنا من السيطرة على الجسر واحدى اليات العدو الصهيوني ٠

كما جرى اشتباك بين احدى مجموعات قوة دير ياسين وقوات العدو الصهيوني في منطقة كفار حوليم اسفرت عن مقتل عدد لم يحدد بعد من قوات العدو ٠ وعلى الاثر قامت قوات العدو الصهيوني باستخدام قوات آلية كبيرة وقوات محمولة جوا ٠ بالطائرات العمودية وانيرت المنطقة كاملة ٠

ورغم ذلك لا زالت كافة المجموعات من قوات دير ياسين تعمل ضمن الخطة كما قامت احدى المجموعات من قوة دير ياسين بمهاجمة هدفها قرب نادي سبورت شمال تل ابيب · وعلى مفرق طريق الفريديس تمكنت هذه المجموعة من تدمير شاحنة للعدو تقل ما لا يقل عن ١٨ جنديا من جنود العدو الصهيوني وكذلك قامت مجموعة اخرى من قوات دير ياسين بالاشتباك مع قوة للعدو الصهيوني على طريق كفار سابا شمال تل ابيب واوقعت خسائر في قوات العدو لم يقدر عددها بعد ·

بيان رقم ٦ :

حتى الساعة ٠٠ر٢٢ ما زالت قوة دير ياسين تقوم بتنفيذ مهامها في المنطقة ما بين حيفا وتل ابيب وقد اوقعت خسائر كبيرة في صفوف قوات العدو الصهيوني ومن جراء ذلك قامت قوات العدو بعمليات اعادة تنظيم لقواتها اكثر من مرة من جراء الخسائر والارتباك الذي اعترى صفوفها ·

هذا وقد شملت العمليات الهجومية التي قامت بها قوة دير ياسين اماكن متعددة في المنطقة فهاجمت احدى المجموعات من القوة كريات عطا واوقعت خسائر بقوة العدو هناك كما قامت احدى المجموعات بمهاجمة حواجز الطرق التي اقامتها قوات العدو ·

بيان رقم ٧ :

لا زالت قوة دير ياسين تواصل عملياتها العسكرية المكلفة بها ضمن الخطة المرسومة لها في كافة المواقع . حيث لا زالت تدور هناك . معارك مواجهة عنيفة بين ثوارنا وقوات العدو التي دفع بها . الى ارض المعركة الممتدة بين حيفا وتل ابيب ·

وقد استطاع الثوار تحقيق اصابات مباشرة في صفوف العدو الالية والبشرية ولا زال ثوارنا يؤدون مهمتهم في المنطقة بنجاح ·

وفي اليوم التالي اصدرت القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية سلسلة بيانات اخرى حول العمليـــة كالاتي :

بيان رقم ٨ :

استمرت مجموعة قوات دير ياسين في العمل في منطقة الهدف المقرر رغم عمليات التمشيط التي استمرت طيلة الليل في كافة مناطق السهل الفلسطيني بين حيفا وتل ابيب·

جرت عدة اشتباكات قرب هرتسيليا ورمات هشكرون بين احدى مجموعات التعزيز التي تقودها الاخت دلال . وبين قوات جيش العدو التي ساندتها طائرات هليوكبتر · وقد تمكنت المجموعة من التصدي ببسالة لقوات العدو في معركة مواجهة استمرت اكثر من اربع ساعات · وقد استشهدت قائدة مجموعة التعزيز وكان اخر عمل قامت به الشهيدة وهي تهتف لفلسطين وثورة شعبنا هو القاء اخر قنبلتين لديها على قوات العدو في اخر لحظة ، هذا بينما استطاعت مجموعة اخرى من اختراق منطقة الحصار والوصول الى قاعدتها الامنة داخل الارض المحتلة في نفس الوقت الذي استمرت فيه مجموعات اخرى في نشاطها الثورية حسب المقـــرر ·

هذا وقد قامت سلطات العدو بالاجراءات التالية :

١ ــ فرض منع التجول كاملا لاول مرة منذ قيام الكيان الصهيوني منذ الساعة الثالثة صباحا وحتى اشعار اخر ، على حوالي ٣٠٠ الف من سكان المنطقة من تل ابيب وحتى ناتانيا شمالا ، ويشمل منع التجول المناطق التالية : رامات ايفيف ، هدار يوسف ، رمات عاي ، تشهلا ، رعنانا غربا ، رامات ، هشكرون ، ناتانيا ، هرتسيليا ، كفار مشمار ، ياهو كفار ، سابا ، شارع هشرون ، شارع حيفا ــ تل ابيب ٠

٢ ــ اغلاق كافة المدارس والمصانع في تلك المنطقة ٠

٣ ــ منع سكان الارض المحتلة من دخول فلسطين المحتلة لعام ٤٨ ٠

٤ ــ تاخير تحرك القطارات بين حيفا وتل ابيب ٠

٥ ــ ايقاف تحرك خطوط الباصات داخل تل ابيب وضواحيها ، وايقاف خطوط ايجد الواقعة داخل منطقة الحظر بين ناتانيا وهزتسيليا ورمات هشرون والمستوطنات القريبة ٠

٦ ــ اصدار نداءات لجنود جيش العدو بالتجمع في منطقتي ناتانيا وهرتسيليا لنقلهم الى المعسكرات ٠

٧ ــ تقوم القوات المشتركة من جيش العدو والشرطة بتمشيط المنطقة بالسير تفتيشا دقيقا حسب تعبير مراسل الاذاعة العبرية العسكري روني دانييل وان الاوامر صدرت للجنود بتمشيط كل متر مربع من المنطقة التي سميت مشبوهة ٠

٨ ــ يجري فرض منع التجول على سكان الضفة الغربية ٠

٩ ــ تجري عمليات تفتيش واسعة في فنادق مدينة القدس العربية ٠

١٠ ــ تجري عمليات تفتيش واسعة في الجليل ومنطقة ابو ديس ٠

١١ ــ تم اشراك عدة الاف من متطوعي الحرس المدني للمشاركة في عمليات التفتيش واقاموا حواجز للتفتيش على مختلف المعابر والطرق ٠

١٢ ــ اقامت قوات الامن حواجز منعت دخول ٤٠ الف عامل عربي من الضفة الغربية وقطاع غزة الى المنطقة كذلك منع الاف العمال العرب من الجليل والمثلث ٠

١٣ ــ استمرار اغلاق جسور نهر الاردن امام الحركة ٠

١٤ ــ تعطلت بورصة تل ابيب وهبطت فيها قيمة الاسهم والاسعار ٠

١٥ ــ تجري حملات من المتطوعين ورجال الشرطة لجمع جثث القتلى حيث اعلن العدو عن ٣٧ قتيلا و ٨٣ جريحا ٠

بينما تجاوزت خسائر العدو العسكرية ضعف هذا العدد ٠

١٦ ــ تقوم دوريات الشرطة بالتجول بالاماكن التي يسكنها العرب واليهود تحسبا لوقوع احداث ٠

بيان رقم ٩ :

تنفيذا للاوامر الصادرة من القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية الى عدد من مجموعات الداخل القيام بعمليات اسناد لقوة دير ياسين التي نفذت عملية المجابهة البطولية ضد قوات العدو منذ يوم امس وحتى ساعة اصدار هذا التصريح الساعة ٢٠ر١٤ وذلك في المنطقة الواقعة بين حيفا وتل ابيب فقد تحركت ، تنفيذا للاوامر ، قوة فدائية للعمل في منطقة بيسان حيث اشتبكت في معركة مع قوة عسكرية للعدو وتمكنت من نسف سيارة باص كبيرة بعد ان انزلوا ركابها المدنيين ، هذا وقد عادت القوة الى قاعدتها سالمة.

بيان رقم ١٠ :

واصلت قوة دير ياسين عملياتها المحددة لها طبقا للخطة الموضوعة لليوم الثاني على التوالي ضمن منطقة العمليات الواقعة بين حيفا وتل ابيب ، فقد اصطدمت مجموعة من مجموعات قوة دير ياسين بقوة للجيش والشرطة والحرس المدني الصهيوني في المنطقة الواقعة بين معجان ميخائيل ونادي كنتري كلوب بين تل ابيب وناتانيا ، وقد وقعت اصابات في قوات العدو نتيجة للاشتباك وتمكنت قواتنا من الافلات من الحصار ، الذى حاولت قوات العدو فرضه عليها .

هذا ، وقد اعترف العدو ظهر هذا اليوم بخسائره في هذا الاشتباك حيث اعلن عن اصابة سبعة عشر فردا من جنوده وشرطته .

بيان رقم ١١ :

« تواصل قوات دير ياسين تنفيذ عملية الشهيد كمال عدوان وتقوم بعملياتها العسكرية داخل الارض المحتلة حسب الخطة الموضوعة . فقد اصطدمت مجموعة من القوة مساء هذا اليوم ١٢-٣-١٩٧٨ مع قوة للعدو في شارع الياهو شمالي تل ابيب ولا زالت الاشتباكات مستمرة حتى صدور هذا البلاغ في الساعة السابعة مساء .

وتسمع اصوات رصاص وانفجارات في المنطقة في الوقت الذي تتجمع فيه قوات الجيش والحرس المدني وحرس الحدود وتقوم باغلاق الطرق المؤدية لمكان الاشتباك » .

كذلك فقد أصدرت حركة « فتح » بيانا سياسيا حول العملية يوضح اهدافها ، جاء فيه :

عملية كمال عدوان التي ينفذها ثوار « فتح » من مجموعات دير ياسين العاملة في الاراضي المحتلة تؤكد اصرار الثورة الفلسطينية على احياء ذكرى الشهيد البطل كمال عدوان قائد عمليات الثورة في الارض المحتلة والذي سقط غدرا برصاص العدو في ١٠ نيسان ١٩٧٣ مع الشهيد ابو يوسف النجار وكمال ناصر في بيروت .

ان هذه العملية البطولية الجريئة تجيء في هذا الوقت لتؤكد اصرار الشعب الفلسطيني على مواصلة الكفاح المسلح ضد الغطرسة والاحتلال الصهيوني ، كما انها تعتبر رمزا لمواصلة النضال ولرفض الحلول الاستسلامية التي تحاول القوى المستسلمة فرضها على امتنا العربية وعلى شعبنا الفلسطيني البطل .

وعشية سفر الارهابي بيغن الى اميركا لتثبيت غطرسته واحتلاله للاراضي العربية، وفي

الوقت الذي تتنازل فيه بعض القوى عن الحقوق العربية وتحاول طمس الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفي الوقت الذي يستمر الارهابي بيغن ببناء المستوطنات ، وبتغيير معالم الارض الفلسطينية والعربية غير عابىء بالمشاعر الدولية وساخراً من الرأي العام العالمي يثبت ثوارنا الابطال انهم قادرون على اختراق كافة الحواجز الصهيونية والوصول الى هدفهم ٠

ان هذه العملية البطولية هزت الارهابي بيغن واثبتت جرأة وبطولة ثوارنا كما انها ستهز كثيرا من القوى المرتبطة العميلة والمتآمرة على شعبنا الفلسطيني وامتنا العربية ٠

وما من شك في ان هذه العملية البطولية سوف تدعم المواقف العادلة لشعبنا الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية على كافة الاصعدة فلسطينيا وعربيا ودوليا حيث تأتي في الفترة التي يقوم بها الاخ ابو عمار القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية بزيارة للاتحاد السوفياتي الصديق ولالمانيا الديموقراطية ٠

انها ارادة الشعوب المناضلة والاصرار على مواصلة النضال العادل ضد الاحتلال الصهيوني المتغطرس والمتعاملين معه من اعداء امتنا العربية وشعبنا الفلسطيني ٠

يومان من الرعب في اسرائيل

عاشت اسرائيل يومين من الرعب ، ليس في منطقة العملية فقط ، بل وفي كل فلسطين المحتلة تقريبا ٠ ولاول مرة منذ ثلاثين عاما تفرض السلطات الاسرائيلية منع تجول عاما وشاملا في منطقة واسعة شملت مدينة تل أبيب ، وتضم ٣٠٠ الف من السكان ٠ قوات كبيرة من الشرطة والجيش والحرس الاهلي ، قامت باكبر عملية تفتيش ، بحثا عن ثلاثة فدائيين قالت السلطات الاسرائيلية انهم طلقاء ، وانهم نجوا من القتل وانتشروا في المنطقة ، اثر مهاجمة الباص الذي كان يقل الفدائيين والركاب قرب « كانتري كلوب » ٠

استمر منع التجول يومين متتاليين ، واستمرت عمليات التفتيش الواسعة لاكثر من يومين ، اشرف عليها قائد المنطقة الوسطى العميد موشيه ليفي ٠ ولم تتوقف عمليات التفتيش ولم يرفع منع التجول الا بعد العثور على جثث الفدائيين الثلاثة بين حطام الباص الذي احترق ٠ وصفت الاذاعة الاسرائيلية عمليات التفتيش فقالت « ان شرطة اسرائيل استخدمت ١٢٠٠ شرطي اضافة الى ٤٥٠٠ من الحرس في اعمال التفتيش والحماية وتوجيه السير ٠ هذا اضافة الى النشاط الجاري والمعتاد لشرطة تل أبيب ، والتي جرى تعزيزها بقوات اضافية من افراد الشرطة من الاقضية المجاورة ٠ لقد قامت قوات شرطة تل أبيب بحماية ١٢٠٠ مؤسسة تعليمية و ٩٩ فندقا وخمس مستشفيات ، اضافة الى عشرات الحواجز التي اقيمت على الطرق ٠٠٠٠ في اليوم الاول اتسعت عمليات التفتيش لتشمل المنطقة المحاذية للكانتري كلوب ٠ حيث اتخذت القيادة من مباني النادي مقرا لها ٠ ومن هذا المقر كان يدير العمليات قائد المنطقة الوسطى العميد موشيه ليفي ٠ وجرى تقسيم الجنود الى وحدات صغيرة انتشرت في المنطقة ٠ وفي المناطق حيث توجد شجيرات كثيفة ومنازل مهجورة تمت عملية التفتيش باقتحام الاماكن بالنيران ٠ وقام افراد الحرس الاهلي بدوريات في الشوارع لحماية مداخل المنازل وفي بعض الاماكن الحساسة الحق بأفراد الحرس الاهلي جنود من الجيش ٠ وقد وصل مردخاي غور عدة مرات الى مقر القيادة ٠

وأضافت الاذاعة : في جو عاصف وممطر دخلت عملية التفتيش ليلتها الثانية · وشارك اليوم مئات الجنود في عملية التفتيش الواسعة · جرت عملية تفتيش دقيقة للمناطق الزراعية والمباني الصناعية والمهجورة · وجرت عملية التفتيش بمساعدة كلاب الاثر والطائرات العمودية ·

يومين من الرعب ، انهالت خلالهما مئات المخابرات على مراكز الشرطة عن اجسام مشبوهة ، أو اشباح تتحرك في هذا المكان او ذاك · لقد كانت اسرائيل في حالة حصار داخلي ، كما قالت وكالة الصحافة الفرنسية وكما قال عضو الكنيست زفي روم « يوم أمس اعاد الى اذهاننا واقع حياتنا الذي كنا نعيشه قبلموجة الغبطة الوهمية التي اثارتها زيارة السادات ··

اضافة الى ذلك فقد اتخذت السلطات الاسرائيلية اجراءات امنية مشددة · قامت وحدات من خفر السواحل باجراء تفتيش دقيق على طول الساحل الفلسطيني الشمالي والاوسط · كذلك منعت السلطات الاسرائيلية العبور من الضفة الغربية الى المناطق المحتلة في العام ١٩٤٨ ، كما اغلقت جسور العبور على نهر الاردن · وقامت باعتقال العشرات من السكان العرب في المناطق الساحلية لاستجوابهم ·

وستظل اسرائيل الباحثة عن امنها خلف جدران موصدة ، تعيش في حالة رعب ، وستظل الجدران مهما ارتفعت ، اقصر من قامة الفدائي حتى يأتي يوم يصبح فيه أمن شعب فلسطين ، هو الامن الذي يحدد اطار وحدود السلام ·

III

اعلان الحرب الشاملة على الشعب الفلسطيني

الحرب بين اسرائيل العنصرية وشعب فلسطين مستمرة ، لم تتوقف منذ أن بدأ الغزو الصهيوني لارض فلسطين · وحرب الشعب الفلسطيني ضد اسرائيل العنصرية والفاشية لن تتوقف حتى ينتصر الحق الفلسطيني · وعملية الشهيد كمال عدوان لم تأت بجديد على صراعنا مع اسرائيل والصهيونية ، الا بما مثلته من قدرة متنامية في المواجهة الفلسطينية للعدو الصهيوني ، كذلك فان هياج بيغن وحكومته بعد العملية يدل على مدى الوجع الذي الحقته باسرائيل ، وكم هزت من « اطمئنان » اسرائيل ، بعد زيارة السادات للقدس المحتلة ·

كان بيغن يعتقد ان معركته مع الشعب الفلسطيني اوشكت على النهاية بعد ان استسلمت له اكبر دولة عربية ، وها هو بيغن ينتزع التنازل تلو التنازل من السادات ، وها هو يضع اسرائيل لتكون صاحبة الكلمة الاولى في الشرق الاوسط · فلم الخوف ؟ مواجهة الفدائيين الفلسطينيين وانهاء وجودهم ، ليست الا مسألة وقت ·

هكذا كان بيغن يعتقد ، وهكذا كانت تعتقد حكومته ، وهكذا كان يظن قادة حزب العمل · الامور باتت مهيأة لالتهام الطبق كله ، وسيتركون بعض الفتات للاخرين ·

كانت العملية اكبر من مفاجأة لبيغن · ومن هنا كان صراخه وهياجه ، ومن هنا كانت هذه الحملة الهستيرية التي شنتها الصحافة الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني ، طالبة الانتقام وشن حرب شاملة ضد الشعب الفلسطيني ·

لم يرتفع صوت يحذر من هذه الهستيريا ، ومن الانجرار وراءها ، الا صوت راكح ·

ولم يسأل احد من الذين ارتفعت اصواتهم طالبة الانتقام واعلان الحرب الشاملة ، لماذا يقاتل الشعب الفلسطيني ؟ لماذا الشعب الفلسطيني ماض في نضاله ، على الرغم من كل اصوات الهزيمة التي ترتفع من حوله ؟

كان أول رد فعل رسمي اسرائيلي على العملية ، المؤتمر الصحفي الذي عقده بيغن في اليوم التالي للعملية ، في هذا المؤتمر كانت كلمات بيغن هائجة وموجهة للدول العربية لتحريضها على الثورة الفلسطينية ·

قال بيغن « خلال سنوات ونحن نشرح للشعوب أنه منذ أيام النازيين لم تقم منظمة سافلة الى هذا الحد وتحمل السلاح مثل منظمة فتح او مثل م·ت·ف· وهذه المنظمة لها هدف واحد هو قتل اليهود ··· منذ ايام المنظمات النازية المعادية لم تقم حتى الان منظمة سافلة ومنحطة الى هذا الحد · وهدفهم كما هو وارد في الميثاق الفلسطيني ، تصفية دولة اسرائيل · وهذه هي المنظمة التي أقرت الدول العربية في السودان والرباط تمثيلها للشعب الفلسطيني بشكل وحيد ومطلق · وتأمل الحكومة في ان تتعلم الشعوب القريبة والبعيدة الدرس المستخلص من هذه العملية المروعة والدامية » ·

وفي الكنيست الذي عقد جلسة خاصة يوم ٣/١٢ ، كان هياج وصراخ ، ودعت الكنيست في بيانها الحكومة الى الاستمرار في شن الهجمات ضد من اسمتهم « منظمات القتلة » ودعت دول العالم الى الغاء اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية · وقد تم اقرار البيان بموافقة جميع الكتل باستثناء كتلة « حداش » التي حذر رئيسها مئير فيلنر ـ بعد ان ندد بالعملية ـ من الدعوات الانتقامية التي تدعو الى عمل عسكري ضد الفلسطينيين في لبنان · وقال « إن مثل هذه الاعمال ستؤدي فقط الى تأزيم الوضع وزيادة خطورته »·

لقد كان بيغن في بيان حكومته امام الكنيست دمويا ، وجه اتهاما شديد اللهجة الى الاتحاد السوفياتي الذي قال انه يساعد « المخربين » بالسلاح والتدريب · واكد انه سينتقم فقال « لقد ولت الى الابد ، الايام التي كان فيها من الممكن سفك الدم اليهودي والتمتع بالحصانة · ليكن معروفا ان سافكي دم الابرياء لن تغسل ايديهم من الاثم ··· وسنبتر ذراع الشر والجريمة » · وكرر بيغن مرات عدة ان الفدائيين جاءوا من لبنان مشيرا الى ان « الذين يساعدون الفدائيين يجب ان يؤدوا حساباتهم ايضا » كما وجه لوما مبطنا الى مصر لعدم تنديدها بالعملية · واشار الى انه بعث ببرقية تعزية الى السادات بعد مقتل يوسف السباعي ·

لقد ألقت كتل الكنيست الاخرى بيانات نهجت فيها نهج بيغن ، وحذر بعضها من الاندفاع في الرد بما يهدد جهود التسوية ·

ييجال الون « حزب العمل » دعا الى استخدام وسائل الدفاع الفعالة « لكي نحطم قوة الشر قدر المستطاع · وكل هذا شرط ان لا نقع في مصيدة مكائده ، وشرط ان لا نلعب لعبته ، ونؤدي لا سمح الله الى جمود في الاندفاع السياسي » ·

وكان الون قد دعا في مقابلة صحفية مع يديعوت احرونوت « ٣/١٢ » الى انه « يجب على اسرائيل ان ترد على عملية المخربين المجرمة بيد حديدية · يجب ان يكون الرد ساحقا ومؤلما ورادعا بقدر الامكان » ·

وفي تصريح اخر له مع الاذاعة الاسرائيلية ربط الون بين العملية وحمل الدول العربية على شن حرب جديدة ضد اسرائيل ، والحاق الضرر بمفاوضات السلام ·

الحاخام دوركمان « المفدال » دعا الى الرد على ما اسماه « منظمات القتلة » واوضح ان هذا الرد يتمثل بزيادة الهجرة وتدعيم الاستيطان ·

ابراموفيتش « اجودات يسرائيل » دعا الى عمل حازم ضد « منظمات التخريب » ودعا الحكومة الى ضربهم بشدة ·

شولوميت الوني « قائمة حقوق المواطن » دعت الى ضرب « المخربين » لكنها حذرت من خط التطرف في سياسة اسرائيل ، الامر الذي سيلحق الضرر باحتمالات السلام ·

أرييه الياف « شيلي » قال ان « المخربين » يشبهون الجراثيم التي تمتص الدماء والتي يجب ابادتها ، ولكن يجب حل مشكلة البيضة التي جاءوا منها ، والبيضة هي الشعب العربي الفلسطيني الذي يجب الاعتراف بحقوقه كي لا تتكرر اعمال الارهاب ·

بلاتو شارون ، قال : لا تكفي مكافحة وضرب العدو في الخارج ، بل يجب ضرب العدو في الداخل · ودعا الى اعتبار « راكح » خارج القانون لانه كما وصفه امتداد لمنظمة « الارهاب » م·ت·ف·

لقد كان جو الحكومة والكنيست تكثيفا للجو العام الذي ساد اسرائيل وساهمت الصحافة الاسرائيلية في تأجيجه ، سواء بعناوينها التحريضية أو بتعليقاتها · وكان الاستخلاص شبه الوحيد الذي خرجت به معظم الصحف الاسرائيلية هو التأكيد على مخاطر الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، ومنحه حق تقرير المصير ·

قالت معاريف « ٣/١٢ » في افتتاحية لها بعنوان دم في الشارع « ان كل طريق وكل مفترق في طول دولة اسرائيل وعرضها ، قد تتحول لشرك دموي لمواطنين آمنين اذا ما اعطي بالفعل سكان الضفة الغربية وقطاع غزة فرصة لتحقيق مطامعهم السياسية » واضافت « ان كل من يحاول دفع اسرائيل الى حلول مستعجلة يرفقها تنازلات احادية الطرق والتخلي عن أمن المواطنين لاكتشاف « اعتدال من هذا النوع ، عليه ان يفهم ان الثمن الذي نكون مستعدين لدفعه ثمنا للسلام ، لا يحتوي على استعدادنا للانتحار » ·

اما هآرتس « ٣/١٣ » فقد ركزت في تعليقاتها على جو الرعب الذي ساد تل أبيب ، وانتقدت حالة الاسترخاء الامني التي كانت تسود تل ابيب « الهادئة والامنة » والتي تناست ليلة سافوي ·

أما فيما يتعلق بالعملية والرد عليها فقد أوضحت في افتتاحيتها بعنوان« الارهاب ليس مشكلتنا الاساسية » انه من الخطأ وضع م·ت·ف على الجهات المعادية لنا وقالت « التهديد الحقيقي لامننا ووجودنا يأتي من جانب الجيوش النظامية في الدول العربية · ولذلك من المستحسن الا نتوانى عن الجهد للوصول مع الدول العربية الى تفاهم واتفاقات لنستطيع الغاء هذا التهديد أو تخفيضه » ·

وقال المعلق العسكري في « يديعوت احرونوت ــ ٣/١٢ » ان توقيت العملية مرتبط كما يبدو ، بموعد زيارة رئيس الحكومة وزملائه لواشنطن بقصد وضعها في الظل وعرقلة اي تسوية نحو السلام · ودعا حكومة اسرائيل « ان تضرب الذين يقومون بارسالهم ومنشآتهم » ·

وربط يهوشوع تدمور (دافار ٣/١٢) بين العملية وسعي المنظمات الفدائية لعرقلة مسار السلام · واعتبر انه تم اختيار توقيت الهجوم بدقة « ذلك ان قيادة فتح ارادت

احداث اكبر قدر من الصدى القوي للعملية ، فهي تؤمن ان الصحوة ستأتي في اعقاب الهزة الاولى ، وتساعد م·ت·ف· في العودة الى وسط الاهتمامات الدولية » واوضح تدمور « تسعى منظمات التخريب لنسف مسار السلام ويجب علينا بذل قصارى جهدنا لصدهم · وبوسع اتفاق سلام ، يحل ولو جزئيا القضية الفلسطينية - تحييد - بمقدار كبير - اعمال القتل من النوع الذي كان نصيبنا يوم السبت الماضي »

في هذا الجو اتخذت الحكومة الاسرائيلية **عدة اجراءات** ، فقد أعلن بيغن تأجيل زيارته للولايات المتحدة ، كما استدعى وزير دفاعه عيزر فايتسمان من الولايات المتحدة ، واعلن فور وصوله الى فلسطين المحتلة **مسؤولية لبنان عن العملية** ، لان الفدائيين اتوا من أراضيه ، وصرح بما يستدل منه نوع الرد الذي تعده اسرائيل فقال « ان الهجوم اثبت مرة اخرى خطر وجود مناطق عربية غير مسيطر عليها على مقربة من مناطق مكتظة بالسكان في اسرائيل » ·

وعلى **الصعيد الدبلوماسي** ، شنت وزارة الخارجية الاسرائيلية حملة دبلوماسية ضد م·ت·ف· وبعث دايان الى السفارات الاسرائيلية في الخارج للطلب الى الدول المعتمدة لديها ، لاغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وطرد ممثليها · وقد اصطدم هذا الطلب الاسرائيلي بمعارضة معظم الدول التي قدم اليها الطلب · وكان **كرايسكي** مستشار النمسا واضحا في رده على الطلب الاسرائيلي عندما قال « ان حكومته لن تغلق مكتب المنظمة في فيينا لان اسرائيل حرمت الفلسطينيين من حقوقهم المشروعة وحق تقرير مصيرهم · وقال انه ليس من حق إسرائيل ان تطالب حكومته باغلاق المكتب » · وقد احتجت اسرائيل على هذا الرد ، واستدعت سفيرها في النمسا للتعبير عن احتجاجها ·

وفي **ستوكهولم** اوضح مسؤول حكومي ، ان حكومة السويد اجابت بالنفي على طلب الحكومة الاسرائيلية باغلاق مكتب م·ت·ف ، واشار الى ان للجميع الحق بفتح مكتب معلومات في عاصمة السويد بدون اذن حكومي ، وانه بالتالي ليس هناك اذن مسبق من حكومة السويد لفتح مكتب ويمكن سحبه ·

وفي **باريس** اشير الى لقاء السفير الاسرائيلي مع وزير الخارجية الفرنسية ، وان السفير طلب من الوزير اغلاق المكتب ، دون الاشارة الى رفض او قبول الحكومة الفرنسية للطلب الاسرائيلي ·

وفي **بون** اعلن ناطق باسم حكومة المانيا الاتحادية ان سفارة اسرائيل تقدمت اليها بطلب اغلاق مكتب م·ت·ف الذي يحتل جانبا من مكتب الجامعة العربية · ولم يذكر الناطق باسم الحكومة اية تفاصيل اخرى ·

وفي **طوكيو** اعلن مسؤول في وزارة الخارجية اليابانية ان بلاده رفضت طلبا اسرائيليا لاغلاق مكتب م·ت·ف· وذكر ان الوزارة شرحت للسفير الاسرائيلي الذي تقدم بالطلب ان حكومته ليست في وضع يسمح لها بالتدخل ·

وفي **واشنطن** ذكر ان سيمحا دينتس ، السفير الاسرائيلي ، طالب الحكومة الاميركية باغلاق مكتب الاعلام التابع ل م·ت·ف في نيويورك · وقد ردت واشنطن انها ستعيد النظر في مكاتب م·ت·ف في الولايات المتحدة ، ولكنها قالت ان هناك احتمالا ضئيلا في اغلاقها ·

وفي **الامم المتحدة** وجهت اسرائيل كتابا الى السكرتير العام للامم المتحدة ، غمزت

فيه من استقبال ياسر عرفات في الجمعية العامة للامم المتحدة في العام ١٩٧٤ ، وجـــاء في الكتاب « ان زعيم المخربين الذين هاجموا اسرائيل يوم السبت، سبق واستقبـــل بحرارة في الجمعية العامة للامم المتحدة » · وذكرت اسرائيل في كتابها « ان قتلة م·ت·ف الاحد عشر ، عملوا بأمر من خليل الوزير « ابو جهاد » · وانهم حملوا معهـــم اسلحـة من انتاج الاتحاد السوفياتي ، وكانوا يعتزمون احتجاز رهائن لكي تفرج اسرائيل عـــن رفاقهم في السجون » ·

انها الحرب الشاملة على الشعب الفلسطيني ، تكرر اسرائيل اعلانها وبشكل هستيري · كان الكل يتوقع الرد · وكان الكل يتساءل اين سيكون الرد · عملية الشهيد كمال عدوان ليست الاولى من نوعها ، وان كانت اكثر ايلاما من غيرها · وكان الكل ينتظر ··· ومرت ثلاثة ايام قبل ان تباشر إسرائيل الرد · كان الطقســـ سيئـــا ··· فتأخـــر الـــرد الاسرائيلي ، الذي كان اجتياحا لجنوب لبنان صبيحة الخامس عشر من شهر اذار الحالي·

حجم العدوان وهدفه ، وحجم القوات التي قدرت بثلاثين الفا تساندها الطائــــرات والمدفعية والسفن الحربية ، كلها تؤكد ان العدوان الاسرائيلي ليس ردا ، بل هي الحـرب الشاملة ، وبأكثر اشكالها عنفا ·

IV

« المحدال » من جديد

كعادة اسرائيل امام كل ضربة توجه لها ، وامام كل فشل تواجهه ، لا تبحث عـــن السبب الحقيقي ، بل تبحث عن أسباب اخرى لا تمس اوهامها ، بانها الدولة الاقـــوى ، وانها جدار الامن الذي لا يخدش ·

انه « المحدال » مرة اخرى · واصابع الاتهام تتجه هذه المـــرة الـــى المفوض العـــام للشرطة ، وخفر السواحل ·

في وسط الذعر والهلع كانت الاسئلة تثار ، من الساسة ، ومن الصحافة ، كيـــف حدث ما حدث ؟ كيف استطاعت مجموعة فدائية من اختراق شبكات الرادار الاسرائيلية التي ترصد كل جسم على طول الساحل الفلسطيني ؟ كيف تجول الفدائيون على الطريـــق الدولية ـ المكتظة دائما ـ لاكثر من ساعة ولمسافة تزيد عن ثلاثين كيلومتـــرا ، دون ان يوقفهم احد ؟ اين الشرطة ، اين الحرس الاهلي ، اين الوحدات الخاصة ؟

صحيفة « معاريف ـ ٧٨/٣/١٢ » تساءلت في افتتاحية لها بعنوان « علامات استفهام » فقالت · لا احد يتوقع من الجيش والشرطة ، واجهزة الامن والحرس المدني ان يفعلـــوا المستحيل · ولكن ثمة مكان للسؤال قطعا ··· ما اذا كان قد عمل ما هو ممكن وحتمـــي في المعطيات القائمة ·· وطرحت الصحيفة العديد من الاسئلة حول فعالية قوات الامـــن

فقالت « هل حقا درست واستنتجت جميع العبر من التسلل الاول للمخربين الى شواطىء تل ابيب قبل ثلاث سنوات · هل حقا لم تكن في اطار المعطيات الموضوعية ، ثمة امكانية لتمييز اقتراب القاربين « الزودياك » الى شواطىء البلاد ؟ هل اعطي انذار في الوقت المناسب ؟ ما هو الوقت الذي مضى بين الانذار الاول وحتى الصدام الاول ؟

وطالبت « دافار ـ ٣/١٢ » باجراء تحقيق دقيق لمعرفة تفاصيل العملية واوضحت

الصحيفة « انه لا توجد هنالك اية امكانية لمنع وقوع اصابات المخربين ··· وانه من المستحيل غلق شواطىء البلاد بشكل محكم » · ولكنها تساءلت عن كيفية نجاح « المخربين » في التسلل الى داخل اسرائيل في وضح النهار على الرغم من الاستطلاعات الجوية والبحرية المتبعة منذ ان تسلل للمرة الاولى فدائيون عبر البحر في ١٩٧٥/٣/٦ ·

كذلك فقد اثيرت تساؤلات كهذه في جلسة الكنيست التي عقدت بعد يومين من العملية الفدائية · وذكرت وكالة الصحافة الفرنسية من تل أبيب ان اوساط المراقبين العسكريين في اسرائيل أجمعوا على ان العملية تشكل فشلا لسلاح البحرية الاسرائيلي · وقالت وكالة رويتر ، ان الظاهرة المزعجة لكثير من الاسرائيليين هي وصول الفدائيين في قوارب مطاطية الى منطقة تعتبر من اكثر المناطق امنا في اسرائيل · واوضحت الوكالة ان الاسطول الاسرائيلي يوجه شبكة رادار متداخلة ويفترض ان تكون قادرة على اكتشاف اجسام لا يزيد حجمها على برميل وعلى مسافة لا تبعد اكثر من تسعة كيلومترات من الشاطىء · كما ان مراقبي الشواطىء يستخدمون اسطولا من قوارب الدورية السريعة والطائرات العمودية ورجال الضفادع ·

وافادت وكالات الانباء ان المراسلين العسكريين يرون ان هناك العديد من الاسئلة التي يمكن طرحها على صعيد المخابرات · فالدوائر العسكرية الاسرائيلية تقر بأن الساحل لا يمكن اغلاقه باحكام · ومن هذا المنطلق يتعين على اجهزة المخابرات العسكرية ان تكشف عن كافة محاولات الرسو على الساحل · ويرى المراقبون انه كان يتعين على اجهزة المخابرات ان تكون على علم بعملية واسعة النطاق مثل هذه العملية حتى قبل تنفيذها ·

لقد اثار نجاح العملية الفدائية جدلا بين الجيش والشرطة حول تحديد المسؤولية والتحقيق بهما · فالشرطة تؤكد ان المعلومات عن وصول المجموعة الفدائية الى الشاطىء ارسلت الى جميع القيادات في الشرطة والجيش في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر ، لكن قوة الجيش المساندة وصلت ـ حسب اقوال مسؤولي شرطة اسرائيل ـ الى مكان الحادث قرب كانتري كلوب بعد الساعة السادسة والنصف ، اي بعد ان انتهت العملية ·

وبموجب تعليمات سابقة وزعت المسؤولية لمواجهة العمليات الفدائية على الشكل التالي : على الحدود البحرية ، اي على الشاطىء ، المسؤولية تقع على عاتق الشرطة · اما على الحدود البرية وعلى مدى ١٠ كيلومترات فالمسؤولية عسكرية · وبعد العشرة كيلومترات تصبح المسؤولية على قوات الشرطة ·

وقد اثيرت تساؤلات فيما اذا كان هذا التوزيع للمسؤولية جيدا ، ويؤمن تنسيقا فعالا بين الجيش والشرطة ·

وكما أوردت اذاعة اسرائيل فان اوساطا معتمدة في اسرائيل اوضحت ان هذا التوزيع للمسؤوليات جيد · ولكن يجب تجهيز الشرطة ووحداتها الخاصة بوسائل اكثر فعالية للسيطرة على احداث من هذا النوع ·

وحيث ان المفتش العام للشرطة ، حاييم طابوري ، بدا في موقع الاتهام ، فقد دافع عن نفسه ، واوضح في مقابلة مع الاذاعة الاسرائيلية ضرورة تزويد شرطة اسرائيل باجهزة اخرى اضافة الى ما تملكه · واوضح انه بحاجة الى اجهزة اتصال اكثر تطورا ، والى اجهزة مفاجأة اكثر تطورا ، والى طائرات عمودية للوحدة الخاصة ، والى وحدات اخرى اضافة الى ما هو موجود ·

وفي مواجهة كل هذه الاسئلة ، اعلن عن تشكيل لجنتين للتحقيق ، احداهما عسكرية مؤلفة من اشخاص يمثلون مختلف الاسلحة في الجيش الاسرائيلي برئاسة العميد يونا افرات ، قائد المنطقة الوسطى سابقا · ومهمة هذه اللجنة التحقيق في نشاط الجيش الاسرائيلي اثناء العملية ، وكذلك التحقيق في التعاون الذي تم ما بين الجيش وبين اذرع الامن المختلفة ·

كما قام المفتش العام للشرطة بتشكيل لجنة تحقيق من الشرطة ، للتحقيق وجمع كافة المعطيات والشهادات حول العملية ·

وستظل اسرائيل تغوص في وحل الاجراءات الامنية ، وستظل تكتشف ان الفدائي قادر على خلق اشكالات امنية جديدة امامها ، حتى تسقط كل الاوهام وتنتصر الحقائق ·

V

انهم لا يبصرون

اثارت العملية الفدائية ردود فعل واسعة على الصعيد الدولي ، واستنكرت معظم الدول الغربية العملية ، وابدت تخوفا على مسيرة التسوية ، من النتائج التي اسفرت عنها العملية، ومن الرد الاسرائيلي المحتمل عليها ·

كانت الولايات المتحدة اول من بادر الى استنكار العملية وادانتها · وجاء في بيان اصدره البيت الابيض في ١١/٣ « ان العمل الارهابي الذي وقع في اسرائيل ، ضد ركاب سيارتي الباص ، وعدد من السيارات الخصوصية هو عمل غير شرعي وعديم المنطق ، وينطوي على وحشية ، وان اعمالا اجرامية كهذه لا تخدم اي هدف او عقيدة سياسية ، بل تثير الاشمئزاز والاستنكار » ، كما قام كارتر بارسال برقية تعزية الى بيغن·

واعرب موظفون في البيت الابيض عن اعتقادهم بان هذا العمل جاء في نطاق محاولات

عناصر متطرفة لاحباط التسوية السلمية ، كما استنكرت الخارجية الاميركية العمليـــة وقال الناطق باسمها انه يجب الا يسمح للعملية الفدائية الاخيرة في اسرائيل باخــــراج مفاوضات الشرق الاوسط عن الخط المرسوم لها · ورفض الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية القاء مسؤولية العملية على احد · واكتفى بادانتها واستنكارها · مما أثــار حفيظة اسرائيل ، فاتصل سفيرها بواشنطن بالفرد اثرتون ، وبعد ساعتين من هـــذا الاتصال ، عدل الناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية بيانه الذي قال فيه « على الرغـم من انه ليست لدى الولايات المتحدة معلومات يقينة عن هوية المخربين التنظيمية ، فقـــد جرى اطلاع وزارة الخارجية الاميركية على بيان منظمة فتح التي ألقت على نفسهـــا مسؤولية العملية الاجرامية »

واضاف الناطق « انه ليس للولايات المتحدة اي سبب للشك بهذا البيان ، ولهذا ترغب في توجيه بياناتها واستنكارها الى منظمة فتح » ·

اضافة الى ذلك ، فقد رفع ما يزيد على ٢٠٠ من اعضاء مجلس النواب الاميركـــي بيانا الى كارتر يشجب بشدة العملية · وطالبوه باظهار تحفظه الشديد على بيانـــات التعاطف الغربية مع العملية ، اشارة الى تعليق ورد في اذاعة الرياض ·

وفي لندن وصف رئيس الوزراء البريطاني العملية بانها « عمل غير انساني ··· يهدف الى تحقيق انتكاسة في امال السلام او القضاء عليها » وقال ناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية انه « من الحيوي الا يسمح بالنجاح لاولئك الذين يهدفـــون الـــى تخريـــب احتمالات السلام في الشرق الاوسط ، باللجوء الى الارهاب والعنف » ·

وفي باريس اصدرت وزارة الخارجية الفرنسية بيانا قالت فيه « ان مثل هذه الاعمـــال لا تؤدي الا الى تأخير محاولات الحلول لتسوية سلمية او الاضرار بها » ·

وفي باريس ايضا بعث فرانسوا ميتران ، الامين العام للحزب الاشتراكي الفرنســي ، وروبير بونتيون ، السكرتير الاول للحزب ، برقية الى كل من مناحيم بيغن وشمعون بيــرز قالا فيها : نؤكد لكم تفهمنا وتأييدنا لاتخاذ عمل دولي فعال ضد الارهاب ، ونرجوكم ان تعربوا لاسرائيل شعبا وحكومة عن تضامننا » ·

وفي بون ادان وزير الخارجية العملية واعرب عن أمله في « ان لا تعيق فرص التسوية في الشرق الاوسط » ·

وفي لاهاي قال وزير خارجية هولندا ان هذه العملية توضح مرة اخرى ضرورة اجراء تسوية سلمية في الشرق الاوسط · واعرب عن « امله في ان تتمكن الدول المعنية مـــن مواصلة حوارها على الرغم من هذا الحادث » ·

لقد خرجت النمسا عن هذا الخط ، فأعلن وزير خارجيتها الذي كان يقـــوم بزيـــارة للكويت « ان الغارة الفدائية الفلسطينية على اسرائيل ، كانت نتيجة لسياســـة الدولـــة

اليهودية ازاء الفلسطينيين » واضاف « الا ان الارهاب لا يحل مشكلة الشرق الاوسط » ٠

وفي **موسكو** ، اشارت البرافدا الى العملية ونشرت الرواية الفلسطينية عنها ، ثم نقلت « تاس » في وقت لاحق تفاصيل عن العملية عن وكالات انباء أجنبية ٠ وعبرت تاس عن موقف الاتحاد السوفياتي ٠ فقالت « ان اسرائيل تحاول ان تستخدم الغارة الفلسطينية كذريعة للقيام باستفزازات عسكرية ضد بلدان عربية مجاورة » واوضحت « ان دعاية اسرائيل تحاول ان تستخدم هذا الحادث للاساءة الى م٠ت٠ف » ٠

وفي **الفاتيكان** قال البابا بولس السادس انه يأمل بأن لا يؤدي هجوم الفدائيين الفلسطينيين الى سلسلة جديدة من أعمال العنف ٠

اما في **الامم المتحدة** فقد خرج السكرتير العام للامم المتحدة عن حياده المفترض ، وعبر في رسالة التعزية التي بعث بها الى بيغن عن « عميق صدمته بسبب الخسائر المأساوية في أرواح المدنيين الابرياء » ووصف العملية بانها « حادث ارهابي » ٠

الصحف الغربية اليمينية تستنكر وتردد المقولات الاسرائيلية

الصحف البريطانية :

افردت الصحف الغربية مساحات واسعة من صفحاتها للعملية ، وابرزتها كعمل ارهابي ضد مدنيين ابرياء ٠ واستنكرت معظم هذه الصحف في تعليقاتها، العملية ، وابدت خشية على محادثات السلام المصرية ـ الاسرائيلية ٠ كما اعتبر بعض هذه الصحف ، أن العملية كانت خدمة لبيغن ، لانها تجعل الرأي العام العالمي يتعاطف معه في موقفه من الفلسطينيين ٠

صحيفة « لندن تايمز ٣/١٢ » علقت على العملية فقالت « لقد كان هجوم الفدائيين الفلسطينيين واحدا من تلك الاعمال المدمرة التي يجعل المراقبين يشعرون باليأس من امكانية تحقيق التسوية السلمية في الشرق الاوسط الى الابد ٠ ولم يكن ذلك عملا مزريا من الناحية الاخلاقية ، بل ومضللا من الناحية السياسية ٠ فهو لا يمثل طريقة عقلانية لخدمة المصالح الحقيقية للشعب الفلسطيني ٠ كل ما في الامر انه يزيد من تصلب المقاومة الاسرائيلية ويجعل الرأي العالمي يتعاطف مع بيغن » ٠

ودعت الصحيفة اسرائيل الى عدم الرد على العملية ، وقالت « ان الانتقام ليس رادعا فعالا ، بل انه يفيد الفلسطينيين ويزيد من التوتر ٠ والرد الافضل بكثير يتمثل في تحليل الاهداف الكامنة وراء الهجوم ومحاولة تجاوزها » ٠

صحيفة « الفاينتشال تايمز ٣/١٢ » قالت ان الهجوم الفدائي القى ظلالا من الشك حول مساعي السلام في الشرق الاوسط ٠ واشارت « الى انه يحمل مخاطر نشوب نزاع موسع اذا قررت اسرائيل الرد بعنف ضد الفلسطينيين الذين يقيمون في لبنان ٠ واوضحت

الصحيفة ان توقيت الهجوم وحجمه كانا يستهدفان توجيه لطمة لمناحيم بيغن ومبادرة السادات » · وتساءلت الصحيفة فيما اذا كان السوريون سيهبون لنجدة الفلسطينيين في الجنوب « اذا تعرضوا لغزو اسرائيلي » ·

صحيفة « الغارديان ٣/١٣ » · قالت ان بيغن لا يبالغ عندما يقول ان هدف م·ت·ف هو قتل اليهود ، وتساءلت « فيما اذا كانت الدول المتمدنة في العالم ستبقى تعير اهتماما للادعاءات الفلسطينية » كما تساءلت الصحيفة « فيما اذا كان الرد الاسرائيلي سيفيد اسرائيل ، واوضحت ان هذا الرد سيخدم اغراض المخربين » ·

الصحف الفرنسية

« **لوموند** » افردت مساحات واسعة من صفحاتها لوصف العملية والتعليق عليها · ووصفت العملية (٣/١٤) بانها « عمل لا يمكن تبريره » وانه لا يفيد القضية الفلسطينية· وقالت « على العكس تماما فانه يضربها ضربة قاسية باثارتها غيظ وغضب هؤلاء انفسهم الذين يطالبون بوطن للفلسطينيين » ·

وفي مقال اخر حول العملية (٣/١٥) تساءلت الصحيفة عن ردة الفعل الاسرائيلية فقالت « عملية انتقامية أكيدة ، ولكن يبدو ان تصعيد ملاحقة الارهابيين خارج الحدود سيعتمد بعد ان كانت اسرائيل قد أهملتها عمليا » ·

وفي زاوية المنبر الدولي علق دوف بودير ، ممثل حزب مابام في أوروبا ، على العملية « ليموند ٣/١٦ » فقال انها تجمد كل « امكانيات الحوار ، وانها اضعفت القوى المعتدلة في اسرائيل ، والتي تطالب بالاعتراف بالهوية الفلسطينية » ·

صحيفة **لو ماتان** « الحزب الاشتراكي الفرنسي » افردت مساحات واسعة لوصف العملية بتفاصيلها كما روتها المصادر الاسرائيلية ، وبشكل تحريضي · وعلق احد محرري الصحيفة على العملية (٣/١٤) فوصف الفلسطينيين بانهم « محطموا السلام » · وقال ان الفلسطينيين باستعمالهم « سلاح الارهاب هناك احتمال ان لا يجدوا احدا حول طاولة المفاوضات حيث يريدون أن يدعوا » ·

مصر والسعودية تشجبان العملية

لاول مرة تشجب مصر رسميا عملية فدائية فلسطينية ، فالعملية بما ترتب عليها من نتائج اثارت تخوفا مصريا من ان تؤدي الى ضرب مسار السادات ، واسقاط النتائج التي ترتبت على زيارته للارض المحتله · في البداية حاولت مصر ان تتخذ موقفا متوازنا ، وذلك كما ورد في تصريح بطرس غالي ثاني يوم العملية ، عندما ربط بين العملية وتصلب بيغن اعتبارهما عقبات امام السلام · غير ان السادات كان اوضح في موقفه عندما ادان العملية ووصفها بانها عمل غير مسؤول ووجه نداء غير مباشر الى اسرائيل بعدم الرد · وربط بين العملية ومقتل يوسف السباعي في قبرص وقال « انني اعارض العمليات ضد المدنيين ، لقد عشنا نفس التجربة قبل اسابيع قليلة في قبرص ،

ونددنا بما جرى هناك · وانا سوف أدين باستمرار اي عملية ضد المدنيين ، واني اعتبر العملية خطوة غير مسؤولة ، وانني اتساءل حقيقة عن نتائج مثل هذه الاعمال » ·

لقد كانت مصر تخشى ان تؤدي العملية والرد الاسرائيلي المحتمل عليها الى نسف المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية ، وهذا ما عبرت عنه اوساط سياسية مصرية · ولم تحاول مصر تحذير اسرائيل من الرد على العملية الفدائية ، وكان الموقف المصري هو التمني على اسرائيل بألا يؤدي رد فعلها الى « انغماس المنطقة في حلقة عنف مفرغة » وذلك كما اوضح وزير الخارجية المصري لدى لقائه بالسفير الاميركي في مصر ·

وفي **السعودية** ، جرى التنديد بالعملية على لسان المندوب السعودي في الامم المتحدة ، ثم ببيان رسمي سعودي · وفي هذا البيان تنصلت السعودية من تثمين العملية الذي ورد في تعليق باذاعة الرياض · وقد اثارت اوساط اميركية ضجة كبيرة حول تعليق اذاعة الرياض الذي يثمن العملية . وربطت بين هذا التعليق وبين توجيهات الادارة الاميركية لبيع طائرات ف ـ ١٥ الى السعودية · وعلى ما يبدو فان السعودية حرصا منها على اتمام صفقة شراء الطائرات ، استنكرت العملية ، وتبرأت من تعليق الاذاعة ·

الصحف العربية تشيد بالعملية :

اما **الصحف العربية** فقد اشاد معظمها بالعملية ووصفها بانها عمل جريء وجسور . وربطت صحف دول جبهة الصمود والتصدي بين العملية وبين العمل لاسقاط نهج السادات ·

وفي **لبنان** ، كانت الاوساط السياسية الرسمية قلقة من ردة الفعل الاسرائيلية ، وكانت تتابع الموقف بحذر وقلق · وقد رد رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص على المزاعم الاسرائيلية التي قالت ان افراد المجموعة الفدائية اتوا من لبنان ، فقال « من المستغرب جدا ان يقحم اسم لبنان في بعض التصريحات التي وردت على لسان المسؤولين الاسرائيليين بصدد الحادث ··· ان لبنان غير مسؤول عما حدث ولا علاقة له به ، واي محاولة لزج لبنان بالموضوع هي محض افتراء ·

صحف القوى الانعزالية ، شجبت العملية ، وحرض شمعون في تصريح له اسرائيل على الفلسطينيين حين قال ان الاسرائيليين مسؤولون بقدر مسؤولية الفلسطينيين ، لانهم (الاسرائيليين) تركوهم يتلقون السلاح من مرفأ صور ، بما فيه الزوارق الطاطية التي استعملت في العملية · (جريدة « العمل » ٣/١٣) ·

VI

هـل يسمعـون ؟

استنكرت قيادة الثورة الفلسطينية تصريحات الشجب للعملية الفدائية والتي ادلى

بها بعض رؤساء الدول الغربية ، كما حذرت حكومات العالم من الاستفزازات الصهيونية لمكاتبها في الخارج · ففي ٣/١٣ ، استنكر ناطق باسم قيادة الثورة الفلسطينية تصريحات كارتر حول العملية ، وبرقية التعزية التي بعث بها الى بيغن . وجاء في البيان :

« سارع الرئيس كارتر ، وفور العملية الجريئة والبطولية التي قام بها ثوارنا ضد القوات الاسرائيلية في عمق الارض المحتلة . الى شجب هذه العملية والتنديد بها ، والتلفظ بتصريحات معادية لشعبنا ·

ان قيادة الثورة الفلسطينية . ترى في هذه التصريحات من جانب الرئيس كارتر ضد نضال شعبنا وثوارده الابطال عملا عدائيا موجها لشعبنا الفلسطيني وقضيته العادلة · كما ترى قيادة الثورة في هذه التصريحات انحيازا كاملا وصريحا وصارخا مع وجهة النظر « الاسرائيلية » الارهابية . وهو ما يعني الاستهانة بحقوق شعبنا وقرارات المجتمع الدولي التي ترجمت هذه الحقوق بوضوح لا يقبل الشك ·

اننا لنتساءل عن سبب هذه السرعة في مهاجمة عمليات ثوارنا الابطال من جانب الرئيس الاميركي كارتر · في الوقت الذي لم يهتز كارتر للعمليات الارهابية الوحشية المتواصلة والمنظمة التي يقوم بها بيغن الارهابي وتقوم بها العصبة العسكرية «الاسرائيلية» ضد ابناء شعبنا في الوطن المحتل وضد قرى الجنوب اللبناني وضد المخيمات الفلسطينية العزلاء التي قصفتها الطائرات « الاسرائيلية » مئات المرات ومسحت بعضها من الوجود ··· هذه العمليات التي تشكل امتدادا للارهاب الصهيوني المخطط والمنظم منذ مجزرة دير ياسين التي قام بها الارهابي المشهور مناحم بيغن ·

ان قيادة الثورة الفلسطينية وهي تستنكر بشدة هذا الموقف الاميركي المتحيز ضد نضال شعبنا وثوارد لتؤكد على ان الشعب الفلسطيني سوف يواصل نضاله بكافة اشكال النضال وفي مقدمتها الكفاح المسلح . وهو حق اقرته لجان تصفية الاستعمار في الامم المتحدة . وذلك حتى يتم تحقيق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير . وانشاء دولته الفلسطينية المستقلة فوق ترابه الوطني ·

ولن تؤثر في مسيرة شعبنا وثورتنا المواقف والتصريحات الاميركية السافرة في عدائها لطموحات وامال ونضالات شعبنا وامتنا العربية المجيدة في صراعها الحضاري ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار ·

ان الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني قد عهدا مثل هذا الموقف المتحيز المتبني « لاسرائيل » من جانب الرؤساء الاميركيين وكارتر ليس افضلهم في تحديه لمشاعر وحقوق وامال وطموحات امتنا العربية ، وشعبنا العربي الفلسطيني المناضل » ·

كذلك فقد استنكر الناطق الفلسطيني ايضا ، التصريحات التي ادلى بها رئيس الوزراء البريطاني ، وقال « يهمنا ان نذكر كالاهان الذي يدعي الدفاع عن الانسانية ان تاريخ الاحتلال البريطاني الاسود لبلادنا ما يزال قائما في اذهان شعبنا ، وهو تاريخ اذا كان

كالاهان لا يعرفه فاننا نرجو ان يقرأه وسوف يجد فيه المأساة الكاملة لشعبنا التي تسبب فيها بالتعاون مع الارهابيين الصهاينة امثال بيغن ووايزمان وشامير ·

كما حذرت منظمة التحرير الفلسطينية من الاستفزازات الصهيونية ضد مكاتبها في الخارج · وقال ناطق رسمي باسم المنظمة ، ان عددا من مكاتب منظمة التحرير في بعض البلدان تعرض لاستفزازات من قبل تجمعات عسكرية صهيونية ، وذلك اثر التهديدات التي وردت على لسان مناحم بيغن في الكنيست ·

وقال الناطق انه ساعد على ذلك انجراف بعض الشخصيات السياسية في تلك البلدان وراء حملة الابتزاز الرخيصة التي قادها بيغن وطغمته العنصرية والصهيونية ·

وحذر الناطق حكومات تلك البلدان من ان عليها ان تتحمل الان وفي المستقبل المسؤولية الكاملة لما يحدث في مكاتب المنظمة وللعاملين فيها ·

وقد اوردت « وفا » في نبأ لها من باريس ان مكتب منظمة التحرير في العاصمة الفرنسية تعرض لهجوم من مجموعة من الارهابيين الصهاينة . وقد تصدت لهم الشرطة الفرنسية . وقالت ان الارهابيين وزعوا منشورات تهاجم الوجود الفلسطيني في باريس ·

وكان عز الدين قلق ممثل المنظمة في باريس قد اتهم في بيان اصدره اليوم الحكومة الاسرائيلية بالاعداد لمجموعة من الاعتداءات ضد مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في اوروبا الغربية ·

ووصف البيان طلب اغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في اوروبا ، والذي تقدم به مناحم بيغن بانه « مناورة ابتزاز » واضاف ان هذه المناورة تستهدف الاضرار بالعلاقات الفرنسية الفلسطينية وبالعلاقات الطيبة بين فرنسا والعالم العربي ·

وجاء في البيان « ان الاعتراف الدولي بشرعية منظمة التحرير الفلسطينية والحقوق القومية للشعب الفلسطيني لا يمكن بأي حال ان يكون موضع تساؤل اليوم · واضاف ان احدا وبصورة اخص ارهابي شهير مثل بيغن لا يمكن ان يعيد التاريخ الى الوراء » ·

VII

في التاسع من نيسان ١٩٤٨ كانت دير ياسين ـ الجريمة ، وفي الحادي عشر من آذار ١٩٧٨ كانت دير ياسين ـ البطولة · **فهل تمحو البطولة ··· الجريمة ·**

ثلاثون عاما والفلسطيني يصرخ · ثلاثون عاما والفلسطيني يقاتل ·

ثلاثون عاما والفلسطيني يرسم الحدود الفاصلة بين الجريمة والبطولة ، بالعذاب والالم ، بالدم والتضحيات · ثلاثون عاما والفلسطيني يركض من حرب الى حرب ، ليؤكد حقائق طمستها الجريمة ، وكادت ان تنسى ·

ثلاثون عاما والشعب الفلسطيني في حرب مستمرة · وحرب الجنوب لن تكون اخـــر الحروب الفلسطينية ، ولكنها ستكون الحرب التي تؤكد للجميع ، ان الذين يعيشون علـى اوهام تصفية الثورة الفلسطينية ، أن لهم ان يتعلموا ، وان يدركوا ، ان التاريخ لا تصنعه الاوهام ، وان قدرة الشعوب على الحياة ، اكبر من اي جريمة ، واقوى من كل جبـروت آلات الدمـــــار ·

حكايــة دلال الفلسطينيّــة

الاذاعة الاسرائيلية معكم حتى اشعار اخر

مناحيم بيغن يؤجل زيارته لامريكا ، ويدعو رجال مطبخه الى اجتماع عاجل ·

عزرا وايزمن يقطع محادثاته مع الجنرالات الامريكيين ، ويعود فورا الى اسرائيل ·

ايجال يادين يرتدي لباس الميدان ، ويتوجه الى مسرح العمليات ·

الرئيس كارتر قطع برنامجه اليومي ويعد رسالة الى بيغن ·

الرئيس كارتر يتابع باهتمام شريط الاخبار المتلاحق، ويبدو في حالة قلقة مرتبكة ·

رفع حالة الاستنفار الى اقصى درجاتها في الجيش والشرطة وحرس الحدود ·

ملايين الاذان والاعين تتسمر على اجهزة الراديو والتلفزيون ·

نظام حظر التجول يشمل ثلاثمئة الف اسرائيلي ، واعلان ثلث دولة اسرائيل ضمن دائرة محكمة الحصار ·· وذلك يحدث لاول مرة في التاريخ ·

بيغن سيتحدث غدا ثم تحدث قائلا : ان الهة السماوات ·· تعزيكم يا اهل اسرائيل ··

كارتر يخرج عن لياقته · ويطرد بسمته السحرية الدائمة حتى اشعار اخر ··

الرئيس السادات يقول في حديث لمجلة اكتوبر ·· ان مبادرتي ما زالت حية ·· وتسكن في وجدان التاريخ ··

ما الذي حدث ··؟

هل اشتعلت الحرب الخامسة فجاة ؟ ام ان هنالك امرا اهم ؟

فيعام ١٩٤٨ اباد الاسرائيليون قرية فلسطينية اسمها دير ياسين · قليلون من اهل القرية تمكنوا من النجاة ·· وانجبوا اطفالا ·· ولكن ليس في دير ياسين ·

في عام١٩٧٠ احالت مدفعية الملك حسين مخيم الوحدات في عمان الى ركام وحطام · وتمكنت قوات المليشيا المدافعة عن المخيم من منع الدبابات من الوصول الى المواطنين ، كما قامت بنقل مجموعة من الاطفال الجرحى الى مستشفى الاشرفية · وفي يوم اخر وصل بعض جنود البادية الى المستشفى ، وقاموا بتقطيع اصابع الاطفـــال كي لا يستطيعوا استعمال البندقية عندما يكبرون ·

في عام ١٩٧٦ تحالف تلامذة بن غوريون مع القوى اليمينية في لبنان ، وتمكنوا من احكام الحصار على مخيم تل الزعتر · قاتل اهل المخيم قتالا فوق طاقة بني الانسان · سقط منهم ثلاثة الاف ونجا الباقون · ثم اصبح المخيم كملعب كبير لكرة القدم ، فارغا من كل شيء الا من بصمات الفاشية واثار اقدامها السوداء ··

قطعت دلال هذه الرحلة الطويلة · لم تشاهد بعينيها فصول مذبحة دير ياسين ، ولم تبصر تقطيع اصابع الاطفال في الاشرفية ، غير انها شهدت الجزء الاخر من الرحلة ، حين كان الناس يموتون جوعا وعطشا وقتلافي مخيم تل الزعتر· والرحلة بالنسبة لدلال لاتنتهي عند نقطة في منتصف الطريق ، بل لا بد وان تكتمل · ولكن ·· اين ستغلق الدائرة ··؟

بعضنا يرى ان الطريق الى فلسطين يلف دورة كاملة حول الوطن العربي · وربما العالم · وبعضنا يرى ان هذاالطريق يمتد عبر خط مستقيم ، يطول ويقصر حسب قدرتنا على قطعه ، والقفز من فوق حقول الالغام المنتشرة على امتداده ··

ولكن دلال التي تنتمي الينا جميعا كانت تقول : ان بوسع الانسان ان يقطع هذا الطريق بخطوة واحدة ويصل ، والمسألة لا تتعلق بقارب حديث او بطائرة نفاثة فائقة القدرة والسرعة ، فما اكثر القوارب التي ان وجدت فلا تبحر ، وان ابحرت تغـــرق في اول الطريق او تسير في وجهة مختلفة · وما اكثر الطائرات النفاثة التي انتزعت منهـــا « البوصلة » وسبحت فيالفضاء كطائر ضال ، حلق كثيرا وكثيرا في طبقات الفضاء ، وارتطم بالارض جثة هامدة ممزقة ··

عدد الجرحى والقتلى ·· لا يهم

عدد الباصات والحافلات الصغيرة والكبيرة التي احترقت او ارتطمت من الرعب باعمدة الكهرباء على طول خط الاوتوستراد ، بين حيفا وتل ابيب لا يهم ايضا ··

والدموع السخية التي انهمرت على وجنات كارتر ، حزنا او نفاقا او خوفا ، ليست هي النتيجة ·

الذي يهم حقا هو ان دلال الفلسطينية وصلت بالفعل ، واغلقت الدائرة · وعندما تغلق دلال الفلسطينية الدائرة حول دولة اسرائيل ، بيديها الفلسطينيتين ، يصبح بوسع كـل انسان منا ان يقول انها كانت اصدق من الصدق حين قالت ان بامكان الانسان ان يقطع الطريق الى فلسطين بخطوة واحدة ، دون ان يكون بحاجة الى قوارب حديثة او طائرات نفاثة نزعت منها « البوصلة » ··

هل انتهت رحلة دلال التي قالت لنا شيئا اقوى من الحظ ، هو الذي ابقاني على قيد

الحياة ؟ والتي قالت لنا انها تعرف متى واين وكيف تموت ··

ان رحلة دلال لم تنتهه ··

صحيح ان بيغن اعلن وفاتها في مؤتمر صحفي ··

وصحيح ان صورتها ارتفعت على الجدار ، الى جانب صورة احمد موسى ، وابو علي اياد ·· وصور ثلاثة الاف شهيد سقطوا في تل الزعتر ··

صحيح ذلك كله · ولكن منذ متى كانت رحلة دلال رحلة عادية تنتهي بالموت ، قتلا او اغتيالا · او تتوقف من التعب على محطة استراحة هنا او هناك ؟ ان رحلة دلال هي من ذلك النوع الذي لا ينتهي عند الموت بل يبدأ · ولا يتوقف على محطات الاستراحة ، بل يستمر ·· تماما كرحلة احمد موسى التي بدأت بخيوط من دمه · وتجددت بشلال دم تدفق على ارض الكرامة · ونهضت بدم ابو علي اياد ·· وثلاثة الاف شهيد فـــل تـل الزعتر ·

وها هي تستمر ···

نبيل عمرو

مـاجد ابو شـرار

الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب
الحرب الحرب الحرب

الصراع العربي الصهيوني في مرحلته الراهنة

تمر منطقتنا العربية في وضعها الراهن بظروف بالغة الصعوبة والتعقيد ، بحيث تبدو فيها المنطقة وكأنها في قبضة القوى الامبريالية الصهيونية الرجعية او تكاد . ظروف تجعل من العسير اخضاع ما يجري في المنطقة لقوانين التحليل مما يساعد على الوقوع في مزيد من الارباك والتردد ، وحيث تتم يوميا اكثر من محاولة للتحايل على قوانين التناقض والصراع ، ويتم كل هذا من خلال الازمة العنيفة التي تمر بها الانظمة البرجوازية الوطنية العربية التي لا زالت تخضع منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ . لعملية ابتزاز منظمة ومستمرة يمارسها اعداء الامة من الامبرياليين والصهاينة والرجعيين ، حيث نجحت اسرائيل من خلال ضربتها العسكرية الصاعقة لهذه الانظمة عام ١٩٦٧ من بث الذعر والهلع في صفوفها ، دفعها الى قبول ما تطرحه اسرائيل من صيغ وبأشكال متفاوتة ، متوهمة بذلك انها تمنع عنها الضربات وفارضة بالتالي على بنى هذه الانظمة تغييرات تخدم بالنتيجة هدف اعداء الامة باخضاع هذه الانظمة على حساب تقدمها وتطورها .

ومن هنا فمن الخطأ الاعتقاد بان ما نشهده من تحركات الان يستهدف الوصول الى تسوية للصراع العربي الاسرائيلي ، بل هو في جوهره وحقيقته يهدف الى تحديد ملامح المنطقة العربية وبالتالي تحديد هوية القوى التي ستسود في المنطقة . هل تسود القوى الفاشية اليمينية السوداء التي تشكل اداة طيعة في يد امريكا واسرائيل لتوجيه ضربة قوية للقوى الديمقراطية العربية على غرار الضربة التي وجهها النظام اليميني الفاشي الاسود في اندونيسيا لقواها الديمقراطية ، وعلى غرار ما وقع ايضا في التشيلي ، ام

تتمكن هذه القوى الديمقراطية من الخروج من ازمتها الراهنة وتتمكن من خوض معركة الدفاع عن نفسها وتثبيت وجودها والقفز الى مرحلة النهوض والسيطرة ٠

وهنا لا بد ان نؤكد ان العدو الاكثر قوة في معركة المواجهة هذه ، هو القوى الامبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الامريكية صاحبة المصلحة الاقوى في السيطرة على المنطقة واخضاعها لنفوذها ، وبالتالي المحافظة على منابع النفط فيها ، وهو المصدر الرئيسي للطاقة الذي لا زالت الامبريالية بحاجة له حتى نهاية هذا القرن حيث تخطط لتوفير مصدر جديد للطاقة ٠

وهنا تأخذ اسرائيل دورها الاساسي في مجال حماية المصالح الامبريالية الى جانب الانظمة الرجعية العربية الاقل مقدرة وامكانات وفرص للقيام بهذا الدور ، وبالتالي فقد جاء اختيار فلسطين هدفا للنشاط الاستعماري للصهيونية متطابقا مع هدف القوى الاستعمارية في استعمار الشرق الاوسط ، اولا كممر استراتيجي وكطريق تجاري ، وثانيا التمسك بالمشروع الصهيوني وتعزيزه بعد ظهور البترول في العراق والخليج والمملكة العربية السعودية ٠

من هنا اتى وعد بلفور في العام ١٩١٧ ليترجم المصالح الاستعمارية لبريطانيا في الشرق الاوسط والخليج والهند والشرق الاقصى ، وقد كان تقرير « بانرمان » عام ١٩٠٧ بمثابة الارضية ٠٠٠ لوعد بلفور ، حيث قال بضرورة زرع جسم غريب في المنطقة يمنع وحدتها ويحقق ربط اطرافها بالاستعمار، وعلى الطريق لتحقيق هذا الهدف تمت عملية تجزئة وتقسيم البلاد العربية من خلال اتفاقية « سايكس ــ بيكو » عام ١٩١٦ ٠

فالحركة الصهيونية التي ظهرت في اوروبا وتخصيصا في النمسا، بعد ان كان الفكر الذي قامت الصهيونية كأستمرار له ، الا وهو الفكر القائل بخصوصية اليهودية ، بعد ان كان قد شمل فرنسا والمانيا والنمسا وعددا من البلدان المجاورة ، وقد تقمصت تلك الافكار العنصرية المحدودة الافق والداروينية الطبيعة السياسية الشكل ٠

فهذه الحركة لم تختلف على اي حال عن مثيلاتها من الحركات العنصرية الفاشية التي ظهرت في اوروبا ، وخصوصيتها انها قصرت نفسها على اليهود، وقد حاولت منذ البداية ان تسير بخط متواز مع الحركات الفاشية الاخرى ولكنها فشلت بسبب الرفض المرحلي الذي قوبلت به من تلك المثيلات ٠ فالصهيونية اذن وليدة مناخ فكري يقوم على الفكر الدارويني السياسي ، لذلك فالصراع معها ايا كان شكله ، هو صراع بين القرن العشرين والقرن التاسع عشر بكل تكلساته الفكرية ، ومناحيم بيغن هو اكثر الزعماء الصهيونيين المكشوفين في التعبير عن عقم وتكلس هذا الفكر ٠

بالطبع لو لم يتحقق هذا التزاوج بين الحركة الصهيونية وبين الاطماع الاستعمارية ، لما رأى المشروع الصهيوني النور في فلسطين ، ولهذا يرتبط المشروع الصهيوني مستقبلا بالوجود الامبريالي · فالتراجع والتقهقر في النفوذ الامبريالي يجر معه تقهقرا وتراجعا في المشروع الصهيوني ، وهذا يفسر لماذا « ترفض » اسرائيل عمليا ان تعتبر نفسها دولة من دول الشرق الاوسط ، انها تنتمي فعلا الى اوروبا الاستعمارية ، ولا تستطيع بحال ان تفك هذا الرابط ، لان معنى ذلك بداية زوالها كدولة ، ولهذا تمكنت الحركة الصهيونية من بناء مشروعها بالربط الذي تم بين هذا المشروع وبين الرأسمالية في لحظة انتقالها الى مرحلة الاستعمار والامبريالية ·

ولا بد من الاشارة الى ان القالب الاسطوري الديني لهذا المشروع لا ينفي عنه حقيقته الاستعمارية الصارخة ، لهذا نمت الصهيونية في فلسطين مع نمو المصالح الاستعمارية ·

ـ اولا : الممر الاستراتيجي والطريق التجاري ·

ـ ثانيا : اكتشاف البترول في العراق والخليج والسعودية ·

وقد جاء تدخل الولايات المتحدة الامريكية ليعبر بشكل اساسي عن هدفها بالسيطرة على منابع النفط العربية عبر قوة محلية مرتبطة بها اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ، وقيام « اسرائيل » يعبر بالتالي عن وحدة مصالح الاستعمار والامبريالية والتقائها على تأييد الاهداف الصهيونية في فلسطين ·

وان من اسباب نجاح المشروع الصهيوني في فلسطين هو ان الاستيطان تم في بلد زراعي قليل العدد سكانيا بواسطة القوة والتفوق التي كانت بحوزة الصهيونيين المدعمين من الاستعمار البريطاني ، وقد رفض شعب فلسطين العربي الاستيطان وقاومه منذ البداية ولكن في ظروف صعبة للغاية وخاض نضالا ضاريا ضد الاستعمار البريطاني وضد الاستيطان الصهيوني ، رغم ان فلسطين كانت في ذلك الوقت محاطة بالانتداب البريطاني والفرنسي وبانظمة عربية اقطاعية عميلة للاستعمار ما كادت تمتلك غطاء حرب عام ١٩٤٨ حتى قامت هي الاخرى بتصدير (يهودها) العرب بالترهيب والترغيب من خلال عملية تواطؤ واسعة دفعت معظم اليهود العرب للهجرة الى فلسطين حيث ما زالوا يشكلون حتى الان نسبة ٦٠٪ من اليهود الذين هاجروا الى فلسطين حتى الان ·

عبر الشعب الفلسطيني منذ وعد بلفور حتى قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ عن مقاومته للاستعمار وللهجرة الصهيونية من خلال انتفاضاته الجماهيرية واضراباته وبالعنف المسلح احيانا ، حيث كانت ثورة عرب

فلسطين عام ١٩٣٦ من اهم وابرز ثورات الشعب الفلسطيني حتى نكبته عـام ١٩٤٨ ·

جاءت ثورة عام ١٩٣٦ كتعبير عن رفض الامة العربية للاستعمار والتجزئة التي كرستها اتفاقية سايكس ـ بيكو من جهة ورفضها للهجرة الصهيونية الى فلسطين من جهة اخرى · وقد اشارت لجنة (بيل) البريطانية التي بحثت وضع عرب فلسطين بعد اجهاض ثورة عام ١٩٣٦ الى سببين رئيسيين للثورة هما :ـ

١ ـ رغبة العرب في نيل استقلالهم القومي ·

٢ ـ كراهيتهم لانشاء الوطن القومي اليهودي وتخوفهم منه ·

وقد ساعد موقع فلسطين وطبيعة ارضها وطبقات مجتمعهـا على تجميـــع قوى اساسية من قوى التحرر العربي من سوريا والعراق وامارة شرق الاردن وتفاعلها مع حركة التحرر الفلسطينية والبدء في الاعداد لثورة عام ١٩٣٦ · ولعل تجربة القسام التنظيمية رغم انتكاساتها لحظة بدئها ممارسة الكفـــاح المسلح تشكل نموذجا فريدا ومتقدما في قدرة امتنا على التمرد والقتال ·

ورغم قيام سلطة الانتداب البريطانية بحشد كل امكاناتها العسكرية وخبراتها في القمع (٢٠ ألف جندي) الا ان ثورة عام ١٩٣٦ انطلقت وضربت جذورها في كافة مدن وقرى فلسطين حيث منح شعب فلسطين هذه الثورة كل دعمـــه وتأييده ودفع الى صفوفها بخيرة ابنائه · كما تدفق المناضلون من الاقطـــار العربية المجاورة الى فلسطين للمشاركة في ثورته التي اكتسبت كل سمـــات ومقومات الثورة الشعبية ، مما دفع سلطة الانتداب الى تغيير اساليبها فـــي مقاومة الثورة فلجأت الى استخدام الانظمة العربية الاقطاعيـــة المرتبطـــة بالاستعمار والتي قامت بتنفيذ خطة استيعاب الثورة والسيطرة على قياداتهـا واجهاضهـــا ·

فالى جانب البدء في التضييق على المناضلين وتقييد تحركاتهم واقفـــال الحدود في وجوههم ، دفعت عملاءها من اقطاعيي الريف وبورجوازيي المدن من عرب فلسطين الى مواقع متقدمة في قيادة الثورة تمكن هؤلاء مـــن خـــلال مواقعهم شق وحدة اداة الثورة ، وبالتالي الوحدة الوطنية لشعب فلسطين ، مما سهل على الانظمة العربية في مرحلة لاحقة دفع الثوار الى القاء السلاح مقابل وعد زائف قدمته هذه الانظمة بحل مشكلة فلسطين بالتفاوض مع حكومة بريطانيا · وارسل الملك عبد العزيز ال سعود بتاريخ ٢٥ ربيـــع اول ١٣٥٥ هـ رسالة الى الامير عبد الله امير شرق الاردن جاء فيها :

« نظرا لاننا ندري عواقب الامور ونخشى من أمر يكون على العرب عامة وأهـــل فلسطين خاصة ضرره فهل توافقون سموكم على التقدم لتوجيه نداء عام نشترك فيـــه مع سموكم وجلالة الاخوين الملك غازي والامام يحيى ندعو فيه أهل فلسطين لتوقيـــف

الاضطراب ليفسحوا للحكومة البريطانية المجال لانصافهم في جو هادىء فان مثل هذا النداء اذا قبل ووقفت الحركة بعده يكون لنا جميعا وجه عند الحكومة البريطانية في رجائها لقبول مطالب اهل فلسطين وانصافهم » ٠

وقد رد الامير عبد الله على رسالته برسالة اقترح فيها : ـ

« انه لمن مصلحة العرب ان تكون لهم غضون ذلك جولة في ميدان السياسة يسعون فيها لصيانة كيانهم في فلسطين ليدركوا الاوطار في مفاوضة البعثة الملكية البريطانية وانني اعتبر اهل فلسطين وديعة الله وعبد العزيز الذي يحل محل الراحل الكريم الذي كان يوم الحرب العامة في مقاصدهم المشروعة التي جعلت امانة بين يديه الى ان توفاه الله على ذلك النهج وان الحكمة واجبة الاتباع في الظروف الحاضرة :

والليالي من الزمان حبالى ... مثقلات يلدن كل عجيب »

ووجه الملوك العرب النداء المشترك في ١٠ـ١٠ـ١٩٣٦ حسب الخطة المرسومة واعلنت اللجنة الفلسطينية وقف اعمال العنف ابتداء من ١٢ـ١٠ـ١٩٣٦ ٠

هذا وللتدليل على حجم تسلل عملاء الانظمة العربية الى القيادة الفلسطينية خلال ثورة ١٩٣٦ ، نورد نص بيان اصدرته اللجنة العربية العليا في ٣٠ـ٨ـ٣٦ جاء فيه :

« جرت محادثات بين اللجنة العربية العليا وبين نوري باشا السعيد وزير خارجية العراق واستغرقت عدة ايام ، فبحث الطرفان خلالها جميع النواحي المتعلقة بقضية عرب فلسطين في جو من الثقة والصراحة ، واسفرت عن التوصل الى تفاهم تام وتمت الموافقة بالاجماع على تدخل الحكومة العراقية وملوك العرب وامرائهم في جو ساده الارتياح والاطمئنان فالوزير المذكور سوف يقوم في اجراء المخابرات اللازمة بهذا الشأن واللجنة العليا من طرفها سوف تقوم في الوقت نفسه بعرض هذا الاقتراح على الشعب لكي يبادر مؤتمر اللجان القومية الى اقراره ٠

وفي اثناء ذلك سوف يستمر الاضراب العام على حاله المعهودة في الصمود الراسخ اياه الى ان يتم ارساء هذه المفاوضات على اساس ثابت من شأنه ان يضمن لهذه الامة وجودها ويحقق لها مطالبها المشروعة وآمالها باذن الله » ٠

وسبق هذا النداء بثلاثة ايام تصريح ادلى به نوري السعيد لمراسل صحيفة نيويورك تايمز في القدس نشرته يوم ٢٨ـ٨ـ١٩٣٦ قال فيه ان لديه اسبابا تحمله على الاعتقاد بان الحكومة البريطانية سوف تأمر بايقاف الهجرة اليهودية حالما تتوقف اعمال العنف ٠

ولعل تجربة ثورة عام ١٩٣٦ من اهم التجارب التي مرت بها حركة التحرر ودروس عام ١٩٣٦ من مقاومة كل محاولات الاحتواء الرسمي العربي للثورة

وافشال كافة محاولات الانظمة ضرب الوحدة الوطنية الفلسطينية او تجريد المقاتلين من اسلحتهم او دفعهم لاقامة تحالفات تضر بثورتهم ٠

ومع نمو ظاهرة النازية في اوروبا، وتعرض يهود اوروبا الى القتل والتشريد وهجرة جزء هام من رأس المال اليهودي الى فلسطين وتوظيفه في مشاريع منتقاة ، ازداد حجم الهجرة الى فلسطين وبدأت الحركة الصهيونية تستكمل بناء اجهزتها ومؤسساتها ، التي كان من أهمها واخطرها المؤسسة العسكرية التي شارك الجيش البريطاني في فلسطين في تدريب جنودها وتسليحهم وتقديم التسهيلات لتهريب الاسلحة والمعدات العسكرية ٠ وتحولت المستعمرات الزراعية اليهودية الى قلاع عسكرية تسيطر عليها المؤسسات الصهيونية في الوقت الذي كان يحكم فيه بالاعدام على اي عربي يقتني السلاح ، مما ادى الى اختلال قوي بميزان القوى لمصلحة القوة العسكرية الصهيونية ، وبالنتيجة فان انهيار المقاومة الفلسطينية عام ٣٦ ــ ١٩٣٧ وكثافة الهجرة الصهيونية في السنوات اللاحقة وبقاء الانظمة العربية في قبضة الاستعمار ، ادى الى صدور قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ والى انتصار الحركة الصهيونية بشكل كاسح عسكريا وسياسيا عام ١٩٤٨ ، بالرغم من دفع ست دول عربية جيوشها لمساعدة عرب فلسطين ٠ لم تحسن هذه الجيوش بسبب انظمتها المرتبطة بالاستعمار الدفاع عن المناطق الفلسطينية التي نجح المقاتلون الفلسطينيون في التشبث بها فحسب ، بل قامت بتجريد عرب فلسطين من سلاحهم وتسليم مساحات واسعة من ارضهم « لاسرائيل » ٠ وتم ضم ما تبقى من اراضي الضفة الغربية للاردن ووضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية بقرارات من جامعة الدول العربية التي سبق تأسيسها في عام ١٩٤٣ والتي لم تتمكن طوال وجودها من القيام بدور فعال في ادارة عملية الصراع العربي « الاسرائيلي » اذا استثنينا قرارها بالمقاطعة « لاسرائيل » وهي المقاطعة التي ما زالت عاملا هاما ومجديا في محاصرة « اسرائيل » ومنع تحويلها الى قاعدة اقتصادية تغطي جزءا هاما من حاجات السوق العربية ٠

ونتج عن قيام « اسرائيل » كذلك تشريد نحو ٧٠٠ الف عربي فلسطيني ٠

ادى سقوط فلسطين ككيان للشعب الفلسطيني وقيام « اسرائيل » في ١٥ ايار ١٩٤٨ الى اول انفجار في العالم العربي ، نتج عنه هزات عنيفة على امتداد هذا الوطن ٠ وبدأت الجماهير تتحرك تحت قيادة البرجوازية الوطنية للاطاحة بتحالف الاقطاع والكمبرادور ، وتمكنت من احداث اول تغيير في الانظمة في كل من سوريا ومصر ثم العراق ٠

وقد بدأ عبد الناصر في مصر ببناء اول دولة عربية مستقلة متحررة من نير الاستعمار وغير تابعة للغرب ، فانهى القواعد البريطانية وامم قناة السويس وبدأ بعقد تحالفات صحيحة تمثلت في صفقة الاسلحة مع الدول الاشتراكية

وباشر في عمل اصلاحات داخلية هامة على حساب الاقطاع ٠ ولكن « اسرائيل» سارعت للقيام بدورها ككابح للتحرر والتقدم في المنطقة العربية حين احتلت قطاع غزة وسيناء عام ١٩٥٦ ناقلة بذلك الصراع العربي « الاسرائيلي » الى مرحلة جديدة اكثر خطرا وضراوة ٠

وفي ذات اللحظة وضعت « اسرائيل » عبد الناصر على رأس جدول اهتماماتها ٠

وفي هذا الصدد يقول بن غوريون في اعقاب العدوان الثلاثي على مصر :

« كنت اخشى دوما قيام شخصية مثل تلك الشخصية التي ظهرت بين الحكام العرب في القرن السابع او مثل كمال اتاتورك الذي ظهر في تركيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الاولى ، فقد رفع معنوياتهم وبدل اخلاقهم وحولهم الى امة مقاتلة ، كان هناك خطر ولا يزال في ان ناصر هو هذا الرجل » ٠

وشهدت هذه الفترة ايضا بداية نهوض لفصائل حركة التحرر العربي التي بدأت باعادة تنظيم صفوفها وصياغة برامج جديدة لمعالجة متطلبات الصراع على ضوء قيام « اسرائيل » ، ومباشرتها في القيام بدورها ككيان توسعي عدواني وذلك بالرغم من القمع والتنكيل الذي تواجهه من قبل معظم الانظمة العربية ٠ لكن اهم انجاز كان قد تحقق بالفعل على الرغم من فشل الانظمة البرجوازية الوطنية في وضع الخطط الجادة لمواجهة الخطر الصهيوني ، ورغم تعثر فصائل حركة التحرر العربي وفشل الكثير من برامجها ، هو تسييس الجماهير مما ادى الى طرح الكثير من القضايا مثل الامبريالية كعدو لدود لامتنا والفساد والاستغلال كمعوقين اساسيين لبناء المجتمع والنظر الى تحالفات جديدة وصحيحة ، ولكن ظلت فلسطين المحور والاساس ، الجرح النازف ابدا ، السيف المسلط على رقاب الانظمة والطموح العزيز امام كل مناضل ، وظل اللاجيء الفلسطيني ليس فقط رمزا لضياع فلسطين بل رمزا للذل والضعف والشعور بالذنب لدى كل مواطن عربي ، في نفس الوقت تعطي فلسطين دفعا يوميا وزخما دائما وتحديا لا ينتهي لطلائع هذه الامة ٠ وعلى وجه التحديد بدأت تتجذر في صفوف الشعب المشرد شعب فلسطين نزعة نضالية متقدمة تتجاوز الواقع العربي ادت الى انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة في بداية عام ١٩٦٥ حيث انطلقت حركة فتح التي باشرت عملها السياسي والتنظيمي السري قبل سنوات من بدء ممارستها الكفاح المسلح ٠ وبهذا نجحت فتح ولاول مرة بنقل قضيةالصراع من الاطار الرسمي للانظمة الى اطار جديد تقوم من خلاله القوى الشعبية المنظمة والمعبأة والمسلحة بدور هام وخطير في ادارة عملية الصراع العربي « الاسرائيلي » ٠ وطرحت فتح حرب التحرير الشعبية والكفاح المسلح كأسلوب للتحرير مقرنة ذلك بتطوير جاد وواعي لبرامج الثورة السياسية ملتزمة بطبيعة الصراع العربي « الاسرائيلي »

وقوانينه · وتسعى من خلالها الى كسب معسكر واسع للحلفاء الى جانب كسب الرأي العام العالمي الذي ظل لسنوات طويلة اسير الدعاية الصهيونية المضللة ·

اثار نشوء ظاهرة الكفاح المسلح بانطلاق قوات العاصفة ردود فعل متضاربة في المنطقة : ـ

١ ـ على المستوى الشعبي احس الشعب الفلسطيني انه امسك ببداية الطريق الصحيح ، واحتضن على الفور الخلايا السرية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » وتتبع بلهفة العمليات العسكرية لقوات العاصفة في الارض المحتلة · وعلى الصعيد الشعبي العربي بدأ الكفاح المسلح يظفر بمزيد من الاهتمام مع تصاعد العمليات العسكرية ·

٢ ـ على المستوى الرسمي ووجهت ظاهرة الكفاح المسلح برفض ومقاومة من قبل الكثير من الانظمة العربية ، وبالحذر من انظمة اخرى · واصبح الهدف لجميع الانظمة السعي لمعرفة هوية فتح بهدف استيعابها وضبطها · ونشير هنا الى ان اول شهيد لقوات العاصفة وقع برصاص جيش الملك حسين والذي كانت سجونه تغص بمئات من اعضاء الحركة وانصارها · ورافق ذلك ايضا حملة مركزة وظالمة من قبل عدد من الصحفيين والمثقفين الذين شككلوا بجدية العمل واهدافه ·

واتت هزيمة الانظمة في حزيران ١٩٦٧ لتطلق العنان للعمل الشعبي العربي وللكفاح المسلح الفلسطيني ليأخذ كل بعده وفعله ، وجاءت معركة الكرامة عام ١٩٦٨ لتعطي الكفاح المسلح شرعيته الرسمية والشعبية ·

بالمقابل كان هدف « اسرائيل » قد اصبح اكثر وضوحا فهي التي توجه ضربتها بمعدل ضربة كل عشر سنوات لدفع البرجوازية الوطنية الى التراجع عن التحالف الوطني في الداخل ، والارتداد عن التحالف مع الدول الصديقة وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي في الخارج ، لهذا فان عدوان ١٩٦٧ يشكل منعطفا خطيرا وحادا في مسار حركة التحرر الوطني العربية ، ودفع بعض فصائل هذه الحركة التي تبنت شعار الكفاح المسلح نظريا على مدار سنوات طويلة للمباشرة في ممارسته · ورافق ذلك اندفاع بعض الانظمة الى خلق امتدادات لها داخل الساحة الفلسطينية لمداراة عجزها من جهة وللمشاركة في القرار الفلسطيني واستيعابه من جهة اخرى · بالمقابل سارعت حركة فتح الى استيعاب منظمة التحرير الفلسطينية التي نشأت بقرار قمة عربية بهدف تثويرها ورفع الوصاية الرسمية عنها واصبح حملة البنادق من ابناء الشعب الفلسطيني يشكلون الثقل في قيادة هذه المنظمة ·

ومع تصاعد الكفاح المسلح بدأت حركة المقاومة الفلسطينية تواجه معضلة صعبة ، هي معضلة تحديد اسس ووسائل التعامل بين المقاومة من جهة وباقي فصائل حركة التحرر الوطني العربي والانظمة العربية من جهة اخرى ، وبرز في هذا المجال تياران رئيسيان :

الاول : يعمل على توجيه علاقات وتحالفات المقاومة باتجاه الانظمة العربية·

الثاني : يعتبر العلاقة الاستراتيجية مع الجماهير العربية الممثلة بطلائعها فصائل حركة التحرر الوطني العربية وان اي علاقة مع اي نظام هي بهدف خدمة العلاقة الاستراتيجية وتمتينها ·

فبالنسبة للتيار الاول واجه مشكلته وعقدته مع الانظمة التي تختلف برامجها لمعالجة مسألة الصراع العربي « الاسرائيلي » مع برامج المقاومة مما ادخلها في تناقضات مع برامج الانظمة كانت تحسم في معظم الحالات لمصلحة برامج الانظمة ·

كما واجه التيار الثاني نفس المشكلة ، لكنه تمكن من خلق الارضية الثابتة للقاء ، ولاطارات العمل المشترك المناسبة ، كالجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ، وبهذا اثبتت تجربة تحالف المقاومة كفصيل اساسي في حركة التحرر الوطني مع باقي فصائلها امكانية الوصول دائما الى البرنامج السياسي والتنظيمي الذي يحكم العلاقة ويحدد آفاق العمل ، بل بلغت وتيرة العلاقة حدا متقدما ونموذجيا من خلال العلاقة الثابتة التي قامت بين المقاومة الفلسطينية والاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية اللبنانية ، والتي كان للشهيد كمال جنبلاط دور اساسي في بناء هذه العلاقة وتثبيتها واعطائها آفاقها الوطنية والقومية ·

وكما قلنا في السابق نجحت الامبريالية عبر اداتها اسرائيل على صعيد الانظمة البرجوازية الوطنية في دفعها للتراجع عن تحالفاتها في الداخل والارتداد عن تحالفاتها الصحيحة في الخارج ، وهذا ما يمكن ان نجد له تفسيرا في مجزرة ايلول ١٩٧٠ في الاردن ضد الثورة الفلسطينية بعد ان شكلت الثورة خروجا كاملا على التعايش القائم بين اسرائيل والانظمة ، والذي استعمل الاردن في هذه المجازر كأداة لاسقاط برنامج الثورة لمصلحة برامج الانظمة ، وما رافق هذه المجازر وتلاها من احداث ومؤامرات على الثورة يؤكد بان من الصعوبة البالغة الوصول الى علاقة واضحة وثابتة مع الانظمة ، نظرا لتضارب البرامج من جهة ، وطبيعة تكوين هذه الانظمة وتناقضاتها من جهة اخرى ·

ان التزام اي نظام من الانظمة بمسألة الصراع العربي الاسرائيلي يجب ان تحكمه ثلاثة اسس هي : ـ

١ ـ الموقف من قضية شعب فلسطين وطليعته الثورة الفلسطينية ·

٢ ـ طبيعة القوى السائدة داخل بنية النظام ، وكذلك طبيعة نظامه الاقتصادي ·

٣ ـ طبيعة علاقات هذا النظام على الصعيدين العربي والعالمي ·

وفق هذه الاسس نستطيع ان نحاكم المواقف ونحدد حجم فعل كل نظام من هذه الانظمة في ادارة عملية الصراع ، ووفق هذه الاسس ايضا نستطيع ان نقول ان جمال عبد الناصر كان من الاوائل الذين حددوا ابعاد الصراع وقوانينه وبذل جهدا مضنيا ومخلصا لاستنهاض الشعور الوطني والقومي الى جانب قضية شعب فلسطين ، وبادر الى اتخاذ خطوات هامة لبناء المجتمع المصري وتنظيم علاقته الانتاجية بما يخدم قوانين هذا الصراع ، وقام بعدة محاولات لتنظيم القوى الديمقراطية داخل مصر ، وبادر الى الوحدة مع سوريا ، ودفع جيش مصر الى اليمن ، ووقف سندا قويا الى جانب فصائل حركة التحرر الوطني العربية وطرح شعارين هامين هما : ـ

ـ ما اخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ·

ـ المقاومة الفلسطينية وجدت لتبقى ·

وحتى يتمكن عبد الناصر من حماية مبادراته هذه وتثبيتها ، حدد بوضوح معسكر اصدقاء الامة واعدائها ، وعبر عن ذلك بتحالفاته وعلاقاته القوية والراسخة مع قوى التحرر في العالم وعلى رأسها تحالفه العتيد مع الاتحاد السوفيتي الصديق الوفي للامة العربية ·

وقد نجح عبد الناصر في اقامة نمط متميز من العلاقة مع الثورة الفلسطينية، فكما اعطى نفسه حرية التحرك باتجاه معالجة قضية الصراع وقبوله بالقرار رقم ٢٤٢ ومبادرة روجرز فانه اعطى الثورة نفس الحق برفضها القرار ٢٤٢ ومبادرة روجرز ، ولهذا كان عبد الناصر طوال سنوات نضاله الشاق والمرير ، كزعيم وقائد وطني عربي ، هدفا لاشرس المؤامرات الامبريالية الصهيونية الرجعية ، ولم تمهله صحته ليخوض حربه ضد اسرائيل ، وهي الحرب التي بدأ يعد لها مستفيدا من كل اخطاء الحروب السابقة والتي كان من ثمرة اعداده وجهوده عملية العبور العظيمة لجيش مصر البطل لقناة السويس ، والتي فشلت القيادة السياسية المصرية في دفعها لتأخذ كل مداها ، والتي اساءت بشكل بالغ استثمار نتائجها ، بسبب انحياز السادات الكامل لمعسكر العدو الامبريالي وتخليه عن تحالفات عبد الناصر التاريخية والصحيحة خصوصا مع الاتحاد السوفياتي ، مما اوصل السادات الى الوقوع في قبضة الرجعية العربية التي قادته للركوع الكامل تحت اقدام الحكام الامبرياليين والصهاينة

من خلال مبادرته الاستسلامية السيئة الذكر بزيارته لاسرائيل ، وهي المبادرة التي وجدت كنتيجة لها ــ قوى التصدي العربية نفسها امام منعطف بالــــغ الخطورة ، فبادرت لانشاء جبهة الصمود والتصدي مسقطة بذلـــك مسألـــــة « التضامن العربي » الزائفة التي ارتكبت افظع الجرائم بحق هذه الامة تحت مظلتها ، ومعيدة بذلك عملية الفرز الى المنطقة ، والتي خلقها اصلا عبد الناصر ليتمكن من صياغة اداة المواجهة العربية بعد تصفية تناقضاتها وضرب نفـــوذ الامبرياليين في صفوفها ٠

سادت روح ما يسمى بالتضامن العربي خلال وبعد حرب اكتوبـــر ١٩٧٣ ، واصبحت روح التضامن هذه تسود علاقة الانظمة على حساب قوانين الصراع العربي الاسرائيلي ، فتحت مظلة هذا الوفاق تمت عملية اعادة ضخ النفـــــط العربي لامريكا وحلفائها ، وتم فك الارتباط ، وتمت اتفاقية سيناء الثانية التي قادت الى مبادرة السادات الاستسلامية كما تمت في ظل التضامن حرب العامين في لبنان ، والتي كان هدفها الحقيقي سحق اهم وابرز فصيلين في حركـــــة التحرر العربي : الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية ٠

تلا حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، طرح مسألة تسوية النزاع في الشرق الاوسط، سقف هذه ٠٠٠ التسوية على الصعيد الرسمي العربي القرار ٢٤٢ الصــادر عام ١٩٦٧ ، والقراران ٣٣٨ ، ٣٣٩ الصادران عام ١٩٧٣ ، وهما القراران اللذان يدعوان الى وقف اطلاق النار والبدء بمفاوضات مباشرة لاطراف النزاع في المنطقة من خلال مؤتمر للسلام يعقد في جنيف ، وعلى صعيد المقاومـــــة الفلسطينية والكثير من فصائل حركة التحرر العربي ، فقد كان الامر يختلف ، فاعلنت المقاومة الفلسطينية ان قرار وقف اطلاق النار لا يعنيها ، كمــــا اكــدت رفضها مجددا للقرار ٢٤٢ الذي لم يأت لمعالجة قضية شعب فلسطين مــــــن جذورها ، بل اتى كنتيجة للصراع الناجم عن هذه القضية ، وبالتالي هــــو محاولة لمعالجة النتائج لا الاسباب ، وواصلت المقاومة كفاحها المسلح داخـــل الارض المحتلة ، في الوقت الذي ساد فيه الهدوء الجبهات العربية ٠

في ذات اللحظة واجهت المقاومة الفلسطينية مختلف اشكال الضغوط لتجيب على مسألة التسوية ، وشهدت الساحة الفلسطينية حوارا ديمقراطيا غنيا ادى الى طرح برنامجها السياسي المعروف ببرنامج النقاط العشر (السلطة الوطنية) الذي اقر في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني ، والذي دفعت القـــــوى الديمقراطية في الساحة الفلسطينية لاقراره كبرنامج يتصدى للحلول الامريكية الاستسلامية التي بدأت امريكا تسعى لتنفيذها من خلال ادواتها في المنطقة ، وهي الحلول القائمة على رفض امريكا و « اسرائيل » الاعتراف بحقوق شعب فلسطين وبقيادته الشرعية منظمة التحرير الفلسطينية وحقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة ٠

وعلى عكس ما أرادت المؤامرة ، تمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من تحويل برنامجها الى برنامج للتصدي جمعت حوله تحالفات عربية ودولية قوية وحققت على ارضيته قرار مؤتمر القمة في الرباط عام ٧٤ وكذلك قرارات الامم المتحدة وعلى الخصوص القرار رقم ٣٢٣٦ مما اثار حفيظة الولايات المتحدة الامريكية التي دفعت باتجاه اتفاقية فك الارتباط الثانية في سيناء من خلال السادات الذي فقد كل امكانات الصمود امام الابتزاز الامريكي «الاسرائيلي» ، وهي الاتفاقية التي وقفت في وجهها بشدة المقاومة الفلسطينية وباقي فصائل حركة التحرر العربية وبشكل متميز الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية في لبنان ، حيث التواجد الاقوى للمقاومة وحيث امكن صياغة نموذج متقدم من نماذج الالتحام بين الفصيلين الاكثر قوة واثرا من فصائل حركة التحرر العربي ٠

وبحكم موقع لبنان شمال فلسطين ، وبحكم مقدرة فصائل الحركة الوطنية اللبنانية على التفاعل اكثر من غيرها مع قضية شعب فلسطين وثورته ، وبحكم وجود الشهيد كمال جنبلاط على رأس التيار الشعبي الوطني الجارف في لبنان الذي منح كل دعمه وتأييده لعبد الناصر والذي خاض ثورة ١٩٥٨ دفاعا عن عروبة لبنان والتحامه بقضايا الامة ، وبحكم مقدرة الاحزاب الوطنية والتقدمية اللبنانية على تطوير برامجها السياسية بما يتناسب مع تصاعد وتيرة الصراع العربي « الاسرائيلي » ، وتبلور المطامح الشعبية ، اصبحت الساحة اللبنانية اكثر الساحات العربية مقدرة على معالجة قضية الصراع هذه على الصعيد الشعبي ، ومن هنا فعندما جنحت الساحة الرسمية الى المهادنة والتراجع امام الضغوط الامبريالية الصهيونية الرجعية جنحت الساحة الشعبية الى التشدد في مقاومة المهادنة والتراجع ، ولهذا كان القرار بضرب هذه الساحة سريعا من خلال حرب السنتين التي قاومت فيها الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بقيادة جنبلاط اعتى محاولات السحق او التحجيم ٠

ليس المجال هنا تقديم دراسة عن حرب السنتين لكننا نقول ان المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية نجحتا في خلق أرقى الاطر للسيطرة على عملية ادارة الصراع على الساحة اللبنانية دون الوقوع في اي خطأ تجاه ادارة عملية الصراع ضد الصهيونية وحلفائها ، وليس صدفة ان كمال جنبلاط سقط شهيدا قبل عام وهو يسعى الى تشكيل فصائل لبنانية مقاتلة تتوجه الى الجنوب للقتال ضد « اسرائيل » بعد وقف القتال في لبنان مؤكدا مقولته الصحيحة بان محور قضايا الامة العربية هي القضية الفلسطينية ، صامدا في وجه كل الاغراءات التي قدمت له ليغلب القضية الوطنية على القضية

القومية الاولى · وأثبت هنا بعض ما قاله شهيدنا الكبير حول مسألة الصراع العربي « الاسرائيلي » :

« هذه الظاهرة لتسلم الفلسطينيين شؤون مصيرهم مباشرة وبدون وكالة عنهم وقيام القيادات الشعبية من ميادين الكفاح ذاته ، تعطي للشعب الفلسطيني الاطارات الضرورية للتنظيم والقيادة ، وتمحضه بالعمود الفقري الجامع والمستقطب لجميع طاقاته المادية والمعنوية ·

وهذا يعني في لغة اخرى : ان الشعب الفلسطيني العربي والذي اضحى وسيضحى ، اكثر فأكثر ، سيد مصيره ومقرر نهجه وكافل طريق كفاحه الى النصر الاخير ، اذا عرف كيف يواصل كفاحه وينميه ·

ويعني ذلك ايضا وسيعني اكثر فأكثر انه لم يعد بالامكان تسوية قضية الاغتصاب « الاسرائيلي » لقسم من الاراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨ ، وانه لا بد « للاسرائيليين » ان يدركوا ان ما من تسوية تقوم لعدوان حزيران ١٩٦٧ ، الا وتكون خطوة مرحلية لا اكثر مهما بالغت الدول بكفالتها وحمايتها او رضخت لها سياسيا حكومات الدول العربية ··· لان الشعب الفلسطيني المطالب بالعودة الى ارضه وارض اجداده يصعب علينا ان نتصور توقفه عن الانسياق والتجند في هذا الكفاح بعد اليقظة التي تحسس بها والتنظيمات التي اخذ افراده يتجمعون وينضهرون فيها ·

ولذا نرى الحكم « الاسرائيلي » يقلق لا من العمل الفدائي القائم فحسب والذي لا يزال محدودا وفي طوره الابتدائي ، بل مما يبطنه هذا العمل الفدائي ، بالنسبة للمستقبل ، من اتجاهات تقض مضاجع المستسلمين الى حكم الواقع ومنطق التسويات· وقد تسرب هذا القلق الى تفكير بعض الحكومات العربية ذاتها » ·

من هنا تأتي حتمية فشل السادات في مبادرته الاستسلامية العرجاء التي حاولت القفز فوق حقائق وقوانين الصراع العربي « الاسرائيلي » · ان البديل لكل ما هو مطروح استمرار الصراع ، والواهمون والمتخاذلون والقاصرون فقط هم الذين يعتقدون بغير هذا ، فتحقيق اي انتصار مرحلي او استراتيجي على جبهة العدو الصهيوني لا يأتي بغير العنف والقوة · وعلى طريق تحقيق الاهداف المرحلية والاستراتيجية لا بد من النضال الجاد والدؤوب لتطوير الاوضاع العربية والسعي لاجراء تغييرات جذرية في البنى العربية القائمة تؤدي الى سيطرة القوى الشعبية الديمقراطية بحيث تتمكن هذه القوى من الوصول الى برنامجها الواحد للاجابة مع مسألة الصراع العربي « الاسرائيلي » ، بتحالف جاد وثابت مع قوى التحرر في العالم وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الصديق ومن خلال ضرب وتقليص حجم المصالح الامبريالية في المنطقة ، ومن هنا نستطيع ان نفهم سبب استشراس القوى المعادية للتحرير والتحرر في ضرب وتحجيم ظاهرة تلاحم الشعبين اللبناني

والفلسطيني عبر طليعتهما المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ،هذا التلاحم الذي أدى الى تفجير طاقة الجماهير المعبأة المنظمة المسلحة المقاتلة التي سيؤدي انتصارها بالضرورة الى عملية التغيير المطلوبة التي ستقود حتما الى حسم الصراع العربي « الاسرائيلي » لمصلحة قوى التحرر والتقدم ·

وعلى طريق ادارة عملية الصراع بالاسلوب الصحيح والاداة الفاعلة . اتت عملية « كمال عدوان » التي ضرب ابطالها على امتداد ٤٥ كيلومترا بين حيفا وتل أبيب · ان الشهيدة « دلال المغربي » وهي تزرع قدمها الثابتة فوق رمال الشاطىء الفلسطيني انما كانت توقع بهذه القدم المقاتلة قرارين : الاول ـ اسقاط مبادرة السادات الاستسلامية بنقل مناخ المنطقة العربية من التردد والاستسلام الى التصدي ، والثاني ـ تجريد بيغن من كل الاوراق التي قدمها له السادات مجانا . الى جانب تقزيمه وهو الذي ما زال يسعى الى تقمص الشخصية العبرية الاسطورية المتفوقة · هذا الى جانب تجديد مخاطبة الضمير الشعبي العربي المثقل بالهموم باللغة المناسبة ، ومخاطبة الرأي العام العالمي الذي كاد يتوه في صحراء مبادرة السادات · لقد أعادت العملية وضع الامور في اطارها الصحيح المحكوم بقوانين الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ان البديل لكل ما هو مطروح هو استمرار الصراع ·

صبري جريس

دروس الزيارة

زيارة السادات « التاريخية » لاسرائيل باءت بالفشل ، ولم تحقق أيا من الاهداف التي وضعها صاحبها نصب عينيه · وقد جاء هذا الفشل اسرع مما كان متوقعا ، اذ لم يمر الا ٦٠ يوما على تلك الزيارة حتى اتضح ان « حج » السادات الى القدس عشية عيد الاضحى ، في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، للاجتماع بالمسؤولين الاسرائيليين والقاء خطاب امام الكنيست و « مناقشة » اعضائه ، لم يؤد الى زحزحة الاسرائيليين ، بكافة فئاتهم ، ولو قيد أنملة عن مواقفهم السابقة · كما كان الفشل من نصيب السادات في الاجتماعات والاتصالات والمفاوضات التي تلت تلك الزيارة ، ابتداء من اجتماعه يوم عيد الميلاد مع بيغن في الاسماعيلية . مرورا بمباحثات اللجنة السياسية المصرية ــ الاسرائيلية في القدس ، خلال كانون الثاني (يناير) الماضي ، التي سرعان ما اضطر السادات الى سحب وفده منها بعد ان ثبت له عدم جدواها ، وانتهاء بزيارته ، في مطلع الشهر التالي ، الى الولايات المتحدة التي تملك « ٩٩٪ من اوراق اللعبة » ــ بموجب التقدير الساداتي المشهور ــ والتي رفضت توظيف اي منها في خدمة السادات رغم استغاثته المتكررة · واذا كانت الاتصالات المصرية ــ الاسرائيلية لا تزال مستمرة حتى الآن رسميا ، في أطار اللجنة العسكرية . فليس هناك ما يشير الى أن تلك الاتصالات قد تسفر عن أية نتيجة ملموسة · ويبدو ان التقييم نفسه ينطبق ايضا على الرحلات المكوكية التي يقوم بها المبعوث الاميركي في الشرق الاوسط ، الفرد اثرتون ، بين مصر واسرائيل ، في محاولة لحمل الطرفين على الاتفاق على

« اعلان مبادیء » ، يؤمل ان يكون بمثابة ورقة التين التي ستسمح للسادات بالسير على طريق الحل المنفرد ، او تسهل لبعض الانظمة العربية الانضمام الى مفاوضاته مع اسرائيل ٠

ان الزيارة الساداتية لاسرائيل ، التي لم يسبق لها مثيل ، ليست حدثا عابرا في تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، بل ان مجرد وقوعها يشكل نهاية لاحدى مراحل ذلك الصراع ٠ كما ان فشلها يؤذن ببداية مرحلة جديدة ، ابرز ما يميزها سقوط فرضيات عدة وزوال شكوك عديدة وانقشاع الضباب الذي كان مخيما فوق اكثر من ناحية ٠ ولا شك ان السادات بفعلته تلك قد ساهم ، ومن حيث لم يشأ ، في وضع النقاط على حروف كثيرة وكشف مواقف عديدة ، اسرائيليا وعربيا ودوليا ، مما يساعد على وضوح الرؤية عموما ، وبمدى ربما لم نعهده في السابق ٠

« الحاجز النفسي » وهم ، والحل المنفرد صعب

قدمت زيارة السادات لاسرائيل ، والتفاعلات التي نجمت عنها ومضاعفاتها ، مجموعة من العبر الثمينة ٠ ولو شئنا تلخيص تلك العبر ، باختصار شديد ، لقلنا ان تلك الزيارة ، بالنسبة الى الجانب المصري ، ليست الا « أية » في سوء التخطيط السياسي وضيق الافق وانعدام التقدير الصحيح والجهل في شؤون العدو وحقيقة نواياه وخططه ، كما أنها برهان ساطع على مدى الحماقات التي يمكن ان ترتكبها الانظمة السلطوية ، التي تسيطر في اكثر من بلد عربي ٠ أما على الصعيد الاسرائيلي فأن المواقف من الزيارة وردود فعل الفئات المختلفة عليها ليست الا دليلا واضحا ، لا حاجة الى ما يدعمه ، على ان العقيدة الصهيونية بمركباتها العنصرية التوسعية لا تزال كما كانت عليه منذ نشوئها ، وان الغرور قد دفع الاسرائيليين ، مسؤولين وسكانا ، الى وضع فقدوا معه القدرة على تقييم عواقب مواقفهم ٠

ان العبر التي تقدمها زيارة السادات ، على كل حال ، غير قابله للتلخيص، بل ان « روعتها » واهميتها تكمنان في تفاصيلها بالذات ٠ وهذه التفاصيل واضحة للغاية ، نتيجة لـ « دبلوماسية التلفزيون » التي اتبعها السادات وجاراه الاسرائيليون فيها ، وتظهر ان الرجل لم يخطيء في هذه النقطة او تلك فقط من تخطيطه ، بل ان خطأه كان شاملا وكاملا ٠ ولا شك ان السادات لو تروى وفكر قليلا فيما ينوي عمله واستشار من حوله ، لاتضح له ان مصير توجهه الجديد الفشل ، ولما أقدم على فعلته تلك ٠

نجم خطأ السادات الاساسي في زيارته لاسرائيل ، كما يبدو ، عن سوء تقديره لوقع زيارته وتأثيرها على الاسرائيليين ٠ فقبيل قيامه بتلك الزيارة ،

اطلق السادات ، كالعادة ، استنتاجا احصائيا جديدا حول الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، مفاده ان ٧٠٪ من مركبات ذلك الصراع تعود الى عوامل نفسية ، يمكن ان تزول بزيارة الاسرائيليين و « أكل عيش وملح » معهم ٠ وبعد عودته من اسرائيل ، راح السادات يفاخر انه ازال عداء ٣٠ سنة في ٣٠ ساعة ، ثم عدد في خطاب القاه امام مجلس الشعب المصري (١) ، ستة انجازات لزيارته، اختصرها بقوله : « ان التغيير حدث أساسا في المناخ النفسي الذي يحيط بالمشكلة بحيث اصبح هناك امل حقيقي في وضع نهاية للحروب والمعاناة في المنطقة » ، خصوصا بعد ان « تحطمت حواجز الشكوك وفقدان الثقة والخوف٠٠ وبدأنا نحن وهم نسلك سلوكا حضاريا » ٠ غير انه لم يمر الا وقت قصير حتى أتضح ان هذه الاستنتاجات كانت مجرد هـراء وان التعنت الاسرائيلي ليس ناجما عن مشاكل نفسية فقط ، بل انه نابع ايضا من مصالح سياسية واقتصادية وغيرها ، محصنة بعقيدة عنصرية توسعية تشكل خطرا على العرب بأسرهم ، وخصوصا الفلسطينيين منهم ٠ اما السلوك « الحضاري » فقد أنتهى بوصف السادات « صديقه » بيغن ـ و « اصدقاء » السادات كثيرون ، منهم نيكسون وفورد و « العزيز هنري » وكارتر وفانس ، الخ ـ بأنه « شايلوك » و « خداع »، بينما رد عليه بيغن مستنكرا تلك « الوقاحة » ٠

كذلك اخطأ السادات في فهم حقيقة الاطماع التوسعية الاسرائيلية ، حتى بعد ان اجتمع بالمسؤولين الاسرائيليين ، فبعد عودته من اسرائيل راح الرئيس المصري ، في معرض هجومه على منتقديه ، يدلل على مدى « التزامه » بالقضية العربية بقوله انه يسعى الى حل شامل لمشكلة الشرق الاوسط ، ولو اراد حلا منفردا مع اسرائيل لكان ذلك سهلا للغاية لانه ليست هناك مشكلة بالنسبة لسيناء ٠ غير انه سرعان ما اتضح ان هناك مشكلة عويصة للغاية ، وبالنسبة لسيناء بالذات ، اوضحها السادات بقوله ـ في احدى المقابلات الصحفية العديدة التي اجراها منذ زيارته لاسرائيل (٢) ـ انهم (أي الاسرائيليون) « يرون ان اعطيهم قطعة ارض عند رفح واخرى عند ايلات في مقابل مساحة مماثلة لها في صحراء النقب » (وقبل ان يقع السادات في خطأ آخر ، لا بد من التأكيد ان اسرائيل تريد ضم قطعتين من ارض سيناء ، عند رفح وايلات ـ العقبة ـ اليها ، ولكنها ليست على استعداد لمبادلتها « بمساحة مماثلة لها في صحراء النقب » ٠ فاقتراح المبادلة هذا جاء من المدعو يغئال يادين ، زعيم الحركة الديموقراطية للتغيير ونائب رئيس الحكومة الاسرائيلية ، وهو رجل لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، ولا حول ولا قوة ايضا حتى داخل حركته ٠ ان صحراء النقب هي جزء مما يسمى « ارض ـ اسرائيل » ، وبالتالي فأنها بموجب عقيدة ليكود والحزب الديني القومي ـ المفدال ـ غير قابلة للتسليم لـ « سيادة اجنبية » ٠ كما ان الحكومة الاسرائيلية وجهت اللوم الى يادين لتقدمه باقتراح

« المبادلة ») ٠ اما وزير الحربية المصري الجمسي فقد لخص هـــذه المشكلة بقوله (٣) : « ان اسرائيل تقترح ٠٠٠ بقاء المستعمرات الاسرائيلية الموجودة على الحدود او خليج العقبة ٠٠٠ اضافة الى ثلاثة مطارات داخل اراضينا ، منها اثنان على الحدود المصرية [الفلسطينية] وهما مطار « الجورة » في رفح ومطار « رأس النقب » القريب من أيلات الى جانب مطار « رأس نصراني » في جوار شرم الشيخ » ٠

والمطارات الثلاثة التي أشار اليها الجمسي هي ، عمليا ، قواعد جويـــة ضخمة ، لها ميزات استراتيجية مهمة ٠ فمن مطار رأس نصراني يستطيـــع الطيران الاسرائيلي مهاجمة مضيق باب المندب والاهداف الواقعة على ساحلـي البحر الاحمر ، وكذلك السد العالي في أسوان ومنشآته ٠ وكان السلاح الجوي المصري قد قصف هذا المطار عندما بدأت حرب تشرين ١٩٧٣ وعطله ٠ ويبـدو انه قد يكون هناك مجال للاتفاق بين اسرائيـــل ومصر بشأن انسحـــاب الاسرائيليين من ذلك المطار بعد بضع سنوات ، حين يحصلون على طائـــرات ف ـ ١٥ ذات المدى الطويل ، التي تغنيهـــم عـــن استعمالـــه ، وبعـــد ان توافق مصر على وضع قوات دولية في شرم الشيخ والاعلان عن خليج العقبة ممرا مائيا دوليا ، وهو ما ابدى السادات استعداده للقيام به ٠ اما قصـــة المطارين الآخرين فأنها مختلفة ٠ فمطار رأس النقب هو قاعدة خلفية لمهاجمـة الاردن والسعودية ودول الخليج العربي ، واسرائيل تعتقد انها قد تحتاج اليه في المستقبل ٠ وأما مطار الجورة في منطقة رفح فيبدو انه احد المطـــارات الاسرائيلية الرئيسية ، ان لم يكن الرئيسي ٠ وقد انشىء هذا المطار في اعقاب حرب ١٩٦٧ ونقلت اليه منشآت عديدة لكي يحل ، الى درجة ما ، محل المطارات الرئيسية السابقة التي كانت مركزة حتى ذلـــك الوقت في اواسط اسرائيل ، بالقرب من المناطق المأهولة بالسكان ، مما شكل مصدر ازعاج دائم لحركـــة الطيران العسكري (٤) ٠ ومما يزيد من حدة المشكلة المتعلقة بهذين المطاريـــن وقوعهما داخل قطعتي الارض التي اعلن السادات ان اسرائيل تطالب بضمهما الى الاراضي المحتلة سابقا ٠

اما موقف اسرائيل المطالب بضم قطعتي الارض المشار اليهما فأنـــه ليس جديدا ، وبالتالي ليس فيه ما يدفع السادات الى ابداء استهجانه ، اذ لو كلف نفسه عناء دراسة هذه الناحية ، ولو بصورة سطحية للغاية ، لاتضحت لـــه حقيقة ذلك الموقف بسرعة ٠ فأسرائيل تطالب بضم المنطقة الاولى من هاتيـــن المنطقتين ، التي تسميها مشارف رفح ، والواقعة في أقصى شمال ـ غرب سيناء بمحاذاة قطاع غزة ، منذ فترة طويلة ، بل انها كانت قد فصلتها ، اداريا ، عن باقي مناطق سيناء بعد مرور وقت قصير على احتلالها ٠ وهذه المنطقـــة ليست مجرد « قطعة ارض » ـ على حد تعبير السادات ـ اذ انها تضم بضعة

ملايين من الدونمات • وهدف اسرائيل من ضمها هو ضرب عدة عصافير بحجر واحد • فمعظم الاراضي الواقعة هناك هي ، اساسا ، اراض زراعية خصبة ، كانت تقطنها اعداد قليلة من البدو ، قامت اسرائيل بطرد الكثيرين منهم ، كمقدمة للاستيلاء على تلك الاراضي وتحويلها الى احتياطي مخصص لنمو الاستيطان الصهيوني في المستقبل ، خصوصا وان المناطق الاخرى ، المحتلة سابقا او لاحقا تخلو من اراضي زراعية خصبة شاسعة وشبه فارغة • كما ان اسرائيل تسعى الى تحقيق هدف استراتيجي مهم للغاية بمطالبتها بضم تلك الاراضي او الاحتفاظ بالسيطرة عليها • فقد اكتشف بعض « الاستراتيجيين » الاسرائيليين ان مصر، عندما هاجمت فلسطين عبر التاريخ ، كانت تستعمل دائما الطريق الساحلية ، الواقعة على شاطي سيناء الغربي المحاذي للبحر المتوسط ، التي تمر في العريش ومشارف رفح • كذلك يخشى بعض الاسرائيليين من ان تقوم مصر ، في حال انسحابهم من تلك المنطقة ، بـ « اعطائها » للفلسطينيين والموافقة على ضمها الى قطاع غزة لتوطين اللاجئين من القطاع ، او خارجه فيها ، في حال الوصول الى تسوية ، بينما يخشى آخرون من ان تقوم مصر بتوطين مئات الالاف من الفلاحين المصريين هناك (٥) ، لتخفيف حدة اكتظاظهم في بعض المقاطعات المصرية • وفي الحالتين تكون قد خلقت منطقة واسعة ، يقطنها بكثافة اكثر من مليون عربي ، فلسطيني او مصري ، ولا تبعد حدودها في شمال قطاع غزة عن تل ابيب الكبرى ، وهي قلب اسرائيل ، الا بضع عشرات الكيلومترات ، مما يشكل تهديدا دائما للكيان الصهيوني • وللقضاء على احتمالات الخطر هذه تسعى اسرائيل لابقاء تلك المنطقة تحت سيطرتها ، وتخطط لاقامة حاجز بشري من عشرات المستوطنات ، يمتد من العريش على البحر المتوسط حتى بئر السبع في قلب النقب ، ويصبح بمثابة خط دفاع قوي ودائم عن اكثرية سكان اسرائيل التي تقطن في اواسط فلسطين • كما يتم ، بواسطة هذا المخطط ، الفصل اقليميا بين فلسطين ومصر نهائيا •

وهذا المخطط يتعلق بهدف استراتيجي آخر ، اكثر خبثا ، مرتبط بالمطالبة بضم قطعة ارض أخرى قرب العقبة (أيلات) الى اسرائيل • والاسرائيليون ليسوا « بحاجة » ، عمليا ، الى قطعة الارض هذه ، ولكن مطالبتهم بها تنم عن خوف مكبوت •فمساحة الاراضي الفلسطينية في النقب تضيق تدريجيا ، كلما اتجهنا نحو الجنوب ، الى ان تصل الى رقعة ضيقة للغاية على خليج العقبة ، حيث اقام الاسرائيليون مدينة أيلات • ولكن هذه المساحة الضيقة كافية لشطر العالم العربي الى شطرين ، وقطع الاتصال الاقليمي البري بين مصر ومن ورائها المغرب العربي من ناحية ، والمشرق العربي من ناحية اخرى • وقبل حرب ١٩٦٧ ، كان بعض العرب يطالب ، للموافقة على الصلح ، ان تقوم اسرائيل أيضا بالتنازل عن قطعة من صحراء النقب ، تستعمل لاعادة الاتصال البري بين

شطري العالم العربي والاستجابة لهذا الطلب قد تؤدي الى قطع طريق اسرائيل البحرية الى افريقيا والشرق الاقصى عبر خليج العقبة والبحر الاحمر · ولذلك، استباقا لهذه الامكانية وجريا على عادة الدفاع بواسطة الهجوم ، لا تسعى اسرائيل الى منع امكانية التنازل عن اراض في النقب فقط ، بل انها تطالب مصر بالتنازل عن قطعة من اراضيها في سيناء ، تضم الى النقب لتوسيع رقعته مما يكرس أيضا شطر العالم العربي الى قسمين منفصلين ، لا وجود لاتصال بري بينهما ·

وبالاضافة الى هذه المطامع الاقليمية ، هناك ايضا طلبات اخرى تتقدم بها اسرائيل الى مصر ، لعل اصغرها هو تخفيض قوة الجيش المصري بصورة دائمة ، وابرزها الدخول في اتفاقيات اقتصادية مع اسرائيل ، واخطرها التزام مصر بقطع علاقاتها مع المشرق العربي بأسره ومنح اسرائيل « يدا حرة » تجاهه (٦) · وفي ضوء هذه المواقف والطلبات ، لا يبدو ان هنالك حلا مصريا ـ اسرائيليا منفردا سهلا بالمدى الذي يريد السادات ان يوهم الآخرين به ، الا اذا اراد الرجل الاستسلام والرضوخ لشروط اسرائيل باكملها ، وبالتالي « بيع » نفسه والعرب الآخرين لقاء منافع لا يمكن ان تدوم طويلا ·

وبيغن ليس قويا

وكما اخطأ السادات في فهم حقيقة المطامع الاسرائيلية ، بالنسبة لمصر قبل غيرها ، كذلك لم يستطع تقدير موقف بيغن او قدرته على اقناع الاسرائيليين بالموافقة على تسوية في المنطقة ، حتى ولو كان هو نفسه مقتنعا بجدواها · ولكن خطأ السادات في هذا الصدد لا يخلو من « طرافة » ، بل انه يعتبر نموذجا للطريقة التي يتخذ بها بعض الزعماء قراراتهم ، فالسادات يعلمنا في احدى مقابلاته الصحفية (٧) انه قبل ان يقرر زيارة اسرائيل توجه الى ··· الرئيس الروماني تشاوشيسكو « بسؤالين اثنين عن مناحيم بيغن : ··· الاول هل ترى ان مناحيم بيغن يريد السلام حقا ؟ اما السؤال الثاني فهو هل مناحيم بيغن رجل قوي يستطيع ان يتخذ قراره وان يقنع به شعبه ؟ » · وكان رد تشاوشيسكو ، الزعيم الشيوعي الذي أصبح خبيرا في شؤون اليمين الصهيوني واوضاع اسرائيل الداخلية نتيجة لمقابلة واحدة ووحيدة مع مناحيم بيغن ، كافيا لان يحمل السادات على اتخاذ قراره بزيارة بيغن · واستنادا الى هذا التخطيط «الدقيق» والمعلومات « القيمة » التي حصل عليها السادات ، لم يكن من المستغرب ان يفاجأ بحقائق اخرى بعدما اجتمع مع بيغن · ومرة اخرى ، لو تروى السادات قليلا ودرس هذه المسألة ، ولو بصورة سطحية للغاية أيضا ، لكان في غنى عن ان « يبهدل » نفسه · فشخصية بيغن ومواقفه وقدرته ومركزه ، بل ان معظم

ما يتعلق به وبكثير من اسس الكيان الصهيوني في فلسطين ، هي امور واضحة للغاية ، لا مجال للبس او غموض بشأنها ٠

من المعروف جيدا ، للقاصي والداني ، ان مناحم بيغن ليس الا ارهابيا سيء الصيت وضيق الافق ٠ وهو ، اساسا ، رجل معارضة محترف ، قضى الـ ٢٣ سنة الاخيرة من حياته ، اي منذ تسلمه قيادة منظمة اتسل (الارغون) سنة ١٩٤٤ وحتى نجاح تكتل ليكود في انتخابات الكنيست الاخيرة ، في ايار (مايو) من العام الماضي ، وهو يقول « لا » ، لكل شيء تقريبا ٠ ومن خلال تشديده على تلك الـ « لا » ،جمع حوله معظم العناصر الصهيونية المتشددة ، من توسعيين وشبه فاشيين ومتدينين متزمتين ، يسيطرون الان عمليا على حزبه ويرسمون سياسته ٠ كما ان نجاح الحزب ، مع حلفائه ، في الانتخابات العامة الاخيرة التي جرت في اسرائيل ، بعد ان كان قد فشل في ذلك ثماني مرات متتالية ، لم ينجم عن « شطارة » بيغن ، بقدر ما جاء نتيجة لتصدع حزب العمل ، الذي حكم اسرائيل منذ قيامها ، وفشله في مواجهة المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي استفحلت داخل الكيان الصهيوني ، خلال السنوات الاخيرة٠

وبحكم خلفيته ووضعه هذين ، فأن بيغن في الحكم اضعف بكثير منه في المعارضة ٠ فهو محكوم ، اولا ، بعقيدة ليكود واليمين الصهيوني عامة ، القائلة ان مايسمى ارض ـ اسرائيل (وفلسطين كلها تشكل جزءا منها فقط) هي «ملك» لليهود ، لذلك لا يجوز تسليم اية قطعة منها لـ « حكم اجنبي » ٠ كما انه لا يستطيع ، ثانيا ، ان يبدو اكثر « ليونة » من خصومه في حزب العمل ، وهم عمليا من كبار التوسعيين ، الا انهم يعرضون مواقفهم بطريقة لبقة وخبيثة ٠ كذلك هناك ، ثالثا ، « رأي عام » اسرائيلي ومطامع توسعية مختلفة ، ناجمة عن الرغبة في ضمان نمو الكيان الصهيوني في المستقبل ، لا يستطيع اي مسؤول صهيوني ان يتجاهلها ، خصوصا وانها جاءت نتيجة لصلف اسرائيلي استشرى لاسباب لا مجال لذكرها هنا ، خلال فترة طويلة ، وبالتالي لا يمكن ان تختفي فجأة ٠ يضاف الى ذلك كله ان بيغن حساس جدا للانتقادات ، التي لم يعتد عليها ، اذ كان دائما خلال تاريخه السياسي الطويل هو الذي يوجه الانتقادات، لا الذي يتلقاها ٠ وعنما يوجه اليه انتقاد ما يرد عليه بشراسة ، ولكنه سرعان ما ينتقل الى تبرير موقفه ، ثم يأخذ في التراجع (٨) ٠

وفي مثل هذا الوضع لا يبدو ان بيغن قادر ، مهما كان قويا ، على تقديم اية تنازلات جوهرية للسادات او لغيره ، لا سعيا لتأمين مصالح اسرائيل فقط ، وانما حفاظا على مستقبله السياسي أيضا ، وفي داخل حزبه اولا ٠ صحيح ان مناحم بيغن يتمتع باحترام وطاعة حزبيين عميقين بين اتباعه ، عرف كيف يحافظ عليهما خلال فترة زعامته الطويلة ، بالحرص على السباحة مع التيار من ناحية

والعمل على طرد مناوئيه الاشداء او تضييق الخناق عليهم من ناحية أخـرى . غير ان هناك حدا « للتنازلات » التي يمكنه ان يقدمها ، والا فقد نفوذه ومجموعة لا بأس بها من اتباعه ، مما قد يشكل خطرا على مستقبله السياسي ٠ وقد بدأ فعلا ، التململ يظهر واضحا داخل حزب بيغن ، حيروت ، وهو الشريك الاكبـر في تكتل ليكود اليميني ، نتيجة للمواقف التي اتخذتها الحكومة الاسرائيلية ، بـ « وحي » من بيغن ، تجاه التحركات السياسية الاخيرة ٠ فبعد ان قدم بيغن مشروع سلامه الاخير ، القاضي بانسحاب اسرائيلي جزئي من سيناء ومنـــح الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حكما ذاتيا ، لا يهدف عمليا الا الى اقامة بانتوستان فلسطيني ، انفض من حوله غلاة التوسعيين ، من اعضـاء حركتي ارض ـ اسرائيل الكاملة وغوش ايمونيم واتباعهم ومؤيديهم ٠ كما راح بعض زعمائهم ، من امثال تسفي شيلواح وموشي شامير والدكتور اهرون بن ـ عامي والدكتور يسرائيل الداد (شايب) ، الذين استقال بعضهم من ادارة ليكود احتجاجا ، يهاجمون بيغن بقســـوة ، متهمينـــــه حتى بـ « الاستســـلام » و «الانهزامية » (!) (٩) ، بينما تنكر له بعض اعز اصدقائه القدامى ، كالنائبين شموئيل كاتس وغيئولاه كوهين ، وراحا ينتقدانه بمرارة ٠ وكانت هذه الفئات اليمينية المتشنجة قد اصيبت بالذعر اثر زيارة السادات لاسرائيل ، وعملت كل ما في وسعها للتخفيف من تأثيرها ، بل ان بعضهم اعلن عن امتعاضه منهـــا (فالوزير شارون والنائبة كوهين رفضا ، مثلا ، ان يصفقا للسادات عند دخوله الى الكنيست ، اسوة بالآخرين) ، خوفا من ان تدفع المبادرة الساداتية حكومة اسرائيل الى تقديم « تنازلات » ، لا ضرورة لتقديمها بحسب رأيهم ، وقد تؤثر على مستقبل الكيان الصهيوني ٠ ولا ترى هذه الفئات حلا لمشاكل أسرائيل الا بالعودة الى سياسة « الصهيونية الكبيرة » ، التي ينبغي ان تتمثل حاليـــا بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة بأسرها وتشجيع الهجرة اليهودية الواسعة من كافة انحاء العالم اليها ، واقامة المدن والمستوطنات، على اختلاف انواعها فيها(١٠)، حتى تصبح ذات طابع يهودي واضح ، يضم اكثرية سكانية يهوديـة ، مثـــل المناطق المحتلة سنة ١٩٤٨ ٠ وعندما يتم ذلك لا حاجة للسادات او لغيـــره للاعتراف باسرائيل او لعقد سلام معها ، أذ أن السلام سيحل تلقائيا ، عندمـا ستصبح الدولة اليهودية «امبراطورية» كبرى ، لا يجرؤ احد على التعرض لها ٠

ولا يجوز ، على كل حال ، ان تفهم معارضة مثل هذه الجماعات ، قليلـــة العدد وصغيرة التأثير ، كأنهـا كافية لتقرير السياسة الاسرائيلية الرسمية ، او تعبر عنها بكاملها ، ولكن موقفها هو مؤشر لما يدور في افئـــــدة الآخرين ٠ ويلاحظ انه على الرغم من تلك الهجمات الشرسة على بيغن لم ينبر ، من ناحية ثانية ، اي حيروتي او ليكودي ذي شأن للدفاع عنه او عن مشروع سلامــه ٠ بل يلاحظ ، على العكس من ذلك ، انه عندما اتجه حيروت مؤخرا لاختيـــــار

مرشح وزاري من قبله ، صوت ٤٠٪ من اعضاء مركز الحزب الى جانب المرشح الذي اعلن بيغن صراحة عن عدم رضاه عنه ومعارضته له · وقد فسر المراقبون السياسيون هذه الواقعة على انها تحذير من قبل الحزب لبيغن وتهديد بنزع الثقة به ، اذا امعن في تقديم المقترحات « السلمية » ولا شك انه سيكون لتلك المعارضة تأثيرها في دفع بيغن للعودة الى مواقفه السابقة المتصلبة الكلاسيكية (١١) · كما انضم الى كل اولئك التجمع العمالي المعارض ، معلنا انه يرى « مخاطر » جمة في اتجاهات بيغن ومواقفه السياسية في المفاوضات مع مصر · وكأن هذا كله لا يكفي ، فأنضم ايضا الى اولئك المعارضين جميع زعماء الحركات الاستيطانية في اسرائيل ، على اختلاف اتجاهاتهم الحزبية ، الذين يتمتعون بنفوذ كبير ، وإن كان « هادئا » ، داخل الكيان الصهيوني ، معلنين شجبهم لمشروع سلام بيغن ، لانه سيمس في حال تنفيذه بالنمو الاستيطاني الصهيوني بشكل بالغ (١٢) ·

وهذه النظرة العابرة على اوضاع اسرائيل السياسية الداخلية لا تترك مجالا لشكوك كبيرة حول نصيحة تشاوشيسكو للسادات بشأن « قوة » بيغن ، فالرجل ليس قويا ابدا ــ وهو ، في نهاية الامر ، لا يستطيع ان « يتخذ قراره » ، وان اتخذه لا يستطيع ان « يقنع شعبه به » · بل لا يبدو ان بيغن يختلف كثيرا عن باقي رؤساء حكومات اسرائيل السابقين ، من حيث انعدام قدرتهم جميعا على اتخاذ اية قرارات تسووية يمكن ان ترضي اكبر المستسلمين العرب · كما لا يبدو ان هناك في اسرائيل ، في اوضاعها الراهنة ، اي شخص من هذا القبيل · وشخص واحد ووحيد كان باستطاعته ــ ولعله من المستحسن ان نضيف : ربما ــ اتخاذ مثل تلك القرارات ، وهو بن ــ غوريون · وقد توفي منذ خمس سنوات ، وكان قد اعتزل الحكم منذ ١٥ عاما ·

اليهود الاميركيون طائفة مذعورة

لم تتوقف اخطاء السادات ، التي دفعته الى رحلته « التاريخية » لاسرائيل عند النواحي التي أشرنا اليها ، بل تجاوزتها ووصلت حتى الى حد المراهنة على يهود الولايات المتحدة ومحاولة استرضائهم ، لحملهم على « الضغط » على اسرائيل للقبول بالطلبات العربية او ، على الاقل ، التزام الحياد ، والامتناع عن الضغط على السلطات الاميركية ، والكف عن التشكيك في صدق نوايا السادات تجاه اسرائيل ، بعد ان يقوم بزيارتها · ولاول وهلة يبدو كأن هذا التخطيط لا يخلو من منطق · ففي الولايات المتحدة يعيش اليوم نحو ٦ ملايين يهودي (اي نحو ضعفي عدد السكان اليهود في اسرائيل) ، يتبوأ العديد منهم مراكز حساسة في مجالات مهمة ومختلفة ، مثل حياة البلد السياسية واجهزة

الاعلام والتعليم العالي وغيرها . وبنسب تفوق مثيلاتها لدى اية مجموعة عرقية اخرى في أميركا · وبحكم وضعهم هذا فانهم يتمتعون بنفوذ واسع في ذلك البلد · كما ان نشاط اللوبي (مجموعات الضغط) الصهيوني ــ اليهودي ، المتخصص في خدمة اسرائيل ، يصل الى مدى لا يسمح لاي مسؤول اميركي بتجاهله · وكانت الحركة الصهيونية قد أولت الجالية اليهودية الاميركية ، منذ مؤتمر بلتيمور سنة ١٩٤٢ ، عناية خاصة وبذلت جهودا كبيرة للسيطرة عليها وتسخيرها في خدمة اهدافها ، باعتبارها اكبر تجمع سكاني يهودي في العالم. خصوصا بعد ان أبادت النازية خلال الحرب العالمية الثانية اكثرية اليهود في اوروبا الشرقية ، التي كانت حتى ذلك الوقت المستودع الرئيسي لتزويد الصهيونيين بالقوى البشرية التي يحتاجون اليها · وقد أحرزت الحركة الصهيونية ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم ، تقدما كبيرا في السيطرة على حياة اليهود الاميركيين ، وخصوصا النواحي السياسية منها ، فعزلت المنظمات والافراد اليهود المناوئين لها بينهم ، وجعلتمن اكثريتهم مجرد تابعين لاسرائيل ، لا هم لهم الا نصرتها وتأييد « حكوماتها الشرعية » ، مهما كانت السياسة التي تنتهجها ، جريا وراء القول المأثور : « أنصر اخاك ظالما او مظلوما » · ويلاحظ ان اليهود الاميركيين يهبون لتأييد اسرائيل ، حالما يدخل في روعهم ان المسؤولين الاميركيين لا يؤيدونها بما فيه الكفاية · وقد استطاعوا وباقي مؤيديهم ، من مختلف الاتجاهات ، حمل المواطن الاميركي العادي ، كما يبدو ، على الاقتناع ان الدفاع عن اسرائيل ونصرتها وتلبية حاجاتها ليست الا قيما حضارية اميركية ينبغي المحافظة عليها ! وساهم في بلورة هذا الشعور بالطبع ، « مكافأة » مختلف المسؤولين الاميركيين لاسرائيل ، واغداقهم المال والسلاح وكذلك كافة الاوصاف الحميدة عليها ، بعد ان قامت ، بكفاءة ، بلعب دور الكلب الحارس للمصالح الامبريالية في المنطقة ، وخصوصا الاميركية منها ، خلال فترة طويلة ·

ولا شك ان السادات راهن على انه ، بزيارته لاسرائيل ، سيقتحم اللوبي الصهيوني ــ اليهودي في الولايات المتحدة « وديا » ويحمله على تأييده او، على الاقل ، يجبره على التزام الحياد · فعندما قيم نتائج زيارته في مجلس الشعب المصري ، بعد عودته ، اعلن بوضوح « ان كثيرا من جماعات الضغط لحساب اسرائيل في دول اخرى قد تم تحييدها كلية ، بل ان معظمها قد تحول الى قوة ضاغطة على اسرائيل نفسها وسوف يلمس الجميع ابعاد هذا التغيير في الاسابيع القليلة المقبلة » (١٣) · وما لم يقله السادات صراحة اوضحه حزب مصر العربي الاشتراكي ، وهو الحزب الحاكم في مصر ، في بيانه الذي صدر اثر عودة السادات ، باعلانه ان الزيارة « اتاحت للادارة الاميركية منطلقا اوسع مسلحا برأي عام اميركي لتحمل مسؤولياتها ازاء ضغوط القوى التي تتحرك

من موقع التحيز والتأثير في الرأي العام الاميركي » (١٤) · غير ان رهان السادات هذا كان في غير محله ، والاهم من ذلك ان هذا الاستنتاج كان واضحا للغاية قبل ان يقوم السادات بزيارته · فحتى الى ما قبل وقت غير طويل ، ساد لدى المعنيين بالشؤون اليهودية ـ الاميركية رأيان بشأن الموقف الذي يمكن ان يتخذه اولئك اليهود ، في حال نشوب خلافما بين اميركا واسرائيل · واول هذين الرأيين هو ان اليهود الاميركيين لن يجرؤوا ، في نهاية الامر ، على معارضة سياسة رسمية لحكومتهم ، خوفا من حدوث شرخ بينهم وبين باقي الفئات المؤيدة للسلطة ، او الاميركيين عموما ، قد يـؤدي الى المس باندماجهم في المجتمع الاميركي او ربما الى ظهور بوادر اللاسامية ، اذا ظهر ان « ولاءهم المزدوج » يخفي في حقيقة الامر تأييدا لاسرائيل ، لا الاهتمام بمصالح بلدهم · أما الرأي الثاني فقد اصر على القول ان اولئك اليهود سيقفون في نهاية الامر الى جانب اسرائيل ، مهما كلفهم ذلك · ويبدو ان أصحاب الرأي الاخير هم الذين كانوا على صواب · فاليهود الاميركيون ، منذ ان بدأت بوادر التغيير تظهر ـ ولو لفظا ـ على السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، راحوا « يهمهمون » احتجاجا ويجمعون قواهم ويهددون من حين الى آخر ، الى أن صدر البيان الاميركي السوفياتي المشترك بشأن الحل لازمة المنطقة ، فقاموا بعقد حلف مع معظم مناوئي كارتر (ومن بينهم معارضي اتفاقية بنما ، والوفاق الدولي ، والتقرب من السوفييت ، وانصار الحرب الباردة ،ومؤيدو الامبريالية الكلاسيكية) ، وشنوا حملة شعواء ضده تحت شعار معلن ينادي بـ « اسقاط كارتر » · ولم تمر الا بضعة ايام حتى تراجع الرجل ، ووافق على نشر ورقة عمل اميركية ـ اسرائيلية « لحست » معظم ايجابيات البيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك · وكان ذلك البيان قد نشر في الاول من تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، بينما نشرت ورقة العمل في السادس منه ، اي ان حقيقة موقف اللوبي اليهودي ، وبالتالي سخف المراهنة على كسب وده او تحييده ، كانا واضحين للغاية قبل شهر ونصف الشهر من قيام السادات بزيارته ·

غير ان السادات لم يتوقف عند هذا الحد ، بل امعن في في محاولاته الهادفة الى استرضاء زعماء اليهود الاميركيين وخطب ودهم ، فدعا الحاخام الدكتور الكسندر شيندلر ، رئيس مجمع رؤساء المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة ، وهو القوة الضاربة للوبي الصهيوني ، الى زيارة مصر واستقبله بحفاوة بالغة ، عله يستطيع « تحييده » · وقبل قيامه بزيارته الى الولايات المتحدة في اوائل شباط (فبراير) الماضي ، اعلن السادات عن رغبته في الاجتماع ببعض زعماء اليهود الاميركيين ، فما كان من شيندلر الا ان اعلن عن رفضه مقابلته وحث الزعماء اليهود الاخرين على الاقتداء به ، بينما انتقد اولئك الذين وافقوا على

الاجتماع بالرئيس المصري ، لا لسبب الا لكي لا يقال ان اليهود الاميركيين يجرون « مفاوضات » مع مصر من وراء ظهر اسرائيل · وبعد مغادرة السادات الولايات المتحدة ، دعا كارتر شيندلر وعددا آخر من الزعماء اليهود الى العشاء ، لتطمينهم بأنه لم تطرأ تعديلات اساسية على السياسة الاميركية ، رغم زيارة السادات ·

وفي طريق عودته الى مصر ، قابل السادات ايضا ، في النمسا ، زعيم حزب العمل الاسرائيلي المعارض شمعون بيريس ، في محاولة ـ كما يبدو ـ لدق اسفين بين المعارضة والحكومة الاسرائيلية (وكان السادات قد وصف الاراء التي طرحها زعماء حزب العمل ، اثناء لقائهم به في الكنيست ، بأنها « بناءة ») · الا ان شمعون بيريس سارع الى الاعلان ، بعد انتهاء الاجتماع ، ان هناك حكومة واحدة في اسرائيل منوط بها امر السياسة الخارجية الاسرائيلية · وحال عودته الى تل ابيب ، اجتمع بيريس ببيغن وقدم له تقريرا عن لقائه مع السادات (١٥) · وكان ذلك اللقاء قد تم ، اساسا ، بمعرفة بيغن المسبقة ·

« عدم الفهم والغباوة السياسية »

من الواضح ان سوء تقدير السادات لتأثير العوامل التي أشرنا اليها على حقيقة موقف الاسرائيليين او ردود فعلهم ، كان واحدا من الاسباب الرئيسية التي ادت الى فشل مبادرته ، بل دفع اسرائيل الى التمسك بمواقف ، او التقدم بطلبات ، لم يأخذها الرئيس المصري في الحسبان · ومن الواضح ايضا ان السادات نفسه قد اكتشف « اللعبة » ، وان كان قد دفع مقابل ذلك ثمنا باهظا ودون ان يحصل على نتيجة تذكر · وكعادته ، لم يحتفظ السادات باستنتاجاته سرا ، بل اعلنها على الملأ ، مقدما دروسا ثمينة لمن يريد ان يتعظ من التجربة · واستنتاجات السادات ، وان لم يكن فيها جديد صارخ من حيث حقيقة مواقف الاسرائيليين واسلوب تعاملهم ، ذات طابع مهم ، ولا شك أنه ستكون لها انعكاساتها على الصراع العربي ـ الاسرائيلي على المدى الطويل ، خصوصا وانها جاءت من صاحب التجربة نفسه ·

لقد عاد السادات من زيارته لبيغن مفاخرا بنجاحه في ازالة « الحاجز النفسي » بين اسرائيل والعرب . مدللا على اسلوب التعامل « الحضاري » الجديد الذي أرسى اسسه · الا انه سرعان ما اكتشف نواحي اخرى ايضا ، منها ـ مثلا ـ « ان كل الشخصيات الاسرائيلية او اليهودية التي قابلتها بعد ذلك كانت تردد معنى واحدا هو ان هؤلاء اليهود « غلاظ الرقاب » ، كما تقول عنهم التوراة ، بمعنى انهم متصلبون او تنقصهم المرونة · ويكون الغرض من

هذا الكلام ان اجد لهم عذرا او اصبر عليهم بعض الوقت ريثما يديرون اعناقهم الغليظة · ولكن يبدو الان من تصريحات قادتهم ، ان الكلام عن الرقاب الغليظة ليس عيبا وانما هو ميزة » (١٦) ·

ولم يمر وقت طويل على هذا الاكتشاف حتى اضطر السادات الى قطع المفاوضات مع اسرائيل ، بعد «ان ثبت لنا بالدليل القاطع تلو الدليل ان المفاوض الاسرائيلي··· [يقف] على قاعدة واحدة واضحة هي التشبث بمنطق التوسع القديم ، والاصرار الكامل على الاحتفاظ بالارض المحتلة » (١٧) · ولذلك « خطط لموقفه في اكثر من اتجاه : ··· الاول محاولة استغلال عنصر الوقت ·· بهدف ان يكون مرور الوقت سببا لهبوط قوة الدفع العالمية التي ارادت لمبادرة السلام المصرية ان تنجح ··· والثاني ··· استغلال اعترافنا بأهمية الامن الاسرائيلي» بحيث عادت اسرائيل « الى منطلق الاطماع والتوسع ونظرية فرض الامن بالقوى العسكرية » (١٨) ـ أما فيما يتعلق بدوافع الاعتراف الساداتي بـ « أهمية الامن الاسرائيلي » ، فهذه مسألة اخرى ·

وللسادات ما يقوله ايضا بشأن اسلوب المفاوضات الاسرائيلي : « ان الاسرائيليين خصوصا ، او اليهود عموما ، اذا حدثهم احد عن الوضع في الشرق الاوسط اخرجوا من جيوبهم هذا اللغز : الحدود الامنة · كأن هذا التعبير طلسم من الطلاسم تكاد لا تقع عليه العين حتى يحار في فهمه العقل · فاذا وصل العقل الى مرحلة الحيرة توقف النقاش وارتد على العرب وليس على اليهود · فاذا قلنا اننا فهمناهم وعرفنا مشاكلهم وسوف نقبلهم بيننا وسوف نعطيهم السلام والشرعية ، هزوا رؤوسهم وقالوا : نحن نصدقك تماما ولكن ما هي طبيعة هذا السلام ؟ ومعنى ذلك ان لعبة الحدود الامنة قد انتهت ليعلنوا لعبة جديدة اسمها طبيعة السلام ··· فاذا بدأنا نناقش طبيعة السلام ، عاد كل شيء الى ما كان عليه ··· ودخلنا في لعبة جديدة هي الارض والسلام وانه لا ضمان للسلام الا بالارض · ولا ضمان للارض الا بالسلام ··· وتكون المناقشة هكذا : اعطني قطعة من الارض خارج ارضي لاحمي ارضي · او اعطني قطعة من سيادتك لادافع عن سيادتي ··· ان قيادة اسرائيل قد عادت الى سياسة ان تفرض على العرب شيئا من أجل ان يرفضوه ، اي انها توقعت الرفض ، اي انها قررت ودبرت ثم اختارت الرفض سلفا ، اي انها لم تعط احدا فرصة ان يفكر ويرفض » (١٩) ·

كذلك يبدو ان السادات استطاع اخيرا فهم سر التشبث الاسرائيلي بالمستوطنات القائمة على الارضي المصرية المحتلة او غيرها ، باعتبارها جزءا من « ذلك التكوين النفسي لهذا الشعب الذي هاجر الى ارض فلسطين ، وفرض

وجوده عاما بعد عام باقامة هذه المستوطنات حتى اصبحت اساسا لفرض بقائه واستمراره » (٢٠) ٠

غير ان مفاجأة السادات الكبرى في تعامله مع الاسرائيليين نجمت ، دون شك ، عن موقف بيغن ناكر الجميل ، الذي لم يتأثر بالاعتراف الساداتي المجاني باسرائيل ٠ فالسادات ، انطلاقا من منطقه ، و «تخطيطه» ، توقع شيئا ما ـ او ربما اشياء ـ من اسرائيل في اطار سياسته الجديدة ، التي دشنها بزيارته لها ٠ فهو لم يقم فقط بزيارة الى كيان يعتبر نفسه في « حالة حرب » معه ، بل انه وقف امام الكنيست ليقول لاعضائه وللاسرائيليين جميعا ، على مرأى ومسمع من العالم كله ، « ان دولتهم اصبحت حقيقة واقعة » ٠ ولم يكتف السادات بذلك ، بل « وبخ » الاسرائيليين لعدم انتباههم الى انه كان قد اعلن « منـذ اعـوام ، وفي التحديد في ٤ فبراير (شباط) ١٩٧١ [انه] مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع اسرائيل » ، مفاخرا ان هذا كان « اول اعلان يصدر عن مسؤول عربي منذ ان بدأ الصراع العربي ـ الاسرائيلي » ٠ ولما لم يقدر الاسرائيليون هذا الكلام الساداتي حق قدره ، وبالتالي لم يستجيبوا له ، اشتكى الرئيس المصري من « ان بيغن لم يعط شيئا ٠ وانما انا الذي اعطيته كل شيء ٠ اعطيته الامـان والشرعية ٠ ولم اتلق مقابلا لذلك » (٢١) ٠ الا ان رد بيغن كان قاسيا للغاية ، ولا يخلو من صفاقة اسرائيلية نموذجية ، اذ اعلن انه لم يطلب اعترافا من أحد ولا يحتاج لهذا الاعتراف ، لانه « يكفينا اعتراف اله ابراهيم واسحق ويعقوب [اي اله اليهود] بنا » ٠ ولكن بيغن يدرك ، دون شك ، ان « اله ابراهيم واسحق ويعقوب » اله ظريف وعاقل ، ينفد صبره أحيانا ، وكان قد عاقب اليهود بشدة ، بسبب « غلاظة رقابهم » مرتين في السابق على الاقل ، فسمح بتدمير مملكتي اسرائيل الاولى والثانية ، وقد يتخذ قرارا مماثلا بالنسبة للثالثة ، ولذلك سارع الى الاعلان في بيان لاحق في الكنيست : « اننا لا نطلب اعترافا بوجودنا ، بل اعترافا بحقنا في بلادنا وسيادتنا ، وحقنا في السلم وفي اتفاقية سلم » (٢٢) ٠ وهذا الكلام بحاجة الى توضيح : ان ما يطلبه بيغن هو ان يقوم « الرئيس المؤمن » محمد انور السادات ، ومعه باقي العرب ، بالاعتراف بصحة الادعاءات الصهيونية بشأن العلاقة « التاريخية » بين اليهود وما يسمى ارض ـ اسرائيل و « حقوقهم » فيها ، وبالتالي الاعتراف بالعقيدة الصهيونية بأسرها ، وبكل ما يترتب عليها ٠ وعندما يتم ذلك ، قد يطالب الاسرائيليون ـ مثلا ـ بتعيين مندوب سام في القاهرة للتأكد من ان مصر لن تقوم في المستقبل بما من شأنه ان يمس بنشاط « شعب الله المختار » في العودة الى « بلده » وبناء مستقبله ٠

وقبل ان يصل السادات الى هذه النتيجة ، لم يقدم لاسرائيل اعترافا مجانيا بها فقط ، وانما اضاف اليه ايضا تنازلات اخرى ، مكملة له ولا تقل أهمية عنه٠ فقد واقف السادات ايضا ، نتيجة لاعترافه بـ « اهمية الامن الاسرائيلي » ،على

ان تكون على الحدود مع اسرائيل مناطق منزوعة السلاح واخـــرى محدودة التسليح ، وتخفيض للقوات العسكرية واقامة محطات انذار مبكر ، ووضع قوات طوارىء على الحدود ، واعلان خليج العقبة مياها دولية مفتوحة للملاحة · واذا لم تكن كل هذه الضمانات كافية ، يمكن ، بالاضافة الى ذلك ، « اعلان الاتفـاق على التعايش في سلام وفتح الحدود وتطبيع العلاقات اي جعلها طبيعية » (٢٣)·

غير ان كل تلك التنازلات لم تجد السادات نفعا ، اذ كان اخر ما سمعه من قادة اسرائيل هو « ان الطرفين في حاجة الى ان تنمو العلاقات الطبيعية بينهما من الان وقبل اقرار السلام ، وان ذلك يساعد على نجاح المفاوضات ، اي انهم يطالبون بالوصول الى نتائج السلام مع استمرار احتلال الارض وقبل ان نصل الى اتفاق سلام » (٢٤) · ولم تفد السادات شكواه من ان ذهابه الى اسرائيل لم يكن مجرد زيارة للتسلية ، « ولا مجيء الاسرائيليين الى مصر وجلوسهم بيننا سياحة · فلا أنا حريص على تسلية أحد ولا على ان تكون له ذكريات سعيدة في ظلال الاهرام » (٢٥) ــ اذ ان هذا بالضبط كان ، في نهاية الامر ، حصيلة مبادرته : سواح اسرائيليون في القاهرة ، ومعهم مراسلون صحفيون يزودون الصحف الاسرائيلية بمقالات وتقارير واخبار ، تساهم في « توعية » الاسرائيليين وتنبيه مسؤوليهم الى كيفية التعامل « المثمر » مع السادات والمصريين · ولكن على الرغم من ذلك يبدو ان السادات لم يتعلم شيئا من اخطائه ، اذ يقال ان اخر ما يفكر فيه هو دعوة بعض الزعماء الحزبيين الاسرائيليين او وفود من اعضاء الكنيست لزيارة مصر ، استمرارا في مساعيه الهادفة الى ازالة الحواجز « النفسية » ·

والسؤال الذي يطرح نفسه الان هو ليس لماذا قام السادات بما قام به فقط ، بل لماذا لا يزال مصرا على اتباع النهج نفسه ، بعد ان سمع ما سمعه واكتشف ما اكتشفه ؟ لقد أجاب السادات نفسه على هذا السؤال بقوله ان ردود الفعـل الاسرائيلية على مبادرته « تفترض فينا عدم الفهم والغباوة السياسية » (٢٦) ·

الهدف : الغاء فلسطين والفلسطينيين

لم تكن العبر التي مر ذكرها هي الوحيدة التي قدمتهـــا حتى الان زيارة الســادات ، اذ ان هناك عبرا اخرى لا تقل اهمية عنهـا ، خصوصا فيمـا يتعلق بالقضية الفلسطينية · فتنازلات السادات لم تتطرق الى الشؤون المصرية فقط ، بل تعدتها ايضا الى الفلسطينية ، وشملت نواح لا يملك الرجل حق القرار فيها · ففي خطابه امام الكنيست ، وافق السادات على تحويل القدس الى مدينة مفتوحة « لكل المؤمنين » ، ولا يزال منذ ذلك الوقت « ملتزما » باقتراحه هذا · ومنذ ان حطت طائرته في مطار اللد ، وصافح بيغن ودايان ، توقف عن الاشارة الى منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للفلسطينيين ، بل راح يغمز من قناتها

حينا ، ويهاجمها احيانا • ولا بد من الاشارة الى ان السادات ، حتى عندما يهاجم م•ت•ف يقع ايضا في خطأ ، فهو لم يفهم الاسرائيليين فقط ، بل يبدو انه لا يفهم الفلسطينيين كذلك • فبعد عودته الى مصر ، لم يتذكر « الريس » من كلام خطيب المسجد الاقصى ، الذي كان قد ذكره في خطبة العيد بصلاح الدين ، الا طلبه منه التدخل لدى السلطات الاسرائيلية لاطلاق سراح المسجونين والمعتقلين الفلسطينيين • وقد استغل السادات هذه الواقعة للطعن ، بصورة ديماغوغية ، في م•ت•ف• مفاخرا ، بأن المتحدثين باسم الفلسطينيين في الاراضي المحتلة لم يتقدموا منه الا بذلك الطلب • وغاب عن باله ان طلب التوسط لدى السلطات الاسرائيلية للافراج عن معتقلين ، او تحسين ظروف اعتقالهم ، يقدم عادة من قبل السكان العرب في المناطق المحتلة الى المتعاونين مع سلطات الاحتلال ، وهو بالتالي ليس مدعاة للفخر • الا ان « وساطة » السادات ، على كل حال ، لم تفلح في الافراج عن اي من المعتقلين العرب ، بل على العكس من ذلك زادت عددهم بضع مئات ، من بين اولئك الذين عارضوا زيارته ، واعتقلوا حال عودته الى مصر •

وفي مسلسل التنازلات التي قدمها بالنسبة للفلسطينيين ، تراجع السادات ايضا عن تأييد مصر لاقامة دولة فلسطينية مستقلة ، واستبدله بالمطالبة بمنح الفلسطينيين حقهم في تقرير مصيرهم • ولكنه سرعان ما « اختصر » هذا الحق ايضا واستبدله بحق الفلسطينيين « في المشاركة » بتقرير مصيرهم ، مع أسرائيل وغيرها • ويقال انه وافق مؤخرا حتى على « تأجيل » ممارسة حق المشاركة هذا •

ولم تجد هذه التنازلات ايضا السادات نفعا في محاولاته لتليين الموقف الاسرائيلي • ولكنها، من ناحية ثانية ، دفعت الاسرائيليين ـ حكومة ومعارضة ـ الى كشف حقيقة مواقفهم من الفلسطينيين والقضية الفلسطينية بأسرها • وهذه المواقف الاسرائيلية ، على كل حال ، لم تكن سرا ، اذ لم يكن من الصعب استقراؤها من خلال ما صدر عن دوائر عدة في اسرائيل ، خلال السنين الماضية ، من خطط او بيانات ذات علاقة مباشرة او غير مباشرة بالفلسطينيين• الا ان ذلك كله بقي بمثابة نوع من الاجتهادات الحزبية او الشخصية شبه الخاصة ، الى أن جاءت زيارة السادات فدفعت الاسرائيليين ، في محاولة للرد عليها او التفاعل معها ، الى اعلان مواقفهم بصورة رسمية واضحة ، وذلك ـعلى حد علمنا ـ في احدى المرات النادرة ، وان لم تكن الاولى ، التي تقدم فيها اسرائيل على مثل هذا العمل •

فبعد فشل قمة الاسماعيلية ، عاد بيغن الى اسرائيل واعلن في الكنيست ، يوم ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، تفاصيل مشروع السلام الذي قدمه للسادات • ويعرض بيغن في مشروع سلامه حلا تصفويا نهائيا للقضية

الفلسطينية ، دون ان يذكر حتى كلمة « فلسطين » او اي من مشتقاتها ، اذ بالنسبة له لا يوجد شيء اسمه فلسطين ، بل « ارض ــ اسرائيل » ٠ ويتلخص المشروع في موافقة اسرائيل على اقامة « حكـم اداري ذاتي » فـي « يهودا والسامرة [اي الضفة الغربية] واقليم غزة ٠٠ للسكان العرب في تلك المناطق ، من قبلهم ولاجلهم » (٢٧) ، وذلك للتأكيد على انه لا علاقة « للسكان العـرب » الاخرين ، اي الفلسطينيين خارج المناطق المحتلة ، بذلك الحكم ٠ ويظهر هذا الهدف واضحا في مادة اخرى من المشروع تنص على ان الهجرة الى تلك المناطق (وهذا هو التعبير الاسرائيلي لحق الفلسطينيين في العودة الى ديارهم) ستكون خاضعة لقرار لجنة ثلاثية ، مؤلفة من مندوب عـن كل من اسـرائيل والاردن وسكان تلك المناطق ، وعلى ان تتخذ قراراتها بالاجماع ، مما يمنح اسرائيل حق الفيتو على عودة اي فلسطيني من خارج المناطـق المحتلة اليها ٠ وفـي ضوء ممارسات اسرائيل التي تنكرت في الماضي للالتزامات التي كانت قد اخذتها على عاتقها في المحافل الدولية ، خصوصا بعد حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧ ، بشأن تسهيل عودة النازحين الفلسطينيين الى ديارهم ، يمكن ان نقدر ان عدد الفلسطينيين الذين قد يسمح لهم بالعودة الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعلى اساس شخصي بالطبع ، سيكون ضئيلا جدا ٠ وينص المشروع ايضا على اقامة لجنـة ثلاثية اخرى ، خاضعة للقيود المفروضة على اللجنة السابقة من حيث صلاحياتها في اتخاذ القرارات ، لاعادة النظر في القوانين السارية المفعول في الضفـة الغربية وقطاع غزة ، او اصدار قوانين جديدة ٠

كذلك تتضح اهداف المشروع التصفوية في سعيه الى الغاء الهوية الفلسطينية نهائيا ، بعرضه على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة الخيار فـي الحصول على اي من الجنسيتين ، الاردنية او الاسرائيلية ، والسماح لاولئك الذين يختارون الجنسية الاسرائيلية بالسكن في اسرائيل وشراء الاراضي فيها، مقابل السماح لليهود بالمثل في المناطق المحتلة ٠ غير ان هذا الاقتراح الـذي يبدو « عادلا » لا يهدف عمليا الا الى ذر الرماد في العيون وتهويد المناطق المحتلة تدريجيا ، بواسطة شراء الاراضي من قبل اليهود فيها واقامة المستوطنات اليهودية هناك ، بينما لا يستطيع العرب القيام بمثل ذلك داخل اسرائيل ، رغم منحهم ذلك « الحق » نظريا ، اذ ان اكثر من ٩٠٪ من الاراضي داخل اسرائيل هي « ملك الدولة » وباقي مؤسسات الاستيطان الصهيوني ولا يمكن ، قانونيا ، بيعها ٠ أما الاراضي الباقية فهي مكتظة بالسكان ومستغلة بكاملها ٠

وينص مشروع سلام بيغن ايضا على ابقاء شؤون الامن والنظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة في أيدي السلطات الاسرائيلية (٢٨) ٠

جوبه مشروع بيغن ، على الرغم من اقراره بالاجماع من قبل الحكومـة الاسرائيلية ، بمعارضة دوائر عدة في ليكود ، كما اشرنا ٠ كذلك دفع المشروع

المعارضة ، الممثلة في حزب العمل الاسرائيلي ، الى اعلان موقفها من الحلول المطروحـــة للقضية الفلسطينية ويلاحظ ان معظم زعماء المعارضة البارزين . مثل زعيم حزب العمل شمعون بيريس ورئيس حكومة اسرائيل السابق يتسحاق رابين والوزيرين السابقين يسرائيل غليلي (مهندس سياسة الاستيطان العمالية سابقا) وحاييم تسادوك (٢٩) وغيرهم ، قد وجهوا نقدا شديدا لذلك المشروع ، لانه سيؤدي ، بحسب رأيهم ، الى ··· اقامة دولة فلسطينية · ويعتقد زعماء المعارضة ، ومعهم عدد لا بأس به من المعلقين وصانعي الرأي في اسرائيل ان اقامة الحكم الذاتي ستؤدي الى توحيد الضفة الغربية وقطاع غزة ، لاول مرة ، تحت اشراف ادارة موحدة ، تجعل من المنطقتين كيانا سياسيا واحدا قائما بحد ذاته · وقد يقبل الفلسطينيون في تلك المناطق ، وربما بناء على نصائح غير معلنة بهذا الشأن من منظمة التحرير الفلسطينية ، بالحكم الذاتي ، ثم ينطلقون من ذلك الاساس للمطالبة باستقلالهم واقامة دولة فلسطينية · كما يعتقد اولئـــك ان الاستيطان الاسرائيلي لن يزدهر في تلك المناطق في ظل ادارة عربية ، حتى وان كان الجيش الاسرائيلي هو المكلف بحفظ الامن · ثم أن عددا لا بأس به مـــن السكان العرب قد يطالب فعلا بالحصول على الجنسية الاسرائيلية ، مما قد يزيد مع مرور الوقت عدد سكان اسرائيل العرب ، فيؤثر على طابعها اليهودي · ولذلك يرى المعارضون ان الحـــل الافضل هو التخلي عـــن مبدأ ليكود وبيغن القاضي بـ « عدم تسليم اي جزء من ارض ـ اسرائيل الى سيادة اجنبية » ، والموافقة على تقسيم الضفة الغربية ، بحيث تضم اسرائيل اليها الاجزاء غيـر المأهولة منها ، خصوصا في غور الاردن ، وهناك يعسكر ايضا ، على الحدود ، الجيش الاسرائيلي · أما الاجزاء الاخرى المأهولة من الضفة ، بالاضافة الـــى قطاع غزة ، فينبغي ان توضع تحت ادارة الاردن ، اذ انه الجهة الوحيدة المؤهلة لمنع قيام دولة فلسطينية · وفي اطار هذه الترتيبات يمنح للاردن ممر من الضفة الشرقية ، عبر الغور ، الى قلب الضفة الغربية ، وممر اخر بين الضفة وقطاع غـــزة ·

وباختصار ، يمكن القول ان الخلافات بين الحكومة الاسرائيلية والمعارضة ، من حيث موقفهما تجاه الحلول التي تطرحانها للقضية الفلسطينية تتلخص في البحث عن ايجاد انجع الوسائل الكفيلة بالغاء وجود فلسطين ومنع قيام دولة فلسطينية وطمس الهوية الفلسطينية بأسرها ·

اما الفلسطينيون المقيمون خارج الوطن المحتل فينبغي توطينهم فـــي الدول العربية ، ان شاءوا هم أو الدول العربية ذلك ام أبوا · وعمليات التوطين تلك يجب ان تتم على حساب الدول العربية ، دون ان تكون لاسرائيل اية عـــلاقة او التزامات بهذا الشأن ، لان المشكلة هي اساسا عربية · فاسرائيل استوعبت ، على حد زعمها ، عددا من « اللاجئين اليهود » من الدول العربية ، يكاد يساوي

عدد اللاجئين الفلسطينيين على حد زعمها ، ووطنتهم على حسابها ــ ونفقات توطين هؤلاء مقابل نفقات اولئك · واما منظمة التحرير الفلسطينية فتستطيع ان تتبخــر ·

لا تكرهوا شيئا ···

لم تسفر زيارة السادات لاسرائيل عن نتائج او ردود فعل سلبية فقط ، اذ كان لها « فوائدها » ايضا · ولا شك ان السادات ، من حيث لم يشأ ، او لم يدر ، قدم لحركة التحرر العربي وللوطنيين العرب ، وحتى لباقي حركات التحرر فــي العالم ، عبرا «ايجابية » للغاية من زيارته تلك لبيغن ·

ولعل أبرز الفوائد الناجمة عن الزيارة الساداتية لاسرائيل كامنة في اختصار الزمن · فمنذ اطلق السادات فكرته « المدهشة » بشأن عقد مؤتمر للصلح فــي جنيف ، خلال حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، والمشرق العربي بأسره ، ومعه كافة المعنيين بشؤون الشرق الاوسط خاصة والعالم العربي عامة ، من دول كبرى او صغرى ، يدورون فــي دوامة جنيف ، حتى كاد الجميــع يتوه بين ادغالها · ولا شك ان ذلك المؤتمر ، لو عقد بأية صورة من الصور ، لاستمرت تلك الدوامة بضع سنــوات اخرى · ولكن زيارة الســادات لاسرائيل كشفت ، وخلال أقل من شهرين ، ما كان يمكن ان يكون عليه الموقف بعد عدة سنوات من المفاوضات المضنية ، فيما لو انعقد ذلك المؤتمر · ولعل السادات يستحق الشكر اخيرا ، لكونه عاد وخلص الاخرين من تلك الفكرة وما كان يمكن ان تجر اليه من مماطلات وفقدان الوقت والجهد ·

كما انه لا شك ايضا ان تلك الزيارة ساهمت بشكل فعال في كشف مواقف كافة الاطراف المعنية بأزمة الشرق الاوسط والصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وبصورة لم يسبق لها مثيل · فالموقف الاسرائيلي ، المعارض في حقيقته للسلم والهادف ، عمليا ، الى فرض الاستسلام على العرب من ناحية ، وتأمين ظروف مواتية لاستمرار النمو الصهيوني في المستقبل من ناحية اخرى ، اصبح الان واضحا للغاية ، ولا حاجة بعد اليوم للجوء الى الاجتهادات المختلفة للوقوف على حقيقته · كما ان الموقف الامبريالي الاميركي لا يقل ايضا وضوحا عن الموقف الصهيوني · لقد قدم السادات للاميركيين والاسرائيليين اكثر ما يستطيع اي زعيم عربي تقديمه ، بل ذهب في محاولات استرضائه لهم الى رسم سياسة تهدف الى تجنيد مصر ، ومعها ايضا بعض العرب ، في خدمتهم · وكان جزاؤه في مقابل ذلك ، اتهامه انه لا يستطيع ان يكون الا بمثابة عميل فرعي فــي المنطقة ، لا يحظى بثقة كاملة ، وعليه ان يكتفي بالدور المحدد له ·

ولا شك ايضا ان السادات ، بزيارته لاسرائيل ، ساهم بشكل فعال في فضح

الموقف ، بل المواقف ، العربية ٠

ولا يبدو ، باختصار ، ان الوضع العام للصراع العربي ـ الاسرائيلي اوضح مما هو عليه الان ، خصوصا بالنسبة للمؤمن ان الطريق طويلة ، ولا مجال للانهزامية او الاستسلام ٠

فلا تكرهوا شيئا ٠٠٠

المصادر

(١) نص خطاب السادات في « الاهرام » ، ٢٧ـ١١ـ١٩٧٧ ٠

(٢) مقابلة مع مجلة « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٣) في حديث مع التلفزيون المصري ، وزعت نصه وكالة انباء الشرق الاوسط المصرية، ونقلته « النهار » ، ١٥ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٤) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، مقالة يعقوب ايرز في معاريف ، ٢٥ـ١ـ١٩٧٨ ومقالة حغاي اشد في دافار ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٥) انظر مقالة النائب زلمان شوفال في يديعوت احرونوت ، ١٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٦) المصدر نفسه ٠ وانظر ايضا شموئيل سيغف في معاريف ، ١٠ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٧) « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٨) انظر ايضا مقالة عاموس كينان في يديعوت احرونوت ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٩) انظر ، مثلا ، مقالتي تسفي شيلواح في يديعوت احرونوت ، ٢٦ـ١٢ـ١٩٧٧ و ٢٣ـ١ـ١٩٧٨ ومقالة اهرون بن ـ عامي في المصدر نفسه ، ١٧ـ١ـ١٩٧٨ وموشي شامير في معاريف ، ١٨ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٠) انظر مقابلة شموئيل كاتس مع ملحق هآرتس ، ١٣ـ١ـ١٩٧٨ وتصريحات غيئولاه كوهين في المصدر نفسه ، ٢٣ـ١٢ـ١٩٧٨ ، ومقالة تسفي شيلواح في يديعوت احرونوت ، ٢٣ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١١) دافار ، ٩ـ١ـ١٩٧٨ ، وانظر ايضا مقالة يوئيلي في المصدر نفسه ، ١٣ـ٢ـ١٩٧٨

(١٢) انظر محضر ندوة رؤساء الحركات الاستيطانية في اسرائيل في المصدر نفسه ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٣) من خطاب السادات في مجلس الشعب المصري ، كما نقلته « الاهرام » ، ٢٧ـ١١ـ١٩٧٧ ٠

(١٤) نقلا عن « السفير » ، ٢٥ـ١١ـ١٩٧٧ ٠

(١٥) معاريف ، ١٢ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

(١٦) من مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(١٧) من خطاب السادات في مجلس الشعب المصري ، نقلا عن « الاهرام » ، ٢٢ـ١ـ١٩٧٨

(١٨) المصدر نفسه ٠

(١٩) من مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٢٠) من خطاب السادات في مجلس الشعب المصري ، نقلا عن «الاهرام»، ٢٢ـ١ـ١٩٧٨

(٢١) مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ ١٩٧٨ ٠

(٢٢) من خطـاب بيغـن فـي الكنيست ، نقلا عن معاريـف ٢٤ ـ ١ ـ ٧٨

(٢٣) مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٢٤) من خطات السادات في مجلس الشعب المصري ، نقلا عن الاهرام ، ٢٢ـ١ـ١٩٧٨٠

(٢٥) مقابلة مع « اكتوبر » ، ١٤ـ١ـ١٩٧٨ ٠

(٢٦) المصدر نفسه ٠

(٢٧) من مشروع سلام بيغن ، كما عرضه في الكنيست ونقلته دافار ، ٢٨ـ٢٢ـ١٩٧٧ ٠

(٢٨) المصدر نفسـه ٠

(٢٩) انظر مثلا ، لمزيد من التفاصيل ، مقالتي شمعون بيريس في يديعوت احرونوت ، ٢٢ـ١٢ـ١٩٧٧ ودافار ، ٤ـ١ـ١٩٧٨ ، ومقابلته مع هاتسوفيه ، ٢٧ـ١ـ١٩٧٨ ومقالتـي يتسحاق رابين في يديعوت احرونوت ، ٣٠ـ١٢ـ١٩٧٧ و ٣ـ١ـ١٩٧٨ ومقابلة يسرائيل غليلي في المصدر نفسه ، ٦ـ١ـ١٩٧٨ ومقالة حاييم تسادوك في معاريف ،٦ـ١ـ١٩٧٨ ٠

سمير كرم

إيران : يابان الشرق الاوسط ؟ "٢"

الخليج العربي الهدف ، القومية العربية العدو

منذ ثلاثة اعوام قامت ثلاث هيئات « علمية » للابحاث بدراسة لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية.C. I. A كان موضوعها احتمالات سلوك كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة اندلاع صراع اقليمي عسكري في واحدة من المناطق الساخنة في العالم ·

ـ كان من نصيب جامعة « ييل » Yale القيام بدراسة عن احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب فعلية بين الصين وفيتنام (الموحدة) حول مجموعة جزر « سبارتلي » المتنازع عليها بين « البلدين الاشتراكيين » ·

ـ وكان من نصيب « معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا » (.M.I.T) دراسة احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب بين الجزائر والمغرب ، بسبب مشكلة الصحراء الغربية والحدود المتنازع عليها بين « البلدين المعربيين » ·

ـ وكان من نصيب « مؤسسة راند » Rand للابحاث دراسة احتمالات الموقف في حالة نشوب حرب بين العربية.السعودية وايران ، بسبب التنازع على السيطرة على منطقة « الخليج » (العربي / الفارسي !) بين « الدولتين النفطيتين » ·

وكما يتضح فان الحروب الثلاث المتصورة يجمع بينها قاسم مشترك هو قيام كل منها بين طرفين يفترض في الاحوال العادية ان بينهما التقاء ايديولوجيا (كما في حالة الصين وفيتنام) او قوميا (كما في حالة الجزائر والمغرب) او اقتصاديا (كما في حالة السعوديةوايران عضوي « الاوبيك »)·

وقد جرت الدراسات الثلاث وفقا للمنهج المفضل لدى الجهة التي اجريت

لحسابها ـ اي وكالة الاستخبارات المركزية ـ وهو منهج يتألف من وضع « سيناريو » للازمة وتوزيع ادوار الدول والشخصيات صانعة القرار فيها على اشخاص حقيقيين من القائمين بالدراسة وتركهم يسلكون ويتصرفون على هذا الاساس ورصد ردود فعلهم وقراراتهم ازاء الازمة ٠ (١)

وفي هذا المجال لا تهمنا النتائج التي انتهت اليها لعبة سيناريو الازمات والقرارات المتصورة ، انما يهمنا ان نلاحظ مغزى الدراسة الثالثة ، وهي الدراسة عن حرب بين السعودية وايران حول النفوذ على الخليج العربي ٠ فهي وان كان المقصود منها تصور الكيفية التي يمكن ان يتصرف بها الاتحاد السوفياتي في حالة نشوب مثل هذه الازمة ، والكيفية التي ينبغي ان تكون عليها قرارات صانعي السياسة الخارجية والدفاعية الاميركية ، الا انها تعني ان الجهات الاميركية المعنية برسم هذه السياسة ترى هذا الاحتمال بالذات قائما بين احتمالات الصدام بين دول بينها في الظروف العادية حيز التقاء واتفاق واسع ٠

فهذا الاحتمال قائم في تصور السياسة الاميركية الخارجية والدفاعية منذ وقت سابق على صدور التقرير الذي يعرف الآن باسم « تقرير جاكسون » والذي يحمل عنوان « **الوصول الى النفط ـ علاقات الولايات المتحدة مع العربية السعودية وايران** » ، (١٣ صفحة) ، وقد صدر في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ متضمنا دراسة طلب وضعها السناتور الجمهوري الاميركي هنري جاكسون رئيس لجنة الطاقة والمصادر الطبيعية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي ٠ (٢)

بل ان تصور احتمال التناقض الى حد التطاحن بين ايران والسعودية موجود في فكر السياسة الاميركية منذ وقت سابق على حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ ، وسابق على دراسة « مؤسسة راند » التي اشرنا اليها ٠ ففي يومي ١ و ٢ تشرين الاول ١٩٧١ تناول « معهد الشرق الاوسط » في مؤتمره السنوي في واشنطن هذا الاحتمال ، قبل ان تكون ازمة الطاقة قد عرفت طريقها الى اولويات المشكلات الاميركية ٠ حيث تناولت احدى الدراسات التي ناقشها هذا المؤتمر عوامل التناقض بين الدولتين رغم وقوعها في دائرة الدول الملكية ، التقليدية، النفطية ، المعادية للراديكالية ، والداخلة في اطار التحالف الغربي ٠ (٣)

وتعرض المعهد نفسه ـ في مؤتمره السنوي الثامن والعشرين في ١١ و ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ـ للموضوع ذاته ، مع تركيز الضوء على تجاوز اهتمامات ايران ـ مع نمو قدرتها العسكرية ـ منطقة الخليج الى ما وراء ذلك لتشمل المحيط الهندي والهند وباكستان ٠

وخارج اطار الفكر السياسي الاميركي ، فان الاهتمام باحتمالات الصدام

بين ايران والعرب موجود لدى الجهات المعنية بالاستراتيجية ودراسة الازمات الدولية في الغرب والشرق على السواء · وعلى سبيل المثال عندما عهد « معهد الدراسات الاستراتيجية الدولي » .I.I. S.S (لندن) الى عدد من الباحثين (من المانيا والولايات المتحدة وفرنسا واليابان) بتقديم ابحاث عن « انتشار القوة » (وهي ابحاث نشرها المعهد ضمن ابحاثه الدورية في مجموعة « ابحاث ادلفي» Adelphi Papers) – وجدت فكرة الصدام بين ايران والعرب مكانها بين احتمالات الصراعات القادمة · ووجدت منطقة **الخليج العربي** اهتماما خاصا « **بوصفها منطقة تتميز بنمط شديد التعقيد وبتوترات متداخلة · فقد حققت ايران في السنوات الاخيرة مركزا مسيطرا مبنيا مع قوتها الاقتصادية والعسكرية المتعاظمة · وحيث اهتمامها الرئيسي هو تأمين طرقها التجارية الحيوية ، والحيلولة دون اقامة نظم حكم ثورية على الشواطيء الغربية للخليج، الامر الذي قد لا يهدد امن ايران فحسب ، بل يهدد نظامها ايضا ·» (٤) ليس بالنفط وحده ·**

والامر الملفت للنظر هو التوافق التام بين توقيت خروج ايران الى ممارسة دور أستراتيجي بالنسبة لمنطقة الخليج العربي ، وبوادر ظاهرة التسلح المفرط للقوات المسلحة الايرانية ، وهي ظاهرة لم تخلقها الاسعار الجديدة للنفط وانما ساعدت على نموها ·

وهذا الدور الايراني – بالتالي – سابق على ظهور ازمة الطاقة وحرص الغرب – بزعامة الولايات المتحدة – على تأمين احتياجاته النفطية من الشرق الاوسط · وبعبارة ادق فان قلق الغرب على نفط الشرق الاوسط الحيوي بالنسبة لاقتصاده ونشاطه الحياتي لم يخلق دور ايران في «الدائرة الثالثة» لهذا الدور – اي في الخليج العربي – وانما دعم هذا الدور والتقى معه استراتيجيا واقتصاديا معا ·

وعندما اوجدت التطورات الهامة التي سبقت وواكبت حرب تشرين ١٩٧٣ واقعا جديدا في العلاقة بين الغرب والعالم العربي النفطي ، نشأت عن ذلك علاقة تنطوي على التحالف والتناقض في وقت واحد بين هذين الطرفين ، واكتسب الدور الايراني بالنسبة للخليج العربي ابعادا جديدة هامة ·

اما لماذا ايران بالذات دون باقي دول الشرق الاوسط · فهذا لعدد من الاعتبارات الخاصة بموقعها وواقعها الاستراتيجي والاقتصادي في المنطقة · ذلك ان ايران :

- تدخل في دائرة الاحلاف العسكرية الغربية ، بحكم عضويتها في الحلف المركزي ·
- تدخل في دائرة القوى الاقليمية القوية ، التي لا تحتاج الى دعم مادي

يشكل عبئا على اقتصاد الغرب ، اميركا بالذات ، بحكم الزيادة الهائلة في عائداتها من النفط ٠

● تدخل في دائرة الصراعات الاقليمية المرتقبة للفترة القادمة ، خاصة الثمانينات ، بحكم وجود منازعات متعددة لها متعلقة بالحدود والملاحة البحرية والممرات التجارية ٠

● تدخل في دائرة الصراعات الاجتماعية الاكثر حدة ، بحكم الاستقطاب الشديد بين الغنى والفقر ، الذي ارتفعت حدته بتزايد دخل ايران من عوائد النفط ٠

● تدخل في دائرة الصراع على مصادر الطاقة من جانب الدول التي تعاني من ندرة هذه المصادر مع حاجتها الماسة اليها ، بحكم موقعها كدولة منتجة وكقوة تسيطر على ممرات النفط الى العالم الغربي ٠

وايران بالاضافة الى هذا كله تقع على تخوم اخطر صراع اقليمي في العالم، وهو الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وعلى تخوم صراع اقليمي آخر له خطورته هو صراع القرن الافريقي ٠ وقد وجدت ايران لنفسها دورا في صف اسرائيل في الصراع الاول ، وارادت ان تجد لنفسها دورا ـ من المنطلقات ذاتها ـ في الصراع الثاني ٠ وفي هذه الحالات جميعا فان **لدى السياسة الايرانية ـ الخارجية والعسكرية ـ اقتناعا كاملا بأن كل الدوائر تلتقي عند محور الخليج ٠ بمعنى ان السيطرة على الخليج العربي تحتم ـ وتحقق ـ اهدافا عديدة متوالية :**

ـ تأمين استقرار النظام الايراني الحاكم وتشكيلته الاقتصادية ـ الاجتماعية٠

ـ تأمين التوسع التجاري والاقتصادي في « المجال الحيوي » الاقرب لايران ، المتمثل في دويلات الخليج ٠

ـ تأمين الدور « تحت الامبريالي » الذي تنوب فيه ايران عن الدور الامبريالي المباشر في السيطرة العسكرية على المنطقة ٠

ـ تأمين دور ايران الاستراتيجي كقاعدة متقدمة ضد « الشيوعية » وضد كل اشكال الثورة الاجتماعية في مجال كامل واسع يحيط بها ٠

ـ تأمين قدرة ايران على تحدي تيار القومية العربية الذي يشكل التحدي الرئيسي والمباشر بالنسبة لنظامها الراهن واستراتيجيته ٠

ولعله يكفي لتأكيد حقيقة اهمية ايران العسكرية في الاستراتيجية العامة الاميركية ان نعرف ان مبيعات الاسلحة من الولايات المتحدة لدول « مناطق الدفاع الامامية» (وهي وفقا لاولويات وزارة الدفاع الاميركية ـ «البنتاغون» ـ

فيتنام الجنوبية وكوريا الجنوبية والفيلبين ولاوس واليونان وتركيا وباكستان وايران) انخفضت منذ العام ١٩٦٧ فيما عدا ثلاث من هذه الدول هي فيتنام ولاوس وايران ونلاحظ على الفور ان الدولتين الاوليين كانتا في حالة حرب اما الثالثة ـ ايران ـ فانها كانت استثناء من ظاهرة انخفاض مبيعات السلاح على الرغم من أنها لم تكن في حالة حرب · مما يعني انه كان للزيادة الهائلة في مبيعات الاسلحة لها دلالات واهداف آجلة · (٥)

ولقد كانت من اوائل التبريرات التي قدمها الشاه بشأن صفقات الاسلحة الضخمة التي توالت على ايران سنويا منذ منتصف الستينات بشكل خاص (كانت قبل ذلك المساعدات العسكرية الاميركية تقوم مقامها) قوله ـ في حديث لصحيفة ـ « واشنطون بوست » الاميركية في العام ١٩٦٩ ـ انه من الضروري لايران ان تبني قدرة دفاعية لمواجهة كافة مثيري الاضطرابات في المنطقة مجتمعين · واشار الى ان العرب يزعمون تبعية منطقة « **خوزستان** » التي تسكنها اغلبية عربية ، وهي مصدر اغنى حقول البترول الايراني · وقال الشاه فيذلك الحديث : « **ينبغي علينا ان نبني مثل هذه القوة لنحافظ على هذه المنطقة آمنة بعد أن يغادرها البريطانيون · وباستطاعة ايران ان تقوم بهذا الدور لاننا لا نملك خططا اقليمية او استعمارية · انما دور ايران في منطقة الخليج (الفارسي) هو ان تقدم صورة القوي ، الحكيم ، صاحب الاهداف الغيرية ···** » ·

في البدء كانت الجزر

وكان اول ما فعلته ايران لتأكيد هذا الدور الجديد هو احتلالها للجزر العربية الثلاث : طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى قبل يوم واحد من الانسحاب الكامل للقوات البريطانية من الخليج العربي · واحتلال ايران لهذه الجزر هو حالة دراسية Case - Study للاستراتيجية الايرانية بالنسبة للخليج العربي ، تصور وفي الوقت نفسه عجز المواجهة العربية وتخاذلها ازاء هذا الاحتلال ·

فقد مهدت ايران بهذا العمل التوسعي بالتوصل الى اتفاقات تصفي مشاكلها الحدودية مع اقوى دول المنطقة وهي العربية السعودية، بهدف تحييدها · فخلال اجتماع عقد في جدة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٨ توصل الشاه والملك فيصل الى حل بشأن الجزر المتنازع عليها بين بلديهما ، وهما جزيرتا « فارس» و « عربي » حيث « تبودلت الوثائق الخاصة بالتصديق على الاتفاقية القاضية بحقوق ايران على جزيرة « فارس » وحقوق السعودية على جزيرة « عربي »· وعند تعيين الرصيف القاري طلبت ايران وجوب مرور الخط البحري الفاصل

في منتصف المسافة بين جزيرة « خرج » والساحل العربي ، وليس بين منتصف الساحل العربي والساحل الايراني ، اذ ان جزيرة « خرج » تبعـــد مسافة ٥٠ كيلو مترا عن الساحل الايراني · وقد لبت السعودية مطلب ايران فكان التخطيط لمصلحة الاخيــرة ·

وعقدت ايران اتفاقات مماثلة مع قطر والبحرين وابو ظبي في العام ١٩٧١ ·

وفي الوقت نفسه عملت ايران على اجتذاب امراء الساحل لتحقيق اهدافهــا في تسهيل الهجرة الايرانية الى ساحل الامارات · وذهب الشاه الى حد انـــه عرض على حاكم رأس الخيمة ـ اثناء زيارة قام بها لطهران في تشرين الثاني ١٩٦٤ ـ اقامة عدد من المستشفيات والمدارس وامداد رأس الخيمة بالمدرسين والاطباء ، مقابل التوقيع على وثيقة بتنازله عن جزر الخليج التابعة له ·

وقبل وقت قصير من قيام ايران باحتلال الجزر الثلاث ـ وبالتحديـد في ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ـ عرضت مقترحات موحدة ـ خلال وساطة بريطانيا ـ على رأس الخيمة والشارقة بمناصفة السيادة وعائدات النفط مع ايران ، على أن تقوم ايران بدفع منحة سنوية لكل من الامارتين مع تعهدها بعدم اذاعة نبــأ نزول القوات الايرانية في الجزر الثلاث الا بعد مرور عام ونصف تجنبا لاثــارة الرأي العام العربي · وقد رفض هذا العرض الذي كشف تواطؤ بريطانيا مــع ايران · اذ كان الوسيط في هذا العرض الايراني هو البريطاني وليام لوس ، وكان ذلك بحضور المعتمد البريطاني في الخليج جفري آرثر ·

وكان الشاه قد مهد لاحتلال الجزر ايضا في اكثر من حديث ، منها تصريحه في ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٧٠ لصحيفة « التايمز » البريطانية بانه قد « بــدأ عصر جديد للخليج · وترى ايران ان مصالحها الحيوية تحتم عليها حفظ الامن والاستقرار فيه بالتعاون مع الدول المطلة على سواحله » · وقال ان « **بعــض الجزر المملوكة الان لبعض المشيخات تهم ايران من الناحية الاستراتيجية ، بل أنها تابعة لها أصلا ، وهي جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وابــو موسى · وايران غير مستعدة اطلاقا لترى سقوط هذه الجزر بيد اعدائها** » ·

وفي الوقت نفسه تقريبا ذكر « كتاب أخضر » أصدرته وزارة الخارجيــة الايرانية انه « **ما لم تعد هذه الجزر الثلاث الى ايران فان الحكومة الايرانيــة لن توافق قط على قيام الاتحاد الفيدرالي للامارات العربية في الخليج ، بــل انهــا ستعمل ضده** » · **(٦)**

ولم يكن هذا النوع من التصريحات الا امتدادا لتصريحات اوسع نطاقـــا كانت تطلقها ايران وهي اضعف عسكريا ، ولم تكن تؤخذ عليها بأي قدر مــن الجدية ، مثل تصريح الجنرال زاهيدي رئيس وزراء ايران اثناء زيارة لــــه لباكستــــان :

« ان لايران حقوقا مشروعة في كل انحاء الخليج الفارسي وبالتحديد في بعض المناطق ، وهي جزر طنب وابو موسى وشط العرب » ٠

ويمكن القول ان تراجع ايران التكتيكي عن مطلبها باحتلال « البحرين » اثر استفتاء جرى في العام ١٩٧٠ واكد تمسك سكان « البحرين » الكامل بعروبتهم ورفضهم اي علاقة تبعية لايران ٠٠ هذا التراجع التكتيكي الذي اتخذ صورة الموافقة على الاستفتاء ثم على نتيجته المعاكسة لاطماعها ، كان في الحقيقة جزءا من امتصاص رد الفعل العربي ازاء خطوة احتلال الجزر الخليجية الثلاث بعد ذلك بنحو عام ٠ وهو تراجع واكبه ايضا الاسقاط التدريجي لمعارضة ايران لقيام دولة اتحاد الامارات العربية ٠ ويفسر هذا التوقيت الذي اتخذته ايران لخطوة احتلال الجزر الثلاث قبل يوم واحد من اتمام الانسحاب العسكري البريطاني ، وقبيل قيام اتحاد الامارات العربية وانضمام امارتي الشارقة ورأس الخيمة ـ المالكتين الشرعيتين لهذه الجزر ـ الى هذا الاتحاد ٠

وهنا يمكن القول أن اقرب التفسيرات الى الموضوعية هو ما ذكره المؤلفان الايرانيان « شورام شوبين » و « سيبهر زابيه » عن العلاقات الخارجية الايرانية ، والقائل ان ايران « **قررت ان ترث انكلترا في الخليج ولا سيما بعد فشل دعوتها للعرب الى حلف يضمن امن الخليج ٠٠ وتطبيقا لهذا الاتجاه قررت ايران الاعتماد على نفسها وزيادة نفقات التسلح** » ٠

لم يتطلب احتلال ايران للجزر الثلاث جهدا كبيرا ، وعندما اصبح امرا واقعا احتجت الدول العربية « بشدة » على هذا الاجراء الايراني : وقطعت العراق علاقتها الديبلوماسية مع كل من بريطانيا وايران ، ودعت الى عقد مجلس الامن للبت في الامر ٠ وعقدت جامعة الدول العربية عدة اجتماعات خصصت لمناقشتها ٠

ولكن الاجراءات العربية (المقترحة ، ومنها تأميم حصة الحكومة البريطانية في شركة B.P البترولية) لم يفلح في اعادة الجزر وبعد مضي نحو سبع سنوات على الاحتلال الايراني لهذه الجزر ، اصبح هذا الاحتلال امرا واقعا واكتسب بذلك شرعية تؤيدها زيادة قوة ايران المسلحة عشرات المرات عما كانت عليه في العام ١٩٧١ ٠ وربما كان من ابرز ملامح « المواجهة » العربية السلبية للامر هو الانخراط في مناقشات شكلية لا جدوى منها حول مدى تواطؤ بريطانيا مع ايران في تمكينها من احتلال هذه الجزر ، ومسؤولية بريطانيا « القانونية » و « الدولية » ٠٠٠ الخ ٠

فماذا حدث منذ ان احتلت ايران الجزر ؟ وبعبارة اخرى كيف تابعت ايران خطوات استراتيجيتها في « الدائرة الثالثة » لعلاقاتها ـ دائرة الخليج العربي ـ منذ عام ١٩٧١ ؟

صدمة الموقف الاميركي

في الشهر التالي لاحتلال ايران جزر الخليج العربية الثلاث نشبت الحرب الهندية ـ الباكستانية ، حرب تحرير بنغلاديش ، التي فاجأت الشاه الايراني بفشل اميركي واضح في اتخاذ موقف جاد الى جانب باكستان زميلة ايران في عضوية الحلف المركزي . وكانت تلك بمثابة صدمة للشاه اقلقته على موقعه في الخليج العربي ـ امتداد المحيط الهندي الذي فشلت الولايات المتحدة في ان تمارس فيه دورا يرهب الهند في تلك الحرب او يشل فاعلية التسليح السوفياتي لها . فضلا عن ان ترك باكستان لتنقسم كان يشكل سابقة خاطرة مخيفة للشاه الذي يواجه متاعب من نوع مماثل مع الاقليات القومية داخل ايران ، خاصة من « البلوخستان » والعرب .

وربما كانت تلك الصدمة بمثابة المنبه الرئيسي الذي صحا به الشاه على حقيقة ضرورة امتلاك قوة عسكرية هائلة ، لا تكون فقط رادعة للقوى الداخلية المعادية لنظامه ، ولا للقوى الاقليمية التي يعتبرها خصوما لايران ـ مثل العراق او اليمن الجنوبي ، او اية قوة ثورية يمكن ان تنشأ فجأة قريبا من منطقة الخليج او في مجال التأثير فيها ، بل تكون ايضا قادرة على التوسع والانقضاض عند الضرورة .

وقد جاء بعد « تخاذل » الموقف الاميركي ازاء باكستان وانقسامها باستقلال « بنغلاديش » (باكستان الشرقية) حدثان هامان اخران اكدا الاتجاه نفسه ، وهو ان الولايات المتحدة ليست سيدة الموقف على المسرح الدولي ، وخاصة في الصراعات الاقليمية الكبيرة . اولهما الهزيمة الاميركية المباشرة في حرب الهند الصينية في اوائل العام ١٩٧٣ ، ثم حرب تشرين العربية ـ الاسرائيلية (وكانت بدرجة ما ايضا هزيمة اميركية ولكن غير مباشرة) .

ولم تكن استراتيجيةالشاه هي وحدها التي تعيد تشكيل ذاتها تحت تأثير تلك الاحداث فحسب ، بل كانت استراتيجية الولايات المتحدة ايضا تتشكل من جديد تلبية لمعطيات عديدة ، منها فيتنام ، ومنها حرب تشرين ، ومنها ازمة الطاقة ، والتنافس بين اوروبا الغربية ،.(خاصة فرنسا وبريطانيا) وبين الولايات المتحدة على اجتذاب اموال النفط مرة اخرى اليها بعد ان زادت اسعاره وزادت مداخيل الاقطار المصدرة له . وكان اكثر اساليب اعادة امتصاص اموال النفط من الاقطار المصدرة هي مقايضة هذه الاموال بصفقات اسلحة ضخمة . وكان الحصول على الاسلحة رغبة لدى الشاه لا تحتاج الى اختلاق من جانب الغرب . ولكن الامر الذي بدأ بداية عادية متناسبة مع حجم ايران الاقتصادي والسكاني وطبيعة « الاخطار » المحيطة بها ، تحول الى ظاهرة خطيرة تتجاوز في ابعادها كل المقاييس والمعايير ، حتى معيار رغبة

الغرب في اعادة اموال النفط الى خزائنه من خزائن الدول النفطية ٠

ولهذا تعد ظاهرة **التسلح الايراني** ظاهرة قائمة بذاتها جديـــرة بالنظـــر والتحليل ، وعدم الاكتفاء منها بأخبار الصفقات الضخمة ٠

اكبر قوة غير ذريـــة

● لقد اصبحت ايران تحتل المرتبة الرابعة بين دول العالم من حيث ارقام الانفاق العسكري (وليس من حيث نسبتها) بعد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وفرنسا ، وقبل بريطانيا والصين ٠

● في الميزانية التي اعلنها رئيس الوزراء الايراني جمشيد اموزيغار فــي شهر شباط الماضي للعام ١٩٧٨ / ١٩٧٩ ــ والتي بدأ العمل بها في ٢١ آذار (مارس) المنصرم بلغت قيمة النفقات العسكرية ٧٠٠ مليار ريال ايراني، (★) وكانت ٥٦١ مليار ريال في ميزانية العام ١٩٧٧/١٩٧٨ ، اي بـــزيادة ٢٥ ٪ ٠ وهي نسبة ضخمة بالنسبة للفرق بين ميزانية عام والعام التالي له مباشرة ، خاصة وان هذه الارقام لا تشمل نفقات الامن الداخلي (السافاك ــ اي البوليس السري) الذي خصص له ٧ر٧٤ مليار ريال مقابل ٣ر٥٦ مليار ريال في السنــة المالية الماضية (الامر الذي يوحي بان السلطات الايرانية كانت تتوقع وتتهيـــأ للاضطرابات الداخلية الواسعة النطاق التي شهدتها المدن الايرانية خـــلال الشهرين الماضيين) ٠

هذا بالاضافة الى ان هذه الارقام الضخمة للانفاق العسكري ، ونفقـــات الامن الداخلي مقتطعة اصلا من ميزانية اجمالية لايران تنطوي على عجز ضخم قيمته ٤٠٠ مليار ريال (يمثل زيادة رقم النفقات على رقم الايرادات) ، وهو عجز سيتم تمويله بواسطة قروض من الخارج قيمتها ١٥٠ مليار ريال او قروض داخلية قيمتها ٢٥٠ مليار دولار ٠ (٧)

ويلاحظ ان تقدير ايرادات ايران من النفط ــ الذي بنيت على اساسه أرقام هذه الميزانية ــ يبلغ ١٤٥٢ مليار ريال (يقتطع منه مبلغ ١٧٦ مليار ريال قيمة نفقات على النفط خلال السنة المالية نفسها) وهذا يعني ان ايران ستنفق عــلى أهدافها العسكرية خلال السنة الحالية التي بدأت لتوها اكثر من نصف دخلهـا من النفط ٠

● منذ ١٠ سنوات ــ أي في العام ١٩٦٨ ــ لم تكن ميزانيـــة الانفـــاق

العسكري الايراني تزيد على ٥٠٠ مليون دولار ، وقفز هذا الرقم الى ٢٠٠٠ مليون دولار في العام ١٩٧٣ ثم الى ١٠ مليارات دولار في العام ١٩٧٦ ٠

● في مقابل هذا الارتفاع الصاروخي في أرقام الانفاق العسكري ، وهو يعني بالدرجة الاولى نفقات التسلح والمنشآت العسكرية ، يلاحظ ان الاحتياطي النقدي الايراني يعاني حالة تآكل مستمر ٠ فبعد ان كانت ايران تملك فائضا في ميزان مدفوعاتها قيمته ٥٠٠ مليون دولار في العام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ (اي قبل الزيادة الكبيرة التي طرأت على اسعار النفط في اخر العام ١٩٧٣) ، وارتفع الى فائض قيمته ٢٥ر٥ مليار دولار في العام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ولكن هذا الفائض تحول الى عجز يقارب الالف مليون دولار في العام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ٠

● يتألف الجيش الايراني في الوقت الحاضر من ٢٢٠ الف رجل تنظمهم ثلاث فرق مدرعات ، واربع فرق مشاة ، واربع فرق مستقلة (اثنتان مشاة وواحدة محمولة جوا وواحدة تشكل « القوات الخاصة ») ٠ ويملك هذا الجيش نحو اربعة الاف دبابة ومدرعة وحوالي ١٥٠٠ قطعة مدفعية ٠ كما يملك الجيش الايراني مجموعة ضخمة من القذائف المضادة للدبابات و ٦٥٠ مدفعا مضادا للطائرات وصواريخ ارض ـ جو من طراز « هوك » ، وتملك قيادة الجو التابعة للجيش (وهي غير السلاح الجوي) ٦١ طائرة و ٢٤٧ هيليكوبتر ٠

« وعلى الرغم من ضخامة هذه الارقام فانها تبدو قزمة امام المعدات قيد الطلب في الوقت الحاضر » ٠ (٨)

لقد طلبت ايران من بريطانيا ١٨٠٠ دبابة حديثة من طراز « تشيفتين »، بالاضافة الى ٣٦٠ دبابة خفيفة من طراز سكوربيون و ٢٤٠ عربة مدرعة من طراز « فيكرز » ٠ وهذه الطلبات تشكل اضافة للجيش بمقدار ثلاث او أربع فرق مدرعة جديدة ٠

كذلك طلبت ايران كميات هائلة من الاسلحة المضادة للدبابات من الولايات المتحدة (صواريخ من طرازي « دراغون » و « تاو ») بالاضافة الى صواريخ أرض ـ جو (سام) مطلوبة من الاتحاد السوفياتي وبريطانيا ٠ كما طلبت قيادة الجو التابعة للجيش ٣٢٩ طائرة هيليكوبتر (وهو ـ كما نلاحظ ـ عدد اكبر من العدد الذي تملكه هذه القيادة مثلا) ٠ وهناك مشروع لصناعة طائرات الهيليكوبتر في ايران ٠

● والتوسع البحري الايراني هائل بالقدر نفسه · اذ تملــك **البحريــة** الايرانية (٢٥ الف رجل) ثلاث مدمرات حاملة للصواريخ ، واربع فرقاطات ، و ٢٩ قطعة بحرية اخرى · وتتضمن طلبات الاسلحة البحرية « المعروفة » التي تعاقدت عليها ايران أربع مدمرات ضخمة و ١٤ سفينة حربية مــن انــواع اخرى ، بالاضافة الى عدد من الطائرات البحرية البعيدة المدى ، كما تتضمــن عددا من الغواصات (من المانيا الغربية خاصة) ·

● **التوسع الاكبر هو في السلاح الجوي الايراني (الامــر الذي لــه مغزاه اكثر من غيره بالنسبة لاستراتيجية ايران الهجومية)** · ويتألف سلاح الجــو الايراني من مائة الف رجل ، ويملك ١٧٧ طائرة « فانتوم » مزودة بصواريــخ طراز « سايدوندر » ، و « سبارو » ، و « مافريك » ، بالاضافة الى ١٢٥ قاذفة مقاتلة طراز ف ــ ٥ و ١٥ طائرة ف ــ ١٤ أ « تومكاتس » التي توصف بأنهــا احسن المقاتلات الاميركية من الجيل الجديد واكثرها تكلفة · ويضم الســلاح الجوي الايراني ايضا ٧٢ طائرة نقل ضخمة فضلا عن ٧١ طائرة خفيفة و ١٥١ هيليكوبتر ·

وتشمل الطلبات للسلاح الجــوي ٤٨ « فانتــوم » و ٤١ ف ــ ٥ و ٦٥ « تومكاتس » · وقد اتفقت ايران على شراء ١٦ طائرة طراز ف ــ ١٦ مــن الولايات المتحدة مقابل ٢ر٣ مليار دولار ، وطلبت ايضا ٢٥٠ طائرة ف ــ ١٨ ل المقاتلة · (٩)

● على أساس هذه الارقام اصبح من المنتظر ان **تصبح ايران بحلــول العام ١٩٨٢ ــ « ما لم يحدث تحول فجائي في السياسة ــ مالكة لقــوات برية وبحرية تعادل قوات المانيا الغربية من حيث الحجم والتطور ، وقوة جوية تعادل ضعف قوة المانيا الغربية الجوية » · وينبغي هنا ان نلاحظ ان القــوات المسلحة لالمانيا الغربية هي أضخم قوات في حلف شمال الاطلسي باستثنــاء الولايات المتحدة ، واضخم من قوات اي دولة في حلف وارسو باستثنــاء الاتحاد السوفياتي !**

لقد أثارت ظاهرة التسلح الايراني المخاوف حتى داخل الولايات المتحــدة (وان لم تثر القدر اللازم من المخاوف في الوطن العربي) · ووصل الامر الى حد فتح ملفات تحقيق في لجان الكونغرس حول ضخامة صفقات الاسلحــة الاميركية وتأثيرها على مخزون الجيش الاميركي واحتياجاته ·

واذا اخذنا جانبا واحدا من هذه المخاوف وجدنا هذا التصريح للنائــب الديمقراطي الاميركي « لس ابسين » (في شباط ١٩٧٧) الــذي قــال فيــه « ان ٤٠٪ من جميع الذخائر التي أوصى عليها ٦٠ بلدا من الولايات المتحدة مخصص لايران وحدها · وانني لاتساءل اذا كانت ايران تحتاج الى هذا القدر

من الذخائر لغايات التدريب المشروعة والمخزون الدفاعي · ان ايران تصرف من الذخيرة بالنسبة لكل فرد عسكري اكثر بكثير من الولايات المتحدة » ·

وقد حذرت لجنة فرعية بمجلس الشيوخ الاميركي في تقرير أذاعته في شهر اب (اغسطس) ١٩٧٦ استمرار المبيعات العسكرية لايران لانها « خرجت عن حدود السيطرة » ولان « متطلبات الدفاع الايراني لا تبررها » ·

ورغم هذه التحذيرات ـ التي تجيد الحكومات الاميركية دائما الافلات منها او تجاهلها كلية ـ فان مصادر اميركية قدرت ان المحادثات التي اجراها سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي في طهران في الشهر نفسه الذي صدر فيه ذلك التقرير (اب ١٩٧٦) أسفرت عن التصديق على **عقود لصفقات اسلحة اميركية لايران تبلغ قيمتها ٤٠ مليار دولار على مدى السنوات الخمس ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠** ·

السياسة وراء الاسلحة

فما هو الوجه السياسي ـ الاستراتيجي لهذه الارقام العسكرية ؟ ان كل هذه الارقام تفقد اي مغزى استراتيجي لها اذا هي ظلت مجرد مقارنات احصائية بين اعوام واعوام ، ميزانيات وميزانيات سابقة ولاحقة ، دول وجيوش ودول وجيوش اخرى ··· الخ ·

ان تكوين قوة عسكرية بهذه الضخامة لايران ـ لتكون وفقا لاقوال الشاه نفسه « **اكبر قوة عسكرية غير ذرية في العالم** » هو في حد ذاته عمل من اعمال الاستراتيجية العسكرية ، خاصة اذا كان لدولة لها حجم ايران وشاكلها الاقتصادية والسياسية الداخلية ، واذا كانت هذه القوة تتجاوز في خطورتها اي تهديد تتوقع ايران ان تتعرض له الان ولسنوات طويلة قادمة · وبالتالي فانه يبقى تحديد هدف هذه الاستراتيجية من خلال الحجج التي تقدمها ايران ، وفيما يتجاوز هذه الحجج ايضا من حقائق الاوضاع الراهنة ·

لقد اشتركت ايران اشتراكا مباشرا في عدة عمليات ذات صفة عسكرية ، وهددت بالتدخل العسكري في عدة عمليات اخرى خلال السنوات الماضية منذ انضمامها الى الحلف المركزي · وتصاعد دورها العسكري واتسعت آفاقه مع اتساع قدراتها العسكرية ، ولكن بقيت منطقة الخليج العربي هي مركز الاهتمام « والمجال الحيوي » للاستراتيجية العسكرية الايرانية ·

☐ قامت ايران بدور عسكري مباشر عندما شاركت في **محاربة الجيش المصري الى جانب الملكيين في اليمن** في منتصف الستينات ·

□ قامت ايران بدور عسكري مباشر عندما **احتلت جزر الخليج العربية الثلاث** طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى في اواخر العام ١٩٧١ على نحو ما ذكرنا من قبل · ولا يزال احتلال ايران العسكري لها قائما ·

□ قامت ايران بدور عسكري مباشر عندما وضعت ثقلا كبيرا من قواتها المسلحة (السلاح الجوي اساسا) **ضد ثوار ظفار** · وقد وصل حجم القوات الايرانية في هذه الحرب خلال عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ الى حوالي نصف القوات المقاتلة ضد الثوار ، وتكون النصف الثاني من قوات السلطان قابوس وقوات بريطانية وقوات اردنية · ولا يزال وجود ايران العسكري قائما في عمان حتى بعد ان اعلن عن القضاء على الثورة المسلحة فيها بفضل الدور الايراني · بل اصبحت لهذا الوجود ابعاد ثابتة تتمثل في قواعد عسكرية ضخمة اهمها قاعدة « تمريت » · وليس من قبيل المصادفة او الرومانسية **ان الجيش الايراني قد اطلق اسماء فارسية على كل المراكز والمواقع العسكرية التي اقامها في عمان ، الامر الذي يهدف الى اعطاء شعور للقوات الايرانية هناك بانها موجودة على ارض فارسية تابعة للامبراطورية الفارسية الجديدة** ·

ولم يخف شاه ايران في أي وقت الوجه الحقيقي لهذه العملية العسكرية ، انه يعتبر عمان وظفار قاعدة متقدمة للدفاع عن الاراضي الايرانية · وقد صرح في حديث لمحرري وكالة انباء « يونايتدبرس انترناشيونال » (الاميركية) في ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦ بقوله : « **تصوروا ماذا يمكن ان يحدث لو وقعت عمان في ايدي ما يسمى جبهة تحرير عمان التي اوجدتها الشيوعية الدولية · كان يمكنهم ان يهددوا المعر الذي يعبر منه مصدر الطاقة الى العالم ، ولك ان تتصور التهديد الذي كان من الممكن ان يقع اذا لم تتخذ ايران اجراءاتها الحازمة · لذلك فان قدرتنا قبل كل شيء هي ضمان لامن شعبنا ، وايران هي عامل لاستقرار وثبات منطقة الخليج (الفارسي) ··· واذا قامت هذه الدول بالتعاون معنا ، فهذا جيد ، وفي غير ذلك يجب ان نكون اقوياء لكي نحتفظ بهذا الممر المائي كركن من اركان الاستقرار في غربي آسيا** » ·

ولهذا يمكن التأكيد بصحة الاستنتاج القائل بان « عملية ظفار يمكن اعتبارها مقياسا لتصميم ايران على الحفاظ على نظم الحكم القائمة على الطرف المقابل من الخليج ، وكذلك مقياسا لمدى التسامح العربي ازاء مثل هذه المبادرات الايرانية » · (١٠)

□ هددت ايران بالتدخل العسكري في حالة وقوع حركة انفصالية جديدة في اقاليم « بلوخستان » في باكستان ، الامر الذي يخلق سابقة للبلوخستانيين في ايران ايضا او يغريهم بالانضمام الى دولة بلوخية تنفصل عن باكستان · وفي هذا الصدد قال الشاه (في الحديث السابق نفسه) : « **انني احذر**

اصدقائي واعدائي بأن قدرتنا ليست بابقاء مضيق هرمز مفتوحا فقط ، وانما في سبيل ضبط الوضع القائم في شرقي ايران ، وذلك في صالح الجميع » ٠

وبهذا المفهوم تسمح ايران لنفسها بالقيام بعمليات استطلاع جوي تنتهك اجواء الدول العربية (وغير العربية) المحيطة بها ، لانها وضعت من نفسها وصيا على استمرارية النظم التي تحيطها بسياج يحمي ـ فيما يتصور الشاه ـ من تيارات الثورة السياسية والاجتماعية ٠ (عندما اسقطت اليمن الجنوبية طائرة تابعة للسلاح الجوي الايراني بعد دخولها مجالها الجوي ، رشحت وسائل الاعلام الغربي ، ومنها الايرانية ، ان طائرات السلاح الجوي الايراني الاخرى هي التي اسقطت الطائرة « لكي لا تقع في ايدي الشيوعيين » ، وكأن المجال الجوي لمنطقة الخليج مفتوحا للطائرات الحربية الايرانية بلا حساب !)

□ اخيرا هددت ايران بالتدخل المباشر في حرب القرن الافريقي بين الصومال واثيوبيا ، ولولا الهزيمة التي عاجلت النظام الصومالي وادت الى انسحابه لكانت للموقف حسابات أخرى خطيرة ٠

فبعد ان تبينت ايران ان مساعداتها العسكرية من بعيد للنظام الصومالي لا تكفي لمساندته وتثبيت اقدامه في اقليم « اوغادين » ارادت الظهور على مسرح هذه المنطقة بصورة اكثف ، واعلن الشاه ان ايران لن تقف مكتوفة الايدي اذا ما هاجمت اثيوبيا حدود الصومال ٠ وراح المراقبون العسكريون يتساءلون هل يعني هذا ان ايران سترسل قوات لمساعدة الصومال في « أوغادين » فورا باعتبار ان الطائرات الاثيوبية كانت تشن غارات عبر حدود الصومال الاصلية وداخل اراضيها ، ام انها تنتظر ان تعبر قوات اثيوبية الحدود بعد ان تستعيد أوغادين ٠

وكان الشاه قد أعلن صراحة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي انه سيرسل « اسلحة خفيفة » و « امدادات طبية » الى الصومال ، وقال وقتها انه لن يستطيع ان يرسل اكثر لان الدولتين الرئيسيتين اللتين تمدان ايران بالاسلحة ـ اي الولايات المتحدة وبريطانيا ـ لن تسمحا له بارسال هذه الاسلحة الى اطراف اخرى ٠ ولكن هذا الموقف تبدل فجأة بعد زيارة الرئيس الاميركي كارتر لطهران في كانون الاول (ديسمبر) حيث اعلن كارتر هناك ان الولايات المتحدة تؤيد قيام ايران بدور ايجابي ، بينما قال مسؤول اميركي في الوقت ذاته ان الولايات المتحدة غير مستعدة للتدخل مباشرة في القرن الافريقي على الرغم من شدة قلقها من حجم ونطاق الجسر الجوي السوفياتي الذي يمد اثيوبيا بالاسلحة ٠

والمعتقد ان كارتر قد « افسح الطريق امام دعم عسكري ايراني كبير » للصومال ، وقد اعتبرت المصادر الافريقية وقتها ان احتمال ارسال قوة

طوارىء ايرانية لمساعدة الصومال يضيف بعـــدا جديدا ومهـــددا للصراع كله » • (١١)

وليس التهديد الايراني بالاشتراك العسكري المباشر في حرب القرن الافريقي بعيدا ـ كما يبدو للوهلة الاولى ـ عن اهتمام ايران بالسيطرة على الخليـــج العربي • فهو اهتمام بما تعتبره ايران الطرف الاخر من مداخل البحر الاحمر باعتبارها امتدادا للمحيط الهندي والخلجان والبحار المؤدية الى المنطقـــة العربية والشرق الاوسط ، اي طرق النفط ومنابعه •

ولكن الدلالة الاهم ـ والتي تعكسها كل نشاطات ايران العسـكرية وليس فقط تهديدها المحيط بالتدخل في القرن الافريقي ـ **هي ان ايران تـــدرك فـــي استراتيجيتها العسكرية ان السيطرة على الخليج العربي عسكريا تستوجـــب توسيع تواجدها العسكري حول المنطقة بالمعنى نفسه الذي تستوجب به توسيع نفوذها السياسي لدى النظم العربية الاكبر (كما هو الحال مـــع النظـــام المصري) او تحييد بعض هذه النظم (عن طريق اتفاقات كما حدث مـــع العراق باتفاق الجزائر) او محاولة التنازع على النفوذ او اقتسام النفـــوذ مع بعضها الاخر (كما هو الحال بالنسبة للسعودية) •**

احتلال اميركي •• ام ايراني ؟

ذلك انه اذا كانت اهداف الشاه تسوقه نحو تصور احتلال الخليج العربـــي عسكريا ، فانه يعرف انه لو كان يواجه القوى الخليجية وحدها فان الامر لا يتطلب كل ما يكدسه من اسلحة ، وانما هذه الاسلحة مطلوبة لان الصـــراع عندئذ سيكون أوسع بكثير من مجرد مواجهة دويلات الخليج • فضـــلا عـــن الحقيقة الاستراتيجية البسيطة وهي ان احتلال منطقة معينة شيء ، والاحتفاظ بها شيء اخر •

وربما يكون من المنطقي ان نتساءل عما اذا كان باستطاعة ايران ـ بشريا ـ ان توفر اعداد القوات والقيادات العسكرية اللازمة لاستخدام كل هذه الاسلحة التي تتكدس فيها • وصحيح انه يوجد في ايران في الوقت الحاضر نحـــو ٢٥ الف خبير عسكري اميركي يقومون بمهمة تنفيذ عقود الانشاءات والتدريبـــات العسكرية ، ويتوقع المراقبون العسكريون ان يزداد هذا العدد باطراد ليصـــل الى عدد يتراوح بين ٥٠ الفا و ٦٠ الفا في العام ١٩٨٠ • ولكن الشكوك تحيط بقوة بقدرة ايران على توفير القوة البشرية اللازمة لاستخدام هذه الاسلحة •

وهذا هو السبب في ان مصادر ـ بعضها اميركي ـ **يعتقد بوجود صلـــة بين ظاهرة التسلح الايراني بصورتها المتضخمة الراهنة وبين تهديدات الولايات المتحدة واللجوء الى احتلال منابع النفط العربي** • وما هـــو كاتب اميركي ـ

جيوفري كيمب ـ يقول « « منذ العام ١٩٧٣ وهناك حديث عن استخدام قوة عسكرية غربية لـ « تحرير » حقول النفط العربية في حالة فرض حظر وثمة اقتراح بامكان اغراء ايران ـ التي تواجه النضوب السريع لامداداتها النفطية الخاصة ـ بان تهاجم عبر الخليج (الفارسي) لكي تسيطر على الاحتياطيات الهائلة لجزء على الاقل من شبه الجزيرة العربية » ٠ (١٢)

واذا كان الكاتب الاميركي يذكر دافعا واحدا لايران للقيام بهجوم للسيطرة على احتياطيات النفط العربية ، فان هناك دوافع اخرى ، غير هذا الدافع الاقتصادي ـ سياسية وقومية واجتماعية أيضا ٠ هناك التركيز على ماضي امبراطورية « فارس » وفتوحاتها وسيطرتها على المنطقة العربية ، وخضوع شعوب هذه المنطقة لها ودفعها الجزية والضرائب لاباطرة فارس ٠ وايقاظ الشعور القومي الفارسي المتعصب في نفوس الايرانيين وحثهم على استعادة أمجادهم الغابرة باعتبارهم كانوا الاسياد والحكام في المنطقة الممتدة من حدود روسيا حتى الناقورة في جنوبي لبنان ٠

فاذا التقت احلام الشاه والاهداف « القومية » التي يرفعها كشعارات لسياسته العسكرية مع المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للغرب ، يجري اعداد ايران للقيام بدور الدولة الكبرى المصغرة Mini - Super Power التي تحكم قبضتها العسكرية على المنطقة لحساب الدولة الكبرى الامبريالية ولمصالحها ٠

ولعل من الامور الجديرة بالملاحظة ـ فيما يجري من دراسات في الولايات المتحدة ـ حول احتمالات الصراع في منطقة الخليج العربي ـ ان واضعي هذه الدراسات يتصورون ابعد الاحتمالات ويطرحون افتراضات على درجة قصوى من « اللااحتمالية » ، كالقول ، مثلا ، بأنه « في حالة تسلم حكومة سعودية متطرفة (ثورية) السلطة ـ كنتيجة للديناميات الداخلية للتغيير الاجتماعي السريع او بسبب هزيمة عسكرية في حرب ضد اسرائيل ، فان الاتحاد السوفياتي سيتمكن في النهاية من السيطرة على النفط السعودي دون ان يطلق رصاصة واحدة » (١٣) ٠٠٠ ولكن هذه الدراسات لا تتطرق ابدا الى افتراض مماثل بالنسبة لايران ٠ وكأن دارسي السياسة الاميركية يفترضون ان ايران (والشاه على رأسها) النقطة الارشميدية ـ النقطة الثابتة المستقرة ـ التي يمكن منها تحريك كل شيء في المنطقة !

تناقضات المتحالفين .

فهل يمكن ان نعتبر هذا من قبيل القصور الفكري لدى واضعي هذه الدراسات ، ام من قبيل تحديد الثوابت والمتغيرات في رسم السياسة

الاميركية ؟ يؤكد صحة المعنى الثاني ان هؤلاء الدارسين يهتمون جدا بعامل **قرب اسرائيل العسكري من منابع النفط العربية كمعادل خطير لقرب الصراع العربي ـ الاسرائيلي من مقولة استخدام النفط سلاحا سياسيا** للضغط من أجل اهداف عربية مضادة لاسرائيل ٠

وهم يدركون ان ادخال اسرائيل في الدور الاستراتيجي الخاص بالنفط يقرب احتمال « تخريب » الابار للحيلولة دون وقوعها تحت السيطرة الاسرائيلية في حالة امتداد حرب عربية ـ اسرائيلية اخرى الى هذه المناطق اي الى الخليج ٠ وهنا يبرز دور ايران العسكري باعتباره الوسيلة الافضل الى **« قطع الصلة السياسية بين النفط العربي والصراع العربي ـ الاسرائيلي » (١٤) عن طريق فرض سيطرة ايرانية بالقوة على منابع النفط العربي** ٠ ولهذا يدخل تصور نشوب حرب ايرانية ـ سعودية من اقرب ابواب الاحتمالات ، ليس فقط باعتبار ان للسعودية تصوراتها عن دور ونفوذ لها في منطقة الخليج العربي ، وانما ايضا باعتبار ان السعودية هي « الاكبر » عسكريا بين دول الخليج وهي الحلقة التي تربط بين طرفي مداخل المحيط الهندي ، فشرقها يقع على الخليج ، وغربها يقع على البحر الاحمر ٠ كما ان السعودية هي صاحبة اكبر مخزون نفطي في باطن الارض ، وهو أمر لا بد ان يوضع في الاعتبار ما دامت سرعة نضوب المخزون النفطي في باطن الارض الايرانية في مقدمة الدوافع المطروحة لتدخلها عسكريا للسيطرة على الخليج العربي ـ على النفط العربي ٠

واتساقا مع هذا الاحتمال فان الدراسات ـ التصورات لسيناريو التدخل الاميركي العسكري لاحتلال منابع النفط (ضد خطر سوفياتي متصور) ترى انه لا بد من الافتراض بان اسرائيل وايران ستقفان في صف الغرب ، وفي هذه الحالة فان حيفا واللد وبندر عباس (حيث توجد قاعدة بحرية وجوية ايرانية) وشاه باهار (وهي اكبر قاعدة عسكرية ايرانية على ساحل خليج عمان) ، وكذلك دييغو غارثيا (القاعدة الاميركية في المحيط الهندي) ، وربما اليونان وتركيا ، ستصبح هي القواعد المتقدمة لعمليات القوة الاميركية ٠ (١٥)

فيلاحظ ان هذا « السيناريو » لا يضع السعودية في الاعتبار كقاعدة مؤيدة للتدخل الاميركي ـ حتى ضد خطر سوفياتي مفترض ـ لانه اذا كان دور ايران يسمح بسيطرتها على الخليج العربي وعلى منابع النفط العربية ، فانه لا يعود بالامكان انتظار قيام السعودية بدور في الاتجاه نفسه ، باعتبار انها ستكون احدى ضحايا هذا الدور الايراني ٠ وربما يلقي هذا بعض الضوء على تركيز اسرائيل بشدة في الاونة الاخيرة على خطورة حصول السعودية على صفقة طائرات متقدمة من الولايات المتحدة ٠ فهو بمثابة تهديد من اسرائيل بأن وجود هذه الطائرات يعطيها مبررا لفتح الجبهة على اتساع يمتد

الى السعودية والخليج ٠ وقد ذكر شارلز هولي « ان السعودية ليست غافلة عن النوايا الايرانية ولا هي مطمئنة الى تنامي قوتها العسكرية ولا الـــــى عواطفها تجاه دول الخليج » ٠

بل ان معلقا سوفياتيا ذكر مؤخرا ان شاه ايران حاول خلال زيارتـــه الاخيرة للرياض اقناع القادة السعوديين بالتخلي عن تأييد منظمة التحريـــر الفلسطينية وانه رأى من الممكن « تحذير » الرياض من ان الدولة الفلسطينيـة المستقلة « يمكن ان تشكل خطرا محتملا على حقول النفط في منطقة الخليج » ٠ لكن اللهجة التي قيل بها هذا « التحذير » اثارت رد فعل عكسيا في العربيـــة السعودية ٠ وقد تساءلوا في الرياض « ان كان ذلك يعني ان ايران اصبحـــت دولة من الدرجة الاولى في الشرق الاوسط بينما اصبحنا نحن ـ السعودية ـ دولة من الدرجة الثالثة او الخامسة ؟٠٠٠ » (١٦)

وجوهر المسألة بطبيعة الحال لا يكمن في تصنيف الدول الى دول مـــــن الدرجة الاولى او الثالثة ٠٠ انما هو تصنيف الدول حسب تعاظم قدرتهــــا العسكرية ومدى تناسب هذه القدرة مع الاخطار المحيطة بها ، ثم ـ اهم مـــن هذا كله ـ تلمس طرق ومجالات استخدام هذه القوة العسكرية ٠ والواقـــع انه بعد تجربة الدور الايراني في عمان فان بعض دول الخليج العربي ، **وبعض الدول العربية الاخرى خارج نطاق الخليج لا يزال يعتقد بان لايران دورا فـــي « المحافظة على أمن الخليج العربي » لا بد ان نقول ان الاستراتيجية العسكرية ـ الايرانية تتقدم نحو السيطرة العسكرية الكاملة على الخليج العربي ، ونحو بسط نفوذ سياسي يستند الى ضخامة قدراتها المسلحة على باقي انحاء الوطن العربي** ٠٠ يواجهها في هذا كله انقسام عربي فادح ، واستعداد في بعضـــــن اقسام هذا الوطن للتهاون الوطني والقومي في مقابل بقاء نظم سياسيـــة ـ اجتماعية معينة ٠ ولا ندري اذا كان مثل هذا الوضع المعكوس ـ الذي يضحي بالقضية الوطنية والقومية في سبيل تثبيت اوضاع ونظم اجتماعية بعينهــــا نظير خارج الوطن العربي ٠ ولكننا نعرف بالتأكيد انه يشكـــل احتمـــــال كارثة كبيرة تفوق في حجمها ونسبها ونتائجها كارثـــــة التهـــاون امـــام الصهيونية ٠ والدلائل كثيرة على ان تحديا من « القومية الفارسية » مدعومـة من الامبريالية يوشك ان يكرر تحدي الصهيونية للقومية العربية ٠٠٠

ومع ذلك ، فانه اذا كان الخطر الايراني بهذه الدرجة من الجسامة ، فانه يحمل معه تحديات جديدة وتناقضات جديدة من شانها ان تقلب موازين كثيرة ، وان تبدل تحالفات وتخلق تحالفات جديدة ، وتفجر صراعات ليست لهـــــا الصيغة البسيطة المجردة للصراع بين القوى الامبريالية والقوى الحليفة لهـا من ناحية ، والقوى الوطنية والتقدمية والحليفة لها من الناحية الثانيـــــة فحسب ٠٠ انما لها صيغ الصراعات الاكثر حدة والاشد تعقيدا ٠٠ صراعات البقاء ، صراعات الحياة والموت ، لنظم وطبقات واوضاع باكملها ٠

الحواشي

(1) « Politial Gaming and Foreign Policy Making During Crisis » , Robert Mandel, World Politics quarterly , July 1977

(٢) اشرت الى هذا التقرير في المقال الاول من هذا البحث في « شؤون فلسطينية » (٧٦) اذار (مارس) ١٩٧٨ ·

(3) People, Power and Political Systems Prospects in the Middle East, A Summary Record. The 25th Anniversary conference of the - Middle East Institue, Washington, 1971

(4) « The Proliferation of Conventional Arms » Helga Haftendorn, Adelphi Papers, No. 133, P.36

(٥) تقرير معهد السلام الدولي (ستوكهولم) عن تجارة الاسلحة مع العالم الثالث نشر « بنغوين » ، لندن ، ١٩٧٥ ·

(٦) مذكورة في مقال « مشكلات الحدود بين امارات الخليج العربي » للدكتور محمد رشيد الفيل ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية · العدد ٨ ·

★ يعادل الدولار الاميركي ٧ ريالات ايرانية ·

(٧) ارقام الميزانية الايرانية مستقاة من تقرير في مجلة The Middle East, March 1978, No. 41, London.

(8) The Middle East, No. 31 London.

(٩) أرقام التسلح الايراني مستقاة من مصدرين :

- The Military Balance 1977 - 1978. I.I. S. S. London
- The Middle East, No. 31 London.

(10) Charles Holley, Iran's Defense Strategy : The Order of Priorities. The Middle East, May 1977, London.

(11) Africa, No. 78, February 1978. London P. 25.

(12) Geoffrey Kemp, Scarcity and Strategy, Foreign Affairs, January 1978, P. 398

(١٣) المصدر السابق ، ص ٤٠١ ·

(١٤) مجلة « الاقتصاد العربي » (لندن) ــ العدد ٨ ــ فبراير ١٩٧٧ ·

(١٥) Geoffery Kemp المصدر السابق ، ص ٤٠٢ ·

(١٦) « الحدود التي يبدأ عندها التدخل الايراني في الشرق الاوسط » ــ تعليق لوكالة « نوفوستي » بقلم ف· سافين ·

أحمد صدقي الدجاني

نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين "٢"

فلسطين ما بين ١٠٢٠ ق.م و ٦٣ ق.م.

ونعود لتتبع الاحداث الهامة التي شهدتها فلسطين في القسم الاول من تاريخها قبل الانطلاقة العربية بالاسلام ، فنجد ان العبرانيين بعد ان احتلوا اجزاء من فلسطين اسسوا المملكة العبرانية · واختاروا شاول اول ملك عظيم نحو عام ١٠٢٠ ق·م· بعد ان اقتبسوا فكرة الملكية من جيرانهم ، وكان هذا الملك الاول فاشلا ومخيبا للامال ، وقد انتحر بعد ان هزم امام الفلسطينيين في معركة جلبوع ـ جلبون الحالية ـ وتولى داود حامل سلاح شاول (نحو ١٠٠٤ ـ ٩٦٣ ق·م·) فكان المؤسس الحقيقي للدولة · وكان محاربا فنجح في توسيع حدود المملكة الى أبعد مما بلغته في اي وقت اخر · واتخذ اورشليم عاصمة له بعد ان انتزعها من أيدي سكانها اليوبسيين وكانت القدس اليبوسية « مملكة مدينة » كمدن الكنعانيين الاخرى ، وسكانها اليبوسيون بطن من الكنعانيين ، ويعود تاريخ تأسيسها الى الفي سنة قبل ان يحتلها داود · وقد وفق داود في اختياره لها عاصمة له لانها حصينة ويسهل الدفاع عنها ، كما انها تقع خارج المراكز القبلية الاصلية وتتحكم في طريق رئيسي من أهم الطرق الداخلية يربط شمال البلاد بجنوبها ، واشتهر داود « المحارب » ببنائه قصرا في القدس بناه له معماريون صوريون ارسلهم صديقه الفينيقي الملك حيرام ، كما اشتهر بشعره وقد نسبت له « المزامير » وفي عهده ظهر الادب العبراني وبدأ « المذكر » بدون الاحداث الهامة ويحفظ الحوليات الملكية · وقد ورث داودا ابنه سليمان (حوالي ٩٦٣ ـ ٩٢٣ ق·م·) ، الذي وصلت المملكة في عهده درجة عالية من المجد والابهة · وكانت له مشاريعه التجارية والصناعية واعماله العمرانية · وقد بنى هيكلا وتحصينات وثكنات · واختلطت مع تاريخه الاساطير والقصص الخيالية لتجعل اسمه مرادفا

للقوة والفخامة والحكمة ، غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هذه الافكـــار لان المملكة انكمشت في عهده مساحة وضاق الناس بنظام السخرة الذي استخدمه في تشغيل العمال وبالانفاق والتبذير الامر الذي ادى الى انقسام المملكة فـــي عهد خلفه ٠

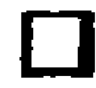
وجاء انقسام المملكة حين رفضت عشر قبائل اسرائيلية الاعتراف برحبعام ملكا عليها ٠ وكان فتى في السادسة عشرة قاسيا ومتهورا ٠ وشكلت هذه القبائـــل مملكة اسرائيل وبقيت قبيلتان مع رحبعام فشكلتا مملكة يهوذا ٠

فأما مملكة اسرائيل فكانت في الشمال وقد اتخذت عاصمة لها شكيم اولا ثم ترزه ثم السامرة ٠

وأما مملكة يهوذا فكانت في الجنوب وبقيت اورشليم عاصمة لها ٠ وقد اشتد الخلاف بين المملكتين فخاضتا حروبا عدة ضد بعضهما ، وحفل تاريخها القصير بالثورات والمكائد ، الامر الذي ادى الى خرابهما ٠ وكانت نهاية مملكة اسرائيل على يد سرجون الثاني الملك الاشوري عام ٧٢٢ ق٠م٠ الذي سبى أحسن رجالها واخذهم الى ميديا ٠ وانتهت مملكة يهوذا عام ٥٨٦ ق٠م٠ على يد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني ، وكانت قد تعرضت في نشأتها الاولى لغزو شيشتق فرعـــون مصر لها عام ٩٢٠ ق٠م٠ فوقعت تحت النفوذ المصري لفترة ، ثم تعرضت لهجمات الاشوريين ودفعت لهم الجزية حتى كانت نهايتها التي اقترنت بتخريب نبوخذ نصر للقدس وسبيه عظماء البلاد ونقلهم الى بابل ٠ وهكذا اصبحت فلسطين ــ شأنها شأن سورية كلها ــ تحت حكم الكلدانيين الذي ورثوا مملكة اشور فيما بين النهرين ٠ (٨)

وننظر في حضارة العبرانيين على ارض فلسطين فنجد انهم اتبعوا في مراحل حياتهم الاولى النموذج الحضاري للمنطقة الذي كان يمثله الكنعانيون ٠ واخذوا من كنعان لغتها وابجديتها كما سبق ان ذكرنا ٠ وحين جاء بنو اسرائيل فـــي الهجرة العبرانية الثالثة الى فلسطين تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخـــذوا لهجة شعب فلسطين ٠ وتعلموا من هذا الشعب الكنعاني الزراعة فانتقلوا من البداوة والرعي الى الزراعة والاستقرار ٠ واقتبسوا طقوس الكنعانيين وفنهم ، وقد خطط هيكل سليمان وفقا لتخطيط معبد كنعاني وزخرف بنماذج كنعانية ٠ واستخدم العبرانيون في الطقوس الالات الموسيقيـــة وفقا لما كان يقوم بـــه الكنعانيون ٠ كما اقتبسوا منهم العادات بعد ان تزاوجوا معهم ٠ وهكذا تـــكرر مع العبرانيين ما حدث للشعوب والجماعات الاخرى التي استوطنت فلسطيـــن وانصهرت في بوتقة حضارة شعبها ٠ ولقد أسهم العبرانيون في هذه الحضارة في مجال واحد محدد هو المجال الروحي ، وتجلى هذا الاسهام في العهد القديم الذي حفظ تاريخ المعلمين الدينيين العبرانيين وانبياء بني اسرائيل ، والـــذي

اكتسب أهمية خاصة ككتاب في العصور التي سبقت المسيحية · وترجع هذه الاهمية الى انه الاثر الادبي الوحيد الذي توارثته الاجيال عن طريق المرويات والتقاليد المتواصلة ، بينما تأثر وصول الاثار الادبية للحضارات القديمة حتى حدثت الاكتشافات الاثرية الحديثة فأخرجتها من باطن الارض حيث ظلت مدفونة أجيالا طويلة · وقد أسهم في تأليف العهد القديم مؤرخون ومعلمون دينيون على مدى فترة طويلة ، ومرت مادته بأطوار كثيرة من الانتقاء والحذف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي · ونجد من بين هؤلاء المعلمين الدينيين المشرع الذي يتكلم بلسان « يهوه » ، والكاهن الذي يعلم الشريعة ، والرجل الحكيم الذي يخاطب الفرد ، والشاعر الذي يطلق اغانيه معبرا عن عواطف الانسان ، ثم النبي الذي يتكلم نيابة عن الله · ويلاحظ ان عقيدة التوحيد تطورت في العهد القديم من اعتبار يهوه الها للعبرانيين وحدهم الى الاعتقاد به الها لهم ولشعوب اخرى · وبعد التوراة جاء تأليف التلمود (بمعنى دراسة او عقيدة) وهو يضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب الخمسة المكتوب · وقد كتب جزء منه بالارامية التي اصبحت وسيلة التعبير بعد العبرية عند المفكرين الدينيين اليهود · (٩)



بقيت فلسطين بعد اخضاع نبوخذ نصر لها وتدميره القدس عام ٥٨٦ ق·م· تحت حكم الكلدانيين حتى عام ٥٣٨ ق·م· الذي شهد سقوط بابل في أيدي الفرس بقيادة كورش وانتهاء الامبراطورية البابلية · وقد اعترضت مناطق الامبراطورية بما فيها فلسطين بالحكم الفارسي الجديد الذي جاء من بلاد فارس شرقي العراق · وكان الفرس من الشعوب الهندية الاوربية ، وقد اعتبر حكمهم نهاية عصر حكم الشعوب السامية العربية في تاريخ المنطقة القديمة · واصبحت دويلات سورية وفلسطين جزءا من امبراطورية عظيمة تعتبر من اكبر الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم · وقد ضمت الامبراطورية بعد ربع قرن من ولادتها العالم المتمدن القديم بأسره الممتد من مصر واسية الصغرى الى البنجاب في الهند · وقد نظم دارا (داريوس) (٥٢٦ ـ ٤٨٦ ق·م) · هذه الامبراطورية احسن تنظيم ، وكان من أقدر ملوك العالم القديم واكثرهم اطلاعا وتنورا · وقسم البلاد التي يحكمها الى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى كل منها ، مرزبانة ، وكانت فلسطين مع سورية وقبرص في المقاطعة الخامسة التي سميت مرزبانة « عبر نهرا » اي عبر نهر الفرات · وقد تمتعت مع جميع المرزبانات الاخرى بوضع مستقل الى حد ما ودفعت جزية خفيفة نسبيا ، وكان ذلك مما ساعد على الاستقرار فيها ، وعادت المدن الكنعانية الى الازدهار كمراكز للتجارة العالمية في ظل هذا السلم الفارسي ·

وشهدت فلسطين مع بداية حكم الفرس لها رجوع بعض يهود السبي من بابل· فقد أصدر كوروش مرسوما بعد احتلاله المدينة يسمح لهم بالعودة ، متصورا على ما يظهر ان وجود طائفة يهودية في فلسطين تواليه سيشكل توازنا فعالا مع الحزب الموالي للمصريين الذي طالما برز في شؤون فلسطين · ولا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين عادوا ، ولكن الرقم الذي ورد في بعض كتب اليهود وهو حوالي اثنين واربعين ألفا يبدو مبالغا فيه اذا ما قورن بمجموع المسبيين وهو ثمان وخمسين الفا · وقد فضل اغنياء المسبيين البقاء في بابل ـ كما تظهر الوثائق ـ وعاد اولئك الذين لم يمدوا جذورهم فيها · وكان زعيم اليهود العائدين زرو بابل وهو من سلالة احد ملوك اليهود ، وقد أرجع معه كنوز الهيكل التي نهبها نبوخذ نصر ، واعترفت به الجماعة العائدة حاكما عليها لبعض الوقت · وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الهيكل ثانية سنة ٥١٥ ق·م· في عهد داريوس وتم المشروع على نفقة الدولة · وفي عهد ارتحشتا الاول (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق·م) عاد فريقان اخران من اليهود المسبيين احدهما برئاسة نحميا والاخر برئاسة عزرا · ويلفت النظر البرنامج العنصري الذي سارا عليه وادخلاه العقيدة الدينية ، والذي كان منه وجوب طلاق الزوجات غير اليهوديات واعلان ابنائهن غير شرعيين · كما يلفت النظر ايضا ان اللغة الارامية حلت محل اللغة العبرية كلغة دارجة وفي المراسلات الرسمية بين اليهود ، وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية ·

لم يقابل شعب فلسطين رجوع هؤلاء اليهود بالارتياح ، وحاولت جماعات منهم مقاومته · وكان من بين هذه الجماعات اليهود الذين بقوا وسكان الجنوب والساحل الذين اسمتهم التوراة لاول مرة « بالعرب » ، بعد ان كانت تسميهم « الكنعانيين » ·

استمر الحكم الفارسي لفلسطين والمنطقة نحو قرنين · وقد استطاع ان يستميل اليه اهل البلاد بما وفره من استقلال نسبي لهم ، وما حققه من تنظيم ، حيث عبد الطرق ونظم البريد وصك النقود · وبقيت اللغة الارامية لغة رسمية في فلسطين والمقاطعات الغربية عموما تستعمل في التجارة والكلام والمعاملات الى جانب اللغة الفارسية التي استخدمها الولاة · وعلى الرغم من اننا لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة في فلسطين خلال هذا الحكم ، الا انه يمكن القول ان هذه الحضارة ظلت كما كانت في العصور السابقة تتألف من عناصر سامية عربية وتشكل المصادر الارامية والكنعانية عنصرها السائد ، وقد ظهر شيء من التأثير الفارسي على الديانة اليهودية ، كما خلف الفرس بعض الاثار في فلسطين من أهمها بقايا قصر ومعبد عثر عليهما في تل الدوير ـ لا خيش يعود بناؤهما الى منتصف القرن الخامس ، وانقاض قبر فارسي عثر عليه في تل الفارعة ، ومجموعة من أدوات المائدة مصنوعة من الفضة · (١٧)

كانت نهاية الحكم الفارسي في فلسطين والمنطقة عام ٣٣٢ ق٠م٠ على يد الاسكندر المقدوني الذي خرج من بلاده وهو في سن العشرين في ربيع اول عام ٣٣٤ ق٠م على رأس جيش يتراوح عدده بين ثلاثين واربعين الفا وهاجم الامبراطورية الفارسية ٠ وقد عبر مضيق الدردنيل الى آسيا الصغرى ومنها الى كليكيا فمناطق السهول حيث انتصر في معركة ايسوس عام ٣٣٣ ق٠م على داريوس الثالث انتصارا حاسما ٠ وتخليدا لهذا الانتصار أمر ببناء مدينة الاسكندرونة ، ثم اندفع باتجاه الجنوب فاستسلمت له المدن الفنيقية الساحلية حتى وصل صور التي قاومت بشدة ٠ وقد حاصرها الاسكندر سبعة اشهر حصارا مريرا وطم البحر ليصلها بالبر ثم فتحها عنوة وانتقم من أهلها ٠ وفتحت الطريق امامه الى ساحل فلسطين فاحتله حتى وصل الى غزة التي قاومت بدورها ببطولة وصمدت شهرين امام حصاره المحكم لها ، ثم قهرت حاميتها وابيدت فدخلها الاسكندر مصابا بجروح طفيفة ونكل بأهلها واستولى على كنوزها وثرواتها حيث كانت المستودع الرئيسي على البحر المتوسط لمنتجات الجزيرة العربية ٠ وبعد ان استكمل سيطرته على فلسطين اتجه الى مصر فاخضعها ، ووصل الى واحة سيوة حيث زار معبد آمون كما امر ببناء مدينة الاسكندرية ٠ وعاد الفاتح الى بلاد الشام فمر بفلسطين واقام بصور بعض الوقت حيث احتفل بانتصاراته ٠ وهناك شك في امر زيارته للقدس في طريق ذهابه الى مصر وتقبل خضوعها شخصيا كما ذكر يوسيفوس ٠ وقد تابع سيره من صور مع وادي العاصي ثم مع الفرات الى بلاد الرافدين حيث لاقى جيش الفرس في موقعة أربيل عام ٣٣١ ق٠م٠ وهزمه شر هزيمة ، ثم دخل بابل مقر الحكومة المركزي ٠ وتوجه شرقا ففتح بلاد فارس ، ثم اخذ بلاد الافغان والتركستان ، وعبر مضايق جبال هيلايا فدخل الهند واستولى على البنجاب ، وسار جنوبا مع نهر السند حتى بلغ شواطىء المحيط الهندي ٠ ثم اختار العودة الى بابل عام ٣٢٦ ق٠م بعد ان ظهر التذمر بين ضباطه وجنوده بسبب ما نالهم من تعب وانهاك ، وانشغل بتنظيم الدولة العظيمة والتمتع ، ولم يلبث ان توفي بالحمى في حزيران ٣٢٣ ق٠م قبل ان يتم الثالثة والثلاثين من عمره ٠

شهدت فلسطين خلال السنوات التسع التي امتدت بين فتح الاسكندر لها وبين وفاته بداية تجربته في تحقيق التفاعل الحضاري بين الحضارة الاغريقية والحضارات الشرقية ، من خلال امتزاج الافكار والمؤسسات اليونانية والشرقية٠ وقد وصلتها اصداء ذلك الحديث العظيم الذي جرى على ضفاف دجلة حين صلى الاسكندر في مأدبة حضرها تسعة آلاف مقدوني وفارسي لاجل وحدة القلوب ، وبارك زواجه وزواج الاف من جنده من نساء شرقيات ٠ كما شهدت فلسطين النشاط الثقافي في المدن التي انشاها والتي يروي انها زادت عن السبعين ، والتي هدف من انشائها ان تكون

مراكز سكنى للمحاربين المسرحين ، ونقاطا عسكرية على خطـوط المواصلات ، ومراكز نشر التأثير الثقافي الهيلني · وحين توفي الاسكندر على غير توقع ، وتسابق قواده للفوز بأقسام امبراطوريته ، كانت فلسطين من حصة القائـــد « لاوميدون » ، وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية برز من خلالهـا اربعة قواد على رأس اربع دول هم بطليموس في مصر وسلوقس في مرزبانـــة بابل التي تضم سوريا ، وانيتفونس في آسيا الصغرى ، وانيباتر في مقدونية ·وقد نجح بطليموس في اخذ فلسطين من لاوميدون عنوة ومد سيطرته عليها ، ولكــن انيتفونس غزا سوريا واستولى عليها ووصل حتى غزة ، وتجـددت الحـــروب الدامية بينه وبين القواد الآخرين حتى خر صريعا عام ٣٠١ ق·م ، وتمكـــن بطليموس حينئذ من استرداد فلسطين وضمها الى مملكة البطالسة · (١١)

بقيت فلسطين جزءا من المملكة البطالسية اكثر من قرن باستثناء فترات متقطعة· وقد وصلت حدود هذه المملكة الى خط يقع شمال ارواد وجنوبي حمص · وفـي عام ٢١٩ ق·م نشب الصراع بين البطالسة والسلوقيين ، واستمرت الحـــرب اكثر من عشرين سنة بين الاسرتين اليونانيتين فجرت على فلسطين وجاراتهـا الويلات والشدائد ، وانتهت هذه الحرب بنجاح انطيوخس الثالث السلوقـــي الملقب بالكبير في الاستيلاء على فلسطين عام ١٩٨ ق·م· بعد ان انزل هزيمـة فادحة بخصمه البطلمي في بانياس (بانيون) قرب منبع نهر الاردن · وقد ساد التسامح في فلسطين بشكل عام خلال الحكم البطلسي الذي لم يتعرض لعقائد الاهلين وتقاليدهم · وفي عهد بطليموس فيلادلفيوس « محـب العلـم » ترجمـت التوراة الى اليونانية على يد سبعين عالما يهوديا دعاهم الى مصر للقيام بهـذه المهمة · وحاول الحكام البطالسة نشر المدنية اليونانية في فلسطين والبلاد التي حكموها عموما · واشتد بطليموس الرابع في محاولته وضاق ببعض اليهـــود الفلسطينيين الذين لم يستجيبوا له فزاد عليهم الضرائب · وكـــان حمـاس السلوقيين لنشر المدنية اليونانية اشد انسجاما مع سياستهم التقليدية التـــي اعتبرت الهلنية القاسم المشترك الذي يلتقي عليه جميع رعاياهم · وقد ذهـــب انطيوفس ابعد مما يجب في محاولته حتى انه إعلن نفسه « الاله الظاهر » وقرن نفسه بزفس كبير آلهة اليونان ، وشجع اعتبار يهوه اله اليهود مساويا لزفس ، وكانت خاصة اليهود في القدس قد تجاوبت مع رغبات الحكام السلوقيين فتبنت اللغة والعادات اليونانية ، وأصبح البطاس اليوناني شائعا بين الشبان وكذلـك الالعاب اليونانية · ولكن تشدد انطيوخس ادى الى ظهور معارضة قوية بيـــن اليهود دعت الى التمسك بأصول الديانة اليهودية وباساليب الحياة التي درجوا عليها · ويلاحظ ان شعب فلسطين على وجه العموم بقي على طبيعته الكنعانيـة العمورية في المعيشة والعادات والديانة ، وبقيت اللغة الآرامية هي السائدة ، وانحصرت معرفة اليونانية ــ لغة الحكام ــ بين الخاصة · ونلاحظ ان انطيوخس

حين فرض عبادة زفس اوليمبوس على السكان فانهم عبدوه بعد ان قرنـــوه بشخصية الههم بعل ، وألبسوه ثيابا وصفات نصف سامية وأقاموه في معابـد شبه ساميـة ٠

تفجرت معارضة بعض اليهود من شعب فلسطين لسياسة انطيوخس / ثورة في عام ١٦٨ ق٠م٠ وقد وجهت الثورة اول الامر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير اكثر منها ضد الحكومة المركزية ٠ وكانت شرارتها خلافا بين اخوين على شغل وظيفة الحبر الاعظم ادى الى الحرب ثم اعلان انطيوخس الحكـــم العرفي واباحته مدينة القدس وأمره الغاء الدين اليهودي ، فكان ان هب الكاهن ماتاتياس من قرية مودين « المدية » الواقعة شرق اللد واعتصم بقريته ومعـــه ابناؤه الخمسة ، وشرع يحضر الثورة ٠ وقد قاد الثورة ابنه يهوذا الذي اتخذ فيما بعد لقب « المكابي » ، وأصل التعبير غير واضح وربما اشتق من العبرية مقبة اي المطرقة بالاشارة الى ضرباته للعدو ٠ وكانت اول مشكلة جابهت الثوار هي القتال في يوم السبت ، وقد رفض بعض اتقياء حاسديم (من المتشددين في التمسك الحرفي بالوصايا العشر) تدنيس السبت بالقيام باعمال حربية فأبادهم جنود انطيوخس بسهولة ٠ وعولجت هذه المشكلة بصدور فتوى تبيح القتال في السبت ٠

ونظم يهوذا واخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال وتتجنب المواجهة المباشرة مع قوات الحكومة ٠ وقد نجحت هذه العصابات في انزال ضربـــات قتالية بجنود انطيوخس كان اولها تصديهم لحاكم نابلس « ابولونيوس » وقتله٠ وبعد عدة معارك نجحت في السيطرة على القدس ، فطهر اليهود الثائرون هيكلهم واعادوا المذابح اليومية ، وأصبح ذلك اليوم عيدا يهوديا يحتفل به سنويا باســم عيد هنوكه « التكريس » ٠

كانت ثورة المكابيين في بدايتها ذات طابع ديني ولم تلبث ان تطـورت الـــى ثورة سياسية ٠ وقد توجهت في وقت واحد ضد القوات الحكومية وضد انصار الثقافة الجديدة « الهلنستيه » من اليهود ، وانتصرت في المجالين ٠ ويلاحظ ان الدولة السلوقية كانت قبل نشوب هذه الثورة قد بدأت تعاني من الضعف ، وقـد اصيبت بهزيمة على يد الدولة الرومانية الغنية في آسيا الصغرى واضطرت في عام ١٨٨ ق٠م٠ الى التخلي عن ممتلكاتها وراء جبال طوروس ٠ وزاد مـــن ضعفها انهماك حكامها في الملذات وانقسام ولائهم ٠ وهكذا استطاع المكابيون فرض وجودهم في فلسطين وانتخبوا سمعان شقيق يهوذا كاهنا اعظم وحاكمـا سنة ١٤١ ق٠م٠ ولم يجد الملك السلوقي ديمتريوس الثاني مناصا من الاعتراف بالامر الواقع ، فمنح اليهود من شعب فلسطين الاستقلال تحت حكم سمعان ٠ وبقي هذا الوضع حتى جاء الرومان بعد ثمانين سنة ٠

سيطر التعصب على اليهود والمكابيين بعد انتصارهم ، فحاربوا اخوانهم اصحاب النزعة الهلينية كما حاربوا غير اليهود من شعب فلسطين ٠ وقد اكره يوحنا هيركانوس الاول (١٣٥ ـ ١٠٥) ـ الذي خلف والده سمعان ـ الآدوميين سكان جنوب فلسطين على التهود والاختتان حوالي سنة ١٢٦ ق٠م٠ كما هاجم السامريين الذين قبلوا مشروع انطيوخس وهدم مدينتهم مع معبدها٠ وكانت سلطته تعم الاجزاء الواقعة جنوب الكرمل عدا مدن الساحل ٠ وحين تولى ابنه اريسطوبولس (١٠٥ ـ ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك ووضع تاجا على رأسه ٠ ويلفت النظر انه اتخذ اسما يونانيا وحذا حذوه ملوك سلالته المتأخرون ٠ وفي عهد خلفه اسكندر حنا ديوس (١٠٣ ـ ٧٦) اصبحت الكلمات اليونانية مستعملة على النقود بجانب العبرية ، واتسعت رقعة ملكه ٠ وقد حكم هذين الاخوين بصور وجرائم التعصب الديني التي كان منها اكراه سكان الجليل من الايسوريين العرب الذين يتكلمون الآرامية على التهود والختان ٠ ويشير « تويني » الى هذا الحادث باعتباره « اقدم حادث تاريخي معروف من حوادث التعصب الديني » ٠ كما يلاحظ « ان سكان الجليل هؤلاء هم الذين عمل بينهم فيما بعد السيد المسيح واتخذ منهم اكثر تلاميذه ، فكانوا من اصل غير يهودي ويتكلمون اللغة العبرية برطانة ٠ كما كان اليهود ينظرون اليهم بأنهم ادنى من اليهود القدماء وغير اهل لظهور نبي فيهم ٠ وقد اعتبر تصرف يوحنا هيركانوس وولديه في التخيير بين التهود او الابادة سابقة اتبعها آخرون من البيت « الهسموني » في معاملتهم للمدن او الشعوب التي يقهرونها ، وتكثر في تاريخ هذه الاسرة قصص الجرائم التي اقترفها ملوكها ، فقد ترك ارسطوبولوس امه تموت جوعا في السجن وقتل احد اخوته ، وحين فتح اسكندر جنيوس احدى المدن قبض على ثماني مئة رجل من العصاة واتى بهم الى اورشليم حيث صلبهم جميعا في يوم واحد واستحضر نساءهم واطفالهم وذلك عام ٨٦ ق٠م٠ وقبل ذلك اتبع استيلاءه على غزة بمذابح مخيفة عام ٩٦ ق٠م٠ ادت الى تحول الشاطىء المزدهر بين غزة وعسقلان الى صحراء بلقع ٠ (١٢)

شهدت المملكة السلوقية في تلك الفترة انتفاضات اخرى في المنطقة فضلا عن انتفاضة المكابيين ، وضغطت القبائل العربية على الجزء الجنوبي منها ، واصبح هؤلاء الانباط العرب قوة هامة هناك ، وكانوا قد طردوا بقايا الآدوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق٠م٠ ثم استقلوا عن السلوقيين بسورية الداخلية الجنوبية حوالي ٨٥ ق٠م٠ واصبحت دمشق تحت حمايتهم كما استقل الايطوريون العرب بالبقاع واللجاة ٠واستقلت بعض المدن الفينيقية ٠وفي الشرق برزت سلالة عربية في الرها حوالي سنة ١٣٠ ق٠م٠ عرفت باسم الفرتيين وامتدت امبراطوريتها من الفرات الى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي٠ وبرزت على حدود المملكة السلوقية الشمالية مملكة ارمنية استطاع ملكها

تيغرانس ان يصل بجيوشه حتى جنوب عكا عام ٦٩ ق٠م٠ ثم انسحب بها حين اعلنت روما الحرب عليه ٠ وكانت قوة روما قد بلغت درجة عظيمة فمدت سيطرتها على آسية الصغرى ثم جاء القائد الروماني بومبي لينهي الحكم السلوقي ويحتل سوريا عام ٦٤ ق٠م٠ ثم يحتل فلسطين في السنة التالية عام ٦٣ ق٠م٠ ويمكننا ان نوجز الحديث عن اهم ملامح هذه الفترة في النقاط التالية :

★ كانت أبرز مظاهر الحكم اليوناني لفلسطين بطلميا او سلوقيا انتشار الهلينية فيه ، حتى ان هذه الفترة من تاريخ فلسطين والمنطقة اشتهرت باسم العصر الهلنستي ٠ وقد انحصرت الهيلينية من وجهة زمنية بين عصرين ساميين ـ كما يقول حتي ـ اولهما الارامي وثانيهم العربي ٠ ودامت حوالي الف عام حتى الفتح العربي الاسلامي ٠

★ نشط الحكام اليونانيون خلال حكمهم في تأسيس المدن لتكون مراكز للثقافة اليونانية ، واختاروا لها المواقع بعناية في نقاط استراتيجية وعند مراكز المواصلات الهامة وعلى طول مجاري الانهار ٠ وكان سكان هذه المدن بالدرجة الاولى من الجنود اليونان وقد تزوج بعضهم من اهل البلاد ، وانضم اليهم مع الزمن سكان مولدون واصليون اقتبسوا المظاهر الخارجية للهلينية ، وضموا فيما بينهم جماعة من التجار والفنانين والعلماء والعبيد ٠ ومن المدن التي اسست في فلسطين ابان ذلك العصر مدينة فيلوتيريا على بحر الجليل في موقع خربة كرك في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ، وقد بناها بطليموس الثاني واعطاها اسم شقيقه وكذلك مدينة جدارا وهي ام قيس الحالية غربي اربد ، ومدينة بيلا وهي خربة فحل مقابل بيسان ، وكانت من بين مجموعة مدن سميت بالديكابوليس اي المدن العشر ، وقد بنيت هذه المدن اليونانية حسب مخطط مرسوم وزودت بالمسارح والحمامات والملاعب والساحات العامة ، واحتفظت بالشكل السياسي لدويلات المدن اليونانية ٠

كذلك جدد الحكام اليونانيون بعض المدن القديمة وحولوها الى مدن هلنستية وغيروا اسماءها ٠ ومن هذه المدن عكا التي اصبح اسمها بتولمايس في عهد بطليموس الثاني ، وبيسان التي اصبح اسمها سكيثوبوليس ، وابولونيا وهي ارسوف القديمة ، ويافا التي أصبحت يوبا ، ورفح ـ رفيا ، وعتليت ـ بولوكون بوليس ، والزيب ـ اكديبا ٠ ويلفت النظر ان هذه المدن سرعان ما طرحت اسماءها اليونانية وطرحت معها المظاهر السطحية للهلينية واستعادت صفتها الكنعانية واسماءها القديمة التي تعرف بها اليوم ٠ ويمكن ان نشير الى نابلس كاستثناء لهذه الظاهرة في فلسطين فقد لصق بها اسم نيابوليس (المدينة الجديدة) الذي اطلقه عليها الامبراطور الروماني تيطس حين اعاد بناءها وكان اسمها القديم شكيم ٠

★ تفاوت انتشار الهلينية من منطقة الى اخرى في فلسطين وغربي آسيا عموما • ولم يتبع انهيار الحكم اليوناني انهيار الثقافة الهلينية التي استمرت خلال الحكم الروماني للمنطقة • وقد برز مثقفون من اهل البلاد اسهموا في صنع هذه الثقافة • ومن هؤلاء انطيوخس العسقلاني من مدينة عسقلان الذي حاول ان يوحد آراء الافلاطونيين والرواقيين وكان يتبع الفلسفة الانتقائية والشاعر ملاجر من ام قيس وقد جمع ديوانا سماه الاكليل • ولم يتبع انهيار الحكم اليوناني انهيار الثقافة الهلنستية اذ استمرت خلال الحكم الروماني (١٣)•

★ بقيت اللغة الآرامية خلال هذه الفترة لغة الشعب الدارجة ، وبقي الشعب هو الاخر محافظا على كنعانيته في طرق معيشته • وقد احتفظ الريف على الخصوص بلغته القديمة وعاداته وطريقة حياته • وعلى العموم نجحت الحضارة الكنعانية في عملية التفاعل الحضاري مع الحضارة الاغريقية في المحافظة على مكانتها بوجة عام فاعطت اكثر مما اخذت • وقد لخص بريستد جصيلة التأثير اليوناني على البلاد بقوله : « ان هذا التأثير لم يسر على السواء في جميع انحاء البلاد ، بل كاد ينحصر في المدن فقط ، ولم يتأثر به كثيرا سكان القرى والدساكر الذين آثروا البقاء على عاداتهم السامية القديمة ، والتكلم بلغات ابائهم والاحتفاظ بتقاليدهم وافكارهم » (١٤) •

★ حافظ اليوناني بوجه عام على الوحدة الادارية الفارسية « المرزبانة » ، وقسمت فلسطين في ذلك العهد الى ثلاثة الوية هي الجليل والسامرة والقدس ، وهذه الاخيرة كانت ذات تنظيم خاص لكنها تدفع الضريبة للدولة • وازدهرت التجارة في فترات السلم ، ومن المراكز التجارية الهامة في فلسطين آنذاك مريسا قرب بيت جبرين • وتقدمت الزراعة والصناعة تقدما ملموسا في ذلك العهد • وتداول الناس ثلاثة انواع من العملة وعرفوا مظاهر الترف في بعض القطاعات ، وبلغ عدد سكان فلسطين حوالي مليونين•

الحواشي :

٨ ـ يراجع للتوسع في تاريخ المملكة العبرانية كتاب بلادنا فلسطين السابق ذكره والعهد القديم وكتابا

K. Kenyon , Archaeology in the Holy Land (London , 1970).
Noth , Martin , The History of Israel (London 1960).

٩ ـ انظر حتي الفصل الخامس من كتابه السابق الذكر و

Albright , Archaeology and The Religion Of Israel
Wells , H.G. The Outline Of History (London 1961)

١٠ ـ يراجع للتوسع الفصل السادس عشر من كتاب حتي والقسم التاريخي من كتاب بلادنا فلسطين و

A. T. Olmstead History Of The Persian Empire (Chicago , 1948).

١١ ـ انظر حتي الفصل السابع عشر و

W. W. Tarn « Alexander » Cambridge Ancient History , Vol . vi (Cambridge 1927)

١٢ ـ انظر سفر المكابيين الاول وحتى الفصل السابع عشر و

M. Rostoutzeff , The Social and Economic History Of The Hellenistic World (Oxford , 1941)

١٣ ـ يراجع للتوسع في العصر الهلنستي الفصلان الثامن عشر والتاسع عشر من كتاب حتي و

The Greek Anthology ed. and tr. W. R. Raton (Newyork 1927)

١٤ ـ انظر حتي الفصل الحادي والعشرون والدباغ ص ٦٢٣ من الجزء الاول و

M. Momensen , History Of Rome (Newyork , 1894)

تقارير

ندوة كمال جنبلاط
تظاهرة تأييد لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني

١٦ اذار ١٩٧٧ ، في الساعة الثانية والربع تماما ، وعلى مفرق دير دوريت تطلق النار على سيارة القائد كمال جنبلاط يسقط شهيدا مع مرافقيه · ١٦ اذار ١٩٧٨ تدخل اسرائيل الجنوب بقوة قوامها ثلاثين الف جندي من اجل ما وصفته بانه « اجتثاث الارهاب واقامة حزام امني » · تسجل القوات المشتركة بطولات خالدة في التصدي للعدو · يترسخ الدم بين فلسطين ولبنان ، ويظل اقوى من الاغتيال السياسي والة الحرب الصهيونية ·

ليس صدفة ان يكون الهجوم الاسرائيلي في الذكرى الاولى لاستشهاد القائد كمال جنبلاط ، فالهجوم هو التكملة المنطقية للاغتيال · او بالاحرى الدليل على فشل الاغتيال في تحقيق اهدافه السياسية · وفي مقدمتها فلسطين الرمز والقضية وخشبة الخلاص نحو المستقبل · ولبنان المعبر الى فلسطين عبر بوابة الجنوب · اداة واحدة ؟ ربما · او ادوات عدة في يد واحدة ·

كان تكريم القائد الشهيد كمال جنبلاط في ذكراه الاولى خاصا ، فقد عمد بالنار والدم الفلسطيني واللبناني المقاتل على ارض الجنوب · الندوات الشعبية حول القائد الشهيد ونضاله العربي والعالمي والفلسطيني ، شملت كافة المدن اللبنانية، واللافتات والملصقات غطت الشوارع والحارات ، والاستعداد لمهرجان السادس عشر من آذار بلغ اقصاه ·

مساء يوم الاثنين في ١٣-٣ وقف ابو عمار قائد الثورة الفلسطينية امام الوفود المشاركة قائلا : ان اروع ما في استشهاد كمال جنبلاط ، استشهاد هذه القمة وسقوطها دفاعا عن هذه القاعدة العريضة قاعدة الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية · ومضى الاخ ابو عمار يقول : نحن واخوتنا في الحركة الوطنية نقف في هذا الخندق الامامي في امتنا العربية وفي اخطر موقع ضد الامبريالية والصهيونية والاستعمار بقيادة الولايات المتحدة الاميركية · وقال ان التزاوج اللبناني الفلسطيني هو اروع ما انجبته امتنا في هذا العصر ··· عصر الظلمة التي تحاول ان تخيم بكل تشعباتها على المنطقة العربية ··· ولكن كلما اشتدت حلكة الظلام كلما اقترب طلوع الفجر ·· هذا الفجر الثوري التقدمي الوطني الذي سيعم بالنهاية · وبكل تأكيد امتنا العربية من محيطها الى خليجها ومعا وسويا في الثورة حتى النصر ·

وكانت ندوة كمال جنبلاط اللبنانية العربية العالمية حول قضايا التحرر الوطني

والديمقراطية قد بدأت في فندق البوريفاج بكلمة الحركة الوطنية القاها وليد جنبلاط رئيس مجلس القيادة في الحزب التقدمي الاشتراكي حدد فيها منطلقات الحركة الوطنية في نضالها وهي عروبة لبنان ، لاننا لن نسمح باقامة دويلة عنصرية مهما كان الثمن · ووحدة لبنان ارضا وشعبا والخروج من النظام الطائفي الى نظام ديمقراطي علماني · واكد على التلاحم مع المقاومة الفلسطينية في نضالها الوطني العادل من اجل استعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · كما حدد مواقف الحركة الوطنية العربية والعالمية · والقى الدكتور البير منصور مداخلة الحركة الوطنية « حول قضايا التحرر الوطني الديمقراطي في لبنان » وركزت على التجربة الجبهوية الرائدة التي بدأت تحت تأثير فكر ونضال قيادة كمال جنبلاط الفذة · وشددت على ان الهجمة التي يشهدها لبنان انطلاقا من المخطط الانعزالي تستهدف نزع عروبة وتصفية الوجود الفلسطيني على ارضه ، وتحويل كيانه الى كيان فئوي طائفي متصالح مع الدولة الاسرائيلية ، باعتبارها نموذجه الام · وشددت المداخلة على ان الجبهة اللبنانية تعمل على فرض بناء المؤسسات الفئوية على السلطة الرسمية · واكد ان الحركة الوطنية تتمسك باستقلالية خطها السياسي وقرارها وارادتها ، وانطلاقا من ذلك فانها تعتبر الديمقراطية في اولوية نهجها وسلوكها · واشارت المذكرة الى الوضع العربي مؤكدة ان الخط القادر على الانخراط في نضال طويل المدى ضد الحلول الاستسلامية المفروضة على منطقتنا هو خط المواجهة المتكاملة على مختلف الاصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والتعبوية ·

وقدم الاخ ماجد ابو شرار مداخلة المقاومة الفلسطينية حول « الصراع العربي الصهيوني في مرحلته الراهنة » ·

وفي اليومين الثاني والثالث استمع الحاضرون الى مداخلات الوفود العربية والاجنبية ومنها كلمة وفد اليمن الديمقراطية التي القاها حسن يحيى بدلا من عبد الفتاح اسماعيل ، وكلمة الوفد الفيتنامي ، وكلمة حزب البعث العربي الاشتراكي التي القاها وزير الدولة طارق عزيز ، وكلمة منظمة تضامن شعوب اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية والحزب الشيوعي البرتغالي والايطالي وكلمة بلغاريا ومجلس السلم العالمي والحزب الشيوعي القبرصي والحزب الشيوعي الكوبي وعميد معهد موسكو الجامعي للبلدان الاسيوية الافريقية والحزب الاشتراكي الالماني الموحد ومنظمة تضامن الشعوب الافرو اسيوية والاستاذ كمال حمدان والحزب الشيوعي العراقي ، والجبهة الوطنية في الجمهورية العربية اليمنية ، والقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا ، والحزب الشيوعي الاردني ، وجبهة التحرير البحرانية ، والمنظمة الدولية لتحرر الشعوب ، والحزب الديمقراطي الكردستاني ·

عندما انهت هذه الوفود مداخلاتها ، كان جو العدوان الاسرائيلي على جنوبي لبنان قد سيطر على الحضور ، وقد كشف محسن ابراهيم الامين العام التنفيذي للمجلس السياسي الاهداف الفعلية لهذا العدوان فقال : لم تفاجأ بسعة العمليات العسكرية ، كنا ننتظر ان تشن اسرائيل مثل هذه الحرب لاننا ندرك انها سوف تتوج مخططها المستمر بمثل هذه العمليات الضخمة ، اما التذرع بالعملية البطولية فهو من قبيل الحجة لتحقيق مطالب طلبوها سلما · واختصر ابراهيم اهداف اسرائيل بـ :

١ ـ تجسيد الاطماع القديمة في الجنوب ارضا ومياها كما ورد في العديد من الوثائق الصهيونية ٠

٢ ـ تحويل الجنوب الى منطقة سيطرة اسرائيلية عسكرية وأمنية ولا يبقى للسلطة سوى بعض المهام الادارية هذا اذا فعلت ٠

٣ ـ تصفية الوجود الفلسطيني عن طريق شطب هذا الشعب من الخريطة ٠ ان هذه الكيلومترات تختزل كل محصلات الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وختم محسن ابراهيم قائلا : لا نبالغ اذا قلنا ان هنا ينهزم الحل الاستسلامي وهنا ينتصر ٠ وبعد ان وجه المشاركون في الندوة نداءهم الذي يطالب بادانة العدوان الاسرائيلي واتخاذ التدابير لوقفه وانسحاب الغزاة والحفاظ على سيادة لبنان ووحدته وتمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه الكاملة ، وتحرير كافة الاراضي العربية المحتلة ٠ القى الدكتور البير منصور كلمة المجلس السياسي الختامية ٠

ومن الطبيعي ان يتحول المهرجان الجماهيري الذي كان مقررا في المدينة الرياضية الى مهرجان سياسي مختصر في البوريفاج ، القى خلاله الاخ ابو عمار كلمة اكد خلالها ان الثورة والحركة الوطنية ماضيتين في طريقهما وان المعركة ستصلبهما وتجعلهما اقوى مما كانتا ٠ وقال ان هذا العدوان كشف التخاذل العربي وكشف المخطط الامبريالي الاميركي الصهيوني ٠ ولكننا نقول لكل ذي نفوذ وسلطان في منطقتنا العربية ان هذا المخطط لن يمر ٠ وكان ابو عمار يتحدث بعد كلمة رئيس الوفد السوفياتي الكسندر فودكوف ٠ ومحمد مساعديه ممثل الجبهة الوطنية الجزائرية ٠

والقى طارق عزيز كلمة مختصرة ، ثم تلاه نائب رئيس اللجنة الفيتنامية وممثل الحزب الشيوعي الايطالي ٠ وممثلوا اليمن الديمقراطية والجماهيرية العربية الليبية ومنظمة التضامن الافرو اسيوية واتحاد الشباب الديمقراطي وجمهورية كوبا وممثل اليابان ٠ وختم المهرجان بكلمة القاها وليد جنبلاط قال فيها : تصادف ذكرى اغتيال كمال جنبلاط اليوم ، واليوم ايضا محاولة اغتيال المقاومة الفلسطينية في لبنان من قبل الصهيونية وانظمة التسوية وهي كثيرة ومتعددة ٠ الا اننا كحركة وطنية نطلب ونطالب الذين بالفعل يهمهم ان يبقى لبنان تقدميا عربيا، نطالبهم ونتوجه الى جبهة الصمود والتصدي بان تتقدم بجحافلها ، بطائراتها بدباباتها لتحمي الجنوب ٠ اننا ايدينا الجبهة ولا نزال ، لكنا نطالبها بالترجمة الحقيقية وكفانا « طق حنك » وتنظير كلام ٠

رغم الظروف الدقيقة التي عقدت خلالها الندوة ، على الصعيدين السياسي والتنظيمي ، بعد رفض السلطة اللبنانية لاقامتها في قاعة الاونيسكو بعد تبريرات لا تنطلي على احد ، الا ان الندوة تمكنت من ان تتحول الى تظاهرة تأييد عربية وعالمية لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ٠ ومن خلال المداخلات التي القيت من جانب الوفدين اللبناني والفلسطيني امكن لفت النظر الى الكثير من المخططات التي ترسم للساحة اللبنانية ٠ ولعل شعور الوفود المشاركة الرسمية والشعبية بالظروف الدقيقة التي تجتازها حركة التحرر الوطني العربية ، باعتبار ان هذه الحركة تعيش الان احدى المنعطفات الحاسمة في تاريخ منطقتنا الحديث ، هو

ما ادى الى قيام اوسع حملة تنديد بالعدوان الصهيوني وتضامن مع نضال الشعبين اللبناني والفلسطيني عند عودة هذه الوفود · واذا كان المؤتمر قد افتقد المشاركة الشعبية الواسعة نظرا للاجراءات الامنية الدقيقة التي قامت بها اجهزة الحركة الوطنية ، ولظروف العدوان الاسرائيلي التي اضطرت معها الحركة الوطنية الى اعلان تأجيل المهرجان المركزي الذي كان من المقرر اقامته في المدينة الرياضية الى الاول من أيار ، فان هذا التأجيل لا بد وان يكون دافعا الى تعميم نشاطات هذا المؤتمر والمداخلات التي القيت خلاله وعلى اوسع نطاق ، في الداخل والخارج ، سيما وان هذا التعميم يعطي لنضال الحركة الوطنية افاقه على الصعيدين العربي والدولي ، باعتباره جزءا لا يتجزأ من نضال الشعوب في سبيل الحرية والكرامة والسلام ·

في مهرجان كمال جنبلاط كانت دروس عام كامل تؤكد ان النضال الذي خاضه الشهيد يؤكد على استقلالية الحركة الوطنية في قرارها السياسي · وعلى الالتحام النضالي اللبناني الفلسطيني من اجل دحر العدوان ·

جورج ناصيف

بيت أطفال الصمود

فكرة مؤسسة تل الزعتر – بيت اطفال الصمود بدأت منذ وصول اول دفعة من جرحى المخيم البطل مع الصليب الاحمر ، وكان من ضمن الدفعة ، عدد من الاطفال الجرحى ممن كانوا يعانون الجفاف بسبب الجوع والعطش ، وكان بينهم اطفال ثلاثة فقدوا الاب والام في المخيم وخرجوا الى العالم وحيدين دون معيل ··

لم يكن صعبا على كوادر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، التي كانت مستنفرة في تلك الفترة للعمل مع الجرحى والمهجرين ·· ان يقدروا ان حالة مثل هؤلاء الاطفال ستتسع مع خروج دفعات جديدة من اهل المخيم · فكان لا بد منذ البداية من القيام بعمل يسهم في حل هذه المشكلة ويحتضن من فقد الاهل والبيت معا ·

كان القرار سريعا وحاسما ·· انشاء مؤسسة تل الزعتر ، تخلد المخيم البطل وتسهم في تضميد جراحاته واحتضان اشباله وزهراته وتكون ردا عمليا متواضعا على المؤامرة الكبرى ضد الشعب والارض ·

وهدف المؤسسة كان يشمل قطاعين من ابناء تل الزعتر :

اولا : الاطفال الذين فقدوا الاب والام معا في معارك الصمود في المخيم ·

ثانيا : الفتيات اللواتي يتجـــاوزن الخامسة عشرة من عمـــرهن واصبحن معيلات لعائلاتهن بعـــد استشهاد الاب والاخوة الكبار وفي كثير من الاحيـان الام ايضا ·

فكان بيت اطفال الصمود للقطاع الاول، وكان مركز التأهيل المهني للقطاع الثاني··

واذا كـــان الاتحاد العام للمـــرأة الفلسطينية لم يزل يعد العدة لانشاء مركز التأهيل ، فانه بالنسبة (لبيت اطفـــال الصمود) قد بدأ عمله فور نزوح اهـــل المخيم في ١٢ آب ١٩٧٦ · لان الاطفـال كانوا منذ اللحظة الاولى بحاجة الى رعاية فورية ، والى مكان هادىء مستقر يمنحهم بعض ما فقدوه في أيام الحصار الصعبة ·

وكان اول ما عمله الاتحاد في نطـاق الاعداد الجدي (لبيت اطفال الصمود) هو العمل على احصاء للاطفال المحتاجين الى رعايتنا وللكوادر القادرة على العمل فيه · فكانت استمارات خاصة بالالتحاق واستمارات خـــاصة بالعمل · وبـــدأت عضوات الاتحاد من كوادر تل الزعتر ملء هذه الاستمارات في كافة مراكز تجمـــع أهل المخيم النازح ·

وكانت أبرز نتائج هذه الحملة الاحصائية الاولى ، اننا امام مئتي (٢٠٠) طفل فقدوا الاب والام وامام مئة وخمسين طفلا فقدوا الام · لنكتشف في الحملة الاحصائيـــة الثانية بعد عشرة اشهر ان عدد الـذين فقدوا الام والاب معا يزيد على ثلاثمائة (٣٠٠) طفل ·

اما اعمارهم فتتراوح بين السنـــــة والخامسة عشرة لكن اكثرهم لم يتجـاوز السبع سنوات من عمره ··

كان علينا ان نجد المكان المناسب لهذا البيت الذي تتوفر فيه جملة شروط صحيـة وامنية وسكنية واجتماعية ملائمة للمشروع ولم نتمكن من ايجاد هذا المكان في منطقة بئر حسن بالقرب من مخيم شاتيلا قبـــل مطلع هذا العام حيث باشرنا على الفور باجراء كل التصليحات والترتيبات وتأمين التجهيزات اللازمة لجعله بيتا حقيقيـــا للاطفال ·

وفي ١٥ أيار ١٩٧٧ ، ذكرى النكبـة الاولى ، استقبل البيت اول عائلاتـــه · وكانت مكونة من سبعة اطفال اصغرهـم اياد وعمره حينذاك لم يكن يتجاوز السنة واكبرهم جميلة وكان عمرها ١٥ سنة ·

في ١٢ آب الذكرى الاولى لاستشهاد المخيم احيى اطفال البيت والعاملات فيه مع قيادة الثورة وكوادرها تلك الذكـرى القاسية بجو يملأه الامل والتفاؤل ، فقـد اشعلوا شمعة صغيرة في الظلام الدامس ، وخطوة صغيرة في طريق الرد الطويل ·

يومها كان عدد الاطفال قد بلغ ٦٥ · ومن يومها والعدد يتزايد باستمرار حتى وصل مع نهاية آب الى ثمانين طفلا ·

وبسبب ضعف الامكانيات الماديـــــة والنقص في الكادر البشري المؤهـــــل لاستيعاب المزيد من الاطفال ، قرر مجلس ادارة مؤسسة تل الزعتر – بيت اطفـال الصمود تعليق قبول اطفال جدد لـــدة شهرين من أجل تهيئة الكادر المطلـوب ، وكي ينجز الاتحاد حملته المالية الواسعة ·

بيت اطفال الصمود يكمل التراث

بيت اطفال الصمود يكمل تراثا فـــي الرعاية الاجتماعية لابناء الشهداء مـــن شعبنا طوال فترات نضاله واثر كـــل نكبة من نكباته ، فهو يرتكز عليها وفـي الوقت نفسه يتطلع ويستفيد من التـطور العالمي في مجال الرعاية الاجتماعية ·

وقد كانت دوما المرأة هي المبادرة الى انشاء دور الرعاية الاجتماعية للايتام لا

سيما ابناء الشهداء · باعتبار ان المرأة ـ الام هي الاقرب الى الطفل لاسيما فـي سنيه المبكرة ـ والاكثر قدرة على تلبية حاجته في التعويض عن الحنان الطبيعي الذي فقده بفقدان أهله · فأثر مذبحـة دير ياسين انشأ الاتحاد النسائي العربي في القدس دار الطفل العربي عام ١٩٤٨ لرعاية من تبقى من أطفال دير ياسين بدون ام وأب ، كما نشأ الاتحاد النسائـي العربي الفلسطيني في بيروت بيت اسعاد الطفولة في سوق الغرب · وبعد نكسـة حزيران انشأت المرأة في الثـورة الفلسطينية مؤسسة بيت المقدس لابنـاء الشهداء ايضاً ·

الاسرة ام المؤسسة ؟

سؤال هام يطرح نفسه دائما في مثـل هذه المواقف ، هل ايواء الاطفال الـذين فقدوا الوالدين في مؤسسة هو الحـل الافضل لهم · ام ان هناك حلول اخرى ·· ان الوضع الطبيعي الذي يعيشه الطفل في مجتمعنا هو ضمن الاسرة ·· حيث يقـوم بدوره داخلها فهو اخ وابن وله اخـوة وام واب وعم وخال وجدة الخ · واهـم ما تعطي هذه الاسرة هي الاستقـرار العاطفي والنفسي بالنسبة للطفل · ممـا يعطيه ارضية للانطلاق في الحيـاة ، فتتبلور شخصيته متأثرة بشكل اساسي بطبيعة العلاقات التي تسودها ·

فقدان الوالدين او احدهم هو حرمان عاطفي كبير بالنسبة للطفل · ولكن حرمانه من جو الاسرة يصبح حرمانا مزدوجا · ان تنقلب حياته كليا فيفقد الاستقـرار والاستمرارية في حياته · والانطلاق بـه الى جو مؤسسة ، لا سيما التقليدية منها حيث الفرد فيها هو رقم ، يؤدي غالبـا الى فقدان الطفل للتوازن في شخصيته ·

وانطلاقا من هذه الحقيقة وفي محاولة لتعويض الاطفال بعض ما فقدوه فـي اسرتهم،بنيت قرى الاطفال العالمية (SOS) حيث تعيش كل مجموعة اطفال من ٨ او ٩ مع اب وام (زوج وزوجة بديلين · كأسرة في بيت صغير ·· وتشكل مجموعة البيوت قرية تشترك معا في بعض الانشطـة والخدمات كالمغسلة ، المستوصف ، النادي المكتبة ، وحتى المدرسة) · وهنا يجـد الاطفال الذين فقدوا الاهل اخوة لهم واهلا بديلين ·

الا ان المأخذ الاساسي لهذا الاسلوب هو ترسيـخ القيم الفرديـة والليبراليـة في الاطفال ·· اذ لا هدف يربط الجميـع الا التعويض الفردي ·· وهو نتيجـة طبيعية للقيم الفردية الغربية ·

ان انتشار مثل هذا الاسلوب فـي الرعاية الاجتماعية في الاقطار العربيـة حديث ومحدود فـي مصر ولبنـان · فمؤسسات الرعاية الاجتماعية الكثيرة في بلادنا تعتمد الاسلوب التقليدي فـي توزيع الاطفال حسب الاعمار وباعداد كبيـرة تشرف عليهم ما تسمى بالمشرفة ، والنظام هو نظام الاشراف · وبذلك تصبح العلاقات بين المشرفة والاطفال بالضرورة جامـدة روتينية حيادية رغم بعض الاستثناءات هنا وهناك ··· مما يجعل الطفل يعيش فـي حرمان مضاعف ·

نظام الاسرة

عندما حددنا اهداف بيت اطفال الصمود ونظامه وبرامجه وتجهيزاته ومواصفـات العاملين فيه ، كان هاجسنا دائما صورة هؤلاء الاطفال ، فنحـن نريدهم اولا ، اطفالا فرحين ، مرتـاحين ، منطلقين ،

يشعرون بأنهم قد عوضوا فقدانهم الكبير ببيت واسرة بديلة ٠

ثانيا ، اطفالا مستقلي الشخصية ، متطورين ، عقليا وجسديا وروحيا ٠

ثالثا ، اطفالا يحترمون النظام ، ويقدرون العمل الجماعي ويعملون من ضمنه ٠

رابعا ، يفهمون قضيتهم التي من أجلها قضى أهلهم ، ويتهيأون لتحمل مسؤولياتهم تجاهها ٠

كان نظام الاسرة بالنسبة لنا هو الضمانة لتحقيق صورة الطفل المرتاح في البند الاول ·· ولتجنيب اطفالنا العذاب الذي يعاني منه اخوة لهم في المؤسسات الاخرى ·· فكان هو النظام الذي اختير لتحديد طبيعة العلاقات في بيت اطفال الصمود ٠ واول المبادىء في هذا الاطار هو مبدأ عدم التفريق بين الاخوة ٠

تواجهنا في هذا النظام ثغرتان اساسيتان تتركز برامج البيت لسدها وهي :

١ ــ تعلق مرضي متبادل بين الام او الخالة والاطفال في عائلتها ·· وخطورة هذا الامر تكمن في انها قد تنسي الاطفال اهلهم الحقيقيين ، وهذا مخالف لاهدافنا ٠ اذ اننا نريد هؤلاء الاطفال ان يتذكروا دائما ان والديهم الحقيقيين قد استشهدوا وان هذا شرف كبير لهم ، وان من واجبهم ان يفهموا القضية التي استشهد أهلهم من أجلها ، وان يعملوا هم من اجلها ٠ بالاضافة الى ذلك قد يؤدي تعلق الاطفال بالام البديلة الى اصابتهم بصدمة عاطفية في حال ترك هذه الام لعملها بسبب من الاسباب لا سيما وان معظم الامهات في البيت حاليا هم فتيات تحت سن الثلاثين ٠

٢ ــ نمو قيم فردية وعلاقات موضوعية ضمن الاسرة الواحدة وبالعلاقة بين الاسر ٠ ولسد هذه الثغرات ، وضعت برامج البيت بشكل يجعل اوقات الاطفال مليئة بالدراسة والنشاطات الثقافية والرياضية والفنية التي تقام بشكل جماعي وبمعزل عن الاسرة ٠ رغم مساعدة الام فيها كما سيمر لاحقا ٠ وبذلك لا يعطى للاطفال المجال لتمضية وقت كثير مع امهم او خالتهم البديلة ، يمكن ان يؤدي الى نشوء علاقات مرضية تسيء الى تبلور شخصيتهم المستقلة ٠

كيف طبق نظام الاسرة

يشكل الاطفال في بيت اطفال الصمود اسرا تضم كل منها سبعة او ثمانية اعضاء من مختلف الاعمار يعيشون مع امهم او خالتهم في غرفتين متلاصقتين ٠ حيث لكل طفل سريره وخزانته ٠ وترعى الام او الخالة الاطفال في عائلتها في كافة امورهم تساعدها في ذلك اكبر الاخوات سنا في الاسرة ٠ ومن اصل ١١ اسرة موجودة في البيت حتى الان ، هناك اربع حالات يشكل الاطفال فيها اسرة حقيقية في الاساس والمساعدة فيها هي الاخت الكبرى في العائلة الحقيقية ٠

وقد وضع نظام البيت والخدمات المقدمة لمساعدة الام في رعاية الاطفال وتخفيف الاعباء عنها من ناحية وترسيخ جماعية العمل من ناحية اخرى ٠ فبينما تهتم الام مباشرة بلباس الاطفال ومأكلهم وصحتهم ، ونظافتهم ومتابعة دروسهم ونظافة اماكن منامتهم تتعاون في ذلك مع الاطفال انفسهم ٠ تؤمن اقسام البيت المختلفة الخدمات الجماعية التالية :

أ ــ التغذية والصحة ٠

ب ــ التعليم ٠

ج ــ النشاطات ٠

د ـ الادارة والتجهيزات / التموين والمشتريات ٠

١ ـ التغذية والصحة

تشرف على قسم التغذية والصحة طبيبة البيت فتهتم بمساعدة المرضة المداومة ، بكافة القضايا الصحية للاطفال والعاملين بالتعاون مع الهلال الاحمر الفلسطيني ٠

فتجري الفحص الطبي الشامل للاطفال عند دخولهم المؤسسة وتعطي العلاج للاطفال المرضى بحيث تتابع معالجتهم المرضة بمعاونة الام ٠

تعاين الاطفال المرضى مرتين كل اسبوع وتصف لهم الدواء على ان تتولى اعطائه لهم المرضة بمساعدة الام ٠

تجري للاطفال التطعيمات اللازمة للامراض المعدية دوريا وقد افترضت عدم اخذهم لاي طعم من قبل ٠

تشرف على البرنامج الغذائي الاسبوعي للاطفال بالتعاون مع المرضة ومسؤول المطبخ ، بحيث يتضمن المواد الغذائية الضرورية للنمو ، آخذين بعين الاعتبار رغبات الاطفال انفسهم ٠ يقدم الطعام للجميع في قاعة الطعام حسب برنامج البيت فتأكل كل اسرة طعامها على مائدة واحدة وحولها بقية الاسر في المؤسسة ٠ أما عملية الطبخ نفسها فيقوم بها متفرغون وتساعد الامهات والاطفال فيها بالتناوب٠

يجري الغسيل والكوي في البيت بشكل جماعي ايضا تتولاه عاملتا تنظيفات وتساعدها في ذلك الامهات والاخوات الكبيرات بالتناوب ٠

ب ـ التربية والتعليم

التربية في المؤسسة هي عملية دائمة ومستمرة وتتم من خلال النشاطات المختلفة وطبيعة العلاقات التي تسود داخل البيت ، والتي تتسم بشكل اساسي بالديمقراطية والحس العالي من المسؤولية والعمل الجماعي ٠

التعليم المدرسي

يتم التعليم المدرسي بالنسبة للاطفال فوق سن ٦ سنوات خارج المؤسسة ، في مدارس وكالة الغوث في المخيمات القريبة (شاتيلا وبرج البراجنة) ٠ والهدف من ذلك **اولا** : المزيد من اشعار الطفل بأنه يعيش مع اسرته وفي بيته ٠٠ فهو كأي طفل عادي يذهب الى المدرسة ليعود عند انتهائها الى بيته حيث امه واخوته الصغار بانتظاره ٠ **وثانيا** لتطوير علاقته مع مجتمعه من حوله وتفاعله مع قضاياه ومشاكله ٠٠ ولتجنب العزلة التي يمكن ان تنشأ بوجود اطفال ضمن مؤسسات ٠٠

وفي البيت تساعد المشرفة التربوية الام في متابعة دروس اطفالها في غرفة المطالعة ٠ كما تضع البرامج التعليمية

لتقوية هؤلاء الاطفال في الدروس التي يحتاجون فيها الى تقوية ٠٠ وتتعاون في ذلك مع معلمي ومدراء ومفتشي مدارس الاطفال انفسهم في الوكالة ٠ ويتم ذلك من خلال زيارات مستمرة تقوم بها المشرفة التربوية للمدارس تتابع فيها كل طفل على حدة وتنقل ذلك الى الام نفسها ٠٠

ويجد العاملون في هذا المجال العمل مضنيا ٠٠ فالمستوى التعليمي للاطفال متدن جدا ٠٠ لان انقطاعهم عن الدراسة مدة سنتين . وهم في هذه السن المبكرة قد هز كل المعلومات والمهارات العلمية التي اكتسبوها قبل ذلك ٠٠ كما ان التجربة القاسية التي مروا بها خلال فترة الحصار والنزوح وفقدانهم اعز الاشخاص لديهم

بالاضافة الى التغيير الجذري في معيشتهم كفيل بمحو هذه المعلومات والمهارات بشكل شبه كلي ·

وقد جرى اهتمام خاص في هذه الناحية طوال فترة الصيف الماضي بحيث اعطيت للاطفال دروس مكثفة في مواد الدراسة الاربع (عربي ، انكليزي ، رياضيات ، وعلوم) · ساهم فيها متطوعون من خارج المؤسسة ·

وكانت نتيجتها تقوية فعلية للاطفال بشكل عام · وترفع اربعة اطفال الى صف أعلى من الصف الذي اعادوه في السنة الماضية · وتستمر برامج التقوية خلال السنة الدراسية الحالية بمساعدة متطوعين ايضا ·

كما يجري حاليا اعداد برنامج لتقوية الامهات انفسهن في المواد الاساسية ليصبحن اقدر على مساعدة اطفالهن في تحضير الدروس باشراف المشرفة التربوية في البيت ·

الروضة والحضانة

ولسني الروضة والحضانة ، اي سن الست سنوات فما دون ، صفوف في المؤسسة نفسها ·· تضم حاليا ٢٤ طفلا وطفلة من أطفال المؤسسة · وتضم مستقبلا اطفالا من التجمعات الفلسطينية المحيطة ، بهدف عدم عزل اطفالنا عن اطفال المجتمع المحيط ، حتى في هذه السن المبكرة ·

برنامج الروضة يعتمد بعض الاسس التربوية المتبعة في رياض الاطفال في المخيمات الفلسطينية التي تخوض تجربة جديدة متقدمة في عالم تربية الاطفال ، وهذه الاسس تتلخص **اولا** الاعتماد على سن الطفل وتنمية مهاراته وقدراته بمضمون جماهيري نضالي ينبع من مشاكل وجود الطفل نفسه ، وتوجهه نحو قيم تخلق منه انسانا صادقا مناضلا متكاملا ، فتدور القصة والاغنية والرقصة واللعبة ، واللوحة حول القيمة المطلوب غرسها في الاطفال · وابرز هذه القيم ـ الصدق ، التعاون والعمل الجماعي ، الوطن ، الاستقلالية ، الجمال ··

ثانيا : الاعتماد على المواد الاولية في البيئة المحيطة لتستخدم في الالعاب التربوية البناءة · **ثالثا** العمل كمجموعات او حلقات في النشاطات المختلفة ·

يقضي الاطفال في الروضة معظم اوقاتهم من الساعة السابعة والنصف صباحا وحتى الرابعة مساء يتخللها ساعة واحدة لوجبة الغداء حيث يلتقي فيها الاطفال مع بقية عائلاتهم في البيت · كما تتناوب الامهات المساعدة في برنامج الروضة ايضا كما في بقية الانشطة في البيت ·

جـ ـ النشاطات :

للنشاطات الفنية والرياضية والثقافية الاهتمام الاكبر في المؤسسة · فهو المجال الذي يمكن من خلاله تحقيق الشمولية في تربية هؤلاء الاطفال ·· واكتشاف وتطوير الكفاءات الخاصة لكل منهم·

وبناء على ذلك تدور الانشطة في محورين · المحور الاول يهدف الى تحقيق التكامل في نمو الطفل الجسدي والعقلي والروحاني ويشمل هذا ، برامج الرياضة اليومية والموسيقى ، لتعليم الاناشيد والاغاني الوطنية والشعبية الذاتية ، والتثقيف الوطني المتضمن الافلام والسلايدات حول فلسطين والقضية ، والخياطة والتطريز للفتيات ، والافلام الفنية للاطفال ·

المحور الاخر هو الانشطة التي تهدف الى تنمية المهارات والقدرات الخاصة

للاطفال ، والتي ربما تبرز من خـــلال البرنامج للمحور الاول · والعمل في هذا المجال لم يصل بعد الى المستوى المطلوب ليشمل جميع رغبات وامكانات الاطفال ، رغم ان هناك بعض الانشطة التي تتـم حاليا بمساعدة بعض المتطوعين مـــن الاخصائيين من خارج المؤسسة · وقـد تشكلت حتى الان بدايات لفرقة الدبكة ، وفرقة رياضية وبدايات لنادي الرســم وفرقة تمثيل ، ولجنة جريدة حائط (التي تعبر بشكل خاص عن انتاج الاطفـــال الادبي) ·

يترافق هنا عاملان ، امكانيات الفـرد واهتمامات واسلـــوب العمل الجماعي · فالطفل يختار نشاطه حسب رغبته ، ويشكل مجموع الاطفال في نشاط معين ناديا او لجنة تختار من بينها رئيسا او نائبا ، وتضع برنامجها معا ، بمساعدة احـــدى الامهات وباشراف مسؤولة الانشطة ·

واستنادا الى احدى القواعد التربويـة الاساسية في البيت ، وهي التعليم والانتاج مترافقان ، يتم جمع افضل انتاج الاطفـال الفني في الخياطة والتطريز والرســـم والنجارة لتحضير معرض دائم يذهب ريعه لتنمية امكانات البيت ·

الكـــادر

كادر المؤسسة هو الاساس والضمانـة والاداة لتحقيق اهداف المؤسسة وبرامجها لخلق جيل واع مناضل متوازن الشخصية لذا فقد اهتمت اللجنة المشرفة على البيت بكيفية اختيار أفراد هذا الكادر وفـــي تدريبهم مهنيا واجتماعيا ، وارساء اسس لطبيعة العلاقات التي تسود فيما بينهم وبين الادارة والاطفال ·

ولاختيار الكادر المؤهل لهـــذا العمل ، وبعد الاطلاع على استمارات طلب العمل من لجنة مكلفة من مجلس الادارة ، تتـم مقابلات مع المتقدمات والمتقدمين للمهنـة ليقبل منهم من تتوفر فيه الشروط التالية :

اولا : وجود الكفاءة المطلوبة للمهمـة وهي محددة للمهمات المختلفة في المؤسسة اما الامهات فالكفاءة المطلوبة منهن بشكل خاص هي حب العمل مع الاطفال ، التوازن النفسي ، ومستوى من التعليم لا يقل عن الشهادة الاعدادية ·

ثانيا : تعطى الاولوية في الاختيار ، في حال تقارب الكفاءات او تماثلها ، لمهجري تل الزعتر الذين عاشوا التجربة نفسها التي مر بها الاطفال هناك ، وذلك كـــي يتمكنوا من استيعاب مشاكل الاطفـــــال النفسية ومساعدتهم على حلها ·

ثالثا : تعطى الاولوية بين المهجريـن للمعيلين منهم ممن فقدت عائلاتهم معيلها واصبحت تعتمد على النساء او الفتيـات كمعيل وحيد ·· لا سيما ان عدد هـــذه العائلات قد اصبح كبيرا جدا ·

تدريب الكادر

كان تدريب الكادر من اولى الخطوات التي بدأ العمل فيها في مجرى التحضيـر والتخطيط للمؤسسة بل قبل تأمين المكان نفسه حيث كان مقر اللجنة التنفيذيـــة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية مقــرا لكوادر مؤسسة تل الزعتر ــ بيت اطفـال الصمود ــ اللواتي شاركن منذ البداية في اجراء الاحصـــاء وملء الاستمارات ، لمعرفة عدد الاطفال الذين فقدوا الابويـن او الام ·· والمساعدة في جلب العروض لتحضير التجهيزات للبيت عند ايجـــاد المكان ، والمداومـــة في المركز الجديـــد ومتابعة العمل في التصليحات ، فكانت

الدورة التدريبية الاولى للامهات في كانون الاول ١٩٧٦ ٠٠ وتضمنت حلقات في (علم نفس النمو) ومشاكل الاطفال الايتام . الرعاية الاجتماعية . الاطفال . الاسرة ، التغذية ، والامراض ، ومراحل النمو الجسدي ٠٠ العمل الجماعي والتربية الفلسطينية واهدافها ٠

كما اجريت دورتان قصيرتان ٠ فيما بعد في التغذية والامراض والرعاية الاجتماعية ٠

وتضمنت هذه الدورات مشاهدات حية من مؤسسات الرعاية الاجتماعية ٠٠ كانت ابرزها دار الايتام الاسلامية ٠

ولمتابعة هذا التدريب وضع مجلس ادارة المؤسسة برنامجا لتدريب الكادر اثناء الخدمة للسنة المقبلة قسم الى أربعة اقسام حسب حاجة الامهات بعد التجربة ٠ هي كالتالي (١) علم النفس وتتضمن علم نفس النمو ، صحة نفسية او مشاكل السلوك ، علم نفس تربوي ٠ (٢) تربية وتعليم وتتضمن اهداف التربية الفلسطينية مشاكل تطبيقها في الوكالة وكيفية معالجتها ثم التربية من خلال الانشطة والعمل مع الجماعة وكيفية اعداد برامج للانشطة ٠

(٣) الرعاية الاجتماعية وتتضمن ، اساليب الرعاية الاجتماعية ، وتطورها ، الاسرة الفلسطينية اسلوب العائلة في الرعاية الاجتماعية ٠ واسس العمل مع الجماعة وتطبيقه في المؤسسة ٠ (٤) صحة وتغذية ، النمو الجسدي للطفل ، تغذية الطفل ، الامراض العادية للاطفال ، الامراض السارية والمعدية والنظافة ٠

اما اسلوب التطبيق فيعتمد الحوار والنقاش الجماعي ومشاغل العمل والنشاطات العملية ويعتمد بالدرجة الاولى على تجربة العاملين في المؤسسة نفسها ٠

صعوبات امام المشروع

ان اي مشروع يساهم في التصدي لمشاكل شعبنا الاجتماعية المتزايدة مع تواصل حرب الشعب الطويلة ، لا بد وان يواجه مشكلة اساسية وهي انه . رغم حجمه وطموحه ، يبقى عاجزا عن استيعاب الحالة الاجتماعية المحددة التي يطمح اليها ٠

ورغم الدعم الكبير الذي قدمته قيادة الثورة وبعض المنظمات لهذا المشروع ، فان بيت اطفال الصمود ما زال يعاني من صعوبات مالية تقف في وجه استمراريته واستكمال تجهيزاته . كما انه بسبب عدم توفر الكادر المطلوب والمهيأ للعمل فيه لم يستطع المشروع ان يستوعب حتى الان اكثر من ربع الاطفال ممن فقدوا الاب والام في تل الزعتر ٠٠ هذا مع العلم انه حتى لو تم تجهيز المبنى الحالي لبيت اطفال الصمود تجهيزا كاملا فانه غير قادر ان يستوعب اكثر من ١٥٠ طفلا كحد اعلى ٠

وعندما يحدد المشروع اهدافه في رعاية او تبني الاطفال الذين فقدوا والديهم في تل الزعتر فانه لا يستطيع ان يغلق الباب امام الاطفال الذين لا يحصي عددهم من ابناء شعبنا ممن فقدوا احد الوالدين خلال معارك نضالنا المستمرة . لاسيما وانهم في حالة سيئة فعلا وتحتاج الى عناية ورعاية بشكل ملح وسريع ٠

ومن هنا ، ومنذ افتتاح بيت اطفال الصمود ، وبابه يطرق كل يوم من أجل اطفال تشابه حالاتهم حالات اطفال البيت وتحتاج الى رعاية اسرة البيت ، لاسيما ان اطفالنا جميعا ، وهم ثوار المستقبل وبناته ، مسؤولية علينا ٠٠

ونسعى الان لتوفير الموارد الماليــة الضرورية وهي تتجاوز طاقة الثورة المالية من كل المصادر ذات العلاقة بنضال شعبنا واطفال العالم ، كما نعمل على توفيــر الكادر البشري لتحقيق طموحنا وتبني من لا يجد من يرعاه من أطفالنا ..

وتبقى الاولوية حاليا لمن انشأ المشروع من أجلهم في الاساس .. حتى يكتمل .

نجلاء نصير بشور

مراجعات

صبري جريس ، **تاريخ الصهيونية** ، **الجزء الاول : ١٨٦٢ ــ ١٩١٧** ، (مركز الابحاث/منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : ١٩٧٧) ٠

١

الكتاب الثاني الذي اصدره الباحث الفلسطيني صبري جريس بعد خروجه من الارض المحتلة ، وجد طريقه الى ايدي القراء اواخر العام المنصرم بعنوان « تاريخ الصهيونية » ٠ وبذلك ، استمد الكتاب اهمية استثنائية فور صدوره ، ليس باعتبار صاحبه من الباحثين الواسعي الاطلاع على تاريخ الصهيونية فحسب ، بل باعتبار صاحبه من الذين عاشوا مرحلة تحقق الصهيونية في فلسطين ، ونجاحها في تجسيد مشروعها الخاص المسمى اليوم « باسرائيل » ٠

وهذا الكتاب الذي يقع في ٣٦٨ صفحة من القطع الكبير (منها ٧٠ صفحة للفهارس والمراجع) والذي اصدره مركز الابحاث الفلسطيني هو الجزء الاول من ثلاثة اجزاء تؤرخ قصة تلك الحركة السياسية التي نشأت في اوروبا في اواسط القرن الماضي ، وحتى اعلان قيام الدولة الصهيونية ليلة ١٤ ــ ١٥ ايار ١٩٤٨ ٠ وقد غطى الجزء الاول تلك الحقبة الممتدة من سنة ١٨٦٢ وحتى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، بينما سيغطي الجزء الثاني المرحلة التالية من تاريخ الصهيونية بين عامي ١٩١٨ و ١٩٣٩ غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية ٠ اما الجزء الثالث والاخير فسيؤرخ للفترة التي سبقت قيام الدولة بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٨ وذلك كما جاء في تقديم جريس لكتابه هذا ٠

وعليه ، وكما يتضح من اسم هذا العمل ــ تاريخ الصهيونية ــ فان الكاتب قد تصدى لمعالجة هذا الموضوع بشمولية تعدت نطاق حقبة معينة من تاريخ الصهيونية ، او نشاط الصهيونيين في بلد معين ، او تاريخ منظمة او حزب او مؤسسة صهيونية في هذا البلد او ذاك، الا ان عملا كهذا يحتاج بالطبع الى جهود عديدة تغطي الاف الصفحات ٠ ولذلك فقد اختار الكاتب ان يسقط الكثير من الوقائع « المتعلقة بنشاط التنظيمات او الاشخاص او بالاحداث التي كانت كبيرة او مهمة في حينه ولكن يظهر اليوم انها كانت ، على المدى الطويل ، عديمة التأثير » (ص ١٠) ٠

والتقييد المتسرع الوحيد الذي وضعه الكاتب على نفسه لدى مباشرته لهذا العمل القيم ، هو ما جاء في التعريف بهذا الكتاب الذي هو « اساسا ، قصة الصهيونية داخليا » ٠ غير انه لدى تتبعه لنشأة الصهيونية وأسباب نشوئهاومراحل انتشارها وجد نفسه **مضطرا** للخروج عن

اطار السياق الداخلي لقصة الصهيونية، لمتابعة الظروف الدولية والعربية التي عاصرت مراحل البناء الصهيوني • ولذلك فانه عندما لم يجد بدا من كسر ذلك القيد المتعسف احيانا ، كانت متابعته للاوضاع التاريخية المحيطةبنشأة وتطور الصهيونية ، متابعة مجتزأة وغير وافية ، بالرغم من ان تلك الاوضاع هي في المحصلة النهائية جزء لا يتجزأ من عوامل نشأة وتطور ونجاح المشروع الصهيوني •

ومع ذلك فان كتاب « **قصة الصهيونية داخليا**» يقدم تلك الحركة تقديما تاريخيا موثقا يفي بالهدف الذي وضعه الكاتب نصب عينيه • فهو الى جانب المقدمة ، نظم الجزء الاول من مؤلفه في خمسة فصول هي : طلائع الصهيونية ، اي المفكرون الاوائل (١٨٦٢ ـ ١٨٨٤) ، هواة صهيون ، اي المنفذون الاوائل (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ، هرتسل والمنظمة الصهيونية العالمية ، اي مشروع الدولة اليهودية واجهزتها (١٨٩٧ ـ ١٩٠٤) ، الهجرة الثانية ، اي اسس النظام الصهيوني (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) ، الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور ، اي تحالف الاستعمار والصهيونية (١٩١٥ ـ١٩١٧)•

وهو في ذلك كله يتجنب سياسة لوي عنق الحقائق بهدف توظيفها لوجهة نظر خاصة او احكام قبلية متحيزة ، ويتمسك الى ابعد الحدود بمنهجية البحث العلمي، بدون اكاديمية ضيقة الغاية والقصد ، وبغير « مدرسية » تسطح المعرفة والمفاهيم فحينما يتتبع المسألة اليهودية منذ طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ ، يلتقط بعناية المفاصل الاساسية لقصة العذاب اليهودي في اوروبا والذي ادى ، الى جانب جملة من العوامل الاخرى ، الى نشأة الصهيونية في اواسط القرن الماضي خاصة بعد المذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا القيصرية عام ١٨٨١، ويقرر بشجاعة ، في ختام استعراضه لعوامل نشأة الصهيونية ، ان الدين اليهودي هو احد العناصر المكونة للمفهوم الصهيوني بتعريفاته السياسية الحديثة • ويضيف بدون مجازفة علمية ان المعتقدات التوراتية وما تبعها من اجتهادات وتفسيرات « هي التي تقف وراء العديد من اسس الصهيونية ونظرياتها ، اذا قيست بالاثر الذي تركته على تفكير اباء الصهيونية وزعمائها ، كما يتضح من كتاباتهم واعمالهم • وتقف هذه المعتقدات ايضا وراء العديد من الحقوق والمتطلبات الاستثنائية ، التي تدعيها الصهيونية ، في مواقفها من باقي الشعوب والدول » • ويخلص الى ان القيمة التاريخية لتلك الثيولوجيا هي في كونها « عنصرا من عناصر الوعي الاجتماعي واحيانا القومي ، لدى اليهود » (ص٥٨)•

وبهذا يكون جريس قد ميز نفسه بوضوح عن اولئك الذين يدعون بان الصهيونية نشأت مع الديانة اليهودية،وان الاخيرة لعبت في كل العصور دور الحاضنة الفكرية لبذور تلك الحركة السياسية المعاصرة • وفي الوقت نفسه ، ميز جريس نفسه ايضا عن اولئك الذين يزعمون بان الصهيونية كانت وليدة فكر وتخطيط رجال الاستخبارات البريطانية، اي انها نشأت وتطورت بقرار من حكومة بريطانيا بمعزل عن التطورات الفكرية الذاتية التي شهدتها التجمعات اليهودية الاوروبية •ومع انه يعود لاحقا الى التأكيد على تلك العلاقة ، الا انه قد استخلص مبكرا ان اليهودية هي فقط احدى مركبات الصهيونية وان الاخيرةهي حركة سياسية وليدة الظروف الاوروبية

التي عاشها اليهود في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ·

وبعد مقدمته المطولة (٧٠ صفحة) التي هي احد الاجزاء الحيوية من كتابه، يعرض صبري جريس في الفصل الاول لنشأة ألفكرة ومن ثم الحركة السياسية الصهيونية على يد مفكريها الاوائل (طلائع الصهيونية) من امثال الحاخام يهودا الكلعي الذي عاش في يوغسلافيا (١٧٩٨ ــ ١٨٧٨) والحاخام تسفي هيرش كاليشر الذي عاش في تورين في المانيا (١٧٩٥ ــ ١٨٧٤) صاحب كتاب « البحث عن صهيون » ، وموشيه هش الذي عاش في المانيا ايضا (١٨١٢ ــ ١٨٧٥) واصدر تحت تأثير انتصار الحركة القومية الايطالية كتابا بعنوان « روما والقدس » والذي دعا فيه بوضوح الى قيام دولة يهودية ، ثم يعرض بعد ذلك لسلسلة المذابح والاعتداءات التي تعرض لها اليهود في روسيا ابتداء من عام ١٨٨١ وكيف كان لها الاثر الحاسم في بروز وتبلور الصهيونية ، حيث نشأت في ظل هذه المذابح حركة هواة صهيون التي عملت على تشجيع الهجرة من روسيا الى فلسطين وانشأت فيها اولى المستوطنات اليهودية بين عامي ١٨٨١ وحتى عام ١٩٠٤ · وكيف بدأت على اثر تلك المذابح هجرة يهودية واسعة توجه غالبية اصحابها الى اميركا · وكيف ان قسما من هؤلاء ــ وهم الذين يعرفون باسم الهجرة الاولى ــ توجه الى فلسطين ووضع الاسس الاولى للنشاط الاستيطاني فيها ، حيث اقيمت اول مستوطنة جنوبي يافا واطلق عليها اسم ريشون لتسيون او « الاولى لصهيون » ·

بعد ذلك ، يعرض الكاتب لبعض التفاصيل الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في فلسطين في ذلك الوقت ــ العهد العثماني ــ ، ولكثير من التفاصيل الاخرى حول النشاط الاستيطاني الصهيوني وأوضاعه الداخلية وعلاقة البارون روتشيلد بالمستوطنات الاولى التي اقيمت في فلسطين · الا ان الذي يثير الاهتمام في ذلك العرض كله هو ما اورده جريس من حقائق عن المقاومة العربية المبكرة لمشروع الاستيطان الصهيوني هذا · فقد ذكر أن من ابرز تلك الحقائق كان الهجوم الذي شنه العرب الفلسطينيون ضد مستوطنة روش بينا سنة ١٨٨٣ ، والهجمات الاخرى التي تلته ضد مستوطنة بيتح تكفا في اواخر اذار سنة ١٨٨٦ ، وضد مستوطنة غديرة في تشرين الاول ١٨٨٨ ، وضد رحوفوت في اذار سنة ١٨٩٣ ، وضد بئير طوفيا في كانون الاول ١٨٩٦ ، وضد الخضيرة في ايلول ١٩٠١ ، وغيرها من المناوشات بين المستوطنين والعرب كما كان يحدث في مستوطنة المطلة وغيرها ·

والذي يهم الكثيرين من المتتبعين والدارسين لمجرى الكفاح الشعبي الفلسطيني في مختلف مراحله ضد المشروع الصهيوني ، لم يهتم به جريس في هذا المقام · ولا نجد له عذرا في ذلك الا اذا كانت المراجع الصهيونية التي اعتمدها حول اشكال المقاومة المبكرة للاستيطان جاءت مبتسرة ومجزوءة وناقصة ، كما وردت في كتابه ·

وفي الفصل الثالث من كتابه يعرض جريس بشيء من التفصيل لمرحلة تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية على يد احد ابرز زعمائها تيودور هرتسل (١٨٦٠ ــ ١٩٠٤) ، ولكتابه « دولة اليهود » ولمساعيه لدى ملوك وامراء تلك الحقبة · ثم يتناول عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بازل في سويسرا (١٨٩٧) · ومساعي هرتسل واتصالاته الدولية بعد

ان اصبح رئيس المنظمة الصهيونية . ويتوقف جريس في هذا المجال عند مساعي رائد الصهيونية **لاقامة دولة يهودية في اي مكان يمكن ان تتم فيه** . وابرز مساعيه لدى الحكومة البريطانية لحملها على منح منظمته امتيازا لتوطين اليهود في العريش وشبه جزيرة سيناء وفي قبرص ايضا ، ثم في أوغندا بعد ذلك حيث قدم بنفسه عرض الحكومة البريطانية لاقامة استيطان يهودي يتمتع بحكم محلي في افريقيا امام المؤتمر الصهيوني السادس عام ١٩٠٣ .

وفي الفصل الرابع يتحدث الكاتب بتفصيل شديد عن الهجرة الثانية (١٩٠٤ـ ١٩١٤) التي ارست عمليا اسس ، النظام الصهيوني في فلسطين . الا ان ما يستوقف القارىء في معرض تحليل الكاتب للخلفيات الفكرية لاصحاب تلك الهجرة وتنظيماتها الحزبية التي وفدت اساسا من روسيا القيصرية ، ما ذكره حول أسباب نشوء التنظيمات اليهودية الاشتراكية في روسيا وغيرها . فقد قال

جريس ان احد عوامل نشوء تلك التنظيمات « اتخاذ اكثر من فئة اشتراكية موقفا سلبيا في حينه من اليهودية واليهود » . وابرز في هذا الخصوص اراء كارل ماركس التي وردت في مقالته « حول المسألة اليهودية » عام ١٨٤٣ . وأضاف قائلا ان تلك المواقف والاراء ادت في نهاية الامر الى « تقوية الصهيونية وصقلها » .

وبالرغم مما في هذا الاستخلاص من غرابة ــ كما يعترف الكاتب نفسه ــ فهو حري بالمناقشة الجدية ، باعتبار انالنفس الذي ورد في سياق هذا الاستخلاص غير معاد للشيوعية وليس موظفا في خدمة التنظيرات الرجعية السائدة على هذا الصعيد .

كما يرد مرة اخرى ، استخلاص اخر في هذا المجال ، عند عرض الكاتب لنشأة تنظيم « الاتحاد العام للعمال اليهود في روسيا وبولونيا » المعروف باسم البوند وعلاقاته بالحزب الاشتراكي الديمقراطي (البلاشفة) . اذ يعتقد جريس ان البوند كان منظمة يهودية معادية للصهيونية وان افكاره وحلوله المقترحة لحل المسألة اليهودية في روسيا كانت ستقوض الحركة الصهيونية فيما لو لم يتعرض البوند الى التصفية النهائية على يد لينين بعد نجاح ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ . ويكر جريس في هذا المجال ان الاتحاد السوفياتي عاد واعترف في عهد ستالين باليهود القاطنين فيه كاحدى القوميات المستقلة المتساوية في الحقوق والواجبات مع القوميات الاخرى . اي كما كان ينادي به البوند سابقا .

ومن الواضح ان هذا التذكير لم يسعف استخلاصات جريس الاخيرة هذه . اذ نرى ان الحقوق التي منحها الاتحاد السوفياتي لليهود واعترافه بهم كقومية لم يحل المشكلة ولم يحد من نشاط وتصاعد الحركة الصهيونية التي عادت بعد سنوات طويلة تطل برأسها ، حتى داخل الاتحاد السوفياتي . وان كنا نعترف بان ذلك كله يتم حاليا بتأثير الدعاية الغربية المعادية للاتحاد السوفياتي وليس بفعل اضطهاد او تمييز في المعاملة والحقوق بين المواطنين السوفيات .

بعد ذلك كله ، يعرض الكاتب لتأثيرات تلك الافكار والتجارب « الثورية » التي خاضها المهاجرون اليهود في روسيا على احزابهم وتنظيماتهم وتجاربهم السياسية في فلسطين . ويؤكد في هذا الخصوص ان حزب « بوعالي تسيون » او « عمال

صهيون » الذي نشأ في روسيا وجاءت من بين صفوفه طلائع ورواد الهجرة الثانية ، نشأ بسبب القرار المعادي للصهيونية الذي اتخذه البوند في مؤتمره الرابع عام ١٩٠١ واسفر عن طرد عدد من العمال الصهيونيين من بين صفوفه وللتدليل على الافكار الاشتراكية التي حملها المهاجرون الروس الى فلسطين يورد الكاتب مقتطفات عديدة من برنامج حزب « عمال صهيون » ٠ ومن هذه المقتطفات ما جاء في الشطر العملي من برنامج الحزب في فلسطين حيث يقول انه « يسعى الى تجميع وسائل الانتاج وبناء مجتمع على اسس اشتراكية ٠ ويرى ان الوسيلة الوحيدة لذلك هي صراع الطبقات الذي تختلف اشكاله بحسب الزمان والمكان » ٠ غير ان هذا الحزب غير من اسسه النظرية بمرور الزمن وانتقل في افكاره من نظرية صراع الطبقات الى الصراع من اجل « العمل العبري » ٠ ويذكر انه من رحم هذا الحزب ولد فيما بعد حزب الماباي – الذي افرز فيما بعد حزب العمل الاسرائيلي – على يد دافيد بن غوريون اول رئيس حكومة في اسرائيل ٠

وقبل أن يصل صبري جريس الى الفصل الاخير من كتابه تاريخ الصهيونية – أورد واقعة على درجة من الاهمية تتصل بالعلاقات الصهيونية – العربية في ذلك الوقت ٠ فقد ذكر ان سوكولوف مدير الدائرة السياسية في المنظمة الصهيونية العالمية اجرى اتصالات خاصة مع عدد من الزعماء العرب في مطلع العام ١٩١٤ « للبحث في امكانية ايجاد سبل للتفاهم بينهم [العرب] وبين الصهيونيين وتوحيد جهود الطرفين » ضد الحكم التركي ٠ واضاف انه في اطار ذلك تم الاتفاق على عقد اجتماع عربي – صهيوني في برمانا شرقي بيروت في صيف سنة ١٩١٤ ٠ وقال : « كان بعض الزعماء العرب وخاصة رجال حزب اللامركزية وبعض المثقفين في بيروت قد حاولوا كسب ود الصهيونيين واستمالتهم لحملهم على الوقوف الى جانبهم ضد الاتراك » (ص ٢٦٥) ٠ وبالرغم من ان ذلك اللقاء كان الاول من نوعه ولم يسفر عن اية نتائج ملموسة لاي من الطرفين ، فقد كان مؤشرا على بدايه اهتمام الصهيونية بالمحيط العربي الذي تنوي اقامة مشروعها بين ظهرانيه ، بعد سنوات طويلة من تجاهل مفكريها ونشطائها في فلسطين لسكان البلد الاصليين وجيرانهم العرب ٠

وفي الفصل الاخير من كتابه يتحدث الكاتب عن وعد بلفور باعتباره نتاج التحالف الفعلي بين الاستعمار والصهيونية ٠ وابرز بشكل واضح الدور الذي لعبه حاييم وايزمن في صنع وعد بلفور دون غيره من زعماء الصهيونية من امثال اللورد روتشيلد الذي تقدم بطلب صدور التصريح والذي تسلم التصريح رسميا بعد صدوره ٠ ثم يختم جريس كتابه هذا بنبذة عن مساعي الصهيونية لاقامة قوات عسكرية لها خلال الحرب العالمية الاولى ، وكيف فشلت في فلسطين ونجحت في مصر بانشائها كتيبة سائقي البغال الصهيونية » من نحو ٦٥٠ متطوعا يهوديا ، ثم تشكيل « الفيلق اليهودي » من عدد من المتطوعين الذي كانوا في صفوف الجيش البريطاني،وذلك سنة ١٩١٧ ٠

وبعد ، فان الجزء الاول من « تاريخ الصهيونية » كتاب يحفل بالكثير من الوقائع التاريخية التي كان لها ابرز

الاثار واخطرها على مسار الحركة الصهيونية خارج فلسطين ومن ثم على ارضها فيما بعد · ولقد نجح صبري جريس عبر تلك التفاصيل العديدة في ان يظل ممسكا بناصية الموقف ، برغم النقلات الواسعة بين تلك الاحداث والافكار المتباعدة التي وقعت فيها ·وهو في ذلك كله لم يلو عنق أي من الحقائق، واحيانا كثيرة تركها تتسلسل بدون تدخل منه ، الا فيما يخدم منهج البحث ويفي من الكتب المترجمة والكتيبات التعرفية كغيره من الدارسين لتاريخ الصهيونية واسرائيل ، ان يلغي عقل قرائه او يستخف بقدراتهم على استخلاص العبر والدروس المستفادة ·

واخيرا فان صبري جريس بعمله القيم هذا قدم الى المكتبة الفلسطينية ، اضافة جديدة ، تختلف عن كل ما شاكلها من الكتب المترجمة والكتيبات التعريفية المختصرة ، وذلك في اطار من الرصانة والجدية اللتان تتطلبان جهدا مضنيا وعملا دؤوبا لا يكل ·

عيسى الشعيبي

٢

كتابة التاريخ ـ تنقيبا ، رصدا ، وصفا ، تحليلا ، وصولا الى مؤشرات تعميمية ـ من أشق الكتابات عادة ·

هذه الصعوبة ليست وقفا على كتابة تاريخ معين بذاته ، وان كان لتاريخ الصهيونية فكرا وحركة ودولة حصة كبرى من هذه الصعوبة · نظرا لكثرة التشيع وحدة الانبهار السياسي لدى البعض ، ولتفشي داء الاستهانة عند البعض الاخر المأخوذ باسلوب التحقير والتصغير للظاهرة الصهيونية · والامثلة كثيرة على هذين التيارين ، المتخلف والزائف ، اللذين يلهثان يوميا وباصرار عجيب لتدمير فهمنا الموضوعي للبناء المنطقي المتماسك للصهيونية وخلفياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كجزء من ظاهرات اجتماعية كلية تخضع في اتجاه ومضمون تطور بنياتها وعملياتها التاريخية وديناميتها لقانون موضوعي طبيعي يمكننا من فهم وادراك العملية او الظاهرة بكل تعقيدها الداخلي ووسائطها الخارجية ·

وكأي بحث علمي تبقى النظرية بمبادئها وقضاياها المنهجية هي التي تحدد اهداف وطرق واساليب البحث التاريخي ، وعلى اساسها تتم معالجة البيانات الاجمالية والاولية من حيث حجمها ، دقتها ، اصالتها ثبات تسلسلها وتبعيتها المتبادلة · والنظرية لا احتشاد الوقائع وحدها تقدم امكانات حقيقية لمعالجة التطور التاريخي اتجاها ومضمونا بوضوح اكثر على الرغم من الصعوبات التي تواجه الباحثين في هذا المجال ·

وفي المكتبة الفلسطينية كتاب جديد

عن الحركة الصهيونية لم يلفت له الانظار كثيرا حتى الان · والصهيونية كما بات معروفا غابة طالما صالت واعتركت فيها الاقلام ولا تزال ، ولكنها في كل ذلك ، ظلت دون الحقيقة التي تشبع طموحات قطاعات واسعة من المثقفين العرب · وظلت الصهيونية ابوابا مفتوحة على كل الاتجاهات لكل من يحاول عبورها واكتشاف اعماقها ·

وها هو صبري جريس احد انشط الباحثين في الميدان الصهيوني ، والذي ارتبط اسمه بدراستها منذ زمن ليس بالقريب ، يخوض غمار التجربة التي قيمتها ليس في عطائها ، وانما في جرأتها ومخاطرتها في شق بطن التاريخ والبحث فيه دون التكيف مع الواقع المنظور لمناهج البحث العلمي في التاريخ · والذي يجعله قادرا على الغوص واستنباط الحقائق وسد ثغرة في الفهم العربي لهذه الظاهرة الجديرة باعادة تفكيك عواملها المكونة لها ومن ثم اعادة تركيبها من جديد ، كيلا تبقى مجرد احداث وروايات متناثرة تشوبها روح المغامرة الفردية والوهمية والمنقولة من فلان الى فلان بلا منطق يحكمها ·

ولكن كيف يحدد صبري جريس جديده في هذا الكتاب ؟ يقول الاستاذ جريس : انه يحاول ان يكتب قصة الصهيونية داخليا منذ نشوئها وحتى الاعلان عن اقامة اسرائيل ، ليتمكن القارىء في النهاية من تقييم المعطيات التي مكنت هذه الصهيونية من اقامة اسرائيل · كل ذلك من خلال تناوله للموضوع بواسطة منظار اليوم ، على حد قوله ، ومن خلال حرصه على متابعة اي فئة او شخص بدا له انهما اثرا في تاريخ الصهيونية وان كانا من المغمورين في حينه · ومن خلال تغاضيه عن اولئك الذين ظهر له ان اراءهم كانت في نهاية الامر ذات قيمة اكاديمية فقط ·

فهل وصل الكاتب الى مبتغاه الذي حدده لنفسه ؟ وهل صار بامكان القارىء ان يجد الجواب على باقة من الاسئلة الحائرة في ذهنه عن الصهيونية ، فكرة ، حركة ، ودولة ؟·

سنترك ذلك الى نهاية العرض كي لا نسمح لانفسنا بالاستنتاج الا حيث يفرض الاستنتاج نفسه ·

يتكون الكتاب الذي نحن بصدد عرضه ونقده من توطئة وخمسة فصول وثبت بالمراجع وفهرس · في المقدمة حدد الاستاذ جريس غرضه ومنهجه اللذين اشرنا اليهما قبل قليل ·

اما في التوطئة التي ارادها الكاتب مدخلا لفهم الصهيونية ، فقد تناول الصهيونية من حيث اسباب وتاريخ ظهورها ومكوناتها واسسها على اعتبار انها احدى مشتقات المسألة اليهودية التي خلقها حكام وشعوب اوروبا الشرقية كما يقول · مع انه يؤكد بأن المرحلة الاولى من المسألة اليهودية تبدأ بمفهومها الذي شكل مقدمة نشوء الصهيونية مع طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ لاسباب دينية اساسا ·

لقد كشف الكاتب في هذه التوطئة ، ببراعة عن اختلاط مفاهيمه المستخدمة في هذه الدراسة وعدم وضوحها في ذهنه · ففي حديثه عن الصهيونية يستخدم مفهومات مثل ، اسس ، مكونات ، وسائل ، ادوات واسباب كانها مفهومات مترادفة · وشتان ما بين دلالة مفهوم واخر من هذه المفهومات · فالاسس بالتأكيد هي شيء اخر يختلف عن الاسباب وعن الوسائل · وقد انعكس هذا الخلط الواضح في المفهومات عند الكاتب على مقاومة القارىء للملل المتسرب اليه عبر تفاصيل التفاصيل التي لا ضرورة لها · ومع ذلك بالامكان القول ، بأن الكاتب يعتبر بأن الظروف الموضوعية والاوضاع الذاتية لليهود خلال

القرن التاسع عشر هي احد العناصر التي تكونت منها الصهيونية . الى جانب عوامل اخرى لا تقل اهمية عنها ، من ابرزها ، تبلور الفكرة القومية واقامة العديد من الدول القومية ، ثم اتساع نفوذ الاستعمار الاوروبي وظهور اللاسامية ونشاطها . الى جانب العنصر الديني الذي لم يكن بوسعها الاستغناء عنه في محاولاتها الهادفة الى تسخير الديانة اليهودية لخدمة اغراضها .

اما الفصل الاول الذي يحمل عنوان (طلائع الصهيونية) او المفكرون الاوائل فيعرض الى ظهور دعاة الصهيونية الاوائل العلمانيين منهم والمتدينين . الذين نشطوا في مجال الدعوة الى هجرة اليهود من روسيا الى فلسطين وتوطينهم هناك . خاصة بعد الاعتداءات التي نظمت ضد اليهود على اختلاف طبقاتهم في روسيا على حد زعم الكاتب . على الرغم من انه يشير في مطلع هذا الفصل ، بان الفكرة الصهيونية بمفهومها السياسي الداعي الى اقامة دولة لليهود في فلسطين كانت وليدة القرن السابع عشر تقريبا ، حين ظهر اشخاص عديدون دعوا الى تحقيقها من خلال دوافع متباينة وفشلوا لعدم توفر الظروف الموضوعية يهوديا وعالميا لذلك .
والفصل الثاني فقد كرسه المؤلف للحديث عن هواة صهيون او المنفذين الاوائل للفكرة الصهيونية . الذين ابتدأ بهم التسلل الاستيطاني الى فلسطين سنة ١٨٨١ . حيث

كانت الظروف الموضوعية التي كانت قائمة في دول اوروبا الشرقية خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر هي التي شجعت على هجرة اليهود من تلك البلدان . الى جانب الظروف الموضوعية (نظام الحماية) والاوضاع الادارية التي كانت سائدة في فلسطين ، والتي كانت خير معين لهم على التسلل ثم التغلغل لشراء الاراضي واقامة المستوطنات والمؤسسات عليها في فلسطين . ويقول المؤلف ان سنوات ١٨٨٢ - ١٨٨٤ كانت فاتحة نشاط هواة صهيون الاستيطاني في فلسطين ونهاية نشاطهم المستقل في الوقت نفسه . وذلك لاسباب اقتصادية جابهها المستوطنون الاوائل الذين كانوا من ابناء الطبقة المتوسطة . فاضطروا على اثرها الى طلب المعونة من جهات في اوروبا الغربية . فكان روتشيلد ابرز هؤلاء الذين مدوا يد العون . وبذلك يكون روتشيلد قد افتتح حقبة جديدة من تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين استمرت حتى سنة ١٩٠٠ لعب فيها دور البطل الرئيسي الذي اشرف على معظم عمليات الاستيطان التي نفذت خلالها . ويستطرد المؤلف ليقول ، بان تجربة الاستيطان الصهيوني الاولى في فلسطين التي بدأها هواة صهيون واكملها روتشيلد ثم لم تحظ بنجاح باهر . اذ برزت مشاكل متعددة امام المستوطنين اليهود غير نظام الوصاية الذي اتبعه روتشيلد في ادارة المستوطنات اهمها مشكلة التكيف مع البيئة الجديدة التي انتقلوا للعيش فيها ، وايجاد نمط من العلاقات مع سكان فلسطين من العرب الذين اتخذوا موقفا عدائيا منهم .

اما هرتسل والمنظمة الصهيونية فقد كان عنوان الفصل الثالث الذي كرسه المؤلف للحديث عن مشروع الدولة اليهودية واجهزتها .

وهرتسل كما يقول الاستاذ جريس كان يرى في بدء تصهينه ان حل المسالة اليهودية في اوروبا هو في شراء منطقة ما في العالم واقامة دولة لليهود فيها ،

ولاقامة هذه الدولة دعى الى انشاء مؤسستين لكل منها مهامها الخاصة بها ، الاولى هي « جمعية اليهود » والثانية « الشركة اليهودية » .

وشرع هرتسل في مساع لمقابلة ملوك وزعماء عصره لحملها على تأييد فكرته

واقامة الدولة اليهودية · وعندما احس بأنه لا يستطيع حل المسألة لوحده قرر عقد مؤتمر صهيوني عام للبحث في اوضاع الحركة الصهيونية واقامة «جمعية اليهود» · وفي مدينة بال بسويسرا عقد المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ الذي انتخب في ختام جلساته هرتسل رئيسا للجنة التنفيذية ورئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية ·

وقد عقدت خلال عهد هرتسل خمس مؤتمرات صهيونية تركزت خلالها خلافات كانت قد نشبت بين هرتسل ومؤيديه من جهة وبين معارضيه من جهة اخرى حول اسلوب العمل الصهيوني وحول اهدافه · ومع ذلك فقد عمل هرتسل على تأسيس مؤسسات ادارية وحربية متخصصة تابعة للمنظمة · وبالرغم من وجود تلك المؤسسات بصيغها المختلفة فلم تحرز الصهيونية خلال عهده اي انجاز سياسي عملي ·

وكرد فعل على ظاهرة هرتسل وطريقته السياسية في العمل الصهيوني واسلوبه الفردي في ادارة سياسة المنظمة ، تبلورت نظريات وسياسات صهيونية اخرى سرعان ما افرزت تنظيمات ــ احزابا مستقلة داخل المنظمة الصهيونية مناوئة لهرتسل كالكتلة الديمقراطية والمزراحي والصهيونيين الاشتراكيين ·

وقد خصص المؤلف الفصل الرابع وهو اطول فصول الكتاب للحديث عن « الهجرة الثانية » القادمة من روسيا التي ارست اسس النظام الصهيوني خلال الفترة ١٩٠٤ ــ ١٩١٤ ، فاكثرية صهيونيي روسيا كانوا من اتباع الاستيطان في فلسطين دون غيرها · فعملوا تحت تأثير اراء احد ابرز زعمائهم مناحم اوسيشكين على استغلال الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في روسيا خلال هذه الفترة لدفع المزيد من المهاجرين اليهود الروس الى فلسطين ·

ويتحدث المؤلف في هذا الفصل باسهاب عن صراعات وانقسامات الصهاينة العلمانيين السياسيين منهم والعمليين · وعن الانقسامات التي نشبت في صفوف الصهاينة المتدينيين ايضا والنتائج التي ترتبت عليها ·

وكان للتنظيمات العمالية اليهودية التي ظهرت في روسيا نصيب في رصد المؤلف لهذه الفترة · فيؤكد بأن الارضية والظروف الموضوعية والذاتية ليهود روسيا ساعدت على قيام احزاب وتجمعات وفئات عمالية متعددة على اسس قومية ، او اشتراكية او مختلطة ·

غير ان الاهم في هذه الاحزاب من حيث التأثير على الصهيونية كان حزب « عمال صهيون » الذين كانوا يؤمنون بالمبادىء الصهيونية وبالاشتراكية معا ولكن دون دمجهما ، والذين من بينهم جاءت طلائع المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين خلال فترة الهجرة الثانية · والذين انحصر نشاطهم في انشاء مستوطنات صهيونية جديدة في فلسطين تقوم على اسس مستحدثة اصبحت فيما بعد العمود الفقري للاستيطان الزراعي الصهيوني في فلسطين تحت تأثير خلفيتهم السياسية التي اكتسبوها في روسيا من جهة ومن خلال صراعهم مع الاجهزة الصهيونية الرسمية والمستوطنين اليهود القدامى والعرب عامة والعمال منهم خاصة من جهة اخرى ·

وفي ضوء كل ذلك اضطر المهاجرون الجدد الى الاعتماد على انفسهم من خلال اقامة تنظيمات ومؤسسات تنظيمية سياسية اقتصادية وحتى عقائدية وعسكرية قدر لها ان تنمو وتكبر وتصبح اسس النظام الصهيوني الذي نشاهده الان ·

وكان مهاجرو هذه الموجة من اليهود اول من طالب باقامة دولة يهودية في

فلسطين من خلال منظمة (العامل الشاب) اول حزب صهيوني اقاموه في فلسطين ٠

ويشير المؤلف في هذا الفصل الى ان هؤلاء المهاجرين الجدد قد اتخذوا منذ البدء موقفا سياسيا واضحا عدائيا تجاه العرب لم تنتهجه اية فئة اخرى غيرها حتى ذلك الوقت ٠

ولم تكن شعارات « احتلال العمل من أيدي العمال العرب » ، « احتلال الارض » الا تجسيدا للنظريات التي صاغوها قبل قدومهم الى فلسطين والتي نقلوها الى مرحلة العمل فاتخذوا في اكثر من مناسبة اجراءات عنصرية واضحة المعالم ضد العرب الذين لم يبق لهم بعد ذلك الا طريق الصراع مع الصهيونية ٠

ويعتقد المؤلف على الرغم من قلة من بقي من افراد هذه الموجة من الهجرة في فلسطين ، ان الهجرة الثانية هي التي وضعت اسس الكيان الصهيوني في فلسطين والتي قامت عليها اسرائيل فيما بعد ٠

وقد اختتم الاستاذ صبري جريس كتابه بالفصل الخامس الذي يحمل عنوان « الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور »

ليتحدث عن الاستعمار والصهيونية خلال الفترة ١٩١٥ ـ ١٩١٧ وهي اي علاقة الاستعمار بالصهيونية في رأيي الدراسة الاساسية الرئيسية التي كان يجب ان تكون مادة الكتاب والتي تلقي الاضواء المحللة

لتلك الظاهرة الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ السياسية والمسماة بالصهيونية فكرا

وحركة ودولة ٠ الا ان المؤلف يكتفي في هذا المجال بسرد متسرع لتحالف الاستعمار البريطاني مع الحركة الصهيونية الى درجة ان هذا الفصل على اهميته

جاء اصغر الفصول فلم تزد صفحاته عن ٢٥ صفحة من ٣٦٨ هي عدد صفحات الكتاب ٠

ويتجسد تسرع المؤلف واقترابه الحذر المبسط الى درجة الاخلال ، بالوقائع ومضمونها من هذه العلاقة ما بين الاستعمار والصهيونية ٠ وادعاء المؤلف بأن وعد بلفور قد جاء بمثابة مكافاة لوايزمان من لويد جورج بسبب الخدمات التي قدمها للمجهود الحربي لبريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى ، هذا الادعاء الذي يتبناه المؤلف تجسيد حي لتسرعه ومقاربته الحذرة والمبسطة للوقائع لدرجة الاخلال بها وبمضمونها ودلالاتها ٠

وبعد ، فان الملاحظ بوجه عام على كتاب الاستاذ صبري جريس ان عنوانه لا يمت لمحتوياته بصلة على الرغم من ترابط التوثيق بالتأريخ ترابطا وثيقا ٠ فالقارىء عندما يتناول كتابا يحمل اسم تاريخ الصهيونية وضعه احد العاملين في الثورة الفلسطينية فانه يتوقع ان يرى الكثير من التفسيرات والوقائع تدرس وتناقش ٠ ولكننا في كتاب صبري جريس لا نجد ذلك ٠ فمما لا شك فيه ان الكاتب قد قدم رصدا للحركة الصهيونية فيه مادة غزيرة ، مملة في بعض الاحيان ومكررة ٠ يصلح فيما لو استكملت نواقصه للمعالجة المنهجية من أجل كتابة واعية لتاريخ الصهيونية نشأة وتطورا ٠

وقبل الدخول في مناقشة تفصيلية للكتاب موضوع بحثنا ، يجب الاعتراف بأن ما جاء فيه من تفاصيل ترويها المصادر الصهيونية ، لها قيمة علمية ستدفع بالكثير من مؤرخينا للتصدي الى دراسة كثير من جوانب الصهيونية كظاهرة هي جزء من ظاهرة كلية اقتصادية ـ اجتماعية ـ سياسية لا يلغي جانب منها جانبا اخر ، حتى لا يحصل تشابك في فهم او تفسير ٠

والان ، اذا جاز الخوض في التفاصيل

درجة أخرى ، فاننا سنصل الى القول بأن ملاحظاتنا ستتضمن اشارات عامة واخرى في الشكل وثالثة في المنهج ورابعة في المحتوى واشارات اخيرة في النتائج نرجو ان يتسع لها صدر الكاتب وصفحات المجلة ٠

اشارات عامة

١ـ لا بد باديء ذي بدء من البوح ولو بهمس بأن ما كتبه صبري جريس وبالطريقة التي عرضها ، عن عذابات اليهود والمذابح التي تعرضوا لها في اوروبا الشرقية والمؤامرات التي يدعي الكاتب بانها حيكت ضدهم لا توقظ في القاريء العادي اكثر من تعاطف مع الصهيونية ، وتوجيه أصابع الاتهام الى دول اوروبا الشرقية بدلا من ان تساهم في التوعية والاتهام لهذه الظاهرة الاستعمارية ٠

٢ ـ ان ما احتواه كتاب الاستاذ جريس ليس تأريخا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما توثيق ناقص للصهيونية ومن وجهة نظر صهيونية ٠ اما انه توثيق من وجهة نظر صهيونية فيعود لاعتماد الكاتب للمصادر الصهيونية دون غيرها من مصادر عالمية كثيرة وفي متناول اليد ٠ وهو توثيق ناقص غير مكتمل لان الكاتب كان في كتابته للوقائع الواردة في كتابه انتقائيا كما أشار الى ذلك بنفسه في الصفحات الاولى من مقدمته ٠ وهذه السقطة لا تتفق بالضرورة مع مواصفات المؤرخ ولا حتى الموثق ٠ فالتوثيق يستلزم الرصد الشامل المحايد ٠ اما كتابة التاريخ فهي تفسير للظواهر الجزئية بربطها بالظواهر الكلية من خلال فلسفة تاريخية محددة ٠ فنحن نعتقد ان لا تاريخ دون فلسفة تاريخية متماسكة ٠

ملاحظات في الشكل

وهي للاسف الشديد كثيرة وهامة مع بساطتها الظاهرة ، وسأحاول الان ذكر ابرز هذه السقطات المؤثرة على سياق ما جاء في كتاب الاستاذ صبري :

١ ـ هناك خلل في قدرة الكاتب على استخدام الاقتباسات والاستشهادات فهو يوردها بكثرة وفي مواقع لا تصح وبكميات تصل في بعض الاحيان الى اكثر من نصف صفحة للاقتباس الواحد ٠

٢ ـ يفضح الخلل السابق في قدرة الكاتب خللا اخر في قدرته على استخدام الاقواس التي تفصل كلامه عن كلام الاخرين المستشهد بهم ، فالاستاذ جريس مرة يورد الاقواس ويشير الى المصدر ومرة لا يشير اليه وغالبا ما يمتنع عن استخدامها

٣ ـ ويشارك الخلل الواضح في استخدام الكاتب للعديد من المفهومات والمصطلحات في دراسته الخللين السابقين ليشكلوا جميعا نقيصة لا مهرب منها في هذه الدراسة ٠ فالى جانب ما سبق وذكرناه من اختلاط مفهومات اسباب ، ووسائل لدى الكاتب ، فهو يستخدم مصطلحات علمية عديدة في مواضيع لا تصح ، فهو يطلق لفظ حزب على البوند والحركة الصهيونية، ونفس الخلط بالنسبة لمصطلح طبقة اجتماعية فهو في الصفحة ٣٩ يقول : نمو طبقة يهودية عاملة كبيرة نسبيا ، وازداد ايضا عدد العاملين في الحرف بالاضافة الى ظهور طبقة من عمال المصانع اليهود ٠

٤ ـ الى جانب سوء استخدام المصطلحات العلمية المحددة ، فان الكاتب يقع في خطأ اخر مواز له وبنفس الاهمية ، هو استخدام الفاظ غير علمية هلامية المعنى تشير الى كل شيء ولا تشير الى

شيء · ان جدية الابحاث العلمية تقتضي تحديدا واضحا للمعاني والحقائق بالابتعاد قدر الامكان عن الكلمات البراقة التي تنطوي على قدر ضئيل من الحقيقة لا يكفي حاجة الفهم · وامثل على دعواي بما ورد في الصفحة ٢١٩ عندما يقول الكاتب : تحفظ ماركسيون عديدون · دون ان يذكر لنا من هم لنؤيده في رأيه ولنعارضه او لنعدله · وفي ص ١١٥ يقول : استمر اليهود الروس في نشاطهم الاستيطاني ولكن بمساعدة جهات خارجية · دون ان يسميها رأسا · وفي الصفحة ٤٦ عند حديثه عن النشاط اللاسامي يقول في عدة دول اوروبية دون ان يسميها هي الاخرى · وفي الصفحة العاشرة يقول : استخدمت منظار اليوم في النظر الى الصهيونية · دون ان يحدد ماهية هذا المنظار لان من حقنا ان نعلم اذا كان الكاتب قد احسن استخدام هذا المنظار ام اساء · وفي الصفحة ٣٠ يقول : بقيت محصورة في قسم صغير ، رغم ان عددا من الزعماء والمفكرين الصهيونيين خرجوا من بينهم · وهنا نتساءل وهذا التساؤل لضرورات البحث ، ما هو حجم هذا القسم الصغير ، وبأي قياس هو صغير ، فالعشرة بالنسبة للمليون صغيرة اما بالنسبة للعشرين فالامر غير ذلك · ثم ان كلمة عدد قد تدل على كل رقم من الارقام الرياضية المتداولة والتي تخطر في ذهن القارىء فورا ·

واختتم كي لا اطيل هذه الامثلة وهي كثيرة بما ورد في الصفحة ١٢ من استخدام لكلمة «بعض» للحديث عن الفئات اليهودية ·

٥ ـ هناك عملية اغراق بتفاصيل التفاصيل غير الهامة والتي تترك بين السطور الكثير من عناصر الشك مبثوثة ، يبدو انها متعمدة بحيث اضاعت منطق الاحداث في حركيتها وسكونها · لان ما يحفظ التاريخ السياسي هو الفكرة والعناوين الكبرى · اما التفاصيل وبعضها يكون اساسيا ومهما فتسقط · والتفاصيل وحدها كما يقول فلاسفة التاريخ لا تكفي للارتقاء درجة واحدة في الفهم فلا تقود وحدها الا الى الفشل في الخروج ببناء منطقي متماسك لسير الاحداث وخلفياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ·

٦ ـ يبدو عرض الاستاذ صبري جريس في كثير من الاحايين كأنه جزر منفصلة متباعدة عن بعضها البعض بلا جسور او حتى قناطر توصلها فيما بينها ، والامر فيما نعتقد عائد الى اسلوب عرضه لقصص حياة بعض الشخصيات التي ظن انها اثرت في الصهيونية من وجهة نظره ·

٧ ـ بعد تكرار قراءة بعض فقرات الكتاب يتبين بوضوح بأن هناك بعض الاخطاء الجغرافية ـ السياسية التي استهجن وقوع الباحث فيها وهو المطلع العارف : مثل قوله في الصفحة التاسعة · الحركة الصهيونية ·· من اشد الحركات خطورة ، لا على الفلسطينيين وحدهم ، وانما على العرب ايضا · وهنا لا داعي للقول بأن الفلسطينيين هم جزء من العرب وطالما ان الصهيونية خطر عليهم فهي بالطبيعة خطر على العرب ، وهنا نتساءل لم يحاول الكاتب وضع فاصل مصطنع في شيء واحد ·

والاخطر في سلسلة هذه الاخطاء الجغرافية ـ السياسية ، اعتقد انه الرأي التالي للكاتب والوارد في الصفحة ١٣٣ : في السنة ١٨٩٦ استغل وكلاء روتشيلد التمرد الذي قام به سكان قرية المطلة الدروز ضد السلطات· واعتقد بان الاستاذ جريس يعلم بأن هؤلاء السكان هم عرب فلسطينيون يرفضون الاكتفاء بتصنيفهم دروزا فقط ·

هل نكتفي بهذا القدر من الاشارات الهامة في الشكل العام للبحث ؟ اعتقد ان الاشارات السبعة السابقة تكفي لتكون عينة ذات دلالة عن اخطاء كثيرة في الشكل · لذا نتوقف عندها لننتقل فورا الى ملاحظاتنا عن محتوى الكتاب ·

محتوى الكتاب :

نجد ان الضرورة تستدعي ابداء تحفظنا اولا على ما ورد فيه من معلومات يحاول الكاتب ان يجعل منها تاريخا للصهيونية · ودواعي التحفظ عندنا كثيرة ، نبرز منها التالي فنقول ، ان للظواهر الصغرى عدة وجوه فما بالك بالظواهر الكبرى· والباحث اكتفى بايراد بعض البعض لوجه واحد من وجوه ظاهرة الصهيونية · كيف ؟ لاكون اكثر تحديدا ، اذكر ، بأن صبري جريس قارب الصهيونية من منظور صهيوني فقط اعتمادا على ما كتبه صهاينة معروفون · وفي هذا وجه واحد من وجوه الصهيونية كظاهرة · فلها وجه ثان تورده المصادر التركية وهي كثيرة ، ووجه ثالث تورده المصادر الانجليزية ورابع موجود في المصادر الفرنسية وخامس في الروسية وسادس وسابع وهلمجرا ·

ومن يتصدى للتاريخ عليه ان يحاول ويحاول لاستكمال كل الوجوه المؤيدة والمعارضة · اما باحثنا الاستاذ جريس ، فحتى الوجه الصهيوني لم يستكمله ايضا · فهناك الكثير من المراجع الاصيلة والهامة كتبها اما صهاينة او يهود بلغات اجنبية لم يحاول الاستفادة منها ، على الرغم من وجود ثبت لها في كتاب جانسن وفي المقالة الممتازة للبروفسور ستيفن هلبروك عن الجذور الطبقية في العقيدة الصهيونية والمنشورة في العدد الاول من المجلد الثاني من مجلة دراسات فلسطينية عام ١٩٧٣ ، بعد هذا التحفظ المبدئي ندخل صلب المناقشة فورا بتحديد ملاحظاتنا كالتالي :

١) تحفل الدراسة بالكثير من التناقضات الداخلية لا يجد القارىء لها تفسيرا · ومن امثلتي على هذه التناقضات اختار :ـ

أ ـ في الصفحة ١٣ يحدد الاستاذ جريس بأن طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩١ يشكل مقدمة نشوء الصهيونية مع انه بعد صفحتين من هذا التحديد اي في الصفحة ١٥ يتضح بأن بريطانيا قد سبقت اسبانيا بكثير في هذا الشأن لانها كانت قد طردت اليهود منها سنة ١٢٩٠ · فاذا كانت المسألة اليهودية هي سبب نشوء الصهيونية كما يدعي الكاتب ، فهذه المسألة كانت في بريطانيا اقدم منها في اسبانيا ·

ب ـ في الصفحة ٢٢ يؤكد الكاتب ان معرفة القراءة والكتابة كانت منتشرة بين اليهود حتى في العصور الوسطى بسبب شعورهم بالحاجة لاكساب اولادهم اصول ديانتهم وبعد ذلك في الصفحة ٢٤ يناقض الكاتب نفسه فيقول ، ان الكتب العبرية لم تحظ بانتشار واسع نظرا لقلة عدد قراء العبرية حينذاك ·

جـ ـ يذكر الكاتب في الصفحة ٣٩ ان عدد اليهود العاملين في روسيا وبولونيا سنة ١٨٩٧ بلغ ١٫٥٣٠٫٠٠٠ نسمة من بين عدد اليهود الاجمالي البالغ نحو خمسة ملايين نسمة اي ان قوة العمل اليهودية كانت في تلك الفترة حوالي ثلث عدد اليهود وهذا مناقض لما هو معروف عن الاوضاع الاقتصادية في تلك الفترة ولما هو معروف عن اتجاهات قوة العمل في العالم وعن الانشطة الاقتصادية التي يعمل فيها اليهود عادة · فحتى الان لا تزال قوة العمل في الولايات المتحدة الاميركية لم تصل ٤٠٪ من عدد سكانها وهي من اكبر ان لم تكن اكبر الدول الصناعية في العالم ·

د ـ اما صفحة ٤٣ فما بين فقرة واخرى يتجسد تناقض اخر يتضح من خلال قول الكاتب ان الصهيونية استغلت من اجل تحقيق اهدافها في فلسطين الاوضاع المعيشية السيئة والكوارث التي حلت باليهود · وهذا يعني ان مكونات واهداف الصهيونية كانت محددة سلفا · وفي فقرة ثانية في نفس الصفحة يقول ان الظروف الموضوعية المحيطة باليهود او باوضاعهم الذاتية هي احد العناصر التي تكونت منها الصهيونية ·

هـ ـ والصفحات ٤٢ ، ٤٦ تحفل هي الاخرى بتناقض اخر · ففي صفحة ٤٢ يقول انه هاجر من روسيا وبولونيا خلال الفترة ١٨٨١ ـ ١٩١٤ نحو ٢٫٦٥ مليون يهودي ، توجه مليونان منهم الى الولايات المتحدة الامريكية و٣٥٠ الفا الى اوروبا الغربية · بينما يتورط الكاتب في الصفحة ٤٦ فيذكر ان الثورة الصناعية والنمو الرأسمالي اقتلعا اليهود من جذورهم في اوروبا الشرقية ولكنهما ساعدا على استيعابهم في اوروبا الغربية · وقد سبق وتبين كما ذكرنا قبل قليل ان اوروبا الغربية لم تستوعب سوى ١٢٪ فقط من هؤلاء اليهود ·

و ـ والصفحات ٣٦ ، ٤٧ تزيد قائمة تناقضات الكاتب · ففي الصفحة الاولى يقول ان نفوذ اولئك الرأسماليين اليهود قد قوي وازداد عددهم ، بحيث وجد سنة ١٨٢٥ ، ١٢ مليونيرا يهوديا في مدينة وارسو وحدها · اما في الصفحة ٤٧ فيقع في المحظور ويقول : اما تلك الكراهية للرأسماليين اليهود ذوي النفوذ الواسع رغم قلة عددهم · وهنا نسأل الكاتب ان يحددرأيه في عدد هؤلاء الرأسماليين اليهود اهم قلة ام كثرة ؟

ز ـ وتأتي روايات الكاتب عن قصة تصهين هرتسل لتصب الزيت فوق نار تناقضاته الداخلية ما بين فقرة واخرى· فمرة كانت صيحات العداء لليهود التي كانت تطلق في اثناء محاكمة درايفوس في فرنسا هي التي جعلت من هرتسل صهيونيا (ص ٤٩) · ومرة (ص ٧٣) كانت تعاليم الحاخام يهودا الكلعي هي التي غرست في قلب هرتسل الفتى بذور الصهيونية اثناء اقامته مع عائلته في هنغاريا · بينما نجد في الصفحة ١٤٥ ان الكاتب يقرر قصة اخرى حين يذكر ان بداية التحول لدى هرتسل حدثت سنة ١٨٨١ او ١٨٨٢ بعد ان قرأ كتاب يوجين ديرينغ اللاسامي · وهنا نسأل اي الحواديث هذه نصدق ؟

ح ـ وفي الصفحة ٦٠ يشير الكاتب الى ان اليهود في فلسطين منذ ١٥١٧ قد تمتعوا بقسط كاف من الحرية الدينية لم يكن من نصيبهم في اي بلد اوروبي · وفي الصفحة ٦٤ يؤكد بان اليهود الذين قدموا الى فلسطين من خلال دوافع دينية كانوا يتمتعون باوضاع سياسية مريحة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانوا يتمتعون في الوقت نفسه بامتيازات الحماية وهنا يخطر في البال سؤاليصادم هذه الوقائع الخام · والسؤال هو عن مبرر طلب الحماية ما دام اليهود في فلسطين كانوا يتمتعون بالحرية الدينية وبالاوضاع السياسية المريحة ·

ط ـ وفي مسلسل التناقضات الداخلية نستزيد فنذكر ان الكاتب في صفحة ٦٦ يشير الى المساعدات المالية والتبرعات التي كان مونتفيوري يدفعها لليهود الى جانب اقامته للمدارس والعيادات والورش لخدمتهم · الا انه في نفس الصفحة يعود فيقول ان مجمل نشاطات مونتفيوري لم تسفر عن تحسن يذكر في اوضاع اليهود في فلسطين · وهنا نسأل الكاتب كيف لا

تسفر المساعدات المالية والتبرعات وافتتاح المدارس واقامة العيادات وبناء الورش عن تحسين في اوضاع عشرة الاف يهودي فقط . انه امر غريب بحاجة الى تفسير وتعليل .

ي ـ اما في الصفحة ٧١ فيدعي الكاتب ان الفكرة الصهيونية لم تكن بمفهومها الداعي الى ارجاع اليهود الى فلسطين واقامة دولة لهم فيها معترفا بها دوليا من خلال نشاط سياسي واستيطاني يقومون به وليدة القرن التاسع عشر بالضبط ... اذ يرجع تاريخها نحو قرنين الى الوراء . ولكن سرعان ما يتراجع الاستاذ صبري جريس عن دعواه هذه بدعوى مناقضة لها في الصفحة ٧٢ حين يقول : ولهذا فان تاريخ الصهيونية التي انجبت دولة اسرائيل بمفهومها السياسي والاجتماعي وعلى الصعيد النظري على الاقل يبدأ مع نهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

ق ـ وسننهي بهذا التناقض المزروع في صفحتي ١٢٤ ، ١٢٥ . حيث يقول الكاتب في الصفحة ١٢٤ : وقد ادى هذا الى ازدياد تعلق المستوطنين بجهاز موظفي روتشيلد . وفي الصفحة ١٢٥ يقول : لم يكن من المستغرب في مثل هذه الاوضاع ان تنشب الخلافات بين المستوطنين والموظفين المشرفين على مستوطناتهم وتسفر عن صدامات بينهم . وهناك نتساءل عن الكيفية التي يزداد بها تعلق جماعة بجماعة اخرى تتصارع معها صداميا ؟

منهج البحث :

اما عن منهج البحث فبالامكان القول بأن الانتقائية الذاتية التى استخدمها الباحث في عمله لا ترتقي اطلاقا لتشكل منهجا علميا لكتابة التاريخ او حتى طريقة من طرقه . وكما هو معروف تماما لكل باحث . فهناك فرق واضح بين مناهج البحث وطرقه . فالمنهج متصل بالعقل والفكر الانساني . وكل منهج علمي لا بد له من وجود فرض . ومصدر الفرض في بعض الاحيان التساؤل وقد يكون الظن . ويشمل المنهج الفرض والتساؤل والظن والاختبار النظري . ويستخدم المنهج الملاحظة ثم التصنيف والتحليل ثم الاستنتاج العام الذي به نصل الى القانون والتعميم .

اما طرق البحث العلمي وهي تتعلق بخطوة واحدة من خطوات المنهج العلمي وهي ليست الا مجموعة الادوات التي يستعين بها الباحث. فبدت الصهيونية عند الكاتب بلا منطق يضبط خطاها ويرسم خط سيرها وانتقالها وتأثيرها بشكل يمكننا من ان نقف على مدلولاتها الحقيقية وتشعباتها المختلفة في ظل وضعها الراهن .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فلا بد لكل بحث علمي من ان يقوم على مجموعة من المفاهيم والفروض المتفق على مدلولاتها سلفا قبل استخدامها في عملية الوصف والتحليل او التفسير للظاهرة المنوي دراستها . وفي هذا الكتاب الذي نراجعه نقبنا عن الاتجاه النظري الذي يمكن للباحث من ان يستعين به في بلورة وتحديد مجموعة مفاهيمه التي تسمح له بتملك موضوع دراسته وفي تحديد الموضوعات التي اهتم بتعمقها وكانت موجها له ، فلم نجد سوى خليطا مهجنا من الاتجاهات النظرية المتضاربة متخفية في عباءة فضفاضة من الحياد الذي يحاول ان يدعيه الباحث .

وهنا نجد ضرورة في القول ، بان مقولات الحياد والموضوعية في البحث العلمي ، هي مقولات قد عفا عليها

الزمن وماتت بموت الفلسفة المثالية منذ امد بعيد ٠ فعملية البحث العلمي ليست عملية ميكانيكية ٠ ولا يمكن للباحث ان يكون آلة او جزءا من آلة يكفي ان تضغط عليها فتدور ٠

فالباحث ينفعل بالواقع ويقف منه موقفا معينا ٠ يحب ويكره ، ينتمي لثقافة يتحيز لها ، يقف منها موقفا نقديا او تحليليا ، موقف القبول او موقف الرفض او المطالب بالتعديل ٠ وسواء اكان الباحث منفعلا بالمشاكل الفردية او بالمشاكل الجماعية فانه لن يستطيع ان يكون باحثا حقيقيا الا اذا ترجم مشاعره الى تصورات او الى خيال ٠ فالخيال بحد ذاته يلهم الباحث ويضع امامه امكانيات واختيارات عديدة ملتزمة بمنطق العلم ٠

ملاحظات في النتائج :

وهنا نسمح لانفسنا بان نختلف كثيرا مع الكاتب ، على الرغم من ان الكاتب لم يورد في كتابه اية نتائج محددة الا اننا نستطيع تلمس اثار لنتائج توحي بها وقائعه التي انتقاها ٠

فنحن نشك كثيرا في ان يكون اليهود قد واجهوا اضطهادا بسبب ديانتهم ، على الاقل في مرحلة الثورة الصناعية وفي اعقاب محاولة اغتيال قيصر روسيا ٠ فالاضطهاد الذي واجهه اليهود في روسيا كان جزءا من الاضطهاد الذي واجهه الشعب الروسي اثر الردة الرجعية التي شاعت هناك بعد اغتيال القيصر وتعرض لها كل الشعب لا اليهود منهم فقط ٠ اما عن سوء احوال اليهود المعيشية فلم يكن مردها الى اضطهاد متعمد من حكام روسيا او بولونيا لليهود كيهود وانما نعتقد بان هذا السوء كان من نتائج النمو الرأسمالي والثورة الصناعية هناك والتي بالضرورة تؤثر سلبا على حرفيي الطبقة الوسطى وتشيع البطالة في صفوفهم وقسم كبير من اليهود كما هو معلوم كان يعملفي هذا المجال ٠

وما دام الامر كذلك ، فلا يمكن للصهيونية ان تكون الا نتاجا لظاهرة الاستعمار الاوروبي وعلى الاخص الاستعمار البريطاني الذي كانت له مطامع واضحة في المشرق العربي يحاول ان يضعها موضع التنفيذ منذ العصور الوسطى ٠ فافرز ظاهرة الصهيونية بمفهومها الحالي لتكون اداته الفعالة في تجسيد طموحاته الاستعمارية ذات الاهمية الاستراتيجية في الوطن العربي ٠ فالامر ليس كما يحاول صبري جريس ان يصوره تحالفا بين طرفين مستقلين وانما حقيقة الامر هو استخدام طرف لاداة من ادواته ليس الا ٠

واخيرا ونحن نختتم هذه المراجعة
واخيرا ونحن نختتم هذه المراجعة
المختصرة ، نقول ما اكثر ما تخرج المطابع من كتب عن الصهيونية وما اعظم حاجتنا لفهمها ٠ ولكن هذه الحاجة للاسف الشديد تزداد بازدياد عدد الكتب الموجودة حاليا في السوق ٠ ومع ذلك فسيبقى لصبري جريس فضل يقر به من سيتصدى لكتابة تاريخ الصهيونية مستقبلا ٠

سمير ايوب

شهريات

المناطق المحتلة

سنركز هذا الشهر حول ثلاثة مواضيع الاجراءات الاستيطانية في المناطق المحتلة. وتصدي السكان العرب لها ، والدعوات لضم الجولان ·

تعتبر هذه الفترة من الفترات الحرجة التي شهدتها حركة الاستيطان وخاصة في سيناء، فقد اتسم مسار الحركة الاستيطانية بين مد وجزر وسط صخب غلاة المستوطنين والخلافات في الرأي بين المسؤولين عن الاستيطان خاصة بين وزير الدفاع عيزر فايتسمان الذي يرى ضرورة عدم التوسع في الاستيطان في الوقت الحاضر تمشيا مع الموقف الاميركي ومراعاة له ، وبين وزير الزراعة والمسؤول عن اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ارئيل شارون الذي يعتقد ان الوقت قد حان للبدء بنشاط واستيطان واسع في جميع المناطق المحتلة بما في ذلك سيناء · وبين هذين الموقفين اللذين استقطبا قطاعات واسعة من مجتمع المهاجرين والمستوطنين سارت حركة الاستيطان ، وشقت افاقا جديدة لها تمثلت في خلق وقائع جديدة وظهور مشاريع مستقبلية مدعومة بميزانية جديدة ·

لقد بلغ حجم الميزانية الجديدة المخصصة للاستيطان في المناطق المحتلة لهذا العام ٤٣٠ مليون ليرة مقابل ٢٦٠ مليون ليرة للعام الماضي · ومن الجدير بالذكر ان قسما من هذه الميزانية سيخصص لاقامة ١١ مستوطنة جديدة في المناطق المحتلة ، ثلاث مستوطنات في الجولان وثلاث في الضفة وست مستوطنات في مشارف رفح ·

الاستيطان في سيناء :

اتسمت الحركة الاستيطانية بتعرجات في مسارها في الاراضي المصرية المحتلة ويعود ذلك الى المرحلة الجديدة التي دخلتها العلاقات المصرية الاسرائيلية بعد زيارة السادات لاسرائيل ·

يوجد في سيناء ١٦ مستوطنة تتركز ١٣ منها في منطقة مشارف رفح · وهذه المستوطنات هي (١) يميت (٢) دكلا (٣) حروبيت (٤) نؤوت سيناي (٥) حوليت (٦) سوفا (٧) سدوت (٨) ابشلوم (٩) نير ابراهام (١٠) نتيف هعسراه (١١) اوغداه (١٢) تلمي يوسف (١٣) برئيل (١٤) دي زهاف (١٥) نفيعوت (١٦) اوفيرا (تقع المستوطنات الثلاث الاخيرة في الاراضي المصرية بين شرم الشيخ وايلات) ·

وهنالك مستوطنة اخرى كانت سلطات الاحتلال قد اعلنت عن ظهورها قبل اشهر تحمل اسم كديش بارنيع في منطقة القسيمة بالقرب من الحدود الدولية ، الا انها عادت مؤخرا وحظرت على النواة الاستيطانية بناء على تعليمات من عيزر فايتسمان دخول المستوطنة !

وسط اجتماعات اللجنتين العسكرية

والسياسية المصرية الاسرائيليـــــة اقدمت سلطات الاحتلال على الشروع باعمال تمهيد للارض في منطقتين من شمال سينـــاء ، ففي المنطقة الواقعة بين العريش وبير لحفان جرت اعمال التمهيد للاراضي لمدة تزيد على اسبوع بواسطة الجرارات التابعة للكيرن كييمت ، حيث مهدت عشرين قطعة مساحة كل منها خمسين دونما · كما وجرت في المنطقة الواقعة بين العريش وبين مستوطنة يميت اعمال مشابهـة بواسطـــة جرارات الكيرن كييمت ·

ومن الجدير بالذكر ان السلطـــات الاسرائيلية رفضت الافصاح عن الهـــدف من وراء اعمال التمهيد تلـــك ، الا ان الصحف الاسرائيلية اماطت اللثام فيمـــا بعد عن مشروع اسرائيلي يستهدف اقامـة عدد كبير من المستوطنات « الصورية » فـي المنطقة الواقعة بين العريش وبير لحفان . لحمل المصريين على التنازل عن منطقـــة مشارف رفح مقابـــل تنازـــل المفاوض الاسرائيلي عن المستوطنات « الصورية »!

بعد ذلك وفي الثامن من كانون الثاني اتخـذت الحكومة الاسرائيليـــة قراريـــن متناقضين . الاول ينص على عدم اقامـة مستوطنات جديـــدة في سينـــاء خـلال المفاوضات . والثاني يدعو الى « تسميك » المستوطنات القائمة في مشارف رفح ، اي دعم الاستيطان بزيادةعدد المباني ومضاعفة عدد المستوطنين ! وتجري الان اعمـال البناء على قدم وساق في البعض من هـذه المستوطنات وخاصة في مستوطنة يميت التي يراد لها ان تصبح مدينة ضخمة ·

وفي السابع من كانون الثاني جـــرى الاحتفال بتدشين مستوطنة ناحال حوليت في مشارف رفح وتحويلها الـــى كيبوتس مدني تابع لحـــركة « ايحود هيكبوتسوت فهكيبوتسيم» التابعة لحزب العمل · وحضر الاحتفال عدد من زعماء حزب العمل مـــن بينهم موشيه حريف سكرتير الـ « ايحود » الذي اكد ان الاستيطان في شمال سيناء يستهدف « تعزيز المصالح القومية » ·

وعلى صعيد المشاريـــع الاستيطانيـة المقبلة في سيناء ، هنالك عدة مشاريـــع كشفت عنها المصادر الاسرائيلية ، مـــن بينها اقامة مستوطنة جديدة « في المستقبل القريب » تحمل اسم «زهرون» تابعة لحركة الموشافيم على شاطيء البحر الاحمـــر بالقرب من مستوطنة نفيعوت·ويقيم اعضاء النواة الاستيطانية الان في نفيعوت تأهبا للتوجه الى مستوطنتهم الجديدة ·

كما واقرت سلطات الاحتلال اقامـــة ستة مشاريع سياحية ، من المقرر ان يجري العمل لتنفيذها « فورا » في منطقـة شرم الشيخ · وهذه المشاريع هي : اقامـــة ثلاثةفنادق ضخمة· واقامة قريةللاستجمام واخرى للغواصين في رأس محمد ، واقامة ناد للغواصين هناك · وتقدر الامـــوال المستثمرة في هذه المشاريع بـ ٣٠٨ مليون ليرة ·

وكشفت الصحف الاسرائيلية عن وجود خطة تستهدف اقامة ٥٠ مستوطنة فـــي مشارف رفح ضمن « المشروع الجنوبي » ونقلت عن مدير قسم الاستيطان شمعون ربيد قوله أن هذه الخطة «لم تأخذ بالحسبان الوضع السياسي والمفاوضات الجارية مـع مصر » ·

وهنالك مشاريـــع تستهدف توسيـــع مستوطنة يميت كبرى مستوطنات مشارف رفح ، سيتم بموجبها اقامة ٥٠٠ وحـــدة سكنية جديدة خلال هذا العام ·

طرد وترحيل سكان مشارف رفح

وسط اعمال « التسميك » والاعمـــال الاستيطانية « الصورية » اقدمت سلطـات الاحتلال على اتخاذ خطوات تخللتهـــا

اعمال مشينة ــ ضد من تبقى من السكان الاصليين في منطقة مشارف رفح ، لصالح مجتمع المهاجرين والمستوطنين . تستهدف ترحيل وطرد ما تبقى من السكان العرب ، بعد ان طردت ورحلت الكثيرين منهم خلال السنوات الماضية وتمثلت تلك الخطوات في مطالبة السكان بحل منازلهم ونقلها الى اماكن بعيدة ، وترحيل البعض منهم بالقوة، بالتضييق على حرية حركتهم واشفعت خطواتها باعمال همجية مثل قطع الاشجار وسد الابار حيث « تقوم الجرافات اثناء اعمال تمهيد اراضي المنطقة وتسويتها بدفن اشجار بساتين البدو وسد ابار المياه بالرمال ، وازالة كل ما يقف في طريقها »٠ الى جانب ذلك اقدمت على دفن بيت لعائلة تتكون من عشرة افراد ، وبعد الهدم «جرى دفن البيت بالرمال » !

أثارت هذه الاعمال « ضمير » السكرتير العام لحزب مبام مئير تلحي حين قدم مذكرة الى وزير الدفاع عيزر فايتسمان يطلب فيها « وقف اعمال ترحيل البدو عن منطقة النخيل حتى اجراء دراسة لهذا الموضوع في لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست » دون ربط اعمال الترحيل بالاستيطان الاسرائيلي ٠

الى جانب اعمال الطرد والترحيل ، اخذت الصحف الاسرائيلية تضخم من «خطر» اصحاب الارض الاصليين ، فقد اكثرت من الحديث عن البدو الذين يقومون بزراعة حبوب الحنطة بالقرب من السياج المحيط بالمستوطنات ، ويقتربون من المزارع اليهودية ، مبرزة قولهم ان «هذه الاراضي كانت في السابق ملكا لهم »٠ او كما يقول الصحفي حجاي ايشد (دافار ٢٧ــ١ ــ٧٨) « تشكل المستوطنات اليهودية نقاط جذب للبدو ، ففيها ماء وعمل وطرق تؤدي الى مراكز البلاد ٠ ويستولي البدو بدون توقف على الاراضي في سياق متواصل من القضم ٠٠٠ وهذا القضم الذي يقوم به البدو هو مصدر للنزاعات المستعصية منذ فجر التاريخ لهذه المنطقة ، ويتأذى منه الان الاستيطان اليهودي ٠٠٠»

الاستيطان في الضفة

منذ تسلم الليكود السلطة ، اتخذ النشاط الاستيطاني في الضفة الغربية مسارين متوازيين له ، الاول يعتمد على اقامة مستوطنات داخل معسكرات الجيش والثاني اقامة مستوطنات مدنية خارج المعسكرات ٠

ومن الملاحظ ان المستوطنات المقامة داخل المعسكرات تحمل اسماء المعسكرات القائمة بها ، ولا تعرف تفاصيل كثيرة عنها ، وتحرص سلطات الاحتلال على عدم نشر بيانات حولها ٠ وتتوفر معظم المعلومات عن هذا النوع من الاستيطان في التقارير الصحفية التي تتحدث عن المواجهة التي تحدث بين الفينة والاخرى بين السلطات وجوش ايمونيم ٠

عند مطلعكانون الاول اقيمت مستوطنتان من هذا النوع ، تابعتان لجوش ايمونيم في معسكرين للجيش الاسرائيلي يقعان بين اللطرون ورام الله ، المعسكر الاول يقع بالقرب من بيت عور الفوقا والثاني هو معسكر الجيب ــ معسكر يخص الجيش الاردني في السابق ــ بالقرب من قرية الجيب العربية ٠

وقد أقيمت مستوطنات اخرى من هذا النوع في معسكرات مختلفة في الضفة الغربية ، لم تنشر المصادر الاسرائيلية شيئا عن تاريخ اقامتها ٠ وتقع هذه المستوطنات في معسكر شومرون ، معسكر سانور ، معسكر جبعون ، معسكر بيت ايل، معسكر النبي صالح معسكر بيت حورون ٠

وتحدثت المصادر الاسرائيلية عن ظهور مستوطنتين في منطقـة بتير ومنطقـة الظاهرية ، دون ان تذكر اذا ما كانتا تقعان داخل اطار المعسكرات أم لا ٠

وفيما يتعلق بالاستيطان « العادي »، فقد اقيمت عند منتصف كانون الثاني مستوطنة جديدة تحمل اسم « سلعيت » الى الشرق من الطريق بين قلقيلية وطولكرم ، وتشغلها نواتان من الناحال تابعتان لحركة بيطار ٠ وتبعد مستوطنة سلعيت الواقعة على هضبة صخرية مسافة ٤ر٥ كم شمال شـرق مستوطنة « تسورنتان » الواقعة داخل مـا يسمى بـ «الخط الاخضر » ٠ ومن المقـرر تحويلها في المستقبل الى مستوطنة مدنيـة زراعية صناعية تضم مئتي منزل ٠

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني جرى الاحتفال بوضع حجر الاساس لمدينة « شيلو » الى الشرق من الطريق بيـن رام الله ونابلس ، بحضور الحاخام تسفي كوك الاب الروحي لجوش ايمونيم ، وعدد من اعضاء الكنيست وزعمـاء جوش ايمونيم ٠

ومن الجدير بالذكر ان ضجة ثارت فيما بعد حول مسألة استيطان « شيلو » ، فقد ادعت سلطات الاحتلال لاعتبارات سياسية ، ان الحكومة أقرت استيطان نواة من جوش ايمونيم في شيلو بصفة « عمـال اثار » للمساهمة في كشف ما تخبئه المنطقة الاثرية من معالم تاريخية ، بينما ادعـى جوش ايمونيم ان النواة الاستيطانية لم تأت الى المنطقة للبحث عن معالم قديمة ، بل لخلق معالم جديدة ويطالب الحكومـة بتقديـم المعونات للنواة الاستيطانية على هـذا الاساس ٠

وفيما يتعلق بالنشاط الاستيطاني الجاري والمستقبلي في الضفة الغربية ، كشـف النقاب عند اوائل اذار الماضي عن خطة لاقامة مدينة في منطقة نابلس تحمل اسم حارس ، فقد افادت المصادر الاسرائيلية ان وزارة البناء والاسكان شرعت باعداد اعمال بناء واسعة في مستوطنة حارس المقامة التي «ستصبح في المستقبل مستوطنة مدنية ٠ ويأتي ذلك عقب اتخاذ قرار بهذا الخصوص ، وتم تخصيص ميزانية خاصة تبلغ ٤٠ مليون ليرة » ٠ ومن المقرر اقامة ٩٠٠ وحدة سكنية في المرحلة الاولى ٠

وتجري بالقرب من قريـة كفر قدوم العربية ، حيث تقع مستوطنة ايلون موريه المؤقتة ، اعمال لتسوية الاراضي بغرض اقامة ٦٠ مبنى ، لاستيعاب مستوطني ايلون موريه ، وتثبيتهم في المنطقة كمستوطنين دائمين ٠ ومن المقرر الانتهاء من اعمـال البناء في شهر نيسان من هذا العام ٠

كما واعلنت سلطات الاحتلال انهـا قررت اقامة مستوطنة دينية في غور الاردن تحمل اسم « محولاب » بالقرب من مستوطنة محولا الواقعة في المنطقة الشمالية من غور الاردن في الضفة الغربية ٠ وستكـون المستوطنة الجديدة تابعة لحركة هبوعيـل متسعير ٠

التصدي للاستيطان في الضفة

عبر السكان في الضفة عـن تصديهم ومقاومتهم للاستيطان الاسرائيلي باشـكال نضالية مختلفة ، سـواء عـن طريق الاجتماعات او الاضرابات والتظاهرات ٠ فعند البدء باستيطان شيلو اعلن مخاتيـر قرية سلواد والقرى الاخرى المجاورة عن احتجاجهم ضد اعتزام الحكم العسكـري مصادرة اراض من قراهم لصالح مستوطنة شيلو التي تسببت بحدوث « غليان فـي القرى العربية » ٠

كما وقام الفلاحون في قرية قبية الواقعة الى الغرب من مدينة رام الله ، بالتعرض

لحركة وسائط النقل الاسرائيلية بوضع حواجز من الحجارة على الطريق المؤدية من والى مستوطنة نفيه تسوف (النبي صالح) الواقعة على بعد ١٨ كم شمالي غربي رام الله ٠

ونشطت العناصر الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير في الضفة الغربية بالدعوة للتظاهر والاضراب في مدن الضفة ضد «المستوطنات في المنطقة ، وضد استمرار الاتصالات بين اسرائيل ومصر » ووزعت مناشير في مدينة نابلس تحمل هذا المعنى ٠

وجرت عند اوائل شهر شباط الماضي تظاهرات في مدينة نابلس استمرت عدة ايام متتالية ، تعرقلت خلالها الحياة التجارية ، هتف المتظاهرون خلالها ضد الاستيطان الاسرائيلي الى جانب هتافاتهم الوطنية ، « واشعلوا النيران في الدواليب في عدد من الامكنة ، كما رفعوا الاعلام الفلسطينية ، وهتفوا ضد الاستيطان الاسرائيلي ، وقامت قوات الامن بتفريق المتظاهرين » ٠

وأشارت المصادر الاسرائيلية الى وقوع جرحى في صفوف المتظاهرين والقاء القبض على ٢٧ شابا عربيا ٠

الاستيطان في الهضبة السورية

تعتبر منطقة الجولان من اكثر المناطق العربية المحتلة عرضة للتهديد فقد اصبحت المستوطنات الاسرائيلية تتفوق من حيث العدد على القرى العربية المأهولة بالسكان في الهضبة ٠ واذا ما سارت اعمال البناء في مدينة كتسرين وفق ما هو مقرر، فلن يكون بعيدا الوقت الذي سيزيد فيه عدد المستوطنين الطارئين على عدد السكان الاصليين ٠

يوجد في هضبة الجولان علاوة على مدينة كتسرين ٢٥ مستوطنة هي (١) افني ايتان ـ موشاف (٢) الروم ـ كيبوتس (٣) اليعاد ـ موشاف (٤) انيعام ـ موشاف(٥) افيق ـ كيبوتس (٦) بني يهودا ـ مركز اقليمي (٧) جيشور ـ كيبوتس (٨) جبعات يوآب ـ موشاف (٩) هشفين ـ مركز اقليمي (١٠) كفار حروب ـ كيبوتس (١١) مفوصمة ـ كيبوتس (١٢) مركاز هجولان ـ كيبوتس (١٣) نؤوت جولان ـ موشاف تعاوني (١٤) نوف ـ موشاف تعاوني (١٥) نفيه اطيف ـ موشاف تعاوني (١٦) كيشت ـ موشاف (١٧) عين زيوان ـ كيبوتس (١٨) رموت ـ موشاف (١٩) رمات بجشيميم ـ كيبوتس (٢٠) سنير ـ كيبوتس (٢١) تنوريا ـ موشاف (٢٢) جملا ـ موشاف (٢٣) هار اودم ـ موشاف (٢٤) جيشور «ب» ـ كيبوتس (٢٥) دلفه (اورطل) ـ كيبوتس ٠

وقد اوردت المصادر الاسرائيلية بعض المعطيات عن الاستيطان فيالهضبة السورية بمناسبة مرور عشر سنوات على استيطان الهضبة جاء فيها انه تم خلال تلك الفترة استثمار حوالي ملياري ليرة في تطوير النقاط الاستيطانية ، وتم استثمار مبلغ ٠٠ر٥٠٠ر١٩٢ في مدينة كتسرين حتى الان ٠ كما وجرى فلاحة ٥٥٠٠ دونم ٠ وتمهيد ١٦٠ الف دونم من مجموع مليون ونصف المليون دونم في الهضبة، لفلاحتها٠ ووصل حجم الانتاج الزراعي خلال العام الزراعي الاخير ٢٤٠ مليون ليرة ، بينما بلغ حجم الانتاج الصناعي ٣٠ مليون ليرة ٠

في الثالث والعشرين من كانون الثاني احتفلت سلطات الاحتلال بتدشين مدينة كتسرين التي يراد لها ان تصبح «عروس» الهضبة ، ورفع عدد مستوطنيها من ٤٠٠ مستوطن في الوقت الحاضر الى ٢٠ الف مستوطن في السنوات القادمة ٠ ومن بين الذينحضروا الاحتفالووزيرالبناءوالاسكان الذي قال في هذه المناسبة ان « سرعة

وتيرة البناء والتطوير فيالجولان وكتسرين ستستمر بناء على رغبة رئيس الحكومة واعضائها جميعا · وبمقتضى سياسة الحكومة سنطور كتسرين الى مدينة لتصبح من اكبر مدننا وتكون جزءا من دولة اسرائيل · ان هضبة الجولان هي اليوم . كواقع ، في دولة اسرائيل ، وستعمل حكومة اسرائيل لتحويل هضبة الجولان الى منطقة اسرائيلية بشكل قانوني ··· واننا لن ننزل من الهضبة ابدا » ·

ومن اجل تكريس الاحتلال واضفاء الصفة الشرعية عليه دفعت سلطات الاحتلال بعض عملائها من شريحة «الزعامة التقليدية» في الهضبة للمطالبة بضم الجولان الى اسرائيل بشكل رسمي ونهائي· ففي اواسط كانون الثاني عقد خمسة رؤساء مجالس محلية عربية في الهضبة ، مؤتمرا صحفيا في كريات شموناه ، طالبوا فيه الصحفيين الاسرائيليين بنقل مطلبهم بضم الهضبة السورية الى اسرائيل· ونقلت دافار (٢٠ــ١ــ٧٨) عن محسن سالم ابو صالح رئيس المجلس المحلي لقرية مسعدة قوله : « لقد عشنا تحت الحكم الاسرائيلي خلال السنوات العشر الماضية ، وشاهدنا فيالحقيقة التقدم الاقتصادي والتكنولوجي. وكيف يمكن نسج علاقات جوار حسنة مع سكان كريات شموناه وكيبوتسات الجليل · اننا نامل بأن تتوطد العلاقات بيننا وبين السكان اليهود في الجولان ، وتبقى هضبة الجولان جزءا لا يتجزأ من اسرائيل · والخطوة الاولى التي يتوجب القيام بها من اجل ذلك هي تطبيق القانون الاسرائيلي على الجولان » ·

ومن الطبيعي أن تجد هذه الدعوة اذانا صاغية لها في الكنيست ، فقد تلقفتها عضوة الكنيستشوشانا الموزلينوعنالتجمع العمالي وقدمت اقتراحا مستعجلا لجدول اعمال الكنيست « تطلب فيه الاستجابة لمطالب الدروز في هضبة الجولان بخصوص تطبيق القانون الاسرائيلي عليهم » وقالت انها « تعتقد بضرورة الاخذ بعين الاعتبار الرغبة التي يبديها سكان هضبة الجولان والدعم الذي تلاقيه هذه عند اليهود سكان الجليل والجولان» ·

عبد الحفيظ محارب

اسـرائيليات

تضاربت الاراء لدى المراقبين السياسيين في اسرائيل ، حول ما اذا كان الرئيس السادات قد استطاع تحقيق الاهداف ، التي وضعها نصب عينيه في زيارته لواشنطن · وتتلخص تلك الاهداف ، في تحويل الولايات المتحدةمن مجرد وسيط ينقل الرسائل بين الطرفين ، المصري والاسرائيلي ، الى مشارك فعال في المفاوضات « السلمية » الجارية الان في الشرق الاوسط ، وحمل اسرائيل على الاقرار بمبدأ الانسحاب من جميع الاراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وذلك لدفع عملية

السلام التي بدأها الرئيس المصري في زيارته للقدس المحتلة · وكانت المحادثات المصرية ـ الاسرائيلية قد توقفت ، بسبب تعنت اسرائيل ورفضها للمبادىء التي طرحها السادات كشرط اساسي لتحقيق السلام ، وتوقيع معاهدة سلمية تضمن امن اسرائيل والاعتراف بها ·· ولذلك قام السادات بزيارته لواشنطن ، بعد ان « شعر بأن مبادرته قد فشلت ، ووصل به الامر الى حد اليأس » (ر·أأ ، ٧٨/٢/١٠) · وبالاضافة الى ذلك هدف السادات، بزيارته تلك ، الى الحصول على اسلحة متطورة من الولايات المتحدة ، بعد ان حرق جسوره مع الاتحاد السوفييتي ، وحرم جيشه من مصدر السلاح الذي يقوم عليه ··

ويرى بعض المراقبين الاسرائيليين ، ممن تابعوا زيارة السادات واتصالاته مع المسؤولين في الادارة الاميركية والكونغرس عن كثب ، انه « لم يحصل على كل ما طلبه من الولايات المتحدة » ولكنه « حظي بنجاح شخصي كبير ، ستظهر نتائجه على الصعيد السياسي والعسكري بالتدريج. وينعكس على جميع مجالات السياسة الاميركية الشرق أوسطية » (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٢/١٠) · وقد يصل ذلك الى فقدان اسرائيل « لمكانتها المتميزة في السياسة الاميركية » (المصدر نفسه) على المدى البعيد · ولكن على الرغم من ذلك ، يرى البعض انه باستطاعة اسرائيل ابطال مثل هذه الخطورة « بمجرد زيارة اخرى يقوم بها رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن [الى واشنطن] ، ونشاط اللوبي اليهودي في اميركا الى جانب اصدقاء اسرائيل في الكونغرس والرأي العام الاميركي » · (المصدر نفسه)

اما المراقبون الاخرون ، فيعتقدون ان الرئيس السادات كان قد ذهب الى واشنطن « يائسا وخرج منتصرا » (دافار، ٧٨/١٠/٢١) ، وان الاهداف الثلاثة التي وضعها نصب عينيه عشية سفره الى واشنطن قد « انجزت بكاملها تقريبا » (المصدر نفسه) · فقد عبرت الادارة الاميركية هذه المرة ، عن المفهوم الاميركي بالنسبة الى حل النزاع الاسرائيلي العربي « بلهجة حاسمة وغير مهذبة » واتضح انه « مطابق تماما للموقف المصري ، حتى باستعمال المصطلحات التي تستخدمهامصر» (المصدر نفسه) · وبالاضافة الى ذلك ، قادت الادارة الاميركية قبل المحادثات التمهيدية وخلالها حملة اعلامية « غير ودية » لاسرائيل ، في اوساط العناصر ذات التأثير الكبير في البيت الابيض ، ولدى الشعب الاميركي عبر وسائل الاعلام الجماهيرية ، وكل ذلك يدل على ان ادارة كارتر قد « قررت هذه المرة ان تدفعبالامور قدما ، حتى وان اضطرت الى حشر اسرائيل في الزاوية من خلال اللجوء الى وسائل مرفوضة » (المصدر نفسه) ، ولهذا فان المفاوضات المصرية الاسرائيلية ، ستكون في المستقبل « اكثر تعقيدا وتركيبا » ، واي اتفاق سيتم التوصل اليه بين مصر واسرائيل « سيكون في النهاية وفقا لخطوط اتفاق اميركي مفروض ، اقر الرئيس الاميركي ومساعدوه مبادئه بشكل علني » (المصدر نفسه) ·

فبالنسبة الى هدف السادات الرئيسي في تحويل الادارة الاميركية ، من مجرد وسيط محايد في المفاوضات الجارية بين مصر واسرائيل الى « شريك رئيسي وفعال، يتخذ مواقف واضحة وحاسمة في صلب المسائل المختلف عليها بين الطرفين » ،فان الرئيس المصري قد « حقق في هذه الزيارة هدفه » (المصدر نفسه) · وان لم يكن السادات قد حصل على مراده في حمل الادارة الاميركية على استعمال ضغط فوري على اسرائيل ، فانه « حصل علىشيء لا يقل اهمية عن ذلك ، وهو التنسيق بين مصر والولايات المتحدة بالنسبة للهدف النهائي الذي يسعى الى تحقيقه » (يديعوت

احرونوت ، ٧٨/٢/١٢) · ويتضح ذلك جيدا من المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس ، والذي تكشفت فيه ، ولاول مرة « النتائج المنطقية للمبادىء التي ما انفكت الادارة الاميركية عن الاعلان عنها منذ امد بعيد : كل المستوطنات الاسرائيلية خارج الخطالاخضر [أي حدود ١٩٦٧] هي غير قانونية ، وتشكل عقبة في طريق السلام » ، وانه « كان من الافضل لو لم تقم ·· وسوف يكون من الضروري ازالتها » (دافار ، ٧٨/٢/٢١) · وينطبق ذلك سواء على المستوطنات في سيناء ، او في الضفة الغربية ـ وسواء في بيان البيت الابيض عند انتهاء زيارة السادات ، او في المؤتمر الصحفي الذي عقده فانس ـ حيث اتضح جيدا ان « الانسحاب الاسرائيلي يجب ان يتم على جميع الجبهات ، اي من الضفة الغربية ايضا » (يديعوت احرونوت ٧٨/٢/١٢) ·

ومما يعزز رأي هؤلاء المراقبين ، انه على الرغم من ان الادارة الاميركية ، اتخذت موقفا لم يكن بالجديد تماما في هذا الموضوع خلال المفاوضات الاسرائيلية الجارية مع مصر ، فانه « لم يكن ثمة مثيل لهذا التصريح العلني في مرحلة حاسمة من المفاوضات ، وفي الوقت الذي لا تزال الاطراف فيه تتصارع على مواقف اولية » (دافار ٧٨/٢/٢١) · وخطورة مثل هذا التصريح في رأيهم، هو انه يحول المواقف الاولية بالنسبة لمصر ، الى « مواقف نهائية لا مفاوضات معها » (المصدر نفسه) ، وخاصة بالنسبة للضفة الغربية ، حيث تتحدث اسرائيل «عن مصالح حيوية اولية ، ولا بد من تعيين حدود آمنة لا يمكن بدونها ان تكون معاهدة سلام » (المصدر نفسه) · فوفقا لتفسير مناحيم بيغن الجديد للقرار ٢٤٢ ، فان استعداد اسرائيل للانسحاب من جزء كبير من سيناء يفي باغراض القرار ٢٤٢ نصا وروحا ، لان هذا القرار يتحدث عن انسحاب من « مناطق » ، والانسحاب من سيناء هو انسحاب من « مناطق » ، خاصة وان القرار لم يحدد المناطق التي يجب الانسحاب منها ·

وفي المقابل يرى الاميركيون ذلك تفسيرا جديدا للقرار ٢٤٢ ، لان « كل الحكومات الاميركية السابقة افترضت ان ما يعنيه قرار ٢٤٢،هو الانسحاب على كل الجبهات» وان العناصر التي تضمنها هذا القرار هي « السلام والامن والانسحاب ، ولا يمكن حصر المحادثات في عنصرين فقط ، وتجاهل العنصر الثالث » ، اي الانسحاب ، وهذا هو في الواقع « لب الخلاف بين السادات واسرائيل » (المصدر نفسه) · وقد فصل الرئيس الاميركي في ذلك الخلاف ، بشكل حاسم وعلني في تصريحه الاخير ابان زيارة السادات حين صرح بأن « انسحاب القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية ، مع تعديلات طفيفة في الحدود الشرقية ، هو الاساس الذي نتبناه » (اي الولايات المتحدة) ، ويعني ذلك ، في رأي المراقبين السياسيين الاسرائيليين ، ان الانسحاب الاسرائيلي « من سيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان ، هو عنصر ثابت في السياسة الاميركية » (المصدر نفسه) ، مما يدل على ان الرئيس الاميركي قد قرر « اغلاق الدائرة مع أسرائيل » وهذا سيؤدي الى طرحه سؤالا واحدا ومحددا على رئيس الحكومة الاسرائيلية في زيارته المقبلة للولايات المتحدة ، بناء على دعوة كارتر نفسه ، وهو ما اذا كانت «اسرائيل مستعدة للانسحاب من الضفة الغربية مقابل سلام كامل مع مصر ، ام انها تفضل التمسك ببرنامج الادارة الذاتية في الضفة الغربية ، وبهذا تضع حداً لمبادرة السلام المصرية ؟» (هأرتس ٣ـ٢ـ٧٨ ،ومعاريف، ٢٢ـ٢ـ٧٨) ·

ويرى البعض ان ذلك الموقف الاميركي ، هو الذي دفع بالرئيس كارتر الى ربط طلب اسرائيل تزويدها بالطائرات بصفقة موحدة مع مصر والسعودية ، في اقتراحه الذي قدمه للكونغرس بهذا الشأن · ويعتقد ان ذلك الاقتراح، بالاضافة لكونه تحقيقا لاحد اهداف الرئيس السادات من زيارتـــه لواشنطن ، هو «بداية فقط» تشكل « خطوة اولى في سياسة اميركية متكاملة »(دافار، ٢١ـ٢ـ٧٨) ، استطاع الرئيس الســـادات بلورتها لدى الادارة الاميركيـــة · فمجرد ادراج اسرائيل في « وضع متساو مع الدول العربية ، وفقدانها لمكانة الاولوية فـــي موضوع التسليح في السياسة الاميركية ، يشكل ، دون ادنى شك ، محاولة ممكنــة لاستعمال الضغط على اسرائيل » (دافار ، ٢٠ و ٢١ـ٢ـ٧٨) · وقد يخلق ذلك مشاكل عديدة في العلاقات الاميركية الاسرائيلية، «لا يمكن التكهن بتأثيرها الحقيقي» ، خاصة وانها تشكل في نظر اسرائيل ، خطـــوة اولى نحو « التزام اميركي بأمن مصر » ، لا محالة آت في اعقاب صفقة الطائـرات وذلك الى جانب « الالتزام الاميركي بأمن اسرائيل » (معاريف ، ١٧ـ٢ـ٧٨)·

ولكننا اذا ما أجرينا تحليلا دقيقا لبيان البيت الابيض الغامض ، بعد يومين مـن المحادثات المكثفة والسرية في كامب دفيد ، نرى ان « الرئيس كارتر قد شرح للسادات، كيف ترى الولايات المتحـــدة مهمتهـــا ومسؤوليتها في عملية السلام ، كصديقـة للطرفين ، وصاحبة مصلحة في السلام والاستقرار في المنطقة » (هآرتس ، ٧ـ٢ـ ٧٨) · ويعني ذلك ، ان الولايات المتحدة ، لا ينبغي عليها الاهتمام بالمطالب المصرية ، دون الاخذ بعين الاعتبار ، مصالح ومشاعر اسرائيل ، وانها لا تنوي ان تتخلى عن دور « الوسيط الصديق » فقط ، الذي يريد «خير الطرفين » · ويبدو ايضا ، ان الرئيس الاميركي لم يوافق على توجه الســـادات المتعجل في المفاوضات ، ولكنه « تفهم رغبة السادات اكثر في التقدم دون تأجيل » وان لم يعتبر نفسه ملزما بالموافقة على هـذه الرغبة مطلقا ·

وعلى كل حال ، فقد قال بريجنسكـــي للسادات « كل الاشياء التي كانت مـــن المفروض ان تقال له » (هآرتس ، ١٣ـ٢ـ ٧٨) ، وهي انه يترتبْ عليه ان «يستأنف المفاوضـــات ، وان لا يفاجىء الادارة الاميركية بأي خطوة دون تنسيق معها، وان يستعد لمفاوضات طويلة وشاقة ، دون ان يتوقع من الولايات المتحدة ان تفرض على اسرائيل اي حل » (المصدر نفسه) ·

اما الرئيس كارتر ، فقد قال لزعمـــاء اللوبي اليهودي ، واصدقاء اسرائيل فـــي الكونغرس الاميركي علنا : « لا اعرف كيف اخرج من هذا الوضع » ، ثم توجه اليهم سائلا : « فهل تعرفون انتم ؟ » (هآرتس ، ١٢ـ٢ـ٧٨) ·

توفيق فياض

قضايا عسكرية

اثر اعلان وزير الخارجية الاميركي « سايروس فانس » في ٧٨/٢/١٤ عن قرار الحكومة الاميركية بالموافقة على بيع اسرائيل ٧٥ طائرة من طراز «فـ١٦» و ١٥ طائرة من طراز « فـ١٥» ، وبيع مصر ٥٠ طائرة من طراز « فـ٥ اي » ، وبيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، اثارت اسرائيل و «اللوبي » الصهيوني ، ضجة اعلامية كبرى في الصحافة الاميركية والغربية عامة ، وفي لجان الكونغرس الاميركي ، تهدف الى الابقاء على الجانب الاسرائيلي من الصفقة وتوسيعه اذا امكن، والغاء الجانب العربي منها ، خاصة بالنسبة لطائرات « فـ١٥» التي ستباع للسعودية ، وذلك من خلال الادعاء بأن ميزان القوى العربي الاسرائيلي سيختل بقوة لصالح العرب اذا ما نفذت الولايات المتحدة الجانب المصري ـ السعودي من الصفقة · وبدأت هذه الحملة بالنداء الذي وجهه « مناحم بيغن » رئيس الوزراء الاسرائيلي ، في « الكنيست » الى الرئيس الاميركي « كارتر » يوم ٧٨/٢/١٥ ، والذي بدأه بتوجيه الشكر اليه لموافقته على بيع اسرائيل ٩٠ طائرة متطورة ، وانه يأمل في ان تزيد واشنطن عدد هذه الطائرات، ثم طالبه باعادة النظر في قراره تزويد مصر بأسلحة هجومية والسعودية بأكثر الطائرات تطوراً · وفي اليوم ذاته اتصل احد الرسميين الاسرائيليين الموجودين في « واشنطن » بعدد من الصحفيين وتلا عليهم بيانا قال فيه ان بيع السعودية ٦٠ طائرة « فـ١٥» سيؤدي الى مواجهة في الفضاء بين مرتزقة اميركيين وطيارين اسرائيليين جميعهم في طائرات اميركية الصنع ، وذلك على اساس ان طائرة « فـ١٥» متطورة جدا وهي تتجاوز مؤهلات الطيارين السعوديين ··

وفي مقابلة مع التلفزيون الاسرائيلي قال وزير الدفاع الاسرائيلي « وايزمن » يوم ٧٨/٢/١٧ ان الوعد الاميركي ببيع ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ اي » الى مصر و ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » الى السعودية هو « خطوة تكتيكية سيئة من واشنطن ستكون لها مضاعفات على مباحثاتنا مع المصريين » واوضح ان الجيش يدرس مشكلات استراتيجية نتجت عن الوعدببيع الطائرات للعرب · وان احدى المسائل التي ستجري اعادة النظر فيها هي مستقبل المطارات العسكرية في سيناء ، والتي كان « بيغن » قد اعلن استعداده لاخلائها ·

أما « ديان » وزير الخارجيةالاسرائيلي، فقد صرح عقب عودته من الولايات المتحدة يوم ٧٨/٢/١٧ ، بأن طائرات « ف ـ ١٥» التي ستباع للسعودية يمكنها تغطية كل سماء اسرائيل من دون ان تحتاج الى التزود بالوقود اثناء الطيران ، ويمكنها الوصول الى ميناء ايلات في عشر دقائق واضاف بأن هذا « سيكون له اثر على الوضع العسكري في اسرائيل وعلى كل ما نعتبره حدودنا التي يمكن الدفاع عنها، ثم الح الى احتمال مطالبة اسرائيل

بالاحتفاظ بمطارات سيناء نتيجة لهـــذه الصفقة ، خاصـــة وان قاعدة التبـــوك السعودية ستكون اقرب الى أسرائيل منها الى العراق ·

وتجنب الاشارة الى اهمية طائرات « ف ـ ٥ اي » التي ستباع الى مصر.·

وفي الولايات المتحدة الاميركية ذاتهـا قال السناتـــور الديمقراطي « باتريـــك مونيهـــان » في ٧٨/٢/١٥ انه يعتقد ان الكونغرس لن يوافق على بيع طائـــرات « ف ـ ١٥ » للسعودية ، وان بيع طائرات من طراز « ف ـ ٥ اي » لمصر سيدمـــر ميزان القوى العسكري في الشرق الاوسط!

كمـــا صرح « كرنس لونـغ » رئيس اللجنة الفرعية الخاصة ببحث العمليـات في الخارج ، بانه سيكرس كل جهـــوده لمعارضـــة مقترحات بيع معدات عسكرية لمصر ! ·

واعرب العديد من اعضاء الكونغـــرس عن معارضتهم لانجاز الصفقة ، مما دفـــع ممثلي الادارة الاميركية ومؤيديها فـــي الصحافة ومراكز البحـوث السياسيـــة والاستراتيجية الى الرد على منتقـــدي الصفقة ، التي يرونها تخدم المصالح العليا للولايات المتحدة الاميركية في المنطقة ·

فقد ابلغ « هارولد براون » ، وزيـــــر الدفاع الاميركي ، احدى لجان الكونغـــرس يوم ٧٨/٢/٢٣ ، ان البيع المقترح للطائرات المذكورة الى الدول الثلاث يشكل صفقـــة واحدة من وجهة نظر الحكومة الاميركيـــة القاضية بالمحافظة على التوازن العسكري في الشرق الاوسط ، الى جانب المتطلبات السياسية التي يترتب عليهـا تلبيتها ، وان الحكومة المذكورة هي التي تقرر ما يشكل برنامجا متوازنا لبيع الاسلحة للشـــرق الاوسط ·

وقال وزير الخارجية الاميركي «فانس» امـــام لجنة تابعة لمجلس النواب يـــوم ٧٨/٢/٢٢ « أن دورنا كوسطاء ، الذي يثق فيه الطرفان ، سيواجه نكسة اذا رفضنـا تلبية القسم الاكبر من هذ الصفقات ··· واذا فصلتهم بين مختلف العناصـــر التي يتألف منها مشروعنا فانكم تلحقون الضرر بتوازن القوى العسكرية في منطقة الشرق الاوسط » · ·

كما قال احد كبار المسؤولين في الحكومة الاميركية ، في الفترة ذاتها ، ان اسرائيل لديها بالفعل التفوق الجوي ، وانه اذا كان يخشى من تناقص هذا التفوق ، فان ذلـــك سيكون من نسبة ١٠٪ الى نسبة ٩ : ١ واستطرد موضحا ان الطائرات لن تسلم قبل عام ١٩٨١ او ١٩٨٢ » واذا لم نكن قد توصلنا الى تسوية سلمية حتى ذلـــك التاريخ ، فاننا سنصبح في مأزق حقيقي ·· واذا ما نظرنا ، بشكل موضوعي ، الى ما تحتاجـــه اسرائيـــل من الطائـــرات ، فستجـد انهـــا لا تحتاج الى شيء ··· لا شـــيء بالمـــرة » ! وايـــد الباحـث بالمعهد الاميركي لابحاث السياسة العامـة في واشنطن ، « دال ر· تاتيّن » ، الرأي المذكور انفا حيث قال : « ان الصفقة لن تخل بميزان القوى العسكري ·· بل انها في الحقيقة ستزيد من تفوق اسرائيـــــل النوعي » ! ولكن « اللوبي » الصهيوني في الولايات المتحدة تصدى بقوة لهذه الاراء الاميركية من اجل افشال الجانب السعودي بالذات ، من الصفقة ، اذ قدمت اللجنـة الاميركية ـ الاسرائيلية للعلاقات العامة، والمسماة « ايباك » ، مذكرة الى النائـــب الاميركي « لي هاملتون » ، رئيس اللجنـــة الفرعية لاوروبا والشرق الاوسط والتابعة للجنـــــة العلاقات الدولية بالكونغرس ، اوضحت فيها تفصيلا اسباب معارضتهـا للصفقة ومخاطر وجود طائرات « فـ١٥ » لدى السعودية ، وردت وزارة الخارجيـــة الاميركيـــة عليها بمذكرة مضادة اوردت الصحف بعض فقراتها ·

وفي اوائل اذار (مارس) الحالـي استقال « مارك سيغل » ، مساعد الرئيس « كارتر » ، الذي يلعب دور همزة الوصل بين كارتر واليهود الاميركيين ، احتجاجا على صفقة الطائرات المقترحة للسعودية ومصر ، ثم ادلى بحديث لمراسل الاذاعة الاسرائيلية في « واشنطن » في ١١ـ٣ـ٧٨ ركز فيه هجومه على الجانب السعودي من الصفقة ، من حيث مخاطر استخدام طائرات « ف ــ ١٥ » ، التي ستباع للسعودية لقاعدة « تبوك » الجوية القريبة نسبيا من « ايلات » فقال « ان لدي معلومات الان عن وجود صواريخ « هوك » في « تبوك » ، وان هذه البلدة هي قاعدة جوية عسكرية٠٠ وان هذا يجعلني افكر بشكل منطقي ، لان وجودها الى الجنوب من ميناء « ايلات » يمكن ان يستخدم كنقطة انطلاق لهجمات على اسرائيل » ٠

وحتى يمكن لنا تكوين رأي موضوعي عن الصفقة المذكورة ، يخرج بنا من دوامة الحرب الاعلامية الصهيونية ، وكشف حقيقة اهداف السياسة الاميركية من وراء الصفقة ، لا بد لنا من اجراء تحليل موضوعي موجز لاحتمالات تغيير ميزان القوى العربي ــ الاسرائيلي نتيجة للصفقة المذكور حال تنفيذها ، من خلال ما يمكن ان يضيفه للقوة الجوية لكل من أسرائيل ومصر والسعودية كما ونوعا ، ضمن الاطار العام لقدرات كل منها القتالية والتنظيمية والقيادية ، وعلى ضوء الدراسة المقارنة للميزات النوعية للطائرات المقترح بيعها للدول الثلاث ، المستندة على بيانات المواصفات الفنية للطائرات المذكورة الملحقة بهذه الدراسة ٠٠

زيادة قوة الطيران الاسرائيلي كما ونوعا :

يضم الطيران الاسرائيلي حاليا نحو ٦٨٠ طائرة حربية ، من بينها نحو ٢٥٠ من نوع « فانتوم » ، و ٢٧٥ من نوع « سكاي هوك » و ١٠٠ من نوع « كفير » و ٣٠ من نوع « ميراج ٣ سي » و ٢٥ من نوع « ف ــ ١٥ » ٠

ويبلغ اجمالي القوة النارية القصوى لهذه الطائرات في حالة استخدامها في القصف الارضي نحو ٣٢٤٠ طنا من القنابل (وهو مجرد فرض نظري يتم التوصل اليه على اساس جميع الحمولات القصوى من القنابل لجميع الطائرات ، بما فيها المقاتلات المعترضة من طراز كفير ، ودون حمل اي وقود خارجي ، ومن ثم يكون المدى قصيرا) اما في حالة استخدام هذه الطائرات في عمليات الاعتراض والقتال الجوي القريب (باستثناء قاذفات الهجوم الارضي من طراز « سكاي هوك » التي لا تصلح لمثل هذه المهمة اصلا) ،فان اجمالي قوة نيرانها المضادة للطائرات تبلغ نحو ٢٠٥٠ صاروخا جو ــ جو ، من انواع « شفرير » و « سبارو » وربما « سايدويندر » ٠ وعند تسلم الطيران الاسرائيلي للطائرات الجديدة (٧٥ طائرة « ف ١٦ » و ١٥ طائرة « ف ــ ١٥ ») ، ستزيد القوة النارية للاعتراض والقتال الجوي نحو ٢٤٤٠ صاروخا جو ــ جو ٠

وذلك على اساس عدم حساب طائرات « الكفير » التي ستكون قد انتجت ودخلت الخدمة بالسلاح الجوي الاسرائيلي من الان وحتى العام ١٩٨١ او ١٩٨٢ ، وعلى افتراض عدم نقصان القوة الحالية للطائرات بسبب حوادث الطيران او خسائر اي عمليات قتالية او اخراج اي طائرات قديمة من الخدمة ٠

وفضلا عن الزيادة التي ستترتب في مجالات اجمالي عدد طائرات السلاح الجوي الاسرائيلي ، واجمالي قدرته النارية في حالتي القصف والقتال الجوي ، فان الـ ٩٠ طائرة الجديدة ستشكل اضافة

نوعية بالغة الاهمية للسلاح الجوي ، على طريق تحديثه بجيل جديد من اكثر الطائرات تطورا في الترسانة الجوية الاميركية ، اذ ان طائرات « ف ـ ١٥ » مصممة اصلا لتواجه « الميغ ـ ٢٥ » ، وطائرات « ف ـ ١٦ » قادرة على مواجهة « الميغ ـ ٢٣ » بكفاءة ، وذات قدرات قصف ارضي جيدة ، وكليهما يشكلان جيل الثمانينات من الطائرات الاميركية وسوف يحلان تدريجيا محل طائرات « الفانتوم » في كل من السلاحين الجويين الاميركي والاسرائيلي .

ولا شك في ان الولايات المتحدة تهدف من وراء تزويد اسرائيل بهذه الطائرات والـ ٢٥ طائرة « ف ـ ١٥ » التي زودتها بها من قبل ابتداء من ٢٠ـ١٢ـ١٩٧٦ ، وطوال عام ١٩٧٧ وحتى الان ، الى جعل الطيران الاسرائيلي في موقع التقدم في التفوق النوعي ، وفي قوة النيران ،بالنسبة للاسلحة الجوية العربية الرئيسية القريبة منه ، خاصة بعد ان بدأت تحصل على طائرات « ميغ ـ ٢٣ » و « ميغ ـ ٢٧ » و « ميغ ـ ٢١ بيسي» و « السوخوي ـ ٢٠» وبكميات تتزايد حاليا بالنسبة للسلاح الجوي السوري والسلاح الجوي العراقي .

تجميد تطور الطيران المصري نوعيا :

وبالمقابل فان الصفقة الاميركية تشكل اضافة كمية قليلة الاهمية من حيث اجمالي قوة النيران ، من حيث القصف والاعتراض، وخطوة الى الوراء من حيث نوعية الطائرات المقاتلة ، بالنسبة للطيران المصري ، الذي تتألف قوته الراهنة من نحو ٥٣٤ طائرة حربية ، منها ٢٥٠ « ميغ ـ ٢١ » و ٣٢ « ميغ ـ ٢٣ » و ١٨ « ميغ ـ ٢٧ » و ٥٠ « ميغ ـ ١٧ » و ٥٢ « ميراج ٣ اي » و ٤٨ « سوخوي ـ ٢٠ » و ٦٠ « سوخوي ـ ٧ » و ٢٥ قاذفة « ت يو ـ ١٦ » و ٥ قاذفات « اليوشن ـ ٢٨ » . وتبلغ القوة النارية الاجمالية لهذه الطائرات ، في اقصى حالات تسليحها ، نحو ١٥٧٠ طنا من القنابل ونحو ١٢٩٤ صاروخا جو ـ جو . وعند تسلم مصر للخمسين طائرة « ف ـ ٥ اي» ستزيد القوة النارية للسلاح الجوي المصري الى حوالي ١٦٩٥ طنا من القنابل ، ونحو ١٤٩٤ صاروخا جو ـ جو . وهذا على افتراض استمرار كل قوته الحالية في الخدمة العملية الفعالة حتى العام ١٩٨١ ، وهو افتراض مشكوك كثيرا في امكان تحققه واقعيا ، في ظل تفاقم مشكلة قطع الغيار والصيانة والتسليح بالنسبة للطائرات السوفيتية الصنع ، التي تشكل غالبية قوة الطيران المصري ، نظرا لاستمرار تدهور العلاقات السياسية بين مصر والاتحاد السوفييتي .

وفي الوقت ذاته فان تسليح الولايات المتحدة لمصر بطائرات « ف ـ ٥ اي » ، تحت اضواء الالة الاعلامية الضخمة التي تضفيها على اهمية هذا التسليح من الناحية السياسية ، وابراز المسألة على انها معركة قاسية تحققها الحكومة الاميركية في وجه الضغوط الصهيونية القوية ، انما يشكل في واقع الامر اضعافا للقوة النوعية للطيران المصري ، او تجميدا لها في افضل الظروف في الوقت الذي يتم فيه تطوير القوة النوعية والكمية للطيران الاسرائيلي على النحو المشار اليه سابقا . ذلك لان طائرات « ف ـ ٥ اي » تعد من طائرات الصف الثالث الاميركية ، على حين ان طائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » تعد من طائرات الصف الاول .. وهي تنتج اساسا للتصدير الى الدول الصديقة للولايات المتحدة المعتبرة من حلفاء ، او اصدقاء ، الدرجة الثانية مثل كوريا الجنوبية وتايوان وتايلاند والاردن والسودان . على حين انها كانت تسلح حلفاء الدرجة الاولى بطائرات « الفانتوم »، وهي حاليا تسلحهم بطائرات « ف ـ ١٥ »

و «ف ـ ١٦»، وذلك مثلما تفعل مع اسرائيل ودول اوروبا الغربية وايران وقد قال « ادوارد لوتواك » ، المدير المساعد لمركز ابحاث واشنطن للسياسة الخارجية ، في بحثه المقدم بندوة حرب اكتوبر الاسرائيلية المنعقدة في جامعة تل ابيب عام ١٩٧٥ ، ان الولايات المتحدة كانت وحتى وقت قريب تبيع للقوى العسكرية التي بلغت سن الرشد نوعا واحدا من المقاتلات هو « ف ـ ٤ » ، اي « الفانتوم » على حين كانت تبيع طائرات « ف ـ ٥ » للاطفال ! ونظرة سريعة الى البيانات الفنية المقارنة الملحقة توضح مدى تخلف الطائرة « ف ـ ٥ اي » بالقياس لطائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » ، فضلا عن « الفانتوم » بطبيعة الحال · وفي الوقت نفسه فإن طائرات « ف ـ ٥ أي » ، التي صممت على اساس أن تكون مقاتلة منافسة للميغ ـ ٢١، تعد في الواقع ذات قدرات قتالية اقل من قدرات الجيل الثاني من طائرات الميغ ـ ٢١ المسمى بطراز « م ف » ، التي تشكل غالبية « الميغ ـ ٢١ » المصرية ، والعربية عموما · اذ ان سرعة « الميغ ـ ٢١ م ف» القصوى تبلغ ٢٢٢٠ كلم/ساعة مقابل ١٧٠٠ كلم/ساعة للطائرة « ف ـ ١٥ اي »، كما ان معدل صعود « الميغ ـ ٢١ م ف » ١٧٥ مترا/ثانية مقابل ١٦٠ مترا / ثانية بالنسبة لـ « ف ـ ٥ اي » ، وهي ميزة هامة بالنسبة للقتال الجوي · كما ان مدى « الميغ ٢١ م ف » وهي مسلحة بأربعة صواريخ جو ـ جو يصل الى ٨٠٠ كلم ، مقابل ٦٩٠ كلم للـ « ف ـ ٥ اي » وهي مسلحة فقط بصاروخين جو ـ جو ·· وكذلك فان « الميراج ـ ٣ اي » الموجودة لدى الطيران المصري تفوق الـ «ف ـ ٥اي» من حيث السرعة وبعد المدى (اقصى سرعة لها ٢٢٣٠ كلم ساعة وتستطيع ان تصل بحمولة ٩٠٠ كلغ من القنابل الى هدف يبعد ١٢٠٠ كلم على ارتفاع على ـ منخفض عالي ، و ٦٥٠ كلم على ارتفاع منخفض ـ منخفض ـ منخفض) ·

وقد علق الرئيس السادات على الصفقة في حديث له بمجلة اكتوبر يوم ٧٨/٢/١٨ فقال « ان هذه الطائرات التي ستتسلح بها مصر لا تقارن بما لدى اسرائيل او بما ستعطيه اميركا لاسرائيل، لان هذه الطائرات هي من الدرجة العاشرة· لكن الذي ازعج اسرائيل هو ان يكون هناك اتصال بين مصر واميركا يصل الى حد تسليح مصر » ·

اما الرئيس « كارتر » فقد صرح في ٧٨/٢/١٨ بأن بيع مصر طائرات « ف ـ ٥ أي » كان بسبب خشية الولايات المتحدة من اجتياح ليبيا ، وربما اثيوبيا ، لمصر من دون مساعدات اسلحة اميركية ! كما تناول الموضوع ذاته في حديث اخر له يوم ٧٨/٣/٩ فقال ان بيع مصر طائرات « ف ـ ٥ اي » هو « اقتراح شرعي لان المصريين يعانون الخطر السوفييتي وقد اتكلوا كليا علينا · وهذا تطور مشجع في الشرق الاوسط ، بل هو من اهم التطورات واعمقها ··· وليس لدي اي شعور بالاعتذار من اقتراحي بيع الاسلحة ، لان هذا البيع يبقي التوازن العسكري في الشرق الاوسط على حاله · واستطيع ان اقول من دون شك ان القدرة المتفوقة لسلاح الطيران الاسرائيلي بالنسبة الى الدول المجاورة لا تزال قائمة » ·

طائرات « ف ـ ١٥ » للسعودية لن تهدد اسرائيل :

وتركز اسرائيل حملتها الرئيسية المضادة للصفقة على اقتراح بيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، على اعتبار ان هذه الطائرات مماثلة لاحدث ما في ترسانتها من الطائرات الاميركية الصنع ، وانها قد تشكل خطرا على ميزان

القوى الجوي العربي ـ الاسرائيلي ، في حال استخدامها بصورة مباشرة او غير مباشرة ضد اسرائيل في اي حرب مقبلة.

وربطت مخاطر استخدام هذه الطائرات باحتمال اتخاذها من قاعدة « تبوك » الجوية مركزا لعملياتها ، نظرا لان هذه القاعدة تبعد نحو ٢١٦ كلم عن الارض المحتلة في فلسطين . ولكن وزير الخارجية الاميركي « فانس » اكد امام لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الاميركي يوم ٧٨/٣/٩ أن ايا من هذه الطائرات لن توضع في قاعدة «تبوك»

وان واشنطن ستعرف ما اذا كانت هذه الطائرات ستوضع هناك ، لان هذا الطراز يتطلب منشات ضخمة لصيانته . كما اكدت

مذكرة وزارة الخارجية ، التي ردت بها على مذكرة لجنة « ايباك » الصهيونية .

بأن هذه الطائرات لن تسلح بصواريخ جو ـ جو الاكثر تطورا من طراز « سايدوندر » ومن ثم ستكون قدرتها القتالية اضعف من

الطائرات الاسرائيلية المماثلة . كما اكدت انها لن تكون مجهزة لحمل اقصى حمولة من القنابل ، ومن ثم لن تهدد اسرائيل بقصف ارضي فعال ، واكدت ايضا ان « القدرة القتالية للطيارين الاسرائيليين وخبراتهم معروفة . ولا يمكن في الوقت الحاضر مقارنة الطيارين السعوديين بهم . ولن تشكل طائرات « ف ـ ١٥ » السعودية اي تهديد لا سابق له للمدن والقواعد الاسرائيلية » .

وهكذا يتضح لنا أن الـ ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » التي ستباع الى السعودية لن تشكل اي تهديد جدي لاسرائيل ، وانها تقدم للسعودية كمجرد دعم سياسي لها ، فضلا عن اهمية الصفقة بالنسبة للولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية ، حيث ان قيمتها مع قطع الغيار والصيانة والتدريب ستصل الى نحو ٢٥٠٠ مليون دولار .

« المواصفات الفنية »

« للطائرة « ف ـ ٥ اي » »

طائرة مقاتلة لتحقيق التفوق الجوي ذات مقعد واحد. تنتجها شركة «نورثروب» الاميركية . وهي نوع مطور من «ف ـ ٥ أ» من حيث قوة المحرك والمدى ، وقد دخلت الخدمة العملية بالسلاح الجوي الاميركي في شباط (فبراير) ١٩٧٣ . وهي مزودة بمحركين نفاثين قوة دفعهما معا في الحالة العادية ٢١٧٦ كلغ ، وفي حالة استخدام الحراق الخلفي لاحداث تسارع مفاجيء لفترة قصيرة اثناء الاشتباك الجوي تبلغ قوة دفعهما معا ٤٥٢٦ كلغ . ويبلغ وزنها وهي خالية من التسليح ٦٩٨٥ كلغ ، ومن ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن نحو ٦٥ر٠ ، ويبلغ اقصى وزن لاقلاعها في مهام القصف الارضي ١٠٩٢٤ كلغ من ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن نحو ٤ر٠ . وتبلغ اقصى سرعة لها وهي خالية من التسليح

على ارتفاع ١١ ألف متر ١٧٠٠ كلم ساعة (٦ر١ ماك) ، واقصى سرعة قتالية لها وهي تحمل صاروخين جو ـ جو نحو ١٦٠٠ كلم (٥ر١ ماك) ، ويبلغ مداها القتالي في الحالة المذكورة انفا ، اعتمادا على وقودها الداخلي ، نحو ٢٨٠ كلم ،

اما في حالة تزودها بخزان وقودخارجي فيبلغ مداها نحو ٦٩٠ كلم . أما في حالة قيامها بمهمة قصف نموذجية تحمل فيها ٥٠٠ كلغ قنابل وصاروخين جو ـ جو وخزان وقود خارجي فان مداها يبلغ نحو ٨٧٠ كلم بطيران عالي ـ منخفض عالي، ونحو ٢٢٥ كلم بطيران منخفض ـ منخفض ـ منخفض . ويبلغ معدل ارتفاعها في حالة الاشتباك الجوي ٥٣ر١٦٠ مترا في الثانية ، واقصى ارتفاع عملي تصل اليه ٤٦٠ر١٦ مترا .

وهي مسلحة بمدفعين عيار ٢٠ مم لكل منهما ٢٨٠ طلقة ، وصاروخين جو ـ جو قصيري المدى « أ اي م ـ ٩ سايدوندر » ، واقصى حمولة لها من الذخائر جو ـ جو والقنابل ٢١٧٥ كلغ ٠

« المواصفات الفنية »

« للطائرة « ف ـ ١٥ » »

طائرة مقاتلة لتحقيق التفوق الجوي ذات مقعد واحد ٠ تنتجها شركة « ماكدونالد دوغلاس » ، دخلت الخدمة العملية بالسلاح الجوي الاميركي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ووصلت اول طائرة منها الى السلاح الجوي الاسرائيلي في ١٩٧٦/١٢/١٠ ، ضمن اول صفقة منها التي ضمت ٢٥ طائرة ٠ وهي مزودة بمحركين نفاثين قوة دفعهما معا في الحالة العادية ١٣٤٨٨ كلغ ، وفي حالة استخدام الحراق الخلفي ، لاحداث تسارع مفاجيء لفترة قصيرة اثناء الاشتباك الجوي ، تبلغ قوة دفعهما معا ٢٢٦٨٠ كلغ ويبلغ وزنها في حالة استخدامها في مهام المطاردة ، وهي مسلحة بأربع صواريخ

جو ـ جو من طراز « سبارو » وبدون وقود خارجي ، ١٨٨٢٥ كلغ ، ومن ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن في هذهالحالة ١ر١ ٠ ويبلغ وزنها في حالة القصف النموذجي، والتسلح بأربعة صواريخ « سبارو »وحملها ٢ خزان وقود خارجي ، ٢٥٤٠٠ كلغ ، ومن ثم يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن في هذه الحالة ٨٣ر٠ ٠

وتبلغ اقصى سرعة لها وهي خالية من التسليح على ارتفاع ١١ الف متر نحو ٢٦٥٠ كلم (٥ر٢ ماك) وعلى ارتفاع سطح البحر ١٤٧٥ كلم تقريبا ، وسرعتها القتالية في مهام المطاردة ٢١٢٥ كلم على ارتفاع ١١ الف متر ، و ١٣٥٠ كلم على ارتفاع سطح البحر ٠ ويبلغ معدل ارتفاعها في حالة الاشتباك الجوي ٢٥٠ مترا في الثانية واقصى ارتفاع عملي تصل اليه ١٩٤٠٠ متر٠ ويبلغ مداها القتالي في اعمال الدورية على ارتفاعات عالية ١٨٠٠ كلم ، وفي حالة مهام المطاردة وهي مسلحة بأربعة صواريخ « سبارو » ومحملة بثلاثة خزانات وقود خارجي يبلغ مداها ١٣٠٠ كلم ، وفي حالة قيامها بمهمة قصف نموذجي (٢٧٢٠ كلغ قنابل و ٤ صواريخ « سبارو » وخزان وقود خارجي و ٥ دقائق قتال جوي) يبلغ مداها نحو ١١٢٥ كلم ٠ وهي مسلحة بمدفع دوراني ذو ٦ سبطانات عيار ٢٠ مم له ٩٥٠ طلقة ، ويمكنها ان تحمل ٤ صواريخ جو ـ جو بعيدة المدى « سبارو » و ٤ صواريخ « سايدوندر » ٠ واقصى حمولة نظرية لها من القنابل (بعد اجراء تعديلات تسمح باستخدام ٥ نقاط تعليق بدلا من ٣ لحمل القنابل) هي ٥٤٥٠ كلغ ٠

« المواصفات الفنية »

« للطائرة « ف ـ ١٦ » »

طائرة مقاتلة للقتال الجوي ذات مقعد واحد ٠ تنتجها شركة « جنرال ديناميكس» الاميركية ، ستدخل الخدمة العملية في السلاح الجوي الاميركي في اب (اغسطس) ١٩٧٨ ٠ وهي مزودة بمحرك نفاث واحد تبلغ قوة دفعه في حالة استخدام الحراق الخلفي ، لاحداث تسارع مفاجيء اثناء الاشتباك الجوي ، ١١٣٤٠ كلغ ٠ ويبلغ وزنها في حالة مهام المطاردة ، وهي مسلحة بصاروخين « سايدوندر » وبدون ان تحمل وقود خارجي ، ١٠٢٤٥ كلغ ، وفي هذ الحالة يبلغ معدل قوة الدفع الى الوزن ١ ،

ويبلغ وزنها في حالة القصف النموذجي (مسلحة بصاروخين « سايدوندر » وحمولة ٢ طن قنابل وخزان وقود خارجي) نحو ١٥ الف كلغ ، وفي هذه الحالة يبلغ

معدل قوة الدفع الى الوزن ٧ر٠ ٠ وتبلغ اقصى سرعة لها وهي فارغة على ارتفاع ١٢ ألف متر ٢١٢٥كلم ساعة (٢ ماك) ، واقصى سرعة قتالية لها على ارتفاع عالي ١٨٠٠ كلم/ساعة ، وعلى ارتفاع سطح البحر « وهي خالية » ١٤٥٠ كلم / ساعة ، وسرعتها القتالية في الحالة المذكورة ١٣٢٥ كلم /ساعة ٠ ويبلغ معدل ارتفاعها في حالة الاشتباك الجوي ٣١٥ مترا في الثانية ، واقصى ارتفاع عملي تصل أليه ١٥٨٥٠ مترا ٠ ويبلغ مداها القتالي في حالة مهام المطاردة (٤ صواريخ و ٢ خزانات وقود خارجي) ٩٥٠ كلم ، وفي حالة قيامها بمهمة قصف ارضي بحمولة ٣٦٣٠ كلغ وخزان وقود خارجي يصبح مداها ٨٨٥ كلم على ارتفاع عالي ـ منخفض ـ عالي ، و ٥٢٥ كلم على ارتفاع منخفض ـ منخفض ـ منخفض وفي حالة حمولة ٤٥٠٠ كلغ قنابل بدون وقود خارجي يصبح مدى عملها على ارتفاع عالي ٥٥٠ كلم ، و ٣٢٥ كلم على ارتفاع منخفض ٠ امافي حالة مهمة قصف نموذجية (نحو ٢ طن قنابل و ٤ صواريخ جو ـ جو و ٢ خزان وقود خارجي و ٧ دقائق قتال جوي) فيصبح مداها على ارتفاع عال ٩٢٥ كلم ٠

وهي مسلحة بمدفع دوراني ذي ٦ سبطانات عيار ٢٠ مم له ٥١٥ طلقة ، ويمكنها ان تسلح بست صواريخ جو ـ جو « سايدوندر » ، وحمولة قصوى من القنابل نحو ٥ اطنان قنابل ٠

محمود عزمي

حوار مع جبرا ابراهيم جبرا

"إذا لم أكن فلسطينياً فأنا لست شيئاً"

كان ذلك في آب ١٩٧٤ · كنا نلتقي ساعات طوال في سوق الغرب حول آلة تسجيل · جبرا يتحدث وانا اسأل واناقش · وحين نأخذ استراحة قصيرة ، كان هذا الرجل لا يرتاح · يخبرني عن وليد مسعود · وليد مسعود كان منذ ذلك الصيف الذي سبق صيف ١٩٧٥ الحار الدموي ، يعيش مع جبرا ، بكل توهجه وتوتره ·

كان من المقرر ان يكون هذا الحوار الاول في سلسلة تؤرخ للصوت الادبي الفلسطيني · لكن الحرب جاءت ، وحالت اسباب اخرى متعددة دون استكمال المشروع · ولم يكن جبرا صامتا · كان يبحث عن وليد مسعود ، وكنا نحن نبحث معه ، وكنا نحن نجد هذا التوتر الفلسطيني في كل نبضة من لهب الدم والموت الذي يلفنا ·

ننشر هنا ، اجزاء من هذا الحوار الطويل · اما الاجزاء الاخرى التي سجلت او لم تسجل على الشريط ، فهي هناك على الشريط الذي تركه وليد مسعود في سيارته ، او على السنة الابطال الاخرين الذين لا يبحثون عنه ، بقدر ما يبحثون عن انفسهم ·

الياس خوري

● اذا طلب اليك ان تعرف جبرا ابراهيم جبرا ، فكيف تعرفه ؟

□ من عدم الانصاف ان يطلب الى الانسان ان يعرف نفسه الى الاخرين ، لانه يجابه احدى امكانيتين ، اما ان يتواضع ويقلل من شأن نفسه ، او يكون ميالا الى تضخيم ذاته ، ويتصور ان الكثير من اوهامه هي حقائق ، ويؤكد على كبر الدور الذي لعبه في هذه القضية او تلك · اما ان يستطيع الانسان ان يكون منصفا مع نفسه ومع الاخرين ، فاعتقد انه امر صعب جدا · لذلك اجد هذا السؤال صعبا ·

ومع هذا ، اذا طلب الي ان اعرف نفسي فانني اقول ، متجنبا التواضع الزائف ، او التضخيم فيما لا يستحق التضخيم ، انني انسان قبل كل شيء ، وانني رجل ، الحب

عنده اكثر العواطف فعالية في حياته ، الحب بمعانيه الكثيرة ، وانني سعيت دائما واسعى من اجل ان ارى في حياتنا المعاصرة ما هو اروع ما يمكن ان يرى في اي حياة ، في اي عصر ، في اي بلد · هذه مثاليات عرفتها وانا صغير اكافح من اجل لقمة العيش ـ حالي ، حال آلاف الناس الذين عشت معهم · لكن الحب كان دائما فاعلا في نفسي ، وهو الذي دفعني ربما الى ان ارسم واكتب واتكلم واذهب من بلد الى بلد ·

انا لا استطيع ان اغفل عن ان في الحياة بؤسا كثيرا ، وان فيها حقدا كثيرا وآلاما ، ولانني عرفت الكثير من هذه كلها ، احاول ان اتخطاها واتغلب عليها · طبعا هذه مثاليات ، ولكنني اعتقد انها في اساس كل ما فعلت ، وستبقى في اساس كل ما افعل · يبقى انني اعرف ان الحياة تصنعنا بشكل معين ، ويجب ان ننصاع لكل ما تطالبنا به الحياة ·

انا منذ صغري انسان متمرد · في فترات كثيرة من حياتي ، لم اكن منسجما مع محيطي ، حتى وانا صغير في المدرسة كنت منسجما مع اثنين او ثلاثة ولم اكن منسجما مع المجموع · لانني كنت اشعر انه يجب علي ان اتخلى عما اؤمن بأنه هو الحقيقة او الفضيلة (الفضيلة بالمعنى اليوناني الفلسفي) ، لكي انسجم مع المجموع · فهذه الناحية من تفكيري ، اي رؤيتي للحياة كما هي ، ومحاولتي تخطيها لما هو اقرب الى الفضيلة واقرب الى الحب ، اعتقد ان لها اثرا كبيرا في الكثير مما فعلت وكتبت وسعيت ودرست · بعد ان يقال كل هذا انظر الى بعض ما حققت ، فأرى انني لم أفعل شيئا اندم عليه ، خيرا كان ام شرا · انا من الذين يؤمنون بالفعل ما دام الفعل يستلهم فكرة نبيلة ما ، مهما كانت هذه الفكرة ، والانسان في حياته ، يفعل الكثير ويخطيء وينزلق ، ومع هذا فانا لا اندم على شيء خبرته او جربته ، وهذا امر مهم في حياتي لانني اشعر انه جزء من تجربة الانسان التي تصنع الروايات والشعر والصور · ثم انني افكر لنفسي ، واقدم ما افكر للاخرين · واقولها بصراحة ، انني اذا كنت فنانا وهذه كلمة كنت اعتد بها حتى وانا في السادسة عشرة من عمري مع انني عشت في جو لا يعرف الفن ، فانا اختلف عن الاخرين ، وهذا من حقي · اي انني لا اهتم كثيرا فيما يعتقد الاخرون انه الصحيح ، اذا لم اقتنع به · وضعت لنفسي منهجا هو حصيلة معقدة لما نشأت عليه وخبرته ودرسته متمعناً فيه ، وانا اتبعه ولا يهمني ما يقول الاخرون فيه ، لكن الذي يهمني ان هذا المنهج يقود الى الحب الذي تحدثت عنه · مررت بانواع من التجربة تستطيع ان تملأ مئات الصفحات ، لو اتيح لي ان اخوض فيها كتابة لكي افصل هذه الناحية من حياتي · لكن هذه التجارب يتصل بعضها ببعض ضمن هذا الاطار · واعتقد ان جبرا كتب ورسم ودرس وترجم واتصل باناس اراد منهم ان يكونوا مساهمين مثله في بناء حضارة · قد تكون هذه كلمة كبيرة ورنانة ، لكنها بالنسبة الي كلمة أساسية · فانا كنت دائما ، وما زلت ، اريد ان اكون جزءا من امة تبني حضارة ، تساهم في بناء خير الانسان ·

● كتاباتك عن عالم الطفولة في قصصك ورواياتك ، تسمح لي بأن اطرح سؤالا عن طفولتك في القدس ، انت تتحدث عن القدس كثيرا ، ماهي المؤثرات العائلية ، الاجتماعية والسياسية ، التي اثرت عليك في تلك الفترة ؟

☐ طفولتي كانت في القدس وقبلها في بيت لحم ، لانني نشأت في الواقع في بيت لحم ·

وعندما اصبح عمري اثني عشرة سنة انتقلت مع العائلة الى القدس · المسافة بين بيت لحم والقدس هي ثمانية كيلومترات فقط ، لكنني اذكر عندما رحلنا من بيت لحم الـى القدس ، احسست انني رحلت من عالم الى عالم · طفولتي في بيت لحم هي الاساس ، عشقي للقدس جاء لاحقا لبيت لحم · اول ما فتحت عيني فتحتهما على طرق ضيقة مرصوفة بالحجارة وفوقها عقود واقواس · فتحت عيني على حواكير فيها انـواع الحيوانـات والاشجار ، كنا عائلة مؤلفة من انفس كثيرة تعيش في غرفة ضيقة فيها شباك واحد ، وفيما بعد ، تنقلنا من منزل الى آخر ، وبقي بيتنا غرفة واحدة فيها شباك على الاكثر وامام الشباك عتبة ، اصبحت فيما بعد طاولتي ومكتبتي · بيت لحم كانت بالنسبة لي مدينـة المسيح ايضا ، فأوجد ذلك صلة حية بيني وبينه · فأنانشات في الحقيقة في مدرسة طائفية ندرس فيها التعاليم الدينية ، ونخدم القداس نهار الاحد ، وفي تلك السن المبكرة اذكـر ان صوتي كان يعتبر جميلا كصوت اي طفل ، لذلك كنا انا واطفال آخرون مثلي ، ملزمين بأن نكون اول من يذهب الى الكنيسة صباح الاحد لنؤدي تراتيل القداس · وكان ابـي شديد الايمان · وكان على اميته ، يشعر ان ثقافته مستمدة من اللحظات التي يقضيهـا في الكنيسة · تحدثت عن ابي سابقا ، كيف كان ينهض في الرابعة من صباح يوم الاحد ويذهب الى منزل الكاهن ليوقظه من نومه ، وكنت اذهب معه احيانا الى بيت الكاهن الكهل لكي احمل ثياب الكهنوت عنه الى الكنيسة ·· كان المسيح مهما وحقيقيا ورائعا ، كـان يخفف عنا كثيرا · لم اشعر قط ان للفقر قدرة او قوة تمنعني من تذوق الحياة والتمتـع بها ·

اذكر اننا سكنا منزلا آخر مؤلفا من غرفة واحدة ايضا ، وامامه ارض فسيحة وراءها حواكير ووديان تطل على الافق البعيد ، وكلها تدعوني اليها · كنت اركض في الوديان ، انقش عن الحلزون ، اذهب الى المغاور استكشف اعماقها الرطبة المظلمة · وفي البيت ، لكي اكون وحدي ، كثيرا ما كنت ادرس فوق شجرة توت في الحاكورة · كان لي الكثير من الاصدقاء في مثل سني ، كنا دائما في لعب مشترك وقراءة مستمرة · ومن اوائل الكتابات التي كتبتها تلقائيا آنئذ في بيت لحم ، مسرحية حاولنا تمثيلها نحن الاطفال · كنا دائما نحاول ان نمثل، نجتمع في الحاكورة ونقرر ان «نمثل» ! كان هذا منتأثير وجود مسرحيين في بيت لحم ، الاول تابع لدير الفرنسيسكان والثاني للسالسيان ، وفي هـذا الاخير كانت هناك فرقة مسرحية تمثل احيانا بالعربية واحيانا بالايطالية · قبل ان ابلغ التاسعة او العاشرة ، كنت اشاهد المسرحيات بكثرة ، فدخلت فكرة الحوار وفكرة الصراع في اذهاننا ونحن في هذه السن المبكرة ، وربما كان لهذا صلة بعشقي للحوار الذي اكتبه بكثرة في رواياتي · رحلنا الى القدس وكانت تجربة اخرى في حياتنا · كانت القدس مدينة اكبر نسبيا · سكنا في منزل مؤلف من غرفة واحدة ايضا ، لكن منزلنا لم يكـن محاطا بالحواكير ، وانما بغرف اخرى تسكنها عائلات فقيرة مثلنا · عشنا في حي يعج بالناس ، لكنني لم اتمرمر من الفقر · كانت الكتب تنقلني الى عالم آخر لاصلة له بالفقر وبهذا الصراع اليومي على الاشياء التافهة · وفي القدس كنت على صلة بعالم العمل ، عالم النجارين والحدادين والحجارين ، نجتمع في الحوش او في منزلنا ، والحديث يدور عن العمل وصعوباته · كانت تجربة الحياة هنا اكثر قساوة من قبل بكثير · ولقـد ذكرت اشياء منهذه الحياة في قصتي القصيرة «الغرامفون» وفيروايتي «السفينة» ·· علىمقربة من بيتنا كان هناك سوق الحيوانات يقام يوم الجمعة ويأتي القرويون بحيواناتهم واغنامهم لبيعها ، واجلس في ركن جانبي منه وارسم الحيوانات والناس · اما المكان الذي سكناه ،

فكان يدعى « جورة العناب » وهو جزء من واد خارج اسوار القدس ، من ناحية بـاب الخليل ، يؤدي الى واد اخر عميق يسمى « وادي جهنم » او وادي « حنوم » . وتبين لي فيما بعد انه احد الوديان المتصلة ببعض الاساطير القديمة جدا ، والتي لها صلة بحرق الضحايا والاله تموز . بقيت هذه الاشياء الكثيرة في نفسي ، لتولد الكثير من الافكـار في السنين اللاحقة . فيما بعد اصبحت ظروفنا اشد صعوبة ، لكننا تحملنا واستمررنا ، وكان العون الكبير لي في حياتي هو أخي يوسف . كان اخي قد اصبح نجارا بعـد ان اضطر الى ترك المدرسة لان ابي اصيب بعجز منعه عن العمل . واضطر اخي الذي كـان ممتازا في دراسته ، والاول في صفه ، الى ترك المدرسة ، ليعيلنا جميعا . واضطررت انا بدوري الى العمل في العطل الصيفية . فعملت مرة عند سباك في جورة العناب باجر يومي قدره ٢٥ فلسا ، ثم اشتغلت نجارا في اكثر من عطلة ، لكن هذا لم يقطع علاقاتنـا بالكتب ، وكنا انا واخي يوسف نقرأ بمتعة لا تنتهي . وعندما انتهت دراستي في المدرسة الرشيدية ومن بعدها في الكلية العربية في القدس ، ارسلت في بعثة الى انكلترا . هذه المرحلة ، مرحلة المراهقة قبل السفر الى الخارج ، كانت مرحلة انفتاح على العواطـف الحارة والجارفة والمليئة بالحلم . فرسمت وكتبت وترجمت الكثير وأنا بين سن الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، واحببت اكثر من فتاة حبا عنيفا ، كان يدفعني الى الكتابة والرسم. كتبت قصصا ، ومقالات ، ومسرحية (ضاعت) ورواية (كتبتها في الرابعة عشرة ، فلم ارض عنها فيما بعد ومزقتها) ، وترجمت قصصا لاوسكار وايلد واميل زولا ، وترجمت شعرا لجون كيتس ، وجزءا من مسرحية بايرون الشعرية « سردنا بالس » ، والفصـل الاول من « بروميثيوس طليقا » لشلي ، وفصولا من حياته لاندريه موروا ، وغير ذلـك كثير ـ هذا كله قبل أن ابلغ العشرين . ونشرت بعض ما كتبت وترجمت فـي مجلـة « الامالي » البيروتية .

● اثناء دراستك في القدس ثم في انكلترا والولايات المتحدة ، ما هي المؤثرات الفكرية الاساسية التي جذبتك اليها في هذه المرحلة ؟.

□ في القدس كانت الثقافة تأتينا عن طريق الكتب المصرية . الثقافة العربية ، كانت في الحقيقة هي التي يجسدها الكتاب المصريون في مجلاتهم وكتبهم الموضوعة منهـا والمترجمة . اثر في طه حسين تأثيرا كبيرا ابتداء من « الايام » و « وعلى هامش السيرة ». كنت احفظ صفحات من « على هامش السيرة » عن ظهر قلب ، كنا نقرأ العقاد والرافعي والمنفلوطي . اذكر اننا مررنا في فترة قرأنا المنفلوطي فيها بكثرة ، على صعوبة لغته ، واعجبتني ترجماته التي تبينت فيما بعد انها لم تكن دقيقة ، لكنها كانت جميلة مثل « بول وفرجيني » ، واعجبت جدا بترجمة لمسرحية ادمون روستان « سيرانودي برجراك » ، واعجبت بعنوان « الشاعر » ... كنا نقرأ مجلة «كل شيء» و « مجلة الاثنين » بعد ذلك جاءت مجلة « الرسالة » ، التي لعبت دورا مهما في حياتي وحياة اقراني . وكنا نقرأ لاحمد اميـن وبخاصة كتابه « فجر الاسلام » ثم كان هناك اثر مدرسينا الكبير . لقد درسني اللغـة العربية في الصف السادس الابتدائي ابراهيم طوقان ، ومن بعده عبد الكريم الكرمـي (ابوسلمى) ، كما درسني اللغة العربية فيما بعد محمد خورشيد (محمد العدناني) ، وبعده مباشرة درسني الدكتور اسحق موسى الحسيني قرابة اربع سنوات . كان لهؤلاء المدرسين اثر عميق في نفسي ، ومعظمهم شعراء او يعشقون الشعر . واذكر ان الدكتور اسحق موسى الحسيني علمنا طريقة جديدة انذاك في تناول القصيدة هي الطريقة التحليلية، واعتقد ان جذور ميولي النقدية تعود الى اثر الدكتور الحسيني . بدأنا في تلك الفتـرة

نتتبه الى الشعر الانكليزي : درسنا شكسبير في نصوصه الاصلية على اساتذة قديرين كحسن الكرمي وجورج خميس ، وكنت بالغ الحماسة لدراسة الادب الاجنبي ، فاذا اعطونا عدة قصائد من كتاب شعري لندرسها ، كنت أقرأ الكتاب كله ·· وفي تلك الفترة بدأت المجلات الانكليزية وشراء الكتب الانكليزية التي كانت تصدرها دار بنغوين Penguin بطبعات شعبية · كان ثمن الكتاب قرشين ونصفا ، لكن الحصول على القرشين كان امرا عسيرا نتيجة فقرنا البالغ · كنا نعشق الكتب ونعشق الامور الثقافية ربما لانها كانت تغذي توقنا الى المجهول وحلمنا به · هنا ايضا بدأت انتبه الى نظريات وتاريخ الفن ، ووقع في يدي تلك الايام كتاب واحد في الفن هو لسلامة موسى ، فيه رسوم مأخوذة من كل الحضارات ومن كل حركات الرسم ، وعلى رداءة طبعه كنت اعتز به · واحفظ الكثير مما فيه · هذه البدايات هي التي جعلتني ، وانا في سن السابعة عشرة والثامنة عشرة، انتبه مع بعض اصدقائي الى تخلفنا الفكري · فالصراع الذي كنا نخوضه في تلك الايام مع الصهيونية ، أشعرنا بأن لا بد من سلاح فكري في مواجهتها · كنا نقول ايامئذ ان سلاحنا الفكري ، على الرغم من حركتنا الوطنية الدافقة وحماسنا وخروجنا الى المظاهرات كل يوم ، يجب ان يكون امضى وامتن ، وان تفكيرنا يجب ان يكون اعمق واكثر اتساعا · كان علينا ان نقوم بثورة فكرية · في تلك الايام عندما اعتمدنا هذه العبارة ، كنا متأثرين بفكر الثورة الرومانسية بوجه خاص · فلقد وقعت في تلك الايام في في حب عنيف لشيلي Shelley ومعه باقي الشعراء الرومانسيين الكبار · ولشلي كتاب شعري اسمه « الثورة والاسلام » · ولا بد ان اعترف انه لا يدلل على فهم عميق للاسلام، لكن شلي رأى في الاسلام قوة ثورية مغيرة ··· لقد اعطتني الثورة الرومانسية فكرة امكانية قيامنا بثورة مشابهة ·

● كيف شارك ابناء جيلك في النضال الوطني الفلسطيني ، وكيف تنظر انت اليه ، الى هذه المشاركة ؟

☐ اتصور انك تقصد جيلي عندما كنت في سن المراهقة اي في الثلاثينات · فنحن منذ ان فتحنا اعيننا ونحن على وعي بنضالنا كفلسطينيين ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني · اذكر اني وعيت الموضوع بشكل صارم سنة ١٩٢٩ ، وانا طفل ، عندما رأيت في الطرقات المظاهرات والهتافات لاول مرة · بعد ذلك بثلاث سنوات ، عندما ذهبنا الى القدس ، اذكر المظاهرات المستمرة والاضرابات الدائمة ، التي كان يقوم بها الاهالي ·· اما نحن الطلاب في المدارس فكنا نخرج دائما الى ساحة المدرسة وننظم صفوفنا ثم نلقي الخطب ونخرج الى الشارع رغما عن اعتراضات المسؤولين ، اذ كانت مدارسنا حكومية ، اي خاضعة للاشراف البريطاني ، ونذهب الى الحرم الشريف وهناك نجتمع ثم نخرج في مظاهرة · وانا لن انسى المظاهرة التي قمنا بها سنة ١٩٢٦ والتي نظمها الطلبة ، واعتقد ان اضراب الـ ٣٦ بدأ باضراب طلبة المدارس الثانوية ، اذكر في ربيع ١٩٣٦ كيف ان حركة الطلاب التي بدأت في يافا انتقلت الى القدس ، واذكر (وقد كنت طالبا في الكلية العربية) كيف خرجنا من الصفوف دفعة واحدة ذات صباح في اوائل شهر نيسان وجلسنا في ساحة الملعب ثم خرجنا في مظاهرة كبيرة عنيفة ، انضم اليها مئات الطلاب من المدارس كلها واطلقت علينا الشرطة النار ··· هذه كانت البداية التي ادت الى الاضراب فيما بعد · كان هناك من الشباب من استجاب الى حركة عز الدين القسام قبل ذلك ، لكنني لم اعرف عنهم اي شيء بالتفصيل · لم اشعر ان الكفاح المسلح دائما على صلة بجمهور المدينة ، اي اننا في المدينة ، قد نقوم بمظاهرة ونهتف ونتعرض للضرب والاذى ،

لكن كنا نشعر ان السلاح نادر ، وهو في ايدي اناس قلائل ، وكان يعطى عادة للقرويين· القلائل فقط من شباب المدينة اتيح لهم ان يتدربوا على حمل السلاح او اطلاق النار (طبعا كانت هناك تنظيمات سياسية لا مجال للدخول فيها هنا ·) وانا كشاب صغير من بيئة فقيرة في المدينة ، لم اكن على صلة بأحد من هؤلاء ، مساهمتي ومساهمة اقراني كانت في هذا الكفاح المستمر بالمظاهرات واحيانا بكتابة المقالات القصيرة · اذكر ان من اولى المقالات التي كتبتها مقالة عنوانها « ثورتنا المباركة » ـ ولا اذكر اين نشرتها ، وكان عمري ١٥ او ١٦ سنة عندما كتبت هذا المقال · الشيء الذي تحقق فيما بعد ، والذي استغرق سنوات طويلة قبل ان يتحقق ، هو الذي كنا نردده دائما : المهم هو الحصول على السلاح والتدرب عليه وحسن استعماله · اما محاولة التغيير بالترجي والعتاب ، كما يقول عبد الرحيم محمود في احدى قصائده ، فمحاولة فاشلة حتما · في ايامنا تلك لم يكن السلاح في ايدي عدد كاف من الناس ، ولم تكن الثورة مسلحة على نطاق واسع · اما المجاهدون القلائل ، هؤلاء الافراد النبلاء الذين حملوا السلاح في اقسى الظروف ، فكانوا يتحركون في الجبال ـ في منطقة جبل النار المحيطة بنابلس ، ومنطقة الخليل ، وهكذا · انا اشعر ان مساهمة جيلنا في العمل النضالي كانت ناقصة ، لا لاننا لم نرد لها ان تكون اكمل من ذلك ، بل لان الوعي السياسي ايامئذ والتفكير بالاساليب النضالية والقتالية كان كلاهما ناقصا بسبب الظروف التاريخية التي كانت الامة تمر بها عند بدء يقظتها · في اواخر الاربعينات، تغير الموقف : تحسنت المقاومة قليلا واصبح تكتيكها اقرب الى القتال الحقيقي · ان الكثير من شبابنا ومثقفينا كانوا يؤكدون ان مقاومتنا حينئذ لم تكن على اي شيء من ذلك التنظيم الحقيقي الذي ما تحقق الا متأخرا ـ في الستينات ·

● فيما تكتبه شعرا ونثرا ، طبعا تكتب كانسان فلسطيني ،فهذا الانتماء هل تشعر به على مستوى الصوت الفلسطيني في الادب العربي ، اي هل تشعر بهذا الانتماء حين تقرأ الادب الفلسطيني المعاصر ، قصائد درويش او روايات كنفاني وغيرهما ، هل تشعر انك تنتمي الى هذا الادب بصلة ما ؟

☐ انا من الذين بدأوا الكتابة قبل هؤلاء الشباب ، اي ممن يذكرون قصائد ابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي في الثلاثينات والاربعينات · وهل انسى عبد الرحيم محمود الذي كان من اصدقائي ـ رغم فارق السن بيننا ـ وكان في نظري حينئذ شاعرا رائعا ؟ · كنا نشعر في كل ما نكتب اننا فلسطينيون حتى اذا لم يكن الموضوع ضد اي شيء ، وانما هو مع فلسطين ، مع التجديد ـ تجديد النفس · واليوم عندما اقرأ هؤلاء الادباء الذين ذكرت اشعر اننا معهم او انهم معنا واشعر طبعا بالانتماء ·عندما قرأت شعر المقاومة الذي يكتبه الشعراء في الارض المحتلة ، احسست انهم بالفعل جابهوا العدو وجها لوجه : اي ان شعرهم هو شعر المقاومة بالذات ، في حين ان الذين كانوا خارج الارض المحتلة ، ولم يجابهوا العدو وجها لوجه ، فقد كانت نغمتهم من نوع اخر ، قد لا تكون نغمة الضرب المباشر ، وانما هي اذا جاز القول ، نغمة الضرب المستمر اللامباشر ، بكل ما فيها من تحريض وتحريك· اما الانتماء ، انتمائي الفلسطيني ، فهو انتماء الفلاح الى ترابه ، انتماء المزارع الى شجرته ، انتماء ساكن الشارع الى شارعه · هكذا احببت القدس ، وهكذا احببت فلسطين كلها ، واحببت ارضي فيها حيث همت ، وعشقت ، وحلمت مع انني لم املك شبرا من الارض ، ولكنني اذكر التراب في القدس والصخور في القدس ، كانني اذكر جواهر الدنيا · فالانتماء هو انتماء العشق والتداخل ، وحين تنتمي الى شيء كذلك، لا يمكن ان تنفصم نفسك عنه لانه هو انت · اذا لم اكن فلسطينيا فانا لست شيئا ·

● تقول في مقال عنوانه « الشاعر الفارس عبد الرحيم محمود » : « هذا كان عبد الرحيم محمود الشاعر الفارس الاول في شعرنا الحديث الذي اتبع القول بالفعل ، واقبل على الاستشهاد في سبيل فلسطين ، يرمي العداة بقلب من حديد وقصيد من نار » · يوحي هذا المقال انك تعطي مثال عبد الرحيم محمود بوصفه الشاعر الحقيقي · هل تعتقد حتى الان ، وقد مضى على كتابة هذا المقال تسع سنوات ، ان هذا النموذج هو نموذج الشاعر الامثل ؟

□ هو النموذج الامثل للشاعر المحظوظ الذي يتاح له ان يقاتل ، والذي يصمم على القتال ، ويخلق الفرصة لكي يقاتل · كتبت هذا المقال في اوائل سنة ١٩٦٥ ، لكي يكون حديثا للاذاعة (وهذا يعلل قصره النسبي) · الذي اعجبت به في عبد الرحيم محمود هو انه لم يكن كالكثيرين من الشعراء الاخرين الذين يتحدثون عن النار ، ولكن دائما يتجنبونها ان تتحدث عن النار شيء وان تجابهها شيء اخر · اما ان تتحدث عن النار وتجابهها في آن معا ، فهذا شيء امثل واروع · ولذلك سميته بالشاعر الفارس المتنبي ، وهذه بالغة الاهمية بالنسبة الى بعض من اروع ما في تقاليد الشعر العربي ، من طرفة وامرىء القيس الى المتنبي ·

● اعتقد ان اول عمل متكامل كتبته ،كان رواية « صراخ في ليل طويل » ،ثم مجموعة « عرق » · وتقول في احدى مقالاتك على ما اذكر انك كنت في هذه الفترة تكتب شعرا انكليزيا ، لعدم قدرة الشعر العربي على التجاوب مع طموحاتك او نظريتك · كيف نفهم اليوم هذه الاستحالة ، واستحالة الكتابة بالعربية ، وما هي مداليلها ؟

□ في سؤالك شيء من الالتباس الزمني · كتبت « صراخ » سنة ١٩٤٦ في صيف واحد· اما قصص « عرق » فكتبتها بين ١٩٤٦ و ١٩٥٦ · اما الانكليزية فكتبت بها كثيرا بين ١٩٤١ و ١٩٤٧ · وهنا اكشف لك عن سر : لقد كتبت « صراخ في ليل طويل » اصلا باللغة الانكليزية ، ثم ترجمتها الى العربية بعد ذلك بسنوات (١٩٥٣) ، لشدة احساسي واحساس اصدقائي منذ مطلع الخمسينات بأن لا بد لنا من تثوير الاساليب – وان الوقت قد حان لذلك ، اذا اردنا للعالم العربي ان يتغير – وعليه بعد ١٩٤٨ ان يتغير · كنا نشعر مثلا ان هذا الشعر الذي يكتب ، الشعر العامودي ، شعر هائل وخصوصا ما قرأنا ودرسنا منه في المدرسة · فالمتنبي وابو تمام لا يمكن ان يجاريهما او يقلدهما احد واي شيء يكتب على غرار شعرهما هو حتما اضعف منه · الحياة تبدلت ، ايقاع الحياة تبدل ، وما نريده من الحياة تبدل · شعر علي محمود طه الغنائي وجدته سخيفا في فترة لا نستطيع فيها الغناء · واذا كان لا بد من الغناء فهو الغناء باعلى صوت باشياء ارهب واصعب من الجندول والشقراء · دخلت التيه ، وكان تيها في المحيطات الصاخبة · وكان في اكتشافنا للحضارة الغربية نوع من التمزق ، لاننا نريد ان تكون حضاراتنا في هذا المستوى · واكتشافنا لمشاكلنا السياسية كان ايضا شيئا يمزق · لذلك شعرت فجأة ،رغم انني منذ صغري اكتب العربية بحب ، ان هذه اللغة لا تستجيب لحاجتي · لغة احمد حسن الزيات بجمالياتها المفرطة وتنميقها السطحي لا تستجيب لحاجتي · وكنت قد اطلعت في هذه الاثناء على الشعر الانكليزي ، والشعر الانكليزي المعاصر بوجه خاص ، لا اليوت وحده – بل الكثير من الشباب الذين كتبوا شعرهم في خنادق الحرب وتحت قنابل الموت، فاحسست انهم اقرب الى تجربتي · بدأت بكتابة هذا الشعر وانا طالب في انكلترة واستمررت به بعد عودتي الى القدس ، ونشرت الكثير من القصائد في لندن ، وفي مجلة كانت تصدر في القدس اسمها « فورم Forum » والذي لم انشره كثير · وربما كان

تأثري في تلك الاثناء بلوي ماكنيس اكثر من تأثري باليوت ، ولو ان اليوت لم ينج من تأثيره اديب في هذا القرن · لقد بقي هذا الشعور يلازمني الى ان ذهبت الى بغداد · « صراخ في ليل طويل » التي كتبتها بالانكليزية ترجمتها الى العربية بعد ذهابي الى بغداد ·بعد النكبة قلت : هنا يجب ان نحاول محاولة جديدة ·اما ان نبدأ من جديد او ان نسكت ! مكان الكشف الهائل هو ان البداية الجديدة ممكنة · وهنا قلت بضرورة استخدام التراث لغرض عصري · لغة الشعر ولغة القصة التي جاءتنا اغلبها عن طريق الادباء المصريين ، لا بد من تقييمها واعادة تركيبها من جديد · فلنعد الى العرب القدامى ، لنعد الى الكلاسيكيين والرومانسيين ، ولنضرب جذورنا في كل الحضارات الممكنة ، حتى نفهم تجربتنا الحضارية الراهنة على ضوء جديد غدا من الجنون الا نتمسك به بعد النكبة في فلسطين · وهذا كله ممكن رغم ان الطريق طويلة ، الا انها ايضا شاقة ومثيرة ومحفزة · ومن هنا جاءت المحاولات الجريئة في الرسم ، في الشعر في كل فنون القول والتعبير ·

● الا تعتقد ان احد مداليل الكتابة بالانكليزية هو وجود نموذج بالنسبة لكم ، هو نموذج الادب الغربي ؟

□ محتمل جدا · انت لا تستطيع ان تخلق شيئا من العدم ، لا شك ان ثقافتنا جاءت عن طريق فهمنا لتراثنا عن طريق المفاهيم التي تبلورت عن طريق دراسة الفكر الغربي · طبعا كان هذا امرا اضافيا الى الغربة الداخلية وتصميمنا على ايجاد البديل · ويخيل الي ان كل بديل فاعل هو في التحليل الاخير مزيج من الاستعارة والخلق · والعودة دائما الى نقطة الصفر ليست جنونا فحسب بل امر مستحيل ·

● تقول في مقدمة مجموعتك الشعرية الاولى « تموز في المدينة » انك تكره النعوت وتبحث عن الموسيقى الاوركسترية · فهل تعتقد ان شعرك قد استطاع الوصول الى هذه الموسيقى ؟

□ قد يكون ما حققه الانسان قاصرا عن طموحه · لكن هذا ما طمحت اليه ، وهذا ما يبدو في مجموعتي « تموز في المدينة » وفي قصائدي اللاحقة · اما التقييم فيتوقف على الناقد · المهم انني كنت ارى في كثرة النعوت ضعفا · يلجأ الانسان الى النعت عندما لا يستطيع ان يخلق الحالة المنعوتة عن طريق اللفظ ، والنعت لا يضيف بعدا حقيقيا الى التجربة · اي عندما يقول الشاعر « ليل حزين » عليه ان يوحي لنا حزن الليل بكنايات وصور، بحيث يخلق فينا الشعور بأن الليل حزين ، لا بمجرد النص على كلمة « حزين » الملحقة بكلمة ليل مجانيا · هذا الذي اردت فعله وكررت قوله · والذي كنت اردده في اكثر حديثي عن الشعر لزملائي ايضا · اما الموسيقى الاوركسترية ، فهذه ناحية تحدثت عنها كثيرا في ذلك الوقت ، لانني اردت التنبيه الى نواح في الموسيقى ، بالنسبة الى الشعر ، غير النغمة والايقاع · كنت اقصد الى تنوع الاصوات في القصيدة ، لان القصيدة العامودية هي في الاغلب قصيدة ذات صوت واحد ، في حين اني اردت قصيدة من اصوات متعددة وثيمات مركبة · ربما كان تحقيق هذا الشيء امرا صعبا ، لكنه رائع عندما يتجسد · لاحظ اهتمام بعض الشعراء بهذه النواحي في السنوات الاخيرة · قصائدي الطويلة كلها تنطوي على هذه الفكرة ·

● تؤكد في مقالك « الشعر الحر والنقد الخاطىء » الذي هو رد على كتاب نازك الملائكة ، على ثلاث مسائل جوهرية ، الاولى ، ان الشعر الحديث هو انعكاس التمرد العربي في سبيل حياة اغنى واعنف ، ثم تربط ولادة هذا الشعر بهزيمة ١٩٤٨ · الثانية

هي التشديد على فردية واصالة الشاعر في « خضم مليء بكل غث » · ثالثا ، تؤكد على ان هذا التجديد قد جاءنا من اوروبا · سؤالي هو كيف تتوحد هذه المسائل في نظرك تركيبيا · حول هذه النقطة هناك العديد من الاراء ، هناك راي يقول ان الشاعر العربي كان وحده السباق في اكتشاف الفجيعة ، وسلمى الجيوسي مثلا تقول ان الشعر العربي الحديث كان متقدما على الفكر العربي · اريد ان اعرف كيف ترى انت هذه النقاط تتوحد داخل التجربة الشعرية الحديثة ؟

☐ توحيد هذه الامور الثلاثة يكاد يكون امرا منطقيا ، فاما الشعر الحديث وكونه انعكاسا للتمرد العربي في سبيل حياة اغنى واعنف فلا يحتاج الى افاضة بعد الذي قلناه · لكن المهم ان تؤكد على ان الشاعر نفسه ، اذ وجد نفسه محاطا بخضم مليء بكل غث ، اذ وجد نفسه محاطا بمجتمع لا يسير بالسرعة نفسها التي يسير فيها الشاعر ، اذ وجد نفسه مجابها بكثير من التوافه التي تفرض نفسها على الفكر باعتبارها فكرا او شعرا او فنا ، هذا الشاعر ، لو لم يكن لديه من الفردية والاصالة ما ينبهه الى تفاهة كل ذلك ، الى ضرورة التمرد عليه ، لما استطاع ان يكون صوتا للتمرد العربي الذي اجتاح الامة العربية كلها بعد هزيمة ١٩٤٨ · اعتقد انك تعلم انني اول من قال بهذا الشيء · اول من جعل هزيمة او نكبة فلسطين ١٩٤٨ الاساس في كل تجديد عرفناه في العالم العربي ، وخصوصا التجديد في اساليب القول والاساليب الفنية كلها · الشاعر او الفنان ، الفرد الواعي لهذه الامور كلها ، كان بالضرورة رائدا · وكان عليه ان يحقق ريادته عبر ايجاد الطريق التي تعكس هذا التمرد · اقول ايضا ان التجديد جاءنا من اوروبا · ليس هناك تحديد مطلق في الفنون · انا ارى ان كل تجديد له صلة بحضارة ما، باحدى فترات التاريخ او احدى الفترات المعاصرة · اذا درست التجديد الذي حدث في اساليب الفن في اوروبا في مطلع هذا القرن ، تجد ان الكثير منه اكتشف اكتشافا عن طريق الفن الزنجي او السومري او العربي · طبعا هناك دائما الصيغة الاضافية التي يأتي بها الفنان الاصيل ، وهذه موهبة لا تستطيع ان تخلقها لانها سر العبقرية وسر النبوغ · ·الان بالنسبة الى الشعراء العرب والمجددين العرب ، كما قلنا في جواب سابق ، كان النموذج الغربي واضحا في اذهان الكثيرين منهم ، لا سيما الذين درسوا هذه الاساليب وفحصوها ووجدوا كيف انها اصبحت عدة الغرب في التعبير عن نفسه · هنا كان لا بد للرائد العربي من ان يدرس تجربة اوروبا ، وكان عليه ان يستفيد منها وان ينقل شيئا من هذه الشحنة ، اضافة الى الشحنات المتراكمة في نفسه ، اضافة الى ضرورة التمرد الذي اصبح هو الهواء الذي يتنفس · وكان ان تحقق التجديد في دمج هذه العناصر معا ·

● لقد شاركت في مجلة « شعر » وفي « جماعة بغداد للفن الحديث » ، على رغم الفارق الزمني بين التجربتين · في مجلة « شعر » كان الهاجس الاساسي هو الوصول الى المعاصرة ، الى مستوى الشعر العالمي ، كما كان يتردد دائما ، وفي « جماعة بغداد » نجد نفس الهاجس · في مجلة « شعر » اصرار على الرموز التموزية ، وفي « جماعة بغداد » بحث عن الاصالة في الفن المحلي القديم · كيف تقيم الآن هاتين التجربتين ؟

☐ هذه اول مرة اشاهد فيها اقامة الصلة بين مساهمتي في مجلة « شعر » ومساهمتي في « جماعة بغداد » ! اكتشاف هذه الصلة امر طريف جدا ، ويستحق الوقوف عنده · في مجلة « شعر » كان الهاجس الاساسي كما قلت هو الوصول الى المعاصرة ، الى مستوى الشعر العالمي · هذا صحيح ، وهذا ما كان يتردد دائما على السنة الشعراء

والنقاد الذين يكتبون في « شعر » ، وخصوصا اصحاب المجلة · وفي « جماعة بغداد » برز نفس الهاجس ، ولو ان الهاجس الاساسي هنا كان العودة الى المحلية : العودة الى الرموز والاشكال الشعبية نفسها ، والعودة بالفنون العراقية من السطح الشعبي الى الاعماق التاريخية ، وصولا الى سومر وبابل · كان الاصرار على الرموز التموزية في « شعر » مجرد صدفة ، وصدفة عثور الشعراء على الرمز التموزي ، بدت فيما بعد وكأنها الظاهرة الاساسية للمجلة ، لفترة ما · اعتقد ان الهاجس الاول في مجلة «شعر» كان كتابة شعر يوازي قيمة واهمية التجربة العربية في الخمسينات اولا ، ويوازي قيمة واهمية التجربة العالمية في كتابة الشعر ثانيا · في « جماعة بغداد » كان هناك هاجس مماثل ، وهو الربط بين المعاصرة والمحلية ، وقد تحدثنا عن ذلك في الواقع في البيانات التي نشرناها في تلك الفترة ، وفي الخطاب الذي القاه جواد سليم في افتتاح المعرض الاول للجماعة (عام ١٩٥١) جزء أوحيته انا نفسي له ، وهو الجزء الذي يربط بين محاولات الفنانين العراقيين والمحاولات التي تجري في العالم لتصوير ما في العصر من مأساة وتمزق · هذا الشيء نفسه هو ما اردت له ان يتحقق في الشعر الذي اكتبه انا او يكتبه اصدقائي او ينشر في مجلة « شعر » ··· الامور الرئيسية التي ارادها الشعراء كانت العودة الى الصور والاشكال والرموز المحلية ، واتفق انني كنت قد ترجمت كتاب « ادونيس » (الذي هو جزء من « الغصن الذهبي » لجيمس فريزر) ، وهو يدور حول مراسيم الخصب القديمة وعلاقتها بالرمز التموزي ، وتبين ان هذا الرمز هو من اهم الرموز الحضارية التي بقيت عبر الحقب والتي كان لها صلة فيما كنا نحاول ان نفعل ، وهو ان نرى تجربتنا كتجربة فداء · التجربة الفدائية هذه تؤدي الى البعث والميلاد الجديد الذي سبق وتحدثت عنه ·

● الملاحظ في تجربة مجلة « شعر » هو غياب الفكر النظري المتكامل عن هذه التجربة، طبعا كانت هناك اتجاهات فكرية محددة : يمكن العودة مثلا الى كتابات يوسف الخال ، وكتابات ادونيس او كتاباتك انت · لكن بقي الطابع الانتقائي غالبا على تجربة المجلة ، التبرير الذي اعطي لهذه الانتقائية هو ضرورة الانفتاح وبشكل اساسي على تيارات الفن والفكر الغربية ، الا تعتقد معي ان تفسير هذا الغياب ، يمكن ان يفسر بكون مجلة « شعر » هي احدى الجسور التي بناها الفكر العربي مع الفكر الغربي ؟

□ في الواقع عندما تقول بغياب نظري عن المجلة ، فمعناه انك لا تستطيع ان تفسر هذا الغياب بشيء محدد ، كاقامة جسر مع الغرب . لانه عندئذ تبطل النظرية ان تكون غائبة ، اي ان اصحاب المجلة يملكون فكرة اساسية هي اقامة هذا الجسر · ولكني اعتقد ان الانتقائية التي تتحدث عنها ، تعود الى كون أصحاب المجلة ، لم يطالبوا اي شاعر بمنهج معين · كانوا يصرون على الجودة ، والجودة طبعا حسب مقاييس يوسف الخال وادونيس اللذين كانا المشرفين على المجلة بشكل مطلق · اما عن الغياب التنظيري، فانا في الواقع لم تكن لدي نظرية بالمعنى الذي تذكره انت ، وانما كنت اكتب للمجلة من بغداد بما كنت اؤمن به حول الشعر ونظريات الشعر · كانت مجلة « شعر » مرحلة لا بد منها للشعر العربي المعاصر ، وعندما توقفت عن الصدور فانها توقفت في الوقت الذى كان يجب فيه ان تتوقف ، لانها انهت مهمتها ، ولان ماسيلي كان يجب ان يكون ربما متصلا بنظرية ما اكثر تماسكا · هذا الرأي اقوله ارتجالا ، ولعلنا نجد ناقدا او مؤرخا يؤكد على هذا او يفنده · واخيرا فان اصحاب المجلة والشعراء الذين كتبوا فيها كانوا يصرورن على حرية الشاعر في ان يقول ما يريده ، لذلك كانت المجلة تنشر

لشعراء من ذوي اتجاهات ليست متباينة فقط بل ومتناقضة . الشرط الاول الذي كان يؤمن به هؤلاء الشعراء هو حرية الشاعر .

● عدا عن كونك رساما وشاعرا وناقدا ، فلقد بدأت تعرف اكثر بوصفك روائيا ، فسؤالي الاول يتعلق بعملية كتابة الرواية نفسها . كيف تكتب الرواية ؟ هل هناك مخطط يوضع سلفا لهذه الكتابة ؟ ما علاقة المقاطع الشعرية الكاملة التي نجدها في رواياتك ببداية الرواية وبفهمك لهذه البنية ؟ كيف تصنع شخصياتك وكيف توجهها وكيف تتعامل معها ؟

□ نادرا ما تتم الرواية نتيجة تخطيط مسبق . اخطط بعض الشيء ، اضع مخططا مختصرا اعود اليه مرة بعد اخرى كلما تقدمت في الكتابة ، وأغيره ، اضيف اليه اشياء جديدة . ولكن هنالك مسألة أساسية وهي ان الرواية التي اكتبها ليست نتيجة مخطط اعده ، بل هي نتيجة حالة ذهنية معينة اعيش معها فترة من الزمن ، حالتي الذهنية ، هي التي تؤكد هذه التفاصيل والاشارات المسبقة وتجعلها منسجمة في النهاية ، بحيث لا تفلت هذه التفاصيل وتضيع الشخصيات ويضيع التركيب الروائي الذي احرص عليه ، ولذلك تجدني عندما اكتب رواية ، واقضي في كتابتها بضع سنوات ، اظل طيلة هذه السنوات في هذه الحالة الذهنية . في هذه الاثناء تأتيني شطحات شعرية ، كما ذكرت ، اكتبها واتركها جانبا ، لانني اشعر أن مكانها سيأتي في مكان ما من السياق الروائي . تمثل هذه المقاطع الشعرية عادة اوجها معينة لاحدى الشخصيات ، وانا يهمني ان تكون للشخصية اوجه متعددة . لكن لا بد من القول انني كلما بدأت بكتابة رواية ، اكتبها مدفوعا بنوع من الدافع الشعري ، او الدافع اللاعقلاني ، الذي يجعلني اجلس وابدأ بالكتابة كأني اكتب قصيدة .. كثيرا ما تأتيني نفحة كلامية ، فأسجلها في صفحتين او ثلاث ، واعرف حينئذ انني بدأت برواية جديدة .

● الحالة الذهنية التي تتكلم عنها تؤدي الى تعددية في الشخصيات وتعددية العوالم داخل الرواية ، فكيف تصف الخط الذي تسير فيه هذه الحالة الشعرية ، لان الحالة الشعرية قد تتعدد داخل شخصية الشاعر وهنا يمكن ان يكون هذا الشاعر هو صدى الوعي الجماعي . انما هنا يقود هذا التعدد الشعري الى تعددية في الشخصيات ؟

□ هذا هو الفرق بين كتابة القصيدة وكتابة الرواية . انا اسمي القصيدة رؤية أحادية ، والرواية رؤية تعددية . فعندما تأتي النفحة الاولى في شبه الغيبوبة التي تحدثت عنها ، تأتي لتوحي بالتعدد الذهني الذي سيسيطر علي لمدة طويلة . هذا الذي حدث فعلا عندما كتبت رواية « صيادون في شارع ضيق » . كتبت على ما اذكر ثلاث صفحات طويلة بخط ناعم باللغة الانكليزية ، كانت هذه الصفحات وصفا شعريا لحالة معينة تبين فيما بعد انها حالة البطل في بغداد سنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩ لكني لم استعمل هذه الصفحات في ما بعد ، بل كانت المنطلق الذي اوحى الي بتعدد الشخصيات وتعدد المواقف ، فاستطعت ان الاحق الشخصيات فيما بعد بعقلانية واضحة جعلتني في غنى عن الدفقة الشعرية او الشعورية الاولى .. عندما اريد ان اكتب رواية لا اوجد بطلا واحدا ، بل اخلق ابطالا ، فالبطل الواحد هو موضوعة رومانسية ، ومن صفات الرواية في القرن الماضي . ابطالي مهمون كلهم ، والعلاقات فيما بينهم هي الرواية . فالحالة الذهنية التي وجدت في نفسي ، بشكل ما أو بقوة ما ، نتيجة انفعالاتي وتجاربي الشخصية واحلامي وكل ما يجعلني احيا واتعذب وافرح وانتشي ، هي التي تولد الحالة الذهنية المعينة في فترة معينة.

فالرؤية التعددية اذن هي الغاية الاساسية من محاولتي ، والتعددية هي التي قد تعطي ، في النهاية ، الامور التي اعالجها حقها · انا لا ارى الامور سوداء او بيضاء : بل اراها بظلال والوان لا تنتهي ··· فالتعدد في الشخصيات هو ايضا تعدد في جوانب الشخصية الواحدة · هناك اذن تعدد مضروب في تعدد ، وحاصل هذا الضرب هو الرواية التي اريد ان اكتبها ·

● اذا اردت ان اتابعك من الداخل ، قبولا بالمنطلقات والوصف الذي قدمته استطيع ان الاحظ ان في رواياتك الثلاث ، ناحيتين ، الاولى هناك شخصية مركزية توحد العمل الروائي ، وهناك من جهة ثانية الحالة الشعرية التي تنعكس في استخدام الضمير المفرد ، اي ان مجموعة الضمائر المفردة التي تتوحد حول شخصيات متعددة هي مجموعة من التجارب الشعرية اذا اردت ، تعود فتتوحد في بنية فيها الكثير من العقلانية التي تربط هذه اللحظات الشعرية · هل تعتقد ان هذا التفسير لبنية عملك الروائي ، يمكن ان يكون تفسيرا داخليا حقيقيا لما تشعر به وانت تكتب ؟

□ نعم ، ممكن · أنت حددت شيئا كنت اشعر به أنا ، دون ان اعبر عنه بهذه الدقة ، فانا اكتب بصيغة المتكلم ، واجعل شخصياتي تتكلم بهذه الصيغة لانني احب ، كمؤلف اولا وكقارىء محتمل ثانيا ، ان اكون داخل الشخصية · فعندما اجعل احدى شخصياتي تتكلم بصيغة المتكلم فانني اشعر ان القارىء والكاتب قد استوعبا سويا في هذا الكلام ، وتصبح عملية نقل التجربة عملية مباشرة ، داخلية ·

● هناك تركيز في رواياتك الثلاث على انهيار طبقة معينة · والملاحظة الاساسية التي ينتهي اليها القارىء هي ان الاشكالية هي اشكالية ثقافية بشكل اساسي · لنأخذ شخصية عدنان طالب في « صيادون » ، وهو شاب اقطاعي يثور على طبقته ، ويقتل عمه (والد سلافه) وهو يساهم في دمار طبقته بوصفه شاعرا متسكعا · وهناك « جميل فران » ، الفلسطيني الذي انهى دراسته في لندن ، والذي يلعب دور مسرع ثقافي لهذا الانهيار · تعود في « السفينة » الى وصف انهيار هذه الطبقة منطلقا من مواقع شخصيات المثقفين ، رغم ان بعضهم ليس مثقفا محترفا ، وحين تركز الرواية على الانهيار الارستقراطي للدكتور فالح تنقل على لسان وديع عساف ما معناه ان هذا انهيار للثقافة، انهيار للذين يقرأون ويكتبون ويفكرون · اريد من تساؤلي ، ان تسمح باضاءة هذا الجانب من رواياتك ·

□ عندما كتبت هذه الروايات لم افكر بالتحديد انني اصور انهيار هذه الطبقة · اردت ان اصور ما يحدث فيمجتمعنا · هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اردت ان اصور المستقبلية التي هي جزء مما ادعو اليه دائما · ولكني في الواقع صورت انهيار هذه الطبقة كما شرحت انت · في « صراخ » هناك انهيار مقصود ، هناك سليلة الاسرة العريقة التي تنسف بيتها · في « السفينة » يقول وديع عساف في انتحار الدكتور فالح، ان جزءا من الحياة قد قتل نفسه ، هذا لانني ارى مأساة في كل انهيار · ليست تجربة المجتمع تجربة احادية مسطحة تستطيع ان ترفض جزءا منها دون ان تتأثر الاجزاء الاخرى · فانا ارى المأساة في كل حدث · هناك مأساة في نهاية فالح هي مأساة عربية ، كما ان هناك في الوقت نفسه انهيارا واقعا يجري الان · اذا لم ير الروائي المأساة فيما يحدث أصبح دعائيا، اصبح مجرد بوق لفكرة ما ، وانا ارفض ان اكتب كتابة دعائية· فانا أريد ان ارى المجتمع بقواه المتناقضة ، وارى ايضا المفارقة · السخرية ، الروعة ،

المأساة ، كلها يجب ان ترى · والا فانا افضل الا اكتب ، ولا اظن ان روائيا يستحق هذه التسمية سيكتب اذا لم ير هذه الامور بأسرها · فانت كروائي تضع نفسك فيموضع الرائي الكبير ، وترى ، وتترك الباقي للقارىء · انا ارى الانهيار كشيء محتوم ، وكل ما يعني ذلك من مأساة اصبحت ضرورية لحياة هذا المجتمع · فالبطل في المأساة الاغريقية هو شخص كبير يعاني صدعا اخلاقيا يؤدي به الى الدمار ، الى اختيار الموت· يستطيع ان يختار احد موقفين ، الاول ينجيه ولكنه يسقطه خلقيا ، ويقوده الثاني الى مصرعه ولكنه يبقيه مهما كرمز مأساوي · اذا لم ير الكاتب بطله بهذا الشكل فانه لن يكتب مأساة · قد يكتب كوميديا او تاريخا حديثا ، لكنه لن يكتب مأساة ، قد لا اكون وفيت الموضوع حقه ، لكنني لا اراه بالشكل الذي تراه انت ، هذا الشكل الاولي الواضح، لاني لا ازال ارى القضية بوصفها صراعا فاجعا بين شخصيات ، بين ما تمثله هذه الشخصيات من قوى خلقية او اجتماعية او تاريخية ، اما الناحية الثقافية ، فانا ارى ان للمثقفين في العالم العربي دورا كبيرا مهما حاولت بعض القوى حجبه عنهم · لا يزال المثقفون هم المغيرون وهم الثوريون الحقيقيون سواء حملوا السلاح في سبيل هذا التغيير او لم يحملوه ، الثقافة هي التي تغير في النهاية ، واذا لم تغير تكون قد عجزت عن اداء دورها · وقد تقول ان المثقف لا يفعل · هذا صحيح أيضا الى حد ما ، لان المثقف بقدر تطلعه الى الفعل موزع ايضا ، يفعل الشك في نفسه كثيرا ، لانه يرى اوجها كثيرة للفكرة الواحدة ، وهذا قد يمنع عنه الفعل الايجابي · وهذا ايضا ممثل في رواياتي · لكن الذي لا ريب فيه هو ان للمثقفين دورهم الاكبر في هذا المجتمع على تناقضاتهم ، وعلى الرغم من كل ما حدث او يحدث لهم ·

● انهيار هذه الطبقة المحددة التي تتحدث عنها يقع ضمن آلية تسريع ثقافي ، حيث تلعب الثقافة دورا اساسيا في هذه العملية · لكننا نلاحظ غياب البدائل الموضوعية عن رواياتك · ان انهيار الطبقة الاجتماعية هو وليد ظاهرة تاريخية محددة ، وعادة يحدث هذا الانهيار ضمن بدائل طبقية مطروحة · في روايتيك الاخيرتين ، لا وجود للبدائل · عدنان طالب يقتل الاقطاعي دون ان يكون بديلا له · تتكرر هذه الظاهرة في « السفينة » ، حتى انك كنت مترددا بين ان تغرق السفينة في البحر او تعود بها الى اليابسة ، وتقيم هذه المصالحة الاخيرة ، الشخصية اذا اردنا ؟

□ تعالج « صيادون » فترة محددة هي فترة اوائل الخمسينات ، وهي تكاد تكون الفترة التي كتبتها فيها · ولقد حاولت أن اصور المجتمع فيها كما اراه في تعددية وجهات النظر ، لكي ارى اكبر قدر من القوى التي تسيره · فانا ارى ذلك المجتمع في تلك الفترة وبأعين تلك الفترة ، أضافة الى عيني انا · لقد كتبت رواية وثائقية تتنبأ بما حدث بعد ذلك : انها تتنبأ بثورة ١٩٥٨ ، فوضع كهذا ، لا بد ان ينتهي الى ثورة · اما من سيكون البديل ، وكيف ستكون البدائل ، فيجب ان تكون نبيا معصوما لتتنبأ به · ليس من شأني كروائي ان اطرح البديل ·· انا روائي قبل ان اكون سياسيا · انا روائي ارى الانسان بكل تعقيداته وتناقضاته ، وهو الاهم في نظري · اما « السفينة » ، فانها كذلك لا تطرح البديل ، فالبديل موجود ، لكن بعض الطبقات لا تستطيع الانسجام مع هذا البديل الذي حدث · اي ان الفترة الزمنية التي تفصل « السفينة » عن « صيادون » هي السنوات العشر التي تحققت فيها بدائل معينة ، لكن هناك انهيارا مستمرا يمثله الدكتور فالح لانه لا يستطيع الانسجام مع هذه البدائل ··

● في تصويرك لانهيار الطبقة الاقطاعية في روايتيك الاخيرتين ، تحصر شخصياتك

بفئة محددة من الناس ، هي مجموعة من المثقفين الذين ينتمون الى الطبقات العليا في المجتمع ، وحتى عندما تصور اليسار فان نماذجه هي نماذج من المثقفين الذين درسوا في الخارج · هل يعود سبب هذا الاختيار ، اي سبب عدم وجود طبقات اخرى ، الى كونك تستقي شخصياتك من خبرتك الخاصة ، أم توجد اسباب اخرى ؟

□ يعود السبب الاول لهذا الاختيار الى ما قلته سابقا ، فانا لا اكتب عن شيء الا اذا خبرته بنفسي · وبحكم عملي او حياتي الثقافية فان اكثر الناس الذين اتصلت بهم كانوا من المثقفين · وكما قلت سابقا ايضا ، فانني ارى ان المثقف هو الذي يلعب دورا كبيرا في التغيير او في التمهيد لهذا التغيير ، انا لا ادعي انني اكتب الرواية المطلقة او النموذجية · فانا اكتب اولا لكي امتع نفسي ، فانا لو لم اكن اتمتع بما اكتب لما كتبت، ثم انني اريد ان اكتب عن تجربتي الشخصية ، كما اريد ان يكون لما اكتب قيمة انسانية · وعندما تتفق هذه الارادات الثلاث ، تكون رواية اكتبها ، فانا لا استطيع تصوير بعض الشخصيات او الفئات التي يتقن غيري من القصاصين تصويرها ·

● تحتل فلسطين جزءا هاما من رواياتك · لكنها تأخذ شكلين : الاول هو الذاكرة ، والثاني بوصفها محرضا ثقافيا على التغيير في المجتمع العربي · ولكن لماذا تبقى فلسطين ذاكرة ومحرضا ثقافيا فقط ؟ لماذا لا تتسع لتستوعب حركة الشعب الفلسطيني اليوم وواقع اللاجئين ؟

□ كما قلت فانا اكتب عن تجربتي الشخصية · وربما كان من سوء حظي انني قضيت معظم حياتي خارج فلسطين ، فكانت تجاربي في الاغلب مع غير الفلسطينيين · اما الناحية الاساسية في كل تفكيري فكانت ان فلسطين هي الاهم ، وهي المغير ، وأنها ستبقى دائما لا الضمير المتحرك فقط ، بل القوة التي تحرك الضمائر كلها في الوطن العربي ·· كتبت رواياتي وانا متأثر بتجربتي الشخصية خارج فلسطين ، فكان علي ان ارى القضية من الناحيتين اللتين ذكرتهما انت · الناحية الاولى هي التذكر ، فأنا احمل فلسطين في دمي ، اصورها خاصة في قصصي القصيرة كما عرفتها ، وبكل براءتها ، وتبقى القدس مدينة الواقع ومدينة الحلم ، المدينة الفاضلة والمدينة التي يجب ان يكافح من اجلها · ذكرت قبل مدة لاحد اصدقائي ما قاله لي توينبي في الخمسينات عندما التقينا في بغداد · قال : « انتم الفلسطينيون خرجتم من فلسطين كما خرج العلماء الاغريق من القسطنطينية بعد ان احتلها الاتراك سنة ١٤٥٣ · انتم تلعبون نفس الدور الحضاري الهائل في الامة العربية ، هذا هو مصيركم او حتفكم ، لا اعرف » · لقد اصبحت فلسطين بعد النكبة اكثر من موقع جغرافي ، لقد اصبحت فكرة جامعة تجتاح امة بكاملها · وهذا امر اعيشه كل يوم ·

● الاحظ انك تعتمد في رواياتك على نوعين من الايقاع : ايقاع خارجي ، اذا صح التعبير ، يرتكز على ثوابت تستمر داخل العمل الروائي ، اصوات باعة اليانصيب في « صيادون » او ايقاع البحر في « السفينة » ، وهناك ايقاع آخر هو ايقاع العلاقات التي تنسجها الرواية · فكيف توحد هذين العاملين ؟ اي كيف ترى البناء الروائي من خلال هذين العاملين ، وما هو الدور الذي يلعبه كل عامل على حدة ؟

□ الايقاع عامل بالغ الاهمية في كتابة الرواية ، بل هو عامل مهم في كل الفنون ، وتكاد اهميته في الرواية ان تعادل اهميته في الموسيقى ··· يحتاج الايقاع ، حتى يتحقق دون املال ، الى استيفاء بعض الشروط · يجب ان تنوع ايقاعك ضمن اطار معين

بحيث يبقى السرد صاعدا هابطا ، ويحافظ على اهتمامك من ناحيتين ، من الناحية اللغوية نفسها ، ومن الناحية الصورية التي تتابع فيها الاحداث · وانا اتعمد ان يتناوب البطء والسرعة في الايقاع الروائي ، لان ذلك يخلق حركة تحمل القارىء الى الامام وتوحي له بتعاقب الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، وتعاقب العواطف البشرية ، هذه أمور سيكولوجية تستطيع تحقيقها اذا عرفت كيف تلعب لعبة الايقاع بشكل موفق ، يعتمد الايقاع في « السفينة » على ثوابت اعود اليها نفسيا : البحر ، النوارس ، الموانىء ـ هذه الثوابت تعطيني قاعدة استند اليها حين اعود ثانية الى ايقاعي الاخر ـ كما يعتمد على علاقات الشخصيات ببعضها ، العلاقات بين الشخصيات هي علاقة حرة متحركة ، بالنسبة الى الثوابت الموجودة في الرواية ومهمة الروائي هي توحيد الصلة بين الثوابت والعلاقات التي لا يمكن ان تبرز بشكل واف الا اذا استطاع الكاتب استغلال مداخل الوان الخلفية · وفي النهاية فان الروائي لا يقيم الصلة فقط بين الثوابت والعلاقات الحركية وانما يقيم بينها تناغما معينا ، محققا بذلك الايقاع الهارموني الكلي المطلوب ·

● كيف تكتب رواياتك ، هل تكتبها مرة واحدة ام تعيد الكتابة ؟ هل تحذف كثيرا ؟

□ الحقيقة انني احذف احيانا · اكتب اكثر مما يتحمله الموضوع ، اولا استحسن ما كتبت ، فاحذف · وهناك فصول اعيد كتابتها كفصول ، اي اعود الى فصل قديم فاقوم باعادة كتابته فيضطرني هذا الى اعادة كتابة فصل اخر يتصل به واذكر انني اتعبت السيدة التي طبعت لي « السفينة » على الالة الكاتبة ، لكثرة ما كنت اعيد كتابة بعض الفصول ، وهذا ما يفعله كل كاتب جاد لكنني لا ادعي انني اعيد كتابة الرواية كلها من جديد بعد ان اكون قد انتهيت منها · يقول د·هـ· لورنس انهكان يفعل ذلك ، وانه كتب بعض رواياته ثلاث او اربع مرات او اكثر · والمعروف عن تولستوي انه اعاد كتابة « الحرب والسلام » سبع مرات (فيما اذكر) ، وارهق زوجته المسكينة التي كانت كل مرة تعيد نسخها بخط يدها ! هذا عمل لا اعتقد أن له ضرورة ، او اذا كان ضروريا فانه عمل هائل جدا لا استطيع القيام به ·

● الرواية هي فن جديد في الادب العربي ، ومجرد كتابتها هو مساهمة في التجديد العام في اشكال التعبير الادبية العربية ، لكن سؤالي يتركز على التفاوت بين نوعين من التجديد : في التجديد الشعري ، اخذت الحركة الشعرية على نفسها التجديد في اقصى ما وصل اليه الشعر العالمي ، ونستطيع اليوم ان نقرأ قصائد تواكب هذا التجديد · بينما لا تزال الرواية العربية في مجملها كلاسيكية · طبعا ، فهي تتراوح بين اكثر من مدرسة روائية من الرومانسية والانطباعية والواقعية وصولا الى الرواية الجديدة · مساهمتك الروائية انت بالذات ، تتركز حول بناء رواية شخصيات ، رواية واقعية تمزج الشعر بالعامل الاجتماعي · الا تعتقد معي ان هذا النوع من التجديد هو دون التجديد في الشعر ، ولماذا لم يصل التجديد في الرواية او لم يطمح الى ما وصل اليه الشعر ؟

□ يعود السبب في ذلك الى وجود شعرنا القديم الجيد ، وكان على المجددين ان يتطرفوا في طرائق تجديدهم والا بقوا في ظل القديم ، بمعنى انه لو لم يكن عندنا شعر كثير ورائع ، لو لم يكن الشعر ذا تقاليد ثابتة ، لما كان هناك تجديد كالذي رايناه في الشعر · كان على الشعراء ان يقوموا بثورة في لغتهم وصورهم وتركيبهم للقصيدة ، وبذلك استطاعوا الوصول الى المستوى العالمي في كتابة القصيدة ·

اما في الرواية ، فالرواية العربية تكاد لا توجد · لقد جاءتنا الرواية كفن جديد · اما تقليدنا القصصي فانه يعتمد على « الف ليلة وليلة » ـ هذا الكتاب البالغ الاهمية الذي يجب على كل روائي ان يقرأه · لقد اثر هذا الكتاب في رواية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ونحن تأثرنا بدورنا بهذه الرواية ·عندما نكتب رواية اليوم فاننا نفاجأ بعدم وجود تقليد روائي في بلادنا ، لذلك كان علينا ان نختصر فترة مئتي سنة من الفن الروائي الاوربي في عشرين او ثلاثين سنة · لذلك عندما اريد كتابة رواية فانا لا استطيع ، او لا يهمني ، ان اكتب رواية على طريقة الرواية الجديدة ، لان اوروبا متخمة بالطرائق القصصية التي تريد ان تتمرد عليها · اما انا فأشعر اننا لم نكتب حتى اليوم الروايات التي تمثل مجتمعنا وصراعاته وتغييراته ، كما حدث في الرواية الاوروبية في القرن التاسع عشر خصوصا ، وفي اوائل هذا القرن ، بحيث ان الاوروبيين استطاعوا الانصراف عن هذا الموضوع الى مواضيع اخرى · لذلك اشعر انني مهما جددت في أسلوبي الروائي ، فلا بد لي من الوقوف في مكان استطيع منه البحث عن هذه المواضيع بالذات ، واذا اخترت لنفسي اسلوبا لا يمكنني من الوصول الى هذه الموضوعات اكون عندها قد اسأت الى نفسي والى الفن الروائي العربي · مثلاً ، كنت مواجها في « السفينة » بين ان اكتب على الطريقة العصرية الاوروبية ، طريقة الرواية الجديدة مثلا ، المتطرفة في تجديدها والمتطرفة في تركيزها على الصورة وعلى العلاقات البصرية بين الاشياء ، واكون بذلك قد خذلت موضوعي الاساسي الذي هو عشقي الحقيقي · وبين ان اكتب رواية على طريقة القرن التاسع عشر ، على طريقة بلزاك ، مثلا ، فأكون في الواقع قد تخليت عن الاتجاهات الحديثة التي تدعو انت اليها والتي دعونا نحن اليها بهذا الصخب في الشعر ، كانت المحصلة هي تزاوج الطريقتين على غراري الخاص · فانا اعتقد اني طرقت سبيلا بالنسبة الى الفن الروائي العربي هو سبيل جديد ـ لا اظن ان احدا كتب رواية عربية على طريقتي في « السفينة » او حتى على طريقتي في « صراخ في ليل طويل » · هكذا انتهجت منذ البدء طريقة تبلغ بي غايتي الحقيقية فيما اكتب ، وتميزني في الوقت نفسه عن الاخرين ·

● هناك سؤال يتعلق بمصطلح « الحداثة » · لقد اصبح هذا المصطلح عنوان مرحلة ادبية وشعرية وفنية ، والملاحظ توافق استعمال هذا المصطلح مع طرح موضوعات ايديولوجية عن ضرورة تحديث المجتمع العربي ، وازالة العلاقات « القديمة » العشائرية القبلية الخ ، منه · فبوصفك احد المشاركين في اعطاء مضمون لهذا المصطلح ، كيف تحدده بشكل دقيق ؟

☐ لست اظن انني استطيع تحديد هذا بشكل دقيق في اسطر · او حتى في صفحات· يجب ان اقدم لك كل ما كتبت ورسمت واقول لك : لنستخلص مفهوم الحداثة من كل هذا · وانا اذكر انني كتبت في اوائل الاربعينات مقالا عنوانه « استعمال وسوء استعمال كلمة حديث » · لانني احسست منذ ذلك الحين انك كلما سعيت الى التحديث ، وجدت كميات كبيرة من العملة الرديئة تطرح نفسها مع العملة الجيدة في السوق · في الواقع لقد سبقونا في الغرب الى استعمال هذه الكلمة · تقرأ نقد بودلير للرسامين سنة ١٨٥٤ فتجده يتحدث عن الحداثة · كل فترة جاءت بنقاد يتحدثون عن الحداثة · اشتد الصخب حول الحداثة بعد الانطباعية ، لان الانطباعية كانت انعطافا جديدا في الحضارة · في البداية رفض الانطباعيون ، فزاد ذلك من قيمة الكلمة التمردية · ثم تصاعد استعمال هذه الكلمة مع الوحشيين ثم التكعيبيين ، ثم الدادائيين فالسرياليين ·

ثم جئنا نحن ، اي المثقفون العرب · بدأنا ننتبه لفكرة الحداثة في الثلاثينات ، كما وردت في كتابات بعض الكتاب المصريين ، كسلامة موسى الذي كان يتحدث عن معركة التجديد ، والزيات بكل كلاسيكيته تحدث ايضا عن معركة التجديد · لكن التجديد عند هؤلاء لم يكن يحمل فكرة الحداثة التي خطها جيلنا في الاربعينات والخمسينات والستينات لكي نصبح بالفعل ، لا مجرد جزء من حضارة القرن العشرين ، وانما مساهمين فاعلين في هذه الحضارة · وهنا يأتي المعنى الحقيقي للحداثة في نظري : الحداثة هي أن تجد الطريق لكيما تكون مساهما فاعلا في حضارة هذا القرن · لذلك فانت مطالب بالتمرد ، ومطالب بان يكون في تمردك ما يستمد بعض حيويته من جذورك وتضيف اليه من اصالتك المتجهة نحو زمانك ، فتصبح جزءا فاعلا في عصرك ، جزءا غير منقطع عن ماضيك ، ولكنه جزء لا يكرر ماضيك ويحفزه التحرر حتى من حاضرك· انا لا اقول بالانقطاع المطلق ، فانا اؤمن ان للتراث قوة هائلة في حياتنا ، ويجب ان تبقى له هذه القوة المغذية للنفس · لكني اقول خذ من التراث ما هو حي واترك ما هو ميت للاكاديميين الذين يقول عنهم رامبو انهم اموات « اكثر من اي متحجر » · ان في التراث قوة نستمدها ولكن يجب ان نضيف اليها قوة جديدة ، بحيث تكون الحداثة انطلاقا سهميا لا دورانا انكفائيا · يتصور بعض الناس انك بالعودة الى التراث تجدده ، هذا غير صحيح · فالعودة الى التراث لا تجدد شيئا ، لكن بالانطلاق منه ، والاضافة اليه ، تجدد قوته ، اذ بالاضافة فقط تهيء المسار المستقبلي للنسغ الحي الكائن فيه ·

● تقول في رسالة الى يوسف الخال نشرت اجزاء منها في مجلة « شعر » عدد ١٨ـ١٩٦١ : « انا في الواقع متصل بالكلاسيكيين على اكثر من مستوى واحد ، وعلى الاخص مستوى الشكل » ، ثم تضيف « نحن المجددين اوثق اتصالا بالتراث التقليدي من كل الاخرين الذين ما زالوا يجترون ما لم ولن يهضموه · » كيف تقيم كلاسيكيتكم الان ؟

□ يتهم المجددون احيانا بانهم رومانسيون ولا شكليون الخ، وتأتي هذه التهم غالبا من اصحاب التقليد الذين يتصورون انفسهم على انهم سدنة التراث · جوابي على سدنة التراث هؤلاء هو اننا اكثر اتصالا بالكلاسيكية منهم · نحن نفهم الشكل لاننا نرى القوة الدينامية التي فيه ، واذا اردت ان تكسر القاعدة فيجب ان تعرف هذه القاعدة اولا · نحن لا نكسر قواعد لا نعرفها ··· فصلتنا بالكلاسيكيين تؤكد على تقديرنا لكل ما هو رائع في الفكر الحضاري · انا لا استطيع ان ارفض النهضة او المتنبي او شعر صدر الاسلام ، لكننا استطعنا ان نجعل من هذه قوة باعثة ، لكي نضيف اليها · انا اعتقد اننا جمعنا بين نوع من الكلاسيكية ونوع من الرمزية ، جمعنا بين الواقعية الطبقية وبين القوة الايحائية التي تجعل لهذه التفاصيل الواقعية قوة اضافية ، فنقول ما قيمته اكثر من مجموع العناصر التي يتألف منها · وهنا تأتي قيمة الدمج بين الوعي الكلاسيكي او الوعي التاريخي ووعينا المعاصر · المجددون هم على الاغلب اناس يملكون وعيا تاريخيا عميقا ، والذي لا يملك هذا الوعي لن يكون مجددا ·

نجلا جريصاتي

حول أدب الأطفال

لا وجود للطفل العربي · انه لا يوجد كطفل ·

لا وجود له في واقعنا الاجتماعي : يشار اليه فقط في هرم الاعمار او في جدول احصائي · لا وجود له في جغرافيتنا : فان وجدت منتزهات وحدائق عامة وحدائق حيوانات ، فانها مخصصة للكبار او للسياح اكثر مما هي للاطفال ·

لا وجود له في الادب : فلا ادب للطفل ولا ادب عنه · (منذ فترة وجيزة بدأ يبرز ادب للاطفال يحاول الاسراع في سد هذه الثغرة) ·

لا وجود له في المؤسسات الاجتماعية : حتى المدرسة ، تضع لنفسها هدفا واحدا هي ان تجعل من الطفل رجلا صغيرا (امرأة صغيرة) ، وان تتخلص وفي اسرع وقت ممكن من مرحلة الطفولة ·

لا وجود له في العائلة : فهو حتى حين يعترف به كجزء منها ، يوجد ضمنها · أي دون ان يكون له وجود خاص به ، متميز ومستقل ·

فالعائلة بالنسبة للطفل العربي ، هي المحور المركزي الذي يدور حوله ، وينمو ويكبر به · وكل ما هو خارج العائلة ، هو مجرد ملحق (المدرسة مثلا) ·

لا وجود للطفل الفلسطيني :وهو لا وجود مضاعف · فهو لا يوجد كطفل كما لا يوجد كفلسطيني ·

يمكن لعالم الاجتماع ان يبين الاختلافات والفروق داخل هذه اللوحة القاتمة · اختلاف البلدان ، المسافة بين المدينة والريف ، اختلاف وضعية الطفل نسبة الى انتمائه الطبقي ، ولكن هذا ، ليس هدف بحثنا ، ان قابلية التاثير وردات فعل الطفل تختلف بالنسبة لانتمائه الطبقي والاجتماعي العام ، لكنها ، وفي هذه المرحلة ، ليست الا فروقات تفصيلية · ان ما يميز الطفل العربي اجمالا وفي التحليل الاخير هو لا وجوده ·

يولد الطفل الفلسطيني في اطار جغرافي واجتماعي مؤقت · الحياة بشروطها الراهنة مؤقتة · غدا نحرر الوطن ونعود الى منازلنا ، ونزرع حقولنا ونقطف ثمار ارضنا ·

يولد والعدو قد سرق بيته وانتماءه ·لذلك يجب ان يكبر كي يناضل الى جانب اخوانه، من اجل استعادة ارضه ، عندها ، تبدأ الحياة من جديد ، مليئة بالفرح والوعد بمستقبل افضل · ينمو الطفل ويراقب ، ويعيش جميع تعقيدات الحياة وتناقضات تربيته · ولكن ، وبما انه لا يزال طفلا ، لا يهتم به الا باعتبار انه سوف يكبر · وهو يدرك ان الحياة اليومية قاسية وصعبة · انه خائب الامل ، لا يفهم ، يشعر بالوحدة وعدم الامان · يخاف ان يكون جبانا ، ان لا يكون بمستوى المنتظر منه · يحتمي بالعائلة ، لكن العائلة التي هي مصدر الامان ، هي هنا في حالة دائمة من اللاامان ، انها في الهجرة او الفقر ·

يحلم الطفل بمآثر خارقة ، ببطولات منتصرة · انه صلاح الدين مرة والقسام مرة اخرى ، ولكنه ، وقبل كل شيء شهيد · هو البطل ــ الميت ــ الحبيب الذي يطمئن للانتقام له ولمواصلة النضال · لن ينساه احد ، الجميع يحبونه ، يتحسرون عليه ، يعجبون به مع قليل من الحسد ··· لكن هذا لا يعني ان له وجودا ·

والطفل العربي ، لا يختلف كثيرا عن الطفل الفلسطيني · فهو ايضا يعيش في اللاأمان ، وان بحدة اخف ولاسباب مختلفة ·

يعود اللاامان هذا اساسا الى اسباب نفسية : انه لا يتمتع بوجود خاص به · لا يحب لما هو بل لما يمثله (ويرحب بالذكر وليس بالانثى) · يشعر انه مهمل نوعا ما ومبعد · لا يتقلد طفولته كطفل ، بل يحسد الكبار الذين يحتكرون السلطة التي يخافها· محاكاة الكبار في اقوالهم وافعالهم يصبح هدفه ، وينجح في ذلك · فالصفة الاولى التي يعترف بها مجتمعنا للطفل هي نضجه المبكر (هكذا يفرح الكبار بطفلة السنوات الثلاث التي تعمل مع والدتها في الامور المنزلية ، أو امام ولد يعرف كيف يتصرف امام الغرباء، يجلس صامتا ، ملتصق الركبتين ، رصين المعالم) · لكن الطفل يتصرف هكذا بشكل لا شعوري ، اما اعتباره ناتجا عن قدرة على الاختيار الناضج ، فهو اعتبار خاطىء وسخيف ، بل على العكس ، يساهم هذا التصرف في تجميد تفتح الطفل وسحق شخصيته وروح المبادرة لديه · لكن الطفل يعلم ان هذا التصرف هو الطريق الوحيد لجذب اهتمام الكبار وعطفهم · وهذا ما يحتاجه بالضبط : اهتمام الاخرين به ومحبتهم له ·

نخرج من هذه الملاحظات باستنتاج واضح : ان الطفل الفلسطيني والعربي هو صورة للمجتمع الذي يعيش فيه·· انه نتاجه المنطقي · فهو امامنا بلا قناع او تمويه ، عار ودون حماية حقيقية · مثقل بتناقضات الوسط الاجتماعي ــ الثقافي حيث يعيش ·

خضع مجتمعنا العربي فترة طويلة للاستعمار الغربي ، ولا يزال خاضعا للسيطرة الامبريالية · وهو في سياقه السائد يتطلع الى حياة افضل مستوحاة من النموذج الغربي ، لكنه يعيش ايضا وسط جمود المحافظة على القيم والمبادىء الاخلاقية التقليدية· هذا التناقض السائد ، يمنع الانسان العربي من ان يتماثل ويعرف نفسه في الماضي والحاضر بصورة عقلانية ومنطقية ·

وبامكاننا ان نقرأ هذه التناقضات في شفافية سيكولوجية طفل هذا المجتمع ·

في ظل هذا الوضع ، ما هو دور ادب الاطفال ؟

يعتبر البعض ، ان هدف هذا الادب تقديم دروس للاطفال وتقديم نماذج · في مقدمة « حكايات الزمن الماضي ومغزاها » يكتب شارل بيرو : « تحرك هذه الحكايات عند الاطفال ، رغبة في التشبه بالذين يرونهم وقد اصبحوا سعداء · كما تثير الخوف من المصائب التي يقع فيها الاشرار نتيجة اذيتهم · هذه البذار التي نزرعها ، لا ينتج عنها في البداية الا شعور بالغبطة او الحزن ، ولكن لا بد وان تظهر فيما بعد الميول الطيبة · » (١) ويرى برونو بتلهايم ان للاساطير وظيفة علاجية بالنسبة للطفل · فالطفل بحاجة الى تلقي الاقتراحات حول معالجة مشاكله ، والتقدم نحو النضج » (٢) ·

اما في سياق ثوري ، فيختلف ادب الاطفال · الطموح ، هو بناء مجتمع جديد · بناء جيل جديد وثوري · فيكون هدف هذا الادب واضحا في تحديده : تثقيف الاطفال ضمن اتجاه ثوري · وهذا يعني انتاج ادب تعليمي يحمل رسالة ·

ولكنه ، وكأي شكل تربوي موجه للاطفال ، يجب ان يثير اعجابهم ، وبما انه تعليمي، فيجب ان يكون مقنعا · اي يستجيب لحاجاتهم وآمالهم ·

ما هي حاجات الطفل السيكولوجية على ضوء شخصية الطفل الفلسطيني والعربي ، التي حاولنا وصفها ·

ادب الاطفال يمتع الطفل ولكنه ايضا يساهم في تكوين شخصيته وفي اكسابه القيم والمبادىء · يثير فضوله ، يزيد من معرفته ويساعد على تطوير ذكائه وخياله · وعنصر العاطفة المسيطر في شخصية الطفل يقود الى ان الادب الذي يستجيب لهذه الحاجة هو الذي يحظى اكثر من غيره بقدرة الوصول الى مبتغاه ·

– يحتاج الطفل الى الاطمئنان والثقة بالنصر ·

– يحتاج الطفل الى الاطمئنان الى الحياة : وهنا لا بد من التماثل مع البطل ·فالطفل ذاتي المركز ، يقرأ ويستمع الى القصة بعاطفته · وملاحظته الاولى هي دائما ، « احببت القصة او لم احبها » دون ان يعلم السبب ·

ا – دار الفتى العربي

سوف نقرأ الان نصوص كتب دار الفتى العربي ، على ضوء هذه الخطوط العريضة ، الاولية · صدر عن دار الفتى مجموعة من القصص التربوية للاطفال ، خارج المنهاج المدرسي ، ذات هدف محدد · « كتاب يساهم في تثقيف طفلنا وفي تعريفه بالمعالم الحضارية المحيطة به ، وغرس القيم الاخلاقية فيه ، وتربيته تربية عربية قومية انسانية ، وتنمية الحس الجمالي والتذوق الفني وروح الابداع والابتكار لديه » (٣) ·

واستعانت الدار بادباء ورسامين من مختلف الاقطار العربية ، من اجل اصدار احدى اجمل مجموعات كتب الاطفال · فالالوان زاهية وجذابة ، ومعظم النصوص كتبت خصيصا للمجموعة (٤) ·

وادى هذا المجهود الذي يستحق الثناء الى انجاز عمل جديد وجميل ، لا بد من تناوله بروح النقد البناء ·

تتوزع الحكايات التسع والخمسون في ست سلاسل ، تختلف احجامها باختلاف مقولات عمر القراء الموجهة اليهم ، وهي جميعها مزينة بالرسوم والالوان ٠ وقد ترجم بعضها الى الانكليزية والفرنسية والاسبانية ، وصدرت عن الدار نفسها ٠

قبل ان نتناول بالتفصيل موضوع بحثنا ـ **سلسلة المستقبل للاطفال** ـ سنعرض للخصائص البارزة في كل سلسلة على حدة ٠

١ ـ **سلسلة النجوم الصغيرة** ٠ (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٤ و٧ سنوات) (٥) ٠

تضم ثلاث قصص « سياسية » ، تبرز الظلم الاجتماعي والنضال الطبقي وخديعة العدو ٠ هذه القصص من حيث اللغة والمضمون هي في متناول فهم الطفل ٠ تقوده الى طرح الاسئلة وربط الاحداث بالواقع ٠ كما انها لا تنتهي بشكل واضح ، فتترك لخيال الطفل مجالا لبناء هذه النهاية ٠

٢ ـ **سلسلة الافق الجديد** ٠ (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٨ و ١٠ سنوات)٠

تضم اربع قصص « سياسية ـ قومية » ٠ واحدة تدور حول المساواة الاجتماعية ٠ اما القصص الاخرى فتشيد بروح المبادرة والشجاعة والبطولة ـ الشهادة ٠ تتميز هذه القصص في تحديدها للحيز المكاني ـ الزمني (باستثناء « الاميرة الصغيرة ») ، وفي كونها رمزية جوهريا ٠ واخيرا ، في انها اطول القصص (٣٠ صفحة) ٠ ولكن هذا الطول يقود الى اثقال النص ، فيأتي درس الجغرافيا في « البلح الاحمر » ويطول الوصف في « حارسة النبع » ٠

٣ ـ **حكايا عن الوطن** ٠ (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ١١ و ١٤ سنة) ٠

تضم ست قصص تتناول الواقع الفلسطيني ، عبر مواقف بعض الاشخاص وبطولاتهم في مواجهة العدو الصهيوني ٠ فيشار الى الزمان والمكان واسم البطل ٠ وتدخل في النص بلاغات تبثها الاذاعة او تعليقات من الراوي ٠ هذه القصص هي تحية للبطولة والتضحية في سبيل الثورة ٠

لا شك ان هذه القصة ـ الحدث ، تقوم بازالة الاوهام التي تحيط بالبطل ٠ فنراه اثناء العمل ، ونتابع تطوره ٠ انه ليس انسانا بلا عيوب ٠ هكذا يكتشف الطفل ان بامكانه هو ايضا ان يصبح بطلا ٠

ومأخذنا على هذه السلسلة هو عدم جاذبيتها للوهلة الاولى ٠ (فالكتاب ليس مجلدا بالورق المقوى ، ولم يزين الا بلونين قاتمين فيبدو كئيبا ٠ كما يدور النص حول حدث حقيقي ، لكنه لا يروي قصة بكل معنى الكلمة ٠ واخيرا ، وبينما نجد ان صفة التضامن هي احدى الافكار ـ الركائز في جميع السلاسل ، فان هذه القصص تؤكد فرادة البطل في مبادرته وتصرفه ، دون التركيز على الفعل نفسه ٠

٤ ـ **من حكايا الشعوب** (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ١١ و ١٤ سنة)

تتألف من ١٦ قصة طويلة عن بلدان مختلفة ٠ وفي نهاية الكتاب خريطة ومعلومات جغرافية للبلد الذي اخذت منه الحكاية ٠ نلاحظ ، مع الاسف ، ان هناك ست حكايات فقط من اصل المجموع اخذت من اقطار الوطن العربي ٠

٥ ـ سلسلة قوس قزح (٦) . (للاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين ٤ و ٧ سنوات).

تتألف من ١٢ قصة قصيرة ، فرحة ومزينة بالرسوم ، وتعالج مجموعة مسائل : الحس الوطني ، التضامن ، التفاؤل الثوري الخ ، ونشير هنا الى ثغرة هامة جدا ، الا وهي **انعدام حس الفكاهة في النصوص** . فاذا لم نركز اهتمامنا على الرسوم ، سوف نجد ان هذه القصص لا تكاد تجعل الطفل يبتسم . وهذه الملاحظة تنسحب على قصص السلاسل بأسرها . ونأخذ كمثال على ذلك احدى قصص هذه السلسلة ، قصة : **ابطال صغار** (٧) .

يحتال ثلاثة اطفال ، كل بمفرده ، على العدو . يلتقون ، فيروي كل واحد منهم ما فعله في هذا اليوم . ثم ينامون ، عندها تعلن الاذاعة عن نجاح الفدائيين في نسف مصنع اسلحة العدو ، ويعود الفضل في نجاح العملية الى الاطفال الذين عطلوا النجدات التي ارسلها العدو الى مداخل المدينة .

من المفترض ان تكون القصة مليئة بروح الفكاهة ، وان تنتهي بانتصار فرح . ولكنها تأتي جافة ورصينة ، ونخرج منها بشعور بالاسف . فاعمال التخريب الثلاثة التي قام بها الاطفال مضحكة ومسلية في حد ذاتها :

أ ـ سكب الزيت في منعطف تحت عجلات سيارات العدو .

ب ـ وضع قطع السكر في مستودعات البنزين الذي تستعمله سيارات العدو .

ج ـ خداع العدو عبر تغيير اتجاهات اشارات السير .

لكن هذه الاعمال تروى بالصورة العلمية والرسمية التي للبلاغ العسكري . فيأتي وصف العدو ، الذي من المفترض ان يثير الضحك مقتصرا على :

أ ـ كانت النتيجة باهرة للغاية .

ب ـ كان منظرهم فريدا .

ج ـ كان منظرا مثيرا حقا .

الاطفال ، في هذه القصة ، هم الذين يقومون بالعمل . لكنهم لا يتحدثون ولا يضحكون لا يشركون القارىء في انطباعاتهم وشعورهم . وتأتي النهاية حزينة : الاذاعة تشيد بابطالنا الثلاثة وهم نيام !

والطفل القارىء يأسف لنوم اطفاله ، ويتأسف على نفسه (لانه يتمثل بهم) ويأسف لانهم لم يعرفوا نتيجة عملهم ، فهذا التعويض هو نوع من المكافأة . والطفل بحاجة الى التشجيع .

٦ ـ سلسلة المستقبل للاطفال . (للاطفال ابتداء من ١١ سنة) .

وهي موضوع دراستنا . وهي تضم اكبر عدد من القصص (١٨ قصة) . مربعة الحجم (١٥ سنتم الضلع) وتحتوي على ١٢ صفحة في داخلها .

II - البنية العامة للنص .

١ ـ المظهر العام للكتاب

ان كتب هذه السلسلة ، على غرار كتب الدار الاخرى ، ليست مجلدة بالمقوى المتين .

فهي بالتالي قابلة للطي والتلف بسهولة · وتفقد الكثير من قيمتها الجمالية بعد الاستخدام · اما الاولوية فهي للرسم · واذا تطابق النص بالرسم ، يغلب هذا الاخير في استقطاب انتباه الطفل · فالصورة اقوى من الرسوم المجردة · وتقدم الصفحة الاخيرة من نرجس خير مثال على هذا ·

٢ ـ اطار الحدث

الحيز المكاني بالغ التنوع ، فالقصة تدور عادة في الخارج ، في المدينة او الصحراء او البحر او الغابة ·· ولكن دون اي تحديد اضافي ، باستثناء قصة **بديع الزمان** التي تحدد مدينة بغداد مكانا للحدث ، فتضفي عليه مسحة من المصداقية ، اما الحيز الزماني فهو شبه معدوم ، اذا استثنينا عبارة « في قديم الزمان » ·

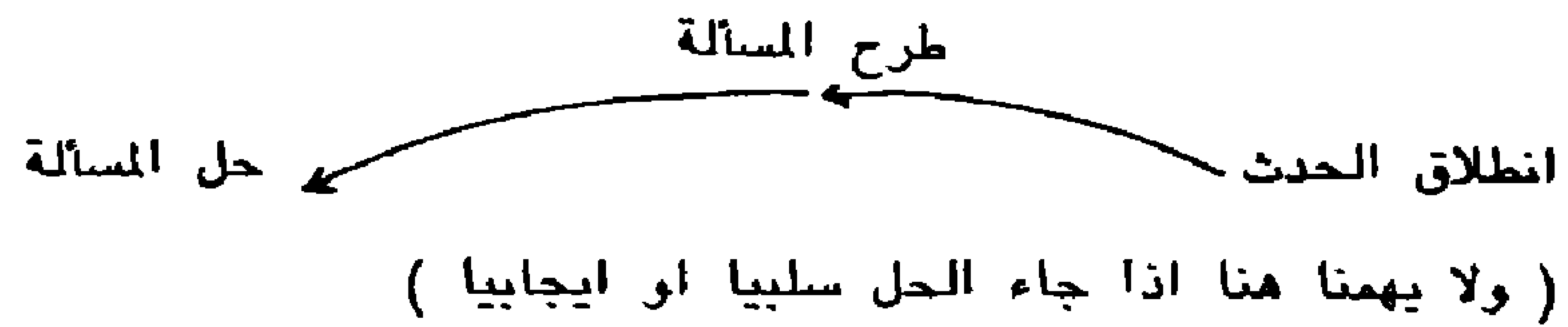
٣ ـ السـرد

هناك نقص في اعداد السرد تنقصه التفاصيل الصغيرة التي تحدد الشخصية والحدث · العقدة بسيطة ومبسطة ، وهذا ما نراه في قصة **بديع الزمان** حيث يأتي التوالي الدرامي للحدث مضغوطا الى درجة انه يعطي انطباعا بأن هذه القصة ، هي تلخيص لقصة طويلة·

اما قصة **الشجرة** ، فانها تقدم نقيض هذا النموذج ، حيث تغلب الاستفاضة في الوصف على الحدث نفسه ·

يأتي السرد على وتيرة واحدة : ينطلق من حدث معين ، يطوره ، يطرح المشكلة ثم يجيب عليها في نهاية القصة ·

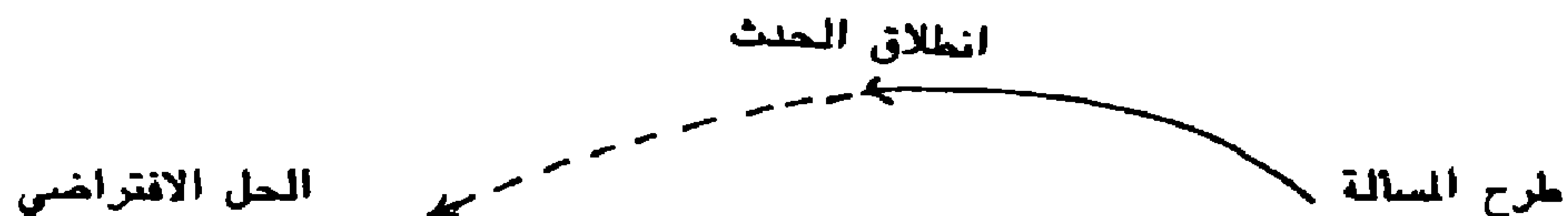
يتطور السرد اذا على شكل قطع مكافىء (Parabole) :



(ولا يهمنا هنا اذا جاء الحل سلبيا او ايجابيا)

شكل القطع المكافىء (Parabole) هذا ، هو في متناول ادراك الطفل · انه شكل متكامل يسهل فهم القصة · ومعظم القصص تتبع هذا المنحى البياني ما عدا قصتين ، حيث تحل المسألة عن طريق مفترض · **جزيرة الضياع** ، حيث نفترض ان سامر سينجو ، **والطفل والمطر** ، حيث نفترض ان المطر سيهطل فوق حقل احمد ·

فيأتي المنحى البياني على الشكل التالي :



كما يتحول هذا المنحى البياني الى خط مستقيم في ثلاث قصص ، حيث تلغى المشكلة المطروحة · وتنتهي القصة نهاية سلبية ·

الشجرة (قصف) ← موت الشجرة والطفل ·

ندم حصان (يبس العشب وجاع الحصان فخضع للعبودية) ← تدجين الحصان ·

القط الكسلان (بعد حوار القط مع غسان حول ضرورة المدرسة ، فضل النـوم) ← القط ينام ويحلم ·

٤ ـ كيف يقدم العالم

العالم الذي تدور فيه هذه القصص هو عالم شاق (**الفيل يجد عملا**) ويهدد ابطالنا (**عودة الطائر**) · ويضغط خطر العالم الخارجي على الابطال · يمكننا تصنيف هــذه الاخطار الخارجية في خمسة انواع رئيسية (٨) :

العدو ، العزلة ، الجهل ، عدم الفعالية والقوى الخارجية · وبما أن كل قصة ، تدور في الغالب حول موضوع واحد ، فاننا هنا ، سوف نقوم بابراز التهديد الرئيسي ·

القصــة	اخطار العالم الخارجي	تهديد اجتماعي	تهديد طبيعي	خاصية التهديد	القيم التي تولدها
الجراد في المدينة	العدو		×	يلتهم ← يتلف	الحث على مواجهة عملية
عودة الطائر	العدو	×	—	يلتهم ← يتلف	التضامن ـ الحيلة
ندم حصان	العدو	×	—	يعزل	التضامن (العصبية)
بيت للورقة البيضاء	العدو	×	—	يسرق ← يتلف	عزة النفس
وحيد القرن والعصافير	العدو	×	—	يتلف	التضامن ـ الحيلة
القفص الذهبي (٩)	العدو	×	—	يعزل	التضامن ـ الحيلة
القفص الذهبي	الوحدة	×	—	يعزل	الحيلة
جزيرة الضياع	الوحدة	×	—	يعزل	حب الاخر
نرجس	الوحدة	×	—	يعزل	الشجاعة ـ المبادرة
الريش الجميل	الوحدة	×	—	يعزل	التواضع ـ حب الاخر
بديع الزمان	الجهل	×	—	يعزل	التواضع
السلحفاة الحكيمة	الجهل	×	—	يتلف	التواضع ـ المعرفة
الفيل في الصحراء	الجهل	×	—	يعزل	المعرفة
الفيل يجد عملا	عدم الفعالية	×	—	يعزل	التواضع ـ المعرفة
القط الكسلان	عدم الفعالية	×	—	يعزل	الابداع ـ المبادرة
الشجرة	العدو	×	—	يتلف	الجهد الفردي
الطفل والمطر	قوى الطبيعة	—	—	يتلف	" "
الشراع الابيض	قوى الطبيعة	—	×	يلتهم ← يتلف	" " " "
الحمامة البيضاء	روح المغامرة	×	×	يعزل	التضامن العائلي ـ المحبة
(١٩)		(١٦)	(٣)		

ماذا نقرأ في هذا الجدول ؟٠

أ ـ تأتي اخطار العالم الخارجي التسع عشرة بالنسب التالية : ٨٤٪ هي اخطار اجتماعية ، و ١٦٪ هي اخطار طبيعية ، بينما نرى في الواقع ان قلق الاطفال وخوفهم واستيهاماتهم تأتي اساسا من العناصر الطبيعية ٠ فالطفل لا يخاف « الاخرين » والمجتمع بالقدر نفسه الذي يخاف الكلام او الليل او الاعماق ٠ يخاف العزلة وضياع الاهل ٠ واذا كان طموح هذه السلسة هو ابداع ادب جديد للاطفال ، حديث ومعاصر ، فاننا نرى ان القصة تفتقد الكثير من عناصر الحياة اليومية والمعاصرة ٠ ففي مجتمعنا « الحديث » ، تأتي تخوفات الطفل من استيهامات جديدة (سمح التلفزيون للعديد منها بالتجسد امام عينيه مثل : الرجل الخفي ، كينغ كونغ ، الرجل الالكتروني ٠٠٠) ويخاف من الغسالة، من الابنية الضخمة من الرافعات الخ ٠

ب ـ اما اذا تحققت هذه الاخطار ، فانها تقود الى انهيار الوضع القائم (التهام، سرقة ، قتل ٠٠٠) او الى عزل البطل عن مجتمعه (يضيع في الغابة ، يبقى وحيدا في جزيرة ، ينبذه المجتمع ٠٠) تأخذ العزلة نسبة تقترب من نسبة الانهيار (٥٨٪ ـ ٤٢٪)٠ وكلا المفهومين من مصدر واحد ٠ يتحددان بالنسبة الى المجتمع ٠

ج ـ هل يتغلب البطل على الخطر ويلغيه ؟٠ تشير العلامة (+) الى جواب ايجابي ، حيث تأتي نهاية القصة سعيدة ٠ تصرف البطل هو النموذج الذي يقدم درسا ايجابيا للقارىء ٠ اما العلامة (ـ) فتشير الى عدم قدرة البطل على التغلب على الخطر ٠ فالبطل والطفل (القارىء) يأخذان عبرة ٠ في الحالة الاولى يأتي تشبه الطفل بالبطل مطمئنا ، اما في الحالة الثانية ٠ فان هذا التشبه يقود الى القلق ٠

ما هو الاسلوب الافضل من اجل بلوغ الهدف التعليمي بفشل تربوي ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب دراسة مفصلة ومعمقة لسيكولوجية وشخصية الطفل الذي نتوجه اليه ٠

غير ان الجدول ، يشير الى عدم وجود اتجاه معين في هذا الصدد ٠ اذ تنقسم الحالات بنسبة ٤٧٪ للحالة الاولى و ٥٣٪ للحالة الثانية ٠

د ـ لكن ، وفي الحالتين ، تبرز القيم التي يواجه الخطر بها ، او تكون مضمنة (١٠)٠ والجدير بالملاحظة هنا ، هو أن ازالة هذه الاخطار تستند دائما الى فضائل اجتماعية او فردية ، باستثناء قصة **الجراد والمدينة** ، حيث كانت مواجهة الخطر ممكنة بواسطة عمل الاهالي ، القيام بنشاط ملموس ٠ فرسالة القصة هي اذا **رسالة اخلاقية** ، التحلي بالصفات والقيم ٠

هكذا نرى ان العالم الصعب ، يمكن ان يصبح مطمئنا وممكن الاحتمال بفضل المعرفة والتضامن والتواضع وحب الاخرين ٠

وهي ، تتبنى وتقبل العلاقات والقيم الاجتماعية كما هي في الواقع ٠ فالعالم الذي يقدم الينا هو عالم الكبار ، الكبار الذين **يعرفون** (الطفل والمطر) **ويطمئنون** (الشراع والابيض) **ويعطون الدروس** (الحمامة البيضاء) ٠

هذه القصص لا تدعو الطفل الى تغيير العالم ، الى رؤيته من خلال نظرة جديدة ، الى

النظر في علاقاته من زاوية اخرى · بل على العكس · فالنقطة المركزية ، والتي تنطبق على جميع قصص دار الفتى العربي ، هي في تكييف الطفل مع المجتمع الذي يعيش فيه · وقبوله كما هو في الواقع · اما الذي يجب ان يتغير فهو الطفل نفسه · عليه ان ينضج بسرعة اكبر ، ويصل الى المعرفةويتبنى قيم مجتمعه الاخلاقية ، وعندها سيتوجه التفكير والتصرف كله ضد العدو ·

العدو حاضر بشكل مستمر ، ويجب الحذر منه · ولكن خديعة العدو وخبثه غائبان تماما (١١) · باستثناء قصة **الريش الجميل** ، حيث نرى الثعلب وهو بطل ثانوي في القصة يستخدم حيلة تفشل من اجل التهام الطاووس (البطل) · نحن اذا ، امام ابطال محتالين واعداء مغفلين ، ويبرز هذا بوضوح في قصتي **وحيد القرن والعصافير** و **بيت للورقة البيضاء** ·

٥ ـ العلاقات العائلية

تبقى العلاقات العائلية عند الطفل ، وحتى سن متقدم نسبيا ، المحرك الاساسي لعلاقاته الاجتماعية · وهو عبر تطوره نحو النضج ، يواجه اسرته بنوع من المقاومة الظاهرة (عدم الطاعة مثلا) او الضمنية (الشوق الى الاستقلال) · وهذه المقاومة موجودة باشكال مختلفة منذ الطفولة وحتى سن الرشد · فمن الخطأ تجاهل هذا التناقض ، والاسوأ هو تجميله في القصص الموجهة للاطفال · وهذا ما يجري في قصة **الطفل والمطر** : يعترف الطفل بمهانة بخطئه امام امه التي كانت قد انذرته · وفي **الشراع الابيض** : يتغلب الطفل على مشكلته في ان يعد نفسه بأخذ اهله معه في المرة القادمة (ولماذا لا يأخذ صديقا ؟) ·

امام مواقف كهذه ، نرى شعور الطفل ـ القارىء بالذنب · انه يعيش تناقض الحب / الكراهية/الغيرة/الذي لا يستطيع حله · ولا نستطيع نحن ايضا حل هذا التناقض · بل يكمن الدور التربوي في تبيان المواقف والمشاعر في ديناميتها وتناقضاتها ·

٦ ـ الموضوعات

موضوعات هذه السلسلة هي بشكل عام متعددة وجديدة ، ولكنها تنتهي جميعها الى درس في القومية والشجاعة والتواضع والتضامن (سوف نعالج هذه الناحية فيما بعد) · ويمكننا تصنيف الموضوعات بحسب المحرك الذي يقود مسيرة الحدث الدرامي على الشكل التالي :

أ ـ **الاذى المجاني** : وحيد القرن ، العصافير ، نرجس ، الطفل والمطر ·

ب ـ **الصدفة** : عودة الطائر ، جزيرة الضياع ، الشجرة ·

ج ـ **الخيال** : الشراع الابيض ، بيت للورقة البيضاء ، القط الكسلان ·

د ـ **المشروع المشترك** : السلحفاة الحكيمة ، الجراد في المدينة ·

هـ ـ **الرهان** : الفيل في الصحراء ·

و ـ **البحث** : عن الحمامة (الحمامة البيضاء) عن البيت (القفص الذهبي) عن

العمل (الفيل يجد عملا) عن الطعام (الريش الجميل) عن الشهرة (بديع الزمان) عن حياة افضل (ندم حصان) ٠

ونلاحظ هنا ، ان محرك سير الاحداث يختلف من قصة الى اخرى ، على عكس الحكايات الاسطورية ، حيث يتغير الاشخاص وصفاتهم ، دون ان يتغير المحرك ٠ يؤكد بروب في تحليله للاساطير : « ان الذي يتغير هو اسماء الاشخاص وصفاتهم ، اما الثابت فهي افعالهم ووظيفتهم » ٠ (١٢)

٧ ـ التعاقب الدرامي للحدث : الترقب

بين البداية والنهاية يتطور حادث او اكثر في القصة من اجل الوصول الى الحل النهائي ٠ وتأخذ هذه التطورات اجمالا حوالي ثلثي السرد على الاقل ، بينما يأتي الحل في ثلثه الاخير ٠ وهذه القاعدة ثابتة ، حتى حين تطرح المشكلة منذ البداية (كما هو الحال في **الحمامة البيضاء** حيث نصل الى ذروة القصة حين تخفق الام في البحث عن ابنتها وتعود الى عشها) ٠

لكن هذا التصنيف لا ينطبق على القصص التي يشير منحاها البياني الى خط مستقيم٠ (**الشجرة ، ندم حصان ، القط الكسلان**) هنا ينتهي الحدث عند ذروته اوما افترض على انه الذروة ٠ ولو توقفت القصة هنا ، وتركت لخيال الطفل حرية اكتشاف النهاية، لكان الامر مجديا ٠ ولكن النص ، ينتهي دون ان يفتح اي مجال للخيال ٠

والترقب ، هو عنصر هام من اجل اثارة انتباه الطفل وحثه على متابعة القصة ٠ وهو اساسا يسمح له بنوع من الحدس الذهني : يحاول القاريء اكتشاف ما سيجري ٠ معظم قصص السلسلة تستخدم الترقب ٠ ولكن انتباه القاريء ينخفض بوضوح عندما يمكن ادراك نهاية القصة منذ بدايتها (الجراد في المدينة) كما يأتي استخدام عنصر الترقب ضعيفا لحساب العبرة النهائية ٠ ويمكن ان نعيد السبب جزئيا الى قصر النصوص ٠

٨ ـ الحل

في بعض قصص السلسلة تنطبق نظرية شارل بيرو القديمة « تحرك الحكايات عند الاطفال الرغبة في التشابه مع الذين يرونهم وقد اصبحوا سعداء » ٠ تنتهي مثلا قصة **ندم حصان** بهذه العبارة التي يقولها الحصان : « اياك ان تتخلى عن حريتك يوما واحدا » ٠ ولكن ، في المقابل ، فان معظم القصص الاخرى هي اكثر اعدادا وتأتي ثنائية الحل المكافأة /العقاب ٠ النجاح/ الفشل ٠ فتعوض عن تركيبة الابطال الذهنية الاحادية ، مما يضفي عليهم بعدا جديدا يجعلهم اكثر قربا من الاطفال ٠ وهذه هي حالة الفيل ،الذي يعاقب على التوالي بصرفه من العمل ، ثم يكافأ فيما بعد ، فتعبه لم يذهب سدى **الفيل يجد عملا** ٠ وهو ايضا حال صفاء بطلة **القفص الذهبي** التي نجحت في العودة الى بيتها ثم اخفقت في التقاط العصفور ٠

يجب ان تأتي الحلول مطمئنة وعادلة : ستسود العدالة : يعاقب الشرير ويكافأ الصالح٠ الطفل يتوق الى تهدئة روعه ٠ فلماذا نتركه قلقا (**جزيرة الضياع**) ؟ سامر الصغير يثير الشفقة ، وعلته الوحيدة هي الخوف الذي يشل مبادرته في مقابل شجاعة علي ، انه خوف سامر وليس جبنه ٠ اهكذا نعلم الاطفال عدم الخوف ؟

٩ ـ منطـق السرد

(سوف نعالج هذه النقطة على مستوى السياق التربوي فقط) ٠

تتوجه هذه القصص بشكل عام الى عقلانية القاريء ، بينما نرى ان المستوى العاطفي عند الطفل هو المسيطر بصورة ملحوظة ٠ يتطور السرد في خط عقلاني ، الاحداث تتتابع بشكل منطقي ، دون الاستطراد عن الموضوع ، دون التركيز على الاحداث الثانوية ٠ لكن واقع الطفل لا يتطابق مع هذه الترسية ٠ فنحن حين نخبر الطفل قصة ، فاننا نلاحـظ ان الاسئلة التي يطرحها ، تدور في معظم الاحيان حول تفاصيل القصة ، ولا تتنـاول سيرورتها الا نادرا ٠ ربما يفسر هذا ولوع الاطفال بالحكايات الشعبية ٠

هذه النصوص لها هدف تعليمي في المرتبة الاولى ٠ هكذا تبنى في معظمها علـى الاستنتاج المنطقي ٠ تحمل او من المفترض ان تحمل كل قصة رسالة ٠ وفي بعض القصص يأتي المغزى على لسان الابطال ٠ ففي **الحمامة البيضاء** نرى الام تقول العبرة بنبـرة جديرة باستاذ ٠ بينما الحمامة الصغيرة هي التي عاشت التجربة ٠ ويتكرر هذا النمط في **ندم حصان** ٠ يتوافق هذا المنطق وذهنية الكبار ٠

١٠ ـ الشخصيات

هذه السلسلة ، غنية بشكل خاص بالشخصيات المتعددة ٠ اطفال ، كبار ، حيوانات، الطبيعة ٠ كل له دور يلعبه ٠ تاريخيا ، معظم قصص الاطفال كانت تقسم العـالم الى قسمين : الخير والشر ٠ ومع الاسف ، فان هذه السلسلة لا تشكل استثناء على القاعدة٠

في هذه القصص كما اشرنا سابقا ، هناك تلطيف لاحادية الشخصيات ، رغم ان ثنائية صالح/شرير لا تقع داخل الشخصية الواحدة ، بل في تعدد الشخصيات ٠ فيظهر الكبير مثلا مرشدا تارة (**الطفل والمطر**) وطورا مدافعا (**الشراع الابيض**) او منقذا (**جزيرة الضياع**) وبكلمة واحدة انه الذي يملك المعرفة ٠ولكنه يبدو في نصوص اخرى عدوانيـا (**الفيل يجد عملا**) ، جاهلا (**بديع الزمان**) او عاجزا (**الجراد في المدينة**) ٠

وهذا لا يمنع تبسيط الشخصية في القصة الواحدة الى صفـة وحيدة مضخمـة وكاريكاتورية ، وحين تبدو اكثر تعقيدا ، فهذا يعود الى خطأ في الموقف ويكون هامشيـا في الشخصية ٠ في **القفص الذهبي** يتعاطف القاريء مع صفاء في البدايـة ، ولكـن لا يوافقها على وضع العصفور داخل القفص ٠ هنا يعود اذى صفاء الى جهلها ٠

هنا ، لا بد من الاشارة الى ناحية اساسية في سيكولوجية الطفل ٠ **ان مبدأ اللذة هو** الذي يقود تصرف الطفل وليس مبدأ الواقع ٠ تصرف **القط الكسلان** شبيه بتصرف الطفل في الحياة الواقعية ٠ مما يفسر سهولة تماثل الطفل بالقط الذي يفضل اللهو والنـوم على الدراسة ٠

« لا تستند اختيارات الطفل الى مبدأ الخير ضد الشر ٠ ولا الى الشخصيـة التـي تثير تعاطفه ضد تلك التي ينفر منها ٠ ان الاختيار يتحدد اساسا بكون الشخصيـة الخيرة بسيطة ومباشرة ٠ وكلما كانت بسيطة ومباشرة تماثل الطفل بها بسهولة ٠ وهو

يتماثل بالصالح ليس بسبب فضائله ، بـــل لان وضعية البطل تجد في نفسه صـــدى عميقــا » · (١٣)

يبين بتلهايم ان للاساطير وظيفة علاجية عند الطفل · ويعتبر التماثل بالبطل نقطة جوهرية · فكيف يقدم البطل في هذه السلسلة ؟

هناك بطل او اكثر داخل عالم البشر او عالم الحيوانات · والذي يلفت انتباهنــا رغم ارتيابنا المسبق ، هو غياب التمييز ضد النساء · وهي تتميز من هذه الناحية عن ادب الاطفال المعاصر ، ويمكن اعتبارها رائدة في هذا المضمار · تستنتج ا·ج· بيلوتي في دراستها لادب الاطفال في الغرب « ان مؤلفي هذه الكتب ، يكتفون بتقديم نمـــاذج للاطفال هي نفسها ، النماذج التي تقدمها العائلة والوسط الاجتماعي · فوظيفـــة ادب الاطفال اذا ، تقتصر على تأكيد هذه النماذج التي استبطنها الطفل من قبل في حياتـه الاجتماعية » · ثم تضيف : « ان الكبار لم ينجحوا في التخلي عن اسطورة الخاصية النسائية » · (١٤)

ان علاقة الخضوع والاخضاع مؤنث ـ مذكر ، موجودة بشكل ثابت فـي الاساطيـر القديمة ، في الكتب المدرسية وفي القصص الحديثة المخصصة للاطفـــال · وتصـــل الكاتبة الى هذا الاستنتاج بعد بحث تناول الادب الغربي : الاوروبي والاميركي ·

لذا ، فقد تحققت قفزة هامة في ادب الاطفال ، حيث لا وجود لفرق واضح بين وظيفة الرجل ووظيفة المرأة في القصص التي نتناولها ، رغم ان الابطال الذكور هم اكثـــر عددا · وبين الابطال السلبيين نجد ذكورا ايضا ، بينما كان هذا الدور معطى للنساء في ادب الاطفال المعاصر ، ويمكن اعتبارها رائدة في هذا المضمار · تستنتج ا·ج· بيلوتي في اساطيرنا الشعبية · هكذا ، يمكننا ان نستبدل المؤنث بالمذكر والعكس ايضا دون ان نحتاج الى احداث تغييرات رئيسية في القصة · لا مانـــع في ان تكون نـرجس او صفاء صبيين ، بينما ستكون هناك صعوبة كبيرة في استبدال سندريلا بولد ·

يمثل العصفور مكان الصدارة في عالم الحيوان : حمامة ، طاووســـس او مجـــرد عصفور · فقط نشير هنا الى الغياب شبه الكامل للحيوانات الاليفة : العنزة ، البغل الخ ، وللحيوانات الغريبة : حيوان برأسين ، كائن نصفه انسان ونصفه حيوان ·

وعندما يتواجد الحيوانات والاطفال في قصة واحدة ، يتصرف الحيوان بوصفـــه بديلا لطفل اخر · القط الكسلان يمكن ان يكون ولدا ، دون ان يفترض ذلك احـــداث اي تغيير في الحوار ·كذلكفي القصص التي يكون ابطالها حيوانات فقط ، فيتصـرف الحيوان بطريقة مشابهة للطفل · ويكون عالم الحيوان هو عالـــم الاطفـــال نفسه · القوانين والمراتب الاجتماعية والمبادىء هي نفسهـــا قوانين وعـــادات البشر (١٥) · وتتردد الصفات المكررة : الحمار ، غبي (**بيت للورقة البيضاء**) التعلب : محتـــال (**الريش الجميل**) · لا يوجد اي ابتكار في هذا المضمار ·

العلاقة بين الطفل ـ القارىء والبطل تبنى على مراحل · ردة الفعل تكون عاطفيــة في القراءة الاولى ، ولن يتمكن من الانتقال الى المستوى العقلي الا بعد قراءة القصـة او الاستماع اليها مرة ثانية او اكثر · وعبر تماثله مع البطل ، يتسنى للطفل رؤيـة العالم من زاوية اكثر فرحا وتفاؤلا · لذلك من الافضل ان لا نضع الطفل ومنذ البداية امام بطل لا يمكن التمثل به (**الطفل والمطر**) او ان نترك البطل يموت في نهاية القصة . او ان نجعل منه ضحية مأساوية · الموت يرمز الى الفشل في معظم الاحيان · الشريـر

يموت في النهاية ، الا في حالة الموت الشهادة · البطل بالمعنى العام لا يموت · فلماذا نقتل البطل ونحاول تخفيف آلام القارىء ؟ (**الشجرة**)

واذا اردنا للرسالة ان تصل ، فان على القصة ان تستجيب لحاجة ما عند الطفل · فالطفل كما رأينا ، يشعر باللاامان ، ويريد التخلص من طفولته · لذلك علينا مساعدته على التفتح · يؤكد بتلهايم بان استيهامات الاطفال عامة · فهو (الطفل) في جميع مراحل تطوره ، يخاف ان يهمل ويترك جائعا · لذا يحتاج الى ما يخفف من قلقه · يحتاج الى تشجيع وطمأنينة ·

١١ ـ المغزى

هدف جميع النصوص هو الوصول الى مغزى · كيف نساعد الطفل في اعطائه معنى لحياته ؟ كل ادب يريد ان يكون ثوريا ، يعمل في سبيل ان يكتشف الطفل قيما ثورية ، من اجل بناء مستقبل افضل · فلا ينتهي الطفل ـ القارىء من القصة وفي ذهنه بطلا مثاليا يريد التشبه به ، بل يخرج منها وفي حوزته خلفية من القيم الاجتماعية · هذا اذا وصلت الرسالة الى هدفها ·

المغزى هو محور النص : تنتهي القصة عندما تؤخذ العبرة منها ، دون الالتفات الى التتالي المنطقي في الواقع ··

الفيل لا يجد عملا : استبدل الطرح الاول بطرح اخر مختلف : كيف يمكن ان يكون الفيل مفيدا ؟ تنتهي القصة عند حل المشكلة الجديدة دون العودة الى منطلق الحدث · يمكن تفسير هذا الاستبدال عبر مسألة تحويل الفشل الى نجاح · لكن تطور العقدة ركز انتباه الطفل ومنذ البداية على مشكلة لم تحل ·

والتضامن : هو مسألة مركزية في الكثير من النصوص · نلاحظ فقط ، انها غالبا ما تكون تضامن النوع · العصافير تتضامن لمواجهة العدو (**عودة الطائر ، وحيد القرن**) ·

العبرة النهائية هي التي تحث الطفل على التفكير · لكن النصوص بالغة القصر الى درجة انها لا تسمح للقارىء بالتفكير خلال السرد · فرغم كثافة النصوص من حيث المعنى ، فان قصرها يقف حائلا امام توسع القصة بشكل يسمح للطفل بالتساؤل وربط الوقائع ومساعدة الابطال على البحث عن حلول لمشاكلهم · فالذي يجري هنا بالغ التبسيط · السؤال يطرح ثم يقدم الجواب للقارىء · في **الشجرة** مثلا ، هناك جواب على سؤال لم يطرح ، في **السلحفاة الحكيمة** هناك جواب على مستويات عدة · لكن القصة مختصرة جدا ، حتى ان الطفل لا يتمكن من اكتشاف المغزى الا بعد تدخل نشط من قبل الكبار ، فيما كان ممكنا ان يقوم باكتشافها هو او ضمن مجموعة من الاطفال ·

١٢ ـ الخيال

« يقوم فعل الخيال ، بوصفه اسقاطا ، باستعادة الماضي في جميع الحالات ، ليس من اجل الحفاظ عليه ، بل من اجل تحويله · تشكل هذه الاستعادة منفذا نحو المستقبل · هكذا دائما ، في الخيال ، كما في الحكايات التي يستمع اليها الطفل ،

يكون الطفل متلهفا لمعرفة الذي سيحصل (···) هنا ، يمكن ابتكار اصالة زمانية للخيال » · (١٦)

والخيالي هو عنصر متحرك وديناميكي · وتحويل الماضي ، هو فعل تجريد يخلق الصور · هكذا يتحول الخيال الى قوة ابداعية · ويبدو ان الوعي الخيالي عند الانسان سابق لوعيه اللغوي ·

ما هو موقع الخيالي في هذه السلسلة ؟

لا بد من قراءة ثانية وثالثة كي نتحسس مدى شلل الخيال فيها · فنحن امام نصوص بالغة الاخلاص للظروف · فعناصر السرد والعلاقات الداخلية والمراجع ، مستمدة جميعها من الواقع او على الاقل من الواقع الاجتماعي · نحن بعيدون كل البعد عن الاسطورة، عن الغرابة · كما ان قصر النص لا يسمح بوجود وصف غني يمكنه ان يخلق جوا ملائما للخيال · قصة **بيت للورقة البيضاء** مبنية اساسا على الخيالي : اقلام ملونة تتكلم وتتحرك من اجل بناء منزل للحيوانات والورقة البيضاء · فاذا بحمار يأتي من الخارج ، فيتحد الجميع حيوانات واقلاما من اجل طرده من البيت · الخيال هنا ، يقتصر على الكاتب الذي يتخيل كل شيء بدلا من الطفل ، ولم تعد القراءة ممكنة الا في اتجاه واحد · القارىء مجرد شاهد خارجي ، لا يستطيع التدخل · ربما فقط ، يمكنه اضافة قلم جديد او حيوان اخر الى المجموعة ·

« ان علم تربية الخيالي ، تبدأ في اللحظة التي نتمكن فيها من الاستيلاء على مواطن خيال الاخرين ·والحال ، ان خيال الطفل هو بعيد جدا عن فهم الكبار له » · (١٧)

ان التسلسل الدرامي للحدث ، يكبل عنصر الترقب ويحد من الخيالي · ففي هذه القصة ، حيث يلعب الخيال دورا رئيسيا ، نجد ان دوره كقوة محركة يبقى دون السرد ، ويصبح سكونيا ، فيفقد بذلك قيمته الجوهرية ·

يتكرر الامر نفسه مع الطفل نزار في **الشراع الابيض** ، اذ يأتي الحلم استطرادا من اجل خدمة المغزى النهائي ، وليس في خدمة الخيال او الابداع ·

وتبرز الشخصية بكثرة في قصة **نرجس** · حيث يعيش الطفل تجربته مع الطبيعة ، عبر علاقته معها كطبيعة وليس كرمز · ولا يظهر البعد الرمزي الا فيما بعد · وهذا هو مغزى القصة ·

اما في **جزيرة الضياع** ، فاننا نشعر بغياب شخصنة الطبيعة بشكل كامل · طفلان وحيدان في جزيرة خالية ، لا شيء يتدخل من اجل مساعدتهما ، الطبيعة هنا هي مجرد ملحق عملي · نستفيد من الشجرة من اجل بناء طوافة ، نستفيد من الفاكهة من اجل ان نأكل ···

عناصر الخيال غائبة من الحدث في القصة ، لكنها موجودة في الافعال وخاصة في الصفات · لذلك سندرس الالوان كما وردت كصفات في عناوين القصص ونصوصها · وبامكاننا ايضا ان ندرس الحركات والاصوات او حتى الصفات الاخرى « مثل صغير/ كبير الخ ، ولكننا سنكتفي بدراسة الالوان نظرا لقوتها التعبيرية والتجريدية · اي

لدورها في تحريك الخيال عند الطفل ، وخاصة لان الالوان هي الاكثر ارتباطا بعالمه الانفعالي ·

ويصنف الجدول التالي الالوان كماوردت في عناوين القصص ونصوصها ·

مدلول اللون

الالوان الواردة	في العناوين		عدد القصص	صفة تقليدية		دلالة رمزية او	
معنى مجازي	خرافي داخل		السرد الواقعي		خرافي داخل السرد الوهمي		
اخضر	ـ	٨	١٢	٩	ـ	١	٢
ابيض	٣	٧	٢٢	١٩	٢	١	ـ
اسود	ـ	٥	٨	٧	١	ـ	ـ
احمر	ـ	٣	٤	٢	٢	ـ	ـ
ازرق	ـ	٢	٢	٢	ـ	ـ	ـ
اصفر	ـ	١	١	١	ـ	ـ	ـ
ذهبي	١	١	١	ـ	١	ـ	ـ
ملون	ـ	١	١	١	ـ	ـ	ـ
غيره	ـ	١	٢	ـ	ـ	٢	ـ
المجموع	٤		٥٣	٤١	٦	٤	٢
				٪٧٧	٪١١	٪٨	٪٤

عدد النصوص حيث لا يؤتى على ذكر اي لون · · · · ٦ قصص ـ (٪٣٣)

عدد النصوص حيث يذكر لون واحد · · · · · · · · ٤ قصص ـ (٪٢٢)

عدد النصوص حيث يذكر لونان · · · · · · · · · ٥ قصص ـ (٪٢٨)

عدد النصوص حيث يذكر اكثر من لونين · · · · · ٣ قصص ـ (٪١٧)

الجدول واضح ولا ضرورة لتفسيره · نشير الى ان الالوان السبعة الواردة ، لا وجود لفروقات في وصفها مثل (قاتم ـ فاتح) ، ولا مقارنات قابلة لتحريك مخيلة القارىء · واذا وردت المقارنات جاءت على الشكل التالي : « الدنيا صارت حمراء مثل الدم » · فقط **نرجس** تشكل استثناء في هذا المجال · تقول الفراشة : « جناحاي تشبهان قوس قزح ولونهما من لون الشمس والحقول » · والى هاتين الحالتين يشار في الجدول في زاوية « غيره » ·

وكي لا نقع في التباس ، نشير الى ان توزيع العدد (٥٣) الذي يمثل عدد المرات التي ترد فيها صفة اللون ، غير متساو · فنشير مثلا الى ان صفة « ابيض » في استخدامها التقليدي تتكرر ١٤ مرة في **بيت للورقة البيضاء** !

دلالة اللون

اذا قرأنا الجدول افقيا ، فسنجد ان اللون الاخضر يرد تسع مرات بصفته التقليدية ، وذلك : في وصف الاشجار (**القفص الذهبي**) والحقول (**الحمامة البيضاء**) والقلم والباب والنوافذ والاعشاب والاشجار (**بيت للورقة البيضاء**) والعشب ايضا

(**الفيل في الصحراء**) واوراق الشجر والاشجار (**الطفل والمطر**) والعشب اخيرا (**الجراد في المدينة**) ٠

وعندما يخرج اللون الاخضر عن صفته التقليدية ويأتي خرافيا في واقع السرد ، فانه لا يرد كذلك الا مرة واحدة في قصة **نرجس** « الفتاة ذات الشعر الاخضر » ٠ كما يرد مرتين بمعناه اللاتقليدي في قصة واحدة **الشجرة** ، حيث يحلم احمد « صبية صغيرة بضفائر خضراء » ، ويفكر وهو جالس تحت الشجرة ان « السماء خضراء » ، ولكنه سرعان ما يرى حقيقة لون السماء الازرق ٠

اذا قرأنا بالتفصيل الدلالة الرمزية ، فنقرأ الجدول عموديا لنرى :

اللون الابيض في لحية الرجل العجوز (**بديع الزمان**) والذي يرمز الى الحكمة ، ورداء **نرجس** الذي يرمز الى طهارة الطفولة ٠ ويأتي اللون الاسود **في نرجس** ايضا ليرمز الى الشر « تحول غضب نرجس الى غيمة سوداء » ٠ والسماء حمراء كما في وصف القصف (**الشجرة**) لكن النص يوضح « سال الدم » ثم « الدنيا مثل الدم » ٠ وفي **ندم حصان** يظهر التاجر منتقما « محمر الوجه » ، يرتبط اللون الاحمر هنا بالانفعال ٠ واخيرا يأتي اللون الذهبي (**القفص الذهبي**) بمعناه المجازي ممثلا حياة البحبوحة التي تقدمها صفاء للعصفور ٠

النصوص ملونة في كتابتها ٠ لكنها مخيبة للامل من منظور بحثنا ، اي من ناحية مساهمتها في اطلاق خيال الطفل كعمل خلاق وديناميكي ٠

اللون عنصر مجرد في اللغة ، ولكنه يرد الى عنصر ملموس جدا في واقعنا ٠ وهو العنصر المجرد الاكثر دلالة في ذهن الطفل ٠ وهو يحمل دلالة مزدوجة عندما يلتقطه الطفل : فهناك الدلالة الثقافية التي للون من ناحية (قيم رمزية سائدة : الابيض رمز السلام والطهارة ٠٠٠) والتفسير الانفعالي الشخصي من ناحية اخرى ، المرتبط بتجربته الخاصة في الحياة ٠

هكذا نرى ، ان استخدام اللون ، كان يمكن ان يلعب دورا هاما في ايصال الرسالة الى القارئ ، وتطوير خياله ٠ ولكن وباستثناء **نرجس** بقي هامشيا جدا ٠

٣ ـ اشكال التعبير : الاسلوب

لن نتوقف هنا عند الناحية « الادبية » ٠ نبحث فقط من منظور تربوي ، ونحاول ابراز العناصر الاساسية التي تضفي على النص قوة الاقناع في ايصال الرسالة ٠

١ ـ السرد

أ ـ في جميع هذه النصوص ، تسرد القصة من قبل « قاص » مجهول ، باستثناء **بديع الزمان** حيث يقوم مهرج بهذا الدور ٠ اذا لا استغلال لوجود قاص اضافي من اجل ادخال قصة في قصة او في سبيل استخدام التراث ٠ وحتى **بديع الزمان** فانها لا تخرج عن هذه الفرضية ، فيأتي المهرج بلا فائدة ودون اي معنى ٠

ب ـ نلاحظ ان الحوار يحتل حيزا هامًا من النص (ترتكز اكثر من نصف القصص

على هذا الاسلوب) · والاسلوب المباشر : الحوار ، النداء ، يسهل عملية ايصال النص الى الطفل · ذلك لان الحوار ذاتي ويرتبط بالتالي بانفعالية القارىء ·

ج – يجب ان يكون تواتر الحدث في متناول الطفل · والنصوص المدروسة تدور حول موضوع واحد ، حيث يمكن ان يتم الاستيعاب التدريجي للامور دون صعوبة · لكننا نشير فقط الى ان **اللحظات الفارغة** (فارغة بالنسبة لتتالي الحدث الدرامي) والتي تضعف انتباه القارىء الكبير ، تأخذ معنى مختلفا بالنسبة للطفل ، اذ تتيح له فرصة لاستعادة انفاسه ، فيستوعب ببطء وحسب وتيرته الخاصة ويتابع القصة بنفس جديد · ولكن هذه الملاحظة لا يمكن تجسيدها عمليا في قصص مختصرة كهذه ·

د – تواتر الجملة سهل · فهي قصيرة اجمالا وواضحة دون تكثيف للمعاني والعبارات · ولكن في ادب الاطفال ، لا بد من امر ضروري وهام : **التكرار** ، فالتكرار في بناء الجملة يضفي تواترا على مجمل القصة ، ويسجل لحظات التوقف لحدث يتكرر · **الفيل يجد عملا ، نرجس ، الريش الجميل** الخ · ، وهذا يسهل بالتالي عملية اعادة الانتاج الزمني او الشفوي للقصة · ونجد في **الفيل يجد عملا** الى جانب تكرار الحدث تكرارا في البناء اللغوي · فاعادة استخدام التعابير نفسها ، تساهم في اطلاق الخيال الى جانب دورها في الحفظ · « كانت الكعكة كبيرة جدا جدا » ، تجسد الكبر بالنسبة للطفل اكثر من لو جاءت « كانت الكعكة كبيرة جدا » ·

تكرار الصفات او العبارات شبه غائب في هذه النصوص ، رغم ان الطفل يستخدم عادة هذا الاسلوب بنفسه من اجل ترسيخ صورة ملموسة في ذهنه ·

« ان اختيار الالفاظ امر دقيق وبالغ الاهمية · فالكلمات تدرك **صورا** قبل ان تدرك كمعان (١٨) » ·

هـ – العبارات (الكلمات ، الصفات ، الافعال) المستخدمة في هذه النصوص ، تنتمي جميعها الى القائمة التقليدية المألوفة · ونشير الى الغياب الكامل للكلمات الجديدة او المستنبطة ، او المستخدمة من اجل ايقاعها المؤثر او من اجل قدرتها على احداث تداعيات للافكار · والامر نفسه فيما يختص بالصفات ، كبير/صغير · قريب/بعيد · قليل/كثير · هي الاكثر استخداما · حتى صفات الابطال تبقى وفية للقائمة التقليدية · الثعلب محتال والقط كسلان والحمار حمار ·

اما بالنسبة للافعال ، فانها نادرا ما تستخدم في صيغة المجهول ، منعا للالتباس والصعوبة المجانية · لكن استخدام الرموز والتشابيه والاستعارات معدوم تماما ، اذا استثنينا **نرجس** حيث يلعب الخيال كما سبق وقلنا الدور الاكبر ·

و – واخيرا نلاحظ غياب **السجع** ، المستخدم عادة في الحكايات الشفوية (والذي يمثل جانبا اساسيا من الحكاية الشعبية العربية (١٩)) ، غياب الشعر ، غياب اللازمة · كلها عناصر كان بامكانها تسهيل عملية التلاوة الشفوية للقصة ·

٢ – اللغة

استخدمت اللغة العربية الفصيحة في سرد هذه القصص · ومن المعروف ان هذه اللغة ، مرتبطة في ذهن الطفل بالدراسة والمدرسة والتعليم ، بينما اللغة التي يستخدمها يوميا مرتبطة باللهو والتسلية · تطرح هذه الازدواجية مشكلة هامة جدا ، ان لم

تكن اكثر مشاكل التعليم اهمية · وحتى الان ، لم يدرس هذا الموضوع بشكل فعلي ، ولا تزال المشكلة مطروحة ·

في ادب الاطفال ، وفي النصوص التي نقوم بدراستها على وجه التحديد ، تظهر محاولات متواضعة · اللغة مبسطة قدر الامكان في العبارات المستخدمة وبناء الجملة والكلمات الصعبة نادرة « انصتت الغيمة » (**نرجس**) والجمل الطويلة ، مقسمة بالفواصل والنقاط التي تسهل قراءتها · ونادرا ما تلجأ هذه النصوص الى اللغة المحكية · نقرأ في **الشجرة** « يروح ابوه الى الشغل » او « الاغصان تشيل احمد » · هذا الاستخدام للغة المحكية كان بامكانها ان تكون مفيدة لو كانت الكلمة صعبة باللغة الفصيحة · فلا معنى لاستبدال **يذهب** بـ **يروح** · اختيار العبارات يجب ان يدرس بدقة ، من اجل ان يكون مفيدا ·

الاختلاف بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية ، يحيل النص الى حد موضوعي · ويؤكد في كل لحظة المسافة بين القارىء والقراءة · والقارىء يبذل جهدا من اجل التقاط معنى النص واستيعابه من اجل اعادة صياغته بلغة مختلفة (٢٠) · وهنا ، ربما ظهرت فروقات كبيرة في اللهجة التي يسرد بها الطفل الوقائع · فاللهجة محملة بالانفعال تقود الى استخدام خاص للمفردات ·

ان عدم مطابقة اللغة المكتوبة باللغة المحكية ، تقود الى مشكلة ايصال حقيقية ، ويجب ان تؤخذ بجدية ، وتعطى الصدارة في معالجة الادب الموجه للاطفال ·

خاتمة

بعد نهاية عرضنا التحليلي هذا ، ما هي المسائل التي يمكن استنتاجها ؟

ليس هناك من ضرورة لتكرار الاستنتاجات الجزئية التي وردت في سياق هذا البحث ، ولكن يمكننا ان نضيف ، ان قصص هذه السلسلة يمكن اعتبارها نموذجية، بالنسبة لجميع القصص التي صدرت عن **دار الفتى العربي** · واذا قرأنا ثانية كتيبات دار الفتى جميعها ، نخرج بالاستنتاجات الاجمالية التالية :

أ ـ يجب الانطلاق من مسألة **تحديد القارىء** · لمن يتوجه دار الفتى العربي · هل الهدف الاساسي اعلامي تجاه الرأي العام العالمي ! (ورد في منشور وزعه الدار حول الجائزة الاولى التي فاز بها في معرض الكتاب العربي ١٩٧٥ ، ان الكتاب الفائز **البيت** ، وزع بلغات مختلفة للوفود المشتركة في دورة الامم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٧٤ ، اثناء مناقشة قضية فلسطين) · هل يتوجه لاطفال المخيمات ؟ هل الهدف هو ان يباع في المكتبات ويكون في متناول الجميع ؟ (هنا ، لا بد من الاشارة الى ان الاسعار مرتفعة وخارج متناول سكان الاحياء الشعبية) هل يتوجه للمدارس ؟

الثغرة الرئيسية ، هي غياب سياسة تربوية محددة · « اذا اردنا ان تكون الحكايات والقصص مفيدة ، فيجب ان تشكل تجسيدا لقلق الطفل ، فيتسنى له بذلك ، ان يتغلب عليه بصورة افضل (٢١) » · وكما نعلم ، فلم تجر اية دراسة اولية جدية قبل البدء بانتاج الكتب · « ان معرفة كيف ولماذا تعمل اوالية التماثل والاسقاط ، تتيح المجال امام عمل مكون غير مباشر على شخصية الطفل · ويسمح لعلم التربية بالتمكن

من تقدير الذي يمكن للتربية ان تجنيه من الجيد في كل انسان ، او من الاقل جودة ، او حتى من السيء (٢٢) » ·

ب ـ ليس هناك بحث حول مشكلة اللغة الملائمة · الفصحى او المحكية ··· والتردد في هذا المجال يزيد الطفل ضياعا (٢٣) :

ج ـ الطفل ، يحب ان يرى ويقرأ ويسمع ما سبق له ان قرأه او سمعه · لا يهمنا السبب هنا ، ربما لشعور بالاطمئنان أو من اجل استعادة الذاكرة ·· لذلك لا بد من مراعاة هذا الجانب في قراءات الاطفال باعتباره عنصرا هاما في التقاط النص ·

ولكننا نلاحظ في جميع كتب دار الفتى ، غياب الموروث الثقافي الشفوي ، الذي يتعرف عليه الطفل في عائلته ـ علي بابا ، السندباد ···

د ـ هل نستطيع ان نخلص ، الى ان النصوص في هذه الكتيبات ، كغيرها في الميدان نفسه ، تلتقي حول هدف تكييف الطفل مع المجتمع الذي يعيش في وسطه ؟ بينما سيكون هدف أي مشروع ثوري لكتب الاطفال هو المساهمة في تغيير العالم ·

فاذا نظرنا الى ادب الاطفال بصورة عامة في بلادنا ، نكتشف ان انعدام المؤسسات الثورية ، التي لا غنى عنها في اية محاولة لبناء تربية ثورية ، يقودنا حتما الى القواعد التقليدية ·

هـ ـ ومن ناحية اخرى ، يجب الالتفات بجدية الى التراث الثقافي الشعبي الشفوي · قصص الاطفال تنقل عادة اليهم بشكل شفوي ، والاسرة (وليس المدرسة) هي التي تلعب دور الحكواتي · فالعلاقات البطريركية في مجتمعنا ، تجعل من العلاقة كتاب ـ قارىء علاقة صعبة وتحتاج الى وسيط · وهذا الوسيط هو المؤسسة الاجتماعية · اي الاسرة في الدرجة الاولى ، ثم المدرسة والحي ··

العلاقة اذن هي : كتاب ← مؤسسة اجتماعية ← قارىء ، في المستوى الاول ، ثمّ تأتي امكانية المستوى الثاني : كتاب ← قارىء · لذا علينا ان ندرك اهمية الوسيط ، المؤسسة الاجتماعية ، في ادب للاطفال يريد ان يكون تربويا ومسليا (اي خارج الادب المدرسي) ·

فأهمية الادب الشفوي في هذا الاطار ، تدفعنا الى اعادة النظر في حكايات اجدادنا ، فهذه الحكايات ، رغم انها تروى للاطفال ، وكثير من ابطالها هم من الاطفال ، ليست بالضرورة حكايات للاطفال ، هنا تبرز ضرورة اعادة كتابتها (٢٤) ، مع مراعاة حاجات الطفل وحاجات المرحلة ·

و ـ ان تربية الاطفال هي امتياز طبقي · ففي المجتمعات التابعة ، حيث يشكل الطفل عبئا على ذويه وليس على الدولة ، وفي الطبقات الكادحة ، لا يستطيع الطفل ان يعيش طفولته · انه يعيش بين الكبار ، داخل عالمهم منذ سنواته الاولى ·

وتربية الاطفال على المستوى الوطني (ادب ، سينما ، مسرح ، فن ···) تفترض ايضاً وجود عالم خاص بالطفل · وهذا يرتبط ايضا برفاهية المجتمع ككل ·

ز ـ في المجتمعات التابعة ، وخاصة في الاوساط الشعبية ، هناك انعدام كامل لعالم الطفل · فاذا أردنا ان ننتج ادبا للاطفال في مجتمعنا التابع ، حيث الاكثرية هي من الفلاحين والكادحين وسكان مدن الصفيح ، علينا ان نختار بين احد اتجاهين :

١ ـ انتاج ادب لاطفال الاغنياء · وهنا لا حاجة للابتكار ولا ضرورة له · فترجمة الادب الاجنبي المختص في هذا الحقل ترجمة شبه حرفية ، تكفي لهذه الفئات الاجتماعية الطفيلية والمرتبطة بالغرب الرأسمالي ارتباطا وثيقا ، ليس فقط على الصعيد الاقتصادي، بل وايضا على الصعيد الثقافي ·

٢ ـ انتاج ادب ثوري حقيقي يساهم في العملية الثورية · ولا يكون ادبا مسليا فقط ، ولكنه يشكل ادبا مختلفا للاطفال ·

ان كتب دار الفتى العربي لا تزال مجرد مشروع ينمو ويتطور ·
فاين يقع اختيار دار الفتى العربي ؟

هوامش

1 - Andre Jolles : Formes Simples - Collection Poétique - Seuil P. 188

2 - Bruno Bettelheim : Psychanalyse des Contes de Fees - Collection Reponses - laffont - P. 19 .

٣ ـ من منشور وزعه دار الفتى العربي ، في المعرض الذي اقيم للرسوم التي تزين الكتب في ٢٣ـ١ـ٧٥ ·

٤ ـ لن نتناول هنا المظهر الخارجي (الحجم والرسوم) فهو يتطلب دراسة خاصة به·

٥ ـ لا يمكن ان يقرأ الطفل قصة قبل سن الثامنة على الاقل · لذا لن نأخذ بعين الاعتبار في بحثنا السن المقترح لمختلف النصوص · لكننا نشير هنا الى التقسيم كما ورد في الكراريس التي اصدرتها الدار ·

٦ ـ نال كتاب البيت الصادر ضمن هذه السلسلة الجائزة الاولى في معرض الكتاب العربي ١٩٧٥ ·

٧ ـ هذه القصة ليست نموذجية · ولكنها تتضمن دون شك ، واكثر من اية قصة اخرى ، عناصر فكاهية لم تستغل · ونحن نختارها لتبيان انه رغم وجود هذه العناصر ، فقد انعدم حس الفكاهة بشكل تام ·

٨ ـ باستثناء قصة الحمامة البيضاء التي لا تدخل في اي من المقولات الخمس المقترحة ، لان الخطر هنا يعود الى روح المغامرة ·

٩ ـ قصة القفص الذهبي « مزدوجة » ، الخطر الرئيسي : العدو (القفص ، السجن) والخطر الثانوي : الوحدة (صفاء تضيع في الغابة) ·

١٠ ـ في الحالات الثلاث حيث الخطر الخارجي هو (القصف ـ القحط ـ العاصفة) لا يحاول السرد حل المسألة · لذا يبقى المكان المخصص فارغا ·

١١ ـ بينما نراها في سلسلة اخرى (قوس قزح) تبرز بوصفها صفات العدو الرئيسية ·

12 -
Vladimir Propp : Morphologie du Conte. Collection Poetique-seuil P. 29
13 -
Bruno Bettelheim : Psychanalyse des Contes de fees P. 21
14 -
Belotti : Du coté des petites filles-ed. des femmes. P. 141 et 143

١٥ ـ نشير هنا الى قصة **العصفور الصغير** لمكسيم غوركي المترجمة عن الروسية ، دار التقدم · حيث يجري حوار بين قط وعصفور يمثلان قطا وعصفورا · يقول العصفور: « مسكين هذا الانسان ، يمشي من دون جناحين » او يعلق : « ولماذا تهتز الاشجار ؟ فلنتوقف عن الاهتزاز وعندئذ لن تهب الريح ·· » ·

16 - Philippe Malrieux - la Constuction de limaginaire - in Georges Jean - pour une Pedagogie de l'Imaginaire Casterman - Orientations- P. 70 et 71.

١٧ ـ المرجع السابق · ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ·

١٨ ـ جورج جان ـ مرجع مذكور سابقا ·

١٩ ـ استخدام السجع في قصة **الديك الهادر** · حكاية من فلسطين ـ سلسلة حكايات الشعوب ، دار الفتى العربي ·

٢٠ ـ اذا اردنا تعميق البحث من اجل لغة في متناول الطفل العربي ، لا بد من دراسة تتناول هذه النصوص كما يسردها الاطفال شفويا ·

21 - pour une autre Pedagogie de la Lecture-groupe français d'éducation nouvelle - orientations Casterman P. 38.
22 -
Marguerite Verot : Tendances Actuelles de la littérature pour la Jeunesse Magnard P. 20 .

٢٢ ـ في قصة **الحمامة البيضاء** تبحث الام القلقة عن ابنتها المفقودة · والطفل لم ينته بعد من اكتشاف الكلمات ومعناها · يتحسسها صورا · و « الحمامة » بالنسبة له هي بوعي او بغير وعي العضو الجنسي الذكر · حمامة ضائعة ، تمثل بالنسبة للطفل القارىء الخوف من الخصاء وبالنسبة للطفلة الرغبة في الذكر · اختيار الوضعية ، هنا ، هو اختيار مجاني ومقلق بالنسبة للاطفال من الجنسين ·

٢٤ ـ ان قصة « الصغيرة ذات القبعة الحمراء » (Le Petit Chaperon Rouge) الشهيرة تنتهي بانتصار الذئب في رواية بيرو التي كتبت عام ١٦٩٧ · وجاء الاخوان غريم بعد اكثر من قرن (١٨١٢) وجعلوا منها الاسطورة الاكثر شعبية ، حيث تنتهي بانقاذ البطلة الصغيرة ·

كتب

الياس خوري ، **الجبل الصغير** (دار الاداب ، بيروت : كانون الاول ١٩٧٧)

يقدم الياس خوري في مجموعته القصصية الجديدة « الجبل الصغير » شهادة عن الحرب ، صورة الحرب من جميع المناحي والوجوه ، فينتج عوالما متميزة : عالم الحرب ، وعالم الانسان وعالم اللغة ، تترابط وتتداخل هذه العوالم في نسق فتعطي عملا ادبيا متميزا ٠

يعمل الكاتب في موضوعه « الحرب » بأدوات الكتابة فيعيد انتاج صورة الحرب مكثفة ويقدم صورة مكتوبة للحرب ٠ يدخل « جوهر » الحرب في الكتابة ٠ نعيش في « الجبل الصغير » عالم الصحو والقذيفة والسديم والمتاهات الكبيرة والصغيرة ، ونقف امام فضاء من الوهم والحقيقة او وهم الحقيقة وحقيقة الوهم حيث تتراكم الاشياء وتتكسر وتبحث عن اسماء جديدة : عالم سديمي تستعيده ذاكرة عصابية فيختلط الحلم بالنصل والخبز بالقذيفة والموت بالبحر ٠

يستبطن الياس خوري تجربة الحرب والعالم لغة فنعيش معه الواقع في اللغة واللغة في الواقع ، لغتان تتطابقان في اثر فني ، وتتداخلان في وحدة ٠

يرسم « الجبل الصغير » الحرب ولغتها فيعيش القارىء الحرب في مادتها المباشرة وفي اثرها اللغوي : لغة متميزة انتجتها الحرب ٠

يقوم « الجبل الصغير » على لغة تحاول استيعاب واقع ، فهو شكل لغوي او شكل معطى في اللغة ٠ لغة كاتب كـ « ذات » تفك رموز العالم وتحاول ترميزه ، لها منطقها وصورها ونسقها اي لغة وظيفية تقترب من الاشياء وتحركها في عالم الواقعي والخيالي ٠ الوهمي والحقيقي ٠

رحلة الحرب والكتابة : يكتب الياس عن الحرب ، يبتكر لها ادوات توائمها ٠ يمارس الحرب كتابة فيرسمها بالصورة والكلمة والرمز : الحرب تجربة ذات رموز وطقوس تتجلى في الاحلام الكسيرة والموت والجدران والكنائس والساحات والشوارع والملصقات وضوء الشموع وطعم الملح ٠ الحرب موضوع ممارسة وتأمل ومعايشة واستبطان ٠ رعب بألف رأس ٠ الحرب موضوع كتابة ٠

الحرب تجربة والكتابة تجربة والكتابة عن حرب معاشةتجربة فريدة اذا احتضنت الموضوع وخلقت لغته ٠ **يقوم « الجبل الصغير » على ديالكتيك تجربة الحرب وتجربة الكتابة ٠ تجربتان تتوحدان في عمل فني حقيقي ٠**

تقدم الحرب لغتها ورموزها اليومية ويبحث الكاتب عن لغته ورموزه ٠ تحاول تجربة الكتابة ان تحتضن تجربة الحرب

فتنتج لغة كتابة جديدة · **الياس خـوري ينتج لغة جديدة** · فهو لا يعالج الحـرب بلغة جاهزة او بنسق لغوي تقليدي بـل يدخل حقل التجربة الجديدة ، يدخل عالم الحرب كاتبا ويستنبط لغته الخاصـة فيكسر التقليدي ويرمي بكثير من المعايير جانبا · يحاول العثور على قوانينـه وأسلوبه · ينتج لغة زمـان الحـرب : للاشياء طعم الحرب وللحـرب طعـم الكلمات ·

يرسم الياس في جبلـ « ٨ » لوحـات ايحائية متناهية ، يكتب بالرسم ويصـور بالكلمات ويخلق العلاقـات بالصـور · فتصهل خيول مقطوعة الرأس وتـدق الساعات الحجرية وتضحك الطيور ويرتد البحر جريحا · اي تتكسر الدلالات ويبقى فضاء ملون ذو اثر · **لا يقدم الكاتب فكرا او افكارا ، يقدم صورا** ، ويترك المعنـى لنا نلملمه عن الصورة · المعنى فـي الايحاء ، في الاثر ، حاضر ـ غائـب · **ان مفتاح الفكرة في « الجبل » هو الصورة الكثيفة المرسومة بالكلمات في حقـل علاقات لغوية متوازنة** ·

يقدم « الجبل الصغير » **لغة وظيفيـة** وكتابة واعية · واعية في هلوساتهـا وحلمها وهذيانها · ويقدم صورة عالـم تقوض فيه كل شيء وبقي الموت سيدا :

ـ اصوات القذائف ترتطم بالاجساد / بين اليد التي تطلق والقدم التي تقفـز ، هناك جسد ينحني ، يقفز ، يزحف ، وحين يصل لا يمسك بغير البحر / تبحـث عن الحرب بين الصيحات والبرد / الحـرب تفتح لدموعهم ابوابها / كان مطر القذائف يختلط بمطر السماء والريـاح تحمـل البندقية كما نحملها نحن / لا شيء سوى القصف · يتوقف المطر وتبدأ الحجـارة بالتفتت ·

ـ الموت علامة ، فراشات واحصنـة · الموت نحن / يقترب الموت بصلعته ويده / الموت شيء اخر / الموت عصفور / مـا علاقة الموت بالعيون الفسيحة ؟ / الحـرب ضمير مستتر تقديره نحن /-الموت حالـة هادئة / الموت شجرة ليمون ·

لغة تلازم حالة · تنمو بنمو الحـدث ونمو عملية الكتابة فتتكاثر اللغة وتكسر قيودها · لغة تلد لغة وحادث يولد لغة · اللغة وضع اجتماعي ·

الواقع واللغة : « الجبل الصغيـر » نص لا يرصد الواقع او يواجهه بل هـو جزء منه · نص لا يتكلم عن الحرب بـل هو الحرب لغة · ليس « الجبل الصغير » مجموعة قصص عن الحرب بل مجموعـة قصص في الحرب · ويتحدد هذا العمـل الفني بالعلاقات الفعلية ، المعاشة ، التـي تتضمن اللغة والمعايير الجمالية ومجمـوع الواقع الاجتماعي ·

ان لغة « الجبل الصغير » **هي نتيجـة** لتغيرات الواقع التي تنتج لغة جديـدة توائم هذا التغيير · لذلك فان اليـاس خوري **يقطع مع الاشكال الادبية المسيطرة ويشب عن « قانون » الوصف / التأويـل ويصل الى الرسم / الايحاء** · اي يصل الى كتابتـ « ٨ » ·

الحرب موضوع · لا تصبح عملا فنيـا الا بوسائل فنية · فهناك الحرب وهنـاك الموقـف الفني منهـا اي **اللعبـة الفنية للموضوع** · فالموضوع جملـة علاقات والبناء الفني له يمنحه علاقـات متميزة « تختلف » وتتمايز عن علاقاتـه الاولى · وتتم هذه الاحـالة بواسطـة أدوات انتاج فنية ·

يستعيد « الجبل الصغير » الحـرب

بواسطة الاسلوب ، الحلم ، الرمز ،الذاكرة العفوية ، الذاكرة القصدية ، تكسير العلاقات وتركيبها ، تكسير الصور وتركيبها • بين علاقات البنيان الداخلي لـ « هذا » العمل الفني وعلاقات البنيان الموضوعي للعالم الحقيقي جسور متميزة :

خصوبة الواقع / خصوبة الصورة الفنية • الواقع / الحلم • كثافة الواقع / كثافة اللغة • تعقد الواقع / رمز اللغة / لغة الرمز •

يقترب الياس في جبل « ٤ » من تجربة الخيال وحقل التجربة المتخيلة يستعيد العالم عبر ذاكرتين : ذاكرة عفوية وذاكرة قصدية • الذاكرة الاولى ذاكرة بلا قانون تتحرك في حقل بلا ضفاف . تكسر الازمنة وتحطم المسافات والامكنة ، تمزج الازمنة وتلاقي الامكنة • قانونها عفويتها ورغباتها المكبوتة • ذاكرة حرة منطقها هو اللامنطق او منطقها الخاص، تستعيد عالم الطفولة وعالم الموت والطقوس والهذيان • اي ينطلق الخيال كرغبة عمياء تبحث عن ذاتها ، تتعيش، فتجول في مدن خالية وازمنة بعيدة وأزمنة قادمة • انها لغة الحلم واللذة والحصار :

ــ « كانت النخلة التي أمام بيتنا تنحني من ثقل جذعها الى اليسار • او كنا نخاف ان تلامس الارض او ترتطم بها فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدها الى نافذة بيتنا • لكن المنزل كان يتهاوى بحجره الرملي السميك ، وسقفه الخشبي• فخفنا ان تسقط النخلة بالبيت حين تسقط• تركناها تنحني يوما بعد يوم • وفي كل يوم امسكها من جذعها المتشقق وارسم عليها صورتي » ص ١٠ •

بينالحلم والكتابة لذة ، رغبة مكبوتة ، حالة نفسية تبحث عن ذاتها وعن التحقق • **تنفتح اللذة في السطور وتنبض في عروق اللغة** • يبحث الحلم عن ذاته • يخطىء الحلم حدوده ، يتراجع، يتقدم ، يتكثف ، يقارب حدود ذاته او حدود الرمز • يقوم بين الحلم والرمز هامش صغير قاس : عدم التحقق • تتجمع الاشياء والذكرى والعوالم الحبيسة والطليقة وتتدثر في السطور • يأخذ **الحلم حدوده المادية او ماديته في عملية الكتابة واقمطة اللغة** • فنرى رمز اللغة او لغة الرمز :

ــ هذا هو البحر • ما هو الفرق بين الناس والبحر ؟ ما هو الفرق بين البحر والاسماك ؟

ــ أتدلى داخل الكلمات •

ــ لا تأخذ الوان لونها الا لحظة الغرق •

ــ منذ ثلاثمائة عام كان الفتى النحيل ورقة مرمية على الشاطىء التقطها عابر سبيل ووضعها في جيبه •

عندما لا ينسجم منطق الذاكرة مع منطق العالم تهرب الذاكرة الى عوالمها : ذاكرة الحلم • لكن ذاكرة الحلم تتعايش مع ذاكرة الواقع او ان الذاكرة العفوية تتعايش مع الذاكرة القصدية • واذا كانت الذاكرة الاولى تحلق في سماء زرقاء بلا قيد فان الذاكرة الثانية ترتبط بالواقع ، تحاوره ، وتحاول فهمه وتغييره ، تعيش عالم الحرب من الداخل والخارج ، تدرك دلالة العلاقات • تتدخل الذاكرة القصدية لتربط العلاقات وتصل الى اتساق المعنى • تقوم باضاءة الصور وربطها • ان ترابط الذاكرتين يمنح العلاقات معناها او يدفعها باتجاه قيام المعنى •

لكل ذاكرة اسلوب ولغة • لذلك فان

نسيج العمل الادبي في « الجبل الصغير » يقوم على تزاوج ذاكرتين وتزاوج اسلوبين · عالمان في عالم ، لغتان في بنية · هناك الاسلوب الوصفي المباشر الذي يلتقط اجزاء الحياة اليومية المتناثرة في منطق الزمان الفيزيائي وفضاء المكان الهندسي ، وهناك ايضا اسلوب الزمان النفسي وتداعي الامكنة · لكن تعايش الذاكرتين / الاسلوبين لا يفجر بنية العمل الفني بل يمنحه خصبا وتنوعا وديناميه · علاقات في بنية ولكل علاقة دلالة · فالحلم وظيفي والقصدي وظيفي في « كلية » تقترب من الواقع وتحاول التعبير عن كل علاقاته وتناقضاته ·

يحاول الكاتب تملك العالم المعاش وعالم الانسان بالكتابة ، يعيش ديالكتيك العالم وديالكتيك اللغة فيصل الى « لغات » في لغة :

أ ـ اللغة الرمزية ! لغة الخيال عندما لا يمسك بالواقع ·

ب ـ لغة سردية : تطابق بين عادي اللغة ورتابة الحياة اليومية ·

جـ ـ لغة جمالية : او بشكل ادق لغة « استاطيقية » تتسير على الواقع ، تروضه ، تدخله في فضائها · تجعل هذه اللغة العالم اكثر شفافية واكثر كثافة :

ـ تتساقط النخلة ···· تتمزق كالشرايين الصغيرة امام القذائف ·

ـ تأكلني المعادن السوداء : يقولون حاجز · وانا ارى وجهي يتساقط في الطريق ·

ـ الكهولة تتسرب من بين اصابعه كالماء ·

ـ كان دافئا كالكستناء وطريا كشعر امي · طفل تداعب وجهه الريح ولا يبكي·

ـ ينزف البحر في عينيه ملحا ولا يبكي ·

ـ النصر ثوب مثقوب ·

ـ المرأة تشبه حبلا سميكا ·

ـ الحروف السوداء تسيل على وجهي وثيابي ·

د ـ لغة جديدة : تفرش « الجبل الصغير » بأسره · ترتبط « بموضوع » معاش ، تتحدد من الشرط التاريخي الذي انتجها · بل يمكن ان اقول لغة ضرورية أفرزها شرط تاريخي · فهي لغة حدث ، تصدر عنه وتعود اليه لتعيد صياغته ·

يقتفي الياس « اسراب » الكلمات ، يتصيدها ، ثم يلهو بها او يخضعها لـ « لعبته الفنية » · يمارس ديالكتيك الصورة الفنية لكنه لا ينطلق من وحدة المعنى او عقلانية الصورة بل يلتقط الكلمة، يعيد بناءها ويحاول ان يعطيها معنى أو شبه معنى · ان اختيار الكلمات وبناء الصورة عند الياس يشبه القاء حجر في بركة راكدة · يصل الحجر فينتج موجة اولى وثانية وثالثة ···· الحجر هنا هو الكلمة والصور الجمالية هي سلسلة الموجات المنطلقة من المركز · وكثيرا ما تختلط المراكز وتتقابل الامواج :

ـ « الارض مثل الصابون · انتبه · انتبهت · لكن الارض كانت مثل صابونة كبيرة ، السيارة تنزلق ببطء · السيارة تشبه الصابونة · صغيرة مثل صابونة الحمام ولها رائحة » ·

ـ « مئة شمعة ترتجف وسط كنيسة مهدمة · نحن في سفينة حقيقية · كانت السفينة تتلألأ وسط البحر · وفي داخلها

بحارة غرباء يبحثون عن ثيابهم الجديدة · نحن في وسط البحر · المطر الخفيف يصل الى قرميد الكنيسة ثم ينحدر على جانبيه ، وحولنا الموج والكهنة ورصاص القراصنة » ·

المركز هنا هو الكلمة « الصابونة » او « السفينة » · كلمة وذاكرة ، تتابع الذاكرة احتمالات الكلمة او ترى الكلمة في علاقاتها الممكنة ·

لامركزية الحدث ـ الكاتب علاقة :

يرسم « الجبل الصغير » فضاء متميزا لا يقوم على « حكاية » او « حدث » مركزي بل على سلسلة من الحكايات وأشباه الحكايات · الحدث المركزي هو الحرب ، لكن الياس لا ينطلق من مركز او من نقطة بداية بل يرسم مجموعة من الجزئيات المختلطة تشكل كلها كلا او مركزا يعيش الحدث المركزي كحدث في حدث ، حكاية في حكاية · نسير في شرايين لا متناهية ولا نصل الى القلب ، فالقلب في الشرايين الصغيرة · نعيش متاهة الحدث في شبكة حوادث ، كل طريق يفضي الى اخر ، وكل حكاية تولد اخرى · **المركز دائما في مكان اخر** بل يمكن ان اقول ان **المركز هو في الجنب او الهامش** · المركز غائب ـ حاضر · بمعنى اخر ،المركز لا وجود له والعمل الفني جملة علاقات في بنيان ، وقيام هذا البنيان وتوازنه يقوم على توازن العلاقات وموضعها · يقدم « الجبل الصغير » « حكاية » بلا بداية ولا نهاية ، البداية في مكان اخر والنهاية كذلك ·

ان الاثر الفني الذي ينتجه عمل الياس يصدر عن كلية العلاقات ، عن جملة الاحداث الصغيرة التي تعطي في النهاية اثرا وتنسج عالما وتترك صدى وتخلق جرسا · واذا كان الكاتب التقليدي ينتج « شجرية » الحدث عن حدث مركزي فان الياس خوري ينتج شجرية المركزي من علاقات الاطراف · ان المركزي هو جملة المراكز · فالمركزي المجرد لا يمكن تحديده ·

يعود لا « تحديد » المركز الى تكنيك الكاتب الذي يعتمد على مفهوم محدد للعالم وللكتابة « العالم جملة علاقات والكتابة لغة وشكل » · لذلك تنطلق الكتابة واعية ـ نصف واعية ـ لا واعية· الكتابة ذاكرة مطلقة السراح ، تتخارج، تمور ، توحي · ترسم الحدث ـ علاقة ثم تنتقل فتحقق نفسها في حوادث ـ علاقات ·

يحدد هذا المفهوم موقع الكاتب من النص ويعين حضوره · فالكاتب علاقات لامتناظرة تتحدث تارة بصيغة « الانا » وتستحيل تارة اخرى الى الـ « هو » · تكتب بصيغة المتكلم وصيغة الغائب · تتشابك في عملية الكتابة علاقات الذات ـ الانا فيتداخل الانا والانت والانا والهو · فالمتميز والمحدد هو البنيان اما العلاقات الجزئية فهي بلا هوية · للنص منطقه الخاص الذي يحدد حركته ونموه ، وما يشد النص ويطوره هو حركة اللغة وديناميه الصورة ، لذلك فان الكاتب كذات حاضر ـ غائب · يصحو تارة ويغيب تارة اخرى · عندما تصحو اللغة ويمور النص تتراجع « الذات » ، وعندما يستيقظ حضور الكاتب يعاود النص اندفاعه من جديد · **الكاتب حامل عملية الكتابة وعلاقة في حقل الكتابة ايضا** ·

التناقض في النص والتناقص في الواقع :

لا ينطلق الياس من ثوابت ايديولوجية

او لغوية او اسلوبية ، « ينجرف في تيار الكتابة ، محاولا احتضان الواقع · يحاول الوصول الى كل الزوايا والمساحات · يبعد « احتيال العقل » و « قيد الايديولوجيا » ويحل مكانهما « عفوية » الكتابة · ينقل مستوى الواقع الى مستوى اللغة · ولما كان الواقع جملة علاقات متناقضة لاخطية فيها فان هذا التناقض لا يلبث ان ينتقل الى النص الادبي الذي يحاول رسم هذا الواقع · **تناقض يعيد انتاجه كتناقض اخر** · لذلك فاننا نجد في « الجبل الصغير » اكثر من « فكر » واكثر من « ايديولوجيا » · نجد اكثر من اسلوب واكثر من لغة · بمعنى اخر · ان كثافة الواقع وسديم المعاش وضبابية اللحظة التاريخية تعكس نفسها في الشكل الفني الذي يرسمها · لا « معقولية » الحرب تظهر في « لامعقولية » العلاقة الفنية · الشرط تاريخي يحدد الشكل الفني الذي يشير اليه ·

يأخذ التناقض هنا شكلين : التناقض في الفكر والتناقض في الشكل الذي يحمله · فعلى مستوى الفكر تمر امامنا مركبات عدة :

الثورة / الموت · الفرح / السوداوية· التفاؤل / التشاؤم ، صحوة العقل / تحطم العقل · النشوة / الانكسار ····

اما على مستوى الشكل فنرى : الواقعي / الخيالي · الحقيقي / الوهمي · اليومي / الرمزي ····

مركبات الواقع تنتقل الى مركبات النص · نص غني يحاول استنفاد واقع لامتناه في غناه · عقل وسديم يتابعان رحلة التعايش والمجابهة ·

ان وجود التناقض في النص يعبر عن **كتابة ديالكتيكية** تنطلق من الحي الذي هو ذاته وغيره في الوقت ذاته ، هوية ونقيض · عالم في حركة ·

الايديولوجيا وعملية الكتابة :

يحاول الياس خوري الوصول الى كتابة جديدة · و « الجبل الصغير » حقل هذه الكتابة · وعلى الرغم من جمالية اللغة واصالة المحاولة فان تجربة الياس تطرح بعض الاسئلة ·

ينطلق الياس من عفوية الكتابة او استقلال عملية الكتابة وحضور اللغة · تقول اللغة ما تريد ويرسم نسقها اشكاله· يصبح « الكاتب » علاقة · يسير النص محمولا على دفع اللغة وتلقائية الكلمة · للكتابة منطقها · لكننا نعرف ان للكاتب ايديولوجيته وللنص ايديولوجيته ايضا · ان **ايديولوجيا الكاتب لا تطابق بالضرورة ايديولوجيا النص ، وان منطق الكاتب لا يساوي دائما منطق عملية الكتابة** ·

يعمل مؤلف « الجبل الصغير » في اللغة صاحيا ، « يتدخل احيانا » يشذب ما كتب فيقترب من ضفاف كتابة جدلية ـ مادية · يدخل ضوابطه ووعيه في عملية الكتابة ، يهندس ، فينتج صوتا متوازنا ديمقراطيا (الجبل الصغير ـ الكنيسة ـ الدرج) · لكن كاتبنا ينساق احيانا كثيرة وراء لعبة اللغة ، ينحرف في البحث عن الصورة ، يضيع في الكلمات ، تصبح الكلمة مطلقة السراح · اي ينتج النص ايديولوجيا متميزة لا تطابق بالضرورة ايديولوجيا الكاتب · يصل الياس احيانا الى **العدمية والضياع** · بمعنى اخر : الكلمات مادة خام « محايدة » من حيث هي كلمات ، لكنها عندما تترابط وتتمازج في نسق لغوي تنتج ايديولوجيا معينة

مشروطة بالنسق الذي وصفت فيه ٠

ان الضياع في لعبة اللغة ينتج مـــا يلي :

أ ـ انتاج جمالية مجانية وبلا دلالـــة ولغة مترفة تؤدي الى تفتت وحدة النص ومعناه : الشكلية ٠

ب ـ انتاج ايديولوجية نصيـة تناقـض ايديولوجيا « الكاتب » او ايديولوجيـــا القضية التي يقف في « متراسهــــا » ٠ وتنتج لعبة اللغة احيانا في « الجبـــل الصغير » ايديولوجيتها ٠ ايديولوجيـــا عدمية ، سوداوية ، مثالية ٠

جـ ـ ان رسم العالم بالكلمات يسطـح احيانا المضمون ويغيبه ويضيعه فـــي متاهات بلا معنى ٠

د ـ يعبر الضياع في الكلمات احيانا عن عجز عن تملك الواقع وفهم علاقاتـــه وانتاجه فنيا ٠

لنرجع الى النص ونبحث عن متاهـــة اللغة والذاكرة المطلقة السراح :

ـ اما أنا فلم اكن ارى لا الحضـارة القديمة ولا الحضارة الحديثة ٠ كنـــت أرى الاشكال وهي تنحني ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ٠

ـ ولم نكن قد اكتشفنـــا بعـــد ان الجامعة هي مجرد حذاء ٠ وان هـــذه الاحلام التي نتبناها ســـوف تحيلنـــا الى احذية اذا لم تتحطم الجامعة ٠ ص ١٥١ ٠

ـ الحضارات تتراكم ، مثل التـــراب امام مصب الانهار ـ ص ١٥٩ ـ ٠

ـ الاشياء مفتوحة ومتداخلة ، وتستطيع ان تدمر بعضهافي أية لحظة ٠ صـــ ـ ١٥٨ ٠

ـ لا توجد حرب خاصة بالفقـــراء ٠ يجب ان تدمر البنايات البنايات والاكواخ البنايات ، والمدن المدن ٠ ومن الدمار ، تخرج حرب الفقراء الخاصـــة ٠ ص ٩٧ ٠

تنتج هذه الكلمات ـ المواقف عـــن الركض وراء الشكل فيضيع مفهوم الكاتب للعالم ويحل مكانه مفهوم جديد خلقتـــه علاقات النص ٠ لا اقول ان ذلك يندرج على كل المجموعة ٠ انه يبدو فقط بشكـل جزئي في قصتي « الاحتمال الاخيـــر » و « ساحة الملك » ٠

تعطي ايديولوجيا اللغة اثرا ثنائـــي البعد يضعف من قيمة النص ٠ اثـــرا سياسيا واثر فنيا ٠ الاثر الاول يشـــج صوت الكاتب الديمقراطي ، اما الاثـــر الثاني فيلمس القيمة الفنية للنص ٠ لا يهمني هنا محاكمة الاثر الاول فالنص يحتفظ بقيمته الفنية اذا استطاع ان يخلق جوا عدميا بشكل فني ، اقول ذلك انطلاقا من نظرية الانعكاس ، لكن المشكلة هنـــا ان لعبة الكتابة تمس القيمة الفنية ايضا٠ يفقد العمل كثافته ويتفكك ٠

من أين يأتي هذا ؟ يصدر بلا شك عن موقف يعتبر الادب شكلا والبنيان الفنـي علاقات والكاتب علاقة ٠ لكن البنيـــان يتضمن اكثر من الشكل ، والفنان علاقة اجتماعية واعية قادرة على ضبط العلاقات والتحكم فيها نسبيا ٠

ويبقى « جبل » الياس خوري عمـــلا ابداعيا ٠ وصفة الابـــداع هنـــا ليست مجانية بل حكم قيمة موضوعي ٠

ان « الجبل الصغير » حدث ادبـــي وحدث اجتماعي ، وعمل يكسر معاييـــر جمالية وفنية سائدة في مجتمع كســـرت الحرب علاقاته ٠ ويؤسس لغة جديـــدة وكتابة جديدة ٠٠٠ ينطلق صوت اليـــاس في عمله مبدعا فنيـــا وديمقراطيـــا سياسيا ٠ كاتب يكتب عن الثـــورة ، فيمارس تثوير المجتمع وتثوير اللغة ٠

فيصل دراج

د٠ ابراهيم البحراوي ، الادب الصهيوني بين حربين (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣)
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت : ١٩٧٧)

بين حزيران ١٩٦٧ وتشرين الاول ١٩٧٣، كانت اسرائيل تعيش عصر انتصاراها الكبير٠ كانت العسكرية الاسرائيلية شرطي المنطقة الذي يستطيع مد ذراعه الى اي مكان فيها لقمع اية « محاولة شغب » ٠ وكانت السياسة الاسرائيلية تخطط لترجمة الاحلام الامبراطورية الى حقائق الامر الواقع ، بل وتشرع في التنفيذ عبر علاقة امبريالية بالمناطق المحتلة ٠ وكانت الرأسمالية الصهيونية تغوص في المشاريع الكبيرة مستفيدة من الامكانات الضخمة التي يتيحها الواقع الجديد ٠

هل أدخل كل ذلك الطمأنينة والفرح الى قلب « الشعب اليهودي » في اسرائيل ؟ مختارات البحراوي من الشعر والقصة الاسرائيليين في فترة ما بين الحربين،تجيب سلبا عن هذا السؤال ٠ ومن خلالها ، بامكان الدارس ان يتوقف امام سؤال اخر: الى اي مدى حقق اليهود القادمون من مختلف الارض الى فلسطين المحتلة ، وجودهم « كشعب اسرائيلي » مكتمل التكوين ، على هذه الارض ؟

ان التفاؤل والفرح والثقة بالمستقبل ، يشع من عمق الجروح التي تحفرها حروب التحرير في حياة الشعوب ، ويضيء طريق المناضلين المقاتلين من اجل الحرية وحق تقرير المصير ، هو السمة التي تطبع ثقافة الشعوب المكافحة ، والميزة التي تكسبها بعدا وطنيا وقوميا وانسانيا ،يؤكد استحقاقها للحياة والنصر٠ وابرز النماذج القريبة ادبيات الثورة الفيتنامية والمقاومة الفلسطينية٠ فعلى الرغم من المآسي والالام التي تعكسها هذه الادبيات ، تخفق في اعماقها ثقة اكيدة بالمستقبل والنصر ٠ ومن قلب الالام والنكبات يزغرد فرح حقيقي واصيل ، ليعبر عن حب الحياة ، والابتهاج بها ، والاصرار على استحقاقها ٠

التفاؤل والفرح والثقة بالمستقبل ، هي العناصر الغائبة تماما عن النماذج الاسرائيلية التي بين ايدينا ، على الرغم من انها كتبت في فترة الانتصار والتوسع والازدهار ٠ وهذا الغياب هو الذي يحملنا على التساؤل : هل تمكن اليهود الذين وفدوا الى فلسطين المحتلة من تكوين « الشعب الاسرائيلي » المستحق للوطن ولحق تقرير المصير ؟ ام ان المشروع الاستيطاني الصهيوني ، يظل رغم كل الانتصارات ، ومهما طال الزمن ، مشروعا استيطانيا له سمات المشروع الاستيطاني وعناصره ، لا اكثر ولا اقل ؟٠٠

الحروب، والموت ، والدمار، واللاجدوى، والظلام ، والخوف من المستقبل ، هو ما يطبع هذه النماذج ، التي يمكننا قراءة بعض فقرات منها ٠

ففي قصيدة « الحرب المقبلة » ليعقوب باسار (١٩٦٨) تبدو الحرب كأنها قدر اسرائيل المحتم ، فلا تنتهي من واحدة منها الا وتشرع في الاعداد لاخرى :

الحرب المقبلة٠٠٠ ننشئها ٠٠٠ نربيها

ما بين حجرات النوم·· وحجرات الاولاد
النعاس آخذ في الاصطباغ بالسواد
ونحن في فزع من الاقتراب منه ·

وليس في الحرب سوى الموت والدمار : وحش فاغر فاه ليبتلع « زهرات الاجيال »:

اشبالنا ·· زهرات جيلنا
مع كل صباح ·· عبر القناة
يتساقطون ·· يذوون
كأعواد زرع اخضر
من جذورهم يقلعون ·

ولا حل سوى الابتهال : ربِّاه الى متى نحصي موتانا ··· الى متى يظل يومنا المأمول على دمانا يسير ؟ (من قصيدة « الى متى » ـ يعقوب رمون ١٩٦٩) ·

وليس في الحرب سوى ساكني الجبس ، الذين يتنفسون الاوكسجين ، القتلى ،اكياس الدم والانابيب ، النفوس التي تعيش على عقاقير التهدئة ، وعقاقير التنويم، الغاية من كل ذلك : ما الغاية من المشلول والمبتور. من الساق المعلقة بمسمار في عظمها ؟ (من قصيدة « صلاة على المصابين » ـ اسحاق شاليف ١٩٧٠)

وكما في البر ، كذلك في البحر :
في الرمال القديمة ··
حديد بارد
وذكرى الدم السائل
فوق البحر
· · · · ·
اهذه الظلمة كسوف شمس جاء في غير موعده ؟
كلا !
كلا يا فتاتي ··
لان امام عيني ··· جثث ابنائي
كالصواري منتصبة (من قصيدة « الضوء الذي فوق البحر » ـ **بنحاس بلدمان ١٩٦٧ ، في ذكرى قتلى المدمرة ايلات) ·**

وهكذا ، يصبح طريق الفتى الاسرائيلي محددا منذ الولادة :

من هضبة الجولان الى الوادي
من وادي الاردن الى القطاع
ومن هناك الى شرقي القناة
الى ان عادت الكتيبة الثانية الى الهضبة ··
كان هذا طريقك ·· طريق فتى
في ارض النيران الكبيرة ·

هذا الفتى ، يخوض المعارك ، يحقق الانتصارات ·· ثم يبدأ طريقا جديدة : « على نقالة الموت العسكرية ·· ها انت قد وصلت الى النهاية ·· » · (من قصيدة « طريق فتى » ـ اسحاق شاليف ١٩٦٩)·

وفي قصيدة « اغاني ارض صهيون » ـ يهودا عميحاي ١٩٧٤ ، لا يبدو في الافق سوى القتال ، بانتظار « خلاص » لا يعرف احد من اين وكيف سيأتي · وفي قصة بنيناه عميت « الحالة » : « ماذا تفيد كلمات الطمأنة وقلبي مليء بالحرب والموتى » · وفي قصة يعقوب شافيط « العلمين » ، تتحول عملية انجاب الاولاد ، الى مسألة تخص الحرب فقط « ينبغي انجاب الاولاد كي يحلو محل من ماتوا في الحرب » (ص ١٩٦) ·

اذا كانت هذه هي الحياة بالمفهوم الاسرائيلي ، فمن البديهي ان يدب اليأس في النفوس ، وان يذوى الامل ، وان يبدو كل شيء « سقيما ذابلا » ، وان تجهد الشمس في ان تضيء ، ولكن « عبر زجاج اللون مترب » (قصيدة « ضيق عابر » ـ شوشانه بيلوس ١٩٦٨) · ومن

البديهي ايضا ان تلف الظلمة حيـــاة الاسرائيلي :

رباه ··
الظلمة الى هذا المدى موحشة
افـق اسـود كلوحـة على جبيني ··
(« ثلاث قصائد » ـ حدفاه هركابي ١٩٦٨)

وان يصيب الهرم كل شيء :

ربما كان الامر هوذا ··
وصلت الى نقطة التشبع ··
فعلت ما فعلت وما عاد هناك
ما يلزمني بالمواصلة (قصيدة « الامير الصغير يصيبه الهرم » ـ يعقوب بِاسار ١٩٧٥)

وان يتحول الجسم المثخن بالجروح الى نزف تتدفق منه النكبة :

والاسد المصاب اثخن بالجراح
وقد لحق به الهزال
ومن شريان مقطوع
تتدفق النكبة (قصيدة «كم كنت صبية» ـ اوراه ليف رون ١٩٧٥)

ماذا يبقى من الحياة ؟ « احذف ايامك الحزينة ، ولياليك المفزعة ، ماذا يبقى ؟ » (من قصيدة « عندما تقول حياتي » ـ دوف حومسكي ١٩٧٥) ·

وكيف يكون وجه اسرائيل : سبــــل مقطوعة ، وجداول جافة ، ووجه اسرائيل « معتل بالصفرة » ، مليء بشقوق الانهار الجافة (من قصيدة «كيف تقطعت الدروب» ـ يحيئيل حازاق ١٩٧٥) ·

ان المصير محتم اذا ومعروف سلفا :

على العنف قام عرشك ··
ومصيره ان يسقط بالعنف ··
رداء مملكتك ملوث بالدم ··
وسيلوثه دمك ايضا ·· (من قصيدة « مجانين » ـ ابتسيك مانجر ١٩٧٤)·

هذا المصير يؤكده شعور اللاجدوى الذي يسيطر على الاسرائيلي ، وهو يسير في طريق مكتوب ، من بدايته الى نهايته ·

وهذه مقاطع من حـــوار بين جنديين اسرائيليين في موقع على قناة السويس (قصة اغنية الاوز ـ ران ادليسط) يعبر عن حالة السأم واللاجدوى : « اين انت من هذه النهاية ؟ ان النهاية بالنسبة لــك ليست سوى أن تنفق هنا ، فاذا ما قتلت عشرة من العرب فان هذا سيكون النهاية بالنسبة لهم . اما العملية نفسها فلــن تكون لها نهاية · انني اعتقد ان هــذا لن يؤدي الى اطالة امدها، وانت تعلم على اي نحو سيكون الوضع حينذاك، فانت ستتباهى بالنجاح في ضربهم وستقولفي فخر : هكذا انني مستعد طيلة الوقت ، اما هــم فسيعتريهم السخط على فشلهم وسيحاولون مرة اخرى (ص ١٨٣) · وبعد حــوار عن الحرب والسلم يصل الى طريق مسدود، يقول احدهما : « انني لا استقصي ، اننا نجري مرانا في المنطق وعلم النفس ·· أليس كذلك ؟ » (ص ١٨٦) · ويضيف : « انني اعرف انني اجلس الان على القناة ·· داخل موقع مسلــح في مرمى نيران العدو ·· اعاني معاناة قاسية من المأساة القديمـــــة ··· مأساة الجنـــدي البسيـط الـذي لا يتخـذ قرارا ,و يعرف متى تنتهي المهمة التـي يؤديهـا ، انه لا يعرف ما اذا كان هناك ما يبرر المهمـة التي يؤديها ، لا يمكن ان يدرك ما اذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام ام لا ، الا بعد بضع سنوات طيبة » ·

كانت هذه هي صورة الاسرائيلي ، على الرغم من كل انتصاراته وهزائم العرب · ذلك ان الرؤية التاريخية كانت تهيمن على حياته ، وكان بامكانه ان يرى بوضوح الجدار العالي القائم في اخر الطريق ·

فهل انتهت هذه المرحلة ، بزيارة الرئيس انور السادات لاسرائيل ، وهل سنشهد من الان فصاعدا ، التفاؤل والفرح والثقـــة بالمستقبل ، في كتابات الاسرائيليين ؟

محمود سويد

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center: *Editor*, Mahmoud Darwish: *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125: *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address:* P. O. Box 1691 Beirut, Lebanon; Tel. 351261: Cables: MARABHATH.

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـــا
٦٥٠ فلســـاً في الكويـــت والعـــراق
١٠ دراهم في دولـــة الامارات العـربيـــة
٦ ل.ل. في ســـائر الاقطـــار العـربيـــة
٨٥٠ درهـــماً في ج.ع.لـــ.

شؤون فلسطينية

٧٨
ايار (مايو) ١٩٧٨



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير: محمود درويش
سكرتير التحرير: الياس خوري

٧٨ ايار (مايو) ١٩٧٨

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص٠ب ١٦٩١ ٠ تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت ٠

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل٠ل٠ في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل٠ل٠ في اوروبا ، ١٢٥ ل٠ل٠ في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل٠ل٠ في جميع الدول غير العربية ٠

الغلاف «ثورة النباتات» للفنان نذير نبعة
(من المعرض التشكيلي العالمي من اجل فلسطين)

المحتويات

الصفحة

٤	محمود درويش	: الملف المفتوح •
٦	معن بشور	: الحرب الخامسة في الجنوب •
١٤	محمد المجذوب	: تساؤلات قانونية يطرحها القرار ٤٢٥ •
٢٤	سمير كرم	: «السيناريو الكوري» لتطويق الثورة الفلسطينية •
٤١	حنة شاهين	: الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان : الدوافع والاهداف •
٥٩	هاني مندس	: مشروعات التوطين •
٨٩	نزيه قورة	: ملاحظات حول العمل العربي في الزراعة الاسرائيلية •
٩٨	زاهي الاقرع	: العلاقات الاسرائيلية الفرنسية ١٩٥٦ ــ ١٩٦٧ •
١٠٦	احمد صدقي الدجاني	: نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين (٣) « فلسطين تحت حكم الرومان » •
١٢٣		: وديع حداد •

تقارير :

١٢٤	يوسف حمدان	: قضايا الهجرة اليهودية •

الصفحة

١٣٢ **مراجعات :** **الف يوم مع الحاج امين** . بيان الحوت ·
العلاقات الصهيونية مع المانيا النازية .
رجا جورج ·
رد على مراجعة كتاب « تاريخ الصهيونية »
. صبري جريس ·

١٦٠ **شهريات :** (١) **المقاومة الفلسطينية**، بلال الحسن·
(٢) **المناطق المحتلة**، عبد الحفيظ محارب·
(٣) **اسرائيليات** ، حمدان بدر ·
(٤) **قضايا عسكرية** ، محمود عزمي
(٥) **التحرك الجماهيري في الاردن خلال حرب الجنوب** ، غانم زريقات ·

١٩٤ **شؤون ادبية :**
عبد الكبير الخطيبي : **جاك بيرك او النكهة الشرقية** ·

٢١١ **كتب :** ١ ــ **الى الجحيم ايها الليل** ، محمود قدري·
٢ ــ **الولد الفلسطيني** . ليانة بدر ·

٢٢٢ **جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ٢/١٤ ــ ١٩٧٨/٤/٤** ، مروان حميد ·

الملف المفتوح

الملف الملف ، يفتحون ولا يفتحون · ولا حديث الا حديث الملف الذي يفتح ولا يفتح ·

كأن الملف هو القضية ، كأنه سر ، كأنه فضيحة ·

ولا احد يقول ان الملف مفتوح ·

ولا أحد يقول ان المطلوب هو اغلاق لبنان ، لا فتح ملف فلسطين ، وقص القضية الفلسطينية عن علاقتها اللبنانية ، وبتر لبنان والمسألة اللبنانية عن مقوماتها العربية · كيف تغترب اللغة عن الواقع الى درجة تفوق الانتحار ؟ وكيف لا يكون لبنان صهيونيا اذا انقلب على عناصره العربية ؟ ان الحروب تملأ الشوارع والاسئلة ، ولكن البلاغة ما زالت تصر على التهديد بفتح ملف مفتوح ، وباعلان حرب معلنة ·

ان الفوضى تعم المفاهيم ، وتتجلى المفارقات الساخرة بعيدا عن طقوس السحر ، وكل بديهية تأخذ شكل المعجزة · ومن اين نبدأ ؟ من الصفر او ما دونه ؟ بعد ثلاثين عاما من الصراع العربي – الصهيوني الساخن ، يعجز الحوار العربي – العربي عن صياغة جدول اعمال ، لان الفرضيات التي كانت واحدة تناحرت وانقسمت وتوغل بعضها في علاقة وعي « المصلحة المشتركة » مع العدو التاريخي ، في معركة تفوق الاقليمية · ان شيئا خطيرا قد حدث ، وتبلور في الزيارة العربية الرسمية الاولى للصهيونية : تخلي وعي عربي ما عن قانون اساسي من قوانين الصراع ، هو ان اسرائيل ليست عدوة الفلسطينيين وحدهم !

ومن دون ملاحظة هذه الهزيمة في الوعي العربي ، لن نتمكن من معالجة الظواهر الغريبة التي تتالب على واقع الحياة العربية بغير البكاء · من دون مواجهة هذه الهزيمة في الوعي العربي ، لن نفهم كيف تؤدي بطولاتنا في حرب الدفاع عن جنوب لبنان ، وعن الثورة ، وعن الرجاء ، الى مواجهتنا بفزاعة الملف ، بدلا من انهمار الطاقات العربية لتنمية نموذج جديد ومثمر في خوض حـرب طويلة ناجحـة ضـد العدو الصهيوني الذي يحتاج الى تعريف : العدو الذي يحتل ارض فلسطين وارض الامة ·

ليس جديدا ان يقال ان حرب الجنوب قد اعادت مفهوم الشرعية المعرض للانتهاك الى خط الصواب · ان الذين يقاتلون دفاعا عن ارض الوطن هم الذين يمتلكون الشرعية · اما المتفرجون على ايقاع الاحتلال ، والمصفقون لانهيارات القرى فلهم اسماء اخرى · لقد كان المقاتلان الفلسطيني واللبناني ، في دفاعهما عن الارض اللبنانية وجذوة الثورة العربية ، يعيدان صياغة الوعي القومي ، ويدمران التجزئة ·

ليس جديدا ان يقال ذلك ، ولكن حاجة هذا القول الى مزيد من المعارك يعني ان اشياء خطيرة قد حدثت ، ويعني اننا ندنو من انقلابات اخرى في الوعي والمفاهيم نجحت الثورة المضادة في طرحها على جدول اعمال الحوار العربي ـ العربي ، ليصبح التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية تعاملا مع خصم شامل لاغلبية الاجهزة العربية ، لانها تزعج شغف الطبقة الجديدة بالاستهلاك ، ولانها تعرقل النمـــو السرطاني للكيانات العنصرية ، ولانها تشاغب على قافلـــة المصالحة العربية الاسرائيلية من جانب واحد هو الجانب العربي الذي اعتذر للصهيونية عن خصومة تاريخية ناتجة عن سوء تفاهم بسيط !· هكذا تزدهر الاقليمية والانعزالية والطائفية ، وتتحول الحرب على الفلسطينيين وعلى الثورة الفلسطينية الى حرب وطنية،وتتحول العلاقة مع الكيان العنصري الصهيوني ـ النموذج من علاقة صراع سابق الى تحالف لاحق ، على اعتبار ان فلسطين هي العدو المشترك لكل الامراض الرائجة ·

أليس هذا هو الملف ؟

هذا هو الملف ·

لقد جاءت الثورة الفلسطينية لتفتح ملف الاعتداء الامبريالي الصهيوني العنصري المزمن على فلسطين ، وعلى كل العرب الساعين الى الحرية والتحرر والتقدم · جاءت لتواصل فتح ملف الصراع التاريخي باسم شعبها وباسم الامة · جاءت لتفتح ملف التقصير في هذا الصراع · لقد تغير العالم · تغير وعي العالم · وسقط السلام الاسرائيلي الى الابد · وصار السلام الفلسطيني ـ العربي هو السلام الحقيقي الوحيد في هذه المنطقة من العالم ، بعدما برهنت البندقية الفلسطينية على عـــدم قابليتها للسقوط ، وبعدما برهن استسلام بعض الانظمة العربية على انه عاجز عن جني سلام جزئي او قطعة ارض صغيرة من مخالب العدو الصهيوني بلا صراع ·

الملف الفلسطيني مفتوح منذ نصف قرن · انه ملف الصراع مع القادمين مع الماضي الميت لمنع سكان القارة العربية من مواصلة الزحف الى المستقبل · انه ملف البطولة والامل · وهو مفتوح كالبحر والهواء ، ويغطي القارة الممتدة من المحيط الى المحيط ، ويغطي العلاقات الدولية بأسرها · انه ملف مائة مليون مواطن يبحثون عن مواطنيتهم ، عن خبزهم ولغتهم وهويتهم · يدكون عروش سيادة التجزئة والظلم الاجتماعي ليتحولوا من أسرى الى مواطنين ، ومن صدفة الى موج · الملف الفلسطيني هو ملف الامة مفتوح للصراع والنصر · وحدهم الذين لا تاريخ لهم هم الذين يعتبرونه سرا او فضيحة ، فيحاولون ان يحشروه في درج او برلمان او وطن ·

محمود درويش

٦

معن بشور

الحرب الخامسة في الجنوب

بالقدر الذي يضطر فيه المشروع الانعزالي الى الافصاح عن علاقته بالمخطط الصهيوني ، وبالقدر الذي يضطر فيه العدو الصهيوني الى اعلان « شراكته » مع الجبهة الانعزالية في لبنان ، تكون المؤامرة على لبنان وفلسطين والامة العربية قد وصلت الى اعلى مراحلها ، وبالتالي الى اخر هذه المراحل ايضا ٠

وهذا « الافصاح » الانعزالي ، و «الاعلان » الصهيوني، ما كان لهما ان يتما لولا ان الانعزالية تعاني من ضعف يضطرها الى الاستنجاد بالعدو الصهيوني، الذي لم يزل معتبرا عدوا للبنان على الصعيدين الرسمي والقانوني ، ولولا ان الدولة الصهيونية رغم كل مظاهر تفوقها العسكري ، تزداد حاجتها الى غطاء سياسي تمارس من خلاله دورها ومخططاتها ٠

واذا كان الاعلان عن هذه العلاقة (الصهيونية ـ الانعزالية) في جذوره تعبيرا صريحا عن عمق المأزق الذي تمر به المؤامرة الامبريالية ـ الصهيونية على قضية فلسطين والامة العربية ، فان هذا الاعلان ايضا يقود الى مأزق جديد ، او الى تعميق المأزق القديم بدلا من تجاوزه ٠

وبهذا المعنى كانت (حرب الجنوب) ، بما كشفته عن الترابط الزماني والمكاني ، التاريخي والجغرافي ، بين الانعزالية والصهيونية ، اعلانا صريحا عن هذا المأزق ومدخلا واسعا الى مأزق جديد ايضا ٠

فقد كانت اعلانا عن هذا المأزق حين اظهرت ان الانعزالية رغم كل ما اتيح لها من وسائل ، وما حصلت عليه من دعم ، وما تمكنت من استدراجه من ادوات ، فشلت في تحقيق مشروعها ـ الحلم في السيطرة الكاملة على لبنان

ثم عزله كاملا عن مداه العربي الطبيعي ، بل انها على العكس من ذلك كانت تجد نفسها اثر كل مرحلة من الصراع وقد تخلت عن واحدة من ابرز مرتكزاتها الفكرية والسياسية والمصلحية · فالحرب التي بداتها لاخراج كل ما هو عربي من لبنان وصلت الى مرحلة اضطر فيها الانعزاليون الى القبول بادخال كل العرب الى ارض لبنان · والمعارك التي خاضها الانعزاليون بحجة تجريد الفلسطينيين من سلاحهم الثوري ووضع الحد « لتجاوزاتهم » ادخلت السلاح الى كل بيت وطني في لبنان ، وتركت لبنان بأسره فريسة التجاوزات والارتكابات التي اصبح مقاتلو المليشيات (فرسانها الميامين) في كل ناحية ومجال ···

كذلك كانت حرب الجنوب اعلانا عن المأزق الاسرائيلي ذاته حين وجد نفسه، بعد ثلاث سنوات من اشغال الثورة الفلسطينية بأتون الحرب الاهلية في لبنان ، بكل ما كلفها ذلك من خسائر فادحة في الكوادر والمقاتلين والطاقات والامكانات، مضطرا الى ان يعود ليتدخل بدباباته وطائراته وبحريته من اجل تصفية الثورة الفلسطينية بنفسه بعد ان عجزت الادوات المحلية عن ذلك ، ليفاجأ ، فوق كل هذا، بأن هذه الثورة خرجت من تلك الحرب القاسية المدمرة اصلب عودا ، واشد مراسا ، واكثر قدرة على التصدي له في الحرب — المعجزة التي دامت سبعة ايام على ارض الجنوب ·

غير ان هذا المأزق الاسرائيلي — الانعزالي الذي كشفت عنه الحرب لا يقل عنه خطورة وعمقا المأزق الاخر الذي قادت اليه الحرب ونتائجها على الصعيدين الاسرائيلي والانعزالي :

فعلى الصعيد الاسرائيلي يعبر هذا المأزق الجديد عن نفسه في جملة قضايا ، وعدة نواحي ومجالات لعل ابرزها الموقف من بقاء الاحتلال الاسرائيلي للجنوب·

فمما لا شك فيه ان اسرائيل في مواجهتها لمسألة احتلال جنوب لبنان تختلف عنها في مواجهتها لاي احتلال سابق على اي من الجبهات العربية الاخرى ، فهي تدرك بدون شك الصعوبات الكبرى (السياسية والعسكرية والديمغرافية) التي تواجهها فيما لو اصرت على البقاء في الجنوب ، كما تدرك ايضا الاغراءات العريضة (التوسعية والاقتصادية والامنية) التي يحملها لها بقاؤها في ارض الجنوب ·

فعلى الصعيد السياسي ، لا تجد اسرائيل صعوبة في انها ستواجه وضعا دوليا وعربيا اكثر تعقيدا من السابق فيما لو اصرت على الاحتفاظ باراضي الجنوب اللبناني ، هذا الوضع سيدفع مجمل القوى الدولية والعربية الى اتخاذ مواقف سياسية وعملية في غير صالح الدولة الاسرائيلية · فالاتحاد السوفياتي مثلا لن يقف مكتوف الايدي تجاه امتناع اسرائيل عن تنفيذ قرار مجلس الامن ٤٢٥ ولا بد ان يتصاعد دعمه للنضال الوطني الفلسطيني واللبناني لدحر

الاحتلال ، بينما لن تتمكن الولايات المتحدة من الدفاع العلني عـــن التعنت الاسرائيلي في وقت تزداد فيه نسبة القوى الشعبية والسياسية داخل اميركا والمتبرمة من الموقف الاسرائيلي من ما يسمونه (بازمة الشرق الاوسط) · والدول العربية ، على تباين مواقفها واوضاعها وتركيباتها الداخلية ، ستجد نفسهـا مدفوعة اكثر فاكثر نحو دعم النضال من اجل التحرير او على الاقل نحو تجميد التآمر ضده فيما لو اصرت اسرائيل على عدم الانسحاب ·

وعلى الصعيد العسكري ، يبدو واضحا ان قدرة المقاومة الشعبية المسلحـة على انهاك القوات المحتلة في الجنوب تفوق هذه القدرة في اي وقت سابق نتيجة اسباب متعددة لا مجال للاسهاب فيها الان ، ويقف على رأسها تنامي القدرة العسكرية للمقاتلين ، وطبيعة ارض الجنوب المؤاتية لحرب العصابات ، وجهل القوات المحتلة بهذه الارض ومداخلها ومخارجها وشعابها ·

وعلى الصعيد الديمغرافي يشعر العقل الصهيوني ان استيعاب مئات الالوف من السكان العرب الجدد ، المتميزين بقدرة عالية على الانجاب ، يضيف بدون شك الى حدة المسألة الديموغرافية التي يواجهها اساسا مع عرب فلسطيـن انفسهم والذين يتكاثرون على النحو الذي يهدد الطابع الصهيوني لدولة العدو نفسه ·

وفي وجه هذه الصعوبات ، التي تقف امام القرار الاسرائيلي بالبقاء ، تبرز ايضا صعوبات كثيرة امام اي قرار تتخذه الحكومة الاسرائيلية بالانسحاب ·

فالتخلي عن اراضي الجنوب اللبناني ، وقد كانت دائما ضمن المشاريـــع التوسعية الصهيونية ، وضمن الاحتياجات الاقتصادية والمالية للكيان الصهيوني، يشكل نكسة « عقائدية » و « سياسية » كبرى للعقـــل الصهيوني وللمنهج الصهيوني ، وللشعار الصهيوني الثابت « بأن اسرائيل لا تتخلى عن شبر واحد من الارض دفعت ثمنه من دم ابنائها » · ويتضاعف حجم هـــذه النكسـة واثرها على التجمع المتطرف الحاكم الذي يعتبر ان من ابرز مميزاته هـــو « عقائديته » الشديدة التي تتحول معه الى (استراتيجية) والى (تكتيك) في الوقت ذاته · وبالتالي فان الانسحاب سيحدث هزة ضخمة في صفوف هذا الجسم السياسي القائم على التطرف والعدوان والتوسع الامر الذي سيضرب « المجتمع » الاسرائيلي في الصميم لانه سيظهر هشاشة وعجز الرد الذي وصل اليه هذا « المجتمع » في محاولة لالغاء نتائج حرب تشرين داخل الكيـــان الصهيوني · فالازمة التي يواجهها المتطرفون في المجتمعات الفاشية والعنصرية هي في جوهرها ازمة المجتمعات ذاتها التي اختارت الفاشية او العنصرية طريقا لحل مشكلاتها ·

كذلك فان القرار الاسرائيلي بالانسحاب سيؤكد الانطباع السائد حاليا داخل

الكيان الصهيوني بأن عملية ١٤ اذار العسكرية لم تحقق اهدافها (اجتثاث العمل الفدائي الفلسطيني) وفي اقامة (شـريط امني واسـع يحمي المستوطنات والمستعمرات الحدودية من قصف المدافع الفلسطينية) ٠

ويتضح عمق المأزق الاسرائيلي في النتائج الايجابية الباهرة التي حققتها الثورة الفلسطينية من الحرب التي اريد لها ان تكون نهاية لهذه الثورة واجهازا كاملا عليها ٠ فلقد عادت الثورة الفلسطينية من خلال حربها الظافرة مع العدو ، لتشكل ، مع الحركة الوطنية اللبنانية ، من جديد مركز الاستقطاب الجماهيري العربي الواسع ، ولتعيد صياغة علاقاتها مع الانظمة العربية من موقع اكثر قوة وثقة بالنفس ، ولتجدد في المواطن العربي الروح التي اطلقتها حرب تشرين ، وهي روح الثقة والقدرة على مجابهة العدو ٠ كذلك تمكنت هذه الثورة من ان تنتزع اعترافا دوليا جديرا بها كطرف من اطراف الصراع في المنطقة اثـر حملة عالمية ضخمة قادتها الامبريالية الاميركية بالاضافة الى اسرائيل وبعض الحكام العرب (لا سيما السادات بعد مبادرته الشهيرة) هدفها سحق منظمة التحرير وشطبها من المعادلات الدولية والسياسية ٠

واذا كنا لا ننكر في هذا المجال اهمية وخطورة المخاوف التي تثار مع كل مرحلة تحقق فيها الثورة انتصارا كبيرا في ان يستخدم هذا الانتصار من اجل ادخال الثورة والقضية في لعبة التسوية المفرطـة بالحقوق التاريخية لشعب فلسطين ، فاننا نعتقد ايضا ان القوى الوطنية والثورية داخل الساحة الفلسطينية والعربية قادرة اذا تمتعت بالقدر المطلوب من الحكمة والصلابة ، ومن المبدئية الثابتة ، والمرونة المضبوطة ، انتضطلع بمسؤولية مجابهة المرحلة الجديدة على نحو يمكنها من اضافة هذا النصر الى رصيد جديد لنضالها ، ومن اسقاط كل المخططات والمخاوف التي تحاك لتحويل هذا النصر الى شرك جديد على غرار ما تم لبعض الانظمة اثر حرب تشرين المجيدة ٠

ومن جهة ثالثة يمثل ارتباك الوضع الداخلي ، الاقتصادي والاجتماعي ، في الكيان الصهيوني وتفاقم ازماته (الاضرابات المختلفة ، تظاهرات السلام) مظهرا جديدا من مظاهر المأزق الاسرائيلي الذي لا ندعي ان حرب الجنوب كانت سببا مباشرا له ، لكننا نستطيع القول بأن حرب الجنوب ، التي اريد لها على غرار الحروب السابقة مع العرب ، ان تسهم في تأجيل هذه التناقضات والتخفيف من حدتها ، قد لعبت على العكس من ذلك دورا هاما في التعجيل بها وتعميق حدتها ٠ ففي هذه الحرب احتلت اسرائيل ارضا لكنها لم تستطع ان تحقق نصرا ٠ وصلت الى مياه الليطاني (وهو حلم صهيوني قديم) لكنها لم تثر داخل شعبها اية فرحة او بهجة على نحو ما كانت تثيره الحروب السابقة ٠ تمكنت من ابعاد الفدائيين عن حدودها عشرات الكيلومترات لكنها لم تمنع

شبح عملية (كمال عدوان) من ان يستنفر جيشها وشعبها طيلة يوم كامل بعد تلك الحرب ٠

ولم يعد خافيا على احد ان الحرب التي شنتها القوات الصهيونية على القوات المشتركة الفلسطينية ـ اللبنانية وما نجم عنها من احتلال لاراض عربية جديدة قد اجهزت بالفعل على « مبادرة السادات » وادخلتها في مأزق جديد بعد المأزق الذي وضعت نفسها فيه منذ ان سلمت العدو الصهيوني (كل الاوراق) قبل ستة اشهر ٠ وعلى الرغم من التعنت الاسرائيلي في التعاطي مع (مبادرة السادات) ، فان اسرائيل كانت تحاول قدر استطاعتها ان تحقق دون اي تنازلات من جانبها اكبر قدر من المكاسب سواء على صعيد تمزيق الصف العربي او عزل مصر عن العرب ، او النجاح في اطلاق حملة مصرية شرسة على الفلسطينيين شعبا وثورة ومنظمة تحرير ٠ لكن حرب الجنوب اربكت هذا الاتجاه بأسره ٠ واظهرت كم كانت تنطوي عليه (مبادرة السادات) من جهل وسذاجة بالاضافة الى ما تحويه من تفريط استسلامي وتخاذل قومي ووطني ٠

ان المأزق الجديد المضاف الى ازمة (السادات) المتفاقمة بعد زيارته لاسرائيل، هو في النهاية مأزق للسياسة الاسرائيلية نفسها التي اصبحت اعجز من ان تضرب اعداءها ، وان تحمي « اصدقاءها » على حد سواء ٠

واذا كانت الحكومة الاسرائيلية اليوم تحاول الخروج من (مأزقها) هذا بالجوء الى لعبة الانسحاب (الشكلي) او (التجميلي) بقصد تعطيل تفاعلات اصرارها على الاحتلال على كل صعيد، ولتسليح حلفائهـــــا المحليين باوراق للضغط على المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية ، فان التمسك الوطني بشعـار (الانسحاب الكامل دون قيد او شرط) وتحويله الى مطلب قومي شامل لكفيل بجعل التكتيك الاسرائيلي الجديد فاشلا ، ورده الى نحر اصحابه من خلال اثارة التناقضات والبلبلة في صفوفهم بدلا من تمكينهم من نقلها الى صفوفنا ٠

ومن هنا فان اسرائيل تحاول مجددا ان تصدر (مأزقها) المتفاقم بعد احتلال الجنوب الى حلفائها الانعزاليين في داخل لبنان ، مضيفة الى كل ما يجابهونـــه من مأزق وصعوبات مأزقا جديدا يصعب عليهم التعامل معه ٠٠٠

فحين هيأت (الجبهة اللبنانية) نفسها ، ومعها اطراف في السلطة وخارجها، للاستفادة الفورية والمباشرة من الاحتلال الاسرائيلي للجنوب لتحقيق تغيير في موازين القوى لصالحها ضد الفلسطينيين، والوطنيين اللبنانيين ، ومن ثم ضد الوجود الرسمي العربي ممثلا بقوات الردع العربية ، وجدت نفسها في مواجهة وضع داخلي وعربي ودولي اشد صعوبة واكثر تعقيدا ٠

فعلى الصعيد اللبناني ، وبعد ان قطعت هذه (الجبهة اللبنانية) شوطا كبيرا

فيإتصالاتها مع اطراف اسلامية تقليدية (سنية وشيعية) من اجل وضعها كطرف محاور في صيغة من (الوفاق) المفروض من جهة واحدة ، وجـــدت نفسها بعد الاحتلال عاجزة عن اكمال مشروعها هذا بسبب اضطرار العديد من هذه الزعامات والاطراف الى اتخاذ مواقف اقل انسياقا مع التهليل الانعزالي للاحتلال الاسرائيلي بسبب الظروف والاوضاع والارتباطات المحلية والعربية التي لم تزل تحكم تركيبة هذه الاطراف والزعامات ٠

ومما زاد الامر تعقيدا في هذا الاتجـاه الايحاء الاسرائيلي باستمرارية الاحتلال ، والمجازر البشعة التي ارتكبها سعد حداد ضد الجنوبيين العزل في الخيام وبنت جبيل وغيرها ، بالاضافة الى ممارساته الاخرى التي يغلب عليها طابع النزق والحقد ، ومجزرة عدلون التي ارتكبها الكوماندوس الاسرائيلي بحق عائلة جنوبية بأكملها ، والنهب والنسف الواسع النطاق للعديد من القرى الجنوبية وقد قام بهما الجيش الاسرائيلي الغـــازي (خروجـا عـلى تقاليده الانضباطية حسب تصريح مردخاي غور رئيس الاركان السابق) بالاضافة الى التحركات الشعبية والوطنية التي اتسمت بطابع المرونة الفائقة والتي رفعت شعار « اوسع لقاء لمقاومة الاحتلال » (المؤتمر الشعبي الجنوبي ، بيان المجلس السياسي المركزي للحركة الوطنية ، لقاء الحركة الوطنية والجبهة القومية ، المؤتمر الوطني في البقاع الخ ٠٠٠) مما فوت الفرصة امام مشروع الوفـاق الانعزالي المفروض من جهة واحدة ، واعادة (الجبهة اللبنانية) الى مأزق العزلة الكاملة على الصعيد اللبناني ٠

كذلك فقد ظهر ان التكتيك الانعزالي في «الاستفادة من الاحتلال الاسرائيلي» لم يكن موضع اتفاق داخل اطراف (الجبهة اللبنانية) نفسها ، فخرج اكثر من صوت ، وبنبرات مختلفة ، ولاسباب وارتباطات وعوامل متباينة ، يعلن تميزه عن المنطق الذي يوحد بين القضية الانعزالية مع الاحتلال الصهيوني ٠

واذا اضفنا الى هذه العوامل ، العامل النفسي الذي لم تأخذ به (الجبهـة اللبنانية) بالجدية الكافية ، وهو كيف فهمت الجماهير الواقعة تحت تأثير هذه الجبهة حرب الجنوب ونتائجها ، نستطيع ان نكمل صورة المأزق العنيف الذي تواجهه هذه الجبهة اليوم ٠

ففي حين ربطت (الجبهة اللبنانية) ربطا ميكانيكيا بين «الانتصار الجغرافي» لاسرائيل من خلال احتلالها لمئات من الكيلومترات المربعة ، وبين التغيير في موازين القوى لصالحها ٠ لاحظ المواطن في المناطق الواقعة تحت السيطرة الانعزالية جانبا اخر في هذه الحرب ، وهو جانب انهيار اسطورة التفـــوق الاسرائيلي الساحقة على الفلسطينيين والعرب ٠ تلك الاسطورة التي طالما غذى الانعزاليون جماهيرهم بوهمها ، وعلقوا امالها عليهم ، واعتبروها (القول

الفصل) في المعركة ضد الفلسطينيين : « حين ننجح في ادخال اسرائيل المعركة يكون امر الفلسطينيين قد انتهى » ··· فمقابل هذه التعبئة اليومية القديمة وجد المواطن المتأثر بالدعاية الانعزالية نفسه امـــام حقيقة جديدة : « اذا فشلت اسرائيل ، بحرب اشتركت فيها كل اسلحتها ، في القضاء على الفلسطينيين ، فمن اين للجبهة اللبنانية القدرة على تصفيتهم » وانهار امامه في لحظات الى جانب وهم التفوق الاسرائيلي الكاسح وهم اخر هو « وهم انتصار المشروع الانعزالي بطرد اخر فلسطيني من لبنان » ·

لقد انعكس هذا الجانب بشكل واضح في تراجع معنويات الانعزاليين رغـم التقدم في الاحتلال الاسرائيلي · وانعكس هذا التراجع بأوضح اشكاله في الجو النفسي الذي واجه به اهالي (عين الرمانة ــ التحويطة ــ بدارو) اشتباكات العاشر من نيسان الماضي الامر الذي جعل بشير الجميل يهاجم « المتخاذلين في صفوفنا » ويطالبهم « بالهجرة الى كندا واستراليا اذا كانوا غير مستعدين للصمود والتضحية »·

وعلى الصعيد العربي ، كان الاعلان عن التحالف الصهيوني ــ الانعزالي ، رغم ان احدا من الانظمة العربية لم يكن يجهله ، مصدر احراج كبير لهـذه الانظمة ، على تباينها وتفاوت نظرتها الى الاوضاع في لبنان ، وسقطت مع هذا الاعلان الذي كانت حرب الجنوب اسطع دليل عليه ، كل حجج وذرائع (الجبهة اللبنانية) التي تقدمها متباكية شاكية في القصور العربية عن (خوفها على الموازنة وعن حاجتها الى ضمانات ، وعن تضايقها من التجاوزات ، وعـن الخطر « الشيوعي » و « اليساري » الخ ···) بل سقطت ايضا مع هـــذا الاعلان كل تلك التبريرات التي كانت تقدمها الابواق الرسمية العربية للمواقف المتخذة من حكوماتها على هذه الساحة · وهكذا كان لا بد من ان تنعكس حرب الجنوب مأزقا حادا للعلاقات التي تربط الجبهة الانعزالية ببعض الانظمة العربية فعادت تهاجم كل العرب بالكلمة والرصاصة والقذيفة على حد سواء · ورغم كل المظاهر المعاكسة فان علينا ان نعترف ان القوة الحقيقية (للجبهة اللبنانية) كانت « عربية » بل كانت في قدرتها البارعة على ان تظهر قضيتها موحدة مع العديد من القوى والطبقات والمصالح في المنطقة في حين ان جوهر قضيتها كان العداء الكامل لكل ما هو عربي ·

لقد جاءت (حرب الجنوب) لتكشف هذا الاحتيال الانعزالي البارع ، وربما لتكشف ايضا الاحتيال الرسمي العربي في « تصديق » هذا الاحتيال الانعزالي، ولتعيد الامور الى نصابها ·

وامام هذه الحقائق الجديدة التي اطلقتها الحرب ظهر ان (الانعزالية) في لبنان قد تحولت من (حركة تعبر عن مخاوف مشروعة لاقلية تبحث عن ضمانات

تؤمن لها تعايشا حقيقيا في محيط عربي واسع) الى خنجر مسموم تحملـه الحركة الصهيونية وتوجهه الى صدر كل عربي ·

وتحولت الانعزالية من حركة تتباهى بشعار « قوة لبنان في ضعفه » الـى مشروع سياسي فاشل يستحيل مع (القوة) التي تمنحها له اسرائيل الـى (ضعف) متزايد محليا وعربيا ودوليا ·

ولم يكن صعبا ان نلاحظ كيف ان اقانيم الفكر الانعزالي البارزة (سيادة ، حرية ، امن ، الخ) بدأت تتلاشى امام الاحتلال الذي يمزق كل سيادة ، وينتهك كل حرية ، ولا يعيش الا على التفجير المستمر للامن اللبناني والعربي ·

ان التاكيد على ان المؤامرة تواجه مازقا شديدا وحادا · لا يعني ان المؤامرة قد شارفت على السقوط · ذلك ان المؤامرة تستمد قدرتها على الاستمرار من كل ثغرة او نقص او ضعف ينتاب الجسم الوطني الذي يتصدى لها ·

ان تفاقم الازمة الموضوعية للاعداء لا يقود وحده الى انتصارنا ما لم نوفر الظروف الذاتية القادرة على ان تهزم هؤلاء الاعداء ، من خلال تعميق الصلة بالجماهير ، وتصحيح الرؤية الثورية باستمرار · باقامة العلاقات الوطنيـة والشعبية على قاعدتين هامتين : العلاقات الديمقراطية في داخـــل المنظمات والحركات ، والعلاقة الاستقلالية بينها وبين الانظمة ·

محمد المجذوب

تساؤلات قانونية يطرحها القرار ٤٢٥

يعتبر الاجتياح الاسرائيلي لجنوب لبنان ، من زاوية القانون الدولي العام ، عملا انتقاميا لانه جاء كرد ، معد سلفا ، على العملية الناجحة التي نفذها الفدائيون في قلب الارض المحتلة ٠

والاعمال الانتقامية التي تقوم بها دولة (أو كيان سياسي) ضد دولة اخرى هي تصرفات قديمة ومعروفة في ميدان العلاقات الدولية ٠ وقد اهتم بها الفقه الدولي في القرن الماضي ووضع فيها عدة دراسات عميقة ٠ وقبل قيام عصبة الامم جرت محاولات لتنظيم استخدام التدابير الانتقامية في بعض الحالات المعينة ٠ واشهر هذه الحالات ثلاث :

١ ـ **نظرية دراغو** التي ترفض استعمال التدابير الانتقامية ضد دولة تعجز عن تسديد ديونها التعاقدية ٠

٢ ـ **اتفاقية بورتر** التي تحظر اللجوء الى القوة المسلحة لاسترداد الديون التعاقدية التي تطالب بها احدى الحكومات كديون متوجبة لرعاياها ٠

٣ ـ **معاهدات براين** التي تقضي بوجوب عرض كل خلاف ينشأ بين الاطراف المتعاقدة ، ولا يسوى دبلوماسيا ، على لجنة تحقيق دائمة ٠ ويحظر على هذه الاطراف اللجوء الى القوة قبل انتهاء التحقيق ٠ ويكون اللجوء الى هذه الطريقة الزاميا متى طالب به احد الاطراف ٠

وحاولت العصبة ان تعالج مسألة الاعمال الانتقامية فنصت في ميثاقها (المواد ١٠ الى ١٦) على تحريم اللجوء الى قوة السلاح قبل استنفاد وسائل الحل السلمي · وفي العام ١٩٢٣ ، وبسبب ازدياد الاعمال الانتقامية ، وضعت نظاما قانونيا للتدابير الانتقامية في وقت السلم أخضع ممارسة هذه التدابير لبعض القواعد العامة ، مثل : الاخطار المسبق ، والتوازن بين العلاج والضرر ، وحصر آثار العمل الانتقامي بالدولة المسؤولة ، ومراعاة المبادىء الاخلاقية والانسانية، والتوقف عن الانتقام فور عرض ترضية معقولة ·

وفي عهد العصبة أبرمت عدة اتفاقيات تتعلق بحظر استعمال القوة ، اشهرها: **ميثاق بريان ـ كلوج** ، المبرم في باريس ، في العام ١٩٢٨ ، والمكون من ثلاث مواد فقط تحرم اللجوء الى الحرب لتسوية المنازعات الدولية · ثم **اتفاقية جنيف للعام ١٩٢٩** ، التي تنص على حظر استعمال التدابير الانتقامية ضد اسرى الحرب ·

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ازداد اقتناع الشعوب والدول بان استعمال القوة في المجتمع الدولي لم يعد يتلاءم مع القانون الوضعي ، ومع الاوضاع والعلاقات الدولية التي تمخضت عنها الحرب · وتجاوب ميثاق الامم المتحدة مع هذا الاتجاه فلم يكتف بتحريم الحرب واستخدام القوة ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فحرم مجرد التهديد باستخدامها · وعلى الرغم من وضوح نصوص الميثاق فان الجدل حول امكان اللجوء الى التدابير الانتقامية ما لبث ان عاد الى الظهور ، فانقسم الفقهاء الى فريقين : الاول يعتبر ان التفسير المنطقي والصحيح لروح الميثاق يقضي باعتبار التدابير الانتقامية اعمالا تتنافى مع النظام الدولي الجديد · والثاني يعتبر ان ليس في الميثاق ما يجعل من استخدام هذه التدابير عملا غير مقبول · غير ان رأي الفريق الاول هو الذي ساد وانتشر · وقد تأثر به مجلس الامن الدولي ، منذ العام ١٩٥٦ ، فكرسه في معظم قراراته ·

ومجلس الامن هو الجهاز التنفيذي في منظمة الامم المتحدة · ويعهد اعضاء المنظمة اليه ـ كما تنص المادة ٢٤ من الميثاق ـ بالتبعات الرئيسية في امر حفظ السلام والامن الدوليين · ومن صلاحياته ، في حالات تهديد السلام ، او الاخلال به ، او وقوع عمل من اعمال العدوان ، ان يقدم التوصيات اللازمة او يتخذ التدابير المناسبة لحفظ السلام والامن الدوليين او اعادتهما الى نصابهما · وهذه الصلاحيات تخول المجلس سلطة تقديرية واسعة تجعل منه صاحب الاختصاص المطلق في تحديد ما يعد تهديدا للسلام او اخلالا به ، وفي تحديد معنى العدوان وتعيين المعتدي ·

وقد اتيح لمجلس الامن ان يهتم بالقضية الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨ ، اي

منذ انفجار الوضع في فلسطين · في العام المذكور وحده ، اضطر المجلس الى اصدار ١٦ قرارا لمعالجة الحالة المتردية هناك · وبعد هذا العام اصبحت القضية الفلسطينية ، وما تفرع عنها من مشكلات ومنازعات واعتداءات وتجاوزات ، الشغل الشاغل للمجلس ·

ومعظم قراراته الخاصة بهذه القضية تتناول اعمال العنف والانتقام التي تقوم بها سلطات العدو ضد الدول العربية ، بحجة الدفاع المشروع عن النفس وحماية أمن المواطنين ·

وحتى صدور القرار الاخير ، الرقم ٤٢٥ ، ولا سيما في السنوات الاخيرة ، فان موقف مجلس الامن من الاعمال الانتقامية التي دأبت اسرائيل على اقترافها قد تميز بالوضوح · ولو ألقينا نظرة خاطفة على القرارات التي صدرت عنه ، في السنوات العشر الاخيرة ، لوجدنا ان غالبيتها تدين اسرائيل بالذات ، وتندد بحملاتها وهجماتها العسكرية ، وتعتبرها اعمالا مخالفة للقانون الدولي العام ومنافية لمقاصد الامم المتحدة ومبادئها ·

وعندما اقدمت اسرائيل على عملية الغزو لجنوب لبنان ، ودعي مجلس الامن الى الاجتماع العاجل لاتخاذ موقف من هذا الخرق الفاضح لكل القوانين والمبادىء والقرارات الدولية ، اعتقد الجميع ان المجلس سيلتزم بالاجتهاد الذي سار عليه فيصدر قرارا شديد اللهجة يدين به اسرائيل ، او يشجب به ، على الاقل ، غزوها او اعمالها الوحشية · الا ان المجلس قد خيب الآمال عندما أصدر ، في ١٩ آذار (مارس) ، قرارا ضعيفا يعرب عن « قلقه البالغ لتدهور الوضع في الشرق الاوسط » ، ويتضمن البنود الاربعة التالية :

١ ـ الدعوة الى احترام سلامة اراضي لبنان وسيادته واستقلاله ·

٢ ـ دعوة اسرائيل الى ان توقف فورا عمليتها العسكرية ضد سلامة الاراضي اللبنانية ، وان تسحب دون ابطاء قواتها من كل الاراضي اللبنانية ·

٣ ـ انشاء قوة مؤقتة تابعة للامم المتحدة لجنوب لبنان ، تعمل تحت سلطة المجلس ، وتكون مهمتها : تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية ، واقرار السلام والامن الدوليين ، ومساعدة الحكومة اللبنانية على تأمين اعادة سلطتها الفعلية الى جنوب لبنان ·

٤ ـ الطلب الى الامين العام تقديم تقرير الى المجلس ، خلال ٢٤ ساعة ،حول تنفيذ هذا القرار ·

والقراءة المتأنية لهذا القرار ، مع محاولة التعرف الى الخلفيات والاغراض الكامنة وراء تعابيره وفقراته ، تثير عدة تساؤلات يمكننا استعراض اهمها :

اولا ـ ما هو الدافع او السبب الذي حدا بمجلس الامن الى الاسراع في اتخاذ القرار ؟

لقد اعتاد المجلس ، في مثل هذه الحالات ، على اظهار التردد والتلكؤ والمماطلة · فهو لا يجتمع بسهولة · وان اضطر الى الاجتماع عمد الى اطالة فترة المناقشة · وان شعر ان اتجاه الغالبية لن يكون لمصلحة اسرائيل واعوانها، لجأ الى المماطلة التي تنتهي احيانا بتأجيل المناقشة ، او بنفض اليد من المسألة المطروحة ، او باحالتها على الجمعية العامة ·

والامثلة كثيرة · فعند حدوث العدوان الثلاثي ، في العام ١٩٥٦ ، تلكأ المجلس وماطل وشعر بالارتياح عندما سارعت بريطانيا وفرنسا الى استعمال حق النقض · وتولت الجمعية العامة انذاك الامر واصدرت ، بالاعتماد على قرار الاتحاد من اجل السلام ، القرارات المتعلقة بالانسحاب وارسال قوات الطوارىء الدولية ·

وفي حرب العام ١٩٦٧ ، لجأ الى اسلوب المماطلة لتوفير الوقت الكافي لاسرائيل كي تحتل اكبر رقعة من الاراضي العربية وتفرض شروطها قبل الانسحاب · ولهذا عرقل كل محاولة لاتخاذ قرار بادانتها او بدعوتها الى الانسحاب الكامل · وحينما حلت الجمعية العامة محله وفشلت في التوصل الى حل ، استعاد المسألة من جديد واصدر قراره الشهير ، صاحب الرقم ٢٤٢ ، بعد ان حققت اسرائيل مطلبها في الانسحاب المشروط ، وبعد أن كاد يمضي نصف عام على اندلاع الحرب ·

وفي حرب العام ١٩٧٣ ، لم يتحرك ويصدر قراره بايقاف اطلاق النار والدعوة الى تنفيذ القرار ٢٤٢ ، الا بعد ان تلقت القوات الاسرائيلية المساعدات العاجلة الضخمة من الولايات المتحدة وانجزت عملية الاختراق المعروفة بثغرة الدفرسوار ·

اما هذه المرة ، اي بعد الغزو الاسرائيلي للجنوب ، فقد التأم شمله بسرعة واصدر قراره بعد جلستين قصيرتين · وهذه السرعة لا يمكن ان تفسر الا برغبة المجلس في انقاذ اسرائيل من المأزق الذي وقعت فيه · فقد خيل الى زعمائها ان غزو الجنوب نزهة تنتهي خلال ساعات ، فاذا بالمقاومة الباسلة التي ابدتها القوات الوطنية والفلسطينية المشتركة تقلب المعادلات والحسابات · وخشيت اسرائيل ان تستمر المجابهة فتتوحد كلمة العرب ويتحول الجنوب الى مركز انطلاق لحرب التحرير الشعبية ضد الكيان الصهيوني · وخشيت الولايات المتحدة كذلك ان تلهب الاعمال البطولية في الجنوب حماسة الجماهير العربية فتتطور الامور في المنطقة وتتعرض الانظمة العربية اللاهثة وراء الحلول الاستسلامية لضغوط شعبية · ولهذا استنجدت اسرائيل بالولايات المتحدة ،

واستعانت الولايات المتحدة باتباعها في مجلس الامن ، فحثته على الاجتماع فاجتمع بسرعة فائقة ، وطالبته بقرار يخدم مصالحها فأصدر القرار بلمح البصر ٠

ثانيا ـ لماذا لم يتضمن القرار ادانة لاسرائيل او تنديدا بغزوها ؟

كل القرارات الصادرة عن مجلس الامن والمتعلقة بالهجمات الاسرائيلية على لبنان تشتمل تقريبا على فقرات واضحة بادانة اسرائيل ، او التنديد باعمالها الانتقامية ، او الاستنكار لتصرفاتها العدوانية ، او الاسف لما اصاب الابرياء من اضرار ٠ وعلى سبيل المثال نذكر :

١ ـ قرار ٣١ـ١٢ـ١٩٦٨ ، الصادر بمناسبة الغارة على مطار بيروت ٠ ففي بنده الاول « يدين اسرائيل لعملها العسكري المدبر الذي خرقت به التزاماتها المنصوص عليها في الميثاق الاممي ، والقرارات المتعلقة بوقف اطلاق النار » ٠

٢ ـ وقرار ٢٦ـ٨ـ١٩٦٩ ، الصادر بمناسبة الهجوم الجوي على بعض القرى في جنوب لبنان ٠ ففي بنده الاول « يشجب الهجوم الجوي المدبر ٠٠٠ » ٠

٣ ـ وقرار ٢٦ـ٦ـ١٩٧٢ ، الصادر بمناسبة الهجوم على الجنوب واحتجاز بعض الرهائن من العسكريين ورجال الامن اللبنانيين والسوريين ٠ ففي بنده الثاني « يدين الهجمات المتكررة التي تقوم بها القوات الاسرائيلية ضد الاراضي اللبنانية والشعب اللبناني ٠٠٠ » ٠

٤ ـ وقرار ٢٤ـ٤ـ١٩٧٤ ، الصادر بمناسبة الهجوم على الجنوب واحتجاز بعض الرهائن كذلك ٠ ففي بنده الاول « يدين انتهاك اسرائيل لسلامة الاراضي اللبنانية وسيادة لبنان ٠٠٠ » ٠

ولكن القرار ٤٢٥ ، الذي صدر بعد اضخم عملية غزو تعرض لها جنوب لبنان ، جاء خاليا من اي تنديد ، او ادانة ، او استنكار ، او مجرد اسف لما حدث ٠ وهذا يعني :

١ ـ ان مجلس الامن قد تنكر لماضيه ، وتنصل من اجتهاداته السابقة ، واستخف بالتالي بكل المبادىء والاحكام والقرارات الدولية التي تعهد باحترامها والدفاع عنها ٠

٢ ـ ان المجلس ، باصداره القرار على هذا الشكل ، قد أوجد سابقة خطرة ستترتب عليها نتائج سيئة ٠ فهو ، مثلا ، لن يتمكن بعد اليوم من ادانة اي عمل عدواني شبيه بالغزو الاسرائيلي ٠ وهذا الموقف قد يغري بعض الدول العنصرية التوسعية بارتكاب المزيد من الاعتداءات ٠

٣ ــ ان المجلس ، بقراره ، قد حصن اسرائيل ضد الادانات • ومن المنتظر ان تستمر اسرائيل في المستقبل في ارتكاب الاعتداءات وشن الغزوات دون التعرض لاي لوم او تنديد • وان حاول المجلس يوما العودة الى اسلوب التنديد ، فستذكره بالقرار ٤٢٥ وتحتمي خلفه •

٤ ــ ان المجلس ، بهذا القرار ، قد أدان نفسه واعلن افلاسه كجهاز اوجدته الامم المتحدة للسهر على السلام والامن الدوليين وقمع كل عدوان يقع على اي عضو من اعضائها •

٥ ــ ان المجلس ، بهذا التصرف ، قد نفر الدول الصغيرة من اللجوء اليه في الملمات والازمات • وقد يدفعها ذلك الى الابتعاد عن الامم المتحدة والبحث عن وسائل اخرى لحماية نفسها وحقوقها وسيادتها ضد الاطماع والاعتداءات الخارجية •

ثالثا ــ هل يلزم القرار اسرائيل بالانسحاب ؟

لكل كلمة او لفظة في القانون معنى محدد • واستبدال كلمة بكلمة احيانا ، ولو كانت مرادفة لها من الناحية اللغوية ، قد يؤدي الى تغيير مضمونها • والقرار ٤٢٥ ، كالقرار ٢٤٢ ، قد صيغ بطريقة ماهرة بارعة تسمح للمستفيدين منه بتحميل تعابيره اكثر من تأويل ، وبتفسير كلماته بشكل يخدم مصالحهم •

انه لا يأمر اسرائيل بالانسحاب فورا ، وانما يدعوها الى ايقاف عمليتها العسكرية فورا • انه يدعوها الى سحب قواتها دون ابطاء • وبامكان اسرائيل ان تفسر تعبير « دون ابطاء » حسب هواها ومصالحها • ولهذا فانها ، بعد مضي شهر على الغزو ، قد تباطأت وتلكأت في الانسحاب متذرعة بمختلف الحجج • ومما لا شك فيه أن مجلس الامن قد تعمد عدم ذكر الانسحاب الفوري ، وعدم تحديد موعد او تاريخ للانسحاب ، بقصد توفير الظروف الملائمة لاسرائيل كي تتمكن من اللجوء الى المناورة والمساومة وفرض الشروط قبل الموافقة على الانسحاب •

والقرار الذي نحلله ، هل هو فعلا قرار ، ام انه مجرد توصية غير ملزمة ؟ ان المنظمات الدولية تتمتع بصلاحية اصدار القرارات والتوصيات في المسائل التي تدخل في نطاق اختصاصها • ولكن القاموس الاصطلاحي للتنظيم الدولي ما زال يفتقر الى الكلمات والالفاظ الدقيقة الواضحة التي تعبر عن مظاهر الصلاحيات التي تمارسها المنظمات • وقد ادى ذلك الى ظهور حالات كثيرة من اللبس والغموض ، ومنها حالة الخلط بين القرار والتوصية واستعمالها بشكل يوحي بترادف الكلمتين • والواقع ان هناك فرقا واضحا بينهما يجدر بنا

التنبه اليه ٠ ان للكلمتين معنيين مختلفين ، فالتوصية هي مجرد نصيحة او رغبة او دعوة يمكن ان تقبل او ترفض ٠ وقد تكون التوصية موجهة الى دولة عضو بالذات في المنظمة ، او الى جميع الاعضاء ٠

والدول غير ملزمة بالامتثال للتوصيات التي تصدرها المنظمات الدولية ، لان التوصية لا تتضمن ، قانونا ، قوة الالزام ، ولا يترتب على مخالفتها اية مسؤولية قانونية ، اما القرار فهو أمر يتضمن قوة الالزام ولا يختلف ، من حيث القوة ، عن اي قانون صادر عن السلطة المختصة في داخل دولة من الدول ٠

وعلى الرغم من وضوح الفارق بين القرار والتوصية ، فان المواثيق والاتفاقيات الدولية تستعمل هذه اللفظة او تلك دون تدقيق او تمييز ٠ ومن الامثلة على ذلك المواد المتعلقة بمجلس الامن ٠ فالتدابير التي يتخذها هذا المجلس بناء على احكام الفصل السادس الخاص بتسوية المنازعات سلميا هي توصيات غير ملزمة ، في حين ان التدابير التي يتخذها بناء على احكام الفصل السابع الخاص بحالات تهديد السلام وارتكاب العدوان هي قرارات تتضمن قوة الالزام ٠ ومع ذلك فالميثاق لا يستعمل كلمة « توصية » في الحالة الاولى ، وكلمة « قرار » في الحالة الثانية ، وانما يكتفي باستعمال كلمة « قرار » في الحالتين ٠ ومن جهة ثانية نرى الميثاق يستعمل كلمة « توصية » لقبول اعضاء جدد في المنظمة ، ولوقف عضو او طرده ، ولاختيار الامين العام ، مع ان التوصية هنا تعتبر قرارا حقيقيا بامكان الخمسة الكبار فيمجلس الامن استخدام حق النقض ازاءه ٠

فالقرار هو ، اذن ، مجرد توصية موجهة الى اسرائيل تنصحها بالانسحاب دون ابطاء ٠ وتدفق القوات الدولية على لبنان لا يعني ان اسرائيل اصبحت ملزمة بالانسحاب ٠ ولو تصورنا ان اسرائيل اصرت (وهذا ما ستفعله) على عدم الانسحاب من كل الاراضي اللبنانية المحتلة ، فسيضطر لبنان ، او اية دولة صديقة ، الى التقدم بطلب جديد الى مجلس الامن للتدخل في الامر ٠ وسيضطر المجلس من جديد الى عقد اجتماع جديد لاتخاذ قرار آخر ٠ واذا اكتفى القرار الجديد بتأكيد ما ورد في القرار القديم ، فلن يطرأ اي تبديل على الوضع الراهن٠ ولنتذكر ان القرار ٣٣٨ ، الصادر في ٢٢ـ١٠ـ١٩٧٣ ، الذي دعا الاطراف المتنازعة الى البدء فورا ، بعد وقف اطلاق النار ، بتطبيق القرار ٢٤٢ ، لم يتمكن من تغيير الاوضاع والمواقف ولم ينجح في اقناع كل الاطراف بمباشرة تطبيق القرار المذكور ٠ وقد تصدر ، بعد القرار ٣٣٨ ، عشرات القرارات المشابهة ، ولكنها لن تحرز اي تقدم في هذا المجال ٠ والسبب هو ان هذه القرارات ستبقى مجرد توصيات غير ملزمة ٠

واسرائيل ، حتى تلزم بالانسحاب ، يجب ان يتضمن القرار الداعي الى الانسحاب بعض العقوبات التي نص عليها الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة ٠ وهذا يتطلب اصدار قرار جديد من مجلس الامن يهدد اسرائيل بانزال العقوبات بها ان لم تنسحب خلال فترة معينة ٠

غير ان المجلس ، بوضعه الراهن ، عاجز كل العجز عن مجرد التفكير في معاقبة اسرائيل ٠ ان وجود الولايات المتحدة ، كدولة دائمة تتمتع بحق النقض في المجلس ، كفيل بحماية اسرائيل من اية عقوبة ، وكفيل بعدم اقدام المجلس على اتخاذ قرار جديد يحدد موعد الانسحاب ونوع العقوبة عند الرفض ٠

لقد امتدح الكثيرون القرار ٤٢٥ ٠ وبالغ البعض ـ كما فعل مندوب لبنان الدائم لدى الامم المتحدة ـ حتى اعتبره سيفا « مسلطا فوق رؤوس الاسرائيليين اذا لم ينسحبوا » ٠ ولكننا لا ندري اذا ما كان هذا السيف من نوع السيوف التي سلطها القرار ٢٤٢ من قبل فوق اعناق الاسرائيليين الذين ما زالوا يصرون على عدم الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة فيالعام ١٩٦٧ ٠

رابعا ـ ما هي المهمة الحقيقية للقوات الدولية ؟

يحدد البند الثالث من القرار مهمة القوات الدولية بثلاث وظائف : تأكيد الانسحاب ، واقرار السلام والامن الدوليين ، ومساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها في الجنوب ٠

والوظيفة الاولى ، اي **تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية** ، ليست عسيرة ٠ فهي تعني مراقبة الانسحاب والتأكد من حصوله دون ان يكون للقوات الدولية اي دور معين في ارغام اسرائيل على القيام به ، او في وضع الترتيبات اللازمة لاتمامه ٠

ولكن الوظيفة الثانية ، اي **اقرار السلام والامن الدوليين** ، تنطوي على امور خطيرة ، لان لمفهوم السلام والامن ، في القانون الدولي العام وفي ميثاق الامم المتحدة ، مدلولا خاصا ٠ فالفقرة الاولى من المادة الاولى تنص على ان المقصد الاول للامم المتحدة هو حفظ السلام والامن الدوليين ، وعلى ان المنظمة تتخذ ، تحقيقا لهذه الغاية ، التدابير الجماعية الفعالة لمنع الاسباب التي تهدد السلام، ولازالتها ، ولقمع كل عمل عدواني وكل اخلال بالسلام ٠ والمنظمة تتذرع بالوسائل السلمية ، وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولي ، لحل او تسوية المنازعات الدولية التي قد تؤدي الى الاخلال بالسلام ٠

واذا كان الميثاق الاممي قد ربط بين المحافظة على السلام والمحافظة على الامن ، فلايمانه بان القضيتين امران متلازمان ٠ فالسلام العالمي يعني انتفاء

الحروب ، او منعها على الاقل ، والامن الدولي يعني تهيئة الاسباب والسبـل لمنع الاضطرابات والمنازعات الدولية وتمكين الدول من العيش براحة واطمئنان • فالسلام يفقد معناه اذا تعرض الامن للخطر ، والامن الحقيقي لا يتوافر الا اذا ساد السلام • وبذلك يصبح كل منهما ضروريا للاخر وتصبح المحافظة عليهما من أهم مقاصد الامم المتحـدة •

والامن الدولي يختلف عن الامن الوطني • وكثيرا ما كان حفظ الامن الوطني لازما وواجبا لحفظ السلام والامن الدوليين ، فالثورات والحروب الاهليـة والاضطرابات الداخلية قد تشكل احيانا خطرا على السلام العالمي • ولكن هـل يعتبر حفظ الامن الداخلي او الوطني من مقاصد الامم المتحدة ؟ من المتفق عليه انه ليس من مقاصدها منع الثورات الداخلية او المحافظة على الاستقرار فـي داخل الدول الاعضاء ، الا انه يحق للامم المتحدة ان تتدخل اذا تطورت الامور واصبحت الاضطرابات الداخلية تشكل خطرا على السلام والامـن الدوليين •

والامم المتحدة تستخدم ، كما ورد في المادة الاولى من الميثاق ، الوسائـل السلمية لحل المنازعات الدولية وتسويتها ، وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولي• وورود العبارة على هذا النحو يثير اشكالا سببه ان تحقيق العدل لا يكون دائما متفقا مع احكام القانون • بل ان العدالة قد تتعارض احيانا مع القانون • فكيف نتصرف عندئذ ، وعلى اي نهج نسير ؟ وتحليل بسيط للمادتين ٣٧ و ٣٨ مـن الميثاق (تسوية المنازعات سلميا عن طريق مجلس الامن) يكفي لاقناعنا بـان التوصيات التي تصدر عن هذا المجلس ، عملا بهاتين المادتين ، يمكن ان تتضمن (ما دامت تحقق العدالة في تقديره) ما يخالف احكام القانون الدولي العام • فقـد يعرض علـى المجلس نـزاع يتعلـق باقليـم مـا فيرى ان يوصي احد المتنازعين بالتنازل عـن جـزء منـه (علـى الرغـم من ان حـق المتنـازل يؤيده القانـون) ما دام هـذا التنـازل ، في تقديـر المجلس ، يحقق العدالة ويحفـظ السـلام والامن الدولييـن • ويزداد الامر تعقيدا عندما نعلم ان الميثاق لا يحتوي على تعريف للعدالة ، وان هذا التعريف من اصعب الامور التي تعترض سبيل الفقهاء • ولهذا استنتـج البعض ان الغموض الذي يكتنف معنى العدالة في الميثاق قد يؤدي الى اضعاف احترام الالتزامات التي يرسمها القانون الدولي العام بحجة تحقيق مبـادىء العدالة • والبرهان أن الفقرة الثالثة من المادة الثانية التي تتحدث عن فـض المنازعات الدولية بالوسائل السلمية تهتم بعدم تعريض العدل الدولي ، لا القانون الدولي ، للخطر •

ومما تقدم نستنتج ان للسلام والامن الدوليين اهمية بالغة في الامم المتحدة، وان النص عليهما في القرار ٤٢٥ يهدف الى تحقيق اغراض معينة ، اهمها توسيع صلاحيات القوات الدولية • فهذه القوات يمكنها الارتكاز الى هذا التعبيـر

للتدخل في الشؤون الداخلية للبنان ، ولقمع كل عمل ترى فيه خطرا على السلام والامن الدوليين ، وبما ان القرار الذي جعل من مهام القوات الدولية اقرار السلام والامن الدوليين لم يحدد نطاقا جغرافيا لذلك ، فبامكان القوات الدولية ان تعمل في الجنوب وفي كل انحاء لبنان من اجل الحفاظ على السلام والامن الدوليين !

وعندما نصل الى الوظيفة الثالثة للقوات الدولية نجد ان القرار كلفها **مساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها في الجنوب** . ولكن كيف تساعد الحكومة ؟ هل تفعل ذلك باعتبارها جزءا من القوات اللبنانية تتلقى الاوامر من السلطة اللبنانية ؟ وهل القيام بهذه الوظيفة يحتم عليها استخدام القوة ضد كل شخص لا يخضع للسلطة ؟ وهل سيكون من صميم عملها ملاحقة المسلحين في الجنوب ؟ وكيف سيكون بامكانها التمييز بين افراد المقاومة الوطنية والفلسطينية وبين المسلحين المنتمين الى الفئات الانعزالية ؟ وهل الغرض من مساعدة السلطة تطهير الجنوب من كل مظاهر التسلح ؟ وفي هذه الحال ، ما مصير الاتفاقات المعقودة مع المقاومة الفلسطينية ؟ وهل تعني المساعدة تحويل الجنوب كله الى منطقة عازلة او الى حزام امان لحماية اسرائيل ؟ واذا طلبت الحكومة اللبنانية منها مساعدتها على تثبيت سلطتها في المناطق القريبة من الجنوب ، بحجة انتقال « المخربين » او « المتمردين » اليها ، او بحجة تعاون هؤلاء في المناطق المختلفة ، فهل ستلبي القوات الدولية النداء معتبرة ذلك جزءا من مهمة « اقرار السلام والامن الدوليين » ؟

ان جميع هذه التساؤلات ، وغيرها ، تؤكد لنا ان القرار ٤٢٥ قد منح القوات الدولية صلاحيات واسعة وزودها بنصوص قابلة لتفسيرات مطاطة . والشيء الثابت هو ان هذه القوات ليست فيالق لحفظ السلام على الحدود او قرب الحدود ، وانما هي قوات ردع موجهة في الاساس الى الجنوب ، ولكن بامكانها التسلح بمبدأ اقرار السلام والامن الدوليين والانتقال الى كل انحاء البلاد . والبرهان على انها قوات رادعة : نوعية الاسلحة الثقيلة التي سمح لها باستعمالها ، والامكنة الاستراتيجية المهمة التي اخذت تتمركز فيها .

سمير كرم

"السيناريو الكوري" لتطويق الثورة الفلسطينية

نظرة سريعة على خريطة الثورة العالمية تكشف حقيقة مذهلة :

بعد الطفرات الهامة التي حدثت خلال النصف الاول من السبعينات بالنسبة للثورات الوطنية المسلحة : بعد انتصار فيتنام وكمبوديا ولاوس في آسيا ، وبعد انتصار انغولا وموزمبيق وغينيا/بيساو وجزر الرأس الاخضر في افريقيا ، لم تعد الامبريالية العالمية تواجه ثورة مسلحة طويلة النفس عميقة الجذور في اي بقعة من العالم الا في فلسطين ٠

ونحن في هذا لا ننسى ابدا ان هناك ثورة وطنية مسلحة في روديسيا هي أيضا ثورة طويلة النفس عميقة الجذور ٠٠ ولكن هناك مسألة الموقع ٠ موقع روديسيا في وسط جنوب القارة الافريقية كمجرد محمية تابعة لجنوب افريقيا ، وحيث لا سواحل ولا موانىء بحرية ولا مضايق ولا ممرات مائية ، وحيث لا قرب من منابع الطاقة او منابع الثروة الطبيعية ٠٠٠ يكون الاهتمام الامبريالي اقل ٠

خارج هذا الاستثناء ، وربما استثناءات قليلة اخرى ، لا تبدو في الافق الا مشكلات سطحية تثير مرض الحساسية الجلدية لدى الامبريالية الغربية،لا اكثر ٠ فالحركات الثورية في اميركا اللاتينية اصيبت بنكسة خطيرة منذ مصرع جيفارا في بوليفيا (١٩٦٨) ، وبصفة اخص منذ اغتيال الليندي وحكومته في تشيلي (١٩٧٣) ٠ وفي اوروبا الغربية قد تسمع طلقات الرصاص بين حين وآخر في هذه العاصمة او تلك ٠٠ يختطف دبلوماسي هنا ورجل اعمال هناك ـ روما ، مدريد ، فرانكفورت ٠ ولكن لا ثورة مسلحة بالمعنى الوطني ولا حتى بالمعنى

الاجتماعي ٠ وهذه كلها امور تتكفل بها النظم الاوروبية الغربية ولديها ما يكفيها واكثر من اجهزة القمع الداخلي ٠ وليس هناك ما يزعج الامبريالية كنظام عالمي من وراء هذا كله اكثر من انه طفح جلدي سطحي ٠

وحدها الثورة الفلسطينية المسلحة على خريطة الثورة العالمية تبرز واضحة عميقة طويلة النفس في معركة متصلة حامية لا يبدو لها انكسار ٠٠ وحدها تبدو مصدر التحدي الرئيسي ـ ان لم نقل الاوحد ـ في وجه الامبريالية العالمية ، وفي وجه التوازنات العالمية التي يريد ايجادها من جديد تحت حجج الانفراج الدولي في الظاهر، وتحت وطأة دروس الهند الصينية في الواقع ٠

وفي وصف الثورة الفلسطينية المسلحة يقف موقع فلسطين الاستراتيجي كفلسطين ٠٠ وموقع فلسطين الاستراتيجي كوطن عربي ٠ اعني موقع فلسطين الوطني وموقعها القومي ٠ فلا فلسطين تمثل نفسها فحسب ، ولا الوطن العربي قادر على ان يمثل نفسه في التحدي الذي تواجهه الامبريالية به الا عبر الثورة الفلسطينية المسلحة اولا ٠٠ وحتى الآن اولا واخيرا ايضا ٠

والموقع الفلسطيني يعني شرق البحر الابيض المتوسط والموانىء والمنطقة « الفاصلة » بين آسيا وافريقيا ، بين مشرق ومغرب الوطن العربي ، ومرمى الهدف من قناة السويس وخلجان البحر الاحمر الشمالية ومضايقه ، وطرق الوصول الى منابع الطاقة عند الخليج العربي ٠

وبخلاف الموقع فان الثورة الفلسطينية المسلحة تعني بالنسبة للامبريالية استمرارية هذا الاسلوب في التحدي بعد ان سكت هنا وهناك ، مع اختلاف النتائج (وحتى في الحالات التي سكتت فيها مدافع الثورة المسلحة في الهند الصينية بارتفاع اعلام انتصارها ، حلت محلها مدافع الخلافات التي ظلت كامنة تحت السطح بين رفاق السلاح الفيتناميين والكمبوديين !) ٠ والاستمرارية ليست زمنية فحسب ٠ ان الامبريالية ـ وخاصة الامبريالية الاميركية ـ التي تريد ان تعيد كل ثقلها ونفوذها الاستراتيجي والاقتصادي الى الشرق الاوسط تصطدم بحقيقة الاستمرارية الجغرافية والسياسية للثورة الفلسطينية ٠ تصطدم بها في الوجود الفلسطيني الثوري المنتشر في الوطن العربي ٠ تصطدم بها في برامج القوى والاحزاب القومية والتقدمية في الاقطار العربية ، تصطدم بها حتى في الاتصالات الدبلوماسية والمفاوضات « السلمية » مع نظم عربية لا تعتمد اسلوب الكفاح المسلح ولا تعتبر سندا له ، بل حتى تلك التي ابدت « الكفر » بالقضية الفلسطينية وتعبها من استمرار الوقوف الى جانبها !

ربما طالت هذه المقدمة ٠٠ ولكنها كانت ضرورية لتاكيد حقيقة من المؤكد ان **الامبريالية الاميركية تراها بوضوح وان كنا نحن العرب لا نراها ، او على الاقل لا نراها بالقدر نفسه من الوضوح ، ولا نقيمها تقييمها الموضوعي** ، ومن الضروري

ان تتضح حقيقة التركيز شبه الكامل من جانب الامبريالية الاميركية على الثورة الفلسطينية لان الثورة الفلسطينية اصبحت على خريطة الثورة العالمية وحدها التي لا تزال ترفع البندقية في وجهها ، في اخطر مواقع مصالحها واهتماماتها الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية ٠

واذا لم نستطع ان ندرك هذا الواقع بتفصيلاته بوضوح ستغيب عن ادراكنا حقيقة ان الامبريالية الاميركية تواجه الثورة الفلسطينية ـ بابعادها الوطنية والقومية والعالمية ـ مسلحة بكل دروس خبرات الماضي بما فيه من انتصارات وهزائم ، ابتداء من كوريا في اوائل الخمسينات الى فيتنام في منتصف السبعينات ٠ وهي تواجهها مدركة بان الثورة الفلسطينية تعني بالنسبة للشرق الاوسط اكثر من مجرد ما كانت تعنيه « نظرية الدومينو » في الشرق الاقصى ٠ كما ان الشرق الاوسط الان يعني بالنسبة للامبريالية اكثر مما كان يعنيها الشرق الاقصى في الحرب الكورية وفي الحرب الفيتنامية ٠ بمعنى انه في هذه المواجهة لا تتكشف فقط خبرات الصواب والخطأ لطرفيها ، بل تتكشف حسابات الاحتمالات والنتائج ، وتتكشف كل القوى المكونة لقدرات طرف ضد الطرف الاخر ، القوى الاستراتيجية والسياسية والدبلوماسية والاعلامية ٠

ربما لا يعرف كثيرون ـ او لايذكر كثيرون ـ ان فلسطين كانت اول موقع ارادت الولايات المتحدة ان تمارس فيه التدخل العسكري المباشر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ٠

ففي نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ثار نزاع حاد بين الرئيس الاميركي هاري ترومان والكونغرس حول سلطة رئيس الولايات المتحدة وما اذا كانت تخوله ارسال قوات اميركية الى فلسطين دون موافقة مسبقة من الكونغرس ٠ وكان مما اعلنه تروما آنذاك في وجه من عارضوه من اعضاء الكونغرس انه يعتبر منصب الرئيس بمثابة تفويض مؤقت ولكنه مقدس وانه مصمم على ان يسلمه الى من يخلفه دون ان يصيبه اي عطب ينشأ عن أبسط نقصان في السلطة او المكانة ، وقد وقف وزير الخارجية الاميركية آنذاك ـ دين اتشيسون ـ موقف التأييد الى جانب ترومان في نزاعه حول حدود سلطة الرئيس الاميركي في ارسال قوات الى فلسطين ٠ بل لقي ترومان آنذاك تاييد واحد من اكثر رجال الكونغرس معارضة لتوسيع سلطات رئيس الجمهورية على حساب سلطات الكونغرس ، وهو السناتور (الجمهوري) آرثر فاندنبرغ ٠

ولم يقدر لمشروع ترومان الخاص بارسال قوات اميركية مسلحة الى فلسطين ان ينفذ ، على الرغم من انه اراد ان يغطيه بستار وضع مثل هذه القوة تحت قيادة تتولاها الامم المتحدة ٠ ويرجع عدم تنفيذ المشروع الى اعتبارات تتعلق بسير التطورات القتالية في فلسطين لصالح الطرف الاسرائيلي من ناحية ،

وباعتبارات تنازع السلطات بين السلطة التنفيذية الاميركية والسلطة التشريعية، وهو تنازع قدر له ان يستمر طوال الاعوام الثلاثين الماضية دون ان يمنع ايا من رؤساء الولايات المتحدة المتعاقبين من الزج بالقوات الاميركيـــة في حـــروب عديدة ٠

لم ينفذ ترومان مشروعه بالنسبة لفلسطين ٠ ولكن الفكرة كانت قد اختمرت في عقول صانعي القرار ومخططي السياسة الخارجية الاميركية الذين يبقـــون هم هم مع تعاقب الرؤساء جمهوريين وديمقراطيين ٠٠ لهذا لم تلبث الفكرة نفسها ان سيطرت من جديد على اجواء الجدال « الاكاديمي » بين البيت الابيـــض والكونغرس ، وكان ترومان نفسه لا يزال في الرئاسة ، وذلك في أعقاب اندلاع الرصاصات الاولى في الحرب الكورية يوم ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٥٠ ٠ وقدر للفكرة ان تأخذ كل ابعادها العملية في التنفيذ ٠ حيث حاربت القوات الاميركية ضد الشعب الكوري طوال ثلاثة اعوام تحت اعلام الامم المتحدة بالتصور نفسه الذي من أجله كانت فكرة ترومان عند ارسال قوات اميركية الى فلسطين قبـــل ذلك بعامين اثنين ٠ وقتها اعلن ترومان ووزير خارجيته اتشيسون ان « كوريـــا الشمالية » كانت البادئة بالهجوم على كوريا الجنوبية (في نفس يوم انـــدلاع القتال ودون انتظار لاي تحقيق او تأكيد) وان هذا « العدوان » يشكل تحديـــا للبنية العالمية التي نشأت بنهاية الحرب العالمية الثانية ٠ وفي اليوم التالـــي مباشرة تمكنت الولايات المتحدة من استصدار قرار من مجلس الامن (وكـــان الاتحاد السوفياتي يقاطع اجتماعاته احتجاجا على تمثيل « تايوان » بدلا مـــن الصين الشعبية في عضويته) ٠ ندد مجلس الامن بـ « عدوان » كوريا الشمالية ووصفه بانه « خرق للسلام » ، ودعا الى « انسحاب القوات الغازية » ٠ وفي مساء اليوم نفسه (٢٥ حزيران ١٩٥٠) اجتمع ترومان بكبار مساعديه فـــي الشؤون الخارجية والدفاع ليبلغهم قراره بارسال قوات جوية وبحرية لتأييـــد كوريا الجنوبية ٠ ولم يلتق ترومان بزعماء الكونغرس لابلاغهم قراره هذا ألا في ٢٧ حزيران ، وحصل على تأييدهم ، ثم اعلنه على الشعب الاميركي مبررا اياه بقرار مجلس الامن ٠ ولم يكن القرار ليشتمل على اية فقرة تدعو لارسال قوات الى كوريا ، ولكن في اعقاب اعلان ترومان قراره ــ وليس قبله ــ اجتمع مجلس الامن ليلا ليتخذ قرارا ثانيا داعيا الى اتخاذ « اجراءات عسكرية عاجلة ٠٠٠ لصد الهجوم المسلح » ٠ وعندما وجه النقد الى ترومان لاتخاذه قرار التدخـــل العسكري الاميركي قبل قرار مجلس الامن ، كان تريغفي لي الامين العام للامم المتحدة آنذاك اول من انبرى للدفاع عن الرئيس الاميركي على اساس انه لم يكن هناك وقت يمكن اهداره ، وان الاتصالات الدبلوماسية برهنت على ان قـــرار ارسال قوات سوف « يمر » (١) ٠

وبينما كانت المجادلات القانونية مستمرة بين البيت الابيض والكونغرس حول

الاساس القانوني لقرار ارسال قوات جوية وبحرية لمساندة كوريا الجنوبية ، اصدر ترومان قرارا تصعيديا آخر بارسال قوات ارضية الى منطقة القتال (في ٣٠ حزيران) دون اي رجوع الى الكونغرس ٠

وبطبيعة الحال فليس يعنينا اليوم بعد مرور ٢٥ عاما على نهاية الحرب الكورية شيء من الخلافات الدستورية والقانونية داخل اجهزة السلطة الاميركية، ولا السهولة والسرعة التي كانت الولايات المتحدة تستطيع بها تسخير الامم المتحدة ومجلس الامن لاصدار قرارات يصوغها صانع السياسة الخارجية الاميركية ٠ كما لا يعنينا تتبع تطورات الحرب الكورية التي اصبحت جزءا من الماضي وفصلا قديما في تاريخ حروب التدخل الاميركي ٠

فما الذي يعنينا – والحديث هو عن المواجهة بين الثورة الفلسطينية المسلحة والامبريالية الاميركية – من قصة الدور الاميركي المغطى باعلام الامم المتحدة في كوريا عام ١٩٥٠ ؟

الذي يعنينا هو بالتحديد حديث الجنوب اللبناني وقوة الطواريء الدولية ، وحديث « التدويل » الذي لم يعد مجرد حديث وانما اصبح خطة تأخذ طريقها حثيثا الى التنفيذ السريع بقوة دفع اميركية – غربية ٠ وفي تجربة التدخل الاميركي في كوريا تحت علم الامم المتحدة الازرق – وهو لا يزال يرفرف حتى الآن على القواعد العسكرية الاميركية في كوريا الجنوبية ، ويشاهد على مرمى البصر من المنطقة المجردة من السلاح بين « شطري » كوريا بعد ٢٨ عاما على دخول القوات الاميركية تلك الحرب – نقول ان في هذه التجربة اشياء كثيرة مشتركة تبعث على التامل ٠ وكأن الامبريالية الاميركية تريد مواجهة الثورة الفلسطينية المسلحة بمخطط يجمع سمات النجاح في مخططاتها السابقة ، ويتجنب سمات الخطأ في تلك التجارب ٠

ظواهر متكررة

والغريب ان هناك اوجه تماثل كثيرة – الى حد مثير للدهشة – بين مكونات ازمة الحرب الكورية كما كانت في العام ١٩٥٠ ، وازمة الشرق الاوسط بوضعها الراهن ، اذا نظر اليها من زوايا عديدة مختلفة ٠

● هناك الامم المتحدة ٠ التي يراد لها في الازمة الحالية – في موقعها المتفجر الوحيد – حيث يوجد الكفاح المسلح الفلسطيني – ان تلعب دورها الذي لعبته قبل ذلك في كوريا ، تقرض اعلامها لدولة او عدة دول لتغطية اهداف طرف دولي ضد الطرف الثوري وعلى حساب قضية وطنية معينة ٠

● وهناك الوطن العربي في شموله الذي ينتظر منه في مثل الظروف العربية

الراهنة ان يمارس الدور الذي مارسته الصين الى جانب القضية الوطنية الكورية والذي مارسه الاتحاد السوفياتي ايضا ، مع اختلاف طبيعة الدورين وتماثل اتجاهيهما في ذلك الوقت · وهنا نجد اننا امام تماثل بين الظرفين الكوري والعربي بالاختلاف وليس بالاتفاق · فالتماثل في الظروف موجود ، ولكن هناك اختلافا في التوجهات والممارسات · فلم تبد دلائل على « تطوع عربي كبير » الى جانب الثورة الفلسطينية ، على غرار التطوع الصيني الى جانب كوريا الديمقراطية ، ولم يبد « تسليح عربي » لقوى الثورة الفلسطينية عسكريا وماديا على غرار التسليح السوفياتي لقوى الثورة الكورية الاشتراكية والمتطوعين في صفوفها ·

● هناك ايضا الولايات المتحدة ، ودورها واحد ـ مع اختلافات تفصيلية تفرضها اختلافات ومتغيرات الظروف الدولية لاواخر السبعينات عن اوائل الخمسينات ـ في كلا الظرفين : الكوري والعربي · ولعل الشيء الاساسي المشترك هو أن اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الاوسط في العام ١٩٧٨ هو بحجم اهتمامها بالشرق الاقصى في العام ١٩٥٠ · واذا كانت الولايات المتحدة هي الخالقة الحقيقية لما يسمى « جمهورية كوريا الجنوبية » (٢) ، فانها ايضا هي الخالقة الحقيقية لما يسمى « دولة اسرائيل » · وكما كانت كوريا اول اختبار للولايات المتحدة ـ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية التي اعتبرتها تدشينا لزعامتها للعالم الغربي ـ انها ستقف بكل قوتها ضد « الشيوعية » · فان فلسطين هي اختبار فاصل لقدرة الولايات المتحدة في عصر ما بعد هزيمتها في الهند الصينية على ان تفرض حلولا وان ترتب اوضاعا تتفق مع مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية من حيث الاهداف ، وان يكن ذلك باساليب ووسائل تتكيف مع المتغيرات المعاصرة التي يبدو بعضها ايجابيا (وعلى رأسها الانقسام السوفياتي ـ الصيني الذي لم يكن قائما في الظروف الكورية عام ١٩٥٠) ، ويبدو بعضها سلبيا (وعلى رأسه عجز الولايات المتحدة عن التدخل العسكري المباشر خارج اراضيها بعد محنة هزيمتها في فيتنام) ·

● هناك الوضع اللبناني المحلي الراهن الذي يبدو قابلا لدور شبيه بدور نظام كوريا الجنوبية في اوائل الخمسينات ، حيث القوى القابلة لخطة «التدويل» (بغطاء من الامم المتحدة) تنظر الى الوجود الفلسطيني المسلح من خلال الاعتبارات نفسها التي كان ينظر بها نظام « سيول » الى كوريا الديمقراطية ·

● وهناك علاقة « المشكلة الجزء » بـ « المشكلة الكل » · في الظرف الكوري في الخمسينات كانت المشكلة الجزء هي الجلاء الاجنبي عن كوريا وتوحيدها ، بينما كانت المشكلة الكل هي مشكلة الوضع العام في الشرق الاقصى والهيمنة الاميركية في اليابان وكوريا وتايوان وعدم الاعتراف بالصين الشعبية · وفي الظرف العربي في السبعينات فان المشكلة الجزء هي مشكلة

الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي ، والمشكلة الكل هي مشكلة الصراع العربي ـ الصهيوني ٠

● هناك الاطراف ـ الادوات التي تؤدي ادوارا لتحقيق فوائد ذاتية (اقتصادية وسياسية اساسا) من وراء مساعدة ، وتأييد وضع تفرضه الولايات المتحدة بنفوذها في المنطقة ٠ **النظام الياباني في ظرف كوريا ـ ١٩٥٠ ، والنظام الفرنسي في ظرف الشرق الاوسط ـ ١٩٧٨ ٠ فاليابان قدمت قواعدها وتسهيلاتها العسكرية والاقتصادية للقوات الاميركية في حرب كوريا وحققت مكاسب اقتصادية كبيرة استطاعت بها ان تعود الى مجالها الحيوي القديم عملاقا اقتصاديا غازيا لجنوب شرق اسيا بالسلع والتكنولوجيا (٣) ٠ وفرنسا اليوم ، التي يتنامى التفسير السياسي بينها وبين الاستراتيجية العالمية الاميركية ، بما يتفق مع الطموح الفرنسي لدور كبير في التجارة العالمية وخاصة تجارة السلاح، وبصفة اخص في منطقة الشرق الاوسط ، تجد فرصتها للقيام بدور يكون لها فيه حضور مادي واضح في صورة قوات « دولية » ، حيث يصعب وجودها في صورة قوات « فرنسية » لاعتبارات « عربية ـ فرنسية » (اتفاقات النفط وصفقات السلاح بين باريس وعواصم عربية هامة) ، ولاعتبارات « عالمية » (توازنات الكتلتين الشرقية والغربية)** ٠ لعله من المفيد هنا ان نتذكر ان الولايات المتحدة كانت تقوم بدور مساعد في حرب فرنسا في الهند الصينية في بداية الخمسينات، بينما كانت فرنسا تقوم بدور مساعد في حرب اميركا في كوريا في الوقت ذاته ٠

● هناك الظروف الدولية ٠ حيث كان الظرف الكوري منذ ٢٨ عاما بمثابة بداية لاضفاء الطابع العسكري على « الحرب الباردة » بين الكتلتين الشرقية والغربية عن طريق « الحروب المحدودة » ، بينما الظرف الشرق اوسطي الراهن يشكل اخطر عقبة في وجه الانفراج الدولي ، ويشكل المنطقة الساخنة الوحيدة الباقية المشحونة باحتمالات الصدام الكتلي الفعلي ٠ كما ان الظرف الحالي في منطقة الشرق الاوسط يترافق زمنيا مع جو تسوده ملامح اقرب الى فترة الحرب الباردة منه الى مرحلة « الانفراج الدولي » ٠ وذلك بسبب تعدد مناطق الصراع في السنوات الاخيرة : انغولا ـ زائير ـ القرن الأفريقي ـ قنبلة « النيوترون » والشرق الاوسط بطبيعة الحال ٠

وأوجه التماثل كثيرة اذا دققنا النظر اكثر في التفاصيل واذا عدنا الى وثائق فترة الحرب الكورية والمناورات التي سبقتها وادت اليها ، والى مجريات الاحداث التي جعلتها تتراوح بين هزيمة ساحقة لاميركا فانتصار كاد يكتمل لها ، ثم اندحار آخر ٠٠٠ وفي النهاية توازن اعاد الاوضاع الى ما كانت عليه قبل وقوع تلك الحرب (١) ٠ ولكنه ضمن للولايات المتحدة وجودا عسكريا ـ تحت اعلام الامم المتحدة ـ لا يزال مستمرا حتى اليوم متمثلا في ٤١ الف جندي (٢) ،

ونفوذا سياسيا يتمثل في نظام موال الى حد العمالة ، ومصالح اقتصادية تتمثل في استثمارات تفوق الثلاثة مليارات دولار سنويا ٠

فكيف نتصور انكار تطبيق « السيناريو الكوري » معدلا في الشرق الاوسط ضد الثورة الفلسطينية ؟

السيناريو الكوري ٠٠ كيف ؟

لقد تصرفت الولايات المتحدة في الازمة الكورية على اساس انها تريد ان توقف « زحفا شيوعيا على آسيا يبدأ من كوريا الشمالية ٠ وهي اليوم تنظر الى الثورة الفلسطينية باعتبار انها « خطر عام زاحف » على الوطن العربي (الذي يعني عمليا الشرق الاوسط) ، لا تتوقف تأثيراته عند حدود اسرائيل ، انما تمتد الى العمق العربي حاملة معها رياح التغيير التي من شأنها ان تعصف بمصالح وتشكيلات يهم الولايات المتحدة اقتصاديا واستراتيجيا الابقاء عليها ٠

كما تصرفت الولايات المتحدة في الازمة الكورية هادفة الى جر الصين ـ القوة الاكبر في آسيا بجميع المقاييس منذ ذلك الوقت ـ الى معركة بعيدا عن معركتها الاساسية ، وهي معركة تحرير باقي اراضي الصين (جزيرة « تايوان ») وهي الامتداد الطبيعي لكل المعارك التي كانت قد حققت تحرير كل البر الصيني واعلان جمهورية الصين الشعبية في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٩ ، اي قبل اشهر من اندلاع الحرب الكورية في حزيران (يونيو) ١٩٥٠ ٠ فعندما نشبت الحرب الكورية كان القسم الاكبر من جيش التحرير الشعبي الصيني يحتشد في المناطق المواجهة لجزيرة « تايوان » بعيدا للغاية عن حدود الصين الشمالية المشتركة مع كوريا الشمالية ٠ وتحاول الولايات المتحدة اليوم بصورة معدلة من هذا التدخل تحت اعلام الامم المتحدة ايجاد وضع يعرقل معركة التحرير العربية ويوقفها ، بان يضعها في وجهقوة دولية تتصاعد قدرتها العسكرية عدديا مع الوقت وتتمركز في اكثر مناطق المعركة حساسية بحكم الظروف الاستراتيجية للثورة المسلحة الفلسطينية ٠

من ناحية اخرى فان الولايات المتحدة خاضت معركة كوريا مباشرة بقواتها ـ تحت غطاء الشرعية الدولية ـ بناء على تقرير (ثبت خطأه فيما بعد) بانه لا الاتحاد السوفياتي ولا الصين الشعبية مستعد للتدخل عسكريا في الحرب الكورية ٠ كل ما في الامر انه دار خلاف حاد بين البيت الابيض (ترومان) وبين الجنرال دوغلاس ماك آرثر قائد القوات الاميركية في الشرق الاقصى (وقائد قوات « الامم المتحدة » في تلك الحرب) حول مدى عدم الاستعداد للتدخل من جانب الصين خاصة ٠ فقد اعتقد ترومان ان تجاوز نهر « يالو » (آمنون) الفاصل بين كوريا الشمالية ومنشوريا الصينية هو حد عدم

الاستعداد الصيني للتدخل ، بينما ذهب قائد قواته ماك آرثر الى انه لا حـــدود لعدم الاستعداد هذا ٠ (٤)

والولايات المتحدة تخوض الان معركة الشرق الاوسط ضد الثورة الفلسطينية ـ ولكن بطريقة غير مباشرة ، وتحت غطاء الشرعية الدولية هذه المرة ايضـا ـ بناء على تقرير (ثبت صحته حتى الان) بان الاقطار العربية لن تتدخل ٠ وكـل ما في الامر انه يدور خلاف داخل الولايات المتحدة او بينها وبين المؤسســة العسكرية والاسرائيلية حول تجاوز نهر « الليطاني » ، وما اذا كان هذا النهـر يشكل حدود عدم الاستعداد العربي ٠

« العجوز الرهيب » ٠٠ وبيغن

ولعل من المثير للدهشة ان نلاحظ مدى التشابه بين الموقف الراهن في العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية حيث يبدو مناحيم بيغن في صورة الحليف المتعنت الـذي يثير غضب حليفه بمغالاته في التشدد ٠ والموقف الماضي في كوريا حيث كـــان « العجوز الرهيب » (كما كان الاميركيون يسمون حليفهم رئيس نظام سيـول سينغمان ري) يزايد على الموقف الاميركي بعناد وتشنج ، فيمـا كانت قـوات كوريا الجنوبية وحدها قد عجزت عن الصمود ساعات في وجه قوات كوريـــا الشمالية ، وتكبدت الولايات المتحدة وحليفاتها خسائر بشرية ومادية رهيبـــة لكي تستطيع ابقاء نظامه ٠ وقد راح ري فيما يشبه مشاهد المسرحيات الهزلية يهدد بسحب قواته من القتال ، واضطر ترومان لان يرسل اليه مذكرة فـــي ٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٢ تشير الى حساسية الموقف وتعقيداته وتحذره مـن انه « اذا لم يساعد على حل الازمة فان بلاده ستواجه موقفا خطيرا » ٠ وواصل ري تصرفاته ضد حليفته اميركا ، وكان منها منع مكتب اذاعة « صوت اميركا » من العمل في « سيول » ٠ ولكن جو العلاقات عاد الى صفائه الطبيعي قرب وقت الانتخابات التي اعيد فيها انتخاب سينغمان ري للرئاسة ٠ وان كان « العجـوز الرهيب » قد ظل على معارضته الشديدة ضد مفاوضات الهدنة من اساسهـا ٠ وقد أرسل في البداية مراقبا يمثله الى هذه المفاوضات ، ولكنه ما لبث ان اعلن ان هذه المفاوضات تسير في طريق الفشل المحتوم ، وان الوسائل السياسيـــة عاجزة عن حل النزاع ٠ ووصل الامر الى حد ان سفير كوريا الجنوبيـة في واشنطن اخطر الرئيس ايزنهاور ـ في ٢٤ ابريل (نيسان) ١٩٥٣ ـ قبـــل ثلاثة ايام من استئناف مفاوضات الهدنة في « باغو نجوم » ـ بأن ري قرر سحب جيشه من قيادة القوات المتحالفة اذا ما تم توقيع هدنة تسمح ببقـــاء المتطوعين الصينيين على الارض الكورية ٠ مما دفع ايزنهاور (الذي كان قـد خلف ترومان في الرئاسة الاميركية) الى ايفاد الجنرال ماك كلارك اليه لاقناعه

بان طلبه هذا لن يخرج المتطوعين الصينيين الذين تعذر اخراجهم بقوة السلاح بعد معارك دامت حوالي سنتين ونصف · ولم تسفر محاولة كلارك عن شيء ، وبقي ري على تشدده ! وبعث ايزنهاور الى ري برسالة في ٦ حزيران ١٩٥٣ يطالبه فيها « لا كصديق رسمي فحسب بل كصديق شخصي ايضا » بالقبول بشروط الهدنة عند توقيعها طالما ان بلاده ستحافظ على حدود ما قبل بدء العمليات ، وتعهد له بان تتابع الولايات المتحدة المسعى السلمي لتوحيد كوريا وعقد معاهدة دفاع مشترك كالمعاهدات الموقعة بين الولايات المتحدة والفليبين واستراليا ، فضلا عن الوعد باستمرار المساعدات الاقتصادية الاميركية لكوريا الجنوبية ···

ورفض سينغمان ري كل هذا واعلن انه سيحارب وحده اذا ما تخلت عنه الولايات المتحدة والدول المتحالفة · ووقعت اتفاقية تبادل الاسرى في ٨ حزيران ١٩٥٣ بغياب مندوبه ، واعلن ري انه سيحارب الاتفاقية (الامر الذي ردت عليه القوات الكورية ـ الصينية بعد ٥ ايام فقط بهجوم عنيف دمر الفرقتين الخامسة والثامنة من جيش كوريا الجنوبية) · ومع ذلك فان ايزنهاور دعا سينغمان ري الى البيت الابيض ، ورد هذا بالرفض ، كما رفض استقبال وزير الخارجية الاميركي جون فوستر دالاس في سيول · ورد الجنرال كلارك بان ابلغ ري بان الولايات المتحدة ستحجم عن مساعدته اذا ما خرق الهدنة ··· وبدأ ري رحلة التراجع ودخل في محادثات مع مبعوث ايزنهاور حيث قبل الهدنة مع وعد أميركي بعقد ميثاق امن مشترك مع كوريا الجنوبية ، ومعونة اقتصادية اميركية لكوريا الجنوبية كانت قيمة قسطها الاول ٢٠٠ مليون دولار ، ومساعدته على زيادة جيشه الى ٢٠ فرقة ·

ولم تكن ضغوط الولايات المتحدة هي التي ساعدت على رضوخ « العجوز الرهيب » ري ، انما عجلتها بها اساسا هجمات القوات الكورية ـ الصينية ، الاولى التي اشرنا اليها والتي وقعت في ١٣ حزيران ، والثانية في ١٣ تموز (يوليو) واسفرت عن خسارة لقوات كوريا الجنوبية بلغت ٧٨ الف رجل · وفي ٢٧ تموز وقعت اتفاقية الهدنة في باغونجوم » ·

مشهد طويل من مسرحية « العجوز الرهيب » سينغمان ري يعيد الى الاذهان في كثير من تفصيلاته مواقف « العجوز الرهيب » مناحيم بيغن ، مع فوارق اساسية هامة ينبغي ان تؤخذ في الاعتبار لكي نفهم لماذا تريد اميركا ان تكرر فصل القوات الدولية من سيناريو كوريا في سيناريو جديد بالشرق الاوسط ·

(١) الفارق بين مقدرة كوريا الجنوبية العسكرية في مواجهة الشمال (المدعوم اشتراكيا) وبين مقدرة اسرائيل العسكرية في مواجهة الثورة الفلسطينية (غير المدعومة عربيا ، من الناحية العملية والواقعية) ·

(٢) الفارق بين اشتعال جبهة القتال حول « العجوز الرهيب » الكوري بفعالية من جانب جيش كوريا الشمالية وجيش المتطوعين الصينيين واسلحة الاتحاد السوفياتي ، وانطفاء جبهة القتال حول « العجوز الرهيب » الاسرائيلي ، فيما عدا الاشتعال الدائم على جبهة الثورة الفلسطينية المسلحة ٠

(٣) الفارق بين محصلة ايجابيات وسلبيات الوضع الدولي في اوائل الخمسينات ، ومحصلة ايجابيات وسلبيات الوضع الدولي في اواخر الخمسينات : وهي معادلة معقدة تدخل فيها عوامل وعناصر فاعله كثيرة ابتداء من موازين القوى الاستراتيجية ، ومدى التماسك الداخلي في كل من الكتلتين عسكريا وسياسيا ، وخضوع كل كتلة لمركز قيادي واحد (واشنطن في الغرب وموسكو في الشرق) في اوائل الخمسينات ، وتعدد مراكز القيادة والتوجيه في السبعينات ، وموازين القوى المختلفة داخل الامم المتحدة (سواء في مجلس الامن او الجمعية العامة) ٠

(٤) الفارق بين وجود جماعات ضغط صغيرة هامشية في الولايات المتحدة مستعدة للوقوف وقفة صليبية في صف نظام سينغمان ري في كوريا الجنوبية ١٩٥٠ ، ووجود جماعات ضغط صهيونية ضخمة في الولايات المتحدة ، وفي جميع انحاء العالم في الواقع ، تقف وقفة صليبية باستمرار في صف اسرائيل في ظل « الحمائم » او في ظل « الصقور » على السواء ٠

عودة سياسة الاحتواء

لقد كانت التجربة الكورية بالنسبة للسياسة الاميركية بمثابة بداية التنفيذ العملي لسياسة الاحتواء Containment ضد الصين في شرق اسيا كله ، باعتبار انها ـ في ذلك الوقت ـ بؤرة « الخطر الاحمر » التي يمكن ان ترسل موجات تأثيراتها في باقي انحاء اسيا ٠ وكانت واشنطن تعتبر ان توحيد كوريا تحت حكم شيوعي ـ وهو ما كانت تتوقعه حتى بدون حرب نظرا لضعف نظام ري في الجنوب ـ يشكل تهديدا للوجود الاميركي في اليابان وفي « تايوان » والفيليبين ، وتهديدا ايضا للوجود الفرنسي في الهند الصينية الذي كان يخوض معركته الاخيرة في مواجهة « الوحدويين » الفيتناميين ٠ وكان اعتقاد واشنطن ان الصين هي ذراع الثورة الشيوعية الطويلة في اسيا ، وان كانت موسكو هي الجهاز العصبي لها ٠ (٥)

فماذا كانت مكونات سياسة « الاحتواء » الاميركية التي بدأت بالحرب على وحدة كوريا ؟

كان الحفاظ على حالة « الامر الواقع » هو اساس هذه السياسة وهدفها

الرئيسي ، وما كان هذا يعني الا محاصرة الثورة حيث هي ، ومنعها من التقدم من كوريا الشمالية الى الجنوبية ، من الصين الى تايوان ، من جنوب الصين الى الهند الصينية ، من الملايو الى الفيلبين ··· اما الوسائل التي اعتمدتها سياسة – او استراتيجية – « الاحتواء » فكانت استخدام القوة المسلحة استخداما فعليا ، وهو ما جرى في كوريا ، واحاطة الصين بمجموعة من القواعد العسكرية والاحلاف العسكرية في الوقت نفسه · وفي زمن الحرب الكورية كان لدى الولايات المتحدة من الجرأة السياسية ، ما يمكنها ليس فقط من التدخل العسكري تحت غطاء الامم المتحدة ، بل اقحام نصوص ميثاق الامم المتحدة في معاهدات الاحلاف العسكرية التي كونتها في ذلك الوقت · وعلى سبيل المثال فان معاهدة حلف جنوب شرقي اسيا (السيتو) تنص على استخدام القوة العسكرية لحماية مبادىء واهداف ميثاق الامم المتحدة ، والتدخل وفقا لنصوص هذا الميثاق !

وهكذا انتشرت حول الصين (والاتحاد السوفياتي بطبيعة الحال) سلسلة من القواعد العسكرية في اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان والفيلبين وتايلاند وغوام · وكانت هذه القواعد في حد ذاتها ركيزة لقيام الاحلاف العسكرية التي ضمت النظم الموالية للولايات المتحدة في الشرق الاقصى ·

ثم كان سلاح الحصار الاقتصادي اخر اسلحة استراتيجية « الاحتواء » ، واندرجت تحت عملية المقاطعة الدبلوماسية التي حرمت الصين الشعبية من دخول الامم المتحدة طوال الاعوام من ١٩٤٩ الى ١٩٧٢ ·

ولعل من افضل العبارات تلخيصا لمعنى استراتيجية الاحتواء الاميركية في ذلك الوقت تلك التي قالها المفكر اليميني الفرنسي ريمون ارون – المعروف بتأييده الشديد لزعامة الولايات المتحدة للعالم الغربي – وهي انها « **تعني رفض الولايات المتحدة قبول اي خسارة ، ايا كانت ، اقليمية او ايديولوجية ، فلم يكن لاي دولة – مهما كانت صغيرة – ان تغير ولاءها او ان تتبنى لغة الماركسية · وكانت نتيجة ذلك ان الدبلوماسيين في واشنطن اصبحوا ينحون نحو تولي مسؤوليات في كل مكان وفي جميع الازمنة ، حتى حيث لا وجود لمصالح اميركية محددة** » · (٦)

الا نلمح عددا من سمات وملامح استراتيجية « الاحتواء » الاميركية من جديد في الشرق الاوسط ، مهما كانت منطوية على سمات وملامح متغيرة عما كانت عليه هذه الاستراتيجية في الشرق الاقصى قبل ٢٥ عاما ؟

الواقع انه منذ وقف اطلاق النار الذي اتى بنهاية حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، والولايات المتحدة تبذل كل المحاولات لتطبيق استراتيجية « احتواء » سياسية واقتصادية وعسكرية للوطن العربي · واذا كانت قد بدأت سياسة « الاحتواء » في الشرق الاقصى بحرب كوريا والقواعد العسكرية

والاحلاف · فانها بدأت سياسة « الاحتواء » في الشـــرق الاوســـط بتحويل الحرب ـ العربية الاسرائيلية الرابعة في العام ١٩٧٣ الى حرب تنتهي الـــى النتيجه نفسها التي انتهت اليها الحرب الكورية · عودة الاوضاع ـ تقريبا ـ الى ما كانت عليه قبل بدئها · وان كان هذا الامر يبدو اعقد في حالة الشرق الاوسط نتيجة وجود اكثر من جبهة قتال واحد ، واكثر من خط اشتباك بيـن المتحاربين ، بينما لم يكن في الحرب الكورية غير خط واحد فاصل هو خط العرض ٣٨ درجه الذي يرسم الحدود بين شمال وجنوب كوريا ·

منذ ذلك الوقت والولايات المتحدة « تحتوي » الوطن العربي ، وتقدم نفسهـا دبلوماسيا في دور « الوسيط » ودور « الحكم » ، ولكنها عمليـــا تحرج في الاتفاقات التي تتوصل اليها وساطتها بقواعد وتسهيلات عسكرية تعطي لهـــا موطىء قدم من الناحية الاستراتيجية في منطقة كانت قد خرجت منها عسكريـا تماما · فقد أوكلت الاتفاقية الثانية للفصل بين القوات المصرية والاسرائيليـــة في سيناء الى الولايات المتحدة مهمة انتشار نظام الانذار الاستراتيجي المبكـــر (محطات مراقبة الكترونية) في المنطقة العازلة بين القوات · ولم يفت الولايات المتحدة في هذا ان تعهد للامم المتحدة بدور نظري حيث نص ملحق الاتفاق عـــلى ان « يكون للاشخاص المسرح لهم بدخول المنطقة العازلة حق المرور العابر الـــى ومن نظام الانذار المبكر ، وسوف يحدد الاسلوب الذي يتم به ذلك بواسطـــة مجموعة العمل العسكرية وقوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة » · كما حرص الاتفاق نفسه على ان يماثل بين الافراد الاميركيين الذين يقومون بتشغيـــل محطات الانذار المبكر وبين رجال القوة الدولية ، حيث نص على ان « يتمتـــع افراد الولايات المتحدة المدنيون بالحصانة من الاختصاص المحلي الجنائي والمدني والضرائبي والجمركي ، كما قد يتمتعون بأية مزايا وحصانات محددة منصوص عليها في اتفاقية الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة ··· » ·

والواقع ان محطات الانذار المبكر الاميركية في سيناء تغطي الوطن العربـــي كله ، بل وتغطي منطقة البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، الامر الـــذي يصور مدى التغلغل الذي تمثله من جانب الولايات المتحدة · واليوم ، مع تنامي دور الولايات المتحدة في البحث عن تسوية في الشرق الاوسط وتعاظم نفوذهـا في كافة المجالات في معظم اكبر البلدان العربية ، يتردد الحديث عن امكـــان السماح بقاعدة عسكرية اميركية في سيناء ، وقاعدة عسكرية (بحرية) اميركية اخرى في حيفا ، في اطار اقتراح عقد اتفاق امن بين الولايات المتحدة واسرائيل كمخرج من أزمة تشدد الاخيرة فيما يتعلق بمطالبها الامنية ، حتى بعد « مبادرة السادات » ·

اما « قواعد » استراتيجية الاحتواء الاميركية في الشرق الاوسط الان فانهـا ذات طابع سياسي اكثر منه عسكري ، وعدد من النظم العربية يدخل دائـــرة

الاحتواء الاميركي في ١٩٧٨ على نحو لم يكن له مثيل منذ دخول الولايات المتحدة الشرق الاوسط بديلا عن تقلص الدور البريطاني · بل يمكن القول ان الولايات المتحدة في مركز نفوذ اقوى بكثير من مركزها عندما اتخذت خطوة ارسال قواتها (١٤ الف جندي) الى لبنان في العام ١٩٥٨ · خاصة وانها كسبت الى صفها النظام في اكبر بلد عربي — مصر — الامر الذي لم يتحقق لها في اي وقت منذ دخولها مسرح المنطقة ·

وكما كانت سياسة « الاحتواء » في الشرق الاقصى في الخمسينات تعني قبل كل شيء المحافظة على حالة « الامر الواقع » باعتبارها اكثر الاحوال ملاءمة — وفي الوقت نفسه اقصاها امكانا من الناحية العملية — لصالح الولايات المتحدة (٧) ، فان « الاحتواء » الاميركي في الشرق الاوسط يهدف الى الشيء نفسه : الامر الواقع ، بتركيبه الاستراتيجي والاقتصادي والسياسي وحتى الاجتماعي · الامر الواقع الحديث جدا ، الذي لا يتجاوز عمره السنوات الخمس الماضية منذ نهاية حرب تشرين ١٩٧٣ هو هدف الولايات المتحدة · وهي تعتبر الثورة الفلسطينية والتيار الذي تمثله التحدي الوحيد الباقي في وجه تثبيت هذا الامر الواقع عند حدوده الراهنة · وهي تعمل لتطويق الثورة الفلسطينية في حدود ضيقة داخل الوطن العربي وشغلها داخله ، في الوقت الذي تطوق فيه الوطن العربي نفسه — وبالتالي حركة التحرر الوطني والقومي العربية — بنفوذها الاستراتيجي (الامني) وسيطرتها الاقتصادية وهيمنتها حتى على الاجهزة الثقافية والاعلامية · ويقوم بالدور المباشر في هذا التطويق عدد من النظم العربية الرئيسية الموالية للولايات المتحدة او المرتبطة بمصالح مباشرة معها ، او الملتقية معها في مخاوف « ايديولوجية » واحدة · فضلاً عن النظم التي تؤثر — حفاظا على بقائها — الاحجام عن التصارع مع الامبريالية الاميركية بصور الصراع المباشرة المكلفة ·

اول حرب بعد المبادرة

اما دور القوة المسلحة في سياسة الاحتواء الاميركية في الشرق الاوسط فهو — كما كان دائما — من نصيب اسرائيل · ولعل من وقف — مصدقا نفسه — امام الكنيست الاسرائيلي في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ ليقول :
« بشروا ابناءكم ان ما مضى هو اخر الحروب ونهاية الالام ، وان ما هو قادم هو البداية الجديدة ، للحياة الجديدة ·· حياة الحب والخير والسلام » ··
لا بد قد عرف بعد اقل من خمسة اشهر من « زيارته التاريخية » ان في برنامج اسرائيل للعرب حروبا اخرى ، وان جنوب لبنان في اذار (مارس) ١٩٧٨ كان اضافة مناحم بيغن الى توسعات اسرائيل السابقة التي لم يكن قد ساهم فيها

بنصيب لانه لم يصل الى الحكم قبلا ·

واذا كانت حرب اسرائيل ـ الاولى بعد زيارة السادات « التاريخية » للقدس ـ قد تعثرت في الجنوب اللبناني في مواجهة الثورة الفلسطينية المسلحة ، فلم تحقق هدف تصفية المقاومة الفلسطينية وتدمير قواعدها نهائيا ، الا انها كانت السبيل الى « كسر الجمود » بما يسمح بتحريك الجانب الاكثر ملاءمة للظروف الدولية الراهنة من « السيناريو الكوري » للتطبيق ضد الثورة الفلسطينية · وهو الجانب الذي يتمثل في ادخال « الشرعية الدولية » ـ قوات الامم المتحدة ـ طرفا في استراتيجية الاحتواء ·

هذه المرة تدخل الشرعية الدولية بمقتضى النصوص الداعية الى انسحاب اسرائيل ، بينما هي في الواقع المادي تدخل لتحل محل القوات الاسرائيلية ، والهدف وضع الثورة الفلسطينية في وضع القوة المناوئة للشرعية الدولية اذا ما ابدت اي اتجاه نحو الدفاع عن حقها في العمل المسلح ضد اسرائيل ، سواء بقيت القوات في بعض مناطق الجنوب او خرجت تماما منه · ويشير الميل المتزايد الى تكبير حجم القوات الدولية وتكثيف دور فرنسا (ذات العلاقة الخاصة بلبنان) الى تهيئة هذه القوات لمواجهة مع الثورة الفلسطينية قد لا تقتصر حدودها على الجنوب ·

لقد كان التدخل العسكري الاميركي في كوريا ـ تحت غطاء الامم المتحدة ـ في العام ١٩٥٠ راجعا في الاساس الى الضعف العسكري لنظام كوريا الجنوبية (٨) · والتدخل الجديد تحت غطاء الامم المتحدة في جنوبي لبنان في العام ١٩٧٨ يرجع في الاساس الى الضعف السياسي لموقف اسرائيل . الذي يتمثل في اخفاقها ـ رغم تفوقها العسكري في تصفية الثورة الفلسطينية · بينما تتولى الولايات المتحدة عملية الالتفاف السياسي والدبلوماسي ـ اقليميا ودوليا ـ على الثورة الفلسطينية . بالتعامل بشأن القضية الفلسطينية مع النظم العربية المستعدة للتسوية الاميركية · وبرفض منظمة التحرير الفلسطينية التي لا تعني فقط كيانا سياسيا معبرا عن ارادة الشعب الفلسطيني ، بل تعني بالدرجة الاولى هيئة اركان الثورة الفلسطينية المسلحة · وكل حديث اميركي عن « ترتيب ما لوطن او كيان فلسطيني ـ ويفضل ان يكون بالمشاركة مع الاردن » هو حديث لا علاقة له اساسا بمنظمة التحرير ولا بالثورة الفلسطينية واهدافها الوطنية واساليبها النضالية · انما هو حديث لا يلغي موقف الرفض الاميركي ـ السياسي والايديولوجي ـ للقضية الفلسطينية كما تطرحها وتمثلها وتناضل من اجلها منظمة التحرير الفلسطينية · وهذا الرفض منصوص عليه في احد ملاحق اتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء في اول ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ · اذ تنص الوثيقة السرية الثانية (بين اربع وثائق سرية صدرت كملاحق للاتفاقية واذاعتها وكالة « اسوشيتدبرس » الاميركية في ٤ تشرين الاول ١٩٧٥)

على انه « **ستواصل الولايات المتحدة الاميركية التقيد بسياستها الحالية حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، اي انها لن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية او تتفاوض معها ما دامت منظمة التحرير الفلسطينية لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ · وستجري حكومة الولايات المتحدة مشاورات كاملة ، وتسعى الى توفيق موقفها واستراتيجيتها حول هذا الموضوع ، في مؤتمر جنيف للسلام ، مع حكومة اسرائيل » ·**

ماذا يبقى من « السيناريو الكوري » المعدل لينفذ في جنوبي لبنان ضد الثورة الفلسطينية ؟ وهل اذا نفذت كل خطوات السيناريو يعني وضعا تتحكم فيه الولايات المتحدة بكل العوامل ، وتقيس بدقة كل الخطوات ، وتحسن تقدير وحساب الاحتمالات ، لتضمن حجم النتائج ونوعيتها ؟

ربما كان الرد المباشر على هذه التساؤلات ان السيناريو الاميركي الذي نفذ اصلا في كوريا منذ ٢٥ عاما ـ وفي ذروة نفوذ الولايات المتحدة العسكري والسياسي في المنطقة وهيمنتها داخل الامم المتحدة لم يحقق نجاحا لسياسة الاحتواء · بل الاحرى ان هذا السيناريو كان مسؤولا عن توريط اميركا في حرب لم تنل فيها مقابلا عما تكبدته وتكبده حلفاؤها باسم « قوات الامم المتحدة» من القتلى (١١٨٫٥١٥) والجرحى (٢٦٤٫٥٨١) والاسرى (٩٢٫٩٨٧) ، ثم توريطها في حرب اخرى اطول وافدح تكلفة في الهند الصينية ، انتهت بهزيمة عسكرية وسياسية فادحة وهدمت اسوار استراتيجية « الاحتواء » الاميركية بصعود ثلاثة انظمة ثورية في الهند الصينية خلال عام واحد (١٩٧٥) (٩) ·

لقد وضعت الولايات المتحدة آلتها الحربية على النحو المعروف وراء « الامر الواقع » في فيتنام طوال ١٢ عاما بهدف ان تسند هذا الامر وتبقي عليه بأي ثمن ، ولم تستطع ان تبقي شيئا منه ، مهما كان ضئيلا · فهل تستطيع اليوم ان تضع « الشرعية الدولية » ـ استعارة من سيناريو كوريا ـ الى جانب الة اسرائيل الحربية ـ استعارة من سيناريو فيتنام ـ في خدمة سياسة الاحتواء لابقاء الامر الواقع في الشرق الاوسط عن طريق تطويق الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان ؟

لا توجد اجابات بسيطة للاسئلة المعقدة · ولكن التجربة النضالية للشعب الفلسطيني ، واخرها تصدي ثورته المسلحة لالة الحرب الاسرائيلية في الجنوب اللبناني ، تؤكد ان الامر الواقع غير قابل لان يفرض جموده على الفلسطينيين · اما الجمود الراهن في الاوضاع العربية فانه بدوره لا يمكن ان يكون امرا واقعا ابديا · ولا شك ان موقف الثورة الفلسطينية اليوم مهم للامة العربية

كلها ، التي تدرك من تحت السطح الجليدي المتجمد ان المشكلة ليست فلسطيـن واسرائيل فحسب ، انما هي العرب والامبريالية جميعا · انما الامر كله مرهون بقدرة الثورة الفلسطينية على كسر طوق السيناريو الكوري · وهي قادرة ·

الحواشي :

١ ـ المقدم الهيثم الايوبي : تاريخ حرب التحرير الوطنية الكورية (١٩٥٠ـ١٩٥٣) بيـروت ١٩٧٣ ·

2 - **American Security Policy in Asia** Adelphi Papers , No. 132. I.I. S.S. London, 1977.

3 - Northedge 8 Donelan , **International Disputes, The Political Aspects.** London 1971 .

4 - Donelan 8 Grieve.**International Disputes, Case Histories 1945 - 1970** London, 1973.

5 - Kennith J . TWitchett (ed) , **The Evolving United Nations A Prospect For Peace,** London, 1971.

6 - Raymond Aron, **The Imperial Republic,** London 1975.

7 - Arter Schlesinger , **The Imperial Presidency** , London 1974.

8 - Frank Gibney, The Ripple Effect in Korea, **Foreign Affairs** , Washington Octobre 1977 .

9 - J. Alexander Kim, Soviet Policy in North korea , **World Politics** , April 1970 .

حنــة شاهــين

الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبـنان: الـدوافـع والأهداف

لم يكن اقدام اسرائيل على احتلال منطقة جنوب لبنان ، خلال الهجـوم الذي شنته ضد القوات المشتركة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية المرابطة في تلك المنطقة ، في منتصف شهر آذار (مارس) الماضي ، مفاجئا ، نظرا لاطماعها التوسعية القديمة واهدافها الاستراتيجية في تلك المنطقة · وهذه المطامع والاهداف الاسرائيلية عديدة ، بعضها قديم يتمثل في السعـي الى الاستيلاء على جنوب لبنان وضم اراضيه الخصبة الى اسرائيـل ، او على الاقل السيطرة على جزء منها ، وعلى مياه الليطاني ، والآخر جديد ، يتمثل في محاولة القضاء على القوات المشتركة او ابعادها عن الجنوب ، ثم الضغط علـى لبنان وجعله بلدا « صديقا » ، تربطه بأسرائيل علاقات « طيبة » ، على غـرار تلك القائمة بينها وبين بعض القرى التي يسيطر عليها الانعزاليون في الجنوب·

واذا كان الوضع السياسي الدولي عائقا امام اسرائيل لتنفيـذ سياستهـا التوسعية في هذه المنطقة ، فان مطامعها واهدافها الاستراتيجية من ناحيـة ، والعملية الفدائية على طريق حيفا ــ تل ابيب ، في اوائل اذار (مارس) الماضي، التي استغلت كمبرر من ناحية اخرى ، قد دفعتها في النهاية الى المغامرة فـي تحقيق ما كانت تصبو اليه منذ وقت غير قصير ، مستغلة الانقسام في الوضـع اللبناني والعربي · اما « خطط التوغل في جنوب لبنان فليست جديدة ··· وهي محفوظة في الملفات منذ سنين ··· وتشير هذه الخطط الى اندفاع سريع ومباشر حتى الليطاني بدون مراحل وسطى ، كما حدث في هذه العملية » (١) ·

كذلك يبدو ان القيادة الاسرائيلية الحالية سعت ، من وراء احتلال جنوب لبنان ، الى التأثير في الوضع السياسي القائم بالنسبة لازمة الشرق الاوسط لصالحها ٠ فقد تم غزو الجنوب في فترة وصلت فيها ازمة المفاوضات السياسية، بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة ، حول التسوية السياسية في المنطقة الى قمتها تقريبا ٠ وقد ادت هذه المفاوضات الى كشف تصلب اسرائيل واصرارها على مواصلة سياستها القديمة تجاه الاراضي المحتلة والقضية الفلسطينية ٠ كما شعرت اسرائيل ان الموقف الاميركي لم يعد تماما لصالحها، كما كان في السابق، او كما ترغب هي ان يكون ٠ لذلك يعتقد ان « بيغن اراد استغلال مشكلة الجنوب، من أجل تغيير الموقف الاميركي عشية زيارته الى الولايات المتحدة ، خاصة بالنسبة لمشروع السلام الذي طرحه مع مصر » (٢) ٠ فاذا تبنت اميركا موقفه من قضية الحزام الامني في جنوب لبنان ، فلماذا لا تتبناه ايضا بالنسبة للمناطق المحتلة الاخرى منذ سنة ١٩٦٧ ، التي ترغب اسرائيل في السيطرة على اجزاء كبيرة منها بحجة المحافظة على امنها ؟

كلذك يبدو ان اسرائيل سعت ، بواسطة تلك العملية ، الى استعراض قوة الجيش الاسرائيلي والقدرة على استخدامه خلال مجرى المفاوضات السياسية مع العرب « من اجل تحقيق ثمار سياسية حقيقية ، [باعتبار ذلك] ورقة المساومة الاهم التي تمتلكها في المجال السياسي ٠ فعلى كفتي الميزان الحقيقيتين للسياسة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ، هناك قوتان اساسيتان : على الكفة الاولى – قوة النفط العربي ، خصوصا السعودي ٠ وعلى الكفة الثانية – قوة جيش اسرائيل والاستعداد لاستخدامها » (٣) ٠ وطالما ان العرب قادرون على استخدام نفطهم في التأثير على موقف اميركا ، فأن اسرائيل قادرة ايضا على استخدام جيشها للغرض نفسه ٠

ويبدو ايضا ان عملية احتلال جزء من جنوب لبنان ، بقدر ما تعبر عن سياسة اسرائيل التوسعية ورغبتها في مواصلة تصديها للفلسطينيين عسكريا وسياسيا، فانها ليست بمعزل أيضا عن علاقات اسرائيل مع الاميركيين ، ونظرتها ومفاهيمها القديمة والدائمة تجاه العالم العربي وازمة الشرق الاوسط ٠

ان تحليلا لعملية احتلال الجنوب قد يعكس ما وصلت اليه اسرائيل من نجاح وفشل في تحقيق اهدافها هذه ، ثم الدروس التي تعلمتها من « هذه الحرب الغريبة » ، كما وصفها وزير دفاعها عيزر فايتسمان (٤) ٠

سياسة « الخط الاحمر »

ان التفكير باحتلال منطقة جنوب لبنان ، وخلق « حزام امن » لاسرائيل في هذه المنطقة ، ليس جديدا اطلاقا ، كما ذكرنا ٠ الا ان الحكومات الاسرائيلية

السابقة قد « جمدت » هذا الموضوع ، لاعتبارات عديدة مكتفية باتباع سياسة العمليات الانتقامية ضد الفدائيين بين فترة واخرى · ومع انتهاء الحرب الاهلية في لبنان ، ودخول قوات الردع العربية الى البلد ، تبدلت المعطيات التي تتحكم بسياسة اسرائيل في تلك المنطقة ، أذ بالاضافة الى انزعاجها من الوجود الفدائي فيهـا أصبح تخوفها من تقدم الجيش السوري حتى الحدود عاملا رئيسيا فـــي موقفها من مستقبل هذه المنطقة · وبدأت اسرائيل ايضا ، منذ ذلك الوقت ، بأقامة « علاقات طيبة » مع القرى المسيحية ، التي يسيطر عليها الانعزاليون في جنــوب لبنان ، للافادة منها في قتال الفدائيين ومنعهم من الوصول الى الحدود · ويمكن تلخيص سياسة اسرائيل تجاه جنوب لبنان ، حتى عملية الغزو الاخيرة ، علــى النحو التالي : اولا ، القيام « باعمال تطهير » ، من حين الى آخر ، ضــــد الفدائيين في المنطقة ، في اطار سياسة « محاربة الارهاب » « التقليدية » التــي يتبعها الجيش الاسرائيلي منذ ما قبل حرب ١٩٧٣ · ثانيا ، اتباع سياســـة « الخط الاحمر » بالنسبة للوجود السوري في لبنان ، التي تمثلت في عدم الرد او التدخل ، طالما ان القوات السورية لم تعبـــر الليطاني باتجـــاه الحـدود الاسرائيلية · ثالثا ، الاستمرار في تقديم المساعدات العسكريـــة للميليشيات الانعزالية المتعاونة مع اسرائيل ، بهدف القتال ضد الفلسطينيين ومنعهم مــن الوصول الى الحدود · وقد قدمت هذه المساعدات بشكل سري في عهد الحكومة السابقة ، الا ان رئيس الحكومة الحالي مناحيم بيغن كشف عن ذلك علنا خلال زيارته لاحدى القرى المسيحية في الجنوب · « لقد تركز النقاش الذي دار فـــي عهد الحكومة السابقة حول السؤال : هل يجب اقامة حزام امني في جنوب لبنان ــ وربما حتى الليطاني · [ولكن] حقيقة اكتفاء الجيش الاسرائيلي بعمليات مسلحة [ضد الفدائيين] بين الحين والآخر ، تدل على عدم الرغبة في اقامــة حزام كهذا · لقد وصلت القيادة السياسية والعسكرية في اسرائيل آنذاك الــى استنتاج مفاده ان عملية الدخول الى لبنان يمكن ان تتم في الحالات التالية فقط : اولا ، اذا حاول الجيش السوري الاقتراب من الحدود الاسرائيلية · ثانيا ، اذا كان بالامكان اعادة جنوب لبنان الى سيطرة الانعزاليين الكاملة ، الذين ترتكز قوتهم الاساسية في شمال [البلد] » (٥) ·

ومع صعود ليكود الى الحكم ، اثر فوزه في الانتخابات العامة التي جرت في أيار (مايو) من العام الماضي ، بدا ان القيادة الاسرائيلية الجديدة مستمرة ، مؤقتا ، في اتباع هذه السياسة ، مع فارق بسيط ، وهو ان المساعدات العسكرية للمسيحيين الانعزاليين اصبحت تقدم علنا ، بالاضافة الى مشاركة كثيفة للقوات الاسرائيلية ، الى جانب الميليشيات الانعزالية ، في قصف مواقع الفدائييـــن والحركة الوطنية اللبنانية ·

استمر هذا الوضع حتى وقوع عملية تل ابيب في النصف الاول من شهر اذار

(مارس) الماضي · وقد سببت تلك العملية ، التي أدت الى وقوع عدد كبير من القتلى الاسرائيليين خلالها ، هزة عنيفة على الصعيــــد الرسمي والشعبي ، واعتبرها الاسرائيليون ضربة لمكانة اسرائيل وسياستها الامنية في مجال محاربة الفدائيين ، مما اثر بشكل واضح على معنوياتهم · وزاد من حدة تلك الهزة ان العملية وقعت في قلب اسرائيل ، الذي اعتبره الاسرائيليون في الماضي الاكثر امنا امام هجمات الفدائيين · وقد علق احد زعماء حزب العمل المعارض ، الوزير السابق يغئال الون ، على العملية متسائـــلا : « ··· كيف نجحت وحـــدة كبيرة من الفدائيين في الوصول الى شواطىء البلد عن طريق البحر ، بأسلوب كان معروفا لدينا سابقا ، والعمل طيلة ساعة كاملة ، دون ان يزعجها احد تقريبا، علىَ الشريان الرئيسي للمواصلات في اسرائيل ، وفي اكبر منطقة مزدحمـــة سكانيا » (٦) · وطالب الون بان يكون الرد على هذه العملية ساحقا ومتنـوعا ورادعا قدر الامكـــان ·

ورغم تطويق ذيول العملية وردود الفعل العنيفة ، التي نجمت عنها ، ضــد المسؤولين عن الامن والشرطة ، بواسطة تشكيل لجان تحقيق رسمية لتحديــد المسؤولية في هذا الشأن ، ازدادت حدة المطالبة بعمل انتقامي ضد الفدائيين من ساعة الى اخرى · « وقد شعر مناحيم بيغن ومساعدوه بالضيق السائد بيـــن الجمهور ، بعد فرض منع التجول في منطقة تل ابيب ، ونجاح [الفدائيين] في التوغل الى مركز البلد » (٧) · واستغلت حكومة بيغن هذه الفرصة كمبـــرر لتنفيذ خطتها المعدة سلفا في الجنوب · وقد اعلن بيغن نفســه امـام لجنـة الخارجية والامن في الكنيست ، ان احتلال جنوب لبنان كان سيتم حتى بدون وقوع العملية الفدائية في تل ابيب (٨) ·

حرب شرسة ضد الفلسطينيين

تعتبر حرب الجنوب التي شنتها اسرائيل ضد القوات الفلسطينية في جنوب لبنان ، من اكبر المعارك في تاريخ الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني ، التــي استخدمت فيها القوات المعادية احدث انواع الاسلحة التي حصلت عليها اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ، من طائرات حربية ودبابات حديثة وقذائف متطورة · كذلـك شارك في الهجوم الاسرائيلي اكثر من خمسة وعشرون الف جندي ، من المشاة وسلاح المدرعات والطيران والبحرية · ولوحظ منذ بداية المعارك الفرق الشاسع بين نوعية الاسلحة المتطورة التي يستخدمها العدو ، وبين اسلحة الفدائيين · كذلك لوحظت الثغرة الواسعة بين عدد القوات المهاجمة وعدد القوات المشتركة المتواجدة في المنطقة ·

ويمكن تقسيم معركة الجنوب الى مرحلتين · ففي المرحلة الاولى اعلنت القيادة

الاسرائيلية انها تنوي السيطرة على قطاع يتراوح عرضه بين ٧ ـ ١٠ كم داخل الاراضي اللبنانية ، على امتداد ١٠٠ كم على طول الحدود الشمالية لفلسطين ٠ « وقد تميزت هذه المرحلة بدمج [عسكري] بين قوات الاسناد المدفعية [البرية] وسلاح الطيران والمدفعية البحرية ٠ كذلك تحركت مع هذه القوات ، قوات المدرعات ٠ وكان الهدف من النيران الكثيفة التي [اطلقت] من الجو والارض والبحر ، قبل دخول المشاة ٠٠٠ هو ٠٠٠ تليين مواقع الفدائيين ، لكي يسهل السيطرة عليها ٠٠٠ [واصابتهم] من بعيد ، بهدف الوصول الى حد ادنى من الاصابات بين القوات [الاسرائيلية] المهاجمة » ٠ وفي الوقت نفسه « دار القتال في القرى المحصنة جيدا ـ مثل مارون الرأس ، الطيبة ، بنت جبيل ـ من بيت الى بيت ، بينما كانت تطلق النيران المضادة للدبابات باتجاه [القوات الاسرائيلية] » (٩) ٠

اما المرحلة الثانية من المعارك ، فكانت عبارة عن تقدم القوات الاسرائيلية نحو الليطاني ، بعد تراجع العدو عن خططه الاولى ، الامر الذي فسره المراقبون على انه ناتج عن ضعف في التخطيط العسكري الاسرائيلي ، وعدم ترابط بين الاهداف العسكرية والسياسية ٠ الا ان رئيس الاركان الاسرائيلي غور ، دافع عن هذا التغيير بقوله : « ان اسرائيل اضطرت للتقدم من الخط الرئيسي ، اي ١٠ كم داخل لبنان ، الى حدود الليطاني بسبب موقف اميركا السريع والمتسرع ، بطلبها قرارا من مجلس الامن [بشأن الانسحاب الاسرائيلي] ، ثم توزيع قوات الامم المتحدة في المنطقة » ٠

« لقد املت اسرائيل ، باستيلائها على قطاع بعرض ١٠ كم ، بأن تبدأ بعد ذلك المفاوضات بشأن الوصول الى اتفاق مع الحكومات العربية المعنية مباشرة ، سوريا ولبنان ٠ الا ان الولايات المتحدة نشطت قبل استكمال هذا التحرك ، ولذلك قررت حكومة اسرائيل والجيش الاسرائيلي مرحلة ثانية من التقدم ، اندفعنا بموجبها الى حدود الليطاني ـ بهدف توزيع قوات الامم المتحدة ، في حال دخولها ، على مواقع مفيدة للغاية بالنسبة لاسرائيل ٠

« وقد صادف ايضا بأن اتخذ القرار بالتقدم نحو الليطاني ـ وهي حركة شجعها انعدام تجاوب سوريا في التدخل في هذه المنطقة ـ في الوقت الذي قام به مختار قرية تبنين ، وبعض القرى الاخرى برفع الاعلام البيضاء ٠٠٠ ولكن قرار التقدم نحو الليطاني اتخذ ، على اي حال ، نتيجة للتطورات في الامم المتحدة ، وليس لان مختار تبنين املى سياسة على اسرائيل ، كما تعتقد بعض الدوائر [الاسرائيلية المعارضة] » (١٠) ٠

الا ان التعليقات التي نشرت بعد انتهاء المعارك ، شككت في صحة هذا التفسير الذي اعلنه رئيس الاركان ٠ « فالمقربون من وزير الدفاع يقولون انه في الاوامر العملياتية التي اعطيت قبل المعركة ، لم يجر الحديث ابدا عن حزام امن بعرض ١٠ كم ، وانما حددت مواقع رئيسية كان يجب ان يسيطر عليها الجيش

الاسرائيلي (مثل رأس البياضة ، بنت جبيل ، الطيبة والخيام) ، تبعد نحو ٤ ـ ٨ كم عن الحدود · ولكن هذا القطاع يذكرنا بأحد البنود في اتفاق شتورة، الذي حدد انسحاب [الفدائيين] الى عمق ١٠ كم عن الحدود الاسرائيلية · وقد كان الاميركيون راضين عن هذا الاتفاق ، الا ان اسرائيل اعربت عن عدم موافقتها عليه ، وربما ارادت [الان] ، من وراء اعلانها عن رغبتها في السيطرة على قطاع كهذا ، ارضاء الاميركيين · وخلافا لذلك لم يكن لهذا الخط ـ اي ١٠ كم ـ اية اهمية عسكرية ، بأستثناء انه كان سيؤدي الى توحيد الجيوب المسيحية ··· وبعبارة أخرى ، ان من حدد قطاعا بعرض ١٠ كم لم يحدد خطا عسكريا ، بل كان بأستطاعته الافتراض ان [الفدائيين] لن يسكتوا عن الضربة وسيردوا بواسطة قصف المستوطنات · اي حتى لو لم يتخذ قرار في مجلس الامن ـ فأنه لا ينبغي الافتراض ان التقدم الى ١٠ كم كان سينهي العملية ، بل ربما كان سيبدأها فقط · فقد كان لزاما على جيش اسرائيل بالرد حسب تطورات الوضع بعد ذلك » (١١) ·

الفدائيون يتصدون للهجوم الاسرائيلي ، رغم كثافته

تميزت معركة الجنوب بكثافة النيران التي وجهتها القوات الاسرائيلية ، « من الجو والبر البحر » ، مما اثار الكثير من الانتقادات داخل اسرائيل ، نظرا لما نجم عن ذلك من تدمير ونزوح في القرى الجنوبية ، ولعدم فائدة هذه النيران في التسبب « بمقتل اكبر عدد من الفدائيين » · وقد رد رئيس الاركان الاسرائيلي على هذه الانتقادات بقوله : « ان شعب اسرائيل قد دفع كثيرا لكي يزود جيشه بأحدث الاسلحة ووسائل النقل الامينة · وان تمتلك القوة ولا تستعملها ، اي ان تكون جوليات في ميزان القوى وتتصرف فقط كداوود ، يدل على غباء كبير · لقد جمعنا افضل ما في الطرفين · وبالرغم من اننا استعملنا ترسانتنا على اكبر مدى ، فكل هجوم كان يتم بعد تخطيط دقيق ومن خلال [ما يسميه غور] عبقرية تكتيكية » (١٢) ·

وحسب قول رئيس الاركان الاسرائيلي ايضا ، فان « مئة جندي اسرائيلي آخر كانوا سيقتلون في الهجوم ، لو لم يلجأ الجيش الى استخدام المدفعية والدبابات وسلاح الطيران بشكل كثيف » (١٣) · لقد كان الجيش « على استعداد للتنازل عن المعارك وجها لوجه ، والاعتماد اكثر على قوة النيران الكثيفة ··· انه لا يعتبر مقتل مئة [فدائي] فوزا له ، اذا سقط من جانبه عشرة [جنود] او خمسة ··· وقد علل قائد المنطقة الشمالية ، افيغدور بن ـ غال ، الذي تولى قيادة الهجوم ايضا ، هذا الاسلوب بقوله : لقد عملنا بموجب المذهب الاساسي للجيش الاسرائيلي ، الذي يتمثل في حشد اكبر عدد من القوات من اجل الانتهاء

بأقل عدد مكن من الخسائر · وقد تحقق ذلك بواسطة التقدم ببطء وبصورة مأمونة » (١٤) ·

واذا كانت كثافة النيران التي استخدمت « بدون تفكير او رحمة » قد اثارت العديد من التساؤلات في اسرائيل ، فأن التقارير الكاذبة حول سير المعارك ونتائجها ، التي كانت تنشرها وسائل الاعلام الاسرائيلية ـ كعادتها في مثل هذه الحالات في السابق ـ نقلا عن الاوساط العسكرية ، قد احدثت ردود فعل معاكسة ايضا فيما بعد · فقد تبارت تلك الاجهزة في وصف « هرب » الفدائيين امام القوات الاسرائيلية ، وسهولة السيطرة على الاهداف ، ثم وقوع عشرات الاسرى من المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين في يد القوات الاسرائيلية ـ وكأن العملية كلها ليست سوى مناورة بسيطة يقوم بها الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان · الا ان رئيس الاركان الاسرائيلي نفسه كذب هذه التقارير فيما بعد بقوله : « على عكس التقارير التي نشرت حتى الآن ، لم يهرب الفدائيون من مواقعهم في جنوب لبنان قبل هجوم الجيش الاسرائيلي ، لكنهم تحفروا ونصبوا الكمائن ولغموا الطرق » (١٥) · وزعم غور بأن عدد الفدائيين الذين قتلوا في العملية يتراوح بين ٢٥٠ ـ ٤٠٠ قتيل ، « وهو رقم عال للغاية ، ويزيد اكثر من ١٠ مرات على عدد الفدائيين الذين قتلوا في اية عملية حتى الان ··· والسبب في مقتل هذا العدد الكبير ـ على حد زعم غور ـ من الفدائيين هو قرارهم البقاء والقتال · وللدلالة على حقيقة عدم هروبهم ، فقد قتل ٤٧ فدائيا في مارون الرأس في قتال وجها لوجه » (١٦) ·

كذلك كذب الناطق العسكري الاسرائيلي ما اشيع عن وجود عشرات الاسرى من الفدائيين في اسرائيل ، بقوله : « ان عدد [الفدائيين] الذين استسلموا لقواتنا اثناء الهجوم الاسرائيلي بلغ ١٢ شخصا فقط ، بينهم مصري واحد وباكستاني وايراني · وخلال العملية اعتقلت قواتنا عشرات الاشخاص المشتبه بهم على انهم ينتمون الى حركة « فتح » ومنظمات فلسطينية اخرى · وبعد التحقيق معهم اتضح ان ١٢ شخصا فقط من بينهم كانوا ينتمون الى هذه المنظمات ، وبعضهم جرحى ولا يزالون في المستشفيات · وبين هؤلاء صبي يبلغ الرابعة عشرة من العمر ، اعتقل وهو مسلح، وكذلك اربعة من اللبنانيين» (١٧)·

اسرائيل لم تحقق اهدافها كاملة

حددت اسرائيل اهدافها من وراء عملية احتلال جنوب لبنان على النحو التالي : «اولا : السيطرة على حزام امن ضيق حتى تحقيق اتفاق سياسي مقبول من جانب اسرائيل ، على حدودها الشمالية ، يؤدي الى تحديد نشاط [الفدائيين] · ثانيا : القضاء على عدد كبير من [الفدائيين] وتدمير

قواعدهم ، بحيث يؤدي هذا الامر الى خفض نشاطهم ، واشغالهم في اعادة تنظيم انفسهم لزمن طويل · ثالثا : محاولة تقويض الوضع الراهن في جنوب لبنان بحيث يكون بداية مجرى ··· لاعادة النظر في الموقف من [الفدائيين] والسوريين المتواجدين في لبنان كله » (١٨) ·

وكان رئيس حكومة اسرائيل مناحيم بيغن قد أعلن « ان جيش اسرائيل سيبقى بالتاكيد في جنوب لبنان حتى الوصول الى اتفاق » (١٩) · وشاركه في ذلك وزير الدفاع وايزمان ورئيس الاركان غور ، في مؤتمرهما الصحفي المشترك ، بينما كان القتال لا يزال مشتعلا ، بقولهما : « ان اسرائيل مستعدة للانسحاب من جنوب لبنان بشرط ان يتم تحقيق اتفاق يضمن عدم تواجد [الفدائيين] في الجنوب كله · ان اسرائيل لن تترك فراغا في المنطقة · والشرط الآخر لدينا هو استخدام ميناء صور للاغراض المدنية فقط ، والكف عن استخدامه لنقل الاسلحة [للفدائيين] · اما الشرط الآخر الذي تصر عليه اسرائيل فهو الحفاظ على العلاقة بينها وبين المسيحيين في جنوب لبنان » (٢٠) ·

الا ان اسرائيل ادركت ، خلال المعارك وبعدها ، وعلى لسان مسؤوليها السياسيين والعسكريين ، عدم صحة تقييمها للوضع العام قبل بدء الهجوم ، وبالتالي فشلها في تحقيق اي من اهدافها بصورة كاملة · والامثلة على ذلك واضحة ·

اولا : فشل الهجوم في القضاء على « اكبر عدد ممكن » من الفدائيين ، حيث ظهر ان خسائر اسرائيل خلال المعارك ، تفوق نسبيا خسائر الفلسطينيين ، اذا ما اخذنا في الاعتبار عدد القوات المهاجمة · « ان كل اصابة عندنا تعتبر ثمنا باهظا ، اذا اخذنا بالاعتبار ان الجيش الاسرائيلي قاتل في هذه المعركة ضد عدد قليل من [الفدائيين] ، غير متفوقين من ناحية معداتهم القتالية ، بالمقارنة مع اسلحة الجيش الاسرائيلي » (٢١) · وقد برر رئيس الاركان ، غور ، هذا الفشل بقوله : « انه لمن الحماقة التفكير بان عملية واحدة يمكن ان تقضي على الارهاب وتحييده ، بل مسلسل من العمليات · هناك اكثر من عشرين الف فدائي في لبنان ، ولم يفكر احد ، او حتى يحلم ، بقتلهم جميعا » (٢٢) · ولكن اذا كان هذا الادعاء صحيحا ، فلماذا استخدمت اسرائيل كل هذه القوة ؟ ان الرد على هذا السؤال واضح من خلال تصريحات المسؤولين الاسرائيليين قبل العملية وبعدها · فعشية الهجوم تحدث اولئك علنا عن رغبتهم في القضاء جسديا على آلاف الفدائيين في الجنوب ، وقد ارادوا تحقيق ذلك بواسطة كثافة نيران القصف ، محاولين تجنب المواجهة وجها لوجه · ولكنهم غيروا لهجتهم بعد ان اتضحت نتائج المعارك ·

ثانيا : لقد طالبت اسرائيل بالوصول الى اتفاق مع السلطة اللبنانية ، بشأن الجنوب ، يمنع التواجد الفدائي فيه ويجعل منه جسرا « للعلاقات الطيبة » مع اسرائيل · ان السؤال الذي يطرحه معظم الاسرائيليين الان هو هل فكرت الحكومة الاسرائيلية في كيفية تحقيق اتفاق كهذا ، في ظل الازمة الراهنة في لبنان · هناك من يقول ان اسرائيل مدركة لهذا الوضع ، وهي تعتبر طلباتها بعيدة المنال ، ولكنها سعت بواسطة طرحها الى « تشجيع انشاء الجيش اللبناني ، لكي يأخذ على عاتقه مهمة الامن في منطقة الحدود · واذا لم تستطع حكومة لبنان الاسراع في اعادة تنظيم هذا الجيش ، تكون ملزمة على التسليم بتقوية المليشيات [الانعزالية] في قرى الجنوب ، من اجل انشاء حاجز «مسيحي» بين اسرائيل والتجمع السكاني المسلم في المنطقة · ويمكن لهذا الحاجز ان يرتكز على قوة ردع الجيش الاسرائيلي » (٢٣) · وتدرك اسرائيل الآن ان الجهة الوحيدة التي تستطيع ابرام اتفاق معها هي الميليشيات المسيحية في الجنوب · الا ان مصداقية هذه القوات قد تقوضت لدى القيادة الاسرائيلية ، على الصعيدين العسكري والاخلاقي ، نظرا لعدم فعاليتها اثناء الهجوم الاسرائيلي وارتكابها جرائم كثيرة ، في القرى الاسلامية المحتلة في الجنوب · « ان وحدات الكتائب في جنوب لبنان لمتظهر كقوة مقاتلة اثناء المعارك الاخيرة ـ ولكنها برهنت على قوتها في المذبحة التي نفذتها في بلدة الخيام (وفي مارون الرأس وبنت جبيل) حيث اقدم رجال الكتائب على ذبح اربعين مسلما ، بينهم نساء واطفال » (٢٤) ·

واذا كانت اسرائيل مدركة لهذا الوضع ، فماذا كانت تبتغي من وراء مطالبتها باتفاق مع الحكومة اللبنانية يضع حدا للنشاط الفدائي في الجنوب ؟ ان التفسير الوحيد لذلك هو التسلح بهذه المطالبة من اجل تحقيق غايات اخرى ، تراها اسرائيل مهمة في الوقت الحاضر · فاستمرار احتلال منطقة الجنوب ، او على الاقل التواجد عسكريا فيه ، يؤدي الى زيادة حدة الازمة اللبنانية ، خاصة وان لاسرائيل « حلفاء » في لبنان ، لا يميزون بين الاحتلال الاسرائيلي وبين الوجود الفلسطيني · وبذلك تحقق اسرائيل هدفها الاكيد ، وهو ابقاء نار الفتنة مشتعلة على ارض لبنان ، للضغط على الفلسطينيين عسكريا وسياسيا ، وبالتالي الضغط على سوريا وزيادة تورطها في المشاكل اللبنانية بهدف اضعاف قوتها على الجبهة الشرقية · ولا تخفي اسرائيل هنا تآمرها على القوات السورية والفلسطينية معا في لبنان ، فهي تتحدث علنا عن رغبتها في « التفاهم » مع سوريا حول استثمار وجودها (اي سوريا) في لبنان من اجل السيطرة على المقاومة الفلسطينية ومنع نشاطها · ورغم المساعدات التي قدمتها سوريا للفدائيين ، او سهلت وصولها اليهم ، اثناء الغزو الاسرائيلي لمنطقة الجنوب ، فان اسرائيل ترغب في تجاهل ذلك ، وتسعى الى دق اسفين بين سوريا والفلسطينيين ، بما يخدم مصالحها · ولذلك يتساءل ، مثلا ، رئيس الاركان غور عما اذا كان السوريون « سيوافقون على منع الارهاب · وان تم ذلك فما هو الثمن الذي يطلبونه ؟··· لقد ادعى

السوريون ، خلال السنتين الماضيتين ، بانه ما لم يسمح لهم بتحريك قواتهم جنوبا نحو صور وحاصبيا والنبطية ، فلا ينبغي ان نتوقع منهم القيام بعملية ضبط الارهابيين » (٢٥) · واستطرد غور قائلا « بأن على اسرائيل ان تقرر الان اذا ما كانت ستسمح لهم بذلك ، واي حجم من القوات السورية ينبغي ان يسمح له بالاقتراب من الحدود الاسرائيلية ··· ان لدى السوريين اسبابا وجيهة للموافقة على ضبط م·ت·ف· ، وهي ان جيشهم موزع الان بين لبنان وسوريا · وقد انتشر في لبنان نفسه انتشارا واسعا ، مما جعلهم حساسين للغاية تجاه اية عملية هجوم ضدهم · لذلك سيكونون حذرين للغاية بالسماح لـ م·ت·ف· بحرية العمل ضد اسرائيل ، وهو عمل قد يؤدي الى انتقام ضد سوريا وهي غير قادرة على الدفاع عن نفسها · وانطلاقا من هذه الخلفية يبدو ان السوريين سيكونون معنيين بمنع النشاط الارهابي » (٢٦) ·

ويبدو ان التفكير في هذا الاتجاه كان احد العناصر الاساسية في التخطيط لعملية غزو جنوب لبنان ، « فاذا اخذنا اقوال مخططي « معركة الليطاني » في الحكومة وفي قيادة الاركان العامة ، نجد ان الافتراض لدى هؤلاء تمثل في ان هذه المعركة ستدفع السوريين نحو الوصول الى تسوية مع اسرائيل بشأن [الفدائيين] في جنوب لبنان ··· فكما ان حرب الاستنزاف في غور الاردن دفعت الحكومة الاردنية الى مشاركتنا في القضاء على [الفدائيين] ، وكما ان السوريين هم شركاء صامتين لمنع اعمال التخريب من هضبة الجولان ، فان التوقع هو انتكون سوريا شريكا صامتا حول هذه القضية في جنوب لبنان ايضا · وواضح ان اسرائيل كانت ملزمة باعطاء ثمن معين لدمشق ··· وكما يتضح ، كان الافتراض السائد ، قبل بدء المعركة ، ان تقدم جيش اسرائيل الى عمق ١٠ كلم في جنوب لبنان ، سيدفع السوريين الى تفضيل اتفاق كهذا على تازيم المعارك ··· وقد قررت اسرائيل منذ البداية عدم اثارة السوريين والتقدم فورا الى الليطاني، لانها رغبت في اشراكهم باتفاق كهذا في جنوبي لبنان »(٢٧) ·

الدور الاميركي وقرار مجلس الامن

ان التخطيط الاسرائيلي هذا لم يأخذ في الحسبان ، كما يبدو ، الموقف الاميركي والدولي ، وما قد ينجم عنه · وربما كانت اسرائيل على اقتناع بان الولايات المتحدة لن تشوش عليها في تحقيق اهدافها في الجنوب اللبناني ، خصوصا « وانه لم يعد هناك ادنى شك في ان الاميركيين كانوا على اطلاع على سر العملية قبل بدئها · ولن نخطيء اذا قلنا انهم كانوا يعرفون بصورة عامة النقاط الرئيسية التي ستسيطر عليها اسرائيل في القطاع المجاور لحدودها · ورغم انهم اعربوا عن قلقهم ازاء التطورات السلبية التي قد تؤثر على مجرى

مفاوضات السلام اثر العملية ٠٠٠ يبدو ٠٠٠ انهم لم يعربوا عن معارضة صريحة ٠ ولو ارادوا ، لاثقلوا جدا على العملية او ربما منعوها بصورة مطلقة ٠٠٠ لقد كان هناك نوع من الموافقة [الاميركية] الصامتة على العملية التي نفذها الجيش الاسرائيلي » (٢٨) ٠

الا انه اتضح في النهاية ـ حسب قول الاسرائيليين ـ ان الموقف الاميركي كان متناقضا تماما مع مخططات اسرائيل واهدافها من وراء احتلال الجنوب ٠ فقد ادرك بيغن ، وهو يستعد لرحلته الاخيرة الى واشنطن « المصاعب التي ستواجهه اثناء المحادثات مع الادارة الاميركية حول ازمة المنطقة ٠ وكان امله ان يستطيع طرح موضوع الجنوب كبند رئيسي في جدول المحادثات ، بهدف تخفيف الضغوط حول المواضيع الاخرى المدرجة » ٠ وقد حمل بيغن معه ، فعلا ، الى واشنطن « مشروعا اسرائيليا بشأن قضية الجنوب ، تم اعداده بعد استشارات اجراها مع هيئات سياسية وعسكرية مختلفة ٠ ويتألف هذا المشروع من اقتراحين بديلين : وضع قوات نظامية من الجيش اللبناني [في الجنوب] ، او تعزيز الميليشيات المسيحية بقيادة الضابطين سامي شدياق وسعد حداد ، وتسليمهما شؤون الامن ، حتى اعادة تنظيم الجيش اللبناني » ٠ وهدف المشروع وضع اميركا امام الامر الواقع ، بحيث لن يبقى امامها الا الاختيار بين الحلول التي خططت لها اسرائيل ، قبل بدء عملية الاجتياح ٠ الا ان الادارة الاميركية لم تنتظر حتى وصول بيغن الى واشنطن ، فسارعت الى تقديم مشروع قرار الى مجلس الامن يدعو الى وقف القتال في جنوب لبنان، وارسال قوات دولية الى هذه المنطقة ، ثم دعوة القوات الاسرائيلية الى الانسحاب كليا من القطاع الذي احتلته ـ وهذا ما نص عليه القرار ٤٢٥ الصادر عنمجلس الامن بتاريخ ١٩ـ٣ـ١٩٧٨٠

كذلك رفضت الادارة الاميركية ، طرح موضوع الجنوب على جدول المباحثات مع بيغن ، باعتباره قضية منتهية بعد صدور قرار مجلس الامن ٠ ويبدو ان الولايات المتحدة « كانت تنتظر هذه الفرصة منذ زمن : ادخال قوات الطوارىء الدولية الى جنوب لبنان ، والتخلص من وجود الاسرائيليين [والفدائيين] في هذه المنطقة ، وبعد ذلك ، ادخال قوات الحكومة اللبنانية » (٣٠) اليه ، الامر الذي يبرهنه الاهتمام الاميركي المتزايد ، في الاونة الاخيرة ، باعادة بناء الجيش اللبناني ٠

ما الذي دفع الولايات المتحدة الى مثل هذا الموقف ؟ هناك الكثير من الاراء التي طرحت داخل اسرائيل في هذا الصدد ٠ واهمها ، اولا : ان الولايات المتحدة ادركت عدم واقعية الطلب الاسرائيلي بشأن اتفاق مع الحكومة اللبنانية « اذ حتى لو تحقق اتفاق كهذا ، فلن تكون له اية قيمة عملية في الوضع القائم في لبنان » (٣١) ٠ وبذلك فان الاحتلال الاسرائيلي لمنطقة الجنوب سيستمر ، وستضاف بالتالي معضلة جديدة الى مجرى المفاوضات بين اسرائيل والدول

العربية حول ازمة المنطقة • **ثانيا** : عدم رغبة الولايات المتحدة بالظهور كأنها تؤيد اسرائيل في عمليتها • **ثالثا** : خطر انجرار سوريا الى المعركة ، مما سيعرض اتفاقات فصل القوات في الجولان للخطر • **رابعا** : ضغط من جانب دول عربية موالية للغرب على الولايات المتحدة ، لدفع اسرائيل الى الانسحاب • **خامسا** : الخوف الاميركي من تقوية مركز الاتحاد السوفييتي في المنطقة ، نتيجة احتلال جنوب لبنان (٣٢) •

ويهدف المشروع الاميركي الى تحقيق امرين رئيسيين : « اعطاء حكومة اسرائيل مبررا محترما لاخراج قواتها من منطقة الجنوب ، ثم ايجاد ضمان لعدم وقوع اية عمليات انتقامية على مدى واسع ضد القوات [الانعزلية] في جنوب لبنان ، بعدم الانسحاب الاسرائيلي » (٣٣) •

التخوف الاسرائيلي من قوات الطوارىء الدولية

راحت اسرائيل ، بعد وصول القوات الدولية الى منطقة الجنوب ، اثر « التشويش الاميركي » على مخططاتها ، تغير لهجتها الاولى ، وتعرب عن تخوفها من عدم جدوى هذه القوات في منع النشاط الفدائي من هذه المنطقة ، رغم « انطباعاتها » بأن قوات الطوارىء الدولية جادة في مهمتها في منع عودة الفدائيين الى الجنوب ، ورغم اعلان فايتسمان ان اسرائيل « ستؤمن لقوات الطوارىء ظروفا جيدة في المنطقة ، ولن يكون اي تواجد للمخربين ، وستسيطر قوات الطوارىء على جسور الليطاني » (٣٤) • الا ان فايتسمان اوضح ايضا ان « اسرائيل ستدرس الوضع في المنطقة بعد مرور فترة من الوقت • واذا لم تنفذ قوات الطوارىء الدولية مهمتها ، فسيعود الجيش الاسرائيلي لتنفيذ مهامه»، ولكنه لم يفصح عن طبيعة هذه « المهام » ، وهل تعني ان الجيش الاسرائيلي سيعود الى العمليات الانتقامية « وعمليات التطهير » ، ام سيقدم مرة اخرى على احتلال جنوب لبنان •

وعلى اي حال ، فأن معظم الاسرائيليين يعتبرون دخول قوات الطواريء الى الجنوب بمثابة فشل عسكري لحرب الجنوب ، « اذ ربما لن تستطيع قوات الامم المتحدة منع عمليات « التخريب » من المنطقة اللبنانية ، ولا منع اعداد المنطقة للمتطلبات العسكرية السورية ، في الوقت الذي سيؤثر فيه وجود هذه القوات على العمليات الاسرائيلية وقدرة ردع الجيش الاسرائيلي » (٣٥) • ثم ان نجاح قوات الطوارىء الدولية في مهمتها يتطلب شروطا معينة منها « التعليمات التي ستتلقاها هذه القوات من مجلس الامن بواسطة قادتها ، ثم استعداد الحكومات التي تنتمي اليها هذه القوات لتحمل المخاطرة • وواضح ان قوات الطوارىء غير

معدة للقتال ، ولكنها تستطيع بالتأكيد منع تسلل قوات مسلحة الى جنوبي لبنان » (٣٦) ٠

اما الشروط الاخرى التي يجب ان تتوفر لنجاح قوات الطوارىء الدولية في مهمتها ، فهي ــ باعتراف رئيس الاركان الاسرائيلي نفسه ــ موافقة م٠ت٠ف٠ على وقف اطلاق النار في الجنوب ٠ « ان احدى النتائج من عملية الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان ــ حسب قول غور ــ هي جعل م٠ت٠ف فريقا عمليا في اية اتفاقية في تلك المنطقة ٠٠٠ وكل من يدعي عكس ذلك يخدع نفسه » (٣٧)٠

ان عدم موافقة منظمة التحرير على وقف اطلاق النار في الجنوب يعني الكثير بالنسبة لاسرائيل ٠ فالمنظمة « تملك اسلحة اكثر تطورا من اسلحة قوات الطوارىء ٠٠٠ [والفدائيون] الموجودون شمالي الليطاني يستطيعون في المستقبل ايضا قصف المستوطنات الاسرائيلية ، بواسطة صواريخ الكاتيوشا التي بحوزتهم ، والتي يبلغ مداها ٢٢ كلم ، والمدافع من عيار ١٣٠ ملم من انتاج روسي ، والتي يبلغ مداها ٣٠ كم ٠ وهنا ينبغي التساؤل : ماذا سيحدث اذا بدأ [الفدائيون] قصف المستوطنات الاسرائيلية من فوق رؤوس قوات الطوارىء الدولية ؟ ان افراد هذه القوات هم اصحاب نظرة قانونية [متزمتة] ، ولذلك ينبغي الافتراض انهم لن يلقوا المسؤولية على م٠ت٠ف٠ طالما انه ليس بحوزتهم ادلة كافية ٠ ومقابل ذلك ، فأن كل عملية انتقامية من جانب وحدات نظامية ستكون اسهل للبرهان والتنديد » (٣٨) ٠

وعلى اي حال ، يبدو ان اسرائيل مدركة جيدا ، من خلال تصريحاتها ، ان وجود قوات الطوارىء الدولية في منطقة الجنوب لن يرحها ، كما هو الحال مع وجود هذه القوات في هضبة الجولان وسيناء ٠ ويبدو انها كانت تفضل عدم تواجد هذه القوات في هذه المنطقة ، لانها ستؤثر على حرية نشاطها ضد الفلسطينيين ، بعد كل عملية فدائية داخل فلسطين المحتلة ٠

ردود الفعل الاسرائيلية : العملية لم تسبب ضررا كبيرا للفدائيين

اثارت عملية اجتياح جنوب لبنان ردود فعل مختلفة داخل اسرائيل ٠ ويلاحظ ان ردود الفعل هذه كانت في معظمها مؤيدة في بداية العملية ، الا انها بدأت تتبدل مع انتهائها ، نظرا لعدم قناعة الاسرائيليين بان العملية حققت اهدافها فعلا ، سواء العسكرية منها او السياسية ٠ فعلى صعيد الاهداف العسكرية ادرك الاسرائيليون عدم جدوى العملية في القضاء على قوة الفدائيين والحد من نشاطهم ، اذ انهم يستطيعون «في المستقبل ايضا القدوم عن طريق البحر او تفجير براد ملغوم في القدس ٠ وهناك خطر قيامهم بقصفنا من بعيد ، بدون اية مضايقة٠ أما اذا كانت هذه العملية قد نفذت من اجل الانتقام ـ فقد دفعنا ثمنا باهظا

مقابله . لقد جاءت من اجل ضمان نهاية الاجرام ، او على الاقل كبح جماح [الفدائيين] ، وثمة شك كبير اذا كانت قد حققت هدفها هذا . على العكس ، هناك من يقول ان البقاء في جنوب لبنان لن يقلل بل يزيد من عدد الضحايا ، ولن يخفض بل سيزيد عمليات « فتح » ، لانه سيحول م.ت.ف. من منظمة وضعت في الظل الى منظمة تلقى تأييدا في العالم العربي » (٣٩) .

كما كشفت العملية عجز اسرائيل وفشل سياستها في القضاء عسكريا على حركة المقاومة . « فمن اعتقد ، انه يمكن بواسطة عملية من هذا النوع ، مهما كان حجمها ، القضاء نهائيا على وجود [الفدائيين] ، فانه ادرك الآن انه حتى بعد وصول جيش اسرائيل الى ضفة الليطاني ، ينجح [الفدائيون] في اعادة تنظيم انفسهم ، وبدء اطلاق النار من جديد . ان شعار قتل « اكبر عدد ممكن من الفدائيين » الذي طرح في مناسبات مختلفة ، لا يشهد على فهم ظاهرة م.ت.ف. [والفدائيين] الذين يعملون من قبلها . وحسب هذا الاسلوب ، يمكن التقدم حتى بيروت ، الا ان المشكلة لن تحل . وحتى عندما قتل بضعة مئات من [الفدائيين] فأن هذا الامر لم يؤثر على عمل المنظمة ، التي تستطيع تجنيد طاقات جديدة من بين جماهير اللاجئين الفلسطينيين » (٤٠) .

ويلاحظ ايضا ان هنالك شبه اجماع داخل اسرائيل حول فشل العملية الاخيرة، في تحقيق هدفها الرئيسي ، اي « كسر ظهر م.ت.ف. بواسطة تدمير قوتها القتالية ومقاتليها ومعداتها ومراكزها ، ثم انقاذ مستوطنات الجليل من القصف البري . علينا الا نسأل فقط اذا كان هذا الهدف قد تحقق ، وانما هل هذه هي الطريقة المفيدة لتحقيقه . والجواب على هذين التساؤلين سلبي » (٤١) .

اذن ، ما هي الوسيلة المفيدة ، في نظر الاسرائيليين ، لمكافحة نشاط الفدائيين ؟ لقد طرح اكثر من رأي في هذا الصدد ، لعل اهمها هو الحل السياسي . « ان الحقيقة هي انه لا يمكن منع اعمال الارهاب من جانب حركة سرية ، او عمليات حرب العصابات ، بطرق عسكرية فقط . ان الحل ، اذا كان هناك حل ، هو سياسي ، ويعتمد على ايجاد وضع تدرك معه المنظمات [الفدائية] انه ليس هناك احتمالا لتحقيق اهدافها بالقوة ، الا ان هناك امكانية لتحقيق جزء منها بالطرق السلمية ... ولكن قد ... لا توجد طريقة كهذه في المشكلة الفلسطينية . لدينا عوائق خاصة بنا تمنعنا من اقتراح حل سياسي . ولديهم هم ايضا موانع خاصة بهم تمنعهم من قبول حل كهذا . ربما «حكم علينا» بالاستمرار في هذه الحرب الى الابد . ولكن امرا واحدا ... يبدو اكيدا ، وهو ان الحديث حول « تحقيق اتفاق » في جنوب لبنان ، كوسيلة منع اعمال [الفدائيين] في المستقبل ـ هو حديث غير مسؤول ، يخلق توقعات ليس لها اساس ، ستؤدي في المستقبل الى خيبات امل غير ضرورية » (٤٢) .

م٠ت٠ف هي المستفيدة من العملية

يسود الانطباع لدى بعض الدوائر الاسرائيلية بأن منظمة التحرير الفلسطينية التي خططت لعملية تل ابيب ، هي المستفيدة الاساسية من وراء عملية غزو جنوب لبنان ٠ فاذا كان الهدف الاساسي لـ م٠ت٠ف٠ هو نسف المفاوضات السياسية الدائرة حاليا بين اسرائيل ومصر ، « فان العملية على طريق حيفا ــ تل ابيب قد حققت هدفها حسب كل المفاهيم : فقد قضت على اربعين ضحية ، ولغمت طريق المفاوضات المشوشة على اي حال ، وجرت اسرائيل ايضا الى عملية عسكرية كبيرة جدا ، وكتلت صفوف العرب ٠ وقد ابرزت القضية الفلسطينية مرة اخرى في الوعي الدولي كمشكلة ملحة تتطلب حلا سريعا ، لا يمكن تجاهلها في اية مفاوضات » (٤٣) ٠

اما على الصعيد العسكري ، فأن المنظمة هي الرابحة ايضا في نظر الاسرائيليين ، لانها استطاعت فتح جبهة واسعة معهم هي الطرف الاساسي فيها، مما ادى الى اعتراف اسرائيل نفسها ــ على لسان رئيس الاركان غور ، كما ذكرنا سابقا ــ بـ م٠ت٠ف٠ كطرف في الحرب وفي الهدنة ، وبالتالي ظهور م٠ت٠ف٠ في نظر العالم كطرف سياسي وعسكري لا يمكن تجاهله (٤٤) ٠

بالاضافة الى هذين المكسبين ، يتضح ان م٠ت٠ف حققت مكاسب مهمة على الصعيد الفلسطيني ايضا ٠ « فقد ادى الهجوم على لبنان الى خلق تضامن بين الفلسطينيين في جميع اماكن تواجدهم ، سواء في الاردن او في الضفة الغربية وغزة وفي لبنان ، وزاد من تكتلهم وتأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وغضبهم على الدول العربية ، التي لم تقدم مساعدة للفدائيين » (٤٥) ٠ وتمثل الانتفاضة التي قام بها سكان المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال الشهر الماضي ، اثر الهجوم على الجنوب ، صورة حية لهذا التضامن الذي اشارت اليه وسائل الاعلام الاسرائيلية نفسها ٠

اسرائيل تخشى تحول الجنوب الى فيتنام اخرى

بعد هذا العرض لمجرى الاحداث في جنوب لبنان منذ بدء الهجوم الاسرائيلي، يبقى السؤال مطروحا : ما هي الحلول البديلة ، التي تراها اسرائيل ملائمة للتعامل مع هذه القضية ٠

يتمثل الحل الاول ، الذي تطرحه بعض الدوائر الاسرائيلية ، في بقاء القوات الاسرائيلية في جنوب لبنان ، رغم الضغوط الدولية « والقيام بمساومة طويلة ــ وربما تكون مثيرة للاعصاب ايضا بسبب الضغط الاميركي والدولي للانسحاب

من الجنوب ـ للتوصل الى اتفاقات قوية ، ونافذة المفعول طوال فترة المفاوضات مع مصر ، بحيث تقوي قدرة المساومة الاسرائيلية في هذه المفاوضات » (٤٦) ٠

الا ان هذا الرأي ، يصطدم بمعارضة قوية وشبه شاملة ، ناجمة عن الخوف من التورط الاسرائيلي في حرب استنزاف ، غير مضمونة النتائج ، مع الفدائيين الفلسطينيين ، وبالتالي تكبد خسائر بشرية ومادية باهظة لا تستطيع اسرائيل تحملها ٠ وبعبارة اخرى ، يخشى بعض الاسرائيليين من تحول جنوب لبنان الى فيتنام اخرى ، لا تجد اسرائيل منها مخرجا ٠ « فكما حدث في فيتنام ، هكذا في لبنان ايضا ٠ فالعملية تثير ردود فعل سلبية في اوساط الرأي العام في العالم ٠ وفي المقابل اسئلة عسكرية ٠٠٠ ليس هناك اي تأكيد بان العملية كانت نجاحا عسكريا ٠ ان الهدف المعلن (ابادة [الفدائيين]) لم يتحقق ولكننا كسبنا منطقة لم يكن لنا اهتمام بها (وبالنسبة للنجاح العسكري في فيتنام ، فقد انتهت الخلافات في الرأي حول النتيجة بان الولايات المتحدة خسرت الحرب) » (٤٧)٠

بالاضافة الى ذلك فان الرأي العام الاسرائيلي الداخلي « غير مضمون » ايضا بسبب قرب جنوب لبنان من المناطق الاسرائيلية ، التي يحتمل ان تتعرض للقصف ، ثم بسبب الاعباء التي قد تسببها حرب من هذا النوع ٠ « ان لبنان ليس بلدا بعيدا في آسيا ، كما كانت فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة ٠ فلوس انجلوس لم تتعرض لاي صاروخ كاتيوشا ، اطلق عليها من هانوي ٠ كذلك فأن ثوار الفيتكونغ لم يخطفوا اي باص على طريق شاطىء كاليفورنيا » (٤٨) ٠ ثم ان حربا من هذا النوع ، ضد قوات مدربة على حرب العصابات ، ستؤدي الى « رأي عام غاضب ، وعبء امني اضافي ، ثم تقوية مشاعر العداء في العالم [تجاه اسرائيل] ، وانقسام الرأي العام في الداخل ٠ فالاصداء التي نسمعها من جنود اشتركوا في المعركة في الشمال غير مشجعة ، وتذكرنا بتذمر الجنود الاميركيين الذين عادوا من جنوب شرق آسيا ٠ اما النتائج فستكون اخطر بالنسبة لنا : فالولايات المتحدة بقيت الدولة الكبرى الاولى رغم مشاعر العداء في العالم تجاهها ، والثمن الباهظ بالدم وبالمال الذي دفعته ، واستطاعت تحمل كل المصائب التي انزلتها بها تلك الحرب ٠ وكان الثمن تنازل الرئيس الاميركي عن فترة ولاية اخرى ٠٠ ولكن ثمة شك كبير فيما اذا كنا نحن قادرين على الخلاص بثمن كهذا ٠ ان اسرائيل لن تستطيع مواجهة النقد الدولي والداخلي ، ولسنا متأكدين اذا كانت استقالة رئيس الحكومة كافية لمنع كارثة كهذه ٠ كذلك لسنا متأكدين اذا كانت اسرائيل قادرة على دفع الثمن الذي ستضطر الى دفعه ، حتى نتخلص من رئيس الحكومة الحالي » (٤٩) ٠

اما الحل الثاني ، البديل الذي تقترحه دوائر اسرائيلية اخرى فهو الانسحاب من الجنوب ٠ وهذا ، على ما يبدو ، هو الرأي السائد الان لدى معظم الاوساط

الاسرائيلية واسباب ذلك متعددة ، واهمها فشل العملية في القضاء على نشاط الفدائيين في المستقبل ، بحيث يتوقع استمرار النشاط الفدائي وقصف المستعمرات الاسرائيلية ، ثم احتمال تورط اسرائيل في حرب استنزاف ضد الفلسطينيين ، كما ذكرنا سابقا ٠

وعلى اي حال ، فان المسؤولين الاسرائيليين يعلنون ان الانسحاب الاسرائيلي سيتم حال استكمال تمركز قوات الطوارىء الدولية في المنطقة ، واخذ مواقعها كاملة ٠ الا ان نشاط اسرائيل في الجنوب يدل على رغبة الاسرائيليين في الاحتفاظ بمواقع معينة في تلك المنطقة ، رغم قرار مجلس الامن ٠

خاتمة

يستدل من خلال العرض لاحداث معركة الجنوب ، ان اسرائيل ماضية في تنفيذ سياستها التوسعية في الاراضي العربية ، رغم المفاوضات الدائرة بشأن الوصول الى تسوية في المنطقة ٠ كذلك ، يلاحظ ان توقيت العملية لم يكن لصالح اسرائيل ، اذ انها كانت تفضل مواصلة عملية المفاوضات مع مصر ، في ظروف مريحة تمكنها في النهاية من تحقيق سلام منفرد معها ، ثم التفرغ للجبهة الشرقية بعد ذلك ٠ وقد اعلن وزير الدفاع الاسرائيلي ، الذي يعتبر من اشد المتحمسين لتحقيق السلام المنفرد مع مصر ، بان « مسألة الجنوب تعتبر ثانوية الآن ، بالمقارنة مع السلام مع مصر ٠ ولدي اساس للاعتقاد بان مسألة لبنان لن تكون عاملا في قطع الخيط مع مصر » (٥٠) ٠ وهذا ما تم بالفعل ، حيث قام فايتسمان بزيارة القاهرة حتى بعد احتلال جنوب لبنان ٠

اما المسألة الثانية التي يمكن ملاحظتها من خلال عملية اجتياح الجنوب ، فهي النظرة الجديدة في اسرائيل تجاه منظمة التحرير الفلسطينية ، التي تنم على الشعور بازدياد خطورة المنظمة تجاهها ــ وان كان الوضع غير ذلك ، فلماذا استخدمت اسرائيل كل تلك القوة ضد الفدائيين في الجنوب ؟ امن اجل تجنب الخسائر البشرية بين جنودها فقط ؟ ام من اجل مسألة اخطر ، وهي محاولة تصفية المنظمة عسكريا ، بعدما عجز عن ذلك حلفاؤها في لبنان ، خلال السنوات الاخيرة ؟ ويبدو ان ما يدعو اسرائيل الى ذلك هو يقينها بانها ستصل في النهاية الى مرحلة لا يعود معها التصدي السياسي للفلسطينيين كافيا من جانبها ، امام ضغوط دولية وعربية ، تؤيد حق تقرير المصير للفلسطينيين ٠ ولذلك يبدو انها لجأت الى هذه المعركة ، على امل التخلص عسكريا من المنظمة ، ليسهل عليها فيما بعد تصفيتها سياسيا ٠

ان معارك الجنوب ، رغم ما اثارته من ردود فعل مختلفة داخل اسرائيل وخارجها ، تمثل مرحلة جديدة من حدة الصراع الاسرائيلي ــ الفلسطيني وربما

تكون الاولى في معارك اخرى اشد شراسة ، خصوصا بعد ان اعلنت حكومة بيغن انها لن تعترف بأية حقوق مشروعة للشعب الفلسطيني ، ولا تنوي ابدا الانسحاب من الاراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧ ٠

الحواشي :

(١) اليكس فيشمان ـ عل همشمار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢) مارك جيفن ، المصدر نفسه ٠
(٣) حجاي ايشد ـ دافار، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤) في مقابلة معه في معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٥) اوري دان ـ معاريف، ٢٢ـ٣ـ٧٨ ٠
(٦) يديعوت احرونوت ، ١٣ـ٣ـ٧٨ ٠
(٧) اوري دان ـ معاريف، ٢٢ـ٣ـ٧٨ ٠
(٨) كما نقلتها « النهار » (بيروت) ، ١٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠
(٩) انظر الملاحظة (١) اعلاه ٠
(١٠) في مقابلة مع جيروزليم بوست ، ٣١ـ٣ـ٧٨ ٠
(١١) زئيف شيف ـ هآرتس ، ٣١ـ٣ـ٧٨ ٠
(١٢) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(١٣) المصدر نفسه ٠
(١٤) نقلا عن زئيف شيف ـ هآرتس ، ٣١ـ٣ـ٧٨ ٠
(١٥) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(١٦) المصدر نفسه ٠
(١٧) هآرتس ، ٤ـ٤ـ٧٨ ٠
(١٨) انظر الملاحظة (١) اعلاه ٠
(١٩) يديعوت احرونوت ، ١٦ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢٠) دافار ، ٢١ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢١) يونه شمشي ـ دافار ، ١٨ـ٣ـ٧٨
(٢٢) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(٢٣) شموئيل سيجف ـ معاريف ، ١٦ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢٤) اوري دان ـ معاريف، ٢٢ـ٣ـ٧٨ ٠
(٢٥) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(٢٦) المصدر نفسه ٠
(٢٧) زئيف شيف ـ المصدر السابق ٠
(٢٨) المصدر نفسه ٠
(٢٩) شموئيل سيجف ـ معاريف ، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٠) زئيف شيف ـ المصدر السابق ٠
(٣١) افتتاحية دافار ، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٢) شموئيل سيجف ـ المصدر السابق
(٣٣) افتتاحية دافار، المصدر السابق٠
(٣٤) مقابلة مع فيتسمان ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٥) بروفيسور يحزكيئيل درور ـ يديعوت احرونوت ، ٣٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٦) زئيف شيف ـ هآرتس،٢٨ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٧) انظر الملاحظة (١٠) اعلاه ٠
(٣٨) ارنيئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت، ٢١ـ٣ـ٧٨ ٠
(٣٩) اهرون جيفع ـ دافار، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٠) مارك جيفن ـ عل همشمار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤١) أرييه ايرد ـ دافار ، ٢١ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٢) دافيد شوحام ـ يديعوت احرونوت، ٢٣ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٣) اهرون ميجد ـ دافار ، ٧ـ٤ـ٧٨ ٠
(٤٤) اوري افنيري ـ هاعولام هازيه ، ٥ـ٤ـ٧٨ ٠
(٤٥) داني روبينشتاين ـ دافار ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٦) حجاي اشد ـ دافار، ٢٠ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٧) تدي برويس ـ دافار ،٢٨ـ٣ـ٧٨ ٠
(٤٨) المصدر نفسه ٠
(٤٩) المصدر نفسه ٠
(٥٠) من مقابلة معه في معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨ ٠

هـــاني منـــدس

مشـــروعات التوطـــين

بعد النتائج التي اسفرت عنها زيارة السادات للكيان الصهيوني ، ووضوح طبيعة التسوية الامبريالية وما تستهدفه من تصفية للقضية الوطنية الفلسطينية، دعا بيغن الى حل مشكلة الفلسطينيين من خلال توطينهم في البلاد العربية التي يقيمون فيهـــا ٠

وسرعان ما تلقفت القوى الرجعية المعادية للنضال التحرري الوطني وللكفاح المسلح الفلسطيني هذه الدعوة و « بادرت » الى طرح موضوع التوطين بطريقة يراد بها التعبئة الحاقدة ضد ما اسمته « الوجود الفلسطيني في لبنان » وهـــي تستهدف بذلك استكمال مؤامرة تصفية الثورة الفلسطينية واذكاء روح العداء الشوفيني ضد الشعب العربي الفلسطيني ٠

علما ان للشعب الفلسطيني موقفه التاريخي المعروف ضد كافة مشاريـــــع واشكال التوطين ، منـــذ اخـــذت تطرحهـــا الامـــم المتحـــدة والولايـــات المتحدة الامريكية ابتداء من عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٥٩ ٠ فقد كانت هذه المشاريع تستهدف تصفية الهوية الوطنية والحقوق التاريخية الثابتة للشعب الفلسطينـــي واضفاء طابع الشرعية على الوجود الصهيوني الاستيطاني الاستعماري علـــى ارض فلسطين العربية ٠ ولم يكتف الشعب الفلسطيني برفض هذه المشاريـــع المشبوهة ومقاومتها بضراوة ، بل انه شهر السلاح لاسترجاع حقوقه وارضـــه السليبة بالقوة ، وذلك كأرقى تجسيد لرفضه نتائج المشروع الصهيوني ، ومنها مسالة التوطين ٠

والملاحظ ان مثل هذه المشاريع والدعوات التي تبادر الى طرحها القـــوى

المعادية ، انما يجري « بعثها » من رميم كلما اخذت تمر قضايا النضال التحرري العربي والنضال الفلسطيني في مأزق ، حيث تدرك الامبريالية والصهيونية والرجعية ان الجو السياسي ملائم لتمرير مشروعاتهم التصفوية للقضية الفلسطينية بما تمثله من ثقل مركزي في النضال المعادي للامبريالية في المنطقة العربية ·

ولقد تلقى الفاشيون واجهزتهم الاعلامية الضوء الاخضر من بيغن الداعي الى توطين الفلسطينيين في البلاد العربية ، لكي يشنوا حملة من التحريض والتشكيك بالشعب الفلسطيني وثورته المسلحة تحت ستار حجة انهم يرفضون توطين الفلسطينيين او ما يسمونه « الوجود الفلسطيني » ، ويطالبون بتوزيع الفلسطينيين في لبنان على البلاد العربية الاخرى ·

بينما هم، في الواقع، يكرسون نتائج المشروع الصهيوني الاستيطاني الامبريالي في فلسطين الذي ادى الى اقتلاع قسم كبير من الفلسطينيين من ارضهم واضطرارهم للجوء الى البلاد العربية المجاورة · وليس من مصلحتهم الطبقية، وهم ، المتحالفون سياسيا وعسكريا ، مع الدولة الصهيونية ، ان يدعموا الشعب الفلسطيني وهو يقاتل عمليا العدو الصهيوني الامبريالي ، ويناضل بصلابة لا تلين من اجل العودة الى ارضه وليس الاستيطان في البلاد العربية المجاورة·

والواقع ان المشروع الصهيوني في فلسطين بما يمثله من دور امبريالي عدواني على صعيد المنطقة لم يكتف بتهجير الفلسطينيين وحدهم ، بل ان قسما واسعا من ابناء الشعوب العربية المحيطة بفلسطين سواء في سوريا ومصر وجنوبي لبنان قد تعرضت الى التشريد داخل اوطانها وعددهم لا يقل عن عدد ابناء الشعب الفلسطيني ، سيما اذا تذكرنا ماذا حل بمدن قناة السويس اثر حرب ١٩٦٧ حيث بلغ عدد المهجرين ما يزيد عن المليون ·

ان الصهيونية لمتأخذ فلسطين لكي تقيمفيها بدلاعن الشعبالفلسطينيفحسب، بل لكي تحولها ، ايضا ، الى قاعدة عسكرية عدوانية تعمل على خدمة مخططات الامبريالية في المنطقة العربية · فاسرائيل تلعب دور العصا الغليظة ضد تحرر وتقدم شعوب المنطقة العربية ، لا سيما المحيطة بفلسطين · وستظل تلعب هذا الدور ما لم تنهض القوى الثورية المعبرة عن مصالح الطبقات الشعبية من أجل شل دورها وسحقها ·

ان الفاشيين والرجعيين الذين يتبجحون ، اليوم ، برفض توطين الفلسطينيين، بينما هم يحاربون الثورة الفلسطينية بكل ضراوة ، انما هم الذين يريدون تحقيق فكرة التوطين بعد ان ينزعوا من الشعب الفلسطيني سلاحه المشهر في وجه اسرائيل ونتائج عدوانها المستمر وما اسفر عنه من تهجير الفلسطينيين وسواهم من ابناء الشعوب العربية الاخرى · علما ان هذه القوى والانظمة

الرجعية لا تريد معاملة الفلسطينيين كمواطنين عرب لهم حقوقهم ، بل تعمل على تسليط القوانين الاستثنائية من اجل التضييق على حريتهم في التحرك والعمل والنضال السياسي · وذلك باسم الحرص على حقوق الفلسطينيين والمحافظة على جنسيتهم الاصلية ! ويعود هذا الموقف الى اسباب سياسية واقتصادية متعددة منها تخوف الانظمة الرجعية من الاثار السياسية الناجمة عن منح الجنسية للفلسطينيين على تركيبها السياسي الهش ، والى عدم رغبتها في منافسة الفلسطينيين لفئات وشرائح طبقية معينة من سكان البلد الاصلي على الوظائف والمقدرات الاقتصادية ·

ان الشعب الفلسطيني رفض دوما كل مشاريع التوطين المشبوهة حتى قبل ان يشهر السلاح كأرقى تعبير عن رفضه لمحو هويته الوطنية وحقوقه التاريخية الثابتة في ارضه ، وبالتالي لأية فكرة او مشروع توطين ·

ان الهدف المباشر للاعداء هو نزع سلاح الشعب الفلسطيني وتصفية قضيته التي تعني من جملة ما تعني قمع الفلسطينيين « المخربين » (لمخططات العدو الصهيوني الامبريالي) والسعي لتوطينهم وتطويق تحركاتهم السياسية الوطنية ·

ولكي نتبين اكثر الغرض السياسي المعادي من طرح دعوات وافكار ومشاريع التوطين التي لا تعني ، في الجوهر ، سوى السعي لشل الفعالية النضالية للشعب الفلسطيني ، فما علينا سوى ان نتفحص حقيقتها تاريخيا وماذا ادت اليه من نتائج عملية ، وهل حقا كانت تريد الامبريالية تطوير البلاد العربية المجاورة اقتصاديا لكي تكون قادرة على « استيعاب » الفلسطينيين ، وهم الذين لايعانون ، مثلا ، ظروفا اقتصادية اسوأ مما يعانيه ابناء الشعب العربي في مصر او في غيرها من البلدان العربية الاخرى ؟ وهل حقا تريد الامبريالية تطوير البلاد العربية المجاورة اقتصاديا من اجل تحقيق اهداف التوطين ؟ الا يتناقض هذا « التطوير » مع اهداف السيطرة الامبريالية نفسها ، ومع الدور المناط بالكيان الصهيوني نفسه الذي يعمل على اعاقة التقدم الاقتصادي ـ الاجتماعي في المنطقة العربية والابقاء على تخلفها وتمكين الامبريالية الامريكية خاصة من نهب ثروات المنطقة والسيطرة عليها استراتيجيا ؟ الا تقوم اسرائيل بتهديد وضرب اية قوة سياسية تحاول التخلص من قبضة السيطرة الامبريالية بكل ما تعنيه من استقلال سياسي واقتصادي وتقدم ؟ وهل الاعتبارات « الانسانية» هي التي تتحكم فعلا في موقف الامبريالية عامة والامبريالية الامريكية خاصة من قضية « اللاجئين » الفلسطينيين ؟ بينما هي نفسها القوى التي كان لها مصلحة في اقتلاعه من أرضه وزرع الكيان الصهيوني لكي يمارس دوره « الحضاري » في « تعمير » المنطقة ·· و « انارتها » بقنابل النابالم ؟!

ان الخوف دائما مما يمثله الشعب العربي الفلسطيني من طاقة كفاحية عالية

عمدتها سنوات طويلة من النضال الشاق المرير ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية ، هو الهاجس الاساسي الذي يكمن وراء الاعتبارات « الانسانية » (التي تجلت على حقيقتها في طرد الشعب الفلسطيني من ارضه !) والرغبة في المساعدة « الاقتصادية » التي لا تسمن ولا تغني عن جوع ٠

ان تعمير المنطقة العربية وتطويرها اقتصاديا يتناقض مع الهدف الاساسي من اقامة الكيان الصهيوني على ارض فلسطين ٠ وسوف نوضح طبيعةمشاريع « التنمية » التي طرحتها القوى الامبريالية اما من خلال مبعوثيها وممثليها او وكالة الغوث الدولية التي تمولها ، اساسا ، هذه القوى والدول الامبريالية نفسها لاعتبارات لا تتعلق ابدا بالدوافع « الانسانية » الحقيقية ، بل بهدف تصفية القضية وتمويه دورها وتطويق ومحاصرة النضال الوطني الجذري الفلسطيني والعربي ٠

كما سنوضح موقف الشعب الفلسطيني من هذه المشروعات على اختلاف اشكالها ، وتقدير الوكالة الدولية نفسها لاسباب فشل مثل هذه المشروعات الاجهاضية ، وحيث تبرز الوكالة السبب الحاسم باعتباره تمسك الفلسطينيين بأرضهم ورفضهم أية تصفية لقضيتهم وشخصيتهم الوطنية ٠

فحوى الاعتبارات « الانسانية » الامريكية

عبر جورج ماك غي مساعد وزير الخارجية الامريكي في شهادته « امام لجنة مجلس النواب للشؤون الخارجية في ١٦ شباط ١٩٥٠ عن قلقه بشأن العلاقة بين وجود اللاجئين الفلسطينيين ومستقبل المصالح الامريكية في الشرق الاوسط ، ودعا الولايات المتحدة لدعم وكالة الغوث ماليا ، بقوله : « دعوني أتكلم بصراحة حول هذه المسألة ، ان خسارة هذه المنطقة سياسيا لصالح الاتحاد السوفياتي ستكون كارثة كبرى ، تعادل خسارتها في زمن الحرب ٠ وبالتأكيد فان المركز السياسي الاستراتيجي للاتحاد السوفياتي سيقوى بما لا يقاس اذا حقق اهدافه في الشرق الادنى ، وستطول الحرب الباردة كثيرا ٠٠ وعلى اساس هذه الخلفية فان اهتمامنا باللاجئين الفلسطينيين ، المبني جزئيا على اعتبارات انسانية ، له مبرر اضافي ، فما دامت مشكلة اللاجئين غير محلولة ٠٠٠ فان تحقيق التسوية السياسية في فلسطين سيتأخر ٠٠٠ (و) سيستمر اللاجئون في لعب دور بؤرة طبيعية للاستغلال من قبل العناصر الشيوعية والمخربة التي لا نستطيع نحن او لا تستطيع حكومات الشرق الادنى تجاهلها ٠٠٠ ان وجود ثلاثة ارباع مليون من البشر العاطلين عن العمل والمعدمين ــ وهو رقم يفوق عدد الجيوش النظامية لدول الشرق الادنى مجتمعة ــ والذين يزداد سخطهم مع مرور الزمن ، **هم اعظم خطر قائم يهدد امن المنطقة** » (١) ٠

ان وضع الفلسطينيين ، «الذين يزداد سخطهم » ، لا يهدد « امن » اسرائيل او دولة عربية معينة ، بل « امن» المنطقة العربية كلها ·

وقد تصرفت وكالة الامم المتحدة لغوث اللاجئين وتشغيلهم بغية نفض يد الامم المتحدة (التي كان يسيطر عليها في ذلك الوقت الدول المرتبطة بتلك الدول الامبريالية) ، من الوجه السياسي للمسألة الفلسطينية والتركيز على الوجه « الاقتصادي » و « الانساني » من الناحية العملية · رغم ان قرارات الامم المتحدة بشأن اللاجئين الفلسطينيين تثبت لهم حقهم في العودة الى وطنهم · فالفقرة ١١ من قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ١٩٤ الدورة الثالثة المتخذ في كانون الاول ديسمبر ١٩٤٨ ما زالت حتى الان حبرا على ورق ، وهي تنص على ما يلي :

« ان الجمعية العامة ·· **تقرر** ان يسمح للاجئين الراغبين في العودة الى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم ، ان يفعلوا ذلك في اقرب وقت مكن ، وان يدفع تعويض عن اموال الذين يختارون عدم العودة الى ديارهم ، وعن الخسائر والاضرار التي تلحق بها والتي تقتضي مبادىء القانون الدولي او العدالة قيام الحكومات او السلطات المسؤولة بتعويضها ·

وتوعز الى لجنة التوفيق ان تسهل عودة اللاجئين الى وطنهم ، وتوطينهم وتأهيلهم اقتصاديا واجتماعيا ، وتعويضهم ، وان تقيم الصلات الوثيقة مع مدير مؤسسة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين وبواسطته ، مع هيئات الامم المتحدة ووكالاتها المختصة » ·

فمن الناحية العملية ، نتيجة للظروف التي احاطت بنكبة الشعب الفلسطيني لم يبق هناك من وسيلة امام الامم المتحدة ومن يقف وراءها في تلك الآونة ، سوى التأكيد اللفظي على حق الفلسطينيين في العودة ، بينما السلوك العملي **هو التركيز** على الغاء الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني للحفاظ على « الامن والسلام » واجراء تسوية « للنزاع » ·· والسعي « لتوطينهم » وتأهيلهم اقتصاديا واجتماعيا و « تعويضهم » ·

مشاريع التوطين تاريخيا

« ان مرور الوقت دون ظهور حل سياسي للقضية العامة ولمشكلة اللاجئين من شأنه عودة هؤلاء الى وطنهم او استيعابهم اقتصاديا حيث هم ، حمل الاوساط السياسية الدولية على اجراء تحول اساسي في موقفها استدعى (اولا) السعي لتقديم فرص للعمل للاجئين و (ثانيا) السعي لدمجهم كليا في الاقتصاديات المضيفة ، و (ثالثا) بعد فشل المسعيين الاولين السعي لتحسين

ظروف معيشتهم دون التوكيد على مبدأ الادماج الكلي » (٢) ٠

على غرار التسلسل المذكور تبدل التوكيد في سياسة هيئة الامم المتحدة تجاه الفلسطينيين اللاجئين ٠ فكانت الاغاثة المباشرة هدف المحاولة الاولى التي قام بها الكونت برنادوت واسماها « مشروع الاغاثة للكارثة » ، وكذلك كانت الاغاثة المباشرة هدف كافة المؤسسات الاخرى التي باشرت عملها في عام ١٩٤٨ على اثر النكبة ، كلجنة الصليب الاحمر الدولية ، وعصبة جمعيات الصليب الاحمر ، وجمعية الاصدقاء الامريكية ، ومنظمة الصحة العالمية ، وصندوق الطوارىء الدولي للاطفال ، كذلك كانت هدف اول وكالة جاءت في ديسمبر ١٩٤٨ تعمل من قبل هيئة الامم المتحدة وتوحدت فيها جهود الهيئات التي مر ذكرها (عدا الاولى التي انحلت) وقد استمرت حتى اول مايو ١٩٥٠ تحت اسم « وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين » ، وما لبث ان تم اضافة « وتشغيلهم » بعد تشكيل بعثة « كلاب » وتركيزها على توفير فرص العمل للفلسطينيين ٠

فلم يطل الوقت ٠٠ « نتيجة لتعقد القضية الفلسطينية على الصعيد السياسي وتعذر حلها اذ تحول الرأي صوب وجوب النظر الى مشكلة اللاجئين على اساس المدى البعيد واحتمال اضطرار هؤلاء الى البقاء ، حيث هم ، زمنا طويلا غير محدد ، مما استدعى التفكير بضرورة دراسة امكانية البلاد المضيفة اقتصاديا لتحمل وطأة استيعاب الالاف العديدة من القادرين على العمل ــ او على الاقل تزويدهم بمجالات النشاط وفرص العمل لجني المداخيل والاستغناء عن الاغاثة المباشرة ٠ وعلى هذا شكلت هيئة الامم المتحدة « لجنة الاستقصاء الاقتصادي للشرق الاوسط » المعروفة باسم لجنة « كلاب » نسبة الى رئيسها غوردون كلاب ٠ وقد جاءت هذه ودرست احوال المنطقة (على التحديد : مصر ولبنان وسوريا والاردن واسرائيل) ووضعت تقريرا في اواخر عام ١٩٤٩ أوصت فيه ــ فيما اوصت ــ بوجوب تحويل التوكيد من الاغاثة المباشرة الى توفير فرص العمل للاجئين القادرين على اساس تناقص الاغاثة كلما تزايدت فرص العمل » (٣) ٠

والجدير بالملاحظة ان اعداد اللاجئين المسجلين لدى الوكالة على مدار السنوات الاولى كانت تتناقص باستمرار انطلاقا من وضع المقياس الاقتصادي اساسا لاستمرار الاغاثة ، وبالتالي تسجيلهم كفلسطينيين وذلك بهدف التقليل من حجم المشكلة الفلسطينية والعمل والايحاء بان اعداد « اللاجئين » فيتناقص مستمر ٠ وقد وضعت الوكالة ، فيما بعد ، ما يعرف « بسلم الدخل » من اجل العمل على شطب الفلسطينيين القادرين عن الاستغناء عن خدماتها التي لا تغني عن جوع او عوز ٠ فالاعاشة المتواضعة ومجموع الخدمات التي يتناولها الفرد الفلسطيني في السنة لا تتجاوز معدل اثنين وعشرين دولارا ، اي ما يقارب

من دولارين في الشهر الواحد !

وسوف نوضح حقيقة ارتباط توفر فرص العمل للفلسطينيين اللاجئين القادرين بتناقص الاغاثة وتناقص اعدادهم على سجلات الوكالة ٠ ومن هنا سبب عدم دقة ارقام الوكالة عن الفلسطينيين حيث جرت عمليات شطب مستمرة على قسم لا يستهان به من الفلسطينيين القادرين على العمل ٠

والجدول التالي (٤) يوضح كيفية تناقص اعداد اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى الوكالة بدل تزايدهم خلال خمس سنوات ٠

البلد	السنة	السنة	السنة	السنة	السنة
	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤
لبنان	١٢٧ر٦٠٠	١٠٦ر٨٩٦	١٠٤ر٩٠١	١٠٢ر٠٩٥	١٠١ر٦٣٦
سوريا	٨٢ر١٩٤	٨٢ر٨٦١	٨٤ر٢٢٤	٨٥ر٤٧٣	٨٦ر١٩١
الاردن	٥٠٦ر٢٠٠	٤٦٥ر٧٤١	٤٦٩ر٥٧٦	٤٧٥ر٦٢٠	٤٨٦ر٦٣١
غـزة	١٩٨ر٢٢٧	١٩٩ر٧٨٩	٢٠٤ر٣٥٦	٢٠٨ر٥٦٠	٢١٢ر٦٠٠
اسرائيل	٤٥ر٨٠٠	٢٤ر٣٨٠	١٩ر١١٦	—	—
المجموع	٩٦٠ر٠٢١	٨٩٧ر٦٦٧	٨٨١ر٦٧٣	٨٧١ر٧٤٨	٨٨٧ر٠٥٨

فاعداد الفلسطينيين المسجلين ، كما نلاحظ من هذا الجدول في تناقص مستمر ٠

وهكذا لم تعمل الامم المتحدة على تطبيق قراراتها الاساسية السياسية وحق الفلسطينيين في العودة الى وطنهم ٠ فلجنة التوفيق المؤلفة من ممثلين عن امريكا وفرنسا وتركيا ، شرعت بالقيام بمساع ديبلوماسية لدى الدول العربية واسرائيل ، وفق قرار ١١ كانون الاول ١٩٤٨ السالف الذكر ، في سبيل تسوية « المسائل المعلقة » من قضية فلسطين ، وفي طليعتها قضايا الحدود والقدس واللاجئين الفلسطينيين ٠

ففي المذكرة التي بعثتها الحكومة الاسرائيلية في اواخر عام ١٩٤٩ الى لجنة التوفيق التي كانت تسعى لاقناع حكومة اسرائيل بالاعلان عن استعدادها لقبول عودة ١٠٠ر٠٠٠ ألف لاجىء فلسطيني من مجموع ٩٠٠ر٠٠٠ الف الى وطنهم مقابل الحصول على صلح مع العرب ، عبرت الحكومة الاسرائيلية عن رفضها القاطع لعودة حتى مثل هذا العدد الضئيل ! واقترحت فيما بعد

ما اسمته « بجمع شمل العائلات » حيث قبلت عودة بضعة الاف من الفلسطينيين ، على هذا الاساس ، لعدد من السنوات ، ثم توقفت عن ذلك ٠

وقد جاء في مذكرة الحكومة الاسرائيلية الى لجنة التوفيق : « هل من المعقول اعادة خلق ذلك المجتمع الثنائي الذي ابتليت به الساحة الفلسطينية طويلا وادى في النهاية الى حرب مكشوفة ؟ ففي احسن الاحوال سينشأ وضع معقد وغير مستقر حيث يشترك في دولة واحدة شعبان او اكثر يختلفان في العنصر والدين واللغة والثقافة ٠ ان معظم الاوضاع الشبيهة بهذا الوضع قد حلت عن طريق الهجرة ، طوعا او قسرا ، وبموافقة دولية او بدونها ٠٠٠ ان المعالجة العقلانية الوحيدة هي دمج اللاجئين في تلك البلدان العربية التي تتسع لهم وحيث لا مجال لنشوء مشاكل ازدواجية العنصر والثقافة » !

مشروع بعثة كلاب للتحقيق الاقتصادي

انشأت لجنة التوفيق ، بعد حوالي ستة أشهر من تشكيلها « بعثة التحقيق الاقتصادي » المعروفة بلجنة كلاب في ٢٣ آب ١٩٤٩ ٠ وقد صيغت المهمات التي كلفت هذه اللجنة بطريقة تتيح لها البحث عن حلول لتوطين الفلسطينيين في نفس الوقت الذي تعترف فيه **لفظيا** بحقهم في العودة ٠ وبعد ان « نجحت » لجنة التوفيق في حمل الدول العربية واسرائيل على القبول « باساس مشترك » لتسوية القضية اللفسطينية في بروتوكول لوزان في ١٢ آذار ١٩٤٩ وبعد ادخال اسرائيل في عضوية الامم المتحدة في ١١ ايار ١٩٤٩ ، حددت لجنة التوفيق الفلسطينية مهمة بعثة التحقيق الاقتصادي وصلاحياتها ، (بناء على الصلاحيات المعطاة لها في المادة ١٢ من قرار هيئة الامم المتحدة في ١١ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨) ، في القرار الذي اتخذته بدورها بتاريخ ١ أيلول ١٩٤٩ ، والذي جاء فيه :

« ان لجنة التوفيق الفلسطينية ،

رغبة منها في تنفيذ الفقرتين ١٠ و ١١ من قرار الجمعية العامة رقم (٣) ١٩٤ بتاريخ ١١ كانون اول ١٩٤٨ ، وفي الحصول على المعلومات اللازمة لتصبح اساسا للتوصيات التي قد تقدمها للجمعية العامة او للدول الاعضاء وللوكالات المتخصصة والهيئات المعنية بالامر في سبيل اتخاذ اجراءات جديدة ، وبعد الاستماع الى تصريحات ممثلي اسرائيل والدول العربية بشأن عودة اللاجئين وتوطينهم والتعويض عليهم ٠

(١) وبناء على الصلاحيات المعطاة لها بموجب الفقرة ١٢ من القرار المشار اليه ، تؤسس برعايتها ، بعثة تحقيق اقتصادية للتحقيق في الاوضاع الاقتصادية

في البلدان التي تأثرت « بالنزاع » (!) الذي دارت رحاه في الاونة الاخيرة ، ولتقديم توصيات للجنة تمكنها من وضع برنامج مترابط شامل يرمي الى مـــا يلـــي :

أ ـ تمكين الحكومات المعنية بالامر من القيام بالاجراءات وبرامج التنميـــة اللازمة للتغلب على الازمة الاقتصادية التي خلقها النزاع ٠

ب ـ تيسير عودة اللاجئين وتوطينهم واستردادهم مكانتهم الاقتصاديـــة والاجتماعية ودفع التعويضات لهم ٠٠ وذلك في سبيل ادماجهم في حياة المنطقة الاقتصادية على اساس الاعتماد على النفس في اقصر وقت ممكن ٠

ج ـ اقامة الاوضاع الاقتصادية التي من شأنها ارساء قواعد الســـــلام والاستقرار في المنطقـة ٠

(٢) تأمر بعثة التحقيق الاقتصادي بأن تضمن توصياتها خطة عملية لتنفيذ البرامج الموصى بها ، وتقديرا تقريبيا لنفقات هذه البرامج ، وتوصيات بأساليب تغطية هذه النفقات » (٥) ٠

وقد جاء في البند (٣) « و ـ دراسة موضوع التعويض على اللاجئين عـن املاك اولئك الذين لا يعودون الى ديارهم (!) وعن الخسائر والاضرار اللاحقة بالمتلكات ، بالاشارة بصورة خاصة الى الصلة القائمة بين مشاريع الاسكان المقترحة وهذه التعويضات » (٦) ٠

وبدورها قامت بعثة التحقيق الاقتصادية (المعروفة بلجنة كلاب) ، برفـــع تقرير اولي في ٦ تشرين الثاني ١٩٤٩ وتقرير نهائـــي في ٢٨ كانـــون اول ١٩٤٩ ٠ وقد جاء في مقدمة التقرير الاولي ، الذي يتجاهل الطابع السياســي للمشكلة الفلسطينية ويركز على الطابع الاقتصادي الناجم عن تهجير واقتلاع الفلسطينيين ما يلي : « اقرارا منها بأن شقاء اللاجئين هو في آن واحد أحـــد اعراض عدم الاستقرار الاقتصادي وسبب من اسبابه (!) ، فان البعثة توصي في هذه التقرير الاولي بأن يصار الى اتخاذ اجراءات من شأنها وضع برنامـــج للاشغال العامة المفيدة والتي تعمل على توفير فرص العمل للاجئين القادريـــن على العمل ، وذلك كخطوة اولى نحو استرداد مكانتهم ، وبأن يصار في الوقت عينه الى الاستمرار في تقديم الغوث طوال السنة القادمة للاجئين المعوزين ٠

وان الغرض من هذه التوصيات هو تلطيف (!) حدة الازمة بواسطة العمـل البناء ، وتنقيص مدى مشكلة الفلسطينيين وضبطها (!) ضمن حدود تستطيـع فيها حكومات الشرق الادنى ان تتحمل ما تبقى من مسؤوليات تجاههم ٠٠ ان العقدة القائمة في العلاقات بين اسرائيل والبلدان العربية « تمنع الوصول الى حل سريع لقضية اللاجئين عن طريق العودة او الاسكان على نطاق واسع » ٠

(و) من الممكن ايجاد عمل للاجئين القادرين على الشغل والراغبين فيه ٠ فهناك فرص عديدة للعمل في تحسين الاراضي واستصلاحها ، وفي زيادة المياه المتوافرة للري ، وتحسين الطرقات وتوسيع شبكاتها ، وتحسين وسائل العناية الصحية والمساكن » (٧) ٠

وقد تقدمت لجنة كلاب بثلاث توصيات في تقريرها الاولي هي :

« ١ ـ يجب الاستمرار في برنامج الاغاثة الطارىء ـ الذي تقوم بنفقاته الدول الاعضاء في الامم المتحدة عن طريق تبرعاتها حتى اول نيسان ١٩٥٠ ٠٠ ويجب ان يظل ما تقدمه الامم المتحدة للاجىء الواحد بموجب هذا البرنامج ـ وهو حد ادنى ـ على ما هو عليه ٠ الا ان عدد اللاجئين المستفيدين من الاغاثة يجب ان يتناقص تدرجا ، بحيث لا يتلقى المعونة ، بعد أول كانون الثاني ١٩٥٠ سوى ٦٥٢ الفا بدلا من ٩٤٠ الفا . كما هو الحال الان (!) ويجب ان يستمر التخفيض في عدد اللاجئين الذين يتلقون المعونة ، بالنسبة الى زيادة عدد اللاجئين وفق برنامج الاشغال العامة المقترح ٠

٢ ـ يجب دمج برنامج الاستمرار في المعونة المتفائلة ، وبرنامج الاشغال العامة الرامي الى تنمية القدرة الانتاجية في المنطقة ، في عملية واحدة ، تشترك فيها حكومات البلدان التي يقيم فيها اللاجئون ٠٠

٣ ـ يجب انشاء هيئة جديدة تتولى تنظيم هذه العملية المشتركة ـ عملية الاغاثة والتشغيل ـ ابتداء من اول نيسان ١٩٥٠ » (٨) ٠

اما التقرير النهائي للجنة كلاب الصادر في ٢٨ كانون الاول ١٩٤٩ فقد جاء في مقدمته :

« ان التقرير الحاضر ، وعنوانه « طريقة لتنمية الشرق الاوسط اقتصاديا » هو تقريرنا النهائي ، وهو لا يعالج مباشرة قضية اللاجئين الفلسطينيين (!) بيد أن العقبات التي تعترض التنمية الاقتصادية في الشرق الاوسط تشبه الى حد بعيد العقبات التي تعترض استرداد اللاجئين العرب مكانتهم وحياتهم الطبيعية ٠

فاللاجئون العرب ، في غالبيتهم ، عمال زراعيون ، يختلفون في خبرتهم ومهارتهم ، ويشتركون في انهم الان دون ارض ودون عمل ٠ والذين منهم غير زراعيين ، كانوا في الاحوال العادية يرتزقون من خدمة حاجات الزراعيين منهم ، فباتوا هم ، ايضا ، دون موارد رزق ٠ وينطبق هذا القول ، ايضا ، على الكثيرين من ابناء البلاد العربية التي هرب اليها اللاجئون ٠

اذن ، فحل مشكلة الفقر والبطالة بين اللاجئين لا يتجزأ عن حل مشكلة البطالة والجوع بين فئات واسعة من ابناء الشرق الاوسط ٠٠ ان التقدم الاقتصادي في البلدان التي تعتمد احداها على الاخرى اعتمادا متبادلا يتطلب السلام بين هذه

البلدان المتجاورة ٠٠ » (٩)

ولكننا نتساءل بدورنا عن دور الاستعمار في بقاء البلدان العربية في حالــة من التخلف ،وفي اسباب فرضه لدولة اسرائيل في المنطقة ككابح ومهدد لايةقوى سياسية تسعى الى التخلص من دائرة التبعية للامبريالية ، وبالتالي التخلف ، وشق طريق الاستقلال السايسي والاقتصادي والتنمية الحقيقية ٠ الا يتناقض وجود اسرائيل مع تطور وتنمية المنطقة العربية المحيطة بها ، لما تمثله من دور عدواني عسكري يعمل على خدمة المخطط الامبريالي وابقاء هيمنته الاقتصادية والسياسية والحفاظ على الطبقات الرجعية التي تخدم مصالحه ؟

صحيح انه لا يمكن لبلدان متخلفة اقتصاديا واجتماعية ان تستوعب طاقـــة عمل سكانها انفسهم . فكيف في حال تدفق اعداد جديدة نحو هذه البلدان وقد جرى اقتلاعهم بالقوة من أرضهـــم ؟

ان استيعاب اي فئات مهاجرة جديدة يتطلب على الصعيد الاقتصادي مستوى اعلى من التطور ٠ فسكان البلاد العربية انفسهم ، بفعل السيطرة الامبرياليـة وما تفرزه من تخلف وهيمنة طبقات طفيلية او برجوازية محلية مترابطة المصالح مع السوق الامبريالي العالمي ، يضطرون الى «الهجرة» سواء داخل بلدهم نفسه أو نحو البلدان العربية النفطية والدول الغربية والافريقية بحثا عن فرص العمل٠ فما يماثل عدد سكان لبنان الحالي منتشرون في بقاع مختلفة من العالم ، وكذلك الحال بالنسبة لقسم واسع من الشعوب العربية الاخرى ٠

لذا ، فان التنمية الحقيقية للبلدان العربية لا يمكن ان تتم على ايدي القوى الامبريالية مهما اتخذت من اشكال ، فما المقصود اذن « بتوفير فرص العمـل» و « التنمية » ؟

ان نوع المشاريع التي طرحتها هيئة الامم المتحدة او المبعوثون الامريكيون، لا تتعدى كونها مشاريع شق الطرقات وبناء المساكن والعمل الزراعي في وقت يهاجر فيه ابناء الريف نحو المدن ، بينما **التنمية الحقيقية تتطلب وجود صناعة قوية وزراعة متطورة مرتبطة بالصناعة** ، ولكن ذلك يتناقض مـــع المصالـــح الامبريالية نفسها والهدف من وراء اقامة الكيان الصهيوني نفسه لما يمثله على هذا الصعيد من استنزاف وضغط وتهديد للقوى التي تحاول الخروج عندائرة السيطرة الامبريالية . وقد نجحت اسرائيل في لعب هذا الدور ، حتـى الآن ، بفعل نوع القوى الطبقية البرجوازية التي واجهتها والاخذة الان في الافول ٠

ونظرة سريعة على طبيعة المشاريع الاقتصادية التي جرى طرحها يوضح اي نوع من التنمية المطلوب دعمه ٠ وهو اطلاق حركة تشغيل لا تخدم عملية تطور القوى المنتجة بصورة فاعلة ٠

والواقع ان بعثة التحقيق الاقتصادي (لجنة كلاب) « لم يكن يهمها حل مشاكل الشرق الاوسط بمقدار ما كان يهمها نفض يد الامم المتحدة من هذه المشكلة في اقرب وقت واسدال الستار على مأساة الفلسطينيين باعتبارها حدثا من الماضي، ولهذا لم يقدر لبرنامج التشغيل الذي اوصت به واشرفت عليه وكالة الاغاثة ان ينجح ، وبدأت وكالة الاغاثة ، بعد اكتشافها فشل مشاريع التشغيل ، في البحث عن مشاريع بديلة للتوطين الدائم · وقد توصلت الوكالة الى مشروعين اساسيين ، بنت عليهما آمالا كبيرة وهما مشروع وادي الاردن ، ومشروع سيناء » (١٠) ·

فنتيجة لتوصيات لجنة كلاب التي عنها انبثقت وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين ، رؤي منذ شهر مايو ١٩٥٠ ان يصار الى تبني سياسة « **عمل غوثي** » للفترة المنتهية باخر يونيو ١٩٥٢ **تتضمن تنفيذ مشاريع عمرانية عامة** في البلدان المضيفة كشق الطرق والتحريج وبناء الآبار وحفر أقنية الري وتشييد ابنية للمدارس يعمل فيها اللاجئون ويجنون منها دخلا يؤدي الى تحسن احوالهم المادية ورفع معنوياتهم ·· فتفيد البلدان المضيفة من المنشآت والخدمات المنبثقة عن المشاريع وتنتعش اسواقها نتيجة صرفيات الوكالة وانفاق اللاجئين من دخلهم الجديد · كذلك رؤي ان يتضمن برنامج « العمل الغوثي » تنفيذ مشاريع صغيرة تقوم بها جماعات صغيرة من اللاجئين ذوي الحرف كالنجارة والخياطة والحدادة وصنع الاحذية والحصائر · غير ان هذه المشاريع ــ كبراها وصغراها ــ لم تأت بالفائدة المرجوة · فقد قاوم اللاجئون الكبرى منها ورفضوا الاشتراك بتنفيذها ·· وعلى كل حال لم يفد من المشاريع سوى نسبة ضئيلة جدا من القادرين على العمل بلغت في الذروة سبعة بالمائة لفترة شهر او اقل · واعترضت سبيل المشاريع ، بالاضافة الى صفاتها الداخلية . عقبات ادارية بيروقراطية في علاقات الوكالة في البلدان المضيفة التي كان عليها ان توافق على تصاميم المشاريع وتساهم بخمسة واربعين بالمائة من كلفة المعدات والمواد اللازمة نقدا او عينا مساهمة قدر مجموعها بستة ملايين دولار للفترة الواقعة بين مايو ١٩٥٠ ويونيو ١٩٥١ · ومن الناحية الاخرى ظهر أن المشاريع الصغرى كانت تكلف الوكالة في المعدل خمسة اضعاف ما تكلفها الاغاثة المباشرة للشخص الواحد · وثبت ان معظم هذه المشاريع عاجز عن الاستقلال اقتصاديا والاستغناء عن اعانة الوكالة ·· » (١١)

ثم اعتمدت الوكالة سياسة جديدة ، سياسة **منح قروض صغيرة للمساعدة على « اندماج » اللاجئين** باقتصاديات البلاد المجاورة ، وقد تضمنت هذه السياسة توكيدا واضحا على اهمية التدريب المهني ، وقد خصص لهذا البرنامج صندوق خاص بمبلغ ثلاثة ملايين دولار تنتهي في آخر يونيو ١٩٥٢ ·

وقد ثبت ، أيضا ، محدودية وفشل هذا البرنامج ، فتقدمت وكالة الاغاثة

والتشغيل بمقترحات جديدة اقرتها هيئة الامم المتحدة في يناير ١٩٥٢ باتخاذ قرار باعتماد ٢٥٠ مليون دولار لثلاث سنوات اعتبارا من يوليو ١٩٥٢ لينفق منها خمسون مليونا على مستلزمات الاغاثة المباشرة والباقي على مشاريع انمائية في الزراعة والصناعة والخدمات والتدريب المهني وتشييد المساكن ، بحيث يتناقص مستوى الانفاق على الاغاثة كلما ارتفع مستوى الانفاق الانمائي. وقد قامت الوكالة بدراسات اقتصادية وتقنية تمهيدا لتنفيذ مثل هذه المشاريع التي سنأتي على ذكر ابرزها : « وقد افترض في اعتماد سياسة « الانماء » هذه امران : اولا ضرورة وامكان نقل قسم من اللاجئين من الاماكن التي يكتظون بها فوق مكنتها الاستيعابية كغزة ولبنان والاردن الغربي الى اماكن في مقدورها توفير المجالات الاقتصادية الرحبة كسوريا والعراق ، وثانيا تنسيق برامج الوكالة مع أية برامج انمائية كبرى او كلية تقوم بها البلدان المنوي تطبيق برامج الوكالة فيها » (١٢) .

مشروع وادي الاردن

في عام ١٩٤٩ ابدت الحكومة الاردنية اهتماما للاستفادة من مياه نهر الاردن لري وادي الاردن . فكلفت شركة انجليزية لدراسة المشروع (مشروع اليرموك) . وقد اهتمت وكالة الغوث بالدراسات وقررت مشاركة الحكومة في السعي لتمويل وانجاز هذا المشروع . « وكان شرط الوكالة للمساهمة في هذا المشروع هو اعطاء الاراضي المستصلحة للاجئين الذين يحملون بطاقات الاعاشة ، حتى تتمكن الوكالة من تخفيض عدد اللاجئين . وكان عدد اللاجئين الذين يعيشون في الغور عام ١٩٥٤ ٠٥٧ر٩٣ شخصا ويعادلون نسبة ٦٤٪ من مجموع سكان الغور و ٢٠٪ من مجموع اللاجئين في الاردن ، ومن هؤلاء كان ٧٦٧ر٣٣ يعيشون في الغور الشرقي و ٢٩٠ر٥٩ في الغور الغربي . وكان هذا المشروع يسمح بري واستصلاح ٤٦١٠٠٠ دونم .. ويستطيع اعالة ٠٠٠ر١١٥ شخص بينهم ٠٠٠ر٧٩ لاجيء يضافون الى ٠٠٠ر٣٦ شخص من سكان الغور. ومما يجدر ذكره ان ثمار هذا المشروع لا يمكن قطفها كاملة الا بعد مضي عشر سنوات على الانتهاء من المشروع . غير ان التطورات السياسية التي حدثت خلال سنوات بداية الخمسينات ، ومعارضة اسرائيل لهذا المشروع على اعتبار انه يعرقل مخططاتها في الاستفادة من النهر ، دفعت بالولايات المتحدة ، التي كانت تعمل حتى الآن من وراء وكالة الغوث ، الى ان تتدخل مباشرة وتعرض مشروعا جديدا سمي بمشروع جونستون . وكان هذا المشروع يستهدف وضع خطة موحدة (بين العرب واسرائيل) لاستغلال مياه الاردن . ولكن المشروع جوبه بمعارضة قوية على المستوى الشعبي الرسمي . » (١٣)

مشروع سينـاء

عاش الفلسطينيون اللاجئون في غزة أوضاعا رهيبة من البؤس والاكتظـاظ السكاني الهائل ، ومن انعدام شبه كامل للموارد ٠ وكانت الوكالة تجري عمليات البحث عن المياه في شبه جزيرة سيناء لتوطين قسم آخر من الفلسطينيين ٠وقد وافقت الحكومة المصرية عام ١٩٥١ على قبول ٥٠٠٠ر٥ لاجىء فـــي سيناء ٠ « وفي الثلاثين من حزيران ١٩٥٣ وقعت الحكومة المصرية اتفاقا مع وكالـــة الغوث يقتضي الوكالة بموجبه ان تخصص من صندوق اعادة التأهيل ٣٠ مليون دولار ٠ وفي ١٤ تشرين الاول ١٩٥٣ توصلت الوكالة مع الحكومة المصرية الى اتفاق محدد تقدم مصر بموجبه ٠٠٠ر٢٣٠ فدان من الاراضي الصحراويـــة للوكالة ، لاجراء اختبارات ٠٠٠ وكان من المقـــدر ان تعيل هــذه المساحـــة ٠٠٠ر١٠ ــ ٠٠٠ر١٢ عائلة من عائلات اللاجئين اي ما مجموعه ٠٠٠ر٥٠ ــ ٠٠٠ر٧٠ شخص من قطاع غزة ٠ غير ان هذا المشروع كغيره من مشاريـــــع التوطين جوبه بمقاومة حادة وعنيفة من قبل الفلسطينيين في قطاع غزة ، ولـم تعد الحكومة المصرية تعيره اهتماما بعد العدوان الثـــلاثي على مصر عـــام ١٩٥٦ ٠ » (١٤)

وقد خرجت جماهير غزة عام ١٩٥٥ في تظاهرات هائجة تعلن رفضهـــــا للمشروع ، وفي هذه التظاهرات احرقت مخازن الوكالة ومكاتبها ٠

مشروعات التوطين في سوريـا

اتفقت وكالة الغوث مع الحكومة السورية في ١٣ تشرين اول ١٩٥٢ علـى تخصيص مبلغ ٣٠ مليون دولار للقيام بمشروعات تستهدف « اعادة تأهـيل » الفلسطينيين في سوريا ٠ ومن هذا المبلغ خصص ٢٤ مليون دولار للمشاريـع الزراعية ! ولكن هذه المشاريع بقيت في حيز مرحلة التجارب ، فالارض التـي وضعتها الحكومة السورية تحت تصرف الوكالة لاجراء التجارب عليها كانـت ارضا ذات ملوحة عالية ولم يكن بالامكان استخراج مياه جوفيه بمقادير كافية٠ والمنطقتان التي وضعتهما الحكومة السورية تحت تصرف الوكالة هما سهـــل رمضان ومساحته ٠٠٠ر١٦٠ دونم ، وقطعة ارض صغيرة اخرى تبلغ مساحتها ١٧٠٠ دونـــم ٠

البرامج الصغيرة الاخرى

اضافة الى هذه المشاريع التصفوية الكبيرة وبالترافق معها ، قامت الوكالة بمجموعة من البرامج والمشاريع الصغيرة التي تميزت بطابعها الفردي والقصير

الاجل · وقد بلغ مجموع هذه البرامج ١٠١ برنامجا في الاردن وسوريا ولبنان ومصر وغزة والعراق · وقد جرى انفاق مبلغ حوالي ٦ ملايين دولار حتى ٣٠ـ٦ـ١٩٥٥ ·

وأهم هذه المشاريع التي سبق ان ذكرنا بعضها بايجاز :

أ ـ « تقديم المساعدات المالية للراغبين في الهجرة الى البلدان الاجنبية وخاصة أميركا الشمالية والجنوبية · وقد استطعنا احصاء ٥٤٠٣ افراد قامت الوكالة بتقديم تكاليف السفر لهم خلال سنوات ٥١/٥٢ ـ ٦١/٦٢ ، حين اوقفت الوكالة تقديم هذا البرنامج · وكانت الولايات المتحدة قد اصدرت قانونا عام ١٩٥٣ يقضي بمنح ٢٠٠٠ تأشيرة هجرة سنويا للاجئين ·

ب ـ عقدت الوكالة مع الحكومة الليبية اتفاقا بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ ، يقضي بأن تسمح الحكومة·الليبية لعدد من اللاجئين بالهجرة الى ليبيا على اساس ان يعتمدوا على انفسهم ، وفي الوقت المناسب تمنحهم « ألحقوق والامتيازات » التي يتمتع بها المواطنون الليبيون · وكان العدد الذي اتفق عليه عليه هو ١٢٠٠ عائلة ، وعدد افرادها ٦٠٠٠ فرد ·

جـ ـ انشأت الوكالة مكتبا للتوظيف للقيام بالاتصال بالشركات والحكومات لمعرفة احتياجاتهم الى الموظفين والمستخدمين ، بحيث يتم عبر هذا المكتب توظيف الفلسطينيين المؤهلين والراغبين منهم في العمل · وقد عمل هذا المكتب على توظيف اعداد كبيرة من الفلسطينيين وخاصة في بلدان النفط ·

د ـ قامت الوكالة بمنح عدد من ذوي الحرف والمهن قروضا صغيرة ··

جـ ـ افتتحت الوكالة في عام ١٩٥٣ مركزين للتدريب المهني في كل من الاردن وغزة لتأهيل الشباب للعمل في المجالات المتاحة وخاصة في بلدان النفط » (١٥) ·

بيان دالاس في التمهيد لمشروع جونستون

في ربيع ١٩٥٢ قام دالاس وزير الخارجية الامريكية بجولة في بلدان الشرق الاوسط ، وقد قدم دالاس ، في ١ حزيران من نفس العام ، تقريرا عن جولته تطرق فيه الى قضية اللاجئين الفلسطينيين · ومما جاء فيه :

« وعلى مقربة من اسرائيل يتجمع العدد الاكبر من اللاجئين العرب ، وعددهم نيف و ٨٠٠ ألف ، وهم الذين هربوا من فلسطين عندما استولى عليها الاسرائيليون ··· ان بعض هؤلاء اللاجئين يمكن اسكانهم في المنطقة التي تحتلها اسرائيل حاليا (!) لكن غالبيتهم تستطيع بصورة اجدى ان تدمج في حياة البلدان العربية المجاورة · بيد ان هذا يعتمد على مشاريع الري التي

يمكن بواسطتها استثمار اراض جديدة · ففي طول المنطقة وعرضها ، نجد ان الحاجة الكبرى هي الى الماء · وتتوافر اموال الامم المتحدة ، واموال اخرى ايضا ، لمساعدة اللاجئين ··· هذه الاموال يمكن انفاق القسم الاكبر منها في سبيل استثمار الانهر التي تمر في البلدان العربية واسرائيل استثمارا منسقا » ! (١٦)

ويلاحظ د· فايز صايغ ان هذه السياسة الامريكية ترتكز على القواعد التالية:

١ ــ التخلي عن فكرة العودة ، الا للقليلين من اللاجئين ·

٢ ــ ادماج السواد الاعظم من الفلسطينيين ، وحصر قضيتهم في النطاق الاقتصادي وربطها « بالتنمية » الاقتصادية الزراعية في المنطقة العربية ·

٣ ــ اقتراح مشاريع ري مشتركة تقوم بها البلدان العربية واسرائيل معا ·· بواسطة معونات مالية من الخارج · وقد مهد تقرير دالاس هذا لمشروع جونستون ·

مشروع جونستون ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥

ويستهدف هذا المشروع ، كما هو مبين ،معالجة ،او بمعنى ادق ،تصفية قضية اللاجئين ، وقضية فلسطين برمتها ، عن طريق تعاون الدول العربية واسرائيل في استثمار مياه نهر الاردن استثمارا مشتركا ·

وقد بدأ اريك جونستون مبعوث ايزنهاور زياراته للمنطقة في تشرين اول ١٩٥٣ ، ثم عاد الى زيارتها ثلاث مرات اخرى ، كانت اخرها في خريف ١٩٥٥·

ويتضح الاستمرار في السياسة الامريكية ، في ان قواعد مشروع جونستون كانت قد ارسيت في عهد ترومان · ففي عام ١٩٥٢ عهدت وكالة الاغاثة الى ادارة وادي تنسي الامريكية التي يشرف عليها جوردون كلاب ، بوضع خطط لاستثمار مياه نهر الاردن استثمارا مشتركا موحدا · وعهدت هذه بدورها الى شركة شارل مين لوضع المخطط الهندسي فأنهته في ٣١ اب ١٩٥٣ ، وتم بعد ذلك ايفاد اريك جونستون الى المنطقة في تشرين الاول للقيام بالمفاوضات والوساطات اللازمة بين الدول العربية واسرائيل « للقبول بفكرة التعاون على استثمار مياه نهر الاردن » ·

وقد جاء في مقدمة الدراسة الهندسية التي كتبها جوردون كلاب نفسه ··· ما يلي :

« ان هذا التقرير يصف العناصر التي يتألف منها تنظيم فعال لادارة المياه التي تتوافر في نهر الاردن · ولا يعير هذا التقرير اي اهتمام للاعتبارات السياسية ،

كما انه لا يحاول قط ان يكيف مقترحاته وفقا للحدود السياسية الراهنة » (١٧) ٠

وقد اطلق على هذا المشروع « مشروع الانماء الموحد لموارد مياه نهر الاردن » ٠

« ونورد فيما يلي خلاصة عن مشروع « جونستون » ٠٠٠ :

(أ) ينفذ المشروع على خمس مراحل ، تستغرق كل مرحلة منها سنتين او ثلاثا ، وتقدر تكاليف المشروع بنحو مائة وثلاثين مليون دولار ، ينفق منها نحو ثلاثين في المئة على توليد الطاقة الكهربائية وبناء محطاتها ٠

(ب) انشاء خزان على بعد نحو عشرين كيلو مترا من ملتقى نهر الحاصباني بنهر الاردن في منطقة واقعة شرق قرية (ابل السقي) اللبنانية ، وفي هـذا الخزان تجمع مياه النهر في فصل الشتاء وتقدر بنحو مائة وثلاثين مليون متر مكعب في العام ، وتوزع في الشهور التي تمس الحاجة فيها الى المياه للري ٠ وبواسطة هذا الخزان يصبح في الاستطاعة التحكم نسبيا في مياه القسم العلوي من نهر الاردن التي تصب في بحيرة الحولة ٠ وتشق قناة تتفرع من هذا الخزان الى قرب مستعمرة « تل حي » (في فلسطين المحتلة) تنشأ عليها محطة لتوليد القوة الكهربائية ثم تجري منها المياه الى القناة الاساسية التي ستزود منطقة جبال الجليل بالمياه ٠

(ج) انشاء سد على ملتقى مياه نهر « دان » بالقناة الاساسية في الجليل لتحويل مياد نهر دان وتل قاضي الى تلك القناة ٠

(د) انشاء سد اخر بالقرب من قرية عين الحمراء (في فلسطين المحتلة) لتحويل مياه نهر بانياس الى القناة الاساسية لري منطقة جبال الجليل ٠

(هـ) انشاء قناة اساسية طولها مائة وعشرون كيلو مترا تتحول اليها مياه نهر بانياس ونهر دان ومنابع تل القاضي ومياه القسم الذي يقع تحت السد في نهر الحاصباني ٠ وتسير المياه في هذه القناة جنوبا حتى تصل الى غرب مدينة طبرية ٠ وتتفرع عن هذه القناة الاساسية أقنية فرعية طولها نحو مائة وعشرة كيلو مترات لري جبال الجليل ومرج ابن عامر ٠

(و) تجفيف المستنقعات الواقعة شمالي بحيرة الحولة واستغلالها بعد ذلك في زراعة الحبوب ، وانشاء قنوات محلية في تلك المنطقة ، وتوسيع مخرج المياه من بحيرة الحولة ٠

(ز) زيادة مترين في ارتفاع السد القائم على نهر الاردن عند خروجه من بحيرة طبرية لزيادة تخزين المياه ٠٠

(ح) انشاء قناتين من سد بحيرة طبرية ، الاولى لري جميع اراضي الغور

الغربي من بحيرة طبرية الى البحر الميت · ويبلغ طولها نحو مائة كيلو متر (عدا الاقنية التي تتفرع عنها) · أما القناة الاخرى فالغرض منها نقل المياه من بحيرة طبرية الى الغور الشرقي في اوقات الجفاف ·

(ط) انشاء قناة تبدأ من سد نهر اليرموك قرب قرية العدسية (في الاردن) تستخدم مياهه في توليد الكهرباء بواسطة محطة تقام قرب القرية المذكورة وتحول منها مياه النهر الى بحيرة طبرية ·

(ك) انشاء سد ومحطة كهربائية لمياه اليرموك قرب محطة (المقارن) في الاردن لتنمية المياه في خزان بحيرة طبرية » (١٨) ·

وقد شكلت الحكومات العربية التالية : المصرية والسورية واللبنانية والاردنية لجنة فنية من الخبراء العرب لدراسة هذا المشروع وابداء رأيهم فيه ·

وفيما يلي اعتراضات لجنة الخبراء العرب على المشروع :

« اولا : رفضت لجنة الخبراء العرب مبدأ تخزين مياه نهر اليرموك في بحيرة طبرية لان اكثر هذه البحيرة تحت اشراف السلطة اليهودية ، بينما تنبع هذه المياه من اراض عربية ··

ثانيا : فيما يتعلق بانشاء سد (المقارن) على نهر اليرموك يقترح مشروع جونستون جعل هذا السد بارتفاع ٥٨ مترا لحجز ٧٢ مليون متر مكعب من الماء وتصريف بقية المياه الى بحيرة طبرية ، على ان يكون في الامكان زيادة تعلية السد الى ٩٥ مترا في المستقبل لحجز ١٩٥ مليون متر مكعب اذا دعت الحاجة الى تخزين كمية اكبر من المياه لري الاراضي · ويبدو ان الغاية من ذلك ان لا يتكلف مشروع جونستون الانفاق على تعلية السد وزيادة التخزين وان تقوم بالنفقات الحكومتان السورية والاردنية كل منهما من ميزانيتها الخاصة · ولذلك اعترضت لجنة الخبراء العرب على هذا الاقتراح وطالبت بانشاء السد على نهر اليرموك بارتفاع ١٥٠ مترا في الحال لحجز ٤٠٠ مليون متر مكعب من الماء للاستفادة منها في ري الاراضي وفي توليد الكهرباء ·

ثالثا : يقترح مشروع جونستون ان تكون محطة توليد القوة الكهربائية في العدسية (الاردن) بقوة ٢٣ الف كيلووات ــ على ان تزداد قوتها الى ٢٨ ألف كيلووات اذا زاد ارتفاع السد ، ولكنه يرجىء امر انشاء هذه المحطة بحجة ان الاردن في غير حاجة اليها الان · ويبدو ان سبب الارجاء هو توفير تكاليف انشائها وتحميل التكاليف على عاتق الحكومة الاردنية اذا ما رغبت في انشائها في المستقبل ··

رابعا : اعترضت لجنة الخبراء العرب على اقتراح مشروع جونستون انشاء

محطة توليد الطاقة الكهربائية من مياه نهر الحاصباني في مستعمرة (تل حي) اليهودية وحرمانه لبنان من الاستفادة منها ، وطالبت بانشاء هذه المحطة في الاراضي اللبنانية ، واعطاء اليهود ما يزيد عن حاجة لبنان من الكهرباء .

خامسا : بموجب مشروع جونستون لا تستطيع سورية ان تروي اكثر من ثلاثين الف دونم من الاراضي الزراعية من مياه نهر اليرموك ، كما ان المشروع يحرمها من اي استفادة من مياه بانياس ودان وتل القاضي في ري اي مساحة من الارض ، على حين قررت لجنة الخبراء العرب ان سورية تستطيع ان تروي ما مساحته ٦٨ الف دونم من مياه نهر اليرموك و٢٠ الف دونم من مياه نهر بانياس و ٢٢ الف دونم في البطيحة من مياه نهر الاردن .

سادسا : بينما يحرم مشروع جونستون الاراضي اللبنانية من أية سقاية من مياه نهر الحاصباني بعد انشاء سد عليه ونقل مياهه الى المنطقة اليهودية . تقرر لجنة الخبراء العرب ان في الاستطاعة ري ثلاثين الف دونم من الاراضي اللبنانية من مياه هذا النهر » (١٩) .

وقد ارتفعت اصوات الاحتجاج العربية الشعبية والرسمية تطالب برفض مشروع جونستون ، وكان « الفلسطينيون اول من رفع صوته باستنكارها واخر قرار لهم برفض مشروعات جونستون هو القرار الذي اتخذه مؤتمر اللاجئين المنعقد في القدس في ٢٠ يوليو ١٩٥٥ » (٢٠) .

الموقف الفلسطيني من مشروع جونستون

وفي ما يلي نص القرار الذي اتخذه بالاجماع مؤتمر اللاجئين الفلسطينيين الذي انعقد في القدس يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٥ :

« يرفض اللاجئون كل مشروع او تفكير يرمي الى تصفية قضية اللاجئين وحل قضية فلسطين حلا لا يحقق المطالب الوطنية . كما يرفضون مشاريع الاسكان ومشروع جونستون الذي يؤدي في النهاية الى عقد صلح مع اسرائيل او التعاون معها » (٢١) .

وقد اصدرت اللجنة التنفيذية لمؤتمر اللاجئين في قطاع غزة بدورها مذكرة ارسلتها الى رؤساء الحكومات العربية ، مما جاء في هذه المذكرة : « ان دولة اسرائيل ما هي الا بذرة الاستعمار الانجلو ـ أمريكي في البلاد العربية ولن يكون نضال العرب نضالا صحيحا منبعثا عن الاماني القومية للامة العربية الا اذا حاربنا الاصل والفرع والذين امدوا اسرائيل بالحياة ولا يزالون يمدونها . وان في معاونة الاستعمار او مهادنته تدعيما لاسرائيل وتثبيتا لاركانها وتقوية لبنائها وها هو الاستعمار يأتي بمشروع جونستون الذي اعد لتوطين عرب

فلسطين في البلاد العربية ولاعطاء اسرائيل كميات كبيرة من المياه العربية لاستصلاح الارض المغتصبة لكي تتسع ليهود اخرين يجلبون اليها من مختلف بقاع العالم فاذا ما وافقت الدول العربيّة على مشروع جونستون وامثاله الذي يرفضه عرب فلسطين انما تكون :

١ ـ قد باعدت بين عرب فلسطين وعودتهم الى بلادهم بتوطينهم في البلاد العربية ٠

٢ ـ قد قضت على قرارات هيئة الامم المتحدة بخصوص فلسطين ٠

٣ ـ قد قوت اسرائيل بجلب امدادات جديدة من الرجال تكون مادة هـذه الدولة لتلتهم بلدا بعد اخر من البلاد العربية حتى يتحقق الحلم وتصبح اسرائيل من الفرات الى النيل ، فالموافقة على مشروع جونستون واشباهه من مشاريع الاستعمار لا تقضي به الدول العربية على فلسطين بالاندثار من الوجود فحسب بل تقضي به كل دولة من هذه الدول بالاعدام على شعبها بالذات » ٠٠(٢٢)

وقد اصدر كل من حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي في فلسطين والاردن،والهيئة العربية العليا لفلسطين عدة بيانات ومذكرات ترفض هذا المشروع وتوضح رأيهـا فيه ٠

بيان دالاس الثاني والتمهيد لمشروع ايزنهاور

وفي ٢٦ اب ١٩٥٥ القى دالاس خطابا خطيرا حدد فيه سياسة اميركا تجـاه القضية الفلسطينية من دون لبس او ابهام ٠ فقضية فلسطين في نظره هي قضية اللاجئين ، التي ينبغي حلها عن طريق التوطين ، وهي قضية الخوف المتبـادل والحدود ٠ وبصدد قضية اللاجئين قال دالاس : « لانهاء مأساة التسعمائة ألف لاجىء ، لا بد لهؤلاء المشردين من ان يستعيدوا حياتهم الكريمـة عن طريـق التوطين ـ وعن طريق العودة الى الحد الممكن ٠

ولهذا الغرض يجب استصلاح اراض جديدة يستطيع اللاجئون ان يقيموا فيها بيوتا دائمة لانفسهم ، وان يعيلوا انفسهم عن طريق عملهم هم ٠ ولحسن الحظ، فهناك مشاريع عملية للتنمية المائية يمكن تحقيق هذا الغرض بواسطتها ٠ ولكن هذا يتطلب المال ٠ وعلى اسرائيل ان تقدم تعويضات للاجئين ٠ الا ان اسرائيل قد تكون عاجزة عن تقديم التعويضات الكافية دون مساعدة من الخارج ٠ فاذا كانت الحالة هكذا ، فقد يصار الى اعطاء قرض مالي لاسرائيل لتمكينها من دفع التعويضات المتوجبة عليها ، الامر الذي بدوره يمكن الكثيرين من اللاجئين من ايجاد حياة افضل لانفسهم ٠

وان الرئيس ايزنهاور على استعداد لان يوصي باسهام الولايات المتحدة اسهاما بالغا في مثل هذا القرض لهذا الغرض . كما انه على استعداد ايضا لان يوصي باسهام الولايات المتحدة في تحقيق مشاريع التنمية المالية ومشاريع الري التي من شأنها ان تيسر ، مداورة او مباشرة ، توطين اللاجئين .

وواضح ان هذه المشاريع لا تقتصر فائدتها على توطين اللاجئين ، بل انها تساعد شعوب المنطقة كلها في التمتع بحياة افضل . فضلا عن ان حل قضية اللاجئين من شأنه ان يزيل اسباب القتال على الحدود » (٢٣) .

مشروعا ايزنهاور : كانون الثاني ١٩٥٧ وآب ١٩٥٨

تقدمت اميركا ، (على اثر تأزم الوضع السياسي في المنطقة بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦) في مطلع العام ١٩٥٧ ـ ٥ كانون الثاني ـ بمشروع ايزنهاور المعروف الذي ربط بين مقاومة الشيوعية وبين « التنمية » الاقتصادية . فكما ارتبط مشروع جونستون ، بصورة غير مباشرة ، بحلف بغداد الاستعماري بصورة غير مباشرة ، فان مشروع ايزنهاور يطرح المسألة بصورة اكثر مباشرة ووضوحا .

وبعد فشل المشروع الذي طرحه ايزنهاور عام ١٩٥٧ ، وبعد حوادث النصف الاول من عام ١٩٥٨ (الحرب الاهلية في لبنان التي نشبت من اجل مناهضة مشروع ايزنهاور ، وحدة مصر وسوريا ، وانقلاب بغداد الوطني) اعاد ايزنهاور طرح مشروع آخر تقدم به الى الدورة الاستثنائية الخاصة التي عقدتها الجمعية العامة بشأن الشرق الاوسط . وقد دعا ايزنهاور مشروعه « مخططا لسلام الشرق الادنى » ،وضمنه ستة مقترحات . ولم يشر ايزنهاور في خطابه الى قضية فلسطين ، او قضية اللاجئين ، بل شدد على ضرورة انشاء « مؤسسة تنمية عربية على اساس اقليمي » وذكر انه « بمساعدة الامم المتحدة تتاح الان فرصة فريدة لبلدان الشرق الاوسط لتجعل مصالح امنها ومصالحها السياسية والاقتصادية تتقدم بحرية » . وقد علق همرشولد على مشروع ايزنهاور قائلا « ان التقدم في انجاز المقترحات ، قد يخلق قاعدة لمعالجة مشكلة خطيرة من مشاكل المنطقة هي مشكلة اللاجئين الفلسطينيين » (٢٤) .

مشروع همرشولد

في الخامس عشر من حزيران ١٩٥٩ ، أصدرت الامانة العامة للامم المتحدة وثيقة رسمية تحمل رقم أ ـ ٤١٢١ ، موجهة الى الجمعية العامة في دور انعقادها العادي الرابع عشر . وكان عنوان الوثيقة التي تقدم بها همرشولد : « مقترحات

بشأن استمرار الامم المتحدة في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين » ٠

ويعتبر « تقرير همرشولد ٠٠ ليس تنفيذا لتعهده للجمعية العامة بأن يضع دراسة عن قضية اللاجئين ، بمقدار ما هو امتداد وتتمة للمشروع الذي قدمه الرئيس الامريكي ايزنهاور في ١٣ اب ١٩٥٨ اثناء الدورة الاستثنائية الخاصة التي عقدتها الجمعية في الصيف الماضي على اثر الحوادث في لبنان والاردن والعراق ٠٠٠ وقد انبثق ذانك البيانان (بيانا ايزنهاور وهمرشولد) عن رغبة في معالجة ازمات الشرق الاوسط السياسية (وهي غير مرتبطة ارتباطا مباشرا بالقضية الفلسطينية) ، بالاساليب والوسائل الاقتصادية » (٢٥) ٠

يقسم تقرير همرشولد منطقة الشرق الاوسط الى ثلاثة اقسام : (١) اسرائيل ، والبلدان العربية التي تنتج كميات وافرة من البترول (٢) والبلدان العربية التي لا تنتج البترول بكميات وافرة (٣) والبلدان التي ينعدم لديها ، « ويخلص التقرير الى القول بان اسرائيل تستطيع ان تحصل من الخارج ، بأساليبها الخاصة ، على الاموال اللازمة لنموها الاقتصادي ، نموا يأخذ بعين الاعتبار سكانها الحاليين والمهاجرين المتوقع ان يتدفقوا عليها ٠ واما البلدان العربية التي تنتج كميات وافرة من البترول ، فيذهب همرشولد الى أنها تستطيع ان تحصل من عائدات البترول على جميع ما تحتاج اليه من مال لتوفير نموها الاقتصادي ، بل انها قادرة على تمويل البلدان الاخرى في المنطقة ايضا من وفر عائدات البترول » ٠٠ (٢٦)

اما البلدان العربية التي لا تنتج مقادير وافرة من البترول مثل الجمهورية العربية المتحدة في ذلك الحين (مصر وسوريا حاليا)او تنعدم لديها، ومثل لبنان والاردن ، والتي تفتقر تنميتها الاقصادية الى الاموال من خارجها ، فهي عينها البلدان التي تقيم فيها الكثرة الساحقة من اللاجئين ٠ والواضح ان « واضع التقرير يربط ربطا وثيقا بين الحديثعن تنمية تلك البلدان العربية الثلاثة بالذات ، وانفاق الاموال الطائلة لهذا الغرض ، وبين الحديث عن ادماج اللاجئين في اقتصادياتها » (٢٧) ٠

ويرى د٠ فايز صايغ ان همرشولد « لا يتطلع في تقريره الى اندماج اللاجئين في الاراضي المحتلة من وطنها ، وانه بالتالي لا يخطط لعودتهم الى ديارهم » ٠ (٢٨) كما ان تقرير همرشولد يتجاهل تجاهلا كليا حق اللاجيء بالتعويض ٠ اضافة الى ذلك يخلط همرشولد في تقريره بين حق العودة والتوطين او يساوي بينهما في الاهمية !

ففي الفقرة الثانية من تقريره يقول :

« بعد النظر الدقيق في مسالة اللاجئين الفلسطينيين من جميع وجوهها ، اني اوصي باستمرار وكالة الاغاثة ريثما يتم ما قالت عنه الجمعية العامة من

« اعادة ادماج اللاجئين في حياة الشرق الادنى الاقتصادية ، اما بالعودة او بالتوطين ··· طبقا لاختيار اللاجئين انفسهم » (٢٩) ·

ويرى د· فايز صايغ ان « مشروع همرشولد لا يقل خطرا ، وخطورة عن قرار التقسيم ، والهدنة ، وادخال اسرائيل في عضوية الامم المتحدة ، وسواها من المراحل الحاسمة التي مرت بها قضية فلسطين منذ ان بدأت الامم المتحدة تعنى بها في عام ١٩٤٧ » ·

وقد علق الرئيس الدكتور عبد الله اليافي في جريدته « السياسة » في عددها الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٥٩ على مشروع همرشولد بقوله : « فلا هي الرحمة باللاجئين العرب ولا الشفقة على عيالهم واطفالهم ولا الرغبة بوضع حد لشقائهم وبؤسهم هي التي حركت بعض الدول الغربية الكبرى عندما فكرت بمشروع الاستيطان · كلا ان الذي دفع هذه الدول الى المطالبة باستيطان اللاجئين في البلدان العربية هي رغبتها في تصفية القضية الفلسطينية تصفية نهائية باسدال ستار النسيان على جميع مقررات الامم المتحدة ـ وما اكثر هذه المقررات التي اوصت وطالبت بعودة هؤلاء اللاجئين العرب الى ديارهم » (٣٠)·

الموقف الفلسطيني من مشروع همرشولد

عقد في بيروت بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩٥٩ مؤتمر عربي فلسطيني حضره مندوبون وممثلون عن جميع مخيمات الفلسطينيين ومختلف اماكن اقامتهم في الاراضي اللبنانية ، وجميع هيئاتهم ومنظماتهم ، بما في ذلك الهيئة العربية العليا لفلسطين واللجنة العليا للاجئين الفلسطينيين في لبنان ، والشباب العربي الفلسطيني ، والمكتب العربي الفلسطيني والكشاف العربي الفلسطيني وسواها في دار الهيئة العربية ببيروت للتداول في تقرير داغ همرشولد وقد اتخذ المؤتمر بالاجماع المقررات التالية :

١ ـ « يقرر الفلسطينيون في لبنان التمسك بحقهم الطبيعي في العودة الى وطنهم وبلادهم ويؤكدون ان الحل الوحيد هو القضاء على اسرائيل واسترداد فلسطين وعودة أهلها اليها ·

٢ ـ يعلن الفلسطينيون رفضهم لمشروع همرشولد الخاص بدمجهم في اقتصاديات الشرق الاوسط ولكل مشروع يحول دون حقهم الطبيعي في وطنهم ·

٣ ـ يعتبر الفلسطينيون قبول تقرير همرشولد وكافة المشاريع المشابهة له والمنطوية على الاسكان والتوطين والتعويضات هو خيانة وطنية لفلسطين والقومية العربية ويحذرون من قبولها ·

٤ ـ ويهيب عرب فلسطين بالحكومات العربية جميعها لبذل الجهود والمساعي

اللازمة لاحباط توصيات ومقترحات السكرتير العام للامم المتحدة ٠

٥ ــ يرحب عرب فلسطين بقرار اللجنة السياسية التابعة للجامعة العربية لعقد اجتماع عربي على مستوى عال لبحث قضية فلسطين ويحثون الحكومات العربية على الاسراع في تنفيذ هذا القرار ، ويهيبون بالدول التي لم تبد رأيها بهذا الصدد حتى الان ان تبادر بالموافقة على هذا الاجتماع ٠

٦ ــ نظرا لتفاقم الاخطار على قضية فلسطين ، خاصة بعد صدور تقريــــر همرشولد الذي يرمي الى تذويب عرب فلسطين،والتعفية على اثارهم ، يؤيدعرب فلسطين الجهود المبذولة لاحياء الكيان ، ويطلبون من الدول العربية الاسراع في تنفيذ هذا القرار على شكل يمكن الفلسطينيين من المساهمة الجدية العملية لانقاذ بلادهم ٠

٧ــ تشكيل لجنة خاصة للقيام بالدراسات العلمية والفنية لتقرير همرشولد ورفعها الى المؤتمر ٠

٨ ــ لمناسبة وصول السكرتير العام للامم المتحدة الى الشرق الاوسط يعلن الفلسطينيون يوم الاربعاء ١ تموز سنة ١٩٥٩ يوم اضراب عام ومقاطعة خدمات وكالة الاغاثة والصيام عن الطعام اعرابا عــن استنكارهم لتقريــره وتمسكهم بحقوقهم القومية ٠

٩ ــ عقد مؤتمر عام للفلسطينيين في لبنان يوم الاحد ١٢ تموز سنة ١٩٥٩ لمواصلة البحث في تقرير همرشولد وشؤون القضية الفلسطينية ودراسة ما يجب ان يتخذ من اجراءات لضمان احباط تقرير همرشولد وتوفير الاسباب والوسائل الضرورية لتمكين عرب فلسطين من الكفاح والنضال في سبيل وطنهم ٠

١٠ ــ ابلاغ هذه المقررات الى ممثلي الدول العربية في لبنان لرفعها الــى حكوماتهم وللمراجع الدولية المختصة » ٠٠ (٣١)

وفي ١٢ تموز ١٩٥٩ انعقد المؤتمر العربي الفلسطيني في بيروت وكان مؤلفا من مندوبين عن جميع الهيئات والمنظمات واللجان الفلسطينية في لبنان دون استثناء ، وهي التالية :

١ ــ الهيئة العربية العليا لفلسطين ٠

٢ ــ الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني ٠

٣ ــ اللجنة العليا للاجئين الفلسطينيين في لبنان ٠

٤ ــ الشباب العربي الفلسطيني ٠

٥ ــ المكتب العربي الفلسطيني ٠

٦ ـ اللجنة العامة للاجئين الفلسطينيين في لبنان ·

٧ ـ الكشاف العربي الفلسطيني ·

٨ ـ رابطة الطلبة النازحين ·

٩ ـ لجنة الملاكين ·

وقد كرر المؤتمر من جديد ·· رفض عرب فلسطين لتوصيات المستر همرشولد بشأن دمج الفلسطينيين في الحياة الاقتصادية للشرق الاوسط ، ويؤكد رفضهم القاطع لجميع مشاريع التوطين والاسكان والتهجير والامتصاص ، وغيرها من المشاريع والبرامج المماثلة التي انما ترمي الى تصفية قضية فلسطين والتعفية على اثار شعب فلسطين العربي » · (٣٢)

وقد كانت الولايات المتحدة الامريكية والقوى الامبريالية الاخرى هي التي تقف وراء مثل هذه المشاريع التي رفضها الشعب الفلسطيني محافظا على هويته الوطنية ومقاتلا في سبيل تحرير وطنه والعودة اليه · وقد اتبعت الولايات المتحدة الامريكية سياسة استراتيجية ثابتة تستهدف : ضمان أمن اسرائيل وحمايتها وتقويتها عسكريا وسياسيا ، والسعي الى تمكينها من اداء دورها بفعالية كأداة امبريالية ، والسعي الى تصفية القضية الوطنية للشعب الفلسطيني بمختلف السبل ، ونجاح هذه السياسة او فشلها ليس مرهونا بما تريده الامبريالية ، بل بقدرة الشعب الفلسطيني وطلائعه المناضلة جنبا الى جنب مع الشعوب العربية وقواها الثورية التقدمية في التصدي لمثل هذه السياسة وافشالها وتوجيه الضربات الموجعة للكيان الصهيوني وحلفائه الرجعيين على طريق تحرير فلسطين ·

التركيز على التعليم

« ان فشل مشاريع التوطين الزراعي على نطاق واسع ، والنتائج المحدودة التي حصلت عليها الوكالة من المشاريع الفردية الاخرى ، دفعها الى اعادة النظر في كل خططها · ان رفض الفلسطينيين لكافة مشاريع الاسكان والتوطين خارج وطنهم كان حاسما في افشال هذه المشاريع · وهذا الرفض لم تخف حدته عبر السنين وقد عبر عنه الفلسطينيون بأكثر الاشكال حدة في قطاع غزة والاردن في عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، أما في الاعوام التي تلت ذلك ·· فقد اخذ الفلسطينيون يعدون انفسهم للانتقال من مرحلة الرفض السلبي للمشاريع المشبوهة الى مرحلة النضال المباشر الذي يستهدف قلع جذور المشكلة وليس مجابهة اعراضها فقط · في هذه المرحلة شرعت الوكالة في ايلاء مسألة التعليم والتدريب المهني اهتماما متزايدا وصل الى حد تخصيص حوالي نصف ميزانيتها

لمشروعات التعليم والتدريب ، ويعود هذا التركيز على التعليم ٠٠ الى ما يلي :

١ ـ ان التعليم ، في ظل معطيات واقع المنطقة ، هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى حالة من الاعتماد على النفس بالنسبة لقطاع واسع من الفلسطينيين ٠

٢ ـ (٠٠٠٠) ٠

٣ ـ ان التحويلات المالية التي يرسلها عشرات الالاف من الشباب الفلسطيني الى أهلهم في الاردن (الضفة الغربية) وقطاع غزة ، تساعد في تخفيف حدة الشقاء الذي يعاني منه الفلسطينيون ، وتعمل على تجميد الاوضاع القائمة ٠

٤ ـ ان برامج التعليم هي أقل البرامج اثارة للاعتراض من قبل الفلسطينيين بغض النظر عن الاهداف التي تتوخاها الوكالة منها ٠ وتظهر الاحصاءات ان اقبال الفلسطينيين على التعليم لا يعادله اقبال اي مجتمع من مجتمعات المنطقة » ٠ (٣٤)

لقد كان موقف الشعب الفلسطيني من كافة المحاولات والمشروعات الرامية الى طمس قضيته الوطنية موقفا تاريخيا باسلا ، وقد عبر عن نفسه ، طوال السنوات الماضية ، في أرقى اشكال الكفاح (الكفاح المسلح) باعتباره التجسيد الحي لرفض مشاريع ودعوات التوطين والاصرار على التحرير والعودة ،**وكل من يقف ، اليوم ، في وجه الكفاح الوطني المشروع للشعب الفلسطيني انما يقف في خندق القوى الامبريالية والصهيونية الرجعية حتى لو تسترت هذه الدعوات بحجة رفض التوطين ٠٠ بينما هي تذكي شعور العداء للشعب الفلسطيني وتقف حجر عثرة امام تطور نضاله ، ان لم تكن تسعى وتعمل على تصفية هذا النضال الذي تخشاه الامبريالية والصهيونية والرجعية ٠**

وليس ابلغ من دلالة التقارير السنوية التي يصدرها « المفوض العام لوكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتشغيلهم »، هذه التقارير التي تؤكد دوما على تمسك الفلسطينيين بأرضهم واصرارهم على العودة اليها ورفض كافة المشاريع التي تمس حقوقهم الطبيعية المشروعة ٠ وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، نقرأ في احد هذه التقارير السنوية ما يلي : « كانت الخيبة مصير المحاولات التي بذلتها الوكالة في سنواتها الاولى لرعاية مشاريع التشغيل الرامية الى توطين اللاجئين ، وكان الفشل من الوجهة العملية مصير المحاولات الاكبر الماضية التي بذلتها الجهات الاخرى للوصول الى حل للمشكلة الفلسطينية بطريق التفاوض ، وهناك دواع قوية للاعتقاد بأن فشل هذه المحاولات يرجع الى كونها غير مقبولة في نظر اهالي المنطقة (اللاجئين منهم وغير اللاجئين) وفي نظر الحكومات التي تمثلهم ٠ وان المفوض العام يرى ، بعد تدقيق النظر ، ان مشاعر الشعب العربي ما زالت اليوم بنفس العمق الذي كانت عليه في اي وقت اخر في الماضي ، وان الوكالة ينبغي بالتالي الا تحاول مرة اخرى ، الاضطلاع

بمشاريع التشغيل الرامية الى توطين اللاجئين ، على الاقل طالما لم يحدث ثمة تقدم محسوس نحو تنفيذ الفقرة ١١ من قرار الجمعية العامة ١٩٤ (الدورة ٣) ٠ وينبغي ان لا يخلص المرء من ذلك الى ان سكان المنطقة لا يريدون الانماء الاقتصادي ، بل هم على العكس ، يريدونه ، ويريدونه بمعدل اسرع ، ولكن لا يريدونه مرتبطا بتوطين اللاجئين ٠

ولا شك في انه قد يحدث في المستقبل ، على غرار الماضي ، ان يتم استيعاب عدد ما من اللاجئين وابنائهم ــ اقتصاديا واجتماعيا ــ في البلدان العربية رغم العقبات الموصوفة انفا ، وحتى لو ظل الطريق الى حل المشكلة الفلسطينية مسدودا كما هو الان ٠ الا ان المفوض العام يرى ان من الخطأ ان يفترض المرء ان هذا الاستيعاب في حد ذاته سيؤدي الى التخلص من القضايا الاساسية الكبرى الكامنة وراء المشكلة الفلسطينية ٠ ان عمق مشاعر شعوب الشرق الاوسط ازاء هذه القضايا والمأزق المترتب على ذلك هما في الحقيقة العاملان اللذان لا يزالان الى اليوم يقوضان دعائم السلم والاستتباب في الشرق الاوسط وفي العالم اكثر كثيرا مما يقوضها بحد ذاته واقع بقاء مليون فلسطيني لاجئين معتمدين على المساعدة » ٠ (٣٥)

لقد فشلت كافة مشاريع التوطين « والاندماج » (الاسم « الملطف » لطمس الحقوق الوطنية التاريخية الثابتة للشعب الفلسطيني في ارضه) « والتنمية » ، هذه المشاريع التي ارتبط عدد منها جهارا بسياسة الاحلاف الامبريالية ٠

وستفشل كافة المحاولات اللاحقة ، ايضا ، على ارض المقاومة الشعبية الوطنية الفلسطينية والعربية ٠

والواقع ان كل المشاريع التي طرحت لا تمت ، كما رأينا ، الى « التنمية » الاقتصادية الحقيقية بصلة ، فلم تعودنا القوى الامبريالية الاهتمام بتطور البلاد التي تستغلها ، بل يهمها ان تظل متخلفة ضعيفة عاجزة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، وقد رأينا كيف حاولت الامبريالية الامريكية ان تربط بعض القروض الهزيلة التي كانت ستعطيها لعبد الناصر وسواه بمشاريع الاحلاف الاستعمارية، ولكن حين بدأت مصر تسعى الى تحقيق بعض التنمية والتقدم والاستقلال اخذت اسرائيل والقوى الامبريالية تمارس عدوانها وحصارها الاقتصادي والسياسي٠ ان المشكلة الفلسطينية ، في جوهرها ، ليست مشكلة لاجئين مشردين يحتاجون الى الرعاية « والتخفيف » من بؤسهم وشقائهم ، فهناك ملايين عديدة في العالم من المهجرين والمشردين ٠ ثم ان الحالة الاقتصادية ــ الاجتماعية للشعب الفلسطيني ليست اكثر بؤسا وسوءا من حالة الشعب العربي في بلدان عديدة يمثله الشعب الفلسطيني كطاقة ثورية تمرست بالكفاح الوطني

البطولي في مواجهة الاستعمار والصهيونية والرجعية هي التي تقض مضاجع الامبرياليين والانظمة والقوى المرتبطة بهم ·

وقد كان الشعب العربي الفلسطيني ، بحكم الظروف التي واجهها ، سباقا الى شق الطريق الحقيقي ، طريق الكفاح الشعبي المسلح في وجه اعداء التقدم والتنمية الحقيقية والسلام الحقيقي ·

والكيان الصهيوني الاستيطاني العدواني لم يستهدف فقط الشعب الفلسطيني، بل انه يمارس دوره كأداة امبريالية لابقاء التخلف والسيطرة الامبريالية على مقدرات المنطقة ضد كافة شعوب المنطقة العربية المجاورة لفلسطين · فأبناء قرى جنوبي لبنان ومدن القناة المصرية والقرى والمدن السورية لم تسلم من العدوان الصهيوني المباشر · فالشعوب العربية الاخرى لها مصلحة مباشرة في مقاومة العدوان الصهيوني الامبريالي والدور الذي يمارسه في المنطقة كعائق وكابح للتقدم والتطور · فاسرائيل لم توجد لكي تستولي فقط على ارض فلسطين وتعيش بعد ذلك « بسلام » مع جيرانها ، بل لكي تحول ارض فلسطين الى قاعدة عسكرية عدوانية ضد كل شعوب المنطقة وقواها الوطنية والثورية · ان اسرائيل هي الدركي الذي يحافظ على تخلف المنطقة العربية ، لابقائها تحت الهيمنة الامبريالية ولا يبطل هذا الدور سوى الكفاح الشعبي المسلح الذي يشارك فيه الفلسطينيون الشعوب العربية الاخرى ·

والبداية الحقيقية للتنمية الاقتصادية انما تكون بتوفير شروطها السياسية ، شروط انتصار القوى السياسية المعبرة عن الطبقات التي لها مصلحة فعلية في تطوير قوى الانتاج وانجاز الاستقلال الجذري - الاقتصادي والسياسي ·

ان من يطرح دوما مشاريع التوطين بهدف التشكيك والتضييق على النضال الوطني الفلسطيني والسعي لضربه وتصفية القضية الوطنية للشعب الفلسطيني، انما يستوردها من مطابخ صانعيها ، القوى الامبريالية والصهيونية والرجعية المرتبطة بهما · ان المقصود دائما من هذا الطرح شيء آخر · فكلما نسمع هذه النغمة علينا ان نعرف العازف الحقيقي · ان الذي يرفض مشاريع التوطين قولا وفعلا ، انما عليه ان يدعم الكفاح المسلح الوطني الفلسطيني كأرقى تجسيد لهذا الرفض ، لا العمل على لجم هذا الكفاح والتضييق عليه وتشويه الصورة النضالية للشعب الفلسطيني والسعي المحموم للاجهاز على مقاومته الباسلة الرافضة لكل نتائج واسباب المشروع الامبريالي الصهيوني على ارض فلسطين ·

ان المطلوب هو توطين المواطنين العرب في أرضهم ·· باقامة النظم السياسية القادرة على مناهضة الامبريالية وما تمثله من تخلف وتبعية اقتصادية وسياسية وتطوير قوى الانتاج وصنع التنمية الحقيقية وتوفير فرص العمل المنتجة لكافة

المواطنين الذين لا يجد الكثيرون منهم مندوحة عن الهجرة للبحث عن العمل ولقمة العيش ·

وقضية تحرير فلسطين من الصهيونية لا تنفصل عن طريق التنمية الاقتصادية الحقيقية ، بل هذا هو صلب الموضوع · فالقوى التي تقاتل الامبريالية والصهيونية والرجعية هي وحدها التي تسعى وتستهدف تطوير وتقدم المنطقة · فالتحرر السياسي الجذري شرط التحرر الاقتصادي ـ الاجتماعي ·

المراجع

(١) قورة ، نزيه : تعليم الفلسطينيين ، الواقع والمشكلات ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٩ و ٢٠ · نقلا عن كتاب بوهرج ، ادوارد : « الامم المتحدة واللاجئون الفلسطينيون » ص ٣٧ ·

(٢) صايغ ، يوسف : قضية اللاجئين الفلسطينيين بين المثالية والواقعية ، مجلة ابحاث ، تصدرها الجامعة الامريكية في بيروت ، السنة ٦ ـ الجزء ٣ ، أيلول ١٩٥٣ ، ص ٣٥١ ·

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ·

(٤) راجع تقارير الوكالة السنوية من عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ ·

(٥) د· صايغ ، فايز : مشروع همرشولد وقضية اللاجئين ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ·

(٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ ·

(٧) المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ·

(٨) المصدر السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ·

(٩) المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٤ ·

(١٠) قورة ، نزيه ، مصدر سابق ، ص ٣٢ ·

(١١) صايغ ، يوسف : مجلة ابحاث ، مصدر سابق ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ·

(١٢) صايغ ، يوسف ، مصدر سابق ، ص ٣٦٠ ·

(١٣) قورة ، نزيه ، مصدر سابق ، ص ٣٣ ، ٣٤ ·

(١٤) المصدر السابق ص ٣٤ ، ٣٥ ·

(١٥) المصدر السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ ·

(١٦) د· صايغ ، فايز ، مشروع همرشولد ، مصدر سابق ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ·

(١٧) المصدر السابق ، ص ١٥٦ ·

(١٨) المطامع اليهودية في السيطرة على المياه العربية ، او مشروع جونستون ، اصدار الهيئة العربية العليا لفلسطين ، القاهرة ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥٥ ، ص ٩ ، ١٠٠

(١٩) المصدر السابق ، ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ٠

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٣٤ ٠

(٢١) المصدر السابق ، ص ٥٠ ٠

(٢٢) المصدر السابق ص ٥١ ، ٥٢ ٠

(٢٣) د٠ صايغ ، فايز ، مصدر سابق ، ص ١٥٨ ٠

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ٠

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٢ ٠

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ ٠

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٣ ٠

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٤٧ ٠

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٦٣ ، ٦٤ ٠

(٣٠) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ ٠

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ٠

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٩٥ ٠

(٣٣) قورة ، نزيه ، مصدر سابق ، ص ٣٧ ، ٣٨ ٠

(٣٤) التقرير السنوي للمفوض العام لوكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى وتشغيلهم ، ١ تموز (يوليو) ١٩٦١ ــ ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٢ الامم المتحدة ، نيويورك ١٩٦٢ ٠ ص ٥ ، ٦ ٠

نـزيـه قـوره

ملاحظات حول العمل العربي في الزراعة الاسرائيلية

للارض الفلسطينية ثلاث خصائص ، تتحدد ، استنادا على التشديد على أحدها ، الطريقة التي ينظر بها الى القضية الفلسطينية ، وتتحدد بالتالي مجموعة السياسات التي تصاغ لمعالجة هذه القضية ٠

الخاصية الاولى تتعلق بالاهمية الاستراتيجية العسكرية لهذه الارض ، واهمية السيطرة عليها ٠ وتتعلق الخاصية الثانية بالقيمة العقارية التجارية لارض تقع على مفترق الطرق التجارية العالمية ، وتبعث في نفوس كثيرة احلاما حول قيام مركز مالي تجاري عالمي ، الامر الذي يجري التعبير عنه ميتافيزيقيا بتعبير « مركز روحي » ٠ اما الخاصية الثالثة فتتعلق بالارض الفلسطينية بصفتها وسيلة انتاج يعتاش منها فلاحوها ويبنون عليها بيوتهم وقراهم ويشكلون فيها مجتمعهم وينسجون علاقاتهم الاجتماعية ٠

« ان قضية فلسطين من اصعب القضايا واعقدها » ، هذه العبارة تكاد تكون افتتاحية كل الخطب والمقالات المتعلقة بالقضية الفلسطينية ٠ وهي كذلك اذا قسنا الصعوبة والتعقيد بعدد الحركات والاحزاب وانظمة الحكم التي تعاقبت منذ البداية الرسمية لارتباط اسم فلسطين بكلمة قضية او كلمة « مشكلة » او كلمة « مسالة » ، واذا قسنا الصعوبة والتعقيد بحجم الجهود والحروب الحقيقية والمزورة ، وبحجم الكتابات التي استهدفت تبيان الحقيقة او طمسها ٠ غير ان الصعوبة والتعقيد يبدآن في التراجع ، على المستويين النظري والعملي، لافساح المجال للبساطة النظرية والعملية عندما نبدأ في طرح الاسئلة الحقيقية ونعمل على ايجاد اجوبة حقيقية لهذه الاسئلة ٠

من بين هذه الاسئلة سؤال يتعلق بحقيقة طرفي الصراع ، وبالتالي حول جوهر الصراع على فلسطين : هل هو صراع بين فلاحين يهود او يهود يريدون ان يكونوا فلاحين ، وبين فلاحين عرب ؟ هل هو صراع بين تجار وسماسرة يهود يريدون مركزا ماليا تجاريا لهم وبين تجار وسماسرة عرب يريدون نفس قطعة الارض لاقامة مركز مالي تجاري لهم عليها ؟ ام هو صراع بين قوى كبرى ترى في فلسطين « اثمن قطعة عقار استراتيجية في العالم » حسب تعبير الجنرال ايزنهاور ، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للولايات المتحدة الاميركية ، وبين قوى تعد نفسها لتصبح قوة كبرى ، وتحتاج الى فلسطين كشرط لازم لتحقيق هدفها الاستراتيجي ؟

حتى يكون الصراع حقيقيا ، وحتى يكون حله بالتالي ممكنا بواسطة حذف احد طرفي الصراع ، لا بد ان يكون الصراع قائما بين طرفين يبغيان الوصول الى نفس الهدف بحيث يكون انتصار احدهما هزيمة للطرف الاخر . فالصراع بين الاستراتيجيين الاميركيين والاستراتيجيين العرب ، ان وجدوا ، هو صراع حقيقي ، ينهزم فيه احد الاطراف او ينتصر . والصراع بين التجار والسماسرة العرب وبين التجار والسماسرة اليهود هو صراع حقيقي ، يتحدد مساره ونهايته بتمسك كلا طرفي الصراع بهدفه النهائي وبقدرته على حشد القوى بصورة عقلانية وعلى زجها في الصراع . والصراع بين الفلاحين الفلسطينيين وبين الفلاحين اليهود صراع حقيقي يتحدد مساره ونهايته بمدى اصرار كل طرف على التمسك بهدفه وبحجم القوى التي يحشدها كل طرف من موارده الخاصة .

اما الصراع الذي يكون احد اطرافه الفلاحين الفلسطينيين ، بامكانات وقدرات لا تزيد كثيرا عن امكاناتهم البشرية والمادية الذاتية ، ويكون الطرف الاخر هو الفلاحين اليهود بامكانات وقدرات وزارة الدفاع الاميركية ، فهو صراع وهمي زائف غير قابل للقيام اصلا .

في دراستنا هذه سنحاول ان نتفحص مدى مساهمة عامل الارض بصفتها وسيلة انتاج في الصراع الدائر حول فلسطين ، مستعينين بمعطيات الواقع المادي . تبلغ المساحة الكلية لارض فلسطين الانتدابية نحو ٢٦ الف كيلومتر مربع اي ما يعادل نحو ٢٦ مليون دونم . وقد استولت اسرائيل في عام ١٩٤٨ على مساحة تقدر بنحو ٢٠ مليون دونم . وفي عام ١٩٥٩/١٩٦٠ بلغت المساحة المزروعة من هذه الارض ٤٫٠٧ مليون دونم . ورغم انفاق مليارات عديدة من الدولارات ،ورغم الادعاءات الخرافية حول تعمير الصحراء وتجفيف المستنقعات، فان المساحة المزروعة عام ١٩٧٤/١٩٧٥ لم تزد عن ٤٫٣٥ مليون دونم بينها ٨٩٥ الف دونم يمتلكها الفلاحون العرب ، مقابل ٣٫٤٥٥ تمتلكها الهيئات اليهودية المختلفة . (١)

اما عدد العاملين في الزراعة بين اليهود ، حسب ما تورده الاحصاءات الرسمية ، فقد بلغ ٥٦ الف شخص ، وذلك من مجموع قوة العمل المدنية البالغ ٤ر٩٨٤ الف شخص ، اي ما نسبته ٧ر٥ بالمئة · (٢)

ومن الممكن ان يطرح في هذا السياق اعتراض يقول بان هذه النسبة لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الدول الصناعية المتقدمة ، وذلك بسبب الاستعمال الواسع للالات الزراعية التي تجعل من الممكن تشغيل القطاع الزراعي بحد ادنى من الطاقة البشرية · ان الرد على هذا الاعتراض ينطلق من تلك الدرجة من القداسة التي منحت للعمل في الزراعة والتي وصلت الى حد جعله دينا على يد المفكر الصهيوني غوردون · فقد جرى تصوير العمل في الزراعة على انه عملية تطهير روحي ، واعطي الاستيطان الزراعي واقامة المستوطنات صفات الطلائعية والريادة ، واصبح المشروع الصهيوني في ذهن الرأي العام كما لو كان مستوطنة زراعية كبيرة · ومن ناحية اخرى فان الارقام التي توردها الاحصاءات الرسمية لا تعكس الحقيقة من ناحيتين : فهي تبالغ كثيرا في عدد اليهود الذين يعملون حقيقة في العمل الزراعي ، وتخفي العدد الحقيقي للعمال العرب الذين يعملون في الاراضي التي تسيطر عليها الهيئات اليهودية المختلفة · ويظهر الحجم الحقيقي لمساهمة العمال العرب في الزراعة الاسرائيلية من رسالة بعثت بها امرأة من المستوطنة التعاونية كفار فيتكين الى موشي ديان في عام ١٩٧٢ ، حين كان وزيرا للدفاع ، تتحدث فيها عن التحولات التي طرأت على مستوطنتها منذ حرب عام ١٩٦٧ ، والتي تتلخص في تحول اعضاء المستوطنة الى مقاولين ومتعهدين لمختلف الاعمال الزراعية ، والاعتماد الكامل على العمال العرب القادمين من الاراضي المحتلة · واشتكت في هذه الرسالة من تدفق العمال العرب على المستوطنة في مواسم قطاف الحمضيات ومواسم قطاف المزروعات في البيوت الزجاجية · وقالت في رسالتها : « يبدو ان كل رجل قادر على العمل قد تحول الى متعهد · وقد تزايد عدد البيوت الزجاجية التي تعتمد اعتمادا كليا على العمل العربي ··· لقد اصبح نمط حياتنا هو نمط حياة الافندية ··· ومن الواضح انه مع كل سنة تمر تصبح المشكلة اكثر حدة · والمتعهدون الذي يجمعون الثروات اليوم ، سوف يتحولون غدا الى جماعة ضغط تمنع ادخال اي تغيير على الوضع » · (٣)

من الواضح ان السيدة عضو المستوطنة التعاونية (الموشاف) ليست مسرورة تماما من الارباح التي يجنيها المستوطنون الصهيونيون من وراء استخدام عمال المناطق المحتلة · والتخوفات التي تبديها تجاه الاعتماد الكامل على العرب ، تتناقض مع القوانين الاقتصادية التي تفترض في الانسان الذي يدير مشروعا اقتصاديا ان يسعى الى جني اقصى حد ممكن من الربح عن طريق دفع اقل تكاليف ممكنة ، وطلب اعلى سعر ممكن لمنتوجه · وحتى نكون فكرة

عن جدوى استخدام العمل العربي بدلا عن العمال اليهود في الكيان الصهيوني، وخاصة في الفترة التي اعقبت مباشرة احتلال الضفة الغربية وقطاع غـــزة ، ووقوع احتياطي العمل العربي الضخم ، المحروم من وسائل الانتاج الخاصـــة به ، تحت السيطرة الصهيونيه ، نورد ما ذكرته صحيفة هآرتس في عام ١٩٦٩ عن هذا الموضوع : « اعتاد العمال اليهود على تلقي ٨٥ ليرة اسرائيلية مقابل جني طن واحد من الشمندر السكري ، بينما يتلقى عمال المناطق المحتلة مـــا بين ٢٢ ــ ٢٤ ليرة اسرائيلية مقابل جني ٣ر٥ طن من الشمندر السكري » ٠(٤)

في هذه الحالة يكون من الطبيعي ان يلجأ الانسان الذي تسيره قوانيـــن الاقتصاد وحوافز الربح ، ولا يحسب حسابات استراتيجيه وعسكرية ، الـــى استخدام اكبر عدد ممكن من عمال المناطق المحتلة واقل عدد ممكن من العمال اليهود ٠ وهكذا نشأ وضع في السنوات الاولى للاحتلال وصفته صحيفـــة يديعوت احرونوت على النحو التالي : « نحو نصف العمال الزراعيين في منطقة عسقلان [المجاورة لقطاع غزة] وعمال صناعة الاغذية في نفس المنطقة هم عمال من قطاع غزة ٠ وفي بعض بيارات الحمضيات الواقعة في المنطقة تبلغ نسبـــة عمال قطاع غزة نحو ٧٠٪ » ٠ (٥) وفي عام ١٩٧٦ ذكر المعلق الاقتصـــادي لجريدة جيروزاليم بوست موشيه اتر بان العمال العرب يشكلون نحـــو نصف العمال غير المهرة العاملين في الصناعة وجميع العاملين بأجر في الزراعـــة ٠ وذلك بالاضافة الى سيطرتهم على عدد من الخدمات التي تتطلب عملا شاقا مثـــل الكراجات والفنادق ٠ ونبه موشيه اتر الى المخاطر السياسية المترتبة على تقلص دور العمال اليهود في قطاعات الانتاج وتزايد دور العمال العرب ٠ (٦)

واذا استثنينا الاحصاءات الرسمية ، التي تبذل كل جهد ممكـــن لاخفـــاء الحقائق ، فاننا نجد اعترافات الصحفيين الاسرائيليـــن ، واستنتاجاتهـــم الايديولوجية والسياسية والاجتماعية والصهيونية ، على الشكل التالي : « اننا نرى حيثما توجهنا ان هناك فروع عمل كاملة او جزءا كبيرا منها ، لم تعـــد موجودة بين يدي عمال يهود » ٠ (٧) هذا في صحيفة ناطقة باسم حزب المبـــام الاشتراكي الصهيوني ٠ ان هذا الوضع ، من وجهة نظر الصحيفة الاشتراكية يلغي الادعاءات الاشتراكية ، ولا يبقي سوى الجانب الصهيوني من « عقيدة » الحزب ٠ فبدون عمال يشتغلون في الزراعة والصناعة والبناء ، لا تعود هنـــاك مبررات لوجود حزب عمالي ، ولا تعود هناك فروق بين الحزب الاشتراكـــي العلماني والحزب القومي المتدين ٠ وبالتالي لا يعود هناك اساس لتمسك الاحزاب العمالية بالحكم ٠

اما صحيفة دافار الناطقة بلسان الهستدروت (اتحاد العمال) فتشير الـــى الاضرار الاقتصادية الناتجة عن الاستخدام الواسع للعمال العرب ، وما يرافق هذا الاستخدام من تقلص في عدد اليهود العاملين في قطاعات الانتاج : « نتيجة

لدمج السكان العرب في المناطق المحتلة في اقتصاد اسرائيل ، غمرت دولة اسرائيل بستين الى ثمانين الف عامل عربي (وربما اكثر) يعملون لدينا في الاعمال الشاقة والقذرة ، وتحولنا ليس فقط الى شعب محتل ، بل ايضا الى شعب اصبحت في عينيه بعض قطاعات الانتاج غير مقبولة وممجوجة ، يهرب اليهود من العمل فيها مثل البناء والزراعة والتنظيف واعمال الفنادق والصحة العامة وما شابه ذلك ٠ وقد اصبح العمل في هذه الامور ، في اعيننا، بمثابة شيء يقلل من قيمة اليهودي الذي يعمل فيها ، ولهذا فانه يبذل كل ما في وسعه للهرب منها ، وينجح في ذلك فعلا ٠ وهو يتجه الى مهن قليلة المردود وهامشية ، وتزيد من البطالة غير المنظورة ٠ وبهذه الصورة يسوء اقتصادنا وتزداد امراضه باضطراد » ٠ (٨)

الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية تفيد ان عدد السكان اليهود في فلسطين يبلغ نحو ثلاثة ملايين نسمة ، وان نحو مليون منهم يشكلون « قوة العمل المدنية » ٠ ويعترف المحللون الاقتصاديون الاسرائيليون ان الصفات الانتاجية لقوة العمل « المدنية » هذه ، تمر في حالة امحاء دائم ومتزايد ٠ وهذا الوضع يعني ان مهمة اعالة « قوة العمل » هذه ، يجب ان تقع على عاتق قوى اخرى ٠

ومن غير الممكن ان تقوم قوة العمل العربية في فلسطين المحتلة التي تبلغ نحو ٤٠٠ر٠٠٠ شخص ، ان تنتج من السلع والخدمات ما يكفي لتجديد قوة عملها ، وفائضا اقتصاديا يكفي لاعالة « قوة العمل اليهودية » البالغة نحو مليون شخص ، وتوفير مستوى من العيش يليق بطبقة حاكمة ، وخاصة ان هذه « الطبقة الحاكمة » تمتلك ميزة اضافية ، تضاف الى ميزات الطبقات الحاكمة ، وهي ميزة الانتماء الى « شعب مختار » ٠ ان هذا الامر غير ممكن حتى لو توفرت للصهيونية شروط تكفل لها الاستعباد الكامل للشعب الفلسطيني ٠

ان الفائض الاقتصادي اللازم لاعالة التجمع البشري الذي حشدته الصهيونية في فلسطين لا يأتي اساسا من استغلال العمال العرب ٠ فالولايات المتحدة الاميركية هي التي يجب ان تتولى توفير فائض اقتصادي ، عن طريق تدفيق نحو ٤ مليارات دولار سنويا على الكيان الصهيوني ، والى امد غير محدود ٠ وبما ان الاستعمار هو عملية اقتصادية بالاساس ، فالمنطق يقتضي ان تتوقع الولايات المتحدة الاميركية مردودا مجزيا على المليارات الاربعة التي تنفقها سنويا على المشروع الصهيوني ، الذي يفترض فيه ان يقوم بوظيفة ما ٠

ان اقامة « دولة يهودية » في فلسطين كما هي انجلترا انجليزية ، حسب تعبير حاييم وايزمن ، يتطلب توفر شرطين رئيسيين : الاول هو وجود بنية اجتماعية متماسكة ترتكز على قاعدة بشرية يعمل القسم الاعظم منها في قطاعات الانتاج الاساسية (زراعة ، صناعة ، بناء) ، والثاني هو انتشار

السكان جغرافيا بحيث يغطون المناطق الصالحة للعيش في البلاد · ان الشرط الثاني يتطلب اشتغال قسم هام من السكان بالزراعة · فالمكان الطبيعي للتجارة والخدمات والصناعة هو المدن · اما التجارة والخدمات والصناعات التي تقام في المناطق النائية والمستوطنات الصغيرة ، فان الدافع وراء اقامتها يكون ، في معظم الحالات ، دافعا غير اقتصادي ·

ان التطور الموضوعي الذي جرى في قطاع الزراعة الاسرائيلية يثير تلقا شديدا لدى القيادة الصهيونية التي لا تقيم حساباتها على اسس اقتصادية · فتمسك هذه القيادة بمبدأ العمل العبري ليس نابعا عن اسباب عقائدية مجردة، بمقدار ما هو نابع عن حسابات عمليه · فالاعتبارات العسكرية والاستراتيجية هي التي كانت تقف وراء اقامة المستوطنات على اطراف البلاد · وذلك من اجل تحديد حدود الدولة من ناحية ، ومن ناحية اخرى من اجل تشكيل حزام امني ثابت يقوم ذاتيا بتجديد قوته البشرية · غير ان الاعتبارات العسكريه والاستراتيجية لم يكن بالامكان تجسيدها على أرض الواقع الا من خلال الاستيطان الزراعي ، ومن خلال دفع اكبر عدد ممكن من المهاجرين اليهود للاقامة في المستوطنات الحدودية والاشتغال بالزراعة · وكان مفهوما لدى القيادة الصهيونية ان تشغيل العمال العرب يعني بالنتيجة وجود أقلية من اليهود في هذه المناطق تتشكل من الملاك والمشرفين والعاملين في مجالات الامن ، مقابل قاعدة بشرية عريضة من العرب · وهذا وضع يتناقض مع الاهداف العسكرية للقيادة الصهيونية ·

لقد بدأ التطور المقلق للقيادة الصهيونية باستخدام العمال العرب بدل العمال اليهود بسبب فروق الانتاجية والاجور · وفي مرحلة لاحقة اخذ العمال العرب يقومون بالاعمال التي كان يجب ان يقوم بها عضو المستوطنة الذي اصبح رب عمل صغير · غير ان التطور الاخطر حدث عندما بدأت المستوطنات بتأجير الاراضي لمزارعين عرب · فقد رأى القادة الصهيونيون في هذا التطور الغاء كاملا لمبررات اقامة اليهودي في المستوطنة · ذلك انه اذا اقتصر دوره على قبض اجرة الارض ، فانه يستطيع الاقامة في اي مكان اخر ـ غالبا في المدينة ـ ويأتي مرة في العام لقبض الاجرة ·

في عام ١٩٧١ كتبت هآرتس تقول : « بدأت تتكون ظاهرة تشير الى ان العرب يعودون بشكل غير مباشر الى ارضهم » · (٩) وفي عام ١٩٧٢ نشرت نفس الصحيفة تقريرا عن مقابلة بين اعضاء حركة المستوطنات التعاونية (الموشافيم) وبين رئيسة الحكومة ، غولدا مئير ، ورد فيه : « اعترف اعضاء حركة المستوطنات التعاونية امام رئيسة الحكومة بانهم وصلوا الى وضع لا يستطيعون فيه تحقيق الانتاج دون عمل عربي مأجور · وينطوي هذا على تأثير بعيد المدى في القرية اليهودية » · (١٠) اما في عام ١٩٧٥ فقد كان وزير الزراعة الاسرائيلية يتحدث عن تكون الطبقات : « هناك عشرات المستوطنات في البلاد

تقوم بتأجير الاراضي القومية ، التي سلمت لهم من اجل العمل فيها ، للعرب ٠ وقد قررنا وضع حد لهذه الظاهرة الخطيرة ، ظاهرة نشوء طبقة الافندية وطبقة مستأجري الاراضي في المستوطنات الزراعية في البلاد ٠٠٠ وقال ان هنـــاك كيبوتسا في وادي يزراعيل ، قد قامت بتأجير مئات من الدونمات الى جيرانها العرب مقابل ٥٠٪ من المحصول ٠٠٠ وكشف ممثل اخر من ادارة الاسكان بأن الدراسة التي جرت في المنطقة الشمالية بينت بان ٤٠ الف دونم قد تم تاجيرها للعرب من اجل زراعة البطيخ » ٠

ان هذه المعطيات هي التي تكمن وراء الحملة الاسرائيلية التي تجري تحت عنوان « تهويد الجليل » ٠ اذ رغم مرور نحو ٣٠ سنة على اقامة اسرائيل . لا يزال الجليل ـ شمال فلسطين ـ يشكو من نقص السكان اليهود فيه ، مقابل التزايد الطبيعي للسكان العرب في تلك المنطقة ٠ فحيث يتقلص الاساس الانتاجي لاية مجموعة سكانية ، تكون النتيجة الحتمية هي تناقص الاعداد المطلقة للسكان ٠ وتتجسد هذه العملية في نوعين من الهجرة : هجرة داخلية من اطراف البلاد الى وسطها ، وهجرة خارجية من البلاد الى الخارج ٠

وانعدام الاساس الانتاجي يكمن في المعارضة التي ابدتها الاحزاب « العمالية » التي كانت حاكمـة لعمليـات الاستيطان المـزورة التـي كانت تقـوم بهـا حركة « غـوش امونيم » التي تعمـل تحت شعارات دينية قومية متطرفة ٠ فقد أحس « العمـاليـون » ان ضـرر هـذه العمليـات الاستيطـانيـة يزيـد عـن نفعهـا مـن الناحيتيـن السيـاسيـة والاستراتيجيـة ٠ وقد كتبت صحيفة عل همشمار تعليقا على احدى مسيرات « غوش امونيم » قالت فيه : « ومرة اخرى نقول : هناك يهود يهربون من فروع الانتاج ويتركزون في المدن وفي الخدمات ٠ اما الاعمال الضرورية في الزراعة والبناء والمصانع فهي تنتقل تدريجيا الى ايدي العرب ٠ وبهذه الصورة نجد ان الطابع اليهودي لدولة اسرائيل في حدود ما قبل الرابع من حزيران اصبحت في خطر ٠ وفـي نفس الوقت نجد هؤلاء يطالبون بالتوسع الاقليمي الذي ستكون نهايته مهزلـة فظيعة » ٠ (١٢) ان عدم اشتغال المستوطنين بفروع الانتاج يعني ان اقامـة المستوطنات لن تنطوي سوى على مصادرة اراضي العرب واقامة مساكن تظل فارغة ، واقامة منشآت انتاجية يعمل فيها العرب ٠ وهذا الوضع لا يخدم كيانا يفترض فيه ان يكون جاهزا للحرب معبأ لها ، قادرا على توفير احتياجاتـه الضرورية ذاتيا ٠

ان العمل العربي غير مضمون في حالة الحرب التي تدوم زمنا طويلا نسبيا ٠ ولا يقتصر الامر على زمن الحرب ٠ فالعمل العربي اصبح ضروريا ، ليس لانه رخيص بل لانه لا بديل له ٠ وعندما ينشأ وضع تزيد فيه الاحتياجات الاسرائيلية للعمال ، عن ما هو متوفر في المناطق المحتلة ، اي عندما يزيد الطلب عن العرض ،

فان العمل العربي ، سوف لا يصبح عالي التكاليف فقط ، وانما سيمتلك القدرة على خوض الصراعات من أجل مطالبه الاقتصادية اولا ، ومن ثم من اجل مطالبه الوطنية • ان هناك من الدلائل ما يشير الى ان هذه المرحلة قد بدأت •

منذ عام ١٩٧٤ بدأ المسؤولون الاسرائيليون يتحدثون عن نقص احتياطي العمل بعد تمشيط الضفة الغربية وقطاع غزة بحثا عن العمال • فقد صرح موشيه مندلبوم ، المدير العام لوزارة التجارة والصناعة في عام ١٩٧٤ ، قائلا : « اننا نفتقر الى وجود احتياطي عمل • ونحن نحتاج الى ٩٠ الف عامل اضافي للمصانع خلال السنوات الاربع القادمة • ان هجرة صافية تبلغ ٤٥ الف شخص في السنة، تضاف الى الزيادة السكانية الطبيعية ، لن تكفي لسداد الحاجة • (١٣)

لقد مرت السنوات الاربع • وكانت الهجرة الصافية (القادمون ـ المغادرون) أقل من صفر • الامر الذي يعني ان هناك مصدرا وحيدا لسد هذه الحاجة . وهو المناطق المحتلة وعرب فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، او لسد جزء من الحاجة • وفي حالة عدم كفاية احتياطي العمل المتوفر داخليا ، واستمرار تقلص الهجرة ، فان احدى النتائج ستكون وقف النمو الاقتصادي بل وتراجع الانتاج في عدد من الفروع ، ووقف الاستثمار •

لقد ألقت الحرب التي جرت في جنوبي لبنان في شهر اذار ١٩٧٨ ، ضوءا على الحقيقة التي تحاول الصهيونية اخفاءها ، وهي حقيقة العقم والطفيلية اللتين تميزان المشروع الصهيوني • فقد كتبت صحيفة جيروزاليم بوست في اليوم الثالث للحرب : « ان الكثيرين من عرب الضفة الغربية الذين يعملون في اسرائيل لم يظهروا امس • وعادت بعض الباصات التي ارسلت لجمعهم من مناطق سكناهم فارغة » (١٤) ولكن نفس الصحيفة عادت واوردت تفصيلات اخرى عن نتائج امتناع عمال المناطق المحتلة عن الذهاب للعمل في مواقع العمل الاسرائيلية : « لم تجمع القمامة في بعض المدن لعدة ايام ، وعجزت المخابز عن تلبية الطلبيات ، وتوقفت خطوط الانتاج بسبب غياب العمال ••• كل هذه ، بالاضافة الى اختناقات اخرى نتجت عن غياب عمال المناطق المحتلة ••• وقد احتاج الامر لاكثر من اسبوع لاعادتهم الى اعمالهم • وعندما سئل باروخ حكلائي ، رئيس هيئة التشغيل في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية عما يمكن عمله لتجنب مثل هذه الاختناقات في المستقبل اجاب انه في الوقت الحالي لا تستطيع الوزارة عمل شيء لان الاسرائيليين ••• لا يريدون هذه الوظائف ••• اما بشأن العمل الموسمي ، مثل قطاف الحمضيات فان الوزارة ستحاول تشغيل طلاب المدارس الثانوية وطلاب الجامعات والنساء ، لكي تتجنب الاعتماد الكامل على عمال المناطق المحتلة » •(١٥)

اذن ، ليس من أجل ان يكون اليهود مزارعين في ارض الاباء والاجداد جيء

بهم الى فلسطين · وليس من أجل ان يكونوا عمالا في المصانع التي تقيمها الولايات المتحدة على الارض المقدسة ، جيء بهم الى فلسطين · اما أعمال المصارف والتجارة وصقل الماس ، فليست فلسطين هي افضل مكان للقيام بهذه النشاطات ·

الجهات التي تتولى تدفيق اربعة مليارات من الدولارات سنويا على المشروع الصهيوني لا تنتظر ان تتلقى مردودا على ما تدفعه في المستقبل البعيد · هذه النفقات هي مصروفات جارية ، ومردودها يتم قبضه سنويا ·

ارض فلسطين ليست هي المكان الامثل لاستثمار المليارات في زراعتها ·

الحواشي :

1 - Sttistical Abstract of Israel , 1975 , Central Bureau of Statistics , Jerusalem , P 358 .

2 - Ibid. P. 289 .

٣ ـ يديعوت احرونوت ، ٦ـ١٠ـ١٩٧٢، دبورا تمير « نحن نعيش حياة الافندية »·

٤ ـ هآرتس ٤ـ٨ـ١٩٦٩ ·

٥ ـ يديعوت احرونوت ٢٠ـ١ـ١٩٧٠ ·

٦ ـ جيروزاليم بوست ، الملحق الاسبوعي ٢٠ـ٧ـ١٩٧٦ : موشيه اشر « اسرائيل الصهيونية » ·

٧ ـ عل همشمار ١٤ـ٤ـ١٩٧٦ ·

٨ ـ دافار ·

٩ ـ هآرتس ٥ـ١١ـ١٩٧١ ·

١٠ ـ هارتس ٤ـ٦ـ١٩٧٢ ·

١١ ـ يديعوت احرونوت ٢٧ـ١١ـ١٩٧٥ ·

١٢ ـ عل همشمار ٢٢ـ٤ـ١٩٧٦ ·

١٣ ـ جيروزاليم بوست ٢٢ـ٧ـ١٩٧٤ ·

١٤ ـ جيروزاليم بوست ١٧ـ٣ـ١٩٧٨ ·

١٥ ـ جيروزاليم بوست ٢٨ـ٣ـ١٩٧٨ ·

زاهي الاقرع

العلاقات الاسرائيلية - الفرنسية ١٩٥٦-١٩٦٧

تعتبر العلاقات الاسرائيلية ـ الفرنسية حدثا فريدا في تاريخ العلاقات الدولية · فمنذ خلق الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ ، بدأ ذلك الكيان بالاستفادة من سلسلة فريدة من المساعدات العسكرية والعلمية من فرنسا · وكان التعاون والدعم الكاملين هما الميزة الرئيسية للعلاقات الثنائية القائمة بين الطرفين ·

وقد شملت اوجه التعاون كل الميادين تقريبا ، بما في ذلك الاستخبارات · حيث قامت المخابرات الاسرائيلية بتقديم كل العون اللازم لدوائر الامن الفرنسية حول الثورة الجزائرية ومصادر تمويلها وتسليحها · وعلى الصعيد العسكري بدأت فرنسا بتزويد اسرائيل بمختلف الاسلحة المتطورة اثر صفقة الاسلحة الشهيرة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا في خريف عام ١٩٥٥ · ومنذ ذلك التاريخ بدأت فرنسا تنظر الى اسرائيل على انها المفتاح الاستراتيجي لمنطقة الشرق الاوسط ·

وتطورت العلاقات اكثر فاكثر في مطلع عام ١٩٥٦ وذلك لسببين رئيسيين :

١ ـ وصول الحزب الاشتراكي الفرنسي الى سدة الحكم ·

٢ ـ ازمة السويس ·

سنحاول في هذا البحث متابعة تطورات العلاقات الاسرائيلية الفرنسية بدءا من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وصولا الى تدهور هذه العلاقات اثر حرب حزيران ١٩٦٧ ·

التعاون الاسرائيلي ـ الفرنسي في حرب ١٩٥٦

في اذار ١٩٥٦ قام كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا ، بزيارة للقاهرة في محاولة لاقناع الرئيس جمال عبد الناصر ايقاف الدعم الذي كان يقدمه للثورة

الجزائرية · الا ان بينو غادر مصر وهو مقتنع انه لم يكن هناك من سبيل لتصفية الثورة الجزائرية الا بضرب الرئيس عبد الناصر · (١) وفي ذلك الوقت بدأ يتردد شعار في فرنسا يقول : « النصر في الجزائر يمر عبر القاهرة » ·

وفي تموز ١٩٥٦ اعلن الرئيس عبد الناصر تأميم قناة السويس · وجاء ذلك بمثابة صفعة للمصالح البريطانية ــ الفرنسية فقد كان البريطانيون والفرنسيون يملكون معظم اسهم شركة قناة السويس · وقد استغل الاسرائيليون هذه القضية لتحريض الفرنسيين ضد عبد الناصر الى جانب استغلالهم لناحية اخرى وهي تزايد النفوذ السوفييتي في مصر الامر الذي اعتبره الفرنسيون بمثابة تهديد مباشر لاوروبا وتهديد بقطع امداداتها النفطية القادمة من منطقة الشرق الاوسط ·

على ضوء ذلك اقتنع الفرنسيون بضرورة شن عدوان على مصر بمساعدة الاسرائيليين والبريطانيين · وكان اعتماد الفرنسيين بشكل اساسي على الاسرائيليين · فرسموا الخطط العسكرية المشتركة لتنفيذ العدوان منفردين في حال تخلف البريطانيين · كانت اسرائيل ترمي الى تحقيق الاهداف التالية :

١ ــ تحطيم القدرات العسكرية المصرية قبل فوات الاوان ·

٢ ــ تشويه صورة الرئيس عبد الناصر ·

٣ ــ اجبار المصريين على فتح قناة السويس ومضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية ·

٤ ــ اعادة فتح مسألة تسوية الصراع العربي ــ الاسرائيلي · (٢)

« وقد بدأ موظفو وزارة الدفاع الفرنسية برسم الخطط المشتركة مع الاسرائيليين بشكل مستقل عن البريطانيين ، وذلك يوم ٢٩ تموز ١٩٥٦ » · (٣) وفي اب ١٩٥٦ كثفت الاتصالات حيث اصبحت كل دائرة من دوائر وزارة الدفاع الاسرائيلية على اتصال مباشر بنظيرتها في وزارة الدفاع الفرنسية · وقام سلاح الطيران وسلاح المدفعية في البلدين بتبادل الضباط وخضع الطيارون الاسرائيليون لتدريبات مكثفة في فرنسا ·

وفي ٢٠ ايلول ١٩٥٦ ابلغ بن غوريون اللجنة المركزية لحزب ماباي الاسرائيلي ان اسرائيل ستظفر « بحليف حقيقي » قريبا · وكان يعني بذلك فرنسا · « وفي نفس الوقت تقريبا كان الرسميون الاسرائيليون والفرنسيون يعقدون سلسلة من الاجتماعات في باريس وفي اسرائيل لدراسة مختلف اوجه الدعم الجوي والبحري الذي ستقدمه فرنسا لاسرائيل » · (٤) وقد تم ارسال شحنات الاسلحة الفرنسية الى اسرائيل على عجل في الفترة ما بين ٢٢ ــ ٢٧ تشرين الاول ١٩٥٦ وذلك تمهيدا لشن العدوان · واعطي بعض هذه الاسلحة لاسرائيل لاستعمالها خلال فترة الحرب وقدم قسم من السلاح كهبة ، اما القسم الاخر فبيع لاسرائيل باسعار لا تذكر · وارسل عدد من خبراء الامن الفرنسيين للاشراف على الترتيبات الامنية · وابحرت المدمرات الفرنسية « سركوف » و « كرسان » و « بوفيه » الى شواطىء اسرائيل للمساهمة في الدفاع عن الساحل الاسرائيلي · (٥)

وقد شنت اسرائيل عدوانها يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦ · وقامت الطائرات الفرنسية المتمركزة في قبرص بتموين القوات المتقدمة وشاركت طائرات فرنسية اخرى تمركزت في اسرائيل بالقيام باعمال الدورية والاشتباك مع الطائرات المصرية · ثم تبعها مشاركة

القوات الفرنسية بالعدوان بشكل مباشر عندما قامت بالاشتراك مع القوات البريطانية بالهبوط في بورسعيد وبورفؤاد ٠

وقد « حظيت حملة السويس على تأييد شامل من مختلف الاحزاب الفرنسية ، ولم يعترض عليها سوى كتلة اليسار المتطرف » ٠ (٦) ويمكننا القول انها حظيت على بعض التأييد الشعبي ٠ وبالنسبة للديغوليين فقد ابدوا تأييدا متحفظا تجاه اسرائيل الا انهم فضلوا الابقاء على وفاق الشرق والغرب ٠ (٧)

وفي اواخر شهر شباط ١٩٥٧ اعلنت فرنسا صراحة عن نيتها المشاركة في أي مجهود دولي لتأمين حرية الملاحة الاسرائيلية في خليج العقبة ٠ « وقد جاء ذلك بمثابة تعهد معنوي من جانب فرنسا بالوقوف الى جانب اسرائيل والدفاع عنها » ٠ (٨)

اما في الامم المتحدة فقد لعب وزير الخارجية الفرنسية كريستيان بينو دورا مميزا في الدفاع عن الموقف الاسرائيلي خاصة دوره المعارض لمشروع القرار الافرو - اسيوي (الذي قدم في ٩ كانون الثاني ١٩٥٧) والذي يدعو لانسحاب اسرائيل الفوري وغير المشروط من الاراضي المحتلة ٠ وقد كان بينو نفسه هو الذي وضع مشروعا مشتركا مع الولايات المتحدة والذي انسحبت اسرائيل بموجبه من قطاع غزة ومن مدخل خليج العقبة ٠ (٩)

ويمكننا تلخيص الموقف الفرنسي في تلك المرحلة بانه « على الرغم من عدم وجود اي تحالف عسكري فرنسي - اسرائيلي ، الا ان فرنسا وعدت بانها ستتعاون مع الولايات المتحدة الاميركية بشكل كامل فيما يتعلق بمشكلة غزة وتيران وذلك في محاولة لتدويل تلك المناطق ٠ وفي حال تجدد العمليات الحربية المصرية ضد اسرائيل فان فرنسا ستقدم كل العون اللازم لاسرائيل للدفاع عن حدودها » ٠ (١٠)

فترة ما بعد حرب السويس :

يمكن اعتبار الفترة الممتدة ما بين حرب ١٩٥٦ وسقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة عام ١٩٥٨ بانها كانت العصر الذهبي للعلاقات الثنائية بين فرنسا واسرائيل ٠ « فكما افادت دوائر وزارة الدفاع الفرنسية ، كان التعاون بين وزارتي الدفاع الفرنسية والاسرائيلية هو الاكثر تميزا بين مختلف أوجه التعاون » ٠ (١١) حيث ان طبيعة النظام القائم في عهد الجمهورية الرابعة قد افسح المجال امام السياسيين الفرنسيين النافذين في وزارة الدفاع لتدعيم موقف اسرائيل ، وذلك على ضوء نظرتهم لاحتياجات منطقة الشرق الاوسط ٠٠ ويمكن اعتبار حرب السويس بانها مهدت الطريق لكي تتحول العلاقات الفرنسية - الاسرائيلية التي كانت قائمة على التعاون بصورة سرية وغير رسمية الى تعاون علني كامل يصل الى درجة التحالف العسكري ٠ « وبالطبع لا يمكننا الجزم بان العلاقات وصلت الى مرحلة تحالف رسمي على صعيد الدولتين ٠ الا ان العلاقات تطورت بحيث اصبحت قائمة على روابط ثابتة ودائمة وليس مجرد تحالفات ظرفية لتحقيق هدف محدد » ٠ (١٢)

بعد حرب السويس اخذت معظم فروع القوات المسلحة الفرنسية تنظر الى اسرائيل على انها المفتاح الاستراتيجي لمنطقة الشرق الاوسط ٠ واصبح المخططون العسكريون يتعاملون مع اسرائيل على انها حارسة خطوط النفط التي تزود فرنسا بـ ٥٣٪ من

استهلاكها النفطي · واخذ سلاح الطيران بدراسة امكانية استخدام اسرائيل كحلقة وصل بين فرنسا وقواعدها العسكرية في جيبوتي على ساحل البحر الاحمر · « وازاء هذا الدور الذي انيط باسرائيل ان تلعبه فقد اضحت بمثابة القاعدة الوحيدة التي تستطيع بسط النفوذ الفرنسي خصوصا والغربي عموما على منطقة الشرق الاوسط · فاسرائيل هي القاعدة الاصلب والاكثر وثوقا للغرب في هذه المنطقة » · (١٣)

تطورت العلاقات في كافة الميادين دبلوماسيا ، سياسيا ، واقتصاديا · فاصبحت فرنسا هي المزود الرئيسي لاسرائيل بالاسلحة · وتم انشاء لجان التضامن والصداقة · واصبح الاسرائيليون ينظرون الى فرنسا على انها حليفتهم الوحيدة · وقد وصلت الامور الى حد ان الحكومة الفرنسية كانت تقول للاسرائيليين : « طالما يوجد خبز لفرنسا، هناك خبز لاسرائيل » · وعلى الرغم من النقص الذي كانت تعاني منه فرنسا في احتياطي العملة الصعبة الا « ان الفرنسيين كانوا على استعداد لتقاسم احتياطيهم مع الاسرائيليين » · لم يكن على الاسرائيليين سوى ان يعلنوا طلباتهم وكان الفرنسيون مستعدين لتزويدهم بكل شيء · وكان هناك تعاونا في مجال الابحاث الذرية ، فقد افادت بعض الروايات ان الاسرائيليين شاركوا في التجارب الذرية الفرنسية الاولى · وعلى صعيد الجيوش كان التنسيق تاما فاقيمت المناورات المشتركة للقوات وللاساطيل في البحر المتوسط وضاقت الاكاديميات العسكرية الفرنسية بالضباط الاسرائيليين الذين اوفدوا للتدريب وخاصة اكاديميات سلاح الجو ·

والجزائر كانت واحدة من اهم حقول الجهود المشتركة في اواخر ايام الجمهورية الرابعة · فقد شعر الضباط الفرنسيون انه بمقدورهم تعلم وسائل جديدة للحرب النفسية من الاسرائيليين · وأمل الفرنسيون الاستفادة من نموذج « الكيبوتز » الاسرائيلي في برامجهم في الجزائر الا ان هذه الامال لم تجد طريقها للتطبيق بتاتا · اما الاسرائيليون فقد نظروا الى الحرب الجزائرية كوسيلة للاستفادة والتعلم وخاصة في مجالات استخدام الفرنسيين لطائرات الهليكوبتر في مطاردة الفدائيين الجزائريين · (١٤)

عهد الرئيس ديغول :

على ضوء هزيمة الحزب الاشتراكي الفرنسي في منتصف عام ١٩٥٧ ، بدأ التحالف السياسي الفرنسي ـ الاسرائيلي بالتراجع · فأخذ النشاط الداعم لاسرائيل يقتصر على بعض المجموعات مثل لجنة التضامن الاسرائيلية ـ الفرنسية التي أسست في تشرين الثاني ١٩٥٦ · كان انصار اسرائيل في فرنسا يرون ان وجود اسرائيل هو السبب الوحيد الحائل دون التحاق المتطوعين السوريين بالثورة الجزائرية · ومن هنا جاء اقتراحهم بانشاء حلف ثلاثي يجمع فرنسا واسرائيل والجالية اليهودية في العالم وذلك لاستغلال « النفوذ اليهودي » لتقوية ركائز السياسة الفرنسية في الجزائر ·

هكذا كان الوضع قبل مجيء ديغول · فماذا كان موقف ديغول لدى تسلمه للحكم في فرنسا · كان اول ما قام به ديغول هو البدء بتخفيف حدة « التورط » الفرنسي مع اسرائيل الذي كان سائدا في فترة السويس وما تبعها · « فتطور السياسات الداخلية والخارجية للجمهورية الخامسة وطبيعة النظام الذي شرع الجنرال ديغول ببنائه ، عملا على تبديل فحوى العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية وساهما في اضعاف العلاقات الخاصة القائمة بين البلدين » · (١٥)

ونتيجة للتعديل الدستوري الذي فصل بين الحكومة والبرلمان بحيث لم يعد بمقدور عضو البرلمان ان يشارك في الحكومة ، انتقل العديد من المناصب الحكومية الحساسة الى ايدي تقنيين وبيروقراطيين لا يتعاطون السياسة ، والذين لم يربطهم اي رابط تضامني مع اسرائيل · وكانت الميزة الرئيسية للقابعين على سدة الحكم في الجمهورية الرابعة هي الدعم اللامحدود لاسرائيل · أما في عهد الجمهورية الخامسة فقد تبدلت سياسة اتخاذ القرارات واصبحت اكثر مركزية على عكس اسلوب الجمهورية الرابعة حيث كان باستطاعة مراتب عديدة اتخاذ القرارات ، وهو الامر الذي استفادت اسرائيل منه كثيرا ·

وجاءت مصالحة فرنسا مع مصر في اواخر ١٩٥٩ واعادة العلاقات بينهما بمثابة المفتاح الذي مهد الطريق امام عودة فرنسا بقوة الى العالم العربي · فبدأ « اللوبي » الاسرائيلي في فرنسا بالتداعي وكان واضحا ان جهود شمعون بيريز ، المدير العام لوزارة الدفاع الاسرائيلية ، وغيره من المسؤولين الاسرائيليين من اجل تحسين الاوضاع قد ذهبت سدى · ويذكر أن شمعون بيريز هو احد ابرز مهندسي العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية · (١٦)

وبالرغم من كل تلك النواحي السلبية الا ان العلاقات الثنائية على صعيد وزارتي الدفاع ظلت محافظة على نفس المستوى من المتانة · فاستمر تدفق الطائرات والاسلحة ، واستمر التعاون الوثيق بين القوات المسلحة في البلدين في جميع المجالات ، بما في ذلك الابحاث الذرية · ومغزى ذلك أن وزارة الدفاع الفرنسية لم تواجه ما واجهته الوزارات الاخرى من تغييرات ، فظل القرار بايدي الاشخاص اياهم الذين دعموا اسرائيل في السابق · (١٧) ونقطة اخرى هامة ان ديغول هو اول زعيم فرنسي يقيم علاقات مع اسرائيل على اسس سياسية واضحة وليس لمجرد خدمة معينة مثل دعم السياسة الفرنسية في الجزائر · (١٨)

العلاقات الثنائية في اوائل الستينات :

في اوائل الستينات بدأ الجنرال ديغول بانتهاج سياسة جديدة مؤداها التقرب من دول العالم الثالث ، وعلى الاخص سوريا ومصر ، الا ان هذه السياسة لم تؤثر على العلاقات الطيبة التي كانت تربط فرنسا باسرائيل · فاستمر تدفق الاسلحة الفرنسية على اسرائيل · (١٩) لكن الامور ما لبثت ان بدأت بالتحول · فمن ناحية سويت القضية الجزائرية بحصول الجزائر على استقلالها · ومن ناحية اخرى بدأت تسمع اصوات في فرنسا تطالب بالكف عن تقديم العون لاسرائيل على اعتبار « ان ذلك الدعم هو ضرب من الجنون » · فالشركات النفطية الفرنسية اخذت بالضغط على الحكومة لتبديل موقفها لما لهذا الموقف من اخطار مباشرة على مصالح تلك الشركات في العالم العربي · واخذ بعض المسؤولين الفرنسيين يشبهون اسرائيل بالالزاس واللورين · فأطلقوا عليها اسم « الالزاس واللورين العربية » · (٢٠)

وانعكس ذلك الوضع على العلاقات الاقتصادية ، فقررت شركة « رينو » للسيارات الغاء اتفاقية تجارية كانت موقعة مع اسرائيل للانتاج المشترك · وحذت حذوها شركة « دوفين » التى كانت قد وقعت اتفاقا مشابها في عام ١٩٥٥ · وقررت شركة الخطوط الجوية الفرنسية الغاء اتفاق للتعاون كانت قد وقعته مع شركة « العال » الاسرائيلية ·

وعلى الجانب الاسرائيلي طرأت بعض التغيرات التي ساهمت في تدهور العلاقات

الاسرائيلية ـ الفرنسية . ففي عام ١٩٦٣ اصبح ليفي اشكول رئيسا للوزراء في اسرائيل بدلا من بن غوريون . وفي عام ١٩٦٥ استقال شمعون بيريز من منصبه كمدير عام لوزارة الدفاع الاسرائيلية . ومن المعروف ان بن غوريون وبيريز هما اللذان ارسيا قواعد العلاقات المتينة بين اسرائيل وفرنسا في عهد الجمهورية الرابعة . (٢١)

في اواسط الستينات ظهر جليا ان الرسميين الفرنسيين بدأوا يظهرون نوعا من التعاطف مع القضية العربية . فبدأت الظواهر السلبية تسود جو العلاقات الثنائية بين فرنسا واسرائيل . وبدأت فرنسا بارساء قواعد متينة للتعاون الاقتصادي مع العالم العربي مستغلة قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول العربية والمانيا الغربية وذلك في العام ١٩٦٥ . (٢٢) ويمكننا تلخيص السياسة الخارجية الفرنسية في تلك المرحلة كما يلي : ـ

١ ـ كان الاتجاه العام للسياسة الفرنسية يميل نحو التقرب من العالم الثالث .

٢ ـ بدأت فرنسا بانتهاج سياسة « اوروبية » مبتعدة اكثر فأكثر عن سياسة حلف « الناتو » .

٣ ـ بدأت فرنسا مفاوضات مع بعض الدول العربية لتزويدها بالاسلحة . وهذا ما اثار مخاوف الاسرائيليين .

وفي عام ١٩٦٦ استمر ديغول بانتهاج سياسته « المضادة للناتو » وبدأ بتعزيز علاقاته بالكتلة الشرقية وبدول العالم الثالث . ويمكننا استنتاج التأثيرات السيئة لهذه التحولات على الاسرائيليين من لجوء هؤلاء الى الولايات المتحدة الاميركية لتزويدهم بالطائرات والاعتدة الحربية . طلبهم هذا لم يكن مجرد صدفة بل هو نابع من تخوف الاسرائيليين من النتائج البعيدة المدى المترتبة على ضوء التقارب العربي الفرنسي المستمر . وبالنسبة للعلاقات الاقتصادية فان مجموع الصادرات الاسرائيلية لفرنسا بلغت في تلك الفترة ١ـ١٠ من قيمة الواردات . اما الصادرات الاسرائيلية الرئيسية لفرنسا فكانت اساسا الخمور والزيتون والفاكهة . (٢٣)

حول حرب حزيران ١٩٦٧ :

كان المحرك الاساسي للسياسة الديغولية عام ١٩٦٧ هو رغبة الجنرال ديغول بفصل السياسة الفرنسية عن السياسة الاميركية وخاصة في جنوب شرق اسيا . وبالنسبة للشرق الاوسط فقد كان ديغول يعتقد ان السوفييت قد بسطوا هيمنتهم على تلك المنطقة كرد فعل مباشر للتورط الاميركي في فيتنام . ومن ناحية ثانية اراد الجنرال ديغول ان يضاعف النفوذ الفرنسي في منطقة الشرق الاوسط وان يعمل على تأمين استمرار تدفق النفط العربي على فرنسا بشكل مستقل عن اية قوة غربية اخرى . يضاف الى هذا ان ديغول كان يأمل مشاركة فرنسا في اية تسوية لازمة المنطقة تنجزها الدول الكبرى وكان احد همومه في المنطقة هو منع انجرار الدول العربية « التقدمية » اكثر فأكثر نحو التطرف وهو الامر الذي قد ينتج عن ضعف النفوذ الغربي في المنطقة . (٢٤)

ولدى تسارع الاحداث التي مهدت لحرب حزيران ١٩٦٧ ، ظل الجنرال ديغول صامتا . وقد اعتقد بعض المراقبين في حينه ان صمت ديغول منبعه رغبته بالمحافظة على حياده على أمل دعوته في النهاية للتوسط لحل النزاع . (٢٥) وفي ٢٤ ايار ١٩٦٧ وصل وزير

الخارجية الاسرائيلي ابا ايبان الى باريس للحصول على دعم فرنسي للموقف الاسرائيلي . الا ان ديغول افاده ان فرنسا لا توافق على قيام اسرائيل بمهاجمة مصر « فهو لا يقبل بتدمير دولة اسرائيل ، الا انه يدين الدولة التي ستطلق الطلقة الاولى » . وبهذا فان فرنسا لم تعد ملتزمة بتعهداتها لاسرائيل التي قدمتها عام ١٩٥٧ حول تأمين حرية الملاحة في خليج العقبة . (٢٦)

يوم ٣ حزيران ١٩٦٧ قررت فرنسا حظر ارسال الاسلحة لكل دول الشرق الاوسط بما في ذلك ٥٠ طائرة ميراج ٥ كانت اسرائيل قد دفعت ثمنها قبل قرار الحظر . وفي ١٥ حزيران ١٩٦٧ اصدرت الحكومة الفرنسية بيانا اعادت فيه التأكيد على حياد الموقف الفرنسي ورفضها الاعتراف بأية مكاسب اقليمية ناتجة عن حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ ـ وتقصد بذلك اسرائيل بالطبع ـ وان فرنسا تعتقد ان الطريقة الوحيدة لحل أزمة الشرق الاوسط هي المفاوضات السلمية . (٢٧)

وفي ٢١ حزيران ١٩٦٧ اعلن الجنرال ديغول ادانته لاسرائيل لانها كانت البادئة بالعدوان . ويبدو ان الضغوط التي مارسها الصهاينة على ديغول في فرنسا والنصر العسكري الاسرائيلي في حرب حزيران ، والصورة الضخمة للمأزق الاسرائيلي التي عرضها ابا ايبان امامه ، كل هذه العوامل دفعت ديغول للتصلب اكثر فاكثر تجاه الاسرائيليين الى درجة ادانة « العدوان الاسرائيلي » و « التوسع الاسرائيلي » لا بل ومهاجمة اليهود انفسهم واصفا اياهم « بالغرور وحب التسلط » وذلك في مؤتمر صحافي عقده في باريس يوم ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ . (٢٨)

وقد عاد ديغول عن قرار الحظر بشكل جزئي اذ وافق على ارسال بعض قطع الغيار لاسرائيل بعد الحرب . الا انه فرض حظرا شاملا على ارسال الاسلحة وقطع الغيار لاسرائيل اثر العدوان الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت الدولي عام ١٩٦٨ . وهذا الحظر لا يزال ساري المفعول حتى يومنا هذا .

الحواشي :

(1) هويدي ، امين . **حروب عبد الناصر**، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٥٩ .

(2) Lenczowski, George. **The Middle East In World Affairs,** Ithaca, 3rd. ed. 1962, P. 431.

(3) Crosbie, Sylvia. **A Tacit Alliance : France and Israel from Suez to the Six Day War,** Princeton, New Jersey, 1974, P. 68.

(4) **Ibid,** P. 71.

(5) **Ibid,** P. 77.

(6) **Ibid,** P. 87.

(7) **Ibid.**

(8) **Ibid.** P. 92.

(9) Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. 1, **Israeli — French Relations,** P. 353.

(10) Crosbie, **op. cit.,** P. 94.

(11) Bar - Zohar, Michael. **Bridge Over the Mediterranean - - French - Israeli Relations 1947 - 1963 ,** (in Hebrew) Tel-Aviv. 1965, P. 73.

(12) Crosbie, **op. cit.,** P. 51.

(13) **Ibid,** P. 86.

(14) Bar-Zohar, **op. cit.,** P. 114.

(15) Crosbie, **op. cit.,** P. 123.

(16) Bar-Zohar, **op. cit.,** P. 216.

(17) Crosbie, **op. cit.**, P. 140.

(18) Bar-Zohar, **op. cit.**, P. 218.

(19) Encyclopedia of Zionism and Israel, **op. cit.**, P. 354.

(20) Bar-Zohar, **op. cit.**, P. 216.

(21) Crosbie, **op. cit.**, P. 170.

(22) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥** ، العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص ٤٨٣ ٠

(23) Bar-Zohar, **op. cit.**, P. 253.

(24) Crosbie, **op. cit.**, PP. 193 - 194.

(25) **Ibid.**, P. 190.

(26) Encyclopedia of Zionism and Israel, **op. cit.**, P. 355.

(27) **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧** ، العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص ٨١٦ ٠

(28) Crosbie, **op. cit.**, P. 192.

احمد صدقي الدجاني

نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين "٣"

فلسطين تحت حكم الرومان

ظهر الرومان في سورية عام ٦٤ ق٠م٠ وكانت حالة من الفوضى اورثها اياها الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر ، وقضى القائد الروماني « بومبي » على المملكة السلوقية وحول سورية الى ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية ٠ وحين زحف الى جنوب البلاد كان الصراع محتدما في اليهودية بفلسطين بين ابني اسكندر هيركانوس واريسطوبولس – بعد موته – وقد فتح هيركانوس وانصاره بوابات القدس للرومان ، ولكن بومبي احتاج ثلاثة شهور من الحصار ليقضي على مقاومة اريسطوبولس وانصاره ٠

دخل بومبي القدس عام ٦٣ ق٠م٠ واكمل فتح فلسطين ، واجرى تعديلات ادارية فيها باعتبارها الجزء الجنوبي من ولاية سورية ٠ فسمح للملوك العرب من الانباط الاستمرار في الحكم مع دفع الجزية ٠ وابقى اليهودية دولة خاضعة ضمن اطار الولاية بعد ان اخرج منها المدن ذات الدساتير اليونانية التي سبق ضمها اليها ٠ ومنحت هذه المدن حرية داخلية في ظل حكام الولايات ، وشكلت عشرة منها تجمعا عرف باسم (ديكابوليس) انضمت اليه مدن اخرى فيما بعد ، ومنحت غزة ومستعمرات اخرى في سورية الحكم الذاتي وجعلت تحت حكام الولايات ٠ (١)

استشعر بومبي اهمية ولاية سورية بين الممتلكات الاسيوية للامبراطورية الرومانية وعهد بها الى مبعوثه الكفؤ **اولوس غابينوس** (٥٧ – ٥٥ ق٠م٠) الذي زاد في انقاص سلطة المملكة اليهودية بتجريد كاهنها الاعظم هيركانوس الثاني حفيد اريسطوبولس من رتبته الملكية، وبفرض ضرائب ثقيلة على السكان ،

وتقسيم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كلا منها مجلس او « سنهدرين »٠ واعاد غابينوس بناء عدد من المدن اليونانية الفلسطينية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة وبيسان ودورا وغزه ، وعمل على انعاش الهلينية فيها ٠

وبرز في فلسطين اوائل الحكم الروماني لها انتيباتر الادومي ٠ وهو من اهالي عسقلان ومن الادوبيين الذين اكرهوا على الدخول في الدين اليهودي ، وقد عرف بغناه الوافر وبذكائه وكان يعمل مستشارا لهيركانوس الثاني ٠ وحين نشب الخلاف بين بومبي ويوليوس قيصر اخذ انتيباتر جانب الاخير ٠ كما امده بعون عسكري حيوي حين حاصر بطليموس الثاني ملك مصر يوليوس قيصر في الاسكندرية ، فسار انتيباتر بثلاثة الاف جندي وساعده على فك الحصار والانتصار على جيش بطليموس ٠ وقد منحه قيصر حقوق المواطنة الرومانية وعينه نائبا او وكيلا ماليا حين زار سورية عام ٤٨ق٠م٠ وهكذا اصبح انتيباتر السلطة الحقيقية وراء هيركانوس الضعيف وصرف امور البلاد ، واقام ابنه البكر «فصايل» واليا على القدس وابنه الاخر « هيرود » واليا على الجليل ، وحين اغتيل قيصر عام ٣٣ ق٠م قتل انتيباتر بايعاز من هيركانوس ٠

وعاشت فلسطين سنوات اضطراب ابان الحرب الاهلية التي نشبت في رومة اثر اغتيال قيصر ، شأنها في ذلك شأن سورية وبقية ولايات الامبراطورية ٠ وقد اصبحت اثناء تقسيم العالم الروماني من قبل الحكومة الثلاثية الثانية تحت حكم مارك انطوان مع سورية ومصر ولم يأت هذا الحكم الذي دام اربع سنوات (٤٠ ــ ٣٦ ق٠م٠) بالهدوء ولا بالسلم ٠٠ وشهدت البلاد الغزوة الفرتية الكبرى من ٤٠ ــ ٣٨ ق٠م٠ التي ادت الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صور ٠ واستغل انتيجونس الهسموني حالة الفوضى التي عمت فحالف الفرتيين ملوك الفرس واقام نفسه ملكا على اليهودية ، وكان قيصر قد طرده من قبل ٠ لكن ما اسرع ما هلك حين استتب الامر مرة اخرى للرومان عام ٣٧ ق٠م٠ فقد اعدم بأمر من مارك انطوان وانقضى بموته ملك المكابين الذي دام ١٢٥ سنة ٠

تولى هيرود بن انتيباتر العسقلاني حكم اليهودية بفلسطين سنة ٣٧ ق٠م٠ حين عهد اليه بها مارك انطوان ٠ وكان هيرود قد ساعد الرومان في القضاء على انتيجونس ٠ وهو اول ملوك الاسرة اليهودية ٠ وقد اتخذ حفيده هيركانوس الثاني زوجة ثانية له ووطد سلطته كملك واتخذ من اورشليم عاصمة له ، وحكم لمدة ثلاث وثلاثين سنة (٣٧ ــ ٤ ق٠م٠) ٠

كان هيرود مواليا للرومان هيلينا في افكاره وأسلوب حياته ٠ وقد اطمأن له اغسطس قيصر ورضي عنه فولاه فضلا عن فلسطين مناطق اخرى مجاورة حتى اصبح حكمه يشمل البلاد الواقعة بين الصحراء والبحر من سفوح جبل

الشيخ الى سيناء · وقد اجتهد هيرود في نشر آداب الرومان وتقاليدهم وتدينهم · ونجح الى حد ما حيث اخفق **انطيوخس ابيفانس السلوقي** في جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلنستيه · وبدأ في مشروع انشاء ابنيه عامة بدل بموجبه البلاد تبديلا تاما · فبنى في اورشليم ميدانا لسباق الخيل ومسرحا ومدرجا واقام العابا عامة لا تتفق مع الدين اليهودي ، واعاد بناء المعبد · وزين السامرة مقره المفضل بالابنية وسماها سبسطية اكراما لاغسطس قيصر · واعاد بناء برج ستراتون على الساحل وسماه قيصرية التي قدر لها ان تصبح عاصمة فلسطين الرومانية · وبنى هيرود مدينة انتيباتريس ـ نسبة الى ابيه عند منابع نهر العوجا للشمال الشرقي من يافا ، ومدينة فصايل بالغور ـ نسبة الى اخيه ، كما اعاد بناء قلعة قرن صرطبة بالغور · وزين اريحا وبنى فيها قصره الشتوي ، كما بنى جنوبها قلعة « قبرص » نسبة الى امه كذلك زين هيرود عسقلان مسقط رأسه ،، وشيد كثيرا من القلاع والابراج في مختلف انحاء مملكته من اشهرها قلعة (**مسادا ـ مصعدة**) غربي البحر الميت ·

وعرف هيرود بقسوته وقوة ارادته · وكان واسع الحيلة حاد الذهن سحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق ، وقد عاش في بلاطه الكاتب **نيقولاوس الدمشقي** المؤرخ والفيلسوف الذي ولد بدمشق عام ٧٤ ق·م· وكان صديقا له وقد ألف تاريخا عاما وكتب مقالات فلسفية باليونانية · وعن تاريخه نقل المؤرخ يوسيفوس مادة القسم المتعلق بهيرود · ويسجل لهيرود انه بذل جهده عام ٢٢ ق·م· لتوفير الطعام للناس حين اصيبت البلاد بالقحط والمجاعة ، واشترى من ماله حنطة كثيرة من مصر لهذا الغرض وزعها على الناس مجانا ، وقد تزوج عشر نساء وانجب عدة بنين وذبح بعضا من نساءه وافراد اسرته ممن عارضوه · وعلى الرغم من تجديده المعبد بالقدس حتى اصبح اضخم واجمل من الذي بناه سليمان ، وعلى الرغم من اعتناقه ظاهريا الدين اليهودي فقد كرهه اليهود بفلسطين لتغريبه وانغماسه في الحضارة الهلسنتيه · وكانت وفاته عام ٤ ق·م· في فترة ولادة المسيح عليه السلام الذي يرجح انه ولد بين ٦ ـ ٢ ق·م· وقد لقب بالكبير لما قام به من الاعمال الضخمة ·

تقاسم اولاد هيرود الثلاثة مملكة ابيهم بحسب وصيته التي اقرها الامبراطور اغسطس وحكم **ارخيلاوس** القدس والخليل ونابلس وادوم · وتنافس مع اخيه **هيردوس انتباس** الذي حكم ما بين نهر الليطاني وبحر الجليل واجزاء من الساحل ومن شرق الاردن · وهذا الاخير هو الذي بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر · اما الثالث **هيردوس فيلبس** فقد كان واليا على الجولان واللجاة وقد اساء ارخيلاوس السيرة بظلمه وجوره فعزله اغسطس عام ٦م· ووضع اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام او النواب الرومان وخامسهم هو بيلاطس البنطي الذي وقعت في عهده حوادث السيد المسيح · وحكم **انتباس** حتى

عام ٣٩ م٠ وهو الذي تزوج « هيروديا » ابنة الحارث الرابع ملك الانباط ثـم طلقها ليتزوج ابنة اخيه اريسطوبوليس البارعة الجمال والماجنة والتي كانـت متزوجة قبله عمها فيلبس ٠ وقد تلوثت يداه بدم يحيى بن زكريا الذي انتقد هذا الزواج ونشبت بينه وبين ملك الانباط حرب خسرها وكانت نهايته العزل والنفي الى فرنسا بأمر من الامبراطور كانيغولا ٠ كما حكم فيليبوس حتى عام ٣٤م٠ وقد تميز عن اخويه بشيء من الاعتدال ٠ ومن الذين حكموا من سلالة هؤلاء « اغريبا الاول » من (٤١ ـ ٤٤ م) وهو حفيد هيرود الكبير ، وقد تعلم في روما وخص بيروت ابان حكمه بكثير من التحسين والتجميل وتوفي فجأة في قيسارية ٠ وكان آخر من تولى منهم « اغريبا الثاني » ابن اغريبا الاول ، واشتهر بخضوعه التام للرومان ، وقد ساعدهم في جمع مقاومة اليهود وانتهى به المطاف في روما حيث مات هناك عام ١٠٠م وانتهت بموته دولة الهرادسة الادوميين واصبحت روما تحكم فلسطين حكما مباشرا ٠ (٢)

وقبل ان نطوي صفحة حكم الادوميين لفلسطين نقف عند حدث كبير شهـده عهدهم ٠ ذلك هو مولد المسيح عليه السلام وظهور المسيحية ٠ وقد ولد عيسـى بن مريم في بلدة بيت لحم ، ونشأ في الناصرة ، وباشر دعوته حين بلغ الثلاثين من عمره ، فأخذ يتجول في فلسطين داعيا الى محبة الله ومحبـة الانسان ٠ وتبعه عدد من الحواريين والتلاميذ الذين بدلوا حياتهم كما فعل هو ٠ وقـد سجل بعض هؤلاء فيما بعد تعاليمه واعماله في كتب عرفت باسم الاناجيـل (والانجيل كلمة يونانية معناها البشارة) ٠ وكان تأكيد هذه التعاليم على وحدة الانسانية وعلى خدمة الانسان وعلى الروحانية الداخلية عوضا عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية وقد انطلقت من نظرة عالمية ، وقرنت الحيـاة الاخلاقية بالدين ، فاصبح الاحسان من اعمال الايمان بدلا من ان يكون من اعمال العدل ، وبشرت بالحياة الاخرى ٠

استمر المسيح يدعو قومه ثلاث سنوات ، ولفظة المسيح هي ترجمة للكلمـة العبرانية « مشيا » التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود وبالتالي للملـك الموعود ٠ وقد حمل الحواريون عبء الدعوة من بعده للدين الجديد الذي عرف باسم المسيحية ، وانتشر الدين الجديد اولا بين عدد قليل من فلاحي فلسطيـن اليهود ثم شق طريقه ببطء بين كافة السكان بفلسطين وبدأ تداول الاناجيـل التي يرجح انها كتبت في القرن الاول للميلاد ، كما دونت اعمال الرسل مـن الحواريين ونشاطهم في التبشير ووصاياهم في سبعة وعشرين سفرا ، وكانت نواة المجتمعات المسيحية الاولى مؤلفة من اليهود ، وقد بدت الديانة الجديـدة للمواطن الروماني المتوسط حتى نهاية القرن الاول كمذهب يهـودي غامض ٠ وحكم الامبراطور دومتيان على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر يتصل باليهودية ـ ويقصد المسيحية ـ ولم يلفت الدين الجديد انظار الناس بوجه عام حتى زمـن

الامبراطور تراجان في القرن الثاني للميلاد (٩٨ ـ ١١٧م) ٠ وحين اعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة في الامبراطورية قام الكتاب اليونان واللاتين يحاربون الدين الجديد ويدعون الناس للتمسك بالاديان القديمة التي تقترن بالامجاد الماضية لتاريخهم القومي ، وتعتبر رموز للسلطة الامبراطورية ، وقد بدت بعض مظاهر الدين الجديد غريبة على الفكر الروماني اليوناني ، ولكن جهود بولس والآباء المسيحيين الاوائل اعطت المسيحية شكلا هيلنيا جعلها ملائمة للانتشار ومقبولة لدى الرومان واليونان ٠ وقد عملت ظروف عدة لصالح المسيحية ولكن كان على اتباعها الاوائل ان يتعرضوا لنار الاضطهاد قبل ان يتأكد لها النصر ٠ (٣)

كانت فلسطين اذن مقر النبتة الاولى للديانة المسيحية ٠ وبينما كان هذا الدين الجديد ينطلق منها الى شتى انحاء الامبراطورية والعالم ، كانت ارض فلسطين تشهد تجربة الحكم الروماني فيها ٠ وقد حاول هذا الحكم ان يصبغها بالصبغة الهلينية الرومانية على مدى الحقبة الزمنية التي دام فيها من عام ٦٤ ق٠م٠ الى عام ٣٢٣ م٠ وذلك ان الرومان ـ وهم من الهنود الاوربيين ـ كانوا الوحيدين من بين شعوب البحر المتوسط الذين تقبلوا بسهولة حضارة اقربائهم اليونانية ، بينما يلاحظ ان اكثرية سكان آسية الغربية وشمال افريقيا ـ اي منطقة الوطن العربي ـ وهم من الساميين والحاميين ، كانوا ينظرون الى تلك الحضارة كحضارة غريبة مفروضة عليهم من الاجانب ٠ وقد اسبغ الحكم الروماني حمايته على مراكز الهيلنية في فلسطين وسوريا عموما ، فاستمرت الحياة في هذه المراكز كما كانت ابان الحكم اليوناني ، وتبنت السلالات المحلية التي سمح لها الرومان بالبقاء على هذه الحياة ، ومنهم سلالة هيرودس باليهودية في فلسطين والحارث في البتراء ، واذينه في تدمر ، واحتفظت الجماعات المحلية بفلسطين بديانتها ولغتها وعاداتها الخاصة ، ولم يفرض عليها نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة على ممارسة استقلالها الذاتي ، وقد اخذ الرومان على عاتقهم مسئولية حمايتها واخذ الجزية منها ، وعينوا لها حكاما من الرومان ٠ فاما الجماعات الارامية في الداخل فاستمرت تسيطر على شؤونها الداخلية كما سبق ، وعلى حدود الصحراء حيث كان طراز المعيشة البدوي لا يزال سائدا كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية ، واتبع النظام القبلي في الادارة ٠ وفي اليهودية اصبح الكاهن الاعظم رئيسا للطائفة بعد ان فقد لقب الملك ، وكانت الارستقراطية اليهودية هي التي تعينه ، واظهرت رومة طيلة حكمها شيئا كثيرا من التسامح تجاه هذا التنوع ، واحتفظت المستعمرات اليونانية بحكامها الذين كان يتبعهم مجلس للشيوخ ومجلس شعبي ٠

وتكلم غالبية سكان فلسطين في تلك الفترة اللغة الارامية بعد ان تبناها العرب سواء منهم الايتوريون الاقوياء في الشمال او الادوميون الذين تهودوا

اسميا واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد ، وبقيت اللغة العبرية لغة مقدسة بين اليهود ، كما كان المثقفون من اهل البلاد يكتبون باليونانية ، وتمسك العرب في البوادي بلغتهم العربية · ولم يجد سكان فلسطين ما يستعيرونه من الحضارة الرومانية الا القليل ، مع ما عندهم من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية · وقد بقي الادب اللاتيني بالنسبة لهم كتابا مغلقا ، ولكن الحكم الروماني اهتم بطرق المواصلات ، فرصف عددا من الطرق في فلسطين وسورية عموما واقام عددا من الجسور ، الامر الذي ساعد على دفع جماعات من البدو نحو حياة الاستقرار ، ويسجل للادارة الرومانية انها فتحت امام البلاد سوقا عالمية ·

ولقد شجع استتباب الامن وتوسع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة الانتاج الاقتصادي في البلاد الى حد لم يعرف قبلا ، وتجلى الازدهار في ارتفاع مستوى المعيشة بين السكان الذين تزايد عددهم حتى قارب المليون في فلسطين وسبعة ملايين في سورية الكبرى كما تجلى في العناية بالمدن ·

وازدهرت الزراعة في البلاد وتحدثت الكتابات اللاتينية عن اشجار سورية التي ادخل بعضها الى ايطاليا وعن شهرة فطر اورشليم وبصل عسقلان ، وعن كبر ثمر البلح وحلاوته ووفرة اشجاره في الغور وعن الكروم الواسعة في الخليل والجليل وغزة وانتشرت البستنة واعتنى الناس «بالجنائن » ، وساعد على اتساع الزراعة استعمال الالات المائية والمعاصر وطرق التسميد الراقية وعناية الرومان بمشاريع الري وانشاؤهم القنوات ·

كذلك ازدهرت الصناعة واشتهرت خمور غزة وعسقلان والجليل ، كما اشتهرت المدن الساحلية بصناعة صبغة الارجوان وبنسيج الحرير · وكان الزجاج يصنع قرب عكا ، واستخرج الملح من السواحل عموما والزفت من البحر الميت والنحاس من منطقة اريحا ·

وكانت التجارة المورد الرئيسي للثروة ، وقد فاق التجار في الغنى ارباب الصناعة والملاكين الزراعيين ، وكان هؤلاء التجار من اهل البلاد وبقيت التجارة فردية واستمرت تجارة العبيد في الازدهار ، وكانت المدن الساحلية ومدن القوافل هي مراكز التجارة وهي اغنى المدن ، وقد صدرت النبيذ والارجوان والتمر والسمك ، واستوردت الخزف والبهارات والحرير والجواهر ، وبلغت المبادلات التجارية ذروتها ابان الحكم الروماني في عصره الذهبي ·

ولم يطرأ تغير جذري على الحياة الاجتماعية في فلسطين خلال ذلك العهد فبقي المظهر العام لحياة الريف كما كان ، وعاش الفلاحون في القرى الكثيرة على انتاج الكروم والمزارع ، وكانت بعض الاراضي المحيطة بالقرية مشاعا وتؤلف مصدر ايراد للقرى ، وملك بعض الافراد القرى · وليس هناك وثائق

تدل على استخدام العبيد في الزراعة ، وكان تأثر هذه القـرى بالحضـارة الرومانية ضئيلا كتأثرها بالحضارة الهيلنية ، ذلك ان القرويين تمسكوا بقـوة بطرق حياتهم التقليدية ، وفي المدن عاش كبار الملاك واصحاب قطعان الماشية ، وشكلوا الارستقراطية الوطنية وكان من بينهم رجال الدين · وعاش معهـم موظفو الحكومة ، وقد استخدموا الرقيق وانصرف كثير منهم الى حياة الترف· ومع ذلك بقي شعور الولاء نحو العائلة مسيطرا وهو ما احتفظوا به من تـراث العصر القبلي · وساعدت المفاهيم التقليدية على الاعتدال في العادات ، وكانت المرأة في الريف تخرج سافرة كما هو شأنها اليوم ، بينما لبست نساء المـدن براقع تحيط بالرأس وتتدلى على الاكتاف ، واستحسنت النساء الوشم وخصوصا على الصدر ، ويبدو ان الرجال اهملوا عادة الختان ـ وهي عادة سامية قديمة ـ بفعل الاحتكاك بالهنود الاوربيين من يونان ورومان ، وتركوها نهائيا بتأثيـر المسيحية لتعود من جديد بعد انتشار الاسلام ·· وقد انتشرت في المدن انـواع اللهو الرومانية كالمصارعة وسباق العربات والمباريات الموسيقية والتمثيـل المسرحي · وكان الصيد محببا لدى الاغنياء · وبقيت الحمامات العامة التـي ظهرت في العهد السلوقي وزاد الاقبال عليها ، واشتهر اهل فلسطين وسوريـة في الامبراطورية الرومانية بالبراعة في الموسيقى والتمثيل ·

وازدهرت الحياة في المدن الفلسطينية التي جمعت بين نماذج مختلفة فكانت هناك المدن الفلسطينية القديمة على الساحل مثل غزة وعسقلان ويافا وعكا ،وقد اصطبغت بالصبغة الهيلينية · ثم كانت هناك المدن التي بنتها الاسرة الهيرودية وهي قيصرية على البحر وسبسطية وطبرية وقيصرية فيلبي · وكانت هنـاك ايضا المستعمرات القليلة التي بناها الرومان واشهرها فيابوليس (المدينـة الجديدة) وقد بنيت على موقع مدينة شكيم التي تذكر في العهد القديم ، وكانت قد جددت باسم سكيثوبوليس ثم خربها اليهود الثائرون لان يهودهـا انضموا للرومان ، فاعاد فسباسيان الروماني بناءها واطلق عليها اسم فلافيـوس نيابولس · وقد بنى فسباسيان مدينة باسم عمواس على بعد سبعة اميال شمال غربي القدس · وفي الداخل بقي حلف المدن العشر « الديكابولس » موجودا ·

ونشطت في هذه المدن الحركة العلمية ، وازدهرت فيها مدارس غزة وعسقلان وقيسارية وظهر في فلسطين المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في القدس حوالي ٣٧م وكان يهوديا ينحدر عن طريق امه من المكابيين على حد قوله وقد شارك في ثورة اليهود ضد حكم الرومان واسر ، ثم التحق بعائلة الامبراطور في روما وكتـب كتابه « آثار اليهود » الذي تحدث فيه بالتفصيل عن حكم المكابيين وحكـم الهيروديين · وكتابه « حروب اليهود » الذي كتبه بالارامية وسجل فيـه احداث الثورة التي شهدها· كما ظهر في فلسطين القديس يوستين الشهيد الذي ولد في نابلس حوالي سنة ١٠٠ م من أبوين وثنيين واعتنق المسيحية بعد ان كـان

متحمسا للفلسفة الافلاطونية وكرس حياته للدفاع عن المسيحية والتبشير بها ٠ واسس في روما مدرسة كان يعلم فيها اللاهوت المسيحي بعد ان ادخل فيه عناصر من الفلسفات الافلاطونية والرواقية ٠ وقد دافع عن المسيحيين امام الامبراطور انطونيوس بيوس ثم استشهد في مدرسته حوالي سنة ١٦٥ م لانه رفض ان يقدم الذبائح للآلهة وكان ذلك في عهد ماركوس اوريليوس ٠

كان انطلاق المسيحية من فلسطين الى مختلف انحاء الامبراطورية الرومانية ابرز مظهر من مظاهر تأثير الحضارة السورية على الرومان ، وبالمقابل كان للحضارة الرومانية تأثيرها على جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ذروتها عام٢١٢م حين اصدر كراكلا مرسومه الشهير بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات ، وحدث هذا التأثير ايضا عن الرومانية وفي بعض المدن الاخرى ٠ وحدث التوسع في منح الامتيازات الرومانية لغير الايطاليين حين اعتلى تراجان الاسباني الاصل عرش روما ، وبلغت هذه السياسة ذروتها عام ٢١٢ حين اصدر كراكلا مرسومه الشهير بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات وحدث هذا التأثير ايضا عن طريق الخدمة العسكرية وادخال عدد كبير من السكان الاصليين في الفرق الرومانية ، لان افراد الجيش كانوا يصبحون مواطنين رومان بصورةتلقائية ، يستعملون اللغة اللاتينية ويتخذ بعضهم لنفسه اسماء رومانية ٠

كانت الاستجابة للتأثير الروماني بين شعب فلسطين اقل منها في الجماعات السورية الاخرى ، وذلك بفعل انتشار اليهودية فيها ٠ وكانت الجماعة اليهودية منقسمة الى الصدوقيين الذين مثلوا الارستقراطية المصطبغة بالصبغة الهلينية ، و**الفريسيين** الذين مثلوا عامة الشعب وتمسكوا بتقاليد ديانتهم وهدفوا الى الى التحرر واتصلوا **بالهاسيديم** (الاتقياء) اسلافهم في العصر المكابي ، فاما الصدوقيون فقد احتكروا الوظائف وقبلوا الهيلينية الرومانية وحصلوا على تأييد روما ، بينما تشبث الفريسيون بديانتهم وخصائص حياتهم وتقاليدهم ومارسوا سياسة انطواء وعزلة ، وقد قاوموا من اجل ذلك محاولات الحكم الروماني فرض الهيلنية الرومانية وقاوموا انغماس الصدوقيين في حضارة المحتلين ، **وادت مقاومتهم الى انفجار ثورة يهود فلسطين ضد الرومان عام ٦٦م٠**

استمرت هذه الثورة قرابة اربع سنوات ، وكانت لها اسبابها الدينية « العقيدية » واسبابها الاجتماعية ، وقد شارك فيها عدد كبير من اليهود ، وكانت الشرارة التي اشعلتها هي السياسة الهلينية التي انتهجها حاكم قيصرية والاوامر التي اصدرها ، الامر الذي ادى الى صدام مع يهود المدينة ، فكان ان خرجوا منها واثارت اخبار خروجهم يهود القدس والمناطق الاخرى فاشتعلت الثورة ٠ ولما وضح لحاكم سورية « فسباسيان » تفاقمها قاد بنفسه الجيش لاخمادها ،

وكان نيرون قد عهد اليه بمهمة قمعها · وهكذا اخضع بين عـامي ٦٧ ، ٦٨ م منطقة الريف والحصون المنعزلة ودمر يافا واقترب من القدس · وحين توفـي نيرون ورفع هو الى العرش عهد الى ابنه تيطوس بأمر إخماده الثورة ، فشدد تيطوس الحصار على القدس مدة خمسة اشهر واحتلها وهدم المدينة واحـرق المعبد المزخرف الذي بناه هيرودس وقتل واسر الكثيرين · وكان من اسبـاب سقوط المدينة الانقسامات التي حدثت بين المحاصرين ، وقد فر احد الزعمـاء « اليعازر بن يائير » واعتصم بقلعة مسادا التي بناها هيرودوس على شاطىء البحر الميت مع عدد من رجاله حتى عام ٧٣ م وحين اشتد عليها حصار الرومان آثروا اللجوء الى عملية الانتحار الجماعي ، وهكذا طويت الصفحة الاخيرة من هذه الثورة · (٤)

عمد الرومان الى انتهاج سياسة جديدة بعد اخماد الثورة ، فجعلوا مـن « اليهودية » مقاطعة امبراطورية يحكمها عضو من مجلس الشيوخ يكون تحت تصرفه الفيلق الروماني العاشر المرابط قرب القدس · وقد فرضوا على اليهود ضرائب ثقيلة من بينها ضريبة للاله جوبيتر كبير الهة الامبراطورية كما اقاموا مستعمرة رومانية قرب القدس وحولوا مدينتي يافا وقيصرية الى مستعمرتيـن رومانيتين ، واعادوا بناء مدينة نابلس قرب شكيم القديمة ·

لم ينته وجود اليهود في البلاد اثر قمع الثورة · ولكن تغيرات واضحـة طرأت على توزعهم فيها · فقد اصبحت القدس خالية منهم ، كما خلت اكثـر المدن اليونانية من وجودهم ، وبقي يهود الاماكن التي استسلمت في الحـال للرومان كما هم ، وخصوصا في الجليل ، وتركز اليهود في منطقة الساحل الغربي واصبحت شفلة ويقنه واللد من مراكز تجمعاتهم الكبيرة ، وعلى الرغم من ان عشرات الالاف قضوا في الثورة فان البلاد شهدت تزايدا سكانيا في الستين سنة التالية · واستوطن اليهود من جديد قيصرية وعكا ومدن الساحل الاخرى · اما اليهودية كدين فقد انحط شأنها وخصوصا مع انتشار المسيحية · ولم يكـن اساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها ، وفشلـت محاولات العلماء اليهود لتقريبها الى العقلية اليونانية الرومانية ·

ونشبت ثورة اخرى بين يهود فلسطين في عهد الامبراطور الروماني هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م) فقد عمد هادريان لبناء مستعمرة رومانية في القدس اطلق عليها اسم ايليا كابتيولينا (وكان اسمه الاول ايليوس) · كما اصدر مرسومـا يحرم فيه الختان واهتم باضفاء الطابع الروماني على البلاد ، فنقم اليهود على سياسته وثاروا بقيادة سمعان باركوخبا سنة ١٣٢ م · (٥) وبارك الربى اكيبا بن يوسف الذي كان يتمتع بنفوذ كبير على جماعة اليهود هذه الثورة · ونجـح باركوخبا في احتلال القدس وبعض المراكز الرومانية بعد ان انضم اليه كثير من

اليهود فتصدى هادريان لهذه الثورة بجيش كبير قاده جوليوس سيفروس الذي استدعى من بريطانيا ، ونجح هذا القائد في استرجاع القدس وحاصر بقايا الثوار في « بتير » وقضى على الثورة نهائيا سنة ١٣٥ م وقد اورد المؤرخ الروماني ديوكاسيوس انه حطم خمسين حصنا وتسعمئة وخمسا وثمانين قرية وقتل خمسماية وثمانين الف رجل . واعاد هادريان بناء القدس واطلق عليها الاسم الجديد وبنى فيها تمثالا لجوبيتر وتمثالا آخر للامبراطور ، واصدر عدة مراسيم تحرم على اليهود دخول المدينة وممارسة طقوسهم فيها . وأطلق على البلاد اسم « فلسطين السورية » بدلا من اليهودية .

اصبحت الجماعة اليهودية في فلسطين اقلية بعد ما فقدته من افرادها خلال هاتين الثورتين وبفعل انتشار الدين المسيحي في البلاد وتحول بعض اليهود اليه، وقد سمح الامبراطور انطيونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١ م) لليهود بختان اولادهم واحترام السبت وعبادة ربهم . **وتجدر الاشارة هنا الى قوانين هادريان ضد يهود فلسطين في اعقاب ثورتهم لم تسر على اليهود الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين اذ عوملوا برفق كغيرهم** ، واهتم اليهود بفلسطين بتأسيس مدارس لهم واصبحت طبرية في الجليل اهم مراكزهم . وفي هذه المدارس نشطت كتابة التلمود ، وتشير الكتب اليهودية الى ان **بيت سيفروس** الامبراطوري كان متعاطفا مع اليهود وقد اصدر **اسكندر سيفروس** (٢٢٢ ـ ٢٣٥ م) مرسوما بالاعتراف بالحاخام على رأس الجماعة اليهودية . كما تشير هذه الكتب الى اصلاحات **ديو كليتيان** (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) التي سمحت لليهود بالتعبد في القدس . وتصف هذا الامبراطور بانه احترم العقيدة اليهودية .

وتزايد عدد معتنقي المسيحية من شعب فلسطين على حساب معتنقي اليهودية وتعرضت المسيحية قبل أن تعم البلاد في عهد الدولة البيزنطية الى نار الاضطهاد . وقد حدث اول اضطهاد عنيف على مستوى الامبراطورية في عهد **الامبراطور نيرون** عام ٦٤ م وفيه استشهد **الحواريان بطرس وبولس** عام ٦٧ م، ثم حدث الاضطهاد العنيف التالي سنة ٩٥ م في عهد **دوميتيان** ، وفي عام ١١٢ اصدر **تراجان** مرسوما ينص على معاقبة كل مسيحي يرفض تقديم مراسم الاحترام لالهة الدولة . وفي عام ٢٥٠م. اكد **ديقيوس** هذا المرسوم . ثم حدث الاضطهاد الكبير في عهد **ديو كليتيان** الذي اصدر مرسوما عام ٣٠٣ م. نص على محو كنائس المسيحيين وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه ، وقد استمر هذا الاضطهاد عشر سنوات ، وشهد صورا من التعذيب بالغة البشاعة ، واستطاعت المسيحية خلال تلك الفترة ان تنتصر على ديانات الاسرار التي كانت تنافسها ، وهي ديانات وثنية سرية من اصل شرقي اصطبغت بالهيلنية وشاعت بين الرومان . وكان من الذين استشهدوا ابان الاضطهاد الكبير في فلسطين القديس **جاورجيوس** الذي ولد في اللد عام ٢٨٠م.

لاب من اصحاب الاملاك واعتنق المسيحية ودعا اليها حتى قتلــه الامبراطــور عــام ٣٠٣ م ٠

بقيت فلسطين ابان الحكم الروماني لها على صلة وثيقة ببقية اجزاء سورية وكانت تقوم في شرق الاردن **مملكة الانباط العرب** التي بلغت ذروتها في القرن الاول الميلادي ، وكان ابرز ملوكها **الحارث الرابع** (٩ ق٠م٠ ــ ٤٠ م)٠ وقــد ظهر اسم الانباط لاول مرة في القرن السادس قبل الميلاد ، واطلق على قبائــل بدوية تعيش في صحراء شرق الاردن ، وتدرج الانباط من حياة الرعي الى حياة الزراعة ، ثم الى حياة التجارة ، وازدهرت عاصمتهم البتراء ٠ وقد ضمــت المملكة في اقصى اتساعها جنوبي فلسطين وشرق الاردن وسورية الجنوبيــة الشرقية وشمالي الجزيرة العربية ٠ وعلى الرغم من احتكاك الانباط بيهــود فلسطين فان الديانة اليهودية لم تتمكن ابدا من عبور نهر الاردن ، وبقي الانباط يعتنقون ديانة سامية اساسها طقوس الخصب وابرز آلهتها « اللات » الى ان جاء القرن الثالث الميلادي واعتنقوا الديانة المسيحية ، وقد تبادلوا التأثير مع شعب فلسطين ٠

وكانت تقوم في بادية سورية انذاك **مملكة تدمر** التي استقرت فيها بضــع قبائل عربية وازدهرت كمدينة للقوافل ، وقد ظهر اسمها لاول مرة حوالي عــام ١٨٠٠ ق٠م٠ وحدث اول احتكاك بينها وبين الرومان عام ٤١ ق٠م٠ حين غزاها **القائد الروماني انطونيو** ٠ واعترفت بسيادة روما في عهد **طيبروس** بين عامي ١٧ و ١٩ م ٠ وجعلها **هادريان** عام ١٣٠ م تابعة لروما ٠ وفي منتصف القــرن الثالث حكمت تدمر **اسرة اذينة** الذي اقصى ملك الفرس شابور الاول عن سورية عام ٢٦٠م٠ وقد كافاه الامبراطور غالينوس فمنحــه لقب زعيم الشرق ٠ وحين قتل اذينة عام ٢٦٧ م تولت بعده زوجته زنوبيا (٢٦٧ ــ ٢٧٢ م) وعملت على توسيع ارجاء ملكها فاستولت على مصر عام ٢٦٧ م وعلى قسم من اسيا الصغرى فضلا عن سورية وفلسطين ، وقد استمر حكمها لفلسطين حتى عام ٢٧٢ م حين هزمها الامبراطور الروماني **اورليان** واسرها ٠

دخلت فلسطين ــ وسوريا بصورة عامة ــ في القرن الرابع الميلادي مرحلة حضارية جديدة هي المرحلة البيزنطية ٠ وقد نتجت عن اتحاد المسيحيين مــع الهيلنية الوثنية وحلت محل المرحلة الحضارية التي سبقتها وهي المرحلــة الرومانية ٠ وكان مركز هذه المرحلة الجديدة مدينة القسطنطينية التي سميت باسم **الامبراطور قسطنطين** ٠ وقد حكم مع امبراطور اخر الامبراطورية الرومانية سنة ٣٠٦م ثم انفرد بالحكم بين ٣٢٤ و٣٣٧م ، واسس العاصمة الجديدة في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي اوروبا باسيا ، ودشنها عام ٣٣٠م٠

تعاطف قسطنطين مع المسيحية واعتنقها سنة ٣١٢م٠ ثم اعترف بها ديانة

رسمية جديدة للامبراطورية قبل ان يؤسس عاصمته الجديدة ٠ وعقد سنة ٣٢٥م٠ مجمعا كنسيا في مدينة **نيقية** بآسيا الصغرى من كل اساقفة الامبراطورية حكم فيه على **المذهب الاريوسي** ونظم مجموعة تعاليم الدين المسيحي ٠ وحذا رجال الدولة حذو الامبراطور في اعتناق المسيحية ٠ واشتهرت امه القديسة **هيلانة** بتقواها ٠ وقامت بزيارة الى القدس حيث امر قسطنطين ببناء كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم ٠ وما اسرع ما انتشر بناء الكنائس والاديرة في فلسطين وبلاد الشام عموما ٠ وتصف المصادر اليهودية عهد قسطنطين بأنه كان معاديا لليهودية ، وتحدث عن انتفاضة قام بها يهود فلسطين احتجاجا على بناء الكنائس في بعض المدن التي يقيمون فيها حوالي عام ٣٥١م٠ (٦) ٠ وقد اعتنق جميع خلفاء قسطنطين الدين المسيحي عدا **جوليان المرتد** (٣٦١ ـ ٣٦٣م) الذي حكم عشرين شهرا والغى الاحكام التي اصدرها قسطنطين ضد اليهود ، واصدر احكاما تسمح لهم بالاقامة في فلسطين واعادة بناء الهيكل ٠ واشتهر من هؤلاء الخلفاء **تيودوسيوس** (٣٧٩ ـ ٣٩٥) ـ اخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة ـ بصموده الباسل امام هجمات القوط ولدعمه المسيحية الخالية من البدع ٠

انقسمت الامبراطورية الرومانية الى قسمين شرقي وغربي عام ٣٩٥م٠ وتبعت سورية ومنها فلسطين للامبراطورية الرومانية الشرقية التي اطلق عليها العرب اسم مملكة الروم ٠ وقسمت فلسطين اداريا في ذلك العهد الى ثلاثة اجزاء هي **فلسطين الاولى** وشملت ديار نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح ، وكانت قيسارية مركزها ، **وفلسطين الثانية** وشملت الجليل وام قيس وقلعة الحصن وطبرية ومركزها بيسان ، **وفلسطين الثالثة** وهي بلاد الانباط وديار بئر السبع ومركزها البتراء ٠

تمتعت فلسطين في عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية براحة طويلة ٠ وكثرت فيها الاراضي المزروعة ، ودخلتها زراعة شجر التوت في عهد الامبراطور جوستيان في القرن السادس ٠ وجلبت شرانق دود الحرير من الصين ، وشتهرت غزة وعسقلان بالمنسوجات الحريرية ٠ ولم يتوقف ازدهار التجارة مع تقسيم الامبراطورية ، وبقيت علاقات غزة وعسقلان التجارية مع موانىء ايطاليا قائمة ٠ وكانت لفلسطين علاقة تجارية وثيقة مع الجزيرة العربية من خلال رحلة الصيف التي كان يقوم بها تجار قريش الى بلاد الشام ٠

واتصفت الحياة الفكرية في فلسطين وسورية بالاضطراب في مطلع العهد البيزنطي واستمرت المجادلات بين الكتاب اليونان واللاتين من المسيحيين وغير المسيحيين فترة بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية ٠ واحتفظت غزة وقيصرية وعسقلان بشعلتها الفكرية بينما كانت القدس لا تزال تقاسي من الخراب الذي الحقه بها الرومان ، وقد اشتهرت غزة بمدرسة البلاغة التي

ازدهرت فيها حوالي عام ٥٠٠م· وبرز في فلسطين خلال ذلك العهد عدد من العلماء من بينهم **يوسيفوس اسقف قيصرية** (٢٦٤ ــ ٣٤٩) واول مؤرخ كنسي عظيم · وقد ولد في فلسطين وتثقف في انطاكية وكان صديقا حميما للامبراطور قسطنطين ومن اعظم الرجال المثقفين في عصره · ومنهم **سوزمين (٤٠٠ــ٤٤٣)** وهو مؤرخ كنسي شهير ولد في قرية بيت لاهيا بجوار غزة ودرس القانون ، ثم عاش في القسطنطينية والف تاريخه في تسع مجلدات · ومنهم **بروكوب الغربي** الذي ولد في اواخر القرن الخامس وكان علامة في اللاهوت وخطيبا ، والشاعر **ايناس** الذي ولد في غزة ، وتعلم الفلسفة في الاسكندرية وتوفي عام ٥٢١م ، **وبركوب القيصري** (٤٩٠ــ٥٧٠) الذي ولد في قيسارية وارخ لعصر **جوستنيان** (٥٢٧ــ٥٦٥) المليء بالاحداث ويعتبر من اعظم المؤرخين البيزنطيين ·كذلك عاش في فلسطين في ذلك العهد القديس **جيروم** (٣٤٥ ــ ٤٢٠) الذي تنسك في دير بيت لحم سنة ٣٨٦م· وانتقل منه الى الصحراء ، ومن اعظم مآثره ترجمته التوراة الى اللغة اللاتينية ·

صبغت فلسطين وسورية في العصر البيزنطي بالصبغة الدينية ، واصبحت البلاد مسيحية · وانتشرت فيها الكنائس والاديرة التي امتلأت بالرهبان والنساك وكانت الكنيسة اعظم مؤسسات هذا العصر · وقد انبثقت الرهبنة كنظام من الزهد المسيحي ، وكان ظهورها لاول مرة في مصر على يد مؤسسها القديس انطون الذي اعتزل في الصحراء ومات بين عامي ٣٥٦ و٣٦٢م· وانتقلت من مصر الى فلسطين على يد **هيلاريون الغربي** اخر تلاميذ انطون · وما اسرع ما انتشرت هذه الطريقة في الحياة القائمة على العزوبة والفقر والطاعة ، وذلك كرد فعل على ما عاناه الناس من المؤسسات العلمانيــة ابان العصر الروماني · وقد شهد العصر مغالاة في الزهد كان من مظاهرها اقامة اعمدة في الخلاء يعيش عليها النساك العموديون ويموتون ·

كانت نواة الجماعات المسيحية الاولى في فلسطين من اليهود على الاكثر · وقد بدأ اتباع المسيح وعظهم في المعابد اليهودية · وكان الكنيس اليهودي بديلا محليا للمعبد القديم بعد خرابه ، وقد بنيت الكنيسة المسيحية على نسقه مع شيء من التطوير · ومن هنا جاء التشابه بينهما من ناحية العمارة ، وكان الفن فيهما متصلا وثيقا · وقد عبر الفن عن موضوعات دينية وحرر نفسه من استعمال النماذج العادية والاشكال التقليدية التي سادت في الفن اليوناني والروماني، واتجه الى الواقعية · وكانت اللغة السريانية تستعمل في الكنائس منذ القرن الثاني ، وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية · **وجاء هذا التحول عن اليونانية والعودة الى الارامية في هذا العصر عن الوعي القومي وكرد فعل ضد الوثنية · وقد تمسك الناس باللغــة**

الوطنية واضطر الموظفون البيزنطيون الى استخدام التراجمة في التعامل معهم ·

وشهدت فلسطين ابان هذا العصر الانشقاقات الدينية بين المسيحية · وكانت هذه الانشقاقات تحمل في طياتها تعبيرا عن اليقظة القومية ايضا · اذ لم يكن الشعب راضيا عن الحكم البيزنطي من حيث المبدأ ومن حيث ممارسات هـذا الحكم · فقد كان البيزنطيون من الناحية السياسية اكثر استبدادا في حكمهم واكثر جورا في نظام ضرائبهم من الناحية الاقتصادية ، وقد جردوا اهل البلاد من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلا · وكانوا اقل تسامحا من اسلافهم الوثنيين في المسائل الدينية ·

وانغمس الناس في المناقشات اللاهوتية التي تركزت على طبيعة المسيح ، وكانت عصب الحياة بين المثقفين في القرنين الرابع والخامس · ودخلت في هـذه المناقشات الفلسفة اليونانية ومنطق ارسطو ومبادىء الافلاطونية الحديثة على الخصوص مع بعض عناصر ديانات فارس · وهكذا ظهر **آريوس** في القـرن الرابع الذي اكد على الطبيعة البشرية للمسيح وادين مذهبه في مجمع نيقيه ، ثم ظهر **ابولينارس** كرد فعل على الاريوسية واكد على ان الكلمة تحتل في شخص المسيح المقدس مكان النفس · وجاء **نسطور** الذي اصبح اسقف القسطنطينية عام ٤٢٧م· وتحث عن الطبيعتين الالهية والبشرية للمسيح ، وعم المذهب النسطوري قطاعات واسعة · ثم تلاه **المذهب اليعقوبي** القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح والذي اقره مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م· وقد انتشر هذا المذهب اول الامر وايده العرب الغساسنة واخذ اسمه من الاسقف **يعقوب البرادعي** (ت ٥٧٨ م·) الذي نظم كنيسته (٧) ·

ومن حوادث فلسطين في عهد الدولة البيزنطية استيلاء **امرىء القيس شيخ «دومة الجندل»** على فلسطين وجزيرة تيران واقرار **الامبراطور ليـون الاول** (٤٥٧ ـ ٤٧٤م) حكمه عليها بعد تنصره · كما حدث في عهـــد الامبراطور انسطاسيوس (٤٩١ ـ ٥١٨م) ان اغار بعض قبائل كنده الذين حكموا في نجد على فلسطين ثم صالحهم الامبراطور · وحدث في خضم الخلافات الدينية ان ثار **السامريون** في فلسطين في عام ٤٨٥م· وهدموا الكنائس في منطقتهم · ثم عادوا الى الثورة في عهد **جوستنيان** عام ٥٢٩م· فحرقوا الاديرة وقتلوا الرهبان والاساقفة احتجاجا على قرارات اصدرها الامبراطور منعتهم من بناء معابد · وقد اخمد هذه الثورة **الحارث الثاني الغساني** بعد ان هلك فيها الاف من الرجال والنساء · وعانت فلسطين في عهد جوستنيان من زلازل وقعت فيها كان اعظمها زلزال عام ٥٥١ م· كما بدات في ذلك العهد محاولات **السلالـة الساسانية** في فارس احتلال سورية وفلسطين · وقد نجح **بليساريوس** قائـد جوستنيان في صد الهجوم الاول (٥٢٧ ـ ٥٣٢) · وعاد الفرس للظهور مرة

اخرى عام ٥٤٠م· في عهد كسرى الاول انوشروان ونجحوا في احتلال انطاكية ثم عقدت هدنة عام ٥٤٢م· تجددت عدة مرات حتى وقع جوستنيان معاهدة مع الفرس عام ٥٦٢م ·مدتها خمسون سنة التزم فيها بدفع جزية لملك الفرس ·

وزحف الفرس على فلسطين في عهد **الامبراطور هرقل** حين هجمت جيوش **كسرى ابرديز (الظافر)** على سوريا عام ٦١٣م· ثم احتلت قيسارية فالقدس عام ٦١٤م· **وقد انضم يهود فلسطين الى جيش الفرس وقاتلوا معه** · واشعلت النار في كنيسة القيامة ، ونقل الصليب الى فارس ، وهدمت الاديرة والكنائس ونهبت المدن ونكل بسكانها · **وتتحدث الكتب اليهودية عن سيطرة اليهود على القدس لمدة ثلاث سنوات وعن الانتقام من المسيحيين والتحضير لاعادة بناء الهيكل ، ثم تتحدث عما تسميه خيانة الفرس لليهود حيث لم يلبث الفاتحون ان ساروا بأهل البلاد ـ وجلهم من المسيحيين ـ سيرة حميدة · وعينوا اسقفا ليحكم القدس وامروا بطرد اليهود منها ·**

ولم يطل حكم الفرس لفلسطين هذه المرة اكثر من اربعة عشر عاما ، اذ استطاع هرقل ان يجمع قواه ويطردهم منها ومن سورية عموما وينتصر على الجيش الفارسي في معركة فاصلة عند نينوى عام ٦٢٧م· ويستعيد الصليب ويرفعه في القدس يوم ١٤ ايلول (سبتمبر) ٦٢٨م· وقد اصبح ذلك التاريخ عيدا يحتفل به كل عام اهل البلاد من المسيحيين · **وتشير المصادر اليهودية الى انتقام هرقل من اليهود والعقاب الذي انزله بهم ، والى ان عددا منهم دخل في المسيحية بينما اعتزل اخرون لينضموا بعد ذلك لجيوش الفتح العربي الاسلامي ·**

ولا بد ان نشير ونحن نعرض لهذه الاحداث الى الدور الذي قام به **العرب الغساسنة فيها** ، بعد ان قدموا من اليمن واستقروا في منطقة حوران على اطراف فلسطين منذ القرن الثاني الميلادي · فقد تنصروا في القرن الرابع وساهموا في الحرب ضد الفرس وفي اخماد ثورة السامريين · واعتنقوا المذهب اليعقوبي وتمسكوا به فكان ذلك سببا في تحول الاباطرة ـ الذين اختاروا مذهبا اخر ـ عنهم · وقد تجزأت مملكتهم قبل الفتح العربي الاسلامي ·

ونشير ايضا الى ان **مسيحيي فلسطين والمنطقة عانوا في اوائل القرن السابع من انشقاق ديني جديد ، حين سعى الامبراطور هرقل لانهاء الانشقاق الذي كان قائما قبله بين النساطرة واليعاقبة واقترح تسوية زادت الطين بلة وأدت الى انشقاق جديد** ، وقد قام سرجيوس **بطريرك القسطنطينية** ـ وهو سوري من اسرة يعقوبية ـ باستنباط هذه التسوية التي تقول بفكرة **«المشيئة الواحدة»**

للمسيح وهي المشيئة الالهية • ولم يرض مسيحيو فلسطين وسورية باعتناق هذا المذهب « الملكاني » الجديد ، وتشبثوا بكنيستهم •(٨)

ولم يطل حكم هرقل لفلسطين بعد ان طرد الفرس منها ، اذ ما اسرع ان وصلت طلائع الفتح العربي الاسلامي اطراف فلسطين عام ٦٣٤م• واستكمل العرب المسلمون تحريرها وتحرير بقية سورية عام ٦٤٠م وطردوا البيزنطيين منها • وقبل ان نعرض بالحديث لهذا الحدث العظيم الذي غير وجه المنطقة عموما ، وشايع ما جرع من احداث بعده ، لا بد لنا ان نقف عند نهاية الحكم البيزنطي لفلسطين التي كانت ايضا نهاية القسم الاول من تاريخها لنستخلص مما عرضناه حقائق محددة •

★ **كانت فلسطين مع نهاية الحكم البيزنطي قد اصبحت مسيحية في معظم سكانها ، بعد ان تحول غالبية اليهود من شعب فلسطين الى المسيحية ، واعتنق الدين الجديد من كان وثنيا •**

وقد عانت فلسطين من تعصب بعض الحكام ، ومن محاولاتهم فرض عقائدهم على شعبها • **الامر الذي حدا بالناس ان يزدادوا تمسكا بعقائدهم ، ويلاحظ انهم في الحكم البيزنطي كانوا ينظرون الى كنيستهم ليس على انها مؤسسة دينية فحسب بل ومؤسسة قومية يعبر التمسك بها عن عاطفة قومية مكبوتة •**

★ **كان تاريخ فلسطين في مراحله المتصلة خلال هذا القسم جزءا من تاريخ سورية والمنطقة بصورة عامة • ولم يحدث في اية مرحلة ان انفصل عنه •** وكانت الحضارة في فلسطين جزءا من حضارة المنطقة •

★ ظهرت ملامح شعب فلسطين منذ اقدم العصور ، وبقيت هذه الملامح ظاهرة في مراحل تاريخه المتتالية • واندمج في هذا الشعب جماعات من شعوب مرت بفلسطين فصبغت بصبغته وتمثلت حضارته واسهمت فيها • وكانت فلسطين خلال هذه الفترات كنعانية الطابع والحضارة • وقد تكلم شعبها في غالبيته اللغة الكنعانية ثم اللغة الارامية واللغة العربية ، كما تكلم احبار اليهود منهم **اللغة العبرية** • وجميعها لغات « سامية » تعود للغة ام واحدة هي اقرب ما تكون الى العربية الفصحى •(٩)

★ **كان بين شعب فلسطين منذ اقدم العصور قبائل عربية وثيقة الصلة بجزيرة العرب ، فضلا عن الكنعانيين والعموريين والاراميين الذين جاؤوها من هناك• وتردد اسم « العرب » في تاريخها عبر مراحله • واوضح ان فلسطين كجزء من الهلال الخصيب مثلت مركز جذب بالنسبة لجزيرة العرب التي كانت مركز طرد •**

★ اعتنق العبرانيون الدين اليهودي ، وادخل في هذا الدين ايضا جزء

اخر من شعب فلسطين لفترة من الزمن · وتحول اكثر هؤلاء وهؤلاء مع بقية شعب فلسطين الى الدين المسيحي في العهد البيزنطي · وبرزت في اوساط يهود فلسطين ومسيحييها مجموعات غالت في تعصبها لمعتقداتها · **وكان هذا التعصب يعم في « شره » الجميع ولا يختص باليهود وحدهم ·**

★ تمسك شعب فلسطين بطابعه وبلغته وبأديانه « السامية » طوال العهود التي حكمه فيها « الاجانب » من فرس ويونان ورومان وبيزنطيين · ولم يعرف هذا الشعب والسوريون عموما ـ كما يقول حتي ـ «انهم فقدوا طابعهم القومي او اضاعوا لغتهم الاهلية او اهملوا دينهم السامي ، او سلكوا مخلصين المنهج اليوناني الروماني في الحياة · فالحضارة الهلينية لم تكن يوما اكثر من طلاء خارجي ، ولم تؤثر في غير النخبة من اهل المدن · **اما سواد السكان فقد كانوا يعتبرون الحكام غرباء عنهم** · واستفحل هذا الجفاء بين الحاكم والمحكوم بداعي سوء الحكم وفداحة الضرائب ·وغالب الظن ان السوريين من ابناء القرن السابع اعتبروا العرب المسلمين اقرب اليهم عنصرا ولغة ، وربما دينا ايضا ، من اسيادهم البيزنطيين المقوتين » (١٠) ·

الهوامش

(١) انظر حتي الفصل الحادي والعشرون ·

(٢) انظر الدباغ ص ٦٢٣ من الجزء الاول ·

Mommsen , History of Rome (Newyork, 1894) .

(٣) انظر عن المسيحية وتاريخها اسد رستم : الروم وصلاتهم بالعرب ؟ ص ٤ دار المكشوف بيروت ·

(٤) لاخذ فكرة عما تضمنته المصادر اليهودية ، واسلوبها في معالجة احداث هذه الفترة وتاريخ فلسطين بصورة عامة يراجع ·

Ben Gurion, The Jews in Thier Land .

A wind Fall Book (Newyork 1975)

(٥) باركوخبا تعبير ارامي يعني ابن الكوكب · وقد دعاه اليهود بعد هزيمة باركوزيبا اي « ابن الكوكب » انظر حتي ص ٣٧٧ جـ ١ ·

(٦) انظر حتي الفصل السابع والعشرون ·

(٧) اسد رستم الروم/

Bury , History , of Later Roman Empire .

(٨) اسد رستم الروم ص ٢٣٠ ·

J . Parker , A history of Palestine From 135 a . d . to Modern Times (London) 1949.

(٩) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥ دار العلم للملايين ·

(١٠) حتي جـ٢ ص ١٤ مصدر سبق ذكره ·

وديع حداد

في المسافة الطويلة التي قطعها وديع حداد بين صفد والشهادة ، كانت فلسطين تتوهج في عيون الذين اجبروا على الهجرة.فصارت هجرة الفلسطيني من وطنه ، اشارة الى هجرة كل العرب من ذاتهم . لذلك كانت المسافة بين صفد وفلسطين طويلة ، لانها تمر بكل السجون العربية ، وتتداخل مع التمنيات وبيوت الصفيح والتظاهرات الدموية .

منذ سنة ١٩٢٨ ، وفلسطين لا تسمح باستقرار الغزاة . اجيال من المناضلين ولدوا وماتوا والثورة بين مد وجزر . ومنذ الهزيمة الاولى ، كانت ايدي المناضلين المرتفعة تحاول ان تمنع تحول هزيمة الطبقات الحاكمة الى هزيمة للامـــة . كانوا باصرارهم وسريتهم يبشرون بالشهادة العلنية وبالبندقية العلنية ، وبانتصار الامة .

ربما كان وديع حداد اكثر قادة الشعب الفلسطيني غموضا وسرية . لكن ، وفي سماء العالم التي استطاع الفلسطيني ان يخطفها ، ويهز الامن الدولي الكاذب القائم على جثث الشعوب ، كانت سرية وديع حداد تنتقل الى علنية التحدي .

منذ الطائرة الاسرائيلية الاولى التي اجبرت على الهبوط الى اخر طائرة ، كان استقرار الاحتلال يهتز على ايقاع الدم . فوديع حداد ورفاقه ، عرفوا كيف يحولون سرية النضال الفلسطيني وغموض الارض المليئة بالاسرار الى علنية شاملة ، تلتقي بالبنادق التي حملتها الالاف من جماهير المخيمات والاحياء الفقيرة ، لتطلق عبرها صرخة الولادة التي انتشرت من البحر الى الصحراء ، فالعرب لم تستسلم ، والعدو الذي صوروه اسطوريا ولا يهزم، هو ككل الاعداء ، معرض للهزائم وحتمي الهزيمة .

من حركة القوميين العرب الى الجبهة الشعبية ، ومن الجفر الى النضال السري ، ومن بدايات متواضعة على طريق الكفاح المسلح الى السماء كانت الرحلة طويلة . وحول هذه المسيرة انقسمت الاراء وتعددت . حيث فقدت العمليات الخارجية عند الكثيرين اهدافها ، ولم تعد تتلاءم مع جماهيرية الثورة ، وكسرها لعزلة البداية ، عبر انخراطها داخل بحر الجماهير ..

لكن وديع حداد بقي في اصراره ، وكأنه يحلم بوطن لا حدود له . يمد فلسطين الى كل حركات الثورة والرفض في العالم ، ويعلن قانونا اخر للعدالة والشرعية .

سيبقى وديع حداد ، الى جانب شهدائنا الذين سقطوا على درب فلسطين الطويل ، علامة بارزة لمرحلة من نضالنا . هو جزء من تاريخ شعب جرحته الهجرات والسجون ، ولم ينحن ولم ينكسر .

« شؤون فلسطينية »

تقارير

قضايا الهجرة اليهودية
التناقض بين مصالح الصهيونية ومصالح اليهود

تدعي الحركة الصهيونية انها قامت لتخليص اليهود من اضطهاد الدول التي يعيشون فيها عن طريق جمعهم في دولة يهودية مستقلة · وكانت هذه « الغاية » مبررا لكل الجرائم التي ارتكبتها على ارض فلسطين ، وما زالت ترتكبها ضد الشعب الفلسطيني والامة العربية ·

هذا المبرر يتحطم عندما يرفض المهاجرون اليهود الذهاب الى اسرائيل والعيش فيها رغم كل الاغراءات والضغوط · ويفضلون العيش في دول اخرى كالولايات المتحدة الاميركية وكندا واستراليا ، بل ويعلنون انهم يفضلون الموت جوعا في النمسا ، فيما اذا حرموا تاشيرات الدخول الى تلك الدول ، على ان يتوجهوا الى اسرائيل · وسقوط هذا المبرر يتاكد اكثر ، عندما نعلم ان اسرائيل والمنظمات الصهيونية العالمية ، ترفض تقديم اية مساعدة لهؤلاء اليهود المحتاجين ، فيما اذا اصروا على عدم التوجه الى اسرائيل رغم ان اسرائيل والصهيونية العالمية تملأ الدنيا ضجيجا حول « اضطهاد » اليهود في الاتحاد السوفييتي وتطالب بالسماح لهم بمغادرة الاراضي السوفييتية ، مدعية بذلك ان كل ما تهدف اليه هو « تخليصهم » وضمان حقوقهم· وحين يغادر الالاف منهم الاتحاد السوفييتي ويتعرضون للجوع والبؤس وفقدان المأوى والعمل في النمسا وايطاليا، ترفض حتى المنظمات الصهيونية « الخيرية » ، التي تحمل اسماء « نجدة » اليهود وخاصة « اللاجئين » منهم بالتعاون مع اسرائيل ، ترفض تقديم اية مساعدة لهم ، لانهم يرفضون العيش في اسرائيل·

واذا اضفنا الى هذه الظاهرة ، ظاهرة النزوح المتزايد من اسرائيل الى دول الغرب نرى ان اهم مبرر ، ليس فقط لممارسات الحركة الصهيونية ، بل لمجرد وجودها كحركة من اجل اليهود ، قد سقط · بل اننا نتوصل الى نتيجة خطيرة وهي ان الحركة الصهيونية لا تعامل اليهودي كغاية بل كوسيلة · وهذه الظاهرة تعد بداية من اجل كشف التناقض بين مصالح الصهيونية ومصالح اليهود في العالم ·

يهاجرون ··· ولكن ليس الى اسرائيل ·

يظهر مما نشرته الصحف الاميركية والصحف الاسرائيلية منذ بداية عام

١٩٧٦ ، ان معدل الهجرة السنوية الشاملة الى اسرائيل انخفض في السنوات الثلاث الاخيرة بنسبة ٥٠ بالمئة · وان نسبة المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفييتي الذين يرفضون مواصلة السفر الى اسرائيل بعد توقفهم في اوروبا ارتفعت في عام ١٩٧٦ الى ٦٠ بالمئة ·

وقد علقت احدى الصحف اليهودية الصادرة في نيويورك على موضوع رفض المهاجرين السوفييت التوجه الى اسرائيل بقولها : « **لم يحدث في السابق ان تعارضت مصالح يهود « الدياسبورا » [الشتات او المهجر] مع مصالح اسرائيل كما هو حاصل الان · فمهمة تخليص يهود روسيا مهددة الان بالتخريب من قبل الدولة التي كان عليها ان تناضل بقوة من اجل حقوقهم [اسرائيل]** ··· » (١)

وحسب معلومات الصحيفة المذكورة غادر الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٦ : ١٢٥ر٠٠٠ يهودي · ذهب من بين هؤلاء الى اسرائيل ١١١ر٠٠٠ يهودي اي نسبة ٩٠ بالمئة · وفقط ٦٠٠٠ شخص من هؤلاء المهاجرين غادروا اسرائيل الى دول اخرى اي : نسبة ٦ بالمئة فقط · ولكن منذ بداية عام ١٩٧٦ ارتفع عدد اليهود القادمين الى فيينا من الاتحاد السوفييتي من المهاجرين اليهود ، والذين يرفضون التوجه الى اسرائيل الى نسبة ٥٠٪ ·

وقد صرح الدكتور ناحوم غولدمان رئيس المجلس اليهودي العالمي ، في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ حسب احصاءات حصل عليها من فيينا ان ٦٠ بالمئة من اليهود الحاصلين على تأشيرة خروج من الاتحاد السوفياتي يتوجهون الى دول اخرى غير اسرائيل ، واضاف ان ثلثي الخارجين من الاتحاد السوفيتي والذين منحوا تأشيرة الخروج بهدف الهجرة الى اسرائيل ، يتوقفون في النمسا في انتظار تأشيرات دخول الى الولايات المتحدة وكندا واستراليا · (٢)

وافاد احد التقارير المقدمة الى الكنيست في الفترة نفسها من العام الماضي ، ان واحدا فقط من بين كل ثلاثة يهود يغادرون الاتحاد السوفيتي ، يصل الى اسرائيل (٣) ·

واكدت تقارير الصحف الاميركية ان ظاهرة رفض مواصلة السفر الى اسرائيل من قبل المهاجرين اليهود في الاتحاد السوفييتي تتصاعد باستمرار منذ عام ١٩٧٢ ، فحسب تقرير نشرته صحيفة (لوس انجلس تايمز) ، كانت نسبة رافضي مواصلة السفر الى اسرائيل في عام ١٩٧٢ : واحد بالمئة فقط ، وارتفعت في عام ١٩٧٣ الى نسبة ٥ر٤ بالمئة ، بينما ارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٧٤ الى ٧ر١٨ بالمئة · وفي عام ١٩٧٥ وصلت الى نسبة ٣٧ بالمئة وقفزت في عام ١٩٧٦ الى نسبة ٥٠ بالمئة · (٤)

وذكرت صحيفة اميركية اخرى ان نسبه « المتخلفين » عن الهجرة من الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل قفزت في نيسان (ابريل) ١٩٧٦ الى رقم قياسي جديد هو : ٦٠ بالمئة ، واضافت هذه الصحيفة ان عدد المهاجرين من الاتحاد السوفيدي في عام ١٩٧٥ والذين كانوا يحملون تأشيرات خروج الى اسرائيل بلغ ١٥ر٠٠٠ مهاجر · وان ثلث هؤلاء لم يواصلوا السفر الى اسرائيل ، بل توجه معظمهم الى الولايات المتحدة وغيرها من دول الغرب (٥) ·

ان هذه الارقام التي نشرتها الصحافة

الاميركية اكدتها تصريحات بعض المسؤولين الاسرائيليين . فقد صرح يوسف الموجي رئيس الوكالة اليهودية في كانون اول / ديسمبر ١٩٧٦ / ان ٥٥ بالمئة من المهاجرين السوفيت الذين حصلوا على تأشيرات خروج الى اسرائيل لم يصلوا اليها . (٦)

واعترف موشي ديان في مقابلة مع التلفزيون النمساوي في بداية عام ١٩٧٧ بحقيقة رفض اليهود الهجرة الى اسرائيل، وقال تعليقا على ذلك : « ان مؤسسي دولة اسرائيل اعتقدوا ، ان معظم يهود العالم سينضمون اليهم ، ولكننا الان لا نملك سوى ثلاثة ملايين يهودي في بلادنا ، وهذا العدد يساوي عدد اليهود في مدينة نيويورك وحدها .. » (٧)

هجرة ... ام رحلة عذاب ؟!

قدر الكسندر جالبرن ، وهو نشيط في شؤون الهجرة ، وهاجر هو نفسه من الاتحاد السوفياتي منذ ثلاث سنوات ، قدر عدد المواطنين اليهود في الاتحاد السوفيتي في اخر عام ١٩٧٦ بمليون ونصف المليون مواطن . وحسب تقديراته يرغب فقط ٢٠,٠٠٠ ـ ٦٠,٠٠٠ من هؤلاء اليهود بمغادرة الاتحاد السوفيتي . وقال ايضا ان السلطات السوفيتية سمحت ل ١٤٧,٠٠٠ يهودي بمغادرة الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٦١ حتى اخر عام ١٩٧٦ . وان ١١٧,٠٠٠ شخص من بين هؤلاء هاجروا الى اسرائيل واما الباقون فقد توجهوا الى دول اخرى قبل كندا والولايات المتحدة ونيوزيلندا . (٨)

ان السنوات التي اعقبت حرب ١٩٦٧، والتي شهد الاقتصاد الاسرائيلي انتعاشا ملحوظا خلالها ، سجلت اكبر عدد من المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل . ومع ذلك لم تخل تقارير الصحافة الاسرائيلية خلال تلك الفترة من المصاعب التي لاقاها هؤلاء ، وتحدثت عن صعوبة تأقلمهم في المجتمع الاسرائيلي ، ومن مغادرة اعداد منهم الى دول اخرى بدون اعطاء ارقام دقيقة عن ذلك .

وفي اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما تلاها من هزات عنيفة اصابت الاقتصاد الاسرائيلي والتي ما زال يعاني منها بشدة حتى الان ، زاد الحديث عن خيبة امل المهاجرين السوفييت وغيرهم من العيش في اسرائيل ، وعن تزايد اعداد العائدين منها الى بلدان اخرى في العالم وخاصة الى الغرب .

لقد شكلت خيبة الامل هذه ، عاملا اساسيا ، في رفض اليهود السوفييت التوجه الى اسرائيل بعد خروجهم من بلادهم .

والمعروف ان المهاجرين اليهود الراغبين بالهجرة من الاتحاد السوفيتي يحصلون على تاشيرة خروج الى اسرائيل ، تحت بند « توحيد العلاقات » . وحسب بعض الصحف الاميركية اصبح سرا معروفا ان اسرائيل عمدت خلال السنوات الماضية الى اختلاق اسماء لاقارب وهميين في اسرائيل وزودت بها طالبي الهجرة من اليهود السوفييت لكي يحصلوا على تأشيرات الخروج بالاحتيال على القوانين السوفيتية . (٩) ان هذه الحالة تربك اسرائيل مرتين : مرة لانكشاف دورها في اتباع اسلوب التزوير من اجل جلب المزيد من اليهود ، وما قد يعكسه ذلك من تأثير على سياسة السلطات السوفيتية في

هذا الموضوع · ومرة اخرى لان اسرائيل تنكشف بوصفها لم تعد مكان جـذب لليهود الراغبين بالهجرة ·

ومما يزيد في احراج اسرائيل والحركة الصهيونية ، ان هـؤلاء المهاجرين السوفييت الرافضين للتوجه الى اسرائيل والمقيمين في اوروبا في انتظار تأشيرات دخول الى بلدان اخرى ، بدأوا يشكلون مأساة انسانية ، واصبحوا يستصرخون ضمير العالم لنجدتهم بعد ان رفضت اسرائيل والحركة الصهيونية مد يد العون لهم ، فقط لانهم يرفضون العيش في « ارض الميعاد » ·

لقد وصفت الصحف الاميركية المآسي التي يعيشها هؤلاء في فيينا بالنمسا ، وفي ايطاليا · فذكرت صحيفة النيويورك تايمز ان الالاف من هؤلاء يعيشون حياة بؤس في بيوت حقيرة ومنذ اكثر من عامين لا يجدون ما يعيشون منه سوى احسان الكنيسة الكاثوليكية ، وهم ينتظرون تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة (١٠)·

واذا كانت حياة المهاجرين اليهود الذين يرفضون السفر الى اسرائيل بلغت هذا الحد من البؤس ، فان المهاجرين الذين وصلوا الى اسرائيل ثم غادروها الى اوروبا في انتظار تأشيرة دخول الى بلدان اخرى ، يعانون ظروفا اقسى · فهؤلاء بمجرد وصولهم الى اسرائيل منحوا بموجب « قانون العودة » العنصري جوازات سفر اسرائيلية وحرموا بذلك من وضعهم كلاجئين مما يحرمهم بالتالي من تأشيرات الدخول الى الدول التي تمنح مثل هذه التأشيرات للاجئين · وحرموا من مساعدة بعض الهيئات الدولية التي انشئت لمساعدة اللاجئين ·

وفي اواخر عام ١٩٧٦ قام حوالي ٣٠٠ شخص من اليهود ، الذين هاجروا من الاتحاد السوفيتي الى اسرائيل ، ثم غادروها الى ايطاليا بمظاهرة ، ودعوا اخوانهم المقيمين في الاتحاد السوفيتي الى عدم الاقتداء بهم ، لانهم خدعوا بواسطة الدعاية الصهيونية ثم « لعنوا اليوم » الذي غادروا فيه وطنهم ، الاتحاد السوفيتي ، بعد ان وجدوا ان الحياة في اسرائيل لا تحتمل · كما اعلن هؤلاء انهم لا يستطيعون العودة الى الاتحاد السوفيتي ، لانهم منحوا تأشيرات الخروج بعد ان تخلوا عن جنسيتهم السوفيتية ، بينما ترفض المنظمات الصهيونية مساعدتهم وترفض سفارات الدول الغربية منحهم التأشيرات · ويقول لهم وكلاء المنظمات الصهيونية وموظفو سفارات الدول الغربية : « **اما ان تعودوا الى اسرائيل واما ان تموتوا جوعا ···» (١١)**

وفي منتصف عام ١٩٧٦ اعلن ثلاثون من هؤلاء الاضراب عن الطعام في بلدة اوستيا Ostia بالقرب من روما مطالبين بتأشيرات دخول الى الولايات المتحدة ، واعلنوا انهم يفضلون الموت جوعا على العودة الى اسرائيل (١٢) ·

وفي شباط (فبراير) ١٩٧٦ عقد سبعة يهود عادوا من اسرائيل الى موسكو مؤتمرا صحفيا هناك ، وتحدثوا عن خيبة املهم من العيش في اسرائيل واعلنوا ان « البؤس الذي سببته الصهيونية لليهود يفوق البؤس الذي سببته لهم الفاشية» (١٣)

خلاف صهيوني ـ يهودي

وضعت الحكومة الاسرائيلية مشروع خطة توقفت بموجبه كل المساعدات عن اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي

والذين يرفضون العيش في اسرائيل ٠ ومن جهة اخرى اعلن ان الوكالة اليهودية تنوي الطلب الى كل يهودي يطلب تأشيرة خروج من الاتحاد السوفييتي ان يتعهد خطيا انه ينوي الاستيطان في اسرائيل (١٤) ٠ وهذه الخطط اثارت خلافات في الرأي بين اليهود سواءا في اسرائيل او في الولايات المتحدة ٠ لقد عارضت بعض الصحف الاسرائيلية هذه الخطط ليس حرصا على مساعدة هؤلاء المهاجرين بل خوفا من احتمال توجههم لطلب المساعدة من منظمات غير يهودية (١٥) ٠

وفضح اريه دولتسين المسؤول المالي في الوكالة اليهودية الموقف الصهيوني من اليهود في العالم عندما قال : « **ان النضال لتخليص اليهود من الاتحاد السوفييتي كان قائما على اساس عودتهم الى وطنهم ، انه ليس نضالا ضد الحكم السوفييتي وليس محاولة لجعل اليهود يهربون الى اي مكان** » (١٦) ٠

ان القادة الصهاينة واريه دولتسين واحد منهم يدعون ان اليهود في الاتحاد السوفييتي يعانون من الاضطهاد ويحرمون من حقوق الانسان ٠ وانهم ينظمون المظاهرات الصاخبة في المدن الاميركية ، ويدفعون بالمتطرفين اليهود الى الاعتداء على الدبلوماسيين السوفييت والى تلطيخ جدران مقرات البعثات السوفياتية بلون الدم « احتجاجا » على معاملة اليهود السوفييت ٠ ولكن اذا رفض هؤلاء «الضحايا» العيش في اسرائيل فلا بأس بالنسبة لدولتسين وغيره من ان يبقوا في « الجحيم » السوفياتي !

ويعارض رأي دولتسين هذا ، الدكتور يونتان فرانكل ، الاستاذ في الجامعة العبرية ، لانه في رأيه « **اذا لم تعمل اسرائيل بمبدأ تخليص اليهود اينما كانوا ، فان الصهيونية ستظهر على انها كما قال عنها اعداؤها دائما : لا تعامل الفرد اليهودي كفاية بل تعامله كوسيلة** » (١٧)

لقد عكست مسألة المهاجرين اليهود خلافا بين اسرائيل من جهة والجاليات اليهودية الاميركية من جهة اخرى ٠ فذكرت احدى المجلات الاميركية (١٨) ان الاسرائيليين ، ومن بينهم اعضاء في البرلمان الاسرائيلي ، يتهمون منظمة « هياس » (١٩) الاميركية ، بانها تساعد على عدم وصول المهاجرين من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل عن طريق تقديم المساعدات لهم بعد توقفهم في النمسا او نزوحهم من اسرائيل الى اوروبا ، وهم لذلك يطلبون اغلاق مكاتب المنظمة في اوروبا ٠ وذكرت صحيفة اميركية اخرى(٢٠) ان ازمة كانت تقع بين اسرائيل ومنظمتين يهوديتين اميركيتين هما «هياس» و«جوينت» حول مساعدة او عدم مساعدة المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفياتي ، والذين يعدلون عن السفر الى اسرائيل بعد خروجهم من الاتحاد السوفياتي ٠ ونشرت الصحيفة تعليقا لاحد مسؤولي الهجرة في اسرائيل حول ظاهرة تفضيل المهاجرين من اصل يهودي لدول اخرى بدلا من اسرائيل ٠ فقد برر هذه الظاهرة بقوله : « نحن لا نستطيع التنافس مع الدول الاخرى حول المنافع التي تقدمها ٠ ولكننا نعطي ما هو اكثر من المال ٠ اننا نعطي اليهود ليس فقط وطنا ولكننا نعطي ايضا امكانية العيش حياة يهودية كاملة ٠ وهذا ما لا تستطيع ان تقدمه اية دولة اخرى » ٠ (٢١)

واكدت صحيفة « الواشنطن بوست » هذا الخلاف عندما نشرت (في ١٠ـ١١ـ١٩٧٦) : « منذ شهور تقود حكومة اسرائيل حملة هدفها دفع يهود الولايات

المتحدة الى قطع المساعدات عن اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتي ، والذين لا يريدون الاستيطان في اسرائيل · وهذه الحملة عورضت من قبل يهود اميركا ···»

اما اشد نقد لاسرائيل والمنظمات الصهيونية بسبب موقفها من المهاجرين اليهود ، فقد وجهته منظمتان يهوديتان في الولايات المتحدة هما « ناطوري كارتا » (« حراس القدس ») و «جمعية راف توف » · فالمنظمة الاولى نشرت اعلانا في بعض الصحف الاميركية استصرخت ضمير العالم لمساعدة الاف المهاجرين اليهود الذين حرموا من اي مكان يلجأون اليه ، فقط لانهم يرفضون العيش في اسرائيل ، ولان اسرائيل تمنع المنظمات الخيرية اليهودية من مساعدتهم· واضاف اعلان هذه المنظمة : « **هذه ليست اول مرة تضع فيها سياسة الهجرة الصهيونية حياة اليهود في خطر » (٢٢) وسجل الاعلان قائمة طويلة معززة بالتواريخ والارقام تثبت ان سياسة الصهيونية تجاه هجرة اليهود عرضت مئات الالاف منهم الى المخاطر والهلاك وقدمتهم ضحية على مذبح الاهداف الصهيونية اللاانسانية ·**

اما لجنة « راف توف » فقد عقد رئيسها الحاخام حاييم ستوبر مؤتمرا صحفيا في نيويورك بتاريخ ٣ـ٦ـ٧٦ واعلن ان مجموعة من المهاجرين اليهود اضربوا عن الطعام في ايطاليا لانهم يرفضون العيش في اسرائيل ويطالبون بتاشيرات دخول الى الولايات المتحدة · واتهم اسرائيل والمنظمات الصهيونية التي تجمع ملايين الدولارات بحجة مساعدة يهود الاتحاد السوفيتي بانها هي المسؤولة عن ماساة هؤلاء المهاجرين « باتباعها هذه السياسة الخاطئة » (٢٣) ·

كما ان المنظمة المذكورة نشرت اعلانا في الصحف الاميركية موجها الى الجاليات اليهودية تستصرخها فيه مساعدة المهاجرين اليهود المتوقفين في اوروبا · والذين يقبعون بلا مأوى او عمل · واضاف الاعلان : « **ان المنظمات الخيرية القائمة والقادرة على مساعدة هؤلاء اللاجئين اليهود لا تفعل ذلك لسبب بسيط ، وهو ان هؤلاء لا يرغبون بالعيش في اسرائيل » · (٢٤)**

نزوح مستمر

في الوقت الذي انخفضت فيه معدلات الهجرة الى اسرائيل ارتفعت معدلات نزوح الاسرائيليين منها · وتفيد المصادر الاسرائيلية ان النزوح بلغ حدا قياسيا عام ١٩٧٦ حيث وصل عدد المهاجرين من اسرائيل الى ١٧ الف مهاجر ·

ان النزوح ليس ظاهرة جديدة بالنسبة لاسرائيل ولكن الملفت للنظر ان هذه الظاهرة تتصاعد مع مرور السنين · فاذا اخذنا الخمس سنوات الاولى من عمر اسرائيل نجد ان ٤١ الف مهاجر نزحوا منها حسب الجدول التالي (٢٥) :

في عام ١٩٤٨ نزح : ١٠٠٠ يهودي
١٩٤٩ نزح : ٧ الاف
١٩٥٠ نزح : ١٠ الاف
١٩٥١ نزح : ١٠ الاف
١٩٥٢ نزح : ١٣ الف

من الصعب الحصول على ارقام دقيقة حول معدلات النزوح التي اعقبت تلك الفترة ولكن الخط العام هو التصاعد في النزوح · وهناك ظاهرة اخرى يجب الالتفات اليها في مسألة الهجرة الى اسرائيل وهذه الظاهرة يمكن النظر اليها من النواحي التالية :

١ ـ في الاعوام التي سبقت قيام الدولة تراوحت معدلات الهجرة اليهودية الـى فلسطين بين ٢٠٠٠ مهاجر عام ١٩١٩ و ٢٢ الفا عام ١٩٤٧ ٠

وبلغت رقما قياسيا سنة ١٩٣٥ (٦٦ الف مهاجر) ٠

٢ ـ منذ قيام اسرائيل حتى عـام ١٩٧٢ كان الحد الادنـى مـن الهجرة السنوية في عام ١٩٥٣ (١١ الفا) والحد الاقصى عام ١٩٤٩ (٢٣٩ الفا) ٠

٣ ـ منذ بدء الهجرة اليهودية الـى فلسطين عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٧٢ هناك ست سنوات فقط بلغت فيها الهجرة الـى فلسطين ٥٠ الفا في العـام الواحد وهـي السنـوات ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٢

٤ ـ خلال تاريخ الهجرة اليهودية الـى فلسطين هناك اربع سنوات فقـط زادت فيها الهجرة على ١٠٠ الف وهذه السنوات هي ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ٠ والمعروف ان فترة الـ ٤ سنوات هـذه هي الفترة التي هاجر فيها اكثر مـن نصف مليون يهودي من الدول العربية الى فلسطين ٠ والمعروف ايضـا ان يهـود الطوائف الشرقية يشكلون الان في فلسطين اغلبية السكان ٠ (٢٦)

ان الارقام التي اوردناها اعلاه تترتب عليها الملاحظات العامة التالية :

١ ـ لا بد ان القائمين على المشـروع الصهيوني ينظرون بخيبة امل الى مـا افلحوا في جمعه من يهود العالم فـي فلسطين خلال قرن من الزمن ٠

٢ ـ لا تدل حركة هجرة اليهود مـن والى فلسطين خلال الاعوام التي سبقت والتي تلت انشاء « الوطـن القومـي » لليهود في فلسطين على ان الدافع الاساسي لهجرة اليهود هو ما تدعو اليه الصهيونية من مبادىء « وطنية » و « قومية » او « دينية » او « تاريخية » ٠ بـل الدافـع الاساسي هو البحث عن ظروف معيشيـة افضل ٠

٣ ـ الصهيونية نجحت اكثر في جـذب اليهود الى فلسطين ليس عندما سعـت لتحسين ظروفهم بل عندما استغلـت ظروفهم الانسانية خدمة لاهدافها ٠

٤ ـ الهجرة اليهودية الى فلسـطين تتصاعد في السنوات التي تعقب حربـا عربية ـ اسرائيلية تكون نتائجها قصيـرة المدى لصالح اسرائيل ٠ هكذا حدث بعـد الاعوام ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ وقد حدث العكس بعد ١٩٧٣ ٠ والظاهر ان السبب في ذلـك هو ما توفره الحرب الناجحة من ظـروف اقتصادية ناتجة عن الاحتلال وثقة امنيـة ناتجة عن النصر العسكري هذا بالاضافة الى ارتفاع المعنويات ٠

٥ ـ مع ان الصهيونية قامت اساسـا لاستغلال اوضاع اليهود في اوروبا لخدمة اهداف المشروع الصهيوني في فلسطيـن فانها نجحت اكثر في تجميع جاليـات يهودية عاشت بشكل خاص في المغـرب والمشرق العربيين ولم تتعرض لا للاضطهاد اللاسامي ولا للمذابح النازيـة ٠ امـا الجاليات اليهودية الغربية والتي تعرضت للاسامية والنازية فقد فضلت الانتقـال الى مجتمعات غربية اخرى ٠

ان كل هذه الحقائق يجب اخذها بعين الاعتبار عندما تطرح اسرائيل موضـوع المطالبة بتعويض يهود الدول العربية فـي مقابل موضوع تعويض الفلسطينييـن ٠ فالدول العربية ليست مسؤولة اساسـا عن هجرة هؤلاء اليهود الى فلسطين وهي مستعدة لفتح ابوابها لهم من جديد ٠ اما

الحركة الصهيونية فهي المسؤولة الاساسية عن هجرتهم وكل ما ترتب عليها ٠

والاهم من ذلك ، كيف تستطيع الصهيونية واسرائيل التحدث باسم اليهود في اي اطار بعد ان انفضح موقفها منهم على مدى الاعوام وليس اخر ذلك المواقف اللاانسانية من اليهود المتوقفين في النمسا وايطاليا ؟ ان الحقائق الدامغة تشير الى ان الصهيونية فشلت في خلق « وطن آمن » لليهود وانها لا تمثل الجاليات اليهودية في العالم وانها تضر بمصالحهم لمجرد الادعاء بانها تمثلهم ٠ واذا كانت مشاكل اليهود في مجتمعات العالم هي مشاكل عنصرية فالواضح ان هذه المشاكل لن تحلها حركة عنصرية ادانتها الامم المتحدة بهذه الصفة ، بل ستحل بواسطة القضاء على العنصرية في العالم وهذا يعني القضاء على الصهيونية التي تدعي تمثيل كل يهود العالم ٠

يوسف حمدان

هوامش

1) Jewish Journal , 10 December , 1975.

2) The New York Post , 4 May 1976.

3) The New York Times , 6 July 1976.

4) Los Angeles Times , 12 July , 1976.

5) Washington Post , 4 May 1976 .

6) هآرتس ـ ٢٤ـ١٢ـ١٩٧٦

7) Action , 17 January , 1977.

8) Washington Post , 12 December , 1976 .

9) Jewish Journal , 30 November , 1976.

10) New York Times , 30 January , 1977.

11) Jewish Journal, 10 December , 1976.

12) The Daily Telegraphe , 4 June , 1976.

13) The New York Times , 13 February , 1976.

14) Sunday News , 13 October 1976.

15) Ibid.

16) The Guardian , 3 October 1976.

17) Ibid.

18) Newsweek , 9 August , 1976.

19) (Hebrew Immigration Aid Society :
وقد اسست عام ١٨٨٥ بهدف مساعدة اللاجئين اليهود)

20) Cristian Science Monitor , September 1976.

21) Ibid.

22) Wall Street Journal , 2 December 1976.

23) The Daily Telegraphe , 4 June 1976.

24) The New York Times , 27 January 1977.

25) Jewish Press, 11 February 1977.

٢٦) الارقام مستقاة من كتاب الاحصاءات الاسرائيلي عام ١٩٧٣

مـراجعات

زهير المارديني ، الف يوم مع الحاج امين

الطبعة الاولى ـ بيروت : دار العرفان ، لا تاريخ

صدر مؤخرا كتاب الاستاذ زهير الماردیني عن حياة الحاج محمد امين الحسيني (١٨٩٧ ـ ١٩٧٤) مفتي القدس ورئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى ورئيس اللجنة العربية العليا ، ثم رئيس الهيئة العربية العليا ، وعلى الرغم من عشرات المؤلفات والمقالات التي صدرت عن حياة الزعيم الراجل فما زالت الكتابة عنه تجد قطاعا عريضا من القراء العرب والاجانب ، بعضهم يتتبعها من زاوية الاهتمام المطلق بالقضية الفلسطينية وتاريخ فلسطين ، وبعضهم من زاوية سيرة الرجل الذي كان لحوالي ثلاثين سنة (هي مدة الانتداب البريطاني في فلسطين) شاغلا حكومة الانتداب ووزارة المستعمرات البريطانية والمؤسسات الصهيونية · وبصرف النظر عن اي تقييم تاريخي لسيرة هذا الرجل الزعيم ، لايجابياته وسلبياته ، فالحقيقة انه قد تمكن من ان يجعل من سيرة حياته جزءا لا يمكن التغاضي عنه من تاريخ فلسطين ·

انطلاقا مما تقدم ، تفرض علينا الامانة التاريخية ان نتعرض لكتاب الاستاذ المارديني ككتاب تاريخي ، اكثر منه كتابا مشوقا يروي حياة زعيم سياسي باسلوب صحفي وخاصة ، أن الكتاب قد نشر بعد وفاة المفتي ، فاثار نشره خلافا بين من يقول بان الكتاب تسجيل للاحاديث التي اوردها المفتي للكاتب ـ وهذه هي رواية الكاتب ـ وبين من يقول بان الكتاب في معظمه منقول عن مقالات وكتب صدرت عن حياة المفتي واعماله ـ وهذه هي رواية بعض المقربين من المفتي واقربائه ـ والكاتب نفسه يذكر (ص : ٤ ـ ٥) انه قرأ عشرات الكتب حول سيرة الرجل ، وانه اجتمع بشخصيات سياسية عديدة لعبت ادوارا بارزة في حياة القضية الفلسطينية ، الا انه لا يذكر اسماء هؤلاء، كما انه لا يقدم للقارىء قائمة بالمراجع والمصادر التي اطلع عليها ، وهذا ما يجعل الاولوية للسؤال التالي : هل الكتاب حقا هو نتاج احاديث للمفتي الراحل مع الكاتب ؟ وليس مهما لدينا ان تكون الاحاديث قد امتدت عبر الف يوم او اكثر او اقل ، اذ ليس هذا هو بالامر المهم ، انما المهم هو مصداقية الاحاديث نفسها ·

يروي المؤلف (ص : ٥) باسلوب انشائي وعاطفي ان جهات معينة قد رفضت السماح له بنشر الكتاب حين انتهى من اعداده ، ثم يتضح ان هذه الجهات ما هي الا المفتي نفسه والمقربون منه · ثم يروي الكاتب بعد ذلك كيف استدعاه المفتي مشترطا عليه ان لا يعلم احد بهذه الزيارة من « الملتصقين » به ، فيقول : (ص : ٦) : « وسالني الرجل : هل ما تزال مصرا على اصدار الكتاب ؟ فاجبته « الم تأمروا بدفنه حيا ، فما الذي ذكركم به الان ؟ قال وابتسامته التي لا تفارق وجهه تشارك كلامه : يجب ان تأتيني بعد أيام للابراق الى دار النشر لايفاد من يمثلها لالتقاط الصور التي سبق ان طلبتها ·

« واحسست ان الرجـــــل يريد ان يفارقنا ·· لقد تعب من حياته ، وتعـــب من النضال الطويل القاسي ·· وتعـــب اكثر فاكثر من هؤلاء الذين يشكلون حوله حزام الضغط ·· فقلت له :

« لقد امضيت مع سماحتكم الف يـوم من اجل انجاز الكتاب ·· وفقدت نصف بصري ، فاذا لماذا كان العنوان (الف يوم مع الحاج امين) ؟

« ابتسم الرجل ·· ثم اغفى ، وخرجنا (الكاتب والبرناوي مرافق المفتي الدائم) من غرفة نومه ونحن نغالب دموعنا » ·

وانتقل المفتي الى رحمته تعالى بعـــد هذا اللقاء بايام قليلة ـ كما يروي الكاتب ـ وكان لقاء سريا جـدا لم يـــدر بـــه احد من المقربين الى المفتي كما يـــروي ايضا ، وهذا مع العلم انه لا يوجد سبب منطقي يستدعي هـــــذه السرية المطلقة ، فليس هناك احد من « المقربين » هؤلاء من بامكانه ان يعارض سماحته ، ان هـــــو بالفعل وافق على نشر كتاب ما عن سيرة حياته · وقد كان من مصلحة الكاتب اكثر ان يعلن هذا اللقاء في حينه بدلا مـــــن الكتمان ·

والاهم من ذلك اللقاء ، انه توجـــــد رسالة (تقديم) في الكتاب بقلم « محمـــد امين الحسيني » ، كان كتب في اعلاها ، ويتضح في التقديم موافقة المفتي ضمنيـــا على النشر ، فلو كان صاحب التقديـــم معارضا للنشر لما كتب التقديم · انما من المستغرب فعلا ان يخلو هذا التقديم مـــن اي تاريخ ، فمتى كتبه المفتي ؟ هل كتبـــه حال الانتهاء من اعداد الكتاب مثلا ؟ ان الكاتب نفسه اعترف بان المفتي كـــــان معارضا للنشر في البداية ، ثم عـــــاد فوافق في ايامه الاخيرة ، فهل يعقل اذن ان يكون قد املى الرسالة ـ وهو في ايامه الاخيرة ـ ومن دون ان يدري احد مـــــن المقربين اليه ، ومن الاقرباء ·

بماذا يجيب على هذا المقربـــــــــون والاقرباء ؟

الاستاذ منيف الحسيني صاحب جريدة الجامعة العربية التي صدرت في القدس (١٩٢٧ ـ ١٩٣٥) ، رافق المفتي منـــذ اوائل العشرينات ، حتى وفـــــاته في المنصورية ·

يقـــول منيف الحسيني (مقابلـة ـ بيروت : ٢٤ـ٢ـ١٩٧٨) حول الرسالـة (اي التقديم) ان اسلوبها ليس اسلوب سماحته ابدا ، وهو يجزم بان الرسالـة لا وجود لها اصلا ، ولو وجدت فعلا لكانت اثمن ما في الكتاب ، ومن دونها يفتقـــر الكتاب الى الاساس القائم عليه ، وهـــو احاديث سماحته ثم يتساءل : لماذا لـــم يصورها الكاتب بالزنكوغراف ، ان تكن موجودة حقا ؟

ويقول ايضا ان كل ما يعرفه حـــــول الكتاب هو التالي : لقد طلب زهيـــــر الارديني من المفتي ان يجري مع سماحته عددا من الاحاديث ، وذلك بعد ان تـــم الاتفاق بينه وبين دار صحفية فرنسيـــة على نشرها ، ووافق سماحته في البداية فعلا ، وتحدث معه عن طفولته وسيـــرة حياته الاولى في فلسطين ، ثم توقف عن ذلك · وسجل المؤلف هذه الاحاديـــث المعدودة في الفصل الاول وجاء بها الى سماحته كي يطلع عليها ، ولكن سماحتـه حين اطلع عليها قرر التوقف عن اعطـاء الكاتب اي حديث كان وطلب عدم النشر اطلاقا ، وكان السبب في ذلك الاسلـوب الانشائي والخيالي ثم المبالغات التـــي كان سماحته منها براء · فهو مثلا عندما قرا الوصف عن طفولته بين اروقة المسجد الاقصى ، علق بقوله مبتسما انه لم يذكر للكاتب شيئا من ذلك · ويكـــــاد منيف الحسيني يجزم بان الفصول الباقية كلها مستقاة مما نشر عن سماحته في الكتـــب ومن مذكرات سماحته التي نشرتها مجلـة

فلسطين للهيئة العربية العليا في حوالـــي ثمانين حلقة (١٨٦٧ ـ ١٩٧٥) ٠

وتقول السيدة زينب الحسيني كريمـة المفتي حول الكتاب (مقابلـة ـ بيروت : ٢٤ـ٢ـ١٩٧٨) انها شاهدت الكاتـب في منزلهم عدة مرات ، ولكنها لا تعلم شيئـا عن مدى الاحاديث التي جرت بينه وبيـن والدها ، وهي بعد ان قرأت الكتاب تستطيع ان تؤكد انها طالما سمعت من والدها مـا جاء فيه في العديد من المناسبات بالنسبـة اليها اذن ، ليس هناك من جديد فـــي الكتاب ٠ والمهم بالنسبة اليها ايضـا الا تكون هناك معلومات مختلفة لم تحصل بالفعل ٠

والشيء الاهم بعد ذلك كله هـــــو الكتاب نفسه فنحن لو سلمنا جدلا بـــأن الكتاب هو مجموعة من الاحاديث التـــي رواها المفتي بنفسه للكاتب، فما هي المكانة العلمية التي يصل اليها الكتاب بين الكتب التي صدرت عن سيرة المفتي ؟

ان تتبع الخطوات النقدية الرئيسيـــة بالنسبة الى هذا الكتاب بالذات هي مـــن الصعوبة بمكان ، وذلك لانه كتاب جامـع بين السيرة الشخصية وكتابة التاريـــخ باسلوب الحوار المباشر تارة ، وبالاسلوب الانشائي الخيالي تارة اخرى، ثم باسلوب الكتابة التاريخية المقتضبة جدا والخالية من كل مسؤولية علمية ، اي انها الكتابة التي لا تعترف بالمصادر والمراجـــــع والهوامش ٠ ولذلك فاننا سوف نتعـــرض فقط لمجموعة من الملاحظات التي فرضـت علينا نفسها فرضا من خلال قراءتـــــه مبتعدين عن تصنيف الكتاب تصنيفا علميا محددا ، وذلك لافتقاره الى اي اســـاس علمي واضح متفق عليه ، فهو من ناحيـة لا يخضع لاحكام الكتب التاريخية ، لانـــه لا يذكر المصادر التي استقى منها مادته،

كما انه من ناحية اخرى لا يمكن اعتباره بكليته تسجيلا لاحاديث المفتي ، وذلــــك ليس استنادا الى الخلاف القائم بيـــن الكاتب واقرباء المفتي حول ذلك ، ولكـــن استنادا الى الكتاب نفسه الذي ســـوف تكشف لنا الملاحظات التالية حولـــه عـن نقاط واخطاء يستبعد المنطق كل البعـــد ان تكون صادرة بالفعل عن المفتي ٠

اولا ـ تاريخ النشر : ذكر في الصفحات الاولى من الكتاب انه طبع في نوفمبـــر (تشرين الثاني) مع اغفال السنة ،ولدى تتبع مقدمة الكاتب وكلمة المفتي ثـــم الصفحة الاخيرة من الغلاف لا نجدُ ذكرا لاي تاريخ ، وذلــــك مستغرب بالفعل ، وخاصة بالنسبة الى تقديم المفتي ، لان ذكر التاريخ الذي كتب فيه التقديم امر مـهم جدا عندما تختلف الروايات حول كتابته فعلا بقلم المفتي ، او بادعاء ذلك ٠

ثانيا ـ فصول الكتاب : يحتـــــوي الكتاب على ثمانية عشر فصلا ، الخمسة الاولى منها في نشأة المفتي وفي نضالـــه في فلسطين ، ومن ثم يستعرض الكاتب ابتداء من الفصل السادس وحتى الاخيـر مراحل حياة المفتي السياسية خـــارج فلسطين ابتداء من سنة ١٩٣٧ حين اضطر الى مغادرة البلاد الى لبنان ومواصلـــة الثورة من الخارج ٠ ثم يستعرض انتقاله في بداية الحرب العالمية الى بغداد ، ثـــم قصة علاقته بالمانيا وايطاليا وملاحقـــة الحلفاء له بعد الحرب ، ثم قصة عودتـه من فرنسا الى مصر ٠

يتضح جليا من هـــذا الاستعـــراض السريع ان مواضيعه هي المواضيع نفسها التي سبق ونشرت عن المفتي مــــرارا وتكرارا ، واما المواضيع التي لم ينشــر الكثير ولا القليل حولها ، فالكاتب لم يعرج عليها ٠ وهنا يبرز السؤال التالي : هـل يعقل ان تمتد الاحاديث عبر اربع سنـوات

بين المفتي والكاتب ولا يتطرق الحديث بينهما الى ما هو ابعد مما نشر سابقا وقيل سابقا وعرف في كل الاوساط ٠ وخاصة عندما نشير في هذا المجال الى طبيعة المفتي السمحة فقد كان يشجع الكتاب والصحفيين ، ومن المشهور عنه اللباقة في الحديث والرغبة الدائمة في الحديث عن تاريخ فلسطين ، وقد استطاع العديد من الكتاب والصحفيين ان يرووا عنه في جلسات معدودة معلومات وآراء لم يتطرق اليها احد من قبلهم ٠

ثالثا ـ الإخطاء التاريخية : يصل القارىء الى درجة الوثوق من عدم رواية المفتي لكل ما جاء في الكتاب عندما يصطدم باخطاء تاريخية لا يعقل ان يكون المفتي ـ وهو العارف بتاريخ قضيته وهو المساهم في صنع ذلك التاريخ ـ من الوقوع فيها ٠ واكثر من ذلك ، وبكل صراحة ، ان بعضا من هذه الاخطاء البارزة التي سنتعرض لامثلة منها فقط لا يعقل ان تصدر عن مطلق مواطن فلسطيني عاش المرحلة وتتبع خطواتها ٠

١ ـ يروي الكاتب عن المؤتمرات الوطنية في فلسطين (ص : ٦١) انه « انعقدت خلال السنوات ١٩٢٢ ـ ١٩٢٩ سبعة مؤتمرات عربية ٠٠٠ » والصحيح ان المؤتمر الاول عقد سنة ١٩١٩ اثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس واثناء الحكم العسكري البريطاني (١٩١٧ ـ ١٩٢٠) ، وكان المؤتمر الاخير سنة ١٩٢٨ ٠

٢ ـ يذكر الكاتب ما يلي حول القيادة العليا سنة ١٩٣٣ (ص : ٧٨) « كان الوضع يزداد سوءا ٠ وبدأ الشعب يبحث عن سبيل للخلاص فلا يجد ٠ كان لا بد من الخروج من الازمة فدعت اللجنة العربية العليا التي يرأسها موسى كاظم الحسيني في شباط ١٩٣٣ الى مؤتمر مثلت فيه المدن والشعب بمختلف طبقاته يعقد في مكاتب المؤتمر الاسلامي » ٠٠٠ والصحيح هو ما يلي :

لم تكن اللجنة العربية العليا قائمة سنة ١٩٣٣ ، فهذه اللجنة لم تنبثق الا سنة ١٩٣٦ ، واثر اعلان الاضراب الكبير، وقد اقترنت باسم رئيسها الحاج محمد امين الحسيني وبعضوية رؤساء الاحزاب الستة ٠ واما في سنة ١٩٣٣ فالقيادة العليا التي كان يترأسها موسى كاظم الحسيني كانت تدعى باللجنة التنفيذية العربية ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ المؤتمر الثالث في حيفا في اواخر ١٩٢٠ واستمرت حتى سنة ١٩٣٤ ٠ وهي السنة التي توفي فيها الرئيس موسى كاظم ٠

واما مكان انعقاد المؤتمر فكان مقر اللجنة التنفيذية نفسها لا مكاتب المؤتمر الاسلامي كما ذكر ، وهذا مع الاشارة الى ان المؤتمر المذكور كان من اهم المؤتمرات التي دعت اليها اللجنة التنفيذية ، فاي مبرر لها كي تعقده خارج مقرها ؟

٣ ـ جاء حول احداث ١٩٣٣ ايضا (ص : ٧٨) : « وفي اول آذار سنة ١٩٣٣ اعلن الاضراب العام وقامت اللجنة العربية العليا بزيارة ليافا لتنظيم المقاطعة، وعندما عاد المفتي ورفاقه الى القدس وجدوا المدينة في وضع متأزم » ٠

والصحيح انه لم يعلن اي اضراب عام اول اذار ١٩٣٣ ، هذا بالاضافة الى ان كلمة الاضراب العام تطلق عادة على الاضراب الكبير والشهير الذي امتد ستة اشهر في خلال سنة ١٩٣٦ ٠ واما الذي جرى بالفعل سنة ١٩٣٣ فهو دعوة اللجنة التنفيذية الى الاضراب اضرابا رمزيا ليوم واحد في جميع مدن فلسطين، على ان يرافق الاضراب في كل يوم جمعة ابتداء من ١٣ تشرين الاول مظاهرات في القدس ، وبالفعل جرت مظاهرة القدس الضخمة وتلتها المظاهرة في يافا ، وقد سار الرئيس موسى كاظم في

كل منهما مع عدد من اعضاء اللجنة التنفيذية في المقدمة ، وقد اقدمت السلطة على منع هذه المظاهرات بقوة السلاح وحالت دون تكرارها .

ذكرنا ذلك بشيء من التفصيل لنتوصل الى التشابك الذي عرض الكاتب اليه نفسه بين مظاهرات ١٩٣٣ والاضراب الكبير المقترن بالثورة المسلحة ١٩٣٦ . وهو يخلط بين الحدثين بكل بساطة وكأنهما حدث واحد لا يفصل بينهما ثلاث سنوات ، ولا يفرق بينهما كون الاولى مظاهرات سلمية ليس اكثر ، والثانية ثورة شعبية . وفي هذا يقول الكاتب (ص : ٧٩) :

« وفي يوم الجمعة ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٣٣ خرجت مظاهرة اشترك فيها عدة الاف من العرب من المسجد الاقصى بقيادة موسى كاظم الحسيني فهاجمتها قوى الجيش وجرح ٢٥ عربيا » ...

« بعد هذا الحادث دعا المفتي الى اجتماع في المؤتمر الاسلامي اعلن فيه متابعة المظاهرات وقامت مظاهرة ضخمة في يافا ... » .

« واعلن عن مظاهرة ثانية في يافا غير ان الشرطة هاجمت مبنى الجمعية الاسلامية المسيحية واوقفت وجهاء المدينة المجتمعين لدراسة تنفيذ المظاهرة ووضعوا في سجن عكا . اما المفتي الذي اصبح المسؤول الاول عن المقاومة فقد التجأ الى المسجد الاقصى ولم تجرؤ السلطات البريطانية على الاقتراب منه خشية اثارة الرأي العام الاسلامي » ..

ان الفقرة الاولى حول مظاهرة القدس صحيحة ، واما ما تلاها من دعوة المفتي الى اجتماع خاص اعلن فيه متابعة المظاهرات ، فهو غير صحيح على الاطلاق لسبب رئيسي وشهير وهو عدم اقدام المفتي في تلك المرحلة على قيادة الحركة الوطنية علنا وهو الذي القى خطابا شهيرا في تلك السنة بالذات وقبل المظاهرات باشهر (في ٢٦ اذار ١٩٣٣) وذلك في اثناء انعقاد مؤتمر وطني كبير في يافا حاول فيه خصومه السياسيون ان يورطوه بالاستقالة من منصبه كرئيس للمجلس الشرعي الاسلامي الاعلى من اجل ان يتسلم القيادة العلنية للحركة الوطنية ، وقد رد على هذه المحاولة بخطبة اشتهرت بجملته التاريخية « اني لست ممن يتورطون » ، وقد جاء في مستهل خطابه :

« قبل قدومي اليوم الى هنا حاول بعض الناس ان يثنوني عن عزمي قائلين لي ان في المسألة محاولة للتوريط ، وان بين المجتمعين ممن سيطلب مني الاستقالة . فقلت لهم احسنوا الظن فاني لست ممن يتورطون .

« انا لست في هذه الحركة الوطنية دخيلا ، ولم التصق بها التصاقا ، ولم تأت الي الرئاسة الا على الحاشية . ولقد حضنت غمار الحركة الوطنية العامة وعملت قبل الان والى الان » ... (١)

واستمر المفتي على موقفه من عدم الرغبة في القيادة العلنية حتى انبثق الاضراب الكبير عفويا في ١٩ نيسان ١٩٣٦ وانتشر ، وبعد ذلك قبل المفتي برئاسة اللجنة العربية العليا وتزعم الحركة الوطنية .

---

(١) راجع ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني ، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٦٨) ، ص ٣٢٤ .

واما الدليل الواقعي على عدم اشتراك المفتي فعلا في المظاهرات المذكورة ، فهو وجوده خارج البلاد يترأس وفدا باسم المؤتمر الاسلامي لزيارة الاقطار الاسلامية الشرقية ، ومنها الهند وافغانستان وايران والعراق ، وذلك بقصد جمع الاموال لانشاء معهد « الجامعة الاسلامية » . والطريف فعلا ان المعارضة في فلسطين حين شنت حربها الدعائية ضد المفتي والامير شكيب ارسلان في سنة ١٩٣٥ بتهمة التواطؤ مع موسوليني ، كانت من جملة الاتهامات التي كالتها للمفتي عدم اشتراكه في تلك المظاهرات الشهيرة سنة ١٩٣٣ ، وكان الرد على ذلك من قبل انصار المفتي بانه كان خارج البلاد ـ كما ذكرنا .

وبقيت اشارة اخيرة وهي حول قول الكاتب بان المفتي الذي اصبح المسؤول الاول عن المقاومة فقد التجأ الى المسجد الاقصى . والصحيح ان المفتي ـ كما اكدنا ـ لم يشارك في مظاهرات ١٩٣٣ وبالتالي لم يلتجيء الى المسجد الاقصى . واما حين التجأ فعلا الى حماية المسجد الاقصى المجاور لمنزله ، فقد كان ذلك بالتحديد في ١٧ تموز ١٩٣٧ حين حاصرت السلطة البريطانية دار اللجنة العربية العليا ، ولما كان مقر اللجنة قريبا جدا من منزل المفتي فقد تمكن من الافلات قبل مداهمة الجنود للدار ثم الاعتصام في منزله . وما كان بامكان السلطة ان تصل اليه دون ان تعتدي على حرمة المسجد الاقصى الشريف .

اذا كان المؤلف يعني هذه الحادثة ـ وهذا مجرد استنتاج ـ فكيف يخول لنفسه الانتقال فجأة من احداث ١٩٣٣ الى احداث ١٩٣٧ ، ومن دون اية اشارة الى الفارق الزمني ، والى الفوارق الهائلة في تطور الاحداث السياسية .

٤ ـ حول استشهاد القسام وحول الكفاح المسلح ورد (ص : ٨٧) ما يلي : « عندما توفي القسام شهيدا كانت اللجنة العربية العليا قد عزمت على اللجوء الى السلاح » . والصحيح هو عدم وجود اللجنة العربية اصلا حين استشهد القسام . لقد استشهد القسام في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، واما اللجنة العربية العليا فقد تالفت في نهاية الاسبوع الاول من الاضراب الكبير ، وصدر البيان الاول بتأسيسها في ٢٥ نيسان ١٩٣٦ ، وليس الكاتب هو اول من يحاول في هذا المجال اثبات وجود الكفاح المسلح في فلسطين قبل استشهاد القسام ، والحقيقة المطلقة التي لا يرقى اليها الشك هي ان المؤسسات السياسية في فلسطين كلها لم تفكر بالكفاح المسلح اداة للنضال قبل استشهاد القسام وقبل الاضراب الكبير . صحيح ان حزب الاستقلال العربي بالذات مهد فكريا ونفسيا للعداء ضد الانكليز وجاهر بذلك منذ سنة ١٩٣٢ ، الا ان المجابهة العملية المسلحة ضد السلطة مباشرة لا يستطيع احد ان يدعي شرفها قبل «القساميين» .

ان هذه الامثلة من الاخطاء التاريخية الرئيسية لا يمكن ان تصدر عن المفتي بأي حال ، كما انها لا يمكن ان تنسب الى سرعة او تسرع في تسجيل الاحاديث . انها ليست الا دلالة على اهتمام الكاتب بسيرة المفتي فقط كزعيم شهير ، دون اي التفات الى الالتحام والتشابك بين سيرة الرجل وتاريخ فلسطين . ومن يتعرض بالكتابة لسيرة الزعيم السياسي لا بد له وان يدرس تاريخ بلده دراسة وافية ، وكذلك من يتعرض بالكتابة الى تاريخ فلسطين بالذات لا بد له وان يدرس سيرة الحاج محمد امين الحسيني دراسة وافية .

بيان نويهض الحوت

Faris Glubb : **Zionist Relations with Nazi Germany**
— Palestine Research Center — Beirut 1978

خلال الحرب العالمية الثانية وجه الزعيم اليهودي السلوفاكي الحاخام دوف ميخائيل مايسمندل رسالة الى الحركة الصهيونية جاء فيها : « نبعث اليكم بهذه الرسالة الخاصة لنبلغكم أن الالمان ابتدأوا امس ترحيل اليهود من المجر ··· ويذهب المرحلون الى اوشفيتس حيث يقتلون بغاز السيانيد ··· هذا هو برنامج او شفيتس ، من امس الى النهاية : ١٢ الف يهودي ـ من الرجال والنساء والاطفال والشيوخ والرضع والاصحاء والمرضى ، يخنقون يوميا · وانتم ، يا اخوتنا في فلسطين ، وفي جميع بلدان الحرية ، وانتم يا وزراء جميع المملكة ، كيف تبقون صامتين في وجه هذه الجريمة الكبرى ؟ صامتين بينما قتل الالوف والالوف الذين وصل عددهم الان الى ستة ملايين · ان قلوبهم المحطمة تصرخ اليكم طالبة النجدة فيما هم يبكون وحشيتكم ·

متوحشون انتم وقتلة ايضا بالنظر الى قسوة الصمت الذي فيه تراقبون · لانكم تجلسون مكتوفي الايدي ولا تفعلون شيئا ، مع انه بامكانكم ان توقفوا او تؤخروا قتل اليهود في هذه الساعة عينها ·

انتم ، يا اخوتنا ، ابناء اسرائيل ، هل انتم مجانين ؟ الا تدرون بالجحيم الذي هو حولنا ؟ لمن تدخرون اموالكم ؟ قتلة · مجانين · من الذي يقدم الاحسان ؟ انتم الذين تقذفون ببضعة فلوس من بيوتكم الامنة ؟ ام نحن الذين نعطي دماءنا في اعماق الجحيم ؟ » ·

الجواب على هذه الصرخة الغاضبة ، كما يوضحه هذا الكتاب الصغير ، هو ان زعماء الحركة الصهيونية لم يكونوا صامتين مكتوفي الايدي فحسب ، بل كانوا يتعاونون بشكل فاضح ايضا مع قادة النازية الالمانية · ومؤلف الكتاب هو الشاعر والمؤرخ فارس غلوب ، الذي يستعمل ايضا اسم فارس يحيى · وكتابه هذا من الحجم الصغير ويقع في ٨٢ صفحة · ويظهر بشكل واضح ان الكتاب ارتكز على ابحاث مستفيضة قام بها المؤلف ·

يوضح الكاتب في المقدمة ان كتابه محاولة لتصحيح الجهل الواسع الانتشار حول العلاقة بين الصهيونية والمانيا النازية · وقد استقى معلوماته كلها من مصادر يهودية صرفة ، تتراوح بين الصهيونية والمناهضة للصهيونية ·

ويشير غلوب الى ان مؤسس الحركة الصهيونية السياسية ، تيودور هيرتزل ، كان يعي الاسس المشتركة الفلسفية بين الصهيونية واللاسامية · فقد كتب يقول : « ان حكومات جميع البلدان المبتلية باللاسامية ستكون مهتمة اهتماما بالغا بمساعدتنا في تحقيق السيادة التي نريدها » · لقد اكد هيرتزل في مناسبات كثيرة ان اللاساميين هم افضل اصدقاء اليهود والحكومات اللاسامية افضل حليفات لهم · وهو يضيف : « اللاسامية قوة غامرة وعلى اليهود ان يستعملوها والا ابتلعتهم ··· فاللاسامية هي القوة المحركة المسؤولة عن جميع الالام اليهودية منذ دمار الهيكل ··· وسيثبت ان هذه القوة المحركة هي العامل الاكثر فائدة في الحياة اليهودية · وستستخدم بنفس الطريقة التي يستخدم بها الماء الغالي لانتاج الطاقة البخارية » ·

ويلاحظ غلوب ان هيرتزل كان رجلا

يمارس ما يبشر به · لذا راح يتصل بالسياسيين والمسؤولين اللاساميين في اوروبا · وفي طليعة هؤلاء وزير الداخلية القيصري الروسي فنزل فون بليهفة ، الذي كان مسؤولا عن تنظيم مجازر ضد اليهود، ووزير المالية القيصري الروسي الكونت فيتي الذي عرف بعدائه الشديد لليهود · كما اتصل هيرتزل بزعماء يمينيين لاساميين في بريطانيا امثال اللورد ارثر بلفور وجوزف شمبرلين ·ومن بعده واصل حاييم وايزمان ، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني انذاك الاتصال ببلفور واللورد روبرت سيسيل ورئيس الوزراء لويد جورج · وكان وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ نتيجة هذه الجهود الدبلوماسية · وهكذا فان الدافع لاول ميثاق « لوطن قومي » صهيوني كان مزيجا من المطامع الامبريالية والمشاعر اللاسامية من جانب السياسيين اليمينيين الذين اصدروه ·

وجاءت اقوى معارضة للوعد ضمن الحكومة البريطانية من عضوها اليهودي الوحيد ، السير ادوين مونتاغيو ، الذي ادرك بوضوح الدوافع اللاسامية وراء سياسة بلفور ولويد جورج · وكتب مونتاغيو يقول : « انا اؤكد ان لا وجود لامة يهودية ··· عندما يقال لليهود ان فلسطين هي وطنهم القومي ، فان جميع البلدان سترغب على الفور في التخلص من مواطنيها اليهود ، وستجد في فلسطين سكانا يطردون منها سكانها الحاليين ، آخذين كل ما هو الافضل في البلاد » · ويلاحظ غلوب ان تكهنات مونتاغيو كانت صائبة · فالاعوام اللاحقة لوعد بلفور شهدت ازدياد اللاسامية في اوروبا وبلغت اوجها في مجازر هتلر · وتبع ذلك تشريد الشعب الفلسطيني · وكان الحدثين مترابطين ·

في الثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ جاء هتلر الى السلطة ، وصارت اللاسامية السياسة الرسمية للحكومة الالمانية · وعلى الاثر خرج اليهود والليبراليون وغير الاريين من المانيا باعداد كبيرة · ومن الناحية الاخرى كانت الحركة الصهيونية تؤمن بدورها بان اليهود يجب الا يكونوا جزءا من مجتمع الامم · وتوضح هذه الحقيقة لماذا ادت النازية الى زيادة قوة الصهيونية الى حد كبير بين اليهود الالمان · ولذا استطاع نازي مقتنع مثل ايتسمان ان ينمي علاقات ودية مع الصهاينة ، حتى انه وصف نفسه كموال للصهيونية ، فيما بقي مخلصا للنازية · ومما لا ريب فيه ان مجيء هتلر الى السلطة ادى الى سحق منافسي الصهيونية الرئيسيين على الزعامة الايديولوجية لليهود الالمان · وخلال الاعوام القليلة الاولى بدا للصهاينة ان الحكم النازي يعني الهزيمة التامة لامتصاص اليهود في المجتمع · ومن هنا كان بامكان الصهاينة القيام بدرجة معينة من « التعاون غير الاجرامي » مع السلطات النازية · وفيما بعد صار الباب مفتوحا لتعاون اخطر بكثير يشمل التأييد النازي للبرنامج الصهيوني : هجرة اليهود الى فلسطين · ونالت هذه السياسة بركة هتلر · واتخذت العلاقة بين الصهيونية والنازية صفة رسمية في عقد اتفاقية هي الاولى في سلسلة اتفاقيات · فقد اعطي اليهود المهاجرون الى فلسطين فرصة لنقل رؤوس اموالهم بما سمي اتفاقية هاعافارا ، التي وقعها الرايخ الالماني والوكالة اليهودية لفلسطين · وبعد فترة اضيفت اليها اتفاقية مقايضة لتبادل البرتقال الفلسطيني لقاء سلع المانية مثل الخشب وورق اللف والسيارات والمضخات والالات الزراعية · وكما قال راول هيلبرغ : « بدا كان العلاقات بين المانيا النازية والجالية اليهودية في فلسطين كانت ممتازة » · كما ازدادت امتيازات

الحركة الصهيونية في ظل الحكم الهتلري بينما تقهقر مركز اليهود الالمان · وسمح للمنظمة الصهيونية بفتح مراكز تدريب مهنية وزراعية للمرشحين اليهود الذين ارادوا ان يهيئوا انفسهم لحياة جديدة في الشرق الاوسط · وتم تنظيم دروس في العبرية في عدة مدن · وبتوجيه من رجل ذي قيمة بالغة ، هو روبرت فيلتش ، حملت الصحيفة الصهيونية يورديشه روندشاو الامل بحياة افضل لالوف من البيوت اليهودية ·

وصارت المصالح المشتركة للجانبين تتطلب الاسراع في هجرة اليهود من الاراضي والبلدان التي سيطر عليها النازيون · ومنذ نهاية ١٩٣٨ كان مبعوثان من فلسطين ، هما بنحاس غينزبرغ وماكس زيملر ، يعملان بلا كلال على اراضي الرايخ لتحضير القوافل غير القانونية الى فلسطين · ولم يضع الغستابو اية عراقيل في طريق نشاطهما · ويوضح الكاتب ان الاتفاقيات بين المبعوثين الصهاينة والسلطات النازية ، التي قدمت المانيا النازية بموجبها مساهمة حيوية في تعزيز الطاقة البشرية والتدريب وبالتالي الاستعداد العسكري للصهيونية، لم تكن تدابير غير رسمية · بل كانت اتفاقيات رسمية دخلتها الحكومة النازية سرا : تحالف مصلحة امر به هتلر نفسه · فقد قرر الفوهرر الاستمرار في تشجيع الهجرة اليهودية من المانيا « بكل الوسائل المتوفرة » · والمعروف ان الكثيرين من النازيين جمعوا ثروات كبيرة من ممتلكات ضحاياهم اليهود · الا ان الامر الذي يجهله الكثيرون هو ان المنظمين الصهيونيين للهجرة نالوا حصتهم ايضا من الفوائد المادية على حساب اليهود الافراد ·

وبعد سنتين من الحرب وجد هتلر انه لم يعد من الممكن تخليص اوروبا من اليهود ، لذلك اختار « الحل النهائي » لمعسكرات الابادة · وهكذا صار الصهاينة يواجهون اختيارا حاسما بين سبيلي عمل · الاول هو اعلان الحرب على النازية ورفع راية الثورة اليهودية على النازيين في جميع انحاء اوروبا · وبالطبع يعني هذا التخلي عن جميع الاحتمالات لتأمين حتى هجرة « قانونية » محدودة جدا للطاقة البشرية من اوروبا عن طريق التعاون مع النازيين في المستقبل · وكان الاختيار الثاني المفتوح امام الصهاينة هو القبول بان الحالة قد تغيرت ، موقتا على الاقل ، في اتجاه غير مؤات لهم ، ومحاولة التوصل الى ترتيبات جديدة ، محدودة اكثر · وخلال الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ قطع عدد من الصهاينة الافراد في اوروبا الشرقية التي يحتلها النازيون ، امثال موردخاي انيلفتش ، صلاتهم بالسياسة التقليدية الصهيونية وشاركوا في ثورات ضد النازية · وكانت جميع هذه الثورات منظمة محليا في وارسو وفيلنو وبياليستول ، ولكن دون التعاون مع الحركة الصهيونية على الصعيد الدولي ·

ويلاحظ غلوب ان التاريخ لا يسجل اي اعلان للثورة من قبل الحركة الصهيونية ضد النازيين في اوروبا ، لقد حاول اليهود في مدينة فيلنو ، مثلا ، ان يقوموا باعمال تخريبية ضد النازيين ، لكن امالهم في انتفاضة جماهيرية لم تتحقق · واحد العوامل الرئيسية في هذا الفشل كان الدور الذي قام به جاكوب جنس ، وهو متعاون صهيوني رئيسي مع النازيين ، الذين جعلوه رئيسا لقوة شرطة يهودية في فيلنو · وكما يقول روبنشتاين : « ··· ما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات ذهب الى ذلك الحد في خدمة النازيين كما فعل جنس · وما من زعيم اخر من زعماء الغيتوات استعمل قوة شرطته لتنفيذ القتل الفعلي

لليهود ... » ولعبت «المجالس اليهودية»، التي عينها النازيون لادارة كل غيتو ، دورا رئيسيا في برامج الابادة . وكان معظم اعضاء هذه المجالس من الصهيونيين ، الذين اعتقدوا انهم ، بتحضيرهم اليهود الذين يرسلون الى حتفهم ، انما ينقذون اليهود الاخرين . هذا النمط من التعاون بين الصهاينة والنازيين في قتل اليهود شمل عدة مدن وقرى في جميع انحاء بولونيا وليتوانيا والمجر ورومانيا .

ان روايات المؤرخين اليهود لمحنة يهود اوروبا الشرقية في ظل الاحتلال النازي تضمنت قصة ذات جانبين : بطولة المقاومة وعار التعاون . ويطرح غلوب السؤال : ماذا كان بالضبط دور الحركة الصهيونية ، كحركة ، في كل هذا ؟ ويجيب ان البعض ادرك ان المانيا النازية مصممة على ابادة اليهود وان خطر الابادة يشمل اي يهودي لم يهرب او لم يخرجه الصهاينة من اوروبا بموجب اتفاقيات ١٩٣٨ . اما البعض الاخر فقد استمر يأمل بانهم يستطيعون انقاذ انفسهم واتباعهم المختارين عن طريق عقد صفقات مع النازيين على حساب اخوانهم اليهود . الا ان الصفوف العليا من الحركة الصهيونية ، وبخاصة الوكالة اليهودية التي بقي قادتها في اماكن بعيدة آمنة عن الحرب ليشكلوا الحكومة الاسرائيلية في المستقبل ، لم تواجه مثل هذا الانقسام في الرأي . ولم يصدر اي اعلان للثورة ضد النازية من هؤلاء الزعماء .

وقد قامت الحركة الصهيونية ببعض النشاط العسكري المحدود في الحرب العالمية الثانية ، لكن الهدف الاساسي من هذه المشاركة كان تعزيز فكرة الدولة اليهودية وليس محاربة النازية او مساعدة اليهود المضطهدين على مقاومتها . وهكذا الف الصهاينة « الفرقة اليهودية » في الجيش البريطاني . وفي اخر مراحل الحرب القى الصهاينة مجموع ٣١ مظليا في البلدان التي يحتلها النازيون مهمتهم كانت تنظيم المزيد من الهجرة الى فلسطين وليس مقاومة النازيين .

ويروي غلوب قصة الاتفاق السري الذي عقده الدكتور رودلف كاستنر ، عضو لجنة الانقاذ التابعة للوكالة اليهودية في بودابست ، مع الكولونيل ادولف ايشمان ، المسؤول عن عملية ابادة اليهود في المجر ، العام ١٩٤٤ . وظلت الحقيقة حول نشاطات « لجنة الانقاذ » هذه سرية الى ان فضح امرها ، في ١٩٥٣ ، كاتب اسرائيلي يدعى مالكيل غرينفالد الذي ادان كاستنر علنا بوصفه متعاونا مع النازيين ، وقال ان « اعمال كاستنر في بودابست كلفتنا ارواح مئات الالوف من اليهود » . وواجه غرينفالد المحاكمة في دعوى تشهير لم يرفعها كاستنر ضده ، بل رفعتها الحكومة الاسرائيلية ، التي كان زعماؤها رؤساء كاستنر وقد رسموا السياسة التي نفذها . ولم تسر المحاكمة سيرا حسنا بالنسبة للحكومة الاسرائيلية. فقد برىء غرينفالد من تهمة التشهير ، مما يشير الى ان ثمة اساس متين للتهمة التي وجهها الى « لجنة انقاذ » كاستنر بانها قد تعاونت مع النازيين وساعدتهم في ابادة القسم الاعظم من يهود المجر مقابل السماح بانقاذ اكثر من ٦٠٠ صهيوني بارز واخذهم الى فلسطين . وفي وقت لاحق تم اغتيال كاستنر على يد زئيف اكشتاين الذي كان في السابق عميلا سريا لجهاز استخبارات الحكومة الاسرائيلية . وهكذا ازيل الخطر من ان مثوله امام المحكمة ، في دعوى اخرى اقيمت ضده هذه المرة ، قد يكشف المزيد من التفاصيل المحرجة .

ويقول موريس ر . كوهين ان الصهيونية « وصفت الهجرة الى فلسطين

على انها الجواب الوحيد على اللاسامية ، وقد انتقدت ورفضت اي صراع للتحـــرر وتشريعات الحقوق المدنية الخ · ووجـدت نفسها في معسكر واحـــد مـــع هؤلاء اللاساميين الذين قالوا للجاليات اليهودية المحلية : اذهبوا الى فلسطين · ولـــم تصدر المبادرة في الصراع اليهودي ضد النازية ابان الثلاثينات ابدا عن المنظمـة الصهيونية · وكان الافراد والمنظمـــات اليهودية غير الصهيونية هم الذين اخذوا على عاتقهم المبادرة والعبء في ذلـــك الصراع · وكلما ازداد الصراع شرارة ، ابتعدت المنظمة الصهيونية اكثر فأكثـــر عن بقية اليهود ··· » فكمـا قال بـــن غوريون في رسالة الى اللجنة التنفيذيـــة للمنظمة الصهيونية في السابع عشر مـــن كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٨ : « ان انقاذ الارواح اليهودية من هتلر تعتبر هنا خطرا محتملا على الصهيونيـــة ، الا اذا جيء بهم الى فلسطين · وعندما كان على الصهيونية ان تختار بين الشعب اليهودي والدولة الصهيونية فانها لم تتردد فـــي تفضيل الدولة الصهيونية ···ان الصهاينة يقبلون في الجوهر بالايديولوجيا العنصرية للاساميين ، ولكنهم يستمـــدون منهـــا استنتاجا مختلفا · فاليهودي ، عوضـــا عن التيوتوني ، هو العـــرق النقـــي او المتفوق » ·

ويقول غلوب في نهاية كتابـــه : « ان القصة الكاملة لدور الصهيونيـــة خلال عهد هتلر ما تزال غير معروفة على نطاق واسع ، لا في العالم فحسب ، بل ايضـــا بين الجاليات اليهودية · وان الفعاليـــة التي كتمت فيها هذه القصة ··· انمـــا تشير الى مدى النجاح الذي حققتـــه الحركة الصهيونية في فن الدعاوة » ·

والمأمول الان ان يساعد هذا الكتـــاب القيم في ردم هوة الجهل عن طريق نشره على اوسع نطاق ممكن ، وعن طريـــق متابعة الابحاث التي تكشف عنصريـــة الحركة الصهيونية وكونها معاديـــة لليهود كبشر ·

رجا جورج

رد على مراجعة
كتاب « تاريخ الصهيونية »

نشرت « شؤون فلسطينية » (العــدد ٧٧ ، نيسان / ابريل ١٩٧٨ ، ص ١٤٨ ــ ١٥٨) مراجعة للجزء الاول من كتابــي « تاريخ الصهيونية » ، كتبها سمير ايوب ولدي اعتراضات عديدة على هذه المراجعة وانتقادات لها .

تحتوي المراجعة المشار اليها على عدد لا بأس به من المغالطات والافتراءات التي لا مبرر لها . وقد وصلت تلك المغالطات ــ الافتراءات الى درجة من « الجرأة » لا استطيع معها الا القول اما ان المراجعــة كتبت عن سوء نية مسبقة ومبيتة ، بهدف الاساءة الى الكتاب ومؤلفه ، لغاية فــي نفس يعقوب ، او ان المراجع اراد فقــط ان يستعرض عضلاته « العلمية » . ومــع وصولي الى هذا الاستنتاج فكرت فــي الامتناع عن كتابة هذا الرد ، الا اننــي اثرت اخيرا القيام بذلك ، خشية ان تتحول المتاجرة بعدم المعرفة الــى فضيلـــة ، او تعتبر النظرة الضيقة الافق ميزة . كذلــك يهمني ان اوضح لمحــــرري « شــؤون فلسطينية » وناشريها ، انهم لم يقدمـــوا خدمة علمية كبيرة عندما قاموا بنشرها ، بل على العكس حملوا انفسهم قسطا مــن المسؤولية عما جاء فيها .

يستهل سمير ايوب مراجعته الطويلــة بعرض مبسط لمحتويات الكتاب ــ وهذه ، على كل حال ، آخر « موضات » مراجعات الكتب التي اخترعها نوع من القـــراء العرب ، بينما برع نوع اخر من الصحف والمجلات في نشرها ــ مع ان العادة درجت عن ان تكون المراجعة قصيرة ، خلاصتهــا عرض الكتاب المراجع باختصار ، من خلال انتقاد نواقصه او لفت النظر الى محاسنه، وبشكل سريع ، بهدف مساعدة من يطلــع عليها ان يقرر اذا كان من الواجب عليه اقتناء ذلك الكتاب أو قراءته او اخـــذ علم بوجوده فقط (وهناك نوع آخر مـــن المراجعات ، هي عبـــارة عن « قراءة » للكتاب ونقاش لمحتوياته ــ ولكن سميـــر ايوب موجود في واد آخـــر) . غير ان بعض المراجعات اصبحت عكس ذلك ، ولذلك يقتضي ان تكون الردود عليهــــا عكس الردود المألوفة ايضا .

بعد عرض محتويات الكتاب بصـــورة مبسطة،تسمح للمراجع بالتهرب من التعامل مع المقولات الاساسية الواردة فيه، وتغطي بالتالي على ضحالة معلوماته ، ينتقـــل سمير ايوب الى التفاصيل ، فيـــورد انتقاداته تحت عناوين مختلفة ، منهــــا « اشارات عامـــة » و « ملاحظات فـــي الشكل » ثم يعود الى « محتوى الكتاب » وينتقل الى « منهج البحث » ويختتم بمـــا يسميه «ملاحظات في النتائج» . والواضح من هذا القفز بين العناويـــن المختلفة ان كاتب المراجعة لم يستطع ان يجد طريقـــه لترتيب مادة من ١١ صفحة فقط بشكـــل منطقي ، علمي ومنهجي ، فراح يكـــرر افكاره واقواله ويقفز من نقطة الى اخرى، ثم يعود الى نقطة الانطلاق . ولكي نستطيع كتابة هذا الرد ، قمنـــا بـ « مراجعة » لمراجعة سمير ايوب ، جمعنا في نهايتهـــا اعتراضاته وانتقاداته واسس وجهة نظره، وحاولنا جهدنا استخلاص فحوى ما جـــاء في مقولاته المتكررة ، ثم صنفنا مـــــا توصلنا اليه وفقا لرؤوس اقلام . وسيكون ردنا وفقا لذلك .

(١)

ان اول ما يلفت النظر في المراجعة هو

مجموعة من الاعتراضات حول اسلـــوب البحث وطريقة الكتابة (يسميها سميـــر ايوب « ملاحظات في الشكل » ، وهـــذا خطأ لان الامر أعمق من ذلك ويتعـــدى الشكليـات) · وفي هذا الصدد ، يشن المراجع حملة ضارية على محتويـــات الكتاب ، من خلال تقديم امثلة لمقاطـــع مجتزأة منه ، على غرار « لا تقربـــوا الصلاة » (انظر ، مثلا ، ص ١٥٤ مـــن المراجعة ، العمود الاول) · ومثل هـذه الطريقة لا تخدم سمعة المراجع « العلمية » ونكتفي برصدها دون ان نجهد نفسنا فـي الرد عليها ·

غير انه على الرغم من هذه الطريقة ، التي تكاد تنطبق على معظم الانتقادات التي يوردها المراجع ، هناك بعض الاعتراضات التي تبدو كأنها وجيهة ، ولذلك لا يجوز تجاهلها ، منها مثلا ما « اكتشفه » (ص ١٥٣ ، العمود الثاني) من « خلل في قدرة الكاتب على استخـــدام الاقتباسـات والاستشهادات فهو يوردها بكثرة وفـي مواقع لا تصح وبكميات تصل في بعـــض الاحيان الى اكثر من نصف صفحـــة للاقتباس الواحد » · ويضاف الى ذلـــك « خلل » اخر يتعلق بقدرة المؤلف « علـــى استخدام الاقواس التي تفصل كلامه عن كلام الاخرين المستشهد بهم ، [فالمؤلف] مرة يورد الاقواس ويشير الى المصـــدر ومرة لا يشير اليه وغالبا ما يمتنع عـــن استخدامها » (وملاحظة سريعة للغاية : كان من المفروض ان تحتوي هذه الجملـة التي اقتبسناها ، مما كتبه سمير ايوب ، على فاصلتين على الاقل) ·

والرد الاولي على مثل هذه الاقوال هو ان سمير ايوب تصرف ، في هذه الحالة ، بحسب القول المأثور : « رمتني بدائهـــا وانسلت » ، اذ يبدو ان الرجل لا يعـــرف ابدا ما هـــدف الاقتباسات والاقواس ولا حتى كيفية استعمالها · ولتوضيح ذلـــك يجد المرء نفسه مضطرا الى العـــودة للتذكير بما تدرسه عادة الجامعات (التي تستحق هذا الاسم) لطلاب السنة الاولـى فيها — وهي مواد يبدو ان سمير ايـــوب قد نسيها ·

بحسب الانظمة والتقاليد والاعـــراف العلمية المتبعة في كافة المعاهد العلميـــة الرصينة، ليس هناك اي خلل في استخدام الاقتباسات والاستشهادات بكثرة ، بـــل قد يكون العكس هو الصحيح · ان البحث النظري في نهاية الامر ، هو عملية تفتيش عن الحقيقة ، الموزعة عادة في بطـــون الكتب والمجلات والصحف وغيرها مـــن المراجع · وكلما وسع الباحث نطـــاق اهتمامه واوجه نشاطه ، واطلع على المزيد من المواد المتعلقة بدراسته ، تتوسع مداركه وتزداد قيمة عمله · وهذه ميزة وليست خللا · ويقينا ، اننا لم نصادف حتـــى الان الا شخصا واحدا ، هو سمير ايوب ، تصل « جراته » الى حد الطعن بكثـــرة الاقتباسات والاستشهادات في عمل بحثي· ويبدو ان هناك مقاييس جديدة لمستـــوى اللا — علم ، لم تصل الى مسامعنا حتى الان ·

كذلك ليس هناك اي خلل ، ابدأ وبتاتا — الا لدى اصحاب « ثقافة » معينة — في ان تصل كمية الاقتباس احيانا الى اكثر مـن نصف صفحة · بل ان هناك بعض المؤلفين الذين يوردون اقتباسات بتلـــك الكمية ، ويفصلونها عن النص المكتوب من قبلهم ، ويوصون حتى بطباعتها بحرف طباعـــي يختلف في صورته عن الحرف المستعمـل لطباعة متن الكتاب باكمله ، الذي يتضح من اول نظرة اليه ان نوعين من الحروف استعملا لطباعته ، واحد للمادة التـــي يكتبها المؤلف نفسه ، واخر للاقتباسات · واحيانا يكون هنالك ايضا حرف طباعي ثالث للملاحظات ورابع للمصادر ، وهلم جرا · وقد صدرت كتب عديدة بهذا الشكل عن جامعات مشهورة ودور نشر محترمـة للغاية ·

الا انه كانت هنالك ايضا غاية معينة نصب اعيننا ، عندما لجأنا الى اختيار طريقة الكتابة هذه دون غيرها· ان الكتاب يبحث في موضوع « حساس » ، وكونه مكتوبا بالعربية يعني انه موجه الى جمهور معاد للصهيونية (وقد يكون بعضهم معاديا ، « بالغريزة » ، حتى لو لم يتجرأ على الكتابة عنها) تحمل قطاعات منه الكثير من المفاهيم الخاطئة والاراء المسبقة عن تلك الحركة · كما ان كثيرا من المواد التي* اوردت بتوسع غير معروفة، على حد علمنا ، لغير قراء العبرية · ولذلك ، وفي محاولة منا لدحض تلك المفاهيم الخاطئة ، واحيانا التخرصات ، وسعيا الى توضيح العديد من النقاط الحساسة أو الاراء الصهيونية في كل جوانبها ، وتقديم خدمة الى باحثي المستقبل ، آثرنا ان نورد جزءا من المواد ـ خصوصا ما اعتبرناه اساسيا منها ، كدساتير الاحزاب والمنظمات الصهيونية المختلفة او وثائقها الرئيسية او ملخص وجهات نظر زعماء الصهيونية او مفكريها ـ على شكل اقتباسات ، وان كانت طويلة، من كلام كاتبيها انفسهم · وليس هذا الاسلوب الا امعانا في الامانة العلمية ، هدفه تجنب محاولات التلاعب بعقل القارىء ومفاهيمه ، باعتباره قارئا ناضجا ، وكذلك ايقاف ذلك الصنف من مدعي الثقافة ، الذين يحلو لهم التحدث عن اي موضوع أو الخوض فيه ، مهما كان مستوى اطلاعهم عليه ، عند حدهم ، حتى لا « يتحفونا » بتخرصات جديدة عن « مفاهيمهم » اللا ـ علمية للصهيونية · ويبدو لنا اننا نجحنا في تحقيق هدفنا باتباع هذا الاسلوب · فسمير ايوب لم يتجرأ على الخوض في صلب المادة الواردة في الكتاب او التعرض للاطروحات والتفسيرات التي تضمنها او مناقشتها ـ اذ ابتعد ، مثلا ، عن مناقشة ما جاء في الكتاب عن تاثير الدين او الافكار القومية او الاستعمار على الصهيونية ، ومر مرور الكرام على اسس العقيدة الصهيونية ، ولم يتطرق الى الهجرة الثانية ، رغم الدور المهم الذي لعبته في ارساء اسس الكيان الصهيوني في فلسطين ، الخ · وبدلا من ذلك راح يفتش عن «تناقضات» ثانوية للغاية ، وعندما لم يجدها اخترعها (كما سنوضح ادناه) للطعن بالكاتب والكتاب من باب « هذا حصرم رأيته في حلب » ·

وما قلناه عن اعتراضات المراجع على استخدام الاقتباسات والاستشهادات ينطبق ايضا على انتقاداته لاستخدام الاقواس ، وان كانت الانتقادات في هذا المجال تثير لدينا حنقا شديدا ، ممزوجا بنوع معين من « الاحترام » ، نظرا لعدم اطلاع سمير ايوب ، كما يتضح من كتابة المراجعة نفسها ، على طريقة استعمال الاقواس والهوامش واشارات الاقتباس · ولتوضيح وجهة نظرنا فيهذه الانتقادات، لا بد من العودة ـ مرة اخرى ـ الى ابسط أسس البحث العلمي ، كما تدرس او تستعمل فيالجامعات أو المعاهد العلمية (التي تستحق هذا الاسم)، رغم ما في ذلك من « استذة » لا نهواها ·

ان الاقواس واشارات الاقتباس هي احدى الوسائل المهمة، واحيانا الاساسية، التي لا بد من اللجوء اليها عند كتابة اي بحث منهجي علمي ، واهدافها كثيرة، منها الفصل بين فكرة أو اخرى او ضبط الافكار المتصارعة او ابداء التحفظ او القاء المسؤولية على الاخرين · والاقواس على انواع ، منها المزدوجان الصغيران (هكذا : « ····· ») ، ويستعملان حكما عند ايراد اقتباس معين من كلام الاخرين ، بحيث يبدأ الكلام المقتبس بقوسين مفتوحين (هكذا : « ···) وينتهي باغلاقهما (هكذا :

.... ») . وبعد اغلاقهما توضع نقطة او فاصلة او خط او تستمر الكتابة في مجراها ، بحسب النص والمعنى في الحالة المعنية . ومن المتعارف عليه ايضا ان يبدأ الاقتباس – اذا شاء الكاتب ذلك – بنقطتين (هكذا : « .....) .

ويستعمل القوسان المزدوجان ايضا للتحفظ على عبارة معينة (مثلا : « مخربون » ، عندما يكون المقصودون بهذا اللفظ ليسوا مخربين فعلا) او للسخرية (مثلا : اذا وصفت طريقة كتابة ما بانها « علمية » ، ووضعت كلمة علمية بين قوسين مزدوجين ، كما هي الحالة هنا ، فالقصد هو ان تلك الطريقة ليست علمية) . كذلك يستعمل القوسان المزدوجان عند اللجوء الى ايراد الاقوال المأثورة او كلمات بالعامية . وهناك ايضا القوسان الكبيران ، هكذا : [ ] ، ويستعملان حكما داخل النص المقتبس فقط ، عندما يريد الكاتب ان يضيف كلمة ما الى النص الاصلي المقتبس او يختصر سطرا بكلمة ، الخ . وهناك ايضا الاقواس العادية ، هكذا ( ) ، والخطوط لفصل الجمل المعترضة والفواصل وغيرها . ولكي لا نسترسل كثيرا ، في هذه الناحية ، لا بد من لفت النظر الى وجود كتب مخصصة لتدريس القواعد التي اشرنا الى بعضها فقط . ويبدو انه لا بد من الاقتراح على سمير ايوب العودة اليها .

لقد وضع « تاريخ الصهيونية » من خلال التقيد التام بقواعد استعمال الاقواس والاستشهادات والاقتباسات التي اشرنا اليها ، وغيرها . ومن هذه الناحية ليس فيه ، على حد علمنا ، اي خلل – الا ، ربما ، بموجب مقاييس المراجع السفسطائية – وان كان هنالك اي خلل من هذا النوع فيكون قد سقط سهوا . ولا صحة في زعم سمير ايوب ان « [المؤلف] مرة يورد الاقواس ويشير الى المصدر ومرة لا يشير اليه وغالبا ما يمتنع عن استخدامها » . فالمصدر يرد دائما ، وعند تقديم اي اقتباس . اما الحالات التي لا يذكر فيها المصدر في الاقتباس فانها ناجمة عن اتباعنا لاخر « موضات » البحث (التي لا شك ان سمير ايوب لم يسمع بها حتى الان ، فهو غير مطلع على الوضع في هذه الناحية قبل « الموضة » الجديدة ، فكيف بعدها ؟) . وبموجب هذه القواعد الجديدة ، لا حاجة عند الاقتباس من مصدر معين اكثر من مرة – شرط ان تكون الاقتباسات متتالية ، لا يفصل بينها اقتباس من مصدر اخر – الى اضافة رقم ملاحظة ، ثم التنويه بانك استعملت المصدر نفسه . ويكفي عندئذ ان نذكر المصدر عند اول قطعة مقتبسة ، ثم نعود ونكرره مع آخر قطعة ، وبذلك نتجنب تكرار عبارة « المصدر نفسه » في الحواشي مرات ومرات . ويفترض في القارىء ، في هذه الحالة ، ان يدرك ان كل الاقتباسات التي ترد بين عبارتي « المصدر نفسه » مأخوذة فعلا من مصدر واحد ووحيد ، وهو ذلك المشار اليه عند اول اقتباس منه . ولا يستطيع المرء الا ان يبدي اسفه اذا كان سمير ايوب لم يكتف بعدم الاطلاع على هذه الطريقة الجديدة، بل يصف استعمالها بانه « خلل » !

ولكن على الرغم من ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان الكتاب يحتوي فعلا على كمية كبيرة من الكلمات والعبارات التي ترد بين قوسين مزدوجين . الا ان لذلك سببا وجيها للغاية ، وهو ضرورة التحفظ تجاه عبارات لا يمكن الاستغناء عنها عند الكتابة عن الصهيونية ، نظرا لترابطها الوثيق بها . فلا يمكن ، مثلا،

البحث في الصهيونية دون ذكر عبارة « ارض ـ اسرائيل » ، وبما ان لدي تحفظات تجاه المدلول الصهيوني لهذه العبارة فلا يمكن ، عند الاشارة اليها خارج اي نص مقتبس ، الا وضعها بين قوسين مزدوجين . والقاعدة نفسها تنطبق ايضا على عبارات مثل « الامة اليهودية » ، « الشعب اليهودي » ، « مجتمع العمل العبري » ، « الصهيونية الاشتراكية » ، التي لا استطيع الا استعمالها بتحفظ ، ولذلك توضع بين قوسين مزدوجين . ومن هنا جاءت كثرة الاقواس المزدوجة في الكتاب ـ وليس في اليد حيلة .

غير ان الادهى من ذلك كله هو ان سمير ايوب ينتقدنا لـ « خلل » في استعمال قواعد يبدو انه لا يعرف بوجودها ، بل حتى لم يسمع بها . ونظرة سطحية على مراجعته تكفي لاثبات ذلك . ان ربع حجم المراجعة ، على الاقل ، هو عبارة عن قطع وفقرات وكلمات مأخوذة من الكتاب لاغراض التعليق عليها (وعمليا ، للطعن بها بصورة غير ذكية) . وفي مثل هذه الحالة ، تفرض الامانة العلمية على المراجع ان يضع كل ما اقتبسه ، دون ان يسقط حرفا واحدا ، بين قوسين مزدوجين ، وذلك لكي لا « يلطش » عبارات المؤلف ويدعيها لنفسه اولا ، وليمكن القارىء من التمييز بين النص الاصلي الذي اعتمده الكاتب والتعليق عليه من قبل المراجع ثانيا ، وحتى يوضع قيد على سوء نيته فلا يستطيع ان ينسب للمؤلف كلاما لم يكتبه ثالثا . ولكن بدلا من ذلك ، لا تحتوي المراجعة على أي شيء من هذا القبيل ، رغم انه من المفروض ان تظهر فيها عشرات الاقواس المزدوجة ، المفتوحة والمغلقة ، لكثرة الاقتباسات من الكتاب . بل ان المراجعة تخلو ايضا من الفواصل الضرورية للفصل بين جملة واخرى ، وكذلك من الاقواس الكبيرة او خطوط فصل الجمل المعترضة وغيرها . واذا كان الامر كذلك ، فلماذا هذا « التفاخر » من قبل كاتب المراجعة ؟ ولماذا الاصرار على استعراض عضلات « علمية » ، غير موجودة ؟ ثم ما الذي يدفعه الى التحدث عن امور لا يستطيع مراعاتها في مراجعة بحجم ١١ صفحة فقط ، فيلفت النظر بالتالي الى السلبيات التي تعاني منها طريقة كتابته ؟ واخيرا ، لماذا التفاخر باللا ـ معرفة ؟

وانتقاداتنا لسمير ايوب ، في المجال « الاقتباسي الاستشهادي الاقواسي » ، ليست بعيدة عن محرري « شؤون فلسطينية » ، الذين يتحملون ، بموافقتهم على نشر تلك المراجعة بالشكل التي نشرت به ، مسؤولية تزيد عن تلك التي يتحملها المراجع . (ان « شؤون فلسطينية » ليست من تلك المجلات التي تعنى كثيرا بمسألة ضبط الاقتباسات والاستشهادات والاقواس والمراجع .

ويعيب علينا سمير ايوب ايضا الاعتماد على المصادر الصهيونية (يقصد استعمال الكتب العبرية) ، ويريد ان نعود ايضا الى المصادر التركية والانكليزية والفرنسية والروسية والالمانية وغيرها (صفحة ١٥٥ ، العمود الاول) . ويكاد من يقرأ كلامه يعتقد انه علامة مشهور ، ليس في تاريخ الصهيونية وحده بل الكون باسره ،يتقن معظم اللغات التي يشير اليها . غير ان هذا لا يعفينا من الرد على ما يسوقه المراجع في هذا الصدد .

ان المشكلة الاولى التي تواجه اي باحث ، كما هو معروف ، هي معرفة المصادر المتعلقة بموضوع بحثه وحصرها ، قبل ان يبدأ الكتابة . وبعكس ذلك يكون قد قصر بواجبه ، ولن

يكون عمله متكاملا . وقد واجهتني هذه المشكلة ، مثل ما واجهت وتواجه غيري ، في الوقت الذي قررت فيه ، قبل سنوات عدة ، المباشرة بالعمل الذي نشر الجزء الاول منه . ولم يكن من الصعب حلها من خلال الرجوع الى قوائم البيبليوغرافيا الكثيرة والمتعددة والواسعة للغاية ـ فليس هناك نقص ابدا في المراجع التي تبحث في تاريخ الصهيونية من كل وجوهه . بل ان العكس هو الصحيح ، فهناك فيض من تلك الكتب . اما قوائم البيبليوغرافيا التي رجعنا اليها ، العديدة والمفصلة ، فانها تحتوي فعلا على مراجع بلغات مختلفة ، اكثريتها الساحقة باللغة الانكليزية بالذات وبعدها تأتي ، من حيث الكمية ، المراجع العبرية . وهناك بالطبع مراجع اخرى مكتوبة بلغات اخرى ايضا ، الا ان عددها قليل . ولدى التدقيق في نوعية هذه المراجع وجودتها، اكتشفنا ـ لحسن الحظ ـ ان كل ما هو منها على جانب ما من الاهمية مترجم الى الانكليزية او الى العبرية (والصهيونيون ، على كل حال ، يهتمون كثيرا بتاريخهم ويترجمون كل ما يكتب عنهم تقريبا) . وحيث اننا نستطيع استعمال هاتين اللغتين ، اي الانكليزية والعبرية ، بصورة لا بأس بها ، بحكم دراستنا لهما ابتداء من المدرسة الابتدائية ، مرورا بالثانوية وانتهاء بالجامعة ، فتحت امامنا الطريق على مصراعيها لمتابعة تاريخ الصهيونية، في كل النواحي التي تهمنا ، باعتبارنا نستطيع قراءة كل المصادر المهمة ، بل حتى الاولية للغاية ، المتعلقة بالموضوع.

ولا نكتم سمير ايوب سرا اننا ، في بداية عملنا ، نظرنا بعين الريبة الى المصادر العبرية ، وفضلنا الانكليزية عليها . وقد انهمكنا لوقت غير قصير في متابعة تلك المصادر الانكليزية وسبر غورها ، حتى استطعنا التمييز بين الغث والسمين . الا اننا عندما وصلنا الى هذه المرحلة اكتشفنا وقائع غريبة و « طريفة » للغاية ، اذ اتضح لنا ان عددا لا بأس به من المراجع الانكليزية ، جيدة التحرير والطباعة والتجليد ، التي تبدو ذات قيمة اكاديمية رفيعة ، هي في نهاية الامر عبارة عن مواد مستقاة اساسا من العبرية ، « مؤدلجة » ومراقبة ومصاغة بطريقة معينة ، هدفها الحقيقي تجميل الصهيونية ، وتقديمها للقراء الاجانب عامة بشكل جذاب . ومع هذا « الاكتشاف » تطرق الشك الى فؤادنا ، فقررنا العودة اولا الى الوثائق الاساسية ، بنصوصها الاصلية او المترجمة . وسرعان ما بانت صحة هذا الاتجاه ، واتضحت لنا حقائق كثيرة كانت مخفية . ونضرب مثلا على ذلك : لقد احترنا كثيرا في امر حركة هواة صهيون وطبيعتها واهدافها ومركزها وتأثيرها في تاريخ الصهيونية ، حتى رجعنا الى مجلدين بالعبرية يضمان كل وثائقها الاساسية ، فاذا بالصورة تتغير عما هي عليه في المصادر الاخرى ، وتصبح اكثر وضوحا ـ فتظهر الحركة على حقيقتها ، دون ماكياج .

وما قلناه عن حركة هواة صهيون ينطبق ايضا على موضوعات البحث الاخرى في الكتاب . والمصادر التي اوردناها هي مصادر اساسية واولية تكفي قطعا لمعالجة الموضوع ، ولا ضير فيها انها مكتوبة بالعبرية او الانكليزية فقط . ويقينا ان من يجد تحت تصرفه مثل تلك المصادر التي اوردناها لا يحتاج ابدا الى مصادر اخرى ، ان كانت كتابات جانسن او هلبروك ، او ادعاءات سمير ايوب ، او غيره . ولا شك ان كاتب المراجعة لو كان مطلعا ، ولو لماما، على تاريخ الصهيونية لنظر بصورة اكثر احتراما الى المصادر التي اوردناها ،

ولما تطرق الى هذه الناحية بتاتا ٠

ثم لماذا هذه « الفذلكة » حول المراجع، واعتبار كل ما هو عبـري صهيونيا ، و « اتهامنا » بالتالي باننا عدنا الـى المصادر الصهيونية فقط ــ وهذا غيـر صحيح ٠ ان قائمة المراجع في اخـر الكتاب (ص ٢٩٩ ــ ٣٠٨) تضم ١٢٦ مرجعا ، فضلناها على غيرها ، منهـا ٩٠ مرجعا بالعبرية و ٣٦ بالانكليزيـة ٠ ومن الخطأ والسذاجة الاعتقاد أن الكتب العبرية التي رجعنا اليهـا يمكن ان توصف بانها صهيونية ، اذ ان هنالـك عددا منها لا علاقة له بالصهيونية ، بل ان بعضها معاد لها٠ وعلى سبيل المثال، هناك كتاب يحزكيئيل كويفمان عن اسس الديانة اليهودية ، وبن ــ تسيون كاتس واهرون زئيف اسكولي عن بعـض الحركات الاصلاحية الدينية التي ظهرت بين اليهود ، وبن تسيون شرشفسكي عن قوانين العائلة اليهودية ، وكتاب ــ تفسير الحاخام موشي بن ــ نحمان للتوراة ، وكتاب ــ تعليق حاييم ريفلين علـى تفسير بن ــ نحمان لبعض فصـول التوراة ٠ وقد عدنا الى هذه المراجـع لنرى اذا كانت هنالك علاقة بين الديانة اليهودية ، أو التلمود وبين الصهيونية ، وما هو مداها ٠ وهناك ايضا كتابـا يعقوب روزنهايم وعمرام بلوي ، زعيما اغودات يسرائيل ، المعـادين بازدراء للصهيونية ٠ واخيرا هناك كتاب شمعون دوفنوف ، احد ابرز المؤرخين اليهود غير الصهيونيين في العصر الحديث ، الـذي لم يكتف بمقارعة الصهيونية نظريـا فقط ، وانما عمليا ايضا (وكان اكثـر من مؤرخ صهيوني قد حاول كسر منهج دوفنوف في دراسته تاريـخ اليهود ، ولكن دون نتيجة) ٠ وقد اعتمدنا كثيرا على دوفنوف ، عندما تتبعنا مفاصـل تاريخ اليهود ، قديما وحديثا ٠ ومما لا شك فيه ان سمير ايوب لا يفقه شيئـا من امر هذه الكتب ، ولا يعرف بالطبع من هم مؤلفوها وما هو « وزنهم » ــ لا لسبـب الا لانـه ، ببساطـة ، لا يستطيع قراءة العبرية ٠ وعدم معرفـة العبرية ، على كل حـال ، ليس آفة ٠ ولكن اذا كان الامر كذلك فلماذا يحشر سمير ايوب انفه في امور لا علاقة لـه بها ولا تعنيه كثيرا ، وهو غب مطلـع عليها ؟

وما اشرنا اليه بالنسبـة للمصادر العبرية ينطبق ايضا على المصـادر الانكليزية ، التي تضم كذلك عددا مـن الكتب لا يمكن وصفها بانها صهيونية ٠ فبين المصادر الانكليزية هنالك ، مثلا ، كتاب جورج انطونيوس ، وكتب غاري سميث ، الذي جمع اهم ما كتبه يهود في انتقاد الصهيونية ، والتروتسكـي ابرام ليون ، وشبه ــ التروتسكي ايلـي لوبيل ، ورجل ناتوري كارتا اميـل مارمورشتاين ، الذي يبدو من كتاباتـه انه يعتبر الصهيونية جريمة واتباعهـا كفرة وزناديق ، وعزرا مندلسون ، الذي لا يهتم بالصهيونيـة ، وكريستوفـر سايكس ، ابن مارك سايكس ، صاحـب اتفاقية سايكس ــ بيكو ، الذي ينتقـد سياسة والده ٠ كما تضم المصـادر الانكليزية ، التي رجعنا اليها ، كتـب رئيس حكومة بريطانيا لويد جـورج وبعض الوثائق البريطانية الرسمية ٠

ويبدو لنا ، بعد هذا التوضيح ، ان ادعاء سمير ايوب بان كتاب « تاريـخ الصهيونية» يستند الى مصادر صهيونية فقط غير صحيح ٠

ولا يكتفي سمير ايوب بالاخطاء التي اشرنا اليها ، وانما يمعن ايضا فـي توجيه الاتهامات التي تصل الى ابعـد من الاهانة ، دون أن يستطيع الوقـوف، على ابعاد كلامه والنتائج المترتبة عليه٠

ففي الصفحة ١٥٣ (العمود الاول) يقول صراحة : « لا بد ... من البوح ولو بهمس بان ما كتبه [المؤلف]وبالطريقة الذي عرضها ، عن عذابات اليهود والمذابح التي تعرضوا لها في اوروبا الشرقية [وكان عليه ان يضيف « في روسيا القيصرية ايضا » ، لان هذا ما كتبناه فعلا] والمؤامرات التي ... حيكت ضدهم لا توقظ في القارىء العادي اكثر من تعاطف مع الصهيونية » . ولا بد من التنويه رأساً ، وبسرعة ، ان هذا القول الذي يدل على ان صاحبه يعتبر كل يهودي صهيونيا يدفعنا الى اتهام سمير ايوب – لا همسا ، بل علناً، صراحة وكتابة – بانه مصاب بجراثيم العنصرية المقيتة . ان الخلط بين اليهود والصهيونية يكاد يعتبر نازية مستحدثة، وهو بالتالي قمة الغباء السياسي الذي يمكن لشخص ما ، خصوصا اذا كان فلسطينيا ، ان يرتكبه . ولا بد من التمييز دائما ابدا بين الصهيونية واليهودية ، والا وقعنا فريسة لاحدى المقولات الصهيونية الاساسية وقبلنا بوجهة نظرها . ثم اين « التقدمية » ؟

ان الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في بلدان عدة هو احد العناصر التي تشكل عقدة الصهيونية وعقدها . ولا يزال حتىاليوم يلعب دورا مهما في تغذية النفسية الصهيونية العنصرية . وقد استغل كثيرا لحمل الاجانب على التعاطف مع اليهود ، الذين عرضتهم الصهيونية كانهم جميعا صهيونيون . ولذلك ليست هنالك اية محاذير في عرض صنوف الاضطهاد باعتبارها عاملا في مركب الصهيونية ، لا بد من الوقوف عليه ، أسوة بالعوامل الاخرى ، لكي نستطيع فهم هذه الظاهرة وبالتالي التصدي لها .

كذلك لا بد من التنويه الى ان كتاب « تاريخ الصهيونية » ليس موجها الى القارىء العادي ، ولذلك لا خوف على مثل هذا القارىء من ان « تضطرب » افكاره . ان الكتاب ليس قصة مشوقة ولا شعرا مرسلاً ، وبالتالي فان القراء العاديين لن يتهافتوا عليه ، وموضوعه لا يهمهم . وباعتقادنا ان قلة فقط من المتخصصين هي التي قد تقرأ مثل هذا الكتاب . وبحكم تخصصها واهتماماتها وقدرتها الذهنية لا خوف عليها . ولمثل هذه القلة ينبغي ان تقال الحقيقة بكاملها . وهذا ما هدفنا اليه عند عرض قصص اضطهاد اليهود .

ولا يكتفي سمير ايوب بان يعيب علينا حديثنا عن اضطهاد اليهود ، وينكر تاثيره في دعم الصهيونية ، بل ان له حتى « رأيا » في الموضوع ، اذ يقول (ص ١٥٨ ، العمود الاول) : « نحن [اي سمير ايوب] نشك كثيرا في ان يكون اليهود قد واجهوا اضطهادا بسبب ديانتهم » . ولا بد من الاشارة هنا الى ان كبار العلماء او الباحثين فقط ، الذين نشرت ابحاثهم العلمية على الملأ، يحق لهم ان يتحدثوا بهذه الطريقة من الثقة المطلقة بالنفس . ولم يصل الى علمنا ان سمير ايوب قد وضع يوما ما كتاباً او كتب بحثا او دراسة او مقالا عن تاريخ اليهود ، يمكن ان يسمح له بالادعاء : « نحن نشك كثيرا ». وشكوك سمير ايوب ، على كل حال ، ليست في محلها ، اذ تنفيها الحقائق التاريخية البسيطة الغاية ، والتي يفترض في اي مثقف ان يكون على المام بها . فمحاكم التفتيش ، مثلا ، التي تبنتها الكنيسة الكاثوليكية واشرفت عليها ، اضطهدت اليهود – وباعتراف الكنيسة الكاثوليكية نفسها فيما بعد – بسبب دينهم ، لانهم لم يكتفوا بـ « قتل » المسيح ، بل رفضوا ايضا اعتناق ديانته . وروسيا القيصرية اضطهدت اليهود على هذا الاساس ، وقبل ان تكون

هنالك ثورة صناعية . وفرضت عليهم مختلف القيود في « منطقة استيطان » خاصة بهم (اوردنا خريطتها في الصفحة ٣٢ من الكتاب) ، وهناك « عشعشت » الصهيونية – ثم لجأت اسرائيل الى فرض سياسة « مناطق الاستيطان » هذه على الفلسطينيين الذين وقعوا تحت حكمها بواسطة نظام الحكم العسكري . والنازيون كذلك اضطهدوا اليهود ،ليس بسبب ديانتهم فقط وانما – ببساطة – لانهم خلقوا يهود . صحيح احيانا ان هنالك اسبابا « خاصة » ايضا للاضطهاد الذي مارسته هذه الفئة او تلك ضد اليهود ، ولكن الدين كان دائما من بين هذه العوامل . ثم لماذا الذهاب بعيدا ؟ ما قول سمير ايوب في نظام عربي معين ، يزعم ان اليهود في بلده مواطنون متساوون في الحقوق والواجبات ، ثم تكتب على بطاقات الهوية التي تمنح لهم ، وباللون الاحمر الصارخ ، كلمة « موسوي » على كل صفحات بطاقة الهوية ؟ وما قوله ايضا في نظام اخر ، يصدر قانونا ترد فيه صراحة هذه العبارة : « تصادر املاك اليهود ... » (وعندما قامت اسرائيل بعمل من هذا القبيل لجأت ، على كل حال الى اسلوب عنصري اكثر « رقيا » ، فاستعملت في قوانينها عبارات مثل « تصادر املاك الغائبين » او «اللاجئين» ولم تستعمل ابدا كلمة « عرب ») . والقانون اياه يحمل تواقيع كل الوزراء، مضافا اليهم توقيع رئيس الجمهورية نفسه . وتقوم اسرائيل بعرض صورة عنه في الامم المتحدة ، على مرأى ومسمع ممثلي كافة دول العالم، مستغلة الفرصة للتشهير بالعرب باسرهم . ورغم ذلك يترك القانون على حاله .

وباختصار : أن اضطهاد اليهود كان من بين العوامل التي ساعدت الصهيونية على تحقيق اهدافها ، وبالتالي ليس من مصلحتنا السكوت عليه ، لا بسبب انسانيتنا فقط ، بل لان الامر يلحق ضررا مباشرا بنا .

وانطلاقا من التقاليد « القومجية » يعيب علينا سمير ايوب ايضا قولنا في مقدمة الكتاب (ص ٩) ان « الحركة الصهيونية ... من اشد الحركات خطورة، لا على الفلسطينيين وحدهم ، وانما على العرب ايضا » ، باعتبار ان الفلسطينيين عرب ، ولذلك فالخطر عليهم خطر على العرب ايضا . ومنطقيا يبدو هذا الاعتراض صحيحا ، الا ان الموضوع الذي نعالجه يجبرنا على التمييز بين الطرفين ، من حيث نوعية الخطر الذي يتعرضون له . اننا نتعامل مع الصهيونية ، التي تسعى الى نفي وجود الفلسطينيين باسرهم تمهيدا لالغائهم كشعب ، بينما ليس هو موقفها بالنسبة لباقي العرب ، الذين تسعى للوصول الى « اتفاق » معهم ، وان تم ذلك من خلال سعيها الى تحقيق اهدافها اولا . ولذلك اضطررنا الى التمييز بين الفلسطينيين والعرب ، لكي نستطيع شرح المخططات الصهيونية بشكل افضل ، وبالتالي تقدير ابعاد خطورتها على كافة الاصعدة . ونعتقد اننا بهذا التمييز ، الذي لجأنا اليه اضرارا ، لم نرتكب « مخالفة » منافية للتعاليم «القومجية» – وان كان الامر كذلك ، نرجو المعذرة، فهذا خطأ غير مقصود .

والتفسير نفسه ينطبق على اعتراضات سمير ايوب على وصفنا سكان قرية المطلة بانهم دروز (ص ١٣٣ من الكتاب) ، لان « هؤلاء السكان هم عرب فلسطينيون يرفضون الاكتفاء بتصنيفهم دروزا فقط » . وللمرة (س) ، لو كان سمير ايوب على اطلاع ، ولو لماما ، على بعض اساليب الدس الصهيونية ، لادرك سبب اثبات كلمة « دروز » بالذات . ان اسرائيل ،

في مساعيها لتفتيت العرب الفلسطينيين الذين بقوا داخلها منذ سنة ١٩٤٨ ، عمدت الى تصنيف الدروز كـ « قومية » منفصلة قائمة بحد ذاتها ، ثم ادعت ان الصهيونية صديقتها · ومن يعلم ذلك بحكم اطلاعه على الشؤون الصهيونية والاسرائيلية ولو سطحيا ، يدرك حال قراءة كلمة «الدروز» ان الموقف الصهيوني منهم لا يختلف ابدا عن الموقف من باقي العرب ، ولم يكن مختلفا في الماضي · والهدف هو السخرية العابرة من الادعاءات الصهيونية في هذه الناحية ·

(٢)

وننتقل من هذه الملاحظات الى الرد على ما ذكره المراجع حول « محتوى الكتاب »· ولا بد في هذا الصدد الا ان نؤكد اولا ما اشرنا اليه اعلاه من ان سمير ايوب قد تهرب من التعامل مع وجهات النظر او الاطروحات او النتائج التي اثبتت في الكتاب · وسبب ذلك ، بحسب رأينا ، واضح للغاية : جهله في الشؤون الصهيونية · وليس في هذا ، على كل حال ، اي عيب ـ فالاطلاع على الشؤون الصهيونية ، في نهاية الامر ، ليس احد متطلبات عصرنا · ولكن العيب ، كل العيب ، يكمن في ادعاء المعرفة والتبجح بالعلم ، عندما تكون الحقيقة عكس ذلك تماما · وبسبب هذا النقص الاساسي المفضوح في معلومات سمير ايوب واطلاعه على موضوع الكتاب ، ترك اللب واتجه نحو القشور ، يفتش فيها عن نواح تساعده على عملية الطعن والذم ، التي قرر القيام بها · ولما صعب عليه ذلك ، عمد الى لي يد الحقيقة ، فنسب لبعض المواد معاني لا تتحملها ، من خلال تجاهل مغزى البحث وفحواه ، وحاول الضحك على ذقون الاحياء ، فوصل احيانا الى حد الانخراط في عملية دس ، لا تثير احتراما كبيرا ·

ولكي لا نظلم سمير أيوب ، سنتجنب الرد على الانتقادات « الخفيفة » التي وردت في مراجعته حول محتوى الكتاب · ونركز على الانتقادات « الجديــة » ذات العيار « الثقيل » :

١ ـ ينسب لنا المراجع ، بعد قراءة الكتاب ، استنتاجا (ص ١٥٠ ، العمود الثاني) مفاده ان « هرتسل كما يقول [المؤلف] كان يرى في بداية تصهينه ان حل المسألة اليهودية في أوروبا هو في شراء منطقة ما في العالم واقامة دولة لليهود فيها » · والقول هذا غير صحيح، ويبدو ان المراجع لم يستطع حتى قراءة الكتاب جيدا · ان اول ما اقترحه هرتسل لحل المسألة اليهودية ، وبالتالي مشاكل اليهود باسرهم ، هو دفعهم نحو اعتناق المسيحية ، شرط أن يتم ذلك « بمسيرة احتفالية ، بقرع اجراس ··· وبدون خجل » (ص ١٤٥ من الكتاب) ·

٢ ـ وما دمنا بصدد الحديث عن عن هرتسل ، تنبغي الاشارة الى أن المراجع « يكتشف » في الكتاب ايضا « تناقضات داخلية » بشأن « روايات الكاتب عن قصة هرتسل » (ص ١٥٦ ، اخر العمود الاول) · ويورد في هذا الصدد ٣ روايات مختلفة يزعم ان المؤلف يتبناها ، ثم يتساءل اي من الروايات ينبغي تصديقها ؟ والجواب بسيط ـ لا ينبغي تصديق اي من الروايات الثلاث ! وليس في الامر اي « تناقض داخلي » او غرابة ، الا وفقا لمفاهيم سمير ايوب المبتورة الخاصة به · وهاك توضيحا ·

عند دراستي لهرتسل ونشاطه اوليت ، بالطبع ، اهتماما خاصا باسباب تصهينه، وبذلت جهدا للاطلاع عليها ، فالرجل في نهاية الامر هو مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ، وبالتالي ليس مجرد شخصية ما في تاريخ الصهيونية ، يمكن المرور عليها

مرور الكرام . ولكني ، رغم محاولاتي العديدة ، لم استطع الوصول الى نتيجة تقنعني ، بسبب التناقض بين المصادر التي تتطرق الى هذه الناحية . ولذلك اثبتت اخيرا تلك الروايات ، ومن بينها روايات هرتسل نفسه عن اسباب تصهينه، وحرصت على ابداء تحفظي الواضح تجاهها جميعا . وعليه كتبت (ص ٤٩) : « ... اسدت محاكمة درايفوس ... خدمة جليلة للصهيونية ، اذ ان صيحات العداء لليهود التي كانت تطلق في اثنائها، جعلت من هرتسل ،مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ـ اذا اردنا الاعتماد على مذكراته ـ صهيونيا » . هذا ما يقوله هرتسل، وتحفظي على هذا القول كامن ، كما هو واضح ، في جملة « اذا اردنا الاعتماد على مذكراته » . وفي الصفحة ١٤٥ اوردت صيغة اخرى للرواية ، وان كانت لا تختلف كثيرا عن الاولى ، فكتبت : « وهي المحاكمة [اي محاكمة درايفوس] التي جعلت من هرتسل صهيونيا ـ كما يقول في احدى مقالاته ... » . وهذا ايضا يقوله هرتسل نفسه ، في مكان اخر من كتاباته . وتحفظي على هذا القول كامن ، كما هو واضح ايضا ، في جملة « كما يقول في احدى مقالاته » . وفي الصفحة ٧٣ من الكتاب اوردت ايضا تفسيرا ـ رواية اخرى لاحد مؤرخي الصهيونية البارزين ونسبتها له ، فكتبت : « وقد تكون تعاليمه [اي الحاخام الكلعي] هي التي غرست في قلب هرتسل الفتى بذور الصهيونية ... » . والتحفظ كامن في كلمة « قد » . وعليه لم « اقرر» ابدا ، كما يزعم سمير ايوب ، ان كل تلك الروايات او اي منها صحيح ، بل على العكس تحفظت تجاهها جميعا واوردتها على هذا الشكل لانني لم اجد تفسيرا مقنعا لاي منها ، وتركت الحكم للقارىء . فاين « التناقض الداخلي » ؟ ترى الا يحق لنا ان نتساءل حول نوعية اللغة التي اعتاد سمير ايوب على قراءتها او استعمالها ، والتي يبدو انها لا تعترف بشيء يسمى تحفظا ، وتكتفي بالنبرة العالية والالفاظ الرنانة الطنانة ؟ وهل من الضروري اضافة هذه « الميزة » الى « المآثر » الاخرى ؟

٣ ـ وفي مسلسل « التناقضات » التي يوردها المراجع يتساءل ايضا (ص ١٥٦ ، العمود الثاني) عن مبرر طلب اليهود في فلسطين ، ايام الحكم العثماني الحماية من الدول الاجنبية بينما كانوا يتمتعون بالحرية الدينية وبالاوضاع السياسية المريحة . « والتناقض » المزعوم هذا يتعلق بما جاء في الصفحتين ٦٠ و ٦٤ من الكتاب . والجواب بسيط وقد ورد بين الصفحتين المشار اليهما ، وبالذات في الصفحتين ٦٢ و ٦٣ ! وفحوى الجواب هو ان اولئك اليهود قد طلبوا الحماية لكي يحصلوا على امتيازات اضافية ، يستطيعون بواسطتها تقوية مركزهم عند التعامل مع السلطات ، وباقي سكان البلد . اما السبب الثاني لطلب الحماية من قبل اليهود فهو حث الدول الاستعمارية ، وعلى رأسها بريطانيا ، اياهم على طلب حمايتها ، لكي تستطيع ايجاد من « تحميه » في فلسطين ، فتتمكن بذلك من التدخل في شؤون البلد الداخلية . وهذان التفسيران واردان في الكتاب . والسؤال الذي يطرح نفسه الان : كيف غاب عن بال سمير ايوب رصد هذا التصرف الاستعماري ، المذكور صراحة في الصفحة ٦٣ من الكتاب ، لاضافته الى معلوماته الاخرى في هذا الصدد ؟

٤ ـ ومن « التناقض » المزعوم السابق، الى تناقض اخر . ان سمير ايوب يتساءل (ص ١٥٦ ، العمود الثاني و ص ١٥٧ ، العمود الاول) عن سر عدم تأثير

المساعدات التي قدمها مونطفيوري على تحسين اوضاع اليهود في فلسطين ، في منتصف القرن الماضي ، رغم قلة عددهم نسبيا ـ « وهذا امر غريب بحاجة الى تفسير وتعليل » . واليك بهما : لم يستطع مونطفيوري ان ينقل اولئك اليهود من حياة الخمول التي كانوا يعيشونها الى حياة العمل المنتج ، لان المفاهيم الدينية التي كانت سائدة بينهم دفعتهم الى تحديد هدفهم في الحياة بانه اقامة الصلوات ، انتظارا لقدوم المسيح ـ المخلص ، وليس تعاطي اي عمل دنيوي . بل كانوا يعتقدون ان من « واجب » الاخرين هو تقديم المساعدات لهم ، لكي يتفرغوا لاقامة الشعائر الدينية المختلفة . ولذلك عندما توقفت المساعدات ، التي صرفت لتلبية الحاجات اليومية ، دون الاهتمام بمشاريع للمستقبل ، عاد الوضع الى ما كان عليه ، وبقيت اوضاعهم كما كانت دون تحسن يذكر .

٥ ـ ويتساءل المراجع ايضا حول « تناقض » مزعوم اخر (ص ١٥٧ ، العمود الاول) و « التناقض » قائم ، بحسب رأيه ، بين الصفحة ١٢٤ من الكتاب ، حيث جاء ان المستوطنين الصهيونيين كانوا متعلقين بجهاز موظفي روتشيلد ، والصفحة التالية حيث الحديث عن صدامات نشبت بين الطرفين . ولا شك ان « مستوى » لا بأس به من عدم القدرة على فهم النص المكتوب واستيعابه ، حتى وان كان بالعربية ، هو الذي دفع سمير ايوب الى ايراد مثل هذه الاعتراضات . لقد اشرنا في الكتاب عند الحديث عن هواة صهيون ان مصادرهم المالية قد نضبت بعد وقت قصير من قدومهم الى فلسطين ، فكادوا يفلسون ، لولا تدخل روتشيلد الذي وعد بتقديم المساعدات لهم ، من خلال جهاز موظفين معين من قبله يتولى ادارة تلك المستوطنات . ومن الطبيعي أن يتعلق الموظفون بهذا الجهاز، في بداية تعامله معهم ، خصوصا بعد ان عرض نشاطه كأنه يهدف الى تخليصهم من ضائقتهم المالية ـ فروتشيلد وجهاز موظفيه انقذوا المستوطنين في نهاية الامر من كارثة مالية . ولكن مع مرور الوقت راح اولئك الموظفون يسيطرون تدريجيا على حياة المستوطنين ونشاطه وطريقة معيشته باسرها (وهذا ما جاء الكتاب على ذكره) ، ويصرفون الاموال المخصصة للمستوطنين على هواهم ، من خلال اساءة استعمال الصلاحيات الممنوحة لهم ، كما يحدث في حالات من هذا النوع ، ولذلك نشبت الصدامات بين الطرفين . فما هي الغرابة في ذلك ؟ وما هي صعوبة «فهم» الامر ؟ بل ما هو مبرر التساؤل ؟

٦ ـ وفي الصفحة ١٥٥ ، العمود الثاني يكتشف سمير ايوب ايضا « تناقضا » اخر ـ وما اكثر « اكتشافاته » ـ فيتساءل لماذا نعتبر طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ بداية لنشوء المسألة اليهودية بمفهومها الذي شكل احدى مقدمات الصهيونية ، بينما كان اليهود قد طردوا من بريطانيا سنة ١٢٩٠ . ورغم « الخفة » التي ينم عليها مثل هذا التساؤل ، الذي لا تترك المادة الواردة في الكتاب مجالا لطرحه ، فالجواب بسيط للغاية : ان يهود بريطانيا، عند طردهم سنة ١٢٩٠ ، شكلوا اقلية هامشية بالنسبة لعدد اليهود في اوروبا باسرهم ، ولذلك لم تؤثر عملية طردهم ، التي كانت منفصلة عما سبقها او تبعها من تطورات في هذا المجال ، على اوضاع اليهود ككل . اما عملية الطرد من اسبانيا فقد كانت اوسع نطاقا ، ثم اصبحت فاتحة لعمليات اخرى مماثلة في بعض الدول الاوروبية ، كانت نتيجتها انتقال اكثرية اليهود للعيش في بولونيا وروسيا الشرقية . ومن هنا التغيير الجذري في اوضاعهم ، ثم بداية تبلور المسألة اليهودية . فما هو مبرر التساؤل ، والحديث عن « تناقض » ، خصوصا وان

بحث هذا الموضوع في الكتاب واضح للغاية ؟

٧ ــ وفي الصفحة نفسها من المراجعة تساؤل اخر ايضا ، ينم عن « خفة » اكبر لدى المراجع : اذا كانت معرفة العبرية منتشرة بين اليهود خلال النصف الاخير من القرون الوسطى ، فلماذا لم تحظ الكتب العبرية التي صدرت انذاك بانتشار واسع ؟ ــ لانها كتبت جميعا من قبل المسكيليم ، الذين كانوا اقلية اعتبرت الاكثرية اليهودية المتدينة المحافظة كتاباتها نوعا من الهرطقة ، ولذلك ضيقت الخناق عليها وعملت على منع انتشارها ٠ والكتاب يتناول قصة الصراع الشرس بين المسكيليم ، ودعواتهم الى النهضة ، وبين المتدينين المتزمتين الخاملين بشكل واضح ٠

٨ ــ وفي مكان اخرمن المراجعة (ص ١٥٦ ، العمود الاول) يتجرأ سمير ايوب حتى على اتهامنا بـ « التورط » (!)، نتيجة لما ينسبه لنا من قولنا « ان الثورة الصناعية والنمو الرأسمالي اقتلعا اليهود من جذورهم في اوروبا الشرقية ولكنهما ساعدا على استيعابهما في اوروبا الغربية » ٠ وعمليا ، لم نقل ذلك ابدا ،بل قلنا ان اوروبا الغربية استوعبت يهودها نتيجة للثورة الصناعية ٠ اما اوروبا الشرقية فقد لفظت سكانها اليهود ، نتيجة لتلك الثورة ، فهاجرت اكثريتهم الى اميركا الشمالية ، وقلة منهم فقط استوعبت في اوروبا الغربية ٠ ولذلك فان الحديث عن « تورط » لا طعم له ، اذ ان المراجع هو الذي تورط في اساءة فهم المادة المكتوبة امامه بالعربية والمطبوعة بالحبر الاسود على الورق الابيض ٠

٩ ــ ويستطرد المراجع ويتساءل في الصفحة نفسها من مراجعته : هل الرأسماليون اليهود قلة او كثرة ، اذ في وارسو وحدها ١٢ مليونيرا ٠ ترى ما المبرر لمثل هذا التساؤل ؟ فحتى لو كان هنالك ١٢٠ مليونيرا ، لا ١٢ فقط بين ٥ ملايين يهودي ، الا يعتبرون قلة ؟

١٠ ــ ولا بد من الرد على انتقادات سمير ايوب « الثقيلة » برفض زعمه ، او افتراءه ، بانني تبنيت الرأي القائل « بان وعد بلفور قد جاء بمثابة مكافأة لوايزمان من لويد جورج بسبب الخدمات التي قدمها للمجهود الحربي لبريطانيا خلال الحرب العالمية الاولى » (ص ١٥٢، العمود الثاني) ٠ وهذا القول غير صحيح على الاطلاق وناجم عن طريقة فهم ، واحيانا لا تفهم ، المراجع الغربية لما يقرأه ٠ ان القطعة التي اتطرق فيها الى علاقة البريطانيين والصهيونيين فيما يتعلق بوعد بلفور وأسباب صدوره تبدأ في الصفحة ٢٧١ من الكتاب وتنتهي في الصفحة ٢٩٠ منه ٠ وملخصها ــ وهذا ما « اتبناه » وهذا هو رأيي ــ هو ان البريطانيين لم يهتموا كثيرا وجديا بالحركة الصهيونية الا ابتداء من سنة ١٩١٦ ، وبعد ان قرروا استغلالها كأداة ضغط تجاه الفرنسيين لحملهم على التنازل عن الامتيازات التي اعترفت بريطانيا لهم بها في اتفاقية سايكس ــ بيكو ، لكي يكون لبريطانيا نصيب اكبر عند السيطرة على المشرق العربي ، بعد انتهاء الحرب ٠ ولذلك شجعت بريطانيا الصهيونيين على التقدم بطلباتهم وادعاءاتهم تجاه فلسطين ، شرط ان يتم ذلك تحت الاشراف والحماية البريطانيتين، وبشكل يخرج الفرنسيين وباقي الموقعين مع بريطانيا ، واولهم الايطاليون ، على اتفاقية سايكس ــ بيكو من الصورة قدر الامكان ، ويترك لبريطانيا وحدها اكبر قدر من الغنائم ٠ وهذا هو فحوى التحالف البريطاني الاستعماري ــ الصهيوني الذي ادى الى اصدار وعد بلفور ٠ وما قاله لويد جورج عن مكافأة لوايزمان

ليست الا احدى التبريرات التي اعتاد الساسة البريطانيون تقديمها فيما يتعلق باسباب اصدار وعد بلفور لتغليف مطامعهم ومخططاتهم الاستعمارية · وقد اوردنا كلام لويد جورج في هذا السياق ، وتحفظنا عليه ، وقلنا انه هو الذي يقول ذلك – لا نحن (انظر ص ٢٨٠ من الكتاب) · واعتراضات سمير ايوب ، في هذا الصدد ، هي محاولة لقلب الحقائق رأسا على عقب ، وتكاد تصل حتى الدس ·

ونكتفي بهذا القدر من الردود على انتقادات سمير ايوب العينية ، حتى لا نثقل على القارىء ، مؤكدين ان الانتقادات الاخرى المشابهة لها لا تختلف كثيرا ، في « مستواها » ، عن تلك التي تعرضنا اليها في هذا الرد ·

(٣)

وننتقل اخيرا الى الاعتراضات حول المنهج · وقبل ان ندخل في صلب الموضوع ، لا بد من الاشارة الى ان سمير ايوب كان غير منهجي عند حديثه عن المنهج ، اذ انه يتطرق الى هذه الناحية في فقرات عدة من مراجعته ،دون ان يربط بينها ، وكذلك – وهذا هو المهم – دون مبرر · ومثل هذا العمل يعتبر منافيا لابسط اسس الكتابة العلمية الصحيحة ، اذ لا يجوز ان يجزأ الحديث حول نقطة معينة ، خصوصا اذا كانت واضحة ومحددة ، على طول المادة المكتوبة وعرضها ، بل على العكس من ذلك ينبغي تجميعه كله في فقرة او فقرات محددة في مكان واحد ·

ففي الصفحة ١٥٣ (العمود الاول) من المراجعة يتحفنا سمير ايوب باول ارائه عن المنهج ، قائلا : « ان لا تاريخ دون فلسفة تاريخية متماسكة » ، بينما يرد الرأي الثاني في الصفحة ١٥٤ (اخر العمود الاول ومطلع العمود الثاني) ومفاده ان « ما يحفظ التاريخ السياسي هو الفكرة والعناوين الكبرى ··· والتفاصيل وحدها كما يقول فلاسفة التاريخ لا تكفي للارتقاء درجة واحدة في الفهم » · اما الرأي الثالث فيرد في الصفحة ١٥٧ (العمود الثاني) وهو ان « ··· المنهج متصل بالعقل والفكر الانساني · وكل منهج علمي لا بد له من وجود فرض · ومصدر الفرض في بعض الاحيان قد يكون التساؤل وقد يكون الظن · ويشمل المنهج الفرض والتساؤل والظن والاختيار النظري » · وهنالك ايضا رأي رابع ، يرد في الصفحة ١٥٨ (العمود الاول) حيث يظهر سمير ايوب اكثر وضوحا ، فيكتب : « الباحث ينفعل بألواقع ويقف منه موقفا معينا · يحب ويكره ··· ولن يستطيع أن يكون باحثا حقيقيا الا اذا ترجم مشاعره الى خيال · فالخيال بحد ذاته يلهم الباحث ويضع امامه امكانيات واختيارات عديدة » ·

ومع تجميع هذه الاراء وقراءتها سوية، ينفضح امر سمير ايوب وتظهر مشكلته الحقيقية : انه يتحدث بنبرة عالية ، وثقة بالغة بالنفس عن المنهج ، ولكن لا منهج لديه ! انه لا يقترب بتاتا من الناحية العملية ، ولا يقترح علينا اي منهج ، وحتى لا يبدي رأيه من اي المناهج التي كان علينا ان نعتمدها لكتابة تاريخ الصهيونية · وان كانت هذه الحال فما الحاجة الى الكلام المنمق في المراجعة حول المنهج ، وما الفائدة منه ؟

وبغياب اي رأي واضح لسمير ايوب حول المنهج الذي يقترحه او يريدنا ان نتبعه ، لم يبق امامنا الا اللجوء الى التخمين لمعرفته · وليس من الصعب القيام بذلك ، اذا قرأنا المراجعة بتمعن ·

ففي الصفحة ١٥٢ (العمود الاول) يكتب المراجع ان « علاقة الاستعمار بالصهيونية في رأيي [هي] الدراسة الاساسية الرئيسية التي كان يجب ان تكون مادة الكتاب والتي تلقي الاضواء المحللة لتلك الظاهرة الاقتصادية – الاجتماعية – السياسية والمسماة بالصهيونية فكرا وحركة ودولة » ·

ثم يكتب في مكان اخر (صفحة ١٥٨، العمود الثاني) : « لا يمكن للصهيونية الا ان تكون نتاجا لظاهرة الاستعمار الاوروبي » · واذا « ركبنا » هذه الاقوال على ما اقتبسناه من كلام سمير ايوب اعلاه حول الباحث « النموذجي » بالنسبة له – اي الباحث صاحب « الخيال» (وهذه، على كل حال ، اول مرة نسمع فيها عن ضرورة ان يكون من بين مواصفات الباحث « الخيال » ، رغم خطورة هذه الصفة ، اذ ان الباحث « الخيالي » قد يتحول الى باحث كاذب !) لاتضحت لنا صورة ما يصبو اليه سمير ايوب جليا ، وان لم يجرؤ على البوح به · انه يريدنا ان نضع النتيجة التي ينبغي ان يصل اليها البحث سلفا ، وربما في اول فقرة في الكتاب (وذلك بواسطة اللجوء الى « الخيال ») ، وهي ان الصهيونية ليست الا نتاجا للاستعمار واحدى ادواته · وكلها ما فيها وما يتعلق بها استعمار في استعمار · ثم ننطلق من هذه النتيجة المحددة سلفا نحو اثباتها سلفا ايضا · واذا اتضح ان هذا ليس هو الواقع بالضبط ، واشار البحث الى نواح اضافية ليس من السهل تجاهلها ، وقد تمس بالفرضية الاساسية ، فينبغي ان ندجل ونزور ونكذب ونتحايل ونلوي يد الحقيقة ، لكي نصل الى النتيجة المحددة سلفا·· وقد قدم ، على كل حال ، عدد من الكتاب العرب والاجانب اكثر من كتاب « قيم » من هذا النوع عن الصهيونية · ولا شك اننا لو اتبعنا هذا الاسلوب ، و « طعمنا » عملنا باقتباسات من بعض المصادر العبرية ،من خلال استعمال « الخيال » ، لقدمنا كتابا يتهافت عليه الغوغائيون على اختلاف انواعهم ، ولقرأه العديد منهم بشغف ، واغدقوا علينا كافة الاوصاف «الحميدة» – ولازدادوا في الوقت نفسه جهلا بالصهيونية ، لاننا في هذه الحالة لن نكون قد قدمنا الا طبعة معاكسة للكتاب اللاسامي سيء الصيت « بروتوكولات حكماء صهيون » ·

ان مسألة المنهج الذي اتبعناه لوضع الكتاب ، على كل حال ، ليست ثانوية ، بغض النظر عن مزاعم سمير ايوب بشأنه· ونعتقد انه لا بد لنا من توضيحه ، خصوصا وان تساؤلات حوله قدمت لنا من قبل اشخاص عدة ، بعضهم من « المتحمسين » للكتاب · ويمكنني القول ان المنهج الذي اعتمدته هو ، ان صح التعبير « منهج مركب » يجمع بين عناصر من مناهج اخرى وان كان لا يأخذ بها كلها · والسبب ؟ – لقد اتضح لي ان مثل هذا المنهج هو الوحيد الذي يمكن اللجوء اليه لفهم مركب الصهيونية ، المؤلفة من عناصر عديدة ،تبدو احيانا غير منسجمة، بل ومتناقضة · والامر بحاجة الى توضيح وتفسير ·

مما لا شك فيه ، مثلا ، ان هنالك علاقة عضوية وترابطا وثيقا بين الاستعمار والصهيونية ان كان ذلك نظريا ، اي بتبني الصهيونيين الفكرة الاستعمارية والادعاء بانه « يحق » لليهود ، اسوة بباقي الدول الاوروبية ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، السيطرة على منطقة ما في اسيا وافريقيا واستغلالها لصالحهم ، أو عمليا، بواسطة التعاون الوثيق بين الصهيونيين والمستعمرين للسيطرة على فلسطين وجوارها · ولا حاجة للتعمق كثيرا في هذا الموضوع ، فهو واضح ومعروف

جيدا · الا ان الادعاء ، استنادا الى ذلك، ان الصهيونية ظاهرة استعمارية لا غير ، ليس صحيحا على الاطلاق · ولو كان الامر كذلك ، وكانت الصهيونية جانبا من مؤامرة استعمارية فقط ، مخطط لها سلفا ،* لما كان الصهيونيون بحاجة - مثلا - الى قضاء وقت طويل ، اي نحو ٣٦ سنة ، منذ بداية الهجرة الاولى سنة ١٨٨١ (هذا اذا لم نعد الى سنة ١٨٦٢ ، عندما صدر كتابا كاليشر وهس) وحتى سنة ١٩١٧ ، يفتشون فيه عن دولة استعمارية تتبنى مخططاتهم وطروحاتهم ، دون طائل ، الى ان حانت الظروف الملائمة لذلك ، وتغيرت المواقف فصدر وعد بلفور · ولذلك فان الاستناد الى اي منهج يأخذ بالقول ان الصهيونية هي ظاهرة استعمارية فقط لا غير ، ثم استعمال هذا المنظار لوحده ، سيدفعنا نحو تبني نظرة احادية الجانب ، ولن يكون بالتالي كافيا لدراسة الصهيونية وفهمها · فهنالك ايضا عوامل اخرى تدخل في مركب الصهيونية ، وتجاهلها سيمس بالقدرة على فهم افضل لتلك الظاهرة من كافة نواحيها · والامثلة على ذلك عديدة ·

فبالاضافة الى التأثير الاستعماري ، لعبت ايضا اوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في اوروبا خاصة ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وموقف الاخرين منهم ، دورا مهما في دعم الصهيونية ، لا نظريا فقط ، بل عمليا ايضا ، وساعدتها على اقامة اسرائيل · ونظرة سطحية وسريعة للغاية الى تاريخ الصهيونية تثبت ذلك · فاللاسامية واضطهاد اليهود ساهما ، نظريا ، في بلورة الفكرة الصهيونية ، ثم تطبيقها عمليا باشكالها المختلفة · فلولا المذابح التي وقعت في روسيا ، في مطلع الثمانينات من القرن الماضي ، التي مست بشكل واضح باليهود ، الذين كانوا يمرون انذاك في اوضاع اقتصادية متدهورة ، نتيجه لاتجاه روسيا القيصرية الى السير على طريق النمو الرأسمالي ، لما بدأت الهجرة اليهودية من هناك ، ولما اتجه جزء من اولئك المهاجرين الى فلسطين لاقامة المستوطنات الصهيونية الاولى فيها · ولولا ازدياد الاوضاع سوءا في روسيا القيصرية ، بعد هزيمتها في حربها مع اليابان سنة ١٩٠٤ ، لما بدأت ما عرفت باسم الهجرة الثانية الصهيونية الى فلسطين ، التي ارست اسس النظام الصهيوني في البلد · ولولا السياسة الاقتصادية الضاغطة على اليهود ، التي انتهجتها بولونيا بعد استقلالها ، مع انتهاء الحرب العالمية الاولى ، لما اضطر عدد من يهود ذلك البلد الى الهجرة الى فلسطين خصوصا بعد ان وضعت الولايات المتحدة - وهي حتى ذلك الوقت محط انظار معظم المهاجرين من اوروبا وغيرها ، قيودا على الهجرة اليها من اي مكان في العالم · بل يمكننا القول انه لولا ظهور هتلر والنازية لما قامت اسرائيل كدولة · كذلك يمكن القول انه لولا التواطؤ بين الاستعمار والصهيونية وبعض الانظمة الرجعية العربية ، الذي ادى ، في مطلع الخمسينات ، الى « شحن » اعداد كبيرة من يهود تلك الدول الى اسرائيل ، لما وصل عدد سكانها اليهود الان الى ما يزيد على ٣ ملايين نسمة · وباعتقادنا ان اي منهج يمكن ان نلجأ اليه لكتابة تاريخ الصهيونية ، قد يؤدي بنا الى تجاهل مثل هذه الوقائع - حتى وان لم تحظ بـ «اعجاب» بعضهم - سيكون ناقصا ، وسيحرمنا اعتباطا من دراسة نواح مهمة في تاريخ الصهيونية ، وسيكون عملنا بالتالي ناقصا ·

كذلك لا يمكننا ان نتغاضى عن عنصر اخر في مركب الصهيونية ، ناجم عن تأثير بعض المفاهيم الدينية اليهودية ، بالتفسيرات الخاصة التي اعطيت لها ،

على عقيدة الصهيونية وممارساتها ، وخصوصا ما يتعلق بـ « ارض ـ اسرائيل » (ص ٥٠ ـ ٥٨ من الكتاب) . ولا حاجة للذهاب بعيداً من هذه الناحية. ان اي مهتم بالسياسة ، يشاهد رئيس وزراء اسرائيل مناحيم بيغن ـ مثلا ـ وهو يتحدث بتشنجه المعهود عن « ارض ـ اسرائيل » و « حقوق » اليهود فيها ، لا بد ان يثور لديه التساؤل وحب الاستطلاع بالنسبة لهذه المفاهيم . وباعتقادنا ان اي كتاب يبحث في تاريخ الصهيونية لا يتطرق الى هذه الناحية ، ولا يفسر وجهة النظر الصهيونية بشأنها، سيكون ناقصا . ولذلك لا يمكن عند التعامل مع هذا التاريخ ، اللجوء الى اي منهج ، مهما وصف بانه « علمي » او « جدلي » ، يمكن ان يدفعنا الى استبعاد البحث في تأثير بعض المفاهيم الدينية اليهودية على الصهيونية . واذا حدث ذلك فلن نستطيع الاطلاع على ناحية مهمة من العقيدة الصهيونية ، وبالتالي سنغفل تأثيرها على السياسة الصهيونية العملية . وليس في ذلك اي فائدة ، بل انه على العكس قد يكون مضرا .

وبامكاننا اضافة نقطة اخرى الى ما اشرنا اليه ، تتعلق بتأثير نشوء الدول القومية على تفكير اباء الصهيونية ، ومن تبعهم من قادتها ومعلميها . وهذا التأثير واضح للغاية في ناحية واحدة على الاقل : محاولات احياء اللغة العبرية . لقد كان الصهيونيون هم الذين بذلوا الجهود الكبيرة ، دون غيرهم من اليهود ، لاحياء اللغة العبرية وجعلها لغة عصرية متداولة يستعملها اليهود في حياتهم اليومية (مقابل اهمال الايديش ، بل ومقارعتها) انطلاقا من الرأي القائل ان « دولة قومية » ينبغي أن تكون لها « لغة قومية » خاصة بها . وقد نجحوا فعلا في محاولات احياء تلك اللغة ، على الاقل داخل اسرائيل . إلا ان مسألة احياء اللغة لم تكن ، في نهاية الامر ، الاعنوانا لصراعات واسعة ومستمرة داخل الطوائف اليهودية ، في اماكن مختلفة من العالم ، حول ما يسمى « الثقافة اليهودية » . وقد اتسع نطاق هذه الخلافات فوصل الى الدين ، وادى الى اضطهاد الصهيونيين لاتباع بعض التيارات الدينية اليهودية ، وخصوصا الاصلاحي منها . ولم يكن هذا بالذات في مصلحة الصهيونية على المدى الطويل . وهذه ، مثلا ، احدى نقاط الضعف الصهيونية ، التي لا يجوز التغاضي عنها .

ان العناصر التي اشرنا اليها (والتي لا حاجة الى الاسترسال في الحديث عنها كثيراً) وغيرها هي عوامل مهمة فيمركب الصهيونية ، لا يجوز اغفالها . ولكي نتمكن من دراستها جميعا ، لجأنا الى استعمال ما رأينا ان نسميه « المنهج المركب » ، ومنحاه كامن في فصل « التوطئة » في الكتاب (ص ١٣ ـ ٧٠). ولا نزعم ان هذا المنهج هو اية في الكمال وقمة العلم ، بل نعتقد انه المنهج الوحيد الصالح للتعامل مع الصهيونية ، وهو من هذه الناحية افضل من المناهج الاخرى ، بما في ذلك تلك التي توصف بانها « علمية » ، وتقودنا في نهاية الامر الى طريق النظرة احادية الجانب وضيقة الافق . بل نكاد نقول ان ظاهرة الصهيونية هي احدى الامثلة التي يمكن تقديمها للدلالة على بعض نواحي النقص في تلك المناهج « العلمية » .

وختاما ، لا بد من التاكيد على ان ردنا على مراجعة سمير ايوب لا يجوز ان يفسر كاننا نريد القول ان كتاب « تاريخ الصهيونية » غير قابل للمراجعة او النقد. فنحن لا نعتقد أن هنالك عملا ما يمكن ان يكون متكاملا من كل الوجوه . وكان املنا ان تكون مراجعة سمير أيوب ـ على الاقل بحكم حجمها ـ من ذلك النوع من « القراءات » الذي يقوم به اناس اكفاء من حيث اطلاعهم على الموضوع ، فيساهمون بذلك في اثراء النقاش حوله ، لما فيه المصلحة العامة .

صبري جريس

شهريات

المقاومة الفلسطينية

عاشت المقاومة الفلسطينية على امتداد الفترة من منتصف آذار حتى منتصف نيسان ، حدثين بارزين في لبنان : الاحتلال الاسرائيلي للجنوب ، والمعركة بين قوات الردع السورية والجبهة اللبنانية في عين الرمانة ببيروت ، وكان للحدثان تفاعلاتهما العسكرية والسياسية لبنانيا وعربيا ودوليا ، وتأثيرهما المباشر على مستقبل وجود المقاومة في لبنان في ظل المعركة الدائرة منذ بدء الحرب الاهلية في نيسان ١٩٧٥ ضد هذا الوجود ٠

بدأت عملية الغزو الاسرائيلية عند منتصف ليل ١٤ آذار ، وتميزت بالقضايا التالية :

١ ـ كان العدوان الاسرائيلي واسعا وشاملا ، شاركت فيه قوات عسكرية ضخمة قدرت بين ٢٥ الف ـ ٣٠ الف جندي ، تساعدهم الطائرات والقوات البحرية ٠

٢ ـ ترافق الهجوم العسكري مع هجوم دبلوماسي عالمي قامت فيه اسرائيل بمطالبة العواصم العالمية رسميا باغلاق مكاتب منظمة التحرير الموجودة فيها ، وشمل هذا الطلب بلدانا مثل النمسا والسويد واليابان وبلجيكا والولايات المتحدة ، والتي رفضت كلها الاستجابة لطلب اسرائيل ٠

٣ ـ واجه الغزو الاسرائيلي مقاومة صلبة ومستمرة من الفدائيين الفلسطينيين تسترت عليه اسرائيل في اليوم الاول ، ثم اضطرت للاعلان عنه في الايام التالية ، وجاء هذا الاعلان المتكرر على لسان مردخاي غور رئيس الاركان ، الذي خص بالذكر معركتي بنت جبيل ومارون الرأس ، وقال ان القتال فيهما كان من بيت الى بيت ٠

٤ ـ ان مقاومة الغزو والاحتلال لم يقتصر فقط على الفدائيين الفلسطينيين ، بل ساهم فيه اللبنانيون ايضا بثلاثة اشكال : مقاتلون لبنانيون مع الفدائيين (بنت جبيل) ، مقاتلون لبنانيون في منظمات الحركة الوطنية (الناقورة ومارون الرأس) ، مقاومة لبنانية من الاهالي (حداثا وصفد البطيخ) ٠

٥ ـ قامت القوات الانعزالية اللبنانية المتواجدة في منطقة مرجعيون برئاسة الرائد سعد حداد ، بالتعاون مع القوات الاسرائيلية الغازية وتقديم التسهيلات لها ، والترحيب بوجودها واهدافها ٠

الهدف الاسرائيلي :

وفي اليوم الاول للهجوم (١٤ آذار) اعلنت اسرائيل ان هدفها منه ليس الانتقام لعملية كمال عدوان الفدائية

التي نفذت في قلب تل ابيب بل كما جاء في بيان رسمي :

١ ـ القيام بعملية تطهير (للفدائيين) على طول الحدود اللبنانية ٠

٢ ـ اجتثاث قواعد « الارهابيين »قرب الحدود ، وضرب القواعد الخاصة التي انطلق منها « الارهابيون » في عملياتهم في عمق اسرائيل ٠

وفي اليوم الثاني للهجوم (١٥ آذار) اعلن مناحم بيغن رئيس الوزراء ان قواته ستحتل شريطا بعرض ١٠ كلم ، ولن تنسحب منه الا بعد توقيع اتفاق يضمن ان لا يبقى فلسطيني واحد في المنطقة ٠

واعلن عيزر فايتسمان وزير الدفاع الاسرائيلي في اليوم الثالث للهجوم (١٦ آذار) ان اسرائيل ستبقى في منطقة الحدود الى ان يتم ضمان الامن ٠. واعلن في اليوم الرابع (١٧ آذار) من مرجعيون أن « على منظمة التحرير ان تخرج من كل لبنان وان تعود الى سوريا والاردن ومصر » ٠

وقد طرأ على هذا الهدف الاسرائيلي المعلن لعملية الغزو تغير جوهري ، بسبب المقاومة التي واجهته من جهة ، وبسبب التطورات الدولية التي رافقته من جهة اخرى ٠ ففي اليوم الثالث للهجوم اعلنت الولايات المتحدة الاميركية على لسان هودنغ كارتر الناطقبلسان وزارةالخارجية انها تؤيد دعوة لبنان لعقد مجلس الامن، وان احدى الترتيبات ستكون تشكيل قوات سلام دولية ، وان الولايات المتحدة تتوقع من اسرائيل ان تنسحب من المنطقة التي احتلتها ، وستقوم بكل الجهود من أجل مساعدة لبنان على استعادة سيطرته على جميع ارجاء بلاده ، وربط ذلك « بالحاجة الى ترتيبات امنية تحمي اسرائيل من هجمات الفدائيين

الفلسطينيين » ٠ وقد اجتمع مجلس الامن يوم ١٧ آذار ، واستمع يوم ١٨ آذار الى مشروع قرار اميركي يتضمن ارسال قوات عسكرية تابعة للامم المتحدة الى الجنوب. وصدر نص القرار يوم ١٩ آذار ، يدعو اسرائيل للانسحاب الفوري ٠ وقد قامت اسرائيل في محاولة لاستباق قرار مجلس الامن باحداث تغيير على اهدافها المعلنة للغزو ، اذ اعلن الجنرال غور يوم ١٨آذار « اذا استمرت مقاومة الفدائيين الفلسطينيين فان الجيش الاسرائيلي لن يجد بديلا سوى مواصلة الاندفاع نحو الشمال » اي خارج « حزام الامن » الذي اعلنه بيغن والذي يصل عمقه الى ١٠ كلم، وعاد غور ليعلن صراحة يوم ١٩ آذار «لم نعد الان نتحدث عن حزام امني ، بل عن اتفاق عام ، وعن تدبير يقام في المنطقة، ونأمل بان يشمل الاتفاق السياسي جنوب لبنان كله ، وان يضع نهاية لنشاط « الارهابيين » في جميع انحاء العالم » ٠

ثم قام وزير الدفاع الاسرائيلي يوم ٢٠ آذار بتوسيع نطاق هذه المطالب من جديد فقال : « ما لم يحدث تغير اساسي فاننا سنبقى حيث نحن الى حين التوصل الى حل » ، والحل « اتفاق يضمن امننا » ، وشروط هذا الحل اربعة :

١ ـ الغاء وجود الفدائيين جنوب الليطاني ٠

٢ ـ بقاء بوابات «الجدار الطيب» مفتوحة ٠

٣ ـ عودة ميناء صور كميناء تجاري٠

٤ ـ استبعاد وجود الفدائيين في صيدا والمخيمات المجاورة ٠

وفي ظل هذه الاهداف الاسرائيلية صدر قرار مجلس الامن الذى يدعو اسرائيل للانسحاب الفوري والكامل ، مع

السعي لعودة السلطة اللبنانية ، وتمركز القوات الدولية ، ولكن اسرائيل واصلت قتالها حول مدينة صور بعد صدور القرار (٢٠ آذار) ، وانتظرت حتى يوم ٢١ آذار لتعلن عن وقف اطلاق النار من جانب العدو ·

الموقف الفلسطيني :

ركز الموقف الفلسطيني بالدرجة الاولى على مقاومة الاحتلال ، معتبرا أن هذه المقاومة هي التي تتيح له المطالبة بأي موقف عربي دولي مساند · وعلى قاعدة منها وجه عرفات في اليوم الثاني للغزو (١٥ آذار) برقيات الى الملوك والرؤساء العرب ، واجرى اتصالات هاتفية مع المسؤولين السوفيات ، ووزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام ، والرئيس الجزائري هواري بومدين ، وامين الخارجية الليبي ··· التريكي ·

وفي اليوم نفسه اعلن عبد المحسن ابو ميزر الناطق الرسمي بلسان المنظمة ان الغزو يتم بتنسيق اميركي ـ اسرائيلي. وقال ياسر عبد ربه رئيس دائرة الاعلام في المنظمة ان هدف العدوان :

١ ـ اضعاف المقاومة الفلسطينية ·

٢ ـ وضع سوريا في موقف حرج ·

٣ ـ فرض تسوية اسرائيلية ـ مصرية·

وذكر انه ايا كانت المكاسب العسكرية التي قد تحققها اسرائيل فانها لن تتمكن سياسيا من فرض اي شيء ·

وفي ١٦ آذار اعلن عرفات في مهرجان ذكرى جنبلاط « نحن والحركة الوطنية اللبنانية نقاتل وحيدين على ارض الجنوب » · وصدر في اليوم التالي بيان للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير « يؤكد على واجب الدول العربية في مجابهة هذا الخطر » و « يشدد على أهمية المشاركة الكفاحية لسائر البلدان العربية في القتال الدائر ، وفتح الباب امام جماهير المتطوعين والدعم المادي والعسكري المباشر ، للاستمرار فيمجابهة الغزو » · وبادرت سوريا في هذه الاثناء الى دعوة وزراء خارجية دول « جبهة الصمود والتصدي » للاجتماع في دمشق، وبدأ المؤتمر اعماله مساء يوم ١٩ آذار ، اي في اليوم الخامس لعملية الغزو · وانتهى المؤتمر مساء ٢٠ آذار دون ان تكون له نتائج علنية حاسمة ، فيما تردد انه اتخذ مقررات سرية بتقديم مساعدات مادية وعسكرية وبشرية للمقاومة تمكنها من الصمود والقيام بحرب استنزاف للاحتلال الاسرائيلي ·

وقد حصلت المقاومة بعد ذلك على مساعدات عديدة لم يعلن عن الكثير منها ، وما اعلن عنه فقط يشير الى :

☐ ٢١ شاحنة عراقية و ١٥ شاحنة سورية شوهدت تتجه يوم ٢٠ آذار الى النبطية (رويتر) ·

☐ اعلن في ليبيا ان الدفعة الاولى من ٢٠٠ متطوع غادروا طرابلس الى لبنان ·

☐ اعلن صدام حسين نائب رئيس مجلس الثورة العراقي ان مجموعات كوماندس ومساعدات عسكرية وصلت الى جنوب لبنان ·

وكانت دمشق قد أعلنت رسميا يوم ١٦ آذار انها ابلغت بغداد موافقتها على تمرير المساعدات العراقية للمقاومة ·

وقد اثار هذا الموقف العربي رد فعل لبناني حاد عبر عنه الرئيس الياس سركيس في مجلس الوزراء بقوله : « اننا نرفض تدخل اي دولة او جهة في شؤوننا

وعلى ارضنا ما لم يكن ذلك بموافقتنا . وسنلجأ الى كل وسيلة لوضع حد لمثل هذه التدخلات والممارسات » ، واصدرت قيادة قوات الردع (٢٤ آذار) بيانا اعلنت فيه منع دخول المساعدات العسكرية الى لبنان، وحصرت دخول المساعدات الاخرى باجهزة الدولة ، ولكن المقاومة الفلسطينية عادت واعلنت يوم ٢٩ آذار رسميا « مرور المساعدات اليها عبر سوريا » ·

المواقف اللبنانية :

حصرت السلطة اللبنانية موقفها في القيام بعمل دبلوماسي لمواجهة الغزو الاسرائيلي ، وباتجاه استصدار قرار دولي من مجلس الامن لتأمين انسحاب القوات المحتلة ، فيما كانت « الجبهة اللبنانية ، تعمل باتجاه معاكس يربط ويساوي بين الاحتلال الاسرائيلي والوجود الفلسطيني ، ويطلب معالجة المشكلتين في وقت واحد · وفي يوم ١٦ آذار بدأت الدبلوماسية اللبنانية تحركها نحو مجلس الامن فيما اعلن كميل شمعون بعد زيارة للقصر الجمهوري انه من « الافضل تأجيل دعوة مجلس الامن حتى نجهز قوات ترسل الى الجنوب ، ولا يجب ان يبقى في الجنوب الا اللبنانيون، لا نريد اسرائيليين ولا نريد فلسطينيين » · وفي نوع من السجال بين السلطة و « الجبهة اللبنانية» كان فؤاد بطرس وزير الخارجية يعلن ان « الحل هو بالانسحاب الاسرائيلي وعودة السيادة الى الجنوب في وقت واحد » بينما كان بيار الجميل يكمل موقف شمعون بالقول ان « الاعتداءات في الجنوب تأتي تارة من الفلسطينيين وطورا من اسرائيل» واجتمع تجمع النواب الموارنة المقرب من « الجبهة اللبنانية » يوم ١٨ آذار واقترح برنامج عمل يتضمن :

☐ دعوة الدول العربية لتحمل مسؤولياتها تجاه القضية الفلسطينية . وتنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان . ووضعه ضمن استراتيجية عربية ·

☐ انشاء مجلس دفاع عربي موحد للاشراف على العمليات الفلسطينية ·

وفي يوم صدور قرار مجلس الامن كان شمعون يعلن ان القرار « ليس بامكانه ان يحل المشكلة ، لان المهم هو ازالة الوجود الفلسطيني المسلح » ، وكان ابنه دوري يهدد بالقول ان « مشاكل جديدة ستقع بين الفلسطينيين والجبهة ، وقد وصلتنا تقارير أكيدة ونحن بالمرصاد لكل ما سيحدث » · وبعد صدور قرار مجلس الامن اجتمعت « الجبهة اللبنانية » ودعت الحكومة في بيان رسمي الى « اعادة طرح القضية اللبنانية على مجلس الامن · كون القرار ٤٢٥ لم يعالج سوى وجه طارىء واحد من وجوه القضية » ·

الاحتلال والانسحاب :

فور صدور قرار مجلس الامن واعلان اسرائيل عن قرار وقف اطلاق النار من جانب واحد ، اعلن رئيس دائرة الاعلام في منظمة التحرير (٢١ آذار) انه « ليس في قاموسنا اي شيء عن وقف اطلاق نار مع العدو » ، فيما اعلن محمود اللبدي المكلف بالاتصال بالصحافيين الاجانب « ان ردنا هو الدعوة لانسحاب القوات الاسرائيلية فورا ودون شروط مسبقة » · وبات واضحا ان منظمة التحرير لن تلزم نفسها رسميا بوقف اطلاق النار ، ولكنها ستسهل عمليا تمركز القوات الدولية في مواقعها ، لاختبار مدى جدية اسرائيل بالالتزام بقرار الانسحاب ، خاصة وان اسرائيل اعلنت

يوم ٢٢ آذار ثلاثة شروط للانسحاب هي : دخول قوات الامم المتحدة ، وخروج الفدائيين الفلسطينيين ، واقامة السلطة اللبنانية ٠

وفي نطاق الموقف الفلسطيني قام عرفات في اليوم نفسه بالالتقاء مع سبعة سفراء اجانب ، واعلن ناطق رسمي معلقا على الشروط الاسرائيلية « ان السلطة اللبنانية هي التي تعالج الموضوع ٠٠٠ ونحن ألتزامنا فقط مع السلطة اللبنانية، وضمن حدود اتفاق القاهرة ، واي تغيير في هذا الاتفاق من طرف اخر لا يلزمنا »٠

وحدث اول لقاء سياسي بين منظمة التحرير والقوات الدولية يوم ٢٣ آذار اذ اجتمع عرفات مع المستشار السياسي لمكتب هيئة الامم المتحدة في بيروت وتلا ذلك اجتماع عسكري لبحث اجراءات دخول القوات الدولية ، وتم تعيين ضباط ارتباط بين الجانبين ٠

واعلن عرفات بعد هذا اللقاء (٢٥ آذار) ان « المهمة الاساسية الان هي ضمان الانسحاب الاسرائيلي ، وفي غضون ذلك سوف تستمر حرب العصابات ضد المحتل» واعلن فاروق القدومي رئيس الدائرة السياسية في المنظمة ان « المقاومة لا بد ان تسهل الاجراءات والترتيبات التي يمكن ان تتخذ على مستوى عربي او دولي من اجل تأمين انسحاب اسرائيلي فوري ودون قيد او شرط » ، واستقبل عرفات الجنرال امانويل ارسكين قائد القوات الدولية في لبنان (٢٨ آذار) وابلغه تعهد منظمة التحرير بمساعدته قواته على القيام بمهمتها «من اجل تسهيل الانسحاب الاسرائيلي » ، وصدر في هذا اليوم نداء من كورت فالدهايم امين عام الامم المتحدة موجه الى جميع الاطراف للتقيد بوقف اطلاق النار ، فيما كانت طلائع القوات الدولية تتوجه لاستلام بعض المواقع على الليطاني ، ومنها جسر الخردلي والقعقعية فيما بقي جسر القاسمية تحت سيطرة القوات المشتركة للمقاومة والحركة الوطنية ٠ وفي السادس من نيسان اعلن ناطق في الامم المتحدة عن برنامج اولي لانسحاب اسرائيلي محدود ، وقد نفذ هذا الانسحاب على مرحلتين :

الاولى في ١١ نيسان وشملت : كوكبا، الفرديس ، الهبارية ، ابل السقي ، كفر شوبا ، شبعا ٠

الثانية في ١٤ نيسان وشملت : الطيبة القنطرة ، الغندورية ، مزرعة فرون ، الطريق الرئيسي بين الطيبة والغندورية ، وذلك بعمق من ٥ الى ٦ كلم ٠

وقد نفذت اسرائيل انسحابها هذا بشكل يتيح لها الاحتفاظ بالسيطرة العسكرية على المواقع التي انسحبت منها ٠

مقابل هذا الموقف الفلسطيني كان الرائد سعد حداد يقوم بعرقلة تمركز القوات الدولية الى حد اطلاق النار على القوة الايرانية المتوجهة نحو جسر القعقعية (٢٣ آذار) ، ويعلن من الاذاعة الاسرائيلية (٢٧ آذار) تشكيل جيش في الجنوب وحرس وطني وشرطة وفرض الخدمة الاجبارية ، ويجبر قوة نروجية على الخروج من قرية الطيبة (٦ نيسان) ٠ وكانت اسرائيل بدورها تعرقل عمليات عودة مظاهر السلطة اللبنانية الى الجنوب فتمنع وصول الدرك اللبناني الى بعض المواقع ، (٥٠ دركيا) وتشترط تجريدهم من السلاح قبل دخولهم (٦ نيسان)٠

الملف الفلسطيني :

في اليوم التالي مباشرة لاعلان اسرائيل

عن وقف اطلاق النار ، بدأ التجمع النيابي الماروني يبحث مع الرئيس كامل الاسعد فتح ما يسمى بـ «الملف الفلسطيني» في مجلس النواب (٢٢ آذار) ، وقد بدأ هذا البحث في ظل انتقادات واسعة من قادة التجمعات الاسلامية لموقف « الجبهة اللبنانية » وبيانها الداعي لاعادة طرح القضية اللبنانية على مجلس الامن . وشكلت الدعوة لطرح الملف الفلسطيني في مجلس النواب بداية مساجلة سياسية واسعة بين « الجبهة اللبنانية » والاطراف الاسلامية كافة (سلام ـ عسيران ـ اليافي ـ علي الخليل ـ المرابطون ـ الحركة الوطنية) وحذر صائب سلام (٢٥ آذار) من استعمال العنف لمعالجة قضية الوجود الفلسطيني المسلح وقال : « اذا كان المقصود من طرح الموضوع في المجلس النيابي الاستفزاز والمزايدة فلا داعي لهكذا طرح ... انا اقول بوفاق لبناني لمعالجة كل قضية ، وفي مقدمتها علاقات لبنان مع الفلسطينيين » . وفي اجتماع نيابي عقد برئاسة الاسعد وضم نوابا من السنة والشيعة والموارنة برز الخلاف جليا حول هذه القضية ، اذ طالب النواب الموارنة بفتح الملف الفلسطيني والغاء الوجود المسلح لهم ، بينما اعلن النواب المسلمون انه لا يجوز تجريد الفلسطينيين من السلاح ، لا سيما ان السلاح لا يزال في ايدي اللبنانيين . وفي الاول من نيسان وبعد أن انهى الاسعد مشاورات نيابية مطولة حول عقد او عدم عقد جلسة للملف الفلسطيني ، اعلن عن ضرورة عقد جلسة تطرح فيها مختلف القضايا المصيرية وفي طليعتها الوجود الفلسطيني المسلح ، ونبه الى خطر شبح التقسيم الفعلي في حال تفجير الموقف الداخلي ، وفي السادس من نيسان تم تحديد موعد الجلسة في ٢٠ نيسان . فيما اعلن صائب سلام بعد زيارة لرئيس الحكومة الدكتور سليم الحص «ان فتح الملف الفلسطيني لا يكون بجلسة نيابية ، بل على الحكم المسؤول ان يعالج ذلك . لان فتح الملفات يولد المزايدات » . بينما دعا تجمع النواب الموارنة في بيان له الى اتخاذ موقف موحد من الوجود الفلسطيني المسلح (٧ نيسان) واعتبر هذا الموقف مدخلا للوفاق الوطني ، وابدى اسفه وقلقه لاصرار البعض على معارضة فتح الملف الفلسطيني .

وفي ظل هذا الحوار المتوتر انفجرت احداث العنف في منطقة عين الرمانة (٩ نيسان) ، وكان واضحا ان الهدف منها هو تفجير صراع مسلح في منطقة التماس التقليدية اثناء الحرب (الشياح ـ عين الرمانة) على أمل جر المقاومة الفلسطينية الى معركة مكشوفة بحيث يكون ذلك مقدمة لمناقشة الوجود الفلسطيني المسلح في جلسة مجلس النواب ، كوجه اخر للوجود الاسرائيلي المسلح في الجنوب . ولكن المقاومة الفلسطينية لم تنجر بسهولة الى هذا المخطط ، وامتنعت عن الرد على كل الاستفزازات العسكرية التي تعرضت لها في اماكن تواجدها ، بينما قامت قوات الردع العربية بانذار اي جهة تطلق النار ، ثم نفذت انذارها بعنف ضد مقاتلي « الجبهة اللبنانية » المتمركزين في عين الرمانة وذلك طوال خمسة ايام (من ٩ الى مساء ١٢ نيسان).

وتلا هذا الصدام حملة مركزة من قادة « الجبهة اللبنانية » ضد القوات السورية داخل قوات الردع العربية ، فيما اعلنت السلطة اللبنانية ان قوات الردع هي قوات الشرعية ، وان العمليات التي قامت بها انما نفذت باوامر منها . وتصاعدت في هذه الاثناء الحملة ضد الجبهة ومواقفها

التصعيدية ، سواء من الحركة الوطنية او من التجمعات الاسلامية : او القوى الدولية (فرنسا) التي اعلنت ردا على مطالبة شمعون بالتدويل انها لن تتدخل خارج جنوب لبنان ، ولا تؤمن بتدويل القتال الحالي (١٣ نيسان) ، وادت هذه التفاعلات كلها الى الغاء جلسة « الملف الفلسطيني » ، ثم استقالة حكومة الدكتور سليم الحص ، وتشكيل لجنة برلمانية مصغرة تتولى وضع صيغة لاسس الوفاق اللبناني ، يتم على ضوئها تشكيل حكومة جديدة والبدء بمعالجة القضايا اللبنانية المتعددة ، ومنها قضية الوجود الفلسطيني ٠

بلال الحسن

المناطق المحتلة

الانتفاضة

مع اندلاع الحرب التي شنتها اسرائيل ضد التواجد الثوري الفلسطيني اللبناني في جنوب لبنان، كمحاولة لتصفية المقاومة الفلسطينية ، تحركت العناصر الوطنية في المناطق المحتلة ، وفجرت انتفاضة شعبية عارمة ، ضد سلطات الاحتلال ، واتخذت اشكالا ، من بينها التظاهرات والاضرابات واقامة الحواجز على الطرق ورجم السيارات الاسرائيلية بالحجارة ، واشعال النار في اطارات السيارات في الساحات العامة وعند مفترق الطرق وسط المدن والقرى والمخيمات ، والتصدي للقوات الاسرائيلية ٠ وغدا المشهد المألوف طوال ايام الحرب في لبنان ، هو السنة الحرائق المندلعة من دواليب السيارات ، واعمدة الدخان التي تغطي اماكن الانتفاضة ، ويتصارع تحت ظلالها المواطنون العزل مع قوات الجيش الاسرائيلي التي وجدت نفسها امام جبهتين ، لا ثالث لهما ، اللهم الا جبهة الاعلام العربي الرسمي على مختلف انواعه الذي كان مفرطا في حماسه لتغطية جبهة الداخل ، في محاولة منه لطمس سير المعارك الضارية في الجبهة الاولى ، وذلك من اجل هدف ليس خافيا على احد ٠

لم تقتصر الانتفاضة على ايام المعارك في جنوبي لبنان ، بل استمرت ايضا بعد ان اعلنت اسرائيل وقف اطلاق النار، لاسباب عدة من بينها الاحتجاج ضد وحشية قوات الاحتلال في تصديها للتظاهرات ، وضد مقتل احد سكان مدينة القدس العربية على يد جندي اسرائيلي ، والاحتفال بيوم الارض ٠ وسنكتفي هنا بالحديث حول بعض ايام الانتفاضة ، وخاصة تلك التي سقط فيها عدد من الشهداء والجرحى ٠

في الثامن عشر من اذار عادت مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة ، وشهدت اضرابات وتظاهرات صاخبة سقط خلالها ثلاثة شهداء وعشرات الجرحى ٠ الشهداء هم

محمود ابو غضيب (٨ سنوات) من مخيم عسكر ، وبسام صلاحات (١٧ سنة) من قرية طلوزه ، وعمر عبد سالم (٣٧ سنة) من مخيم جباليا . ولعل في قصة استشهاد هؤلاء ما يدل على مدى «ارتباك» جنود الجيش الاسرائيلي و « عصبيتهم » المفرطة في مواجهة التظاهرات . فبالنسبة لاستشهاد الطالبين اليافعين في مخيم عسكر ، عزت المصادر الاسرائيلية السبب الى تدهور سيارة عسكرية كانت تسير بالقرب من المخيم بعد ان اصيب السائق بحجر في رأسه « فاغمي عليه » ولم يتمكن من قيادة السيارة التي حادت عن طريقها ، وارتطمت بمقهى بالقرب من الطريق ، واودت بحياة الطفل والفتى ، واصيب ستة من جنودها بجراح متوسطة .

اما قصة مقتل احد سكان مخيم جباليا ، فقد ابرزتها الصحف الاسرائيلية تحت عنوان : محاولة خطف سلاح جندي اسرائيلي ! » الا ان الحقيقة غير ذلك ، فقد اقترب اثناء التظاهرات الحاشدة في مخيم جباليا ، احد المواطنين العرب ـ كان قد قدم الى المخيم قبل ايام من مستشفى الامراض العقلية في بيت لحم ـ اقترب من موقع قريب للجيش الاسرائيلي،

فما كان من احد الجنود الا ان اطلق النار عليه دون ان يقوم المغدور بأية محاولة للسيطرة على سلاح جندي ما ، وارداه قتيلا !

ومما يلفت النظر ان عملية تشييع جنازة الطالبين جرت في جو احتفالي وطني ، ودرج المواطنون على نعي الضحايا في الصحف الصادرة في المناطق المحتلة بتقديم النعي بجملة « بمزيد من **الفخر والاعتزاز** ، ننعي ... » .

وفي التاسع عشر من اذار عمت التظاهرات الشعبية جميع مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية والقطاع ، التي سادها منظر الدخان من جراء حرق الدواليب . واستخدمت قوات الاحتلال في تصديها للمتظاهرين الغاز المسيل للدموع ، والقت القبض على اعداد كبيرة من المواطنين . وفي هذا اليوم برزت مدينة خان يونس في العطاء ، فقد سقط في المدينة عدد من الجرحى من بينهم طفلان ، اثناء تظاهرة على الطريق الرئيسي . وتقول الرواية الاسرائيلية ان الحادث وقع عندما رجم المتظاهرون في المدينة سيارة باص كانت تسير على الطريق الرئيسي متجهة نحو سيناء . فأطلق جنود كانوا بداخلها النار صوب المتظاهرين ، الامر الذي تسبب بوقوع اصابات . كما وتدعي ان المتظاهرين كانوا قد رجموا سيارة عسكرية بالحجارة « واصابوا عددا من الجنود بجراح » . وهرعت قوات كبيرة الى المدينة ، وقامت بتفريق المتظاهرين بالغاز المسيل للدموع ، مشفعة ذلك باطلاق النار « فوق » رؤوسهم .

طوال ايام القتال ، كانت مدن الضفة الغربية ، نابلس ، رام الله ، البيرة ، جنين ، طولكرم ، القدس ، الخليل ، بيت لحم ، حلحول ، واريحا . وكذلك غزة ، وخان يونس وسائر القرى والمخيمات تشهد

مظاهرات ، واضرابات تجارية شاملة وجزئية ، واشتباكات مع قوات الاحتلال . تسفر عن جرحى ومعتقلين .

وبعد انتهاء القتال ، شهدت هذه التجمعات الفلسطينية ، احتفالات بمناسبة يوم الارض . وفي الثلاثين من اذار حدث اضراب تجاري في عدد من مدن الضفة ، وكان الاضراب شاملا في مدينة نابلس .

الى جانب ذلك ، جرت تظاهرات احتجاجية اخذت شكل الاعتصام ضد « وحشية » قوات الاحتلال في تصديها للتظاهرات خلال الحرب ، ففي الثالث والعشرين من اذار الماضي اعتصم عدد كبير من طلبة جامعة بيرزيت بالاضافة الى معلمين من اماكن مختلفة من الضفة الغربية في مكاتب الصليب الاحمر في القدس ، ووزع المعتصمون بيانا استنكروا فيه « تصرف جنود الجيش الاسرائيلي وحرس الحدود » خلال التظاهرات ، واماط البيان اللثام عن اعمال « التنكيل » ضد المعتقلين من المتظاهرين ، واشار الى كثرة عدد المصابين من جراء وسائل القمع التي اتخذتها سلطات الاحتلال ضد المتظاهرين ·

ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال القت القبض على الصحفية ريموندا الطويل من رام الله بسبب التقاطها صورا لقوات الجيش الاسرائيلي وهي « تقوم بقمع التظاهرات في رام الله » وفق ما ذكرته هعولام هزيه (٢٤ـ٣ـ٧٨) بعد ان فتشت بيتها وعثرت فيه على علم فلسطيني ومقالات صحفية تخصها واشرطة مسجل عليها اغان للاطفال · ونسبت الصحيفة الى ريموندا الطويل ادعاءها بان التحقيق معها يجري تحت التهديد بالضرب واطلاق الكلام البذيء « يجب عليك ان تكوني برفقة الزانيات » ·

كما وجرت تظاهرات في السادس من نيسان في نابلس ومخيم بلاطه احتجاجا

على صدور حكم الاعدام في قبرص ضد المتهمين بمقتل يوسف السباعي ، وقام المتظاهرون في مدرستي الصالحية والعايشية في نابلس برجم قوات الامن بالحجارة ·

وفي اليوم نفسه جرت في رام الله مسيرة جنائزية حدادا على روح خليل طحان من القدس الذي سقط شهيدا بعد ان اطلق النار عليه جندي اسرائيلي في المدينة ، وتصدرت المسيرة الجنائزية طالبات المدرسة الثانوية ·

ومن الجدير بالذكر ان مقتل الشاب خليل طحان البالغ من العمر عشرين عاما، جاء كرد فعل انتقامي ، على مصرع جندي اسرائيلي عند متحف روكفلر في القدس على يد رجال المقاومة الفلسطينية ، فبعد مضي يوم على هذا الحادث ، اقدم جندي اسرائيلي كان يقوم باعمال الحراسة في نفس المكان ، على اطلاق النار ، كما تذكر المصادر الاسرائيلية باتجاه مجموعة من العمال العرب ، كانت متجهة الى اماكن عملها ، الا ان الرصاص لم يصب افراد المجموعة ، واستقر في صدر خليل طحان الذي سقط شهيداً ·

قبل الانتقال الى التفاعلات التي احدثتها الحرب في نفسية سكان المناطق المحتلة ، تجدر الاشارة الى ان سلطات الاحتلال لجأت الى جانب اساليب القمع الوحشية ضد المتظاهرين ، الى اسلوب المحاكمات السريعة للمعتقلين ، حيث درجت على تقديم اعداد كبيرة من المعتقلين في الاماكن المختلفة امام محاكم عسكرية · وكمثال على ذلك نذكر هنا ، محاكمة ٤١ شابا في خان يونس خلال ساعات معدودة بتهمة القيام « باعمال شغب » وصدور الحكم على كل واحد بالسجن لفترات تمتد حتى ستة شهور مع وقف التنفيذ ودفع غرامات مالية تصل الى عشرة الاف ليرة ·

التبعات السياسية

الى جانب تفجير الانتفاضة في المناطق

المحتلة ، خلفت الحرب الاخيرة تبعات سياسية هناك يمكن اجمالها بالتالي :

١ - ازدياد نفوذ مكانة م·ت·ف في المناطق المحتلة ·

٢ - ترسخ الاعتقاد بان سياسة المفاوضات مع العدو الاسرائيلي التي تنتهجها بعض الانظمة العربية علانية او سرا ، لن يتأتى عنها ، ضمن معادلة القوى الراهنة · سوى ضرب م·ت·ف . والتوصل الى حل على حساب الشعب الفلسطيني ·

٣ - تنامي الاحساس في المناطق المحتلة بخيبة الامل تجاه الدول العربية كافة ·

وسنقف هنا على رأي ثلاثة من المعلقين الاسرائيليين حول انعكاسات الحرب على سكان المناطق . وعلى ردود فعل بعض رؤساء البلديات ، وعلى البيان الصادر عن البلديات والهيئات الشعبية والمؤسسات العامة ·

تطرق الكاتب الاسرائيلي يوسف تسورائيل (معاريف ٢٤-٣-٧٨) الى انعكاس الحرب على المناطق المحتلة ، وقال ان لهذا الانعكاس شقين ، الاول اخذ شكل التظاهرات والاضرابات ، كتعبير ضد الاحتلال الاسرائيلي والتماثل مع م·ت·ف . والثاني اخذ شكل « خيبة الامل » تجاه الانظمة العربية · والاحساس بان « العالم يقف ضدنا » · وقال « الانطباع تجاه الخارج هو ان الدول العربية ··· خذلت عرب المناطق المحتفظ بها » ·

الا ان الكاتب يشير الى جانب ذلك الى وجود عدد من الفلسطينيين لم « يوهموا » انفسهم بمساعدة الدول العربية لقوات الثورة الفلسطينية ، وينقل عن احد كتاب صحيفة الفجر قوله : « لقد ثبت لي ثانية ، وهذه المرة بشكل اكثر ، اننا نقف وحيدين في صراعنا مع اسرائيل · وليس هنالك ثمة من يساهم معنا بالفعل في هذا الصراع ·· » ويستشهد بقول كاتب اخر « لا يوجد من نعتمد عليه » ·

اما الكاتب الاسرائيلي يوسف فولتر (معاريف ١٩-٣-٧٨) فقد وقف عند مشاعر سكان المناطق المحتلة تجاه عملية الباص والحرب في جنوب لبنان ، وذكر ان الفرحة امتلكت مشاعر السكان في الضفة الغربية عقب العملية . وتحولت بعد ذلك ، اي خلال حرب الجنوب الى سخط موجه ضد اسرائيل والدول العربية: «لقد ثبت لهم مرة اخرى ان تأييد الدول العربية للفلسطينيين محدود ، وان الوحدة العربية نكتة ··· لا احد يقدم مساعدة عسكرية للفدائيين ··· وباستثناء التنديد لا تقوم الدول العربية بأي عمل حقيقي لصد هجوم الجيش الاسرائيلي · انهم غاضبون على اسرائيل . ويشتمون الدول العربية وعلى رأسها مصر . لمواقفها السلبية » ·

ونقل الكاتب رأي مجموعة من الشباب في نابلس التقى بهم اثناء التظاهرات في المدينة « انهم يخدعوننا ، ويجعلون من الفلسطينيين لحما للمدافع · الدول العربية تستغلنا لاغراضها ، فهي تشجعنا للخروج للحرب ، وعندما يشن علينا هجوم ، لا نجد من يهب للمساعدة ، وليس هنالك شك ان الرئيس المصري يدرك الان كم كان على خطأ في خطواته · ان اسرائيل دولة محتلة ، وتخطىء اذا ما تصورت انه يمكن لها في عمليتها محو الفلسطينيين ، فمن المستحيل ابادتهم · ان الحل لا يكمن في احتلال اخر ، وسيقف العالم في نهاية الامر ضدكم » ·

ويرى الصحفي الاسرائيلي يهودا ليطاني (هآرتس ٢٩-٣-٧٨) ان العملية الفدائية وكذلك الحرب في جنوب لبنان ادتا الى ارتفاع هيبة ومكانة م·ت·ف ودفعتا بالكثيرين ممن يوصفون بـ « المعتدلين » الى الوقوف مع الخط الذي يتزعمه انصار المنظمة · واستشهد باقوال عدد من هؤلاء ومن بينهم شخص لم يكشف عن هويته « هذه ليست حربا ضد الفلسطينيين في جنوبي لبنان فقط ··· انها حرب ضدنا جميعا ··· صدقني لا يوجد لدينا ما نفقده · لقد فقدنا وطننا وهويتنا وكل غال ، والان علينا ان نقاتل ، وان ننشد المساعدة من كل من يرغب في تقديم السلاح والمال لنا ، وليذهب العالم الى الجحيم ··· انك تذكر انني كنت آمل دائما بان تظهروا اعتدالا ، وتتم التسوية · لقد كنت اعتقد انه لا يوجد بينكم اناس يتحلون بالمنطق ··· » ويخلص الكاتب الى ان « الاحساس بان العالم كله ضدنا، ليس خاصا فقط بالاسرائيليين ، فهذا الاحساس يسود الان العديد من الفلسطينيين » مرجعا السبب الى تعدد الضربات العربية الموجهة الى الفلسطينيين ·

وفيما يتعلق بردود الفعل لدى معظم رؤساء بلديات الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد تحكمت بها مشاعر السخط تجاه الهجمة الاسرائيلية الشرسة التي تستهدف الوجود الفلسطيني والحركة الوطنية اللبنانية ، ومشاعر الخذلان تجاه الدول العربية ، بدون استثناء ، التي لم تقدم اي دعم فعلي للقوات المشتركة باستثناء الدعم « الكلامي » · ففي مقابلة اذاعية (رأأ ٢٢-٣-٧٨) اشار رئيس بلدية طولكرم حلمي حنون الى موجة التظاهرات التي تعم المناطق المحتلة وقال انها « لا تستهدف فقط التعبير عن الاحتجاج على عملية الجيش الاسرائيلي في لبنان ، بل اللامبالاة التي اظهرتها الدول العربية تجاه الموضوع ··· الجميع يتحدثون ، ولا من يقدم المساعدة » ·

اما رئيس بلدية حلحول محمود ملحم ، فقد انتقد جميع الدول العربية ، مركزا على ان « الجميع وقفوا متفرجين »·

وكذلك رئيس بلدية خان يونس ، فقد ندد هو الاخر بالمواقف المختلفة للدول العربية ·

ومن الجدير بالذكر ان الهيئات الشعبية والعناصر المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية نشطت خلال فترة الانتفاضة بتوزيع منشورات في مدن الضفة الغربية ، تستنكر العدوان الاسرائيلي على جنوب لبنان ، وتدعو الجماهير في الاراضي المحتلة للتصدي للحرب التي تستهدف « تصفية الشعب الفلسطيني » ومن بينها منشور وزعه الاتحاد العام لنقابات العمال، تضمن نداء الى الامين العام لجامعة الدول العربية محمود رياض يناشده « التدخل»·

وفي الثامن عشر من اذار ، اثناء احتدام القتال بين القوات المشتركة ، والعدو الاسرائيلي في جنوب لبنان ، اصدرت البلديات والهيئات والمؤسسات والنقابات في الضفة الغربية بيانا « **يستنكر بشدة** » العدوان الاسرائيلي و « **يستغرب ويستنكر** » موقف الدول العربية عامة · وقال البيان :

« ان جماهير شعبنا العربي الفلسطيني في المناطق العربية المحتلة من مؤسسات وهيئات وافراد اذ تستنكر بشدة العدوان الاسرائيلي الغاشم على جنوبي لبنان وضرب المدنيين في المخيمات والقرى والمدن ، لتؤكد التحامها الوثيق بممثلتنا الشرعية الوحيدة منظمة التحرير الفلسطينية ·

« ان الجماهير الصامدة في الارض العربية المحتلة التي تفخر بصمود ابطالنا امام الهجوم الصهيوني البربري ، تستغرب

وتستنكر موقف الدول العربية عامة ، وتدعوها للكف عن المهاترات الكلامية ، واصدار البيانات المنمقة ، وان تبدأ فوراء باتخاذ الخطوات العملية والفعالة من اجل دعم م·ت·ف ، وصمود ابطالنا المقاتلين ، كما وتستنكر هذه الجماهير مواقف دول العالم الصامتة تجاه العدوان الصهيوني الجديد ، وتطالب الدول المؤيدة للحق الفلسطيني بان تترجم تأييدها الى اعمال فورية ·

« ان شعبنا العربي الفلسطيني الواقع فريسة الاحتلال البغيض لن يتوانى مطلقا عن التصدي والصمود في وجه ممارسات الاحتلال التي لن ترهب هذا الشعب ، ولن تجعله يحيد ولو لحظة واحدة عن تقديم العون والمساعدة والتضحية في سبيل اثبات وجوده ، ومنحه حق تقرير المصير وانشاء دولته على ارضه » ·

التمرد في معتقل بئر السبع

شهدت المعتقلات الاسرائيلية خلال الاعوام الماضية ، نتيجة للاوضاع السيئة والظروف الصعبة اللاانسانية التي يعيشها المعتقلون الفلسطينيون ، سلسلة من اعمال التمرد قادها المعتقلون في سجن عسقلان وامتدت الى المعتقلات الاخرى ·

وفي العاشر من اذار الماضي ـ قبل العملية الفدائية بيوم واحد ـ حدث تمرد في معتقل بئر السبع ، حين اصطدم ١٧ معتقلا اثناء زيارة ذويهم لهم ، مع قوات امن السجن · وخلال الاصطدام ردد المعتقلون مع اهاليهم هتاف « عاشت فلسطين » ، وتجاوب معهم في الهتاف ، وبشكل ايقاعي ، قرابة ٦٠٠ معتقل فلسطيني من داخل غرفهم · وقد استدعت سلطات السجن تعزيزات من قوات الشرطة ، وزجت بالمعتقلين ال ١٧ في زنازين منفردة وطردت اهاليهم ·

وفي اليوم التالي ، اجرت سلطات المعتقل تفتيشا في غرف المعتقلين ، اشفعته بتفتيش اخر دقيق عند منتصف الخامس عشر من اذار ، حيث حدث صدام اخر بين قوات من حرس الحدود مكلفة بـ « مهمة خاصة » وبين المعتقلين الذين اضطروا ازاء اعتداءات قوات حرس الحدود الى استخدام البطانيات المشتعلة ، وصناديق الخشب وكل ما تقع عليه ايديهم ·

واسفرت اعمال التفتيش عن العثور في غرف المعتقلين على كميات من السكاكين ومطارق الحديد ومدافع رشاشة مصنوعة من الخشب ، ورتب رائد في الجيش الاسرائيلي وراديو ترانسستور صغير ، كما تقول المصادر الاسرائيلية التي اوحت بان الفدائيين يعدون لعملية هروب · ومن الجدير بالذكر ان جهاز الراديو الصغير ، اثار لدى الدوائر الاسرائيلية التكهن بان الفدائيين المعتقلين تلقوا من خلال الجهاز اشارة بالتمرد من اذاعة الثورة الفلسطينية ، وذلك بهدف « صرف انظار اجهزة الامن عما يجري على شاطىء البحر عشية الانزال المرتقب لمجموعة الفدائيين » ·

وقد اتخذت سلطات مصلحة السجن بحق المعتقلين سلسلة من الاجراءات التعسفية ، تزيد في سوء وضعهم ، تتمثل في التالي :

١ ـ حرمان المعتقلين من التزود بالحاجيات البسيطة من الدكان ·

٢ ـ الغاء زيارات ذويهم حتى اشعار اخر ·

٣ ـ مصادرة علب الكبريت والقداحات وعلب السجائر من المعتقلين ·

٤ ـ مصادرة « كميات كبيرة من الادبيات الشيوعية الصادرة باللغة العربية » تعالج ثورتي الصين وكوبا

والكفاح المسلح كوسيلة للحصول على هدف سياسي ٠

٥ ـ نقل ٨٨ فدائيا من معتقل بئر السبع وتوزيعهم على المعتقلات الاسرائيلية الاخرى ٠

ظهرت عقب التمرد في معتقل بئر السبع عدة مقالات في الصحف الاسرائيلية تعالج اوضاع المعتقلين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم على ثلاثة الاف معتقل ، وابرز البعض منها تعاطف المعتقلين مع العملية الفدائية شمالي تل ابيب ، حيث استقبلوها بـ « التصفيق الحاد » ، كما واشار البعض الى قصيدة كتبها احد المعتقلين تمتدح العملية ٠ بيد ان الملاحظ في تلك المقالات تركيزها على المستوى الجيد في مجالات التنظيم الداخلي مع الحرص على الوحدة الوطنية للتنظيمات ، والنظافة ، والثقافة ٠

بالنسبة لدقة التنظيم الداخلي يقول يجآل ليف (ملحق معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٨) « من خلال نظرة سطحية يبدو هؤلاء اناسا ، جمعتهم الصدف ، بعد القاء القبض عليهم عقب اعمال نسف وقتل ، الا أن ذلك بمثابة رؤيا خارجية فقط ، يستتر خلفها جهاز منظم بشكل جيد ، فهنا توجد قيادة ابتداء من اللجنة العليا وانتهاء باخر جندي ٠ هنا يوجد انضباط » ٠

كما ان الصحفي ميشولام عام (دافار ٢٤ـ٣ـ٧٨) ابدى هو الاخر دهشته تجاه دقة التنظيم والوحدة الوطنية ٠ فقد نقل عن المسؤولين في مصلحة السجن القول « هؤلاء السجناء منظمون داخليا ، لديهم لجنة عليا تتمثل فيها جميع التنظيمات ، ويتبع هذه اللجنة ، لجنة عمل تضم مندوبا عن كل تنظيم ٠ وتتخذ القرارات بالاجماع فقط ٠ وعلى الرغم من الخصومة بين منظمات التخريب المختلفة في الخارج ، فانهم يحرصون على العيش بسلام داخل المعتقل ، يوحدهم في ذلك مواجهة ادارة المعتقل ، كما ويوجد لهؤلاء المعتقلين لجان مختلفة ، مثل لجنة العمل والثقافة ، والنضال ، والاستخبارات ، والتحقيق ، وتنفيذ الاحكام » ٠

وفيما يتعلق بالنظافة ، قال الصحفي يجآل ليف على الرغم من حالة الاكتظاظ داخل السجون « بعض الاحيان ٨٠٠ فدائي في قاعة واحدة ، وفي المعدل ٣٠ـ٤٠ في الغرفة الواحدة ، فانك تجد هنا نظافة ونظاما » ٠

الا ان المستوى الثقافي الجيد الذي يتمتع به المعتقلون الفلسطينيون أثار بشكل ملفت للنظر ، انتباه و « دهشة » المسؤولين والمعلقين الاسرائيليين ، واعتبره البعض منهم اخطر « مادة متفجرة » !

تطرق رئيس مصلحة السجون حاييم ليف الى هذا الموضوع (انظر ملحق معاريف ٢٤ـ٣ـ٧٨) وقال « على الرغم من الاحتفاظ بهم بمجموعات كبيرة ، فانهم ينجحون في الحفاظ على نظامهم الداخلي والتقاليد الصحية ، وعلى شبكة ثقافية لم نصل حتى الان الى عمقها ٠ واذا ما امطنا اللثام عنها ، فمن المؤكد انها ستثير الدهشة » ٠

ويكشف رئيس مصلحة السجون عن اسباب الدهشة بالقول « يخضع المخربون في السجن لنظام تدريسي خاص بهم ، نظام قاس ٠ فهم يعرفون كل ما يتعلق بتطور التنظيمات الثورية في العالم ٠ يعرفون شفهيا كتابات بن غوريون ، وباستطاعتهم تقديم اقتباسات طويلة منها ، كما ويعرفون شفهيا طريقة حياة رئيس الحكومة مناحيم بيجن ابان زعامته للتنظيم السري ، ويرددون نظريات قادة الثورات ٠ ان الطريقة التي يعملون بها تدل على تنظيم واسلوب ، كأن يقوم احد افراد الغرفة بقراءة كتاب حول

موضوع وطني او متعلق بحرب العصابات، بهدف تقديم مراجعة مكتوبة له ... وقد عثرنا اثناء اعمال التفتيش التي جرت عقب محاولة التمرد في بئر السبع على كراس يحتوي على تحليل لمقال العميد احتياط مئير عميت الذي عالج فيه حرب فيتنام وتبعاتها » .

ويؤكد المفوض العام « انك لن تعثر بين صفوف ال ٣٠٠٠ فدائي في المعتقلات الاسرائيلية على شخص واحد يتعاطى المخدرات ، واذا ما وجد ذلك الشخص ، فانه سيمثل امام محكمتهم » .

يتطرق بعد ذلك الى « خطورة » ما يسميه بـ « المواد المتفجرة الثقافية الكامنة بين صفوف المخربين » ويقول ان حوالي ١٠ـ١٥٪ من المعتقلين الفلسطينيين ،يتقدم سنويا الى امتحانات التوجيهي ، وتصل نسبة النجاح بين ٩٠ـ٩٥٪ ، بينما يتقدم اقل من ١٠٪ من السجناء اليهود الى امتحانات بجروت !

ويصل الصحفي يجآل ليف الى الاستنتاج القائل بان الخطر لا يكمن في السكاكين التي عثرت عليها قوات الامن في سجن بئر السبع، وانما «المادة الخطرة هي الاوراق . هذه الاوراق لا تعلم الفدائيين طريقة اعداد المواد التخريبية ، بل توجههم ايديولوجيا ! »

عبد الحفيظ محارب

اسرائيليات

الخلاف الاميركي ـ الاسرائيلي حول استمرار عملية « التسوية » في الشرق الاوسط

زار مؤخرا رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن واشنطن ، وذلك للمرة الثالثة منذ تسلمه رئاسة الحكومة في حزيران الماضي . وتعتبر هذه الزيارة من اصعب الزيارات التي قام بها بيغن الى واشنطن ، اذ اعلن بعد عودته : « انني قضيت ثلاثة ايام تعتبر من اصعب الايام التي مرت علي حتى الان » . ومن الملاحظ في هذه الزيارة (التي رافق بيغن فيها وزير الخارجية موشي دايان ، وكان قد سبقهما الى هناك وزير الدفاع عيزر فايتسمن) ، ان الولايات المتحدة حاولت للمرة الاولى وضع النقاط على الحروف بشأن بعض المسائل التي تتعلق بحل أزمة الشرق الاوسط ، خلافا للمحادثات السابقة ، التي تجنب فيها الطرفان الخوض في ذلك خوفا من الاختلاف والاحتكاك .

ويبدو واضحا من خلال التصريحات التي ادلى بها المسؤولون الاسرائيليون ، خلال الزيارة وبعدها ، ان هناك اختلافا ملحوظا في وجهتي النظر الاميركية والاسرائيلية حول حل أزمة الشرق الاوسط . وقد وصل الامر الى حد القول بان هناك مجابهة بين الطرفين . وعلى سبيل المثال ، فقد علق وزير الدفاع على ذلك بقوله : « نحن نمر في ذروة مجابهة مع الولايات المتحدة ، لم نعرف مثيلا لها ابدا . انها مجابهة عنيفة وصعبة ، يرتبط مصيرنا بها . يجب على الفور تشكيل حكومة سلام وطنية ،

بالاشتراك مع العراخ ، وتجنيد كافة الادمغة من اجل الصمود في المجابهة مع الولايات المتحدة كشعب متكتل» (معاريف، ٢٤-٣-٧٨) ٠

وقد وصل الامر ببيغن الى حد مناشدة اليهود في الولايات المتحدة للانضمام الى جانبه في مجابهة الادارة الاميركية ٠ فقد تحدث امام ٥٠٠ مندوب عن المنظمات اليهودية في نيويورك قائلا : « انتم الجالية اليهودية في الولايات المتحدة ، تشكلون خط الدفاع الثاني لدولة اسرائيل ٠ نحن محتاجون لمساعدتكم في هذه الساعة ، وانني اؤمن بكل قلبي ، اننا اذا وقفنا سوية فسننتصر في المعركة » المصدر نفسه) وناشد بيغن يهود اميركا علنا، بعد ان اوضح لهم خطورة الوضع ، العمل على ايضاح مشروعه للسلام وتجنيد الرأي العام الاميركي لتأييده ٠ وقال ايضا : « ان الايام الاخيرة كانت اصعب ايام حياته » ٠ اما وزير الخارجية موشي دايان فقد اراد التخفيف من حدة الانطباع السائد حول الخلاف مع الادارة الاميركية، فاشار لدى عودته الى اسرائيل من نيويورك ، الى « ان الازمة في العلاقات الاسرائيلية – الاميركية ليست اعنف ما عرفناه حتى الان » ٠ وحسب اقواله ، فان الازمة التي حدثت خلال حكم بن غوريون والانسحاب من سيناء سنة ١٩٥٦ ، كانت اصعب بكثير ٠ وختم دايان محاولاته لتخفيف حدة الخلاف بالقول : « لم أسمع خلال المحادثات الحالية في واشنطن اي تلميح ، ولم اشعر باي ظل للضغط علينا ، بالمقارنة مع عام ١٩٥٦ ، عندما كان الضغط مصحوبا بالتهديدات » (دافار ، ٢٤-٣-٧٨) ٠

ومما يؤكد وجود الخلاف الاميركي – الاسرائيلي هو عدم اذاعة اي بيان مشترك في اعقاب انتهاء المحادثات ، كما هو متبع في مثل هذه الحالات ٠فقد رفضت اسرائيل التوقيع على البيان المشترك واقترحت نشره باسم الادارة الاميركية ، شرط ان تضاف اليه بعض الفقرات حول موقف اسرائيل في المحادثات ٠ وقد تقرر في اعقاب ذلك عدم نشر اي بيان ٠

واوردت صحيفة معاريف (٢٤-٣-٧٨) النقاط الرئيسية في البيان غير المنشور، كالتالي :

– تعود الولايات المتحدة وتؤكد التزامها بأمن اسرائيل والتمسك به ٠

– المطالبة بالسلام الكامل ، الذي يشمل جعل العلاقات بين اسرائيل وجاراتها طبيعية ٠

– تاكيد الموقف الاميركي مجددا ، بان قرار مجلس الامن ٢٤٢ هو اساس للمفاوضات ، وان مبادىء ذلك القرار تسري على كافة الجبهات ٠

– العودة الى وجهة النظر الاميركية في انه لا يمكن تحقيق السلام بدون حل المشكلة الفلسطينية ٠

– الاقتراح بان افضل الطرق لحل هذه المشكلة هو « صيغة اسوان التي يجب بموجبها الاعتراف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين » (وذلك بواسطة السماح للفلسطينيين بالاشتراك في تقرير مصيرهم) ٠

واما نقاط الاتفاق بين الرئيس كارتر وبيغن فتتمثل في الدعوة الى استمرار عملية السلام ، والتعبير عن الاستعداد لمواصلة العمل من اجل بلورة اعلان المبادىء فيما يتعلق بالنزاع في الشرق الاوسط ٠ ويشير الزعيمان انهما بحثا –

ولكنهما لم يتوصلا الى اي اتفاق – ولم يستكملا المحادثات حول موضوع التسويات الجزئية في المستقبل بالنسبة لقطاع غزة والضفة الغربية ·

نقاط الخلاف والاتفاق

يفهم من التصريحات والتعليقات الاسرائيلية ان الخلاف بين كارتر وبيغن قد تركز حول نقطتين رئيسيتين ، هما قرار مجلس الامن ٢٤٢ والمستوطنات اليهودية في المناطق المحتلة · فبالنسبة للقرار ٢٤٢ تؤكد بعض المصادر الاسرائيلية ان الرئيس كارتر طالب اسرائيل بان تعلن على الملأ ان ذلك القرار يسري على كافة الجبهات ، اي على الضفة الغربية ايضا· واكد كارتر ان انعدام الحديث الواضح في هذا الشأن انما هو بمثابة وضع عقبة في طريق السلام · اما بيغن فقد وافق على اعتبار القرار ٢٤٢ اساسا للمفاوضات مع الدول العربية ،ولكنه اشار الى ان القرار لم يذكر موضوع الجبهات المختلفة وانه لا يوجد فيه نص للانسحاب من كافة المناطق (آريه تسيموكي – يديعوت احرونوت ، ٣١–٣–٧٨) · واما بالنسبة للمستوطنات في المناطق المحتلة ، واينما كانت ، فقد طرأ تبدل في الموقف الاميركي منها ، الذي كان ينظر اليها على انها « غير قانونية وتشكل عقبة امام السلام » ، فأصبح الان يعتبرها « تضر » بالمفاوضات (معاريف ، ٢٤–٣–٧٨) ·

وتظهر الخلافات بين وجهة نظر الرئيس الاميركي كارتر وبيغن بصورة واضحة فيما يتعلق بمشروع بيغن للحكم الذاتي · فبعد ان زار بيغن واشنطن في شهر كانون الاول (ديسمبر) الماضي وعرض مشروعه على كارتر ، ابدى الرئيس بعض الارتياح لهذا المشروع ورأى فيه اساسا صالحا للمفاوضات ، دون ان يبدي موافقته القاطعة عليه · وفسر بيغن ذلك الموقف بانه تأييد علني وايجابي لمشروعه ، مما جعله يردد على مسمع من الاميركيين والاسرائيليين البشرى بأن المشروع قد حظي بموافقة الرئيس · انما اتضح خلال المحادثات الاخيرة أن هناكخلافا واضحا بين وجهتي النظر الاميركية والاسرائيلية فيما يتعلق بذلك · وهنا لا بد من اجراء مقارنة بين مفهوم كل من بيغن وكارتر لمشروع الحكم الذاتي بالنسبة للضفة الغربية :

– ينص مشروع بيغن على انه بالامكان اعادة النظر في اسسه بعد مرور خمس سنوات · واما مشروع كارتر فانه لا يقبل باعادة النظر من جديد وانما يدعو الى اجراء استفتاء عام (ومصر هي التي اقترحت ذلك) ·

– يتحدث مشروع بيغن عن ان الامن والنظام العام سيكونان بأيدي السلطات الاسرائيلية · وكان بيغن قد اعلن في مشروعه امام الكنيست ، انه يجب ان يكون واضحا لكل من يريد الاتفاق معنا ان الجيش الاسرائيلي سيبقى في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالرغم من اجراء اية ترتيبات امنية اخرى ·

اما مشروع كارتر فانه يدعو الى تحديد عدد القواعد العسكرية خلال فترة السنوات الخمس المشار اليها ، وهو يتحدث عن معسكرات Cantonment ومعناها العملي التواجد في معسكرات للجيش خارج المدن ·

– يتحدث مشروع بيغن عن حق سكان اسرائيل في شراء الاراضي والاستيطان في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة ،

الامر الذي يعني ، ان باستطاعه اليهود اقامة المستوطنات في تلك المناطق · اما مشروع كارتر فيدعو الى تقليص عدد المستوطنات اليهودية الى الحد الادنى ، وانه لا ينبغي اقامتها الا في حال وجود مبرر أمني ، سواء على امتداد نهر الاردن او على التلال التي لها قيمة استراتيجية ·

ومن النقاط التي برز الخلاف حولها ، في تلك المحادثات أيضا ، ضرورة اجراء المحادثات مع الاردن ، على اعتبار ان اسرائيل ستضطر الى القيام بذلك · ولكن ما اعتبره الاسرائيليون مفاجئا في الموقف الاميركي ، هو اقتراح كارتر بدء المفاوضات بين الاردن واسرائيل خلال فترة السنوات الخمس ، وليس بعد انقضائها (يوسف حاريف ــ معاريف ، ٢٤ــ٣ــ٧٨) ·

ومن جهة ثانية ، يبدو انه قد اثير جدل عنيف ومطول حول الاقتراح الذي تقدم به الرئيس كارتر ، وهو اجراء استفتاء عام في الضفة الغربية وقطاع غزة حول مستقبلهما ، وذلك في اعقاب انتهاء الفترة المشار اليها · وقد سعى كارتر الى تليين موقفه عندما اوضح بان المقصود هو عرض ثلاثة أسئلة فقط على سكان تلك المناطق عند الاستفتاء : (١) الابقاء على الوضع الحالي ، (٢) المحافظة على الارتباط بالاردن او ، (٣) المحافظة على الارتباط باسرائيل · وقد اكد كارتر انه لن تكون هنالك امكانية رابعة ، اي اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، واوضح ايضا ان الضفة الغربية ستبقى منزوعة السلاح ليس فقط لمدة خمس سنوات (المصدر نفسه) · ولكن السلطات الاسرائيلية تعتبر مشروع الاستفتاء العام « خدعة » تنطوي على سعي واشنطن لتأمين الانسحاب الاسرائيلي ، ثم تحويل الضفة والقطاع الى « وطن » فلسطيني يكون مرتبطا بالاردن · وقد سعى كارتر الى جعل هذه الجرعة حلوة بالنسبة لاسرائيل ، فقد أكد لبيغن انه سيسمح لاسرائيل ، بعد الانسحاب ، بالاحتفاظ بعدد من القواعد العسكرية في الضفة الغربية (المصدر نفسه) ·

ولكن ، على الرغم من كافة الضمانات الاميركية بعدم السماح باقامة دولة فلسطينية ، ثم السماح لاسرائيل بالاحتفاظ بقواعد عسكرية في الضفة الغربية ، حتى بعد انقضاء فترة السنوات الخمس ، أوضح بيغن بصورة قاطعة « انه لن يكون هناك اي حل وسط في هذا الشأن من قبل اسرائيل » · وقد رفض بيغن نهائيا فكرة الاستفتاء العام لان منظمة التحرير الفلسطينية ، حسب رأيه ، هي التي ستحدد نتائجه ، و « ان الاستفتاء سيؤدي بالضرورة الى اقامة دولة فلسطينية تابعة لـ م·ت·ف » · واشار بيغن على مسمع من كارتر الى وجود تناقض بين معارضته للدولة الفلسطينية وبين اقتراحه اجراء استفتاء عام ، سيؤدي بالضرورة الى اقامة مثل هذه الدولة · ودعا بيغن الى « عدم الاختباء وراء صيغ شرعية » · وهكذا يكون موضوع الاستفتاء العام قد بقي على رأس قائمة الخلافات الاميركية ــ الاسرائيلية بعد محادثات واشنطن (يديعوت احرونوت ، ٣١ــ٣ــ٧٨) ·

ومن ناحية اخرى ، عبر الرئيس كارتر بصورة قاطعة عن معارضته لاقامة مستوطنات وقرى جديدة في الضفة الغربية · واما بالنسبة لسيناء فان الولايات المتحدة متفقة مع مصر ، على ان

ما يلزم اسرائيل هو « ترتيبات امنيـــة » وليس المستوطنات • وهناك اعتقاد بــان كارتر قد حصل من السادات على موافقته على ابقاء المطارات في سيناء تحـــــت السيطرة الاسرائيلية ، وكذلك جعل عمق المناطق المنزوعة السلاح في سيناء كبيرا • ولهذا فان الادارة الاميركية تعتقـــد ان اسرائيل يجب الا ترى في هذه المستوطنات في سيناء الضمانة الامنية الوحيدة • ولكن يبدو ان الخلاف حول هذه المسألة بقـــي على اشده ، لان الرأي السائد لدى كـل من بيغن ودايان وشارون وحتى مثيـــر يعري ويعقوب حزان ، رجلا مبام ، هـو ان هذه المستوطنات تعتبر امرا حيويـــا

لاسرائيل من الناحية الامنية (يوســـف حاريف ـ معاريـف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) •

لاءات بيغن

اشارت بعض المصادر الاسرائيلية الى ان الرئيس كارتر قد تحدث الى اعضـــاء الكونغرس عن لاءات بيغن ، التي سميت « سياسة اللاءات الست » • واشار كارتر، بعد محادثاته مع بيغن الى انه « اذا لـم تتخل اسرائيل عن هذه اللاءات ، فانـه لا توجد اية فرصة للسلام في الشـــرق الاوسط » •

وتتلخص هذه اللاءات الست فيما يلي :

(١) رفض قبول طلب الرئيس كارتر بعدم اقامة مستوطنات جديدة في الضفة الغربية وكذلك عدم تكثيف المستوطنـــات القائمة •

٢) « لا » اسرائيلية للمطالبة بالتنازل عن المستوطنات في سيناء •

٣) رفضت اسرائيل الاقتراح القائل انه اذا ما وافقت مصر علـــى ابقـــاء المستوطنات ، فانه سيتم حمايتها اما مــن قبل قوة مصرية او قوة دولية ، واصــرت على ان الدفاع عنها سيبقى بأيدي الجيش الاسرائيلي فقط •

٤) ترفض اسرائيل التعهد بالانسحاب من اي جزء كان من الضفة الغربيـــــة او قطاع غزة ، بأي ثمن في المستقبـــل دون الاخذ بالحسبان التسويات الامنيـــة التي يمكن ان تشملها اتفاقية للسلام •

٥) رفض بيغن اقتراح كارتر بـــان يسري القرار ٢٤٢ على كافة الجبهـات ، اي القبول بان القرار يلزم اسرائيـــل بالانسحاب من الضفة الغربية ايضا •

٦) رفضت اسرائيل قبول اي مشـروع اميركي للتسوية في الضفة الغربية وقطاع

غزة يرتكز على تسويات جزئية واستفتاء عام (يديعوت احرونوت ، ٢٧ـ٣ـ٧٨) •

ماذا تريد واشنطن ؟

بات واضحا ان اهم ما تسعـــى اليـه واشنطن، ضمن مفهومها للتسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط ،هو تأمين الانسحاب الاسرائيلي من المناطق المحتلة ، مــــع اجراء بعض التعديلات على الحــدود • ويتطلب ذلك الحصول علـــى موافقـــة اسرائيلية بان القرار ٢٤٢ يسري عـــلى كافة الجبهات ، ومن ثم السعي الى ايقاف عملية بناء المستوطنات في المناطق المحتلة• وتعتبر الادارة الاميركية كافة المستوطنات ـ وليس فقط تلك التي اقامتها حكومـة بيغن ـ سواء كانت في الضفة الغربيـــة او قطاع غزة او سيناء ، بمثابة عقبـــة امام السلام (يوسف حاريف ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) •

كما ان الاميركيين يرفضون رفضا قاطعا فكرة الدولة الفلسطينية المستقلة . وهم يرفضون امكانية ان تصبح م·ت·ف شريكا في المفاوضات او في السلطة في اي كيان فلسطيني · ولذلك فانهم يقبلون. مثلا ، بوجود عسكري اسرائيلي ليس فقط على امتداد نهر الاردن ، وانما في اماكن استراتيجية اخرى ايضا ، خلال فترة السنوات الخمس الانتقالية ، وربما بعدها ايضا · ويعتبر هذا تطورا مهما بالنسبة لاسرائيل · ومن جهة ثانية ، توافق واشنطن على اجراء تعديلات على الحدود بين اسرائيل وبين منطقة الحكم الذاتي للفلسطينيين · ولم يتحدث الاميركيون . هذه المرة ، بصيغة « تعديلات طفيفة » . ويبدو أن هذه الصيغة قد اختفت من قاموسهم منذ حوالي ستة اشهر على الاقل · فقد قال الرئيس كارتر لاعضاء الكونغرس ، « انه في منطقة ناتانيا ــ قلقيلية يجب أن تكون تعديلات الحدود هذه اكثر من طفيفة » (اريئيل غيناي ــ يديعوت احرونوت ، ٣١ــ٣ــ٧٨) ·

تطور الخلاف

تشير بعض الجهات الى ان الجو المتوتر الذي يسود العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية الان لم يبدأ في اعقاب زيارة بيغن لواشنطن في اذار ١٩٧٨ . بل انه يبدأ مع « مشروع بروكينغز » لسنة ١٩٧٥ · ففي حين سعى هنري كيسنجر في سياسة الخطوة خطوة الى تأجيل معالجة الموضوع الفلسطيني الى نهاية عملية السلام ، تسعى ادارة كارتر الى الزام اسرائيل ، قبل حلول السلام ، « بالخط الفلسطيني » الذي صاغه معهد بروكينغز · ونتيجة لذلك كانت المحادثات بين اسحاق رابين وكارتر في اذار من العام الماضي صعبة · وكل ما فعله بيغن خلال اول زيارتين قام بهما الى واشنطن تلخص في انه نجح في الحصول على « وقف اطلاق النار » فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ، وذلك عن طريق مبادرته التي قدمها في الصيف لعقد مؤتمر جنيف ، ومن ثم تقديم « مشروع السلام » في الشتاء (موشي زال ــ معاريف ، ٢٤ــ٣ــ٧٨) ·

وحيث ان كارتر « اكتسب تجربة » في المواجهة مع يهود الولايات المتحدة ، فانه لم يتسرع في مواجهة الحكومة الاسرائيلية ، وانما ترك وسائل الاعلام تتحدث عن اخطائها ، وخصوصا فيما يتعلق بانشاء المستوطنات ، التي اعتبرتها وسائل الاعلام بانها العقبة الرئيسية امام السلام · وكذلك الحال بالنسبة لقرار ٢٤٢ ومبادرة السادات · ومن هنا اصبح الرأي العام الاميركي واليهودي « مهيئا » لمجابهة بيغن ، حيث ساد الانطباع لدى الرأي العام الاميركي ان كارتر والسادات بادرا الى السلام مع اسرائيل ، وان الحكومة الاسرائيلية هي التي تعرقله ، لان مناحيم بيغن يرفض « صيغة اسوان » بالنسبة للقضية الفلسطينية (المصدر نفسه) ·

وكان من الواضح ان بيغن سيلاقي صعوبة كبيرة في محادثاته مع كارتر ، وقد ظهر ذلك حتى قبل ان يغادر بيغن الى واشنطن ، عندما لم يستجب كارتر لطلبه تأجيل اتخاذ قرار بشأن جنوبي لبنان الى حين وصوله ، ولكن كارتر رفض ذلك ، وأيد اصدار قرار من مجلس الامن بصدد لبنان دون موافقة اسرائيل عليه · ويرى البعض ان هدف كارتر من وراء ذلك كان افهام بيغن سلفا ، ان محادثاتهما لن تتعرض للبنان او للعلاقات

بين الدولتين ، بل ان المحادثات ستتركز حول المسألة الفلسطينية · (المصـــدر نفســه) · وللتخفيف من حدة المجابهـة مع بيغن وحمله على القبـــول بالمشروع الاميركي ، وافقت الحكومة الاميركيـــة على بيع بعض الطائرات والمعدات للقتال الليلي لاسرائيل · وكان تسليم هـــذه الاعتدة قد تأخر لفترة ما · وهكذا اصبحت اسرائيل في حالة الدفاع عن النفس امـام الاتهام بأن عنادها يعرقل السلام · وبذلك صعب ايضا على اصدقاء اسرائيـل فـي الكونغرس أفشال « صفقة الرزمـــة » ، اي تزويد مصر والسعودية ، بالاضافة الى اسرائيل ، بطائرات فـ ٥ ، ف ـ ١٥ · ويتوقع البعض انه بعد اقرار الكونغرس لهذه الصفقة ، ستتجه اميركا الى ممارسة الضغط على اسرائيل بواسطة مجلس الامن لحملها على القبول بالتفسير العربـــي للقرار ٢٤٢ وسريانه على الضفة الغربيـة ايضا · ولهذا ينصحون بالقيام بحملـــة قبل ان يقر الكونغرس « صفقة الرزمة » ، اي قبل ان تتم الموافقة على « الخـــط الاميركي ـ السعودي ـ المصري » فـــي الشرق الاوسط (المصدر نفسه) ·

ازمة في العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية

يعتقد البعض ان ازمة تسيطر الان على العلاقات الاميركية ـ الاسرائيليـــة ، وان الوضع بالنسبة لاسرائيل اصبح اســـوأ مما كان عليه عام ١٩٧٥ · اذ عندمـــا قررت الحكومة الاسرائيلية انذاك مجابهة ادارة الرئيس فورد ، كانت تحظى بتاييـد كبير من قبل الكونغرس الاميركي (العريضة التي وقع عليها ٧٦ عضوا في مجلـــس الشيوخ) وكذلك الرأي العام الاميركـــي والجالية اليهودية ومن ثم وسائل الاعلام الاميركية · واما الان ، فان اي واحد من هؤلاء لا يقف الى جانب اسرائيل من دون تحفظ » · والصورة السائدة لدى المواطن الاميركي العادي ، الذي مل مسألة الشرق الاوسط ، اخذت تبـــدو الان كالتالـــي « السادات ـ سلام ، بيغن ـ مستوطنات» · اما بالنسبة للجالية اليهودية فانهـــا منقسمة على نفسها ، وفي وضع دفـــاع عن النفس · ويرى البعض ان في نيـة الولايات المتحدة تقديم مشروع ســـلام متكامل من قبلها ، والى حين الاعلان عنه فانها « ستحاول احداث ازمة داخلية في اسرائيل تؤدي الى تغيير الحكومة ، آملـة ان تشكل حكومة اكثر مرونة من الحالية » (عيدو ديسنتشيك ـ معاريف ، ٢٤ـ٣ـ٧٨) · كما أن بعض اعضاء مجلـــس الشيوخ انضموا الى الحملة ضد اسرائيل بهدف تحميلها مسؤولية الجمود الحاصـل في الشرق الاوسط · فعلى سبيل المثـال ، قال السناتور تشارلي برسي « انه طرأ تحول ملحوظ في نظرة الـــرأي العـــام الاميركي والكونغرس تجاه سياســـة اسرائيل · فقد ابدت مصـــر المبادرة والعمل ، وقد مرت اسابيع ونحن ننتظـــر مبادرة وعملا مماثلا من قبل اسرائيـــل ، ولم نحظ بذلك بعد » (المصدر نفسه) ·

ويعتقد بعض الاسرائيليين انه كـــان للضغط المصري والسعودي ، الذي يتـم من وراء الكواليس ، نصيب كبير فـــي وصول الوضع الى ما هو عليـــه الان · حيث أن كارتر القى بكل ثقله للوصول الى تسوية المشكلة الاسرائيلية ـ العربية التي تبدو في نظره على رأس سلم الاولويات · ولذلك سعى الى عدم تمكين بيغن مـــن مغادرة واشنطن بدون صيغة متفق عليهـا لتجديد المحادثات الاسرائيلية ـ المصرية· وكذلك سعى الى الحصول منه على تنازل

عن المستوطنات في مشارف رفح وايقاف الاستيطان في سيناء ، وبالذات في الضفة الغربية · » وان واشنطن تعمل منذ الان على تقزيم بيغن ، ثم بصورة غير مباشرة تقليص مجال المناورة الاسرائيلية » · (يهوشواع تدمور — دافار ، ٢١-٣-٧٨) ·

المطالبة باستقالة الحكومة ، انتخابات جديدة ، وسياسة جديدة

ادى فشل زيارة بيغن لواشنطن الى حملة انتقادات عنيفة في اسرائيل ضد الحكومة الحالية ، وقد وصلت هذه الحملة الى حد مطالبة الحكومة بالاستقالة · فقد اصدر حزب مبام بيانا اشار فيه الى ان زيارة بيغن للولايات المتحدة قد انتهت بازمة خطيرة ، وانتهت كذلك المفاوضات السياسية الى الجمود ، وتقع المسؤولية الرئيسية في ذلك على عاتق رئيس الحكومة · واضاف البيان ان تفسير بيغن للقرار ٢٤٢ يتناقض مع مواقف كافة الحكومات الاسرائيلية منذ ١٩٦٧ ، وان تمسك بيغن بمشروع الحكم الذاتي الذي رفضته الولايات المتحدة قد تسبب في عزلة اسرائيل التامة في العالم · واضاف البيان : « لقد فشل رئيس الحكومة في طريقه السياسي باكمله ، وعليه ان يستخلص العبر · ان اسرائيل بحاجة لحكومة اخرى » (دافار ، ٢٤-٣-٧٨) ·

كذلك انتقد البعض وزير الخارجية موشي دايان ، لمحاولاته تخفيف حدة الخلاف، والاشارة الى ان الازمة الحالية لا تعادل ما حدث عام ١٩٥٦ · فقد اعلنت دافار ، الناطقة باسم المعارضة العمالية (في افتتاحيتها ليوم ٢٤-٣-١٩٧٨) ان دايان مخطىء باعلانه انه لا توجد الان ازمة صعبة في العلاقات مع الولايات المتحدة ، وان اي محاولة للتخفيف من حدتها بالاقوال فقط ، وللاغراض الداخلية انما هي بمثابة خداع · واشارت الصحيفة الى ان واشنطن قد بدأت عمليا بـ « اعادة تقييم » سياستها تجاه اسرائيل قبل زيارة بيغن لواشنطن ، وقد اتخذت خطوات لم تجرؤ الادارة الاميركية السابقة على اللجوء اليها في ذروة الازمة حول الاتفاق المرحلي مع مصر ، وفي أشهر « اعادة التقييم » عام ١٩٧٥ ، وذلك بتأخير عقد صفقات اسلحة جديدة مع اسرائيل · وقد اسرعت الادارة الاميركية ، هذه المرة ، واشترطت تنفيذ صفقات اسلحة كان قد تم الاتفاق عليها مع اسرائيل مسبقا ، مقابل صفقات اسلحة بعيدة المدى مع السعودية ومصر · ومثل « صفقة الرزمة » العسكرية هذه لم يحدث مطلقا في السابق · وهزأ البعض من قول بيغن ان الرأي العام والجهاز السياسي في اسرائيل يؤيدانه في خلافاته مع الولايات المتحدة ، موضحين بان هذا الادعاء بحاجة الى اثبات ، ليس فقط لان الظروف السياسية وسلم الافضليات السياسي قد تغيرت تماما منذ الانتخابات الاخيرة ، وانما لان ما تطلبه الولايات المتحدة من الحكومة الاسرائيلية الحالية الان هو بالذات التمسك بمواقف حكومات المعراخ منذ ١٩٦٧ · ونظرا لاعتراف بيغن بفشله في « بيع » مشروعه في واشنطن ، ونظرا لخطر فقدان الفرصة السانحة لتحقيق تسوية مع احدى الدول العربية على الاقل ، ثم تدهور العلاقات مع الولايات المتحدة ، يرى بعضهم انه يجب على اسرائيل ان تدخل فترة من النقد الذاتي · كما وجه اخرون تحديا الى بيغن بقولهم اذا كان رئيس الحكومة يعتقد ان اكثرية الاسرائيليين تعارض

مثله الحل الوسط الاقليمي في الضفة الغربية وتؤيد سياسة اقامة المستوطنات هناك ، فلماذا لا يعرض الامر . في استفتاء .على الناخب ليبدي رأيه · واعلن احدهم بان الوقت قد حان لظهور شخص ما يقود اسرائيل ويعيدها الى الواقع والى العالم · « ان هذه الحكومة لم تبن الجدار الحديدي – وانما تضرب رأسها به » (حانوخ بارطوف – معاريف ، ٢٤–٣–٧٨) ·

ومن ناحية اخرى وجه نقد لاذع للحكومة الاسرائيلية لتأييدها رئيس الحكومة ووزير الخارجية لدى عودتهما من واشنطن والتصويت الى جانبهما بالنسبة لموقفهما في المحادثات مع كارتر. مما ادى الى تخندقهما في موقفيهما المعروفين · ومثل هذا التأييد « يتناقض مع المصلحة القومية تناقضا مطلقا » · واوضح معلق صحيفة هآرتس المعروف . فولص ، ان ما ينبغي على اسرائيل عمله هو اتفاق مع الولايات المتحدة ، من خلال المحافظة على الضرورات الحيوية لامن اسرائيل · كما دعا الى التوقف عن الترويج لمشروع الحكم الذاتي الذي رفضته الولايات المتحدة ، وكذلك التوقف عن استخدام التفسير الجديد للقرار ٢٤٢ ، لان ذلك سبب لاسرائيل ضررا كبيرا لدى الرأي العام الاميركي والغربي على السواء · كذلك ينبغي « الحذر من التكتل الكاذب والوطنية الزائفة ، والعمل من اجل الخلاص من الطريق المسدود الذي دفعتنا اليه هذه السياسة » (هآرتس، ٢٨–٣–٧٨) ·

وفي استفتاء اجراه معهد « بوري » اجاب ٩ر٦٠٪ بأن سياسة الحكومة بشأن المستوطنات قد أضرت بمكانة اسرائيل في العالم ، بينما ذكر ٧ر٨٪ انها افادت · وحول السؤال « اذا كان امامك الخيار بين حقنا التاريخي في الاستيطان في كافة انحاء البلاد وبين السلام الان في حدود معترف بها وآمنة فايهما تختار » ، اجاب ٨ر٦٩٪ – السلام الان و ١٨٪ – بحقنا التاريخي · وحول المستوطنات ، اجاب ٨ر٥٩٪ بانهم لا يؤيدون اقامتها بينما ايدها ٦ر٢١٪ (دافار . ٢٤–٣–٧٨) ·

ولكن · في مقابل ذلك ، اتجه البعض الى تاييد موقف الحكومة الحالي فيما يتعلق بالنزاع مع الادارة الاميركية . خصوصا وان حكومة رابين كانت قد واجهت مثل هذا الوضع في اذار (مارس) ١٩٧٥ ، عندما رفضت مقترحات كيسنجر بالنسبة للتسوية الجزئية بين مصر واسرائيل · وقد ساد في حينه جو من الازمة في العلاقات بين واشنطن وتل ابيب · ولكن الراي العام الاسرائيلي والقوى السياسية المختلفة تكتلت وراء الحكومة ، التي توصلت انذاك الى استنتاج بانه يجب القول «لا» للسادات ولكيسنجر · وقد ارتفعت شعبية رابين لدى الجمهور بفضل ذلك ، ولم يطالب اي شخص باستقالته لانه وسط اسرائيل في صراع مع الولايات المتحدة · وانبرت صحيفة « معاريف » (٢٦–٣–٧٨) الواسعة الانتشار الى الدفاع عن بيغن باعلانها انه لن المؤسف القول ان رد الفعل الشعبي، بعد خلاف بيغن مع كارتر ، كان بعيدا عن التكتل العفوي الذي ظهر عام ١٩٧٥ ، وعن ذلك الاستعداد العام الذي وجد تعبيرا عنه في الاستعداد لدعم الحكومة في الصراع الذي تخوضه ، خصوصا « وان المجابهة الحالية وكذلك المجابهات التي سبقتها لم تكن بين رئيس حكومة معين وبين الادارة الاميركية ، وانما بين مفاهيم امنية رئيسية مشتركة بين جميع الاحزاب الكبيرة في اسرائيل ، وبين الهدف الاميركي في الحصول – قبل اية مفاوضات

ـ على موافقة اسرائيلية للانسحاب الى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ ولاقامة دولة فلسطينية » ٠ ثم « ان من يعتقد ان هذه هي الساعة الملائمة للعمل من اجل اسقاط حكومة بيغن ، لا يبدي مسؤولية سياسية او شعورا وطنيا ٠ ولذلك قد يجد نفسه في معسكر واحد مع من لا يكتفي بالتآمر ضد بيغن فقط ، وانما ايضا ضد الحاجيات الامنية ذات الحد الادنى لاسرائيل بأسرها (المصدر نفسه) ٠ودافع المعلق يوسف حاريف عن موقف الحكومة. في هذا الصدد ، بقوله : « ان مشروع الاستفتاء العام [في الضفة الغربية وقطاع غزة] هو اسوأ بكثير من مشروع روجرز ، وان اية حكومة كانت ستعارض مثل هذا المشروع » (المصدر نفسه ، ٢٤ـ ٣ـ٧٨) ٠

المطالبة بمشروع اسرائيلي للسلام

تسود المخاوف لدى بعض الاوساط الاسرائيلية من ان الاميركيين سيبلورون قريبا مشروعا للتسوية السلمية يكون قريبا جدا من موقف مصر ٠ وتخشى هذه الاوساط من ان يؤدي الاعلان عن مثل هذا المشروع الى « حشر اسرائيل في الزاوية » وتوجيه مزيد من الضغط السياسي عليها ٠ ولهذا توصلوا الى استنتاج مفاده انه يجب المبادرة الى استمرار المفاوضات مع الولايات المتحدة، وخاصة فيما يتعلق بموضوع اعلان المبادىء ٠ ويبدو ان هذا الاتجاه قد اعطى ثماره ، فقد اعلن عن ان دايان سيسافر قريبا الى واشنطن لاستكمال المحادثات مع الاميركيين (دافار ، ٢٩ـ ٣ـ٧٨) ٠ ويرى البعض ان المشروع الاميركي سينطلق من اعتبارات تحسين العلاقات مع سوريا وكذلك توثيقها مع مصر وضم الاردن الى دائرة المفاوضات مع اسرائيل ، وعلى اسرائيل ان تندمج في هذا المشروع وتساعد على تنفيذه وعدم عرقلته ٠ ويسعى الاميركيون الى توثيق صداقتهم الجديدة مع مصر بواسطة المساعدة العسكرية والاقتصادية وكذلك بواسطة « صفقة الرزمة » ، اي بيع الطائرات لاسرائيل ، شرط بيعها لكل من السعودية ومصر ايضا ٠ واما بالنسبة لسوريا فان واشنطن موافقة على سيطرتها على لبنان وذلك من اجل تأجيل المفاوضات الاسرائيلية ـ السورية وحل مسألة الجولان ٠ واما بالنسبة للاردن ، فواشنطن تسعى الى ادخاله الى دائرة المفاوضات ، ولهذا سيطلب من اسرائيل تقديم تنازل اخر ٠ ويرى الاميركيون ان على اسرائيل تقديم « مشروع سلام » جديد يحتوي على تنازلات اخرى بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة (حغاي ايشد ـ دافار ، ٢٦ ـ ٣ـ٧٨) ٠ واشار المعلق نفسه الى ان حكومة اسرائيل ان عاجلا او آجلا ستضطر الى صياغة « مشروع للسلام » فيه تنازل اخر للاردن في الموضوع الفلسطيني ، وانه لم يبق لديها الوقت الكثير لذلك ، اذ ستضطر في النهاية الى الاندماج في المشروع الاميركي الشامل للشرق الاوسط، او على الاقل عدم عرقلته ٠

حمدان بدر

قضايا عسكرية

سلاح م/د جديد

اعلن متحدث عسكري اسرائيلي في ١٢ـ٤ـ٧٨ ان القوات الاسرائيلية عثرت في اثناء هجومها الاخير في جنوبي لبنان على سلاح مضاد للدبابات جديد ، لم يسبق استخدامه في الشرق الاوسط من قبل. ضمن اسلحة اخرى كانت مع مقاتلي المقاومة الفلسطينية ، وهو المدفع ، السوفييتي الصنع ، عديم الارتداد عيار ٧٣ مم المعروف باسم « س ب ج ــ ٩ » (SPG - 9) .

وهو مدفع خفيف الوزن يحمله رجلان عادة، ويمكن قطره باستعمال عربة صغيرة ذات عجلتين· ويتألف من قاذف وزنه ٤٧٫٥ كلغ وطوله ٢٫١١ متر . ويركب فوق منصب ثلاثي يبلغ وزنه ١٢ كلغ ، يجعل القاذف مرتفعا عن الارض ٨٠ سم · ويستخدم قذيفة صاروخية مضادة للدبابات من النوع الشديد الانفجار المضاد للدبابات Heat مثبت خلفها محرك صاروخي صغير ووعاء به حشوة دافعة خلف زعانف تثبيت حركة القذيفة · وعندما يطلق المدفع القذيفة تدفعها الحشوة الدافعة من القاذف بسرعة انطلاق ابتدائية قدرها ٤٢٥ مترا في الثانية ، ثم يشتعل المحرك الصاروخي المساعد فيزيد من سرعة اندفاع القذيفة الى ٧٠٠ متر في الثانية (وهذا هو التطوير الرئيسي الجديد في ذلك المدفع عن بقية المدافع عديمة الارتداد) ، الامر الذي يمكنها من خرق درع من الصلب يبلغ سمكه نحو ٤٠٠ مم (أي اكثر من ١٥٫٥ بوصة) ، علما بأن سمك درع الدبابة « سنتوريون » بمقدمة البرج (وهو اقوى اجزاء تدريع اي دبابة عادة) يبلغ نحو ١٥٠ مم، ودرع مقدمة برج الدبابة «باتون» يبلغ نحو ١١٠ مم ، والدرع المماثل في الدبابة « ت ــ ٦٢ » يبلغ نحو ١٧٠ مم · ويتم خرق هذا السمك المذكور عندما تصيبه القذيفة بزاوية ٩٠ درجة · وعموما فأن المدفع فعال ضد أي دبابة حال اشتباكه بها لمدى يبلغ ١٣٠٠ متر · وهذا يعني أن المدفع الجديد ، الاصغر في العيار والوزن من سابقه المدفع « ب ــ ١٠ » عيار ٨٢ مم (يبلغ وزن الاخير مع منصبه ٧٢ كلغ) يتفوق عليه في قدرة خرق الدروع النموذجية (اي بزاوية ارتطام ٩٠ درجة) وفي المدى الفعال للاشتباك مع الدبابات ، اذ أن المدفع « ب ــ ١٠ » يخرق درعا سمكه ٢٤٠ مم ، ومداه الفعال ٥٠٠ متر فقط ·

كما انه يتفوق في مدى الاشتباك الفعال ضد الدبابات عن المدفع عديم الارتداد الاميركي عيار ١٠٦ مم الاثقل منه وزنا بكثير ، اذ ان وزن الاخير مع منصبه يبلغ ٢٠٩ كلغ (القاذف لوحده يزن ١١٣ كلغ) مقابل نحو ٦٠ كلغ للمدفع ٧٣ مم، على حين ان مداه الفعال ضد الدبابات لا يزيد عن نحو ١١٠٠ متر (مقابل ١٣٠٠ متر للمدفع ٧٣ مم) · وهكذا يتيح هذا المدفع، الذي يتمتع بميزة خفة الوزن وصغر الحجم

قدرة جيدة للغاية لوحدات المقاومـــــة الفلسطينية ضد المدرعات الاسرائيلية ،كما انه يوفر سلاحا فعالا لكتائب المشاة العربية النظامية ضد المدرعات بدلا من المدفــــع « ب ـ ١١ » السوفييتي ، المقابل تقريبا للمدفع الاميركي ١٠٦ مم ، الاثقل وزنـــا بكثير من المدفع ٧٣ مم كما انه اكبـــر حجما ، الامر الذي يصعب معه نسبيـــا اخفاءه والمناورة به · على حين ان المدفع الجديد يسهل اخفاءه والمناورة به ، ومن ثم يصبح اقل عرضة للاصابة بنيـــران الدبابات بعد ان يكشف عن وجوده اثـــر الطلقة الاولى ، وهي أحدى المشكلات التي واجهت سدنة هذه المدافع في كتائب المشاة العربية اثناء حرب تشريـــن (اكتوبر) ١٩٧٣ · وبطبيعة الحال يتكامل هذا المدفع مع نظم الصواريخ الموجهة المضـــادة للدبابات ، في تشكيل قوة النيران م/د لدى كتائب والوية المشاة فيالجيـــوش العربية، وفي تشكيلات المقاومة الفلسطينية ايضا · ويوجد هذا المدفع حاليا لـــدى المشاة الميكانيكية في الجيش السوفييتي ، وكذلك في جيوش كل من بولندا وبلغاريـا والمجر والمانيا الديمقراطية ، ومن المحتمل ان يكون موجودا لدى بعض الجيـــوش العربية التي تتسلح من الاتحاد السوفييتي الان ، مثل الجيش الســوري والجيش العراقي والليبي والجزائري ·

« اسرائيل تستخدم القنابل العنقودية »

القنابل « العنقودية » Cluster Bomb المحرمة دوليا ، والتي انتجتها وطورتهـا الولايات المتحدة الاميركية اثناء الحـرب الفيتنامية لتستخدمها في قتل الثـــوار والسكان المدنيين في المناطق المحررة وفي مناطق الشمال ، ضمن حملات الابـــادة والارهاب التي لم تقهر ارادة الثـــورة الفيتنامية ، تبين من خلال عمليات القصف الجوي الاسرائيلي ، اثناء الهجوم عـلى الجنوب اللبناني ، ان الولايات المتحدة قد زودت اسرائيل بآلاف منها تقدر بنحو ٢٢ الف قنبلة ، ضمن صفقات الاسلحة الضخمة التي*زودتها بها عقب حرب ١٩٧٣ ، لتكون لها اليد العليا عسكريا ضد الجيـــوش العربية في أي حرب خامسة · والهـــدف الرئيسي الذي زودت الولايات المتحدة من اجله اسرائيل بالقنابل العنقودية ، هـــو توفير اداة تكتيكية ، تتكامل مع غيرهـــا من الاسلحة الحديثة الاخرى (صواريـخ لانس والصواريخ جو ـ أرض بعيدة المدى نسبيا الخ) ، تساعد في التغلب علـــى بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات التي حدت من قدرات الطيران الاسرائيلي خلال حرب ٧٣ · وفي محاولة القضاء على رماة الصواريخ المضادة للدبابات من وحدات المشاة العربية، وعموما للتغلب على عنصر التفوق الكمي العربي المفترض مواجهتـه للقوات الاسرائيلية المحدودة المـــوارد البشرية نسبيا ·

وتقول الولايات المتحدة ان اسرائيـــل قد خرقت الشروط المتفق عليها بينهمـــا لاستخدام هذا النوع من القنابل ، مـــن حيث انها يجب ان تستخدم ضد اهـــداف عسكرية فحسب · وضمن حالة دفاع عـن النفس ، وليس ضد المدنيين ، وفي عملية هجومية مثل عملية غزو جنوب لبنان ·

فقد اعلن النائب الاميركي الديمقراطي « بـــول ماكلوسكي » ، في ٨ـ٤ـ٧٨ ، ان الطائرات الاسرائيلية القت قنابل عنقوذية من صنع اميركي على السكان المدنيين في جنوبي لبنان ، خاصة في الغارات الـتي جرت على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين جنوبي « صور » يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ ،مما نتج عنه خسائر كبيرة في الارواح ·

على حين ادعى ناطق اسرائيلي يـوم

١٠ـ٤ـ٧٨ أن « ايا من هذه القنابل لم تستخدم ضد ما يمكن ان يعتبر هدفا مدنيا » .

ولكن مراسل وكالة « رويتر » في الجنوب كان قد كذب عمليا هذه الادعاءات اثناء الحرب ذاتها ، حيث نقل صورة حية عن قصف المخيمات حول « صور » يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ بالقنابل العنقودية فقال « في اليوم الخامس من الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في جنوبي لبنان ، رأيت طائرات الفانتوم الاسرائيلية تاتي في طلعة اثر طلعة وتفرغ حمولتها من القنابل العنقودية على ضاحية المعشوق التي تقع على بعد اقل من كيلو مترين الى الشرق من صور » .

وفي ١٤ـ٤ـ٧٨ قال مراسل صحيفة « هآرتس » في واشنطن ان الرئيس « كارتر » اعطى امرا بوقف شحنات هذه القنابل مؤقتا وانه لا ينوي استئنافها قبل وضع شروط للحد من استخدامها في قساوة . وذكرت صحيفة « جيروزاليم بوست » في اليوم نفسه، نقلا عن مراسلها في « واشنطن » ان الولايات المتحدة جمدت موافقتها على مطالب اسرائيل العسكرية باستثناء طلب الحصول على طائرات هيلكوبتر وبعض الاعتدة الحربية .

وفي ١٥ـ٤ـ٧٨ اكد « بريزنسكي » ، مستشار الامن القومي للرئيس الاميركي ، ان اسرائيل استخدمت القنابل العنقودية في جنوبي لبنان ، على الرغم من التطمينات السابقة التي قدمتها للولايات المتحدة بهذا الخصوص ، ثم اوضح ان الحكومة الاميركية ستحاول تشديد الشروط المفروضة على اسرائيل في مجال استعمال هذه القنابل . ولم يشر، هو او غيره من المسؤولين الاميركيين ، الى مسألة وقف شحن هذه القنابل ، او تجميد طلبات الاسلحة الاسرائيلية . هذا وقد نفى وزير الدفاع الاسرائيلي في حديث له مع مجلة « نيوزويك » ، نشر في ١٦ـ٤ـ٧٨ ، وجود أي قيود على اسرائيل في استخدام هذه القنابل من قبل الحكومة الاميركية . وتجدر الاشارة الى أن القنبلة العنقودية هي عبارة عن عدة قنابل صغيرة تضمها قنبلة واحدة كبيرة داخل وعاء خارجي يطلق عليه « ديسبنسر » تتبعثر منه القنابل الصغيرة قبل ان تصل القنبلة « الام » الى الارض فتنتشر على مساحة كبيرة مسببة اصابة وموت عدد كبير من الافراد عن طريق متفجرات تحملها او شفرات حادة تتناثر منها في كل اتجاه . وتختلف عبوة كل وعاء ، اي « ديسبنسر» وفقا لغرض القصف وحجم الهدف ، فهناك نوع منها يضم مثلا ٢٤٧ قنبلة صغيرة . وهناك نوع آخر يضم ٧١٧ قنبلة . ولذلك تسمى احيانا بالقنبلة المتناثرة . اما تسمية « الانشطارية » ، فليست دقيقة في التعبير عن صفة التناثر ، لان الانشطار يطلق علميا عن الانشطار داخل النواه ومن ثم تعتبر القنابل الذرية قنابل انشطارية .

« حاملة الطائرات الاميركية « نيميتز » في « حيفا » »

كشفت وكالات الانباء ان وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر فايتسمن والجنرال «ايتان»، رئيس الاركان الحالي، والاميرال ميخائيل بركاني ، قائد البحرية الاسرائيلية والجنرال « دافيد عفري » ، قائد السلاح الجوي الاسرائيلي ، حضروا تدريبات رماية جرت من على ظهر حاملة الطائرات الاميركية « نيميتز » في البحر الابيض المتوسط . وان طائرة من حاملة الطائرات المذكورة نقلتهم من مطار « اللد » الى ظهر الحاملة ومعهم ايضا « افرايم افرون » .

المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية، ليحضروا هذه المناورة البحرية ـ الجوية الاميركية الهامـــــة التي جرت يـــــوم ٥ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

وفي اليوم التالي مباشرة دخلت حاملة الطائرات المذكورة ميناء « حيفا » ورست فيه ، فيما اعلن عنه انه زيارة وديـــــة لاسرائيل ، وقد صعد الى ظهرها ، مناحم بيغن ، رئيس الوزراء الاسرائيلي ، ومعــه « عيزر فايتسمان » وعدد من كبار الضباط وتجولوا فيها ، ثم حضر مأدبة غـــــذاء اقامها على شرفه قائد الحاملة الاميـرال « روبرت شولتز » ٠ والحاملة المذكورة هي احدى ثلاث حاملات طائرات تسير بالطاقة النووية ، تمتلكها البحرية الاميركية حاليا، والاخريان همـــــا « دوايت ايزنهاور » و « انتربريز » ٠ وتعد من احدث حاملات الطائرات الاميركية ، اذ انها دخلت الخدمة العملية في ٣ـ٥ـ١٩٧٥ ٠ وقد بلغت كلفتها مليار و ٨٨١ مليـــــون دولار ٠ وهي ، و « دوايت ايزنهاور » ، و « كارل فينسون» التي ما زالت قيد الانشاء ، اكبر حاملــة طائرات اميركية وفي العالم كله ايضا ٠ اذ يبلغ وزنها، بحمولة القتال ، ٩٢٫٤٠٠ طن، ويبلغ طولها الاجمالي ٣٣٢ مترا ، وعرض مهبط طائراتها ٧٦٫٨ مترا، وعمق غاطسها ١١٫٣ مترا ٠ وتدفعها محركات تبلغ قوتها ٢٦٠ الف حصان ، وتزيد سرعتها القصوى عن ٣٠ عقدة (اي اكثر من ٥٥ كلم) ٠ وتحمل نحو ١٠٠ طائرة حربية من مختلف الانواع ، تضم طائرات مقاتلة متعـــــددة المهام من طرازي « ف ـ ١٤ » (توم كات) و « ف ـ ٤ » (فانتوم) ، وطائرات دعم قريب من طراز « كورسير » وطائـــــرات هجوم في مختلف الاحوال الجوية مــــن طراز « انترودر » ، وطائرات استطــلاع جوي استراتيجي وطائرات انذار مبكـــر وطائرات هليكوبتر مضادة للغواصـــــات واخرى لمهام الانقاذ ٠

ويبلغ عدد الطاقم البحري للحاملـــــة ٣٣٠٠ رجل ، وعدد الطاقم الجوي ، من طيارين ومساعدين مختلفين ، ٢٨٠٠ رجل، اي ما مجموعه ٦١٠٠ رجل ٠ وهي مسلحة بثلاث مجموعات من صواريخ « سبارو » المضادة للطائرات ٠ ومما تجدر الاشارة اليه ان الاميرال « جيمس هولوواي » قائد البحرية الاميركية كان قد زار اسرائيـــل في ٢٩ـ٢ـ٧٨ لمدة ثلاثة ايام ، وذلك عقب زيارته لمصر ، وخلال زيارته هذه تفقد كل من « حيفا » و « شرم الشيخ » ، ورفض ان يدلي بأية تصريحات صحفية خـــلال الزيارة ، مؤكدا انه يحرص على ان تظل زيارته بعيدة عن الاضواء ٠ واذا مـــا تذكرنا ان «موشي ديان» ، وزير الخارجية الاسرائيلي ، كان قد اعلـــن في مجلس النواب الاميركي يوم ٢١ـ٩ـ١٩٧٧ عـــن استعداد « اسرائيل لمنح الاسطول السادس الاميركي قاعدة في ميناء حيفا » ٠

وقول « غولدا مائير » ، رئيسة الوزراء السابقة ، اثناء مقابلة صحفية اجريـــت لها في القدس عام ١٩٧٢ ، عن الرؤساء الاميركيين « انهم دائما لطفاء معي ، فهم يعدونني بكل شيء ، ولكن هل تعلم ماذا يعطونني ؟! انهم لا يعطونني مفاتيـــح الاسطول السادس ، وبدون هذه المفاتيح ، فنحن مدعوون لان نلعب دور باكستان » ٠

اذا ما تذكرنا هذه الاقوال ، فاننـــا نستطيع ان نتفهم مغزى هذه الزيـــارات الودية لحاملة الطائرات الاميركية ،وقائد البحرية الاميركية ، لحيفا ٠ ونفهم كذلك مغـــزى حضور القـــادة العسكريين الاسرائيليين لتدريبات الحاملة المذكورة في

شرقي البحر الابيض المتوسط ، من حيث ان الولايات المتحدة تؤكـــد للعرب دور الاسطول السادس في دعم امن اسرائيل ، ويكفي في هذا الصدد ان نتذكر قـــول الكاتب الاستراتيجي الاميركي « هانسون بالدوين » في كتابه « استراتيجية للغد » «يبدو واضحا أن اسرائيل لا يمكنها البقاء لمدة طويلة وسط بحر من العرب ·· وبدون الاسطول الاميركي السادس في البحــر الابيض المتوسط ، ستواجه اسرائيـــل قدرها » ·

ويجدر بنا ان نتذكر ايضا ان الاسطول السادس تشكل رسميا تحت هذا الاســم في اول حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ، اي عقب اعلان قيـام الدولـة الصهيونيــة باسبوعين فقط ! ويتألف الاسطـــــول السادس عادة من حاملتي طائرات و ١٥ سفينة حربية ، من بينها طرادين مسلحين بالصواريخ ، و ٤ غواصات نووية ، ونحو ٢٠٠٠ من مشاة البحرية تحملهم ٣ ــ ٥ سفن انزال ، واجمالي قطعه المختلفــة ما بين ٤٠ و ٥٠ قطعة بحرية وقوتــــه البشرية نحو ٢٥ الف رجل ·

« سفينة انزال الدبابات الفرنسية تجري مناورة عند « صور » »

في الفترة مــن ١٠ الى ١٤ نيســان (ابريل) ١٩٧٨ ، نفذت البحرية الفرنسية مناورة بحرية قرب شاطىء صور في جنوبي لبنان ، بهدف دراسة امكانات انــزال القوات والاسلحة والمعدات من البحر على الشاطىء الجنوبي لصور . وتضمنــت هذه المناورة ، التي قامت بها اساســا سفينة انزال الدبابات المسماة « بيداسو » عمليات مسح دقيق للشاطىء وافضـــل نقاط الاقتراب البحري اليه ، شاركت فيها جماعات من الضفادع البشرية استخدمت قوارب مطاطية مزودة بمحركات ، كمــا شاركت فيها زوارق انزال مركبات وجنود، وكلها تشكل جزءا من طاقم ومعدات انزال السفينة « بيداسو » ، التي تحمل الرقــم « ل ٩٠٠٤ » ·

وفي الوقت ذاته اشتركت في المنــاورة على الشاطىء بعض العربات المدرعــة الفرنسية ، التابعة للوحدة الفرنسيـــة التابعة لقوات الطوارىء الدولية ، وكانت تقوم بتنظيم الاتصالات اللاسلكية مــع السفينة اثناء تحركاتها ، وتجـري حماية لرأس الجسر الذي ستنزل عليه القـــوات المفترضة من البحر ·

وكانت السفينة المذكورة قد انزلت فـــي ميناء « بيروت » يوم ٦ــ٤ــ٧٨ قوة فرنسية ضمت ٩٠ جنديا و ٣ ضباط ، و ١١ عربة مدرعة « بانهارد » خفيفة من النوع المسمى « هـ ا ي ٦٠ ــ١٢ » المسلحة برشاش عيار ١٢ر٧ مم وهاون عيار ٦٠ مم ، و ٢ عربة مدرعة « بانهارد » من النوع المســـى «هـ ا ي ــ ٩٠» المسلحة بمدفع عيار ٩٠مم ورشاش ٦٢ر٧ مم · فضلا عن نحو ١٥ شاحنة خفيفة وعربة اسعاف ·

والسفينة « بيداسو » هي واحدة مــن خمس سفن انزال دبابات لدى البحريـــة الفرنسية من الطراز نفسه ، والاربع سفن الاخــرى تحمل الارقـام « ل ٩٠٠٣ » و «ل ٩٠٠٧» و «ل ٩٠٠٨» و «ل٩٠٠٩»· وسفن انزال الدبابات ذات تصميم خـاص يشبه تصميم ناقلات النفط ليسمح بحمل اكبر قدر ممكن من حجم السفينة بحمــل اكبر عدد ممكن من الاليـــات المختلفة ، وخاصة الدبابات او العربات المدرعـــة او عربات قتال المشاة المدرعة ، وفقا لحجم ووزن الآليات · كما انها مزودة ببـــاب

يفتح في مقدمة السفينة ويدلى منه منزلق خاص بانزال الآليات الى الشواطىء الرملية مباشرة ، او في المياه الضحلة القريبة منها . او على رصيف عائم او ثابت ، كما يمكن للسفينة ان تنزل من الباب المذكور أو من احد جوانبها ٤زوارق انزال صغيرة قادرة على حمل دبابة او آلية اخرى او عدد من الجنود على الشاطىء مباشرة · ويسمح صغر غاطس سفينة الانزال ، يسمح لها بالاقتراب كثيرا من الشواطىء الرملية ، والسير في المياه القليلة الغور نسبيا ، ولذلك تسبق عمليات الانزال البحري عمليات مسح للشواطىء المقرر اجراء العملية عليها . وذلك للتعرف على طبيعة الشاطىء وعمق المياه القريبة منه ، ومدى خلو قاعها من الموانع الطبيعية التي قد تصطدم بها السفينة حال اقترابها الكبير من الشاطىء وطبيعة التيارات المائية بالمنطقة الخ ·

وقد انزلت السفينة « بيداسو » المذكورة الى الماء في ٣٠-١٢-١٩٦٠ ، وتم تجهيزها وادخالها الخدمة العملية بالبحرية الفرنسية خلال عام ١٩٦١ ، ومن ثم فهي تعتبر حديثة نسبيا بالقياس لسفن الانزال المبنية اصلا خلال الحرب العالمية الثانية ، والتي ما زال الكثير منها يعمل بمختلف البحريات العالمية · وهي تعتبر من السفن المتوسطة الحجم والوزن، اذ ان وزنها القياسي يبلغ ١٤٠٠ طن ، ووزنها العادي ١٧٦٥ طنا ، اما في حالة الحمولة الكاملة فيبلغ وزنها ٤٢٢٥ طنا· ويبلغ طولها الاجمالي ١ر١٠٢ مترا ، واقصى عرض لهيكلها ٥ر١٥ مترا ، وعمق غاطسها ٢ر٣ امتار · وهي مزودة بمحركات ديزل تبلغ قوتها ٢٠٠٠ حصان، وسرعتها القصوى ١١ عقدة (أي نحو ٢١ كلم في الساعة) ، ويمكن ان يصل مدى عملها الى ١٨٥٠٠ ميل بحري بسرعة ١٠ عقد ، وهي مسلحة بثلاثة مدافع مضادة للطائرات من عيار ٤٠ مم ومدفع هاون عيار ٤ر٧ بوصة · وتستطيع السفينة ان تحمل ١٨٠٠ طن من الشحنات المختلفة ، كما تحمل ٤ زوارق انزال جنود وآليات ويمكنها ان تحمل عادة ٣٣٥ جنديا ، بالاضافة لطاقمها البحري المؤلف من ٧٥ رجلا (٦ ضباط و ٦٩ رتب اخرى) · ويمكن لها في حالات الضرورة ، ولمسافة قصيرة نسبيا ، ان تحمل ٨٠٧ جندي (٣٢٩ منهم ينامون في اسرة مثبتة بجسم السفينة و ٥٥٢ آخرين ينامون في شباك نوم معلقة) ، وفي تقديرنا انها تستطيع ان تحمل ما بين ١٥ و ٢٠ دبابة قتال رئيسية . والسؤال الهام الآن هو هل تستعد فرنسا من اجل انزال لواء مدرع او ميكانيكي من قوات الاحتياطي الاستراتيجي في صور بواسطة سفن انزال الدبابات الخمس المذكورة في المستقبل ؟

« خطوة اولى على طريق الصناعة الحربية العربية »

في ١٥-٢-٧٨ اجتمع وزير الحربية المصري الفريق اول « محمد عبد الغني الجمسي » مع الرئيس الفرنسي « فاليري جيسكار ديستان » في باريس لمدة ٩٠ دقيقة ، ولم يصرح بشيء عن تفاصيل ما دار في هذا الاجتماع · ثم اعلن بعد انتهاء زيارة الوزير المصري انه تم توقيع اتفاق عام بينه وبين وزير الدفاع الفرنسي يحدد مبدأ التعاون الصناعي بين فرنسا والهيئة العربية العليا للتصنيع الحربي ، ينظم بمقتضاه تبادل المعلومات في مجالات الصناعة الحربية بين فرنسا والدول العربية الاعضاء في الهيئة المذكورة ، وهي

مصر والسعودية وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة ·

وكان الشيخ « خليفة بن زايد » ، ولي العهد في « ابو ظبي » ، قد صرح لجريدة « الرأي العام » الكويتية ، في ٢٤ـ٢ـ٧٨، أن مصر والدول العربية الثلاث الاخرى ستبدأ تنفيذ خطط الانتاج المشترك للاسلحة قبل نهاية السنة الحالية، واوضح أن خطط الانتاج المذكورة تشمل انتاج صواريخ مضادة للدبابات بريطانية النوع وسيارات جيب وطائرات هليكوبتر بريطانية من نوع « لينكس » · ثم دعا الدول العربية الاخرى الى الانضمام الى الهيئة المذكورة ، التي يبلغ رأس مالها الف مليون دولار ، قائلا : « ان قوة العرب هي في الاعتماد على انفسهم » ·

وكانت الخطوة العملية الاكثر وضوحا، على طريق وضع برامج الهيئة العربية للتصنيع الحربي (التي يطلق عليها اختصارا في الكتابات الانجليزية AMIO وهو اختصار لكلمات Arab Military Industries Organisation موضع التنفيذ ، هي توقيع بروتوكول التعاون الفني بين الهيئة المذكورة وبريطانيا في مجالات الصناعة الحربية ، وذلك في القاهرة يوم ٤ـ١ـ٧٨ بين الفريق اول « الجمسي » ، وزير الحربية المصري ورئيس الهيئة المشار اليها ، ووزير الدفاع البريطاني « فريدريك موللي » · وصرح « الجمسي » عقب التوقيع على البروتوكول بانه سيوضع موضع التنفيذ على الفور . وان الاتفاق بين الجانبين تم على انشاء ثلاث شركات مشتركة لتصنيع الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من طراز « سوينغ فاير » . وتصنيع محركات

وهياكل الطائرات الهليكوبتر من طراز « لينكس » · وسيترتب على الاتفاق تسليم مصر دفعة كاملة التصنيع من طائرات « لينكس » يبلغ عددها ٢٠ طائرة ، ثم يجري بعد ذلك تجميع وتصنيع نحو ٢٠٠ طائرة اخرى محليا فيمصر لحساب الدول المشاركة في الهيئة · والطائرة « لينكس » تنتجها شركة « ويستلاند » البريطانية ، وهي نتاج تعاون بريطاني ـ فرنسي في انتاج ثلاث انواع من طائرات الهليكوبتر. هي « غازيل » و « بوما » و « لينكس » . والنوعان الاولان تشرف على تصميمهما وانتاجهما مؤسسة « ايروسباسيال » الفرنسية ، على حين صممت شركة « ويستلاند » الطائرة « لينكس » ، وتنتج من قبل الشركتين · وهي طائرة هليكوبتر لمختلف الاغراض العسكرية بما فيها النقل الخفيف وقنص الدبابات بصواريخ «سوينغ فاير » (الطراز المخصص منها لطائرات الهليكوبتر المسمى بيسوينغ) ، كما انها يمكن أن تعمل ضد الغواصات ايضا وهي مزودة بمحركين « رولز رويس » قوة كل واحد ٩٠٠ حصان لمدة دقيقتين و ٣٠ثانية و ٧٥٠ حصانا لفترات الطيران الطويلة ، ويبلغ وزنها فارغة ٣١٧٤ كلغ ، واقصى وزن لاقلاعها (في المهمات البحرية)٤٣٠٩ كلغ · وسرعتها القصوى ٣٣٣ كلم /ساعة وسرعتها الاعتيادية ٢٧٣ كلم / ساعة . وارتفاعها بدون تأثير ارضي ٣٦٦٠ مترا، واقصى مدى لها اعتمادا على الوقود الداخلي ٦٣٠ كلم ·

ويمكن تسليحها برشاش من عيار ٢٠مم مع ١٥٠٠ طلقة ، او رشاشين من طراز « مينغن » في نقطتي التعليق الخارجيتين، او رشاش واحد من الطراز نفسه تحت حجرة الطائرة مع ٣٠٠٠ طلقة ، او بـ ٦ صواريخ مضادة للدبابات من طراز « بيسوينغ » ، او « س س ـ ١١ » ، او ٨ صواريخ مماثلة من طراز « تاو » او من طراز «هوت» · وعند تسليح الطائرة

لمهام مضادة للغواصات يمكن ان تسلح بصاروخين موجهين من طراز « مارك ٤٤» او « مارك ٤٦ » ، او قنبلتي اعماك «مارك ١١ » · وبطبيعة الحال فان انتاج هذه الكمية من الطائرات في مصر ، سيزيد من قدرة الدفاع المضاد للدبابات وللغواصات لدى الجيش المصري ، كما سيساعد على وضع اساس وخبرة تقنية في مجال هام من مجالات الصناعة الجوية، شرط عدم كتم المعلومات الرئيسية في الصناعة عن التقنيين المصريين وعدم عرقلة مراحل التصنيع المتطورة اثناء التطبيق · ولكن في نهاية الامر فان اعتماد العرب على انفسهم في مجال التسليح المصنوع محليا لن يتم لمجرد صناعة اسلحة دفاعية محدودة مثل الصواريخ م/د وطائرات الهليكوبتر او التدريب ، وانما يجب ان يتم في مجالات الطائرات المقاتلة المتطورة والمدرعات الخ ، حتى يمكن ان يواجهوا التفوق العسكري الاسرائيلي ، وهو ما يتطلب اساسا نشوء وتطوير الصناعات الثقيلة العربية ، الامر الذي تعارضه بدون شك الامبريالية الغربية ·

محمود عزمي

التحرك الجماهيري في الاردن خلال حرب الجنوب

في اليوم الاول للعدوان الاسرائيلي على جنوبي لبنان ، شهدت الساحة الاردنية تحركا جماهيريا واسعا هو الاول من نوعه منذ احداث ايلول ١٩٧٠ وما تلاها في تموز الاحراش عام ١٩٧١ وما نجم عنهما من حسم مؤقت للصراع على الساحة الاردنية لصالح النظام الاردني ·

بدأ التحرك الجماهيري في الجامعات الاردنية (الجامعة الاردنية – الجبيهة وجامعة اليرموك – اربد) وفي المدارس الثانوية كما كان منتظرا خاصة وان الجامعات وحدها التي شهدت تحركات سابقة خلال سنوات الحرب في لبنان وان اقتصرت ، وقتها ، على توزيع بيانات الاتحادات الطلابية ، والمطالبة بوحدة لبنان وعروبته ، واعلان المشاعر المناهضة للتقسيم ، دون ان تتعرض لدور النظام الاردني او حتى ان تطالبه بتحرك في هذا الاتجاه ·

على ان ازدياد الغضبة الطلابية داخل الجامعات والمدارس الثانوية تتناسب هذه المرة طردا مع حجم العدوان الاسرائيلي ودخلته عناصر جديدة زادت من حدته ، فقد شارك مدرسو الجامعات هذه المرة في المهرجان الطلابي الذي اقامه طلبة الجامعة الاردنية داخل الحرم الجامعي ، وصدر بعد هذا المهرجان بيان للهيئة التدريسية في الجامعة ادان الصمت العربي وحيا صمود المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية · وطالب باعطاء الحرية للجماهير للالتحاق بساحة المعركة

(الجماهير ـ نشرة الحزب الشيوعي الاردني العدد الثالث اذار ٧٨) ٠

وفتحت الجامعة الاردنية باب التطوع ، وبلغ عدد المتطوعين في اليوم الثاني ستماية متطوع ، كانت الدفعة الاولى التي اختيرت للتوجه الى لبنان مائة وعشرين متطوعا منعتهم السلطات من السفر ولعب عميد الجامعة اسحق الفرحان دورا كبيرا في ذلك اذ وضع شروطا تعجيزية اثناء اعتصام الطلبة في كلية الطب ، حيث اشترط ان يكون معدل الطالب التراكمي اكثر من ٦٠٪ في كافة المواد التي درسها ، كما طلب اذنا خطيا من اولياء امور الطالبات والطلاب بالموافقة على سفر ابنائهم علما بانه اعلن ان الجامعة غير مسؤولة عن عدم السماح لاي متطوع بالعودة الى الاردن ٠ وفي جامعة اليرموك دخل مدير مخابرات اربد قاسم الغراية مباشرة الى الحرم الجامعي واعتقل رئيس اتحاد الطلبة فيها هاشم غرايبة ، وتعرضت السلطات الى الدفعة الاولى من المتطوعين على مراكز الحدود بالضرب والاهانة واعادتهم من حيث اتوا ٠

لم يقتصر الامر على الجامعات بل شهدت مدن المملكة من اربد في الشمال الى الكرك في الجنوب مرورا بالمدن الرئيسية عمان والزرقاء والسلط ومخيمات البقعة ، الوحدات ، شنلر ، شهدت تظاهرات صاخبة رفعت شعارات التأييد للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، وادانت صمت الانظمة ٠ وما ان ازداد حجم هذه التظاهرات تصدت السلطات لها في محاولة لحصرها بادىء الامر في اماكن انطلاقها . واضطرت بعدها الى استعمال القنابل المسيلة للدموع والعصي والهراوات . اولا . ثم استعمل الرصاص في كل من عمان والبقعة وشنلر حيث سقط عدد من الشهداء عرف منهم الطلاب سليمان محمد البنا ، امين الستوحي ، جاسر محمد عوض الله داوود.كما استشهد المعلم صالح علي احمد المحسيري ونقل عشرات الجرحى الى المستشفيات وجراح بعضهم خطرة ٠ كما اعتقل عدد كبير من المواطنين افرج عن بعضهم ولا زال البعض الاخر نزيل السجون ٠

على ان اعنف هذه المظاهرات كانت تظاهرة تشييع جثمان الشهيد جهاد حمو والتي تميزت بعنصرين بارزين هي اشتراك جماهير مسلحة من عشائر سحاب في تعزية مخيم الوحدات والمشاركة في التظاهرة ، وثانيها توجه التظاهرة الى السفارة المصرية بعمان لادانة مبادرة السادات الخيانية ٠

هذا وتداعت النقابات المهنية الى اجتماع في اليوم الاول اصدرت على اثره بيانا شجبت فيه العدوان الصهيوني الصارخ على الجنوب اللبناني واهابت بالامة العربية ان تتحرك للرد على العدوان مهما يكن الثمن ، وقد اعربت النقابات المهنية عن اسفها للصمت العربي المطبق ودعت الجماهير العربية للتحرك السريع والفعال لدفع الحكومات العربية للقيام بواجبها الوطني والقومي بالتصدي الجدي الفعال للعدوان الاسرائيلي (صحيفة الدستور الاردنية ١٦ اذار ١٩٧٨) ٠

ويوم ١٧ـ٣ـ٧٨ بدأت النقابات تنفيذ برنامجها فاعلن الدكتور حسن خريس نقيب الاطباء عن فتح عدة مراكز للتبرع بالدم (صحيفة الدستور الاردنية ١٧ـ٣ـ ٧٨) واعلن عن توجه بعثة طبية الى

بيروت يرافقها بنفسه للاطلاع علـى احتياجات الهلال الاحمر الفلسطينـي ، وهذا ما حصل فعلا ٠ وامام كميات الدم الكبيرة التي تبرع بها المواطنون اصدرت وزارة الصحة الاردنية بيانا استندت فيه الى الدكتور خريس نفسه يطلب وقـف الحملة لاكتفاء الهلال الاحمر من جهة ، ولان الكميات التي تبرع بها المواطنـون فاضت عن اماكن تخزين الدم فـي الاردن نفسه ٠

هذا وتداعى اعضاء المجلس الوطني الفلسطيني الى اجتماع في المنظمة بعمان حضره ثلاثون عضوا ، تدارس المجتمعون الوضع الجديد الناجم عـن التحـرك الجماهيري وانتخبوا لجنة دائمة مـن بينهم السادة ياسر عمرو وسليمـان النجاب وساجي خليل وعزمي الخواجـا مهمتها التنسيق مع الحركـة الوطنيـة الاردنية ٠

كما سارعت الاحزاب والقوى الوطنية الى اصدار بيانات تطالب فيها الجماهير بالالتحاق بساحة المعركة ، واصدر الحزب الشيوعي الاردنـي بيانا يـوم ١٨ـ٣ـ٧٨ دعا فيه كافة رفاقه ومرشحيه ومؤيديه ، كلا حسب قدرته وامكاناته ، التوجه الـى ارض المعركة والمساهمة فيها ببسالـة وشرف (الحقيقة عدد ٣ اذار ١٩٧٨) ٠

ومن جهة ثانية وقع مائة وواحـد وعشرون معتقلا سياسيا في السجـون الاردنية عريضة ارسلوها الى السلطـات وارسلوا نسخا منها الى فصائل الحركـة الوطنية يطالبون فيها باطلاق سراحهـم للتوجه الى ارض المعركة ، وتضمنـت عريضتهم عهدا بعودة من يبقى منهم على قيد الحياة بتسليم نفسه للسلطات لكـي تعيده الى السجن اذا ارادت ٠

على ان قمة التحرك الوطني كان مساء يوم ١٨ اذار حيث تداعى في مجمـع النقابات المهنية بعمان ما ينوف على مائـة وخمسين شخصية وطنية يمثلون الاحزاب والقوى الوطنية والمنظمات الجماهيريـة وعدد من الشخصيات الوطنية بينهـم الشيخ عبد الحميـد السائـح ، داوود الحسيني ، روحي الخطيب ، بهجت ابـو غربية ، محمود المعايطة ، كما حضـر ممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينيـة وانتخب المؤتمر امانة دائمة للمتابعـة من السادة : الشيخ السائح ، د٠ حسن خريس نقيب الاطباء ، المهندس ابراهيم ابو عياش نقيب المهندسين والمحامـي سليمان الحديدي ، وحمد الفرحان وعيسى مدانات وتيسير الزبدي وعزمي الخواجا ٠ بادرت اللجنة الى اصدار بيان سياسـي منعت السلطات الاردنية نشره ونشرتـه وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » يـوم ٣/٢٠ جاء فيه :

استنكار الصمت العربي في الوقـت الذي كانت فيه الانظمة العربية تتحـرك على وجه السرعة لارسال المساعدات الى بلدان غير عربية معادية لقضايا التحرر الوطني في اشارة واضحة الى تحركات الاردن ومصر والمغرب ٠ كما طالب البيان بضرب المصالح الاستعمارية وباعطـاء الشعوب العربية حقها في المشاركـة وبتعبئة القوات المسلحة المحبوسة للتصدي للعدوان ، وادان البيان قمع السلطـة للتظاهرات ومنع الجماهيـر مـن اداء واجبها الوطني ٠

هذا وقابل وفد الامانة الملك حسين يوم ٣/١٩ وعبر عن استهجانه لموقف السلطة وطالب باطلاق سراح المعتقلين والسمـاح بالتسهيلات على الحدود للمتطوعين ، كما ارسل وفد الامانة مذكرة الـى رئيس

الوزراء يطالب فيها بتنفيذ قرارات المؤتمر الوطني ٠

كان رد الحكومة تعليمات مشددة لمنع التظاهر ، واصدرت وزارة الداخلية الاردنية بيانا بهذا الخصوص (الدستور الاردنية ٢١ـ٣ـ٧٨) جاء فيه :

صدرت التعليمات المشددة لمنع قيام اي تظاهرة مهما كان حجمها وبمنتهى الشدة، كما اعلن البيان عن أن مراكز التعبئة والتدريب جاهزة لاستقبال كل من يرغب في التدريب العسكري ، شاكرين للمواطنين مشاعرهم النبيلة وانتماءهم القومي بصدق وايجابية ٠ ولم يخف البيان سقوط عدد من الجرحى بين المواطنين ورجال الامن ٠

هذا ولم تمنع هذه الاجراءات حملات التطوع والدعم فقد وصلت المساعدات النقدية والعينية وسلمت لرئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية الاخ ياسر عرفات الذي قابل ظهر يوم ١٢ـ٤ـ٧٨ وفدا من التجمع حضر الى بيروت لهذه الغاية ٠

غانم زريقات

عبد الكبير الخطيبي

جاك بيرك ، أو النكهة الشرقية

نظن اننا نختار ، بحرية ، ان نكون ما نحن عليه ، ولكننا في الواقع مرغمون على القيام بدور لا يطابق ما نكونه ، واذن ، نحن نلعب دورا يطابق ما نكونه خارج ذاتنا · اننا لا نكون حيث نكون فعلا ، ولكننا دائما حيث لا نكون سوى ممثلين لدور ذلك « الاخر » الذي يطابق كينونتنا ·

بيير كلوسووسكي

حاشية

سيكون هناك تحايل اذا اردنا ان نرجع الاستشراق الى جذوره ومسبقط رأسه ، من دون محاولة الكشف عن الغاية الجوهرية التي توجهه · وسيكون هناك تحايل ايضا اذا اردنا ، ظاهريا ، تفجير الاستشراق عن طريق اعادة ربطه بأولية الايديولوجيا الغربية وهيمنتها · ورغم ان مثل هذا التناول يعتبر بمثابة اقتصاد انتقالي محدود مسبقا ومختزل للاشياء ، فاننا سنعمل على اظهاره في هذا النص (★)

الا ان المسألة الاساسية في هذه الدراسة تتعلق بالشرق والغرب من حيث « الفاصل » الجوهري بينهما ، كما تتطرق من خلال السطور ، الى الكينونة في اعلى ما تعد به من عطاء · وبما ان كل موضوعة يمكن تناولها انطلاقا من معنى سام او معنى حقير ، فانه

(★) دراسة جدالية نشرت في المجلة الفرنسية « الازمنة الحديثة » ، يونيو ١٩٧٦ ، العدد : ٣٥٩ ·

يتحتم علينا ان نعطي للاستشراق كل رغبته في النبل وفي السمو نحو مطلع الشمس · ولا شك أن لويس ماسينيون قد عبر ـ أكثر من أي مستشرق آخر ـ عن مثل هذه الرغبة ·

ويستلزم هذا النبل رزانة من نوع خاص ، انه يستلزم ، تجاه الآخر ، معرفة قوانين الضيافة ودراية بمقتضيات السلوك مقترنة باليقظة · ان النبل ، بعيدا عن كل ضغينة متبادلة ، يعني الدخول الزواجي في فكر وذاكرة الآخر · ومثل هذا الموقف يجعل صاحبه في وضع استقبال الآخر والتوجه نحوه ، وتعديل اللغة على ضوء روعة الـ « ما هو نفسه) (Le Meme) ولكن ربما نسينا الشرف الذي اولينا اياه ، وربما ايضا ابعدتنا غريزتنا في السيطرة ، وللابد ، عن مثل هذا الالتقاء ·

بمعنى نبيل ، نقول ان المستشرق هو الذي يسهر على فجر الفكر ·

حجة :

وهل يمكن ان يندرج هذا الفجر سوى في اللغة ؟ اللغة كما تقترح نفسها فكرا جذريا لشعب ما · وفجر الفكر يعني هنا تركيبا خارقا للكينونة · تلك هي الفكرة العليا التي يكونها العرب عن انفسهم · فماذا اصبحت هذه الفكرة المتحمسة التي « تشرف الواحد » (هيجل) ؟

ان جاك بيرك ، بشتمه لنبل الاستشراق الجذري ، قد اختزل الشرق الى مجرد خبر مغلوط · ونحن نتصدى للاجابة على هذه الهمسة وعلى ما يكمن وراءها حسب ايقاع يفرض نفسه ، هنا والآن ·

يحاول بيرك في كتابه الاخير « اللغات العربية في الحاضر » ، أن يجيب على مسألة الكينونة العربية بواسطة موضوع يتناوله بطريقة التقدم والتقهقر ، متنقلا بين حاضر العرب وماضيهم « الاساسي » ، وبين القرآن والشعر (سواء الجاهلي منه او المعاصر) ، متجولا في أجواء التقنية وتصفية الاستعمار ، والاغاني المصرية وازقة فاس ، الى جانب اشياء اخرى « يصعب عدها » وبذلك يظهر الكتاب غنى لا جدال فيه ، هو وحده القادر على تصوير المجال العربي ! ثم ان هذا الغنى ينسجم مع ميدان تحليلاته التي لا تقل غنى وتقليبا ، أو كما يقول : « ان الوجدان ، عند العرب ، هو علاقة الجوهر بالموجود (بكيفية متبادلة) ، وهو على جانب خاص من الغنى والتقليب » ص ٢٢٩ ·

يعلم الجميع ان جاك بيرك مستشرق لا ينضب معينه ، وأنه أستاذ في الكوليج دوفرانس· وهذه الوضعية لا علاقة لها بالصدفة · فمنذ بداية هذا القرن ، كان « شاتوليي » استاذا لعلم الاجتماع الاسلامي في الكوليج دو فرانس ، وانشأ في سنة ١٩٠٤ بطنجة ، بعثة علمية ، كما أصدر سنة ١٩٠٦ مجلة العالم الاسلامي · وقد حدد « ميشو بيلير » فيما بعد مهمة هذه البعثة بقوله :

« كان هدف هذه البعثة هو وضع فهرس للمغرب ولمدنه وزواياه ، ولاصولها وتفرعاتها وللصراعات والتحالفات مع تتبعها في التاريخ عبر مختلف الاسر المالكة ، ودراسة مؤسساتها وعاداتها · وباختصار ، التعرف ، في حدود الامكان ، على الارض التي قد

ندعي ذات يوم الى دخولها ، فتسهل لنا هذه المعرفة التصرف ونحن على اطلاع جيد »·(١)

ان هذا التذكير التاريخي القصير لا يعني مباشرة أن جاك بيـــرك ، وارث شرعـــي للايديولوجيا الاستعمارية ولسوسيولوجيتها الاسلامية داخل الحـــرم المقدس للكوليـــج دو فرانس ، المحور الاساسي للمبادلات بين الشرق والغرب · على العكس ، فان بيـــرك منظر لتصفية الاستعمار اكثر خطورة من فرانز فانون ! وقد كتب فوق غلاف الكتاب بأن بيرك « ينذر الاستشراق العتيق بالانفجار النابع من ذاته » · لنتتبع ، اذن ، شرارات هذا الانفجـــار ·

يعلم الجميع ان بيرك مستشرق محترف ، ينشر بانتظام كتبا عن العرب (« عن عربه »)· وأمام تعقيدات المهام النظرية التي تثقل كاهل أساتذة هذا الكوليج ، لجأ بيرك ، تدريجيا ، الى تأسيس « نظرية » خفيفة الوزن ، اقليمية ، تتعلق بالعرب وبالعالم الثالث · ووضع هذه النظرية يتسارع بتسارع مع حركة تصفية الاستعمار · تبدو هذه « النظرية » ، لاول وهلة ، خاضعة للنزوة ،تلفيقية،وانتهازية بكيفية مباشرة : انها تقتطف خطفا عناصـــر ومفاهيم تنتمي لاشكاليات متباينة · ولغة كتبه عتيقة وغائمة المعاني · ان كتابته تطبـــخ معالم احتفال تطبعه السيولة والبلاغة المتكلفة ، والعبارات الزئبقية والتكرار والاشارات·· باختصار ، تتوفر كتابته على جميع عناصر مظهرية الفكر ، وعلى التصنع البلاغي ·

لكن علينا أن ننظر بجدية الى مثل هذا التصنع : انه يخفي عربا من نوع نادر ، وهذا النوع هو الذي نريد ان « نزوره » بدورنا · هؤلاء العرب من أين يأتون ؟ والـــى أيـــن يمضـــون ؟

انهم يأتون مباشرة من الميتافيزيقا بالمعنى الذي يعطيه هيدجر لمصطلح الاونطولوجيـــا اللاهوتيـــة L'Onto-theo-logie بهذا المعنى ، تكون الميتافيزيقا هي فكر الموجـــــود باعتباره قائم الذات · وبذلك تتيح انبثاق محرك اولي ، موجود اولي ، يحـــدد مراتـــب الموجودات والاشياء · لاجل ذلك فان مسألة الظل Simulacre تزعزع ميتافيزيقية الكينونة، انها تبرز في المرآة مجموع سلسلة المقولات الاساسية : الواحد ، الكل وما هـــو نفسه ، المغاير والمطابق ، الغياب والحضور ·

ان هذه مسألة ذات أهمية حاسمة ، ولا نستطيع هنا سوى الاشارة الى توجيه عـــام ، وتحديد القلق الداخلي لمثل هذا التأكيد · فمقالة جدالية مخاصمة مثل مقالتنا ، لها حدود تركيبها واستراتيجيتها · اننا نكتبها خطفا واغتصابا لنرد على نوع من الاعتداء · ومـــا دامت نوعا من الالتماع السافر يعلو الوجه ، ويمس حقيقة القناع الخاص ، فانها تنحو الى اقامة الحوار حول العنصر الوحيد لعنف التساؤل ·

هل الاسلام ، في حد ذاته ، قابل لان يتناول من خلال ميتافيزيقا ذات اصل غربي ؟ أين يقع موضع تدخل الاستشراق ؟

يتوجب ان نستخلص الان الملامح الغالبة على الاستشراق ، وذلك بقصد استحضـــار الاتجاه البعيد الذي يدعم الخطاب الاستشراقي ·

١ ــ باعتبار الاستشراق يستهدف تحليل موجود (لساني ، تاريخي ، ديني) محدد ، يحمل اسم الشرق ، بدون طرح مسألة الكينونة والظل طبقا لفكر مغاير متيقظ وقوي ، فانه

يبقى منفرسا ، من حيث الجذور ، في التربة الميتافيزيقية · وبالفعل فان الاستشراق يضفي، على ما يسميه الشرق ، الخصوصيات والصفات او الفضائل التي لا يطالها العقل ولا يدرك المسافة الفاصلة لها · وهكذا توصف العروبة بروحانية مرتفعة ، كما توصف وبكيفية متوازية ، بحسية جموحة · ويحدد الاسلام بنوع من التعالي اللاهوتي وبتاريخ اقنومي · وفي هذا الصدد نجد أن أعمال ماسينيون ترسي دعائم الماهوية الجذرية ، وتصير الكينونة العربية مؤطرة بفضيلة ثلاثية : التراث الابراهيمي ، الكلمة المنزلة وحق الالتجاء · ان ماسينيون ، أكثر من أي مستشرق آخر ، شعر في أعماقه باهتزاز مسألة الكينونة · لكن هذا الاهتزاز بقي مجرد اهتزاز لارضاء انعطاف صوفي : فلأن ماسينيون جعل من الحلاج « منقذا مسيحيا » ، فقد آل به الامر الى « تمسيح » الاسلام · اننا لا نعرف ، عنده ، ما هي « المحنة » الاسلامية الخالصة ، ولا كيف يسمي المسلم الالم بما هو ألم ·

والمعنى المعكوس الذي نجده عند هنري كوربان هو اكثر حدة · فهذا المستشرق يجعل فكر هيدجر شيعيا (٢) ، هذا الفكر الذي يريد ، بالضبط ، ان يشق طريقه على هامش الميتافيزيقا وعلى هامش كل لاهوت ولو كان صوفيا ·

ان مثال ماسينيون ، وكوربان ، يتطلب تحليلا مفصلا ، ونحن مضطرون هنا الى الاشارة فقط الى موقف ، والى توجيه ، بالقدر الذي تظل فيه هذه الكلمة الاساسية مفهومة في اللغة المشتركة ·

لا شك ان الاستشراق ، بعد الحرب العالمية الثانية ومع تقدم العلوم الاجتماعية ، قد غير مناهجه وتقنيات أبحاثه · الا أن الاشكالية السائدة لم تتغير · فالمستشرقون العقلانيون يبذلون الجهد لتحليل البنية الاقتصادية والمادية للمجتمعات العربية ، لكن الا تصدر هذه العقلانية في العلوم الاجتماعية عن جوهر التقنية والميتافيزيقا ، اذا ما قبلنا التأمل الهيدجري ؟

ان الاستشراق ، وهو يقوم بقلب بسيط للروحانية ، يسقط في حقل مادي غير مفكر فيه· فمسألة الشرق ، بما هو شرق ، وباعتباره تنسيقا جذريا مع الغرب ، تنتسى هنا مرة اخرى · ومجال الحديث واسع حول المناقشات الاخيرة التي دارت بين المستشرقين والمثقفين العرب ، المتوخية معرفة ما اذا كان العرب خاضعين للحتمية الحاسمة ذات الاولية الايديولوجية ، ام للانتاج السوسيو ـ اقتصادي ، أم للممارسة السياسية ·· وهذه الزحزحة لموضوع المناقشة لا تعني مطلقا نوعا من الخروج عن الميتافيزيقا فالامر يتعلق ، في احسن الحالات ، بتاريخانية معممة تطالب الغرب بزحزحة عرقيته المركزة ·

لكن يجب القول ، فيما يرجع لجاك بيرك ، بأنه ينجز تركيبا كيماويا من جميع الوجوه، وحسب اندفاعة لعبية خالصة ·

٢ ـ الملمح الثاني السائد عند الاستشراق ، يتمثل في طابعه الوضعي ، الذي لا يتعارض مع روحانيته · وهذا ما يدفعنا الى القول بان هناك وحدة تضامنية بين الجوهرية . والوضعية ، والميتافيزيقا · ولقد وضع هيدجر في مختلف تأملاته ، السؤال حول التقنية

بكيفية تثير الاعجاب · فاذا ما قبلنا معه كون مصير التقنية هو نفس مصير الميتافيزيقا ، وكون العلم يبدو كظل اعلى (ارادة الارادة) للسيطرة الغربية ، فاننا قد نجيد فهم موقف الاستشراق داخل حقل العلوم الاجتماعية · ان الاستشراق الفرنسي ، بعد ان انغمس في فقه اللغة والاسطوغرافيا ، والنزعة الثقافية ، اخذ ينفتح ، منذ امد قريب ، على التحليل البنيوي ، وعلى السيميائية وعلى الماركسية ، الا ان محاكمة هذه المعارف قد طرحت فيما يتعلق بمسألة اسسها الميتافيزيقية · وطالما ان الاستشراق يكتفي باتباع الايديولوجية السائدة في عصره ، بدون محاولة التفكير فيها ، وطالما انه لا يتأمل في « هامشه الضروري » ، فانه سيظل مقتفيا لآثار الميتافيزيقا · انه في الوقت الذي بدأ فكر المغايرة يفرض قوة خصبة ، نجد الاستشراق يتابع طريقته الوضعية ، وكأن نيتشه وفرويد ، وهيدجر ، لم يوجدوا قط ، وكأن فينومينولوجية سارتر العجيبة وتأمل دريدا اليقظ ، لم يتحدثا ، كل حسب أسلوبه ، عن مسألة كل غرب وكل شرق · ماذا يفيد ان نحاول القيام بتحليل سيميولوجي للقرآن (كما فعل بيرك) اذا كان الشرق سيظل نبأ مغلوطا ومجرد تمرين انسانوي ؟ لكننا سنرى ان بيرك يكتب من موقع من يوجد في حالة « اسقاط ، Preterition (كلمة يتذوقها كثيرا) والاسقاط حسب قاموس زوبير ، هو : «اغفال ذكر وريث شرعي في وصية » · علينا الا ننسى ، اذن ، مصير الاستشراق في الوصية الميتافيزيقية ، لكن من سيكتب هذه الوصية ؟

٣ ـ سواء كان الاستشراق مسيحيا او مثاليا او عقلانيا ، فانه متضامن مع النزعة الانسانية · اكثر من ذلك ، تجد الانسانية اللاهوتية في الاستشراق ملجأ عند التقهقر · فعندما انسحب الاله السكولاستيكي من مسرح الغرب ، في القرن التاسع عشر ، تاركا المجال للانسان باعتباره فاعلا للتاريخ ، بادر الاستشراق الى استرجاعه عند العرب · ما هي الضرورة الداخلية التي تجذب الاستشراق نحو الاسلام ؟ هل يرجع ذلك الى كون الاله قد تخلى عن الغرب لشيطانية تقنية ؟

في الاخرويات المحمومة التي كتبها ماسينيون ، نجد ان الاسلام هو الذي ينقذ ، خلال فترة من التاريخ ، الانسانية (الابراهيمية بطبيعة الحال) · فالاسلام رفع من جديد مستوى الايمان ، في حين ان المسيحية المنحرفة عن حقيقتها الاولية ، قد نسيت ، حسب ماسينيون ، رسالتها النبوية بتسترها على الجريمة الاستعمارية ، ودوسها بذلك ، لحق الالتجاء الابدي فوق هذه الارض · الامر نفسه بالنسبة للديانة اليهودية التي ضللتها الصهيونية · ان الاله الابراهيمي الماسينيون ، يساند كلمة الضعفاء والمسيطر عليهم ويهيء التصالح الكبير بين هذه الديانات الثلاث ·

ينتسب بيرك ، وهو يتجه في مسار آخر ، لفلسفة الانوار ، وبخاصة لفلسفة جان جاك روسو · لذلك فان استشهاداته بماركس وسارتر وهيرقليد (« صديق الاشياء وأبونا المشترك » ، كما يقول) هي استشهادات سطحية وظرفية · انه يطالب ، مفتتنا بأبوة روسو، مثله في ذلك مثل ليفي ستروس الذي يؤسس الانتربولوجيا البنيوية على النوستالجيا اللاهوتية للاصل · وقد حلل هذه الهيومانية Humanisme تحليلا نفاذا ، جاك دريدا الذي لا يزال الحصار مضروبا حوله بسبب تعلقه المتين بالاستماع الى كل ما هو صادر عن الهوامش ، وبقياس التباعد · ذلك الهامش الذي يسهر على ظلاله Simulacres الخاصة · أن فكر دريدا قفزة نظرية ·· فهل فهموا ذلك جيدا ؟

مهما يكن ، فان انسانوية بيرك ، تتكىء ، في جميع مستوياتها الفاعلة ، على لاهوتية واخروية يضفي عليها طابعا دنيويا ويخفيها تحت اسم « طوباوية » · انه يتمنى قيام

« نسف للارض » (ص ٣٤٩) · ثم يتساءل : « كيف ننجز عملية الالتقاء بمشروع يؤسس علميا على الرغبة ؟ » (ص ٣٥٠) · وهذه « العملية » قد طرحها من قبل في السؤال المتصل بالتقنية وبشيطانيتها ·

لكي نقيس الفانطازيا الاستشراقية ، علينا ان نقرأ النص الغريب للمناظرة التي عقدت سنة ١٩٦٠ بين بيرك وماسينيون ، تحت الرئاسة « المقدسة » لمجلة الفكر Esprit (اكتوبر ١٩٦٠) · صحيح ان تدخل ج·م دوميناك (مدير المجلة انذاك) يزيد من ضبابية الرؤية ، فهو مثلا يتساءل عما اذا كان العرب قادرين ، فعلا ، على ان يصنعوا أنفسهم، او أن ينتجوا أفكارا مثل فكر مونيي وشاردان · ثم ينتهي بالكشف عن جراته الروحية صارخا : « لكن الا تجدون ما يبعث القلق ، في كون جميع هذه الاسئلة التي تطرح على العالم العربي ، نحن الذين نطرحها وليس العرب انفسهم ؟ » ·

اما أنا ، فلا أجد ذلك مقلقا البتة ، لان الاسئلة التي تطرحها على نفسك يا سيد دوميناك لا تقول شيئا سوى أحكامك المسبقة : وعليك ان تعيد قراءة ما كتبته كلمة كلمة لتتأكد من ذلك · أما فيما يتعلق بمونيي وشاردان ، فاننا نؤثر الجدية ، لذلك نوفر على العالم العربي الحديث عنهما ، ونتابع تحليلنا لكتاب جاك بيرك ·

ان بلاغة بيرك الابوية المتصنعة ، المتعجرفة ، تلح على ما يسميه التوتر بين المقدس والتاريخي : فهل يعرف مجتمعا او مرحلة تاريخية لم يكن فيهما هذا التوتر فاعلا ؟ ان خاصة الكائن ، أن يتحول في ترابط بين الآلهة وبشر والاشياء · صحيح ان هذا الترابط يمكن ان يمس ، قليلا أو كثيرا ، الكلام ، ولكن السؤال الاساسي يظل هو نفسه · ومن ثم فان الجدال يصبح عقيما في حد ذاته عندما يدعو بيرك العرب الى الحفاظ على هويتهم مع اكتساب التقنية : « ما يمكن ان نفعله ، هو أن نعيد ، فيما هو أبعد من التقنية ، اقرار القيم ، لكن من خلال وبوساطة التقنية ، واعتقد ، غريزيا او بوعي ، أن العرب ، مثلنا ، يطمحون الى فعل الشيء نفسه » · ان هذا « الابعد » (au-dela) هو بالضبط ما يستعصي على التسمية ، ان التقنية ليست مجرد عبور بالنسبة للانسانوية انها تحمل مصير الميتافيزيقا ·

تقابل هذه البلاغة المتصنعة ، الاخرويات الكريمة لماسينيون · وكعادة هذا الاخير ، فانه لا يستوحي سوى رأسه ، فهو يتحدث عن قوانين الضيافة ، وحق الالتجاء ، والسجن «الذي يؤدي الى الحرية التي سيدرك العرب امتلاءها بواسطة هذا الطريق نفسه » ·

لقد جرت هذه المناظرة والحرب الجزائرية في اوجها · وهكذا كان يرى ماسينيون ، ان اهانة المضطهدين والمعذبين ستنقذ الابراهيمية وستنقذ معنى المحنة المسيحية · وبما ان المناظرة لم تمتد ، فان ماسينيون وجد حلا لانهائها ·

اقرأوا جيدا هذا اللحن الثنائي ·

بيرك : ـ « ولاجل ذلك ، هناك في العمق ، قليل من الاختلاف بين مواقفك وبين مواقفي» ·

ماسينيون ـ « نحن الاثنان ننتمي الى الكوليج دو فرانس ، وهذا يكفي » ·

اننا لم نورد هنا هذا الحديث ـ الطرفة ، الا لنوضح الى اي حد يمكن ان تأخذ الانسانوية الاستشراقية طابع الثرثرة ·

لنتابع الآن نقدنا لجاك بيرك ·

يعلن بيرك انتماءه الى العلوم الاجتماعية مع وفائه للتعارض القائم بين العلم والميتافيزيقا التي يظن انه تخلص من تاثيرها · انه يطبق ذلك التعارض على الاسلام دون ان يشغل باله بمصير مثل هذا التعارض داخل الاسلام نفسه · كيف تلقى الاسلام مثل هذه التفرقة بين العلم والميتافيزيقا ؟ كيف اول الاسلام في لغته الخاصة ، الانطولوجيا الاغريقية ؟

طالما اننا لم نستحضر مثل هذه التساؤلات ، فان مسالة العرب تظل تائهة · الى أين اذن تقودنا مشاهد بيرك ؟

ان الاستشراق يلعب دوره بين حركتين للميتافيزيقا : حركة التقليد الغربي ، وحركة التقاليد الاسلامية · الاسلام بصفته مأخوذا من عمق اللغة العربية · ويعتمد بيرك في نصه على اشارة مزدوجة · من جهة ، يطبق على العرب وعلى الاسلام اسهما نارية تجريبية · وهي تجريبية تتحول ، في عدة مواضيع ، الى فولكلورية فارغة ، مثل هذه الاستعارة المزوقة : « في ساعات الصلاة ، يمتد من فوق المآذن ، صياح المؤذن على شكل زخارف (ارابسك) » (١٤) ·

ومن جهة ثانية ، تغمر جوهرية روحانية مجموع كتاباته مضفية عليها مناخا مسيحيا خاصا (أوه ! صحيح انها مسيحية دنيوية) · مناخ يلعب فيه المستشرق دور الكاهن ، او المسيح الابوي الذي يدل العرب على طريق « اصالة من نوع جديد » (ص ٢٤٢) ·

ينصح جاك بيرك العرب قائلا : « كونوا انفسكم » ، والواقع انه ينصح « عربه » هو · لكن ، من اي موقع يتكلم ؟ والى من يتكلم ؟ وفي اتجاه اي موتى/احياء ؟ من هم العرب الذين اخترعهم مسرة للنظر ؟ واذا كان مصير المستشرق هو ان يكون « متنقلا » محظوظا بين شواطىء اللسنيات وشواطىء الفكر ، واذا كان قدره دعاء فجريا ، فأي يوم مشرق تعدنا به كتابات واعمال جاك بيرك ؟

لنتبع خطاه في هذه المناقشة ، ولنتتبع هذه الطريقة التي تريد ان تكون متموجة الخطى ، انيقة و « في المستوى » · لنتابع هذا التقليد الجامعي في لهوه المولع بالغرابية ·· فلربما نفاجأ باننا اخذنا على غرة ، فنعاد الى قحتنا غير المالوفة ·

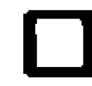
منظورا اليه من هذه الوجهة المزدوجة (الهجائية والانطولوجية اللاهوتية) يخفي الاستشراق قوانين تركيبه حسب نقل مزدوج لاساسه الميتافيزيقي · وسواء شاء ام ابى ، فان الاستشراق سيبقى منتميا الى تقليد عرقي ممركز على الذات لا يمكن اختزاله ، وذلك ما دامت المعرفة التي تسنده ، تندرج في حقل الميتافيزيقا ·

الا اننا ، من جانب اخر ، نجد ان الاسلام لا يسهل مهمة المستشرقين · ان الاسلام ، نتيجة لمفعول المرآة ، قابل لقراءة تمت من قبل من خلال مسافة اخرى · ذلك ان الها معينا لارسطو قد دخل في الاسلام قبل ظهوره · ويبقى السؤال مطروحا لمعرفة ما اذا لم يكن اللاهوت الابراهيمي (مهما كانت صوره المختلفة) في اساسه ، ظلا للالهي الاغريقي ·

مهما يكن فان الاستشراق محكوم عليه بان يستثمر الاخر عن طريق تحويل للاصل ،

وعندما يضايقه ذلك الاخر فانه يرمي به الى ارجاء الثقافية والتاريخية . وقد كتب بيرك سنة ١٩٥٧ يقول : « اجسر على التصريح اليوم بان الفرنسية تظل هي هيلينية الشعوب العربية » . فما معنى ذلك ؟

ان فعل (Simuler) معناه صنع مثل ، او حاكى ، اي صنع صورة مشابهة او ظلا للشيء المحاكى (Simulacre) . وفي معنى عميق نقول مع احد الباحثين بان « الظل Simulaire ليس نسخة مشوهة ، بل انه يكشف عن قوة ايجابية تنفي الصورة الاصلية والنسخة معا ، كما تنفي النموذج والاستنساخ » (٣) . من ثم يكون الظل تخيلا ضروريا للواقع حتى يهتدي هذا الاخير الى ذاته لكن محورا الى ايهام قوي . وهذه العملية التحويرية العجيبة هي خاصية الفن وميزته . الا ان « الظلال » لا تتوفر جميعها على نفس الكثافة . وفي مثال جاك بيرك ، فان الامر يتعلق بفن ضئيل يتوخى اخفاء العرب . انه يريد الاستيلاء على العرب دون ان يستند هو نفسه على اشارة الاب وعلى نسبه الخاص ، بل عن طريق التكسب بالقول الميتافيزيقي الذي يستبد بمجموع ارجاء نفس كاتبنا .



تاريخيا ، ترجع كلمة « مستشرق » الى نهاية القرن الثامن عشر . غير ان الكراسي الاولى لتدريس اللغات الشرقية ، كانت موجودة منذ ١٢٤٥ عقب قرار المجمع الديني المنعقد في فيينا (٤) . وتعني هذه الكلمة ، تخصصا جامعيا يهتم اساسا بماضي الشرق وبلغاته ودياناته . وبصفة عامة ، تميز الاستشراق بمرحلتين : الاولى تمتد من القرن الثالث عشر الى قيام الحرب العالمية الثانية . وكان هذا النوع من الاستشراق يبحث اساسا في التاريخ وفقه اللغة والاثنولوجيا .

وخلال المرحلة الثانية ، التي بدأت منذ فترة وجيزة ، اخذ الاستشراق يندمج في حقل « العلوم الاجتماعية » ، مع بعض التأخر . وقد عاش بيرك ، « ذلك الصديق للثقافة العربية » ، هذا الانتقال محاولا تنظيره بطريقته الخاصة .

ماذا يعني هذا الانتقال ؟

لنعد قليلا الى الوراء : ان جاك بيرك ، المولود سنة ١٩١٠ بالجزائر ، هو ابن لاحد المسؤولين عن استعمار هذه البلاد . وقد عرف اوغسطيس بيرك ايضا بالرقة التي ميزت بعض مقالاته القليلة . على ان الاب والابن يكتبان تقريبا بنفس الاسلوب . وكانت ابحاث جاك بيرك تنصب خاصة على التاريخ الاجتماعي للعالم القروي . شارك مع المهندس كولون في محاولة للاصلاح الفلاحي اطلق عليها اسم « قطاعات لتحديث طبقة من المزارعين » . وكانت الاقامة العامة بالمغرب (اثناء الحماية) قد قررت سياسة زيادة الانتاج ، متوخية من وراء ذلك ، مواجهة عواقب الحرب العالمية الثانية ، وجفاف سنة ١٩٤٥ ، والنمو الديموغرافي لسكان المغرب . وهذه السياسة كانت مصحوبة بمحاولة اعطاء « طابع اجتماعي وتربوي » لمثل ذلك الاصلاح ، حتى يستطاع تكسير عنق الزجاجة .

الذي وجدت الادارة الاستعمارية نفسها فيه ، نتيجة ، فيما يظهر ، لعتاقة التقنيات ولجمود المجتمع التقليدي · ويلخص لنا بيرك هذه المحاولة في صيغة ملفتة للنظر :

« وضع « الجماعة » فوق جرارة الحصاد » · ثم سيكتب بعد مرور ١٧ سنة على بداية تلك التجربة بان : « حركة طبقة المزارعين المغاربة ولدت من الالتقاء بين ملاحظة سوسيولوجية متصلة بحيوية العشائر القروية في بلدان المغرب ، وبين رهان على تجهيز الفلاحة بالمحركات » (٥) ·

رهان على ماذا ؟

الجواب : على ابقاء الاستعمار · والا كيف نفهم ذلك التصريح الذي اعلنه بيرك نفسه بمناسبة تلك التجربة المزعومة : « تتلخص المشكلة فيما يلي جمع وصهر ، صعود السكان المحليين مع العمق الفرنسي ، في حركة واحدة (٦) » ·

كان بيرك يشغل منصب مراقب مدني ، في عهد الحماية الفرنسية ، وقد اثبت في اطروحته لدكتوراه الدولة ، اقامته بالقرب من مدينة مراكش · ومنذ استقراره بباريس ، اخذ يتجاوز اطار المغرب الضيق ليصبح منظرا مستغربا لتصفية الاستعمار · حاول بيرك ان ينظر هذا الانتقال من الاستعمار الى الاستقلال · لكن عندما لا يفكر في انتقال تاريخي بما هو كذلك ، فانه يغدو انتقالا في الفراغ : لقد اسهب بيرك في القول بانه يفجر الاستشراق ، وبأن البحث بالمشاركة يجب ان يترك الكائنات والاشياء تاتي الينا ··· لكننا متأكدون باننا ، معه ، لن ننتقل الى اي مكان· لماذا ؟ ان هذا الوارث التركيبي للاستشراق في بلدان المغرب ، يجرب عصره وحقل تحليله (« عربه ») وكأنهما الة صغيرة حقيقية تلتهم كل شيء · يمكنكم ان تعاينوا ذلك اذا كان لديكم فضول قراءة ما كتب ، وستجدون انه ينتقل من مؤرخ اجتماعي (مدرسة الحوليات) ليصبح سيميولوجيا قافزا من حالة « نظرية » الى اخرى قبل ان نتمكن من استرجاع نفسنا ·· ها هو يطبق السيميولوجيا على العرب بعد ان كان ظاهراتيا منبضا يستوحي قراءة جد خادعة لما كتبه سارتر في الموضوع (على اننا نعرف المغامرة السيئة لسارتر مع فكر هيدجر) ·· وقد كان بيرك ، قبل ذلك مرة اخرى ، اثنولوجيا متأثرا بليفي ستروس ، ولسنيا بنيويا ، ومحللا نفسانيا لظاهرة تصفية الاستعمار ، ولفورة الاستقلالات الملونة الحماسية ·

ان ما يقوم به بيرك ، باسم التحليل النفسي ، هو دراسة ما لا يمكن استباره من نفسية الاعماق المتصلة ، كما اوضحنا ذلك مرارا ، بتقديم لاهوتي « للاعماق » ·

ومن السهولة بمكان ، ابراز مراحل هذا القفز النظري في اعمال جاك بيرك · الا اننا نؤثر تجنب بعض التفاصيل ، لنتابع تحليل هذا الكل المترنح · على ان هذه السرعة النظرية ، وهذه المهارة التي لا تترك اية موضة نظرية تفاجئها ، قد انتهتا الى تضليل بعض المثقفين العرب · والواقع ان التضليل يصبح كاملا عندما يزيد مستشرقنا ، بجسرة اصبح ، من حدة التناقض المصطنع :

« اذا كانت هذه المجتمعات (العربية) لم تتوفر بعد على التاريخ الذي تستحقه ، فان اللغة العربية ليس لها ، بل ما ابعدها عن ذلك ، المجتمعات التي تستحق » (ص ٥٧) ·

ان « عرب » بيرك يقطنون خارج لغتهم ، وخارج اللغة · اين يسكنون اذن ؟ ربما كان بيرك يلمح بشيء اكثر فظاعة : ليكون المرء عربيا حقا ، يجب ان يتبدل كما هو الشأن في قصص العلم الخيالي المستقبلي · لكن لنقتصر على قوله المتناقض ، سنقبل اقتراحه هذا اذا كان يعني ان الكينونة ، بما هي كذلك ، « ضياع » للهوية · وهنا يصح لنا ، فعلا تحديداً للظل الجذري · الظل الممتاز · لكن بيرك لا يهتم مطلقا بالميتافيزيقا · انه مؤرخ اجتماعي ، وعالم اجتماع يحب العرب لنكهتهم · وهذا لغز اخر علينا ان نفكه فيما بعد ·

لنر ، عن قرب ، كيف يتيه العرب في فقدانهم لهويتهم ، وكيف يواجهون تصفية الاستعمار ، والسيطرة التقنية · وايضا ، كيف يكتب العرب الاشعار ، وينفخون في الناي، ويحكون القصص · باختصار ، لنر كيف يعرض عرب بيرك انفسهم علينا ·

يلزم الالحاح على مسألة استمولوجية ، ترجع فيما يظهر ، الى المناخ اللذيذ للعالم الغربي : ذلك ان بيرك يترك عطور الجزيرة العربية تأتي اليه · ونتيجة لذلك (يمكنكم ان تتأكدوا في النص مما نقول) فقد اخترع بيرك ، في العلوم الاجتماعية ، تقنية الايحاء ، والمفارقة المسترعية للانتباه · انه مثل عراف حسوي ، يرمي نحونا ، من حين لاخر ، لغزا ، ثم ينتقل الى شيء اخر ، الى لغز اكثر غموضا · لا نستغرب اذا كان « عربه » قد انتهى بهم الامر الى العيش في الشبهية !

لنذكر بالسطور الاولى من كتابه « لغات عربية في الحاضر » ، الذي ننتقده مواربة في هذه المقالة · ان تلك السطور تطرح مرة واحدة المسألة الجوهرية : « لماذا العرب ؟ » يتساءل · نعم ، لماذا العرب وليس اللاشيء ؟ سنسايره في مساءلته · لنستمع الى السؤال المباشر في شكل ثنائي رثائي :

« ــ بوسعك ان تقول دائما لماذا العرب ؟

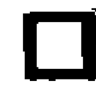
ــ مجالات اخرى من التبسيطية ، وتواريخ اخرى للانسان ، تسمح ولا شك بمثل هذه الصياغات والامال · لكن قيامي بذلك من خلال خصوصيات نوعية ، بالنسبة لي (وبالنسبة لهم) يجعلها مليئة بالنكهة ·

ــ النكهة ؟ كنت اظنك عالم اجتماع » (ص · ٣٥٥) ·

لا يزال هناك متسع لنعطي الكلمة لبيرك ، يقول :

« غير ان الاسلام لا يتمثل في حضور المقدس من خلال السلوكات والكائنات وتقريبا داخل الاشياء ، بقدر ما يتمثل في توظيف هذه العناصر من خلال كلية للذات ، لا تكون فقط « حلوة » على حد تعبير هيجل ، بل هي حادة ومحاربة ، او في كلمة جامعة : كلية رجولية للذات · الاسلام العربي هو كلية ساخنة » (ص ١٠) ·

كيف ، اذن ، يحدث هذا الوعد ، اي هذا المناخ المتلىء ، الرجولي الساخر واللذيذ النكهة ؟



مرة اخرى ، نتساءل من هم عرب جاك بيرك ؟ ما هي الكلمات التي يصوغ من خلالها السؤال ؟

سنعطيه الكلمة مرة اخرى ، يقول :

« ان الاضافة التي يقدمها التاريخ العربي المعاصر لنظرية وممارسة الحضارات ، تتوقف على ما يكون لهذا التاريخ من عناصر مشتركة مع التواريخ الاخرى ، او اكثر من ذلك ، على ما له من عناصر مميزة » ·

وهذا ، في رأينا بديل مغلوط اعتبارا الى ان الكينونة والهوية · والتغاير تعبر عن « ما هو نفسه (Le Même)وعن ظله » · وما يفهم دائما ليس هو الهوية في حد ذاتها ولا المغايرة لذاتها ، بل العلاقة التي تقوم بينهما · ان ما يميز ثقافة او تاريخا او كينونة هو بالضبط تباعد كبير يستلزم ، لكي يستمع اليه ، احترام ما ليس قابلا للاختزال · وحسب هذا الاستلزام ، فان الاخر لا يمكن اختزاله او ارجاعه الى جوهر ، ولو كان جوهرا فردوسيا ، دافئا ومعطرا · فالظل الذي يجعل من الذات ego اخر للاخر ، هو الخاصة المميزة للفكر وللفن ·

وكل هذا الذي ذكرناه به في عجالة ، قد اصبح مبتذلا في الفلسفة الغربية المعاصرة · اين يعيش ، اذن ، بيرك ؟ هل هو الاخر يسكن خارج لغته ؟ لكننا لا نتهيب كثيرا من منفاه داخل « كوليج دو فرانس » ، فنطرح نفس السؤال : لماذا العرب وليس اللاشيء ؟

ما فتيء بيرك منذ اصدر كتابه « العرب من الامس الى الغد » (١٩٦٠) يعيد تحديد العرب ، ولكنها تحديدات يوجهها وفاء «ميتافيزيقي» غريب · واليكم اهم افكاره في هذه المسألة ·

ان ما « يطبع » العرب ، هو أولا كلاسيكيتهم ثم استمرارية ممتازة للهوية · انهم كلاسيكيون بالمعنى الذي يجعل النزعة الانسانية الشرقية تجد عندهم وفاء والتصاقا بماضيهم وانطلاقا نحو المنابع · ويحاول بيرك ان يوضح هذه الانطلاقة وهذا الوفاء بوساطة مصطلحات متعددة تطفو فوقها كلمة اصالة · ان الاصالة تدعو المنبع والاصل من خلال قياس موسيقي ونبض الـ « ما هو نفسه » (وليس الهوية كما يكرر ذلك بيرك) ، على اعتبار ان « الما هو نفسه » ، هو الذي يتحول بصفته تباعدا غير قابل للاختصار ، يربط المغايرة بالهوية في حد ذاتها ·

لاجل ذلك فان بيرك لم يفهم فكرة المغايرة في عمقها وهو المستشرق المؤسسي الذي يدرس رسميا هوية العرب مطالبا بمنحهم « الحق في المغايرة » · ان هذا الانتقال الفارغ ، يحطم مجموع محاولته · ويسهل التاكد من ذلك من خلال المقولات التي يتلذذ بنكهتها :

هوية/مغايرة تعددي/ ، خصوصية ، اصالة ، جذور ، اسس ، اعادة التجذر ، اللامتلاك ، استلاب ··· مجموعة من المقولات المبعثرة هنا ، تحاول تثبيت قدميها فوق عرب مهتزين ·· ذلك انه منذ فلاسفة ما قبل سقراط الذين يعلن بيرك انتماءه اليهم في لحظات ضياعه ، ومنذ القديم ، وفكر الوجود يعرف كيف يميز بين الماهو نفسه ، وبين المطابق (L'identique) منذ القديم عرف ذلك الفكر كيف يغني ويحتفل بالتباعد الخارق الذي يجعل بالامكان ان اكون اخر الاخر ، ومع ذلك اكون انا نفسي منذ فجر الشعر والاسطورة ، تغنى ذلك الفكر بنشوة المغايرة المتشبثة بموقفها ·

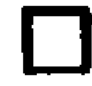
وبقدر ما ، تظل الميتافيزيقا فكرا للوجود وللاوجود ، للواحد وللمتعدد ، فان الاستشراق يظل متوليا لتوضيح تقاليدها وللتحدث انطلاقا من مفاهيمها · لكن يوم يخلف فكر المغايرة الميتافيزيقا ، فانه سيمكن للاستشراق ان يتحرر من نفسه · الا اننا نستطيع ،

في انتظار ذلك اليوم ، ان نزيل بريق مقترحات بيرك مهما بدت مضحكة مثل هذه : « ما هو الشيء الموحد وما هو الشيء المتعدد في العالم العربي ؟ هذه مشكلة ينبغي ، مثلا ، ان تحظى بتوجيه « التربية والثقافة » وهو القسم الذي تكون اخيرا في كتابة الجامعة العربية » ص ٦٢ طابع اخر يطبع العرب في نظر بيرك ، وهو سيطرة المقدس ·

على هذا الاعتبار ، سيكون المصير الراهن للعرب ، كما رأينا ، يقرره توتر بين المقدس والتاريخي ، توتر الانتقال من احدهما للاخر · لا شك ان هذا مقترح مشترى وشائع في الايديولوجية الاستشراقية ، الا ان بيرك يدقق موقفه عندما يلح على ذلك الذي يظل منطويا في جوف الاسلام : اي الوثنية والطبيعية بالخصوص · ومن ثم فانه يحتفل ايما احتفال بالشعر الجاهلي وبكثافته الغنائية الغريبة · فهذا الشعر المنبعث من الصحراء، يظل تحديا للاسلام الاورثوذوكسي ، في نظره · وسنعود الى هذا الاحتفال « البيركي » ·
ماذا يقول بيرك عن المقدس ؟

بما انه لم يفكر فيه بما هو كذلك ، في تطابقه مع الالهة والناس والاشياء ، فان المقدس يؤول ، عنده ، الى « مستوى » الوجود · انه يجعل من هذا المستوى تظاهرة تجريبية مبعثرة بين ثنايا اللغة ، والممارسة الطقوسية ، والسلوكات الجماعية · نحن ، اذن ، امام اختزال لاهوتي للاسلام · فاذا كانت هناك اقامة جوهرية للالهة في السماء وفي افئدة الناس ، فان المقدس لن يعطى بالضرورة لدين من الاديان ، ولن يكتب عن طريق الاعتقاد الصادق وحده · ان انبثاق وتلاشي هذه الاقامة ، هما اختبار صوفي صوفية جذرية · وهذا هو جوهر تجربة الشعراء الصوفيين المعلمين العجيبة · لاجل ذلك تنتابنا الدهشة امام سكوت بيرك عن هذا الموضوع وهو الذي يتطوع بالحديث عن المقدس اللعبي · الا يهتم بهذه الاغنية للوجود ، وبديونيسية النداء الابدي الذي عبر عنه الشعر الصوفي برقة لا تبارى ؟

ان ما يكتبه الاسلام الاورثوذكسي ، ليس هو فقط الطبيعة والوثنية ، بل كذلك الفكر الصوفي الذي اقلق اللاهوت وزحزحه عن مكانه ، ولو انه اعتمد على دراسة التقاليد · وكما يقترح الشاعر جان جينه ، فانه يتحتم علينا ان ننصت الى معشوق المتصوفة في معناه المطلق ليكشف لنا الذي يحمله للشعر الاسلامي العظيم الذي لا يمكن اختزاله الى قراءة لاهوتية · ان التصوف ليس مجرد « مستوى » يقع بين الادب وبين العلم والعلوم الدينية والفلسفة والميتافيزيقا · انه السؤال الحاسم للمقدس وللاقامة الربانية في افئدة الناس · انه تأكيد الوجود الديونيسي ، والظل التراجيدي للميتافيزيقا ·



هل يضع الاستشراق ، موضع التساؤل ، المصير المشترك للعرب وللغرب ؟ هل جدد بيرك السؤال ؟

نلاحظ ، من الوهلة الاولى ، ان سؤالا بمثل هذه الاهمية ، سيكون مستعصيا على مستشرق يولي وجهه نحو اية واحدة من سفر الوجود · ماذا سيصير مصير مثل هذا ؟

اما ان المستشرق سيجعل تعارضا بين الشرق والغرب طبقا لتقسيم ماهوي ؟ واما سيجعل من العرب نسخة مختلفة عن الغرب · هذا ما يضطرنا الى ان نسال بيرك : لماذا العرب وليس اللاشيء ؟

في هذه المسيرة ، يكون اثبات الذات الاكثر صوابا بالنسبة للشعوب المضطهـــدة ، هو زحزحة كل كلية وكل عالمية ، ومعارضة كل شيطانية كونية بفكر ضروري للمغايرة · ان هذا الفكر هو قدرهم ·

من سيفكر بدلا عنهم ؟

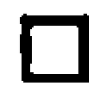
بالتأكيد ليس المستشرق المعتاد على استنتاجات تركيبية مغلوطة حـــول الواحـــد والمتعدد ، الموحد والجمعي · اكثر من ذلك ، فانه لا شيء ينفي ، في الوقت الحاضر ، وجود تضامن بنيوي بين الايديولوجية الاستشراقية وبين الشكل الامبريالي للغـرب ·· لا شيء يقول لنا بان المعرفة المطلقة قد كفت من ان تسكن الفكر الغربي ولو في فكره الاكثـر حذرا ·

منذ اصدر بيرك كتابه « انعتاق العالم » سنة ١٩٦٤ ، وهو يلح على الموضوع الاثير لديه : كيف يمكن ، بالنسبة للعرب ، الحفاظ على هويتهم مع تصنيع مجتمعاتهم ؟ ·

ان بيرك يفكر على عدة مستويات · فالكلية التي يتخيلها ، هي تركيب « ساخن » لمختلف هذه المستويات · الا ان بلاغة كاتبنا نفسها تفقد اهميتها عندما تتوغل في متاهة تجزيئية محاصرة داخل سياج تجريبي · لقد امسك هيدجير ، بكيفية جميلة ، التقنية في جوهرها · فهي عنده ليست مستوى من بين مستويات اخرى · وهي ليست مجرد ازدهار للصناعـــة وللانماط العلمية ، ولا تضمن فقط توسع الاستهلاك · ان التقنية ، بما هي كذلك ، تضمن وتؤمن المصير الميتافيزيقي للغرب · ليس هناك موضع محقق للتحكم فيها · انها تـؤوي خطرا بكرا للكينونة · لاجل ذلك ، لا يمكن القول بوجود : هوية للكينونة العربية مـــن جهة ، وبملجأ نسبي للتقنية من جهة ثانية ·

كيف يتموضع انشقاق الكينونة التاريخية ؟

ان الاستلاب (في معناه عند ماركس) ، يعني الشيطانية المطلقة للانسان ، بالقـــدر الذي يجعل الاستغلال والفارق الطبقي هذا الانسان غريبا عن وجهه الخاص وعن محيطه الملتصق به · وبعبارة أدق ، فان الاستلاب يصير الانسان مستعصيا على ان يتعـــرف عليه ، ومن ثم يصبح خطيرا على المسيطر · والواقع ان صعوبة التعرف هذه عـــلى وجه الاخر ، قد انجزها بيرك بدون ان يعلم ، حين يقول : « لكن ، لكي يظل العرب ، مثلا ، هم انفسهم مع ارتيادهم للعالم الصناعي الذي يحاصرهم من الخارج ويستثمرهم مـــن الداخل ، فانه يتحتم عليهم ان يطبعوا جميع طرائق حياتهم بنفس طابع ترقية حياتهــــم المادية · يتوجب ان تتخذ ثقافة الازهر مشروعا لها ، التوضيح الواعي المذهبي والاخلاقي الاجتماعي ، وذلك بنفس الوتيرة التي يتم بها تصنيع مصر » ص ٣٦ · ان هـذا الربـــط اللاهوتي في غنى عن اي تعليق ·



المستشرق ، مترجم بالقدر الذي ينقل فيه اشياء من شاطيء لغوي الى شاطيء اخر · وحلمه هو ان يكون مزدوج اللغة : كيف يتجه نحو لغة الاخر ، وكيف يستقبلها في لغتــه الخاصة ؟

اننا نتحدث عن المستشرق الحريص على مصير الغرب ، والذي يمثل العرب ، فـــي

نظره ، شكلا من الكلاسيكية الغربية · في هذه الحال ، يصبح مصير العرب « مرحلة ميتافيزيقية للغرب » · وبيرك يستوحي هذا الموقف الثاني · صحيح انه يشير في اكثر من موضع الى الاصالة المتفردة للاسلام والعرب ، ويلح على هذه العلاقة التي تجعل العرب جد قريبين وجد بعيدين عن اوروبا · لكن ذلك لا يعدو ان يكون تصريحات مبدئية متأخرة بعض الشيء بالنسبة لبيرك ، وهذا غير هام ·

ان مصير العرب ، عند بيرك ، يتمثل في كون التاريخ فاجأهم وفي كونهم وصلوا الى المسرح العالمي وهو محتل من الحضارة الصناعية ·

ماذا يعني الانسحاب التاريخي للعرب طوال عصور « الانحطاط » ؟ ومنذ متى أصبح انسحاب الكينونة يعني تأخرا ؟ تأخر بالنسبة لاي شيء ؟ لا يهتم بيرك بالاجابة على مثل هذه الاسئلة ويتابع طريقه الى امام · انه يحب ان يحلم بعالمية ، و « بنسق للكون » من شأنهما ان يحفظا تعدد الثقافات والمجتمعات · انه يحلم بجدلية « للموحد والمتعدد » ، ويدعو الى تصفية مطلقة للاستعمار باعتبار ان ذلك يعني : « اعادة اضفاء الطبيعة على الثقافة ، واعادة تثقيف الطبيعة : وهذا هو المعنى الحقيقي لتصفية الاستعمار ، وكذلك لجميع الثورات » (ص ٣٥٥) ·

لكن ما معنى العالمية بما هي كذلك ؟ هل يظن بيرك (هذا الطوبوي عند المناسبة) بان منطق التقنية وارادتها في القوة يمكن مراقبتهما ؟ ان ما نعانيه على الاصح ، هو علامات استعباد فظيع للشعوب ، المصنعة وغير المصنعة · استعباد ندركه لا كتشخيص اخروي ، بل كارادة للقوة تتمدد داخل كينونته الخاصة · مهما يكن ، فاننا لا نريد التبشير بأية غائية ولا نريد ان نوجه اية صرخة قانونية (نسبة الى فرانز فانون) · وفي جميع الاحوال ، يتحتم علينا ان نسير الى ما لا نهاية · واثناء هذه المسيرة ، سنكون مشدودين الى حلم ازدواجية اللغة · الا ان جوهر الشعر هو كونه غير قابل للترجمة · كيف نقترب وننصت الى هذا اللاقابل للترجمة ؟

لقد تساءل الشاعر الالماني هيردر Herder في القرن الثامن عشر : « اين هو المترجم الذي سيكون ، في آن واحد ، فيلسوفا وشاعرا وعالما لغويا ؟ لا بد ان يكون نجمة الصباح لعهد جديد في تاريخنا » ·

معنى ذلك انه لا بد ان يكون المرء مثل نيتشه ليكون مترجما ، اي ان الترجمة هي سعادة استثنائية جدا ، بحيث لا تتم الا من حين لاخر في تاريخ الانسانية · هل يجب ان يكون المرء شاعرا وفيلسوفا اذا كان مستشرقا بكيفية جذرية ؟ نعم ، عندما لا نفصل الفكر عن اللغة التي تؤويها ، ولا الدال عن مدلوله ، ولا الشكل عن المادة · بلا شك نجيب بالايجاب عندما نشق طريقنا نحو فكر للمغايرة · فالنص وحده قادر على اعطاء الكلمة للمغايرة · لماذا ؟ ذلك ان اللغة التي تنقل لغة اخرى ، يجب أن تتحول اثناء هذه الرحلة مع بقائها هي ذاتها · انه تحول غريب ومرعب عندما تنتمي لغتان الى مصادر لسنية متباينة ، والى حركتين ميتافيزيقيتين مختلفتين · وفي هذه الحالة ، لكي يكون النقل واضحا ومقروءا ، فانه يتحتم على هذه الغرابة ان تخضع لفكر مزدوج للمغايرة ، ولتباعد جذري · وبدون هذه الجذرية ، يظل النقل نقلا ، ويظل الاخر اخرا بدون ان يصير داخل نفسي كتجذر جديد وكمنبع لكينونتي ·

ان جوته ، في ديوانه الغربي ـ الشرقي ، يميز بين ثلاثة انواع من الترجمة : ترجمة « تجعلنا نعـــرف الاجنبي من وجهة نظرنا نحن » ، وترجمـــة Parodistique « لا تستهدف سوى امتلاك الفكر الاجنبي ، لكن مع نقله الى فكرنا » ، وترجمة ثالثة « ترمي الى التطابق والتوحد مع الاصل ، وتنزع الى التقرب في النهاية من المعنى الكامن وراء السطور ، فتسهل كثيرا فهم الاصل ٠ وعن طريق ذلك نجد أنفسنا ، بغير قصد ، أمام النص في شكله الاولي ، وتتم بكيفية نهائية الدورة التي ينجز من خلالها نقل الاجنبي الى الاهلي، ونقل المعلوم الى المجهول » (٧) ٠ ان جوته يحبذ هذا النوع الثالث من الترجمة ، ولانــه يتوفر على عبقرية تركيبية فقد أضفى على الاستشراق نبلا فكريا ، وسكنا شعريا ، واهتماما بالجمال عند الآخر ٠ ان جوته يؤسس الاستشراق داخل جذور الكينونة ، ومن ثم فــان ديوانه ، يساوي بحق مجموع النصوص الاستشراقية ٠

والواقع أنه ، باستثناء محاولات متخصصة نادرة وجريئة ، لا يزال الشعر العربـي ينتظر من يترجمه ٠ ويساهم بيرك ،على طريقته ، في رسم معالم طريق هذه الترجمة ،وهذه هي القيمة الاساسية لكتابه « اللغات العربية في الحاضر » ٠ الا أنه يجب ان نوضح مسألة ما يسميه تعدد اللسان Hétérophonie ٠ فالامر يتعلق ، مثلا ، بالكتاب العرب الذين يكتبون بالفرنسية وخاصة عندما يقول : «بدون ان نتقصد اثارة المسألة بجلبة كبيرة ، فاننا نقول بأنه غير طبيعي أن تعبر طليعة من الادباء العرب ، بما فيها من شعراء ، بلغة الآخر ٠ الا يؤدي ذلك الى هجرة من الداخل ؟ بلى ، وهذا جد صحيح » ص ٦٧ ٠

نريد أن نثير المشكلة من حيث اتصالها بظل لساني ، يوجد أيضا في رغبة ازدواجيــة اللغة عند الاستشراق ، ولكن بمعنى معكوس ٠ لعبة مرآة : المستشرق المحترف في حالــة صراع داخل لغته الخاصة ، وصراعه مع منافس خطير ينزع ، بشكل ما الـى احتلال نفس المكان ، ونفس المسرح ٠ من ثم ، نستطيع أن نفهم ، ضمنيا ، الضغينة المتبادلة التي تكمن وراء هذا النوع من الجدال ٠ وما يهمنا هنا ، هو ابراز المسألة في الكلمات المعبرة عنها حقيقة ، بعيدا عن الصياغة البسيكولوجية والتاكتيكية التي يلجأ اليهـا بيرك ٠ ان كينونة لغة ما ، تتجه نحو كينونة اللغة التي تتجه هي أيضا اليها ٠ انها تسير نحو مـن يندرج جذريا ، داخل نفسه ، ضمن المسافة القائمة بين الهوية والمغايرة ٠ هذه المسافــة الفارقة هي مسرح النص ودائرة مراهنته ٠ وفي الادب المغربي المكتوب بالفرنسية ، فـان مثل هذه المسافة الفارقة ـ عندما تصبح نصا وقصيدة ـ تفرض نفسها من خلال « غربتهـا الجذرية » ، أي من خلال كتابة تبحث عن جذورها في لغة اخرى ، وفي « خارج » مطلق ٠ كيف نستطيع ان نقيس ما يمكنه أن يتحول في هذه الغربة الجذرية ؟ اذا كانت رغبتنا هي في عمقها ، مزدوجة اللسان ، فباسم اي شيء يريد بيرك ان يحول بيننا وبين الرد عليه في لغته الخاصة ، وخارج بلاغته المتغطرسة ؟

في كتب جاك بيرك ، يسلك العرب طريق السرية ، مثل العمال المهاجرين من أقطـــار المغرب في حي باريس بالعاصمة الفرنسية ٠ وهذا يدخل في عناصر المنطق الرقيق واللذيذ بطريقة التناول عند بيرك ٠ ذلك ان بيرك ، وهذا تناقض بالنسبة لمستشرق ، لا يحب الاسلام : انه يحب ما قبل الاسلام ٠ حب مشروع ، لكن لماذا ينساق للاوهام حول مواضع رغبته ؟ انه يحتفل بالجاهلية وبشعرها احتفالا تطبعه الحيوية والنوستالجية الطبيعيـــة

والصنمية ، مما يجعلنا نصغي اليه بأذن مزدوجة : اسلامية وجاهلية ، حين يقول : « الصفة الوحيدة التي تخولني الحديث عن الشعر القديم ، هي حبي للشعر العربي القديم ٠ » (ص ١٨٦) ٠ هذا الحب لا يجدد مسألة الاستشراق ، لكن الطريقة التي يترجم بها بيرك بعض المعلقات ، هي ذات أسلوب مجود ، يكاد يغني ، ومرصع بتنغيمات سجعية على شاكلة ما نجده عند سان جون بيرس ٠ ان شيئا صميميا وجوهريا يتكشف عند هذا الرجل الغسقي الذي يمضي وقته في كتابة اسفار مملة ، موادها مهربة ، وذلك ليختفي وراءها فلا تبصره عيناه ٠ ان ما يقوله بشعور أدبي ممتلىء ، عن عدم تمفصل الاصل الذي تنبثق منه رسالة القرآن ، وما يردده بسطحية عن كينونة الشعر او الاطلال المندرسة في صحراء البدو ، يذكرنا بالسراب المتهاوي للغرب كما كان يتغنى به فولني Volney أمام الاطلال الفرعونية ٠٠٠

لقد دخل الاستشراق ، مع حملة نابليون ، في امبريالية المعرفة المطلقة ٠ ومع جاك بيرك، يلتقي الاستشراق من جديد بالنزوة النوستالجية لاندثاره ٠

حاشيـة II

في معنى نبيل ، يكون المستشرق هو الذي يسهر على فجر الفكر ٠ وهذا اقتراح لا يجب ان نعتبره بمثابة استعارة ظرفية ، بل هو يعبر عن موقف جذري يرى ان الشرق والغرب لا يمكن اختزالهما الى توزيع جغرافي أو الى أية مغايرة ثقافية ٠ انهما يدعوان ، في مسافتهما الفارقة الى المسألة الجوهرية للكينونة حسب بروتوكول فجري وزواجي ٠ بروتوكول لا يحيلنا الى فلسفة نورانية تحور ، عن طريق صور شمسية ، الميلاد اللا مفكر فيه لكل شرق ولكل غربٍ ٠ ان هذا الميلاد يملي انشودة اليقظة ٠ ومن ثم فانه ، دوما ، حدث خارق للعادة ، لا يعطي قط كموهبة فوق طبيعية من لدن السماء ٠ ان هذا الميلاد، باعتباره موهبة ، وذاكرة ضائعة ، هو احتفال باللامفكر فيه ٠ ذاكرة ضائعة بمقدار ما تهب الموهبة لشركاء لحظة انتشاء ٠ لكن ، لكي ترتاد مثل هذه الموهبة محيط الآخر ، فانه يتحتم عليها ان تكتمل ايضا حسب فكر للمغايرة ٠

استشراق جذري ٠ لا شك أن مسألة الشرق الاقصى هي بحد ذاتها متطرفة ، خارجة عن القياس بالنسبة للمسألة الاغريقية ــ العربية التي تحدثنا عنها في هذه المقالة ٠ انها متطرفة بما تعد به ، غير أن الشرق الاقصى ليس بأي حال ، فوق ــ طبيعي ٠ انه يستقبل ، على طريقته ، من يسير نحوه ، ومن اتجه باستمرار ٠ كذلك فانه لا يتحتم الانتظار الى ما لا نهاية لمعاودة الحوار ٠ ان العالمية الامبريالية للتقنية لا تعلن بالضرورة قيام فكر موحد يسكن بتمايز في « الماهو ــ نفسه » ٠ انها ، على العكس ، يمكن أن تؤدي الى استعباد لم يسبق نظيره ٠

ان جوته يدلنا على الطريق في قصيدته الرائعة « الديوان الغربي ــ الشرقي » :

الغرب ــ مثل الشرق

يمنحانك تذوق أشياء خالصة

أترك هنا الاهواء والقشرة

اجلس في الوليمة الكبرى :

فلن نستطيع ولو عابرا
أن تعزف عن هذا الطبق
من يعرف نفسه ويعرف الآخرين
سيعترف بهذا ايضا :
الشرق والغـرب
لا يملكان بعد أن يفترقـا ٠

تعريب : محمد برادة

الحواشي :

1 - Michaux Bellaire : La - mission Scientifique du Maroc , Servicede Renseignement , Rabat, 1925 .

٢ ـ مقدمة هنري توربان لترجمته للملا الشيرازي في :

Le livre de penetrations - metaphysique . TERAN Paris 1964 .

3 - G . Deleuze : Logique du - sens , 10/8 , 1973 . p . 357 .

4 - Maxime Rodinson : the - Western image and Western - Studies of Islam.in the Legacy of Islam , Oxford 1974 .

5 - De Possession du Monde , Le Seuil 1964 .

6 - Bulletin D'information du - Maroc , oct . 1945 .

٧ ـ راجع ملاحظات جوته في الديـوان الغربي الشرقي ، ترجمة

H. Lichtenberger

نشر Aubier ـ ١٩٤٠ ٠

كتب

سميح القاسم
الى الجحيم ايها الليلك القدس
منشورات صلاح الدين

تشكل الرواية الاولى للشاعر الفلسطيني في الارض المحتلة سميح القاسم ، خطوة متقدمة كنموذج في الرؤية التقدمية الواقعية لقضية الشعب الفلسطيني والقضايا الانسانية بشكل عام ·فمن خلال المعاناة الحقيقية والشعور الكامل بالمسؤولية يجسد القاسم في روايته هذه حقيقة المأساة التي منها عانى ويعاني الانسان العربي الفلسطيني والانسان اليهودي · فمنذ بداية « الانشطار » ـ الفصل الاول في الرواية ـ حتى نهاية « القيامة » ـ الفصل السادس الاخير ـ تلمس التوتر والقلق يهيمنان على الواقع الذي تصوره الرواية مما يعلن بوضوح كامل عن عدم الاستقرار لهذا الواقع واستحالة استمراره · وتلمس الاخطاء الفاجعة والافكار الانهزامية والرجعية التي استطاع الكاتب ان يسلط عليها ضوءا كاشفا قويا يجعلك تدرك بسهولة ووضوح حدود المسؤولية القابعة وراء هذه الافكار ـ الكارثة · وخلال ذلك لا يقف الكاتب محايدا ـ فهو محور الرواية ـ هو لا يكتفي بان يعكس هذه الحقائق على صفحات روايته بعبارات مكثفة شاعرية كما لا يكتفي بتحديد المسؤولية وانتظار الحكم بل ينحاز ، يدين الفكر الرجعي الذى خلق المأساة وادى الى استمرارها، ويدعم بكل قواه الفكر التقدمي الثوري ·

والكاتب من اجل تحقيق ذلك يستنبط الاسلوب الذي يستطيع حمل هذا التجديد· فهو لم يرتض الاساليب التقليدية لهذه الرؤية الجديدة · فمع انه كتب على الغلاف الخارجي بان الرواية هي (حكاية اوتوبيوغرافية) الا ان الرواية لا يجوز ان تفهم على اساس انها سيرة حياة الكاتب · فهي « حكاية » تعتمد على تاريخ حياة الكاتب اعتمادا كبيرا او انها حياة الكاتب ادغمها في فهمه لواقعه ورؤياه لمستقبله · هي تاريخ حياة الكاتب كخلاصة لتاريخ حياة شعب تجرع المأساة فصمد ·· وهاجر ·· وعاد ·· وثار · فالرواية تستند فعلا الى مساحات من تاريخ حياة الكاتب رصفها مندمجة برؤياه ـ بفن خلاق واستخرج منها لوحة موزاييكية رائعة ·

وقد استفاد الكاتب تماما من تلك الاشارة (حكاية اوتوبيوغرافية) في انه اكسب روايته حدا اعلى من تاكيد صدق الاحداث وواقعيتها ولا يبدو ان اشخاص الرواية عند سميح القاسم بعيدون عنهم في رواية « المتشائل » فهم على الاقل متشابهون من حيث المهمات وان اختلفوا من حيث التركيب وطرق التعبير · فسعيد في رواية المتشائل خلال مسيرة حياته

قدم عرضا مفصلا ناقدا لسيرة شعب بأكمله · وقوعه تحت نير الاحتلال ، ومعاناته لواقع هذا الاحتلال واستحالة تكيفه معه مهما حاول وبذل وتنازل مما يفهم منه بشكل واضح في النهاية ان الاحتلال الصهيوني هو الذي يرفض استمرار وجود هذا الشعب على ارضه ـ ولو في ظله وتحت هيمنته ـ ويبذل كل الجهود للتخلص من هذا الشعب لتظل الارض خالية مطواعة لمخططاته ·

هذه الصورة التي قدمها « سعيد » تشكل ايضا حجر الاساس في الصورة التي قدمها القاسم نفسه كشخص من شخوص روايته · فالصورة تتركز بكاملها على واقع فلسطين عام ١٩٤٨ ـ النكبة ـ واستمرار هذا الواقع حتى الان · واللوحة التي تمثل النكبة حرفيا يمكن تجميعها من الفصلين الاول « الانشطار » والثاني « الهاوية » من خلال عبارات مكثفة تصور هذا الواقع بوضوح او توحي به بحدة وبلغة القاسم الشعرية التي تنساب على طول الرواية · فالناس منشغلون مرتبكون ، والنساء اللواتي كن يجدن الوقت والميل لابداء اعجابهن ـ فيما مضى ـ بهذا الفتى ما عدن مهتمات بذلك (اليوم لم ترمقني نساء العين باعجاب · لم اسمع تلك الغمغمات المثيرة ولم تكن هي في انتظاري عند المنعطف · المدارس مسكونة بالجنود اسمهم « جيش الانقاذ ») · « وكولد » تنعكس النكبة في ذهنه بصورة احتجاج وثورة على المفاهيم والقيم المتخلفة التي يتمسك بها والداه من ناحية (الله معنا ! الله معنا ! لماذا اذن يرضى الهكم هذا بان تهدم الطيارة بيت « دنيا » ؟ لماذا يأخذها الهكم مني ؟ لماذا يجعلها لاجئة ؟ هه ! الله معنا · الله يدافع عنا · كفاية ! كفاية !) ومن ناحية اخرى تنعكس على شكل حزن عميق مذهل (انا بعدك عصفور ممزق على الشارع العام ·· نوري مسحوق ·· معسته سيارات العساكر والسياح) ·

وحين يكون هادئا غير واقع تحت التأثير المباشر لفقد « دنيا » ـ فقد اعتاد حقيقة فقده « دنيا » ـ يقدم وصفا سريعا ولكنه ايضا مكثف ذو دلالات شاملة (١٩٤٨ ـ جموع النازحين تتدفق على « الرامة » من الشرق والغرب والجنوب جداول آدمية باهتة تصب في هذه البحيرة الراكدة ثم تتدفق عبر الشاطىء الزيتوني ·· بيد انها تتدفق في اتجاه واحد فقط ·· نحو الشمال ·· تتدفق نهرا بشريا داكنا يلهث ، يعوي وينتحب) ·

وعن جيش الانقاذ ايضا (جاءوا ليدافعوا عنا · فلماذا حولوهم الى مجرد خيارات مكبوسات في سيارة هاربة الى الشمال ؟) ·

هذه اذن مأساة القاسم جزر عذابه ولا وضوحه وتبدده الذي وضعه في اطار من « الليلك » ، كما وضع جميع الالفاظ التي تحمل اي شيء من مدلولات العذاب واللاوضوح والتبدد (الاشتباه الظن ، المتوقع ·· الضرب بالودع ، البصارة ، الهوروسكوب ـ كلها « ليلك ») ·

ومن هنا فان صرخة القاسم (الى الجحيم ايها الليلك) دليل رغبة عارمة في النفاذ من المأساة · رغبة في نفض غبار العذاب واللاوضوح والتبدد والتخلص من ربقتها ، تلك الصفات التي لازمتنا منذ زمن طويل (وكانت « دنيا » تحب فستانها الليلكي ، تلعب فيه وتنام فيه ، وفيه تذهب الى المدرسة) و « دنيا » ترمز هنا الى الشعب الفلسطيني ويمكن ان

نقول بالتحديد ترمز الى الفلسطينيين الذين هاجروا · ولكن ، ما هو مطلب القاسم بالتحديد ؟ هل يكتفي في روايته بمجرد التعبير عن هذه الرغبة في النفاذ من المأساة ؟ · الواقع ، كلا · فصرخة القاسم الحقيقية تتجلى بوضوح هنا :

(سام او حام او يافط · هذه الامور الانتولوجية لا تعنيني كثيرا · المهم انني فقدت وطنا كاملا وحقيقيا بترابه وصخوره واشجاره ·· بناسه ومدنه ودكاكينه وقراه واثاثه وملابسه وقهوته الساخنة ، فقدت وطنا في حالة جيدة وصالحة للاستعمال مئة بالمئة ·· لم يذهب هذا الوطن الى كوكب اخر ·· انه على الارض تعرفون انتم موقعه ·· تعرفون جيدا وطني الذي ضاع بلا اي منطق ·· في زمن من المفروض ان ينتصر فيه المنطق · اريد شبرا واحدا من العدل · هوية واحدة من العدل · « دنيا » واحدة من العدل) ·

فهو يطلب حلا عادلا لقضيته · وهو يعترف بان العدل المطلق امر غير ممكن ولكن هذا لا يجوز ان يكون مبررا لضياع حقه · هو لن يقبل ذلك ومستعد لبذل اي ثمن من اجل استرداد حقه ، انه يهدد ثم يطرح الحل الواقعي من وجهة النظر التقدمية لا من وجهة النظر المستسلمة ·

ومع ان هذه الصرخة تمثل صلب رواية القاسم ، الا انها في الوقت نفسه لا تمثل الا جزءا من الافكار التي عالجها · ما هي ابعاد المأساة ؟ واسبابها ؟ وما علاقتها بالمآسي الاخرى ؟ وهل يمكن النفاذ من هذه المأساة ؟ وكيف ؟ ·

هذه الاسئلة يجيب عليها القاسم في روايته بكل صراحة · ففي بداية روايته باستشهاد من هاملت (ستفهم من يكون هؤلاء الناس لان الممثلين لا يصونون سرا ويفشون بكل شيء) يعد بان ما بين دفتي هذه الرواية هو لخدمة الحقيقة · ومع ذلك يؤكد القاسم هذا الوعد (ولتذهب الى الجحيم كل الموازين التي تعوق مسيرة الحقيقة ·· سري مع « الليلك » هو جزء من حقيقتي التي ازعم الافشاء بها ·· هذا السر عذبني طويلا ولا ينبغي علي الصمت عليه اكثر مما مضى) ·

وفعلا فالقاسم بر بوعده على طول روايته · ابرز اسباب النكبة بواقعية وبدون تحفظ او انحياز ·

(من هم اليهود يا جدي ؟· ـ هم ناس شريرون يريدون قتلنا واحتلال ارضنا · ـ لماذا هم شريرون يا جدي ؟ ـ لانهم لا يحبون الناس ·· والله لا يحبهم·· ـ هل الله يحبنا نحن يا جدي ؟ ـ اجل يحبنا يا بني · ـ اذن لماذا لا يحمينا الله من اليهود ؟ ـ سيحمينا !) ·

هذه العقلية التواكلية والاعتماد على القوى الميتافيزيقية هي ولا شك احد اسباب النكبة والكاتب يكشفها في اكثر من مناسبة · كما ان الفهم الخاطىء لليهودي كان ولا شك من اسباب « الانشطار » وتسهيل مهمة القوى الخارجية · وقد يشير الكاتب في بعض عباراته اشارات غير مباشرة ، فهو يصف حماس الرجال الذين هبوا للدفاع عن « الليات » ، ثم يصف احباطهم (افرغوا امشاط رصاصهم القليلة وعادوا قطيعا مذعورا) · ايـن السلاح ؟ ومن المسؤول ؟ ·

وفي دوامة هذا المأزق يبرز « حسن » الكسيح · الفتى الذي لم يتمكن من الرحيل او البقاء « فلجأ » في وطنه الى « الرامة » · فحسن هنا يرمز الى جيل

تشده الرواسب المتحجرة والعقلية المتخلفة التي تعجز عن فهم الاحداث فلا تواكب حركتها (الكسيح يا اولاد لا يستطيع المشي) .. (لم اكن كسيحا في يوم من الايام كان الكساح في عقولنا وقلوبنا) . واحتضان هذا الكسيح لم يكن شيئا اصيلا ، فقد استمر لبضعة ايام فقط . ثم تعرض للاهمال ، ومضايقة الاولاد وسخريتهم منه وتعذيبه حتى قضى، وهذا يرمز الى رفض الجيل الجديد للعقلية الساكنة المتخلفة .

ويؤكد الكاتب هذا الرمز بان يشير الى ان حسن الكسيح موجود في الجميع – الباقون على الارض – فهو ليس محصورا في فئة محددة وانما هو منتشر في الجميع بمقدار ما ، وهو نفسه – الكاتب ، فيه شيء من الكسيح (انه هنا في داخلي واشاهده كل يوم . اشاهد كل شيء . واحيانا حين اكون في حالة سكر . مثلا ، ابكي واضحك وابكي منشدا لنفسي : يا سميح انت حسن الكسيح) .

غير ان ابراز اسباب النكبة واسباب استمرارها لا يقتصر على فصل معين بل هي تظل تدق كاجراس انذار على طول الرواية . وهي لا تخرج عن الاطار الذي حدده الكاتب منذ البداية ولكنها تطل كل مرة بصورة . بموقف . بدوامة جديدة . مؤكدا ان اسباب النكبة في حد ذاتها لا تزال موجودة بل وتتأكد ، وفي كل يوم تضاف اسباب جديدة ترسخ اسباب النكبة وتحتم استمرارها . (كان النصر الكبير في حرب الايام الستة اجمل ميني لبسته تل أبيب .. كانت تل ابيب تتجول على ارصفة ديزنغوف واللنبي وبن يهودا وحتى في كرم هتيمينم وحي هتكفا ، راقصة مزهوة بذلك الميني) وفي المقهى .. (حتى زبائننا كانوا مغرمين بالبزة العسكرية) . هذه حتما احدى اسباب استمرار المأساة بل ابرزها : التعنت والغرور الاسرائيليين بعد حرب ٦٧ . والواقع ان هذا التعنت والغرور ليس في « النظام » فقط ، بل هو واضح في عقلية الشباب الاسرائيلي وخاصة الذين وقعوا تحت تأثير الصهيونية – ويمثلهم في الرواية « اوري » – فالكاتب في بداية روايته ابرز ان بعض اسباب النكبة كان يكمن في الفهم والعقلية العربية ، الا انه يؤكد بعد ذلك ان اسباب استمرار المأساة يكمن في الفهم الخاطىء لطبيعة القضية من قبل النظام والانسان الاسرائيلي على السواء :

« – هل استطيع ان اعلم لماذا اطلقت علي الرصاص ؟ قال : – لانني اكرهك ، قلت : لماذا تكرهني ؟ قال : – لانك تكرهني . قلت : هل حاولت مرة واحدة ان تعثر على جزر الكراهية ؟ قال : – تكرهني لانني احب « ايلانة » ! قلت : – انا لا اعرف « ايلانة » ، اعرف « دنيا » واحبها . ولا تنس انك دمرت حبنا . فلماذا لا ترى ايها الفتى المسكين انني املك كل المبررات للدفاع عن حبي ، وانت لا تملك اي مبرر للدفاع عن كراهيتك ؟ »

وتتضح الرموز هنا كما تتضح الافكار، « فدنيا » تمثل فلسطين كما تمثل «ايلانة» اسرائيل بينما اوري يمثل الشباب الاسرائيلي . والفقرة السابقة تمثل استنكار الفلسطيني ، للعقلية الاسرائيلية المتحجرة ، مما يؤدي الى الاستنتاج بان العقلية الفلسطينية هي اكثر تطورا في مجال فهم الواقع الموضوعي الذي تعبره القضية الفلسطينية . وتحجر العقلية الاسرائيلية لا يبدو فقط في هذا المجال بل يظهر في الصورة المنغلقة في تصورهم للمقاتلين الفلسطينيين الذين يسعون الى تحقيق

حقوقهم ، وفي فهمهم للشيوعيين الذين يعيشون بينهم وتحاملهم ضد هؤلاء الشيوعيين بسبب فكرهم التقدمي وبسبب دفاعهم عن المناضلين الفلسطينيين (المخربون اعداؤنا ونعرف كيف نعاملهم . اما المصيبة فهؤلاء الشيوعيون القذرون ، الذين يدافعون عن المخربين هنا في بيتنا ! لو ان لدينا حكومة رجال لالقت بهم جميعا في السجن) .

من خلال اقامة هذه المقارنة بين عقليتين يصل القاسم الى حتمية انتصار الشعب الفلسطيني وحتمية انهزام الفكر الصهيوني الرجعي من خلال صورة مقتل « اوري » في الصدام الذي جرى بينه وبين الفلسطيني . فقد تقدم « اوري » شاهرا سكينه لقتل الفلسطيني فسقط عليه فرع من فروع الشجرة الفلسطينية النادرة الكثيرة التي لا تحصى فمزق جسده . وهنا صرخ الفلسطيني (اوري ايها الفتى المسكين لماذا انتحرت ؟) وذلك هو الواقع ، فالفلسطيني لم يقتله وانما قتله فهمه الرجعي وانغلاقه .

ونتيجة لهذا الفهم المتناقض لطبيعة القضية بين الفلسطيني والاسرائيلي فان اللقاء بينهما مستحيل ـ وقد عبر الكاتب عن ذلك باللقاء الذي لم يتم بينه وبين « ايلانة » رغم كل الجهود « فايلانة » حبيبة « اوري » تلك الفتاة التي اصيبت بالضياع نتيجة مقتل حبيبها استثارت عطفه . فحدد موعدا الساعة السابعة مساء للقاء بها في مقهى « كسيت » الا ان الفارق بين توقيته وتوقيت ايلانة حال دون هذا اللقاء (اسابيع عديدة ضاعت هباء ونحن نحاول اللقاء . ايلانة في السابعة وانا في السابعة . غير أن ساعات عديدة كأنها قرون بكاملها ظلت تفصل بيننا) .

ومع ذلك فلا يحمل الكاتب الطرف الاخر مسؤولية استمرار المأساة منفردا . فعجز الفلسطيني عن تقديم صورة تحليلية علمية عن المأساة هو عامل هام . الكسب العاطفي ليس كافيا يجب ان تكسب المعركة في ذهن العالم . وهنا يحاول الكاتب ان يظهر ان هذا النضال السياسي الدبلوماسي لا يقل اهمية عن القتال ، وانه الى جانب ذلك الجزء من العالم الذي لم يفهمنا الا عبر الكلاشينكوف هناك من يستطيع ان يفهمنا فعلا بغير هذه الوسيلة . ففي لقاء مع كونراد الشيوعي الالماني الذي التقاه الكاتب في موسكو دار حوار هذا جزء منه :

(.. اريد تحليلا علميا لما حدث ويحدث على ارضكم . حين قلت لكونراد « ان العالم لا يريد ان يفهمنا الا عبر الكلاشينكوف » ، احمرت اذناه وغمغم بلهجة خيل الي انها عاتبة بعض الشيء : « كن واثقا انني افهمكم .. كن واثقا » .) وقد عبر عن ذلك باشارة مقتضبة سريعة . فالفلسطيني الذي التقاه في موسكو روى تفاصيل مأساته على ضفتي الاردن بأسلوب دقيق ومؤثر (كانت مياه الاردن تتدفق وتهدأ وتخر وتزحف وتهيج وتلين مع كل كلمات ذلك الفلسطيني التائه . ظل نهر الليلك ، غير المقدس ظل جاريا ، ولا ريب في ان ليلك الاردن هو الذي يبلل مخدتي كل ليلة) . ومع ذلك فالكاتب اشار الى ان هذا الفلسطيني اهداه قداحة .. وهذه القداحة جميلة ولكنها لا تعمل .

ومع ان واقع المأساة واسبابها هي من العناصر الرئيسية في الرواية الا ان الكاتب دمج باسلوب فذ بين هذه ورؤياه وتداعياته في صورة واحدة متكاملة الاجزاء متقنة الترابط . فمع انه قسم الرواية الى ستة فصول هي بالترتيب : الانشطار ، الهاوية ، المواجهة ، المستحيل،

القتل ، والقيامة · الا ان هذا التقييم لا يعني تخصصا في المجال الذي يبـــرزه عنوان الفصل · وبمعنى اخر فمع ان كل فصل من هذه الفصول يبرز لوحة مـــن هذه اللوحات تحمل جزءا من اللوحـات الاخرى · فاللوحات متداخلة لا تمكنك من ان تضع بينها حدودا فاصلة · فمع ان مقدمات المأساة وواقعها هي المحـــور الرئيسي لفصل « الانشطـــــار » الا ان الكاتب يظهر بعض الحقائق ويؤكد غيرها بحيث يتعمق الشعور بالمأساة · فهو مثلا يعلن عشقه لارضه وتمسكه بها من خلال اعلانه انه يعشق هذه المرأة الناضجة التي لم يعرفها باسم بل عرفها بان لها ابنـة واحدة وولدان مما يجعلها رمزا لفلسطين· واعلانه لهذا العشق القوي جاء بأسلوب « فولكلوري » (اما انا شخصيا فأفضل الظهيرة العالية موعداً لمقابلة امــــرأة ناضجة) مع ما يحمله تعبير الظهيـــرة العالية مـــــن معنــــى الوضــــوح والصراحة في الفولكلور الفلسطينـــــي · بينما يعلن أن ما يربطه باسرائيل ليس سوى رابط ضعيف فهو يصفها بالقحبـة العجوزة التي تربطه بها رابطة الطعـام القليل (كالوريات قليلة ربطتني بتلــك القحبة العجوز · قوتي كفاف يومي كان الآصرة الوحيدة بيني وبينها) · وهـــو يؤكد هذا الرمز (واكثر ما يدعو للدهشة هو احتفاظها بكل هذا العدد الهائل مـــن الحراس المزودين بأحدث ما انجزه العقل البشري من أدوات الحـــرب ومعـــدات الهلاك) ·

ولا يفوته ان يظهر التناقض الــــذي يعيشه الانسان العربي واليهودي ايضا في ظل الديمقراطية المزيفة في اسرائيــــل فليس الكاتب وحده ، غير المزود بتصريح تنقل ، هو الذي تعرض للقلق على حاجز الشرطة ، بل السيدة « روث » التـــي كانت تنقله بسيارتها ليتحدث في حلقــة « ابناء سام » التي تديرها · وهنا (في هذه اللحظة · في مواجهة هذه الحقيقة المزدوجة المتناقضة ، حقيقة حاجز الشرطة وحقيقتي انا ، بل الحقيقة التي هي نحـن الثلاثة : الشرطة ـ العربي الذي يشكل خطرا على الامن ـ وانـــت ، سيـــدة اسرائيل المرموقة · الان في هذه اللحظة· ماذا يدور في رأسك ؟ هل تشتهيــــن ان تكتشف الشرطة هويتي ، لتخلصينـــي منها فتقدمين بذلك خطوة نحو شاهـــي المحاصر ؟ أم تشتهين ان تنفذي بي عبـر الحاجز حتى لا تقترب الشرطة نحـــو شاهك المحاصر ؟ شاهك الذي حاصرته في حوارنا السابق ؟) وفي «الهاوية» يبدو ان نكبة عام ١٩٤٨ هي المحـــور الاساسي بينما يتضح بتدقيق اقـرب ان نقد العقلية المتخلفة هي الهدف الاساسي لهذا الفصل بدليل أن « حسن » الكسيح هذا قد ثار في نهاية الرواية بعـــد ان نفض عن نفسه غبار الانغلاق والتخلف ·

وتشكل نتائج حرب ٦٧ وما تلاها مـن تعنت وغرور اسرائيليين اساس فصـــل « المواجهة » · ولكن نقـــد العقليـــة الاسرائيلية سواء على مستوى النظــام او على مستوى الفرد تشكـــل تكملــــة وتعميقا لصورة ذلك التعنت الذي جـــر الضياع على « ايلانة » التـــي تمثـــل اسرائيل ·

وشكل « المستحيل » فصلا هاما مـــن فصول الرواية اذ انه جاء نافذة اخـذت من خلالها احداث الرواية بعدا جديدا ، اذ تمكن الكاتب من خلال هذا الفصـــل من خلق مقارنة بين التعصب الصهيونـــي والنازي · كما استطاع من خلال حكايـــة « سمير » الشاب الفلسطيني الذي احبته الفتاة السوفياتية « تانيا » ان يرسخ حقيقة انه يستحيل قتل الفلسطيني ·

واكد في الفصل الاخر « القيامة » آمال الكاتب التي هي في الواقع رؤية اكيدة لحصلة الرؤى التي بثها في الفصول السابقة ، وهي ان الكسيح سيتحرر من افكاره وتقاليده المثبطة ، وسيعود ثائرا يتجاوز ـ بدعم ومشاركة اخوته الفلسطينيين في كل مكان ـ كل العقبات التي تتمثل في الحاجز الذي يقيمه الجيش بعد عملية للفدائيين ٠ وان الشعب الاسرائيلي المتمثل في « ايلانة » سيكتشف الحقيقة ، ورغم المتعصبين المشبعين بالفكر الصهيوني ستطل «دنيا» فلسطين ٠

محمود قدري

محمود شقير : **الولد الفلسطيني**

(دار صلاح الدين ـ القدس ، ١٩٧٧)

يبرز النهج الواقعي الذي هو طابع قصص « محمود شقير » ومادته الحية في مجموعته القصصية التي صدرت مؤخرا عن دار صلاح الدين فيالقدس باسم « الولد الفلسطيني » ٠

في « الولد الفلسطيني » انطلقت يد الفنان تستقطب رؤى جديدة عمقتها تجربة النضال الشخصية للكاتب، واندرجت الوان عديدة خارجة عن صرامة الاطار الرمادي المظلل الذي طغى على قصصه السابقة ٠ وامتزج الشعر مع واقع عرف كيف يمزجه بالاسطورة والتراث الشعبي والتقنية الحديثة ، تأتي ضمن لغة بسيطة مشحونة بنبض ايحائي لا يغلق طريقها في اسار واقع جامد ، او يحلق بعيدا عنها في الرمز والغموض ٠

وبامكاننا ان نستخلص ثلاث ملاحظات اعطت جديدا في المجموعة ٠

اولا : اللجوء الى القصة ـ المقاطع لتصوير النغم الكلي ، واستخدام هذا الشكل بما يعزز تطور الحدث عبر صور تجمعها الحركة الداخلية المشتركة ٠ وترد المقاطع متماثلة في جوها الشعري في قصة « الوطن » ، متداخلة في الحاضر والماضي في قصة « رجل وامرأة » متبادلة المضمون في قصة « التراب » ، ومختلفة الاتجاهات في قصة « ثلاث قصص قصيرة جدا » ٠

في قصة « الوطن » ينطلق من احدى البديهيات البسيطة التي يمارسها مواطن في ظل الاحتلال ، ثم يفرز التناقض كاشفا لنا عن حدة التجربة ٠ « كنت اتأمل سور المدينة حينما داهمني الجندي وصاح : هيه قف ، ما الذي تفعله هنا ؟ قلت : هذه مدينتي وانا أتأمل سورها ٠ قال : مدينتك ، هذا هراء » ٠ واذ يقتل الجندي الذي دفعه امامه بوحشية تتعقبه المصفحات ودوريات الجيش مضيقة عليه الحصار ، فانه يفلت من اسار الواقع الى حرية ممارسة الحلم ، لكن الحلم يعود مرتدا الى ارض الواقع ٠ « تلفت في كل الاتجاهات حائرا ، ثم طرت مرفرفا في السماء ٠ وقلت : يبدو انني نجوت ٠ لكنهم نثروا الشباك والمصايد ٠

وحاصروني ثم القوا القبض علي ووضعوني في قفص بعد ان نتفوا ريشي · وزجوا بي في السجن بين الزعران » · في السجن لا يصدقه الزعران عندما يخبرهم « كنت اتأمل سور مدينتي فلم يعجبهم الامر » · ها هو حصار اخر يقتنص حلما شفافا يعجزون عن فهمه ، يطالبونه « هيا قص علينا حكاية مسلية » · يتحدث اليهم عن سلطان جائر ، فيعلن الزعران مللهم من السياسة · يحكي لهم عن الجوع فيسأمون من حكاية يعرفونها تمام المعرفة · لكنهم يهللون اذ يخبرهم حكاية المرأة التي خانت زوجها التاجر وهربت مع عشيقها سائس الخيول · وهو هنا منخلال حكاية القهر الجنسي ـ الطبقي يبدي تعاملا حنونا مع اولئك الذين يعكسون وعيا رمزيا تجاه الصراع الاجتماعي الذي لا يدفع ثمنه غيرهم ·

في المقطع الذي يروي فيه قصة الولد وجده الشيخ الذي اعترض الناس على ركوب احدهما الحمار ، او تركه · يذكرنا بالخامس من حزيران ومدلولاته المشابهة التي اعطت احكاما ظالمة تجاه الجيل الذي تحمل نتائج الهزيمة · ثم يعود بنا الى الخيط الذي ينظم الوحدة المتشابكة · يعود الىجو السجن ـ الحصار فيطوره بالفجيعة

التي تتمثل في النفي من الوطن ، حين يفاجئه الحراس وهو يستعيد سيرة جده الذي مات في الحرب · « قالوا : كذاب ، انت تعيد النظر في سير التاريخ ، وهذا لا يجوز · قالوا : هيا انهض فنهضت ، نتفوا ريشي ثم عصبوا عيني وحشروني داخل قفص · » يسيرون به على حدود الوطن المنتهك · « قالوا : من هنا تخرج· قلت هذا وطني وارفض أوامركم · قالوا : امامك بلاد أسمها لبنان · وان لم تذهب قتلناك » · عقب الابعاد يتلفت البطل صوب

الاسطورة قاصدا البصارة التي تنصحه باطفاء حزنه في اجساد النساء ، فهل يصلح حل التجاوز كي يداوي حالة النفي ـ الحصار ؟ · انه يستعير من «نشيد الانشاد » التوراتي احدى صوره المعبرة· «قلت : احلفكن بوطني المنهوب يا بنات المدينة ان تدنين اجسادكن من جسدي، فانا وقد ضيعت وطني يسربلني الحزن · » ان عقدة الذنب كامنة في صميم معضلة الاستلاب التي يعانيها ، وهو هنا يعاود رواية الحدث تاركا للصورة الشعرية ان تتأصل عبر تردادها ، وفي المرتين يأتي الجواب واحدا ·· « من ترك وطنه نهبا للطامعين كتب على نفسه الحرمان من متعة الاجساد » · انه يمضي في ادانة العجز الذي وقع فريسته ، فهو مطرود بحد السيف ، ولكنه ـ اساسا ـ يتحمل وزر الجريمة· وفي شوارع المدينة يبزغ الجفاف وعدا مزيفا ، فان من تبتسم له بحنان ليست سوى تمثال من الشمع معروض في احدى الواجهات · وان ذهابه الى البحر لا يمنح السلوى ، فالبحر فلاح متعب يتحدث بنبرة رتيبة فاترة · وان شواهد القبور في مقبرة الشهداء تحكي كل شيء عن الوطن ولكنها اعجز من ان تمد جسرا بين ماضيه وحاضره · ان استعادته لماضي القمع والابادة بين القبور لا تشعل شحنة التفجر الكامنة ، اذ انها لم تشكل نقيضا موضوعيا لحالة القهر ، وها هو يستأنف مسيرته منكفئا على نفسه ، عائدا الى غرفته مروعا مما شعر به من تحجر واحتباس · وفيما كان الفاشيست يحرقون جسد بيروت ، تتسرب اليه عبر الليل ترنيمة حزينة يميز فيها صوت امه ، صوت الخلق البشري الذي يهب ميلادا جديدا يزيح مسامير التحجر ، ويخلق نقيضا موضوعيا لاستلابه وضياع انتمائه · يخرج الى الطرقات فيواجه فتى اسمه « ابو ذر » يحمل سلاحه في احد المنعطفات · ها هو الجدلي يأتي

من تناقضات الوقائع · فشخصية ابو ذر تكشف صراعا طبقيا تتوضح عبره صـورة الحرب · يسأله الفتى عن حزنه ، وفـي لحظة المكاشفة تطرح المبادرة التي تحـل اشكال الغربة ـ الاستلاب ، وينخرط فـي الصراع الذي يحمل قضيته ·

في قصة « رجل وامرأة » تولد علاقـة صراعية نابعة من الفقر والقمع ، متشوقة الى التقاء الحب الحقيقي بين رجل وامرأة· اثنان يجمعهما بؤس واحد ولكن لحظـة اللقاء الذليلة تجهز على امكانيات التلاقي· « توقفنا قرب عدة شجيرات متشابكة ،حدق فيها واستثارته قسمات وجهها ، مـد يده في محاولة لمداعبتها ، ولكنها استبقته بسرعة لم يكن يتوقعها ، فانطرحت علـى الارض فوق الاعشاب المبللة ، وتراخـى جسدها ، فأحس انه امام جثة ، اقشعر بدنه وصاح في برود قاتل : انهضي ·· أقول لك انهضي » · في مقطع اخر يورد توضيحا يفسر انحدار تلك المرأة بشؤم الموت الذي لحق جميع من ارتبطت بهـم ، وهو هنا يكافح القدرية التي يلصقونهـا بالموت الفلسطيني الذي حدث خلال الحروب واساليب الابادة المتعددة · ثم يعود الى الالتقاء بها حين تبدي رد فعل انسانـي يجذبه نحوها ، ولكنها لا تسقط امامه مـن جديد ، وانما تهرب خوفا على كيانها مـن المجازفة لحظة الالتقاء بالاخر ·

عبر اثارات من وقائع السجن والمحاكمة، يسقط عليها رجع ماض قديم يطلقه في رد فعل عصبي بدائي ، انه يلاحقها بضراوة فيما هي تهرب منه · وحينما يسترجـع فعل الالفة والحنان وهو يعود الى وعيه ، تكون سيارات الشرطة قد وصلت كـي تطوق المكان ·

قصة « التراب » يستعين فيها ببلاغات « جيش الدفاع الاسرائيلي » الذي يطالب قرية بالاستسلام ، واصفا حالة الذعر الذي يعم المكان واحاسيس الخذلان والهزيمة · « قالت : يا ساتر يا رب ، ابعدها عـن وجهي ، وقت النجد ما رأينا مراجلك · ما الفائدة الان » · مسترجعا حاله مـن الطفولة التي تتقمص المرأة وهي تعبـث بالتراب الذي يرد رمزا مناقضا للعجـز الجنسي الذي يعم رجال القرية اثـر الاحتلال · وحين تبدأ المقاومة يتوحـد فعل الحب مع الانخراط بها ضمن فعـل جماعي · « ثم التصقت به واصبحـا جسدا واحدا ، وظلا وقتا طويلا وهمـا ملتحمان ، نهض وواصل الحفر فيما هي ترتدي ملابسها · اخرج كيسا من الخيش بداخله بندقية ، قبض عليها وسار فـي اتجاه الوادي ، ثم توقف والتفت صوبها قبل ان يبتعد : لا تقلقي لست وحدي »·

في القصة الاخيرة التي تمثـل هـذا الاتجاه « ثلاث قصص قصيرة جدا » ، نجد مقاطع لا يجمعها في الحدث سوى منظور واحد يمثل شرك القمع · الاولى تظهر قمع المثقفين امام قضايا يعجزون عن الفعل فيها · « قلت انا ذاهب الى البحر (كان صوتي متحشرجا) وقلت : انا ذاهب الى المطعم لتناول وجبة ساخنة (كان صوتي متلعثما) وقلت انا على موعد مع حبيبتي، وبعد لحظات انزل الى الشارع لمقابلتهـا (كان صوتي فاترا) · وقلت : انا ذاهب الى المكتبة للقراءة (وكان صوتي ميتا)·

الثانية تمثل قمع المواطن العادي علـى الحواجز التي تهدر انسانيته · والثالثة عن قمع الشرطي البائس الذي يخضـع لحراسة مصالح سادته التي تتناقض مـع مصالحه ·

ثانيا : دور اللغة المحكية في تطويـر القصة واعطائها جوا حميما ينقذها مـن التفلت والتسيب كمـا حـدث في قصـة

«القرار» · تتحدث القصة عن شاب بسيط وقع فريسة لملاحقة رجال المخابرات حين يحاولون اجباره على العمل معهم · تبدو عفوية الشاب وقلة خبرته بمثابة المصير المحتوم في السقوط والانحدار · الا ان اللغة تحتل دور الفعل، فالحوارات الشعبية التي يستعيدها الشاب تساهم في اذكاء روح الجماعة والتضامن ، وتنجح في عكس الوجه اليومي لحياة الناس في ظل الاحتلال ، بما يبرر خطوته اللاحقة في التمرد على شروط الاعداء وتهديداتهم ·

ويبرع « محمودشقير » في استخدام اللغة العامية المشحونة بانفعالات دقائق الحياة في قرية يسعى المختار واعوانه ، لدفع اهلها الى الهجرة في قصة «الخروج»·

نلاحظ ايضا دور اللغة في التقدم نحو الرمز الذي يحمل ابعادا متعددة في قصة « رجل قادم من بين الاحياء » حين يكون السرد مرتبطا بالاسطورة ـ الرمز ، انها قصة الفدائي الذي يأخذ وجه مسيح يفتش عن حبيبته · « قال يا احبائي جسدي مكشوف في السهول والوديان والجبال ، في القرى والمخيمات والمدن ، ثم ما جئت لكي اختبىء » · تتصفى اللغة الشعرية بوهج الاسطورة مطلقة أجمل ما لديها حين يمنح الفدائي ـ المسيح قدرة الاخصاب للمرأة العاقر ، عبر صور تستقطب رموز الجنس ـ الحلم · « نشر شعرها وقال : بدمائي تغسلين هذا الشعر ويكون لك اولاد بعدد اوراق الشجر · تلوت المرأة والدماء تقطر من ذؤابات شعرها ، وقال : انزعي ثوبك عن صدرك ايتها المليحة بين النساء ، كانت المرأة تفور مثل البركان · شقت ثوبها ، فبان نهداها الابيضان مثل حمامتين مقطوعتي الرأسين ، وحينما بالدم تعفر نهداها استلقت على الارض وراحت تتلوى فى حبور » ·

ثالثا : هناك اربع قصص كتبها « محمود شقير » في الاصل للاطفال ووضعها ضمن المجموعة · (الزيارة ـ الجندي واللعبة ـ الولد الفلسطيني ـ جمال الزين) · واسلوب هذه القصص المميز هو الحوارات المختصرة التي تطلق نبض الطفولةوالعفوية حين قراءتها من قبل الكبار · الا ان روح الكبار تطغى عليها في بعض المواضيع التي يقصدبها التأثير على الصغار · ففي قصة «جمال الزين» : «اطلق الاعداء النار على جمال الزين وقتلوه فاكتست الارض بالعشب الاخضر ، وصار الوطن الذي احبه جمال الزين اكثر بهاء » · ان تمجيد الموت مهما كان ساميا بطريقة رومانسية لا يكون مقنعا امام الاطفال · وقصة «الزيارة» تعطي نفخة من الحزن والكآبة امام عجز فراس عن اخراج والده من السجن ، دون بديل منطقي يرادف همه الكبير حين اكتشافه السجن · تتجاوز قصة « الجندي واللعبة » هذا المأزق حين ترمي أمينة قطعة الحلوى التي اعطاها اياها الجندي الاسرائيلي تحت الاقدام ، بعد ان مزق لعبتها · الا ان قصة « الولد الفلسطيني » تعبر قنطرة التردد بين عالم الكبار والصغار ، فتصلح لكليهما عبر توحيدها لمشاعر الحزن والغضب والمقاومة لدى استثارتها سؤالا يمنحها حركتها الغنية بالحيوية والمجابهة·

«فقلت : يقولون ان لهم أولادا مثلنا ، يا ترى صحيح ؟· قال علي عفانة : انا لا اصدق ، دائما اراهم دون اولاد ، لديهم اسلحة فقط · وسألني : هل رأيت ولدا في دبابة » · وحين يقتل علي عفانة وهو يضربهم بالحجارة ، ينفجر السؤال صارخا · « لماذا يقتلون الاولاد ؟ » ويكون ذلك هو الجسر الذي يعبره الولد الفلسطيني صوب المقاومة ·

ليانة بدر

الامم المتحدة
الجمعية العامة

اللجنة الخاصة المكلفة باستقصاء الممارسات الاسرائيلية التي تؤثر على حقوق الانسان للمدنيين في الاراضي المحتلة ·

انشأت الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، اللجنة الخاصة المكلفة باستقصاء الممارسات الاسرائيلية التي تؤثر على حقوق الانسان لسكان الاراضي المحتلة ، وكان تفويضها يجدد كل عام ، وتم ذلك مؤخرا في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٧ ·

وتتكون اللجنة الخاصة من ممثلين لكل من السنغال ، وسري لانكا ، ويوغوسلافيا ·

واستمعت اللجنة اثناء تأديتها لاعمالها الى حوالي ٢٠٠ شخص أدلوا بشهادتهم فيما يتعلق بالظروف التي يعيشها السكان المدنيون في الاراضي التي احتلت في عام ١٩٦٧ ·

وترى اللجنة الخاصة أنه من الملائم ، لكي تكون على دراية بما يجري بقدر الامكان ، ان تستعلم عن الظروف القائمة في هذه الاراضي ما وسعها ذلك · ويرجى من اي شخص لديه معرفة بالممارسات التي تؤثر على حقوق الانسان لسكان الاراضي التي احتلتها اسرائيل في حزيران (يونيه) ١٩٦٧، ويكون مستعدا للشهادة أمام اللجنة الخاصة ، سواء في جلسة عامة ، أو في جلسة خاصة ، أن يقدم طلبا الى امين اللجنة الخاصة ـ قسم حقوق الانسان ، مكتب الامم المتحدة ، قصر الامم ، الاتحاد السويسري ـ ١٢١١ جنيف ١٠ ـ موضحا اسمه ، وعنوانه ، مع تقديم ملخص سريع للمعلومات التي يكون مستعدا للادلاء بها ·

Secretary of the special Committee
Division of Human Rights
United Nations
1211 Geneve 10 - Suisse

جدول بالعـمليات العسكريـة لقوات الثورة الفلسطينيـة ١٤/٢ - ١٩٧٨/٤/٤

تاريخ العملية						خسائر العدو البشرية		خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة			المصدر - البلاغ العسكري	
الرقم	اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	قتيل	جريح		شهيد	جريح	مفقود	رقم	تاريخ
١	٧٨ـ٢ـ١٤	٢٠ر٢١	شارع اسفانيا - حي جيئولا - القدس	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	٢	١٥	- تدمير الباص تدميرا تاما تحطم زجاج الابنية المجاورة	-	-	-	٧٨ـ٩	٧٨ـ٢ـ١٥
٢	٧٨ـ٢ـ٢٩	١٥ر١٠	الجامعة العبرية - القدس	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	- قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو تحطم زجاج بعض الاقسام القريبة من مكان الانفجار .	-	-	-	٧٨ـ١٠	٧٨ـ٢ـ١٩
٣	٧٨ـ٢ـ١٦	٤٠ر١٥	القدس - المدرسة الزراعيـــة الصهيونية	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	-	غير محدد	اصابة عدد غير محدد من افراد العدو اصابة مختبرات المدرسة باضرار بالغة	-	-	-	٧٨ـ١١	٧٨ـ٢ـ١٧
٤	٧٨ـ٢ـ٢٠	٥ر١٩	عكا - بناية التحقيق التابعـــة لشرطة العدو	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	-	غير محدد	اندلاع النيران في طوابق المبنى واتلاف جميع محتوياتها . اصابة عدد غير محدد من افراد العدو	-	-	-	٧٨ـ١٢	٧٨ـ٢ـ٢١
٥	٧٨ـ٢ـ١٧	٤٠ر١٧	نابلس - منتزه جمال عبد الناصر	كمين	اسلحة اوتوماتيكية وقنابل يدوية	غير محدد	غير محدد	قتل وجرح جميع من في السيارة . اشتعال السيارة بالنيران .	-	-	-	٧٨ـ١٣	٧٨ـ٢ـ١٨
٦	٧٨ـ٢ـ٢٥	٣٠ر٥	رفح - محطة القطار	تفجير	عبوة ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	اصابة عدد غير محـــدد من افــراد حراسات العدو . - اصابة المبنى باضرار بالغة	-	-	-	٧٨ـ١٤	٧٨ـ٢ـ٢٦
٧	٧٨ـ٢ـ٢٥	٤٥ر١٣	الطريق المؤدية الى مدخل مدينـــة ناتانيا .	تفجير	لغم ارضي	-	٧	- تدمير التراكتور تدميرا تاما . - اصابة سبعة مستوطنين صهاينة	-	-	-	٧٨ـ١٥	٧٨ـ٢ـ٢٦
٨	٧٨ـ٣ـ١	١٠ر٨ صباحا	تل ابيب - هادار يوسف	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	١	١٠	- تدمير المنزلين تدميرا تاما . - اصابة عدد من السيارات المجاورة . - تحطم معظم زجاج الابنية المجاورة . - مقتل وجرح ما يزيد عن (١٠) من افراد العدو .	-	-	-	٧٨ـ١٦	٧٨ـ٣ـ١
٩	٧٨ـ٣ـ٤	١٥ر٧ صباحا	القدس - شارع الايـــام الستة - رامات اشكول .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	- احراق عدد من السيارات واصابـــة الكاراج باضرار بالغة .	-	-	-	٧٨ـ١٧	٧٨ـ٣ـ٤
١٠	٧٨ـ٣ـ١١	٤٠ر١٨	المنطقة الساحلية بين حيفا وتـــل ابيب .	اشتباك	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	٣٧	٨٢	- تدمير الاوتوبيس تدميرا كاملا . - تدمير شاحنتين لجنود العدو .	٣	٢	-	٧٨ـ١٨	٧٨ـ٣ـ١١
١١	٧ـ٨٢ـ١٦	١٥ر٩ صباحا	الطريق الرئيسي المؤدي الى مدينة نابلس من طولكرم .	هجوم	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	غير محدد	- تدمير السيارة تدميرا تاما . قتل وجرح جميع من فيها وعددهم (٧)	-	-	-	٧٨ـ١٩	٧٨ـ٢ـ١٦
١٢	٧٨ـ٣ـ١٦	٣٠ر١٦	سقف المركز التجاري .	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	غير محدد	- الحاق اضرار مادية كبيرة بالمركز . - احداث خسائر بشرية في صفوف العدو - نسف الات الحفر التابعة لشركة مكروت للمياه .	-	-	-	٧٨ـ٢٠	٧٨ـ٣ـ١٧
١٢	٧٨ـ٣ـ١٧	١) ١٥ر٢١ ٢) ٥ر٢٢	١) كفار اونو - شارع برمباهر ٢) تل ابيب - شارع الجسور	١) تفجير ٢)هجوم	١) عبوة موقوتة ٢) قنابل يدوية	١) - ٢) -	١) غير محدد ٢) غير محدد	١) اصابة سيارتين وجرح عدد من افراد العدو . ٢) اصابة السيارة باضرار بالغة وجرح عدد من افراد العدو المتواجدين في داخلها .	-	-	-	٧٨ـ٢١	٧٨ـ٣ـ١٨
١٤	٧٨ـ٣ـ١٨	صباحا	القدس - مدخل مخيم قلنديا	تفجير	عبوة حارقة	غير محدد	-	- احراق السيارة . - قتل جميع افراد العدو المتواجدين بداخلها	-	-	-	٧٨ـ٢٢	٧٨ـ٣ـ١٩
١٥	٧٨ـ٣ـ١٩	٠٠ر٢١	القدس - الحي الفرنسي	هجوم	قنابل حارقة	١	غير محدد	- احراق السيارة وقتل سائقها . - قتل وجرح عدد من افراد العدو .	-	-	-	٧٨ـ٢٣	٧٨ـ٣ـ١٩
١٦	٧٨ـ٣ـ٢٠	٣٠ر٧ صباحا	القدس - بنك هابوعليم	تفجير	عبوات ناسفة - حركة	١	-	- اكتشفت العبوات ولم مقتل خبيـــر المتفجرات اثناء محاولات تفكيكها .	-	-	-	٧٨ـ٢٤	٧٨ـ٣ـ٢٠
١٧	٧٨ـ٣ـ٢٠	٠٠ر٨ صباحا	كفر قاسم - باص [illegible]	تفجير	[illegible]	-	-	- اندلعت النيران اثر انفجار العبوة داخل الباص واتت عليه بالكامل .	-	-	-	٧٨ـ٢٥	٧٨ـ٣ـ٢١
١٨	٧٨ـ٣ـ٢١	٣٥ر٧ صباحا	بيت لحم - سيارة تابعة لشرطـــة العـــدو .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غير محدد	غير محدد	- اصابة عدد من رجال الشرطة بجراح - تدمير سيارة فورد تابعة للعدو . - اصابة عدد من السيارات المجاورة لمكان الانفجار .	-	-	-	٧٨ـ٢٦	٧٨ـ٣ـ٢١
١٩	٧٨ـ٣ـ٢٢	صباحا	منطقة رام الله - باص تابع لشركة دان العسكرية	تفجير	عبوات ناسفة	-	-	- تفجير الباص بواسطة عبوات بعد اخلاء جميع ركابه من المدنيين .	-	-	-	٧٨ـ٢٧	٧٨ـ٣ـ٢٢
٢٠	٧٨ـ٣ـ٢٢	١٥ر٧ صباحا	منطقة رام الله - النبي صالح احد باصات شركة دان العسكرية	هجوم	قنابل حارقة	-	-	- اندلاع النيران في الباص واحراقه بالكامل	-	-	-	٧٨ـ٢٨	٧٨ـ٣ـ٢٣
٢١	٧٨ـ٣ـ٢٣	فجرا	مطار قلنديا - عطروت - شمـــال مدينة القدس .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	-	-	- ادعى البوليس الصهيوني ان العبـــوات اكتشفت وان الخبراء ابطلوا مفعولها . - تم اغلاق المطار في وجه حركة السير .	-	-	-	٧٨ـ٢٩	٧٨ـ٣ـ٢٣
٢٢	٧٨ـ٣ـ٢٣	٠٠ر٦ مساء	القدس - شارع ابي عكيبا المدرسة العسكرية التابعة للجيش	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	غير محدد	غير محدد	اتلاف واحراق معظم محتويات مكاتـــب المدرسة وتصدع احد جدرانها .	-	-	-	٧٨ـ٣٠	٧٨ـ٣ـ٢٤
٢٣	٧٨ـ٣ـ٢٣	١٥ر١٨	القدس - شارع يافا المنجـــرة المركزية .	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	-	-	- اندلاع النار في جميع انحاء المنجرة - تقدر خسائر العدو المادية بمليون ليرة . - لم تحدد الخسائر البشرية .	-	-	-	٧٨ـ٣١	٧٨ـ٣ـ٢٤
٢٤	٧٨ـ٣ـ٢٢	١) ١٠ر١٦ ٢) -	١) طريق قرية بيت مرسم - دورا ٢) كريات حات - بيت جبريل	١) تفجير ٢) هجوم	١) الغام مضادة للاليات ٢) سلاح فردي وقنابل يدوية	١) غير محدد ٢) ١	١) غير محدد ٢) ٢	١) مقتل جميع من في السيارة وتدميرهـا تدميرا تاما . ٢ - اصابة السيارة اصابة مباشرة ومقتل جندي واصابة اثنين اخرين .	-	-	-	٧٨ـ٣٢	٧٨ـ٣ـ٢٥
٢٥	٧٨ـ٣ـ٢٥	٤٠ر٢٢	حيفا - بناية هامشبير التابعـــة لمخابرات العدو .	تفجير	شحنة ناسفة موقوتة	-	-	- ادعى العدو انه تم اكتشاف العبـــوات وبدات السلطات بتفتيش المواطنين وقامـت بتمشيط عدة اماكن في حيفا .	-	-	-	٧٨ـ٣٣	٧٨ـ٣ـ٢٦
٢٦	٧٨ـ٤ـ٤	٥ر٢٠	القدس - تجمع لجنود العـــدو بالقرب من متحف روكفلر .	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدد	غير محدد	- اصابة عدد غير محدد من افراد العـــدو بين قتيل وجريح . - تضرر عدد من السيارات المتواجدة فـي المنطقة .	-	-	-	٧٨ـ٣٤	٧٨ـ٤ـ٥

٩) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعـــــة ٠٠ر٨ ، يوم السبت فـــي ٤ـ٣ـ١٩٧٨ بانفجار عبوة ناسفة فـــي القدس قائلا : « انفجرت عبوة ناسفة في الساعة السابعة والربع من صباح اليوم، تحت سيارة واقفة في شارع الايام الستة في رامات اشكول في القدس » .

(رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٣٢ ، ص ٥٢ ، الساعـــة ٠٠ر٨ ، السبـــت ٤ـ٣ـ١٩٧٨) .

١٠) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٠٠ر٨ بالعملية قائلا : « واغلقت الطرق المؤدية الى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحظر تنقل العمال في هـــذه المناطق . ويفيد مراسلنا ان عدد القتلى

الذين ذهبوا ضحية العمل « التخريبي » الاثم ٣٧ قتيلا ، وعدد الجرحى يتجـاوز الثمانين » .

(رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٣٩، ص ١٣٧ ، الساعة ٠٠ر٨ ، الاحــــــد ١٢ـ٣ـ١٩٧٨) .

٢٥) اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٠٠ر٧ يوم الاحد بالعثور علـى عبوة ناسفة ، وقال انه تم تعطيلها دون وقوع اية اضرار ، واضاف بان العبـوة وجدت قرب مبنى هامشبير .

(رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ١٤٥٢، ص ٣٠١ ، الاحد ، الساعـــة ٠٠ر٧ ، ٢٦ـ٣ـ١٩٧٨) .

مـــروان حـميد

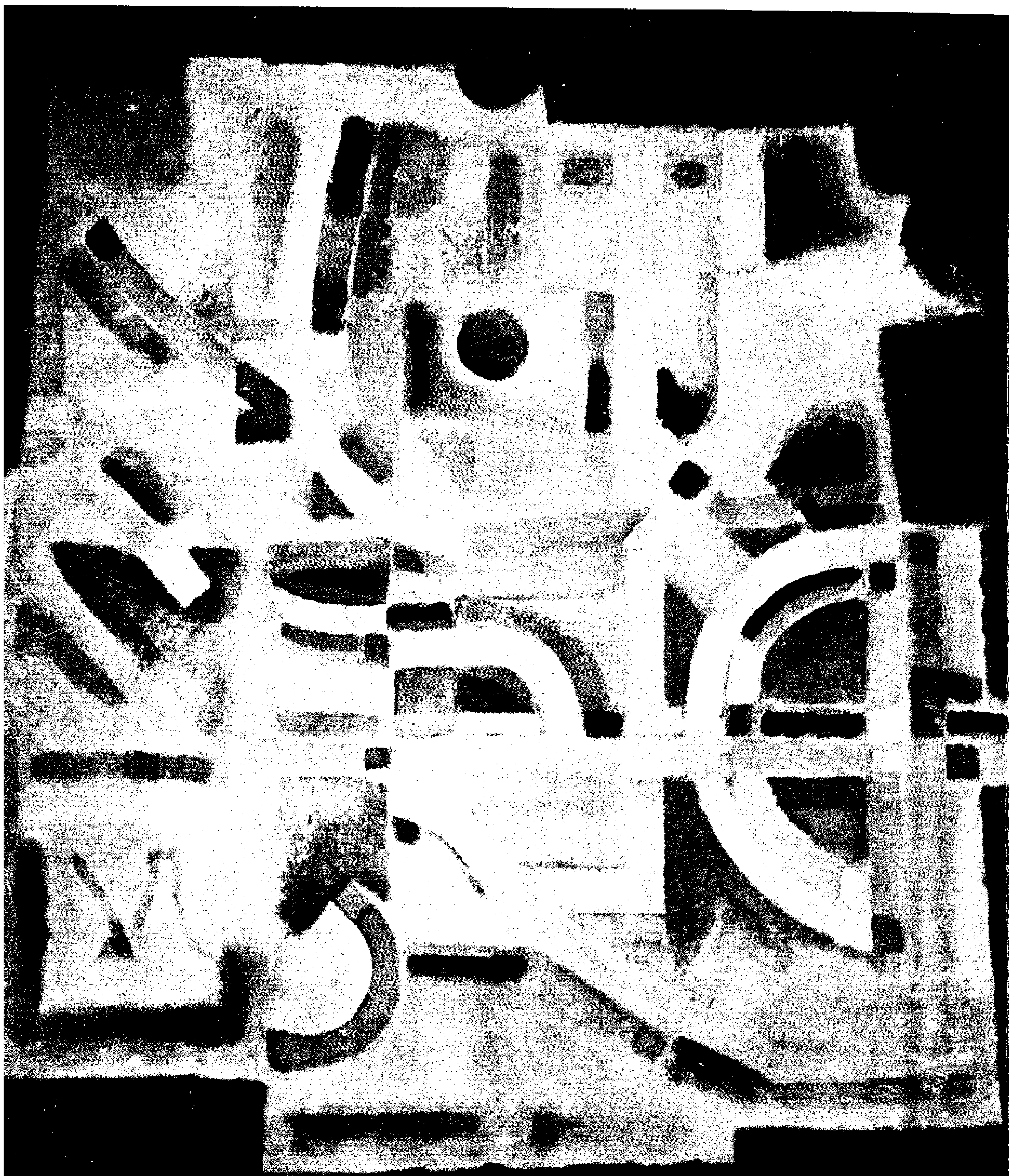
Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center: *Editor* . Mahmoud Darwish : *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent. Europe L L 100 elsewhere L L 125 : *Annual Subscription* (surface mail) : Countries outside the Arab World L L 65. *Address :* P. O. Box 1691 . Beirut, Lebanon : Tel. 351261 : Cables : MARABHATH.

السعر: 5 ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٨٥٠ درهماً في ج.ع.ل.

شؤون فلسطينية

٧٩ حزيران (يونيو) ١٩٧٨



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير: محمود درويش
سكرتير التحرير: الياس خوري

حزيران (يونيو) ١٩٧٨ — ٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومبياني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص·ب ١٦٩١ · تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت ·

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل·ل· في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل·ل· في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل·ل· في اوروبا ، ١٢٥ ل·ل· في بقية بلدان العالم

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل·ل· في جميع الدول غير العربية ·

الغلاف للفنان عبد القادر ارناؤوط

المحتويـــات

الصفحة		
٤	محمود درويش	:هزيمة الانتصار •
٩	الياس شوفاني صبري جريس عبد الحفيظ محارب محمود سويد نزيه قورة هاني العبدالله	المشروع الصهيوني في ثلاثين عاما (ندوة حررها الياس خوري)
٦٦	المقدم الهيثم الايوبي	:ثلاثون عاما من الخلل الاستراتيجي العسكري في الصراع
٨١	محمود عزمي	:حرب الايام الثمانية •
١٠٢	يوسف حداد	:مخيم ضبيه ١٩٤٩ ـ ١٩٧٧ •
١٢٨	اسماعيل شموط	: التراث الشعبي الفني الفلسطيني •

الصفحة

١٤٦ خليل بركات :ممارسات الاحتلال الصهيوني في الجنوب ·

١٥٨ **تقارير** :اوضاع التعليم العالي في الارض المحتلة وأسس تطويره ودعمه ·

١٨٦ **مراجعات** :**الحركة الوطنية العربية الفلسطينية** ، موسى خليل البديري · **اوهام التوازن بين القوى العالمية** ، نزيه جابر ·

١٩٨ **شهريات** :(١) **المقاومة الفلسطينية** ، بلال الحسن · (٢) **المناطق المحتلة** ، عبد الحفيظ محارب · (٣) **اسرائيليات** ، حمدان بدر · (٤) **قضايا عسكرية** ، محمود عزمي ·

هــزيــمة الانتصــار

لا ننظر الى الوراء لنرى الليل الذي ساقونا اليه ، يوم كنا صغارا ووحيديــن ، ويوم انتصب لاستقبالنا نصف مليون خيمة مطرزة باللغة الفصحى واناشيد السيوف والرماح · كانت السلطات الكريمة التي فتحت لنا المنافي على رحبها ، باعتبارهـا بيوتنا المشتركة ، هي التي امنت لنا الاقامة السعيدة على حافة الوطن وعلى حافـة الامة ، وهي التي احكمت سياج البنادق المصوبة على خطانا التي حاولت التحـرك في اتجاه العودة او في اتجاه العروبة · كان كل واحد منا يسأل : هل انا العربي وحدي ؟ او يتساءل : هل انا الفلسطيني وحدي ؟·وفي السجون الاسرائيلية كنا نعلم كم صرنا عربا · وفي السجون العربية كنا نعلم كم صرنا فلسطينيين · ولم نكـن هنا ، او هناك · نحمل عبء الارض وحدها ، كنا نحمل عبء الاسم ·

وبعد ثلاثين عاما من جدل الحضور والغياب الذي يسجل فيــه الحضـــــور الفلسطيني لغته الحاسمة ، على حساب استقرار اللغة الصهيونية في غياب الماضي ، تحاول الرجعية العربية ، ذات الصفات المملوكية ، العودة بنا الى الاسئلة الاولـــى والى الذكريات الاولى : استبدال الصراع العربي ـ الاسرائيلي بنقاط خلاف تنصـب فيها الامبريالية حكما · وتغييب الامة عن ساحة الصراع · واستبدال الامن القومي، او حتى الوطني ، بالامن الاجتماعي الذي يعني في ظروف اغلبية الكيانات العربيـة مزيدا من قمع الكادحين لتامين تضخم الطفيليات ، وحرمان المواطن من التساؤل عن مستقبل الرغيف وعن مصير الوطن ·

ان اشياء كثيرة تنتهي ·

وان شيئا ما جديدا ·· سيبدأ ·

ومن لا يذكر الخامس عشر من أيار ، سيستقبل الخامس من حزيران غدا · ومن لا يذكره سيواجه ، بعد حين ، كارثة التفريط بنتائج السادس من تشرين · والسنة العربية الرسمية مليئة بمزيد من الانقلابات على التاريخ وعلى الـــذات ، وبآيات لا تنتهي على المهارة الفائقة في جعل الهزيمة هدفا سهل المنال ، وفي تقديم الشـروط الدائمة لانتصار الهزيمة ·

هكذا يتبخر التضامن العربي · وهكذا تأتي الذكرى الثلاثون للخامس عشر مـن ايار ليجد المصير الفلسطيني نفسه محاصرا بمهمات الدفاع عن النفس امام الهجوم المضاد الذي تشنه الرجعية على القوى الثورية والديموقراطية العربية ، مستبدلـة مهام تحرير الارض العربية المحتلة ، بتطهير ارض العرب وافريقيا من فكرة الثورة

ومن فكرة الديموقراطية ومن محاولات التحول الاجتماعي ، لنشهد على ميلاد طـــراز فريد من الفاشية العربية ، المحمية بالطائرات الاميركية ٠

ويجد المصير الفسطيني نفسه ، من ناحية اخرى ، يواصل صراعه التاريخي مع العدو الصهيوني محروما من مساندة عناصر التأييد العربية المعرضة للملاحقـــة والتفتيت ٠ وهكذا يتبخر التضامن العربي من حول فلسطين ليتحول البحث عـــن صياغة تضامن القوى الوطنية والديموقراطيـــة الـــى شرط حيـــاة لفلسطين وللديموقراطية ، لكي يتمكن الحضور الفلسطيني المنجز على مستوى جدل الحضور والغياب الدموي مع العدو الصهيوني الى حضور ثابت وغير قابل للخلخلة على مستوى العلاقات العربية ٠

لقد تجاوزت الثورة الفلسطينية كل مراحل الخطر في صراعها مع العـــــدو الصهيوني ٠ واكثر من ذلك : ان هذا الصراع الذي يخوضه الشعب الفلسطينـــي بشجاعة وعطاء نادرين هو الذي جعل الشخصية الفلسطينية الجديدة شرط السلام أو الحرب في هذه المنطقة الحيوية من العالم ، وهو الذي جعل محاولات الفصـــل بين القضية والشعب والثورة مستحيل الادراك ٠ ومع ذلك ، فان المفارقات تطـــل بألسنة ساخرة : هل تستطيع الرجعية العربية ، باجتياحها الصحراوي الملوكـــي الفاشي ، في محاولة الاستيلاء على رياح الشرق ، ان تنجز مهمة تغييب فلسطين الثورة ـ لا فلسطين المسجد الاقصى ـ عن حلبة الصراع المفتوح ، او هل تستطيع ان تلجم الصراع ، وتصون الامن الصهيوني الذي صارت عملية الانقضاض عليـــه انقضاضا على أمن الرجعية بما تخلق هذه العملية من تغييـــر فـــي التوازنات والموازين ومن فتك بأمن الطبقات الحاكمة ؟٠

ان الصراع المفتوح على المستوى الوطني وعلى المستوى الاجتماعي ، وبعد مسيرة ثلاثين عاما من التغير العميق ، غير خاضع لرغبة امير او ملك جديد عجز عن حـــل اية قضية من قضايا الوطن وقضايا الحكم ٠ واذا كانت الحركة الصهيونية قـــد عجزت عن وأد الفلسطيني والفكرة الفلسطينية في المهد ، فلن يتمكن من تشبه بها ان يعود بالحضور الفلسطيني وبحركات الجماهير العربية الواسعة الملتفة حـــول المسألة الديموقراطية والفكرة الفلسطينية الى الوراء ٠

أرادوا ان يكون الفلسطيني غائبا عن أرضـــ فلسطين ، ليتأسس المشـــروع الصهيوني في مناخ الشرعية ٠ وغائبا عن ناموس العلاقات العربية لكي لا يســـرق حقا أو لكي لا يذوب ولا تذوب القضية فلا يجد الانقلابيون افتتاحية للخطـــاب ٠

وغائبا عن الحرب الرسمية ، لكي لا ينال جدارة او نتيجة · وغائبا عن السلم لكي لا يضع شروطه ·

ولكن الحاضر يحضر والغائب يغيب ·

وان اشياء كثيرة تنتهي ·

وان شيئا ما جديدا يبدأ ·

وسيظل المشروع الصهيوني هو العدو الرئيسي للشعب الفلسطيني وللامة · وان قراءة ما فشل هذا المشروع عن تحقيقه في مهمة تصفية نقيضه التاريخي المباشر تشكل حجر الزاوية في مراقبة الازمات وآفاق تخطيها ، على الرغم من اننا لن نجد القوة الاساسية التي يتحلى بها هذا العدو في مقوماته الذاتية ولا في مصادره الامبريالية ، بقدر ما نجدها في ضعف الكثير من عناصر الجبهة المرشحة لمحاربته وهي الجبهة العربية ·

هل نجح المشروع الصهيوني ؟ سؤال صعب ، يرد عليه الصراع المفتوح للاحتمالات والحسابات التي ترجح – على المستوى النظري – حتمية انتصار الامة العربية التي تمتلك شروط النهوض والتطور والتحرر ، بينما تعج الظاهرة الصهيونية بكل عوامل الانكماش والتحجر ، اذا نظرنا الى الصراع من منظور صراع الامة العربية مع الامبريالية · ولكن التفاعل المتبادل بين المشروع الصهيوني والرجعية العربية والذي يتمثل بمد احدها الاخر بالحياة يصرف الاجابة عن السؤال الى جدلية الصراع في الداخل العربي دون ان يحرمها من استيعاب قدرة العامل الخارجي من التأثير في هذه الجدلية · وسيكون من التبسيط ان تعفى العلاقة الصهيونية – الرجعية العربية من عوامل التناقض في المصالح ، وان كان هذا التناقض لا يفتك بالاستنتاج القائل ان طول عمر المشروع الصهيوني رهن بانتصار الرجعية العربية ، وان طول أمد الرجعية رهن بقدرة المشروع الصهيوني على الانتصار ·

هل نجح المشروع الصهيوني ؟ سؤال صعب ايضا تجيب عليه – على المستوى العملي – حرب الثلاثين سنة التي لم تقدم للعرب امكانيات تحقيق وحدتهم التي يقتضيها الاحساس بالخطر المشترك وبالمصلحة المشتركة ، وانتهت في العقد الرابع للصراع بانقلاب خطير في الاستراتيجية تحول فيه الاصدقاء الحقيقيون الى اعداء ، وتحول فيه الاعداء الى منقذين ، وصار العجز عن ادارة الصراع بعقلية جديدة صفة الايام العربية الراهنة ·

ولكن حرب الثلاثين سنة لم تقدم ـ على المستوى الاسرائيلي ـ حل مشكلة العمر اليهودي الضائع · لم يتمكن اليهود من التحول الى سكان شرعيين في المنطقـــة · ولم يتمكنوا من صياغة حياتهم الطبيعية · ولم يتمكنوا من تحقيق سلام مع احـد · ولم يحققوا استقلالهم المستحيل · كان عيدهم الثلاثون أمس شرا من جنازة ، فلم يعد أحد منهم قادرا على القول ان فلسطين لا وجود لها · وان الفلسطينيين مــن هم ؟ لا نعرف احدا بهذا الاسم ، كما كانت تقول رئيسة وزرائهم السابقة · عـلى العكس من ذلك ، كانت حربهم الخامسة ـ عشية عيدهم الثلاثين ـ مع هذا الشبـح الفلسطيني الذي حارب احدث طائراتهم ودباباتهم لمدة ثمانيةايام في جنوب لبنـان ، دون ان يتمكنوا من خدش حضوره الساطع في يومياتهم وفي مستقبلهم الذي يدفعه هذا الحضور الى الغياب · ان المنطق الاسرائيلي هو الذي يلغي الوجود الاسرائيلي باشتراطه حضوره بغياب الفلسطينيين · لقد حضر الفلسطينيون ولم تكن الطائفـة اليهودية تحارب الصحراء والاشباح · لقد حشد الفكر الصهيوني نفسه بمقـولات خلاء ارض فلسطين من السكان · ونجح المستوطنون اليهود في اخلاء مناطـــق واسعة من أرض فلسطين من السكان · كانت دير ياسين وكفر قاسم شرط حيـــاة الكيان الصهيوني ،كما كانت مذابح النازية الشرط ذاته ـ كيف يصير اليهودي نازيا، تماما كما يصير العربي صهيونيا ـ ولكن لانجاز المشروع الصهيوني والقيام بدوره الذاتي ودوره الصليبي شروطا اخرى هي المزيد من الارض · لم تكن الارض خالية، فلم يتمكن الفكر الصهيوني والواقع الاسرائيلي من التعامل مع الفلسطينيين عـــلى أساس انهم غائبون · لقد استحضرهم التوسع في الوعي وفي الصراع · لا · ليس صحيحا القول ان المشروع الصهيوني قد خلق نقيضه الفلسطيني ، فان هذا النقيض موجود قبل المشروع وهو الذي يعرقل صيرورة المشروع الى ثبات ، وهو الـــذي يستقطب اللحظة الثورية العربية ، ويغذي الامة بنبض المواجهة ·

هل نجح المشروع الصهيوني اذن ؟ على المستوى الاسرائيلي الذاتي ، لم يكــن تاريخ المشروع تاريخ بناء دولة ، اطارا لتطور شعب يمارس حريتـــه وحياتــه وابداعه الحضاري · انهم مشغولون بعرقلة حياتنا ، فلا يستطيعـــون تطويــــر حياتهم · مشغولون ببناء هيكل الخوف النفسي والجسدي وعاء وحيدا لتوحيدهم · لقد كان تاريخ المشروع ولا يزال تاريخ بناء جيش · اسبارطة جديدة لا قيمــة للانسان فيها الا قيمة الاعتداء · وخارج هذه الصيرورة لم تفعل الطائفة شيئـــا ذا شأن غير بعث اللغة · وهكذا كان « تحررها » نضالا قاسيا لاختيار العبودية · فيبقى السؤال عن النجاح او الفشل محكوما بمعايير الاخرين · اما في شـــروط الغزو فيبقى السؤال متأرجحا على موازين القوى ·

وخارج هذا الشرط يرد السؤال الصعب : هل تحررت الطائفة اليهودية على اشلاء فلسطين التي لم تعد اشلاء ؟ قد يقولون انهم تحرروا من المنفى ، فأي وطن هذا الذى لا يشبهه ميدان قتال اخر • لقد جمعوا « منافيهم » في منفى واحد مسدود النوافذ على الجهات كلها الا جهة الانتحار • وقبل ذلك وبعده ، هل يصلح مثل هذه الاسئلة للطرح على الصهيونية خارج عناصرها العدوانية والتدميرية ؟ لا • فاي كيان هذا الذي تجري محاكمته ضمن منظور عادي وخارج ساحة الصراع !• واي مستقبل - حل يصوغه هذا الجندي المدرب في حرب بلغت ثلاثين عاما ولم تتوقف ؟ • ليست الحرب هدفا الا للمنتحرين •

ويأتي الحضور الفلسطيني النقيض الذي كان غيابه شرط حياة الكيان الصهيوني ليحول الاسئلة الى مصير • لا ياتي الفلسطيني من الصفر ومن الليل السري والبحر الغامض • انه يأتي من ارض اقامته ومن الحق ومن نهوض الامة الكبيرة ومن مستقبلها • از تطور الشخصية الفلسطينية النقيض لتحالف الماضي هو الذي يحدد وجهة المستقبل ، على الرغم من امتلاء اللحظة العربية الراهنة بمظاهر العودة الى الماضي • لقد انقسم العرب لانهم منقسمون منذ البداية الى قوى متعارضة في المصالح الاجتماعية والوطنية • وقد آن الاوان لان يوقى الرجاء العربي من اغراء الكم واحتمالات الضغط على الامبريالية بالثروة التي هي ليست لنا ، فها هي تعلن عن وجهها وتبذل كل شيء من اجل ان تعطى دورا اميركيا افضل في مكافحة الثورة • ومن اجل ان تنجز « التسوية الاجتماعية » الداخلية شرطا لاقامة علاقات طبيعية مع العدو •

ونحن لا ننظر الى الوراء لنرى الليل السابق ، والحصار الراهن ، بل لنرى التطور المذهل الذي حققته مسيرة تبلور الشخصية الفلسطينية المقاتلة على كل جبهات الصراع ، ولنرى المأزق الذي يضع الحضور الفلسطيني عدوه التاريخي فيه ، حيث يجعله عاجزا عن توظيف انتصاراته العسكرية ، ويعطي للنصر الصهيوني صفته الحقيقية « هزيمة الانتصار » • ونحن ، لا ننظر الى الوراء لنرى الليل الذي ساقتنا اليه الصهيونية والرجعية ، يوم كنا صغارا ووحيدين ، بل لنرى نقطة الضوء المتناسلة في المدى العربي الواسع ، ولندرك ان المأزق الذي يسم الوقت العربي الراهن بالعجز ، ليس مأزق الجماهير والامة ، بل هو مأزق الحكام الذين انتصرت عليهم الهزيمة •

ان اشياء كثيرة تنتهي

وان اشياء كثيرة تبدأ •

محمود درويش

المشروع الصهيوني في ثلاثين عاماً

"نــــدوة"

الياس شوفاني — محمود سويد
صبري جريس — نزيه قوره
عبد الحفيظ محارب — هاني العبدالله

حررها : الياس خوري

هذا النص حصيلة ندوة استغرقت ثلاثة ايام ، خصصتها « شؤون فلسطينية » لمناقشة واقع الكيان الصهيوني بعد مرور ثلاثين سنة على تأسيسه · وقد اشترك في الندوة عدد من الباحثين المتخصصين ، من مركز الابحاث ومؤسسة الدراسات الفلسطينية ، في الشؤون الصهيونية والاسرائيلية · وتركزت المناقشة على اوضاع الكيان الصهيوني وعلاقته بالامبريالية ، ومواقفه من المنطقة العربية ، ومن الشعب العربي الفلسطيني · وكان هدف الندوة بلورة استنتاجات عامة لوضعها في سياق الصراع الدائر بين الصهيونية بوصفها جزءاً من عملية الغزو الاستعمارية وبين حركة التحرر الوطني العربية وفي مقدمتها الثورة الفلسطينية · وقد اوليت مسألة التسوية الامبريالية اهتماما خاصا في هذه الندوة ·

ان هذا النص الذي يقدم ، في رأينا ، خلاصة الجهد العلمي العربي الفلسطيني في دراسة الصراع مع الصهيونية ، يشكل مادة مثيرة للمناقشة ندعو المفكرين والكتاب الى اغنائها ، لانها تسلحنا بالمعرفة العملية الضرورية لادارة الصراع مع الصهيونية والامبريالية بطريقة افضل ·

ان سعة الموضوع وفروعه المتشعبة جعلتنا نقسمه الى خمسة ملفات ، يبدأ كل ملف منها بورقة عمل يقدمها احد الباحثين ، وتتلوها مناقشة عامة ·

ملاحظة :

ش·ف ـ ترمز الى « شؤون فلسطينية » التي مثلها في ادارة الندوة ، محمود درويش والياس خوري ·

التسوية والايديولوجية الصهيونية

الياس شوفاني

لا اعتقد انني استطيع ، من خلال هذه المقدمة القصيرة ، ان اقدم دراسة شاملة للمنطلقات الايديولوجية الصهيونية · لكني ، سأحاول باختصار شديد ، توضيح بعض النقاط من خلال نقاش موضوع التسوية ، والتي لها علاقة مباشرة بالمرتكزات الايديولوجية للكيان الصهيوني ·

الازمة الراهنة للكيان الصهيوني :

يمر الكيان الصهيوني اليوم في ازمة · قد يكون هناك خلاف حول حجم هذه الازمة · وقد نختلف في تقدير نتائجها ، او في تقييم اسبابها ، الا انه لا يمكن نفي وجود هذه الازمة ·

وفي الواقع ، فهذه ليست المرة الاولى التي يواجه فيها الكيان الصهيوني ازمة ، وقد لا تكون الاخيرة ·

والازمة الحالية ليست حول قيام الكيان ، بل حول تحديد مقوماته · فبعد ثلاثين سنة من انشاء الكيان الصهيوني ، والتي تخللتها حروب وصراعات ومسارات سياسية ، اخرها هو مسار التسوية الراهنة ، لم تعد الازمة التي تواجه الكيان اليوم ، هي ازمة وجوده بالذات : يكون او لا يكون ، اي حول قيامه · ولكنها تدور حول تحديد مقوماته · والكيان يعاني اليوم هذه الازمة في مستويين :

١ ـ **في المستوى الايديولوجي** ، حيث تنعكس الازمة على الحياة السياسية الداخلية ، وخاصة حول تمحور التنظيمات الحزبية في داخله ·

٢ ـ **في المستوى السياسي** ، وخاصة على مستوى العلاقة بالبلد الامبريالي الام ، الولايات المتحدة الاميركية · وتنعكس هذه الازمة على طبيعة الدور الذي يلعبه الكيان في استراتيجية البلد الام العالمية ، وخاصة على صعيد المنطقة العربية ·

تنبع ازمة الكيان الصهيوني ، الان ، من خوضه لمفاوضات التسوية السياسية بعد حرب تشرين (اوكتوبر) · وحتى لا يكون كلامنا غائما ، فاننا نعني

بالتسوية ، اثناء كلامنا الان ، ما يفهمه الناس العاديون ، انسحاب مقابل اعتراف • انسحاب من المناطق التي احتلت عام ١٩٦٧ ، مقابل اعتراف الدول العربية بشرعية وجود الكيان الصهيوني • وهذه التسوية ، قائمة بشكل او بأخر، على قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، وهي لا تتناقض مع شعار ازالة آثار العدوان الذي طرح بعد حرب ١٩٦٧ •

تحل هذه التسوية ، على المستوى النظري ، عقدة الاعتراف بشرعية الكيان • وهذا انجاز يجب عدم الاستهانة به ، رغم انه ، وفي الظرف السياسي الراهن ، تبدو هذه المسألة وكأنها معطى طبيعي •

سوف تحل هذه التسوية ، اذا تمت ، عقدة الاعتراف بشرعية وجود الكيان • لكنها ، ومن وجهة نظر الكيان على الاقل ، تطرح مجموعة مشاكل تتعلق بمقوماته • فهذه التسوية لا تلبي الحد الادنى المطلوب للكيان على الصعيد الجغرافي ، كما انها لا تؤمن بالضرورة متطلباته على الصعيدين السياسي والامني •

المشكلة الرئيسية ، ان هذه التسوية تأتي والكيان غير مهيأ لها على صعيد مؤسساته الداخلية ، وعلى صعيد انجاز اهدافه من المشروع الصهيوني •

فالتسوية ، تفترض من الكيان تحديد حدوده الجغرافية والسياسية والبشرية• فهذا التحديد المطلوب ، يأتي **قبل ان يستكمل الكيان تحقيق اهدافه في المستوى الصهيوني الداخلي • وقبل ان ينهي المهمة الموكولة اليه على الصعيد الامبريالي، بالنسبة للمنطقة العربية** • والمهمة الامبريالية للمشروع الصهيوني ، هي ضرب حركة الجماهير العربية المتمثلة بالحركة القومية العربية ، والتي تهدف الى تحقيق الاستقلال والوحدة •

الكيان يرفض التسوية :

لذلك ، فالكيان يرفض التسوية ، بالمفهوم الذي حددناه • **ويبدو عاجزا عن اتخاذ القرار بشأنها** • الرفض ، واضح ، من خلال تصريحات القيادات الصهيونية ، وثابت ، نتيجة معرفتنا لاهداف المشروع الصهيوني •

تؤكد تصرفات القيادة السياسية في الكيان ، افتراضنا هذا ، من خلال مواقفها اثناء مسيرة المفاوضات حول التسوية بعد حرب تشرين • ومن خلال الصراع السياسي الداخلي الدائر في الكيان الصهيوني اليوم •

وفي تقديري ، فان هذا الواقع ، هو الذي يدفع الكيان الى القيام بعرقلة مستمرة لمسيرة التسوية ، طمعا في كسب الوقت ، من اجل انجاز اكبر قدر ممكن من اهدافه الصهيونية والامبريالية في اطار التسوية • لذلك وفي مقابل التسوية

بمفهومها الشائع ، يطرح الكيان مشروعه للتسوية ، الذي يحاول عبره تحقيق اطماعه على الصعيد الجغرافي ٠

كما أنه يصارع ويناور ، وقد يلجأ الى القتال احيانا ، كما حصل في الجنوب اللبناني ، في سبيل انجاز المهمة الموكولة اليه في المنطقة ٠ اي ، ضرب حركة الجماهير العربية ٠

يحاول الكيان ، عبر مشروعه الخاص للتسوية ، ضمان مقوماته ، سواء ما يتعلق منها بمهماته في المنطقة ، او على صعيد العلاقات الاقتصادية والسياسية بالدول العربية ، او ما يتعلق بالعلاقة بالبلد الام : مساعدات اقتصادية وعسكرية وسياسية ومعاهدات الخ ٠٠

النجاح في المهمة الامبريالية والاخفاق في المهمة الخاصة

كيف نفسر كون الكيان غير مهيأ لعملية التسوية في مفهومها البسيط : الانسحاب مقابل الاعتراف ؟

١ ــ ينطلق تحليلنا ، من كون الكيان الصهيوني ، نتاج عمل مشترك بين الحركة الصهيونية والدول الامبريالية الغربية ، التي تغيرت في مسار العمل لاقامته ، حسب تطور مراكز القوى في المراحل التاريخية المختلفة ٠

٢ ــ غير ان هذه الشراكة ، هي شراكة غير متكافئة ٠ فمن الواضح ان الطرف الغالب فيها هو الطرف الامبريالي ، الذي لا يمكن مقارنة قواه ، بالقوى الذاتية للحركة الصهيونية ٠

٣ ــ فمن الطبيعي اذن ، ان تنعكس موازين القوى هذه ، على واقع الكيان الصهيوني ، وعلى عمله على تنفيذ اهدافه الخاصة ، واداء مهمته في المنطقة ٠

٤ ــ ومن المعروف ان الصهيونية ، انطلقت على الصعيد الذاتي ، من اجل حل المسألة اليهودية ٠ ولكنها كانت واعية لمحدودية قدرتها على تنفيذ هذا الهدف ٠ من هنا، كان لا بد لها من الاستناد الى دعم من احدى الدول الامبريالية الكبرى٠ وكان من الطبيعي ان تسعى هذه الدولة الامبريالية او تلك ، من وراء المشروع ، لتحقيق مردود يوازي حجم دورها في تحقيقه ٠

٥ ــ وفي حين رأت الصهيونية ان حل المسألة اليهودية يأتي عن طريق اقامة دولة استيطانية اجلائية في فلسطين (ارض اسرائيل الكاملة او شبه الكاملة) ، كانت الامبريالية ترى في الصهيونية ، اداة لضرب حركة الجماهير العربية ، التي تشكل النقيض التاريخي للهيمنة الامبريالية على المنطقة ٠

٦ ــ ولم يلبث الكيان ، حتى قبل قيامه ، ان تحول الى « قلعة » ، قوامها

الالة العسكرية ، التي يقوم بضعة ملايين من اليهود بخدمتها · الاساسي هو الالة العسكرية ، التي يجري تجيير مجمل طاقات المستوطنين من اجل خدمتها ·

٧ ـ لقد كانت حصيلة هذا التوجه ، خلال الاعوام الثلاثين الماضية ، **ان الكيان حقق خارج حدوده ، اي ضمن مهمته الامبريالية ، اكثر بكثير مما استطاع تحقيقه في اطار مهمته الصهيونية ·**

٨ ـ هكذا يجد البلد الامبريالي الام ، الولايات المتحدة ، ان الظروف السياسية في المنطقة تبدو ملائمة لانجاز تسوية تتفق مع مخططاته للمنطقة · ويبدو انه ينشط لتنفيذ هذه التسوية · وهذا واضح من خلال النشاط الاميركي · يبدو ان البلد الام ، بعد ان استطاع الكيان الصهيوني ، بعمله العسكري المستمر . حروب ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ونشاطه السري والارهابي والتآمري خارج حدوده ، يرى ان الساحة اصبحت مهيأة لتسوية تليق بنتائج نشاط الكيان · في حين ، يجد الكيان الصهيوني ، وكأن هذه الصفقة تتم على حساب مصالحه الذاتية · من هنا ، يأتي الكلام على خلاف بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني ·

٩ ـ هكذا ، لا يجد الكيان العزاء في العروض السخية التي يقدمها البلد الام · المساعدات والحديث عن المعاهدة الامنية · انطلاقا من هنا ، تبدو بوادر ولو اولية من المؤسسة الصهيونية الحاكمة ، من اجل توسيع هامش استقلاليتها في اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي · وخاصة منذ صعود اليمين الصهيوني الى الحكم ·

الارتباك الصهيوني على الصعيد الايديولوجي :

لماذا هذا الارتباك الصهيوني ، ايديولوجيا في مواجهة التسوية ؟

كنا قد اشرنا ، ان الصهيونية انطلقت ، من اجل حل للمسألة اليهودية · ورأت ان اقامة كيان استيطاني اجلائي في فلسطين ، يشكل هذا الحل ·

لكن هذا الحل الصهيوني الذاتي ، كان حلا خاطئا ، وناتجا عن تصور خاطيء للمسألة اليهودية ، مما قاد بطبيعة الحال الى سلسلة توجهات وممارسات صهيونية ادت في النهاية الى الازمة الاسرائيلية التي نواجهها اليوم في منطقتنا·

فاذا كانت المسألة اليهودية ، هي عدم قدرة اليهود ، وفي مرحلة تاريخية محددة على الاندماج ، **فان المسألة الاسرائيلية هي عدم قدرة الكيان على التكيف والانسجام مع شعوب المنطقة ·**

فالكيان الصهيوني ، الذي اريد له حل المسألة اليهودية ، فشل في هذا الهدف، كما انه خلق ما نسميه **المسألة الاسرائيلية** · تنطلق العقيدة الصهيونية من فرضية حاجة اليهود الى كيان سياسي ، يجمع اكثريتهم ، ويحمي الاقلية الباقية

في الخارج • لكن بعد ثلاثين سنة على اقامة هذا الكيان ، **نكتشف انه جمع اقلية يهود العالم ، وهو يحتاج بشكل حيوي الى حماية الاكثرية اليهودية في الخارج** • لقد انقلبت المسألة رأسا على عقب • ان المشكلة الرئيسية التي يواجهها الكيان الصهيوني ، في مشروعه الذاتي ، هي انه فشل في حمل يهود العالم على الهجرة الى فلسطين باعداد تكفي لاستيطان البلد في حدوده الجغرافية ، التي اصبحت مقبولة بالنسبة للمستوطنين حاليا ، (ارض اسرائيل الغربية) اي فلسطين الانتداب •

تفترض طبيعة الكيان الاستيطانية ، تدفقا للمستوطنين ، وعندما يفشل المشروع الصهيوني في حمل اليهود على الهجرة الى فلسطين ، فانه يفشل في نقطة انطلاقه المركزية •

لقد جعل هذا الفشل ، من مبدأين اساسيين متكاملين في الايديولوجية الصهيونية ، مبدأين متناقضين ، هما تكامل الارض ووحدانية الشعب •

الهدف الصهيوني الثابت ، هو اقامة دولة يهودية صرفة ، او يهودية في اغلبيتها الساحقة ، على (ارض اسرائيل الكاملة) • وبدا في مرحلة اقامة الكيان ، ان لا تناقض بين هذين المبدأين ، او بدا انهما متكاملان ، ولا تناقض بينهما • لكن ، ونظرا لعدم تدفق المهاجرين اليهود ، وامام ضغط التسوية الراهنة ، بدأ يتضح التناقض بين هذين المبدأين ، مرحليا على الاقل •

فالكيان يواجه الان خيارا بين مسألتين :

١ ــ دولة ثنائية القومية على (ارض اسرائيل الكاملة) •

٢ ــ دولة ، يهودية في غالبية سكانها ، وفي حدود اضيق من (ارض اسرائيل الكاملة) • وفي تقديري ، فان تجمع المستوطنين الصهاينة في فلسطين ، ينقسم اليوم حول هاتين المسألتين الى تيارين متكافئي القوة • وسيكون من الصعب على هؤلاء المستوطنين ، حسم المسألة بسرعة • ولذلك سيطول المدى الزمني الذي ستستغرقه عملية الحسم هذه • على اي حال ، سواء حسم الامر في هذا الاتجاه او ذاك ، وان جاز للتسوية ان تمر ، فان هذا الحسم لن يقود الى تحقيق الهدف الصهيوني الاصلي •

وسيواجه في حال حدوث التسوية ، احد احتمالين • اما ان ينكفيء عن صهيونيته ، وعندها يأخذ منحى جديدا ، تحدده طبيعة التسوية وشروطها ، او يعتبر التسوية مرحلة اخرى على طريق تحقيق اهداف المشروع الصهيوني • **لقد** عرفت الصهيونية ببراغماتيتها ، لذلك يمكن ان تعتبر التسوية كمرحلة اخرى على طريق تحقيق اهدافها •

فاذا تمت مسألة تكامل الارض على حساب وحدانية الشعب ، فانه يمكن طرد

السكان في المستقبل ٠ اما اذا تحققت وحدانية الشعب على حساب تكامل الارض ، فقد يتم استكمال الارض في مرحلة لاحقة ٠ لكن ، **يجب ان لا نستبعد امكانية الابتعاد عن المشروع الصهيوني الاصلي** ، نتيجة للظروف الراهنة ٠ شمعون بيريس احد زعماء الكيان صرح بذلك بشكل واضح ، قال بما معناه . انه لا يمانع في التفكير بمنطلقات جديدة ، تستبدل المنطلقات الصهيونية الاساسية ٠

ش٠ف٠ نستطيع ان نشير الى ثلاث ملاحظات رئيسية ، انطلاقا من الورقة المقدمة من الاخ الياس شوفاني ٠

الملاحظة الاولى : هي حول مسالة الفرق بين قيام الكيان ومقوماته ٠ ما هي حدود القدرة على التمييز بين المسالتين ٠ وهل حين تطرح مسالة مقومات الكيان ، لا نكون نقوم في الآن نفسه بطرح مسالة قيامه ٠

الملاحظة الثانية : هي حول التناقض بين تكامل الارض ووحدانية الشعب ٠ لقد عزا الاخ شوفاني ، هذا التناقض في الايديولوجية الصهيونية الى مسالة التسوية الراهنة ٠ هل ينجم هذا التناقض عن طرح مسالة التسوية ؟ ام انه اساسا ، تناقض ناجم عن فشل الكيان وطبيعة علاقته بالامبريالية ٠

الملاحظة الثالثة : وهي تتعلق بالاشارة الهامة الى نجاح الكيان في مهماته الامبريالية ، بشكل افضل بكثير من نجاحه في مهماته الخاصة ٠ نحن نفضل شرح هذه النقطة اكثر ، وتفصيل عناصرها ٠

ثم هناك اخيرا المأزق ، التي تطرحها التسوية ٠ ماذا يفعل العقل الصهيوني في بحثه عن بديل للتسوية ٠ اي هل يتمسك بخطه الكلاسيكي القديم ، وهذا الخط قد يعرضه للهزيمة ، كما حدث ، كمقدمة لذلك في حرب اوكتوبر ٠ فهل بدا المفكرون الصهاينة في عملية مراجعة لصحة الخط الكلاسيكي ، الخط الحربي الدائم ؟

يشير شوفاني الى ان الصهيونية لم تنجح في حل المسالة اليهودية ، لكنها خلقت الى جانبها ، المسالة الاسرائيلية ٠ السؤال هو ، هل استطاع المشروع الصهيوني ان يخلق مجتمعا اسرائيليا ؟

عبد الحفيظ محارب : اشار الاخ شوفاني الى وجود خيارين امام اسرائيل : الدولة ثنائية القومية ، او الدولة اليهودية داخل حدود اضيق من (ارض اسرائيل الكاملة) ٠ وذكر ان « المجتمع » الاسرائيلي ينقسم الى قسمين متكافئين حول هذه المسالة ٠

بالنسبة للدولة ثنائية القومية ، ربما وجد هذا الخيار لكن حتى الان ، لا يوجد اي حزب له فعاليته السياسية يؤيد هذا الخيار ٠ مبام في عهد اليشوف طرح الدولة ثنائية القومية ، ولكن بعد اقامة الدولة ، تخلى عن هذا المبدا ٠

هناك كذلك تساؤل حول الدور الذي قامت به اسرائيل على الصعيدين الامبريالي والصهيوني الذاتي ٠ اشار الاخ شوفاني ، الى النجاح في اداء المهمة الامبريالية، وهذا صحيح ٠ لكني لا ارى الفشل على صعيد المشروع الصهيوني الذاتي ٠ بل

اري ازمة · وهذا ليس بجديد · فالمشروع الصهيوني منذ تحققه وهو يعيش ازمات· لكن هناك فرقا بين الازمة والفشل · لقد نجح المشروع الصهيوني في اقامة الكيان الاسرائيلي · وهذا الكيان هو اليوم على الصعيد العسكري ، من اقوى الكيانات الموجودة في الشرق الاوسط ·

انا لا اوافق على طريقة المقارنة بين الدورين · فالصهيونية نجحت ايضا ، على الصعيد الذاتي في اقامة دولتها · وفي اقامة « مجتمع » اسرائيلي ·

الياس شوفاني : سأحاول الاجابة على الاسئلة كما وردت وباختصار شديد ·

الازمة كامنة ، لكن التسوية هي المفجر المباشر ·

في الواقع ، يصعب الفصل بين القيام والمقومات · لكن المسألة المطروحة الان ، هي كيف يكون الكيان ، وليست هل يكون · الازمة الحالية ، هي ازمة موجودة وكامنة في الكيان ، لكن مسار التسوية هو مفجرها المباشر ·

تطرح ، في سياق التسوية الراهنة ، مجموعة من الاسئلة : ما هي حدود الكيان الجغرافية ؟ ما هي حدوده السياسية في علاقاته مع دول المنطقة ؟ ما هي حدوده البشرية، سواء الداخلية الديمغرافية ، او الخارجية بالنسبة للعلاقة بيهود العالم ؟

كذلك ، فان التناقض « تكامل الارض ووحدانية الشعب » ، لم يأت نتيجة التسوية · لكن وكما ذكرت ، فلقد اعتبر هذان المبدآن متكاملين ، اثناء بناء الكيان ·

فشل تجربة المستوطنات :

لقد جاءت التسوية ، والكيان غير مهيأ لها · لم يستطع الكيان ان يحقق التناسب بين عدد المهاجرين وبين الارض التي استولى عليها ·

بالنسبة للتوزيع الديمغرافي ، لا تزال البلاد شبه فارغة من السكان · ثلث السكان يقيمون في تل ابيب وضواحيها · كل الكلام عن المستوطنات خارج « الخط الاخضر » ، هو كلام دعائي ·

لقد تم بناء ٨٥ مستوطنة ، يقيم فيها حوالي ١٠ آلاف نسمة · ٤٠٪ من منازل كريات اربع لا تزال فارغة ·

لذلك وامام مسألة التسوية ، يبدو الخيار مأزقيا · هل يتم الاحتفاظ بمسألة تهويد الارض ، وبالتالي تواجه مشكلة سكانية ، ثلاثة ملايين يهودي في مقابل مليون ونصف مليون عربي ؟ ام يتم التخلي عن التجمعات السكانية العربية ؟

فرض التراجع والمهادنة على الانظمة :

اما حول مسألة ما حققه المشروع للامبريالية ، مقارنة بما حققه ذاتيا ، اريد ان اشير الى نقطة بالغة الاهمية · نحن نعلم ان نهوض الحركة القومية العربية ، ترافق مع تفتيت الدولة العثمانية ، ومع التغلغل الامبريالي ، وبروز المشروع الصهيوني · لقد كانت اهداف الحركة القومية العربية واضحة : الاستقلال والوحدة · وهي بذلك كانت في تناقض مباشر

مع الهدف الامبريالي ، الذي يريد تفتيت الامة العربية والهيمنة عليها · لقد مررنا في مرحلة طويلة من النضال ضد الامبريالية والصهيونية · لكن ، وبعد حرب تشرين ٧٣ ، نلمس مهادنة مع القوى الامبريالية · وهذا يعود الى تولد قناعة معينة ، بانه كنتيجة للقوة الصهيونية ، لا نستطيع التصدي للطرفين الامبريالي والصهيوني في آن ·

المهمة الامبريالية لم تنته :

لكن ، ورغم هزائم حركة القومية العربية ، فانها لم تنته الى التصفية الكاملة · من هنا، لم ينه الكيان مهمته خارج حدوده ، لكنه حقق نجاحا نسبيا اكبر · اعتقد ان الكيان الصهيوني ، لم يستطع ولا يمكنه القضاء على حركة الجماهير العربية بشكل كامل ، اذا اخذنا مثال الحرب الاخيرة في الجنوب ، والتي طرحت فيها القيادة الصهيونية هدف اجتثاث منظمة التحرير الفلسطينية ، فماذا نرى ، بعد شهر ونصف على الحرب ، نجد ان العدو الصهيوني ينسحب ، بينما تتقدم المقاومة الفلسطينية في اعقابه ، وتطلق عليه النار ·

المقاومة ، هي طليعة حركة الجماهير العربية :

وبغض النظر عن الظروف الذاتية التي تعيشها حركة المقاومة ، فانها لا تزال موضوعيا، تمثل طليعة حركة الجماهير العربية · فوجود حركة جماهيرية عربية ، لا تزال قادرة على القتال ، يعني انه ، على الرغم من النجاح الكبير الذي حققه العدو في مهمته الامبريالية ، فهو لم يستطع ان ينهي هذه المهمة ·

الفشل في خلق « المجتمع الاسرائيلي » :

النجاح في المهمة الامبريالية ، اكبر من النجاح في المهمة الصهيونية ، وانا هنا اختلف مع الاخ عبد الحفيظ محارب · فالكيان الصهيوني لم ينجح في خلق « مجتمع » اسرائيلي · لا اريد الدخول هنا في نقاش حول دلالات المصطلح ، لكن يكفي ان نشير الى ان علماء الاجتماع الاسرائيليين ، يعترفون بانفسهم بهذا الفشل · فالكيان بشكله الحالي لا يزال مجموعة تراكمية من مستوطنين لهم صفات وميزات بلدانهم الاصلية · طبعا هناك ظاهرة « الصابرا » · وهي مسألة تحتاج الى نقاش · لكني اعتقد ان الكيان لم يتحول الى دولة بالمفهوم البرجوازي ، لها طبقة حاكمة متجانسة وتملك سوقا محددة ، ولها بالتالي علاقات اجتماعية ·

فشل التهويد :

الفشل الرئيسي للصهيونية ، هو في تجميع اليهود في فلسطين · لكن هناك فشلا اخر ، التهويد · فلا يزال هناك مليون ونصف مليون عربي في الداخل · ولو اقتصرنا على حدود ١٩٤٨ ، نرى ان الجليل لا يزال عربيا ، وجميع التقديرات تشير الى انه في مطلع الثمانينات ، سيكون الجليل ، في الخط الممتد من حيفا الى بيسان شمالا ، عربيا في اكثريته الساحقة ·

طبعا ، لا بد من الاشارة الى محاولات الاستقلال الاقتصادي · لكني اعتقد ان القوانين الاقتصادية التي اصدرتها حكومة ليكود سابقة لاوانها ، بدليل ردات الفعل المعارضة لها · تنطلق هذه القوانين ، في تقديري ، من محاولة بناء دولة برجوازيـــة تتمتع بســـوق اقتصادية · غير ان الدولة لا تزال كيانا ولم تتحول الى مجتمع · فالصهيونية لم تنجـــح في بناء اقتصاد شبه مستقل ·

مسار التسويـــة :

حين اتكلم عن التسوية ، فهذا لا يعني انني اوافق عليها · بل انا على العكس مـــن ذلك · لكنني اشير الى واقع موضوعي · لقد طرحت مسألة التسوية بعد حرب تشريـن · وكلنا نعلم ، انه اريد لهذه الحرب ان تكون حرب تحريك · لكن في وعي الجندي العربي ، كانت الحرب حرب تحرير ، كما انها كانت بالنسبة للجندي الصهيوني حرب حياة او موت· هكذا ، وبعد حرب تشرين ، وضع المستوطنون الصهاينة ، ولاول مرة بعد عام ١٩٤٨ ، امام السؤال المصيري : من انا وماذا اريد ؟ وكيف ستكون علاقاتي مع الدول المحيطة · ومـع بقية انحاء العالم ؟

لكن جاء مشروع التسوية ليقوم بتحريف الاسئلة المصيرية وتحويلها الى اسئلة جغرافية· اي ، بدلا من مواصلة النضال السياسي من اجل دحر العدو ، بعد ان تم وضعه امـــام اسئلته المصيرية ، قام مسار التسوية بتحويل الاسئلة الى مجرد اسئلة جغرافية تفصيلية تتعلق بعدد الكيلومترات التي سيتم الانسحاب منها ·

خيارات الكيان :

طبعا ، تبقى هناك خيارات عديدة امام الكيان الصهيوني · هناك خيار رفض التسوية والقتال · هناك ايضا خيار القتال المحدود ، كما حصل في جنوب لبنان ، وكما يمكن ان يحصل في شمال الاردن · هكذا يمكن لاسرائيل ان تستمر في قتالها المحدود ، من اجـل خلق امر واقع من الانفتاح العربي الذي تقوم به كل دولة على حدة · لكن هناك في المقابل احتمال التسوية · هل يعني هذا انسحابا من بعض سيناء والجولان مقابل الاحتفـــــاظ بالضفة الغربية وقطاع غزة ! اي البقاء في (ارض اسرائيل الكاملة) ومواجهة ثلاثـــة جيوب عربية اساسية ، في الجليل والضفة الغربية وقطاع غزة ، ام يعني انسحابا كمـــا هو مطروح في القرار ٢٤٢ ، مع تعديلات في الحدود ؟

عبد الحفيظ محارب : اعتقد ان الانجاز الكبير الذي حققته الصهيونية ، هو اقامـــــة دولة اسرائيل · وانا اميز بين الدولة والمجتمع · الهدف الصهيوني هو جلب معظم (يهود المنفى) لكن حتى الان ، لم تستقطب الا ٢٠٪ من (يهود المنفى) · وهذا يقودني الـى القول ، ان « المجتمع الاسرائيلي » هو في طريقه الى التبلور · طبعا هناك ازمات داخـل المنظور الصهيوني · لكن الانجاز الاساسي هو اقامة الدولة · بالنسبة لمسألة 'داء المهمة الامبريالية ، انا اعتقد ان اسرائيل عندما تؤدي المهمة الامبريالية ، لا تؤديهـا كمجـرد خدمة للامبريالية · تؤديها لانها جزء من هدفها · هنا يوجد تطابق كامل بين الاهـــداف الامبريالية والاهداف الصهيونية ·

صبري جريس : أود اولا ان اتحفظ قليلا على استخدام كلمة ازمة ، او ان اضعها بين

قوسين • ومن اجل تقييم نجاح او فشل الحركة الصهيونية ، علينا اول ان ندرس اهدافها ، وماذا استطاعت ان تنجز منهـا •

تغير الاهـداف الصهيونية :

يبدو لي ، ان الطريقة التي طرحت بها اهداف الصهيونية هنا ، لم تعد قائمـة منـذ نصف قرن على الاقل • فاهداف الصهيونية لم تبق ثابتة • لان الحركة الصهيونية هي حركة براغماتية بطبيعتهـا •

كان الهدف الاساسي ، هو حل المسألة اليهودية عبر اقامة دولة يهودية ، وبقي هـذا الشعار حتى صدور وعد بلفور • والواقع ان اكثرية الصهاينة قبلت مبدأ انشاء وطـن قومي في فلسطين • وبين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٦ ، لم يرفع اي مسؤول صهيوني شعار بناء الدولة اليهودية ، ما عدا جابوتنسكي الذي كان في المعارضة • لقـد فهم الصهاينـة من وعد بلفور ان فلسطين تضم ضفتي الاردن • ولكن عندما اتجهت الامبريالية البريطانية بالاتفاق مع الفرنسيين ، الى اعادة ترتيب اوضاع المنطقة ، قررت فصل شرقي الاردن عن المنطقة المخصصة للوطن القومي اليهودي ، فوافق الصهاينة على ذلك رسميا • ثم علـى اثر الاضطرابات التي جرت في فلسطين ، اصدرت بريطانيا كتابا ابيض ١٩٢٢ ، اعلنت فيه ان هدفها ليس تحويل فلسطين الى وطن قومي لليهود ، بل اقامة هذا الوطن القومي في فلسطين • ثم في الثلاثينات ، وعند نشوب ثورة ١٩٣٦ ، طرحت مشاريع التقسيم ، والواقع ان الصهاينة وافقوا على التقسيم ضمنا • وعندما طرحت مسألة اقامة دولة علـى جزء من فلسطين ، وافقت اكثرية الصهاينة على ذلك • عام ١٩٤٢ ، اتخذ المؤتمـر الصهيوني قرارا بتحويل فلسطين الى كومنولث يهودي • لكن وايزمن ابلغ البريطانييـن بالموافقة على انشاء دولة يهودية على جزء من فلسطين • واخيرا وافق الصهاينة علـى قرار التقسيم عام ١٩٤٧ •

المسألة الرئيسية في هذا العرض السريع ، هي ان الصهاينة ، كما اعتقد ، احدثـوا تعديلا على العقيدة الصهيونية في الثلاثينات والاربعينات • **لقد اصبح الهدف هو اقامة الدولة ، ولم يعد حل المشكلة اليهودية •**

لقد قادهم هذا الهدف الى التعامل مع المانيا النازية • وهناك قول لبن غوريون يقـول فيه ما معناه ، الذي يهمني هو عصر يهود الشتات كالليمونة • واصدرت المنظمة الصهيونية العالمية اوامر الى عملائها بالعمل على تهجير الشباب ، الذين يستطيعون القتال والبناء • وقد وصل بهم الامر الى تهجير الاطفال الصغار •

لقد تحقق هذا الهدف رسميا عام ١٩٤٨ ، بانشاء دولة اسرائيـل • وفي المؤتمـر الصهيوني ١٩٥١ تم تغير مفهوم الحركة بشكل غير رسمي ، ثم اقر هذا التغيير عام ١٩٦٨• **لقد اصبحت المسألة هي مركزية دولة اسرائيل في حياة الشعب اليهودي •**

الواقع ، ان الحركة الصهيونية ، نجحت في اقامة دولة يهودية • طبعا لم يستطيعـوا تجميع اكثر من ٢٠٪ من يهود العالم خلال عمل قرن كامل • فبعد ان قضي على النازية ، وتحقق نوع من الاستقرار لليهود وخاصة في تجمعاتهم الكبرى ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، اوروبا • اصبح من الصعب نقل ملايين اليهود الى فلسطين • فصار الشعار **هو ان اسرائيل هي وكيل ليهود العالم ، وعلى اليهود واجب دعمها •**

استقطاب يهود العالم :

استطيع ان اقول ان الصهيونية حققت نصرا في هذا المجال • فنحن اليوم ، لا نستطيع ان نقيم اية مقارنة بين وضع الصهاينة ووضع هرتسل في المؤتمر الصهيوني الاول ، حيث رفض يهود ميونيخ عقده في مدينتهم فاضطر الى نقله الى بازل • اما اليوم فاننا نكاد نقول ان اكثرية يهود العالم اصبحت مؤيدة لاسرائيل • فالمنظمات اليهودية المعادية للصهيونية انتهت بشكل تدريجي •

النجاح الثاني ، هو في قيام الدولة • فانا اعتقد ، انه في الظرف الدولي الراهن ، حيث تتحكم القوى الصناعية الكبرى الثلاث في سياسة العالم • الولايات المتحدة ، المعسكر الاشتراكي ، اوروبا الغربية واليابان ، فان مسألة كينونة اسرائيل ليست مطروحة • فهذه القوى الثلاث تعترف بوجود اسرائيل • لذلك ، فانا اعتقد ، ان وجود اسرائيل على مستوى القانون الدولي ، وفي الظرف الدولي الراهن ، ليس في خطر •

لا نجاح ولا فشل :

على مستوى التركيب الداخلي للكيان الصهيوني ، انا اقف بين رأيي شوفاني ومحارب• فالصهاينة لم ينجحوا حتى الان في خلق « مجتمع » اسرائيلي ، كما انهم لم يفشلوا في ذلك • « فالمجتمع » الاسرائيلي لا يزال في طريق التطور ، وملامحه النهائية لم تظهر بعد • فهو يشير الى بعض نواحي النجاح ، كما يحمل بعض جراثيم الفشل •

انا اعتقد انهم حققوا نجاحا في مسألة تعميم استخدام اللغة العبرية • رغم ان اللغات الاصلية لا تزال مستخدمة ، لكن الاجيال الجديدة تنشأ على استخدام اللغة العبرية • والجيل الجديد ، **الصابرا** ، يعتبر نفسه اسرائيليا ، واحيانا تجد عند بعضهم موقف السخرية من يهود العالم •

اسمحوا لي ، ان لا اتنبأ بمصير « المجتمع » الاسرائيلي • لكني استطيع القول ، ان هناك مجتمعين في اسرائيل • المجتمع الاشكنازي ، والمجتمع السفاردي • ومن المحتمل فشل تجربة خلق مجتمع واحد ، لان بذور هذا الفشل موجودة بوجود هذين المجتمعين •

الخوف من التسوية :

انا اوافق الاخ شوفاني ، على طرحه لمسألة التسوية • لكني اريد ان اضيف عاملا جديدا ، هو عامل الخوف من التسوية • وينجم هذا الخوف من التفكك الداخلي في « المجتمع الاسرائيلي » • فهم يعتقدون ، ان الضغط الخارجي عليهم ، يساهم في الانصهار الاجتماعي •

ش• ف• : يرتبط هذا الخوف من التسوية ، كما يشير الاخ صبري ، بالحرص على استكمال الخصوصية الاسرائيلية ، والعمل على توحيد « المجتمع الاسرائيلي»•

هنا ، نسأل ، ولكن استمرار الصراع المفتوح ، قد يؤدي الى نتائج تدميرية • كيف يعالجون هذه المسألة ؟

صبري جريس : هذا خارج وعيهم ، اكثر من ذلك ، فهم يراهنون الان على خلـــق ميزان رعب في المنطقة · يكفل وجودهم الدائم ·

الطمانينة الذريـــة :

انا اعتقد ان الاسرائيليين يملكون الاسلحة الذرية · وهذا يقودهم الى طمأنينة وجود ، حتى ولو امتلك العرب ، اسلحة ذرية · طبعا تبقى الكثير من المشاكل الاقتصادية والمادية· لكني اعتقد حول مسألة الخوف من الابادة ، ان الخوف ليس على اليهود ، بل على العرب· ولدي شعور ، من خلال متابعتي لنشاطهم وتصريحاتهم ، انهم يملكون اسلحة ذرية تكتيكية على الاقل · وانا اعتقد ، على ضوء النفسية الصهيونية ، التي تكونت بعد النكبة النازية، انهم مهيئون نفسيا لاستخدامها ، في حالات معينة ·

المشكلة الرئيسية ، والتي تدفعهم الى رفض التسوية ، هي مشكلة الطابع اليهـــودي للدولة ، الذي يخشى من زواله في حال التوصل الى تسوية ·

نزيه قورة : لدي ملاحظات حول بعض المقولات التي استخدمت في النقاش : النجـاح الداخلي والنجاح الخارجي · قيام الكيان ومقوماته · دولة ثنائية القومية ودولة محددة جغرافيا · ان عملية فصل هذه المقولات صحيحة لاهداف التحليل النظري · لكن علينـــا كذلك ان نبحث عن العلاقة بينهـا ·

النجاح الداخلي والنجاح الخارجي :

عندما نناقش مسألة النجاح الداخلي ، فاننا نرى ان هذا النجاح يرتبط بالاغـــراض الصهيونية الاساسية · وهي تجميع القسم الاكبر من يهود العالم في فلسطين ، لاغـراض عملية بالاضافة الى الغرض المبدئي · فالكيان الصهيوني ، الذي هو في حالة صدام دائمة مع منطقة تنمو باستمرار ، يحتاج الى تدفق دائم للهجرة اليه · وذلك من اجل زيادة قدرة الالة العسكرية ، وتلبية احتياجاتها · هكذا نرى انه عندما يحدث تقلص في الهجرة ، كانت تظهر علامات الازمة الاقتصادية داخل الكيان · الهجرة مطلوبة كذلك ، من اجل الوصول الى تجمع يضم ثمانية ملايين يهودي · عندها ، كما صرح احد المسؤوليـــن الصهاينة ، **سوف ييأس العرب من امكانية شن الحروب عليهم ، ويقبلون بوجودهم · لكن هذا النجاح الداخلي ، في تجميع اليهود في فلسطين ، ضروري من اجل النجاح الخارجي** · فبـدون تدفق بشري يلبي احتياجات الجيش والاقتصاد ، لن تستطيع اسرائيل القيام بمهمتهـــا الخارجيـــة ·

فعندما تغيب عوامل النجاح الداخلي ، تظهر شكوك في امكانيات اسرائيل على تحقيق نجاحات خارجية · وفي المقابل ، عندما تفشل اسرائيل خارجيا ، فان هذا ينعكس علـى اوضاعها الداخلية · فنحن نجد على سبيل المثال ، انه بعد حرب ٧٣ ، توقف النمــــو الاقتصادي · اصبح حوالي ١٪ ، بعد ان كان ١٠٪ و ١١٪ · هذا على الرغم من كـــون حرب ١٩٧٣ ، لم تكن فشلا اسرائيليا بالمعنى الدقيق · لكنها كانت حربا مكلفة ، بالمقارنة مع الحروب السابقة شبه المجانية ·

كذلك في مسألة القيام والمقومات · فعندما ينشأ شك في امكانيـــة تحقيـــق المقومات ، يتعرض المشروع من اساسه للشك في امكانية وجوده ·

لا ضم ولا انسحاب :

واخيرا ، بالنسبة « للخيار » بين دولة ثنائية القومية ، او دولة محددة جغرافيا · هنا، علينا ان نرى ان اسرائيل تعيش وسط منطقة معادية تماما · وعلى الرغم من مظاهر السكون الخارجي ، لكن هذه المنطقة تنمو موضوعيا وبشريا · كما تنمو طموحاتها واحتياجاتها ·

انا اعتقد ، انهم لا يمكن ان يوافقوا على دولة ثنائية القومية · لا يمكن ان يعطوا الحد الادنى من الحقوق للقومية الاخرى التي تملك وزنا سكانيا وثقافيا كبيرا · كما انهم لا يستطيعون الانسحاب · لذلك ، فسياستهم هي اللاضم واللاانسحاب · اي الابقاء على الوضع الراهن ، طاقة بشرية عربية تجري الاستفادة منها ، دون ان تمنح الحد الادنى من الحقوق ·

محمود سويد : اريد أن ابدي ثلاث ملاحظات · حول القضايا التي اثيرت ·

الملاحظة الاولى ، حول مسألة خيار الكيان بين دولة ثنائية القومية ودولة يهودية في حدود اضيق · انا اعتقد انه ليس امام الكيان خيار بين هذين الاحتمالين : فكلاهما هزيمة · لكني اعتقد ، ان السياسة الاسرائيلية ، لا يمكن أن تكون في حالة تجمد · لا حرب ولا سلم · فهي سياسة دينامية ، تعمل على تحقيق اهدافها · ولن يكون هناك تسوية الا عبر الحاقها هزيمة كاملة بحركة التحرر العربية ·

صراع لا ينتهي ، وانجاز هزيل :

لو افترضنا جدلا ، ان اسرائيل اعطيت كل ما تطلبه من مطالب اقليمية : الجولان ، الضفة العربية ، غزة ، واجزاء من سيناء · فهل سينتهي الصراع ؟

ان مجرد وجود قدرة الطرف الآخر على متابعة الصراع ، يضع علامات الشك على جميع الانجازات ، التي حققها الكيان الصهيوني ·

الملاحظة الثانية ، حول كون وجود دولة اسرائيل ، هو انجاز مشترك بين الحركة الصهيونية والامبريالية · هنا ، حدث بعض الالتباس في سياق النقاش · **فالحركة الصهيونية هي جزء من الامبريالية ، تصعد بصعودها وتندحر باندحارها** · لذلك فالذي تحققه الحركة الصهيونية داخليا وخارجيا ، يرتبط بالوضع العام لحركة الامبريالية ·

ولكن ، اذا حللنا الانجاز الداخلي للحركة الصهيونية ، بالمنظور التاريخي ، فاننا نكتشف **انه انجاز هزيل** · ففي الوقت ، الذي وصلت فيه جركة التحرر العربية ، الى مرحلة الانحطاط هذه ، نكتشف مدى هزال الانجاز الصهيوني الداخلي ، في الخيارات التي تطرح عليه : دولة ثنائية القومية ، او دولة يهودية في حدود اضيق · واسرائيل ترفض التسوية · **ورفضها ناجم عن الخوف ، من كون الطرف الاخر في الصراع ، لا يزال موجودا** ، وبالتالي ، فاسرائيل حين تعجز عن بناء شعب متجانس وقادر على الاستمرار بامكاناته الذاتية ، فانها ، تكون قد فشلت في تحقيق انجاز تاريخي حقيقي ·

لقد تكونت اسرائيل ، وحققت انجازات في مرحلة تاريخية محددة · حين كانت المنطقة العربية قد اخضعت للتقسيم والوصاية الاستعمارية ، وتمر في مرحلة تخلف شاملة ·

فالانجاز هذا ، لم يتحقق كنتيجة لقدرات اسرائيل الذاتية ، ولكن كجـــزء من انجـــاز امبريالـــي ٠

يبقى السؤال الاساسي : هل يمكن للحركة الصهيونية ان تحقق اكثر مما استطاعت على الصعيد الداخلي ؟ انا اعتقد ، انها لا تستطيع اكثر من هذا نتيجة سببين :

١ ـ كيف يمكن اقامة شعب متجانس ، من عناصر متناثرة ؟ الا اذا كنا نسلم بامكانية اقامة قومية ، على اساس التجانس الديني ٠

٢ ـ تقف في مواجهة هذا المشروع ، قومية فتية ، رغم كل التعثر الذي نلاحظ فـــي مسيرة الاعوام الثلاثين الماضية ٠ لكن القومية العربية لا تزال في مرحلة نهوض ، فـــي مرحلة تحديد ذاتها واهدافها ٠

لا استقـــلال :

الملاحظة الثالثة ، وتتعلق بمسألة الاتجاه نحو استقلالية القرار السياسي ، والتي اشار اليها الاخ شوفاني ، لقد مر ثلاثون عاما على انشاء الكيان ٠ تولى حزب العمال خلالها السلطة ٢٩ سنة ٠ لكني ارى ، ان السنة الاولى من حكم الليكود تلخص مسار التجربـــة الاسرائيلية في التصاقها بالامبريالية ٠ وليست تصريحات بيغن ، عن الخدمـــات التـــي قدمتها اسرائيل للامبريالية ، الا مؤشرا على استحالة الوصول الى استقلالية القـــرار السياسي ٠ وانا اعتقد ان اسرائيل ستستمر في التحاقها بالامبريالية الاميركية ، الى ان تدخل عوامل تغير في عناصر الصراع ٠ طبعا ، يمكن الكلام عن استقلالية محدودة ، تطال الناحية التكتيكية ٠ اي يمكن لاسرائيل ان تشعل حروبا صغيرة ، من خلال المقدرة العسكرية التي تجمعت لديها ، خلال السنوات الاربع الماضية بعد حرب تشرين ، باستقلالية نسبيـــة عن السلطة الاميركية ٠ **لكن على المستوى الستراتيجي ، فان اسرائيل لا تستطيع ان تخوض اية معركة بقرار سياسي مستقل عن الامبريالية الاميركية ٠**

هاني العبد الله : اريد ان اشير الى ان مسألة استقلالية القرار الاسرائيلي ، هـــي احدى الطموحات التي تسعى الحكومة الاسرائيلية الحالية ، لتحقيقها في المستقبل ٠

وهناك ، في المرحلة الحالية ، قضية جدالية ، بين المفهوم الصهيوني لدور اسرائيل في المنطقة ، والمفهوم الامبريالي لهذا الدور ٠ وكأن هناك في الافق صدامـــا بين هذيـــن المفهومين ٠ وهذا ما لاحظناه في خطبتي بيغن ، في رحلته الاخيرة الى واشنطن ، حيث اكد على مسألة هامة ٠ **« نحن لسنا اصدقاء فقط ، بل نحن حلفاء وشركاء »** ٠ استطيع ان ارى في هذه العبارة ، الطموحات التي تحرك بيغن ٠ بمعنى اخر ، اذا عدنـــا الى الوراء ، واستعرضنا مراحل تطور المشروع الصهيوني ، وبصرف النظر عن نقاش مسألة كـــون الصهيونية كعقيدة هي نتاج المرحلة الامبريالية ، او كونها نتاج المرحلة القومية فـــي اوروبا ، فان هذا المشروع هو نتاج اتفاق الطرفين على اقامة الكيـــان الصهيوني فـــي المنطقة ٠ اما التعارض ، فناجم عن مدى فهم كل طرف للدور الذي يمكن ان يلعبه ٠

شروط السلم الاسرائيلي :

انا اوافق الاخ شوفاني على اشارته الى نجاح الكيان في اداء مهمته الخارجية ٠ لكننا لا نتكلم في المطلق ٠ كل نجاح هو نجاح نسبي ٠ فحركة التحرر العربية ، رغم الضربـــات

التي وجهت اليها ، لا تزال موجودة وقادرة على النهوض · اذن مهمة الكيان تبقى قائمة، بوجود الطرف الاخر القادر على المقاومة · لكن هذا لن يقودنا الى فرضيـــة استحالـة التسويــة ·

اعتقد ان الكيان الصهيوني ، حتى بقيادة الليكود ، ليس ضد السلام بشكل مطلق ، لكنه يريد شروطه للسلام · والامبريالية كذلك تسعى الى الاستقرار في المنطقة · لكننا نرى ان هناك تباعدا بين الفريقين حول مفهوم التسوية · انا اعتقد ان الامبريالية الاميركية تريـد استغلال النجاحات التي حققتها انطلاقا من هزيمة ٦٧ ، من اجل اعادة ترتيب اوضـــاع المنطقة · واسرائيل ، لا تمانع في المساهمة ، في اعادة الترتيب هذه ، **لكنها تريد ان تبقى الطرف الرئيسي في المنطقة** · وهذا هو جوهر الخلاف ، بين السلطة الحاكمة في اسرائيل وبين الولايات المتحدة ·

الياس شوفاني : اريد في نهاية نقاش مسألة التسوية والايديولوجية الصهيونيـة ، ان اجيب بسرعة على مجموعة من الطروحات ، التي قدمها الاخوة الذين ناقشوا المسألـة · انا اتفق مع صبري جريس ، بالنسبة لمسألة تغير الاهداف الصهيونية بين مرحلة واخرى · لكن هذا التغير كما عرضه صبري جريس ، هو **دليل الفشل في تحقيق الاهداف التاريخية للحركة الصهيونية** ·

اما بالنسبة للسؤال ، حول كيفية تصور التجمع الصهيوني في فلسطين المحتلة بالنسبـة للمستقبل ، فانني اشير باختصار الى ان العقيدة الامنية للمستقبل ، لا تختلف كثيرا عـن العقيدة السائدة الان ·

الحدود الامنة خارج الحدود :

الحدود الامنة ، بالمفهوم الاسرائيلي ، ليست فقط ما يحصل داخل الحدود ، بل هـــي اساسا ما يجري خارج الحدود · **فالحدود الامنة ، تعني ، ضرورة ان لا يكون هنـــاك خارج الحدود ، قوة سياسية فاعلة قادرة على تهديد امن الكيان** ، من هنا ، فان شـرط الكيان للموافقة على تسوية ، هو ضمان هيمنته السياسية والعسكرية على مسار الاوضاع في المنطقة المحيطة به على الاقل ·

اما بالنسبة لما طرحه نزيه قورة ، حول علاقة القيام بالمقومات · انا اتفق مع هـــذا الكلام ، لكني فقط ، اريد ان اشير ، الى ان المسائل المثارة حول مشروع التسوية المطروح، تتعلق اساسا ، بمقومات الكيان ، وليس بقيامه · طبعا ، سوف تقرر هذه المقومات ، مـدى فاعلية الكيان في تنفيذ مهمته · هل سيكون كيانا قويا قادرا ، ام مجرد كيان هزيل ·

شرطي حراسة ام محمية ؟

لقد طرح كيسينجر مسألة تحويل اسرائيل الى اداة معتدلة · والاداة المعتدلة هـــي بداية الطريق نحو التحول الى محمية امبريالية · فالامبريالية لا تقيم دفاعا مشتركا مـع اداتها لضرب المنطقة ، الا اذا كانت تريد تحجيم دورها ، ومهمتها ·

وأريد ان اتوقف قليلا عند مسألة الانسحاب من الارض · فهناك في اسرائيل ، منطـــق غيبي مثالي سائد ، فيما يتعلق بهذه المسألة · وهذا المنطق فاعل ومؤثر في اتخاذ القرار

السياسي · فالفئة الحاكمة في اسرائيل ، لا تنطلق من ايديولوجيا مادية رأسمالية ، لكن يلعب العامل « الثقافي القومي » ، دورا رئيسيا في تقرير سياستها ·

انا اتفق مع رؤية الاخ محمود سويد ، الى صعوبة التسوية الان · لكنني اريد ان اؤكد على كون رفض الكيان للتسوية ، ينطلق من مشاريع اخرى يطرحها للتسوية ، الهدف منها هو العمل ، من خلال مسار التسوية ، على تنفيذ اهدافه · نجاح الكيان او فشله يرتبطان بالطرف الاخر · وهناك احتمال كبير ، بامكانية دحر العملية باسرها ·

الحركة الصهيونية هي جزء من المعسكر الامبريالي · هذا صحيح · لكنه يعني ان هذا المعسكر يتألف من اجزاء · وانه قد تنشأ تناقضات ثانوية بين هذه الاجزاء ·

لقد بقت الحركة الصهيونية كيانا ، وهذا الكيان ، يطمح للتطور بالمفهوم البرجوازي ، نحو بناء طبقة حاكمة ، تملك سوقها الاقتصادية · وستحاول هذه البرجوازية (وليس من الضروري ان تنجح المحاولة) ، لكنها ستحاول توسيع هامش استقلاليتها ، في اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي ·

لذلك ، وانا هنا اوافق مع هاني العبد الله ، هناك توجه نحو استقلالية القرار السياسي ويتضح هذا التوجه ، من خلال محاولة اقامة حل مباشر ، اسرائيلي مصري ، كما جرى بعد زيارة السادات الخيانية للكيان الصهيوني · لكن الامبريالية الاميركية قطعت الطريق على هذا التوجه ، وعادت كمركز رئيسي لادارة المفاوضات ، حيث يلعب السفير المتجول اثرتون دور محرك الموقف ·

الملف الثاني

اسرائيل ، اليهود ، والامبريالية الاميركية

صبري جريس

اود في البداية ، ان أؤكد على مجموعة النقاط ، التي اثرتها في الجلسة السابقة ، حول علاقة الحركة الصهيونية باليهود · والتي تطورت من طلب دعم الحركة الصهيونية الى المساهمة في اقامة الدولة اليهودية · واخيرا الى اعتبار الدولة اليهودية مركزية في حياة اليهود ، من هنا ضرورة دعمها ، اذا لم يمكن من الممكن الهجرة اليها ·

علاقة اسرائيل بيهود اميركا :

علاقة اسرائيل بيهود العالم حاليا، هي علاقتها اساسا بيهود الولايات المتحدة، والسبب واضح وبسيط· هناك حوالي ٤٠٪ من يهود العالم يعيشون في اميركا·

فعدد يهود اميركا هو ضعفا عدد يهود اسرائيل · وهم الى جانب ذلك ، طائفة ثرية ونشيطة ·

لقد مرت علاقة الحركة الصهيونية بيهود اميركا في ثلاث مراحل رئيسية ·

المرحلة الاولى : من نشاة الصهيونية حتى الحرب العالمية الثانية ·

كان يهود اميركا ، في هذه المرحلة ، في غالبيتهم الساحقة ، عبارة عن مهاجرين جدد ، قدموا من روسيا القيصرية ، او من بولونيا · وكانوا منهمكين في العمل ، على التأقلم ، في المجتمع الاميركي · لذلك نلاحظ ، انه على الرغم من كثرة عددهم ، فان دورهم في النشاط الصهيوني لم يكن كبيرا · (لقد لاحظت في احدى الدراسات التي اقوم بها ، ان العمل الصهيوني ، بين الحربين ، فترة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، كان يتركز ، بين يهود بولونيا اولا ، يليهم يهود الولايات المتحدة ، يأتي يهود فلسطين في المرتبة الثالثة) ·

لقد اقتصر دور اليهود الاميركيين ، في هذه المرحلة ، على تقديم الدعم المادي للحركة الصهيونية ، وهناك عدد ضئيل جدا منهم ، هاجر الى فلسطين ·

المرحلة الثانية : فترة الحرب العالمية الثانية ·

لقد حدث التغير ، في موقف اليهود الاميركيين ، من الصهيونية ، كما يبدو ، خلال الحرب العالمية الثانية · ويعود هذا التغير الى تغيير موقف الحركة الصهيونية منهم · والواقع ان هذا التغير قد حصل نتيجة فقدان المستودع البشري في اوروبا الشرقية ، الذي ضاع في الدوامة النازية · وربما يشكل مؤتمر بالتيمور الذي عقد في اميركا في نهاية عام ١٩٤٢ ، (والذي اعلن فيه عن النية في اقامة كومنولث يهودي في فلسطين · وجرت المطالبة على هذا الاساس بتسليم السلطة في فلسطين للوكالة اليهودية) · اتخذت الحركة الصهيونية في هذا المؤتمر موقفا ، وهو العمل على احتلال اليهود الاميركيين · كاستمرار للشعار الذي طرحه هرتسل في المؤتمر الصهيوني الثاني ، وهو العمل على احتلال الطوائف اليهودية · وفي الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٢ ، و ١٩٤٨ بذلت الحركة الصهيونية جهودا كبيرة للسيطرة على يهود اميركا · وكما يتضح الان ، فقد احرزت الصهيونية نجاحات كبيرة في هذا المجال · اهمها عزل جميع المنظمات اليهودية غير الصهيونية · ولقد لعب هذا الانجاز، بالاضافة الى عوامل اخرى ، دورا في القرار الذي اتخذه ترومان بالاعتراف باسرائيل عام ١٩٤٨ · ومنذ ذلك الوقت بدأت تتكون العلاقة الاميركية الاسرائيلية ·

المرحلة الثالثة : منذ اوائل الخمسينات وحتى اليوم ٠

نلاحظ ، انه في بداية هذه الفترة ، ساءت علاقة اسرائيـــل بيهود اميركا ، وتحسنت العلاقة الاسرائيلية الاميركية ٠ ويعود سبب هذا التحول ، الى سياسة بن غوريون تجاه اليهود ، والتي تلخصها عبارته : « الصهيوني هو الذي يهاجر الى اسرائيل ، اما الذي لا يهاجر ، فليس صهيونيا » ٠ النقطة الثانية الهامـة في سياسة بن غوريون ، هي قراره ، كما يشير في احد كتبه ، الاتجاه نحـــو اميركا وليس نحو الاتحاد السوفياتي ٠ فمنذ تلك اللحظة ، بدأت العلاقة فـــي التحسن بين اسرائيل واميركا ، على حساب علاقة اسرائيل بالمعسكر الاشتراكي٠ غير ان علاقة يهود اميركا باسرائيل عادت الى التحسن بعد اقرار مبدأ مركزية دولة اسرائيل بالنسبة لليهود ٠

العلاقة الاسرائيلية الاميركية :

قد يشكل تطور علاقة الحركة الصهيونية بيهود اميركا ، مدخلا جيدا لفهـــم العلاقة الاميركية الاسرائيلية ٠ لكنني اريد قبل ذلك ان اتوقف عند مسألة علاقـة اسرائيل بالامبريالية ٠ والتي تمثل الولايات المتحدة قيادتها في هذه المرحلة ٠

لا شك في ان علاقة الصهيونية بالامبريالية هي علاقة دائمة ، ومنذ نشـــوء الحركة ٠ لكنني ، اريد ان ابدي بعض التحفظات حول الرأي الذي طرح ، بان اسرائيل ليست سوى اداة امبريالية ، او ظاهرة امبريالية ٠

انا اعتقد ، ان اسرائيل ، كنتاج صهيوني ، هي جزء من الامبريالية ٠ لكنهـا ايضا ، ناجمة عن المشكلة اليهودية ككل ، عن اوضاع اليهود في العديد من دول العالــــم ٠

اذا انظرنا بسرعة الى تاريخ الصهيونية ، منذ بداية استيطان فلسطين عـام ١٨٨٠ ، فاننا نجد ان الحركة الصهيونية كانت تبحث دائما عن دولة امبرياليـة، توافق على مشروعها في فلسطين ٠ ونتيجة للصعوبات التي واجهتها ، فقـــد اضطر هرتسل ، وقسم لا بأس به من قيادة الحركة الصهيونية الى البحث عـــن امكانية تحقيق الدولة في اوغندا ، وموزمبيق والعريش وقبرص ٠

من خدم مـــن ؟

لكن التحول حدث مع خلال الحرب العالمية الاولى ، ومع صدور وعد بلفور ٠ انني في الواقع ، اختلف مع الرأي القائل بان اسرائيل هي مجرد اداة في خدمة الامبريالية ٠ واريد ان اطرح سؤالا : **ولكن ، وفي النهاية ، من خدم مـن ؟** ان

احد الاسباب الرئيسية الكامنة خلف اصدار وعد بلفور ، هو رغبة بريطانية في دفع الصهيونية للضغط على حلفاء بريطانية ، الموقعين معهـــا على اتفاقيـــة سايكس ـ بيكو من اجل تحسين شروطها في المنطقة العربية · وبالفعل لعـــب وايزمن وسوكولوف دورا في الضغط من اجل توسيع النفـــوذ البريطاني فـــي المنطقـــة ·

لقد جاءت محصلة هذه العلاقة ، خدمة اكبر للصهيونية منهـــا للامبرياليـة البريطانية · فبعد صدور وعد بلفور ، ونتيجة للمقاومـــة العربية للمخطـــط الصهيوني ، بدأت بريطانية في التراجع · وقد اشرت في الجلسة الماضية ،كيف قلصت وعد بلفور عن شرق الاردن ، ثم كيف اصبحت المسألة ، مسألة وطن قومي في فلسطين ، وليس تحويل فلسطين الى وطن قومي يهـــودي · وعام ١٩٣١ ، حاولت بريطانية التنصل من تعهداتها ، لكن الضغط الصهيوني اجبرها علـــى التراجع · وعام ١٩٣٩ ، عشية الحرب العالمية الثانيـــة ، اصدرت بريطانيـــة « الكتاب الابيض » الذي تشير فيه الى ان وجود ٤٥٠ الف يهودي في فلسطين ، يدل على انها نفذت تعهداتها بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وانه بعـد عشر سنوات ، يجب ان تنال فلسطين استقلالها ، وتقوم فيها حكومة ديمقراطية · الذي املى هذا الموقف البريطاني ، هو محاولة بريطانية استمالة العرب الـــى جانبها ، في صراعهـا الدامي مع المانيا النازية ·

لقد نفذت بريطانية سياستها الجديدة هذه ، عبر القيود المفروضة على الهجرة اليهودية ، رغم ان الصهاينة استطاعوا التحايل عليها · وبعد نهاية الحـــرب العالمية الثانية ، نشب الصراع بين الصهاينة وبريطانيـــة بين عامـــي ١٩٤٥ و ١٩٤٨ · وقد كان صراعا دمويا · واعتقد ان الصهاينة ، فهموا ان بريطانية الخارجة من الحرب ، قد تحولت الى دولة من الدرجة الثانية ·

لقد مرت علاقة اسرائيل بالدول الكبرى ، بعد اقامتها مباشرة ، بفترة ممتازة · فبعد اقامتها بساعات ، اعترفت بها الولايات المتحدة · كما اعترف بها الاتحاد السوفياتي بعد يومين على اقامتها · بريطانية ، كان لها بعض الشروط والتـــي اهمها اعتراف اسرائيل بضم الضفة الغربية الى شرق الاردن ، وبعد تحقيق هذا الشرط اعترفت بها · وفرنسا كانت معنية بمساعدتها من اجل ضرب النفـــوذ البريطاني في المشرق العربي ·

التحالف الاسرائيلي ـ الفرنسي :

في منتصف الخمسينات ، ومع صعود عبد الناصر ، دخلت اسرائيل في تحالف مع الاستعمار الفرنسي · والسبب هو حرب الجزائر ، والمصلحة المشتركة فـــي أسقاط نظام عبد الناصر · لقد فشل الهدف من هذه العلاقـــة ، بفشل حـــرب

السويس · لكن اسرائيل كسبت بنتيجة هذه الحرب استقرارا لمدة عشر سنوات، استطاعت ان تنتقل خلالها الى مرحلة جديدة في بناء الكيـــــان الصهيوني فــي فلسطين ·

العلاقة الاسرائيلية الاميركية ، المصلحة الاميركية :

منذ منتصف الستينات ، والعلاقة الاميركية الاسرائيلية ، تنمــو وتتوثــق · وازدادت نموا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ · ومرت ، كما نعلم ، بتطورات مختلفة· لكن ، الذي يميز هذه العلاقة ، **هو الدعم الاميركي الشامل لاسرائيل · القائــم على قناعة اميركية ، بان اسرائيل هي الدولة القوية القادرة على تأمين مصالح الولايات المتحدة ، والمحافظـــــة على الوضــع القائــــم في الشرق الاوسط ·** وهذه عمليا سياسة جميع الرؤساء الاميركيين · الاعتماد على اسرائيل واعطاؤها الاسلحة واغداق الاموال عليهـــا ·

مع مجيء ادارة كارتر ، وصعود بيغن الى السلطة ، حدث الخلاف الذي اشير اليه بين أميركا واسرائيل · اريد هنا ان اشير الى نقطة تتعلق بالفرق بيـــــن التيارين الصهيونيين الرئيسيين : العمل والليكود · فمنذ تبلور هذين التيارين في العشرينات ، كان هناك خلاف بينهما · **هل اسرائيل هي تابـــــع ام حليـــــف للامبريالية ؟**

تاريخيا ، يعتمد حزب العمل فلسفة وايزمن ، التي تقول بانه لا يجوز الصدام مع الغرب ، او بالاحرى مع الدولة التي تحمي الصهاينة · وعنــــد حصــول الخلاف ، كان وايزمن يستقيل · والواقع ، ان حزب العمل كان ينسق دائما مع الدولة الامبريالية التي تحمي المشروع· بريطانية في السابق ، ثــم الولايـــات المتحدة · ولا مانع لدى حزب العمل من لعب دور التابع ، وتقديم التنازلات · اما اليمين فموقفه يختلف · وهذا واضح في كلام بيغن ، الاصرار على دور الحليف· وهذا الموقف هو الذي قاد الى انهيار مؤتمر جنيف · بيغن يمثل العقل اليمينــي الصهيوني خير تمثيل · حيث يجري الاصرار على دور اسرائيل داخل المعسكـر الامبريالي ·

ورغم كل ما قيل اميركيا ، عن الوطن القومي الفلسطيني ، وعن حل المشكلة· فاني اعتقد ان كارتر قد عاد الى السياسة التقليدية ، التي يتبعها جميع الرؤساء الاميركيين ·

النفوذ الصهيوني في اميركا :

يبدو لي ، انطلاقا من الوضع الاميركي الداخلي ، حيث يلعب النفوذ الصهيوني دورا كبيرا ، لا تستطيع اميركا الا أن تأخذ موقفا منحازا الى جانب اسرائيل ·

فنفوذ اليهود الاميركيين مؤمن لخدمة اسرائيل · واخر البدع في هـذا الصـدد هو الدعوة الى تأييد اسرائيل ، حتى ولو حدث خلاف حول سياستها ·

ولكني اعتقد ، ان وجود عالم عربي قوي ومتنام ، سيجبر اميركا في النهاية، كائنا من كان رئيسها ، وعلى رغم النفوذ الصهيوني ، على اتخـاذ مواقـف مختلفة ، مراعاة للمصالح الذاتية الاميركية ·

وعلى الرغم من الموقف الاميركي الراهن ، والمؤيد لاسرائيل ، هناك قلـق اسرائيلي من المستقبل · لذلك فهي تحاول ان تبني قوة مستقلة · نلاحظ مثـلا التعاون الكبير مع جنوب افريقيا في صناعة اسلحة تقليدية متقدمة ، وفي تصنيع اسلحة ذرية · كما نلاحظ اتجاها اسرائيليا نحو توفير الطاقة من مصادر ذاتية، او من الذرة · كما نلاحظ محاولة تحسين العلاقات مع اوروبا الغربية ، عبـر الدخول في السوق المشتركة ·

طبعا ، هذه توجهات استراتيجية وبعيدة المدى · لذلك فانا اعتقد ، ولاسباب متعددة ، بان اسرائيل لا تريد التسوية ولا السلام ، لانها لم تحقـق حتى الان جميع اهدافهـا ·

ش·ف· تثير الملاحظات حول العلاقات الاسرائيلية الاميركية ، المقدمة مـن الاخ صبري جريس ، مجموعة من الاسئلة · اذا وضعنا مسالة العلاقات الاسرائيليـة الاميركية في سياق اللحظة السياسية الراهنة ، فاننا نرى ان المنهج العربي المؤيـد للتسوية بتياريه ، متفق على ان السير في طريق التسوية ، تؤمنه وتضمنه اميركا · والخلاف بين التيارين ، هو ان احدهما يرى ضرورة تحسين الشروط العربية مـن منظور اميركي ، اي ان اجراء تغييرات اجتماعية في الداخل العربي ، عبر تقريب الحالة العربية من اميركا هو الذي يدفع اميركا للضغط على اسرائيل من اجـل التسوية · بينما يرى التيار الثاني ان تصعيد الضغط العربـي علـى اميركا ، واستخدام وسائل القوة العربية ، هو الذي يدفع باميركا الـى الاحساس بالخطر ، والسير بالتالي في معادلة صعبة جدا : الحفاظ على مصالحها العربية في الوقـت الذي تضمن فيه مصالح اداتها · الاخ صبري لامس المشكلة ، لكنه لم يقدم عليهـا اجابات واضحة ·

وهناك ايضا سؤالان استيضاحيان ، لا يتعلقان بالمنهـج · فالمنهـج يحتاج الى نقاش طويـل ·

السؤال الاول : هو عن وضع اليهـود الاميركيين ، وكيف استطاعت المنظمـة الصهيونية الاستيلاء عليهم خلال الحرب العالمية الثانية ؟ ولماذا تم هذا الاستيلاء ؟ وما هو الفرق في العلاقة مع المنظمة الصهيونية بين يهود اميركا ويهود بقية انحاء العالم ، يهود الارجنتين مثلا ؟

السؤال الثاني : هو حول الجباية اليهودية في اميركا · وما هي علاقتها بالعلاقة الاسرائيلية الاميركية ·

ثم ايهما اجدى لمصلحة المشروع الصهيوني في فلسطين : وجود اليهـــود في اميركا كقوة ضغط ام هجرتهم الى فلسطين · فطالما تقول ان الضغــط الصهيوني اليهودي في اميركا ، هو الذي يمنع اميركا من اتخاذ موقف جديد · فهل هذا يعني ان هجرة اليهود الاميركيين الى فلسطين ، سينهي الضغط على اميركا ، وبالتالــي يتغير الموقف الاميركي ؟

هاني العبد الله : الكلام عن الخلافات الاميركية الاسرائيلية ليس واضحا · اريد ان اسأل سؤالا محددا · هل يمكن ان يحدث تناقض اساسي بين اسرائيل والولايات المتحدة ؟ ما هو حجم الخلافات الاميركية الاسرائيلية ؟ وهل يمكن ان تقود الـــى تحول في السياسة الاميركية ؟

صبري جريس : الجباية اليهودية ، ليست موجودة في اميركـــا وحدهـا · جميـع الجاليات اليهودية تقريبا تساهم فيها · لكن ، هناك اهتمام صهيوني بيهود اميركا · وهذا يعود ، كما قلنا سابقا الى وجود حوالي ٤٠٪ من يهود العالم في اميركا · والتجمـــع اليهودي في الولايات المتحدة ، هو التجمع الكبير الوحيد الذي بقي بعد ان تم حظر النشاط الصهيوني في الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي ·

اما مسألة هجرة اليهود الاميركيين ، فهذه لا تتبع رغبات الصهاينة ، في الاعوام الثلاثين بين ١٩١٨ و ١٩٤٨ ، حين كانت بريطانية هي المسؤولة عن انشاء الوطن القومي اليهودي، نلاحظ ان نسبة اليهود البريطانيين التي هاجرت الى فلسطين ، هي نسبــــة قليلة جدا · والسبب يعود الى كون اوضاع اليهود في اوروبا الغربية بشكل عام ، بعد الثورة الفرنسية كانت اوضاعـا جيـدة ·

اقصى ما تستطيعه الحركة الصهيونية ، من يهود اميركا ، هو جباية التبرعات · وهم يدفعون حوالي ١٥٠ مليون دولار ·

اما حول سؤال الاخ هاني العبد الله ، فانا اعتقد انه لا وجود لتناقض اساسي بيـــن اسرائيل وأميركا ، ولا يوجد سبب يدفع الى وجود هذا التناقض · ربما هنـاك تنـاقض تكتيكي ، ولكن التناقض الاساسي يمكن ان يحدث ، حين تشعر اميركا ، ان مصالحهـا اصبحت مهددة ·

السياسة مصالح ، فما دامت المصلحة الاميركية تقتضي دعم اسرائيل ، فهذا سيستمر · ولكن ، عندما تبرز القوة العربية القادرة على ضرب المصالح الاميركية ، عندها قد يحدث تناقض ، لان الاميركيين سيضعون مصلحتهم فوق مصلحة اسرائيل ·

نزيه قورة : اريد ان ابدي ثلاث ملاحظات ، تتعلق بنفوذ اليهود الاميركيين ومسألــة الجباية ، والمصالح الاميركية في المنظمة ·

١ ـ من المعروف ، وهذه معلومات يذكرها باحثون صهاينة ، **ان اليهود غير موجودين فيما يسمى بالاعمدة الاقتصادية للنظام الاقتصادي الاميركي** · اي في قطاعات السيارات والفحم والحديد والشحن والبنوك الكبرى وشركات التأمين الكبرى · اي في تلك المؤسسات التي تتقرر فيها السياسة الاميركية · اليهود موجودون في القطاعات الوسطية · وحتـــى في القطاع المصرفي ، فهم موجودون فيما يسمى بشركات الاستثمار · وهي شركات صغيرة نسبيـــا ·

٢ ـ بالنسبة للجباية اليهودية ، فمن المعروف ان المنظمات الصهيونية التي تعمل في الجباية مسجلة في الولايات المتحدة ، باعتبارها مؤسسات خيرية · وحسب القانون الاميركي ، تعفى المؤسسة الخيرية من الضرائب · كما يعفى المتبرعون منها ·

والمعلومات المتوفرة ، تشير الى ان ٨٠٪ من الجباية التي تجمع في الولايات المتحدة تأتي من اناس ، يدفع الواحد منهم مئة الف دولار كحد ادنى · اي انها تأتي من ٣ـ٥ الاف شخص · وهؤلاء معفيون من الضرائب المترتبة على هذه المبالغ · اي ان القسم الاساسي من هذه الاموال هو من حق الخزينة الاميركية · وبالتالي ، فان مال الجباية هو مال الخزينة الاميركية ·

٣ ـ المصالح الاميركية موجودة في المنطقة ، سواء وجدت طائفة يهودية في اميركا ام لم توجد ·

بالطبع ، ليس من المصلحة اظهار اسرائيل كاداة للولايات المتحدة · لانه ، اذا تبين ان اسرائيل ليست سوى اداة اميركية ، فان الخصم لا يكون الاداة فقط ، بل يصبح مستخدم الاداة · وبالتالي ، فان اي حاكم عربي يزور الولايات المتحدة ، سيلقى ما لقيه السادات عند زيارته للقدس · وهذا وضع يحرص جميع من له علاقة بالوضع في المنطقة على تجنبه : اسرائيل والولايات المتحدة وبعض الحكام العرب ·

الياس شوفاني : اريد ان اشير الى مجموعة من النقاط :

١ ـ فاذا كنا متفقين على ان الكيان الصهيوني هو كيان استيطاني ، فهذا الكيان لا بد له من بلد ام · والولايات المتحدة تلعب اليوم هذا الدور بالنسبة للكيان · نظريا ، يمكن للتناقضات ان تحدث بين البلد الام والمستوطنة · وهذا يفترض اجبار البلد الام على الاختيار بين اهون الشرين ·

وانا لا ارى الان ، ان الولايات المتحدة ، مضطرة الى الاختيار بين اهون الشرين ، كما لا ارى ، في المستقبل المنظور ، تناقضا اساسيا بين المستوطنة والبلد الام ·

٢ ـ **تقسيم المهام بالنسبة للمشروع الصهيوني :** اما فيما يتعلق بيهود العالم وعلاقتهم بالمشروع الصهيوني ، اظن ، انه جرى ، بعد انشاء الكيان ، تقسيم المهام بالنسبة ليهود العالم على الشكل التالي : يلعب اليهود الصهاينة في فلسطين ، دور الباني وممهد الطريق · يدعم هؤلاء بشريا من البلاد التي تسمى بلاد الضائقة ، اي حيث يعتبر اليهود في ضائقة اجتماعية واقتصادية · اما يهود بلاد الرخاء الاقتصادي ، فتكون مهمتهم هي دعم الهجرة من بلاد الضائقة الى المستوطنة ·

٣ ـ **يهود اميركا والسياسة الاميركية :** انا اميل الى الموافقة على كلام نزيه قورة ، بالنسبة لفاعلية اليهود في السياسة الداخلية الاميركية · اما ان نعيد الدعم الاميركي لاسرائيل ، الى نفوذ اليهود السياسي والانتخابي ، فهذا نوع من الوعي الزائف ·

العلاقة ، هي علاقة عضوية بين البلد الام والمستوطنة · قد تنشأ تناقضات بين البؤر الاقتصادية في البلد الامبريالي الواحد · لكن هذه التناقضات لا تحسم الامور بالنسبة لعلاقة البلد الام بالمستوطنة · وفي المرحلة الراهنة ، يبدو ان الكيان الصهيوني ، بوصفه قاعدة عسكرية معتدية ، يرتبط اساسا بمجمع الحديد والصلب ، وليس بالبؤر الاقتصادية المعدنية والنفطية ·

محمود سويد : اريد ان اشير الى مجموعة ملاحظات ، حول التحليل المقدم من الاخ صبري جريس ٠

للرفض العربي للمشروع الصهيوني ، سببان : ١ ـ كونه يحتل ارض شعب اخر ، ٢ ـ الدور الامبريالي الذي يلعبه في المنطقة العربية ٠

اي لو جاءت مجموعة من اليهود البائسين والمضطهدين الى فلسطين ، بحثا عن ملجأ آمن ، لم يكن لتنشأ اية مشكلة ٠ لقد جاء الارمن الى لبنان ، وكان عددهم اكبر من عدد اليهود الذين قدموا الى فلسطين في المرحلة الاولى ٠ ومع ذلك ، فلم يثر مجيئهم اية مشكلة ٠ المشكلة هي في كون اسرائيل ، بحكم تكوينها ، وبحكم طبيعة المشروع الصهيوني نفسه ، هي ظاهرة امبريالية ٠ ولم يبق من اسرائيل ، بعد ان نضبت مصادر الهجرة ، سوى الظاهرة الامبريالية ، بعد فشلها في حل المسألة اليهودية ٠

لقد اشار الاخ صبري الى تقاطع المصلحتين الاسرائيلية والفرنسية ، خلال حرب الجزائر ٠ اعتقد ، ان الموقف الاسرائيلي هذا ، هو جزء من موقفها العام ، بوصفها جزءا من النظام الامبريالي ، والا ، فكيف نفسر تأييدها للحرب الاميركية العدوانية في فيتنام ، دون ان يكون هناك مصلحة اسرائيلية مباشرة ، او كيف نفسر تأييدها للانظمة العنصرية في افريقيا ، ضد جميع حركات التحرر الافريقية ؟ يشير هذا الى موقف اسرائيلي شامل ، وليس فقط الى موقف ظرفي ٠

واشار الاخ صبري الى عودة العلاقة الاسرائيلية الاميركية ، الى مسارها القديم ، دون ان يقدم لنا تفسيرا ، لماذا تغيرت ثم لماذا عادت ٠

انا اعتقد ان هذه الظاهرة ، تعود الى ازمة الامبريالية العالمية بعد هزيمتها في جنوب شرقي اسيا ، والى ازمتها الاقتصادية ، ومحاولتها حل هذه الازمة عن طريق ثروات العالم العربي ٠

واشير كذلك ، الى اتجاه اسرائيل نحو بناء قوة مستقلة ، لكن الملاحظ ، انه بعد حرب تشرين ، ازداد الاعتماد الاسرائيلي على الولايات المتحدة ٠

وهذا يشير الى استحالة بناء قوة اسرائيلية ، ومصادر عيش اسرائيلية مستقلة ، الا في حالة واحدة : انهاء الصراع العربي الاسرائيلي ، وتعايش اسرائيل في المنطقة ٠ ما عدا ذلك ، فمن المستحيل على اسرائيل ، ان تستقل عن مصدر قوتها الاساسي ٠

الملف الثالث

اسرائيل والمنطقة العربية

محمود سويد

بعد ثلاثين سنة من قيامها ، اضطرت اسرائيل الى تسليم السلطة الى اليمين الفاشي والارهابي ٠ فقد فشل حكم العمال ، طوال ٢٩ سنة ، في احداث

التطابق المطلوب بين واقع الحال والمثال ، وهو تطلع محكوم عليه بالفشل ، اذ لا يمكن اقامة دولة ديمقراطية اشتراكية ، بالاستيلاء على ارض الغير وثرواته ، وبوضع الدولة الناشئة في خدمة النظام الامبريالي العالمي ومصالحه ، مقابل تأمين الحماية لها • فتطورت البنية الاقتصادية والاجتماعية لاسرائيل ، خلال ثلاثين عاما ، على غير صورة المثال المنشود وجوهره ، اي الدولة الديمقراطية الاشتراكية (**اقتصاديا** : يباس تجربة التعاونية الانتاجية بنضوب الهجرة ، والتحول نحو المدينة ، وفقدان الزخم الطليعي والحافز المعنوي • فشل تجربة القطاع العام ، وتحول الهستدروت من مؤسسة عمالية الى مؤسسة رأسمالية دولة في خدمة طبقة بيروقراطية حاكمة • **اجتماعيا** : سيادة قيم مجتمع عسكري فاشي ، الغطرسة ، العدوانية ، الفساد ، الرشوة ، الانتقاص من الديمقراطية البرلمانية وسلطة القانون) •

وفشل حكم العمال في احداث التحول المطلوب في دور أسرائيل ، من خادم للامبريالية وعصا غليظة في يدها ، الى شريك امبريالي ومركز لرأس المال الصهيوني ، يفيدان ، جنبا الى جنب مع الامبريالية ، في حل ازماتهما ، وتأمين وسائل تطورهما ، عن طريق المشاركة في نهب ثروات المنطقة العربية واستغلال اسواقها •

وكانت اسرائيل عشية انتخابات الكنيست في ايار ١٩٧٧ ، قد نضجت لاحداث التطابق المنطقي والمحتوم بين طبيعة النظام ، وطبيعة الدور ، وطبيعة الاداة •

وكان تسلم الليكود السلطة يعني تحول المثال من مجتمع اشتراكي ديمقراطي، الى مجتمع رأسمالي واقتصاد حر في الداخل ، ومزيد من الالتصاق والاندماج بالدور الامبريالي في المنطقة ، واغراق في عداء الاتحاد السوفياتي ونصرة الانظمة العنصرية على الصعيد العالمي •

اولا : الثابت في السياسة الاسرائيلية ازاء المنطقة العربية •

١ ـ **التوسع الاستيطاني** : احتلال الارض والثروة واستغلال الانسان • احتلال كل فلسطين واجزاء من اراض عربية اخرى • العمل الدؤوب لتشتيت الشعب الفلسطيني وابادته •

٢ ـ **عرقلة التقدم والتطور العربيين** : كلب حراسة نشيط للمصالح الامبريالية المساهمة في عملية التخلف والانقسام في العام العربي • ملاحقة حركة التحرر العربية والحيلولة دون نموها وتحقيق اهدافها الوحدوية والتقدمية •

٣ ـ **نصرة الاقليات الطائفية والعنصرية وتحريضها على الانفصال** : النتائج الراهنة لحرب لبنان هي اهم انجازات اسرائيل في هذا المجال •

ثانيا : تطور الصراع العربي ـ الاسرائيلي خلال الاعوام الثلاثين الماضية•

١ ـ قامت اسرائيل سنة ١٩٤٨ ، في قلب عالـم عربي ممزق ومستعمـر ومتخلف •

٢ ـ مثلت الناصرية في الخمسينات وحتى اواسط الستينات محصلـة رد القومية العربية النامية وحركة التحرر العربي الفتية على الهجمة الامبرياليـة ورأس حربتها اسرائيل ، وعلى هزيمة ١٩٤٨ •

٣ ـ الحقت اسرائيل والامبريالية في حرب ١٩٦٧ ، هزيمة ساحقة بحركـة التحرر العربية ، ممثلة بالناصرية ، بعد صراع دام طويل ، وبعد معارك ضارية، سجلت فيها حركة التحرر العربية اكثر من انتصار • غير ان الهزيمة سنة ٦٧ ، فتحت الباب واسعا لالتحاق المنطقة بالمعسكر الامبريالي •

٤ ـ رفضت الارادة القومية لجماهير الامة ، الاستسلام لنتائـج الهزيمة ، وعكفت بقيادة عبد الناصر المتجددة ، على اعادة البناء • وكانت حرب الاستنزاف (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) وانطلاقة الحركة الثورية المسلحة والمنظمة للشعب الفلسطيني، الرد على الهزيمة الثانية •

٥ ـ ساد بعد هزيمة ١٩٦٧ (وخصوصا بعد ضرب المقاومة الفلسطينية فـي الاردن ورحيل عبد الناصر) خطان في السياسة العربية :

أ ـ خط الانظمة الملتحقة بالامبريالية الاميركية ، التـي وظفت حصيلـة مـا حققته حركة التحرر العربي ، في خدمة مصالحها ، فكانت حرب التحريك سنـة ١٩٧٣ ، وما تلاها من تحركات سياسية برعاية الولايات المتحدة • (واهمهـا طبعا مبادرة السادات) •

ب ـ خط مناهضة الامبريالية ومحاربة اسرائيل ، بقيادة حركة التحرر العربي متمثلة في المقاومة الفلسطينية والتنظيمات الجماهيرية العربية • وقد خاض هذا الخط ، ولا يزال ، نضالا عنيدا ضد محاولات الضرب والابادة ، بتدبير مـن الامبريالية الاميركية ، وبأدوات اسرائيلية وعربية على السواء •

ثالثا : الوضع الراهن •

١ ـ لا يشكل صعود الليكود الى السلطة ، مخرجا لاسرائيل ، بقدر ما يشكل بلورة لمأزقها : فالمشروع الصهيوني مرتبط ارتباطا عضويا بالامبريالية العظمى في عصرنا • يبقى قويا ومهيمنا ما دامت قوية ومهيمنة • يتأزم بتأزمها • يسقط بسقوطهـا •

٢ ـ ازمة الامبريالية ، ودور المنطقة العربية (ثروات وسوقا وموقعا) في حل هذه الازمة ٠

٣ ـ في نطاق هذا الحل ، تسعى الامبريالية لايجاد تسوية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي يقوم على :

أ ـ تحجيم دور اسرائيل (باعتماد ادوات اخرى في المنطقة) مع تأمين كافة الضمانات اللازمة لامنها (تغليب دور التابع على دور الشريك) ٠

ب ـ اضطلاع اسرائيل والانظمة التابعة بالهيمنة على المنطقة كوكلاء للامبريالية ، بعد منح الانظمة العربية حلا يوفر لها (وبالتالي للمصالح الامبريالية) امكان الاستمرار والاستقرار ٠

جـ ـ القضاء على حركة التحرر العربية (وهو هدف تلتقي عليه اسرائيل والامبريالية والرجعية العربية) متمثلة بالمقاومة الفلسطينية والتنظيمات الجماهيرية العربية المستفيدة من تناقضات الوضع العربي ، ومستويات التبعية، او التحرر من التبعية المتفاوتة بين هذا النظام وذاك ، ومن دعم القوى التقدمية العالمية الصديقة ٠

٤ ـ يصطدم المسعى الامبريالي للتسوية بعقبتين :

أ ـ اسرائيلية : الاصرار على تغليب دور الشريك ٠

ب ـ عربية : عدم القدرة على القضاء على المقاومة الفلسطينية وحركة الجماهير العربية رغم المحاولات الدؤوبة المتكررة ، والتي لا تزال قائمة حتى الان ٠

٥ ـ ان نجاح الامبريالية في انجاز التسوية ، رهن بتذليل هاتين العقبتين ٠

رابعا ـ مستقبل الصراع ٠

١ ـ تبدو الامبريالية ، وهي تواجه ازمتها الخاصة ، غير قادرة ـ من جهة ، على هزيمة الشعب الفلسطيني وحركة التحرر العربي ، في معركتها الوطنية والقومية على اتساع المنطقة العربية بكاملها ، وغير قادرة ـ من جهة ثانية ، على حل ازمات الانظمة التابعة لها (قضايا الانتاج والتصنيع والتنمية والعدالة ـ النموذج المصري) ٠

٢ ـ يعني هذا استحالة ايجاد حل دائم للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، بتدبير من الامبريالية ، ووفق المعطيات الراهنة ٠

٣ ـ تتطلع اسرائيل الى مهلة عشر سنوات (تحافظ خلالها

على التفوق العسكري الحاسم) · تنضب بعدها الثروات العربية ، ويتغير ميزان القوى العالمي ، ويسود المنطقة توازن الرعب النووي ، فيستتب لها الامر ، بعد ان تكون قد استوعبت سكانيا واقتصاديا الضفة الغربية وقطاع غزة ، واستهلكت ثروات سيناء ، وامنت مصادر المياه ، وفرضت بالتالي « سلمها » على المنطقة العربية ·

٤ ـ غير ان هذه السنوات العشر ، ليست ذات وجه واحد ـ اسرائيلي ، فامكانات حركة التحرر العربي تنمو، ودورها يكبر ، وحلفاؤها يزدادون · وهي، بعد كل معركة ، تكتسب مزيدا من الخبرة والصلابة والقدرة على ادارة الصراع لمصلحتها ، والانتقال به من مرحلة الى اخرى ·

٥ ـ ان الاتجاه النووي للصراع ، الذي ينتظر ان يبرز مستقبلا بحدة ، وكلما اقتربت اسرائيل من نهاية الطريق المسدود ، هو سيف ذو حدين ، واستعمال هذا السلاح مرة واحدة من جانب اسرائيل ، ولو بشكل محدود ، يحول المنطقة بكاملها الى سوق رائجة للبضاعة النووية ، ولن يكون ذلك بالتأكيد لمصلحة اسرائيل ·

٦ ـ ان كون الامبريالية في مرحلة تأزم ، وكذلك اسرائيل ، يفسر شراسة المعركة الدائرة ، فيالسنوات الاخيرة ، والتي بلغت احدى ذراها في الحرب اللبنانية ، اقول احدى ذراها ، لانها ستشهد ذرى اخرى في الاشهر والسنوات اللاحقة · ومهما بدا الواقع التراجعي العربي قائما ومخيبا ومحبطا ، فانه بقدر ما تستعد حركة التحرر العربي ، وطليعتها المقاومة الفلسطينية ، لمواجهة هذه المعارك : تعيد تنظيم صفوفها ، تراجع تجربتها ، تبلور مواقعها النظرية والسياسية في كل مرحلة ، بقدر ما يكبر جيشها وتمتلىء صفوفه ، على امتداد الساحة العربية ، وتقترب ساعة النصر ·

ش·ف· : تطرح ورقة الاخ محمود سويد مجموعة من المسائل التي تحتاج الى ايضاح · فهناك مسألة سعي الامبريالية لتحجيم اسرائيل ، تغليب دور التابع على دور الشريك · هل يعني هذا ان هناك صداما اسرائيليا اميركيا في الافق ؟

ثم هناك ، الاشارة الى وجود عقبتين امام التسوية ، عقبة اسرائيلية ، وعقبة عربية · ما هي طبيعة هاتين العقبتين ؟ ·

ان اشكالية العقبة العربية امام التسوية ، ليست ناشئة في تقديرنا عن عجز الانظمة عن تصفية المقاومة الفلسطينية فقط · انها تنشا في الاساس عن عدم استجابة الامبريالية لشروط الحد الادنى للسلام العربي ، من اجل التوصل الى انجاز المعادلة الاميركية ، الاحتفاظ باسرائيل كشريك من جهة ، وبالانظمة العربية كشريك اخر من جهة ثانية · فكيف ستستطيع الامبريالية الاميركية ، اقامة توازن بين شركائها في المنطقة · ان اي توازن من هذا النوع سوف يكون على حساب الطرف الاسرائيلي · من هنا تنشا الصعوبات امام الامبريالية في الاحتفاظ بالشريكين العربي والاسرائيلي ·

عبد الحفيظ محارب : لقد جرى التشديد خلال هذه الندوة ، على دور اسرائيل في قمع حركة التحرر العربية · والواقع ، ان اسرائيل نشأت كنقيض لحركة التحرر العربية ، ودورها الاساسي ، هو دور قمعها · لكن يجب ان لا تحجب هذه الحقيقة حقيقة اخرى ، **هي ان قمع حركة التحرر العربية ، على المستوى العملي ، كان مناطا بالانظمة ·**

وكمثال على ما اقول ، هناك ظاهرة محاولات اسرائيل المتكررة لسحق المقاومة الفلسطينية · ففي كل مرة حاولت اسرائيل فيها ضرب المقاومة ، كانت المقاومة تزداد قوة· بينما نجد ، وتجربة الاردن امامنا ، ان الانظمة هي التي تملك اداة التصفية ، في حين ان اسرائيل لا تملكها ·

نزيه قوره : ان مسألة التمييز بين العملاء والشركاء ، مسألة اثارت جدلا كبيرا · لكني اريد هنا ان استشهد بما كتبه الصحفي الاسرائيلي حجاي اشد : « وبسبب ازمة الطاقة بالذات ، وارتباط الدول الغربية ، وبشكل لم يسبق له مثيل بدول النفط العربية ، يحتاج الغرب لاسرائيل مثل حاجته لكلب حراسة ذي اسنان حادة ، مربوط بالسلاسل الطويلة جدا ، بحيث تأذن له بغرس اسنانه اذا تحدوه اكثر من اللازم » ·

يجب ان نلاحظ الصفة التي اطلقت على السلاسل الاميركية : **طويلة جدا** · هنا يكمن الفرق بين الشريك والعميل · فحتى تستطيع اسرائيل اداء مهمتها في المنطقة ، على السلاسل ان تكون مموهة · اي هناك ضرورة لان تبدو اسرائيل مستقلة · وهذا ضروري ايضا بالنسبة للحلفاء الاخرين للولايات المتحدة · وضروري بالنسبة لليهود ، كي يكون هناك استعداد لدى الجندي الاسرائيلي ، من اجل القتال والموت دفاعا عن مشروع ، قيل انه صنع من اجله · وكنت قد أشرت سابقا الى ضرورة هذا التمويه بالنسبة للحلفاء الاخرين للامبريالية ·

هاني العبد الله : اعتقد ، ان الحديث عن الخلاف الاميركي الاسرائيلي ، يتناسى جوهر الاتفاق الاميركي الاسرائيلي بالنسبة للتسوية · وهذا من اجل ان يبدو اي تنازل اسرائيلي شكلي ، وكأنه انتصار للذين يراهنون على الدور الاميركي ·

تملك اسرائيل ثلاثة مواقف ثابتة فيما يتعلق بالتسوية · **لا عودة الى حدود الرابع من حزيران ، لا مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، لا لاقامة دولة فلسطينية مستقلة ·** وانا لا اعتقد ان هناك خلافا اميركيا اسرائيليا حول هذه المسائل ·

اما التناقض بين الانظمة العربية والكيان الصهيوني ، فانني اعتقد ان هذا التناقض لن يحل لصالح الطرف العربي ·

صبري جريس : اريد ان ابدي بعض الملاحظات ، حول وجهة نظر الاخ سويد ، ثم حول النقاش بشكل عام · لقد ذكر الاخ سويد ، ان احدى العقبات امام التسوية ، هي عدم استطاعة الانظمة القضاء على حركة المقاومة · انا اعتقد ، انه حتى لو استطاعت الانظمة القضاء على حركة المقاومة ، فان لاسرائيل **اطماعا اقليمية ، هي التي تعيق اساسا عملية التسوية ·** اسرائيل تريد القضاء على المقاومة ، لكنها تريد ايضا اشياء اخرى · تريد السيطرة على اجزاء من ارض العرب وثروتهم · ذكر محمود سويد، انه خلال السنوات العشر القادمة ، سوف تنضب الثروة الطبيعية العربية · انا اعتقد ان اسرائيل تخاف من عكس ذلك ، فالمصادر الطبيعية العربية ليست النفط فقط · بل هناك المعادن والثروات الطبيعية : الزراعية والحيوانية · فالعالم العربي يسير نحو النمو والتطور وهذا هو مبعث

خوف اسرائيلي دائـــم ·

اما بشأن **القوة النووية** ، فانا اعتقد انها سيف ذو حدين · وهي بالتالي عـامـل ردع وتوازن · يبقى لي تعليق صغير حول ما يطرحه الاخ نزيه قورة · ان كلامه يوحي وكـأن اسرائيل هي جزء من اميركا منذ القرن الثامن عشر · وان هناك مؤامرة سرية عالمية ، من اجل انشاء الكيان الصهيوني · وبالتالي فاسرائيل ليست سوى اداة صغيرة من ادوات الامبريالية · وكأننا امام بروتوكولات حكماء صهيون ، ولكن مقلوبة على رأسها ·

اسمحوا لي ان اقول ان هناك اكثر من دلالة ، بان اسرائيل تتصرف في بعـض الاحيان بطريقة لا توافق عليها اميركا · وانا اعتقد ان اميركا كانت ضد فوز بيغن · ولكن هـذا لم يمنع فوزه في الانتخابات · كما انه عندما ارتفعت بعـض الاصوات مطالبة بازاحـة بيغن ، جاء الجواب الاسرائيلي : نحن لسنا جمهورية موز في اميركا الجنوبية ، حتـى تغير حكوماتنا بالطريقة التي يريدها الاخرون ·

الياس شوفاني : اريد اولا ان ابدي ملاحظة حول مسألة صعود اليمين الصهيونـي الى الحكم ، وعلاقتها باشارة محمود سويد الى ازدياد التطابق بين الوضع الاسرائيلـي الداخلي والامبريالية · فانا ارى في صعود الليكود ، نوعا من القفزة ، التي جاءت كردة فعل من المستوطنين الصهاينة على تبعيتهم للدولة الام ، وعجزهم خلال السنوات الاربع التي اعقبت حرب تشرين ، عن اتخاذ القرار ·

حين نقول بان الكيان الصهيوني هو نتاج عمل مشترك بين الحركة الصهيونية والامبريالية فيجب أن لا يحجب هذا ، حقيقة كون الامبريالية هي الطرف الاكبر والاقوى في العملية · الطرفان غير منفصلين ، هناك ترابط عضوي بينهما ، لكن هناك هامش من التناقض · فهذا يعني ، ان الطرف الامبريالي ، هو الذي سيحسم مسألة التسوية لمصلحته · ماذا تريـد الامبريالية الاميركية من منطقتنا ؟ النقيض الرئيسي للهيمنة الاميركية ، هو حركة الجماهير العربية · فالهدف الرئيسي للامبريالية هو اذن ضرب حركة الجماهير العربية . والهدف، هو فرض الهيمنة الاميركية ، والسيطرة على مصادر الثروة العربية . ثم اعادة صياغـة العلاقات الاجتماعية الداخلية ، بما يخدم هذه الاهداف · ومن اجل تحقيق هذه الاهداف ، لا بد من ضرب حركة القومية العربية ، لكن الامبريالية لم تعد تستطيع تنفيذ اهدافهـا بشكل مباشر · اي بالانزال الاميركي · فهم يحاولون العمل بطرق غير مباشرة · السؤال الاميركي الان ، هو من هي الاداة الاقوى من اجل ضرب القومية العربية . المال النفطي ، أم العسكريتاريا الاسرائيلية ؟ لقد استطاع كيسينجر في سياسة الخطوة خطوة ، تمهيـد ارضية ، استطاعت السياسة الاميركية ، سحب مؤسسات عربية حاكمة على اساسها ، الى المعسكر الامبريالي · بقيت خطوة اخرى ، وهي وضع هذه الانظمة في خندق واحد مـع الكيان الصهيوني · هنا حصل التردد الاميركي ، نتيجة الضغط الاسرائيلي ، ووصلت سياسة الخطوة خطوة الى طريق مسدود · فالخلاف الاسرائيلي الاميركي ، هو على الثمن الذي الذي يجب دفعه من اجل الوصول الى هذه النتيجة ·

انا لا اجزم ، على الاقل من الناحية النظرية ، باستحالة الحل · طبعا ، على المـدى التاريخي ، انا متفق مع محمود سويد على ان حركـة الجماهير العربيـة ستنهض . وستنتصر على الهيمنة الامبريالية · لكني ، على المستوى المرحلي ، لا استبعـد احتمال التوصل الى تسوية ·

اذا كانت مسألة بروز بيغن ، هي ظاهرة عابرة للفكر القومي الثقافي الغيبي ، والذي

لا يستطيع بطبيعة الحال ان يدخل جديا في عملية التسوية ، فان مسألة سقوط بيغن ، تحت الضغط الاميركي او الداخلي تصبح واردة ٠

انا ارى امكانية تسوية بين الاطراف الاسرائيلية المتبرجزة والنظم العربية البرجوازية٠ حيث لا قيمة للارض ، بالنسبة للطرفين ، بل المهم هو فائض القيمة ٠ فاذا وصل مشروع بيغن الى طريق مسدود ، وتمت عملية بلورة الاحزاب الاسرائيلية بشكل جديد ، اي على اساس منطلقات سياسية تمت الى الوضع الراهن بصلة ، وليس على اساس تاريخي كما هي الان ٠ (فانا مثلا ، لا ارى الان كبير فرق بين مائير عميد في داش وشمعون بيريس٠ فهما يمثلان التكنوقراط وبرجوازية الدولة ٠) فاذا صح هذا التحليل ، تكون المرحلةالثانية هي طرح مشروع قريب من مشروع حزب العمل ، الحل الوسط الاقليمي ، الذي يدعو الى دولة يهودية ، والى التنازل بالتالي عن التجمعات السكانية العربية ، عبر اعطائها لطرف عربي ٠ عندها ، يمكن للسادات ان يعلن توصله من خلال هذا المشروع الى تحقيق حقوق الشعب الفلسطيني ٠ ويمكن للملك حسين ان يقبل بشريك فلسطيني غير ثوري ٠ وتكـون الجسور المفتوحة هي الاغراء لطبقة التكنوقراط والبرجوازية في اسرائيل للدخول الـى السوق العربية ٠

يصب هذا السيناريو ، كما نرى ، في تحقيق المصالح الامبريالية الاميركية ٠ انا لا اقول، ان هذا السيناريو سيتحقق ٠ لان العقبة في وجهه هي نضال الجماهير وقتالها ٠ وهي عقبة كبيرة ، لكن يجب اخذ هذا الاحتمال بجدية ٠

التسوية ، بالمفهوم البسيط الذي اشرنا اليه سابقا ، انسحاب مقابل اعتراف ، غير ممكنة التحقيق ، طالما هناك على رأس الهرم في اسرائيل الفكر القومي الثقافي الغيبي ٠ ولكن، خلال مسار طويل ، يعاد فيه ترتيب الاوضاع ، في داخل الكيان ، بشكل ايديولوجـي وسياسي جديد ، يقوم باحلال المصالح المادية مكان الافكار الغيبية ، عندها ، يصبـح احتمال التسوية ممكنا ، بالنسبة للواقع الاسرائيلي ٠

ش٠ف : نريد ان نشير ، الى اننا نناقش اوضاع اسرائيل ، خلال ثلاثين سنـة على وجودها ٠ والذي كان يحكم اسرائيل خلال ٢٩ سنة هو حزب العمل وليـس بيغن ٠ ومع ذلك فنحن نعتقد ان مسألة التوجه نحو السلم او الحرب في اسرائيل ، ليست نتاج تغيرات داخلية ، بل هي نتاج تغير ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي، نريد فقط ان نلفت النظر الى اهمية العامل الخارجي ٠

الياس شوفاني : انا اوافق ، على اولوية العامل العربي ، الصراعي ، لكن الذي طرحته حول السيناريو ، وهو يحتاج الى تفصيل يريد ان يشير ، الى ان طرح مسألة التسوية ، بقدر ما يبرز فشل الاستيطان الصهيوني ، يدفعه كذلك الى محاولة البحـث مـن منطلقات جديدة ، تؤمن بقاءه ٠

ش٠ف : لا ندري ، لماذا استبعدت زيارة السادات لاسرائيل من نقاشنا ٠ بل وتبدو وكأنها مسألة هامشية جدا ، فهل يعود ذلك الى اعتقادكم ان هذه الزيارة لا تشكـل جزءا من تاريخ المشروع الصهيوني ؟

الياس شوفاني : لقد قلبت زيارة السـادات الامـور رأسا على عقب ٠ اذ لمحـت الى الاعتراف بالحق التاريخي لليهود في فلسطين ٠ وانطلاقا من هذا الاعتراف ، صار بيغـن يتكلم عن الحق التاريخي لليهود في فلسطين ، وعن الحق الوجودي للفلسطينيين ، وهذا هو اساس مشروع الادارة الذاتية ٠

في البداية ، ربما فكر السادات وبيغن بامكانية اقامة محور مستقل ، القاهرة تل ابيب· وخلال الزيارة ، تحدث رابين بشكل يوحي بذلك ، اذ قال ان التاريخ والقدرة الالهية ، قررت ان مصر واسرائيل هي التي تسير امور المنطقة · فالسادات كان يسعى للوصول الى تسوية كاملة ، يجري تنفيذها على مراحل · لكن هذا لم يتحقق · كما كبحت الولايات المتحدة هذا المسار ·

طبعا ، هناك عقبات كثيرة امام هذا التوجه · فبيغن ، ليس مستعدا ان يعيد حتى سيناء كاملة الى مصر · فمنطق التسوية الحالي في اسرائيل ، منطق (ارض اسرائيل الكاملة) لا يقبل التنازل عن سيناء بشكل كامل · ربما المنطق الاخر ، منطق الدولة اليهودية ، يمكنه ان يقدم هذا التنازل شرط الحصول على امتيازات اقتصادية فيها ·

داخل هذا المنطق ، منطق (ارض اسرائيل الكاملة) هناك ثلاثة جيوب عربية لا بد من تطويقها · (صباح اليوم ، وفي الذكرى الثلاثين لانشاء الكيان ، صرح ايتان رئيس الاركان الاسرائيلي ، ان الجيش الاسرائيلي لا يستطيع حماية الدولة ، اذا تم التنازل عن يهودا والسامرة « الضفة الغربية ») ·

اذن ، تبقى ثلاثة جيوب عربية اساسية لا بد من تطويقها ·

١ ـ **الجيب الاول هو الجليل** الذي يضم ٤٠٠ الف عربي ، مطوقين من الجنوب والشرق والغرب · ولا بد من تطويقهم من الشمال · وهذا هو المعنى الحقيقي « للجيب المسيحي » في الجنوب اللبناني ·

٢ ـ **الجيب الثاني هو الضفة الغربية** ، الذي يضم ٧٠٠ الف عربي · وهو مطوق من الشمال والغرب والجنوب · ولا بد من استكمال الطوق عليه على طول نهر الاردن · وهذا هو سر الاصرار الاسرائيلي على اعتبار نهر الاردن ، هو الحدود الامنية لاسرائيل ·

٣ ـ **الجيب الثالث هو قطاع غزة** · وهو مطوق من الغرب والشمال · لكنه يبقى منفتحا على سيناء · ولا يمكن تطويقه من جهة سيناء الا عن طريق مشارف رفح · هذا بالاضافة الى كون مشارف رفح ، تضم قاعدة عسكرية ضخمة ، هي قاعدة ايتام ، يمكن تحويلها في المستقبل الى مطار مدني كبير ، من اجل ترسيخ دور اسرائيل الاقتصادي في المنطقة ، في حال التوصل الى تسوية ·

ثم هناك ، **الشريط الاسرائيلي على خليج العقبة** ، الذي لا يتجاوز عرضه ٣ كلم · اي ان الخط بين العقبة الاردنية وام رشراش المصرية هو ٣ كلم فقط · من هنا الاصرار الاسرائيلي على الاحتفاظ بقاعدة سيول ، التي تعرض هذا الخط · واخيرا ، تأتي مسألة **شرم الشيخ** · وهي مسألة تتعلق بامن البحر الاحمر · وفي افضل الاحوال ، يمكن لاسرائيل ، ان توافق على تحويل شرم الشيخ الى قاعدة اميركية ، تحت غطاء المحافظة على امن البحر الاحمر · اي نقل قاعدة الانذار والتجسس الاميركية الموجودة الان في ممري الجدي ، ام خشيبة ، الى شرم الشيخ ·

اما الجولان ، فان التنازل عنه هو مسألة بالغة الصعوبة بالنسبة لاية حكومة اسرائيلية · فالهضبة السورية تسيطر على منابع الاردن ، كما تهدد مستوطنات الحولة والجليل · طبعا ، هناك حل اخر ، هو التنازل عن التجمعات البشرية العربية · وهذا يفترض سياسة اسرائيلية اخرى ، وتوجها رأسماليا · لكن الحل الاساسي ، هو المواجهة بين حركة الجماهير العربية ، والوجود الامبريالي واداته الصهيونية ·

محمود سويد : الذي حكم السياسة الاميركية ، هو المصالح الامبريالية الاميركية · رجميع مراكز القوى داخل الولايات المتحدة ، هي في خدمة المصالح الاميركية الامبريالية ·

تمر الامبريالية الاميركية في ازمة كبيرة ، خاصة بعد هزيمتها في جنوب شرقي اسيا · وقد حاولت ، عن طريق السياسة الكيسنجرية بعد حرب تشرين ، حل ازمة الشرق الاوسط، عبر الاحتفاظ بمصالحها في المنطقة · جوهر الحل الكيسينجري ، هو ان تكون اسرائيل هي الوكيل الاول للمصالح الاميركية في المنطقة ، بينما تلعب الانظمة العربية دور الوكيل الثاني · وقد حاولت بعض الانظمة العربية ، ان تلعب دورا في حل ازمة الامبريالية في عدد من القارات · واميركا ، مضطرة من اجل تمرير الحل ، ونظرا لوجود مشكلة الشعب الفلسطيني ، التي تستطيع الانظمة تجاوزها ، ان تطلب من اسرائيل تقديم بعض التنازلات فاستقرار المنطقة ، هيمنة القوى الرجعية عليها ، ليس مصلحة اميركية فقط ، بل هو مصلحة اسرائيلية ايضا · وهذا هو جوهر التحرك الاميركي في المنطقة ·

لكن اسرائيل تصر على ان تلعب دور الشريك ، وترفض دور التابع · فاسرائيل تقدم خدمات للامبريالية ، وهي خدمات كبيرة ، تسمح لها في رأي قيادتها ، بلعب دور الشريك الحقيقي ·

وانا اعتقد ان التسوية مستبعدة لسببين : ١ ــ عدم قدرة اميركا على ارغام اسرائيل ، على القبول بتحجيم دورها · ٢ ــ كما ان اميركا لم تستطع رغم المحاولات العديدة فرض هيمنتها الكاملة في المنطقة العربية · والامبريالية لا تثق بقدرة الانظمة القائمة على المحافظة على الاستقرار ·

وهناك ايضا المعادلة الدولية في المنطقة . فهناك وضع معين في افريقيا ، ليس في صالح الامبريالية الاميركية · كما انه من اجل التوصل الى تسوية في المنطقة لا بد ولاسباب عديدة ، من وفاق اميركي سوفياتي حولها · اذ ان الخلاف الاميركي السوفياتي قادر على تفجير الوضع في المنطقة ، وهو تفجير لن يكون لمصلحة الامبريالية الاميركية · لذلك ، فانا استبعد وضمن المعطيات الدولية الراهنة ، القدرة على التوصل الى تسوية في المنطقة · اما فيما يتعلق بحدوث تغيير في الحكم الاسرائيلي ، فأنا اعتقد ، ان هذا التغيير مستبعد قبل صياغة ميزان جديد للقوى في المنطقة ، يفرض على التركيبة الاستيطانية الصهيونية منطقا جديدا في فهم حدودها ودورها ·

الملف الخامس

الكيان اقتصاديا واجتماعيا

نزيه قورة

أ ــ الكيان اقتصاديا واجتماعيا

انطلق في دراستي من اعتبار المشروع الصهيوني مشروعا استعماريا في

الاساس· جرى اعداده وصياغة ايديولوجيته من قبل جهات مرتبطة بوزارة الحرب ووزارة المستعمرات البريطانية ، وعدد اخر من الدول الاوروبية · لقد بدأ طرح المشروع ، عندما استطاعت بريطانية السيطرة على الهند ، انطلاقا من حاجتها الى تأمين خطوط مواصلاتها · عام ١٦٢١ ، طرح السيد هنري فينش مشروعا في هذا الصدد بعنوان « العودة العالمية الكبرى او دعوة اليهود » · وفي تلك الفترة ، اي في القرن السابع عشر ، جرى اعداد ١٢ مشروعا لاقامة دولة يهودية في فلسطين · ولقد كانت العقبة الرئيسية الدائمة في وجه مشروع كهذا ، هو امتناع اليهود عن الموافقة عليه ·

وفي القرن التاسع عشر ، ومع بداية انهيار الدولة العثمانية ، اصبح المشروع ضرورة استعمارية ملحة · ولقد اتخذ المشروع في البداية شكلا دينيا · ومن الجدير بالملاحظة هنا ، هو دور رجال اللاهوت المسيحي البروتستانتي في الدعوة الى العودة الى صهيون ·

وامام الحاجة الى المشروع ، ونتيجة امتناع اليهود عن تنفيذه ، اكتشفت الدوائر الاستعمارية ان افضل وسيلة لتنفيذه هي تطبيق معادلة الدفع والجذب· اي خلق شروط تجبر اليهود على مغادرة اوطانهم · وفي الفترات التي كان يفشل فيها المشروع في تأمين طاقة بشرية يهودية ، كان يجري البحث عن طاقة بديلة ، والمثال البارز على ذلك هي المستوطنة التي اقيمت عام ١٨٦٧ في فلسطين والتي كانت تضم ٧٠ اميركيا غير يهودي ·

النقطة الرئيسية التي اريد التركيز عليها ، هي ان تهجير اليهود الى فلسطين كانت عملية اكراهية · ويتمثل هذا الاكراه في الاضطهادات الروسية ١٨٨١ ، وقوانين ايار ١٨٨٢ ، وبمجموع السياسات التي اتبعت في عدد من الدول الاوروبية ، في المرحلة الممتدة بين ١٨٨١ و ١٩٤٥ · ولعله من المفيد الاشارة الى ان العناصر التي كانت تتولى الترويج للمشروع ، كانت تقيم افضل العلاقات مع القوى اللاسامية ، من هرتسل الى جابوتنسكي · (عقد جابوتنسكي اتفاقا مع القائد الرجعي الاوكراني بتلبورا ، الذي كان يقاتل ضد الثورة الروسية ، والذي ارتكب مجازر كبرى ضد اليهود) ·

المشكلة الاجتماعية الكبرى

المشكلة الاجتماعية التي حاولت الصهيونية تقديم حل لها ، هي تركز اليهود في مهن الطبقة الوسطى : التجارة والحرف والمهن الحرة والحل الذي قدمته الصهيونية ، يتمثل في تحويل اليهود في فلسطين الى منتجين · وقد عبر عن هذا الاتجاه مفكران صهيونيا بارزان ، هما غوردون وبورخوف · اعطى الاول، العمل مضمونا دينيا روحيا ، بينما اعطاه الثاني مبررات اشتراكية ماركسية ·

لقد تمكنت الصهيونية من احراز نجاحات في هذا المجال ، نتيجة الظـــروف الاضطهادية التي عاشتها اوروبا ، خلال الفترة الانتدابية ، ونتيجة اغلاق ابواب الهجرة اليهودية في بريطانية ١٩٠٦ ، والولايات المتحدة ١٩٢١ وكنـــدا فـــي الثلاثينات · وجرى التركيز على تهجير الشباب وحتى الاطفال ، اذ افتتحت عام ١٩٣٢ دائرة خاصة في الوكالة اليهودية ، هي دائرة هجرة الاطفال · وقد بلـــغ عدد الاطفال الذين جرى تهجيرهم بين ١٩٣٢ و ١٩٧٠ نحـــو ١٢٥ الف طفل · وتقدر نسبتهم الى مجموع الطاقة البشرية في اسرائيل في الستينات ، حوالـــي ١٠٪ · وبعد عام ١٩٤٨ ، استفادت الصهيونية من هجرة يهود البلاد العربية · وخاصة ذلك القسم الذي يتميز بانخفاض المستوى الثقافي ، وضعف الامكانيات المادية · واستطاعت تحقيق توسع في مجال الانتاج الزراعي والصناعي وفـــي البناء · ونجحت في تحويل قسم كبير من المهاجرين الى عمال يدويين ، تحت ظـــل اللاخيار ·

عام ١٩٦٥ ، انتهت الهجرات الجماهيرية الى اسرائيل مع اخـر هجرات من بلاد المغرب العربي ومن رومانيا · وتجدر الاشارة هنا ، الى ان القسم الاكبـــر من يهود بلاد المغرب العربي ، الذين يتمتعون بمستوى ثقافي او مادي ، لـــم يهاجر الى اسرائيل بل فضل الهجرة الى اوروبا · وبواسطة هجرة اليهـــود العرب ، تمكنت الصهيونية من تحقيق ما يسمى بتوزيع السكـــان · واقامـــة المستوطنات على الحدود اللبنانية والسورية ، وفي النقب وبئر السبع · بعـــد حرب حزيران ١٩٦٧ ، حدثت مجموعة من التطورات الاقتصادية والاجتماعيـــة الهامـــة :

١ ـ ازدادت احتياجات المؤسسة العسكرية للطاقة البشرية فازداد حجـــم الجيش الدائم وجهاز الشرطة والمخابرات والصناعة العسكرية · كمـا ازدادت ايضا احتياجات جهاز الدولة والخدمات العامة : دوائر دولة ، صحة ، تعليم ، شؤون اجتماعية ·

٢ ـ من خلال الانفاق الحكومي المتزايد على اجهزة الدولة العسكرية والمدنية توفـرت امكانات واقعيـة لزيادة حجـم واربحية قطـاع التجارة (بالجملـة والمفرق) وجهاز الخدمات المصرفية والمالية · مما زاد من طلب هذه القطاعـات غير المنتجة على الموارد المحدودة للطاقة البشرية ·

٣ ـ حدث تطوران في مجال مصادر الطاقة البشرية :

١ ـ احتياطي الهجرة فقد تلك المادة التي تملك المواصفات اللازمة لتحويلهـا الى طاقة بشرية منتجة ·

ب ـ حدثت زيادات كبيرة ، نتيجة لتوفر الامكانات المادية ، في اعداد الطلاب الذين ينهون الدراسة الثانوية والذين يلتحقون بالمؤسسات الاكاديمية العليا مـن

جامعات ومؤسسات تعليم عالي (ما بعد الثانوي) ·

جـ ـ نشأت مشكلة نقص طاقة بشرية حادة ، امكن حلها بواسطة الاستخـدام المكثف والمتزايد للعمال العرب سواء من الجليل والمثلث او من الضفة وقطـاع غزة· وانتقل تدريجيا تركيز العمال العرب من الاعمال الموسمية والمؤقتة (القطاف والبناء) الى الاعمال الثابتة اي الى الصناعة ·

د ـ اصبح العمل اليدوي مرادفا للعمل العربي ·

المجـال العسكري :

نتيجة للتحولات المهنية افتقدت الطاقة البشرية اليهودية الصفات التـي كانت تجعل منها مادة مناسبة للاعمال العسكرية والتي كانت تكتسبها من العمل فـي القطاعات المنتجة · فبدل ان يكون مزارعو الكيبوتسات والموشافيم والعمـال الصناعيون هم الجسم الاساسي للمجندين ، اصبح هذا الجسم يتكون اساسا من قطاع الخدمات : موظفين ، كتبة ، طلاب الخ · وبعد ان كانت شعبة الطاقـة البشرية في الجيش الاسرائيلي تتمتع بفائض بشري يتيح لها الانتقاء ، اصبحت محكومة بواقع النقص في الطاقة البشرية · تبرز دلائل هـذا التحول ، فـي الاعلانات التي تدعو الشباب للتطوع والمرفقة بمغريات مثل منح تعليمية ،وقروض اسكان الـخ ·

الاستيطـان :

التحولات في نوعية الطاقة البشرية المهاجرة ونوعية الطاقة البشرية المحلية ادت الى عملية نزوح داخلي من الاطراف الى التجمع المديني الساحلي · من هنا مشكلة تكون اغلبية عربية في الجليل · وايضا مشكلة المستوطنات القديمة التي توقف نموها ـ النقب بيسان · ومن هنا ايضا نفهم الفشل في مجال الاستيطان الجديد ، خارج الخط الاخضر · فمنذ الاحتلال ، اقيمت ٨٢ مستوطنة جديدة · عدد المقيمين فيها هو حوالي ٧ الاف مستوطن ، حسب احصاء نشر عام ١٩٧٦· وكلفة انشاء هذه المستوطنات هي ٧ مليارات ليرة اسرائيلية ، اي ما كان يعادل حوالي ٧٠٠ مليون دولار · اي مئة الف دولار لكل مستوطنة · التمسك بالاراضي المحتلة لم يعد من الممكن اخفاء مبرراته الحقيقية :

ان الفشل في مجال زرع كثافة بشرية كبيرة في الاراضي المحتلة يعني توفـر شروط افضل للنضال ضد الاحتلال ·

ان فقدان الصفات الانتاجية ، اي فقدان المبرر الذي قامت عليه الصهيونية ، يفقدها مبرراتها صهيونيا ويهوديا · اسرائيل ليست سوى دياسبورا اخـرى ،

من حيث نوع النشاط الاقتصادي والتركيب المهني الجديد · يبقى الجانب العسكري · هل يستحق هذا المنفى الجديد حجم التضحيات المطلوبة والمتزايدة ؟

صبري جريس : في الواقع ، لم يقدم الاخ نزيه قورة ، عرضا وافيا للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل · لذلك اسمحوا لي ، في مستهل نقاش هذه المسالة ، ان اقدم عرضا سريعا ، للوضع الاقتصادي الاجتماعي ·

الاقتصاد الاسرائيلي هو اقتصاد طفيلي ، يقوم على استيراد المهاجرين واستيراد الرساميل ·

نلاحظ مثلا ، ان المهاجرين الاوائل ، وقعوا في ضائقة مالية كبيرة · ولم ينقذهم منها سوى تدخل اللورد روتشيلد وتبنيه للمشروع · اي ان المشروع الصهيوني كاد يتعرض للفشل لولا تبنيه من قبل روتشيلد في الفترة الممتدة بين ١٨٨٤ وحتى بداية هذا القرن ·

ومع النكسة التي اضطرت اليهود البولونيين الى الهجرة الثالثة ، تحسن المشروع الصهيوني اقتصاديا ·

وقبل نشوء النازية في المانيا ، كان المشروع في فلسطين ، عبارة عن مشروع زراعي على الصعيد الاقتصادي · عمليا ومع نشوء النازية ، كان الصهاينة براغماتيين كالعادة ، وحاولوا الاستفادة من النازية ، اذ عقدوا مع المانيا النازية اتفاقية التحويل · وتكمن اسباب هذه الاتفاقية في ان المانيا ، التي كانت في تلك الفترة ، معنية بالتخلص من اليهود وتحاول تخفيف الضغط العالمي عنها ومقاطعة بضائعها نتيجة اضطهادها لليهود ، عقدت اتفاقا مع الصهاينة يسمح لليهود الالمان بنقل اموالهم من المانيا ، على شكل بضائع الى فلسطين · اي يصفي اليهود ممتلكاتهم ويودعونها في البنوك الالمانية ، وتقوم المانيا بتسليمها للوكالة اليهودية على شكل الات زراعية وصناعية ، تصدر الى فلسطين · وقد بقي يعمل بهذه الاتفاقية رغم كل الضجيج الذي اثير حول الاضطهاد النازي ، حتى نشوب الحرب العالمية الثانية · وقد ادت هذه الاتفاقية الى ارساء قواعد اقتصاد صناعي في فلسطين · وقد ساعد على ذلك ، هجرة اليهود الالمان المثقفين والمدربين والذين عملوا في الصناعة ·

واثناء الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة لحرب الغواصات في المتوسط ، قامت بريطانية بمساعدة الصهاينة على انشاء صناعات خفيفة شبه متوسطة في فلسطين ، نتيجة حاجة القوات البريطانية المتواجدة في الشرق الاوسط الى هذه الصناعات ·

لقد بقي الاقتصاد الاسرائيلي ، بعد نشوء الدولة عام ١٩٤٨ ، يعتمد على المساعدات الخارجية ، وغير قادر على الوقوف على قدميه · وقد وصلت الازمة الاقتصادية في بداية الخمسينات الى حد تقنين المواد الغذائية · فالذي كان يسيطر على الزراعة في فلسطين هم الفلاحون العرب ، الذين اجبروا على النزوح · وقد كان الصهاينة بحاجة الى عدة سنوات اخرى ، كي يتم لهم الاستيلاء الفعلي على الزراعة في فلسطين ·

والذي ساهم في حل الازمة الاقتصادية ، هو استفادة الصهاينة من النازية في حياتها ومماتها · اذ حققوا صفقة اتفاقية التعويضات الالمانية ، التي دعمت الاقتصاد الاسرائيلي بشكل جيد في اواخر الخمسينات · عبر تدفق ملايين الدولارات والماركات على شكل بضائع وسيارات ·

وبعد ان شارفت التعويضات الالمانية على الانتهاء ، بدأ الحديث في اسرائيل عن الازمة الاقتصادية والانكماش الاقتصادي · وبدأ الاقتصاد الاسرائيلي يسير نحو التردي ، حتى حدثت حرب حزيران ٦٧ ، التي احدثت تغيرا في الوضعية السياسية والاقتصادية · حيث اصبح الاقتصاد الاسرائيلي يعيش على التوسع في الاراضي الجديدة · فتحولت مستعمراته الى ادوات لنهب الثروات الطبيعية من جهة، واستغلال الطاقة البشرية العربية من جهة ثانية·

قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي :

يوجد في اسرائيل ، اربعة قطاعات اقتصادية رئيسية ، هي الزراعة ، الخدمات ، الصناعة وقطاع استيراد الاموال من الخارج ·

نستطيع ان نقول ان اسرائيل حققت انجازات في حقل الزراعة ، فالاراضي الزراعية تكاد تكون مستغلة بكاملها · اما في القطاع الصناعي فلم يحرزوا نجاحات هامة ، وليس باستطاعتهم احداث تقدم حقيقي · فللصناعة متطلبات ، مواد اولية وقدرة على المنافسة · قد تكون لدى اسرائيل قدرة تكنولوجية على التصنيع ، تسمح لها بالقيام بأعمال الصناعة الجيدة ، او تصنيع بعض الالات · لكنها لا تستطيع التقدم في مجالات الصناعة الثقيلة ، الا في حال تغير الاوضاع السياسية في المنطقة · طبعا هناك صناعة هامة هي صناعة الماس ·

اما قطاع استيراد الاموال من الخارج ، فهو قطاع هام ، وسيزداد الاعتماد عليه اكثر فاكثر · فلقد نالت اسرائيل من الولايات المتحدة ، مساعدات بقيمة حوالي ١٠ مليار دولار منذ عام ١٩٧٣ حتى اليوم ·

اما قطاع الخدمات ، وهو لا اهمية له على صعيد التطور الاقتصادي الاسرائيلي ككل · وقد جرت عدة محاولات فاشلة لنقل بعض العاملين فيه الى قطاعات الانتاج الاخرى · والعاملون في هذا القطاع يتمتعون بمستوى معيشي مرتفع ·

المقاطعة العربية :

لقد كانت المقاطعة العربية لاسرائيل ، احد الاسلحة الناجحة في الصراع مع العدو الصهيوني · واعتقد ان الوضع الاقتصادي الاسرائيلي ، سيكون عكس ذلك ، لو فشل العرب في مقاطعتهم الاقتصادية ·

نلاحظ الان، انه بعد مجيء ليكود الى السلطة ، هناك اتجاه نحو الرأسمالية في اسرائيل وهذا لا يعني ان الطابع العام للاقتصاد الاسرائيلي كان اشتراكيا · لكن الان هناك اتجاه نحو ارساء اقتصاد رأسمالي كلاسيكي · في الواقع ، من الصعب تقييم اجراءات ايرليخ ، فهناك رأي يقول انها تشكل بادرة استعداد ، للانفتاح الاقتصادي على المنطقة ، وتحويل اسرائيل الى مركز مالي وصناعي للمنطقة ·

ولكن من اجل ان يتحقق هذا ، لا بد من انجاز التسوية· عندما تقام الحدود المفتوحة · واسرائيل لا تريد حدودا مفتوحة بالمعنى الحقيقي · **تريد فقط حدودا مفتوحة من ناحيتها، وتتحكم هي بها ·**

بعض ملامح الواقع الاجتماعي :

نستطيع ان نتحدث عن ثلاث فئات اجتماعية داخل اسرائيل ٠

الفئة الاولى : وتنتمي في غالبيتها الى اليهود الغربيين ، الاشكناز ٠ وهؤلاء كانوا حتى عام ١٩٤٨ ، هم الاكثرية المطلقة بين المستوطنين الصهاينة ٠ وهم الذين ارسوا اسس الكيان الصهيوني ٠ وبحكم وضعهم هذا ، فهم يسيطرون على الجهاز الحاكم والوظائف الكبيرة ٠ وهم على رأس الشركات والمشاريع الكبرى ٠ ويشكلون الفئة الاكثر تعلما ٠ انهم عصب الكيان الصهيوني ٠

الفئة الثانية : هي الفئة التي تنتمي الى الطوائف الشرقية ٠ وهي ادنى معيشيا وثقافيا واقتصاديا من الفئة الاولى ٠ وفي افضل الاحوال يصل اعضاؤها الى مصاف الطبقة الوسطى ٠

الفئة الثالثة : وهم الفلسطينيون داخل اسرائيل ، ويشكلون حوالي نصف مليون نسمة٠ واوضاع هذه الفئة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، تختلف عن اوضاع الفئتين الاوليين ٠ فأغلب عناصرها يعملون في قطاعات العمل اليدوي ، البناء ، الزراعة ، الكراجات والمطاعم وما شابه ٠ ونستطيع ان نقول ان الاكثرية الساحقة من عمال البناء هي من العرب ٠ نستطيع ان نضيف فئة اجتماعية رابعة ، هي فئة سكان المناطق المحتلة بعد حرب ٦٧ ٠ فعمال هذه المناطق الذين يعملون داخل اسرائيل ، يستخدمون من اجل هدفين : هدف اقتصادي كقوة عمل يمكن استغلالها ٠ وهدف اجتماعي ، كونهم لا ينالون اي نوع من الضمانات ٠ لذلك فاستخدامهم يتبع اوضاع سوق العمل في اسرائيل ٠ في حال نقص اليد العاملة ، يجري استخدامهم ٠ ثم يجري تسريحهم في حالة عدم الحاجة اليهم ٠ هكذا ينضبط سوق العمل الاسرائيلي ، على حساب عمال المناطق المحتلة ٠

الياس شوفاني : اريد اولا ان ابدي ملاحظة منهجية ، على الطرح الذي قدمه الاخ نزيه قورة ٠ فالتاريخ ليس مؤامرة تحاك على مستوى عال لتنتهي بشكل مسرحي ٠ فكتابة التاريخ ، ليست جمعا للمعلومات ٠ المعلومات يجب أن تستخدم داخل اطار فهم عام وشامل لمسألة الصهيونية ٠ يمكنك ان تاتي بالحصان الى الماء ، لكن لا يمكنك اجباره على الشرب ٠

لا يمكن ان يكون مجمل التصرف الصهيوني ، خلال اكثر من قرن من الزمن ، هو نتيجة لوضع خارج الذات الصهيونية ، فهناك تاريخ يهودي لا يمكن انكاره ٠ وهناك تاريخ صهيوني مكتوب ٠ علينا ان نفهم الكيان الصهيوني بشكل صحيح ، اذا كنا نريد ان نضربه في مفصله ، والتغلب عليه ٠

كيان استيطاني يطمح للتحول الى دولة برجوازية :

ونقطة المركزية لفهمنا للكيان الصهيوني ، تنطلق من تحديدنا له ككيان استيطاني ٠ فالسمة الرئيسية التي تحدد التجمع التراكمي الصهيوني في فلسطين، هيسمة الاستيطان٠ لكن هذه السمة ، لا تمنع هذا الكيان ، في بحثه عن بناء دولة ، من التطلع للوصول الى بناء دولة برجوازية ٠

لقد نشأ هذا الكيان ، بشكل عكسي لنشوء الدولة ، اية دولة في التاريخ ٠ لقد نشأت

الدول (وانا هنا ابسط) بعد انحلال الامبراطوريات الكبرى ، على اساس من وحدة الشعب والثقافة والارض ، وعلى هذه القاعدة ، نشأت الدولة ، والسلطة السياسية · اما الكيان الصهيوني فقد بدأ على العكس من ذلك ·**بدأ بحكومة تبحث عن دولة ، والدولة تبحث عن الشعب** · وحتى الان فالعملية لا تزال مستمرة · فلا الدولة حددت حدودها ، ولا الشعب تحددت حدوده ·

يتكون الجسم الرئيسي من المستوطنين من مهاجرين او ابناء مهاجرين · لذلك فالوعي الذي يتحكم بهم ، هو وعي استيطاني · فهم يعون تماما ان هذه المدينة التي تسمى اليوم تل ابيب ، كان اسمها الشيخ موسى او ابو كبير · يقود هذا الوعي الاستيطاني ، الى وعي الطرف الاخر ، الذي كان يعيش على هذه الارض ويملكها · من هنا ، وعلى المستوى الفوقي ، هذا الوعي الاستيطاني ، هو الذي يحكم التناقض الرئيسي ·

يقود هذا الوعي الاستيطاني ، الى طرح مسألتين في هذا الكيان · فالكيان هو اولا غيتو مغلق ، يرفض الاندماج بمحيطه · وبالتالي تقود عقلية الغيتو هذه الى تمييع الانتماء الطبقي في داخله · وتسمح هذه الوضعية ثانيا ، للقيادة الصهيونية بالتحكم في وعي المستوطنين ·

هناك رأي داخل الكيان يقول ان اصحاب المشروع هم اليهود الغربيون ، بينما يشكل اليهود الشرقيون مادته ·

لقد كان المنطلق الاولي للحركة الصهيونية ، هو انشاء دولة من اجل حل مشاكل اليهود · وثم بعد انشاء الدولة برزت مشكلة جديدة هي مشكلة الدولة · فمن اجل حل مشكلة الدولة يجب جلب اليهود اليها · واذكر ، انه بخصوص يهود البلاد العربية ، قام نقاش كبير داخل اسرائيل حول هذه المسألة ·

الوعي الاستيطاني ، ووضعية العداء والتناقض مع المحيط العربي ، كبتت عملية تبلور اي وضع طبقي حقيقي داخل الكيان ، باعتبار ان مهمة الكيان الاساسية هي خارج حدوده· طبعا هناك تناقضات داخلية في الكيان · ففي اية عملية انتاجية هناك فائض قيمة · اي هناك مستغل ومستغل · لكن التناقض الرئيسي ، في هذه المرحلة على الاقل ، ليس داخليا· بل هو تناقض مع القوى المناهضة للمشروع من اساسه ، وفي طليعتها الشعب الفلسطيني ، المطرود من ارضه ، والامة العربية ، التي تصارع الجسم الاساسي الذي نمت الصهيونية في احشائه اي الامبريالية ·

تنعكس السمة الاستيطانية على الاقتصاد داخل الكيان · فالاستيطان الصهيوني ، ليس كالاستيطان في الجزائر او جنوب افريقيا · انه في الواقع ، يريد ان يشبه الاستيطان الاميركي · فهو لا يريد استغلال الارض بمن عليها ، بل يريد استغلال الارض وطرد من عليها ·

لقد حاول الاستيطان الصهيوني ، ومنذ البداية ، اي قبل قيام الكيان ، خلق اعمدته الرئيسية التي يمكن تلخيصها بالنقاط التالية :

١ ــ **تهويد الارض** : اي وضع اليد اليهودية على الارض العربية ، ونقل ملكيتها من ايدي الفلاحين العرب الى المستوطنين الصهاينة · ومن اجل هذا انشئت مؤسسة الكيرن كيميت ووظيفتها تهويد الارض ، ونقل ملكيتها بشكل ابدي الى الشعب اليهودي ·

٢ ـ **تهويد العمل** · الذي جاء ضمن مفاهيم الريادة والعمل اليدوي التي جاءت مع الهجرة الثانية · وغلفت عنصريتها بكلام اشتراكي منمق · النقطة الاساسية هي تهويد العمل العربي ، واستثناء العمال العرب من الاستفادة اقتصاديا من المشروع الصهيوني· فالهستدروت ، هي في الاساس مؤسسة اقيمت من اجل مقاطعة العمل العربي · وعلى هامش هذا الهدف ، جرى تنظيم العمال اليهود واقامة صناعة يمكن ان تسمى ثقيلة ، بالنسبة للصناعات التي كانت موجودة حينئذ ·

٣ ـ **تهويد السوق** · اي وضع السوق في الايدي اليهودية بشكل كامل · ومن اجل تحقيق هذا الهدف ، نشأت تعاونيات صناعية استهلاكية مثل همشمير ، وتعاونيات تسويق مثل تنوبا · وكان الهدف الرئيسي من تهويد السوق ، هو مقاطعة البضائع والمنتوجات العربية · وقد نشأ من هذه السايسة الاقتصادية ، وعلى إثر الهجرة من المانيا ومن اوروبا الوسطى في الثلاثينات ، والتي جلبت معها رساميل ضخمة الى فلسطين (كان كل يهودي قادم من المانيا يحمل معه حوالي الف ليرة استرلينية) والتي قلبت الوضعية الاقتصادية في البلاد ، ان ازداد العمل على تهويد الارض وطرد العمال والمزارعين العرب منها · ومع تهويد العمل ، لم يجد الفلاح العربي المطرود من ارضه والذاهب الى حيفا ، للبحث عن العمل في مصانعها ، اية امكانية عمل · لذلك لا نتعجب ان تقوم ثورة ١٩٣٦ ، وان يكون الذين بدأوا هذه الثورة ، هم فلاحون قدموا من جنين ومرج ابن عامر ·

عام ١٩٦٢ ، وجد الهستدروت نفسه مضطرا لادخال العمال العرب في نقابة العمال اليهود · وهذا ليس ناجما بالطبع عن تطور ليبرالي في الكيان · ولكنه نتيجة حتمية للنمو الرأسمالي البرجوازي في الكيان ، الذي وجد نفسه ، نتيجة حاجة سوق العمل ، مضطرا الى القبول بخرق احداهم بنود اعمدة الكيان الاقتصادية ·

بعد ثلاثين سنة على انشاء الكيان ، تبقى مشكلة الاستقلال الاقتصادي المستحيل · والذي من الصعب التوصل اليه في المستقبل القريب · فالاستقلال الاقتصادي ، يرتبط اساسا بما يحدث في المنطقة سياسيا · فالسوق الرئيسية ، العالم العربي ، لا تزال مغلقة في وجه الكيان · والسوق الداخلية ضيقة جدا ولا تسمح بنمو استقلال اقتصادي حقيقي · حتى صناعة الماس ، التي تتمتع بسوق خارجية ، بدأت تتعرض بعض حوانيت صقلها للافلاس ·

هناك طرح اسرائيلي ، للتركيز على صناعة الاسلحة السريعة الدورة ، وتحويلها الى صناعة تصديرية · لكن هذه الصناعة تعاني كثيرا من المشكلات ، كما حدث مع صفقة طائرات الكفير للاكوادور ·

في تقديري ، فان الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ، وما ترتب عليه من توظيفات في المناطق المحتلة ، واستغلال لطاقة العمل العربية في هذه المناطق ، خلق في الكيان بداية التراكم الرأسمالي الفردي ، ونما هذا المسار بعد عام ١٩٧٣ بشكل كبير ·

وقد استطاع كيسينجر ان يمرر ، تحت ستار كذبة التسوية ، موضوعة ضرورة ان تكون اسرائيل قوية ، كي تكون مستقرة نفسيا ، وتستطيع بالتالي الدخول في عملية التسوية ، وتحت هذا الستار تدفقت الاموال والاسلحة الى اسرائيل ، وتدفقت ايضا مصانع الاسلحة· ودخل الرأسمال الخارجي والمعونة الخارجية في شركة مع الرأسمال الصهيوني من اجل انتاج الاسلحة · سابقا ، لم يكن هناك مصانع اسلحة في اسرائيل · كان هناك ورش مرتبطة بالصناعة العسكرية في الخارج ، في بلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة · تنتج

قطعا تدخل في صناعة السلاح · وكان عدد هذه الورشات قبل عام ١٩٧٣ ، لا يتجاوز ثلاث ورش · ولكن بعد ١٩٧٣ ، اصبح هناك مصانع كبيرة ، من مكابس تعمل بالضغط الهوائي والضغط المائي ، الى صناعة معادن وتصفيح · تقوم هذه الصناعة على شراكة بين الرأسمال الاجنبي ، والرأسمال المحلي ، بدليل وجود رأسماليين اسرائيليين في هذه الصناعة ، بعضهم في السلطة مثل ايرليخ · بوجود رأسمال محلي مرتبط ، فمن الطبيعي ان يسعى الى توسيع هامش استقلاله · وهذا قانون طبيعي · ولكن هل يستطيع فعلا تحقيق استقلاليته ؟

انا ارى في سياسة حزب الاحرار ، تعبيرا عن هذا الطموح نحو الاستقلال الاقتصادي، ونحو توسيع السوق والضغط من اجل وضع مسار التسوية في خدمة هذا الهدف · وقد يكون من السابق لاوانه ، ان نرى في القرارات الاقتصادية التي صدرت مع صعود الليكود مؤشرا لتطلعات هذه الشرعية ، استعدادا للتسوية ، كما يفهمونها من خلال اختراق السوق العربية · اقول من السابق لاوانه ، لاني اعتقد ان هذه الشريحة لم تتبلور بعد في طبقة متماسكة · ويمكن ان نستدل على ذلك ، ولو جزئيا ، من المستوى السياسي ، حيث لا تزال هذه الشريحة المؤلفة من رأسماليين وتكنوقراط ، موزعة في احزاب اسرائيلية مختلفة · شمعون بيرس في العمل ، مئير عاميت في داش ، عايزر فايتسمن في حيروت المسخ · والوصول الى بلورة هذه الطبقة سيكون محصلة عملية تاريخية · فعملية البرجزة لم تستكمل مسارها بعد ·

الاداة العسكرية :

واخيرا ، اريد ان اشير الى الدور المركزي للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية · فمهمة **الجيش الاسرائيلي داخل الكيان وخارجه ، كانت دائما مسالة مركزية في الكيان الصهيوني ·**

وهذا الدور المركزي للجيش ، عكس نفسه على محصلة عمل الكيان خلال الاعوام الثلاثين الماضية · وعندما بدأت الشريحة الرأسمالية تتوجه نحو بناء سوقها الداخلية ، والاستعداد لغزو السوق الخارجية ، **كان هذا البناء قائما حول الجيش عبر الصناعة العسكرية ·**

وفي مطلق الاحوال ، ومهما كان مسار التطور القادم ، فان الجيش سوف يبقى الركيزة الاساسية للكيان · فلو افترضنا جدلا ان التسوية قادمة ، وان اسرائيل تطمح للتحول الى مركز مالي وسياحي وخدماتي للمنطقة ، فهذا لن يعتمد فقط على التفوق التقني الاسرائيلي ، بل أساسا ، على وجود الاداة القادرة على حماية مصلحة الطبقة الحاكمة التي ستتوجه الى هذا النوع من البناء الاقتصادي ·

طبعا ، قد تواجه المؤسسة العسكرية مشاكل في الطاقة البشرية · لذلك نجد منذ اليوم حديثا عن الجيش المحترف والقائم على التطوع ، طبعا هذه المسالة مستقبلية وبعيدة المدى · لكنني اؤكد مرة اخرى ، ان الجيش سيبقى ركيزة أساسية في الكيان الصهيوني ·

عبد الحفيظ محارب : اريد ان اتوقف اولا عند مسالة العمل العبري · فانا ، لا ارى في طرح جوردون موقفا اخلاقيا على الاطلاق · فوراء هذه الفكرة هدف سياسي واضح ، هو اقامة مجتمع يهودي متكامل الطبقات في فلسطين ، من اجل السيطرة على ارض فلسطين بكاملها · الهدف الاساسي من طرح جوردون ، وطرح قادة الهجرة الثانية لمبدأ

العمل العبري هو اقامة مجتمع متكامل · وقد اصطدمت الشريحة البرجوازية التي كانت في المستوطنات مع فلسفة جوردون ، لانها تلحق الضرر بمصالحها الاقتصادية ، وتمنعها من استغلال الايدي العاملة العربية الرخيصة · وحدث صراع بين هذين الاتجاهين طيلة مرحلة اليشوف · وقد تبنت هذه الشريحة البرجوازية في صراعها مع مفهوم العمل العربي اطروحات احاد هاعام ، الذي كان يدعو الى اقامة مركز روحي لليهود في فلسطين، ويعارض اجلاء العرب · وقد بقي هذا الصراع مستمرا طيلة مرحلة اليشوف اليهودي ·

اشار الاخ نزيه الى ان اسرائيل تريد التمسك بالارض المحتلة ، من اجل استغلال اليد العاملة العربية · انا ، لا ارى في هذا سببا رئيسيا · اذ ان اسرائيل تسعى للتمسك بنقاء الدولة · لكن السبب الرئيسي لهذا التمسك ، يكمن في توسعية الكيان الصهيوني · اما مسألة المستوطنات ، فأنا ارى انها لم تفشل حتى في المستوى الاقتصادي.· فهناك صناعة في مستوطنات الجولان ، وهناك زراعات شتوية في مستوطنات الغور · وأنا أرى أن بناء حوالي ثمانين مستوطنة خلال ١١ سنة من الاحتلال هو تقدم في اتجاه توسيع حدود الدولة مستقبلا · وسوف تشكل هذه المستوطنات ورقة ضغط رهيبة يستخدمها المفاوض الاسرائيلي ضد الطرف العربي ·

المناطق المحتلة والاقتصاد :

اشار الاخ صبري جريس الى كون الاحتلال ذا مردود مربح بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي ·

ويأتي هذا المردود من خلال ثلاثة عوامل :

١ ــ الايدي العاملة العربية الرخيصة · ٢ ــ المناطق المحتلة كسوق وممر · سوق للبضائع الاسرائيلية ، وممر غير سري بشكل او باخر ، لتصدير بعض المنتوجات الاسرائيلية الى الاسواق العربية · ٣ ــ نهب الموارد الطبيعية في المناطق المحتلة · وهذا يتمثل اساسا في بترول سيناء · حيث استطاعت اسرائيل ان تحقق ربحا سنويا معدله ٥٠٠ مليون دولار من استغلال هذا النفط ·

ووجدت اسرائيل حقول بترول في منطقة علما على خليج السويس ، كما اكتشفت الغاز الطبيعي في مشارف رفح :

سمات « المجتمع » الاسرائيلي : هناك اربع سمات رئيسية « للمجتمع » الاسرائيلي

١ ــ فهو « مجتمع » مستوطنين ومهاجرين يسعى الى استقطاب اكثرية يهود العالم ·

٢ ــ وهو « مجتمع » عنصري · اي ان ما يميز مجتمع المستوطنين هذا هو عنصريته عبر اقتصاره على طائفة واحدة هي اليهود ·

٣ ــ وهو « مجتمع » توسعي ، عبر اصراره على اقامة دولته في مجتمع (ارض اسرائيل الكاملة) ·

٤ ــ ونجد اخيرا ، ان الطوائف الغربية تشكل الشرائح العليا في « المجتمع » الاسرائيلي ، بينما تشكل الطوائف الشرقية الشرائح الدنيا في هذا المجتمع ·

محمود سويد : بعد هذه المداخلات المستفيضة ، اريد ان اشير الى ثلاث ملاحظات ·

١ – لقد كان بناة اسرائيل يتطلعون لبناء تجربة اشتراكية ديمقراطية ولكن حالت اسباب كثيرة ، اشير الى بعضها في سياق النقاش ، دون تحول المجتمع الاستيطاني الى تجمع متجانس · وبرزت ثلاث مشكلات : **عسكرة التجمع ، قيامه على المساعدات الخارجية والمقاطعة العربية** · وخلال مسيرة اسرائيل ، تحولت التجربة في سمتها الرئيسية الى راسمالية دولة في خدمة فئة بيروقراطية حاكمة · وعندما طرحت حكومة الليكود الخط الاقتصادي الجديد ، لم يكن هناك احد ليدافع عن التجربة القديمة ، ودفاع الهستدروت هو في أساسه دفاع سياسي ·

٢ – وفي تقديري ، فان هذه التجربة الاقتصادية الجديدة ، محكوم عليها بالفشل كسابقتها · وهذا يعود أساسا الى حاجتها الى السوق العربية ، غير المتوفرة نتيجة سياسة المقاطعة ونتيجة العداء العربي للكيان الصهيوني · ولقد قام الكيان بمحاولتين من اجل الوصول الى مجتمع مستقر اقتصاديا · المحاولة الاولى هي بعد حرب حزيران ، عندما عقد مؤتمر اصحاب الملايين اليهود · وفي هذا المؤتمر ، دعتهم اسرائيل لتوظيف اموالهم فيها ، بالنظر الى الدور الاقتصادي الذي ستلعبه اسرائيل في المنطقة · والمحاولة الثانية بعد زيارة السادات لاسرائيل ، عبر طرح عدد كبير من المشاريع الاقتصادية المشتركة شكلا ، والتي تقوم في حقيقتها على الهيمنة الاقتصادية الاسرائيلية ·

الاقتصاد الاسرائيلي ، محكوم عليه بعدم القدرة على تخطي حدوده الحالية ، الا في حالة واحدة ، هي تغير الوضع السياسي ، وقيام سلام عربي اسرائيلي وهذا مستبعد في المرحلة الراهنة ·

٣ – الملاحظة الاخيرة ، وتتعلق في كون فشل تجربة بناء مجتمع صهيوني متجانس ، تؤدي الى فشل التجربة الديمقراطية البرلمانية ، والى تحول اسرائيل اكثر فاكثر الى تجمع عسكري فاشي ، يقوم الجيش فيه ، ليس فقط بحماية حدود اسرائيل وحدود أمنها، بل وايضا ، حماية امتيازات اليهود البيض ضد الاكثرية السوداء ، المشكلة من العرب في المنطقة العربية بأسرها ·

هاني العبدالله : اريد ان اعلق على نقطة واحدة ، وردت في مداخلة الاخ اليـاس شوفاني هي حول مسألة التوجه الرأسمالي في التجمع الاستيطاني ، وعلاقته بمسألة التسوية · اشار شوفاني ، الى ان عملية الفرز الطبقية والسياسية لم تكتمل بعد · لكني هنا ، اريد ان اشير الى المعوقات القائمة امام وصول هذا التوجه الى اهدافه ، عبر حل للصراع يلبي تطلعاته كنظام رأسمالي في المنطقة · هناك عائق هام جدا ، امام هذه الشريحة الجديدة ، هي كونها لا تزال أسيرة الفكر الغيبي · فحزب الاحرار ، الذي يمثل في رأيي الشرائح الرأسمالية في اسرائيل ، يمثل على المستوى الايديولوجي ، انشدادا الى مكونات الفكر الصهيوني الغيبي ، رغم انه حزب رأسمالي وعلماني · هناك ايضا الاحزاب الدينية كحزب المفدال ، التي تعاني من نفس المسألة ·

هناك كذلك عائق خارجي ، هو الجانب العربي · فهناك احتمال حقيقي ان يشهد العالم العربي نهوضا ثوريا ، يقلب الامور رأسا على عقب · وحتى ، لو استبعدنا هذا الاحتمال، وقبلنا احتمال التطور البرجوازي للعالم العربي ، فقد يقود هذا الى تنافس مع اسرائيل وليس الى شراكة معها ·

نزيه قورة : المسألة الاساسية التي تثير الخلاف تكمن في السؤال : هل نناقش الصهيونية في فكرها ام في واقعها · هل نناقشها في طموحاتها ورغباتها ووعيها الزائف ، ام في

واقعها الفعلي · هل نبحث عن تفسير للصهيونية في فكرها ، ام نبحث عن فكرها في ممارستها · انا اتبنى الرأي الثاني ، اي ضرورة البحث في الصهيونية من خلال ممارساتها الواقعية ·

اشار الاخ صبري جريس الى ان الاقتصاد الصهيوني ، كان منذ البداية اقتصادا طفيليا، يستورد المال والبشر · وانا اوافقه على هذا تماما · ولكني اضيف ، من اجل ان يكون الاقتصاد طفيليا ، يجب ان يكون هناك جهة متطفل عليها · من الواضح ان الجهة التي تقوم باعاشة اسرائيل هي الدول الامبريالية · وقد قدر احد الكتاب الصهاينة ، حجم الاموال التي تدفقت على اسرائيل بـ ١٠٠ الف مليون دولار · ومنذ عام ١٩٧٤ ، يدخل الى فلسطين المحتلة مبلغ سنوي يتراوح بين ٣ر٥ الى ٤ مليارات دولار · ويتكون هذا المبلغ من ٢ الى ٢ر٥ مليار دولار دعم رسمي حكومي من الولايات المتحدة · نصف مليار دولار جباية يهودية مقنعة ، ٣٠٠ مليون دولار من المانيا الغربية ، ١٦٠ مليون مارك بيع سندات سنويا · بالاضافة الى استثمارات تأتي من الخارج ، والتي يبلغ متوسطها السنوي ٢٠٠ مليون دولار · فالمشروع الصهيوني ، لا يمكن ان يكون مشروعا اقتصاديا · وعندما نريد فهم الصهيونية ، يجب ان نفهم دوافع الذين ينفقون هذه المبالغ الكبيرة ·

اما فيما يختص بالاجابة على اشارة الاخ شوفاني ، حول **نظرية المؤامرة** ، فان مقياس فهمنا يكمن في محاولة الاجابة على اسئلة من هذا النوع التالي : هل كانت هناك مشروعات لاستيطان فلسطين وضعها اشخاص مرتبطون بأجهزة الدول الاستعمارية ؟ اما فيما يتعلق **بتاريخ اليهود** ، فهذه مسألة غير محسومة علميا · هناك من يقول بوجود تاريخ خاص لليهود ، وهناك رأي اخر ، يقول ان تاريخ اليهود هو تاريخ البلاد التي يقيمون فيها ، وأنا اميل الى الرأي الثاني ·

وحين نقول ان المشروع الصهيوني هو مشروع استيطاني ، فهذا يعني انه يمكن مقارنته بمشاريع استيطانية اخرى ، كجنوب افريقيا مثلا · ما هو الفرق بين المشروع الاستيطاني في جنوب افريقيا والمشروع الصهيوني · الاستيطان في جنوب افريقيا يملك مبررات ذاتية خاصة به · هناك ارض جنوب افريقيا الغنية ، وهناك الثروات الطبيعية في جنـــوب افريقيا · ولكن الاقتصاد الصهيوني هو اقتصاد طفيلي كما ذكر ، ولا يمكنه ان يتحول الى اقتصاد مستقل · اذن فالاستيطان الصهيوني لا يهدف الى الكسب المادي · فلا بد له اذن من هدف اخر ، لا بد من وجود جهة اخرى تستفيد منه · هناك تعريف للصهيوني يردد كثيرا من قبل صهاينة اميركا : الصهيوني هو يهودي يأخذ مالا من يهودي ثان من اجل تهجير يهودي ثالث · فمن هو الصهيوني من بين هؤلاء ؟

لقد حصل تطور اقتصادي في فلسطين · حصل تطور زراعي وتطور صناعي · لكن جميع الصناعات التي يجري الحديث عنها ، لا تكاد ترد تكاليفها · اما الصناعة الكبرى التي يجري الحديث عنها دائما وهي صناعة الماس ، فهي صناعة محدودة التأثير ، رغم الرقم الكبير لحجم صادراتها · ويعود هذا الى سببين رئيسيين : ١ ــ صغر حجم القيمة المضافة ، ففي العام الماضي جرى تصدير ماس بمبلغ مليار دولار ، القيمة المضافة كانت ٢٠٠ مليون دولار ، اما الـ ٨٠٠ مليون دولار فهي ثمن المواد الخام · ٢ ــ صغر حجمها من حيث التشغيل الذي توفره · فهذه الصناعة لا تستخدم اكثر من ١٠ الاف عامل ورب عمل ·

اما صناعة الاسلحة ، فلم تنشأ من اجل تحقيق الاستقلال الاقتصادي · لكن هناك اسبابا

اخرى لانشائها ، منها حجم التشغيل الذي توفره ، ومنها رغبة الولايات المتحدة في نقل عدد من المصانع ، او فروع المصانع العسكرية الى خارج اميركا · من اجل ان تستطيع تزويد بعض الدول ، التي تخشى لاسباب سياسية من تزويدها بالسلاح بشكل مباشر . كجنوب افريقيا وتايوان والتشيلي · اما من حيث ربحية هذه الصناعة ، فجميع التقارير الاقتصادية تشير الى انها صناعة خاسرة · فبالنسبة لصناعة الطائرات ، ذكر احد التقارير انه حيث يلزم وجود ٨ الاف عامل في الولايات المتحدة لانتاج حجم معين ، يلزم اسرائيل وجود ١٦ الف عامل لتحقيق نفس الحجم ·

بالنسبة لمصنع المحركات في بيت شيمش وهو مصنع فرنسي في الاساس ، يذكر احد التقارير ان مجموع المعدات اللازمة لانتاج مئة وحدة في فرنسا ، تنتج عشرين وحدة في اسرائيل ·

الصناعة العسكرية اذن ، هي في الاساس صناعة غير اقتصادية ·

اما بالنسبة لما اشار اليه الاخ عبد الحفيظ حول الاصرار على يهودية الدولة ، والخوف من العمال العرب ، فان الضرورة الاقتصادية هي التي تحكم · فهناك مشروعات اقتصادية تحتاج الى عمال · حين لا تتوفر الايدي العاملة اليهودية · يجري استخدام الايدي العاملة العربية · اما بالنسبة للمستوطنات ، فأنا لا اوافق على كونها تربح · انها مشاريع خاسرة بشكل كامل على الصعيد الاقتصادي ·

وفي النهاية اريد ان اشير الى مقياس هام لفهم الحركة الصهيونية ، هل هي حركة ذاتية ؟ ام ان عوامل نجاحها وفشلها تعود اساسا الى اسباب خارجية ؟ هذا المقياس هو الهجرة · هناك الان حوالي ثمانية ملايين يهودي خارج اسرائيل ، تستطيع اكثريتهم الهجرة الى اسرائيل ساعة تشاء دون اية تكاليف ، باعتبار ان الوكالة اليهودية تتكفل. بدفع ثمن بطاقة السفر · هل تتجه الهجرة اليهودية من العالم الى اسرائيل ؟ ام انها تتجه على العكس من ذلك من اسرائيل الى العالم ؟ تقول المعلومات الواقعية ان هناك ٣٠٠ الف يهودي خرجوا من اسرائيل الى الولايات المتحدة وان هناك ١٥٠ الف يهودي خرجوا من اسرائيل الى كندا · و٢٥ الفا الى بريطانيه ، وبضعة عشرات الالوف الى اوروبا الغربية و٢٦ الفا الى جنوب افريقيا و١٢ الفا الى استراليا · بينما لم تقدم مجموع هذه البلاد سوى عدد من المهاجرين أقل بكثير من هذه الارقام ·

نحن نمتلك مقياسا حقيقيا ، نرى عبره اذا كانت الحركة الصهيونية حركة يهودية تلبي احتياجات اليهود ، او تلبي حاجات وطموحات اخرى · فالاتجاه الرئيسي للهجرة هو من اسرائيل الى هذه البلدان ، وهذا يحمل مدلولات هامة ، اهمها ان الحركة الصهيونية لا تعبر عن حاجات او طموحات اليهود ·

الملف الرابع

الطوائف الشرقية في « المجتمع » الاسرائيلي

عبد الحفيظ محارب

من المعروف ان ابناء الطوائف الشرقية يشكلون اكثرية السكان اليهود في

« المجتمع » الاسرائيلي · وقد اتى معظم هؤلاء من العالم العربي بعد قيام اسرائيل ، الامر الذي منحها مزيدا من الطاقة البشرية للتصدي للعالم العربي ، الذي كان له الفضل في تقديم هذه الهدية التي كانت اسرائيل بحاجة اليها في ذلك الوقت ·

ما هي مكانة ابناء الطوائف الشرقية في « المجتمع » الاسرائيلي ؟

من خصائص « المجتمع » الاسرائيلي الى جانب كونه مجتمع مهاجرين ومستوطنين ، ولليهود فقط ، شبه التطابق القائم بين البنية الطبقية والتركيبة الاتنية ، فعلى الصعيد الاتني نجد فئتين رئيسيتين : الاشكناز : الطوائف الغربية ، السفارديم : الطوائف الشرقية ·وعلى الرغم من ان الفئة الاولى تشكل الاقلية بحدود ٣٥٪ في بداية السبعينات ، الا اننا نجد انها تشغل معظم الشريحة الفوقية من الهرم الاجتماعي ، بينما تشغل الفئة الثانية التي تشكل الاكثرية معظم الشريحة الدنيا فيه ·

وليس هنالك شك بأن شبه التطابق بين البنية الطبقية والتركيبة الاتنية يعود الى الواقع التمييزي الذي يلف مجتمع المهاجرين والمستوطنين · ونشير هنا ، الى مجموعة من العوامل التي ساهمت في ترسيخ هذا الواقع :

١ ـ ظهور المسألة اليهودية في اوروبا وولادة الحركة الصهيونية بين صفوف ابناء الاشكناز وتأصلها في نفوسهم كردة فعل لسياسة الاضطهاد والتمييز التي كان يعاني منها هؤلاء في معظم الاقطار الاوروبية ، دون ان تكون هنالك مسألة يهودية لدى ابناء الطوائف الشرقية ، وبالتالي لم تكن الحركة الصهيونية قوية بين صفوفهم ، بل اكتسبت اكتسابا ، مما ادى الى تزعم ابناء الطوائف الغربية وشغلهم لمؤسسات الحركة الصهيونية كافة ، دون ان يكون لابناء الطوائف الشرقية دور يذكر في هذه المؤسسات ·

٢ ـ التفوق العددي لابناء الطوائف الغربية عشية قيام الدولة ، فقد كان هؤلاء يمثلون حوالي ٩٠٪ من مجموع السكان اليهود ، وبالتالي سيطروا على مرافق الدولة ·

٣ ـ الاحساس بالتفوق الحضاري لدى ابناء الطوائف الغربية مما ولد لديهم نظرة استعلاء تجاه ابناء الطوائف الشرقية ، تتحول في كثير من الاحيان الى نظرة احتقار ·

٤ ـ التعويضات الالمانية التي تلقتها اسرائيل في بداية الخمسينات ، والتي كانت من نصيب خزينة الدولة وجيوب فئات واسعة من ابناء الاشكناز بحجة تضررهم من ويلات الحرب العالمية الثانية ، الامر الذي كان له الاثر في توسيع الهوة الاقتصادية بين ابناء الطائفتين ·

٥ ـ سعي الاشكناز الحثيث الى جعل الدولة ذات طابع اوروبي محض ، وهذا امر طبيعي بالنسبة لهم لكونهم يتحدرون من اصول اوروبية ، وتخوفهم من ان يؤدي ولوج ابناء الطوائف الشرقية الى مراكز القوى ومرافق الدولة ومؤسساتها الفعالة ، الى تغيير شكل الدولة وطابعها من طابع اوروبي يسعون اليه ، الى طابع شرق اوسطي لا يريدونه ٠

٦ ـ والعامل الاخير ، وربما الاهم ، هو الدور الذي اراده لهم قادة الحركة الصهيونية في بداية تبلور الحركة عشية الحرب العالمية الاولى واثناء فتـــرة الهجرة الثانية : القيام بالاعمال الشاقة التي كان يقوم بها العمال العرب ، نتيجة تبني قادة الهجرة الثانية مبدأ العمل العبري ، ولم يجد هؤلاء افضل من يقوم بهذا الدور سوى الطوائف الشرقية ٠ وكان هذا هو اول توجه جدي من جانب قادة اليشوف ، وهم من فئة الاشكناز ، نحو الطوائف الشرقية ، وقد جلب هؤلاء الى فلسطين اول مجموعة مهاجرة يمنية لتفتح الدور المناط بالطوائف الشرقية ومع انها قامت به ، الا انها كانت في نفس الوقت تشق طريق الالام لنفسها هي ، حيث وجدت نفسها مع مرور الزمن تشكل القاعدة السفلى من الهرم الاجتماعي ، تئن تحته ، وتجد صعوبة كبيرة في التغلب على هـــذا العبء ٠

مظاهر التميز :

اذا القينا نظرة على الواقع الاسرائيلي بعد مرور ٣٠ عاما على قيام الدولة تبدت لنا صور مذهلة عن التميز القائم على اساس اثني هناك ٠ فالحكومة الاسرائيلية كانت ولا تزال تشكل من ابناء الاشكناز مع المحافظة على تخصيص حقيبة او حقيبتين او ثلاث لابناء الطوائف الشرقية ، مع الحرص على ان لا تكون هذه الحقائب الوزارية من الحقائب الرئيسية ، كالخارجية والدفاع والداخلية والمالية ٠ اما الوكالة اليهودية وتعتبر في اسرائيل بمثابة الحكومة الثانية ، ولها دور كبير في تجسيد « مجتمع » اليشوف وبلورته ومن ثم « المجتمع » الاسرائيلي ، فانها تكاد تخلو تماما من ابناء الطوائف الشرقية ٠ وفيما يتعلق بالحكومة الثالثة (الهستدروت) التي من المفترض بها الدفاع عن مصالـــح الطبقة العاملة التي يتشكل سوادها الاعظم من ابناء الطوائف الشرقية ، نجد ان المسيطرين عليها هم من الاشكناز ، وفيما يتعلق بالمناصب العليا في الدولة (حوالي ٣٠٠ منصب) نجد ان ابناء الطوائف الشرقية كانوا يحتلون في بداية السبعينات ٣٪ فقط منها ، اما بالنسبة للاحزاب الممثلة في الكنيست ، فاننا نجد ان جميع رؤسائها دون استثناء ، ابتداء بالاحزاب اليمينية ومرورا بالاحـزاب الدينية وانتهاء بالاحزاب العمالية ، من فئة الاشكناز فقط ٠ وفيما يتعلق بالتمثيل في الكنيست نجد ان عدد ابناء الطوائف الشرقية يناهز خمس عدد النواب ٠

وحتى هذا الخمس لا يجرؤ على المطالبة بازالة اسباب التمييز الذي يعاني منه ابناء الطوائف الشرقية او كما يقول الدكتور يوحنان بيرس استاذ العلـــوم الاجتماعية في جامعة تل ابيب « ان الاشكناز هم الذين يقررون من يمثل الطوائف الشرقية في الكنيست والهستدروت واللجنة التنفيذية الصهيونية ، انها عملية اشراك وليست عملية تمثيل ، فاذا ما تجرأ احدهم على شق عصا الطاعة ، فمن المؤكد ان تغييره سيتم بسهولة » ·

وقد ولد واقع احتكار فئة الاشكناز لمعظم المراكز التمثيلية والمرافق الاقتصادية في الدولة ، اتساع الهوة الاجتماعية بين الطائفتين في كافــة المجالات الحياتية، الاقتصادية والسكنية والثقافية·

وسنقف هنا قليلا حول الهوة الثقافية التي يندر وجود مثيل لها في اي مجتمع في العالم · مجموعة اثنية تشكل اكثرية السكان لا تنال من العلم الا النذر اليسير ، ومجموعة الاقلية التي تشكل الشريحة المتعلمة للمجتمع ككل ·

تفصح هذه الهوة عن نفسها في التدني المضطرد في نسبة تمثيل اليهود في المراحل الدراسية الثلاث ، حيث نجد ان نسبة الطلبة الشرقيين في الصف الاول الابتدائي تقترب من نسبتهم العامة في اسرائيل ، اذ يحتلون نسبة تزيد على ٦٢٪ ، بيد ان هذه النسبة تنخفض الى ٤٥٪ في الصف الثامن ، وفي المرحلة الثانوية تهبط الى ٧ر١٧٪ ، وتواجه النسبة في الجامعات هبوطا اخر حيث تصل نسبة من يحصلون على الشهادة الجامعية الاولى ٧٪ وعلى الدكتوراه ٣٪ فقط ، كما ان نسبتهم في الهيئة الاكاديمية (الاساتذة والمحاضرون في الجامعات) تقل عن ١٪ ·

ان اسباب ذلك تعود **اولا** الى الواقع التمييزي الذي يعيشه ابناء الطوائف الشرقية ، **وثانيا** ، الى رغبة السلطات العليا في توجيه تلاميذ ابناء الطوائف الشرقية لدراسة الموضوعات المهنية في المدارس الصناعية والزراعية · **وثالثا** ، الى غياب عامل تكافؤ الفرص في الحصول على الوظيفة ، حيث يفضل الغربي لشغل الوظيفة حتى ولو كان الشرقي متفوقا عليه في حالة المنافسة الحرة على شغل وظيفة او منصب حكومي ، الامر الذي يدفع الطالب الشرقي الى البحث عن مجال عيش اخر غير مجال التعليم · **ورابعا** ، الى التباين بين المدارس ، فمدارس الاحياء الشرقية التي تستقطب ابناء الاشكناز ، تمتاز بمبانيها الجميلة وباستكمالها مستلزمات المدرسة الحديثة ، اما مدارس الاحياء الفقيرة وقرى التطوير فانها تختلف عن الاولى من ناحية المباني ، وتفتقر الى متطلبات المدرسة العصرية على الرغم من ان هذه المدارس تتبع مباشرة وزارة التعليم · **وخامسا** ، الى التباين في كفاءة المعلمين ، فقد درجت وزارة الثقافة على ارسال المعلمين ذوي الكفاءات الى مدارس الضواحي الراقية ، اما المعلمون الاقل كفاءة ،

او الذين يفتقدون الى كفاءات تدريسية فانهم يستقطبون في الضواحي الفقيرة وقرى التطوير ·

المسار الاثني لعملية الاستقطاب الاجتماعي :

سارت عملية الاستقطاب الاجتماعي في مسار اثني ، وعكس ذلك نفسه على سير التوزيع السكاني ، نتج عنه بشكل تدريجي بروز ضواح ذات طابع اثني في كل مدينة · وظهور مستوطنات منتشرة هنا وهناك تخص هذه الطائفة او تلك · بمعنى اخر ظهور ضواح راقية في المدن استقطبت ابناء الاشكناز وضواح فقيرة استقطبت ابناء الطوائف الشرقية ، وكذلك الحال بالنسبة للمستوطنات فهنالك مستوطنات غنية استقطبت ابناء الطبقة العليا ، ومستوطنات متخلفة وفقيرة استقطبت ابناء الطبقة الفقيرة · الى جانب ذلك هنالك ضواح وقرى مختلطة اشادتها السلطات الاسرائيلية تمشيا مع سياسة الدمج المعلنة ، بيد ان تجربة الدمج قد باءت بالفشل الذريع ·

وقد تأتى عن المسار الاثني الذي سارت عليه عملية الاستقطاب الاجتماعي ، بروز ظاهرتين اساسيتين في مجتمع المهاجرين والمستوطنين :

١) الشعور القوي بالانتماء الطائفي · ٢) فاعلية العامل الاثني في الصراع الطبقي · بالنسبة للظاهرة الاولى ، يمكن القول ان الشعور بالانتماء الاثني هو وليد التناقضات الكامنة في مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، ولم يرافق هذا الشعور اليهود الذين لم يقدر لهم المجيء الى اسرائيل ، بل يمكن القول انه يكاد يكون معدوما لدى اليهود الموجودين في بقاع الارض ، اذ ان شعورا اخر كان يستحوذ على تفكير معظمهم ، وهو الشعور بالانتماء اليهودي · اما في حالة قدوم الانسان اليهودي الى اسرائيل فان الشعور بالانتماء الاثني يبدأ في التبلور ، وهذا الامر يعتبر بمثابة انقلاب في حياته · فاليهود الرومانيون كانوا يعتبرون انفسهم يهود اولا ، وكذلك الامر بالنسبة لسائر الجاليات اليهودية في البلدان المختلفة ، اما في حالة المجيء الى اسرائيل (مجتمع المهاجرين) فان اليهودي يتحول الى روماني او عراقي او مغربي ··· ينبغي التنبه الى ان هذا الانقلاب يختلف من حيث الشدة بين الفئات المختلفة ، فالفئات المسحوقة هي اكثر الفئات احساسا بالوليد الجديد · وبالنسبة للظاهرة الثانية المتمثلة في فاعلية دور العامل الاثني في عملية الصراع الطبقي ، يمكن القول ان حدة التناقضات القائمة في « المجتمع » الاسرائيلي لا تكمن في عامل الصراع الطبقي بقدر ما هي كامنة في عامل الصراع الاثني الطائفي ، ذلك ان الفئات المسحوقة تجد نفسها من فئة اثنية معينة ، وتجد مستغليها من فئة اثنية اخرى ، الامر الذي يزيد من حدة التناقضات الاجتماعية الناجمة اصلا عن عملية الصراع

الطبقي ، والذي لعب فيه العامل الاثني في مجتمع المهاجرين والمستوطنين دورا رئيسيا ٠

التصدي للواقع التمييزي :

تصدى ابناء الطوائف الشرقية للواقع التمييزي الذين يعانون منه ، بطرق ووسائل شتى منها الاضرابات والتظاهرات والانتفاضات والتهديد بالتنصر والنزوح ، ودفعهم السخط في عام ١٩٧٢ الى هجر قرية بأكملها لمدة اسبوع ، احتجاجا على واقعهم المزري (مستوطنة زرعيت) ٠ الا ان ابرز انتفاضات ابناء الطوائف الشرقية ، هما انتفاضة وادي الصليب في حيفا عام ١٩٥٩ ، وانتفاضة حي المصرارة في القدس عام ١٩٧٢ ٠ قام بالانتفاضة الاولى الجيل الاول ، وانتهت بسرعة لسببين : (١) الاحساس بالضعة لدى ابناء الطوائف الشرقية تجاه ابناء الطوائف الغربية ٠ (٢) تحرك السلطة بسرعة واحتواء الانتفاضة بشراء زعمائها عن طريق ايجاد وظائف مغرية لهم ٠ وقام بالانتفاضة الثانية ابناء الجيل الثاني الذين لا يشعرون بالضعة تجاه ابناء الاشكناز ، بل تمتلكهم مشاعر الغضب والتحدي ضد مستغليهم ٠ واسفرت الانتفاضة عن ولادة تنظيم يحمل اسم « الفهود السود » ٠

ومع ذلك فان نضالات ابناء الطوائف الشرقية ، لم تؤثر خلال الثلاثين عاما الماضية على البنية الهرمية للمجتمع الاسرائيلي ، حيث بقيت الاقلية الاشكنازية تحتل جوانبه العلوية ، وبقيت الاكثرية المنتمية للطوائف الشرقية تئن في قاعدته السفلى ٠ ويعود ذلك الى تشبث الاشكناز بمكتسباتهم الطبيعية ، وعدم استعدادهم للتخلي عن مكاسبهم او افساح المجال امام الطبقة الدنيا لتحسين اوضاعها الاجتماعية ٠ ويعود ايضا الى كون الفهود السود وابناء الطوائف الشرقية بشكل عام ، لا يزالون مرتبطين ذهنيا وعاطفيا بالحركة الصهيونية ، الامر الذي يعيق ويبلبل في نفس الوقت نضالهم ، فالطائفة الاشكنازية غدت لعدة اسباب العمود الفقري للصهيونية وعقلها المسير ، في الوقت الذي لعب فيه ابناء الطوائف الشرقية ادوارا ثانوية في هذه الحركة دون ان يكون لهم اي دور مؤثر ٠ ولذا فان نضالهم ضد مستغليهم تعتريه البلبلة والميوعة ، فهم من ناحية يحسون بمظاهر التمييز الناجمة عن البنية الهرمية « للمجتمع » الاسرائيلي، ومن ناحية اخرى يشعرون بأن الاشكناز هم العقل المفكر للصهيونية٠ وبين هذا الاحساس بالغبن وذاك الشعور بالعطف يخطو ابناء الطوائف الشرقية خطوات مبلبلة متعثرة في نضالهم ، تؤدي بهم الى تبني الحلول الوسطية دون الحلول الجذرية ٠

وقد ادى هذا الواقع الى حدوث انقسامات بين صفوف حركة الفهود السود ، حيث انضم او تحالف قسم منهم مع الاحزاب الصهيونية ، اما الجناح الاكثر

تقدما ووعيا ، فقد دخل في تحالف مع الحزب الشيوعي راكاح ، وتمكن من نيل مقعد في الكنيست ٠

ذكرنا ان من بين النضالات التي يخوضها ابناء الطوائف الشرقية ، محاولة مغادرة اسرائيل تخلصا من الواقع التمييزي الذي يعيشونه ٠ وتجدر الاشارة هنا الى ان واقعهم الاقتصادي والاجتماعي لا يمكنهم من النزوح الى الدول الغربية ، مثل فئات من الاشكناز ٠ والبلدان التي يمكن ان تشكل عامل جذب لابناء الطوائف الشرقية هي بلدانهم الاصلية ، الا ان هذه البلدان ساعدت بشكل او باخر على تهجيرهم منها ، واوصدت الابواب امام عودتهم ٠ وكان هـــذا الواقع من بين الاسباب التي دفعتنا الى دعوة الدول العربية من خلال جامعة الدول العربية الى تبني المبادىء التالية :

« ١ ـ فتح ابواب العودة ليهود البلدان العربية الذين كانوا قد هاجروا الى اسرائيل لسبب او لاخر ، مع اعتبار العودة حقا لهم ٠

٢ ـ منح كل عائد الى وطنه جنسية القطر العائد اليه بمجرد وصوله ٠

٣ ـ انشاء وكالة عربية تشرف عليها جامعة الدول العربية لتقوم من خلال مكاتبها في اوروبا بمساعدة كل من يرغب في ذلك من يهود الدول العربيـــة الموجودين في اسرائيل او في الخارج ، الى ان يندمج العائد الجديد في مجتمعه وفي وطنه الام * » ٠

وفي العام ١٩٧٥ تبنت جامعة الدول العربية مبدأ عودة اليهود العـــرب الموجودين في الكيان الاسرائيلي الى اوطانهم ، بيد ان الدول العربية لم تشفع التبني بالنشاط الجاد ٠ ومع ذلك فان القرار الذي اتخذ في عام ١٩٧٥ يعتبـر بمثابة نوع من التكفير عن الخطأ الذي ارتكبته الدول العربية قبل حوالي ٣٠ عاما بحق نفسها ، وكذلك بحق مواطنيها العرب اليهود حين ساعدت بشكل او باخر على تهجيرهم الى الكيان العنصري الاسرائيلي ٠

٥ ـ الموقف من الفلسطينيين

صبري جريس : يبدو لي ، ان موقف اسرائيل من الفلسطينيين هو اكثر مواقفهـــا وضوحا ٠ فالحركة الصهيونية تنكر وجود شعب اسمه الشعب الفلسطيني ٠ وتنكر بالتالي على هذا الشعب ، الحق في اقامة كيانه السياسي ٠ لقد اعتبرت الحركة الصهيونية ، بقياداتها المختلفة ، الفلسطينيين ، في الفترة التي كانوا فيها اكثرية سكان فلسطين ، مجرد سكان عرب في (ارض اسرائيل) ٠ وهم يفقدون حقهم في الوجود على هذه البقعة

---

* في دراسة موضوع « الهجرة وكيفية التصدي لها » ، « شؤون فلسطينية » عدد ١٠ ، ١٩٧٢ ٠

من الارض ، بمجرد ان يغادروها · وقد تكرس هذا الرأي بالقول ان الفلسطينيين هربوا الى البلاد العربية · وكلنا نعلم الحقيقة الصارخة ، بأنهم اجبروا على ترك بلادهم بشكل قسري · لذلك تدعو الحركة الصهيونية الى اذابتهم في البحر العربي · اعتقد ان هذا هو الموقف الاساسي والثابت لاسرائيل من الشعب الفلسطيني · واضطرار اسرائيل الان للبحث في قضية فلسطين ، ناجم في الواقع ، عن وجود سكان فلسطين في المناطق المحتلة· فالخط الاسرائيلي ينصب ، حول كيفية معالجة مشاكل هؤلاء الناس الموجودين في هذه المناطق ·

ان جوهر الموقف الصهيوني الاسرائيلي ، على رغم خلافات الرأي ينطلق من التنكر الكامل لوجود الشعب الفلسطيني · وحول هذه النقطة ، لا يوجد اي خلاف بين الليكود والعمل · وبينها وبين معظم التيارات الصهيونية والاسرائيلية الاخرى · والاهتمام الرئيسي يتركز الان حول كيفية ايجاد حل لسكان المناطق المحتلة من خلال موقفين ثابتين :

١ ـ تجاهل الشعب الفلسطيني كشعب ·

٢ ـ تجاهل للفلسطينين الموجودين خارج فلسطين ·

يتركز الخلاف الان بين الليكود والعمل حول نقطة واحدة : ما هي افضل الطرق للتوصل الى تسوية ، تكفل اذابة الشعب الفلسطيني وانهاءه · موقف حزب العمل هو السعي لايجاد حل للمشكلة الفلسطينية عن طريق النظام الاردني · على اعتبار ان هذا النظام هو الجهة الوحيدة المؤهلة لمنع قيام دولة فلسطينية · فالدولة الفلسطينية ، او اي كيان فلسطيني مستقل يشكل خطرا كبيرا على اسرائيل ، باعتباره نقيضها وبديلها التاريخي ·

يسعى اليمين الى الهدف نفسه · لكن تشبثه بمسألة (ارض اسرائيل الكاملة) والفكر الغيبي الذي يحكمه يقودانه الى طرح مسألة الحكم الذاتي · وحجة حزب العمل في رفض صيغة الحكم الذاتي ، هي انه سيكون بداية لاقامة دولة فلسطينية · بينما يتمثل خط حزب العمل ، في السيطرة على الارض ، وتصدير اكبر عدد ممكن من مشاكل السكان الى الاردن ·

من هذا المنطلق ، الرافض للاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، فان اسرائيل ترفض التعامل مع اي طرف فلسطيني · حتى مسألة انشاء قيادة بديلة ، هي مسألة غير واردة بالنسبة لهم · فأحد قادة حزب العمل يصرح بما معناه : « اننا لن نعترف بأية قيادة فلسطينية كقيادة فلسطينية ، حتى لو كانت مؤيدة لنا · لانه ماذا يضمن لنا ، انها لن تتصرف ، بعد اعترافنا بها ، كما تتصرف منظمة التحرير الفلسبطينية · »

الفشل الكبير :

يكمن الفشل الصهيوني الكبير ، في عدم قدرتهم على تنفيذ اهدافهم تجاه الشعب الفلسطيني · فبعد ثلاثين سنة على نشوء اسرائيل ، نجد ان القضية الفلسطينية عادت الى الصدارة ، واستطاع الشعب الفلسطيني ان ينظم قواه · وان يثبت ان اذابته ليست هدفا ممكن التحقيق · ربما يكون هذا ، هو اكبر فشل تمنى به الصهيونية · وسينتهي هذا الفشل الى تبلور الكيان الفلسطيني ·

كذلك فشلت الحركة الصهيونية في تهويد الارض الفلسطينية · ويبدو لي ، ان الانجازات

السكانية الديمغرافية التي حققها الصهاينة في العشرينات ، بقيت على ما هي عليه ، بعد ان ازدادت كثافتها السكانية · اي في الخط الذي يمتد من شمال طبريا ويصل الى مرج ابن عامر حتى حيفا · ويمتد على السهل الساحلي حتى تل ابيب مع منفذ الى القدس· والحقيقة ، فانا أعتقد ان سبب هذا النجاح ، يعود الى كون هذه المناطق ، كانت في معظمها ملكا لاقطاعيين ، واستطاع الصهاينة شراءها منهم وطرد فلاحيها منها · بينما نلاحظ ان الصهاينة لم يستطيعوا دخول بقية الاراضي الفلسطينية · فخلال نصف قرن ، بقي الجليل عربيا في اكثريته ، والضفة الغربية عربية ، وقسم من المثلث عربيا ، وقطاع غزة عربيا · اي نكاد نقول ان مشروع التقسيم ، الذي وضع عام ١٩٤٧ ، على اساس الانجاز الديمغرافي الصهيوني ، لا يزال قائما · من هنا ، هذا الشعور الاسرائيلي بالخوف من اي كيان فلسطيني ·

الياس شوفاني : في تحديدنا للكيان الصهيوني ، ككيان استيطاني اجلائي ، فان احد اهدافه المركزية سوف تكون اذابة الشعب الفلسطيني بشكل كامل · واذا درسنا الفكر الصهيوني نجد ان هناك سلسلة متصلة من تغييب الشعب الفلسطيني · فهناك اولا التغييب المادي ، الذي يتجسد في شعار ارض بلا شعب لشعب بلا ارض · يتضمن هذا الشعار انكارا ماديا وجسديا لوجود الشعب الفلسطيني · ولكن ، مع فشلهم في هذا التغييب ، نتيجة الصدام المادي ، والمباشر بسكان البلاد الاصليين ، عمدوا ثانيا الى التغييب الحضاري · وهذه مسألة هامة جدا في الفكر الصهيوني · فهذا الفكر ينطلق من اطار مرجعي هو الحضارة الغربية · لذلك ، فعندما تنفى سمة الحضارة عن أحد شعوب العالم الثالث ، فهذا يقود الى تبرير جميع الاعمال الاجرامية التي يقوم بها الاستيطان · فما يجري بحق هذا الشعب ليس جريمة ، لانه شعب ، بالنسبة للحضارة الغربية ، لا حضارة له ، وبالتالي لا تاريخ له · وهذه هي خلفية كل الكلام الايديولوجي ، الذي قيل في العشرينات والثلاثينات وحتى في الاربعينات ، عن تجفيف المستنقعات وزراعة الصحراء الخ ·

وهناك اخيرا التغييب السياسي · الفلسطينيون هم مجرد لاجئين عرب · هنا يقع الفكر الصهيوني في تناقض منطقي · لا يعترف بوجود الفلسطينيين ، لكنه يعترف بوجود العرب ، وهذا يستتبع الاعتراف بحق العرب في الوحدة · لكننا نعلم ان احدى المهمات الرئيسية للكيان الصهيوني ، هي تجزئة المنطقة العربية ، ومنع العرب من تحقيق وحدتهم·

ان تجزئة العالم العربي اليوم ، هي واقع موضوعي · وهذه التجزئة تزيل امكانية استيعاب الشعب الفلسطيني في العالم العربي · لذلك ، فاذا كان الاطار المرجعي الفلسطيني ، اقليميا في هذه المرحلة ، فهذا يعود الى انعكاس هذا الواقع الموضوعي عليهم ·

لا يمكن حل التناقض القائم بين الفلسطينيين والاستيطان الصهيوني الا بازالة احدهما · فاما ان يزول الشعب الفلسطيني ، او ان يتغير العنصر الاساسي في التركيبة الاستيطانية الصهيونية ، التي هي الاستيطان ·

ولقد ثبت موضوعيا ، خلال ثلاثين سنة ، ان جميع المحاولات الاسرائيلية وغير الاسرائيلية ، من اجل اذابة الشعب الفلسطيني قد فشلت · والحل الوحيد الممكن ، هو نزع الصفة الاستيطانية الصهيونية ، ولا يمكن ان يسمى اي حل اخر حلا · انما هو تسوية مرحلية ومؤقتة ، وتحمل في داخلها جميع عناصر الانفجار ·

كما اشار الاخ صبري ، فجميع الطروحات الاسرائيلية ، تصر على عدم الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني ، كما تصر على استبعاد منظمة التحرير من المشاركة في اية عملية تسوية ٠ وهناك ايضا اصرار على مقاومة اقامة دولة فلسطينية ، في الجزء الذي قد يتم الانسحاب منه ٠ ورغم الكلام عن الحلول المختلفة لهذه المسألة ، فأنا لا ارى ، في هذه المرحلة ، اي حل الا في فلسطين ، فاما ان يقضى على الفلسطينيين او يعودوا الى فلسطين ٠ مسألة العودة الى فلسطين ، تأخذ الاولوية على اي شيء اخر في هذه المرحلة التاريخية ٠ الا اذا تغيرت المعطيات ، وطرح الحل الثوري الذي يشمل المنطقة بأسرها ، عندها يتم الانتقال الى مرحلة جديدة ، تتطلب منطلقات جديدة ٠ اي تتطلب منطلقات اكثر وضوحا وجذرية ٠ فعندها لا تعود المسألة بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة ٠ بل تصبح صداما بين الامة العربية والامبريالية ٠

لقد طرح النضال الفلسطيني حلا عقلانيا للمسألة ، يتمثل في الدولة الديمقراطية ٠ لكن هذا الطرح ، رفض باصرار وعناد من قبل الكيان الصهيوني ٠ ولا بد من فرض هذا الحل عليه ، عبر تطويقه ، وتفتيته داخليا ، تحت تأثير الضغط الخارجي ٠ وهذا يتطلب تنظيم القوى الفلسطينية والعربية في نضالها ضد العدو الامبريالي ٠

لقد طرحت في احدى المراحل مسألة السلطة الوطنية ٠ وفي تقديري لم يكن هذا الطرح نابعا من موقع المواجهة بين الفلسطينيين والاسرائيليين ٠ وانما من العوامل العربية ، التي تحاول ان تشكل حاجزا بين الفلسطينيين والاسرائيليين ٠ وانا أرى ، ان الصراع مع كيان استيطاني لا يمكن ان يتم بشكل صحيح الا عبر الاشتباك المباشر معه ، وعلى جميع المستويات ٠

وعلى الرغم من وجود العوائق ، كما هو حاصل اليوم في جنوب لبنان ، فان هدفنا الثابت يجب ان يكون ، الوصول الى العدو والاشتباك معه ٠

تشكل حالة شعبنا في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ ، حالة خاصة ٠ فهم يعتبرون ، ولو شكليا ، مواطنين في الكيان السياسي لعدوهم القومي ٠ لقد خلق هذا الوضع غير الطبيعي ارتباكا في مواقعهم النضالية ، لكن هذا الارتباك بدأ يزول ، وبدأ نضالهم يأخذ شكله الطبيعي ، بوصفه جزءا من الثورة الفلسطينية ٠ وعندما ندرس مسار تطور نضالهم السياسي ، منذ انشاء الكيان وحتى اليوم ، نرى انه لا يوجد امامهم سوى الالتحاق بالنضال الفلسطيني ٠ ونرى في المقابل ، ان على الثورة الفلسطينية ان تسعى وتعمل لضمهم الى نضالها ٠ من منطلق وحدة مصير الشعب الفلسطيني ووحدة نضاله ٠

هناك عاملان اساسيان ، في واقع عرب ١٩٤٨ ، فهم يشكلون بروليتاريا غير منظمة ٠ لكن مسار برتلتهم مستمر ومما يعطي هذا المسار بعدا خاصا ، هو اعتبارهم اقلية قومية داخل الكيان ٠ بينما هم في الواقع ليسوا اقلية قومية ٠ انهم الاكثرية ٠ فهم ينتمون الى القومية العربية ، لذلك فمعاملتهم كأقلية قومية ، تدفع بهم الى الامتداد بنضالهم قوميا ٠ وهذا واضح من خلال نضالاتهم اليومية والمطلبية ، التي تتحول عند اي صدام مع العدو الى نضالات قومية ٠

محمود سويد : اريد ان ابدي ملاحظة صغيرة تتعلق بسياق هذا النقاش ٠ اذ يبدو لي ، انه يأخذ منحى اقليميا ، رغم مشروعية التركيز على خصوصية النضال الفلسطيني ٠ ففي تقديري ، لا يمكن رؤية النضال الفلسطيني بشكل مستقل عن مجموع نضالات حركة

التحرر العربية • وتستحيل رؤية امكانيات تحرير فلسطين ، بامكانات ذاتية فلسطينية • والعوائق العربية في وجه النضال الفلسطيني ، هي عوائق في وجه كل حركة التحـــرر العربية •

نزيه قوره : اذا انطلقنا من هذا التعريف للصهيونية ، وهي انها تمثل مجموع الجهد الاستعماري ، لتوفير شروط التسلط الاجنبي وديمومة التجزئة ، واعاقة تطور القوى المنتجة في البلاد العربية • فان نقيض هذا الجهد ، لا بد وان يكون ، هو مجموع الجهد العربي لالغاء التسلط الاجنبي وبناء مجتمع عربي موحد ، يوفر الشروط الضرورية لتطور القوى المنتجة •

لقد خلقت الصهيونية نقيضها ، الظاهرة الفلسطينية • وهذه الظاهرة لم يكن من الممكن اذابتها ، نتيجة تناقض المنطق الاستعماري • من جهة اذابة الفلسطينيين ، ومن جهـة ثانية ، الحفاظ على التجزئة • فالتجزئة لا تستطيع اذابة الفلسطينيين ، لانها طفيلية وعقيمة • الذي يستطيع ان يستوعب هو المنتج •

لقد توجه الجهد الاستعماري من خلال الالة الصهيونية ، نحو توفير شروط الانتاجية للتجمع الصهيوني ، مقابل شروط العقم للفلسطينيين • وهذا يتجسد في عبارة اللاجئين • من هو اللاجيء ؟ انه المنقطع عن وسائل الانتاج ، والذي يعيش في حالة طفيلية شبه مطلقة • ولكن خلال السنوات الثلاثين الماضية حصل تطور عكسي • اكتسب الفلسطينيون صفة الانتاج بشكل تدريجي ، مقابل انتفاء تدريجي للصفات الانتاجية فـي التجمـــع الصهيوني • وانا ارى في هذا التطور رمزا للتطور القادم في منطقتنا • فهذا التطور ، الى جانب الاشتباك المستمر مع العدو هو الذي سيحسم الصراع •

هاني العبدالله : مداخلتي هي سؤال ينطلق من فرضية وجود العوائق العربية امام النضال الفلسطيني ، كما اشار الاخ شوفاني • فوجود هذه العوائق ، يقود الى ضرورة تغيير ظروف الواقع العربي ، من اجل الوصول الى الاشتباك المباشر مع العدو • هنا ، يبرز السؤال • ماذا يجب على الثورة الفلسطينية ان تفعل في مواجهة هذا الواقع ؟ وكيف تمرحل نضالها انطلاقا من ضرورة تغييره ؟

عبد الحفيظ محارب : لقد اشار الاخوان الذين سبقوني في الكلام ، الى الاصرار الاسرائيلي على محو الشخصية الفلسطينية ، والتنكر للاسم الفلسطيني • وهذا امر طبيعي، لان التجمع الصهيوني في فلسطين هو نقيض الشعب الفلسطيني • من هنـا اصـرار الاعلام الاسرائيلي ، على اعطاء الانسان الفلسطيني صفة العربي ، في الوقت نفسه ، الذي تحرص فيه وسائل الاعلام هذه ، على اقلمة الشعوب العربية ، خشية الوحدة • هكذا تصبح العروبة بالنسبة لاسرائيل ، صفة للفلسطيني وحده •

وهذا الموقف الاسرائيلي ، هو موقف ثابت ، رغم اننا نستطيع ان نسجل انه اخترق في عهد اليشوف ، حيث اعترف احاد هاعام وباسبتال بوجود الشعب العربي في فلسطين• وحيث تعترف الان بعض الفئات اليسارية المحدودة التأثير بوجود الشعب الفلسطيني • انني ارى في الحلين الاسرائيليين ، حل حزب العمل وحل ليكود ، محاولة لاذابة الشعب الفلسطيني • وهذان الحلان ، لا يقدمان حلا •

المقدم الهيثم الأيوبي

ثلاثون عاماً من الخلل الاستراتيجي العسكري في الصراع

في الخامس عشر من ايار ١٩٧٨ يكون قد مضى ثلاثون عاما على بدء الصراع الرسمي بين الدول العربية والدولة الصهيونية · ولقد تخللت هذا الصراع الطويل هدنات مسلحة ، وحروب قصيرة عنيفة او استنزافية ، وعمليات استخبارية خفية ، وسلسلة من الاشتباكات الحدودية وعمليات الانتقام · ورغم قصر الفترات الزمنية التي تشغلها الصدامات المسلحة بمعناها التقليدي على المنحنى العام للنزاع ، فان الحرب بمعناها الشمولي (الاقتصادي ـ السياسي ـ النفسي) لم تتوقف ، واخذت اشكالا متعددة بدءا من المقاطعة الاقتصادية والحرب النفسية والمجابهات السياسية في الهيئات الدولية ، وانتهاء بالنشاطات الدبلوماسية التي حاول كل طرف توظيفها لصالح توسيع هامش حركته السياسية عن طريق اكتساب المزيد من الاصدقاء وتحييد أكبر عدد من الاعداء ·

ولقد طبع هذا الصراع المنطقة العربية بطابعه ، وأثر على خارطة القوى السياسية والاجتماعية في كل بلد من بلدانها ، وعطل برامج الانماء فيها الى حد بعيد ، وسبب حالة من عدم التوازن بين طموحات الجماهير (العربية او الاسرائيلية) وقدرة الحكومات على تجسيد هذه الطموحات ، وخلق بؤرة توتر محرومة من الاستقرار ، وصالحة بالتالي كمنطقة تتنازع فيها الدول العظمى عن طريق القوى المحلية ، وتنعكس داخلها الآثار المتباينة للحرب الباردة او الوفاق الدولي ·

والمثير للانتباه في هذا الصراع ان القوى المتجابهة فيه متفاوتة (نظريا) بشكل ملحوظ ، على صعيد القوة البشرية والثروة والعمق الاستراتيجي · ومع

هذا ، فان الطرف الاصغر (نظريا) استطاع خلال السنوات الثلاثين الماضية بناء « الدولة ـ الثكنة » ، والدفاع عنها ، وتوسيع المناطق التي تحتلها ماديا ونفسيا · ولا يزال هذا الطرف متمتعا بالقدرة على التهديد باحتلال اراض جديدة ، او شن العمليات الانتقامية وراء جدار الاسلاك الشائكة التي نصبها على طول الخط الذي وصلت اليه قواته ·

ورغم الضربة التي تلقتها العسكرية الاسرائيلية في تشرين ١٩٧٣ ، فأن أمن الدولة الصهيونية لم يتهدد بشكل جدي ، كما ان الجزء الاكبر من الاراضي العربية المحتلة في حرب ١٩٦٧ لا يزال تحت الاحتلال ، الامر الذي يدل على ان هناك تباينا بين التقييمين النظري والعملي للقوى المتجابهة ، وان الطرف الاصغر نظريا لا يحمل الصفة نفسها على الصعيد العملي ، بدليل وجوده على ارض الغير بعد مرور ١١ عاما على حرب ١٩٦٧ ، وعدم توافر الدلائل التي تشير الى امكانية انتزاع هذه الارض منه بالقوة في المستقبل المنظور ، ناهيك عن امكانية تحقيق الهدف العادل المتمثل بتصفية رأس الجسر الامبريالي المحدد بخطوط هدنة رودس ١٩٤٩ ، وبناء الدولة الديمقراطية على ارض فلسطين ·

فما هو الخلل الذي أدى الى التباين بين التقييمين النظري والعملي ، وسمح للطرف الاضعف بان يتحول الى طرف اقوى ، واعطى الدولة الصهيونية بالتالي الامل بلعب دور الدولة الاستعمارية الكبرى في المنطقة ؟ هذا ما سنحاول اظهاره في هذه الدراسة ، من خلال استعراض الخطوط الاستراتيجية العامة للصراع ، مع التركيز على المسائل العسكرية بشكل خاص ·

وقد يتبادر الى الذهن اننا سنلقي ـ كما يفعل الكثيرون ـ تهمة احداث الخلل على عاتق الامبريالية التي خلقت اسرائيل لتحقيق اغراضها ، ودعمتها بكل وسائل الحياة والقوة ، ولكننا لن نفعل ذلك ، ولن نركز كثيرا على الدور المعروف للامبريالية ، رغم اهمية هذا الدور ، بل سننظر الى المسائل من زاوية اخرى ، محاولين البحث عن العوامل الذاتية الكامنة وراء الخلل · ويرجع موقفنا هذا الى سببين :

★ اولهما ان صراعات الشعوب ، ليس ضد جيش محلي تدعمه الامبريالية (كما هي الحالة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي) ، بل ضد جيوش الامبريالية ذاتها ، قد اثبتت بشكل ملموس ان الامبريالية لا تمثل قوة لا تقهر ، اذا ما توافرت الظروف الذاتية الضرورية لمجابهتها · وان من الخطأ اعتبار مجرد وجودها كافيا لتبرير هزيمة خصومها ·

★ والسبب الثاني ، هو ان الامبريالية لا تخترق الصف العربي بقوى مستوردة ، ولكنها تستند الى الوضع العربي الذاتي الذي يقدم لها امكانات

الخرق وادواته · وقدرتها على تحقيق الخلل لصالح اسرائيل ، مرهونة اساسا بثغرات الواقع العربي ، وبالقوى المحلية التي تساعدها في عملية الخرق السياسي ــ النفسي ·

في الحشد والتفوق

يمثل الحشد على المستوى الاستراتيجي المبدأ الاول من مبادىء الحرب · فهو المدخل العملي الى التفوق الذي يعطي القائد العسكري هامشا واسعا للمناورة وحرية العمل · ولا يتعلق الحشد بحجم القوى المتوافرة فقط ، ولكنه يتعلق ايضا ، وبالدرجة الاولى ، بامكانية جمع هذه القوى واستخدامها في الزمان والمكان المناسبين ، مع التركيز بشكل خاص على محور (أو محاور) الجهد الرئيسي ·

واذا كان الحشد بالنسبة الى الدولة المركزية التي تقاتل على خطوط داخلية يتطلب سرعة التعبئة ، والقدرة على تحريك القوات من جبهة الى اخرى بفاعلية وسرعة ، وتحت تغطية جوية كاملة ، لتأمين التفوق على هذه الجبهة او تلك ، فان الحشد بالنسبة الى الدولة او الدول التي تقاتل على الخطوط الخارجية ضد عدو مركزي ، يتطلب التعبئة ونقل القوات الى حدود الدولة المركزية ، وتأمين الضغط المتناسق من جميع الجهات ، بشكل يتعذر معه على العدو المركزي المناورة بقواته وحشدها على جبهة واحدة على حساب الجبهات الاخرى ، حتى لا تتعرض الجبهات الضعيفة لضربة حاسمة ، تتم ضمن اطار الضغط المتناسق الذي يتطلب عاملين اساسيين هما : وحدة « هدف الرهان » بالنسبة الى الحلفاء المقاتلين على الخطوط الخارجية ، ومركزية القيادة الاستراتيجية التي تدير الحرب وتؤمن تنسيق الضغط على مختلف مسارح العمليات ·

وبالانتقال من النظرية العسكرية الى التطبيق العملي ، وتحليل الاحداث العسكرية التي شهدتها السنوات الثلاثون الماضية ، نجد ان الجانب العربي لم يطبق مبادىء الحشد ، ولم يؤمن الحد الادنى من ظروف نجاح القتال على الخطوط الخارجية ، فحرم نفسه بالتالي من امكانية استثمار تفوقه النظري ، واعطى الخصم الفرصة لقلب المعادلة وتحقيق التفوق على ارض المعركة · وسنرى في السطور التالية ان التقصير العربي في هذا المجال لم ينجم عن اسباب خارجية ، وأن غالبية أسبابه الرئيسية نابعة من الداخل ·

ويظهر التقصير الاول في حقل **التعبئة** التي لم تصل الى مستوى الافادة من التفوق الكمي وتحويله الى قوة صدمة ذات تأثير نوعي · ويرجع هذا التقصير في تحويل القوة الكامنة الى قوة فاعلة ، الى عاملين هما : ١ ــ اعتماد بعض

الدول العربية على الجيوش النظامية المحترفة ، وعدم تطبيق التجنيد الاجباري الذي يضمن لها احتياطا بشريا مدربا ينقلب عند التعبئة الى وحدات مقاتلة ،
٢ ـ عدم قدرة الكثير من الدول التي تطبق التجنيد الاجباري على الافادة من الاحتياط المدرب في فترات الصدام الشامل ٠

وتكمن المسألة المالية وراء عدم تطبيق التجنيد الاجباري في الدول العربية ذات الموارد المحدودة ، كما تكمن المسألة نفسها وراء النقص في امكانية الافادة من الاحتياط المدرب في الدول التي تطبق خدمة العلم ، نظرا لما يتطلبه تجنيد الاحتياطيين وتدريبهم من مصروفات كبيرة خلال فترة التدريب ، بالاضافة الى المصروفات اللازمة لاستدعائهم الى الخدمة سنويا ، بغية اعادة التدريب وتنشيط المعلومات والحفاظ على الجاهزية القتالية للافراد ٠ والموازنات الضخمة التي ينبغي تخصيصها لتخزين السلاح والمعدات اللازمة لتجهيز الوحدات الاحتياطية ، وتحويلها من أفراد مدربين الى قطعات محاربة ، مع الحفاظ على الجاهزية التكنولوجية للاسلحة والمعدات خلال فترات السلم المسلح التي تفصل بين المجابهات الساخنة ٠

ولقد بقيت المسألة المالية عاملا مؤثرا ومقبولا خلال عقدين من الزمن ، عندما لم تكن الثروة العربية قد تنامت بعد ٠ لذا دخلت الدول العربية التي حاربت اسرائيل القتال بما لديها من جيوش نظامية ، محدودة اصلا بسبب طاقاتها المالية المحدودة ، وشاركت في القتال أحيانا وحدات من الحرس الوطني او من الاحتياط المستدعى على عجل ، بعد انقطاع سنوات طويلة عن الحياة العسكرية والتعامل مع الاسلحة والمعدات الحديثة ٠ في حين دخل العدو الصهيوني القتال في جميع الحالات بجيش نظامي ، ووحدات احتياطية مزودة باسلحة ومعدات لا تقل عن اسلحة ومعدات الجيش النظامي ، وتضم جنودا وضباطا احتياطيين لم ينقطعوا عن الاتصال مع المؤسسة العسكرية بعد انتهاء الخدمة ، وحصلوا على دورات تدريبية سنوية مستمرة ، وتعاملوا مع الاسلحة الحديثة التي سيقاتلون بها ، وحافظوا بالتالي على جاهزيتهم القتالية ، ولهذا استطاع الطرف الاصغر ان يزج في المعركة عددا اكبر من الوحدات ، في حين بقي الطرف الاكبر عاجزا عن استخدام طاقاته الكامنة ٠

ولقد كان من الطبيعي ان تخف حدة المسألة المالية مع بداية العقد الثالث من الصراع ، وان تختفي نهائيا بعد حرب تشرين وارتفاع اسعار النفط ، نظرا لان الالتزام بمبدأ قومية المعركة ، كان يفرض على الدول العربية التي غدت غنية ، ان تقدم الى الدول العربية المحاربة الدعم المالي اللازم لتحسين اوضاع الاحتياط والتعبئة ، حتى تصبح هذه الدول قادرة على جمع مئات الالاف من الاحتياطيين المدربين ، وتأطيرهم خلال فترة قصيرة من الزمن داخل قطعات عسكرية جيدة التسليح ٠ ولكن الامور لم تسر على هذا السبيل ، وبقي الدعم

المقدم قبل تشرين وبعدها ، رغم اهميته ، اقل من متطلبات بناء القوات النظامية وتحسين الاحتياط والتعبئة · الامر الذي جعل الدول التي تتلقى الدعم تكرس الجزء الاكبر من المساعدات العربية لتطوير جيوشها العاملة ، وبقيت امكانات الافادة من الاحتياط بالتالي محدودة ، وحافظت الكتلة البشرية العربية الكبيرة على سمتها ككتلة عاطلة عن العمل ، او في افضل الحالات ككتلة محدودة النوعية ، ولا يمكن حشدها بالسرعة اللازمة ، رغم اهمية عنصر الزمن في الحروب المحلية المحدودة الحديثة عامة ، وفي الصراع العربي ـ الاسرائيلي بشكل خاص ·

ويظهر التقصير العربي الثاني بجلاء في مجال حشد القوى · والمقصود بالحشد هنا تجمع القوات المسلحة العربية الفاعلة في بؤرة الصدام مع العسكرية الاسرائيلية · ولقد كان انعدام الحشد العربي سمة مميزة من سمات الحروب العربية ـ الاسرائيلية السابقة · الامر الذي يجعل استخدام تعبير « الحرب العربية ـ الاسرائيلية » تجنيا على الحقيقة ، وخطأ علميا يعطي التعبير مدلولا اكبر من حجمه الحقيقي (*) ·

والحقيقة ان كل الصدامات السابقة (الكبيرة والصغيرة) لم تكن عربية ـ اسرائيلية ، بل كانت بين جزء من الامة العربية واسرائيل المدعومة احيانا بقوى دول عظمى · ويمكننا ان نفهم اسباب عدم مشاركة كل العرب في حرب (١٩٤٨) عندما كانت اقطار عربية عديدة لا تزال ترزح تحت نير الاستعمار · وفي حرب (١٩٥٦) قاتلت مصر وحدها لصد العدوان الثلاثي (الفرنسي ـ البريطاني ـ الاسرائيلي) · وتحملت ثلاث دول عربية عبء حرب ١٩٦٧ · وكانت حرب الاستنزاف ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ مصرية سورية فلسطينية ـ الاسرائيلية ·

وحتى في حرب ١٩٧٣ ـ التي كانت اعلى ما توصل اليه التضامن العربي ابان الصراع ـ فان الدور القتالي الاول كان من نصيب الجيشين السوري والمصري · ولقد شاركت في القتال وحدات عربية اخرى · ولكن مشاركة البعض كانت رمزية محدودة ، وجاءت مشاركة البعض الاخر متأخرة ، بحيث قامت بدور تعويض الخسائر بدلا من القيام بدور تقوية الصدمة الاولى · وهناك قوات جاءت للمشاركة فوصلت خلال القتال ، وزجت بالتقسيط وعلى شكل وحدات صغيرة ، بدلا من دخول المعركة كقوة ضاربة ، كما ان هناك قوات

(*) ان استخدامنا لتعبير « الحرب العربية ـ الاسرائيلية » في هذا المقال نوع من الخطأ الشائع ، والتبسيط في التعبير · ونحن نقصد به بالتحديد « الحرب بين جزء من العرب وكل اسرائيل » ·

تحركت للمشاركة ، ولكنها لم تدخل المعركة ، لان القتال توقف قبل وصولها الى خط الصدام مع العدو · والنتيجة النهائية لكل ذلك هو عدم تعديل ميزان القوى لصالح المعسكر العربي ·

ثم كانت حرب الاستنزاف المصرية (١٩٧٤) وحرب الاستنزاف السورية (١٩٧٥) وحرب الجنوب اللبناني (١٩٧٨) كأمثلة على انعدام الوحدة في العمل العسكري العربي ، وما يسببه هذا الوضع من خلل في ميزان القوى لصالح العدو ·

ولو حسبنا ميزان القوى المطلق بين الجيوش العربية والجيش الاسرائيلي منذ مطلع الستينات لوجدنا الكفة العربية راجحة دائما · ولا تزال الكفة العربية راجحة حتى اليوم ، رغم تدني القوة العسكرية المصرية ، الناجم عن توقف السوفيات عن امداد مصر بالسلاح بسبب موقف الرئيس السادات المعادي لموسكو بعد حرب تشرين · ولكن ميزان القوى المطلق لا يمثل شيئا في حسابات الصراع ، إذا لم يكن بالامكان تحوله الى ميزان فعلي على ارض المعركة · فما هي العوامل التي تمنع هذا التحول او تحد منه ، وتجعل الكفة الاسرائيلية هي الراجحة ؟

ان الجواب على هذا السؤال يتعلق بعدة عوامل نفسية ، وسياسية ، وجغرافية ولوجيستيكية متشابكة · وسنحدد فيما يلي اهم هذه العوامل ، مع التركيز أساسا على انعكاسات العوامل وتأثيراتها على الاستراتيجية العسكرية ، وبالتحديد على الحشد العربي ·

١ ـ **عدم تماثل الاحساس بالخطر** : شكلت الحركة الصهيونية منذ بدايتها خطرا على الارض الفلسطينية وجزء من المناطق المجاورة لها ، لان وجودها وتجسيد احلامها كانا يتطلبان بالضرورة اقتلاع سكان هذه المناطق واستيراد يهود العالم للعيش فيها · ثم اتسعت رقعة الارض المعرضة للخطر منذ ان عقدت الصهيونية مع الاستعمار البريطاني (بموافقة الولايات المتحدة) صفقة تعهدت فيها بريطانيا (العظمى آنذاك) بمساعدة الصهيونية على تحقيق اطماعها وبناء الدولة اليهودية ، في حين تعهدت الصهيونية بخدمة المصالح البريطانية الممتدة على جزء كبير من الوطن العربي ، والمتعارضة بالضرورة مع المصالح العربية ·

وعندما ظهرت على الامبراطورية العجوز ملامح الضعف ، تخلت الصهيونية عنها ، وعقدت صفقة مماثلة مع القوة الكبرى التي كانت تتشكل على الجانب الآخر من الاطلسي · ولقد وجدت الامبريالية الجديدة ، التي حلت محل الاستعمار القديم وورثت مرتكزاته ومصالحه ، ان ديناميكية الفكرة الصهيونية ستضمن بناء « الدولة ـ الثكنة » اللازمة لحماية المصالح الموروثة ، ووجدت الصهيونية ان الدعم الاميركي حيوي لبناء « الدولة ـ الثكنة » وصمودها داخل

منطقة ترفض وجودها · ومنذ ان تم الاتفاق على هذين المفهومين ، اصبح لاسرائيل ـ بالاضافة الى مهمتها المتمثلة بتحقيق الحلم الصهيوني ـ مهمة اخرى هي حماية مصالح الولايات المتحدة · ولم تعد اخطارها ومجالات عملها مقتصرة على الاراضي المحددة بالحلم الصهيوني المعروف ، بل اصبحت تمتد لتشمل الوطن العربي ، وخاصة المناطق التي تمتلك (او تريد ان تمتلك) الولايات المتحدة فيها مصالح اقتصادية او مرتكزات سياسية ومواقع استراتيجية ·

ورغم وضوح هذه الحقيقة ، وتكريس دور اسرائيل كرأس جسر امبريالي معاد لمصالح المنطقة وطموحاتها ، فان الاحساس بالخطر الصهيوني غير متماثل في كل ارجاء الوطن العربي · ويتعلق جزء من عدم التماثل بالقرب من منطقة الصدام او البعد عنها · ولكن الواقع الجغرافي لا يشكل المعيار الوحيد لمدى الاحساس بالخطر · فهناك دول عربية بعيدة ارتفع فيها هذا الاحساس الى درجة عالية ، في حين ان دولا عربية اقرب تدنى فيها هذا الاحساس بسبب التطمينات والضمانات الاميركية ، وتأكيدات اسرائيل بأنها لن تلجأ الى محاربتها طالما انها واقفة على الحياد ، علما بأن هذه الضمانات والتأكيدات مؤقتة ومرحلية ، وليست اكثر من رشوة تقدم الى اية دولة ، شريطة التزامها بالخروج من المعسكر العربي المقاتل او عدم دخوله ·

ومن المؤكد ان مستوى الاحساس بالخطر . يتعلق بايديولوجية الطبقة الحاكمة ، ومدى التزام هذه الايديولوجية ، والتوعية الناجمة عنها ، بمبادىء الفكر القومي ومعاداة الاستعمار الجديد · لان الالتزام بالفكر القومي يجعل الخطر الموجه نحو جزء من الامة خطرا على الامة كلها ، كما ان معاداة الاستعمار الجديد تكشف تناقض مصالح المستعمرين مع مصالح الشعوب المنهوبة ، وتحدد مكامن الخطر بالاستعمار الجديد وادواته المحلية ، ومن بينها اسرائيل ·

ونظرا لتباين الايديولوجيات السائدة في الاقطار العربية ، وعدم تماثل الالتزام الفعلي بمبادىء الفكر القومي ، واختلاف وجهات النظر حول الاستعمار الجديد ومنهج التعامل معه (هناك دول متحالفة مع الامبرياليين الجدد تحالفا استراتيجيا) ، فقد ظهر تباين الاحساس بالخطر ، ونجم عن ذلك انفصال بين الامنين القومي والقطري ، تجسد على شكل تباين في الاندفاع نحو المشاركة في مجابهة الخطر الصهيوني ·

وليس من المستغرب بعد هذا كله ان لا يأخذ الصراع ضد اسرائيل طابع الصراع الذي تشنه امة واحدة ضد خطر خارجي داهم ، وان يدور وفق اساليب الصراع الذي تشنه مجموعة دول متحالفة ضد عدو واحد ، وتقدم فيه كل دولة الجهد المتناسب مع مدى احساسها بالخطر الذي يمثله العدو ومستوى اهمية

« هدف الرهان » الخاص في الصراع · ومن هنا جاءت المشاركة المحدودة والرمزية احيانا ، ولم تحصل الدول المعنية مباشرة بالصراع على الدعم الكامل ، ولم يتحقق حشد الطاقات العربية في معركة المصير · وتحولت الحروب العربية ـ الاسرائيلية الى حروب بالوكاله ، يخوضها جزء من الامة العربية نيابة عن الامة كلها ·

٢ ـ **التأثير الجغرافي على الحشد** : تعتبر المساحة الواسعة لدولة ما عاملا ايجابيا يساعد جيشها على تطبيق مناورة الجذب والضرب ، ويسمح له بمتابعة الصراع رغم توغل العدو في العمق ، وانتظار « نقطة ذروة الهجوم » للقيام بالهجوم المعاكس الاستراتيجي · ولكن ايجابية المساحة الواسعة تفقد اهميتها عندما يكون هناك بدلا عن الدولة عدة دول · لان واقع التجزئة يؤدي الى وجود دول محدودة المساحة · ولكل دولة عاصمة غير بعيدة عن الحدود ، يمكن للعدو ان يصلها او ان يهددها قبل بلوغ « نقطة ذروة الهجوم »· وعندها تتوقف الدولة التي تتهدد عاصمتها الحرب ، دون الافادة من العمق الاستراتيجي الذي تشكله المساحة العامة لكل الدول ·

وينطبق هذا المثال النظري على واقع الامة العربية خلال صراعها مع اسرائيل ، اذ يحرمها واقع التجزئة من امكانية استغلال الارض الواسعة للمناورة ، خاصة وان الدول العربية القريبة من اسرائيل ، قد قاتلت طوال السنوات الماضية بالوكالة عن الدول الاخرى (كما ذكرنا) ، ولم تكن الدول الاخرى مؤهلة لمتابعة الصراع عند انتهاء مقاومة الدول القريبة من العدو ·

ولا ينجم عن التجزئة حرمان الارض العربية الواسعة من ايجابيتها الممكنة فحسب ، بل ينجم عنها ايضا سلبية تؤثر على الحشد · ذلك لان تعدد الدول يفرض تعدد الجيوش ، كما يفرض انتشار كل جيش داخل حدود دولته ، الامر الذي يجعل خريطة انتشار القوات العربية محكومة بالانتشار الجغرافي للدول ، بدلا من ان تحكمها متطلبات الامن القومي ·

واذا رسمنا خرائط التجمعات العسكرية العربية الاساسية منذ مطلع الستينات حتى اليوم ، وجدنا ان عددا كبيرا من مواقع التجمعات بعيدة عن بؤرة الصدام مع العدو الصهيوني ، ولا يتناسب مع متطلبات الحشد · ومن المؤكد ان هذه المواقع كانت ستتبدل جذريا ، وتغدو اكثر قربا من الحدود العربية ـ الاسرائيلية ، في ظل دولة الوحدة ، ولكن واقع التجزئة فرض عليها البقاء داخل الحدود القطرية ، مهما كانت هذه الحدود بعيدة عن مكامن الخطر القومي ·

ولقد زاد من حدة هذه السلبية سلبية اخرى تتمثل في المسافات الزمنية التي تفصل مناطق الحشد القطرية عن نقطة الصدام القومي · وتأتي هذه المسافات

من قلة خطوط المواصلات البرية الاستراتيجية ، وانعدام الخطوط الحديدية عبر الاراضي العربية ، وصغر اساطيل النقل العربية الجوية والبحرية . الامر الذي يتنافى مع متطلبات الحشد ، ويجعل القوى العربية البعيدة الراغبة في المشاركة بالقتال ، عاجزة عن الوصول الى مسارح العمليات في الوقت المناسب ، وخارجة مسبقا من ميزان القوى .

ومن الجدير بالذكر ان الالمان قد لاحظوا هذه السلبية منذ اواخر القرن الماضي . وعندما ارادوا تعزيز مواقعهم داخل الامبراطورية العثمانية ، وتعزيز القدرة القتالية لهذه الامبراطورية ، فكروا ببناء خط بغداد الحديدي وخط الحجاز الحديدي ، ونفذوا جزءا من مشروعيهم رغم معارضة بريطانيا لذلك . ثم تعطل الخط الممتد بين دمشق والمدينة المنورة ابان الحرب العالمية الاولى . وغدا جزء من خط بغداد حلب . بعد تقسيم الامبراطورية ، يمر عبر الاراضي التركية .

ورغم مرور اكثر من ستين سنة على ذلك . فان خط الحجاز الحديدي اللازم لحشد القوات السعودية لم يصلح ، ولم يمد خط بديل بين بغداد والاراضي السورية . ولم ترتبط دول شمالي افريقيا بخط حديدي متكامل يصل المغرب بقناة السويس ، ولم ينفذ المشروع القديم لاكمال خط الاسكندرية ـ اسوان حتى الخرطوم ، في الوقت الذي نفذت فيه مشروعات كبيرة لبناء الطرق داخل اطار الحدود القطرية ، وكأنها حدود ابدية .

ولقد اظهرت حرب تشرين مدى اهمية المواصلات . وانعكاس واقع المواصلات العربية على الحشد . نظرا لانها كانت اول حرب عربية ـ اسرائيلية تحاول الدول العربية البعيدة المشاركة فيها بقوات كبيرة نسبيا . فلقد تعذر نقل قوات سودانية الى مصر عن طريق البر بالسرعة المطلوبة . وتأخر وصول القوات الليبية والجزائرية الى مسرح العمليات . ولم تستطع القوات العراقية استخدام خط الموصل ـ حلب الحديدي الذي يمر جزء منه عبر الاراضي التركية ، لان الحكومة التركية رفضت ذلك بحجة الحياد ، وحتى لا تسمح للجسر الجوي الاميركي المتجه الى اسرائيل باستخدام المطارات التركية . ولو كان خط الحجاز الحديدي صالحا للاستخدام ، لزادت سرعة القوة السعودية المتجهة نحو الجولان. ولامكن (من الناحية التقنية) نقل قوات سعودية اكبر . ومع هذا ، ورغم مرور خمسة اعوام على هذه التجربة . فان مشاريع الطرق والخطوط الحديدية الاستراتيجية لا تزال خارج حدود اهتمامات الدول الغنية القادرة على تنفيذها . ولا يزال عدم حل معادلة « الزمن ـ المسافة » . عاملا من العوامل السلبية بالنسبة الى الحشد العربي .

٣ ـ **تأثير السلاح الاميركي على ميزان القوى :** كانت الدول الغربية حتى

منتصف الخمسينات المصدر الاول لاسلحة الدول العربية واسرائيل ، رغم حصول الدولة الصهيونية في تلك الفترة على بعض الاسلحة من الدول الشرقية . واذا عدنا الى تقييم دور اسرائيل في المنطقة ، وعلاقتها الوثيقة مع المعسكر الامبريالي ، فهمنا سبب تفوق اسرائيل العسكري آنذاك ، وتبين لنا مدى سطحية اجهزة الحكم التي كانت تطالب الدول الغربية بتزويد الجيوش العربية بالاسلحة والمعدات ، الامر الذي يعني عمليا مطالبتها بالتخلي عن مصالحها ، والسماح بضرب الدولة التي خلقتها لتأمين هذه المصالح .

ورغم البيان الثلاثي (الاميركي ـ الفرنسي ـ البريطاني) للعام ١٩٥٠ ، الذي ضمن امن الدولة الصهيونية وسلامتها ، فان بعض الدول العربية تابع رفع لواء تحرير فلسطين ، وقام في الوقت نفسه بطلب السلاح من الدول الغربية الثلاث . وكان هذا الموقف متناقضا مع ابسط قواعد المنطق السليم . ولقد حلت سوريا هذا التناقض ، ثم تبعتها مصر في العام ١٩٥٥ عندما كسرتا حصار السلاح الغربي واتجهتا نحو موسكو للحصول على الاسلحة اللازمة لمتطلباتها الامنية .

ولم يكن توجه هاتين الدولتين نحو موسكو ، وتجاوب الاتحاد السوفياتي معهما ناجما عن تحول سورية ومصر الى دولتين شيوعيتين ، ولكنه جاء من منطلق قومي ، ومن فهم دور اسرائيل الحقيقي في المنطقة ، وانفتاح القيادات السوفياتية على الدول غير الشيوعية المعادية للامبريالية بعد وفاة ستالين . ولكن المثال السوري ـ المصري لم يتعمم بسرعة وبقيت غالبية الدول العربية تحصل على سلاح من الغرب .

ولقد صادف التوجه نحو فرنسا وبريطانيا بعض الصعوبات في البداية ، ثم اصبح الحصول على السلاح الفرنسي اكثر سهولة نظرا للتنافس بين الصناعتين الحربيتين الفرنسية والاميركية ، وتبني باريس لسياسة تسليحية مستقلة الى حد ما عن تخطيط واشنطن ، واعتماد الاقتصاد الفرنسي على تصدير السلاح لتعديل ميزان المدفوعات . ومع هذا فقد بقيت الدول العربية التقليدية تسعى للحصول على السلاح الاميركي ، في حين تزايد عدد الدول التي تحصل على سلاحها من السوفيات ، ولم تحصل فرنسا الا على جزء محدود من صفقات الاسلحة العربية .

واذا كان المنطق السليم يبرر الحصول على السلاحين الفرنسي والسوفياتي ، وخاصة بعد حظر السلاح الفرنسي عن اسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ ، فان المنطق يتعارض مع السعي لشراء السلاح الاميركي ، لان الولايات المتحدة التي اكدت ، ولا تزال تؤكد ، التزامها بأمن اسرائيل وسلامتها ، رغم موقف الدولة الصهيونية المتعنت من مسألة الانسحاب من الاراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧ ،

لا يمكنها في اي حال من الاحوال تسليح الدول العربية لمحاربة اسرائيل ، او تزويد هذه الدول بما يمكن ان يؤدي الى اختلال في ميزان القوى · ولهذا كان السلاح الذي قدمته الى الدول العربية التقليدية محدود الكمية ومتدني النوعية ، وربط استخدامه وتصديره الى طرف ثالث بشروط قاسية تجعله عاجزا عن تبديل ميزان القوى الفعلي ، رغم وجوده في لوائح ميزان القوى المطلق · وحتى في الحالات التي تقرر فيها تزويد العرب بسلاح متطور ، فقد حددت واشنطن شروط استخدامه ، ومهل تسليمه ، ومكان تمركزه ، بحيث لا يؤثر على اسرائيل ، ولا يخدم الا مصالح الولايات المتحدة ، وفي مقدمتها محاربة حركات التحرر ومجابهة « الخطر » الشيوعي في آسيا وافريقيا ·

وهكذا تبددت الثروة العربية لشراء اسلحة ومعدات لا يمكن ان تستخدم في النزاع المصيري بين العرب واسرائيل ، وتضخمت الترسانات العربية دون ان تتضخم القوة العربية ، وبقي السلاح الاسرائيلي متفوقا ليس على جميع الاسلحة العربية ، بل على الاسلحة العربية التي يمكن حشدها على حدود الدولة الصهيونية ·

الخلل في معادلة التحالفات الاستراتيجية

كان الصراع العربي ـ الاسرائيلي في العام ١٩٤٨ حربا محدودة ، تدور بين اطراف محلية يستطيع المعسكر الغربي التأثير عليها ، ويستطيع بالتالي تحديد حجم الصراع ومدته ومستوى الاسلحة المستخدمة فيه · لذا دارت حرب ١٩٤٨ وفق سيناريو غريب مرسوم خارج المنطقة ، وكانت نتيجتها مخيبة لآمال الجماهير العربية ، ومكذبة لكل الدعايات الديماغوغية التي بثتها اجهزة الاعلام العربية قبل الحرب وخلالها · ودفعت معظم انظمة حرب ١٩٤٨ والطبقات التي تساندها (بشكل معجل او مؤجل) ثمن النكبة ·

وعندما قامت الانظمة الجديدة بالانفتاح على موسكو بغية الحصول على السلاح ، حصل تبدل نوعي في طبيعة الصراع ، وفقد المعسكر الغربي قدرته في السيطرة على التحولات المحتملة ، كما فقد السيطرة على حجم الصراع المسلح ومستواه · وبقي الغرب ، وفي مقدمته الولايات المتحدة ، مصدر دعم الدولة الصهيونية التي تشكل امتدادا له ومخفرا اماميا لحماية مصالحه ، في حين دعم الاتحاد السوفياتي موقف الدول العربية المعادية للامبريالية · ومنذ هذه اللحظة تدول النزاع في المنطقة ، وتحول الصراع العربي الاسرائيلي الى جزء من الحرب الباردة ، وبدأ استقطاب القوى من قبل الدولتين العظميين ·

ولم يكن موقف الدولتين العظميين مثاليا او مجردا عن المصالح ، ولو انه كان كذلك لما كانتا دولتين عظميين اصلا · ولكن طبيعة المصالح الاميركية كانت

مختلفة عن طبيعة المصالح السوفياتية · ففي حين كانت واشنطن راغبة في استمرار النهب الامبريالي للثروات العربية ، وميالة بالتالي الى ضرب حركة التحرر الوطني العربي المعارضة لهذا النهب ، واجهاض اي توجه وحدوي يمكن ان يؤثر على المصالح الاميركية ، سواء تم الضرب والاجهاض بواسطة القوى المحلية العربية او بواسطة اسرائيل ، فقد كانت مصالح موسكو تتمثل في تدعيم حركة التحرر الوطني العربي ، ومساعدتها على صد الضربات المحلية او الاسرائيلية ، حتى تكون قادرة على تصفية مصالح الاستعماريين واستعادة مصادر الثروة العربية · ولم يكن في نية السوفيات الحلول مكان الامبرياليين للحصول على الثروات العربية المستعادة (تعديل ميزان القوى العالمي عن طريق اكتساب مواقع وثروات اضافية) ، بل كانت غايتهم تجريد الامبرياليين من المواقع والثروات (تعديل ميزان القوى العالمي عن طريق حرمان الخصم من بعض مصادر قوته) ·

ولقد تطابقت مصالح الولايات المتحدة مع مصلحة اسرائيل في ضرب حركة التحرر الوطني العربي والتوجه الوحدوي · لذا كان التحالف بين رأس الامبريالية العالمية وقاعدتها المتقدمة ، تحالفا استراتيجيا وثابتا · وكان من المفروض ان تتطابق مصالح الاتحاد السوفياتي الخاصة بتجريد الامبريالية من بعض مواقعها ومراكز قوتها ، ومع مصالح العرب المقهورين قوميا بواسطة اسرائيل ، والمنهوبين اقتصاديا من قبل الامبريالية · اي بين رأس المعسكر العالمي المعادي للامبريالية ، والشعب العربي الذي يشكل جزءا من العالم الثالث المستغل · ولكن فشل ممثلي حركة التحرر الوطني العربي في الوصول الى السلطة في كافة الاقطار العربية ، ووجود السلطة في بعض الاقطار العربية بيد قوى غير معادية للامبريالية ومتحالفة معها ، جعل الوطن العربي معسكرين : احدهما مستغل ومعاد للامبريالية ، والاخر مستغل ومتحالف مع المستغلين ·

من هنا نبع الخلل في معادلة التحالفات الاستراتيجية · ووقفت اسرائيل المدعومة امبرياليا في مواجهة العرب الذين يتحالف قسم منهم مع السوفيات ويعتبرون الامبريالية عدوا لا بد من محاربته ، في حين يعادي القسم الاخر الحليف الاستراتيجي السوفياتي ، ويتحالف مع الامبريالية الاميركية الحليف الاستراتيجي الثابت لاسرائيل · واذا كان القسم الاسرائيلي من المعادلة سليما ومنسجما مع طبيعة الاشياء ، فان القسم العربي مشوش ولا ينسجم مع طبيعة الاشياء ، ولا يؤمن المصلحة القومية · واذا كانت العلاقات الاسرائيلية الواضحة والمستمرة مع الولايات المتحدة قد امنت لها الدعم الكامل في جميع المجالات ، فان العلاقات العربية المشوشة والمتبدلة مع الاتحاد السوفياتي ، ووجود علاقات عربية ـ سوفياتية عدائية وعلاقات عربية ـ اميركية تحالفية ، قد

اثرت على حجم الدعم الذي يقدمه السوفيات الى المعسكر العربي بشكل عام ، دون ان يعدل ذلك دعم اميركا للعرب الاصدقاء ·

ولم يقتصر تأثير خلل التحالفات الاستراتيجية على الدعم ، وبالتالي على ميزان القوى ، ولكنه اثر ايضا على العلاقات العربية ـ العربية ، والعلاقات بين السلطة في بعض الاقطار وحركة التحرر الوطني ·

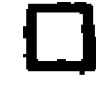
ولقد جاء التأثير على العلاقات العربية ـ العربية من حالة الاستقطاب ، لان الدول التي حافظت على علاقاتها مع الولايات المتحدة (رغم كل ما حصل) بدأت تشعر بخطر الدول التي تحالفت استراتيجيا مع السوفيات ، وتعتبر هذا التحالف « تغلغلا شيوعيا » لا بد من مجابهته ، مع انه لا يعدو ان يكون تحالفا معاديا للامبريالية والصهيونية · وبسبب هذه الخلافات في وجهات النظر ، والشك المتبادل بين الدول الشقيقة ، اضطرت هذه الدول الى اقتطاع جزء من قواتها لحشده على الحدود المشتركة · ووصلت الامور في الكثير من الحالات الى الصدام المسلح · والمهم في الامر ان القوى المحتشدة على الحدود المشتركة ، والخسائر الناجمة عن الصدام ، كانت تقتطع من مجمل القوى العربية ، وتحرم بالتالي من شرف المشاركة في الصراع ضد الصهيونية ·

اما التأثير على العلاقات بين السلطة وحركة التحرر الوطني (في بعض الاقطار) ، فيرجع الى تحالف السلطة في هذه الاقطار مع العدو الاستراتيجي . او قبولها بالرشوة الامنية القطرية مقابل التخلي عن المشاركة في المعركة القومية ، وتعارض هذين الموقفين مع تحليلات حركة التحرر الوطني ، التي ترى ضرورة رفض الرشوة الامنية والتحول الى دولة مواجهة ، كما ترى ضرورة اخذ موقف حازم من العدو الاستراتيجي (اميركا) ، والسير على السبيل المنطقي في التحالفات الاستراتيجية ، وتوظيف هذه التحالفات لخدمة القضية القومية الاولى ·

وبسبب هذا التعارض ، ومحاولات حركة التحرر الوطني للقيام بالتغيير ، وتمترس السلطة وراء مفاهيمها (النابعة من مصالحها ومصالح الفئات التي تمثلها) ، يتم الصدام بين السلطة وحركة التحرر الوطني ، وتستنزف في الصدام عادة قوى الطرفين ، والمستفيد الوحيد هو اسرائيل ، التي تشكل كل قطرة دم تسفك في الصدام ربحا صافيا لها ·

ويبقى الصدام ، حتى في حالة عدم وقوعه ، عاملا مؤثرا على ميزان القوى ، لان السلطة التي تشعر بعداء الجماهير ، وتعي قدرة حركة التحرر الوطني على تحريكها ، تبذل في فترات السلم جهدا خاصا للحفاظ على مواقعها ، وتقتطع القوى والامكانات المخصصة لهذا الجهد من مجمل الامكانات التي كان من الضروري توجيهها لمجابهة العدو · كما انها تحتفظ في زمن الحرب بجزء من

القوى لتأمين الحماية الذاتية ، بدلا من ان ترسل هذا الجزء الى جبهـــات القتـــال ٠



ان كل عمليات الانقاص التي تحدثنا عنها وحددنا اسبابها ، كانت طـوال الاعوام الثلاثين الماضية وراء اختلال ميزان القوى العربي ــ الاسرائيلي ، واستمرار تفوق العدو وغطرسته ٠ وبسبب هذا الاختلال ، استطاعت الدولة الصهيونية التوســع بوثبـات متعاقبة على حساب الارض العربية ، والتهديد باحتلال اراض جديدة ، والقيام بأعمال عدوانية دون التعرض للعقاب ، علما بأن مخططي العسكرية الصهيونية لم يكونوا ليقدموا على هذه الاعمال ، لو انهم كانوا يعرفون بأن الاوضاع الذاتية العربية تسمح للقوات المسلحة العربية بمعاقبتهم ٠

ولقد ادى هذا العجز العربي ، الذي صنعه العرب بأيديهم ، الى دفع الجيوش العربية نحو تبني الاستراتيجية الدفاعية التي لم يتم التخلي عنها الا في الايـــام الاولى من حرب تشرين (من ٦ الى ١٤/١٠/١٩٧٣) ٠ ولقد كانت هـــــذه الاستراتيجية الدفاعية ، وتناقضها مع الاستراتيجية التعرضية التي تبنتهـــا المقاومة الفلسطينية ، السبب الذي دفع بعض العرب عند ظهور المقاومة فـــي مطلع العام ١٩٦٥ الى اتهامها بتوريط الامة العربية ، ثم دفع البعض الاخر الى الصدام مع المقاومة لتجنب ضربات اسرائيل الانتقامية ٠

والاخطر من ذلك ، ان ظهور معادلة العجز العربي ــ التفوق الاسرائيلي ، قد سبب تعب البعض ، وافقدهم الامل بالنصر ، وخلق لديهم احساسا بعدم القدرة على مواجهة الغزوة الصهيونية ٠ فأطلقوا شعار « لقد عجزنا عــن التغلب على اسرائيل حربا ، فاسمحوا لنا ان نجرب الانتصار عليها بســلاح السلام »٠ ومن المؤكد ان الرئيس السادات الذي جسد هذا المنطق خلال زيارته الى القدس المحتلة ، لم يكن اول من فكر على هذا النحو ، ولكن ظروف انتصار تشرين ، اعطت الرئيس المصري الجرأة لان يظهر ما ابطنه غيره ، ويستغل دماء الجنود الذين اندفعوا الى سيناء من اجل التحرير ، لتغطية مبـادرة فاشلة سلفا ، ولا يمكن ان تؤدي الى تحقيق الهدف التحرري القومي ٠ واذا كان للمبادرة من نتيجة ، فهي شرخ الصف العربي ، وزيادة اختلال ميزان القوى لصالح العدو الصهيوني ٠

وكما بدأنا بطرح السؤال الملح : هل اسرائيل اقوى من العرب ؟ نعود الى طرح السؤال نفسه ، لنجيب بأن العرب يملكون القوى والامكانات التي تسمح لهم بأن يكونوا اقوى من اسرائيل ، ولكن سلسلة التقصيرات ــ النابعة اساسا

من القصور الذاتي ـ تفقدهم اجزاء من قوتهم ، وتجعل القوى التي يستطيعون حشدها ، وخاصة بعد مبادرة السادات ، اضعف من القوى التي تستطيع الدولة الصهيونية حشدها · وتحرم القوى العسكرية العربية بالتالي من القدرة على العمل ، وتجردها حتى من امكانية الردع · فالعمل يتطلب التفوق وارادة القتال ، والردع مرهون بمصداقيته ، وقناعات الخصم حول امكانات الانتقال من التهديد الى العمل ·

وما دام الخلل كامنا في التقصيرات ، فان ازالته وتبديل الصورة كلها يتطلب ازالة هذه التقصيرات عن طريق تحسين الوضع الذاتي · وليس المقصود هنا ان الوضع الذاتي هو العامل الوحيد المؤثر ، فهناك عوامل موضوعية لا يمكن تجاهلها ، كديناميكية العقيدة الصهيونية ، وقوة الدعم الامبريالي ، وحدود الدعم السوفياتي في ظل الوفاق الدولي ، ولكن وعينا لتأثير الظروف الموضوعية على الظروف الذاتية ، لا يدفعنا الى نسيان العلاقة المتبادلة بين الذاتي والموضوعي ، او تجاهل القوة الكامنة في الظروف الذاتية ، وامكانات تأثيرها على الظروف الموضوعية ·

ان حرب التحرير تبدأ باصلاح الذات · هذا هو الدرس الذي يمكن استخلاصه من تحليل احداث الصراع العربي ـ الاسرائيلي طوال السنوات الثلاثين الماضية ، وهذا ما اثبته بشكل ملموس انتصار الثورة الفيتنامية وتحرير سايغون ، رغم قوة الامبريالية الاميركية ، وتحديدات العمل في ظل الوفاق الدولي · ولكن اصلاح الذات (تبديل الذاتي للتأثير على الموضوعي) مسالة سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعية متعددة الجوانب ، ولا بد للمفكرين المختصين من الوقوف امامها بامعان ، لان حلها يمثل بداية تعديل الخلل الاستراتيجي العسكري ، الذي قاتلت القوات المسلحة العربية في ظله طوال ثلاثين عاما ·

محمود عزمي

حرب الأيام الثمانية

عقب عملية « كمال عدوان » التي جرت على طريق « حيفا ــ تل ابيب » يوم السبت ١١ــ٣ــ١٩٧٨ ، صرح وزير الدفاع الاسرائيلي « وايزمان » ، اثر عودته من الولايات المتحدة الاميركية على وجه السرعة ، قائلا « ان عملية الامس قد جسدت خطر وجود منطقة عربية معادية قريبة من مراكز السكان في اسرائيل » (١)

وكان « مناحم بيغن » ، رئيس الحكومة ، قد عقد اجتماعا مساء يوم السبت المذكور ، بعد ساعات قليلة من نجاح العملية الفدائية ، حضره عدد من الوزراء تقرر فيه القيام بعملية انتقامية ، واصدر اوامره بذلك الى رئيس الاركان الجنرال « غور » · واثر عودة « وايزمن » عقدت اللجنة الوزارية للشؤون الامنية اجتماعا اخر يوم الاحد ١٢ــ٣ــ٧٨ لبحث تفاصيل الخطة التي وضعها رئيس الاركان (وذلك وفقا لما ذكرته فيما بعد صحيفة هآرتس يوم ٢٩ــ٣ــ٧٨) ، (٢) ثم عقدت الحكومة اجتماعا يوم الاثنين ١٣ــ٣ــ٧٨ بحثت فيه اهداف وحجم العملية الجاري الاعداد لها ضد جنوب لبنان · وبعد ظهر يوم الثلاثاء ١٤ــ٣ عقدت اللجنة الوزارية المشار اليها اجتماعا اخيرا لدراسة تفاصيل الخطة ، وتقرر خلالها اصدار التعليمات النهائية بالتنفيذ بعد بضع ساعات ·

وطوال هذه الايام الثلاثة كانت اجهزة الاعلام الاسرائيلية تعد الرأي العام محليا وعالميا للعملية الانتقامية المزعومة ، التي لم تكن في الواقع سوى غطاء دعائي لهجوم كبير على جنوب لبنان ، له اهداف تتعدى مجرد الرد على عملية

فدائية ، وجرى التخطيط له منذ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٧ على وجه التقريب ٠

وقد تجلت هذه النوايا العدوانية في عمليات القصف المدفعي والجوي الاسرائيلي واسعة النطاق ، التي جرت يومي ٨ و ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ لمدينة وقضاء صور ، ثم في القصف المماثل الذي تكرر في ١٧ـ٢ـ٧٨ في قرى منطقتي « صور » و « بنت جبيل » وفي مدينة « النبطية » ، والذي صحبته دوريات بحرية للزوارق الاسرائيلية في المياه الاقليمية اللبنانية قرب « صور » و « صيدا » ٠ (٣)

الاطار الاستراتيجي العام للعملية الاسرائيلية :

وقد كتب « يعقوب ارز » في صحيفة معاريف يوم ١٥ـ٣ـ٧٨ ، اي عند بدء تنفيذ العملية ، يقول « ان لبنان ، هو الدولة الوحيدة التي يغير منها المخربون لمهاجمة اسرائيل ٠ فسوريا والاردن ومصر ، تكبح عمليات الارهاب ٠ ولكن الحدود مع لبنان مستباحة ، ومعاقل المخربين هناك تمكن من الاعداد الطويل للعملية، وامكانية الانطلاق منها، دون انكشاف امرهم وتعرضهم للاصابة»٠(٤)

ويوضح قول الكاتب الصهيوني المذكور حقيقة الاطار الاستراتيجي العام بالمنطقة العربية الذي جرت ، وتجري فيه ، العمليات العسكرية الاسرائيلية الواسعة النطاق ضد قوى الثورة الفلسطينية ٠ الا وهو الغياب العملي ، شبه الكامل ، لشعار قومية الصراع ضد الكيان الصهيوني وتوسعاته المستمرة ، خاصة في هذه المرحلة التي اعقبت زيارة « السادات » للقدس وما تلاها من مفاوضات مباشرة بين مصر واسرائيل ٠ ومن ثم سيطرة عملية لمفهوم « الامن القطري » الضيق الافق المحدود الفاعلية ، الذي يضحي فيه بالمصالح الاستراتيجية الحقيقية للامة العربية، مقابل مصالح تكتيكية قصيرة الاجل للدولة العربية المطبقة له ٠

ولقد راهنت اسرائيل دائما على هذا التناقض القائم في موقف العرب تجاهها منذ حرب ١٩٤٨ ٠ اي التناقض بين الامن القومي والامن القطري ٠ بين المصلحة القومية العامة ، والمصالح القطرية الخاصة ٠ بين النظر الشاملة بعيدة المدى للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، والنظرة الجزئية قصيرة الاجل لمجراه ونتائجه ، وما تخلقه من اوهام في مجال تجنب مخاطره والعيش في « امان » و « رخاء » في ظله ! ولذلك تمكنت من الانفراد بكل جبهة عربية على حدة خلال حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، ثم خلال حرب الاستنزاف المصرية عامي ٦٩ـ٧٠ ، ثم اثناء المرحلة الاخيرة من حرب ١٩٧٣ ، والمراحل التي تلتها ٠

وانطلاقا من هذا الواقع العملي ، الذي حكم اسلوب التصدي العربي للمشروع الصهيوني في فلسطين والارض العربية الاخرى المحتلة بعد حرب ٦٧ ، مارست اسرائيل مرارا وتكرارا اسلوب الردع غير المباشر ضد الثورة الفلسطينية · اي الردع الموجه ضد الدول العربية المحيطة بالارض المحتلة ، لدفعها الى « كبح » عمليات المقاومة الفلسطينية المنطلقة من اراضيها ، والامتناع عن دعم نشاطات الثورة في الداخل ايضا · خاصة بعد ان ادركت اسرائيل ، من واقع خبراتها السابقة في مجال عمليات الردع المباشرة ضد الثورة الفلسطينية ، ابتداء من معركة « الكرامة » عام ٦٨ حتى قصف المخيمات والقرى في جنوب لبنان عام ٧٧ ، ان « الردع المباشر » ليس له اثر فعال على قيادة الثورة الفلسطينية ، بحكم ضخامة هدفها ، وقصور اي حلول تسوية سلمية معروضة في ساحة الصراع العربي ـ الاسرائيلي عن تلبية اي حد ادنى من اهداف الثورة ، وعدم وجود اي « مصالح قطرية » فلسطينية يستهدفها هذا الردع ·

اهداف الهجوم على الجنوب :

ونتيجة للردع غير المباشر الذي مارسته اسرائيل ، خاصة منذ حرب ٦٧ ، والذي كان من ابرز نتائجه احداث ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ في الاردن ، واتفاقيات الفصل بين القوات عقب حرب ٧٣ ، انحصر الوجود الرئيسي لنشاطات الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان ، واخذت القيادة الاسرائيلية تخطط وتنفذ بنشاط متزايد ، منذ عام ١٩٧٤ وحتى الان ، عن طريق الردع المباشر وغير المباشر ، من اجل ايقاف الجبهة العربية الوحيدة المفتوحة عمليا ضدها ، وهي جبهة الثورة الفلسطينية المتمركزة اساسا في جنوب لبنان · وعندما ايقنت ان كافة عمليات الردع المباشر ، مثل الاغارات وعمليات القصف المدفعي والجوي والبحري للمخيمات والقرى في الجنوب ، وكافة عمليات الردع غير المباشر التي ادت الى الحرب الاهلية في لبنان ، لم تحقق هدفها المذكور ، وضعت خطة هجوم شامل على الجنوب بهدف توجيه ضربة عسكرية ضخمة لقوى الثورة الفلسطينية ، وهو ما اشار اليه الكاتب الاسرائيلي « يعقوب ارز » في مقاله المشار اليه آنفا حيث قال « واثبتت الظروف في الماضي ، ان « المخربين » ينجحون في تطوير اساليب قتال ضد اسرائيل ، اخذا بالاعتبار الاعمال الوقائية التي يقوم بها الجيش الاسرائيلي · فبعد ان ادرك « المخربون » ان وحدات الجيش الاسرائيلي تعزز الكمائن القريبة من محاور الحدود ، انسحبوا الى مواقع ابعد في المؤخرة ، واخذوا يطلقون صواريخ الكاتيوشا من هناك ، باتجاه المستوطنات الاسرائيلية · وبعد أن قام الجيش الاسرائيلي بعمليات رد ، حاول المخربون التسلل الى اراضي اسرائيل ، والعمل هناك · وعندما اقيم الجدار الالكتروني ، واثبت فعاليته اعتمد المخربون وسائل اخرى·

فقد مارسوا مجددا اطلاق القذائف من مواقع خلفية ، والتسلل الى اسرائيل عن طريق البحر · واليوم ، وبعد مذبحة مساء السبت الماضي ، لم يعد هناك شك لدى المسؤولين عن الامن ، في ان الضغط المكثف على المخربين ، وحده يستطيع شل نشاطهم ، واجبارهم على تركيز جهودهم في مجال الدفاع » · (٥)

وتناول رئيس الاركان الاسرائيلي ، الجنرال « مردخاي غور » ، الهدف السياسي لعملية الهجوم الاسرائيلي على جنوب لبنان في حديث اذاعي يوم ٢١-٣-٧٨ فقال ان « القصد من هذه العملية هو تحقيق هدف سياسي واحد ، وهو تغيير الوضع في جنوب لبنان ، تغييره الى ما هو احسن بالطبع ، والتوصل الى انهاء نشاط « المخربين » في لبنان كله ، وعلى الاخص من جنوب لبنان · وباستمرار ، كان تحقيق هذا الهدف عسير المنال ، على امتداد السنين· وفي السابق ، كانت في لبنان حكومات شرعية وقوية ، اما الان فان لبنان في حرب اهلية لم تنته بعد ، وحكومته الشرعية بدون قوة تقريبا ··· وان التوصل الى تسوية سياسية في وضع متخبط كهذا ، تتداخل فيه قوات وعناصر عديدة ، ليس بالامر السهل » · (٦)

وحول الهدف السياسي للعملية ، ومحاولة دفع سوريا الى تسوية تمنع نشاط الثورة الفلسطينية ، كتب المعلق العسكري الاسرائيلي « زئيف شيف » في « هآرتس » يوم ٢١-٣-٧٨ فقال « اذا اخذنا تصريحات مخططي « عملية الليطاني » في الحكومة والاركان العامة على عواهنها ، نجد ان المخططين قد افترضوا ان تدفع هذه العملية السوريين وتقودهم الى تسوية مع اسرائيل في مسألة المخربين في جنوبي لبنان · ولربما بدا ذلك سخيفا ، الا انه ايضاح سمع اكثر من مرة عندما كان الحديث يتناول احد الاهداف الرئيسية للعملية : تغيير الوضع في جنوبي لبنان · فاسرائيل اعتقدت اذن ، انه ليس في وسعها ان تفعل هذا بنفسها وانها بحاجة الى شركاء · ويتضح انه كان من المفروض ان يكون السوريون هم الشركاء وليس الامم المتحدة » · (٧)

وتنفيذا لهذا الهدف حرصت القيادة السياسية والعسكرية الاسرائيلية منذ اليوم الاول للعملية على توضيح محدودية الهدف الجغرافي للهجوم ، وذلك ضمن نطاق ما عرف « بالخط الاحمر » ، وهو نهر « الليطاني » والمناطق الواقعة الى الشمال منه ، وتوضيح الهدف العسكري بانه يستهدف قوات الثورة الفلسطينية فحسب دون غيرها من القوات العربية المتواجدة شمال الخط الاحمر ، فقال « وايزمان » في مؤتمر صحفي عقده يوم ١٥-٣-٧٨ « من جانبنا ، سواء اثناء العملية او في البيانات التي اصدرناها ، حاولنا ، واعتقد اننا نجحنا في افهام السوريين باننا نقوم بعملية محدودة ··· وانا آمل انهم فهموا اننا نقوم بعملية محدودة في تلك المنطقة · وقد قلنا ذلك في بياناتنا بكلمات واضحة

وبسيطة ، باننا سنبقى مقيدين في عملنا في تلك المنطقة · وآمل ان السوريين قد فهموا الامر ، وسيفهمونه » · (٨)

ومن الواضح ان الرهان الاسرائيلي المتعلق بمحاولة ممارسة اسلوب الردع غير المباشر ضد الثورة الفلسطينية ، انما قام على اساس محاولة استغلال الوضع العربي العام الناتج عن « المبادرة السلمية » للرئيس المصري ، والذي اصبحت سوريا بمقتضاه عمليا هي دولة المواجهة العربية الوحيدة ضد اسرائيل، وما يترتب على ذلك من اختلال ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي فعليا خلال هذه المرحلة الحرجة · ومن ثم فان الهجوم الاسرائيلي على جنوب لبنان لم يكن في الواقع يستهدف فقط الردع المباشر وغير المباشر للثورة الفلسطينية ، وانما كان يستهدف ايضا أجهاض الجهود العربية الهادفة الى اعادة خلق توازن استراتيجي جديد ضد اسرائيل في اعقاب خروج مصر من ساحة المواجهة مؤقتا · وذلك اما عن طريق دفع سوريا للقيام بردع الثورة الفلسطينية عن القيام بنشاطات عسكرية من جنوب لبنان ، الامر الذي يؤدي عمليا الى اجهاض الجهود العربية المذكورة · واما عن طريق استدراجها لمعركة مواجهة عسكرية ، ضمن ظروف غير ملائمة عربيا ، وقبل ان تترجم مقررات قمة الصمود والتصدي لتنفيذ عملي فعال ، ومن ثم تنجح عملية جنوب لبنان في ان تكون مقدمة لتوجيه ضربة مضادة مسبقة للجبهة العربية الوحيدة ، التي ما زالت تحمل امكانية الصراع المسلح مع اسرائيل في الظروف العربية الراهنة ، فضلا عن جبهة الثورة الفلسطينية ·

وبالاضافة الى هذين الهدفين الرئيسيين فقد كان للعملية الاسرائيلية في جنوب لبنان عدة اهداف اخرى يمكن لنا ان نوجزها في النقاط التالية :

١ ـ اعادة تأكيد قوة الردع الاسرائيلية وتجسيد مصداقيتها في عمل عسكري كبير في مظهره ، محدود المخاطر محليا ودوليا في الوقت ذاته ، ولا يكلف الجيش الاسرائيلي خسائر مادية وبشرية محسوسة · وذلك بعد ان كانت هذه القوة قد اهتزت بشدة نتيجة حرب ١٩٧٣ · ومن ثم يكون للعملية اثرها غير المباشر على الحسابات الاستراتيجية للدول العربية ، سواء منها الرافضة لمنهج التسوية السلمية المطروحة ، او تلك المتمشية معه بدرجات مختلفة من الوضوح في المواقف · وبذلك يتأكد لها عمليا مدى فاعلية القوة العسكرية الاسرائيلية الجديدة ، التي اعادت الولايات المتحدة الاميركية بناءها وطورتها كما وكيفا بصورة ضخمة عقب حرب « يوم الغفران » · وهو الامر الذي اشار اليه الجنرال « غور » في حديث له مع مراسل مجلة « نيوزويك » حيث قال « ان انجازي الهام الثاني يتمثل في اعادة تسليح القوات الاسرائيلية الى درجة ان معظم العرب يدركون حاليا ان مخاطر البدء بحرب تفوق الامال في نتائج تكون لصالحهم » · (٩)

٢ ـ رفع معنويات الاسرائيليين التي زعزعها « تقصير يوم الغفـــزان » ، واضعاف معنويات الامة العربية في الوقت ذاته ، بهدف ازالة الاثار المعنويــة الايجابية لحرب تشرين الاول (اكتوبر) ، تمهيدا لفرض التسوية السلميــة الاستسلامية عليها .

٣ ـ اقناع القوى الدولية التي تخشى ان يؤدي تصلب « بيغن » وحكومــة « ليكود » المتطرفة يمينا ، الى اجهاض كل أمل في تسوية سلمية لمشكلة « الشرق الاوسط » ، بأن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة ، وانهم يتراجعون سياسيا ازاءها ، متى تيقنوا من جدية الاستخدام الاسرائيلي لها . ومن ثم تزداد قدرة المناورة السياسية الاسرائيلية في مجال شروط التسوية السلمية ، التي تختلف معها فيها بصورة جزئية الولايات المتحدة الاميركية وبعض الدول الغربية . وقد اشار الى ذلك الهدف الدكتور « امنون كوهين » ، رئيس قسم التاريخ الاسلامي في الجامعة العبرية ، في حديث له نشرته « دافار » في ١٧ـ٣ـ٧٨ قال فيه « من ناحية العلاقات بين اسرائيل والولايات المتحدة ، تمنح العملية الاخيرة ورقــة مساومة اضافية . فلقد عانت اسرائيل حتى الان من عدم القدرة على تقديــم تنازلات في الامور التي تختلف عليها مع الولايات المتحدة : سيناء والضفــة الغربية . وهنا نشأ ، في الحقيقة ، موضوع اخر تختلف عليــه واشنطــن والقدس . ولكن بين جميع الموضوعات المختلف عليها ، يسهل التوصل الــى اتفاق في هذا الموضوع ، اكثر منه بالنسبة الى سيناء والضفة الغربية . ومــن هنا فان عملية جنوبي لبنان تمنح اسرائيل مجالا للمنــاورة مـــع الادارة الاميركية » . (١٠)

كما اكدت تصريحات واقوال اسرائيلية عدة اخرى على حقيقة عدم تدخــل الدول العربية عسكريا للتصدي للعملية ، وعدم تأثر المفاوضات مع مصــر نتيجة لها ، في مجال اثبات صحة المقولة المذكورة . فقال « موشيه زاك » فــي صحيفة « معاريف » يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ « ولقد كانت العملية في جنوبي لبنــان بمثابة محك لمدى استعداد الدول العربية للتدخل . وهي لم تتدخــل تدخــلا حقيقيا ، على الرغم من انه لا توجد بعد اتفاقات سلام بيننا وبين لبنان » . (١١)

وفي مؤتمر صحفي تم يوم ١٦ـ٣ـ٧٨ قال « اسحاق رابيــن » ، رئيــس الحكومة السابق « اذا لم تتسع عملية الجيش الاسرائيلي ، خارج نطــاق الجنوب اللبناني ، ولم تجر الى توريط قوى اخرى ، فانه يعتقد ان العملية لن تلحق اذى بليغا باحتمالات مواصلة مسار المفاوضات مع مصر ... انني اعتقد ان مصر لن تغير مواقفها الاساسية ولن تنحــرف عــن مبادرتهــا السلمية » . (١٢)

٤ ـ واستهدفت العملية ايضا تهيئة الظروف السياسية والعسكرية والجغرافية

اللازمة لتوسع اسرائيل شمالا في الاراضي اللبنانية حتى نهر « الليطاني » ، وفقا لاطماعها التوسعية القديمة المعروفة بالنسبة لهذه المنطقة · ولذلك فهي وان كانت تكرر القول بانها لا تستهدف البقاء الدائم في الجنوب ، الا انها تربط انسحابها الكامل بضرورة ضمان عدم عودة المقاومة الفلسطينية مطلقاالى المنطقة · فقد قال « بيغن » في بيان الحكومة يوم ١٦ـ٣ـ٧٨ « اننا ننتظر تسوية ، لا تنطوي على استمرار جنوبي لبنان قاعدة لشن الهجمات على دولتنا » · (١٣)

وقال « وايزمان » في مؤتمر صحفي عقد في اليوم نفسه « ان اسرائيل تقر بضعف الحكومة اللبنانية · ولذا فان جيش الدفاع سيبقى في المنطقة ، الى حين قيام قوة اخرى قادرة على منع النشاط « التخريبي » في جنوب لبنان » · (١٤)

٥ ــ واخيرا كان للعملية هدف ثانوي نسبيا ، على المستوى العسكري ، وهو اختبار قدرات القوة العسكرية الاسرائيلية بعد ان استوعبت الاسلحة والمعدات الاميركية الجديدة ، واستفادت من دروس حرب ٧٣ ، واختبار فاعلية بعض الاسلحة والمعدات الجديدة ، ولكن تبقى فاعلية هذه الاختبارات محدودة نظرا لان طبيعة المواجهة العسكرية مع قوات غير نظامية ، وغير مسلحة باسلحة مماثلة في النوعية الى حد ما من اسلحة القوات الاسرائيلية ، لا تسمح باستخلاص الكثير من الدروس في مجال اختبار القدرات القتالية والاسلحة والمعدات الجديدة ·

عملية « حجر الحكمة » في التطبيق :

اطلقت القيادة العسكرية الاسرائيلية على عمليتها في غزو الجنوب اللبناني الاسم الرمزي « حجر الحكمة » ، وذلك نسبة الى الاصطلاح الفلسفي الذي كان مستخدما في القرون الوسطى باوروبا للدلالة على « جوهر » وهمي مفترض فيه المقدرة على تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب او فضة ، وكذلك المقدرة على شفاء كل الامراض واشاعة البهجة في نفوس الناس · والمغزى الواضح من استخدام القيادة الاسرائيلية لهذا الاسم الرمزي ، هو ان العملية المذكورة استهدفت محاولة تحقيق الشفاء للكيان الصهيوني في الارض المحتلة من «داء» الثورة الفلسطينية ، ثورة الشعب صاحب الحق والارض المغتصبة في فلسطين ، التي تعد بمثابة كابوس يقلق مضاجع المستوطنين الصهيونيين المستعمرين الغرباء عن الارض والوطن ·

وتنفيذا لخطة العملية ، بما يحقق اهدافها المشار اليها ، حشدت القيادة العسكرية الاسرائيلية قوة برية قدرت بنحو ٢٥ ــ ٣٠ الف جندي ، فضلا عن

القوتين الجوية والبحرية المساندة ، وهي قوة ضخمة في الكم والنوعية التقنية بالقياس لحجم وتسليح القوات الفلسطينية المواجهة لها ، والتي لم تكن تزيد ، وفقا لاكثر التقديرات مبالغة ، عن ٦ الاف مقاتل ٠

وضمت القوة البرية المذكورة اللوائين المدرعين ٧ و ١٧ ولواء « جفعاتي » الميكانيكي ، واللواء « جولاني » الميكانيكي ، واللواء المظلي ٣١ الذي استخدم كمشاة ميكانيكية ايضا ، ووحدات من اللواء المظلي ٥٥ محمولة بطائرات هليكوبتر ، ومجموعات من مشاة البحرية والضفادع البشرية ، ووحدات هندسة اقتحام ، فضلا عن عدد لا يقل عن ٧ كتائب مدفعية مختلطة تضم مدافع هاوتزر (ذاتية الحركة ومقطورة) وراجمات صواريخ وهاونات ثقيلة ٠

كما كانت هناك قوة احتياطية اخرى في المؤخرة بالارض المحتلة في الجليل الاعلى ، مؤلفة من نحو ٢ ـ ٣ ألوية مدرعة وميكانيكية اخرى ، لتكون بمثابة احتياطي مباشر لمواجهة احتمال تدخل القوات السورية في جنوب لبنان في القتال ٠ اي ان اجمالي القوة الاسرائيلية المحتشدة للعملية بلغ نحو ٨ الوية مدرعة وميكانيكية ، فضلا عن الوحدات المعاونة الاخرى ٠ ولما كان اللواء الاسرائيلي يتألف من نحو ٣٥٠٠ جندي ، فان تقدير القوة الاسرائيلية بنحو ٢٥ ـ ٣٠ الف جندي يكون تقديرا منطقيا للغاية ، بل ربما كان اقل من الحقيقة بعض الشيء ، لانه لا يترك مكانا تقريبا لعدد الوحدات المعاونة والوحدات الادارية المختلفة ٠

ومن الواضح ان القيادة الاسرائيلية قد اختارت لتنفيذ عملية « حجر الحكمة » العديد من التشكيلات القتالية ذات الكفاءة القتالية العالية . والسجل التاريخي الحافل بالخبرات والمآثر ، من وجهة النظر الاسرائيلية . فاللواء المدرع السابع هو اقدم واشهر الالوية في سلاح المدرعات الاسرائيلية ، فقد تشكلت نواته الاولى اثناء حرب ١٩٤٨ وشارك في بعض معاركها ، ثم قام بدور رئيسي في حرب ١٩٥٦ حيث التف حول « ابو عجيلة » وتقدم نحو قناة السويس على المحور الاوسط ٠ وفي حرب ١٩٦٧ لعب دورا بارزا على جبهة سيناء مرة اخرى، حيث حقق الخرق الرئيسي في « خان يونس » و « رفح » ثم « العريش » ضمن مجموعة الجنرال « تال » ، وكان بقيادة « غونين » وقتئذ ٠ وفي حرب ١٩٧٣ خاض معركة دفاعية قاسية حول « القنيطرة » في « الجولان » ٠ واللواء المدرع ١٧ لعب دورا هاما هو الاخر في حرب ٧٣ على جبهة الجولان ، حيث شارك في الهجوم المضاد ، الذي قامت به مجموعة الجنرال « دان لانر » في القطاع الجنوبي من الهضبة السورية ٠ ولواء « جفعاتي » الميكانيكي ، له شهرته العريقة في الجيش الاسرائيلي ، اذ انه احد ألوية « الهاجاناه » الستة الاولى ، التي شكلت في شباط (فبراير) ١٩٤٨ ، ثم شارك في العديد من معاركها ،

خاصة في الجبهة الجنوبية ، كما ساهم في كافة الحروب التالية • ولـــــواء « جولاني » هو ايضا احد ألوية « الهاجاناه » ، وقد شارك في حرب ١٩٤٨ ، وكان له دور هام على جبهة « الجولان » فيحربي ٦٧ و ٧٣ • وفي الوقت نفسه استخدام لواء المظليين ٣١ كمشاة ميكانيكية يرجع الى رغبة القيادة الاسرائيلية في الافادة من قدرات المظليين القتالية العالية كجنود صدام واقتحام في المساعدة على انجاز مهام الخرق في حالة وجود مقاومة في مواقع دفاعية ثابتة ، وفـــي مهام التطهير ، خاصة في قتال الشوارع والمناطق المبنية ، وذلك كما سبق ان استخدم المظليين في عمليات اقتحام دفاعات « رفح » ، والقتال فـــي شـــوارع « القدس » القديمة خلال حرب ١٩٦٧ •

ولما كان اللواء المدرع الاسرائيلي يضم ما بين ٨٠ و ١٠٠ دبابة ، واللـــواء الميكانيكي يضم ٣٦ ــ ٤٠ دبابة ، فأن القوة الاسرائيلية المهاجمة كان لديها نحو ٣٠٠ دبابة ، فضلا عن نحو ٢٠٠ دبابة اخرى مع القوة الاحتياطية ، بالاضافـة لعدة مئات من ناقلات الجنود المدرعة « م ــ ١١٣ » ، ونحو ٢٠٠ ــ ٢٥٠ مدفـع هاوتزر وهاون ثقيل وراجمة صواريخ •

وساندت هذه القوات البرية قوة جوية ضمت نحو سربي طائرات هجـــوم ارضي من طراز « سكاي هوك » ، وسرب طائرات مقاتلة متعددة المهام من طراز « فانتوم » ، وسرب طائرات مقاتلة معترضة مطاردة من طراز « كفير » (يتألـف السرب الاسرائيلي من ١٦ ــ ٢٠ طائرة ويصل مع احتياطيه الى ٢٤ طائرة) ، اي ما مجموعه ٦٤ ــ ٨٠ طائرة عاملة و ١٦ طائرة احتياطية ، عدا طائـــرات الهليكوبتر التي استخدمت في انزال بعض وحدات لواء المظليين ٥٥ ، وفـــي عمليات مساندة اخرى • كما استخدمت ايضا بعض الطائرات المقاتلة الحديثة من طراز « ف ــ ١٥ » ، التي قال الجنرال « دافيد عفري » ، قائد الســـلاح الجوي الاسرائيلي ، انها استخدمت في تسيير دوريات جوية فوق جنوب لبنان لاغراض توفير الحماية الجوية للقوات البرية ، وانها لم تستخدم في عمليـــات هجومية • (١٥)

وساندت القوة المهاجمة ايضا قوة بحرية ضمت عددا من زوارق الصواريـخ من طراز « ساعر » ، وبعض زوارق الدورية من طراز « دبور » ، وذلك بواسطة قصف بحري بمدافعها ومساندة بعض عمليات الانزال البحري واغارات الضفادع البشرية •

وقد دفعت القيادة الاسرائيلية بقواتها في المرحلة الاولى من العملية ، التـي بدأت في الساعة الواحدة والربع من بعد منتصف ليل ١٤ــ٧٨/٣/١٥ ، علـــى خمس محاور للتقدم • اثنان منها بالقطاع الشرقي ، وهما : محور « القليعة ــ مرجعيون ــ الخيام ــ ابل السقي » في اتجاه « بلاط » ، ومحور « عديســـة ــ

الطيبة » في اتجاه « القنطرة » · واثنان منها بالقطاع الاوسط وهما : محور « رميش – عين ابل – مارون الراس » في اتجاه « بنت جبيل » و « الطيري » ، ومحور « يارين – طير حرفا » · اما المحور الخامس فكان بالقطاع الغربي الساحلي من « الناقورة » في اتجاه « البياضة » · وكان الهدف المحدد لهذه المرحلة هو احتلال قطاع من الارض محاذي للحدود الفلسطينية بعمق يصل حتى ١٠ كلم ، وهو ما سمي بحزام الامن . تحددت فيه قرى ومناطق « الخيام » و « الطيبة » و « بنت جبيل » و « راس البياضة » كنقاط او مواقع رئيسية يجب السيطرة عليها ، وتطهيرها تماما من قوات المقاومة · وبعد قصف مدفعي وجوي وبحري شديد ، بدأت مع الفجر وحدات المدرعات والمشاة زحفها على المحور المذكور . تتقدمها وحدات الهندسة ، التي كانت مكلفة برفع الالغام المزروعة بمهارة في عديد من المواقع ، والتي بدأت عملها تحت ضوء القذائف المضيئة · ولم تكن عملية رفع الالغام تحت نيران المدافعين سهلة التنفيذ ، اذ ان وحدة اسرائيلية واحدة استغرقت مثلا نحو سبع ساعات كي تشق طريقها وسط الارض الملغومة . منذ ان بدأت زحفها من منطقة مستعمرة « المطلة » في الارض المحتلة حتى قرية « الخيام » بالقطاع الشرقي ، والتي لا تبعد عنها سوى نحو ٣ كلم ، كما يقول مراسل مجلة « تايم » الاميركية الذي رافق القوات الاسرائيلية هناك ·

ويقول الجنرال « بنغال » ، قائد المنطقة الشمالية ، ان ثلثي الخسائر البشرية الاسرائيلية كان نتيجة الاصطدام بالالغام · (١٦) ويصف القائد الاسرائيلي المذكور اسلوب القتال المتبع فيقول انه جرى استخدام قوات كبيرة واطلاق كميات كثيفة من النيران للحيلولة دون وقوع اصابات في صفوف القوات الاسرائيلية « وكانت الخطة تقضي بالمضي على مهل برفقة النيران ، الكثير من النيران » · (١٧)

ووصف مراسل صحيفة « معاريف » ، « يعقوب ارز » ، اسلوب قتال القوات الاسرائيلية في مقال له يوم ٢٠–٣–٧٨ بما يلي : « قصف مدفعي وجوي ، ثم اطلاق نيران من الدبابات وناقلات الجنود المدرعة ، ثم دخول القوات الى القرى » · (١٨)

وقالت « يديعوت احرونوت » في ١٦–٣–٧٨ ان القوة المهاجمة بالقطاع الاوسط « واجهت مقاومة شديدة · وكانت المقاومة الاساسية في « مارون الراس » ، حيث لم تستكمل المهمة الا في ساعة متأخرة من بعد ظهر أمس » · (١٩)

كما وصف « يعقوب ارز » ، في مقال له بصحيفة « معاريف » يوم ١٦–٣–٧٨ ، ان القتال في « الطيبة » كان « مريرا مع وحدات من فتح والصاعقة » · (٢٠)

كما قال ، في مقال بالصحيفة ذاتها يوم ١٧_٣_٧٨ ان القتال الذي دار في « بنت جبيل » كان ضاريا « ودار من بيت الى بيت ··· وقد قتل وجرح عدد من جنودنا في عملية احتلال القرية وتطهيرها · وكان قد تم قبل ذلك قصف القرية من الجو ، وبالمدفعية ··· » · (٢١)

وقال « شمعون فايتس » ، في صحيفة « دافار » يوم ٢٠_٣_٧٨ ، انه في « مارون الراس » دارت « معركة ضارية وطويلة ، بين قوات المشاة الاسرائيلية وبين عدد من « المخربين » غير قليل ··· وفي نهاية المعركة ، تم احصاء ٤٧ « مخربا » قتيلا ، بين بيوت القرية ومعاقل المخربين فيها ، وتم اسر عدد منهم [عدد القتلى مبالغ فيه] ··· كما تكبد الجيش الاسرائيلي عددا من القتلى والجرحى في هذه القرية » · (٢٢) .

ثم انتقل لوصف القتال بالقطاع الغربي فقال « وكان هذا القطاع ، القريب من البحر ، اصعب قطاعات القتال · فلقد اثبت « المخربون » فيه عنادا اكبر · ويتضح انه قد تمركز في هذه المنطقة ، عدد من المخربين ، اكبر بكثير من عددهم في القطاع الشرقي » · (٢٣) ونتيجة لشدة المقاومة التي واجهت القوات الاسرائيلية ، فقد استغرقت العملية فترة اربعة ايام لتحقيق اهداف المرحلة الاولى من هجومها ، اربعة ايام قطعت خلالها مسافة يتراوح عمقها ما بين ٧ و ١٠ كلم فقط ! وهو الامر الذي حاول الجنرال « افيغدور بنغال » ، قائد المنطقة الشمالية والذي قاد العملية ، ان يفسره فقال « لقد عملنا بحسب المذهب العسكري الاسرائيلي : تفضيل دفع قوات باعداد كبيرة من اجل انهاء المهمة باقل الخسائر · وكان هذا بمثابة سير بطيء ومأمون » ! (٢٤)

وعلّق الكاتب العسكري الاسرائيلي « زئيف شيف » على هذا التصريح فقال في « هآرتس » يوم ٢١_٣_٧٨ « وقد اثارت هذه الكلمات بالتأكيد ، اسئلة ، خصوصا وانه لم يعرف ان الجيش الاسرائيلي قد غير مذهبه العسكري الذي ارتكز دائما على « السير الحثيث » ! » · (٢٥)

المرحلة الثانية من العملية :

وفي اليوم الخامس للعملية بدأت المرحلة الثانية منها ، التي استهدفت الوصول الى نهر « الليطاني » دون تخطيه ·

ويفسر الكاتب الاسرائيلي « عوزي بنزيمان » عوامل توسيع العملية بعيدا عن ما سمي بالحزام الامني ، في مقال له بصحيفة « هآرتس » يوم ٢٩_٣_٧٨ ، فيقول « جرى توسيع مجال العملية بمبادرة السلك العسكري ، وبموافقة وزير الدفاع ، وباطلاع رئيس الحكومة ، ولم يعرض للموافقة عليه في اللجنة

الوزارية للشؤون الامنية او في جلسة شاملة للحكومة · وكان احد الاعتبارات الاساسية التي ادخلت بالحسبان عشية العملية ، هو الرغبة في اشراك الولايات المتحدة في عملية اقامة واقع جديد في جنوبي لبنان » · (٢٦)

كما فسرت صحيفة « دافار » توسيع العملية جغرافيا ، في مقال نشرته يوم ١٧ــ٣ــ٧٨ ، قال فيه كاتبه « يونا شمشي » « ان القوات الاسرائيلية وسعت، الى حد كبير ، الشريط العازل ، خصوصا في القطاع الاوسط · ووصل عرض الشريط في منطقة « بنت جبيل ــ تبنين » الى ١٦ كلم عن الحدود ··· وقد تم ذلك أمس بعد استسلام « تبنين » وسبع قرى اخرى شرقيها وغربيها » · (٢٧)

ولكن « زئيف شيف » يقدم تفسيرا مخالفا ، واكثر تعبيرا عن حقيقة الدوافع الاسرائيلية ، لتوسيع مدى العملية جغرافيا ، اذ يقول في مقاله المنشور بصحيفة « هآرتس » يوم ٢١ــ٣ــ٧٨ ، والمشار اليه مسبقا ، ان « اوامر العملية لم تتحدث مطلقا عن قطاع امن عمقه عشرة كيلومترات ، انما تحددت فيها مواقع رئيسية على الجيش الاسرائيلي ان يحتلها ··· تبعد ٤ ــ ٨ كيلومترات عن الحدود · وهذا القطاع يذكر بالبند الوارد في اتفاق شتورا الذي حدد ان ينسحب « المخربون » مسافة عشرة كيلومترات عن حدود اسرائيل · ويبدو ان الاميركيين كانوا ، في حينه ، راضين عن الاتفاق ، بيد ان اسرائيل ادعت انها غير راضية · ويحتمل انها أرادت في حديثها عن قطاع كهذا ان ترضي الاميركيين · وما عدا ذلك لم يكن لخط بعمق عشرة كيلومترات اي معنى عسكري ··· فخط ذو معنى عسكري يمكن ان يكون كالخط الذي استولي عليه بحكم الظروف الجغرافية ، كنهر الليطاني · ويقولون لنا الان ان احتمالا كهذا قد رفض في البداية من خلال الرغبة في الوصول الى تسوية مع السوريين · وهناك احتمال اخر لخط يتوقف عنده التقدم ، حيث ينشأ قطاع أمني ، يحدده مدى مدفعية المخربين وصواريخهم · وهذا المدى كما هو مفهوم يزيد عن عشرة كيلومترات ··· وبكلام اخر فأن من حدد مجال العشرة كيلومترات لم يحدد خطا عسكريا · فقد كان في وسعه ان يفترض ان « المخربين » لن يسكتوا عن الضربة التي سيتلقونها ··· اي انه حتى اذا لم يرفع مختار تبنين علما ابيض ، وحتى لو كانت الولايات المتحدة لم تقترح في مجلس الامن ارسال قوات دولية الى جنوبي لبنان ، فانه لا يمكن الافتراض ان التقدم لمسافة عشرة كيلومترات ينهي العملية · ويرجح انه كان فقط سيبدأها · وكان الجيش الاسرائيلي سيرغم على الرد على ما قد ينشأ من تطورات بعد ذلك » · (٢٨)

وقد قدم الجنرال « غور » تفسيرا لاسباب تطوير العمق الجغرافي للعملية عن نطاق « الحزام الامني » ، نقله « يونا شمشي » في « دافار » يوم ٢١ــ٣ــ٧٨، قال فيه « كانت الخطة في مراحل اولى ، احتلال قطاع يصل الى نحو عشرة

كيلومترات في جنوبي لبنان ، وان يتم ذلك بسرعة ٠٠٠ ولو كان الهدف الوصول الى الليطاني منذ البداية ، لكان من المؤكد اختيار طرق اخرى اقصر ٠٠٠ وقد بدأت المرحلة الثانية ٠٠٠ باستسلام القرى في القطاع الاوسط ٠٠٠ وكانت هناك اهمية كبرى لسقوطها في ايدينا ٠ ثم جاء الحديث عن ترتيب وانتشار قوات الامم المتحدة ٠ وكان مهما خلق وضع يسيطر فيه الجيش الاسرائيلي على الحد الاقصى من الارض ، والليطاني هو الحد الطبيعي » ٠ (٢٩)

وفي تقديرنا ان القيادة السياسية والعسكرية الاسرائيلية حين اكدت مرارا ، في بداية تنفيذها للعملية ، انها انما تريد مجرد انشاء « حزام امني » ، لا يزيد عرضه عن ١٠ كلم ، كانت تطبق في الواقع احد الشروط الضرورية لتأمين نجاح المناورة الخارجية ، اللازمة لتغطية تنفيذ المناورة الداخلية العسكرية بالمنطقة ، وذلك ضمن الاستراتيجية العامة المرسومة للعملية ، والموضوعة على اساس ما يسميه الجنرال « اندريه بوفر » بمناورة « الخرشوفة » (الارضي شوكي) ، او ما يمكن ان نسميه باستراتيجية « القضم المتتابع » ٠ وذلك لانه « اذا كانت حرية العمل المتاحة للمناورة الخارجية هي شرط النجاح نفسه ٠ فهناك شرط اخر خارجي لا يمكن الاستغناء عنه ايضا ، وهو ان يبدو الهدف محدودا بصورة كافية حتى يكون مقبولا في الرأي العام الدولي » ٠ (٣٠) كما يقول « بوفر » ، الاستراتيجي الفرنسي المعروف ٠

فبعد ان حصلت اسرائيل على حرية العمل اللازمة لنجاح المناورة الخارجية (اي التأمين المتعلق بالقوى الدولية) ، عن طريق دعم وتأييد الولايات المتحدة ، وتكثيف العمل الاعلامي لاستجداء تأييد ، او تحييد ، الرأي العام الدولي بخصوص ضرورة الرد على عملية « كمال عدوان » الفدائية ٠ وكذلك عن طريق استثمار الموقف العربي العام ، كما اوضحنا في موضع سابق من دراستنا ، كان لا بد لها ايضا أن تعلن محدودية الهدف المحدد للعملية عسكريا وسياسيا وجغرافيا ، حتى تستكمل تأمين نجاح المناورة الخارجية لاستراتيجية « الخرشوفة » ، التي انتهجتها ، وتنتهجها دائما في صراعها مع العرب منذ حرب ٤٨ وحتى الان ، كي تمضي مطمئنة الى تنفيذ المناورة الداخلية ، اي العملية العسكرية المحلية ، باكبر قوة وسرعة ممكنة ، وهذا هو شرط نجاح المناورة المذكورة الرئيسي ٠ ذلك لانه « حتى لو كانت المناورة الخارجية مصممة بصورة حسنة ، الا انها قد تتعرض للفشل ، او للتصعيد الى الحدود القصوى ، اذا لم تنجح في تحقيق « امر واقع » لا جدال فيه بسرعة ، ويمكن لهذا الامر الواقع ان يشكل حجر الاساس لمفاوضات مقبلة » ٠ (٣١) كما يقول « بوفر » ايضا ٠

لقد ارادت اسرائيل بالتاكيد على مسألة « الحزام الامني » في بداية عمليتها العسكرية في جنوبي لبنان ، كسب تأييد الولايات المتحدة الاميركية ، من حيث

اشعارها ان محدودية هدف العملية ، المتفق مع اتفاق « شتورا » ، لا يهدد جديا جهودها « السلمية » بالمنطقة · بالاضافة الى انها كانت تهدف ايضا الى تحييد الموقف العربي بصورة عامة ، فضلا عن تحييد اوروبا الغربية ، وعدم استفزاز الاتحاد السوفييتي ودفعه لعمل مضاد حاسم ·

ولما أثبتت لها خبرة الايام الاربعة الاولى نجاح تنفيذ مناورتها الخارجية الى حد لا بأس به ، قررت القيادة الاسرائيلية المضي في تنفيذ المرحلة الثانية من العملية والتقدم حتى « الليطاني » ، خاصة في ظل استمرار المقاومة الفلسطينية في القتال ، والرد بعمليات قصف المستوطنات في الارض المحتلة بصواريخ « كاتيوشا » ، اي عدم نجاح « الردع المباشر » للثورة · فضلا عن عدم نجاح « الردع غير المباشر » ايضا ، الذي تمثل في تقديم سوريا المساعدات للثورة ، وتسهيل وصول مساعدات الدول العربية الاخرى اليها ايضا · ولذلك سارعت القيادة الاسرائيلية بالاندفاع نحو « الليطاني » ، قبل ان تصل قوات الطوارىء الدولية وتبدأ تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ الصادر يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ ، حتى تساوم في التنفيذ ضمن الارض الواقعة خارج نطاق ما يسمى بالحزام الامني، وتنشأ تلقائيا ، ودون التورط في اتفاق فصل قوات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، منطقة عازلة ترابط فيها القوات الدولية · وهكذا دفعت القيادة العسكرية الاسرائيلية بقواتها في اليوم الخامس من الحرب . وحتى وقف اطلاق النار في ٢١ـ٣ـ٧٨ ، مقربة شديدة من ضفة « الليطاني » الجنوبية ، ومشارف مدينة « صور » ، مع تعميق محور تقدمها نسبيا في القطاع الشرقي . وذلك على محاور التقدم التالية :

١ ــ محور « بنت جبيل ــ الطيري ــ بيت ياحون ــ عيتا الزط » ، ومن ثم نحو « حداثا ــ حاريص » من جهة ، و « صفد البطيخ ــ تبنين » من جهة اخرى · وقد شجعها اخلاء « تبنين » والقرى المحيطة بها على التقدم بسرعة في هذا القطاع ، ولذلك تابعت القوات الاسرائيلية تقدمها من « حاريص » الى « كفرة » و « صديقيه » و « قانا » و « حناوية » ، ثم « عين بعال » ، لتصل بعد ذلك الى الطريق الساحلي من الجهة الجنوبية لمدينة « صور » ·

كما تقدمت تشكيلات اخرى من « تبنين » نحو « كفر دونين » و « الشهابية » و « بير السلاسل » ، « المجادل » ، « جويا » ، « وادي جيلو » ، « البازورية » . ثم في اتجاه مخيم « برج الشمالي » للوصول الى مشارف صور الجنوبية الشرقية ·

٢ ــ محور « الطيبة ــ القنطرة ــ الغندورية ــ حريفا » ، ثم التقدم بعد ذلك الى «دردغيا » و « معروب » « فدير قانون النهر » ثم « العباسية » و « برج رحال » ، نحو الطريق الساحلي شمالي « صور » ·

٤ ـ محور القطاع الشرقي ، حيث تقدمت القوات الاسرائيلية باتجاه « راشيا الفخار » و « شويا » و « عين قنيا » و « كوكبا » ٠

وبذلك اصبح عمق الارض المحتلة في جنوب لبنان يصل الى نحو ٢٠ كلم في بعض المناطق ٠ ووصف « يعقوب ارز » مجرى العملية ، في مقال نشرته « معاريف » في ٢٠ـ٣ـ٧٨ ، فقال « مع فجر اليوم ، بدأت القوات التي تحركت أمس على ثلاثة محاور من الشرق الى الغرب ، وعلى محور واحد من الجنوب الى الشمال ، عمليات تمشيط في القطاعات القريبة منها ٠٠٠ وقد استكمل الجيش الاسرائيلي ، بحركة كماشة ، عملية السيطرة على جنوبي لبنان » ٠ (٣٢)

وقد واجهت القوات الاسرائيلية مقاومة متفاوتة النوعية والقوة في القطاعات المختلفة ، اتخذت طابع قتال الاعاقة ، والاغارة بجماعات صغيرة على الاجنحة والمؤخرات في معظم الحالات ، وطابع قتال الصمود والمواقع الثابتة في مواقع اخرى ، خاصة في القطاع الغربي وعند مشارف « صور » ومخيم الرشيدية ٠ وكتب « شمعون فايتس » في « دافار » يوم ٣٠ـ٣ـ٧٨ ، يصف ذلك فقال « ومما يدل على صعوبات القتال ، ومقاومة « المخربين » في المنطقة المواجهة للجليل الغربي ، ايام القتال الطويلة ٠ ففي حين دارت في قطاع « فتح لاند » ، الخيام وابل السقي ، معارك قصيرة ، اصطدمت قواتنا في منطقة قرى العباسية ـ الغندورية ، ومعاقل « المخربين » في المنطقة المؤدية الى صور ، ومعسكر الرشيدية ، بمقاومة اكثر عنادا ٠٠٠ واحد اسباب استمرارية القتال والتطهير في القطاع الغربي ، كونه اكثر ازدحاما بالقرى ، ومعظمها اسلامية ، تعاونت مع « المخربين » » ٠ (٣٣)

ونتيجة لعنف المقاومة في القطاع المذكور ، وخشية تحمل خسائر بشرية كبيرة ، واستمرار العملية فترة زمنية اكثر مما تسمح به حدود المناورة الداخلية لاستراتيجية « الخرشوفة » ، مما قد يهدد مناورتها الخارجية بالفشل ، قررت القيادة العسكرية الاسرائيلية ، وبموافقة القيادة السياسية طبعا ، عدم دخول مخيم الرشيدية ومدينة صور ٠

وقد اشار الى الجنرال «بنغال» فقال انه «كانت هناك «مناقشة مركزة » بشأن مصير مدينة صور ، وقد تقرر عدم احكام الطوق حولها نهائيا ، وعدم الدخول اليها ٠ ومن اسباب ذلك ان قطع الجسر ، استلزم الانتقال الى شمالي الليطاني ، وهذا امر حظره المسؤولون السياسيون بأي شكل من الاشكال » ٠ (٣٤)

وتناول « زئيف شيف » المسألة ذاتها فقال « كان الجيش الاسرائيلي مستعدا للتخلي عن معارك المواجهة ، والاكثار من الاعتماد على قوة نيران غزيرة ٠٠٠ وهو لا يثمن قتل مائة « مخرب » ، اذا سقط منه عشرة او خمسة قتلى ٠ فكما

حصل بخصوص صور والرشيدية ، فقد تم تفضيل الابقاء على منافذ لانسحاب المواطنين و « المخربين » ٠ وكذلك الامر بالنسبة الى بقية المناطق ٠ والواضح ان المخربين يفسرون ذلك بانه انتصار » ٠ (٣٥)

وهكذا انتهت عملية « حجر الحكمة » بمرحليتها ، وتوقف اطلاق النار بالمعنى العام ، ووصلت قوات الامم المتحدة الى المنطقة ٠

نتائج العملية :

على ضوء كل ما تقدم يمكن لنا ان نوجز نتائج الهجوم الاسرائيلي الكبير على الجنوب في النقاط التالية :

١ ـ لم تحقق العملية هدفها الرئيسي ، وهو تحطيم القوة العسكرية الرئيسية للثورة الفلسطينية ، اذ كانت الخسائر البشرية في المقاتلين ضئيلة بالقياس لحجم القوات والنيران التي استخدمت من قبل القوات الاسرائيلية ، ويرجع ذلك الى تكتيكات حرب الحركة التي اتبعتها قوات المقاومة الفلسطينية ، وتجنبها ان تخوض قتالا نظاميا ضد قوات تفوقها بصورة ساحقة في وسائل الحرب النظامية ٠

وقد اشار الجنرال « بنغال » الى ذلك التكتيك فقال « وقد خاض « المخربون » في نهاية العملية ، معركة تجميع وتأخير على طريقتهم » ٠ (٣٦)

وقد علق « اريبه اراد » ، في صحيفة دافار يوم ٢١ـ٣ـ٧٨ ، على هذه النتيجة فقال « كان يمكن ان يكون الهدف قصم ظهر منظمة التحرير الفلسطينية ، عن طريق تدمير قوتها القتالية ٠٠٠ وكذلك ابعاد قدرة الاصابة البرية المباشرة عن مستوطنات الجليل ٠ واذا كان هذا هو الهدف فعلا ٠٠٠ فيجب ان نسأل ، ليس فقط عما اذا كان قد تحقق ، بل ايضا اذا كان هذا هو الاسلوب الاكثر فعالية ، والاقل كلفة لتحقيقه ٠ ويبدو لي ان الجواب عن السؤالين معا ـ سلبي » ٠ (٣٧) ثم استطرد قائلا « لقد تكبد « المخربون » خسائر حقا ، لكن ليس الى حد قصم الظهر ٠ ذلك انهم ادركوا مسبقا ما سوف يحدث ، وغادرت الغالبية العظمى منهم المنطقة ، قبل ان تطلق عليهم طلقة واحدة ٠ اما اولئك الذين بقوا ، فقد قاتلوا ـ مخاطرين بحياتهم ـ وان لم يكن بشكل جيد دائما ـ ونجحوا في تكبيد الجيش الاسرائيلي خسائر ٠ واثبتوا ايضا انه رغم الهجوم ، فانهم لا يزالون اقوياء ، وبمقدورهم قصف مستوطنات الجليل ، وقد قتل من جراء ذلك اثنان من المدنيين » ٠ (٣٨)

وتناول « اوري دان » الموضوع ذاته ، في معاريف يوم ٢١ـ٣ـ٧٨ ، فقال « لم يرافق تخطيط العملية في لبنان ، تفكير سياسي جدي ٠ بدليل النتائج

العسكرية والسياسية ، لا سيما الفشل في القضاء على القوات الفلسطينية ، وانزال اضرار مادية وبشرية بالغة بالمدنيين اللبنانيين » ٠ (٣٩)

٢ ـ ليس فقط لم تنجح العملية الاسرائيلية في تحطيم القوة العسكرية للثورة الفلسطينية ، وانما ايضا لم تنجح في ردع الثورة ومنعها من الاستمرار في النضال المسلح ، وتلك مسألة بالغة الاهمية في صراع الارادات الاستراتيجي الدائر بين الثورة والعدو الصهيوني ٠

وحول هذه النتيجة تساءل « اهرون غيفع » ، في دافار يوم ٢٠ـ٢ـ٧٨ ، فقال ان العملية جاءت « لتوكد نهاية القتل ، او على الاقل ، كبح المخربين ، وهناك شك كبير جدا ، فيما اذا كنا سنصل الى هذا الهدف ٠ وعلى العكس ، ثمة من يجزم ان البقاء في جنوب لبنان ، لن يقلل ، بل سيزيد ، من عدد الضحايا ، ولن يكبح بل سيدفع نشاط « فتح » ، ويحول منظمة التحرير الفلسطينية ، من منظمة ركنت جانبا ، الى واحدة تحظى بمساندة العالم العربي ٠ ليس بمقدور العملية في لبنان . ان تضع حدا لنشاط المخربين ، فحتى في المستقبل يستطيع المخربون ان يأتوا من البحر ، او يفجروا ثلاجة ملغومة في القدس ٠ وثمة خطر في ان يطلقوا علينا النار من بعيد ٠٠٠ ولدى « المخربين » مدافع وصواريخ كاتيوشا . وسيحصلون على اسلحة اضافية بسهولة » ٠ (٤٠)

٣ ـ وفي الوقت نفسه لم تحقق العملية نجاحا في مجال الردع غير المباشر ، خاصة من حيث دفع سوريا الى تسوية تؤدي الى كبح نشاطات الثورة الفلسطينية ، وبررت اسرائيل ذلك بسرعة صدور قرار مجلس الامن رقم ٤٢٥ ، اذ صرح الجنرال « مردخاي غور » لصحيفة « دافار » ، في ٢٦ـ٣ـ٧٨ ، بقوله « كان العامل السياسي احد العناصر التي حددت الحجم الكبير لعملية الجيش الاسرائيلي في جنوبي لبنان ٠ وقد اعتقدت اسرائيل ان في مقدورها التوصل الى اتفاق مباشر مع حكومتي لبنان وسوريا ، بشأن مستقبل جنوبي لبنان ٠ لكن ذلك لم يتحقق بسبب قرار مجلس الامن المتسرع » ٠ (٤١)

وفي الوقت نفسه فان الافكار السائدة لدى الاسرائيليين ، هي ان قوات الامم المتحدة غير قادرة على منع نشاط الثورة الفلسطينية ضدهم ، وهي افكار يقصد بها الترويج لمسألة ضرورة الاحتفاظ بالحزام الامني بصورة دائمة او لاطول فترة ممكنة ، وتعكس في الوقت نفسه شعورا بعدم جدوى العملية العسكرية في كبح الثورة الفلسطينية ٠ وحول هذا الموضوع قال « موشيه زاك »، في معاريف يوم ١٩ـ٣ـ٧٨ ، ان « وضع قوة دولية في جنوبي لبنان لا يحل مشكلة المخربين ٠ بل على العكس ، من شأنه أن يحد من حرية تحرك اسرائيل ضدهم » ٠ (٤٢)

وكتبت « دافار » في ٢٠_٣_٧٨ تقول « حذار ان نخدع انفسنا : فقرار مجلس الامن ، بادخال قوات دولية الى جنوبي لبنان ، وجلاء الجيش الاسرائيلي عنه ، لن يحل مشكلة الامن لاسرائيل ، التي نشأت نتيجة وجود مخربين فيه . اذ ان قوات الامم المتحدة لن تتمكن من منعهم التمركز فيه من جديد ، بل ، ومن زاوية معينة ، هناك حتى تدهور في الوضع ، لان تلك القوات ستشكل عائقا لجانب واحد . وبالتأكيد لم يكن هذا قصد الحكومة ، التي اعلنت ان قوات الجيش الاسرائيلي ستبقى في المنطقة ، حتى التسوية . وهذه ليست تسوية » . (٤٣)

وفي تقديرنا ان ابرز نتيجة لحرب الايام الثمانية في الجنوب اللبناني ، هي ان الثوار الفلسطينين ، الذين يشكلون طليعة النضال العربي المسلح ضد العدو الصهيوني ، قد ثبتوا في القتال ، بطريقتهم الخاصة المتفقة واستراتيجية حرب العصابات ، في وجه ٣٠ الف جندي اسرائيلي لديهم مئات من الدبابات والمصفحات وعشرات الطائرات والزوارق الحربية ، وفي وجه القصف الجوي المركز ، باسلحتهم البسيطة واعدادهم وقدراتهم المحدودة . وخرجوا من المعركة محتفظين بقوتهم الرئيسية ، وبارادتهم النضالية حرة . وحول هذه النتيجة قال الكاتب الاسرائيلي الدكتور « امنون سيلع » ، في « دافار » يوم ٢٤_٣_٧٨ ، « اذا تأملنا في رد الجيش الاسرائيلي من وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية ، سنضطر الى القول ، ان ردا بمثل هذه القوة ، هو مكسب للمنظمة ــ الاف الجنود من الجيش النظامي ، مسلحين بالدبابات والمجنزرات ، والمدفعية والطائرات ، تقوم بنشاطات واسعة لاقتلاع الفي « مخرب » » ! (٤٤)

ملحق رقم ــ ١ ــ

« مواصفات وقدرات الطائرات الاسرائيلية المستخدمة في القتال »

الطائرة « أ ــ ٤ » سكاي هوك :

وهي الطائرة التي قامت بالدور الرئيسي في عمليات القصف الارضي طوال حرب الايام الثمانية في الجنوب ، وهي قاذفة تكتيكية وطائرة هجوم ارضي ، مزودة بمحرك نفاث قوة دفعه ٥٠٨٠ كلغ ، اقصى سرعة لها على سطح البحر وهي خالية من خزانات الوقود الاضافية ١١٠٢ كلم ، و ١٠٣٠ كلم على ارتفاع ٧٦٢٠ مترا ، ويبلغ مداها القتالي وهي محملة بنحو ١٨٠٠ كلغ من القنابل ، وتطير على ارتفاع عالي ــ منخفض ــ عالي بدون خزانات وقود اضافي ، يصل الى نحو ٥٤٠ كلم ، وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم لكل منهما ١٥٠ طلقة ،

ويمكنها ان تحمل حمولة قصوى من القنابل على خمس نقاط تعليق نحو ٣٧٢٠ كلغ (٨٢٠٠ رطل) ، وقد ظهر بعضها خلال العمليات وهي تحمل ٤ قنابل زنة الف رطل تحت الجناحين و ٦ قنابل زنة ٥٠٠ رطل في باطن الجسم ٠ وللطائرة انبوبة طويلة في مقدمة جسمها تشبه هوائي الارسال اللاسلكي ولكنها في الواقع خاصة بتزودها بالوقود في الجو ٠

الطائرة « ف ـ ٤ » فانتوم :

مقاتلة متعددة المهام ، تستخدم في مهام الاعتراض الجوي او القصف التكتيكي ، مزودة بمحركين نفاثين قوة دفع الواحد منهما ٨١٢٠ كلغ عند استخدام الحراق الخلفي لاحداث تسارع مفاجيء ، اقصى سرعة لها على ارتفاع سطح البحر بدون خزانات اضافية ١٤٦٤ كلم ، و ٢٤١٤ كلم على ارتفاع ١٢١٩٠ مترا ، ومداها القتالي في مهام الاعتراض وهي مسلحة باربع صواريخ « سبارو » و ٤ صواريخ « سايدويندر » وبدون خزانات وقود اضافي ٢٢٥ كلم ، يرتفع الى ٣١٥ كلم مع خزان وقود اضافي ، وفي حالة القصف الارضي بحمولة ٤ قنابل زنة ١٠٠٠ رطل و ٤ صواريخ جو ـ جو « سبارو » و ٣ خزانات وقود اضافي وبطيران عالي ـ منخفض ـ عالي يصبح مداها ١٠٥٠ كلم ٠ ويمكنها ان تحمل حمولة قصوى من القنابل ، بدون خزانات وقود اضافي ، نحو ٧٢٥٠ كلغ ، وتتضمن هذه الحمولة اما ١١ قنبلة زنة الف رطل ، او ١٨ قنبلة زنة ٧٥٠ رطلا ، او ١١ قنبلة نابالم سعة الواحدة ١٥٠ غالونا ، او ١٥ حاضنة صواريخ غير موجهة ، او ٦ صواريخ موجهة جو ـ ارض من طراز مافريك ٠

الطائرة كفير :

طائرة مقاتلة معترضة ومطاردة ، مزودة بمحرك نفاث قوة دفعه مع الحراق الخلفي ٨١٢٠ كلغ ، سرعتها القصوى على ارتفاع سطح البحر وهي مسلحة بصاروخين « شفرير » جو ـ جو وتحمل نصف وقودها الداخلي تبلغ نحو ١٣٧٠ كلم ، ونحو ٢٢٨٥ كلم على ارتفاع ١١ الف متر تقريبا ، ومدى عملها في مهام الاعتراض وهي مزودة بخزاني وقود اضافي ٥٢٠ كلم ، اما في مهام القصف الارضي فيمكن أن يصل مداها على ارتفاع عالي ـ منخفض ـ عالي الى ١٢٠٠ كلم ٠ وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم لكل منهما ١٥٠ طلقة ، ويمكنها ان تحمل حمولة قصوى من القنابل تصل الى نحو ٣٨٥٥ كلغ ٠

« ملحق رقــم ـ ٢ ـ »

« مواصفات وقدرات زوارق « ساعر » »

وهي الزوارق المسلحة الرئيسية التي استخدمت في اعمال القصف البحري ، خاصة على صور ، وتمتلك البحرية الاسرائيلية منها ١٢ زورقا صنعت اصلا في فرنسا ، ويبلغ وزن الزورق منها بحمولة كاملة ٢٥٠ طنا ، وطوله ٤٥ متـــرا ، واقصى عرض له ٧ امتار ، وغاطسه الاقصى ٢ر٥ متر ، وهو مزود باربـــع محركات ديزل قوتها جميعا ١٣٥٠٠ حصان ، واقصى سرعة له ٤٠ عقدة (اي حوالي ٧٤ كلم في الساعة) ، ويستطيع ان يحمل ٣٠ طنا من الوقود ، ويبلـغ مدى عمله ١٠٠٠ ميل بحري بسرعة ٣٠ عقدة و ١٦٠٠ ميل بسرعة ٢٠ عقـدة و ٢٥٠٠ ميل بسرعة ١٥ عقدة ، ويتألف طاقمه من ٣٥ـ٤٠ ضابط وبحـــار ٠ وبعض هذه الزوارق مسلح بمدفع م/ط عيار ٤٠ مم وثمانية قوانف صواريـــخ سطح ـ سطح طراز « غابرئيل » ، وبعضها مسلح بثلاثة مدافع م/ط عيام ٤٠ مم مع قاذفي طوربيدات عيار ٢١ بوصة (٥٣٣ مم) ، وبعضها الاخر (وعدهـــا ٦ زوارق) مسلح بمدفع عيار ٧٦ مم في مقدمة الزورق و ٦ قوانف صواريـخ سطح ـ سطح من طراز « غابرئيل » ٠

والجدير بالذكر ان المدافع عيار ٧٦ مم هي من نوع « اوتوميلارا » الايطالي ، وتستخدم ضد السفن وضد الطائرات، وهي آلية وتدار عن بعد ، وخزان ذخيرتها مزود بـ ١١٥ قذيفة ، ويمكن ضبط نيرانها بحيث تطلق بمعدل يتراوح بين ١٠ و ٨٥ قذيفة في الدقيقة ، ويبلغ اقصى مدى لرميها اكثر من ١٦ كلم ٠

الحواشي :

١ ـ نشرة « ر اا » ، مركز الابحاث ، العدد ١٤٤٠ ، صفحة ١٤٥ ٠

٢ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، العدد ٤ ، العام ١٩٧٨ ، صفحة ١٩٨ ٠

٣ ـ صحيفة السفير عـــدد ١٨ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

٤ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصـــدر السابق ، صفحة ١٨٤ ٠

٥ ـ المصدر السابق ٠

٦ ـ نشرة « راا » ، العدد ١٤٥٥ ، صفحات ٤ و ٥ ٠

٧ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصـــدر السابق ، صفحة ٢٢١ ٠

٨ ـ نشـرة « ر اا » العـــدد ١٤٤٢ ، صفحة ١٨٩ ٠

٩ ـ مجلة نيوزويك ، عدد ١ـ٥ـ٧٨ ، صفحة ٦٤٠

١٠ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصـــدر السابق ، صفحة ٢١٣ ٠

١١ ـ المرجع السابق ، صفحة ٢١٤ ٠

١٢ ـ المرجع السابق ، صفحة٢٠١ ٠

١٣ ـ المرجع السابق ، صفحة ١٨٩ ٠

١٤ ـ نشرة « راا » ، العدد ١٤٤٣ ، صفحة ٢٠٥ ٠

١٥ ـ مجلة « فلايت انترناشيونال » ، عدد ٨ـ٤ـ٧٨ ٠

١٦ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٩٦ ٠

١٧ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٩٦ ٠

١٨ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٨٧ ٠

١٩ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٨٥ ٠

٢٠ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٨٥ ٠

٢١ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٨٥ ٠

٢٢ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ ٠

٢٣ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ ٠

٢٤ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٣ ٠

٢٥ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٣ ٠

٢٦ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٩٩ ٠

٢٧ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٨٦ ٠

٢٨ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٢ ٠

٢٩ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المصدر السابق ، صفحة ١٩١ ٠

٣٠ ـ بوفر ، اندريه ، مدخل الى الاستراتيجية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٨ ، صفحة ١٦٩ ٠

٣١ ـ المرجع السابق ، صفحة ١٦٨ ٠

٣٢ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ١٨٧ ٠

٣٣ ـ نشرة « م٠د٠ف » المرجع السابق ، صفحة ٢٢٠ ، ٢٢١ ٠

٣٤ ـ نشرة « م٠د٠ف » المرجع السابق ، صفحة ١٩٦ ٠

٣٥ ـ نشرة « م٠د٠ف » المرجع السابق ، صفحة ٢٢٣ ٠

٣٦ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ١٩٦ ٠

٣٧ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٧ ٠

٣٨ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٧ ٠

٣٩ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٨ ٠

٤٠ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٧ ٠

٤١ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ١٩١ ، ١٩٢ ٠

٤٢ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٤ ٠

٤٣ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٦ ٠

٤٤ ـ نشرة « م٠د٠ف » ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٩ ٠

يوسف حداد

مخيم ضبيه ١٩٤٩ ـ ١٩٧٧

توزع الفلسطينيون بعد النزوح القسري الى لبنان في اماكن مختلفة ، لكنهم راعوا في اختياراتهم بشكل عام القرى الحدودية في جنوبي لبنان ، ليكونوا على مقربة من قراهم ومدنهم في فلسطين . لاعتقادهم انذاك ان فترة الاقامة في لبنان لن تتجاوز الاسبوعين · فالجيوش العربية ستزحف بعد منتصف ليل ١٤ ـ ١٥ ايار ١٩٤٨ مع انتهاء الانتداب البريطاني ، وتحرير كامل التراب الفلسطيني امر مفروغ منه على يد الجيوش الزاحفة من العواصم العربية المحيطة بفلسطين ·

ان الاكثرية الساحقة من سكان شمالي فلسطين لم يتركوا قراهم ومدنهم عجزا عن صد هجمات اليهود او تخوفا منهم ، ولم ينشدوا النزوح طمعا في السلامة ، ورغبة في تجنب المخاطر والعواقب انما جاء ذلك نتيجة لقرارات مؤتمرات الجامعة العربية في انشاص وبلودان · لقد اوهمت هذه القررات الفلسطينيين بان الجيوش العربية ستدخل الارض الفلسطينية بغية التحرير الكامل من الاغتصاب الصهيوني ، وانها تمتلك من القوة عددا وعدة ما هو كفيل بانجاز التحرير خلال ايام ، وانه لا لزوم للقوى الفلسطينية المقاتلة على مختلف الساحات ولا دور لها في الخطة النظامية التي وضعتها قيادات الجيوش العربية التي تمتلك من الاعتدة والرجال ما يؤهلها لان تلعب الدور بكامله وحدها · غير أن الفلسطينيين بشكل عام لم يطمئنوا كل الاطمئنان الى العهود والوعود التي قطعتها الانظمة العربية فلم يقفزوا جميعا الى لبنان بطرفة عين ، نزح البعض وجلهم من النساء والشيوخ والاطفال وبقي البعض يقاتل ويراقب منتظرا بفارغ الصبر الزحف المظفر المرتقب · وقبيل انتهاء الانتداب بايام وصلت طلائع جيوش الانظمة منها النظامي

★ تركز الاعتماد في هذه الدراسة على المعايشة السكانية للاحداث · اما الاحصائيات فلقد استقيت من مسؤولي الاونروا ، والمدارس ، والاحزاب والتنظيمات ·

ومنها غير النظامي ، وكانت وحدات اردنية من البدو على رأسها الضابط ساري بك قد انتشرت في شمالي الجليل واقرب الظن كان ذلك برضى السلطات البريطانية المتبقيـة ، وتبعتها قوات جيش الانقاذ غير النظامي فاطمأنت النفوس نسبيا واخذ بعض المترددين يزحفون الى خارج الحدود . وبدا الشعور العام في ارتياح تام الى الدور الحاسم المرتقب الذي ستلعبه هذه الجيوش بديلا عن القوى الفلسطينية المقاتلة والمعتمدة اصلا على النفس، وهكذا بدأ التحول من الاعتماد على الذات الى الاعتماد على الغير . ففقدت الساحـة الفلسطينية قوى مقاتلة استطاعت لفترة غير قصيرة ان تصمد وحدها في مختلف المناطق تقارع العصابات الصهيونية والقوات البريطانية غير وجلة او خائفة قبل الاطمئنان الـى زحف الجيوش العربية والاعتماد الكلي على دورها الحاسم والتخلي عن الدور القتالـي البطولي والتحول عنه الى الاستكانة والنزوح بانتظار التحرير والعودة السريعة . لكـن الامل المفعم بالنصر بدأ يخبو تدريجيا قبل وقوع الكارثة الكبرى ، لقد بدأت تتكشف مهزلة جيوش التحرير التي علقت عليها الامال حين اخذت تقارع القوى الفلسطينية المتبقية بدل ان تقارع اليهود ، انها تريد انتزاع المواقع الاستراتيجية بحجة التمركز والتحصن وسرعان ما بدا زيف ادعائها حين اخذت تتخلى عن هذه المواقع بلا قتال للصهاينة . وزادت خيبة الامل بعيد انتهاء الانتداب ودخول الجيوش وتسليم مناطق الجليل المتبقية تباعا بشكـل درامي مأساوي . اذ ذاك بدا للنازحين الفلسطينيين وقد تضاعف عددهم لسقوط قراهم ومدنهم ان الامال بالعودة السريعة قد تبددت وانه اصبح لزاما عليهم الاستقرار المؤقـت على الاقل ، وتدبير امر السكن والمعيشة ، عل الغد يأتي بمعجزات تحملهم الى ديارهـم وتبعدهم عن الشقاء المحيق بهم .

مضت بضعة اشهر على المشردين وهم منتشرون في القرى الحدودية ، لكن السلطـات اللبنانية قامت بابعادهم قسرا عن اماكن تواجدهم الى المناطق الداخلية ، في حين نقلـت اعدادا كبيرة من سكان الحليلين الاعلى والادنى الى القطر السوري بالسكة الحديديـة ، حيث جرى توزيعهم هناك في اماكن متعددة . اما في لبنان فقد اخذت السلطات بالتعاون مع الصليب الاحمر الدولي تعمل على انشاء المخيمات على اراض اميرية كما تم نقـل الكثيرين الى اماكن كان يشغلها قبلا مهجرو الارمن فـي محلتي الرشيدية والبعض في منطقة صور وتم نقل قسم اخر الى ثكنات عسكرية شاغرة تعود الى زمن الفرنسيين فـي منطقة البقاع .

من الملاحظ ان هذا التوزع تم بعضه طوعيا وبعضه جرى قسريا . ولقد تمركز ابنـاء القرية الواحدة والحي الواحد في الغالب في مكان واحد خاصة الاقارب ، هذا بالنسبـة للريفيين ذوي الدخل المحدود اما الميسورين الاغنياء منهم والتجار ، الحرفيون والمثقفون فقد انتشروا في المدن خاصة بيروت وقد حملوا معهم رساميلهم ، وخبرتهم ، فاسسـوا المتاجر والمصارف والشركات ، واصابوا قدرا كبيرا من النجاح ولعبوا دورا فعالا فـي النشاط الاقتصادي اللبناني ، وكانوا سببا في ازدهاره ونموه ، واصبح لبعض المؤسسات دور هام فيما بعد . كان ابرزها بنك انترا ، وشركة اتحاد المقاولين ، وشركة التأميـن العربية ، وكما ساهم هؤلاء في حقولهم الاقتصادية بانعاش الاقتصاد اللبناني ساهـم المثقفون والحرفيون بدور فعال ايضا من خلال عملهم في لبنان او في دول النفط ، اضافة الى مساهمة اهل المخيمات في انعاش الزراعة في المناطق القريبة من المخيمات وذلـك بخبراتهم الزراعية وعملهم باجور متدنية .

ثكنة « هاني شقير » تصبح مخيم ضبيه

تتفرع من طريق بيروت طرابلس قبيل نهر الكلب بحوالي نصف كيلو متر تقريبا طريق جانبية تتجه شرقا حوالي مائتي متر حيث كانت هناك ثكنة عسكرية صغيرة كانت تستغلها قوات فرنسية ابان الحرب العالمية الثانية على ارض يمتلكها دير مار يوسف البرج التابع للرهبانيات المارونية . تحيط بها اراض زراعية ضيقة . كانت الثكنة مكونة من عـدة وحدات خشبية ، سقفها من الزنك . لقد اسكن فيها قبل ان تصبح مخيما بين عامي ٤٨ ـ ١٩٤٩ مهجرون لبنانيون من قرى لبنانية حدودية منها عديسة ، هونين ، بليدا ، بسبب احتلال اسرائيل لقراهم انذاك . وما لبث هؤلاء ان عادوا خلال عام ١٩٤٩ بعد تسوية امورهم وعودتهم الى قراهم ، واصبحت بذلك الثكنة خاوية .

التأسيس والاهداف

لم يكن تخطيط مسبق عند قيام اكثر المخيمات عام ١٩٤٨ بالنسبة للطائفة او المنطقة ، لقد كان عامل التجمع بين الاقارب واهل القرية الواحدة وسكان الحي الواحد هو العامل الاقوى في التمركز بالمخيمات والدليل على ذلك ان مخيمي الرشيدية والبص ضما تجمعات من قرى فلسطينية معينة ومن عدة طوائف .

ولقد صادف اثناء الترحيل القسري عن الحدود اللبنانية الجنوبية الى القطر السوري نقل عدد من العائلات الفلسطينية المسيحية منها ما هو من حيفا ، ويافا ، وصفد ، وقرية البصه ، الى أماكن متعددة في انحاء سورية . وكان ان استقرت بعض العائلات المسيحية في مخيم النيرب القريب من حلب لفترة ، وما لبث ان جرى نقل بعضها الى بلـدة جرابلس في شمالي سوريا حيث اعتبرت هذه الجماعة ضيفة على البلدة وقدمت لهـا المساكن مجانا كذلك المساعدات العينية على مدى عام تقريبا . لكن هؤلاء شعروا انهم مشتتون بعيدون عن اكثرية انسبائهم واهل قراهم ومدنهم المتواجدين في لبنان فآثـروا الانتقال الى مقربة من ذويهم ، ونشطوا في الاتصالات والمراجعات . ووجدوا اذنا صاغية لدى المراجع الدينية ، التي اجرت بدورها اتصالات بالصليب الاحمر اللبناني وبالسلطات اللبنانية ، وتم الاتفاق على نقل العائلات التي استقرت في جرابلس وبعض العائـلات المسيحية التي بقيت في النيرب الى ثكنة هاني شقير في ضبيه . ولم يكن العدد الاجمالي لهذه العائلات التي استقرت في المخيم الجديد بعد وصولها من سوريا اكثر من خمس عشرة عائلة مسيحية صرفة معظمها من قرية البصه . وبينها عائلتان لبنانيتان من اللبنانيين الذين عاشوا في فلسطين وحصلوا على بطاقات تموينية من وكالة الاغاثة الدوليـة « الاونروا » .

لقد اصابت هذه العائلات نجاحا نسبيا في المجال المعيشي وذلك لقربها من بيـروت حيث فرص العمل متوفرة بانتظام وللطلب المتزايد على اليد العاملة الفلسطينية نظـرا لقلة الاجرة المعطاة للفلسطيني قياسا باللبناني . ولقد اغرت فرص العمل هذه الكثيرين من اقرباء وانسباء وابناء بلدان هذه العائلات المتواجدين في مختلف المناطق اللبنانيـة ببذل جهود متواصلة للانتقال الى هذا المخيم الحديث طمعا بالعمل المتوفر . وتخلصا من دفع البعض ايجارات لا طاقة لهم على تحملها ، ورغبة في تعليم ابنائهم بعد انشـاء مدرسة مجانية في المخيم تابعة للبعثة البابوية . وتقديم البعثة هذه بعض المؤونات العينية شهريا مع البسة . لقد لاقت رغبات الناس هذه تجاوبا مع المراجع الدينية التي سهلت

امر الانتقال وشجعته بالتنسيق مع وكالة الاغاثة الدولية والسلطات اللبنانية ، واصبح المجال مفتوحا لكل لاجيء مسيحي في الانتقال الى المخيم الجديد اذا اراد ذلك ، ولقد تم في مطلع الخمسينات انتقال عدد من العائلات المسيحية الفلسطينية بشكل افرادي وجماعي من عدة مناطق الى المخيم المذكور ، وخاصة من قرى الميه وميه والهلاليه ، والبروميه في قضاء صيدا ، ومن الدامور ، والشويفات ، وبيروت ، ومن مخيمات الرشيدية والبص وعين الحلوة ، وبذلك بدأ عدد سكان المخيم يزداد تدريجيا ، ولم تعد الوحدات العسكرية الخشبية كافية لايواء الجدد ، فاخذت وكالة الاغاثة الدولية « الاونروا » تقدم الخيام لكل عائلة جديدة تصل الى المخيم ·

انه لمن المؤكد ان الحوافز الدافعة الى التحرك المستمر الى المخيم المذكور انما كانت التعليم المجاني ايضا والحصول على اعانات عينية شهرية من البعثة البابوية ، اما الاجتماعية فهي قائمة على الرغبة في اقامة الاقارب وابناء القرية الواحدة والحي الواحد معا · لكن الجانب الاخر الذي وفر المكان وسهل النقل واجرى الاتصالات مع وكالة الاغاثة والسلطات الرسمية عنيت المراجع الدينية كان له اهداف متباينة لا يمكن القول انها رسولية انسانية . انها طائفية تمشيا مع الوضع الطائفي في لبنان ، وهي تحمل في ثناياها اهدافا سياسية · لعل اهمها سلخ الفلسطينيين المسيحيين عن بقيةالفلسطينيين واستقرارهم في مناطق منعزلة لاحتوائهم طائفيا وتذويب شعورهم القومي ، ودمجهم بالبيئة الجديدة وتسهيل اعطائهم الجنسية اللبنانية وبذلك تنقطع تدريجيا جذورهم الفلسطينية ، ويصبحون مشدودين الى التيار الطائفي يدينون له بالولاء ، لا قضية قومية عندهم ولا نزعة وطنية لديهم · وليس صدفة نشوء ثلاثة مخيمات فلسطينية مسيحية المعتقد في لبنان هي ضبية . جسر الباشا . مار الياس اذ لا يمكن حدوث ذلك عفويا دون دوافع معينة وتخطيط مدروس ·

انه لمن المفيد ان نعتمد تقسيم حياة المخيم زمنيا الى مرحلتين وذلك بسبب بقاء المخيم قرابة ستة اعوام في تكنة هاني شقير وحولها وهذه سنعتبرها المرحلة الاولى ، تم نقله الى منطقة قريبة اعدتها الاونروا بالاتفاق مع مالك الارض دير مار يوسف البرج التابع للرهبانات المارونية وهذه سنعتبرها المرحلة الثانية · اما الهدف من النقل فيعود الى امرين : اولهما ضيق الرقعة وعدم اتساعها لمزيد من المتنقلين الجدد وثانيهما : رغبة الدير في بيع الارض بعد ان ارتفع سعرها وكثر اقبال المشترين عليها لقربها من طريق بيروت ـ طرابلس بعكس الارض التي تم بناء المخيم الجديد عليها عام ١٩٥٦ فهي جبلية وعرة وبعيدة نسبيا عن الطريق العام ، وسعرها متدن . زيادة على ذلك الافادة من استصلاح منطقة جبلية على حساب الانروا واستنجارها من الدير وايصال المياه لها وله على نفقة وكالة الاغاثة . واخيرا يصبح تمركز الفلسطينيين منفصلا كليا عن تواجد اللبنانيين الذين كانت بيوتهم شبه متلاصقة مع المخيم الاول ·

المرحلة الاولى ١٩٤٩ ـ ١٩٥٦

استمر التدفق على المخيم بين عامي ٤٩ ـ ٥٦ للعوامل الاقتصادية والاجتماعية المشار اليها سابقا · ولم تعد المساحة المخصصة اصلا للمخيم كافية لاستيعاب قادمين جدد ، الامر الذي جعل عدة عائلات تستأجر بيوتا قريبة من المخيم ، هكذا بقي المخيم خلال ست سنوات في تزايد سكاني مستمر نظرا لكثرة الوافدين اليه ، ولارتفاع نسبة المواليد

فيه ، في حين ان النزوح عنه كان شبه معدوم . فالمداخيل محدودة لا تسمح بالاستئجار في بيروت وجوارها اضافة الى اعباء التعليم . والسفر الى مناطق النفط كان محدودا والهجرة الى الخارج لم يكن لها وجود ·

لقد تعدت نسبة الزيادة السكانية الناتجة عن ارتفاع عدد المواليد الى عدد الوفيات ٤٪ فسكان المخيم معظمهم اهل ريف في الاصل . ومستوى المعيشة منخفض عندهم ، والتصور للغالبية ان كثرة الانجاب بحد ذاتها عامل اقتصادي ناجح لتزايد الايدي العاملة · ويمكن القول ان عدد سكان المخيم قد ارتفع في اواخر هذه المرحلة الى اكثر من الف ومائتي نسمة . كان من ضمنها سبع عائلات لبنانية الاصل تحمل بطاقات تموينية من وكالة الاغاثة · اما بلدان سكانه الاصلية فاغلبيتهم الساحقة من قرية البصة قضاء عكا والباقون من حيفا . ويافا . والناصرة · ويجدر بنا للتعرف على احوال المخيم في هذه المرحلة ان نتناول الجوانب المختلفة لاوضاعه الاجتماعية . والاقتصادية والسياسية ، مبتدئين بالنواحي الاجتماعية ·

١ ـ الاوضاع الصحية ·

أ ـ التطبيب : اشرف الصليب الاحمر الدولي خلال السنة الاولى من تاسيس المخيم على الرعاية الصحية ، فكان يزور المخيم بين الحين والاخر طبيب يقوم بمعاينة المرضى وتقديم ما هو متوفر لديه من دواء · ثم انيط الامر بوكالة الاغاثة الدولية حيث اصبح في المخيم عيادة وممرضة وقابلة مع طبيب يزور المخيمات للمعاينات الطبية مرتين الى ثلاث مرات اسبوعيا · اما المرضى الذين بحاجة الى مستشفيات فكانوا ينقلون الى بعض المستشفيات اللبنانية الخاصة التي تعاقدت وكالة الاغاثة الدولية معها ومنها مستشفى الشرق ، مستشفى مار الياس · ولم تكن معاملات الدخول سهلة الى المستشفيات بل كانت تحتاج الى مراجعات متعددة لان المبدأ العام الذي درجت عليه وكالة الاغاثة ادخال الحد الادنى وعند الضرورات القصوى . مع العلم ان المستشفيات التي تعاقدت معها وكالة الاغاثة هي من المستشفيات القليلة التجهيزات المنخفضة الرسوم ، وكان المرضى يرسلون الى الدرجة الرابعة مهما كانت حالتهم المرضية ، فالوكالة ليست مستعدة ان تدفع الا الكلفة الاقل . وفيما يتعلق بالمعاينات التي كانت تتم في المخيم فلا اهتمام في فحص المرضى يذكر ، ولا ادوية كافية ومقبولة تعطى . الطبيب يعاين في اقل من اربع ساعات قرابة اربعين مريضا ويقدم من الادوية ما هو متوفر لا ما هو ضروري للمريض · اما بالنسبة للحوامل فلم تكن ادنى عناية ، فالوضع اكثر ما يكون في البيت على يد القابلة وفي المستشفيات في الحالات الصعبة جدا عند تعسر الوضع ، اضافة لذلك كانت وكالة الاغاثة تشرف على عمليات التلقيح ضد الاوبئة السارية بين الحين والاخر وعند الضرورة ·

ب ـ النظافة العامة : اشرفت وكالة الاغاثة على امور النظافة ، وذلك من خلال مراقب صحي واربعة عمال تابعين لارشاداته ، يقومون يوميا بجمع النفايات ، وتنظيف الحمامات العامة ، ورشها بمادة د·د·ت . والاهتمام باقنية المياه في فصل الشتاء اضافة للسهر على نظافة الشوارع والساحات العامة ·

ج ـ البنية الصحية للسكان : اتصفت الاوضاع الصحية للسكان خلال هذه المرحلة بانها كانت مرضية ، وبالرغم من تدني مستوى الدخل والتغذية وعدم توفر المسكن الجيد

والرعاية الصحية فقد كانت النسبة العامة من غالبية السكان تتمتع بصحة حسنة ، وكان الشباب يشكلون النسبة الكبرى في الهرم السكاني عددا ، ومما جعل هذه الاوضاع مقبولة طبيعة الموقع ، والوعي الصحي ، واليسر المادي النسبي الذي كان يتيح المجال لتغذية معقولة وتطبيب خارج نطاق الاونروا ·

٢ ـ **العمل : طبيعته وظروفه** : انحصرت فرص العمل اول الامر في المصانع القريبة . وفي الاراضي الزراعية ، واعمال الصيد البحري ثم البناء ، ولم يكن اول الامر حرفيون باعداد تذكر ، لكنهم سرعان ما اخذوا يتقنون مختلف المهن من خلال الممارسة ، ولقد كانت فرص العمل سانحة نسبيا لرخص اليد العاملة الفلسطينية حيث لم يكن عمال سوريون انذاك ، اما الاجرة اليومية فكانت تتراوح بين ليرتين وثلاث ليرات للعامل وبين ليرة وليرتين للعاملة وللصغار · وعلى صعيد الوظائف التحق خمسة عشر شخصا في وكالة الاغاثة وفي حقل التعليم في مدرسة البعثة البابوية ، ولم يسافر للعمل في الخارج سوى افراد قلائل لا يتجاوز عددهم اصابع اليد الواحدة ·

٣ ـ **التعليم** : مضت سنتان تقريبا على انشاء المخيم ، ولم تكن هناك مدرسة ، وبقي الطلاب بدون علم · وفي عام ١٩٥١ اسست البعثة البابوية مدرسة تابعة لها وكلفت الاب قرطباوي الاشراف عليها · كان بناء المدرسة عبارة عن سبعة غرف تبعد عن المخيم قرابة مائتي متر · وهي في الاصل جزء من الثكنة العسكرية الفرنسية · ابتدأت المدرسة بصفوف ابتدائية ثلاثة مع صف حضانة ، ولم يتجاوز عدد تلميذاتها وتلامذتها المائة والثمانين طالبا انذاك . اما الاساتذة فكانوا اربعة . ولم تكن الدروس متماشية مع المنهاج الرسمي اول الامر · ولقد تميز الطلاب والطالبات بارتفاع معدل الاعمار بالنسبة الى الصفوف ، وذلك نتيجة لانقطاعهم عن المدارس قرابة الثلاث سنوات · كانت البعثة البابوية تقدم الكتب والدفاتر والقرطاسية مجانا ولا تتقاضى اية رسوم وكانت تشرف على اختيار الاساتذة وتدفع مرتباتهم ·ومع تزايد عدد الطلاب ازداد عدد الاساتذة والصفوف والتزمت المدرسة مع بداية عام ١٩٥٣ التقيد بالمناهج الرسمية اللبنانية ، وفي نهاية المرحلة الاولى عام ١٩٥٦ اكتملت الدائرة الابتدائية فيها واخذ طلابها وطالباتها يتقدمون لامتحانات السرتفيكا الرسمية ، وتشير احصائيات المدرسة في هذا العام الى ان عدد الطلاب ارتفع الى ٢٨٠ تلميذا وتلميذة وان عدد الاساتذة بلغ ثلاثة عشر ، وان المعدل الوسطي للصفوف كان ثلاثين طالبا ، كما ان شعب بعض الصفوف تعددت · اما الطلاب الذين لم تكن لهم صفوف فقليلون منهم من التحق بمدارس خاصة لمتابعة تحصيله العلمي ومنهم من انصرف الى العمل لضيق اليد وطمعا بالكسب المادي · هذا على صعيد المدرسة البابوية وعلى صعيد اخر تعليمي نشأت مدرسة انجيلية عام ١٩٥٤ قامت بتأسيسها ارسالية الكرمل الانجيلية التابعة لالمانية الغربية · وكان لهذه الارسالية وجود ونشاط في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ كان لها مدارس في حيفا والبصة وقد اضطرت لاغلاقها عام ١٩٣٩ بسبب الحرب العالمية الثانية ونزوح الارسالية الى المانية · وفي عام ١٩٥٢ عاد المبشرون الانجيليون التابعون لهذه الارسالية والذين كانوا في قرية البصة الى لبنان واقاموا علاقات مع العائلات الانجيلية التي كانت على صلة بهم منذ ايام فلسطين ، وانشأوا بعد ذلك عام ١٩٥٤ مدرسة تابعة لارساليتهم خصصت لسكان المخيم وللراغبين من اللبنانيين في المنطقة ، وكانت المدرسة مجانية تقدم ما تقدمه المدرسة البابوية وبدأ تنافس فعلي بين المدرستين وبين الجماعتين ادى الى نزاعات طويلة · لقد كانت المدرسة الانجيلية مجاورة للمخيم الاول حتى عام ١٩٦٤ في بناية مستأجرة ، لكن الارسالية

اشترت ارضا وشيدت مدرسة نموذجية في مكان متوسط بين المخيمين ، واستمرت مجانية تماما كالبعثة البابوية تكتفي بما تاخذه من الانروا وهو عبارة عن ٣٥ ليرة عن كل تلميذ ابتدائي مسجل في سجلات وكالة الاغاثة و ٢٢٥ ليرة عن كل تلميذ في الصفوف المتوسطة والثانوية ، وتقوم بتغطية ذاتية للنفقات المتبقية من المعونات التي تصلها من المانيا · ولقد كانت اوضاع المدرسة من حيث الاساتذة والطلاب والصفوف كما يأتي عام ١٩٦٤ ·

الدائرة الابتدائية : فيها ستة صفوف عدد الطاليات والطلاب	١٥٠
الدائرة المتوسطة : فيها اربعة صفوف عدد الطالبات والطلاب	٦٠
الدائرة الثانوية : فيها صفان عدد الطالبات والطلاب	٣٠
المجموع	٢٤٠

عدد الطلاب الفلسطينيين	٢٠٠
عدد الطلاب اللبنانيين	٤٠
عدد الاساتذة الفلسطينيين	١٠
عدد الاساتذة اللبنانيين	٥

اما الاشراف المباشر على سير التعليم فكانت تقوم به الاخت مرتا شريبر الالمانية ، وكانت المدرسة تعلم الالمانية كلغة ثالثة اضافة للانكليزية والعربية · كما ان الاخت المذكورة كانت تقوم بالتبشير الديني وتقديم بعض المساعدات للمعدمين اضافة لترتيب الصلوات واستحضار القسس والوعاظ على غرار ما كانت تقوم به البعثة البابوية من استحضار الكهنة والراهبات للغرض نفسه ·

لقد اعتمدت الارسالية في بناءالمدرسة على الهبات والمساعدات التي جمعت من المانيا وعلى ثمن الممتلكات الالمانية التي كانت في فلسطين وبيعت بعد ١٩٤٨ · ولقد انتقلت المدرسة الى البناء الجديد عام ١٩٦٤ واستمرت بادارتها السابقة وقد اصبح عدد طلابها وطالباتها واساتذتها عام ١٩٦٦ كما يأتي ·

الصفوف الابتدائية	٢٨٠ طالبا وطالبة
الصفوف المتوسطة	١٢٠ طالبا وطالبة
الصفوف الثانوية	٦٠ طالبا وطالبة
الفلسطينيون	٣٢٠ طالبا وطالبة
اللبنانيون	١٤٠ طالبا وطالبة
عدد الاساتذة	١٨ . فلسطينيون ١٠ لبنانيون ٨

وحدث ان نشبت خلافات داخل الارسالية ادت الى اندماج القسمين المتوسط والثانوي بالمدرسة الثانوية الانجيلية التابعة للطائفة الانجيلية في لبنان · وقدمت الارسالية بناء مدرستها لهذه الطائفة مقابل اعفاء الفلسطينيين الانجيليين من الرسوم المدرسية وبقيت لارسالية الكرمل . الالمانية مدرسة ابتدائية بين عامي ٦٧ ـ ٧٣ ثم دمج القسم الابتدائي المتبقي بالمدرسة الثانوية الانجيلية الوطنية ·

ان الاهداف الظاهرية من اعمال ارسالية الكرمل والبعثة البابوية انما هي اعمال انسانية وتبشيرية ·وقد تكون وراءها مقاصد سياسية اسوة ببقية اعمال التبشير التي بدأت في القرن التاسع عشر ·

٤ ـ **النشاطات الاجتماعية** : كانت النشاطات الاجتماعية محدودة للغاية ، ولم تكن الاوضاع العامة تتيح المجال لاهتمامات غير العمل والتعليم ، ولقد اقتصرت هذه النشاطات على ناد رياضي ، كما ساهمت جمعية الشبان المسيحية بعد انشاء مركز لها ببعض النشاطات ، فقد اسست مكتبة للمطالعة ، ووسائل للتسلية والرياضة ، وتعليم الانكليزية والطباعة ، لكن نطاقها بقي محدودا وخدماتها بقيت ضيقة النطاق ٠

٥ : **الوضع العائلي والتراث** : حافظت العائلات في المخيم على تقاليدها الفلسطينية في كل مناحي الحياة ، بقي طابع الزواج المبكر قائما ، وحجم افراد العائلة كبيرا ، وبقيت الاهازيج الشعبية والاغاني هي نفسها التي كانت تتردد في فلسطين كذلك الامثال الشعبية ، وبقيت اللقاءات على النطاق اللبناني العام تتم في الاعراس والمآتم على صعيد القرية والمنطقة ، تأتي وفود وتذهب وفود جريا على العادات الفلسطينية ٠ وفيما يتعلق بالزواج فلقد انحصر في الغالب في الاطار الفلسطيني وفق التقاليد الفلسطينية فيما يتعلق بتفضيل الاقارب اكانوا من سكان المخيم ام من خارجه ، ويمكننا القول ان كل المظاهر بقيت فلسطينية حتى ليصح القول بأن المخيم هو أشبه بقرية فلسطينية خارج فلسطين لهجة وعادة وتقليدا ٠

٦ ـ **المرأة** : لم تكن المرأة الفلسطينية على وجه العموم تعمل خارج نطاق البيت والمزرعة في فلسطين ، ولقد دفعت الظروف المادية الصعبة المرأة للعمل في المصنع والمزرعة والمكتب ، ولقد كان اصحاب المصانع القريبة من المخيم يفضلون العاملات على العاملين لضآلة اجرة المرأة قياسا بالرجل وفي مجالات الزراعة كان التفضيل للعاملات للسبب عينه ٠ اما العاملات في المكاتب فكان عددهن محدودا ٠ وتجدر الاشارة الى ان معظم العاملات كن من متوسطات الاعمار اذ ان التقاليد حالت دون السماح للفتيات بالعمل ٠

وعلى صعيد حرية المرأة فقد اخذت تحظى بحرية أوسع من تلك التي كانت تحظى بها من قبل على كافة الاصعدة بالنسبة لها كزوجة ، وبالنسبة لها كابنة ، بحيث اصبح لها بعض الرأي في امر زواجها وعلمها وعملهاوفي الحقوق الزوجية ٠

٧ ـ **خدمات الانروا** : شملت هذه الخدمات توزيع المؤن الشهري وذلك لغير المنتجين العاملين ، وهذه بحد ذاتها غير كافية لحصول الانسان على الحد الادنى من الوحدات الحرارية ٠ واضافة للمواد الغذائية هناك الخدمات الطبية وقد اشرنا الى النقص وعدم الكفاية فيها ٠ وعلى صعيد اخر النظافة وهي مقبولة الى حد ما ، وهناك خدمات اخرى توقفت عنها في وقت لاحق هي تقديم المساكن والمساعدة بانشائها ، ثم المطعم الذي كان يقدم وجبة يومية للاطفال والضعفاء بناء على تقرير طبيب الوكالة مع توزيع الحليب لمن هم دون الخامسة عشرة ٠ على ان خدمات الوكالة كانت في تقلص مستمر وكان العدد المستفيد يتناقص لقطع الاعاشة عن كل من يعمل هنا في لبنان او في الخارج ٠

٨ ـ **المخيم والجوار** : رغم ضآلة المسافة التي تفصل المخيم عن بلدة ضبيه المجاورة وبلدة زوق الخراب لم يقم تعامل يذكر بين سكان المخيم وبين هاتين الضيعتين ٠ ومرد ذلك الى الانغلاق والتقوقع عند غالبية سكان هاتين القريتين ، والنظرة الاستعلائية الى سكان المخيم على اعتبار انهم غرباء ، لاجئون ، سكان مخيم وهكذا كانت سياساتهم تقوم على تحاشي الاحتكاك بالفلسطينيين باستثناء بعض الحزبيين اليساريين واصحاب العمل ٠ ولقد ادى هذا الموقف السلبي الى البقاء في يقظة وحذر ٠ كما ان تباين الموقفين

نتج عنه منازعات وصدامات فردية حينا وجماعية حينا اخر وكان تدخل السلطة وسوق الفلسطينيين الى المخافر يزيد الفلسطينيين شعورا بمرارة الغربة والقسوة ، ولم تشفع تذاكر الهوية اللبنانية التي حصل عليها بعض الفلسطينيين في ابعاد نظرات الاستعلاء والازدراء التي كانت تلف كل من في المخيم ·

٩ ـ **الاتجاهات السياسية** : استمرت فكرة العودة قوية في اوائل الخمسينات ، وكان الشعور الغالب بان القرار رقم ١٩٦ الصادر عن الامم المتحدة لا بد ان ينفذ وان امر الرجوع مفروغ منه ، لذلك لم تكن طموحات الاهلين اكثر من الحصول على الكفايات اليومية ، لكن الامل بدأ يخبو تدريجيا واصبحت الثقة بالقرارات الدولية ضعيفة · وباتت القناعات الجديدة بان امر العودة لا يمكن ان يحصل الا بعمل عربي جاد خاصة وان الانقلابات العسكرية في البلدان العربية كانت تطرح بشكل دائم القضية الفلسطينية هدفا استراتيجيا لها · وبقيت الامال معلقة على هذه الانتفاضات ، واستمر التصور العام بانها ستلعب دورا حاسما في اعادة الحق الفلسطيني الى نصابه · ولكن الفتور من الوعود والبيانات شق طريقه الى النفوس واتجه سكان المخيم لتجديد الصلات بالمؤسسة الفلسطينية القائمة انذاك وهي الهيئة العربية العليا التي يرئسها الحاج امين الحسيني ، لاعتقادهم انها تلعب دورا ايجابيا في استرداد الوطن السليب · بيد ان هذه الصلات سرعان ما فترت وضعفت لان سكان المخيم تلمسوا شيخوخة الهيئة وترهلها ·

اما على صعيد التفاعل مع الاحزاب المتواجدة على الساحة اللبنانية ، فقد لقي الحزب السوري القومي الاجتماعي تجاوبا كبيرا مع التطلعات الفلسطينية في المخيم ويعود ذلك الى مبادئه التي تعتبر فلسطين ارضا سورية مغتصبة ، وتدعو لمحق الصهيونية من جهة ومن جهة ثانية لاكتشاف الفلسطينيين في المخيم بالممارسة حسن معاملة القوميين لهم وتعاطفهم معهم خلافا للمحيط العام · ولم يكن في المنطقة احزاب يسارية سواه · ونتيجة لذلك نشأت فروع للحزب في المخيم ونشاطات اعلامية واسعة فمن مهرجانات الى حلقات اذاعية ، وازدادت اواصر التعاطف والتعامل بين القوميين الفلسطينيين والقوميين اللبنانيين وامتدت الى كل ارجاء المتن الشمالي · ولقد تنامى عدد الاعضاء في المخيم فوصل الى ثمانين عضوا واصبح التيار العام في المخيم يتعاطف كليا مع هذا الحزب ، الامر الذي زاد في معاداة احزاب اليمين للفلسطينيين وحملها على الضغط بكافة الوسائل على سكان المخيم والتضييق عليهم بشتى السبل ، فمن اقامة استعراضات في داخله للتحرش والاستفزاز الى حمل السلطة على تطويق المخيم وتفتيشه واجراء اعتقالات، الى تحديات سافرة فاصطدامات · وهذه السلبية اليمينية ادت الى مزيد من الترابط والتلاحم بين الحزب المذكور وبين اهل المخيم بشكل عام · وزادت نقمة اليمين عندما تحققوا ان الفلسطينيين الذين حصلوا على تذاكر لبنانية كانوا في كل دورة انتخابية لمجلس النواب او للبلديات يدلون بأصواتهم للقائمة المنافسة لقائمة اليمين والتي غالبا ما كان فيها مرشح للقوميين ·

لقد ادى تباين المواقف والاتجاهات السياسية بين سكان المخيم وبين محيطه الى مزيد من التنافر والكراهية ، لا سيما ان الاهداف البعيدة التي قصد بها من اقامة المخيم والمنحصرة في تذويب الشعور الفلسطيني والقومي لدى سكان المخيم لم تتحقق وجاءت النتائج عكسية فاصبح سكانه مهتمين بالعقوق ونكران الجميل · ولقد نتج عن جو التوتر هذا شخوص اكثر من زعيم يميني الى المخيم لاثبات الوجود وهز العصا الغليظة ، ومناصرة بعض اللبنانيين في المخيم الذين يحملون بطاقات انروا بحجة انهم مظلومون

وفقا لادعاءات وهمية مدبرة · والغرض من ذلك الترهيب ولجم التيار الفلسطيني المتعاطف مع القوميين · لكن هذا التحدي وتلك الاستفزازات لم تغير شيئا من التلاحم والتعاطف ، واستمر جو التوتر والتنافر دائما ، والتزم الفلسطينيون بعدم التدخل في الشؤون اللبنانية ، اما الفلسطينيون الحائزون على تذاكر هوية لبنانية فلم يتدخلوا في الشؤون اللبنانية اللهم الا في الاقتراع مرة واحدة كل اربع سنوات ·

المرحلة الثانية ١٩٥٦ ــ ١٩٧٧

لم تعد ثكنة هاني شقير التي اصبحت مخيم ضبيه مع ما يحيط بها من مساحة ضيقة كافية لاستيطان وافدين جدد . كما ان الرهبانية مالكة الارض كانت تريد نقل المخيم الى مكان اخر يخصها ليتسنى لها بيع ارض الثكنة نظرا لارتفاع اسعارها ، وبعد مداولات بين الدير المالك والبعثة البابوية والانروا تم الاتفاق على ان تقوم الانروا باستئجار ارض جبلية وحرة قريبة من المخيم السابق واستصلاحها وهذه الارض يشاد عليها المخيم الجديد المعد لايواء كل سكان المخيم القديم وكل الذين يعيشون في مناطق قريبة ويدفعون اجرة سكن كذلك يفسح المجال لجميع الفلسطينيين المسيحيين المتبقين في مختلف المناطق اللبنانية وللبنانيين الذين يحملون بطاقات انروا ، وقد يكون الهدف من هذه العملية مشابها للهدف الاول من انشاء المخيم السابق فتكون تجربة ثانية ربما تؤدي الثمار المرجوة وتغير الواقع السياسي والاتجاهات القائمة ، ومن ناحية ثانية يستفيد الدير من بيع ارض المخيم القديم ومن تأجير الانروا المساحة التي سيقام عليها المخيم الجديد ، انطلاقا من هذا التوافق في المصالح والغايات قامت الانروا ببناء المخيم الجديد وانجزت العملية خلال عام ١٩٥٦ ، وكان يختلف عن المخيم السابق في انه انشىء بتصميم مسبق وتخطيط مدروس واعد ليكون مخيما · كان هذا المخيم عبارة عن ١١٤ وحدة سكنية مبنية من حجارة الباطون وسقوف من الاترنيت الوحدة تتألف من عدة غرف ذات احجام متفاوتة ، وقد صممت الغرف وفقا لتعداد الانفار في كل عائلة · وجرى توزيع المساكن الجديدة على الشكل التالي :

من نفر الى نفرين غرفة واحدة
من ٣ انفار الى اربعة غرفة كبيرة
من ٥ انفار الى ٧ انفار غرفتان صغيرتان
من ٨ انفار الى ١٠ انفار غرفتان كبيرتان

ولقد جعلت هذه الوحدات صفوفا متوازية ، يفصل بينها اربعة شوارع متسعة · اما الحمامات فكانت عمومية ولم يسمح اول الامر باقامة حمامات منفردة خاصة · كذلك اقيمت مراكز للمياه في اماكن متباعدة ، بحيث كانت تصلها المياه من شركة مياه بيروت على نفقة الانروا لمدة ثلاث ساعات يوميا · ولقد بنت الانروا مدرسة جديدة تسلمتها منها البعثة البابوية المشرفة على التعليم في المخيم كما بنت كنيسة ·

بعد هذا الاعداد تم نقل سكان المخيم القديم على نفقة الانروابالتنسيق مع البعثة البابوية ، وبقيت وحدات كثيرة شاغرة ، وبدأ الانتقال اليها تباعا وعلى نفقة الانروا من مناطق شتى في اواخر عام ١٩٥٦ · كان بين المتنقلين خمسين عائلة من مخيم الرشيدية جلهم من اهالي البصة واقرت ، واربع عائلات من الميه وميه قضاء صيدا ، وعائلة من منطقة بعلبك · وتم بعد ذلك نقل ٢٥ عائلة معظمها من اصل لبناني يحمل

بطاقة انروا من قرى علما الشعب ، عين ابل ، القوزح ، في الجنوب اللبناني · ونتيجة لهذا التحرك الى المخيم ازداد عدد السكان وارتفعت نسبة اللبنانيين فيه · وبعد عامين بنت الانروا عشر وحدات جديدة وتم بالطريقة الاولى نفسها نقل عشر عائلات من منطقة النبطية ، ومن كفرشيما ·

لقد كانت الحوافز عند الذين قدموا الى المخيم الجديد متعددة يغلب عليها الطابع الاقتصادي ، فالعمل في المناطق الجنوبية التي قدموا منها موسمي مرتبط بالزراعة ، بينما العمل في منطقة ضبية القريبة من بيروت متوفر على مدار السنة في المصانع ، اضافة لتوفر التعليم المجاني والسكن ورغبة بعض العائلات في التئام شملها · ويمكن القول ان هذه الحوافز مشابهة للحوافز الاولى عند سكان المخيم القديم ومن ناحية ثانية مشابهة لمقاصد الجهات التي كانت وراء انشاء المخيم الاول · وسنحاول الان اعطاء صورة متكاملة عن المخيم في الفترة الممتدة بين عامي ٥٦ ـ ١٩٧٦ عام استشهاد المخيم واحتضاره من جميع الجوانب الاجتماعية . والاقتصادية والسياسية ·

١ ـ **السكان** : تزايد عدد السكان خلال هذه المدة نتيجة لعامل الهجرة الى المخيم وعامل التزايد الطبيعي بالولادات المرتفعة ، واخذ السكان والقادمون الجدد يبنون على نفقاتهم الخاصة بيوتا جديدة في المساحة المستأجرة من الدير والمجاورة للمخيم · ولقد ادى تحسن الاوضاع الى انتقال بعض العائلات من المخيم الى بيروت والقرى المجاورة ولكن ذلك كان محدودا · واكثر الذين تركوا استقروا في مناطق قريبة ليتسنى لهم ارسال اولادهم الى المدرسة والبقاء على مقربة من انسبائهم في المخيم · ولقد وصل عدد هذه العائلات النازحة عن المخيم الى ستين عائلة ، ونتيجة لتحسن اوضاع بعض سكان المخيم ماديا من جراء العمل في مناطق البترول بدأ التهافت على شراء اراض مجاورة للمخيم وبناء دور فيها لاستغلالها في التأجير · كما ان احداث ١٩٧٣ وما لحق بالمخيم من اضرار حمل اكثر من عشرين عائلةعلى النزوح الى مناطق مجاورة ، لكن معظمها عاد بعد هدوء الحالة والبعض لم يعد ، وهاجرت نهائيا الى خارج لبنان عائلتان واحدة الى الولايات المتحدة واخرى الى استراليا ·

ومن الملاحظ ان نسبة الولادات قد قلت نتيجة لتحسن الاوضاع المادية والاهتمام بالتعليم العالي وتحمل تبعاته ، ومن مراجعة سجلات وكالة الاغاثة للمسجلين في مخيم ضبية والذين يسكنون فيه او على مقربة منه بتاريخ ٣٠ـ٦ـ٧٥ يتبين لنا ما يأتي :

عدد العائلات التي تتناول مخصصات الانروا كاملة ٤٦٢ عائلة ١٧٤٥ نفرا ·

عدد العائلات التي تستفيد من خدمات طبية وتعليمية فقط ٧٩ عائلة ·

عدد العائلات المحرومة من خدمات الانروا ٢٩ ·

والجدول الثاني يوضح الاعداد بالانفار لغير المستفيدين من الانروا ·

عدد الانفار المحرومين من خدمات الانروا ٦٩٠ ·

عدد الانفار المستفيدين من التطبيب والتعليم ٣٥٢ ·

انفار يسكنون وغير مسجلين ٤٩ ·

المجموع ١٠٩١ ·

عدد المستفيدين من الانروا ١٤٧٥ شخصا ٠

عدد غير المستفيدين من الانروا ١٠٩١ شخصا ٠

٢٥٦٦ عدد السكان الكلي ٠

ولقد تبين بعد سقوط المخيم في ١٤ ك٢ ١٩٧٦ وحدوث نزوح وافر منه ان عدد السكان فيه انخفض الى ٢٨٢ عائلة من اصل ٥٨٠ والى ١٧٧٨ شخصا من اصل ٢٥٦٦ وذلك وفقا لاحصائية جرت في اذار ١٩٧٦ ٠

ومن المفيد ان نذكر ان ثلاثين عائلة فلسطينية كانت قد حصلت على تذاكر هوية لبنانية في الخمسينات واوائل الستينات للحصول على العمل ، وان خمسا وعشرين عائلة لبنانية يحمل افرادها بطاقات انروا ، كان بين سكان المخيم ، ومن ناحية مذهبية فان ثلثي السكان هم من الروم الكاثوليك والثلث المتبقي من الموارنة الفلسطينيين واللبنانيين ومن الارثوذكس والانجيليين ٠ اضافة الى ست عائلات اسلامية استقرت في المخيم اواخر الستينات حيث كانت تعمل فيه مع الانروا ٠ وبعد سقوط المخيم بيد اليمين اللبناني في كانون الثاني ١٩٧٦ ونزوح قسم كبير من سكانه الى المنطقة الغربية والى خارج لبنان انتقل اليه قرابة ستين عائلة لبنانية غير مهجرة من قرى القليعة ، عكار ، الدامور ، بقاع كفرا واستقروا في المنازل الشاغرة ليكونوا قريبين من اعمالهم في مساكن مجانية قاموا باصلاحها ولا يزالون فيها ٠ والمساكن في المخيم معظمها من الاسمنت وهي متسعة تصلها المياه وفي اكثرها حمامات خاصة ، فهي ملائمة ومقبولة لسكناهم اما الذين نزحوا الى المنطقة الغربية فمنهم من استأجر منزلا وعددهم قليل ومنهم لا يزال يعيش في منازل يقطنها مهجرون حتى الان ٠

٢ ــ **العمل** : حدث تطور ملحوظ في ظروف العمل والدخل في الفترة الممتدة بين ١٩٥٦ ــ ١٩٧٦ ٠ ولقد امتازت هذه الفترة بالاتجاه لاحتراف المهن بحيث انعدم في السبعينات وجود اي عامل غير مهني ٠ وذلك نتيجة لدخل المهنيين المرتفع في لبنان وخارجه ، ولشدة الطلب على اصحاب الاختصاصات المهنية وتوافر مدارس التعليم المهني المجاني في مبلين التابعة للانروا وفي بيروت مركز تابع لاتحاد الكنائس الانجيلية ٠ كذلك ارتفعت نسبة اصحاب الكفاءات العلمية الذين اتاحت لهم ثقافتهم العمل في الحقل الوظائفي واصبح الحرفيون نقابيين مرتبطين باتحاد عمال فلسطين ٠ غير ان المداخيل المرتفعة في مناطق النفط والعمل المنتظم حمل الايدي المهنية الشابة للعمل خارج لبنان في مناطق النفط المختلفة ٠ في حين ان اكثرية المهنيين الذين دأبوا على العمل في لبنان اتجهوا في الغالب الى اعمال البناء بكل متفرعاتها ٠ ولقد امتازوا بالنشاط والذكاء وحذق المهن فأصبحوا لامعين في المجالات المهنية ٠ ولقد تركزت اعمالهم في بيروت وجبل لبنان في الغالب ٠ ولا تزيد نسبة العاملين في لبنان من الايدي الشابة على ٢٥٪ من مجموع العاملين في حين ان ٧٥٪ يعملون في بلدان النفط ٠

ويقدر عدد المهنيين بحوالي ٥٠٠ موزعين على الشكل التالي :

مقاولو بناء وتوابعه	١٥
عمال كهرباء	٥

نجارون عربي وافرنجي	٢٥
نجارو باطون	٣٠
حدادو باطون	٢٨٦
دهانون	٨٠
راديو وتلفزيون	٥
تبريد	٥
بناؤون	١٠
موزقون	٢٥
حدادة افرنجية	٤
لحام اكسجين وكهرباء	١٠
المجموع	٥٠٠

متوسط دخل المهني اليومي ٢٥ ليرة في لبنان

متوسط دخل المهني اليومي ٥٠ ليرة في الخارج

اما الموظفون فيمكن تصنيفهم على الشكل التالي :

مدرسون ٢٩ في مدرستي البعثة البابوية والثانوية الانجيلية الوطنية في ضبية

مدرسون ٧ في الانروا

موظفون ٨ في مكاتب الانروا بلبنان

موظفون ٤٠ خارج لبنان

موظفون ٥ في شركات محلية في لبنان

متوسط الدخل الشهري للموظف الف ليرة في لبنان

متوسط الدخل الشهري للموظف الفا ليرة في الخارج

من الملاحظ ارتفاع نسبة المهنيين وذلك لسرعة اكتساب المهن ، وشدة الطلب عليها ، وارتفاع نسب مداخيلها · والطموح المتزايد للتحول الى المقاولات من خلال ممارسة المهن · في لبنان وفي مناطق النفط ، اذ قد اصاب البعض نجاحا مرموقا مما اثار حماس الاخرين ·

٣ ـ **الاوضاع الصحية** : تحسنت الاوضاع الصحية في المخيم الجديد عما كانت عليه قبلا · فالمسكن الجديد افضل من السابق ، كذلك الموقع ، اضافة الى تحسن الاوضاع الاقتصادية الذي ادى بدوره الى تحسن التغذية والتطبيب ، والوعي الصحي · واستمرت الانروا بالمساهمة في التطبيب وبقي طبيب الانروا يقوم بزيارات ثلاث للمعاينة السريعة اسبوعيا في عيادة تابعة لوكالة الاغاثة تقدم ما تيسر من الادوية · وهذه الافادة محصورة بالفلسطينيين الحائزين على بطاقات انروا تسمح لهم بالتطبيب والتعليم لان كثيرين قطعت عنهم خدمات الانروا بسبب حصولهم على دخل ثابت في لبنان وخارجه · على ان مستوى التطبيب ظل متدنيا واكثر الادوية غير موجودة ، ونظرا لتحسن اوضاع الناس المادية اخذت الاكثرية الساحقة تبتعد عن تطبيب الانروا كذلك بالنسبة للحالات

المرضية التي تستلزم دخول مستشفيات او من اجل التوليد ، فلقد اصبح الكثيرون لا يعتمدون على الانروا لصعوبة موافقتها على تحمل النفقات وتحسن الاوضاع المادية والاتجاه للاعتماد على النفس · كما ان وسائل التطبيب تحسنت بعد دخول الثورة الى المخيم حيث اصبحت فيه عيادة تابعة للهلال الاحمر الفلسطيني وصيدلية وطبيب مناوب اضافة الى ممرضتين · واخذت هذه العيادة تؤمن الخدمات الطبية يوميا وتقدم الادوية مجانا · واستمرت تعمل بانتظام من عام ١٩٧١ حتى سقوط المخيم في كانون ثاني ١٩٧٦ · وكان عملها وخدماتها افضل من عمل وخدمات عيادة الانروا ·

وعلى صعيد النظافة استمرت وكالة الاغاثة بالاشراف على امرها وكان لديها مراقب صحة مع خمسة موظفين ، يقومون بجمع النفايات وتنظيف الاقنية والحمامات ورشها بالادوية ·ويمكن القول بالتالي ان الاوضاع الصحية كانت حسنة اجمالا نظرا لتحسن الاوضاع اقتصاديا وثقافيا وسكنيا ثم لتوافر التطبيب والاهتمام المتزايد بالطب الوقائي وتزايد الوعي الصحي ·

٤ ــ **التعليم** : استمر تزايد الاقبال على التعليم بين عامي ٥٦ ــ ١٩٧٦ ولقد اصبحت نسبة الدخول الى الدائرة الابتدائية مائة بالمائة . واتسعت المدرسة للبعثة البابوية بناء وتجهيزا بتزايد عدد الطلاب ، وتحولت تدريجيا الى مدرسة ثانوية فيها حتى الصف الثانوي الثاني المعد لتقديم البكالوريا الاولى · لقد وصل عدد طلابها في منتصف السبعينات قرابة الالف ، وتشعبت اكثر الصفوف بمعدل شعبتين لكل صف تقريبا في الدائرة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، واربع شعب لصف الحضانة · وبلغ عدد الاساتذة اثنين وثلاثين استاذا ومعلمة مع مديرين وكاهن وراهبات يشرفن مع الكاهن على التعليم الديني · وتجدر الاشارة الى ان حوالي مائة وخمسين طالبا وطالبة كانوا يأتون يوميا من مخيم جسر الباشا حيث لم يكن في مدرسة مخيم الجسر التابعة ايضا للبعثة البابوية دائرة متوسط وثانوية · ومن المفيد ان نذكر ان البعثة البابوية هي مؤسسة خيرية مقرها نيويورك وليس الفاتيكان كما يبدو من اسمها ، وهي برئاسة الكاردنال نولن الاميركي · ويساعده الاب فوستر . ولها مكتب في رأس بيروت يشرف على ادارته السيد فلوخوبلس · اما اموالها فهي عبارة عن تبرعات تجمع من العالم الكاثوليكي خاصة من الولايات المتحدة · واهدافها الظاهرية خيرية انسانية ، بدأت نشاطها عام ١٩٤٩ فاسست مدارس في كل من الرشيدية ، وضبية وجسر الباشا والدامور ، وما لبثت ان اغلقتها باستثناء مدرستي جسر الباشا وضبية منذ منتصف الخمسينات · وذلك لان مدارس الانروا حلت مكانها ولان اعدادا كبيرة من الفلسطينيين تركوا المناطق التي كان لها فيها مدارس · كما انها كانت تقدم بعض المساعدات من مون وملابس بين فترة واخرى لوقت قصير · كما انها كانت تسهل امر الهجرة الى الخارج لمن يريد مقدمة مساعداتها : معاملات وجانب من نفقات السفر على شكل قروض ·

استمرت البعثة البابوية بادارة المدرسة وتغذيتها بالاموال المطلوبة ، ولم تكن تتقاضى الا رسوما زهيدة جدا ، مكتفية بما يصلها من تبرعات وما تأخذه من الانروا عن الطلاب وما تحصله من الطلاب الذين ليس بحوزة ذويهم بطاقات انروا ، واستمرت في تقديم الكتب للطلاب بدون مقابل حتى توقفها النهائي مع الاحداث في كانون الثاني عام ١٩٧٦ · وتجدر الاشارة الى ان غالبية طلابها كانت من الفلسطينيين ومن اللبنانيين الذين يحملون بطاقات انروا ، ولم يزد عدد اللبنانيين على ٢٪ · وفيما يتعلق بالتدرج من مرحلة الى اخرى نجد ان العدد الاجمالي ينخفض تدريجيا بعد المرحلة الابتدائية ويزداد انخفاضا

في المرحلة الثانوية ٠ وذلك لان كثيرين يتحولون الى التعليم المهني المجاني بحيث ينهون التخصص بسرعة ويصبحون منتجين في فترة قصيرة ، ويحصلون على مداخيل مرتفعة نسبيا من عملهم في بلدان النفط ٠ بدل الانفاق الكثير على التعليم العالي ٠ وقد يكون وراء هذه الظاهرة عوامل اخرى كعدم مبالاة الاهل وحسن توجيههم لابنائهم ، كذلك ضعف توجيه المدرسة ، وضيق يد البعض ٠ ومن النظر الى مراحل التعليم الثلاثة الابتدائية والمتوسطة والثانوية وعدد الطلاب فيكل منها يتبين ان نصف العدد الاجمالي تقريبا محصور في الدائرة الابتدائية وحوالي ٤٠٪ في المرحلة المتوسطة و ١٠٪ في المرحلة الثانوية ٠ وان حوالي ٧ ٪ ممن ينهون المرحلة الثانوية يتجهون للجامعات في بيروت ومصر والولايات المتحدة ٠ لقد تحسن المستوى التعليمي الثانوي في المرحلة الاخيرة واصابت المدرسة نجاحا حسنا في امتحانات الدولة الرسمية ، كما تحسنت فيها بعض النشاطات الرياضية ، والثقافية، هذا ونتيجة للاحداث الاخيرة توقفت المدرسة نهائيا حتى بعد توقف الاشتباكات ووصول قوات الردع الى مقربة منها وتمركزها في المدرسة الانجيلية المجاورة ٠ ولقد عمدت القوى اليمينية بعد سقوط المخيم بايديها الى نهب كامل مقتنياتها وتجهيزاتها تماما كما حصل في المدرسة الانجيلية ٠ وبعد استقرار الامن امتنعت البعثة البابوية عن ترميمها وفتحها من جديد رغم المراجعات المتكررة ٠ وقد قامت بصرف جميع الاساتذة واعطائهم تعويضاتهم القانونية ٠ كما قامت بنقل مكاتبها من رأس بيروت الى جونيه فجل الديب وابتعدت كليا عن القيام بأي دور انساني تجاه الفلسطينيين واصبح عملها محصورا ولاول مرة في النطاق اللبناني الامر الذي يثير الدهشة والاستغراب ٠ فبدل من ان تضاعف خدماتها نظرا للاحداث الدامية وذيولها توقفت عن اي نشاط انساني وهي التي دأبت على رعاية المدرسة منذ اوائل الخمسينات ٠

لقد قامت الانروا بجهود لاعادة فتح المدرسة في المخيم فاصطدمت بموانع سياسية وضغوط فتخلت عن الفكرة ، وبقيت ضبية بلا مدرسة حتى كانون الاول ١٩٧٧ حين اتبعت المدرسة بمطرانية الروم الكاثوليك في بيروت ولم تعد فلسطينية ، واصبحت مدرسة لبنانية خاصة تتقاضى رسوما كبقية المدارس الخاصة وتقبل الطلاب من كل حدب وصوب ٠ ورغم هذا التحول فقد قامت الانروا بترميم المدرسة وتجهيزها بالاثاث اللازم ٠ وما الغرض من هذا التحول الا طمس الشخصية الفلسطينية المعنوية وربطها بالعجلة اللبنانية التربوية ، ومما يشجع على هذا الظن تغير اسم المخيم ، فلقد اصبح يعرف بحي مار يوسف البرج بعد ان كان لربع قرن يعرف بمخيم ضبيةوبعد ان اصبحت الغالبية فيه من غير الفلسطينيين ٠

٥ ـ **المرأة** ـ امتازت هذه الفترة الممتدة سحابة عشرين عاما ٥٦ ـ ٧٦ باقبال الفتيات على التعلم واصبحت نسبتهن ٤٥٪ من مجموع الطلاب ، واتجهت اكثر الفتيات بعد انهاء المرحلة المتوسطة والثانوية الى التخصص في اعمال السكرتيريا والتمريض والخياطة ، في حين ان اللواتي لم يستطعن التوصل الى المرحلة التكميلية اما لضائقة مالية ، او لعدم اهتمام الاهل بتعليم الفتيات تمشيا مع الذهنية القديمة فقد اتجهن للعمل في مصانع الاقمشة والكبريت بيد ان عددهن لم يصل الى الخمسين ، واستمرت المتقدمات في السن يعملن في الزراعة الموسمية ولم يرتفع عددهن عن العشرين ٠

أما في الحقل السياسي فقد اتجهت المتعلمات للعمل في صفوف الحزب القومي الاجتماعي قبل الثورة ثم في صفوف الثورة فيما بعد ، وتجدر الاشارة الى ان المحافظة على التقاليد والعادات التي حملها الاهل معهم من فلسطين استمرت مع انخفاض نسبي بالنسبة لحرية

المرأة ، اذ ان الاتجاه الجديد سار الى اعطاء المرأة حقوقا اشمل في امر الزواج والعمل ، وابداء الرأي ٠

٦ ـ **النشاطات الاجتماعية** : توسعت النشاطات الاجتماعية في المخيم وتعددت في هذه المرحلة ، وكثرت الاندية الرياضية التي شاركت في مباريات متعددة مع اندية فلسطينية ولبنانية ، كما تأسس فريق كشفي عرف باسم الكشاف الوطني الفلسطيني وهو تابع للنادي الثقافي الرياضي ٠ ولقد شارك هذا الفريق في كافة الاحتفالات والمهرجانات التي كانت تنظم في المخيم ٠ كما أسس النادي مكتبة لانعاش الناحية الثقافية بين اعضائه وفي المخيم٠ وكانت تقام ندوات ومحاضرات ومناظرات ثقافية وسياسية ٠ ولقد انشئت في فترة لاحقة مكتبة عامة ثابتة تابعة لحركة فتح ٠

٧ ـ **الاوضاع العائلية والاجتماعية** : اخذ حجم العائلة يتناقص عن ذي قبل ، وأصبح المعدل الوسطي للعائلة خمسة ، وذلك نتيجة لتحسن الاوضاع المادية ، والاهتمام المتنامي بالتعليم العالي ونفقاته ، وقد ظلت التقاليد الفلسطينية مستمرة الى حد بعيد متمثلة بنمط الحياة في كل المظاهر فمن الاهازيج الشعبية في الافراح والاتراح ، الى المعايدات والمؤاساة ، الى التقاليد والعادات الى الامثال ، الى الزواج والاختيار وحصره نسبيا بالاقارب وبابناء القرية الواحدة بيد ان سن الزواج اصبح متأخرا نسبيا خلافا لما كانت عليه العادة في فلسطين ، لقد تميزت المحافظة على التقاليد والعادات بقوة طابعها عند الذين هم في الاصل من سكان القرى في فلسطين وذلك لبقاء اكثرية سكان كل قرية في المخيم متجاورين ، وكأن القرية الفلسطينية الواحدة اصبحت بزيها وعاداتها وتقاليدها ولهجتها مستمرة الوجود في لبنان ٠ ومن الملاحظ ان انفتاح سكان المخيم على المنطقة المحيطة به قد ازداد نسبيا عن ذي قبل واصبحت هناك علاقات ودية محدودة بين اهالي المخيم والمنطقة المجاورة ، خاصة بعد انتقال اعداد غير قليلة من المخيم واستقرارها في المناطق القريبة منه نظرا لعدم وجود متسع من الارض عائد للانروا لبناء مساكن جديدة ٠

٨ ـ **خدمات الانروا** : انحصرت خدمات الانروا في المخيم بالامور التالية وهي شبيهة بخدماتها الاخرى في بقية المخيمات ٠

أ ـ المؤن الشهرية ، تناقص عدد الذين كانوا يأخذون مخصصات الانروا الشهرية الغذائية وذلك بسبب ايقاف هذه المخصصات عن الذين حصلوا على اعمال في لبنان وخارجه وكانت تدر عليهم شهريا مبلغا يزيد عن المائتي ليرة ٠ ولقد اظهرنا في البيان الاحصائي العدد الذي كان اصحابه محرومين من المؤن التي توزعها الانروا شهريا والعدد الذي بقي يحصل على هذه المؤن ٠

ب ـ الخدمات الطبية : وقد اشرنا اليها سابقا وهي تنحصر في العيادة ، والتطبيب ، والتوليد وادخال المستشفيات ٠

جـ ـ النظافة : وهي منوطة بعمال الصحة الذين ينحصر عملهم بجمع النفايات والاهتمام بالاقنية والحمامات ٠

د ـ الحمامات : انشأت الانروا مركزا للاستحمام ، مؤلفا من عدة غرف ، استمر قرابة ثلاثة اعوام ثم اقفلته في اوائل الستينات ٠

هـ ـ المطعم : وهو للاطفال الضعفاء والمسنين الذين يختارهم طبيب الانروا ، يقدم هذا

المطعم وجبة غذاء واحدة يوميا ، وكمية من الحليب السائل لكل الذين دون الخامسة عشرة وقد اغلق عـــام ١٩٧١ ٠

٩ ـ **الاوضاع السياسية** : انحصر النشاط السياسي في الفترة الممتدة بيـــن عامـــي ١٩٥٦ و ١٩٦٢ بالحزب السوري القومي الاجتماعي وحده دون سواه ، ويعود ذلك لعدم وجود احزاب يسارية في منطقة المخيم عداه ، ومن الطبيعي الا يتعاطف الاهلون مـــع الاحزاب اليمينية لمواقفها العدائية من الفلسطينيين ولتباعد ايديولوجيتها عن تطلعاتهـم القومية واهدافهم الوطنية ، ولقد وجد الحزب السوري القومي الاجتماعي تعاطفا متزايدا نظرا لتطلعاته الفلسطينية واحترام افراده دون غيرهم للفلسطينيين عامة ، فوصل عـــدد افراده في المخيم الى تسعين عضوا ، وكان يقوم بنشاطات سياسية واسعة فمن مهرجانات، الى حلقات اعلامية الى توزيع المنشورات والبيانات والصحف والمجـــلات والملصقات ، واستطاع ان يستقطب تعاطف غالبية الاهلين نظرا لمبادئه السياسية والاجتماعية ، وحسن تعامل اعضائه مع الفلسطينيين ٠ لكن الانقسامات داخل الحزب اضعفت نسبيا نشاطه واخذ الفتور يتسرب الى اعضائه في المخيم في أوائل الستينات ٠ فقل الالتفاف حوله والانخراط فيه ٠ على ان النشاط عاد الى صفوف اعضائه عام ١٩٦١ ٠ غير ان السلطات اللبنانية بدأت في هذا العام بالضغط على الفلسطينيين للابتعاد عن التعاطي بالسياسة واخـــذت بعض الاجهزة تستدعي اعضاء الحزب العاملين وغير العاملين وتطلب اليهم بقـــــوة التوقف عن النشاط السياسي واعلان الانسحاب من الحزب في الصحف اللبنانية ٠ وبعـد تزايد حملة الضغط هذه اضطر العاملون من الاعضاء الى التخلي عن العمل العلنـــي واللجوء الى السرية ، فتقلص نشاط الحزب نسبيا وقل زخمه وتياره الدافق انذاك ٠ ثم جاءت محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها الحزب في لبنان في بداية عام ١٩٦٢ فكانت ضربة موجعة لاعضائه في المخيم اذ أعتقلوا جميعا وتحملوا من ظروف التعذيب الوانا ، فكان ذلك عاملا في شل نشاطه في اوساط المخيم ٠ وزاد الطين بلة التدبيرات التـي اتخذتها السلطات الرسمية باقامة مخفرين ثابتين في المخيم واحد تابع لقوى الامـــن الداخلي ، واخر تابع لقيادة الجيش عام ١٩٦٢ ٠ فبات التحرك السياسي شبه مستحيل لشدة المراقبة ومغبة العواقب ٠ واستمر النشاط السياسي مجمدا حتى دخول الثورة الـى المخيم عام ١٩٦٨ ٠ وخلال هذه الفترة اقتيد كثيرون للتحقيق والترهيب دون ان يمارسوا اي نشاط سياسي كما منع الكثيرون من السفر للعمل في الخارج ، وامست السياســـة الرسمية المتبعة التضييق المتعمد والاذلال المتناهي ، وبات الانسان العادي من السكـــان يشعر بانه مراقب في كل خطوة يخطوها وفي كل عمل يقوم به ، ولم يعد يسمح لاحـد بتصليح سقف ينفذ الماء منه او نافذة دون الحصول على موافقة ونادرا ما كان يستحصل عليها ٠ ولقد تعاونت الاجهزة الرسمية مع الانروا ومديرية شؤون اللاجئين ـ وهمـــا الهيئتان اللتان تعنيان بالاحصائيات والقيود والمعاملات ـ للتمكن من التشدد في المراقبة ومعرفة كل شاردة وواردة ، حتى ان وكالة الاغاثة باتت لا تستطيع البت بأمر روتينـــي دون موافقة الاجهـزة ٠

خلال هذه الفترة السوداء ضاق سكان المخيم الامرين ، ولقوا تعسفا وارهابا واذلالا ، فكان يفرض مثلا على حاملي الهويات اللبنانية من الفلسطينيين اثناء الانتخابات النيابية او البلدية التصويت لمرشحي السلطة بالاكراه مع أن هؤلاء كانوا في الغالب من المعادين للفلسطينيين ٠ وبين عامي ٦٨ ـ ٦٩ تشكلت في المخيم خلايا لحركة فتح كانت غالبيـــة اعضائها من السوريين القوميين الاجتماعيين الذين جمدوا نشاطاتهم السابقة ، وتم في هذه

الفترة استدعاء الكثيرين للتحقيق والتعذيب · ومع ذلك فقد نمت خلايا فتح وتحولت مجموعات اخرى من القوميين الى هذه الخلايا ، فلقد رأت بعد خمود حركة الحزب وسجن قادته في حركة فتح تعبيرا عن تطلعاتها وتجسيدا لامانيها · واستمرت خلايا فتح تعمل في السر حتى عام ١٩٦٩ حين خرجت الى العلن بعد ابعاد المخافر من ارض المخيم وقبيل اتفاقية القاهرة · وعمت الفرحة انذاك بزوال عهد الكبت والضغط والظلم وتنفس الناس الصعداء بذهاب أدوات التعسف والقهر وبالتنعم باجواء الحرية التي طال الاشتياق اليها ، ثم للتمكن من العمل العلني الواسع في سبيل القضية المقدسة وبدا الارتياح التام بقيام عهد جديد ينصرف فيه الجميع للعمل المنظم من أجل معركة الكرامة والتحرير وبات الناس يتصورون ان الطريق الى فلسطين اصبحت ممكنة وعاد الامل يغمر قلوب الجميع بعد التيئيس المتعمد والمرارات السامة التي كابدها الناس طويلا · وبات بمقدور كل عائلة أن تعمل على تحسين مسكنها وتوسيعه بحرية وكان ذلك قبلا من المحرمات ·

لم يكن على ساحة المخيم من التنظيمات الفلسطينية حتى منتصف عام ١٩٦٩ سوى حركة فتح · التي استقطبت وجدان الاهلين ، وجذبت اليها اكثرية السكان ، فاخذت تقيم المهرجانات والندوات الاعلامية فازداد عدد المنتسبين وبدأت باجراء التدريب لعناصرها وارسال دفعات من الاعضاء الى سوريا والاردن لمتابعة التدريب في دورات خاصة · والتحق البعض في صفوف الحركة مقاتلا متفرغا ، وسقط اول شهيد في الارض المحتلة عام ١٩٦٩ وسمي مخيم ضبية باسمه ابتداء من عام ١٩٧١ فأصبح يعرف بمعسكر الشهيد حنا عيد ، واقيم يومها احتفال جرى فيه رفع الستار عن نصب تذكاري للثورة يحمل اسم الشهيد واسمه الجديد بحضور القائد الشهيد ابو يوسف الذي القى كلمة بالمناسبة · ولمزيد من توضيح المرحلة اللاحقة قسمناها الى مرحلتين ·

المرحلة الاولى ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣

استمر نشاط حركة « فتح » في هذه المرحلة بتزايد ملحوظ على كافة الاصعدة التدريبية منها والاعلامية والتنظيمية ، فعلى صعيد التدريب ازدادت التمارين اليومية داخل المخيم واستمرت في ارسال عناصرها لدورات متقدمة في سوريا والاردن والتحقت بعض هذه العناصر بقواعد المقاتلين وخاضت معارك عمان وسقط الشهيد منير صباغ عام ١٩٧٠ في الاردن· وكانت الميليشيا التابعة لها تقوم طيلة هذه الفترة مع بقية التنظيمات بأعمال الحراسة الليلية المستمرة تحسبا لتسلل صهيوني · وعلى الصعيد الاعلامي استمرت باقامة الندوات والمحاضرات والمهرجانات وتوزيع البيانات والمنشورات اضافة للصحف وانشأت جريدة حائط يومية · وعلى صعيد التنظيم فقد ارتفع عدد المنتسبين ويمكن اعطاء صورة واضحة عنه بتفرعاته التي تعددت ·

أ ـ المليشيا : وصل عدد افرادها المتواجدين في المخيم الى مائة وخمسين عنصرا ، ودأبوا على التدريب والقيام بالحراسة اضافة الى النشاطات الاعلامية التي نقلوها الى خارج المخيم واقاموا خلالها للحركة في الاوساط اللبنانية في منطقة المتن الشمالي ، تعاونت مع الحزبين المتواجدين في الساحة اللبنانية وهما الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اللبناني ·

ب ـ انشأت الحركة عام ١٩٦٩ تنظيما نسائيا اقتصر نشاطه في حقول التوعية ، والاعلام والاشغال اليدوية للمعارض التي كانت تقيمها الحركة ووصل عدد المنتسبات الى خمسين عضوة ·

جـ ــ التنظيم الطلابي ــ نشأ هذا إلتنظيم عام ١٩٦٩ ونما بسرعة ووصل اعضاؤه الى السبعين وهو مستقل جزئيا عن التنظيم العام · اقتصر نشاطه على الاعلام والتوعية ، والتدريب وكان الطلاب يقومون بالحراسات والاستنفارات ·

د ــ تنظيم الطالبات : تم قيام هذا التنظيم عام ١٩٦٩ وارتفع عدد المنتسبات الى الاربعين ساهم هذا التنظيم في التوعية الاعلامية ، والخدمات الاجتماعية وجرى تدريب اعضائه على الاسعافات الاولية واعمال التمريض ، وقام بخدمات جلـى من نواح اجتماعيـة متعددة ·

هـ ــ تنظيم الاشبال · وقد انشيء عام ١٩٦٩ وكان لمن هم دون الخامسة عشرة وارتفع عدد المنتسبين اليه الى ثمانين شبلا ، كان القائمون على امره يقومون بتدريب عناصـره على الاعمال الكشفية والرياضية اضافة الى التوعية والتثقيف ، والتدريب على حمـل السلاح ·

و ــ تنظيم الزهرات : انشيء عام ١٩٦٩ وهو مقتصر على الطالبات اللواتي دون الخامسة عشرة · شبيه بتنظيم الاشبال في نشاطاته وقد ارتفع عدد طالباته الى الخمسين·

ز ــ مكتبة عامة : اسست حركة فتح مكتبة عام ١٩٧٢ ، ضمت كتبا متنوعة ثقافيـة ، علمية ، ادبية ، ثورية ، اضافة لمنشورات الثورة وبياناتها ·

حـ ــ العمل النقابي : نشطت الحركة ابتداء من عام ١٩٧٠ في توجيه اعضائها وغيـر اعضائها العاملين الى الانتساب الى اتحاد عمال فلسطين بحيث اصبحت الاكثرية مرتبطة بهذا الاتحاد · كما شجعت المعلمين للانتساب الى الاتحاد الخاص بهم ·

التنظيمات الاخرى

أ ــ الصاعقة : نشأ هذا التنظيم في المخيم في اواخر عام ١٩٦٩ واصبح له ميليشيا وصل عدد اعضائها الى الثلاثين شاركت في اعمال الحراسة والاستنفارات · وكان لهذا التنظيم نشاط اعلامي فأقام مهرجانات وندوات في مناسبات مختلفة ··

ب ــ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : نشأ هذا التنظيم في المخيم عام ١٩٧٠ ، واصبح له ميليشيا وصل عدد اعضائها الى الثلاثين ، ومارست اعمال التدريب والحراسـة بالتنسيق مع المنتظمين السابقين ، واهتم هذا التنظيم بالنشاط الاعلامي والتوجيهي فأقام الندوات والمهرجانات والمحاضرات ·

هذا على صعيد التنظيمات اما في المجالات الاخرى فقد اصبح في المخيم مركز للكفاح المسلح بعد اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ وانحصر عمله بالنواحي الامنية والنظاميـة وكان الصلة الرسمية بين المخيم والسلطة اللبنانية · وفي المجالات الاجتماعية انشأ الهـلال الاحمر الفلسطيني عيادة طبية عام ١٩٧١ استمرت في نشاط متزايد حتى سقوط المخيم في كانون الثاني ١٩٧٦ وقامت بخدمات طبية مجانية مع تقديم الادوية ولم تكن وقفا على الفلسطينيين وحدهم بل كانت لجميع سكان المنطقة ، وكان التطبيب فيها يوميا حيث كان طبيب متفرغ للمعاينة مع ممرضتين · ولقد ساهمت في حقلها مساهمة حسنة وكان لهـا دور في تحسين الاوضاع الصحية في المخيم ·

المخيم والجـوار

امتازت فترة السنوات الاربع هذه ٦٩ ـ ١٩٧٢ بعلاقات ودية بين المخيم والمحيط الذي يجاوره ٠ لقد كان هناك تخوف في اول الامر بسبب قيام الثورة العلني في المخيم لكن هذه المخاوف تبددت تدريجيا وبسرعة وذلك بفضل الانضباط والوعي ، وحسن التصرف فلم تقع اية حادثة بين سكان المخيم ومحيطه ٠ لكن هذا لا يعني ان الفئات المناوئة اليمينية قد بدلت مواقفها العدائية ، فلقد قامت بعض الاستفزازات والتحرشات امكن السيطرة عليها بتجاهلها ولم تحدث ردود فعل ، وعلى سبيل المثال لا الحصر خطف ثلاثة فلسطينيين من اماكن عملهم في انطلياس وجرى الاتصال برئيس بلدية ضبية الذي اجرى اتصالا بالسلطات الرسمية بناء على طلب المخيم بأعيد المخطوفون بدون اية ردة فعل ٠ وبالرغم من الاعلام المعادي استمرت الالفة قائمة بشكل عام ولمْ تكن هناك تجاوزات او مخالفات ، وبقي الجو بعيدا عن التوتر الى ان وقعت احداث ١٩٧٢ ٠

احداث ١٩٧٣

تحركت وحدات من الجيش اللبناني بعد ظهر الثاني من ايار ١٩٧٣ باتجاه المخيم بعد اشتباكات دامية في بيروت ، وكان الوضع طبيعيا جدا في منطقة المخيم ٠ واخذت آليات الجيش تقترب منه من عدة جهات ، وكان التصور ان هذا التحرك يراد به احتلال المخيم والسيطرة عليه ، فتوزعت عناصر التنظيمات على اطراف المخيم تحسبا للطوارىء ٠ وباقتراب الاليات من عناصر الحراسة التابعة للتنظيمات بدأت الاشتباكات بقصف مدفعي من عدة مرتفعات محيطة بالمخيم اضافة الى نيران الاليات ٠ ومما يؤكد الرغبة في ضرب المخيم قيام الجيش قبل يوم واحد من الهجوم بقطع سياج من الاشجار الباسقة لبستان ليمون قريب من المخيم ، يحجب هذا السياج الرؤية داخل المخيم من الاماكن المجاورة ٠ استمرت المعركة يومين وليلتين ولم تكن في المخيم سوى اسلحة خفيفة وذخائر محدودة ، وتمكن الجيش بمساندة الانعزاليين من شق طريق خارج المخيم الى دير مار يوسف البرج المرتفع على قمة مطلة على المخيم وقريبة منه فأقام هناك نقطة ثابتة اضافة الى نقطتين ثابتتين غربي المخيم لرصد كل حركة وابقائه شبه مطوق ٠ وبقيت هذه النقاط الثلاث حتى احداث كانون ثاني ١٩٧٦ حيث كانت عاملا اساسيا في سقوط المخيم لمشاركتها الفعالة والقوية في مساندة هجوم اليمين وتنسيقها معه ٠

لقد كانت حصيلة المعركة سقوط ثلاثة عشر شهيدا ، وثلاثة مدنيين اثنان سقطا قنصا والثالث لاقى حتفه تحت التعذيب ٠ اما عدد الجرحى الذين دخلوا المستشفيات فكان خمسة ٠ كما نتج عن القصف خسائر مادية فتهدمت عشرات المنازل واحترقت اخرى ، ونتج عن ذلك نزوح اربعين عائلة الى خارج المخيم ، لكن غالبيتها الساحقة عادت اليه بعد اشهر قليلة ٠ ونتج عن هذه الاحداث جو من الحذر والقلق لم يكن موجودا من قبل ، وظهر نوع من الحساسية في المحيط المجاور ، تحول بالتدريج الى بغض وكره « للغرباء » الذين قاتلوا الجيش على اراض لبنانية وبتزايد التعبئة الاعلامية عبر صحف اليمين والاذاعة والتلفزيون تضاعفت موجة السخط على سكان المخيم واكبر دليل على ذلك ان امرأة من الجوار قتلت في بيتها برصاص طائش اثناء المعركة وارادت الثورة مساعدة ذويها وتقديم مخصص شهري لهم ، فكان جوابهم الرفض وحملوا « الغرباء » المسؤولية على اعتبار ان وجودهم المسلح في المخيم ادى الى الصدام مع السلطة اللبنانية ٠

المرحلة الثانية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦

لم يعد مع الهدوء النسبي الى لبنان بعد احداث ١٩٧٣ الصفاء النسبي الذي كان قائما · لقد خيم جو من التوتر والقلق نتيجة للتعبئة اليمينية الناشطة ، التي شرعت باقامة المخيمات التدريبية وبدأت بتوزيع السلاح وشحذ النفوس بمعاداة «الغرباء» والدعوة جهرا للقضاء عليهم والتخلص منهم · كما تصاعدت الغارات الاسرائيلية على المخيمات وتزايدت عمليات التسلل الصهيوني اليها · ولقد توافق ذلك مع الحملات الاعلامية المضادة واتخذ مادة اعلامية تحمل الفلسطينيين الاسباب وتذكر بالنتائج التي تلحق بلبنان الاقتصادية منها والامنية ·

اما في المخيم فقد ازدادت اوضاع الحيطة والحذر في هذه المرحلة ، فقامت التنظيمات بحراسات ليلية مشددة من جهة ومن ناحية ثانية اهتمت باعادة بناء الثقة والمودة مع المحيط المجاور مشددة على الانضباط متمسكة بالابتعاد عن اي استفزاز وعدم الرد على اي استفزاز وتحاشي اي صدام مهما كانت التحرشات · وتحسبا للغارات الجوية على المخيم قامت الثورة بانشاء ستة ملاجيء من الاسمنت المسلح كان المدنيون يلجأون اليها عند التحسب لكل طاريء · وظهر على ساحة المخيم في هذه الفترة تنظيم جديد هو الجبهة العربية اقتصرت على ميليشيا تابعة له لم يزد عدد اعضائها عن العشرة · وعلى صعيد منطقة المتن الشمالي تزايد نشاط خلايا حركة فتح وازداد افرادها كما زاد التعاون والتنسيق مع الحزبين اللبنانيين السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اللبناني فكانت لقاءات مستمرة مع تنظيم فتح في المخيم للتشاور والتعاون وتبادل المعلومات وكان من الممكن ان يزداد هذا التعاون ويتوثق اكثر وتصبح له فاعلية اقوى لولا مداهمة الاحداث في لبنان وانتشارها السريع وتمكن اليمين وفق استراتيجيته من الالتفاف على الجيوب الوطنية تباعا والقضاء عليها ·

لقد فرزت احداث ١٩٧٣ الاتجاهات في المنطقة المحيطة بالمخيم وتحددت في خطين : الخط الاول وهو عبارة عن التنظيمات المتواجدة في المخيم والتي اصبح لبعضها خلايا منتشرة في المناطق المحيطة والحزبين المتعاطفين مع الثورة الفلسطينية ويمكن ان نضيف اليهما بعض الاصدقاء اللبنانيين الحياديين الذين استطاعت التنظيمات ان تكسب احترامهم وتقديرهم نتيجة للممارسات الحسنة والتشاور المتبادل لما فيه هدوء المنطقة وامنها وخير سكانها جميعا · والخط الثاني وهو عبارة عن احزاب اليمين التي دأبت بعد احداث ١٩٧٣ على التعبئة النفسية المعادية لكل ما هو فلسطيني وانتقلت بعد ذلك للتعبئة العسكرية وتوزيع الاسلحة · من هنا كان التنافر والتجافي لاختلاف المواقف بين هذين الاتجاهين وتباين التطلعات بينهما ادى الى توتر الاجواء وانعدام الثقة وتحكم الغريزة ·

ومع بداية الاحداث في نيسان ١٩٧٥ ازداد التجافي وتصاعدت الروح العدائية وخيم التوتر المستمر على المنطقة ، بيد ان تعليمات الثورة المشددة والتي تقضي بالامتناع عن اي استفزاز وتحاشي الانجرار الى اي صدام ابقت الوضع هادئا ، ولقد لعب الاصدقاء الحياديون اللبنانيون دورا بارزا في التهدئة وطرحوا شعار ابقاء المنطقة في سلام ووئام بعيدة عن النزاع · وكان تجاوب مسؤولي التنظيمات معهم كبيرا وامتد التعاون للقيام بأعمال انسانية بعيدة عن المنطقة ، وعلى سبيل المثال ، اتصالات اجراها مسؤولو التنظيمات مع قياداتهم للافراج عن عدد من المخطوفين اللبنانيين اليمينيين في فترات متعددة بمختلف

المناطق ، ونجح هؤلاء المسؤولون في مساعيهم وافرج عن المخطوفين . فقد تم مثلا التوسط للافراج عن المدعو شهيد عازار وهو من اهالي عينطورة ـ المتن وكان قد خطف في طرابلس ونقل الى عكار ، ونجحت الوساطة وافرج عنه وسلم الى رئيس بلدية ضبية قبلان الاشقر الذي قام بدور الوساطة . ورغم هذا الدور الانساني البناء فقد اقدم اليمين على خطف المدعو حنا بلوط وهو مواطن فلسطيني كان يعمل في جل الديب . وكل ما فعلته التنظيمات هو الاتصال برئيس البلدية لحل المشكلة سلميا ولم تقم باي رد فعل سلبي . لا نريد ان نسترسل في تعداد مثل هذه الحوادث السلبية التي كان يقوم بها الجانب المعادي والاعمال الايجابية التي كان يقوم بها مسؤولوا التنظيمات بالتعاون مع الاصدقاء الحياديين اللبنانيين في طليعتهم رئيس البلدية قبلان الاشقر الذي لا يزال مهجرا والذي تعرضت عائلته بعد سقوط المخيم الى الركل والضرب والابعاد ، وتعرض مسكنه للنسف من قبل اليمين . جريمته انه كان انسانا محبا للجميع مساويا بين اللبنانيين والفلسطينيين ملتزما بالحق قولا وفعلا .

اخذ الجو يكفهر بالمنطقة رغم كل الوسائل الممكنة لابقائه صافيا في اواخر عام ١٩٧٥ واهتم الاهلون بتخزين المؤن بعد ان توقف العمل واصبح من المتعذر على اي فلسطيني التحرك الى مكان عمله ، وقامت تعاونية « فتح » التي انشئت عام ١٩٧٤ باحضار المزيد من المؤن على سبيل الاحتياط ، لقد اخذت استراتيجية اليمين تتضح وهي منحصرة في تصفية الجيوب الوطنية في المنطقة للانقضاض على مخيم ضبيــة في النهاية . وخلق التبريرات الباطلة والاعلام المضلل في كل حادثة . لقد شرعت فصائل اليمين بالتعاون مع السلطة في تصفية الوجود القومي الاجتماعي المسلح في جل الديب ، ثم انتقلت لتصفية حارة الغوارنة ، وشرعت بعد ذلك بتمشيط المنطقة تباعا والتخلص من كل من هو غريب عن المنطقة مهما كانت جنسيته وزادوا على ذلك بالعمل العلني في التخلص من كل من هو من غير طائفتهم ولو كان لبنانيا . ولاعطاء الدليل على هذا القول فقد اقدم اليمين اللبناني قبل سقوط المخيم بثلاثة اشهر على نسف صيدلية هريش في محلة ادونيس المجاورة لجونية لا لشيء الا لان صاحبها ينحدر من اصل فلسطيني ومع انه يحمـــل الجنسية اللبنانية ، كذلك قام اليمين بنسف محل تجاري يخص ماري نعيم العســـل الفلسطينية الاصل والتي تحمل ايضا الجنسية اللبنانية في قلب جونية كذلك القى متفجرات على محلات صبحي لام ، ورفول جبر في نفس البلدة . ناهيك بقتل واهانة وابعاد عشرات من العمال السوريين الذين كانوا يعملون في الزراعة والبناء .

لقد بدأ التصور العام لدى سكان المخيم بعد سلسلة الاحداث المتلاحقة هذه في المنطقة ان المخيم هو خاتمة المطاف بالنسبة لانظار اليمين في المنطقة ، لا سيما ان الجيوب الوطنية قد تمت تصفيتها ، واصبح وضع المخيم حرجا ، اذ ان الجانب المعادي اصبح محيطا بكل المرتفعات المطلة عليه ، وطرق الامدادات باتت مقطوعة عنه ، اضافة للحزام العسكري القائم منذ احداث ١٩٧٣ .

كان اول استفزاز تعرض له المخيم يوم السبت الاسود المشهور حيث قتل احد المواطنين الفلسطينيين المدعو انيس نحاس وهو من سكان المخيم ونتج توتر واصطدام اسفر عن مقتل فلسطيني اخر هو راشد بشاره . ومع سقوط شهيدين رضي المخيم بالتسامح رغبة في عودة السلام الى المنطقة وتماشيا مع دعوة الاصدقاء اللبنانيين الحياديين . لكن هذا الموقف المتسامح لم يغير شيئا من الموقف العدائي المشحون حقدا وكراهية نتيجة للتعبئة النفسية المتصاعدة . وبدأ التمهيد لاحتلال المخيم باطلاق افتراءات اعلامية لا صحة لها

اطلاقا ويعرف الجميع في المنطقة زيفها ، منها ما ذكرته جريدة «العمل» في تشرين الاول من ان الاغـراب في منطقة ضبية قد استولوا على بيوت اللبنانيين التـي بناها اباؤهم واجدادهم بعرق الجبين مع العلم ان الفلسطينيين المستأجرين في بلدة ضبية وذوق الخراب هم وحدهم الذين استمروا في دفع الايجار شهريا لاصحاب المباني اللبنانيين خلال الاحداث وانتقل اليمين بعد ذلك لاقامة متاريس واقامة حواجز ، ولم تسفر مراجعات مسؤولـي التنظيمات عن اية نتائج ايجابية ، ولم يتمكن الحياديون من تخفيف التأزم المتصاعد ولجم الاستفزازات المتمادية . ورغم كل الاجتماعات والحوارات لم يحدث اي تقدم يعيد الـى المنطقة الهدوء المنشود .

ان الاستراتيجية اليمينية ازدادت سطوعا في اهدافها القاضية بتصفية اخر قلعة وطنية في المتن الساحلي وان التكتيك الذي اتبع في تصفية الجيوب الوطنية الواحد بعد الاخر في المنطقة انما يهدف بالنهاية لاحتلال مخيم ضبية وفقا لهذه الاستراتيجية أكان المخيـم مسلحا ام اعزلا ، اكانت عناصرد تقوم بتجاوزات او لم تقم ، اكان سكانه ملائكة قديسين ام لم يكونوا . الاستراتيجية اليمينية تقضي بالتخلص منه بعد تهاوي الجيوب الوطنية كلها في المنطقة . لتبسط نفوذها عليها ويصبح طابعها كله من لونها .

استشهاد مخيم ضبيه
١٤ كانون الثاني ١٩٧٦

لم يكن من المنطقي في مفهوم اليمين الانعزالي ان يبقى مخيم ضبية في المتن الساحلي الشمالي موجودا بعد ان تتم له تصفية الجيوب الوطنية المتفاعلة معه والمتعاملة مـــع تنظيماته ، فبدأ الاستعداد للتخلص من اخر عدو في المنطقة . وازدادت التوقعات لليوم المشهود في ارجاء المخيم وبدأ جو الوجوم والقلق . فالاتصالات ببيروت وبقيادة الثورة امست مقطوعة ، والحصول على امدادات بات ضربا من المستحيل ، وامسى الجو مشحونا بالتوتر معدا للتفجير بين يوم واخر . ففي مساء العاشر من كانون الثاني عام ١٩٧٦ فيما كانت سيارة لاحد افراد الحزب السوري القومي الاجتماعي وبداخلها احد عناصر فتح واخر قومي تسير على الاوتستراد في طريقها الى المخيم اطلقت عليها النيران بغزارة قرب الطريق المتفرعة من الاوتستراد الى المخيم من كمينين انعزاليين فأصيب الثلاثة بجروح مميتة وتابعت طريقها الى المخيم ، ولعلع رصاص الانعزاليين فتكهرب الجو بسرعة ، وسارع الجانبان الى التهيوء والاستنفار ، وتزايد ازيز الرصاص ، وتمكنت ميليشيا التنظيمات وفقا لاستراتيجية عسكرية باحتلال معظم جانب بلدتي ضبية اللبنانية وذوق الخراب القريب من المخيم وتطويق مكتب الانعزاليين والغرض من ذلك الضغط علـى الانعزاليين لتفادي المعركة ، بحيث انهم يستنكفون عن المضي فيها لان ميدانها سيكون خارج المخيم وفي قلب الضيعتين المجاورتين وهذا بطبيعة الحال سيترك اسوأ النتائـــج على سكانهما . من هنا عمد الانعزاليون الى الخداع حين طلبوا التفاوض لحل الاشكال سلميا على اعتبار ان الحادث عرضي ويجب ان يمر دون ذيول ، ورغبة في تجنب الصدام وتوسيع رحى الاصطدام تجاوب المسؤولون عن التنظيمات فتوقفت الاشتباكات وتم لقاء في بيت المدعو عبدالله ضومط المتعاطف مع الانعزاليين ، اتفق على عودة الامور الى طبيعتها دون ذيول ، واعتبار ما حدث وكأنه لم يكن ، ونتيجة لهذا الاتفاق جرى سحب عناصر الميليشيا عن مواقعها وتفرق اكثر العناصر الى البيوت وخرج الاهلون من الملاجىء بعد ان خيم الهدوء واطمأن الجميع الى عودة الوضع الى حالته الطبيعية ، وفيما وفد التنظيم

لا يزال في بيت عبدالله ضومط ، والناس في المخيم قد خرجوا للشوارع كالعادة بدأ القصف المدفعي الغزير والمتواصل على المخيم من كل المرتفعات المحيطة به ، فتبين للجميع بأن المفاوضات خدعة انطلت على المسؤولين الذين فقدوا زمام المبادرة في التحرك لان نيران الانعزاليين اصبحت تتحكم بكل اطراف المخيم وبداخله · اضافة الى نيران المراكز العسكرية الثلاثة المتواجدة حول المخيم منذ احداث ١٩٧٣ والمتحكمة استراتيجيا به فقد قدمت اضافة للمساندة التوجيه في التحرك والارشاد الى المراكز الدفاعية حول المخيم · استمرت المعركة اربعة ايام بلياليها . والقصف المدفعي يتزايد من كل الاتجاهات ، خاصة من الاديرة التي على قمم التلال المحيطة بالمخيم · المليشيا التي لم يكن بين صفوفها مقاتل محترف تتصدى ، الاهالي في الملاجىء ، المياه مقطوعة والكهرباء كذلك ، ولم يكن هناك توازن بين الفريقين في العدد والعدة · الانعزاليون والعسكريون المهاجمون يربو عددهم على الخمسة الاف بينما عناصر المليشيا المدافعة لا تتجاوز المائتين · المواقع الاستراتيجية كلها بأيدي الانعزاليين وهي تحيط بالمخيم من كل الجهات ، والمخيم محصور بين نيرانها في مكان منخفض جدا عنها · الامدادات متواصلة للانعزاليين رجالا وعتادا واليات عسكرية . والمخيم محاصر بلا امدادات وبلا اسلحة ثقيلة وذخائر كافية ·. الغدر الانعزالي في القيام بالهجوم بعد التفاوض ورجوع المليشيا عن مواقعها الدفاعية وعدم تمكنها من العودة الى اكثرها · اليات ثكنة صربا من دبابات ومجنزرات وناقلات جنود كان لاسلحتها ولخبرة جنودها تأثير فعال في حسم المعركة · ونتيجة لهذه المعطيات وللفارق الكبير بين الفريقين مال سير القتال الى جانب الانعزاليين واصبح الاستمرار في القتال انتحارا فكانت حتمية السقوط · ومساء ١٢ـ١٤ كانون الثاني شقت غالبية المليشيا طريقها بكامل اسلحتها سيرا على الاقدام الى ديك المحدي رغبة في الانتقال الى ضهور الشوير الصامدة انذاك في وجه الانعزاليين · وتمكنوا من الوصول بسلام . واجروا اتصالا بأسد الاشقر لكي يساعدهم بمرشد يهديهم الى الطريق الجبلية المؤدية الى ضهور الشوير فاستمهلهم وابقاهم في ضيعته ثلاثة ايام اجرى خلالها اتصالا بالكتائب لتسليمهم به ـاومة ، لكنهم لم يطمئنوا ولم يقبلوا ، وهذا ما قاله علنا امين الجميل في المخيم بعد سقوطه بيوم واحد · حيث اعلم الناس بأن الاشقر اتصل به والمفاوضات مستمرة · وعندما تحرك افراد المليشيا الى بيت شباب تمهيدا للانتقال الى ضهور الشوير ، اقام الانعزاليون الحواجز والكمائن والدوريات · ثم قاموا بمحاولة لتطويق القرية الامر الذي دعا افراد المليشيا لشق طريقهم عنوة الى ضهور الشوير . وفي مكان حرجي بين بكفيا وضهور الشوير حدث صدام بين كمائن الانعزاليين وافراد المليشيا سقط على اثره احد عشر شهيدا تم التمثيل بجثثهم وتابع الناجون طريقهم الى ضهور الشوير حيث بقوا فيها لبضعة ايام ، اتجهوا منها بعد ذلك الى بيروت ·

اما على صعيد المخيم وقد ضعفت المقاومة فيه فقد دخله الانعزاليون صباح الرابع عشر من كانون الثاني ، وجرى تجميع الناس في ساحة خارج المخيم قريبة منه · وانصرف فريق الى نهب البيوت وحرقها وهدم بعضها ، وفريق احاط بالناس في الساحة يتلهى بالشتم والضرب والاذلال والتصفيات · ولم يسلم كاهن فلسطيني يدعى يوحنا أبو حمرا وهو في الخامسة والثمانين ويحمل الجنسية اللبنانية من الركل والرفس ووقع مغميا عليه · كما تم تجميع جثث خمس وعشرين شهيدا وبدأ التمثيل بها على مرأى من الناس عامة ·

اما موجة التهديم فقد توقفت واستقر الامر على الحريق وذلك بسبب الرغبة بعدم الضرر

ببيوت اللبنانيين في المخيم ، وهي متلاصقة ، والوحدة السكنية تضم عدة بيوت وبالنسبة للحريق فقد شملت اكثر من نصف بيوت المخيم ·

لقد جرى تصفية بعض الجرحى علنا « بالبلطات » وبينهم قومي اجتماعي لبناني ماروني هو الشهيد طوني سلامة كما جرى الاعتداء على الاعراض · وكان نتيجة لهذا القهر وروح الانتقام والتشفي شعور بالمرارة عنيف تمنى كل من كان في الساحة ان يصار الى هدم المساكن كافة وابادة السكان جماعيا تخلصا من الاذلال والقهر · في المساء سمح للاحياء بالعودة الى منازلهم المحترق اكثرها والذهول يلف المخيم والحزن يغمر القلوب · والزمر اليمينية المسلحة تجوب الشوارع تستجوب من تريد وتخطف من تريد · لكن انتقال الانعزاليين الى حصار الكرنتينا والمسلخ خفف الضغط عن سكان المخيم لبضعة ايام ، حيث تمكن الكثيرون من الانتقال الى المنطقة الغربية ولم يبق في المخيم الا العجزة والاطفال واللبنانيون · وعادت موجة الضغط والتنكيل والاذلال من جديد بعد الفراغ من احتلال المسلخ والكرنتينا · وزادوا على ذلك فرض الاتاوات والغرامات ، وارغموا الاهالي على شراء منشوراتهم بأسعار مضاعفة وحاولوا اقتياد الصغار الذين اعمارهم دون الخامسة عشرة الى العمل ثم الى التدريب بغية سوقهم الى مخيم تل الزعتر ولما باءت محاولتهم بالفشل لاصرار الصغار على الرفض قاموا بتعذيبهم لعدة ايام قبل اطلاق سراحهم · ومن الناحية المعيشية توقف كل من بقي قادرا على العمل عن متابعة عمله وحـــال انقطاع المواصلات دون ايصال الاموال من الابناء للاباء ، وفرض على المخيم حصار تمويني دام اشهرا · حاولت الانروا ارسال المؤن الشهرية فصادرها الانعزاليون بكاملها · وحاولت الثورة ارسال شاحنتي تموين عن طريق الصليب الاحمر فتمت مصادرة المؤن بكاملها ، ولجأت الثورة مجددا الى ارسال مساعدات نقدية للمعدمين فتعرض الذين قبضوا للاهانات والشتائم واخذ الاموال منهم ·

كانت النتائج الاولية اضافة للنزوح والتهجير الى المنطقة الغربية والى خارج لبنان اذلال الذين بقوا في المخيم وارهاقهم ماديا ومعنويا · اما الذين بقوا فقسم جعلتـــه اوضاعه المادية الصعبة مرتبطا بالبيت مطمئنا نسبيا لنزوح اولاده الشباب من المخيـم الى بيروت الغربية وقسم لبناني يحمل بطاقات انروا ، سكن المخيم رغم امتلاكه عقارات في الجنوب اللبناني طمعا بالسكن المجاني وتناول مؤن الاونروا والحصول على التعليم المجاني . هذا القسم انقلب بين عشية وضحاها واندمج مع الانعزاليين وعمل في صفوفهم بعيد سقوط المخيم ، وعلى سبيل المثال قام الشيخ بيار الجميل بأكثر من زيارة لهذا القسم . ولم يوجه لاحدمنهم سؤال او لوم ، اضافة الى ممارسته حريته كاملة في الانتخابات النيابية والتحزب لليمين · وعند توقف القتال في لبنان اخذ افراد كثيرون ممن كانوا خارج لبنان يأتون لتفقد ذويهم واهلهم ، فكانوا يستأذنون الانعزاليين لزيارة عائلاتهم ليوم او يومين مقابل مبلغ من المال تتراوح قيمته بين الالف ليرة والالفين · وكان الابناء مضطرين لدفع هذه الخوات بسبب تشوقهم لرؤية الاباء والامهات وتقديم المعونات المادية لهم · واستمرت اعمال الاذلال والجبايات واخذ الاتاوات فترة طويلة بعد دخول قوات الردع العربية الى لبنان · بيد ان تمركز قوة الردع فيما بعد قرب المخيم ، ومراجعة اهالي المخيم لها ادى الى تخفيف جو الارهاب نسبيا · لقد انشأت السلطة مخفرا امنيا في المخيم مؤلفا من ثلاثة عناصر ، لكن هذا المخفر بالواقع طرف وليس لديه اية صلاحية ، ولا يمكنه ان يتفرد بعمل دون الرجوع الى مسؤولي الانعزاليين الذين لا يتركون له الحرية الا اذا كان تصرفه للضغط على السكان ومضايقتهم ·

ان الوضع الجديد القائم ادى بالنتيجة الى قناعة تامة بالنسبة لغالبية المهجرين من المخيم بأن العودة-اليه وان تحقق الامن هي ضرب من المستحيل ، فالاستقرار في المناطق الغربية او خارج لبنان امسى هدفا نهائيا ، وهذا ناتج عن جو العداء والكراهية المتزايدين لجميع الذين نزحوا الى المنطقة الغربية اذ اعتبروا اعداء الداء ، ومن ناحية ثانية يشعر المهجرون من المخيم بعدم الارتياح النفسي على الاقل لمرأى قتلة ابنائهم وجلادي ابناء شعبهم ، بالاضافة الى ذلك استقرار ما لا يقل عن ستين عائلة لبنانية معظمها من التيار الانعزالي في بيوت النازحين عن المخيم وقيامهم بترميمها وتحسينها ثم تحويل المخيم الى ضيعة لبنانية بحيث يمحي الطابع الفلسطيني فيه ، وهذا ما دفعهم لتغيير اسمه . وابطال مدرسته الخاصة بالفلسطينيين وجعلها لبنانية النهج والتبعية ٠

وهكذا يكون قد اسدل الستار على المخيم الذي كانت ولادته في اواخر عام ١٩٤٩ وكان شبابه بين عامي ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦ ، ابان عهد الثورة تم موته على الصليب في ١٤ كانون الثاني ١٩٧٦ ٠

اسماعيل شموط

التراث الشعبي الفني الفلسطيني

مقدمة

ان تراث شعب من الشعوب لا يتكون الا من خلال حياة مستمرة لقوم على بقعة من الارض ، ذات عمق تاريخي طويل ، هي الوطن ، وذات ملامح محددة ترسمها قدرات الشعب في حب الحياة ، وتحمل مشاقها الى جانب التمتع بخيراتها ٠

وشعب فلسطين يملك هذه الخصائص التي جعلته غنيا بتراث فني كبير ، متميز في كثير من اوجهه بمستوى راق يلفت النظر ٠

ان شعب فلسطين ، هو خلاصة تواجد انساني على ارض فلسطين منذ الاف السنين ٠ والمكتشفات الاثرية في كل من أريحا وجازر ومجدو تؤكد ان الانسان مارس على ارض فلسطين حياة متقدمة قبل اكثر من خمسة الاف سنة ، اضافة الى المكتشفات التي تدل على وجود حياة الانسان في العصور الحجرية القديمة والمتوسطة ٠

ويعتبر الكنعانيون هم سكان فلسطين الاوائل ، الذين جاءوا ضمن موجات الهجرة العربية السامية من الجزيرة العربية بدءا من الالف الرابع قبل الميلاد ٠ وكانت كبرى هذه الموجات هي التي حدثت حوالي ٢٥٠٠ ق٠م٠ والتي عرفت باسم الموجة الامورية ــ الكنعانية ٠ فنزل الاموريون داخل بلاد الشام وجنوبها الشرقي ، بينما استوطن الكنعانيون الجزء الذي يعرف اليوم بفلسطين ٠

وهناك فئات قليلة استوطنت ارض فلسطين ، الى جانب الكنعانيين ، وفدوا من بقاع مجاورة ، منهم الاراميون والمؤابيون والادوميون ٠ وفي حوالي ١٢٠٠ ق٠م٠ لجأ الى الساحل الجنوبي لفلسطين اناس قدموا من جزر بحر ايجه والذين عرفوا بالفلسطينيين ٠

ثم حدثت الموجة العربية الكبرى التي حملها الاسلام في القرن السابع الميلادي والتي شكلت منعطفا حاسما في تاريخ الشعب الفلسطيني وطبعته بالشخصية العربية ، وكونت ملامحه بشكل نهائي وصريح ٠ ولما كانت فلسطين ، وما تزال ، بقعة جغرافية ذات اهمية

استراتيجية ، سواء من الناحية السياسية او الاقتصادية او الدينية ، فقد تعرضت لكثير من الغزوات وللاحتلال عبر التاريخ · وكان الغزو العبراني عام ١٠٢٠ ق·م· احد هذه الغزوات ، والذي اسفر عن قيام مملكة اسرائيلية على جزء من ارض فلسطين لمدة تقارب السبعين عاما انقسمت فيما بعد الى اثنتين لفترة من الزمن قضى عليهما الاشوريون والبابليون فيما بعد · وتبع ذلك الغزو ، الفرس والاغريق والرومان ، وفي القرن الحادي عشر الميلادي غزا الفرنجة (الصليبيون) فلسطين واحتلوها لحوالي مائة عام ·

غير ان سكان فلسطين الاصليين لم ينزحوا عن الارض ، بل ظلوا يعيشون عليها ويمارسون حياتهم ، سواء في ظل الاحتلال او في فترات الانفراج ·

يقول جيمس هنري برستيد في كتابه « العصور القديمة » : « ولا يخفى ان مدن الكنعانيين كان ذات حضارة قديمة ، نشأت منذ الف وخمسمائة سنة (قبل العبرانيين) ومنازل متقنة حوت كثيرا من اسباب الراحة والرفاهية ، وحكومة وصناعة وتجارة ومعرفة بالكتابة ، وديانة · حضارة اقتبسها اولئك العبرانيون السذج من الكنعانيين » ·

كما شهدت فلسطين بعد الفتح الاسلامي نهضة في مختلف مجالات الحياة ، ويكفي للدلالة على ذلك الرجوع الى ما كتبه الرحالة والمؤرخون العرب والاجانب عن الحياة في فلسطين اثناء تلك الحقبة · ولعل افضل من يوضح تفاصيل ذلك هو محمد بن احمد ابي بكر المقدسي في مؤلفه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » (٩٨٥ م) ·

عام ١٩٤٨ تعرضت فلسطين وشعبها لابشع مؤامرة سافرة ، خطط لها ونفذها الامبرياليون والصهيونيون نتج عنها تشريد اكثر من نصف سكانها ، وحولتهم من مواطنين فلسطينيين الى لاجئين عرب ، وأقامت كيانا صهيونيا عنصريا توسعيا على ارض فلسطين دعي اسرائيل ·

واثر عدوان ١٩٦٧ احتلت اسرائيل باقي اجزاء فلسطين اضافة الى احتلالها اراضي عربية اخرى ·

ويبلغ عدد الفلسطينيين اليوم حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون ، يعيش نصفهم تقريبا تحت الاحتلال الصهيوني ، والنصف الاخر مشرد في اقطار عربية مجاورة وفي دول مختلفة من العالم ·

ولم تقتصر المؤامرة على انتزاع الارض الفلسطينية وتشريد معظم سكانها ، وتدمير القرى وازالة اثارها من الوجود (ازيل من الوجود حتى الان اكثر من ٣٥٠ قرية) ، بل عمد العدو الصهيوني الى سرقة التراث الشعبي الفني الفلسطيني ، ونسبه اليه ، او محاولة طمس وجوده ·

ان تراث شعب فلسطين الفني هو جزء من التراث الشعبي العربي بشكل عام لعوامل كثيرة اهمها ان فلسطين هي جزء من الوطن العربي الكبير ، وشعبها جزء من الامة العربية التي تجمع بين شعوبها مقومات تاريخية وحضارية واحدة · غير ان هناك عوامل خاصة طبعت شعب فلسطين بمميزات فريدة · وشكلت تراثه الفني بطابع خاص يلاحظ بشكل واضح في كثير من مظاهره وملامحه ، والتي لا يمكن ان تكون الا فلسطينية ·

وردا على محاولة العدو الصهيوني طمس معالم تراث الشعب الفلسطيني ، احد اهم مظاهر الوجود الحيوي للشعب الفلسطيني الذي تحاربه الصهيونية ، ووعيا من الثورة

الفلسطينية لاهمية هذا التراث والحفاظ عليه كدليل على قدرات هذا الشعب في مجال العطاء الفني ، وادراكا منها لاهمية ذلك في مجال رصد الحركة الفنية الانسانية بشكل عام ، واظهار ما قدمه الشعب العربي الفلسطيني من مساهمة في بناء الحضارة الانسانية، فان منظمة التحرير الفلسطينية تولي هذا الموضوع الاهتمام اللازم لجمع تراث شعبها ، ولملمة اطرافه ، وحفظه ، وتقديمه في معارض متنقلة ، اضافة الى الحرص على التشجيع لممارسته وتطويره من خلال الاجهزة والمؤسسات الخاصة ، ومراكز التأهيل والعمل في اماكن تواجد الشعب الفلسطيني ٠

ان التراث الشعبي يشتمل على انتاجات فنية متنوعة ، منها الفنون الادبية كالشعر الشعبي والاقاصيص والامثال ، والفنون السمعية كالموسيقى والغناء ,والفنون الحركية كالرقص الشعبي ، والفنون الحرفية كالغزل والنسيج والتطريز ، والصناعات اليدوية المتنوعة من الفخار والخشب والاصداف والمعدن وما الى ذلك ٠

والتراث الشعبي الفلسطيني غني بهذه الفنون ، غير اننا لا نتناول هنا الفنون الادبية ، ولكننا سنقتصر الحديث عن الفنون السمعية والحركية ، وبالاخص ما يتعلق بالغزل والنسيج والتطريز والازياء الشعبية ٠

الفنون السمعية والحركية

ذكر البحاثة فيليب حتي في مؤلفه « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » :
« ظل الناس حتى الفترة الاخيرة يجهلون حقيقة ما قدمه الكنعانيون للحضارة واللغة والفنون وفن العمارة والادب والزراعة والصناعة » ٠

« كانت طقوس الهيكل تستدعي العزف على الالات الموسيقية ٠ وكان الموسيقيون والمغنون الاول في الهيكل كنعانيين في أشخاصهم وتدريبهم ٠ وعندما بدأ داوود بالموسيقى العبرانية المقدسة ورقاها سليمان ، لم يكن هناك من نموذج يمكن اتباعه سوى النموذج الكنعاني » ٠

ولعل في هذه المقتطفات ما يكفي للدلالة على ان سكان فلسطين الاوائل ، الكنعانيين ، عرفوا الموسيقى والغناء ، وبالتالي اخترعوا الالات الموسيقية لذلك ٠

كما عرف العرب الموسيقى والغناء ، وبلغوا بها مستوى راقيا ابان عصر النهضة العربية منذ حوالي الف عام ٠ ويذكر في هذا المجال الاصفهاني والفارابي اللذين كانا لهما اهتمام واضح بالموسيقى والغناء ، ومن العازفين والمغنين في تلك الحقبة يذكر ابن جامع وابراهيم واسحق الموصلي وزرياب ٠ واخترع العرب الالات الموسيقية الوترية ، الرباب ، والعود الذي زاد عليه زرياب وترا خامسا وقد كبر صندوقه وفتحت له فتحة تدعى الشمسية ، ووصل الاندلس ومن هناك دخل اوروبه ٠

تقول السيدة يسرى عرنيطة في كتابها « الفنون الشعبية في فلسطين » :

« وتمتع العود بمركز مرموق بين الالات الموسيقية الاوروبية ، وهو اول الة كتب لها الموسيقيون الغربيون مقطوعات الية منفردة بالمعنى الصحيح » ٠

كذلك عرف العرب القانون ، وهو من الالات الموسيقية الوترية العربية القديمة التي ذكرتها قصص الف ليلة وليلة ٠ وهناك ما يشير الى ان الفارابي قد حسن فيه ٠ وذكره

الفارابي في احد مؤلفاته قائلا : « كان العرب يستعملون الات كثيرة الاوتار من التي ينفرد كل وتر فيها باصدار صوت من اصوات السلم الموسيقي » ٠

مما تقدم ، يعرف المرء ان الحديث عن الموسيقى والغناء في فلسطين هو بالضرورة حديث عن الموسيقى والغناء عند العرب ٠ وليس من شك ان الحديث عن الموسيقى والغناء العربيين بشكل عام لا يعني الحديث عن الموسيقى والغناء الشعبيين في كل قطر او على الاقل في كل منطقة من مناطق العالم العربي ، رغم ان الفروق ليست حادة كبيرة بين الاثنين ٠ كما ان للموسيقى والغناء العربيين اثرهما في الموسيقى والاغنية الشعبيتين سواء من حيث التقنية او الابداع ٠

هناك الات موسيقية شائعة في العالم العربي ، كالعود والرباب والقانون ان اختلفت في شيء من منطقة لاخرى ، فما ذلك الا اختلاف بسيط جدا في الشكل ٠ كذلك الات الايقاع والنفخ ٠

كما ان هناك مقامات موسيقية شائعة تختلف من مكان لاخر في العالم العربي بطريقة تركيبها وبعلاقة المقام بالاخر وليس في جوهر المقام بحد ذاته ٠

لذلك نجد الفن الموسيقي والغنائي الشعبي في فلسطين محكوما بهذه البديهيات ٠ لكن ذلك كما هو الحال في معظم الاقطار العربية ، او جميع المناطق العربية ، ففي فلسطين نجد ألحانا واغاني والات فلسطينية الطابع ٠

ان الموسيقى والغناء توأمان في العالم العربي ، اذ نادرا ما تكون هناك مقطوعات موسيقية دون غناء فردي او جماعي ، ذلك مرده الى تعلق الانسان العربي بالكلمة المحكية ، ولتراث عربي كبير من الشعر الذي اثر في الحس العربي وبالتالي في الفنون بشكل عام وخاصة الموسيقى والغناء ٠ فالاغنية الشعبية الفلسطينية تعتمد هذا المنهج ايضا ، لذلك فان مضمون الاغنية هو جزء من العملية الفنية ٠

هناك علاقة حميمة بين الموسيقى والغناء وبين الرقص الشعبي في فلسطين ٠ ان جميع الرقصات الشعبية الفلسطينية تكون دائما بمصاحبة الموسيقى والغناء ٠ لذلك ، فالحديث عن الموسيقى والغناء يجرنا للحديث عن الرقص في الوقت ذاته ٠

وكما ذكرنا سالفا ، بان مضمون الكلمة المغناة هي جزء من العملية الفنية في الموسيقى والغناء ، فان الرقص ايضا جزء اخر مكمل للعملية الفنية الموسيقية الغنائية الراقصة ، باعتبارها وحدة من مجموعة عناصر يكمل كل منها الاخر في حالة الرقص الشعبي ٠

ان غالبية الالحان الشعبية الفلسطينية بسيطة في تركيب جملها الموسيقية ، وهي صفة تتسم بها معظم موسيقى الشعوب الفطرية ٠ كما ان المقامات الاساسية التي تعتمد عليها هي مقام البياتي وهو الغالب ، ومقام الراست والسيكاه والعجم والحجاز ٠

وكغيرها من موسيقى الشعوب فان الموسيقى والغناء الشعبي الفلسطيني ذو حركة رتيبة متكررة ، غير ان ذلك يزيد في تصعيد الحس الفني عند الموسيقي والمغني والراقص والمستمع في الوقت نفسه ٠ والمغني المتمكن ينطلق احيانا بالخروج عن اللحن المتبع بحرية ضمن حدود الحفاظ على الايقاع والعودة الى المقام الاساسي الذي يرتكز عليه اللحن ، وهو نوع من الزخرف يضفيه المغني الى الاغنية ٠

ان الاغاني والاهازيج التي تغنى دون الرقص قليلة نسبيا في الاحتفالات الشعبية • فالرقص كما اسلفنا ، يكون جزءا من عملية واحدة هي الموسيقى والغناء والرقص ، هو الاكثر شيوعا في تلك المناسبات •

هناك رقصات شعبية اساسية معروفة في فلسطين ، هي الدبكة والسحجة والسامر والدحي •

الدبكة ، وهي رقصة الشباب تؤدى على انغام المجوز او الارغول او الشبابة • ويكون الشباب حلقة مفتوحة يديرهم « اللويح » الذي يلوح بمنديل في يده مشيرا بحركات من عينيه ويديه لادارة الرقصة • ويبدأ الرقص بالعزف المنفرد على واحدة من الالات المذكورة ، حيث يليه « القويل » وهو المغني في المجموعة بالغناء ، في الوقت الذي تبدأ المجموعة بحركة بسيطة من الارجل بشكل رتيب حسب الايقاع ، ما تلبث ان يتصاعد عنفوانها مع اشارات اللويح • وعندئذ تنطلق المجموعة في حركات رشيقة تدور حول العازف محافظة على شكل الحلقة بينما ينفصل اللويح بين الفترة والاخرى عن المجموعة بحركة حرة ضمن الايقاع المتبع • ويستمر العازف طيلة الوقت بالعزف كما يستمر المغني ايضا بالغناء • وفي اثناء الغناء تخف حدة حركات الراقصين ، بينما تعود لعنفوانها بين كل فقرة واخرى من الغناء • وكثيرا ما تلعب الكلمة المغناة بما تحمل من معنى دورا كبيرا في اثارة الاحاسيس وتصعيد الحركة الراقصة وما يعكسه ذلك في المشاهدين من انجذاب وحماس •

وفي شمال فلسطين تشارك المرأة الرجل في رقص الدبكة ، بينما في اماكن اخرى ترقص المرأة رقصات مماثلة في حلقات خاصة بالنساء •

السحجة : تختلف عن الدبكة في تشكيل مجموعة الراقصين ، اذ يقف الرجال في صف واحد متشابكي الايدي ، يتمايلون بتناسق وانسجام جميلين مع خطوات مد وجزر ، وتتميز اضافة الى ذلك بان الراقصين جميعا يغنون وهم يرقصون معا على انغام الشبابة او المجوز •

السامر : وهي رقصة تختلف الى حد كبير عن سابقتيها ، وهي اكثر شيوعا في جنوب فلسطين • يقف صفان من الرجال متقابلين ، يشتركون معا في حركة ايقاعية معينة ، ويغني احد الصفين مقطعا من الشعر بالعربية الاقرب الى الفصحى ، ثم يرد عليه الصف الثاني مقطعا اخر من الشعر • واغرب ما في هذه الرقصة ان امرأة ملثمة بعباءة ، تمسك بيدها سيفا حادا وبالاخرى اطراف العباءة عند الوجه حيث لا يظهر منها سوى عين واحدة ، تقوم بحركات راقصة حرة امام الصفين من الرجال الى درجة تصل احيانا ان يمد الرجل يده على المرأة ، وفي هذه الحالة من حق المرأة ان تضرب تلك اليد بالسيف اثناء عملية الرقص • ويحدث في كثير من الاحيان ان تصاب يد ذلك الرجل بالجروح •

وهذه الرقصة لا تتم الا في الليل وخاصة في الليالي المقمرة ، ولا تعرف من هي المرأة التي ترقص بين الرجال • كما ان ذلك يتم دون مشاركة اية الات موسيقية ، بل ان صوت المجموعة ومن حولهم يكون ذا جمال موسيقي له تأثير كبير في النفس •

الدحي : وهي شبيهة بالسامر الى حد كبير ، غير ان الابيات المغناة تكون باللهجة العامية الخاصة بالمنطقة التي ينتمي اليها الجمع •

وتقام حفلات الرقص الشعبي هذه في الافراح ، خاصة مناسبات الزواج ، وفي الاعياد الشعبية والرسمية والدينية ·

ان اهم الالات الموسيقية الشعبية في فلسطين هي :

الالات الوترية : العود ـ القانون ـ الربابة ـ البزق ·

الات النفخ : الشبابة ـ الناي ـ المجوز ـ الارغول ـ المزمار ·

الالات الايقاعية : الطبل ـ الدربكة او الطبلة ـ الدف ـ المزهر ـ النقارتان ـ البازة ـ الفقاشات ـ الطاسات ـ المهباش ·

الفنون الحرفية

تتألف الفنون الحرفية الشعبية في فلسطين من : الغزل والنسيج · الازياء الشعبية والتطريز · الزجاج · الصدف · الخشب · المعدن · الفخار والخزف ·

الغزل والنسيج :

ان صناعة الغزل والنسيج في فلسطين صناعة متوارثة منذ الاف السنين ـ فقد مارسها الكنعانيون واشتهروا بالثياب المصبوغة باللون الارجواني الذي اكتشف في الريق (الموركس وهو نوع من الرخويات البحرية) عند مصب نهر النعامين في خليج عكا · كما ازدهرت هذه الصناعة اثر الفتح العربي الاسلامي حيث ذكرها كثير من الرحالة العرب والاجانب ·

وفي العديد من مؤلفات الرحالة الاجانب الذين زاروا فلسطين في القرن الماضي واوائل القرن الحالي ومنهم تومسون (1876) THOMSON وليثغو (1814) LITHGOW وبوركهات (1822) BURCKHARDT ودالمان (1937) DALMANN ، ما يؤكد ان فلسطين كانت غنية بهذه الصناعة ·

وكانت صفد والناصرة ونابلس وبيت جالا والخليل والمجدل وغزه من اشهر مدن فلسطين في هذه الصناعة ·

ولم يكن الامر مقصورا على النسيج فحسب ، بل ان شعب فلسطين مارس العملية بدءا من زراعة القطن ، واستخراج حرير القز ، وجمع الصوف والوبر وشعر الماعز ، وغزله ونسجه وصبغه · واخترع لذلك الانوال الخشبية المختلفة الانواع ، منها الارضي والعامودي المعقد والبسيط ·

في اواخر القرن الماضي كان يوجد في مدينة الناصرة ٣٠٠ نول · وفي الثلاثينات من هذا القرن كان يوجد في بيت جالا ٣٠٠ نول وفي المجدل ٥٠٠ نول · ولقد بلغ عدد الانوال في المجدل عام ١٩٤٨ ، ٨٠٠ نول ·

ويعرف من انواع القماش الذي كان يصنع في فلسطين حتى اواسط القرن الحالي وخاصة في المجدل مايلي :

الرهباني : قطني ذو خيوط سميكة ، ازرق واسود ·

المبروم : قطني ذو خيوط متوسطة السماكة ، ابيض ·

لب المبروم : قطني ذو خيوط رفيعة ، اسود ·

المقطع : كتاني ، اسود ·

الكرمسوت : قطني مخلوط بالحرير ، احمر بني ، ومنه مخطط ·

الخضاري المبرسم : قطني مخطط وبه ازهار حريرية منسوجة ·

الهرمز : حريري منه الوان عديدة وذو عرض قليل ·

التوبيت : قطني ، اسود ·

الروزا : حرير ناعم ، بيج فاتح ·

وتستعمل جميع هذه الاقمشة للازياء الشعبية ، منها ما هو خاص بزي المرأة ومنها ما يستعمل في ازياء النساء والرجال ·

ومن الصوف ووبر الجمال وشعر الماعز صنع الرجل والمرأة في فلسطين البسط · وتشتهر كل من صفد ومجد الكروم ونابلس وابو ديس والخليل والسموع وغزة بهذه الصناعة ·

وتستعمل البسط لاغراض عديدة ، منها تصنع خيام الشعر ، وفرش لارض البيت ، واكياس لحفظ الغلال والملابس ، ومهود للاطفال وخرجة للدواب واكياس صغيرة يستعملها الفلاح للبذار ، والراعي لحفظ حاجاته ومأكولاته ·

وتشارك المرأة في معظم عمليات الغزل والنسيج · بل ان هناك اعمالا تقوم بها المرأة وحدها ، منها صناعة البسط على الانوال الارضية · اما العمل على الانوال المعقدة نسبيا ، والتي يحتاج المرء فيها استعمال يديه وقدميه ، فهي منوطة بالرجل ·

الازياء الشعبية والتطريز :

كان الزي الشعبي فيمامضى مظهرا يدل على الانتماء العشائري او القبلي ، ومع تطور الحياة ، اتسعت دائرة الانتماء فصارت القرية او البلدة ، ثم المنطقة ، الى ان اصبحت تعم الوطن بأسره ، ومن هنا برز تعبير الزي الوطني ·

حتى اوائل هذا القرن كان من السهل جدا تحديد هوية الزي الشعبي للمرأة الفلسطينية ومعرفة القرية او على الاقل المنطقة التي تنتمي إليها المرأة من الزي الذي تلبسه · غير ان ذلك اضحى صعبا بعد العشرينات من هذا القرن ، وذلك بسبب تطور وسائل النقل حيث انتقلت عبرها الخصائص المعنية لزي بلدة ما او منطقة ما الى مناطق اخرى ، وسببت امتزاجا في خصائص الزي الشعبي الفلسطيني بشكل عام ·

لكن ذلك لم يقض نهائيا على الطابع المحلي لبعض الخصائص ، بل ابقى على بعضها كما كانت ، وزي بيت لحم خير مثال على ذلك ·ومن ايجابيات هذا التغيير ان المرأة

الفلسطينية وهي دائما متطلعة فطريا نحو الافضل والاجمل ، انها استوحت ونقلت من ازياء مناطق اخرى ما رأته جميلا فاضافت الى ثوبها عناصر جديدة ٠

وبالرغم من وجود خصائص لزي كل بلدة او منطقة فانه يمكن القول ان معظم هذه الازياء خاصة في وسط وجنوبي فلسطين ، ذات قواسم مشتركة تجعل المرء يقول لمجرد النظر اليها انها ازياء فلسطينية ٠

ان الزي الذي نتحدث عنه هو زي المرأة في المدن الصغيرة وفي القرى ، وهي في هذه الاماكن امرأة مزارعة وعاملة ، وتشكل الغالبية من نساء فلسطين ٠ اما زي المرأة في المدن الرئيسية فكان في معظم مراحله زيا مستوردا ، تركي المظهر في اواخر الحكم العثماني ، واوروبيا بعد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧ ٠

وللمرأة الفلسطينية ثلاثة انواع من الاثواب التي تعتبر الجزء الاساسي من الزي الشعبي :

ثوب العمل : وهو من القماش البسيط والرخيص الثمن ، ويحتوي على بعض التطريز القليل ، تلبسه المرأة اثناء عملها في الحقل او البيت ٠

ثوب المناسبات : وهو من القماش الغالي الثمن ، وله مميزات وخصائص معينة تفرضها تقاليد الزي في البلدة ٠ ويكون التطريز عليه اكثر كثافة ودقة وجمالا ٠ ويلبس هذا الثوب في مناسبات الافراح والاعياد والاتراح ٠

ثوب الجلاية : وهو زي ذو خصائص معينة تختلف من مكان لاخر حسب التقاليد المتبعة ويعتبر اهم ثوب في جهاز العروس تلبسه متجلية يوم زفافها ٠

يتشكل هذا الزي وسط وجنوب فلسطين من :

الثوب : وهو فضفاض بشكل عام ، ذو اكمام (اردان ــ جمع ردن) مختلفة الشكل من مكان لاخر ، نجدها ضيقة في بعض المناطق و متسعة في غيرها ٠ وفي اماكن اخرى ذات شكل قريب من المثلث الذي يكبر او يصغر حسب تقاليد متبعة ٠ وتنتشر الزخرفة المطرزة باليد وبالخيوط الحريرية على كل من الصدر والاكمام وجانبي الثوب (البنائق) والجزء السفلي من خلف الثوب (ذيال) وعلى الاكتاف (الردحة) التي كانت في معظم الاحيان تزين بقطعة من قماش المخمل او الساتان ٠

وتتميز الجلاية عن الثوب بالزخارف التي تكسو الجزء الامامي من الثوب ، ابتداء من الوسط حتى اسفله ، والمكونة من قطع الحرير الهرمزي المثبتة باشكال هندسية الى حد ما ، اضافة الى التطريز على الصدر والاكمام والجوانب والخلف ٠

الشداد او الحزام : وهو من القماش الذي يختلف نوعا ولونا من مكان لاخر ، منه الساتاني المخطط ، ومنه الصوفي او القطني ٠ ويربط على الخصر بطريقة تقليدية محددة لكل منطقة ٠

الوقاة والصمادة : وهي قبعة للرأس ذات خصائص معينة ، تختلف من مكان لاخر ، وتكون من القماش القطني او الكتاني المطرزة ، وتثبت عليها مجموعة من النقود الفضية التي غالبا ما تكون قديمة غير متداولة ، واحيانا تكون بعضها او كلها ذهبية ٠ غير ان لبيت لحم قبعة مختلفة وتدعى الشطوة ، وهي اشبه بالطربوش ، محلاة بالنقود الفضية او الذهبية ، وحبيبات المرجان ٠

غطاء الرأس : هي قطعة من القماش القطني أو الصوفي أو الكتاني او الحريـــري · يطرز بعضها حسب طرق معينة تتبع تقاليد كل منطقة · وفي بعض الاماكن يستعمل الشال الصوفي المصنع والذي يحتوي على شراريب ، كما ان هناك من يستعمل القماش الابيض البسيط او المخطط · ويغطي هذا الرأس بما في ذلك الوقاة التي تلبس تحته ·

الحذاء : لم يكن ذا خصائص معينة باعتبار ان طول الثياب يغطي قدمي المرأة ·

ان زي المرأة في الجليل الاعلى والاسفل يختلف الى حد كبير عن زي المرأة في وسـط وجنوب فلسطين · ونكتفي في هذا المجال بالحديث عن زي معين كان يلبس في معظـــم انحاء الجليل حتى اواخر القرن الماضي ، غير انه انحسر اوائل هذا القرن في بعضـــ انحاء الجليل الاعلى · وهو عبارة عن معطف طويل من القماش القطني الازرق الداكـــن اللون ، ذو اكمام قصيرة ، ومفتوح من الامام ، مطرز من الخلف بشكل جميل وبوحـــدات زخرفية انيقة · اما من الامام ، فتزين طرفي الثوب قطع من القماش الحريري او المخملي الملون وباشكال هندسية جميلة · ويلبس هذا المعطف عادة فوق ثوب ابيض يصل طولـه حتى الركبة ، وله اكمام طويلة بسيطة دون سوار ، كما تلبس المرأة سروالا تحت الثوب الابيض من لون قماش المعطف ، واحيانا يكون ابيض اللون ، يزخرف الجزء السفلي منه بالتطريز · وتلف المرأة رأسها بقطعة من قماش داكن اللون ، تنسدل على الاكتاف وتربـط حول العنق من الخلف ، وتعلو ذلك عصبة من الحرير الملون تدعى مقرونة ، تعقد خلـــف الرأس واحيانا يتدلى منها طرفا باقي العصبة ·

ان اللون الاكثر شيوعا في الاثواب الفلسطينية هو الازرق الداكن ، الا ان هناك اثوابا من اللون الاسود واخرى من اللون الابيض · وفي منطقة المجدل يتضمن القماش المستعمل للثوب خطوطا طولية ملونة عريضة ورفيعة ، ويكون لون القماش عادة ازرق داكنا ، امـا الخطوط ، فتارة تكون بالازرق الفاتح او الاحمر او الاخضر · كما ان هنـاك بعض اثواب بيت لحم المخططة بخطوط رفيعة ملونة · ويوجد اضافة الى ذلك ثوب يدعى الملك وهو مـن قماش المخمل ، والذي يلبس في مناسبات خاصة ، وهذا احد اشهر اثواب بيت لحم ·

في بعض الاماكن ، وخاصة في بلدتي البيرة ورام الله ، يلبس الثوب الازرق الداكـن شتاء والابيض صيفا ــ اما في الاماكن الاخرى فلون الثوب هو جزء من تقاليد الثـــوب المحلية ·

ان معظم انواع القماش الذي يستعمل للازياء الشعبية الفلسطينية ، كما اسلفنا ، كان يصنع في فلسطين · وقليل من انواع اخرى كانت تستورد من دمشق او من الخارج ·

هناك ثلاثة انواع من التطريز هي : ١) التطريز بالغرزة الفلاحيـــة (الصليبيـــــة) ٢) التطريز بغرزة الرشق والتحريري · ٣) التطريز بغرزة اللف · هذا بالاضافة الى مـا يسمى بقطبة الحاشية او الحافة ، اي التي بواسطتها تثبت اطراف الثوب والقطع الحريرية المضافة فوق الثوب باشكال مختلفة ·

ان الغرزة الفلاحية هي السائدة ، والتي لا يخلو ثوب منها باستثناء ثوب بيت لحـم · والتطريز بهذه الغرزة يتم بواسطة الابرة وخيط الحرير الملون بطريقة الغرزة المصلبـــة · وتأخذ الزخرفة في هذه الحالة اشكالا هندسية ·

اما التطريز بغرزة الرشق والتحريري ، فهي تثبيت خيوط حريرية سميكة ومبرومة او خيوط مقصبة اي من الخيوط المطلية بالذهب او الفضة على القماش · وتتشكـــــل من

هذه الخيوط وحدات زخرفية تعتمد الخطوط المنحنية والدائرية المتواصلة المستمدة عناصرها الاساسية من حركة النبات والازهار ٠

والتطريز بغرزة اللف يتم بواسطة الخيوط الحريرية التي تملأ فراغات معينة بقطبة لفائفية الحركة ٠ وهذا النوع من التطريز يعتبر عنصرا مكملا اكثر من كونه اساسيا في التطريز الفلسطيني ، ولم تشكل هذه الغرزة كيانا مستقلا كالغرزتين السابقتين ٠

ويغلب اللون الاحمر البني على غيره من الالوان في التطريز بالغرزة الفلاحية ، ويطعم بالوان مختلفة منثورة بشكل عفوي خاضع لذوق الفتاة او المرأة ، مشكلا توازنا مريحا وجميلا ٠ اما التطريز بغرزة الرشق والتحريري ، فان اللون الاساسي يكون الذهبي او الفضي يشارك احدهما او كلاهما اللون الاحمر اضافة الى الالوان الاخرى والتي تكون مكملة ٠ ويعتمد التطريز بغرزة اللف والالوان العديدة الصارخة في فراغات مهيئة بواسطة غرزة الرشق او التحريري ، وغالبا ما يكون ذلك على جانبي الثوب والاكمام ٠

ان الوحدات الزخرفية الاساسية التي تستعمل في معظم انحاء فلسطين تستمد اشكالها واسماءها من علاقة الانسان الفلسطيني بالارض والحياة والكون ٠ ولهذه الوحدات اسماء شائعة ، وبعضها يختلف اسمها من مكان لاخر ٠

هذه طائفة من اسماء الوحدات الاساسية :

السرو ، السبلة ، النخل العالي ، عرق الورد ، عرق التفاح ، عرق البندورة ، قوار الورد ، الحية والعربيد، العصافير ، الريش ، عين البقر ، قرص العسل ، القلايد ، خيام الباشا ، المخدة ، الفنانير ، المشط ، الساعة ، عرق السيوف ، الحجاب ، طريق مصر ، النجوم ، الاقمار ، المناجل ٠

وكما هو واضح من اسماء الوحدات ، فان المرأة الفلسطينية تعبر بذلك عن حبها لما يحيط بها وبحياتها ، خاصة علاقتها الحميمة بالارض وبالفلاحة ، فالسبلة اي السنبلة ، وعرق الورد وعرق التفاح وعرق البندورة والسرو والنخيل والمناجل ماهي الا اسماء لمحسوسات زراعية تحيط بحياة المرأة الفلسطينية ، بل بحياة الانسان الفلسطيني بشكل عام ، ويتعامل معها يوميا ٠

ان الاختلاف الذي نلحظه في الطابع العام لثوب بلدة ما ، او منطقة ما وسط فلسطين وجنوبها لا يكمن في استخدام وحدات زخرفية خاصة بتلك المنطقة ، بل بطرق ترتيب وتنسيق هذه الوحدات على الثوب ، اضافة الى نوعية ولون القماش وتفصيله العام خاصة شكل الاكمام ، ونوع التطريز ٠

وكما ذكرنا ، فان التطريز والازياء بشكل عام في الخمسين سنة الاخيرة تداخلت خصائصه المحلية ، واختلط الكثير منها بعضها ببعض ٠ وبسبب وسائل النقل الحديثة تمكنت المرأة من التنقل في دائرة اوسع من الدائرة التي كانت تتنقل فيها سابقا ، بل وساعدها على ارتياد المدينة بشكل اكثر مما كان سابقا ٠ وتعرفت المرأة على طرق تنسيق الوحدات الزخرفية في اماكن اخرى ، واقتبست من المدينة وحدات زخرفية شاهدتها في السجاد المستورد وفي مواد اخرى ٠ كما ان عوامل اجتماعية اخرى لعبت دورا في تزاوج اساليب متنوعة في التطريز اهمها اتساع حلقة الزواج الذي كان يتم سابقا بين الاقارب او بين سكان القرية او البلدة او بين عروس من قرية وعريس من قرية اخرى مجاورة ٠

بذلك انتقلت مع العروس اساليب تقليدية من التطريز، اثرت في ازياء بلدة العريس ، كما اثرت ازياء بلدة العريس عن طريق زيارات اقاربها لها والتعرف على انماط جديدة في زي بلدة العروس ٠

ان افضل مثال على ذلك هو تأثير التطريز التلحمي في ثوب منطقة يافا وبالتحديد ثوب بيت دجن ٠ لقد كان ثوب بيت دجن حتى اوائل هذا القرن يعتمد على التطريز بالغـرزة الفلاحية ، الى ان جاءت بيت دجن فتاة من بيت لحم لتعيش فترة مع شقيقها هناك الـذي انتقل بحكم ظروف عمله الى بيت دجن وعلمت هذه الفتاة عددا من الفتيات والنسـوة اللواتي اعجبن بالتطريز البيت التلحمي ٠ وهذه الفتاة كانت السيدة منه حزبون المولـودة عام ١٨٨٠ والتي لا تزال تعيش حتى اليوم ٠ ومنذ ذلك الوقت اصبح ثوب بيت دجن يحتوي على نوعين من التطريز ، الفلاحي والرشق والتحريري ٠

وقد عمت شهرة التطريز التلحمي انحاء كثيرة من فلسطين في العشرينات من هـذا القرن ٠ ونتج عن ذلك حركة تطريزية احترافية في بيت لحم ، فبدأت نساء محترفـات بتطريز قطع من القماش تصلح للصدر والاكمام والجوارب لتباع عن طريق باعة متجولين ٠ وكانت مثل هذه القطع تثبت على الثوب ، وفي كثير من الحالات كانت القطع المطرزة تنقل من ثوب اهترأ الى اخر جديد ٠ وهذا ما كان يحدث ، وما زال لكثير من الاثواب التـي كانت الاجزاء غير المطرزة تتعرض للتلف قبل تلك المطرزة ٠ ويفسر هذا اهتمام المـرأة الفلسطينية بعملها الفني واعتزازها به ٠

اضافة الى اشتهار تطريز بيت لحم ، اشتهر ثوب بيت لحم المسمى ملك ، ومعطـف قصير ذو اكمام قصيرة يدعى « تقصيرة » وكلاهما مصنوع من قماش المخمـل الازرق الداكن او الاسود ، ومطرز بغرزة الرشق التحريري ٠ وقد اصبح ثوب الملك والتقصيـرة منذ العشرينات من هذا القرن قطعتين اساسيتين في جهاز العروس ، علـى العريس ان يقدمها ضمن هدية العرس ان كانت احواله المادية تسمح بذلك ٠

ان التطريز في فلسطين فن تمارسه المرأة في اوقات فراغها ، ملبية بذلك احاسيـس فنية فطرية لديها ، ومتبعة تقاليد شعبية نشأت عليها ٠ والمرأة الفلسطينية تقوم بهـذا العمل الفني الى جانب مشاركتها زوجها او اهلها في العمل سواء في الحقل او فـي مجالات عمل أخرى اضافة الى عملها في المنزل ٠

ومن المهام التي تقوم بها المرأة بشكل عفوي وتبعا للتقاليد ايضا هو تعليم الصغيـرات هذا الفن ٠ فعندما تصبح الطفلة في سن العاشرة تقريبا تكون قد اكتسبت معرفة مبـادىء التطريز ٠ وفي سن الرابعة عشرة تبدأ بالتحضير لثوب العرس ٠ ومهارة الفتاة فـي التطريزتلعب دورا في اختيارها عروسا ، اذ يحكم على قدراتها العامة من خلال اتقانهـا فن التطريز ٠ وفي هذه الحالة ينظر الى القطعة المطرزة من قبل الفتاة من الامام والخلـف لمعرفة مدى نظافتها وذوقها وترتيبها ٠ وكان هذا التقليد عاملا مشجعا لتطـور فـن التطريز في فلسطين ٠

وبالاضافة الى اهتمام المرأة الفلسطينية بزيها ، فهي ايضا تقومبالاهتمام بتزيين البيـت بقطع مطرزة على شكل وسائد وجدرانيات تعلق على الحائط ومفارش للطاولة ٠ والغـرزة الفلاحية هي الغرزة المتبعة في هذه الاعمال ٠ وفي بعض الاحيان تستغل المرأة صدر ثـوب ما زال في حالة جيدة ، فتحوله الى وجه لوسادة ٠

ان احداث فلسطين عام ١٩٤٨ ، عندما تعرض شعبها للمؤامرة الامبريالية الصهيونية ، والتي نتج عنها تشريد اكثر من نصف سكانها ، اثرت بشكل كبير على هذا الفن الشعبي · لقد كانت لتلك الاحداث اثار بالغة في الحياة الاجتماعية · فبعد ان كان الانسان الفلسطيني يعيش على ارضه ، يفلحها ويزرعها في نمط حياة مستقرة نسبيا ، اصبح لاجئا يعيش في مخيمات للاجئين · واتجه الاهتمام في السنين الاولى بعد النكبة نحو تأمين سبل العيش في ظل الاوضاع الجديدة · وكان التعليم اهم هدف وجه الاباء والامهات ابناءهم اليه · وكان حظ الاناث كحظ الذكور في ذلك · ولاول مرة فتحت مجالات التعليم الجامعي للاناث ، الشيء الذي كان مقتصرا على الذكور فيما مضى · ففي ظل الاحتلال البريطاني وعملا بالتقاليد كانت الفتاة تحصل على قسط من التعليم الابتدائي والثانوي قبل عام ١٩٤٨ · وقليلات هن اللواتي استطعن اختراق هذه الحواجز وتحصيل التعليم الجامعي ومعظمهن من بنات العائلات المعروفة في المدن الرئيسية · وكانت الفتاة بعد تحصيلها لشيء من التعليم الابتدائي والثانوي تنتظر نصيبها للزواج ومن ثم مشاركة زوجها العمل ، وكان في غالبه عملا زراعيا ·

ولم يقتصر الامر على تحصيل الفتاة للتعليم العالي الجامعي فحسب ، بل مضت بعد ذلك الى العمل في مجالات مختلفة ، خاصة في التعليم ، سواء في البقعة التي يعيش فيها اهلها ، او بعيدا عنهم في بلدان الخليج العربي والجزيرة العربية وغيرها من الاقطار ·

وبهذه الظروف الاجتماعية المختلفة اصبحت المرأة الفلسطينية المعاصرة ، او الغالبية العظمى منهن غير قادرات على ممارسة التطريز كما كانت عليه التقاليد فيما مضى · غير ان الرغبة الكامنة في ممارسة هذا الفن اسفرت في اوائل الخمسينات عن انشاء مراكز خاصة للتطريز في اماكن التجمع الفلسطينية ، في قطاع غزة والاردن وسوريا ولبنان · وكان الهدف منها الحفاظ على هذا التقليد الفني ، وتمكين بعض العائلات من العيش عن طريق ما كان يدفع مقابل العمل في هذه المراكز · ان اهمية تلك المراكز لا تكمن في نوعية الانتاج او كميته فحسب ، بل في الشعور بضرورة الاستمرار في ممارسة وانتاج هذا الفن ·

وبعد انطلاق الثورة الفلسطينية ، خاصة في السنين الاخيرة ، ازداد الاهتمام بهذه النواحي ، وازدادت معها مراكز التطريز باشراف اجهزة ومؤسسات اجتماعية تعمل ضمن اطار الثورة الفلسطينية ·

ومن الجدير بالذكر ان بعض الفنانين التشكيليين خاصة الفنانات منهم ، يشارك في الرأي ، وفي تطوير الشكل العام ، وابتكار الجديد المستوحى من القديم ·

الزي الشعبي للرجل

لا شك في ان زي الرجل في فلسطين يتميز عن زي المرأة بالبساطة التامة · ان زي الرجل الاكثر شيوعا هو الزي الذي يلبسه الكثير من سكان المدن وجميع القرويين · ويتألف هذا الزي عادة من الثوب الذي يدعى القمباز ومن السروال والطاقية والحطة والعقال والحزام والمعطف والعباءة ·

القمباز : العادي وهو الشائع ، يصنع من قماش اطلس يميل لونه الى الازرق الرمادي الفاتح · البسيط وهو قماش كتاني مخطط بنفس الالوان السابقة تقريبا ، وهو ارخص ثمنا

ويدعى « ديماية » · المترف ، وهو من قماش حريري يدعى « الروزا » ذو لون بيج فاتح · واخر حريري القماش ويدعى « غباني » ذو لون بيج فاتح مطعم بزخارف بلون بيج غامق ·

الشتوي ، ويكون عادة من الصوف تغلب عليه الالوان الداكنة · والقمباز عبارة عن ثوب طويل حتى اعلى القدمين وباكمام طويلة ليست واسعة ومفتوح من الامام · يلبس كالمعطف ، ثم يرد احد جانبيه الى الداخل والجانب الاخر فوقه · وله رباطات من الداخل والخارج لتمسك الجانبين وتثبيتهما على بعضهما البعض · وغالبا ما يلبس القميص العربي من تحته ، وهو قميص عادي ذو قبة غير مثنية مرتفعة قليلا عن قبة القمباز الدقيقة وغير المثنية ايضا ·

السروال : ويلبس تحت القمباز ، وهو من اللون ألابيض او الاسود او الازرق الداكن · وغالبا ما يكون الابيض صيفا والداكن شتاء · ويصنع السروال من قماش كتاني عادة ، الا ان القمباز يحدد نوعية قماش السروال ولونه · وهو في معظم الاماكن عريض من الخصر وضيق عند فتحات الاقدام ، ويزم عرضه عند الخصر بواسطة دكة من القيطان الخاص ·

الطاقية : اما قطنية او صوفية وهي تشغل باليد ، وكان بعض الرجال يصنعونها بايديهم، غير ان مثل هذه الطواقي كانت تتوفر جاهزة في محال البيع · وتلبس الطاقية القطنية عادة تحت الحطة ، الهدف منها امتصاص عرق الرأس ، لذلك تدعى في بعض المناطق عراقية · اما طاقية الصوف فتلبس في بعض المناطق وحدها على الراس اثناء العمل ·

الحطة : وتدعى ايضا الكوفية ، وهي قطعة قماش بيضاء مربعة الشكل من القطن الناعم، تلبس بعد ثنيها على شكل مثلث على الرأس منسدلة على الاكتاف ويثبتها العقال ·

العقال : وهو على هيئة حبل مجدول من وبر الجمال او شعر الماعز ، ذو لون اسود ، ويكون على شكل حلقة يوضع على الرأس بشكل حلقتين لتثبيت الحطة على رأس لابسها · ويتدلى منه خلف الرأس حبلان رفيعان او اكثر من نفس الخامة واللون ينتهي كل واحد منها بشراشيب صغيرة ·

الحزام : قطعة من القماش الحريري الاسود ينتهي طرفاها بشراريب قصيرة ، احيانا تكون ذات خطوط فضية عريضة فيطرفيها وتدعى الشملة · وهي تلف اكثر من لفة حول الخصر فوق القمباز · وهناك حزام اخر يلبسه الكبار في السن ، هو من قماش صوفي ناعم ، واحيانا حريري ذو زخاريف منسوجةبالوان متنوعة · ويستعمل الكثيرون الحزام الجلدي ، وهو « القشاط » العادي · كما يلبس القمباز دون حزام ايضا ·

المعطف : يكون عادة معطفا عاديا اوروبي الشكل ، قصير ذا قبة مقلوبة دقيقة ، واحيانا يكون المعطف طويلا حتى الركبة · ويتحكم في نوعية قماشه ولونه نوع القمباز الملبوس ·

العباءة : ومنها الرقيقة الشفافة من الصوف الناعم ذات لون ابيض او بيج وهي العباءة الصيفية · اما الشتوية وهي ايضا من الصوف وغالبا ما تكون من وبر الجمال ذات لون بني او اسود · والعباءة ذات شكل مربع لها فتحتان في اعلى كل جانب لليدين ، وهي مفتوحة من الامام وتزين الجزء المحيط بالرقبة زخارف مطرزة بالخيط الذهب ·

والعباءة رداء لا يلبس في اوقات العمل ، وهي على اي حال ليست لباسا شعبيا بقدر ما هي خاصة برجال ذوي مراكز مرموقة اجتماعيا · كما انها ليست لباسا فلسطينيا ، بل هي عربية تلبس في معظم انحاء بلدان الشرق العربي ·

هناك زي خاص يلبسه العاملون في البحر ، وينتشر هذا في مدن الشاطىء خاصة مدينتي يافا وعكا · ويتكون هذا الزي من القميص العربي والصديري والسروال والشملة والطربوش · والقميص العربي ، كما اسلفنا ، هو قميص عادي ذو قبة مرتفعة قليلا غير مثنية ، واكمام بسيطة دون سوار · وهو غالبا من القماش القطني او الحريري من لون ابيض وبيج ·

الصديري : وهي عبارة عن معطف بدون اكمام وبدون قبة ، قصير حتى الخصر مفتوح من الامام له على احد جانبي الفتحة صف من الازرار المصنوعة من القيطان ، يقابلها على الجانب الاخر صف مقابل من العراوي القيطانية ويحيط بالازرار والعراوي بعض الزخارف البسيطة المطرزة بخيطان سميكة ذات لون قريب من لون الصديري ·

السروال : وهو اكثر عرضا واتساعا من السروال العادي الذي سبق ذكره ويختلف عنه بوجود زخارف مطرزة بخيطان حريرية سميكة من نفس لون القماش على الجانبين حول الجيبين ·

الشملة : وهي السابق ذكرها ، تلف حول الخصر فوق ثنايا السروال العليا تحت الصديري ·

زجاج الخليل :

قرب مصب نهر النعامين في خليج عكا ، وفي عهد الكنعانيين قبل نحو اربعة الاف سنة اكتشف الكنعانيون صناعة الزجاج · فمن رمل ساحل خليج عكا النقي ومواد وجدت مصادفة قرب نار كانت موقدة لفترة طويلة ، وجد البعض بعد ان همدت النار قطعا بلورية تكونت بفعل تلك العناصر · ومع التجارب اللاحقة تم اكتشاف الزجاج ، وصنع منه الكنعانيون بعض الاواني ·

ومعمل زجاج الخليل التقليدي من احد اهم معالم التراث الفني الفلسطيني ، فقد شاعت شهرته عالميا · وهو معمل يعود تاريخه لمئات السنين · وتتولى ادارته والاشراف عليه والعمل فيه عائلة تملك سر المهنة التي يورثها الاباء الى الابناء ·

ولا تزال الطريقة القديمة هي المتبعة في المعمل · وينتج هذا المعمل الزهريات والاباريق والكؤوس والقناديل والاطباق عن طريق النفخ والتشكيل باليد بالوان واحجام واشكال متنوعة كثيرة · كما ينتج الخرز باحجام تتراوح بين ٢ سم و ٤ سم طولا وحوالي ٢ سم عرضا يصنع منه قلائد للنساء وقناديل خاصة ·

ان الالوان الزرقاء هي الغالبة ، خاصة الازرق التركواز والازرق النيلي (اولترامارين) ومنها ايضا باللون العسلي والبنفسجي الفاتح والداكن · وكان يوجد اللون الاحمر العنابي الذي لم يعد المعمل ينتج منه منذ سنين لاسباب مجهولة ·

اعمال الصدف :

بالاضافة الى شهرة بيت لحم بتطريزها الفريد من نوعه تشتهر في صناعة الصدف ، وهي المدينة الوحيدة في فلسطين ، التي تصنع من الصدف تحفا ذات اشكال والوان ونقوش اصبحت معروفة بطابعها ٠

وكما هو حال معمل الزجاج التقليدي في الخليل ، فان صناعة الصدف في بيت لحم تعود لمئات السنين ٠ وقد بدأت في عمل المسابح بادىء الامر من اجل تزويد حجاج بيت لحم بها كتذكار من الاراضي المقدسة ٠ ثم تطورت في اواخر القرن الماضي وفي القرن الحالي الى صناعة الحلى النسائية وغلافات للكتب الدينية والعلب ذات الاشكال المختلفة والاحجام المتعددة ، اضافة الى نمأذج مجسمة لمبان شهيرة كمسجد الصخرة ولصور تمثل ميلاد المسيح وما شابه ذلك ٠ ويستعان بخشب الزيتون في عمل العلب الصدفية المذكورة والصلبان ، كما تستخدم الفضة في صنع بعض الحلى الصدفية ٠

وهذه الصناعة مقتصرة على عائلات بيت لحم ٠ ومنذ اوائل هذا القرن لجأ التلحميون لتدريب جيرانهم في قرى بيت جالا وبيت ساحور للاستعانة بهم بعد ان ازداد الطلب على انتاجهم وعمت شهرة الاعمال الصدفية انحاء كثيرة في العالم ٠

ويستورد الصدف الخام من بومباي في الهند ومن جدة على البحر الاحمر ٠

وينقع الصدف الخام في الماء الممزوج ببعض المواد الكيمائية لازالة شوائبه وتليينه ويقطع فيما بعد باشكال مختلفة تستعمل حسب الحاجة ٠ ثم تمر هذه القطع بسلسلة من العمليات يتولى كل من العمال الاهتمام بجزء واحد منها ٠

هناك لونان اساسيان للصدف ، الابيض او المموج المتعدد الالوان المائلة الى الاخضر ، وكلاهما لماع ٠

خشب الزيتون :

تشتهر القدس بتصنيع خشب الزيتون ٠ ولا يظن انها صناعة قديمة كصناعة الزجاج والصدف بل تعود الى حوالي مائة سنة على الاكثر ٠ غير ان صناعة المسابح من خشب الزيتون ومن عجم الزيتون معروفة منذ القدم فقد ذكرها كثير من الرحالة العرب والاجانب قبل مئات السنين ٠

ان تدفق الحجاج والسياح على فلسطين باعتبارها الاراضي المقدسة ، خاصة الى القدس وبيت لحم ، دفع الاهلين لتطوير هذه الصناعة في اشكال منحوتات انسانية وحيوانية وعلب وحلى لتكون في متناول الحجاج والسياح كتذكار من القدس ٠

ومن المعلوم ان خشب الزيتون يمتاز بجمال لونه الطبيعي وتموجات الوانه ٠ كما يمتاز ايضا بصلابته وقدرته على البقاء طويلا ٠

ولا يستخدم خشب الزيتون في تصنيعه الا اذا كان كامل الجفاف ، اذ يتعرض للتشقق فيما لو استخدم رطبا ٠ ويستغرق جفافه وقتا طويلا يزيد على الشهور ٠
وهو لا يطلى باي طلاء ، بل يمسح بالليسترو (الكملاكة المحلولة بالسبيرتو) او بزيت الزيتون ، وذلك للحفاظ على جمال الوانه وتعريقته الطبيعية ٠

المعادن :

تنحصر الحرف المعدنية في فلسطين في : ١ ـ الحلى الفضية والذهبية ٠ ٢ ـ الاواني النحاسية ٠ ٣ ـ الادوات الحديدية ٠ ٤ ـ الاسلحة التقليدية ٠

الحلى الفضية والذهبية :

وصناعة الحلى قديمة قدم الزمان الذي عاش به الانسان على ارض فلسطين منذ الاف السنين ٠ فالمرأة الكنعانية عرفت الزينة وتحلت بالقلائد والاساور وغيرها ٠

ان صناعة الحلى كانت منتشرة في كل المدن الفلسطينية ، ذهبية كانت ام فضية ٠ غير ان الفضية تتميز عن الذهبية بقيمتها الفنية ٠ ان الحلى الذهبية في فلسطين لم تختلف كثيرا في شكلها العام عن باقي حلى المنطقة العربية ٠ ان في الذهب قيمته المادية ، اما الفضية فالقيمة الفنية ذات الشكل المميز هي القيمة ٠

واشتهرت القدس اكثرمن غيرها من المدن الفلسطينية في هذه الصناعة ، خاصة في الخمسين سنة الاخيرة ٠

وكما الازياء التي ينتسب كل زي منها لمنطقة او بلدة في فلسطين ، كذلك الحلى الفضية ٠ فالمرأة في نابلس تلبس في عنقها قلادة تختلف عن تلك التي تلبسها المرأة في بئر السبع او الخليل او القدس ٠

ويعرف من هذه الحلى الفضية :

القلائد : الزناق العادي ، وهو سلسال يثبت الوقاة على الرأس ويتدلى منه تحت الذقن قطعة نقدية فضية قديمة ٠

زناق السبعة أرواح ، وهو سبع سلاسل متصلة تثبت الشطوة التلحمية على الرأس ٠

الكردان ، اصابع من الفضة مثبتة على شريط قماشي ،تتدلى منها حلقات وحبيبات واشكال وقطع نقود صغيرة ، ومن الوسط يتدلى هلال او اكثر ٠

الشعيرة ، وهو قلادة تحتوي على صف من حبيبات بشكل حبة الشعير ٠

الحرز ، سلسلة يتدلى منها شكل مستطيل يحتوي على ايات قرانية او حجاب ٠

الماسكة ، سلسلة يتدلى منها مثلث معلق بها بعض قطع النقود الفضية القديمة ٠

السمكة ، على هيئة سمكة تحملها سلسلة ٠

ومن الاساور : البسيط ويدعى السحوب او السحب بدون زخرفة وهو رفيع ٠

المحبر وهو عريض ومزخرف وتكون الاجزاء العميقة من الزخرفة مسودة ٠

الحيدري متوسط العرض وذو خمسة نتوءات كالقباب ٠

الحبيات وهو يحتوي على حبيبات متراصة ، منه متوسط العرض ومنه العريض ٠

المبروم ، وهو سوار من حبلين من الفضة مجدول ٠

وهناك الخلخال ويسمى احيانا الحجل ، ويلبس في الساق فوق القدم ، ومنه ما يزين بالاجراس الصغيرة · كما ان هناك الاقراط والخواتم والاشناف (جمع شناف) وهي حلقة ذات زخارف للانف ، كما ان هناك ايضا دبابيس الشعر ·

الاواني النحاسية :

ان اهم هذه الاواني هي اباريق القهوة والتي يصنع منها انواع كثيرة ، ذات اشكال واحجام مختلفة حسب وظيفة كل منها · كذلك اباريق الماء وتوابعها · والمنقل وتوابعه ايضا ، ويستعمل للتدفئة بواسطة الفحم الخشبي كما يستعمل لتحضير وغلي القهوة ·

والصواني ، سواء كانت للاستعمال ام للزينة ، فانها لا تخلو من القيمة الفنية خاصة تلك التي للزينة فتكون مكسوة بالزخارف ·

ان هذه الصناعة كانت موجودة في عدد من المدن الفلسطينية كالقدس ويافا ونابلس والناصرة وعكا ، وهي حرفة عربية منتشرة في شتى انحاء الوطن العربي ·

الادوات الحديدية :

ان معظم الادوات الحديدية التي تصنع هي في معظمها ادوات زراعية ـ ونادرا ما نالت قسطا من الاهتمام الفني · انها ادوات بسيطة بدون اية زخارف ولها شكل يخدم الوظيفة التي من اجلها صنعت · وكانت اهم هذه الادوات هي المحراث والمنجل والفأس والطورية (فأس ذو بطن عريض مقوس) وغيرها مما يستعملها الفلاح في عمله اليومي ، الى جانب الادوات التي يحتاجها النجار والحداد وغيرهما في العمل · وقد وجدت هذه الحرفة في كل المدن الفلسطينية لتلبي حاجة الفلاح والعامل ·

الاسلحة التقليدية :

مع انقراض استعمال هذا النوع من الاسلحة انقرضت هذه الحرفة ولم يتبق منها الا نفر قليل جدا يعمل فيها بالطرق والاساليب القديمة · وقد تغير الهدف من صنع هذه الاسلحة ، كالسيف والخنجر والشبرية (خنجر ذو شكل يختلف عن شكل الخنجر العادي) فاصبحت تصنع من اجل الاستمرار في تقاليد معينة ، او من اجل الوجاهة او الزينة · ومنها ما يصنع خصيصا ليباع الى السياح الاجانب كتذكار من فلسطين ، ويكون هذا الاخير من مواد وزخارف بسيطة ·

وتغطي الزخارف العربية الاسلامية الطابع والمطعمة احيانا بالاحجار الكريمة والاصداف والعاج ، والتي تكون مادتها الاساسية غالبا من الفضة المطعمة بالذهب ، جميع انحاء المقبض والغمد ، واحيانا ينقش النصل ببعض النقوش ·

الفخار :

تدل المكتشفات الاثرية على وجود اثار من الفخار التي يرجع تاريخها الى العصر الحجري الحديث · وهي اوان مختلفة الاشكال ومتنوعة الوظائف ومزينة بالزخارف

المستمدة من اشكال الحيوانات والنبات · ويدل ذلك على تقدم في هذه الصناعة منذ الاف السنين ·

ان صناعة الفخار وجدت بشكل مستمر عبر الاف السنين في فلسطين · فمنها كان يصنع الانسان العادي معظم ادواته التي يستعملها في البيت ، والتي كان يحفظ فيها زيته وزيتونه وغلاله ·

اما صناعة الفخار في وقتنا الحاضر في فلسطين ، فهي ما تزال صناعة بدائية تتبـع الطرق البسيطة في صناعته ، سواء من حيث تحضير الطين اللازم ، او صنع الاوانـي او شيها· فالدولاب الذي يدار بالقدم هو الشائع المستعمل ·

وهناك لونان من الفخار في فلسطين ، الاسود والبني الذي يكون تارة فاتح اللـون لدرجة البيج الفاتح ·

وتشتهر مدينة الرملة والخليل وعكا وغزة بهذه الصناعة الشعبية ، وقد انحسرت بعـد عام ١٩٤٨ في كل من غزة والخليل ونابلس · اما قرية الجيب وهي قرب القدس ــ فتشتهر بصناعة القدور ·

ومن الفخار تصنع اواني الطعام والماء باشكال مختلفة ، لها طابع مميز يختلف الى حد ما بتشكيله عن مثيله في الاقطار العربية المجاورة · كما يصنع من الفخار ايضا جسـم بعض الالات الايقاعية مثل الدربكة او الطبلة والنقارة والبازة ·

وكثير من الاواني كان يزخرف بمادة ملونة خاصة من الاحمر والاسود وكانت بعض عناصرها من النبات ، وفي غالب الاحيان مجرد خطوط واشكال لا معنى لها ·

كما ان بعض الاواني مثل القدور واطباق الاكل والاوعية الكبيرة لحفظ الزيت كانـت تلبس بقشرة زجاجية ·

الخزف :

ان معظم زخارف وكتابات مسجدي الاقصى والصخرة في القدس مصنوعة من الخزف · ونظرا لحاجة هذين المسجدين للترميم بشكل دائم من اجل الحفاظ على ما يحتويانه ويحتويه غيرهما من الاثار الفنية النفيسة ، فقد انشيء معمل للخزف في اوائل هذا القرن (١٩١٩) في مدينة القدس ·

ويعمل هذا على عمل بديل للقطع التي تتعرض للتلف بتأثير من العوامـل الطبيعية او الحروب ·

واضافة الى ذلك ، حيث ان عملية الترميم ليست عملية مستمرة يوميا ، فقد بدأ المعمل ، منذ تأسيسه ، بصنع اوان واشكال مختلفة الاحجام والوظائف كالزهريات والاباريــق والاطباق والقناديل وما الى ذلك · واصبحت هذه الصناعة واحدة من الحرف الفنيـة الشعبية التي تلبي حاجة الحجاج والسائحين في الحصول على تذكار من القدس ·

ويستعمل المعمل الطرق اليدوية في العمل · فالدولاب يدار بالقدم ، والرسوم تتـم باليد ، وطريقة الشي تطورت نوعا ما باستعمالهم المازوت والغاز بدلا من الحطب · امـا نوعية الزخارف ، فهي في معظمها مستمدة من روح زخارف مسجدي الصخرة والاقصى ، ومن زخارف ورسوم عربية اسلامية في فلسطين ، مثل قصر هشام في اريحا ·

خليل بركات

ممارسات الاحتلال الصهيوني في الجنوب

على الرغم من احتلال العدو الصهيوني لاجزاء كبيرة من جنوب لبنان ، في شهر اذار ١٩٧٨ . فان الحرب التي خاضتها قوات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ضد القوات الصهيونية ، قد ادت الى الحاق هزيمة معنوية بالعدو ، وتكبيده خسائر جسيمة في الارواح والمعدات ·

وتتمثل هذه الهزيمة **اولا** ، في ان العدو لم يستطع الوصول الى الحدود التي وصل اليها في احتلاله ، الا في اليوم السادس للقتال ، وذلك بسبب صمود مقاتلي الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في وجهه ، وخوفه من وقوع خسائر بشرية في صفوفه ·

ولقد حاول العدو ان يخفي هزيمته تلك ، باعلانه بعد ظهر يوم الاربعاء في ١٥ اذار ١٩٧٨ ، اي بعد اربعة عشر ساعة على بدء الهجوم ، انه احتل اراض بعمق عشرة كيلومترات على طول الحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة · في حين ان احتلاله ، في ذلك اليوم لم يكن يتجاوز مسافة ثلاثة كيلومترات عمقا ، في ابعد نقطة من الحدود ، بما فيها المناطق التي كان الانعزاليون يسيطرون عليها · كما اراد العدو باعلانه هذا ، ان يوهم الرأي العام العالمي ، بأنه قد اوقف تقدمه ، وان عملياته العسكرية مقتصرة فقط على « تمشيط » المناطق التي احتلها من « المخربين » وذلك بغية تخفيف الضغط الدولي عليه ·

وتتمثل الهزيمة المعنوية **ثانيا** ، بفشل العدو في سحق مقاتلي الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية · اذ انه على الرغم من اشتراك حوالي ثلاثين الف جندي صهيوني في الحرب ، مزودين بأعداد كثيفة من الدبابات وناقلات الجنود المدرعة ، الى جانب النشاط الجوي الكثيف ، والذي شاركت فيه طائرات ف ١٥ لاول مرة ، فان العدو لم يتمكن من القيام بعملية السحق تلك التي كانت هدفا رئيسيا من اهدافه ، بل على العكس من ذلك ، فقد تكبد العدو خسائر بشرية جسيمة نسبيا فضلا عن تدمير العشرات من آلياته المدرعة ·

وتتمثل الهزيمة المعنوية **ثالثا**، في حالة الخوف التي كانت تنتاب جنود العدو، على الرغم

من انعدام التكافؤ في القوى ، عدة وعددا · اذ لم يكن عدد القوات المدافعة كبيرا ، وهي مزودة بالاسلحة الفردية والرشاشات المتوسطة والثقيلة ، وقواذف ب٧ المضادة للدروع ، وعدد من قطع المدفعية · لقد تجسدت حالة الخوف هذه ، بتردد آليات العدو في التقدم ، دون غطاء جوي ، وتمهيد بالقصف الجوي والمدفعي على الاهداف المنوي التقدم نحوها · وعلى سبيل المثال ، فان العدو لم يدخل بلدة « تبنين » الا بعد مرور اكثر من اربع وعشرين ساعة على القصف المتواصل للبلدة ، ظنا منه ان مقاتلي الثورة الفلسطينية يتمركزون في داخلها ، الامر الذي دفع ببعض الاهالي الى الخروج اليه ، وهم يحملون منديلا ابيض ، حيث طالبوه بايقاف القصف ، لان البلدة لم يعد فيها احد من المسلحين · وعلى الرغم من ذلك فقد هدد الضابط وتوعد ، فيما لو تعرضت قواته لخدعة وواجهت مقاومة في داخل البلدة · والحقيقة انه لم يكن في البلدة سوى مركز ادارة يتواجد فيه سبعة من المقاتلين ، شاغلوا العدو لبعض الوقت ، ثم انسحبوا من البلدة عبر الوادي من الجهة الغربية ·

الاجواء التي رافقت الاحتلال

اقدم العدو الصهيوني والمتعاونين معه من الانعزاليين على ارتكاب المجازر وقتل المدنيين ، ونسف وتدمير المنازل والاضرار بالاراضي والممتلكات الزراعية ، واعمال السرقة في المناطق التي احتلها في الجنوب · وقد اثارت هذه الاعمال موجة من الفزع والرعب ، دفعت بالكثير من المواطنين الى النزوح وترك المنطقة · ولعب الانعزاليون بقيادة سعد حداد دورا رئيسيا في ارتكاب تلك الجرائم بموافقة العدو الصهيوني الضمنية · ذلك ان الانعزاليين لم يكن باستطاعتهم القيام بهذا الدور ، من دون ان يضمنوا رضى الصهاينة · ويبدو ان العدو الصهيوني حاول ارهاب المواطنين في الايام الاولى للحرب ، بافساح المجال امام الانعزاليين لارتكاب جرائمهم ، بغية دفع المواطنين للالتجاء اليه وطلب الحماية منه ، لارغامهم على التعاون معه ·

اولا ـ ارتكاب المجازر واعمال القتل :

على اثر احتلال العدو الصهيوني لبلدة **الخيام** ، دخلت القوات الانعزالية البلدة . وكان فيها خمسون رجلا وامرأة من الطاعنين في السن ، وذلك من اصل حوالي عشرين الف نسمة كانوا فيها قبل اندلاع الفتنة في لبنان في نيسان ١٩٧٥ ، واقدمت هذه القوات على ارتكاب مجزرة رهيبة من نوعها ذهب ضحيتها تسعة وعشرون شخصا تتراوح اعمارهم ما بين ٦٠ ـ ٨٠ سنة (١) · فقد جمع الانعزاليون هؤلاء ، واعدموهم رميا بالرصاص انتقاما من صمود البلدة في وجههم ، واستطاع الباقون الفرار باستثناء تسعة اشخاص ، اقدم العدو لاحقا على قتل ستة منهم ، من بينهم رجل مقعد يبلغ من العمر ثمانين عاما . وزوجته ، في اواخر شهر نيسان ١٩٧٨ ، بينما وصل الثلاثة الباقون الى بيروت (٢) ·

وفي بلدة **العباسية** ، استشهد مئة واربعون من المدنيين ، ما بين رجل وامرأة نتيجة القصف بالطائرات والمدفعية ، فدمر جامع البلدة على من كان مختبئا فيه ، واستشهد ستون شخصا تحت الانقاض ، كما استشهد الباقون تحت انقاض المنازل ، فكان من بينهم اسر بكاملها (٣) ، علما بأن هذه البلدة لم يكن فيها قواعد للفدائيين ·

وفي قرية **كونين** ، استشهد ٣٥ شخصا من ابنائها المدنيين تحت الانقاض ، من بينهم

اسرة بكاملها ، نتيجة القصف الجوي والمدفعي · كما استشهد اربعة عشر شخصا بالقرب من عدلون ، كانوا في طريقهم ليلا الى بيروت ، عندما وقعوا في كمين للكومنـــدوس الصهيوني ، فضربت السيارتان اللتان كانتا تقلانهم بالقذائف المضادة للدروع ، فقتلـــوا جميعا باستثناء اثنين من الركاب (٤) · كذلك ابيدت عائلة بكاملها من قرية دير سريان ، عند مداخل « الطيبة » كانت في طريقها الى بيروت ·

وفي قرية الغندورية ، استشهد من ابنائها عشرة اشخاص بواسطة القنابل العنقودية التي كانت ترميها الطائرات (٥) ، كما استشهد من ابناء الهبارية احد عشر مواطنا (٦) ·

كذلك فقد اقدم العدو الصهيوني على قتل شابين من قرية عين بعال بعد ان اعتقلهما ، بتهمة عدم تنفيذ الاوامر (٧) ·

وفي راشيا الفخار ، استشهد عدد من ابناء القرية ، كانوا مختبئين في الكنيسة ، بعد ان تهدمت بسبب القصف ·

وازاء هول المجازر التي ارتكبها الانعزاليون ، اضطر رئيس اركان حرب جيش العـــدو الصهيوني ، مردخاي غور ، الى الاعتراف بها ، تبرئة لقواته منها ، فأعلن ، « ان قواته اضطرت لحماية اهالي بعض القرى في جنوب لبنان من الاعمال الانتقامية والنهب التـــي ارتكبها بعض العسكريين المحافظين » وقال ، ان هذه الاعمال تتعلق « بالنهب وبما هـــو اسوأ » (٨) كذلك فقد اعترفت صحيفة « جيروزاليم بوست » « الاسرائيلية » ، بأن قـــوات سعد حداد ، « ارتكبت اعمال عنف في بلدتي « الخيام » و « بنت جبيل » (٩) ·

ثانيا ــ الاعتقالات وعمليات الارهاب :

بعد الاحتلال لجأ العدو الصهيوني ، الى فرض جو من الارهاب على القرى التـــي احتلها ، ففرض منع التجول من الساعة السابعة مساء وحتى السادسة صباحا (١٠) · كما قام بتطويق العديد من القرى واعتقال عدد من الاهالي ، كما جرى في بلدة العباسية (١١)، حيث كان العدو ينقل المعتقلين بطائرات الهليكوبتر ، الى داخل فلسطين المحتلة ، ويخضعهم للتحقيق ، وكذلك الامر بالنسبة للمواطنين في قرية الناقورة ، (١٢) وقرية حانويه ، (١٣) وغيرها · كما اقدمت قوات العدو على اعتقال وضرب احد المواطنين اللبنانيين ، لان ابنته متزوجة من شاب فلسطيني (١٤) ·

ومن جهة اخرى حاول العدو ممارسة الضغط على مخاتير القرى المحتلة ورؤســـاء البلديات فيها ، وتوجيه التهديدات لهم ، من اجل حملهم على توقيع عرائض وتوجيههـــا الى المسؤولين في السلطة اللبنانية ، يطالبون فيها :

١ ــ « ببقاء القوات الاسرائيلية في الجنوب حتى دخول القوات اللبنانية الشرعيـــة وتعزيز القوات الدولية »·

٢ ــ « عدم السماح للمسلحين الفلسطينيين واليساريين بدخول القرى بعد انسحـــاب اسرائيل منها » (١٥) ·

ومن اجل هذه الغاية وجه القائد العسكري الصهيوني ، للمنطقة الشمالية وقـــرى الجنوب المحتل ، دعوة الى المخاتير ورؤساء البلديات في المدن والقرى المحتلة ، لعقـــد اجتماع في النادي الحسيني في قرية المنصوري ، حيث استخدم مع المدعوين اسلـــوب

الترغيب والرهيب لحملهم على توقيع العرائض · الا ان طلبه باء بالفشل (١٦) ·

كذلك وزع الجنود الصهاينة على المواطنين ، بيانا صادرا عن « القيادة الشمالية — منطقة جنوب لبنان » ، تضمن اشارة الى الخدمات التي يؤديها « الجيش » في المجالات « الصحية ، والعمرانية ، والامنية » بغية تحقيق « سلامة ورفاهية المنطقة » ، مذكرا المواطنين بانهم تحت « حمايته » و « خاضعون لمراقبته » ، طالبا منهم ، « بصورة عاجلة ، ان يتعاونوا بصورة كاملة مع جيش الدفاع ، وان ينفذوا جميع اوامره » ، وان يمنعوا « اي نشاط سري من قبل مبعوثي المنظمات التخريبية » ، وان يعلموا « قواد وجنود جيش الدفاع الاسرائيلي في المنطقة عن كل ما يحدث بخصوص التنظيمات لتنفيذ عمليات تخريبية وسرية » ، مهددا باتخاذ الخطوات الحازمة « ضد كل شخص تسول له نفسه عدم تنفيذ هذا الامر ، وستتخذ بحقه جميع الوسائل القانونية » (١٧) ·

كذلك فقد كان العدو الصهيوني ، يلجأ في العديد من القرى ، الى اعتقال آباء الشبان الوطنيين ، للتحقيق معهم ، وتهديدهم بغية انتزاع اعترافات منهم تتعلق بأبنائهم (١٨) ·

وعلى الرغم من انسحاب القوات الصهيونية من جزء من المنطقة واحتفاظها « حتى اشعار آخر » بقرى على طول الشريط الحدودي ، اطلقت عليها اسم قرى « الحزام الامني » ، وهي بعمق حوالي عشرة كيومترات ، فان اجواء الارهاب ما زالت مخيمة على القرى المحاذية للمنطقة التي ما زالت القوات الصهيونية تحتلها · اذ ان دوريات الجيش « الاسرائيلي » تقوم من حين لآخر ، بدخول هذه القرى ، وتفتيش البيوت فيها وتوقيف الاهالي واستجوابهم ، كما جرى في **كفرشوبا وكفرحمام** (١٩) في القطاع الشرقي ، وفي **برعشيت** ، في القطاع الاوسط بتاريخ ١٩٧٨/٥/٥ ·

ثالثا — السرقات :

رافق الاحتلال الصهيوني لقرى الجنوب ، عمليات سرقة ونهب واسعة قام بها الانعزاليون والجنود الصهاينة · فقد اقدمت القوات الانعزالية في القليعة على سرقة الابواب والشبابيك في **ابل السقي** (٢٠) وكل ما وجدته في طريقها من اثاث واوان منزلية مستخدمة سيارات الشحن في نقلها الى **القليعة** · وكذلك تعرضت بلدة **الخيام** الى ما هو اسوأ · اذ نقل مراسل اليونيتدبرس خبرا من داخل « الخيام » ، يقول فيه « ان قوات سعد حداد نظفت المتبقي من هذا المعقل ، آخذة كل ما يمكن استخدامه في المنازل » (٢١)·

وفي القطاع الاوسط ، قامت القوات الانعزالية بقيادة الرائد حنا الشدياق ، بأعمال النهب والسرقة في بلدة **بنت جبيل** وغيرها من قرى المنطقة ، مستخدمة ايضا الشاحنات في نقل المسروقات الى قرى **عين ابل و دبل و رميش** ·

كذلك ، اقدم الجنود الصهاينة على سرقة كل « ما خف وزنه وغلا ثمنه » ، بحجة التفتيش عن السلاح في المنازل المهجورة ، فشملت السرقات : المصاغ والحلي ، والاواني المنزلية الدقيقة ، والساعات ، والاموال النقدية ، وحتى « الثريات » و « مسكات الابواب » في المنازل الفخمة · وشملت هذه السرقات معظم القرى التي دخلها الجنود الصهاينة ·

لقد اعترف مردخاي غور ، رئيس اركان « الجيش الاسرائيلي » ، بان قواته اضطرت « لحماية القرى في جنوب لبنان من اعمال النهب ·· التي ارتكبها بعض العسكريين

المحافظين » (٢٢) · لكنه اضطر الى الاعتراف ايضا ، في تصريح له الى جريدة « معاريف » الصهيونية ، بأنه « وقعت حوادث نهب قام بها جنود اسرائيليون ، وان هؤلاء سيمثلون امام المحاكم العسكرية » (٢٣) · وفي وقت سابق اعلن ان واحدا وخمسين جنديا احيلوا الى المحاكمة لاشتراكهم في عمليات السرقة والنهب ·

ولم يكتف العدو الصهيوني بسرقة المنازل ، التي قام بها جنوده ، وانما لجأت « دولة العدو » الى سرقة الآثار من المنطقة التي احتلتها · اذ اقدم خبراء الآثار على الحفر والتنقيب عن الآثار بجوار قرية حانويه ، « ونبش قصر الملك حيرام ، الذي عثر فيه على تماثيل ذهبية ورخامية ونواويس واواني خزفية ونحاسية وتوابيت وبعض الآثار النفيسة » (٢٤) ، ثم نقلها بواسطة طائرات الهليكوبتر الى فلسطين المحتلة · وفي خراج قرية شقرا اقدم العدو ايضا على القيام بحفريات في منطقة اثرية ، وشوهد ينقل بطائرات الهليكوبتر كمية من الآثار التاريخية ·

النزوح الناتج عن الحرب

لم تكن شدة القصف الذي قامت به طائرات العدو ومدفعيته في ضرب مدن الجنوب وقراه ، تمليها الضرورات العسكرية فحسب ، وانما املتها الضرورات السياسية ايضاً · فلقد ادت شدة القصف هذه ، الى جانب عمليات الارهاب التي قامت بها القوات الصهيونية ، وبصورة خاصة القوات الانعزالية بأمرة الرائد سعد حداد ، الى نزوح حوالي مئة وخمسين الف مواطن من اقضية « صور » و « بنت جبيل » و « النبطية » – تعرضت هذه المنطقة للقصف ، ولكنها لم تقع في دائرة الاحتلال الصهيوني – و « مرجعيون » ، و « حاصبيا » ، توجه معظمهم نحو العاصمة بيروت ، كما توجه اخرون الى مدينة « صيدا » ، عاصمة محافظة الجنوب ، والى منطقة الشوف ·

وليست هذه هي المرة الاولى التي يشهد فيها الجنوب نزوحا بهذه الكثافة · فمنذ مطلع عام ١٩٧٧ ، وبعد ان نقلت القوى الانعزالية المؤامرة الى الجنوب بالتعاون مع العدو الصهيوني ، وفي ظل حمايته ، بدأت عملية النزوح من الجنوب الى العاصمة بيروت ، بسبب القصف المدفعي الصهيوني – الانعزالي الذي استهدف مدن الجنوب وقراه · بحيث بلغ مجموع عدد النازحين في الفترة ما بين كانون الثاني ١٩٧٧ ومطلع شهر اذار ١٩٧٨ حوالي مئة وخمسين الف نسمة ·

لقد شكل النزوح الاخير ، الناتج عن الحرب ، ازمة اجتماعية حادة ، لم يشهدها النازحون الجنوبيون من قبل · وسبب ذلك ، ان هذا النزوح جاء دفعة واحدة ، وتم بصورة عاجلة بحيث ان معظم النازحين من القرى التي تعرضت للاحتلال ، لم يتمكنوا من جلب التموين والملابس والفراش معهم ، كما لم يجدوا اماكن سكنية كافية لايوائهم ·

الا انه بعد مضي اسبوعين على الاحتلال ، بدأت جموع النازحين تعود تدريجيا الى المنطقة ، بحيث وصل عدد العائدين خلال شهر واحد حوالي ٧٥ الف نسمة ، اي نصف عدد الذين نزحوا خلال فترة الحرب · وتركزت العودة بصورة رئيسية على القرى التي انسحب منها العدو ·

شق الطرقات وتعبيدها واقامة التحصينات

منذ اليوم الاول للاحتلال ، بدأ العدو بشق الطرقات وتعبيدها في المناطق المحتلة ، كي

يسهل على قواته الانتقال للامساك بمحاور الطرق في المنطقة ، الامر الذي يكشف نواياه العدوانية والتوسعية في المستقبل · وقد اعلن احد الجنود الصهاينة ردا على سؤال لاحد ابناء قرية « راشيا الفخار » : « اننا نشق الطريق ، فربما احتجنا اليها بعد خمسين سنة !! » · وعلى هذا الاساس اقدم العدو على شق وتعبيد الطرق التالية ، بالاضافة الى بناء بعض الجسور :

– شق وتعبيد طريق تصل فلسطين المحتلة ببلدة « شبعا » ، ويبلغ طولها اربعة كيلومترات (٢٧) ، وتركيب جسر حديدي طوله ١٢ مترا وعرضه ٣٫٥ م فوق نهر « شبعا » (٢٨) · وبذلك يكون العدو قد ربط قرية « شبعا » في منطقة العرقوب بفلسطين المحتلة ، بواسطة طريق معبد بعد ان كان الوصول اليها من قبله صعبا بسبب وعورة المنطقة ·

– شق وتعبيد طريق تصل فلسطين المحتلة بقرية « راشيا الفخار » ، عبر قرية « الماري » ، ومزرعة « الخريبة » (٢٩) ، وبذلك يكون العدو قد سهل عملية انتقال قواته المحمولة ، وآلياته ، الى قرية « راشيا الفخار » التي تقع في مؤخرة منطقة العرقوب ·

– شق طريق يربط « راشيا الفخار » بالتلال المحيطة بها لجهة « الهبارية » و « الفرديس » (٣٠) ·

– شق طريق تصل القرى الاتية : « القليلة » ، « المعلية » ، « الكنيسة » ، « المالكية » . « الشعيتية » ، « الرمادية » ، و « قانا » · وشق طرقات فرعية حول هذه القرى (٣١) · وبذلك يكون العدو قد وصل قرى هذا المحور بعضها ببعض وبالحدود مع فلسطين المحتلة ·

– تعبيد الطريق الرئيسي الذي يربط مستعمرة « يرئون » في الجليل الاعلى ، في فلسطين المحتلة ، مع القرى الجنوبية وبعض قرى الجليل : « يارون » ، « مارون الراس » ، « حانوتا » و « البصة » – في فلسطين – ، « البستان » ، « يارين » ، « الجبين » ، « طير حرفا » ، « شمع » ، « رأس البياضة » ، « شيمين » ، « مجدل زون » (٣٢) ·

والى جانب ذلك ، فان العدو ما زال يقيم التحصينات العسكرية في التلال المشرفة على قرية « كفرشوبا » في العرقوب ، وفي العديد من القرى التي ما زالت واقعة تحت الاحتلال ·

الاضرار المادية الناتجة عن حرب الجنوب

تعرضت منطقة الجنوب ، بنتيجة الحرب ، لاضرار مادية جسيمة في الممتلكات والمزروعات والمنازل ، تقدر بمئات الملايين من الليرات اللبنانية ·

فعلى صعيد الاضرار اللاحقة بالمباني ، – نبرز القرى التي تضررت اكثر من غيرها – دمرت قرية **راشيا الفخار** بالقصف المدفعي والجوي ، ونسف عدد من المنازل فيها بعد الاحتلال ، فلم يسلم منها سوى خمسة منازل من اصل مئتي منزل (٣٣) · وفي بلدة **العباسية** بلغ عدد المنازل التي تهدمت ونسفت حوالي مئة وخمسين منزلا (٣٤) ، اما منازل قرية **ابل السقي** فقد تهدم معظمها ، علما بأن القرية تضم حوالي ٢٥٠ منزلا (٣٥)·

وفي **الغندورية** ، وهي قرية صغيرة ، تم نسف وتدمير جميع منازل القرية وعددها ٤٠ منزلا (٣٦) · وفي مزرعة **الخريبة** تهدم ٢٠ منزلا بما فيها كنيسة القرية (٣٧) · وفي بلدة **تبنين** تهدم ٣٠ منزلا ، وتصدع ١٠٠ منزل (٣٨) ونسفت عدة منازل · وفي **قانا** دمر واصيب بأضرار جسيمة ٦٧ منزلا (٣٩) · وفي **صديقين** تهدم ونسف ١٥ منزلا ، كما تصدعت عشرات المنازل فيها (٤٠) · وفي **حداثا** فان معظم منازل القرية التي يبلغ عدد سكانها اربعة الاف نسمة قد تهدمت او اصيبت بأضرار (٤١) · وفي **حاريص** دمرت ثلاثة منازل (٤٢) · وفي **دردغيا** تهدمت خمسة منازل ونسف منزل اخر (٤٣) · وفي **دير قانون** نسف منزلان وتهدمت عشرات المنازل (٤٤) · وفي **جويا** اصاب الدمار الكامل او الجزئي عشرات المنازل بالاضافة الى نسف عدة منازل · وفي **دير كيفا** نسف العدو ثلاثة منازل (٤٥) · كما نسف اربعة منازل في **كفردونين** ، واحرق اربعة منازل اخرى بالاضافة الى تهديم منزل واصابة عشرة منازل اخرى بأضرار · وفي **باتوليه** تهدم ونسف حوالي ٣٠ منزلا (٤٦) · وفي **الجبين** تم نسف سبعة منازل (٤٧) ، كما اصيبت عشرات المنازل بأضرار في قرية **معركة** (٤٨) · وفي **القنطرة** تم تدمير وحرق معظم منازل القرية (٤٩) · كما نسف العدو ٤ منازل في **القليلة** (٥٠) و ٢٨ منزلا في **الناقورة** ، وعدة منازل في **المنصوري** و**البياضة** و**شمع** و**طير حرفا** و**المطلية** و**عين بعال** (٥١) · بالاضافة الى الاضرار الجسيمة التي وقعت بعشرات المنازل في هذه القرى وخاصة في قريتي **الناقورة** و**طير حرفا** ، من جراء القصف · وفي بلدة **البازورية** نسف منزل واحد ، ودمر ٣٥ منزلا من جراء القصف ، كما اصيب ٤٤ منزلا اخر بأضرار (٥٢) · وفي قرية وادي **الجيلو** هدمت ٤ منازل ، وفي **عيتيت** ٣ منازل (٥٣) · كما دمرت ٥ منازل في منطقة **الحوش** ، و ٣ منازل في **زيقين** ، ومنزلان في **جبال البطم** ، ومنزل في **جانويه** ، ومنزل في **الرمادية** واصيبت عشرات المنازل بأضرار في قرية **باطر** (٥٤) · كما قام العدو بنسف معظم المنازل في مزرعة **الحنية** (٥٥) ، وعشرات المنازل في قرية **مارون الراس** التي تصدعت فيها معظم المنازل واصيبت بأضرار جسيمة ·

اما في مدينتي **بنت جبيل** و**الخيام** ، وكذلك في قريتي **الطيبة** و**رب ثلاثين** فانه يصعب التمييز بين الاضرار التي لحقت بمنازلها خلال فترة الحرب ، وبين الاضرار التي اصابتها منذ مطلع سنة ١٩٧٧ وحتى بداية الحرب · الا أنه من المؤكد ان العدو الصهيوني قد أقدم على نسف عدد من المنازل في كل منها وخاصة في مدينة بنت جبيل ·

لقد دمرت معظم المنازل في قرية **رب ثلاثين** التي يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة ، وتصدع الباقي ، بحيث لم يعد صالحا للسكن فيها سوى بضعة منازل · اما قرية **الطيبة** التي يبلغ عدد سكانها اربعة الاف نسمة ، فان معظم منازلها ايضا قد دمر · وفي مدينة **الخيام** دمر اكثر من مئة منزل ، واصيبت مئات المنازل فيها بأضرار جسيمة ، وهي المدينة التي يبلغ عدد سكانها عشرين الف نسمة · وكذلك الامر بالنسبة لمدينة **بنت جبيل** التي يبلغ عدد سكانها عشرين الف نسمة ايضا ·

وفي جولة لقائمقام « بنت جبيل » على عدد من القرى التي انسحب منها العدو ، صرح على اثرها للصحف فقال : « لفت نظري الدمار الكبير والخراب البشع الذي حصل في قرى : « صديقين » و « حداثا » و « تبنين » و « جويا » فهناك بيوت كثيرة نسفت » (٥٦)·

كما زار المدير الاقليمي لمندوب الامم المتحدة لشؤون اللاجئين في الشرق الاوسط ، جون كيلي ، ٢٥ قرية من القرى التي انسحب منها العدو فتبين له ان ما يزيد عن « الف مسكن متهدم كليا ، وحوالي ثلاثة الاف مسكن متضرر جزئيا » فيها (٥٧) ·

اما على صعيد الاضرار بالمزروعات ، فقد اصيبت البساتين الواقعة في منطقة صور ، بأضرار جسيمة · اذ لجأ العدو الى جرف بعضها بالجرافات ، مقتلعا الاشجار المثمرة منها ، بالقرب من قرية « القليلة » من اجل كشف المنطقة ، وخوفا من تسلل الفدائيين من بين الاشجار وقيامهم بغارات عسكرية على قطعاته المتمركزة في المنطقة · كما احترقت البساتين المحيطة بقريتي « باتوليه » و « حناويه » من جراء القصف (٥٨) · كذلك تضررت البساتين القريبة من نقاط تمركز العدو بأضرار جسيمة من جراء الرمايات بالاسلحة الرشاشة عليها عند حلول الظلام ، خوفا من تسلل الفدائيين منها لضرب مراكز العدو ·

كذلك فان محصول التبغ لعام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ ، وهو المورد شبه الوحيد لمزارعي الجنوب ــ باستثناء الشريط الساحلي ــ والذي تباطأت الدولة باستلامه ، على الرغم من النداءات المتكررة التي كانت توجهها نقابة مزارعي التبغ الى شركة الريجي من اجل الاسراع في استلام المحصول ، قد اتلف قسم لا بأس به منه ، من جراء الاضرار التي لحقت بالمنازل في القرى · كما ان مشاتل التبغ للموسم الحالي قد اصيبت هي الاخرى بأضرار جسيمة نظرا الى ان معظم المزارعين تركوها دون رعاية ، بسبب نزوحهم الى خارج المنطقة ، الامر الذي يعني ان الموسم الحالي لزراعة التبغ قد اصيب بأضرار بالغة جدا ·

رفض اغراءات العدو

حاول العدو الصهيوني تقديم الاغراءات للاهلين في القرى المحتلة ، بعد ان اشعرهم بقدرته على التنكيل والبطش ، اما مباشرة من قبل جنوده ، او بصورة غير مباشرة ، عن طريق الانعزاليين · وهذه الاغراءات هي الوجه الاخر لاساليب الارهاب بحيث تكتمل فيها سياسة العدو القائمة على « الترهيب والترغيب » ·

ومن الواضح ، ان العدو اراد من وراء تقديم الاغراءات ، مد جسور التعاون بينه وبينهم ، ودفعهم الى التعاون مع الانعزاليين والانخراط في « جيش سعد حداد » . مستغلا في ذلك حاجتهم الى العديد من السلع التموينية التي انقطعت عنهم بسبب ظروف الاحتلال ، وبصورة خاصة مواد الكاز ، والخضار ، والطحين ·

وعلى الرغم من ضغط الحاجة التي تنجم في مثل ظروف الاحتلال فان سكان العديد من القرى التي عرض عليها التموين من قبل العدو الصهيوني ، قد رفضوا استلامه ، معبرين عن رأيهم بعدم الحاجة اليه · وهكذا رفض اهالي بلدة **شبعا** استلام حمولة خمس شاحنات تموين وصلت البلدة ، ثم عادت بها ، بعد ان فشل ضابط صهيوني في اقناع الاهالي باستلامها ، في اجتماع عقده معهم في جامع البلدة (٥٩) ·

كذلك ، رفض الاهالي في قرية **القليلة** استلام التموين من العدو الصهيوني (٦٠) ، كما رفض اهالي قرية **مجدل سلم** قبول المساعدات الاسرائيلية (٦١) ·

ومن جهة اخرى فشل العدو ، فشلا ذريعا في حمل الرجال الذين تتراوح اعمارهم ما بين ١٨ ــ ٤٥ سنة على التطوع في « جيش سعد حداد » · كما فشل سعد حداد بدوره في اخراج مشروع « التجنيد الاجباري » الذي اعلن عنه اثر الاحتلال مباشرة ، الى حيز التنفيذ بعد ان رفض الاهلون الاذعان لتهديداته ·

ان رفض المواطنين حمل السلاح الى جانب الانعزاليين ، وحتى في ظل الاحتلال ، يشكل صفعة قوية لكل المشبوهين ، مدعي الغيرة على الجنوب واهله ، الذين يعملون ليلا نهارا على تأليب ابناء الجنوب ضد الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية · كما جاء ذلك ردا قاسيا على دعواتهم المضللة التي تقول بأن ابناء الجنوب يقفون موقفا معاديا من الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية · فلو كان الموقف العدائي موجودا ، كما يدعي هؤلاء ، لكانت الفرصة مؤاتية لان يحمل ابناء الجنوب السلاح الى جانب سعد حداد وجماعته ·

موقف الجبهة الانعزالية من الاحتلال ، والدفاع عن سعد حداد

في الوقت الذي كانت فيه قوات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية تواجه جيش العدو الصهيوني بالقتال ، وتصمد في وجهه ، وتعيق تقدمه طيلة ستة ايام كاملة ، كانت الجبهة الانعزالية التي شاركت العدو في احتلاله للجنوب من خلال قواتها المتواجدة في المنطقة بأمرة الرائد سعد حداد ، تقوم بحملة اعلامية مركزة ضد الثورة الفلسطينية ، بغية تحويل الانظار عن الاحتلال ، بل والاستفادة منه لانتزاع مكاسب سياسية ، بالتواطؤ مع بعض القوى السياسية التقليدية ، ظنا من هؤلاء جميعا ، ان الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اصبحتا في موقف ضعيف ·

بل اكثر من ذلك ، فقد انبرى كميل شمعون ، رئيس الجبهة الانعزالية ، للدفاع علنا عن الرائد سعد حداد ، واصفا اياه بأنه « معيار الوطنية في هذا البلد » واضاف : « اذا كان هناك من ضابط قد قام بواجبه كما يجب ، فيكون هذا الضابط هو سعد حداد » · وهاجم « الذين يفتعلون الضجة على سعد حداد » (٦٢) · اما بيار الجميل رئيس حزب « الكتائب » ، فقد انكر معرفته بسعد حداد وقال : « ما معي خبر بهالموضوع · انا لا اعرف ضابطا اسمه سعد حداد » ! (٦٣) · هذا مع العلم بأن اذاعة حزب « الكتائب » تردد باستمرار اسم سعد حداد كقائد « للقوات اللبنانية الموحدة » – وهو الاسم الرسمي الذي يطلق على قوات الجبهة الانعزالية – في منطقة مرجعيون ·

لقد نجحت الجبهة الانعزالية ، في جر القسم الاكبر من اعضاء المجلس النيابي ، الى اصدار ما يسمى « بالوثيقة النيابية » ، التي جاءت لتشكل ، على الرغم من التعديلات التي طرأت عليها ، انتصارا سياسيا للقوى الانعزالية · فبدلا من ان يركز « المجلس النيابي » ومعه كل المسؤولين في الدولة ، انظارهم باتجاه الخطر الداهم المتمثل في الاحتلال ، وبدلا من ادانة موقف الجبهة الانعزالية المتواطىء والمشارك في عملية الاحتلال ، كان الشغل الشاغل لهؤلاء ، هو كيفية الاستفادة من ظروف الاحتلال لتوجيه ضربة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية · اذ ان الموضوع الاساسي الذي ركزت عليه « الوثيقة النيابية » كان « وقف النشاط المسلح » و « منع التواجد المسلح » لقوات الثورة الفلسطينية ، في الوقت الذي يرزح فيه الجنوب تحت نير الاحتلال ·

كذلك لم تتخذ السلطة اللبنانية اي اجراء بحق الرائد سعد حداد والرائد حنا الشدياق – قائد القوات الانعزالية في منطقة بنت جبيل – والجنود الذين يتعاونون معهما ، علما بأن هؤلاء جميعا هم في عداد « الجيش اللبناني » ويتقاضون رواتبهم من وزارة الدفاع ·

وفي الوقت الذي تتجاهل فيه « قيادة الجيش » تعاون هؤلاء مع العدو الصهيوني ،

وارتكابهم المجازر بحق ابناء الجنوب ، نراها تنتفض فجأة وبعنف ضد المقدم محمد سليم الذي استولى على ثكنة النبطية كاستمرار لانتفاضة جيش لبنان العربي ، وتصدر بيانا شديد اللهجة ، تحيل بموجبه المقدم سليم على المحاكمة العسكرية ، لمحاكمته واعدامه بتهمة « خيانة الشرف العسكري » !

موقف سعد حداد وجماعته من الانسحاب الاسرائيلي ٠

لم يخف الرائد سعد حداد فرحته وسروره من قيام العدو الصهيوني بغزو الجنوب ، فقد قال في مقابلة مع التلفزيون الاسرائيلي : « لقد كنا في غاية السعادة عندما شاهدنا الدبابات الاسرائيلية تزحف على قرانا ، لاننا كنا ننتظر هذا اليوم على احر من الجمر ٠ فمنذ معركة مارون الراس ، التي خسرناها ، طلبنا المعونة من اسرائيل ، لكنها تأخرت بعض الوقت وعادت اخيرا وحققت لنا احلامنا في القضاء على المقاومة ومن يعاونها من اليساريين » ٠

ولان سعد حداد وجماعته كانوا فرحين باحتلال الصهاينة للجنوب ، فقد كانوا يصرون ان يستمر الاحتلال ٠ ولذلك ما ان وصلت طلائع القوات الدولية الى الجنوب ، تنفيذا لقرار مجلس الامن الدولي رقم ٤٢٥ ، الذي دعا « اسرائيل » الى الانسحاب كليا وفورا من الاراضي اللبنانية ، حتى واجه الانعزاليون هذا القرار بغضب ، وتظاهروا في قرية « القليعة » رافعين في وجه القوات النرويجية التي دخلت المنطقة قادمة من الجولان ، بطريق القليعة ، يافطات تحمل شعار : « عودوا الى بلادكم ايها النروجيون » (٦٥) ٠

اما سعد حداد ، فقد علق على نبأ الانسحاب الاول للقوات الصهيونية بقوله : « ان الفلسطينيين سيعودون بسرعة الى الاماكن التي ينسحب منها الاسرائيليون » ، ووجه كلامه الى مراسل اذاعة « الجيش الاسرائيلي » ، الذي كان يجري مقابلة معه ، فقال : « سيكونون قريبين جدا منا ٠٠ وسيكونون قريبين جدا منكم » ٠ لان « قوات الامم المتحدة لا تستطيع ان تحل محل الجيش الاسرائيلي ٠٠ وانها لن تكون قادرة على منع الفدائيين الفلسطينيين من العودة الى منطقة الحدود » (٦٦) ٠

وكان فرنسيس رزق ، الناطق الرسمي باسم القوات الانعزالية في المنطقة ، اكثر وضوحا في تمسكه بالاحتلال ، اذ صرح في مقابلة مع التلفزيون « الاسرائيلي » : « اتمنى من كل قلبي أن تحتل اسرائيل كل لبنان وتطهره من الاعداء » (٦٧) ــ المقاومة الفلسطينية واليسار المخرب ٠

الحواشي :

١ ــ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ــ٤ــ١٩٧٨ ٠

٢ ــ جريدة صوت الجماهير .

٣ ــ جريدة السفير بتاريخ ٢٦ــ٣ــ١٩٧٨ بيان المؤتمر الصحفي لاهالي البلدة ، الذي عقد في مقر « الجمعية الخيرية لاهالي العباسية » ٠

٤ ــ جريدة السفير ، وجريدة النهار بتاريخ ٢٤ــ٣ــ١٩٧٨ ٠

٥ ــ جريدة السفير ، بتاريخ ٢١ــ٤ــ١٩٧٨ ٠

٦ ــ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ــ٤ــ١٩٧٨

٧ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ـ٤ـ١٩٧٨ وهما علي بسما ، وعلي ابراهيم بسما ٠

٨ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ـ٣ـ١٩٧٨ ٠

٩ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ـ٣ـ١٩٧٨ ٠

١٠ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣١ـ٣ـ١٩٧٨ ٠

١١ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٧ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٢ ـ جريدة السفير بتاريخ ١ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٣ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٦ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٤ ـ جريدة السفير بتاريخ ٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٥ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٥ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٦ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٧ ـ جريدة النهار بتاريخ ٤ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٨ ـ جريدة السفير بتاريخ ٤ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

١٩ ـ جريدة السفير بتاريخ ٨ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢٠ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٦ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢١ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

٢٢ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ـ٢ـ١٩٧٨ ٠

٢٣ ـ جريدة السفير بتاريخ ٤ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢٤ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٦ـ٤ـ١٩٧٨ ، وجريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ١٩٧٨ ٠

٢٥ ـ جريدة السفير بتاريخ ٧ـ٥ـ١٩٧٨ ٠

٢٦ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٧ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢٧ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٩ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢٨ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٢ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢٩ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٩ـ٤ـ١٩٧٨ وجريدة النهار بتاريخ ١٥ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٠ ـ جريدة السفير بتاريخ ٩ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣١ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٢ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٣ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٧ـ٤ـ١٩٧٨ ، وجريدة السفير بتاريخ ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٤ ـ جريدة السفير بتاريخ ٣ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٥ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٦ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٦ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢١ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٧ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٧ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٣٨ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٢ـ٥ـ١٩٧٨ ٠

٣٩ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٠ ـ جريدة النهار بتاريخ ٢ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤١ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٢ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٢ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٤ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٥ ـ جريدة النهار بتاريخ ٣ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٦ ـ جريدة السفير بتاريخ ٥ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٤٧ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٨ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٤٨ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٩ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٤٩ ـ جريدة النهار بتاريخ ١٦ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٥٠ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٠ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٥١ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٦ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٥٢ ـ جريدة السفير بتاريخ ٩ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٥٣ ـ جريدة السفير بتاريخ ١١ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٥٤ ـ جريدة السفير بتاريخ ٣ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٥٥ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٥ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٥٦ ـ جريدة النهار بتاريخ ٥ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٥٧ ـ جريدة السفير بتاريخ ٣٠ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٥٨ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢٦ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٥٩ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٥ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٦٠ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٠ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٦١ ـ جريدة النهار بتاريخ ٥ـ٥ـ ١٩٧٨ .

٦٢ ـ جريدة السفير بتاريخ ١ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٦٣ ـ جريدة السفير بتاريخ ٣٠ـ٣ـ ١٩٧٨ .

٦٤ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢١ـ٣ـ ١٩٧٨ .

٦٥ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٢ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٦٦ ـ جريدة السفير بتاريخ ١٢ـ٤ـ ١٩٧٨ .

٦٧ ـ جريدة السفير بتاريخ ٢١ـ٣ـ ١٩٧٨ .

تقارير

اوضاع التعليم العالي في الارض المحتلة واسس تطويره ودعمه

١ ـ المقدمة

عندما تلقت جامعة بيرزيت الدعوة لحضور الندوة الثانية لكليات التربية بالجامعات العربية حول « كليات التربية في العالم العربي : حاضرها ومستقبلها » وجدت انه من المناسب ان اقوم بكتابة تقرير عن اوضاع التعليم العالي العربي في الارض المحتلة واسس تطويره ودعمه · ويعود السبب في اختياري هذا الى الامور التالية :

١ ـ ليس هنالك في الوقت الحاضر كليات تربية عربية كاملة ومتطورة بالشكل الصحيح في الارض المحتلة ·

٢ ـ معظم جهود مؤسسات التعليم العالي في الارض المحتلة لا زالت حتى الان تؤدي الى تخريج معلمين للتعليم في المراحل المدرسية المختلفة أو الى تخريج طلبة لا يجد معظمهم الا التعليم مجالا مفتوحا امامهم للعمل في الارض المحتلة ، وربما في خارجها ايضا ·

٣ ـ لم يكتب حتى الان اي تقرير واف عن مؤسسات التعليم العالي في الارض المحتلة والمشاكل التي تواجهها تحت الاحتلال ، وخصوصا تلك المشاكل الناتجة عن عدم وجود مخطط شامل لتطوير هذه المؤسسات وبالتالي الى تطوير كليات تربية تفي بحاجة الشعب الفلسطيني التربوية في هذه الاراضي ·

ويعود الاهتمام العربي بالتعليم العالي في فلسطين الى ثلاثين سنة على الاقل ، حينما اقترح جورج شبر اقامة جامعة عربية في القدس (١٩٤٧) ، ولكن هذا المشروع لم يتحقق بسبب عدم موافقة

★ أعدت جامعة بيرزيت هذا التقرير ، وقدم الى الندوة الثانية لكليات التربية في الجامعات العربية · جامعة الرياض ، ٢٢ ـ ٢٦ نيسان ١٩٧٨ ·

حكومة الانتداب البريطاني عليه . ثم المشاكل المتلاحقة التي رافقت وتلت تقسيم فلسطين · اما اول خطوة عملية في هذا المضمار فقد تمثلت على نطاق محدود عندما ابتدأت كلية بيرزيت (جامعة بيرزيت حاليا) بتقديم دراسات على مستوى السنة الاولى الجامعية (١٩٥١) وانشاء دار المعلمات الحكومية في رام الله (١٩٥٢) · وقد تلى ذلك افتتاح معهد تدريب المعلمين في العروب عام ١٩٥٨ الذي اغلق عام ١٩٦٤ واعيد افتتاحه عام ١٩٦٩ . وافتتاح دار المعلمين ودار المعلمات الحكوميتين في غزة (١٩٥٥) · كذلك افتتح معهد تدريب المعلمين التابع لوكالة الغوث في رام الله (١٩٦٠) وتبعه المعهد الزراعي في طولكرم (١٩٦١) ومركز تدريب الفتيات والمعلمات التابع لوكالة الغوث في الطيرة ــ رام الله (١٩٦١) واكتملت المرحلة الجامعية المتوسطة في كلية بيرزيت (سنة اولى وثانية في الاداب والعلوم) عام ١٩٦٢ · وافتتحت كلية النجاح معهد النجاح الوطني لتدريب المعلمين في نابلس (١٩٦٥) ، كما افتتحت كلية الروضة معهد الروضة الوطني للمعلمين في نابلس (١٩٧٠) ثم عادت فاغلقته بعد ثلاث سنوات ·

وفي عام ١٩٧٢ باشرت كلية بيرزيت بتنفيذ تطوير الدراسة فيها الى المستوى الجامعي الكامل · وافتتحت جامعة بيت لحم عام ١٩٧٣ وتم تطوير كلية النجاح الوطنية الى جامعة التي افتتحت في ٥ ــ ١١ ــ ١٩٧٧ · كما ان هناك عدة معاهد مهنية مختلفة ومدارس تمريض في اماكن متعددة من الضفة الغربية ·

وبصورة اجمالية فانه يوجد في الضفة الغربية وقطاع غزة في الوقت الحاضر اكثر من عشرين مؤسسة تعليمية تقدم دراسات بعد المرحلة الثانوية ·وتقبل هذه المؤسسات بمجموعها حاليا حوالي ٩٧٥ طالبا وطالبة سنويا للدراسة الجامعية و ١١٠٠ في برامج تدريب المعلمين و ٥٠٠ في المجالات المهنية · ويبلغ مجموع المقبولين سنويا حوالي ٢٥٧٥ طالبا وطالبة اي حوالي ٢٢٪ من الناجحين في امتحان شهادة الثانوية العامة في الضفة الغربية وقطاع غزة (الذين يقدر عددهم بحوالي ١١ر٠٠٠ طالب وطالبة) · ومن الجدير بالذكر هنا ان العديد من مؤسسات الضفة الغربية يقبل بعض الطلبة (وبالاخص الطالبات) من القطاع ، ولا يزال العدد الاكبر من خريجي المدارس الثانوية في القطاع يتوجه الى الجامعات المصرية للدراسة الجامعية ·

اما مجموع عدد الطلبة في هذه المؤسسات فهو حوالي ٦١٥٠ طالبا وطالبة ، منهم ٢٤٠٠ في الجامعات و ٢٤٥٠ في معاهد تدريب المعلمين و١٣٠٠ في المجالات الاخرى · ومما يذكر ان عدد الطلبة الذين يتوجهون الى الجامعات والمؤسسات الاسرائيلية ضئيل جدا ، وكذلك الامر بالنسبة لابناء الجليل والمثلث الذين يدرسون في مؤسسات الضفة الغربية ·

ومن الواضح ان مجالات التعليم العالي في الارض المحتلة ، رغم نموها المتواصل ، لا زالت ناقصة ومحدودة جدا. فبالاضافة الى الاستيعاب غير الكافي للطلبة ، فان المجالات المتوفرة ضيقة للغاية . ولا شك بان النقص في التنوع في فرص التعليم العالي ــ كعدم وجود كليات جامعية مهنية كالهندسة والطب ــ من الاسباب التي تدعو الكثير من الطلبة للسعي وراء التعليم العالي في الخارج مما يتسبب في هجرة الشباب من الوطن، كما انه يشكل عائقا امام نمو المؤسسات الموجودة بالسرعة اللازمة · ويمكن معالجة هذه الصعاب عن طريق توفر

الدعم اللازم لهذه المؤسسات ·

ومن ناحية أخرى ، فان انقضاض الاحتلال على الضفة الغربية وقطاع غزة واستمراره لمدة طويلة ، مع ما يلازمه من ممارسات مدروسة لتضييق مجالات التعليم والثقافة امام شبابنا واغرائهم بالهجرة للخارج او الانخراط في الاعمال التي لا تلزمها المهارة في الاقتصاد الاسرائيلي ، قد خلق مشاكل جمة تواجه مؤسسات التعليم العالي العربية وتفوق قدرتها على حلها دون دعم مادي ومعنوي واعلامي من جميع انحاء الوطن العربي · ومما لا شك فيه ان من اكبر مساوىء التعليم العالي في الارض المحتلة هي افتقاره الى مخطط شامل يضمن سلامة غده على المدى البعيد ويكفل حسن الافادة من الموارد المتوافرة · وسنفصل البحث في هذه المواضيع فيما بعد ، وننتقل الان الى اعطاء صورة اكثر دقة عن مؤسسات التعليم العالي الرئيسية ·

٢ ـ مؤسسات التعليم العالي : تأسيسها وتطورها

المعلومات التي سأوردها هنا عن مؤسسات التعليم العالي في الضفة الغربية جمعت خلال الاعوام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ و ١٩٧٧ـ١٩٧٨، وقد جرى الحصول عليها عن طريق اجراء مقابلات مع المسؤولين عن هذه المؤسسات وطرح الاسئلة المختلفة عليهم وعن طريق النشرات التي اصدرتها بعض هذه المؤسسات · واود الاشارة هنا الى ان المعلومات التي سأوردها عن الجامعات والكليات تشمل التطورات التي حصلت فيها خلال العام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، بينما لا تتعدى المعلومات عن المؤسسات الاخرى العام الدراسي ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ وذلك لسببين رئيسيين :

١ ـ ان جامعات الضفة الغربية تتطور سنويا وبشكل ملحوظ من الناحيتين الكمية والنوعية ، اي من ناحية اعداد الطلبة والاساتذة والعاملين فيها ومن ناحية البرامج المقدمة فيها والكليات والاقسام التي تنشئها هذه الجامعات ومؤهلات الاساتذة فيها ، وبالتالي فانه من الضروري ملاحقة وتسجيل هذه التطورات سنويا من قبل اي باحث يكتب عن مؤسسات التعليم العالي العربية في الارض المحتلة ·

٢ ـ وجدت خلال العامين الماضيين ان المؤسسات التعليمية الاخرى (غير الجامعات) لا تتطور بشكل ملحوظ من الناحيتين المذكورتين اعلاه وبالتالي فان اعداد الطلبة والاساتذة والعاملين فيها تبقى شبه ثابتة بينما لا تتغير البرامج المقدمة فيها ، ولهذا لم اجد داعيا من متابعة التغييرات خلال العام الدراسي الحالي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ · ويعود الجمود النسبي هذا في هذه المؤسسات الى عوامل عديدة سأقوم بتفصيلها في فقرات لاحقة من هذا التقرير ·

ومن الجدير بالذكر هنا ان المدارس ومؤسسات التعليم العالي العربية في الارض المحتلة تقسم ، من ناحية الاشراف عليها وتمويلها ووضع الخطط اللازمة لتطويرها ، الى ثلاثة انواع :

١ ـ **المؤسسات الحكومية** : وتقع تحت الاشراف المباشر لضابط التربية والتعليم الاسرائيلي في الضفة الغربية وهذا بدوره يقع تحت اشراف الحاكم العسكري العام للضفة الغربية · وكذلك هو الامر بالنسبة لقطاع غزة التي لها حاكم عسكري عام وضابط تربية وتعليم خاصان بها · وضابط التربية والتعليم هو الذي يقرر الميزانية السنوية للمؤسسات التعليمية الحكومية ويوافق على التعيينات ، من اساتذة واداريين

وموظفين ، وهو مسؤول ايضا عن وضع الخطط اللازمة لتطوير التعليم في المناطق المحتلة · اما في مدينة القدس فان المدارس العربية تقع تحت اشراف بلدية القدس الاسرائيلية من ناحية التمويل ، واشراف وزارة المعارف والثقافة الاسرائيلية من الناحية الاكاديمية ·

٢ ـ مؤسسات وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين : تخضع للاشراف المباشر لدائرة التربية في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين ، التابعة للامم المتحدة ، من الناحية الاكاديمية والمالية والادارية · وتعمل وكالة الغوث على افتتاح مدارس لتعليم ابناء اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى الوكالة حتى نهاية المرحلة الالزامية ، كما ان لديها ثلاث مؤسسات للتعليم العالي في الضفة الغربية ، وتتمتع المؤسسات الثلاث هذه بنوع من الاستقلالية من الناحية الادارية ومن ناحية اتخاذ القرارات اللازمة لتطويرها . ولكن من الضروري حصولها على موافقة دائرة التربية التابعة للوكالة لوضعها موضع التنفيذ · وتدرس في مدارس الوكالة في الضفة الغربية المناهج المقررة من قبل وزارة التربية والتعليم الاردنية والمعدلة من قبل سلطات الحكم العسكري الاسرائيلية ، وفي قطاع غزة تدرس المناهج المقررة من قبل وزارة التربية والتعليم المصرية والمعدلة من قبل سلطات الحكم العسكري الاسرائيلية · اما مؤسسات وكالة الغوث للتعليم العالي فانها تتبع المناهج التي وضعتها اليونسكو وهي شبيهة بمناهج دور المعلمين والمعلمات الحكومية ·

٣ ـ المؤسسات الاهلية والخاصة : وهي مستقلة من ناحية التمويل والاشراف والادارة · وتدرس في المراحل الالزامية والثانوية المناهج الاردنية (في الضفة الغربية) والمصرية (في قطاع غزة) المعدلة من قبل سلطات الحكم العسكري الاسرائيلية مع اضافة بعض المواضيع الاخرى مثل اللغات الاجنبية في بعض هذه المدارس · اما مؤسسات التعليم العالي فلها الحرية في وضع او اختيار المناهج التي تراها مناسبة ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المؤسسات ، رغم الضغوطات والعراقيل الكثيرة والمستمرة من قبل السلطات الاسرائيلية عليها ، قد نجحت في عدم السماح للسلطات الاسرائيلية بالتدخل في مناهجها سواء من ناحية المضمون او من ناحية المستوى (وكذلك هو الحال بالنسبة لمؤسسات التعليم العالي التابعة لوكالة الغوث) ·

اما مؤسسات التعليم العالي العربية في الاراضي المحتلة فهي :

أ ـ معاهد المعلمين والمعلمات والمعاهد المهنية

١ ـ المعهد الزراعي (الخضوري) ، طولكرم

انشىء المعهد كمدرسة خضوري الزراعية عام ١٩٣١ باموال تبرع بها السيد اليس خضوري من هونغ كونغ · تحول الى معهد زراعي فوق المستوى الثانوي عام ١٩٦١ وهو الان يتبع المنهاج الاردني ويقع تحت اشراف ضابط التربية والتعليم في قيادة الضفة الغربية · ويقدم المعهد دراسة ثلاث سنوات في قسم الزراعة ودراسة سنتين لتدريب المعلمين في العلوم . الرياضيات ، اللغة العربية ، اللغة الانكليزية ، الاجتماعيات والدين ، التربية الرياضية · في المعهد ١٥ موظفا اداريا . بينهم حامل شهادة دكتوراة واربعة من حملة شهادة البكالوريوس · اما الهيئة التدريسية فكانت تتكون عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ من ٢١ عضوا ، بينهم اثنان يحملان شهادة دكتوراه ، اربعة من حملة الماجستير

و ١٤ من حملة البكالوريوس ٠

بلغ عدد الطلاب في المعهد ، في العام الدراسي ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ٣٠١ طالب منهم ٦٠ في قسم الزراعة ، ٩١ في قسم العلوم والرياضيات ، و ١٥٠ في القسم الادبي ، ويقبل المعهد حوالي ١٤٠ طالبا سنويا ، ويشترط في القبول ان يكون الطالب قد حاز على ما لا يقل عن ٦٠٪ في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة ٠ والدراسة في المعهد مجانية الا ان قيادة التربية والتعليم في الضفة الغربية قد اقرت مؤخرا شرطا بان يقوم الطالب بدفع ثلاث ليرات اسرائيلية يوميا كقسط رمزي مقابل تناول وجبات الطعام في المعهد ٠

تبلغ مساحة ارض المعهد حوالي ٤٠٠ دونم ، ولدى المعهد ٨ غرف جيدة للدراسة وقاعة كبيرة للمحاضرات وستة مختبرات للكيمياء العضوية والكيمياء غير العضوية وعلم النبات وعلم الحيوان والفيزياء والتربة . يتسع كل منها لاربعة وعشرين طالبا ٠ وتحتوي مكتبة المعهد على ٢٤٫٠٠٠ مجلد باللغتين العربية والانكليزية ومعدل الزيادة السنوية في الكتب يتراوح بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كتاب ، كذلك يوجه في المكتبة مجلات مختلفة معظمها يهتم بالزراعة ٠ ولدى المعهد كذلك منزل للطلاب ومرافق زراعية مختلفة تحتوي على اجهزة عديدة ٠

ويطمح المسؤولون في المعهد الى ان يلعب دورا ضمن خطط التطور العلمي في الارض المحتلة ، كأن يصبح كلية زراعة تابعة لجامعة ما ٠ ومن الواضح ان طولكرم وهي في السهل الساحلي لفلسطين ، من افضل الاماكن لكلية زراعة (الى جانب غور الاردن الذي يشكل امكانية اخرى كموقع جيد لهذه الكلية) ٠ الا ان مكان انشاء كلية زراعة جامعية مع ما تتطلبه من اراض ومنشآت فسيحة ، قد يكون اكثر حساسية للتقلبات السياسية من غيره من مكونات الجامعة ، والمعروف ان المعهد يقع على حدود عام ١٩٦٧ :

٢ ـ كلية الروضة الوطنية ، نابلس

اسس كلية الروضة الوطنية عام ١٩٤٩ السيد مروان عبد الهادي ، الذي لا يزال يديرها ، وابتدأت العمل كمدرسة ابتدائية وتطورت حتى اصبحت مدرسة ثانوية في عام ١٩٦١ ٠ وفي عام ١٩٧٠ افتتحت الكلية « معهد الروضة الوطني للمعلمين » وهو خاص بالتعليم العالي ويهدف الى اعداد المعلمين ويعتمد في انظمته ومناهجه على انظمة ومناهج معاهد المعلمين والمعلمات الاردنية الحكومية ٠ وفي عام ١٩٧٣ اغلق معهد المعلمين وانشىء مكانه فرع لاعداد مساعدي الصيادلة مدرسة ابتدائية ـ اعدادية ـ ثانوية فيها حوالي ٧٠٠ طالب٠ للكلية كادر اداري من سبعة اشخاص احدهم يحمل شهادة ماجستير واثنان يحملان شهادة ليسانس ٠ اساتذة قسم مساعدي الصيادلة من حملة شهادة البكالوريوس في العلوم واستاذ واحد فقط يحمل شهادة الماجستير ومعظم الاساتذة غير متفرغين ٠ تتراوح الرواتب للموظفين غير الاكاديميين والاساتذة ما بين ٢٣ ـ ٧٠ دينارا اردنيا ٠

درس في قسم مساعدي الصيادلة ، عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ١٤ طالبا وطالبة ٠ ويشترط في قبول الطلبة حصولهم على شهادة الدراسة الثانوية العامة او ما يعادلها ٠ وتبلغ الاقساط السنوية التي يدفعها الطلبة في هذا القسم ٩٠ دينارا اردنيا ٠

في كلية الروضة . التي تبلغ مساحة ارضها حوالي ٧ دونمات . مكتبة اسست

سنة ١٩٧٠ ، فيها ٧ ـ ٨ الاف كتـــاب (تلزم للدراسة في مختلف المراحـــل) ، وتبلغ نسبة الزيادة السنوية في الكتب ٥٪ ـ ١٠٪ · كذلك توجد ثلاث مختبـــرات للفيزياء والكيمياء والاحيـــاء تبلـــغ مساحتها ٢٨٠ م٢ ، بلغت تكاليف انشائها حوالي ١٥ الف دينار اردني · وفي الكلية ثلاثة ملاعب خارجية ·

كان من المقرر ان تفتتح الكلية في بداية العام الدراسي ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ قسمـــا للتحليل المخبري (مدة الدراسة فيـــه سنتان ويشترط للالتحاق به حصـــول الطالب على شهادة الدراسة الثانويـــة العامة او ما يعادلها ، ويدفع الطالـــب ١٠٠ دينار اردني سنويا كأقساط دراسة) الا ان افتتاحه قد تاجل للعام الدراســي القادم ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ·

وقد جرت محاولات من قبل المشـــرف على الكلية لتحويلها الى كليـــة للاداب مرتبطة باحدى الجامعات العربية خـــارج الارض المحتلة ، بالاضافة الى تطوير قسم مساعدي الصيادلة الى كلية صيدلة فـــي السنوات القادمة · الا ان هذا التطوير ، حسب قول المشرف ، تقف في طريقـــه عوائق رسمية ·

٣ ـ معهد المعلمات الحكومـــي ، رام الله

يتبع هذا المعهـــد لوزارة التربيـــة والتعليم الاردنية ، وبعد حرب حزيـــران انتقل الاشراف عليه الى ضابط التربيـــة والتعليم في قيادة الضفـــة الغربيـــة · تأسس هذا المعهد سنة ١٩٥٢ وهدفه تخريج معلمات للمرحلة الالزامية في التخصصات التالية : اللغة العربية ، اللغة الانكليزية، الاجتماعيات والدين ، علوم ، رياضيات، علوم منزلية ، التربية الرياضية · مـــدة الدراسة في المعهد سنتان · للمعهـــد جهاز اداري يتكون من ٩ عضوات ، اربع منهن من حاملات شهادة البكالوريوســـ والباقيات يحملن دبلوم دار المعلمـــات او الشهادة الثانوية · اما الهيئة التدريسية فكانت تتألف ، عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، من ١٢ معلما ومعلمة ، ١٢ من حملة شهـادة البكالوريوس ومعلمة بدرجة الماجستيـــر · وتبلغ الميزانية السنوية للمعهد حوالـــي ٠٠٠ر١٧ دينار اردني ·

درست فـــي المعهد ، عـــام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ٢٢٠ طالبة ويشترط لقبـــول الطالبات ان تكون الطالبة حائزة عـلى شهادة الدراسة الثانوية العامة او مـــا يعادلها ويبلغ القسط السنوي حوالـــي ١٢ دينارا اردنيا ·

في المعهد مكتبة تحتوي على ١٧ الـف كتاب والزيادة السنوية تقدر بحوالـــي ٤٠٠ ـ ٥٠٠ كتاب · يوجد في المكتبـــة دوريات مختلفة ولكنها قليلة العدد ·يوجد في المعهد كذلك ٧ غرف للدراسة ، ثلاثـة مختبرات للكيمياء والفيزياء والاحيـاء ، قاعتان كبيرتان ، بنايتان للطالبات فـــي القسم الداخلي (معظم الطالبات في القسم الداخلي) كل بناية فيها ٢٢ غرفـــة ، ملعبان خارجيان ، وقد الحق بالمعهد عام ١٩٥٦ مدرسة ابتدائية نموذجية ·

ليس للهيئة الادارية اية خطط لتوسيع المعهد لان خطط التغيير والتطوير تأتـــي من ضابط التربية والتعليم في قيـــادة الضفة الغربية ·

٤ ـ مركز تدريب الفتيات والمعلمـــات التابع لوكالة الغوث ، الطيرة ـ رام الله

افتتح المركز عام ١٩٦٢ وتشرف عليـه وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين واليونسكو · ويضم المركز قسما لتدريب المعلمات للمرحلـــة الالزامية ، فترة الدراسة فيه سنتـان مع تخصصات في : اللغة العربية ، اللغـــة

الانكليزية ، الرياضيات ، العلوم ، اجتماعيات وتربية دينية ، التربية الرياضية ، الفن ، تعليم المرحلة الابتدائية · كما يضم المركز قسما مهنيا ، مدة الدراسة فيها سنتان ، مع تخصصات في : دور الحضانة ، التجميل ، ادارة المنزل والمؤسسات ، الخياطة ، السكرتارية ، الطب المساعد (مجال الالتحاق بالتخصص الاخير مفتوح امام الطلاب بالاضافة الى الطالبات) ·

تتألف الهيئة الادارية من ٤ اعضاء من حملة الماجستير · اما الهيئة التدريسية فقد تألفت عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧، من ٦٠ عضوا متفرغا و ٦ غير متفرغين · من المتفرغين ١٠ من حملة الماجستير ، ٣٠ من حملة البكالوريوس ، و ٢٠ معلمة مؤهلة بالخبرة · بلغت الميزانية للعام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ حوالي ٣٠ر٠٠٠ دينار اردني ·

بلغ عدد الطالبات في قسم تدريب المعلمات ، عام ٧٦ ـ ٧٧ ، ٢٠١ طالبة وفي القسم المهني ٢٣٢ طالبة و ٩ طلاب · يشترط لقبول الطالبة في قسم تدريب المعلمات ان تكون حائزة على شهادة الدراسة الثانوية العامة وان لا يزيد عمرها عن ٢١ سنة ويجب ان تكون لاجئة وتعطى الاولوية للمسجلات في بطاقة تموين وكالة الغوث · ويتراوح القسط السنوي بين ٢٢ ـ ٣٠ دينارا اردنيا يدفع بالليرة الاسرائيلية حسب السعر الرسمي· وبلغ عدد الطلبة الذين دفعوا اقساطا ٦٢ طالبة ·

مساحة ارض المركز حوالي ٨٠ دونما وفيه ١٦ غرفة مخصصة لتدريس الفتيات في قسم تدريب المعلمات و٣٢ غرفة للقسم المهني · هنالك بنايتان للنوم تحتوي كل واحدة منهما على ٢٠ غرفة · تضم المكتبة حوالي ١٣ر٠٠٠ كتاب و٧٨ دورية معظمها باللغة الانكليزية · في المركز اربعة مختبرات ، اثنان لقسم اعداد المعلمات (واحد للفيزياء والثاني للكيمياء والاحياء) والاثنان الاخران للقسم المهني وهما مجهزان بأحدث الالات والاجهزة اللازمة للطلبة · كما يوجد في المركز ملعب واحد داخلي كبير وسبعة ملاعب خارجية ومسرح صيفي ·

ومن مقترحات ادارة المركز المحلية للتوسع في اعماله ما يلي :

١ ـ توسيع قسم الطب المساعد ليشمل اكثر من التخصصين الموجودين حاليا (وهما التحليل المخبري ومساعدي الصيادلة) ·

٢ ـ اقامة قسم للتمريض ·

٣ ـ توسيع تخصص اعمال المكاتب والسكرتارية وجعلها تتناول الاعمال السياحية وشركات الطيران ·

٤ ـ توسيع قسم ادارة المنزل والمؤسسات لكثرة الطلب عليه ·

٥ ـ جعل قسم تدريب المعلمات ثلاث سنوات (مع التعمق في التخصص)·

هذه اهم الخطط الان وبعضها قيد البحث ، ويعتمد اي توسع على الميزانيات والمساعدات التي تخصص للمركز من قبل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين·

٥ ـ معهد تدريب المعلمين التابع لوكالة الغوث ، رام الله ·

تأسس المعهد عام ١٩٦٠ ويقدم دراسة مدتها سنتان لتأهيل المعلمين فيالتخصصات التالية : الرياضيات ، العلوم ، اللغة الانكليزية ، اللغة العربية ، التربية الرياضية ، المرحلة الابتدائية · يتبع المعهد وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين ، وتطبق فيه المناهج الاردنية باشراف اليونسكو · غاية المعهد

تزويد مدارس الانروا بالاساتذة اللازمين · تتكون الهيئة الادارية من ثلاثة اشخاص يحملون شهادة البكالوريوس · اما الهيئة التدريسية فقد بلغ عدد اعضائها عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ ، ١٧ عضوا من حملة شهادة البكالوريوس ·

بلغ عدد الطلاب في المعهد ، عام ٧٦ــ ١٩٧٧ ، حوالي ٢٥٠ طالبا ، ٤٠٪ منهم من قطاع غزة ، مع انه بامكان المعهد استيعاب ٤٠٠ طالب · ويلاحظ ان عدد الطلاب قد تناقص على مر السنوات بحيث اصبح الطلاب فيه اقل بكثير من قدرته الاستيعابية · ويشترط لقبول الطالب حصوله على شهادة الدراسة الثانوية العامة (الاردنية والمصرية) ولا يدفع الطلاب الذين يحملون بطاقة تموين وكالة الغوث اية اقساط ·

مساحة الارض التي يقع عليها المعهد حوالي ٥٠ دونما · وفيه ١٢ غرفة للتدريس ، ٢٥ غرفة نوم للطلاب ، غرفة للاجتماعات وثلاثة ملاعب خارجية · هنالك ايضا ثلاثة مختبرات للفيزياء والكيمياء والاحياء ، تخصص لها ميزانية سنوية تبلغ حوالي ٥٠٠ دينار اردني · ويوجد مختبر اخر للتربية وعلم النفس · اما المكتبة فتحتوي على ١٦٫٠٠٠ مجلد ويخصص مبلغ ٧٠٠ دينار اردني سنويا للكتب الجديدة · وفي المكتبة ايضا ٤٧ دورية باللغة الانكليزية والعربية ·

٦ ــ معهد المعلمين ، العروب

وهو معهد حكومي تأسس سنة ١٩٥٨ ليكون معهدا لتخريج معلمين للمرحلة الابتدائية والاعدادية في مدارس التربية والتعليم · وفي سنة ١٩٦٤ الغي معهد المعلمين لعدم حاجة الاردن في ذلك الوقت الى المزيد من خريجي دور المعلمين · وتحول المعهد بعد ذلك الى معهد زراعي للمعلمين لتخريج معلمين زراعيين فنيين · وفي

سنة ١٩٦٩ اعيد افتتاح معهد المعلمين مرة ثانية وتحول المعهد الزراعي الى مرحلة زراعية ثانوية · ويقبل في هذه المرحلة الطلاب الذين انهوا المرحلة الاعدادية حيث يقضون ثلاث سنوات في الدراسة الزراعية يقدمون في نهايتها امتحان شهادة الدراسة الثانوية الزراعية · اما معهد المعلمين فيقوم بتخريج معلمين للتدريس في مدارس التربية والتعليم في الضفة الغربية.ويقتصر التخصص في المعهد على الفرع الادبي فقط حيث يتخصص الطالب في الاجتماعيات والدين أو اللغة الانكليزية او اللغة العربية · مدة الدراسة في المعهد سنتان ويتبع منهاج وزارة التربية والتعليم الاردنية · الكادر الاداري للمعهد يتألف من ١١ عضوا احدهم من حملة شهادة الماجستير . واثنان من حملة شهادة البكالوريوس · اما الهيئة التدريسية فقد كانت عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ تتألف من ٩ اعضاء،ثمانية منهم من حملة البكالوريوس او الليسانس وواحد من حملة دبلوم معهد المعلمين ·

بلغ عدد الطلاب في معهد المعلمين ، عام ٧٦ــ٧٧ ، حوالي ٨٠ طالبا · ويشترط في الطالب الملتحق أن يكون حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية العامة او ما يعادلها وان يكون ناجحا فياللغة الانكليزية والرياضيات العامة والعلوم العامة (الفرع الادبي) · وقد كانت الدراسة حتى سنة ١٩٧٧ مجانية ولكن السلطات الاسرائيلية ، التي تشرف على المعهد منذ حرب حزيران. قررت فرض اقساط سنوية تبلغ حوالي ٢٥ دينارا اردنيا ·

مساحة ارض المعهد ١٣٠ دونما · فيه ٧ غرف للتدريس ، ١١ غرفة نوم ، قاعة مسرح . ملعبان داخليان . ثلاثة ملاعب خارجية . ومختبر واحد يتسع لخمسة وعشرين طالبا وينقصه الكثير من الاجهزة اللازمة لطلاب معهد المعلمين · اما المكتبة

ففيها ٨٠٠٠ كتاب ، والزيادة السنوية ضئيلة جدا ، والدوريات شبه معدومة ٠

تقتصر خطط المستقبل على نية لتوسيع وتطوير المكتبة لانها ضعيفة جدا من الناحية الكمية والنوعية بالنسبة لدار معلمين ٠ ليس هنالك نية لزيادة عدد الطلاب الحالي وذلك لعدم توفر الوظائف لهم عند التخرج ٠

٧ ـ دار المعلمين ودار المعلمات في غزة

اسستهما الحكومة المصرية عام ١٩٥٥ لتأهيل المعلمين والمعلمات للمرحلة الالزامية ، وكانتا انذاك تقبلان الطلبة الذين ينهون المرحلة الاعدادية ، وفي عام ١٩٧٤ اصبحتا تقبلان الطلبة الذين ينهون المرحلة الثانوية فقط ، وهما الان تحت اشراف ضابط التربية والتعليم الاسرائيلي بقطاع غزة ٠ للدارين في العام الحالي ، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، نفس المدير ، ويبلغ عدد اعضاء الهيئة التدريسية فيهما ٥٢ مدرسا ومدرسة ، من متفرغين وغير متفرغين ، معظمهم من حملة البكالوريوس وعدد قليل من حملة الماجستير ٠

فترة الدراسة في دار المعلمين سنتان وتتبع فيه المناهج المصرية بالتخصصات التالية : علوم ، آداب ، تربية رياضية ، تربية فنية وموسيقى ، وسيضاف اليها في العام القادم ، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ، تخصص في اللغة الانكليزية ٠ ويبلغ عدد الطلاب في دار المعلمين في العام الحالي ٢٠٣ طلاب ، منهم ٨٨ في السنة الاولى و١٥٥ في السنة الثانية ٠

وتقدم دار المعلمات نفس التخصصات المقدمة في دار المعلمين بالاضافة الى تخصص في الاقتصاد المنزلي ٠ ويبلغ عدد الطالبات فيها في العام الحالي ٢٧٢ طالبة، منهن ١٣٠ في السنة الاولى و١٤٢ في السنة الثانية ٠

ب ـ الجامعات والكليات الجامعية

١ ـ جامعة بيت لحم

فتحت الجامعة ابوابها للدراسة في مبنى مدرسة الفرير في بيت لحم في تشرين الاول من عام ١٩٧٣ ، وكان قد اعلن عن الجامعة في الشهر السابق تحت اسم « جامعة الفرير » ثم تحول الاسم الى «جامعة بيت لحم » في الشهر نفسه ٠ وقد اتخذت توصية بتأسيس الجامعة في اجتماع دعا اليه القاصد الرسولي في القدس ، الاسقف بيو لاغي عام ١٩٧٢ وضم مدراء بعض المدارس في الضفة الغربية ٠

والجامعة ما زالت تحت اشراف القاصد الرسولي ومؤسسة الفرير (اخوة دي لاسال) وقد شكل مؤخرا مجلس استشاري للجامعة من اعضاء محليين ٠ وللجامعة مجلس امناء مقره الفاتيكان ، يتحمل مسؤولية الجامعة ويشرف على وضع خطط لتطويرها ٠

تضم الجامعة الكليات والمعاهد التالية :

(١) كلية الاداب والعلوم مدة الدراسة فيها ٤ سنوات وتمنح شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وادابها ، اللغة الانكليزية وادابها ، علم النفس ، الخدمة الاجتماعية، علم النفس ـ علم الاجتماع ، علم الاجتماع الخدمة الاجتماعية ، الرياضيات ، الرياضيات ـ الكيمياء ، الرياضيات ـ الفيزياء ، الكيمياء ـ الاحياء ٠

(٢) كلية ادارة الاعمال والاقتصاد : مدة الدراسة فيها ٤ سنوات وتمنح شهادة البكالوريوس في الاقتصاد والمحاسبة ٠

(٣) كلية المعلمين : تمنح درجة البكالوريوس للمعلمين الذين يلتحقون بها في فروع تخصصهم (المقدمة في كلية الاداب والعلوم) وشهادة التربية لحملة الشهادات الجامعية ، ونظام الدراسة فيها مسائي وهو عبارة عن برنامج تأهيل

للمعلمين اثناء الخدمة ٠

(٤) كلية التمريض : مدة الدراسة فيها ٤ سنوات وتمنح شهادة البكالوريوس٠

(٥) معهد ادارة الفنادق : مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات ويمنح الدبلوم في ادارة الفنادق ٠

الهيئة الادارية في الجامعة مكونة من سبعة اعضاء (ثلاثة اجانب واربعة عرب) اربعة منهم من حملة الدكتوراه ، واثنان من حملة الماجستير وواحد يحمل شهادة الدبلوم في ادارة الفنادق ٠ بلغ عدد اعضاء الهيئة التدريسية ، عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ٦١ عضوا ، حوالي النصف منهم من غير المتفرغين ، منهم ١٤ حملة دكتوراه ، ٢٧ ماجستير ١٤ حملة بكالوريوس ، و٤ حملة دبلوم ٠ اما العام الدراسي الحالي ، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، فان الهيئة التدريسية تتألف من ٦٠ عضوا ، ٢٥ منهم غير متفرغين ، ١٣ حملة دكتوراه ، ٢٨ حملة ماجستير ، ١٥ حملة بكالوريوس، ٢ حملة دبلوم وواحد يحمل شهادة دورة في التربية الرياضية ٠

بلغ عدد الطلبة ، عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ٣٤٧ طالبا وطالبة نظاميين ، ٢٠٠ طالب وطالبة في كلية المعلمين و٢٥ طالبا وطالبة دراسة خاصة ٠ اما في العام الدراسي الحالي ، فيبلغ عدد الطلبة ٤١٦ طالبا وطالبة نظاميين و٢٥٤ طالبا وطالبة في كلية المعلمين ٠ ويشترط لقبول الطلبة اما حصولهم على شهادة الدراسة الثانوية العامة او الحصول على ستة مواضيع فيامتحان شهادة التربية العامة البريطانية G. C. E. مستوى عادي وموضوعين مستوى متقدم احدهما اللغة العربية ٠ اما اقساط التعليم فتبلغ ١٠٠ دينار اردني في فصلي الخريف والربيع وتتبع الجامعة نظام الساعات المعتمدة ٠

تقع الجامعة على بعد ٨ كم جنوب القدس ومساحتها ١٧ر٧ دونما فيها ١٧ غرفة تدريس ، قاعة مسرح وملعب خارجي للرياضة ٠ تحتوي مكتبتها على ١٤ر٠٠٠ كتاب ، منها ٢ر٠٠٠ باللغة العربية ، ٩ر٠٠٠ باللغة الانكليزية و٢٠٠٠ بلغات اخرى هي الفرنسية ، الاسبانية، الايطالية، والالمانية ٠ وتشترك المكتبة بحوالي ١٥٠ دورية باللغة الانكليزية و ٥٠ دورية باللغة العربية ٠ ويبلغ معدل زيادة عدد كتب المكتبة السنوية حوالي ٣٠٠٠ كتاب ٠ وبناء المكتبة الحالي الذي تم انجازه قبل بضعة اشهر يتسع لحوالي ١٠٠ر٠٠٠ كتاب ويعمل في المكتبة خمسة موظفين ثلاثة منهم لديهم مؤهل جامعي ٠ يوجد في الجامعة كذلك مختبر للكيمياء مساحته ٦٠ مترا مربعا يستوعب حوالي ٣٠ طالبا وتقدر قيمة موجوداته بحوالي ٢٠ر٠٠٠ دينار وتبلغ الميزانية السنوية المخصصة حاليا لمشترياته ١ر٥٠٠ دينار ٠ وهنالك مختبر اخر للاحياء مساحته ١٧٠ مترا مربعا ويتسع لحوالي ٢٤ طالبا ، تبلغ قيمة موجوداته حوالي ٣٠ر٠٠٠ دينار وميزانية مشترياته السنوية ١ر٥٠٠ دينار ٠ والمختبر الثالث هو للفيزياء مساحته ١٨٠ مترا مربعا ويتسع لـ ٣٦ طالبا ، قيمة موجوداته حوالي ١٥ر٠٠٠ دينار وميزانية مشترياته السنوية حوالي ١ر٥٠٠ دينار ٠

اما خطط المستقبل فأهمها :

١ ـ بناء عمارة جديدة لكلية العلوم بتكلفة تقدر بمليوني دولار ٠

٢ ـ بناء سكن للطلاب والطالبات خارج الحرم الجامعي ٠

٣ ـ بناء مقصف جديد لطلبة الجامعة ٠

٤ ـ بناء قاعات اجتماعات للاحتفالات العامة ومنشآت رياضية حديثة ٠

وقد تقدمت الجامعة بطلب عضوية الى اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٧٧ الا انها لم تقبل ٠

٢ ـ جامعة بيرزيت

تأسست جامعة بيرزيت كمدرسة صغيرة عام ١٩٢٤ على يد الانسة نبيهة ناصر ، واستمرت المدرسة بالتطور فبدأت في سنة ١٩٥١ بتقديم مواد دراسية فوق المستوى الثانوي · وفي سنة ١٩٥٣ أكتمل الصف الجامعي الاول بفرعيه العلمي والادبي وتبعه الصف الجامعي الثاني سنة ١٩٦١ والغيت الصفوف الابتدائية والاعدادية والثانوية بصورة تدريجية الى ان تم الغاء اخر صف ثانوي في نهاية العام الدراسي ١٩٦٦_١٩٦٧ · واقتصر التعليم حينذاك على الصفين الجامعيين الاول والثاني اي ما يعرف بالمرحلة الجامعية المتوسطة · وبعد حرب حزيران ١٩٦٧ رأت الكلية ان انشاء جامعة عربية في الارض المحتلة هو من الامور الملحة ، فقامت بدراسات مطولة اقرت على اثرها في حزيران ١٩٧٢ برنامج التوسع لاربع سنوات جامعية بحيث يضاف الصف الجامعي الثالث في عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ والصف الجامعي الرابع في عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ · وشكل في عام ١٩٧٢ مجلس امناء من ١٤ عضوا من الفلسطينيين من ذوي الخبرة والاهتمام بالامور التربوية في الضفة الغربية ، وأخذ هذا المجلس مسؤولية الاشراف على تطوير الجامعة من المؤسسين وبافتتاح الصف الجامعي الرابع عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ تحول اسم المؤسسة رسميا الى « جامعة بيرزيت » بعد ان كانت تعرف باسم « كلية بيرزيت » ·

الهيئة الادارية في الجامعة مكونة حاليا من خمسة اعضاء ثلاثة منهم من حملة الدكتوراه واثنين من حملة الماجستير ، كما ان هناك خمسة مناصب ادارية عليا اخرى في الجامعة يشغلها واحد من حملة الدكتوراه ، واحد من حملة الماجستير ، اثنان حملة بكالوريوس ، وواحد من حملة دبلوم في المحاسبة ·

بلغ اعضاء الهيئة التدريسية ، عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ٦٢ عضوا ، منهم ٥٣ متفرغين و٩ غير متفرغين ، ١٨ من حملة الدكتوراه ، ٤ مرشحين دكتوراه ، ٣٠ من حملة الماجستير ، و١٠ معيدين من حملة البكالوريوس · اما عددهم في العام الحالي ، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، فيبلغ ٨٤ عضوا ، ٧٦ متفرغين و٨ غير متفرغين ، ٢٦ حملة دكتوراه ، ٣ مرشحي دكتوراه ، ٣٨ من حملة الماجستير ، ٢ مرشحي ماجستير ١٢ من حملة البكالوريوس ، و٢ من حملة الدبلوم في التربية الرياضية ·

تحتوي الجامعة على كليتين : (١) **كلية العلوم** : مدة الدراسة فيها اربع سنوات وتمنح شهادة البكالوريوس في الفيزياء ، الكيمياء ، الرياضيات ، والعلوم الحياتية (علم الحياة والكيمياء الحياتية) ·

(١) **كلية الاداب** : مدة الدراسة فيها اربع سنوات وتمنح شهادة البكالوريوس في اللغة العربية، ادارة الاعمال، الاقتصاد وادارة الاعمال ، اللغة الانكليزية ، الادب الانكليزي . دراسات الشرق الاوسط . علم الاجتماع ، وتخصص مزدوج في علم الاثار واي موضوع اخر في العلوم الاجتماعية (كما ان بامكان الطلاب الحصول على بكالوريوس بتخصص مزدوج في اي موضوعين من مواضيع كلية العلوم او مواضيع كلية الاداب) ·

كما تقدم دائرة التربية وعلم النفس برنامجا يؤدي الى شهادة الماجستير في الاشراف التربوي ، وبرنامجا يؤدي الى شهادة التعليم يؤهل حامليها للتعليم في المرحلة الثانوية ، ويمكن للطلبة الحصول على شهادة التعليم خلال الدراسة لشهادة البكالوريوس ، او بعد الحصول على شهادة البكالوريوس · ويلتحق للدراسة ببرنامج شهادة التعليم وبرنامج الماجستير في التربية عدد من المعلمين والمدراء والموجهين من مختلف مناطق الضفة الغربية ، وهؤلاء

يشغلون مناصب قيادية ومسؤولة في مجال التربية في الارض المحتلة ٠

بلغ عدد الطلبة ، عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ ، ٦٠٠ طالب وطالبة ٠ اما عددهم في العام الحالي ، ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ فيبلغ ٩٢٧ طالبا منهم ١٠٦ غير متفرغين ٠ ويشترط في قبول الطالب ان يكون حائزا على شهادة الدراسة الثانوية العامة بمعدل جيد وان يتقدم لامتحان اللغة الانكليزية الذي تعقده الجامعة لتحديد مستوى مادة اللغة الانكليزية التي يسجل فيها خلال السنة الاولى ٠ والطلبة الملتحقون بجامعة بيرزيت يفدون من مختلف مناطق فلسطين بما فيها الاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ ، كما يدرس فيها ايضا عدد قليل من ابناء الفلسطينيين في المهجر ، وابناء موظفي الوكالة والامم المتحدة الاجانب الذين يعملون في الاراضي المحتلة ٠ تبلغ اقساط الدراسة السنوية (لفصلي الشتاء والربيع) ١١٠ دنانير ، ويحصل العديد من الطلبة على انواع مختلفة من المنح والقروض ٠ وتشكل اقساط الطلبة ٢٠٪ من الميزانية السنوية المتكررة للجامعة التي بلغت في العام الدراسي ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ حوالي ٤٣٠ الف دينار ٠ حاليا ، يتقدم بطلبات التحاق بالجامعة حوالي ٢٠٠٠ طالب وطالبة سنويا ، ولكن قدرة الجامعة الاستيعابية لا تسمح الا بقبول ما بين ٤٠٠ ــ ٥٠٠ طالب ٠

تقع جامعة بيرزيت ٢٦ كيلومترا الى شمال القدس وهي مركز الضفة الغربية الجغرافي ٠ مساحة اراضي الجامعة الحالية ١٧ دونما ٠ فيها ٢١ غرفة تدريس و٥ ملاعب خارجية وملعب واحد داخلي ، قاعة اجتماعات ومسرح ٠ اما المكتبة فتحتوي على ٣٤٫٠٠٠ كتاب ، منهم ١٥٫٠٠٠ باللغة العربية و١٩٫٠٠٠ باللغة الانكليزية وتشترك المكتبة بـ ٣٠٦ دورية. منها ٥٢ باللغة العربية و٢٥٤ باللغة الانكليزية ٠ ويبلغ معدل زيادة عدد كتب المكتبة سنويا حوالي ٤٫٠٠٠ كتاب ٠

يعمل في المكتبه ٧ موظفين ، احدهم يحمل شهادة الماجستير ، وواحد شهادة البكالوريوس واثنان دبلوم علم المكتبات ٠ اما امين المكتبة فانه من حملة شهادة الدكتوراه ٠

في الجامعة مختبر للفيزياء مساحته ١٦٢ مترا مربعا ، يتسع لـ ٥٠ طالبا ، تقدر قيمة موجوداته بحوالي ١٥٫٠٠٠ دينار اردني والميزانية السنوية المخصصة لمشترياته ٢٧٥٠ دينارا ٠ مختبر الكيمياء تبلغ مساحته ١٥٠ مترا مربعا ويستوعب حوالي ٥٥ طالبا ، تقدر قيمة موجوداته بـ ١٥٫٠٠٠ دينار والميزانية السنوية المخصصة لمشترياته بـ ٢٧٥٠ دينارا ٠ وهنالك مختبر للاحياء مساحته ١٠٠ متر مربع ، يتسع لـ ٣٥ طالبا ، تقدر قيمة موجوداته بحوالي ٥٠٠٠ دينار والميزانية السنوية المخصصة لمشترياته بـ ١٥٦٢ دينارا ٠ كما ان هنالك مختبرا للغات يستوعب ٢٤ طالبا ٠

كذلك يوجد في الجامعة قسم لمكافحة الامية وتعليم الكبار يعمل على فتح صفوف لمكافحة الامية في مختلف مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة بالتعاون مع الجمعيات الخيرية والنوادي المتواجدة في تلك المناطق ٠ ويقوم القسم كذلك بعقد دورات لتدريب معلمي صفوف مكافحة الامية لاستعمال احدث المناهج والاساليب المتوفرة في هذا المجال كما يقوم باجراء وحصر اسبابها ٠ ويصدر القسم نشرة فصلية خاصة بمكافحة الامية في الارض المحتلة تحت عنوان « الانسان الجديد » ٠

اما القسم الاخر الجدير بالذكر في جامعة بيرزيت فهو مكتب الوثائق والابحاث الذي انشأته الجامعة خلال العام الدراسي ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ للقيام بجمع كل ما يصدر من وثائق في الارض المحتلة ، عمل ابحاث تتعلق بالنواحي الاقتصادية ، السياسية ، الاجتماعية والتربوية في الارض المحتلة ،

وتسهيل الباحثين في داخل وخارج الجامعة عن طريق فهرسة الوثائق واخبار الصحف المحلية وجمع النشرات الاحصائية والاعلامية · ويصدر المكتب نشرة فصلية تحتوي فهرسة اخبار الجرائد المحلية تحت عنوان « فهرس بيرزيت الصحفي » · الى جانب ذلك ، بدأ العمل خلال العام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ على تطوير مركز الفلكلور الفلسطيني الذي يعنى بجمع التراث العربي الفلسطيني ويعمل الدراسات المتعلقة بهذا المجال · كذلك تشرف دائرة الاثار على القيام بحفريات في بعض مناطق الضفة الغربية للتنقيب عن الاثار كما انها بدأت العمل على تطوير متحف فلسطيني في الجامعة ·

اما خطط المستقبل فهي كثيرة ولا مجال لحصرها جميعها هنا ولذلك سوف اقتصر على ذكر اهمها الذي هو قيد التنفيذ او الدراسة :

١ ـ افتتاح كلية ادارة الاعمال والاقتصاد في بداية العام الدراسي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ التي ستقدم برامجا تؤدي الى شهادة البكالوريوس في ادارة الاعمال ، المحاسبة ، الاقتصاد والادارة العامة ·

٢ ـ افتتاح كلية الهندسة في بداية العام الدراسي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ التي ستمنح شهادة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية، والهندسة المدنية وثم المعمارية والكهربائية· وسيلحق بالكلية معهد تكنولوجي لسد الحاجة الماسة الى العمال الفنيين ·

٣ ـ التوسع في بعض الدوائر الموجودة حاليا بحيث تقدم برنامجا على مستوى الدراسات العليا ومن الدوائر التي ستباشر باعطاء هذه البرامج دائرة دراسات الشرق الاوسط ، دائرة اللغة الانكليزية ، دائرة علم الاجتماع وعلم الانسان ، ودائرة التربية وعلم النفس التي ستضيف الى برنامج الماجستير في الاشراف التربوي المقدم حاليا برامج اخرى للمعلمين على مستوى الماجستير ابتداء من عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ (ماجستير في تعليم التخصصات المختلفة) ·

٤ ـ بناء حرم جامعي جديد على ارض في مشارف بيرزيت تبلغ مساحتها الحالية حوالي ٢٥٠ دونما ، والعمل قائم في هذا المشروع حاليا حيث بوشر ببناء مبنى كلية العلوم ومبنى المكتبة · وسيجري الانتقال الى الحرم الجامعي الجديد ابتداء من العام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ، وعند اكتمال الحرم الجديد ستحول مباني الحرم القديم الى مدرسة نموذجية تابعة لدائرة التربية وعلم النفس (التي من المقرر ان تصبح كلية للتربية ابتداء من العام ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ ، وسوف اورد في نهاية هذا التقرير ملحقا عن خطة تطوير دائرة التربية وعلم النفس خلال السنوات العشر القادمة) · وتقدر ميزانية البناء والتطوير للعام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ بحوالي ٤٠٠ر٠٠٠ دينار اردني ·

وتتوقع الجامعة ان يكون عدد الطلبة المقبولين للدراسة فيها عام ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ حوالي ١٨٥٠ ومجموع عدد طلبة الجامعة ٥٤٠٠ طالب وطالبة بما فيهم ٢٥٠ في الدراسات العليا ·

وقد انضمت جامعة بيرزيت الى اتحاد الجامعات العربية في عام ١٩٧٦ والى اتحاد الجامعات العالمي في نفس العام ·

٣ ـ جامعة النجاح الوطنية

تأسست جامعة النجاح الوطنية كمدرسة ابتدائية عام ١٩١٨ ، على يد مجموعة من شباب نابلس (الحاج حسن حماد ، ابراهيم قاسم عبد الهادي ، الحاج قاسم كمال ، كامل هاشم ، ابراهيم هاشم، دكتور حافظ كنعان ، علاء الدين حلاوة ، اديب مهيار ، داود طوقان ، فارس السخن ، الشيخ فهمي هاشم ، جميل كمال) واطلق عليها انذاك اسم « مدرسة النجاح الوطنية

النابلسية » ٠ وفي عام ١٩٤١ اصبح اسمها « كلية النجاح الوطنية » ٠ وفي عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ افتتح في الكلية معهد لاعداد المعلمين للمرحلة الالزامية وما زال هذا المعهد يقدم برامج دراسية مدتها سنتان ، وتشمل مناهجه دراسات تربوية ومسلكية مع تخصصات في تعليم العلوم العامة ، الرياضيات ، التربية الرياضية ، اللغة الانكليزية ، اللغة العربية ، الاجتماعيات والدين ، الفن ٠ وكان يشرف على الكلية حتى نهاية العام الدراسي الماضي ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ هيئة عمدة محلية من اثني عشر عضوا٠وكان عدد اعضاء الهيئة التدريسية في الكلية في العام الدراسي الماضي ٣٠ استاذا متفرغا و٢٧ استاذا غير متفرغ ، جميعهم من حملة شهادة البكالوريوس او الليسانس ٠ وقد بلغ عدد الطلبة في معهد المعلمين . في العام الدراسي ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ . ٦٦٠ طالبا وطالبة ، وكان يشترط لقبول الطلبة في المعهد حصولهم على معدلات في شهادة الدراسة الثانوية العامة لا تقل عن ٦٨٪ في الفرع العلمي ، وتبلغ اقساط التعليم فيه ٩٠ دينارا اردنيا سنويا ٠

وفي عام ١٩٧٦ قررت هيئة عمدة كلية النجاح تطوير الكلية الى « جامعة النجاح الوطنية » وبالتالي تغير اسم هيئة العمدة الى مجلس امناء ، وكان الهدف المعلن للخطة هو اقامة «كلية جامعية تهدف الى اعداد مدرسين للمرحلة الثانوية بحيث يختصون في موضوع اكاديمي على مستوى المؤهل الجامعي البكالوريوس او الليسانس مع توفر عدد من المساقات التربوية مناسبة لاعدادهم تربويا لمهنة التدريس ٠ ويمنح الخريجون شهادة جامعية في تخصصهم ودبلوم تعليم ٠ وتقدم هذه الكلية برنامجا تربويا لمن انهوا دراستهم الجامعية وحصلوا على الليسانس او البكالوريوس، ويمنح الخريجون من هذا البرنامج«شهادة الدبلوم » ٠ وقدر لهذه الغاية ميزانية انشائية تبلغ ٢٣٠٫٠٠٠ دينار اردني وقدر العجز للعام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ بحوالي ٢٩٠٫٠٠٠ دينار ٠

واعلن عن فتح باب التسجيل للسنة الاولى يوم ٢٥ـ٨ـ١٩٧٧ في الرياضيات ، العلوم ، اللغة العربية ، اللغة الانكليزية ولبرنامج الدبلوم في التربية ٠ لكن اعلن في اليوم التالي عن تأجيل التسجيل لاسباب فنية (ويظهر ان السبب هو تدخل السلطات الاسرائيلية واصرارها على أن تحصل كلية النجاح الوطنية على ترخيص منها للتطور الى المرحلة الجامعية) ٠ وفي ١٢ تشرين اول ١٩٧٧ اعلن عن حصول كلية النجاح الوطنية على اذن السلطات الاسرائيلية بافتتاح الجامعة وبالتالي تم افتتاح الجامعة بتاريخ ١٥ـ١١ـ١٩٧٧ ، وعين للجامعة عميد لتنفيذ خطة التطوير ٠

واصبحت جامعة النجاح الوطنية تضم ، في الوقت الحاضر ، كلية العلوم والاداب حسب التنظيم التالي :

١ ـ **دائرة العلوم** : وتقدم برامج في مستوى البكالوريوس في تخصصات الرياضيات والكيمياء والاحياء والفيزياء ٠

٢ ـ **دائرة الاداب** : وتقدم برامج في مستوى البكالوريوس في تخصص اللغة العربية واللغة الانكليزية والتاريخ والاقتصاد وادارة الاعمال ٠

٣ ـ **دائرة التربية** : وتقدم :

أ ـ برنامج دراسات عليا في التربية ويمنح الناجحون فيه الدبلوم العالي في التربية ، وسيختار المتفوقون منهم للتسجيل في برنامج الماجستير ومدة الدراسة فيه سنة واحدة بعد الدبلوم بالاضافة الى متطلب اعداد رسالة علمية ذات صلة بتخصص الطالب ٠

ب ـ برنامج بكالوريوس في التربية

وعلم النفس مع تخصص فرعي في موضوع اكاديمي في العلوم او الاداب (لم يبدأ الالتحاق بهذا البرنامج بعد) ٠

جـ ـ برنامج في التربية مدة الدراسة فيه عامان يحصل الناجحون فيه على دبلوم متوسط في التربية يؤهل حامله للتدريس في المرحلة الالزامية ويقدم هذا البرنامج من خلال معهد النجاح للمعلمين (الذي اصبح احد اقسام الجامعة) ، كما والحقت المدرسة الثانوية (كلية النجاح الوطنية سابقا) بدائرة التربية لتكون بمثابة مركز للتطبيقات التعليمية ٠

يبلغ عدد الاساتذة الجامعيين ١٩ استاذا واستاذة من المتفرغين وغير المتفرغين ، ٤ من حملة الدكتوراه، ٧ من حملة الماجستير، و٨ من حملة البكالوريوس ٠

ويبلغ عدد الطلبة في العام الدراسي الحالي ، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، ١٢٠ طالبا وطالبة في برنامج البكالوريوس في العلوم، ٢٥٤ طالبا وطالبة في برنامج البكالوريوس في الاداب ، ٧٩ في برنامج الدبلوم العالي في التربية ، ٤٩٥ في برنامج الدبلوم المتوسط (اعداد المعلمين) ، و ٩٣ في برنامج التعليم الثانوي ٠ ويشترط حاليا في قبول الطلبة لبرامج البكالوريوس في العلوم والاداب وفي برامج اعداد المعلمين الحصول على معدل في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة لا يقل عن ٦٠٪ ويشترط في قبول الطلبة لبرنامج الدبلوم العالي في التربية حصول الطالب على بكالوريوس او ليسانس في العلوم او الاداب ويراعى عند الاختيار عدد سنوات الخبرة ، التقدير في الشهادة الجامعية ونوع المسؤولية التي يتولاها المتقدم للتسجيل ٠ اما الاقساط السنوية لطلبة البكالوريوس فهي ١٦٠ دينارا اردنيا للطالب العلمي و١٥٠ دينارا للطالب الادبي ، اما لطلبة الدبلوم العالي في التربية فتبلغ الاقساط ٥ دنانير للساعة المعتمدة ٠

تبلغ مساحة ارض الجامعة حوالي ٢٣ دونما وفيها عشرون غرفة تدريس للمرحلة ما بعد الثانوية ومختبرات للفيزياء والكيمياء والاحياء مجموع مساحتها ٢٢٤ مترا مربعا ٠ وتحتوي المكتبة حوالي ٨٫٠٠٠ كتاب وقد اعلن مؤخرا عن تخصيص ٣٠٠٠ دينار اردني لزيادة عدد الكتب فيها وتحسين نوعيتها بما يتناسب والتدريس على المستوى الجامعي ٠ ولدى الجامعة اربعة ملاعب خارجية ٠

اهم خطط المستقبل بالنسبة للجامعة هي:

١ ـ شراء ارض جديدة تقام عليها المرافق اللازمة حتى تتمكن الجامعة من قبول الطلاب الجدد اذ ان مرافقها الحالية لا تكاد تتسع لطلاب السنة الاولى ودائرة التربية ، وقد اعدت المخططات الهندسية اللازمة لبناء طابق ثالث لعمارة الجامعة ولبناء كلية علوم في ارض بجانب مبنى الجامعة الحالي ٠ ويبلغ مجموع المبالغ التي تحتاج اليها الجامعة حاليا لتنفيذ مشاريعها اربعة ملايين دينار اردني ٠

٢ ـ زيادة عدد طلاب الجامعة بحيث يبلغ عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ ما لا يقل عن ثلاثة الاف طالب ٠

٣ ـ النظر في اقامة كليات اخرى اذا دعت الحاجة الى ذلك واضافة نواة لمركز ابحاث ودراسات يعنى بمختلف الامور التي تتطلبها مصلحة الجامعة وتستند عليها حاجة الارض المحتلة ٠

وقد انضمت جامعة النجاح الى اتحاد الجامعات العربية في شهر كانون الاول من عام ١٩٧٧ ٠

٤ ـ كلية الشريعة ، الخليل

يطلق عليها اسم « كلية الشريعة

والاداب » ، ولكن كلية الاداب لم تظهر الى حيز الوجود حتى الان · اسسها الشيخ محمد علي الجعبري عام ١٩٧١ ولها مجلس امناء محلي من تسعة اعضاء (هم هيئة ادارة الجمعية الخيرية لمركز الدراسات الاسلامية في الخليل) ، وهي تقدم برنامجا دراسيا مدته اربع سنوات يؤدي الى شهادة الليسانس في الشريعة الاسلامية ·

تتكون الهيئة الادارية من عضوين ، احدهما العميد وهو يحمل درجة الدكتوراه· وقد كانت الهيئة التدريسية عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ مؤلفة من ١٤ مدرسا بما فيهم العميد ومن حملة الماجستير ، و ٨ من حملة البكالوريوس ومدرس لا يحمل شهادة جامعية · اما في العام ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ فيبلغ عدد اعضاء الهيئة التدريسية ٨ مدرسين متفرغين و٤ مدرسين غير متفرغين ، احدهم ، العميد ، يحمل درجة الدكتوراه ، ٤ حملة ماجستير ، ٦ حملة ليسانس ، وواحد لا يحمل شهادة جامعية· تنحصر تخصصات الهيئة التدريسية ، وذلك حسب برنامج الكلية الدراسي ،بالدين الاسلامي والشريعة الاسلامية والقانون واللغة العربية ، بالاضافة الى مدرس اللغة الانكليزية ·

بلغ عدد الطلبة ، عام ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ ، ٢٥٠ طالبا وطالبة بين منتسب وملتحق · اما عددهم ف يالعام الحالي ، ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ ، فهو ٤٠٠ طالب وطالبة ، ٢٥٧ منتسبون و١٥٣ ملتحقون · ويشترط في قبول الطالب حصوله على شهادة الدراسة الثانوية العامة او ما يعادلها والا يزيد عمره عن ٢٢ سنة · اما الاقساط السنوية فتبلغ ٣٠ دينارا اردنيا للطلبة الملتحقين و١٥ دينارا للمنتسبين ، ويستثنى من ذلك الطلبة المحتاجون ·

ويأمل المشرفون على الكلية بتطويرها الى جامعة وقد انتهى العمل مؤخرا في بناء عمارة التدريس في الحرم الجديد الذي سيحوي الجامعة · وهذا الحرم يقع على ارض مساحتها حوالي ٥٣ دونما ، وتقدر تكاليف البناء بحوالي ٠٠٠ر١٠٠ دينار اردني ويحوي ٩ غرف للدراسة ، قاعة اجتماعات ، ملعبين خارجيين ، بركتين للسباحة مسجدا كبيرا وقاعة مكتبة ، الى جانب غرف الادارة · وتحتوي المكتبة حاليا على ٢٠٠٠ كتاب ويعمل فيها موظف واحد·

خطط التطوير التي لدى المشرفين على الكلية تتمثل في اتمام مباني الحرم الجديد (سكن للطلاب والطالبات والمرافق الاخرى)، ويأملون ان تتطور الكلية الى جامعة (تحمل اسم الجامعة العربية) ·

وقد تقدمت الكلية بطلب عضوية الى اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٧٧ الا انها لم تقبل ·

جـ ــ مؤسسات اخرى

الى جانب المعاهد والجامعات السابقة هنالك بعض المؤسسات الاخرى التي تقدم برامجا دراسية لحملة شهادة الدراسة الثانوية العامة ، وتذكر هذه البرامج منفردة هنا لانها محدودة من ناحية عدد الطلبة الملتحقين بها او لانها تقدم في مؤسسات تفتقر الى مكتبة مناسبة او اساتذة ومشرفين للعمل على تطويرها ، او لانها لا تتشدد في حصول الملتحقين بها على شهادة الدراسة الثانوية العامة ·

وهذه المؤسسات هي :

١ ــ مدرسة التمريض التابعة لمستشفى الاتحاد النسائي في نابلس ــ وتقدم برنامج مساعدة ممرضة مدته ثمانية عشر شهرا ويلتحق بها عادة اقل من ١٦ طالبا وطالبة ·

٢ ــ مدرسة التمريض الحكومية بنابلس

– اسستها السلطات الاسرائيلية عـام ١٩٧٠ وهي تقدم دورتين : (١) دورة قابلة قانونية ، مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، عدد الملتحقين بها لا يزيد عادة عـن ١٥ طالبة · (٢) دورة تمريض ، مدة الدراسة فيها ١٨ شهرا ولا تحتوي على اكثر من ١٤ طالبة ·

٣ – مدرسـة ابن سينا للممرضات القانونيات – اسستها السلطات الاسرائيلية عام ١٩٧١ وستقدم برنامجا مدته ثـلاث سنوات يؤدي الى شهادة ممرضة قانونية، ويضم المعهد عادة عددا من الطالبـات لا يزيد عن ٥٠ طالبة ·

٤ – مركز التدريب المهني – قلنديا – اسسته وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثـة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين عام١٩٥٢ · يقدم برامج مهنية عديدة منها ما يتطلـب شهادة الدراسة الثانوية العامة ومنها مـا يتطلب مستوى الثالث الاعـدادي فقط · وهذه البرامج هي : تجارة ، مساحة ، رسم معماري ، فن عمارة ، مواصفات وكميات (جميع هذه تتطلب شهادة الدراسة الثانوية العامة) ، كهربـاء ، حـدادة ولحام . تجارة ، بناء وطوبـار ، تركيب ادوات صحية ، ميكانيكا سيارات ، خراطة ولحام (هذه لا تتطلب شهادة الدراسة الثانوية العامة) · مدة الدراسة في هذه البرامج ٢٢ شهرا · قدرة المركز الاستيعابية تبلـغ حوالي ٧٠٠ طالب ·

٥ – مدرسة التمريض التابعة لمستشفى المقاصد بالقدس – اسست عام ١٩٧١ · تقدم دورة في التمريض العلمي · مـدة الدراسة فيه ١٨ شهرا · عدد الطالبـات في كل دورة لا يزيد عن ١٢ طالبة ·

٦ – مدرسة التمريض التابعة للاتحاد اللوثري العالمي بالقدس – اسست عـام ١٩٥٠ · تقدم حاليا دورتين : (١) ممرضة قانونية ، مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، عدد الملتحقين لا يزيد عن ٣٠ طالبـا وطالبة · (ب) تمريض عملي ، مدة الدراسة فيها ١٨ شهرا ، عدد الطلاب والطالبـات لا يزيد عن ٩ ·

٧ – دورة التربية والشؤون الاجتماعية بمدرسة دار الطفـل العربي بالقدس – اسست مدرسة دار الطفل العربي عـام ١٩٤٨ وهي مدرسة اهلية ثانوية اصبحت المدرسة تقدم ابتداء من عـام ١٩٧١ – ١٩٧٢دورة في التربية والشؤون الاجتماعية مدتها ثلاث سنوات · عدد اللواتي يلتحقن بالدورة سنويا لا يزيد عن ١٤ ·

٨ – المعهد الشرعي بالقدس – أسسته دائرة الاوقاف الاسلامية بالقدس عـام ١٩٧٥ ، يقدم دورة في الشريعة الاسلامية مدة الدراسة فيها سنتان · لا يزيد عـدد الطلاب في المعهد عن ٤٠ ·

٣ – ممارسات الاحتلال في مجال التعليم العالي

يبلغ عدد الطلبة الذين يتمون امتحـان شهادة الدراسة الثانوية العامة بنجـاح سنويا في الضفة الغربية وقطاع غـزة حوالي ١١ر٠٠٠ طالب وطالبة وتستطيـع مؤسسات التعليم العالي في الضفة الغربية ان تستوعب منهم حوالي ٢٥٧٥ طالبا ، اما الطلبة الباقون فمنهم من يلتحق بالجامعات في البلدان العربية والاجنبية ومنهـم مـن يدرس بالانتساب الى جامعات عربيـة وخصوصا جامعة بيروت العربية · والقسم الباقي يعمل معظمهم في الاراضي المحتلة وخصوصا في المنشـآت الاقتصاديـة الاسرائيلية ، الصناعية منها والزراعية · ومن الضروري هنا ان نشير الـى ان اغراءات العمل في المنشآت الاسرائيليـة كبيرة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار نـدرة فرص العمل في الضفة الغربية وقطاع غزة وان هؤلاء الطلبة المتخرجين قـد شجعوا وتعودوا على هذا العمل اثنـاء سنـي

دراستهم الثانوية ،اما بعد الدوام المدرسي اليومي او اثناء العطل الصيفية . ولسنا هنا بصدد التوسع في هذا الموضوع ولكن من الضروري التشديد على انه يضع الكثير من الطلبة في وضع نفسي يشجعهم على العمل وعلى عدم متابعة دراستهم العليا (او حتى على عدم اتمام الدراسة الثانوية من قبل العديد من طلبة المدارس).

نقطة اخرى هامة قبل التطرق الى موضوع ممارسات الاحتلال في مجال التعليم العالي بالارض المحتلة هي حول وضع ومشاكل الطلبة الذين يدرسون خارج الارض المحتلة (١) . اول ما يواجه هؤلاء بين ما يواجهونه من مشكلات ، مشكلة الحصول على طلبات التحاق بالجامعات وخصوصا الجامعات العربية وهذا يؤدي في كثير من الاحيان الى تأخرهم عن تقديم الطلبات في الموعد المحدد وبالتالي حرمانهم من الالتحاق بالجامعات لسنة على الاقل . (٢) وحتى عند حصولهم على الطلبات وارسالها في الوقت المحدد فانهم يواجهون مشكلة تقديم امتحانات القبول التي تتطلبها بعض الجامعات وذلك لان السلطات الاسرائيلية لا تسمح للشباب الذين يغادرون الارض المحتلة بالعودة اليها قبل انقضاء ستة شهور على تاريخ مغادرتهم ، (يستثنى من هذا القانون شباب مدينة القدس على اعتبار ان المدينة قد ضمت رسميا الى اسرائيل وتطبق على اهلها القوانين المدنية بدل العسكرية) . طبعا ، يمكن لهؤلاء الطلبة الحصول على اذن من السلطات العسكرية الاسرائيلية بمغادرة الضفة لفترة قصيرة لتقديم الامتحانات ولكن يبقى هذا الامر عائدا الى مزاج السلطات . ونفس هذه المشكلة يواجهها الطلبة المنتسبون الى جامعات عربية عند اضطرارهم لمغادرة الارض المحتلة لتقديم الامتحانات السنوية .

الدراسة في جامعات خارج الارض المحتلة لها مضار وسلبيات عديدة اهمها :

١ ـ انها تشكل عبئا اقتصاديا كبيرا على عائلات الطلبة .

٢ ـ يحتاج العديد من الطلبة الى بعض الوقت للتأقلم مع البيئة الجديدة التي يدرسون فيها مما يؤخرهم في بعض الاحيان عن دراستهم ، خصوصا الذين يدرسون في بلدان اجنبية .

٣ ـ حرمان نسبة كبيرة من الطالبات من فرصة التعليم العالي ، حيث ان كثيرا من العائلات في مجتمعنا لا تقبل فكرة ارسال البنات الى الخارج للدراسة . وقد ينطبق هذا على الشباب الذين يعيش اخوانهم في الخارج ولم يبق سواهم في البيت مع الوالدين .

٤ ـ يبقى العديد من الطلبة ، وخصوصا الشباب منهم ، خارج الارض المحتلة بعد تخرجهم (٣) وذلك لاسباب عديدة منها :

أ ـ مضايقة سلطات الاحتلال لهم عند عودتهم عن طريق التحقيقات المتكررة والاعتقال والتعذيب .

ب ـ انقضاء فترة التصريح السنوي . المعطى لهم من السلطات الاسرائيلية ، قبل تمكنهم من العودة وبالتالي عدم السماح لهم بدخول الارض المحتلة ووجوب قيام اهلهم بتقديم طلب جمع شمل لهم .

جـ ـ عدم الرغبة في العودة الى الارض المحتلة حيث الحرية السياسية والاجتماعية، وربما الفكرية ايضا ، معدومة .

د ـ عدم توفر وظائف لهم في الارض المحتلة وهذا عائد الى ندرة فرص العمل ولانعدام التخطيط لدراسة الطلبة الجامعية لعدم وجود سلطة وطنية او حكومة تشرف على ذلك .

هـ ـ حصولهم على وظائف برواتب عالية وخصوصا في دول الخليج العربي .

وتفادي هذه المشاكل يصبح لزاما على

مؤسسات التعليم العالي في الارض المحتلة، وعلى جميع المعنيين بهذا التعليم وضـــع الخطط ودراستها لتطوير مؤسسات التعليم العالي لاستيعاب معظم الطلبة المؤهليـــن والراغبين في استكمال دراستهم بعـــد المرحلة الثانوية وذلك حسب احتياجـــات المنطقة آنيا ومستقبلا ٠

اما ممارسات ومضايقات سلطـــات الاحتلال في مجال التعليم العالي فهـــي كثيرة وخطيرة وتهدف ، فيما تهدف اليه ، الى عدم تطوير التعليم العالي في الارض المحتلة من الناحية الكمية والنوعية وذلك لابقاء سكان هذه الارض عبارة عن مجموعة من العمال غير المهرة الذين يعملون بأجور زهيدة في المنشآت الاسرائيلية ، ولتشجيع الشباب على مغادرة البلاد كخطوة مـــن سلسلة خطوات تتبعها السلطات لتفريـــغ الارض المحتلة من سكانها ، وللحد مـــن التفاعل الفكري بين ابناء مختلف مناطق الارض المحتلة لانه في نظرها يؤدي الـــى ازدياد الشعور بالتماسك والشعور بالهوية والانتماء والى تصعيد التصدي للاحتـــلال ومناهضته ٠

من المعروف ان السلطات العسكريـــة تشرف اشرافا مباشرا على جميع مراحل التعليم في المؤسسات الحكومية في الارض المحتلة ٠ ولهذا الاشراف نتائج خطيرة لانه يعني ان السلطات العسكرية يمكنهـــا ان تحدث اية تغييرات في وضع هـــذه المؤسسات التربوية وفي الوضع التربوي بشكل عام بحجة ان هذه الاجراءات لهـــا مبررات امنية ٠ فيمكن ، مثلا ، لسلطـــات الاحتلال ان تغير المناهج الدراسية وان تحذف اقساما منها ، ان تجري تنقـــلات وتغييرات بين المسؤولين في مكاتب التربية والمدارس والمعلمين ، ان تمنع اساتذة عن العمل وطلابا عن الدراسة ، وهذه كلهـــا امثلة واقعية حصلت فعلا في السنوات القليلة الماضية ٠

وتقع معاهدة التعليم العالي الحكوميـــة في الضفة الغربية تحت الاشراف المباشـــر لضابط التربية والتعليم في قيادة الضفـــة الغربية (وكذلك هو الوضع في قطـــاع غزة) وهو الذي يحدد ميزانيتها وعـــدد الاساتذة الذين يوظفون للتعليم فيها مـــع تحديد مؤهلاتهم ونوعياتهم ، ويحدد كذلـــك عدد المستخدمين فيها ، ويشرف على تطوير المناهج وتطبيقها ٠ وبالتالي فان لضابط التربية الصلاحية بمنع حدوث اي تطـــور في مناهج وطرق التعليم المتبعة في هـــذه المعاهد وقد وضعت عراقيل عديدة في وجه اقامة دورات تأهيل صيفية لمعلمي المدارس الحكومية في هذه المعاهد عن طريق المنـــع او عن طريق عدم تخصيص ميزانيات لها٠ كذلك يحاول ضابط التربية باستمرار منع حصول تفاعل وتبادل خبرات بين هـــذه المعاهد ومؤسسات التعليـــم العالـــي الاهلية ، على سبيل المثال حاول ضابـــط التربية منع اساتـــذة مـــن جامعـــة بيرزيت (٤) من المشاركـــة فـــي دورات تدريب لمعلمي المدارس الحكومية للمرحلـــة الالزامية عقدت في معهد المعلمات الحكومي برام الله في صيف عام ١٩٧٧ ٠ الا انـــه رضخ في النهاية لعدم تمكنه من ايجـــاد بديل لهؤلاء الاساتذة ٠ ومنع التفاعـــل هذا لا يقتصر على منع اشتراك الاساتذة في دورات تعقد في معاهد حكومية ، ولكن يتعدى ذلك الى منع اساتذة المدارســـن الحكومية من حضور دورات تعقد فـــي جامعة بيرزيت والى منع طلبة الجليل مـــن الالتحاق بجامعة بيرزيت ٠ فقد منع مدير التربية والتعليم في قطاع غزة من ترتيب دورات تعقد في جامعة بيرزيت لاساتـــذة الرياضيات المعاصرة فـــي المدارســـن الحكومية في القطاع ، وقد استمـــرت المحاولات لعقد هذه الدورات خلال العامين الدراسييـــن ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ و ١٩٧٥ ـ

١٩٧٦ . كذلك وجه امر شفهي من قبل الحاكم العسكري الى جامعة بيرزيت خلال العام ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ بعدم قبول طلبة الجليل والمثلث في الجامعة ، وقد نوقش هذا الموضوع في الكنيست الاسرائيلي بناء على طلب من احد الاعضاء العرب فيه ، وفي معرض اجابته قال وزير الدفاع الاسرائيلي انذاك ، شمعون بيرس ،ان جامعة بيرزيت بؤرة للتحريض. ولكن لم يتخذ اي قرار رسمي ولم يوجه اي امر كتابي الى جامعة بيرزيت بهذا الصدد .

اما المؤسسات الاهلية فانها كذلك لا تنجو من مضايقات السلطات العسكرية فهي بحاجة لترخيص من هذه السلطات في حال التوسع او عند افتتاح مؤسسات جديدة ، وعادة يتطلب هذا الترخيص سنوات عديدة للحصول عليه ، هذا اذا ووفق عليه في النهاية . وبالتالي فان التوسع في المؤسسات الاهلية اما ان يكون بطيئا او لا يكون ابدا . على سبيل المثال، منعت بلدية رام الله من استملاك اراض ضمن حدود بلدية رام الله من اجل بناء الحرم الجامعي الجديد لجامعة بيرزيت عليها ، مما اضطر جامعة بيرزيت ان تشتري اراض في منطقة بيرزيت لهذا الغرض ، وقد اعاقت هذه العملية اقامة الحرم الجامعي الجديد ثلاث سنوات على الاقل . كما سبق ايضا ذكر عملية اعاقة افتتاح جامعة النجاح الوطنية بسبب عدم حصولها على الترخيص من الحكم العسكري .

ولربما كان الوضع محتملا لو اقتصرت المضايقات على هذا الامر . الا ان مؤسسات التعليم هذه ، الحكومية منها والاهلية ، لم تنج من الاعتداء المباشر عليها . فمع تصاعد الانتفاضات الشعبية المناهضة للاحتلال في الارض المحتلة تعرضت هذه المؤسسات مرارا وما زالت ، للاعتداء الهمجي من قبل الجنود الاسرائيليين الذين تعرضوا لطلبتها واساتذتها بالضرب والاعتقال الى جانب تحطيم اجزاء من الاثاث الموجود فيها . والامثلة على ذلك كثيرة ومعروفة ولا داعي لايراد بعضها هنا . الى جانب ذلك ، ولمعاقبة هذه المؤسسات لانها عبرت عن مشاعرها تجاه الاحتلال فان التهديد باغلاقها وباعتقال ، وحتى ابعاد ، المسؤولين عنها كثيرا ما يوجه من قبل الحاكم العسكري العام للضفة الغربية . وقد حصل فعلا ان طبقت هذه التهديدات. فمثلا ، ابعد د. حنا ناصر ، رئيس جامعة بيرزيت بتاريخ ٢١ــ١١ــ١٩٧٤ ، وقد اغلقت الجامعة عندما استنكر طلابها عملية ابعاد بعض رجالات الضفة لمدة اسبوعين ، من ١٥ــ١٢ــ١٩٧٣ الى ٣١ــ١٢ــ١٩٧٣ ، كما واغلق معهد المعلمات الحكومي في رام الله لمدة ثلاثة اسابيع خلال شهر كانون الثاني ١٩٧٧ بسبب رفض ادارة المعهد فصل ست طالبات اتهمن من قبل الحاكم العسكري بالاشتراك في اعمال معادية لسلطات الاحتلال . وهناك امثلة اخرى عديدة على العقوبات الجماعية كالمذكورة اعلاه والتي طبقت ليس على مؤسسات التعليم العالي فقط بل وعلى مدن باكملها حيث فرض منع التجول او منع اهل المدينة من السفر الى عمان . مثلا منع اهالي بيرزيت من السفر الى عمان لفترة اسبوعين خلال شهر ايلول ١٩٧٧ ، كما ويمنع حاليا اهالي بلدة عابود من السفر.

وفي بعض الاحيان ، وتفاديا للضجة الاعلامية التي تثيرها الاعتداءات المتكررة على هذه المؤسسات من قبل جنود الاحتلال ، تلجأ السلطات العسكرية الى اساليب غير مباشرة لمعاقبة او لمضايقة هذه المؤسسات . فالمخابرات الاسرائيلية تستدعي باستمرار العديد من طلبة واساتذة هذه المؤسسات والعاملين فيها للتحقيق . وغالبا ما تبقي الكثيرين منهم

رهن التحقيق فترة طويلة او تفرض عليهم الاعتقال الاداري لكي لا تضطر الى توجيه التهم اليهم . وهذا ما تتعرض له جامعة بيرزيت باستمرار ، وقد اعتقل احد اساتذتها (تيسير عاروري ، مدرس الفيزياء) اعتقالا اداريا مدة ٤ سنوات . وكثيرا ما يوجه الى هؤلاء الاساتذة والطلاب تهديدات بالسجن والتعذيب او الابعاد بدون سبب او مبرر او لمجرد انهم يرفضون التعاون مع المخابرات الاسرائيلية . ويجري استدعاء طلبة للتحقيق من جميع مؤسسات التعليم العالي بشكل يومي ، فمثلا استدعي من جامعة بيت لحم خلال العام الدراسي الماضي ، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ١١٠ طالب وطالبة منهم عدد بقي رهن الاعتقال لمدة لا تقل عن الاسبوعين .

ومن المضايقات الاخرى لهذه المؤسسات وخصوصا تلك التي تحتاج لاساتذة غير متوفرين في الارض المحتلة ، كجامعة بيرزيت وجامعة بيت لحم التي تتعاقد مع اساتذة جامعيين عرب واجانب ، ان السلطات تمنح هؤلاء الاساتذة تصاريح اقامة لمدة نصف سنة فقط او سنة واحدة قابلة للتجديد بناء على موافقة الحاكم العسكري العام . وبالتالي فان هذه المؤسسات تبقى باستمرار تحت رحمة الحاكم العسكري . وقد رفض الحاكم العسكري مؤخرا تجديد اقامة احد اساتذة جامعة بيرزيت (فواز زيدان ، مدرس اللغة العربية) في نهاية السنة الدراسية ٧٦ـ٧٧ وفي وقت (شهر حزيران) اصبح فيه من الصعب الحصول على بديل لهذا الاستاذ. وما زال الاستاذ فواز زيدان بدون اقامة حتى تاريخ كتابة هذا التقرير . كذلك يمنع بعض اساتذة هذه المؤسسات من السفر للاشتراك في مؤتمرات تعقد خارج الارض المحتلة ، فمثلا منعت الاستاذة حنان ميخائيل عشراوي مدرسة الادب الانكليزي في جامعة بيرزيت ، من السفر الى الولايات المتحدة خلال العام ٧٦ـ٧٧ للاشتراك في مؤتمر خريجي الجامعات الاميريكية العرب الذي عقد في نيويورك . كما وتفرض السلطات الاسرائيلية رقابة شديدة على منشورات جامعة بيرزيت المختلفة من دراسات ونشرات وعلى المجلة الطلابية « الغدير » التي توزع داخل الجامعة فقط ، وحتى على الكتب المستعملة في صفوف مكافحة الامية التي وضعت مؤخرا على لائحة الكتب الممنوع تداولها في الارض المحتلة .

هذا كله الى جانب الرسوم الجمركية العالية التي تفرضها سلطات الاحتلال على مشتريات هذه المؤسسات ، وخصوصا الاهلية منها ، من المواد التعليمية واجهزة للمختبرات والمكاتب ومن مواد البناء ، بينما تعفى المؤسسات التربوية الاسرائيلية من هذه الرسوم . وقد كانت مؤسسات الضفة الغربية تعفى من هذه الرسوم قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، وبالتالي فان السلطات الاسرائيلية لا تتقيد بالقوانين التي كان معمولا بها في هذه الاراضي قبل احتلالها لها . وتبلغ هذه الرسوم في معظم الاحيان اكثر من ١٠٠٪ من سعر المشتريات مما يشكل عبئا ثقيلا على المؤسسات التعليمية هذه ويحرمها من الاستفادة بشكل افضل من مواردها المحدودة والتي تأتي معظمها من المساعدات والتبرعات .

وبشكل عام ، فان سلطات الاحتلال تحاول جاهدة منع اي جهة وطنية في الارض المحتلة من القيام بتخطيط شامل للتعليم على مستوى الضفة الغربية وقطاع غزة او على مستوى الضفة الغربية لوحدها . فقد جرت محاولات خلال العام الدراسي ٧٦ـ٧٧ للترتيب لمؤتمر تشترك فيه جميع المؤسسات التربوية من مدارس ومعاهد وجامعات

الى جانب مدراء التربية العرب للتباحث في مشاكل التربية في الضفة الغربية ، ولكن هذه المحاولات بترت من قبل السلطات الاسرائيلية وهي في خطواتها الاولى · وعلى ذكر « مدراء التربية العرب » ، فانه يجب ان لا يفهم من هذا الاسم ان هؤلاء لديهم صلاحيات ومسؤوليات بالمعنى العادي لمفهوم « مدير التربية » في لواء او منطقة ما · فهؤلاء المدراء مسؤولون عن تنفيذ اوامر ضابط التربية الاسرائيلي ويتحملون مسؤولية الامور الفنية في الادارة ولا يستطيعون القيام بأية خطوة بدون استشارة ضابط التربية والحصول على الموافقة ·

واذا زدنا على كل ما تقدم انقطاع مؤسسات التعليم العالي في الارض المحتلة عن التطور الفكري ، الثقافي ، والتربوي الحاصل في العالم العربي ، بسبب عدم سماح السلطات الاسرائيلية لهذه المؤسسات بادخال الكتب والدوريات الصادرة في العالم العربي ، نستطيع ان نشعر بمدى صعوبة الواقع الذي تعيشه هذه المؤسسات ومدى ضرورة الاسراع بوضع خطط محكمة وشاملة لدعمها · على انه يجب الا ننهي هذا الجزء من التقرير بهذه الطريقة او الصورة القاتمة · فانه بالرغم من كل ما ذكر ، استطاعت هذه المؤسسات بطريقة او باخرى ان تستمر في الصمود والتطور النسبي وان تتصدى لمحاولات الاحتلال المتكررة بطمس هوية وتراث الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة وان تساهم في الحفاظ على هذا التراث وان تنمي الشعور بالهوية الفلسطينية وبالانتماء للعالم العربي ، (كما ذكرت سابقا ان المؤسسات الاهلية والخاصة قد استطاعت حتى الان ان تمنع سلطات الاحتلال من التدخل في مضمون ومستوى المناهج التي تدرس فيها) ، كما وتساهم هذه المؤسسات باستمرار في توفير عدد لا يستهان به من الكوادر المتعلمة اللازمة للمجتمع المحلي ·

٤ ـ اسس التعليم العالي وخطط مقترحة لتطويره

انتشر خلال السنوات القليلة الماضية اهتمام واسع موضوع التعليم العالي في فلسطين · وقد ظهر هذا الاهتمام بعدة اشكال ، منها العام ومنها المحدود ، وشملت الكتابة في الصحف والمجلات ، كما ضمت ايضا اللقاءات والندوات التي خصصت لهذا الموضوع في الارض المحتلة وخارجها · وقد كان لهذا الاهتمام والنقاش المنبثق عنه حسنتان : اولا ، انه سلط الاضواء على احدى المشاكل الهامة التي تواجه الشعب الفلسطيني الذي يعاني من مصيبته المزدوجة ، الاحتلال والتشرد ، وثانيا ، انه عالج بعض نواحي هذه المشكلة باقدار متفاوتة من الدقة والتفصيل · الا ان هذا النقاش قد انحصر في غالبيته بموضوع التعليم العالي من دون الالتفات الى مرحلة التعليم الدنيا ، لان التعليم عملية تراكمية مترابطة ومتسلسلة واي ضعف او نقص في أحدى مراحله الاولى تؤثر على مراحله اللاحقة · ولذلك فاننا سنسرد هنا بعض المشاكل والازمات التي نواجهها في مجال التعليم عامة ، بجانب تلك التي ذكرناها تحت عنوان « ممارسات الاحتلال في مجال التعليم العالي » ،لنتمكن من تكوين صورة متكاملة للوضع الحالي ، وهذه المشاكل هي :

١ ـ انعدام رياض الاطفال (٥) مع ان المجتمعات الحديثة قد وجدت انها الوسيلة المثلى لتنشئة الطفل ومساعدته على النمو والاندماج الاجتماعي · وازدياد نسبة الامهات العاملات الذي يفرضه التطور الاقتصادي يزيد من أهمية وجود رياض للاطفال ، ولذلك بالاضافة الى ان هذه الرياض تخفف من

هذه المشاكل التي يواجهها الاطفال بسبب التفاوت في خلفياتهم وبيئاتهم البيتية ·

٢ ـ انعدام المكتبات والمختبرات المدرسية الكافية (٦) مما يحول التعليم المدرسي الى عملية ضيقة ومحصورة جدا وغير محببة لدى الطلبة ·

٣ ـ استمرار انحدار المستوى التعليمي في المدارس ·

٤ ـ انعدام الارشاد النفسي والاجتماعي والتوجيه الاكاديمي والوظيفي في المدارس بحيث ينهي معظم الطلبة دراستهم الثانوية دون اية فكرة واضحة ومعقولة عن امكانياتهم الذاتية لمتابعة الدراسة او المهارات المطلوبة في المجتمع والتي تؤمن لهم فرصا عالية للتوظيف في المستقبل ، او حتى اية معرفة بتفاصيل الاعمال والوظائف المختلفة · وبذلك ، بدلا من ان يكون اتمام الدراسة الثانوية بداية مشرقة للعمل او التدريب او التعليم الجامعي ، اصبح بالنسبة لنا أزمة نفسية ـ لا بل كابوسا ـ ومشكلة اقتصادية للطالب ولاهله وليس من المبالغة القول بان هذه المشكلة اتسعت حتى اتخذت ابعاد ازمة قومية حادة ·

٥ ـ عدم الاهتمام الكافي بمكافحة الامية (٧) ·

٦ ـ عدم الاهتمام الكافي بالتأهيل الوظيفي · وهذا الاهمال ـ كاهمال مكافحة الامية ـ يسبب هدرا لطاقات بشرية موجودة في المجتمع وغير مستغلة بحكمة ·

٧ ـ عدم توفر الخدمات التعليمية الاساسية ـ والصحية والاجتماعية ايضا ـ بمستوى مقبول في القرى ، وهذا يسبب ارهاق مرافق المدن وتخلف القرى وهجرة اهلها عنها · وهذه الظواهر جميعا تعمل حاليا على تغيير معالم مجتمعنا وتوزيعه السكاني في اتجاه غير سليم ·

٨ ـ عدم شمولية الزامية التعليم والتقيد بها ، وهذا يسبب مواصلة تواجد افراد في المجتمع تنقصهم ادنى الكفاءات المطلوبة في هذا العصر لحياة انسانية كريمة ومنتجة · ومما لا شك فيه ان احد الاسباب الرئيسية لتأزم جميع هذه المشاكل المختلفة هو عدم سيطرة مجتمعنا على عملية تحديد اولوياته التربوية والاشراف على تحقيقها بنفسه · ويدخل ضمن هذه المشكلة عدم توفر المدارس الخاصة للاطفال المعوقين · وان كان هذا لا يؤثر مباشرة الا على عدد قليل من الاشخاص فانه بالحقيقة مأساة لا يمكن القبول باستمرارها ·

اما التعليم العالي في الارض المحتلة ، فقد تقدمنا بعرض لاوضاعه وعلينا الان ان ننتقل الى الخطط المقترحة لتطويره ، وخصوصا التعليم الجامعي منه ، وتكاليف هذه الخطط · وقد عولج هذا الموضوع بشيء من التفصيل في دراسة قام بها د· حنا ناصر ، رئيس جامعة بيرزيت (٨)· وفي هذه الدراسة ، اقترحت ثلاثة نماذج رئيسية للتكوين الجامعي وسوف نعيد ذكرها هنا مع التشديد على النموذج الانسب وابراز ميزاته :

١ ـ انشاء جامعتين او اكثر في مناطق مختلفة من البلاد تضم كل واحدة حوالي ٥٠٠٠ طالب ولكن » من الحكمة عدم انشاء الجامعة الثانية قبل التأكد من ان الجامعة الاولى قد تركزت واصبحت لها مكانة مرموقة اكاديميا واجتماعيا ويعود السبب في ذلك الى ان اية جامعة ناشئة تحتاج الى موارد كبيرة من المال والطاقة البشرية · وهذه الموارد محدودة عادة · وانشاء جامعتين في نفس الوقت سيوزع هذه الموارد بين الجامعتين وبالتالي يضعف كلا منهما · وعدا عن ذلك فان انشاء جامعتين ، واحدة بعد الاخرى ،

يساعد الجامعة الثانية في تلافي الاخطاء التي تكون قد برزت في التخطيط للجامعة الاولى » . (د. ناصر صفحة ١٣٩) .

٢ ـ انشاء جامعة « ام » في مكان ما تتسع لحوالي ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ طالب مع عدد من الكليات المتوسطة (سنتان بعد الدراسة الثانوية) في مناطق مختلفة من البلاد ومنسقة مع الجامعة « الام » بحيث ينتقل الطلبة بعد اتمام الدراسة في الكليات الى الجامعة . ويكون عدد الطلبة في كل كلية حوالي ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ طالب . وبرأينا ان هذا النموذج هو الانسب للارض المحتلة وللظروف التي نحياها وسوف نحياها في المستقبل القريب ، ومزايا هذا النموذج هي :

أ ـ توفير المرافق الثقافية (محاضرات . دورات ، دراسة مسائية ، مسرح ، مكتبة .. الخ) في مختلف المناطق وذلك بسبب تواجد الكليات فيها .

ب ـ التكاليف الانشائية والمتكررة للكليات المتوسطة للطالب الواحد اقل بكثير من تكاليف الجامعة ، ولذلك فان مجموع التكاليف لهذا النموذج اقل من تكاليف انشاء جامعات متعددة .

جـ ـ ان معظم التسرب من الدراسة الجامعية يحدث في مراحلها الاولى (اول سنتين) وبذلك تتوفر المقاعد في الجامعة نفسها لطلبة من شبه المؤكد ان يتموا الدراسة فيها بنجاح .

د ـ هذا النموذج يتمتع بالمرونة لانه يجمع بين مركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ .

هـ ـ يتم قبول الطلبة في السنة الاولى في كلياتهم المحلية ، وهذا يسهل عملية انتقالهم الى المرحلة الجامعية نظرا لامكانية الاتصال المباشر بين الكلية والطالب وهو ما زال في المدرسة .

و ـ ان مرافق الكليات المتوسطة بالمقارنة مع المرافق الجامعية تمتاز بانها مرنة الاستعمال ، وهذا يسمح لرد الفعل السريع لتلبية حاجات المجتمع المتغيرة .

ز ـ تجمع المرافق المتخصصة والباهظة التكاليف والكفاءات البشرية العالية والنادرة في الجامعة « الام » بحيث لا يلزم توفيرها في جميع الكليات المتوسطة، مع ان فرصة الاستفادة منها تبقى مفتوحة امام الكليات عند الحاجة ، كما ان هذا التجمع يسمح بتفاعل الكفاءات المختلفة مع بعضها البعض .

ح ـ واخيرا يمكن تطوير اية كلية متوسطة الى جامعة اذا تطلب ذلك الازدياد السكاني والتطور الاجتماعي والاقتصادي. ويكون وجود الكلية المتوسطة بخبرتها ومرافقها وطاقاتها البشرية اساسا متينا من الناحيتين المادية والاكاديمية لجامعة جديدة . وذلك افضل بكثير من البداية من نقطة الصفر .

« وعند انشاء كليات متوسطة ، يجدر ملاحظة التحفظ السالف الذكر مرة اخرى، وهو عدم انشاء مثل هذه الكليات قبل انشاء الجامعة « الام » وتركيزها اكاديميا وماديا . كما انه من المناسب عدم انشاء كليات متوسطة قبل التأكد ان مجموع عدد الطلبة المتوقع الالتحاق بها لا يقل عن ٧٠٠ والا لاصبحت كلفة التعليم للطالب مرتفعة كما بحثت في السابق . وبالطبع فان هذا التحفظ يحدد مواقع الكليات الممكن انشاؤها الى المدن الكبيرة والمناطق ذات الكثافة السكانية العالية نسبيا » . (د. ناصر ، صفحة ١٤٠) .

٣ ـ انشاء « كليات جامعية كاملة ـ مثل كلية علوم واداب وطب ـ في مناطق مختلفة ، وهذه الكليات بمجموعها تكون الجامعة . ان لهذا النموذج بعض السيئات ، فهنالك عدد من المواد المشتركة التي يجب ان يدرسها طلبة السنة الاولى

وبعض طلبة السنة الثانية في معظم الكليات · وستزداد الكلفة اذا تكرر تدريس هذه المواد في الكليات المختلفة · وعدا عن ذلك فان التربويين يؤكدون ان اندماج طلبة الكليات المختلفة (والاساتذة) في حرم جامعي واحد له اثره التربوي الايجابي · وبالرغم من هذه التحفظات فانه يلزم احيانا ايجاد كليات متخصصة في مكان غير الحرم الجامعي · وعلى سبيل المثال ، يفضل ان تكون كلية الطب قريبة من مستشفى حالي اذا لم يكن المستشفى ضمن او قرب الحرم الجامعي » · (د· ناصر ، صفحة ١٤٠)·

اما تكاليف التطوير فقد فصلت في الدراسة المشار اليها ولن نعيد ذكرها هنا ·

٥ ـ اسس الدعم

ان تطوير التعليم العالي العربي في الارض المحتلة ليس مسؤولية ابناء هذه الارض وحدهم بل مسؤولية اشقائهم العرب في خارج الارض المحتلة ايضا ، وبالتالي فان هذا التطوير لا يمكن ان يتم الا بدعم الاشقاء العرب المادي والمعنوي ·

وقبل الخوض في بعض الاسس العامة التي يجب مراعاتها عند دعم التعليم العالي في الارض المحتلة ، لا بد من التشديد على ان هذا الدعم يجب ان يأتي بعد بلورة نظرة شاملة وخطة محكمة ومدروسة درسا عميقا لتطوير التعليم العالي بكافة اوجهه · وخطة التطوير هذه لا يمكنها ان تكون بمعزل عن مخططات التطوير الاخرى من اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية · ومن البديهي ان تفتت التخطيط يؤدي الى تعثر التنفيذ وبالتالي الى خلق مشاكل اضافية للمجتمع المحلي في الارض المحتلة · ومن البديهي ايضا ان خطط التطوير التربوي تشكل ركنا اساسيا في قاعدة المخطط العام للتطوير لاي بلد او دولة · فالتعليم بمراحله وانماطه المختلفة ، هو الذي يكسب المجتمع الكفاءات والمهارات اللازمة لتحقيق اهدافه الاخرى من نمو وتقدم وانتاج ، بينما يجب ان يؤمن التخطيط العام امكانيات فرص التعليم لابناء المجتمع حتى يحصلوا على الكفاءات المطلوبة · كذلك يجب ان يؤمن التخطيط العام فرص العمل لخريجي معاهد التعليم العالي عن طريق اقامة ودعم مشاريع التنمية والتطوير في الارض المحتلة ، والا اصبح هذا التعليم من العوامل الهامة المساعدة على الهجرة وبالتالي نكون قد فشلنا في واحد من اهم اهدافنا لتطوير التعليم العالي الا وهو الحد من هجرة الشباب ·

ولا بد من التذكر هنا ان الشعب العربي الفلسطيني في الارض المحتلة له وضع خاص يستلزم عناية خاصة عند البحث في اية ناحية او مشكلة تخصه · وفيما يلي بعض الملاحظات الاولية التي تهمنا في البحث الحالي :

١) أن الفرص المتاحة لهذا الشعب لاخذ زمام المبادرة لتحقيق بعض تطلعاته المختلفة هي محدودة جدا بسبب تسلط الاحتلال عليه ، ولذا عليه ان يستغل هذه الفرص ، عندما تسنح ، احسن استغلال · وطبعا يجب ان تكون هذه التطلعات ضمن التطلعات العامة للشعب الفلسطيني اينما تواجد ، وهي كذلك لا يمكن انجازها بدون التنسيق والحصول على دعم الفلسطينيين والاخوة العرب خارج الارض المحتلة ·

٢) ان منطقتي الضفة الغربية وقطاع غزة صغيرتان من الناحيتين الجغرافية والسكانية ، بحيث يجب ان يخطط لكل منهما ، او لكلتيهما معا ، كوحدة متماسكة لا كمجموعة اولية منفصلة ، كما يجب تخطي الاعتبارات الاقليمية الضيقة،

بالرغم من الاندفاع والحماس المحلي الذي يساندها • ويجب الا نهمل اخوتنا في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ ، وهذا يلقي على عاتقنا مسؤولية دراسة وضعهم وامكانية دعمهم بشيء اكثر من التعمق • ويجب الملاحظة ان أي تطور في مجال التعليم العالي في الارض المحتلة عام ١٩٦٧ يمكن ان يستفيد منه اخوتنا في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ ، هذا اذا لم يمنعوا من قبل السلطات الاسرائيلية •

٣) ان معظم الكفاءات الفلسطينية العالية موجودة الان في المهجر •

٤) هناك عدة عوامل اساسية قد تتغير جذريا فجأة ، كما حدث ان تغيرت في الماضي ، كالهجرة عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ وتغيير السلطة الحاكمة في السنتين نفسهما ، وتغير مستوى وانماط العمالة والتوظيف • وهذه التغيرات المفاجئة تتطلب من الافكار والمخططات ان تتسم بالدقة والمرونة في آن واحد ، وهذا متطلب صعب •

ولكل هذا ولاعتبارات اخرى ، يجب عند دعم التعليم العالي في الارض المحتلة مراعاة الاسس التالية :

١) وضع خطط شاملة للتنمية الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية والتربوية وتنفيذها جنبا الى جنب • وهذا يعني انه يجب الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبقدر الاهتمام بالنواحي التربوية ، وهذا يعني ايضا انه يجب الاهتمام بالتعليم في المراحل الاخرى بقدر الاهتمام بالتعليم العالي ، وبالتالي فانه يجب دعم المؤسسات التربوية بشكل عام لمساعدتها للتغلب على الصعاب التي تواجهها ولتحسين نوعية التعليم الجاري فيها •

٢) تخطي الاعتبارات الاقليمية الضيقة والحماس العاطفي المبني عليها ، وبالتالي يجب التخطيط لدعم التعليم العالي ، والتعليم بشكل عام ، على اعتبار ان الارض المحتلة وحدة متماسكة وعلى اعتبار انها نواة اي كيان فلسطيني مستقل ينشأ مستقبلا (٩) •

٣) تخطي الاعتبارات والاحتياجات الانية والاخذ بعين الاعتبار اوضاع واحتياجات الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة فقط •

٤) بالتالي ، التشديد على ان يكون التعليم بكافة مراحله في الارض المحتلة مبنيا على اسس وطنية ويشرف على التخطيط له وتنفيذه هيئات وطنية غير اجنبية •

٥) التنويع في أنماط التعليم العالي المتوفرة حاليا • فمثلا يجب ادخال تخصصات في الهندسة والطب والصيدلة والزراعة على المستوى الجامعي •

٦) تلافي التكرار في مجالات التعليم العالي المتوفرة حاليا ، فمثلا ، افتتاح جامعات عديدة تقدم نفس التخصصات يشكل هدرا وخسارة اقتصادية كما يمنع الاستفادة الى اكبر قدر ممكن من الكفاءات العالية المتوفرة في الارض المحتلة • وقد اوضحنا ذلك في القسم من البحث المتعلق بالنماذج المقترحة لتطوير التعليم الجامعي •

٧) الاهتمام بالناحية النوعية قدر الاهتمام بالناحية الكمية • بمعنى اخر يجب الاهتمام برفع مستوى التعليم العالي المقدم في الارض المحتلة وليس فقط بقدرة مؤسسات التعليم العالي الاستيعابية ، (كما يجب دعم بعض هذه المؤسسات لتقوم بما تقوم به حاليا بشكل افضل) •

٨) الاخذ بعين الاعتبار عدد ونوع مؤسسات التعليم العالي الموجودة حاليا عند وضع خطط لتطوير التعليم العالي في الارض المحتلة • كما يجب الاهتمام

بمستوى التعليم الجاري في هذه المؤسسات ، وبمرافقها ، امكانياتها ، الكفاءات المتوفرة فيها وخططها للمستقبل ومدى توافق هذه الخطط مع خطط التطوير الشاملة ·

٩) مساعدة المؤسسات القائمة حاليا على رفع مستوى ومؤهلات الاساتذة العاملين فيها ، اما عن طريق ارسال اساتذة عرب بكفاءات عالية للعمل في الارض المحتلة او عن طريق توفير البعثات الدراسية للاساتذة المتواجدين في هذه المؤسسات حاليا او للذين من الممكن ان يعملوا فيها مستقبلا ·

١٠) اشراك اكبر عدد ممكن من العاملين في مجال التعليم العالي في الارض المحتلة عند التخطيط لتطوير هذا التعليم وذلك لمعرفتهم بالواقع الذي يعيشونه وبالمشاكل التي يعانون منها ·

ختاما ، نود التشديد مرة اخرى على ضرورة وضع خطط شاملة لتطوير النواحي الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية ، والثقافية التربوية في الارض المحتلة على ان تشكل خطط تطوير التربية بكافة مراحلها ركنا اساسيا من الخطط الشاملة · كذلك من الضروري التشديد على ان تأخذ هذه الخطط بعين الاعتبار احتياجات الشعب الفلسطيني اينما تواجد ، احتياجاته الانية والمتوقعة ، وان تراعي هذه الخطط ان هذا الشعب هو وحدة متماسكة وانه جزء من الشعب العربي بشكل عام ·

الحواشي

١ ـ يقدر عدد الطلبة الذين يدرسون في جامعات خارج الارض المحتلة بحوالي ٨٠٠٠ ـ ٩٠٠٠ طالب وطالبة ، ويقدر عدد الذين يلتحقون سنويا بالجامعات خارج الارض المحتلة بحوالي ٢١٠٠ طالب وطالبة ·

٢ ـ على سبيل المثال بلغ عدد الناجحين في امتحان الدراسة الثانوية العامة في الفرعين العلمي والادبي في قطاع غزة ، في العام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ، ٤٦٧٢ طالبا وطالبة ، وصلهم عن طريق اليونسكو من جمهورية مصر العربية ٩٠٠ طلب التحاق بالجامعات المصرية · وهذا العدد قليل نسبيا (حوالي ١٩٪ من عدد الناجحين) اذا ما اخذ بعين الاعتبار ان معظم طلبة قطاع غزة يلتحقون بالجامعات المصرية وان التنافس على الالتحاق بالجامعات في جمهورية مصر العربية شديد ·

٣ ـ على سبيل المثال : اوردت جريدة « القدس » الصادرة بتاريخ ٤ ايار ١٩٧٧ نبأ مفاده ان مصادر الحكم العسكري قد صرحت بأن ١٥ الف مواطن من الضفة الغربية تتراوح اعمار معظمهم بين ١٨ـ٣٠ سنة قد غادروا الضفة ولم يعودوا اليها خلال العام ١٩٧٦ · ويعتقد انهم استقروا اما في الاردن او في دول وامارات الخليج العربي ، وقد أدى ذلك الى نقص كبير في المؤهلين اكاديميا في المنطقة ·

٤ ـ الامثلة الواردة في هذه الفقرة مأخوذة في معظمها من احداث مرت بها جامعة بيرزيت وذلك لسهولة اطلاعي عليها ومعرفتي بها ، ولكن هذه الامثلة تتكرر كثيرا في معظم مؤسسات التعليم العالي العربية في الارض المحتلة ·

٥ ـ يقدر عدد الاطفال الذين هم في سن رياض الاطفال في الضفة الغربية بحوالي ٦٢ الف طفل ، يوجد منهم في رياض الاطفال حوالي ٨٫٣٠٠ طفل اي ١٣٪ فقط ·

٦ ـ ٥٠٪ من المدارس الثانوية في

الضفة الغربية لا يوجد فيها مختبـــرات ومكتبات ·

٧ ـ ولكن من الضرورة الاشادة بجهود المؤسسات الاجتماعية من جمعيات خيريه ونواد ، وجامعة بيرزيت في هذا المجال · وقد تم قبل ثلاثة اشهر تشكيل لجنة عليا لمكافحة الامية وتعليم الكبار من قبـــل اتحادات الجمعيات الخيرية في الضفـــة الغربية والجمعيات في قطاع غزة الـــى جانب جامعة بيرزيت لتوحيد الجهـــود وتنشيطها في هذا المجـــال · ويبلـــغ عدد الدارسين والدارسات في صفـــوف مكافحة الامية في الارض المحتلة حوالي ١٥٠٠ بينما لا تقل نسبة الامية فـــي الضفة الغربية وقطاع غزة عن ٢٥٪ مـــن من السكان في جميع الاعمار (اي لا يقل عدد الاميين عن ٢٨٥ر٠٠٠ نسمة) ·

٨ ـ د· حنا ناصر . جامعة عربيـــة في فلسطين : دراسة اولية · **شـــؤون فلسطينية** ، اذار ١٩٧٦ . عدد ٥٥ ، ص ١٣٢ ـ ١٤٥ ·

٩ ـ تجدر الاشارة هنا الى الجهـــود المبذولة لتوحيد الجهود وللتنسيق بيـــن مختلف المؤسسات في الارض المحتلة في مجال التعليم العالي والمتمثلة بتأسيـــس مجلس التعليم العالي في القدس ، وقـــد اعلن عن تأسيسه بتاريخ ٩ـ٩ـ١٩٧٧ ·

مـــراجعات

Y. Porath, **The Palestinian National Movement : From Riots To Rebellion, Volume 2,** 1929 - 1939 (Frank Cass, London : 1977) .

ان تاريخا حاسما موثوقا للحركـــــة الوطنية الفلسطينية خلال سنوات الانتداب البريطاني لم يكتب بعد · اذ يمكن تصنيف كل ما ظهر حتى الان ، ان بالعربيـــة او الانكليزية ، تحت عناوين ثلاثة رئيسية : كتابات دعاوية ، واعمـــال صحفيـــــة ، ومحاولات تبريرية · وقد يكون هذا الوضع ناجما عن عاملين : الاول والاهم هو ان بحث القضية الفلسطينية ما زال موضــع خلاف سياسي يستثير العواطف والاحقاد والخلافات ، خاصة وان تاريخ الحركـــــة الوطنية عبر السنوات الستين الماضيـــــة يشكل جزءا لا يتجزأ من نضال الشعـــب الفلسطيني لانتزاع حقه في تقرير المصيــر واقامة دولته القومية المستقلة · امـــــا العامل الثاني ، فهو تبعثر المواد الاوليــة ووفاء بعض زعماء الحركة الوطنية فـــي تلك الفترة ، واحجام البعض الاخر عن الكتابة الموضوعية عنها ، فالمساهمـــات القليلة في هذا المجال ، من مثل كتابـــات الحاج امين الحسيني واميل غوري ، لا تتعدى كونها محاولات لتبرير الـــذات ·

لقد كتب الدكتور يهوشع بــــوراث ، المحاضر في الجامعة العبرية في القدس ، كتابا سيصبح دون شك مرجعا اساسيـــا لتاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية فـــي سنوات الانتداب ، بالرغم من كـــــون الكاتب في بعض الاحيان يسقط فريســـة تحيزاته السياســـية ، ويتخلى عن واجبه كمؤرخ حيادي ، ليلعب دور الخصـــــم المعني ·

المراحل الثلاث في تطور الحركة الوطنية الفلسطينية :

يمكن تلمس ثلاث مراحل فـــي تطــور الحركة الوطنية منذ سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٤٨ · كانت المرحلة الاولـــى ابتداءا

بفرض الانتداب وحتى سنة ١٩٢٥ ــ ٢٦ وتتسم بمحاولات متعددة بذلتها القيادات العربية للوصول الى تفاهم مع سلطات الانتداب الاستعمارية · وفي هذه الفترة كان العديد من الشخصيات الوطنية موظفين لدى حكومة الانتداب كما كان عداء الحركة الوطنية الرئيسي موجها نحو الاعداد المتزايدة من المهاجرين اليهود ، وضد الحركة الصهيونية التي كانت تشكل في نظر القيادات القومية الخطر الرئيسي · ولم تستطع هذه القيادات القومية أن تميز في اي وقت من الاوقات بين سكان البلاد اليهود وبين الحركة الصهيونية · واصدق مثال على هذا ، المذابح التي واكبت احداث عام ١٩٢٩ حيث كان شعار المتظاهرين العرب « الدولة معانا » ، وقد حاولت القيادات القومية ان تظهر للمستعمرين البريطانيين ان عداءها لم يكن موجها ضد الانتداب بشكل عام بل فقط ضد الفقرة المتعلقة بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ضمن بنود الانتداب ، وضد الوجود اليهودي في البلاد ، والخطر الناجم عن ذلك ·

تشكلت تدريجيا لدى بعض الاوساط في الحركة الوطنية قناعة مفادها ان النضال الموجه ضد اليهود وحدهم ، لم ولن يؤدي الى اية نتائج ايجابية · ونجم عن ذلك دخول الحركة الوطنية الفلسطينية في طورها الثاني عندما اصبح البريطانيون انفسهم هدف النضال الوطني الرئيسي · غير ان هنالك امرين يجب اخذهما بعين الاعتبار · اولهما كون الحركة الوطنية غير موحدة في استعدادها لتوجيه النضال ضد الاستعمار البريطاني لوجود قوى هامة ، مثلها راغب النشاشيبي وما اطلق عليه « المعارضة » ، ظلت تفضل الاسلوب القديم القائم على توجيه الحركة الوطنية ضد اليهود ، والمثابرة على محاولات الوصول الى تفاهم مع البريطانيين (وقد كان مثالا على ذلك مشروع المجلس التشريعي ومساندة قوى « المعارضة » له) وثانيهما ان اوساط القيادة الوطنية التي ادركت ضرورة توجيه النضال ضد البريطانيين · لم تر في ذلك اكثر من اسلوب ناجع للضغط على سلطات الانتداب لحملها على التراجع عن سياستها في تأييد الوطن القومي ، ولم تكن موجهة ضد الاستعمار البريطاني نفسه أو وجوده في البلاد · فخلال سنوات النضال المسلح ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ حاولت القيادات القومية الفلسطينية ان تمارس ضغطا على بريطانياعبر وبتوسط المجموعة الصغيرة من الدول العربية « المستقلة » · وهكذا فان الوجود الاستعماري البريطاني لم يكن ابدا الهدف الرئيسي للنضال المسلح · فحتى عندما تم القيام بعمليات عسكرية ضد سلطات الانتداب ، ظل العدو الرئيسي وهدف النضال يقتصر عمليا على الحركة الصهيونية والوجود اليهودي في البلاد ·

شكلت مظاهرات عام ١٩٣٣ ، التي كان الطابع المسيطر عليها توجهها ضد سلطات الانتداب البريطانية ، مقدمة لظهور حركة الكفاح المسلح التي كان من ابرز رموزها مجموعة الشيخ عز الدين القسام · وكذلك الاضراب العام في نيسان ١٩٣٦ ، والثورة المسلحة التي تبعته · شكلت هذه الفترة المرحلة الثانية في تطور الحركة الوطنية · وبالرغم من القضاء على الثورة عسكريا ، فان النتيجة السياسية التي تمثلت في الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ كانت ايجابية · ولكن هذا النجاح الايجابي للثورة المسلحة ، ونجاح القيادة العربية الفلسطينية في ادخال الدول العربية « المستقلة » في حلبة الصراع كوسيلة « للضغط » على بريطانيا ، ترافق مع تفسخ وانحلال

القيادة العربية الفلسطينية ، وانهاك الحركة الوطنية ، واحلال الدول العربية المستقلة ، مكان الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصير فلسطين ، وقد برهنت أحداث عام ١٩٤٨ على ان «نعمة» تدخل الدول العربية لم تكن في واقع الامر سوى نقمة خالصة ٠

امتدت المرحلة الثالثة للحركة الوطنية الفلسطينية من عام ١٩٢٩ وحتى انجاز التقسيم في عام ١٩٤٨ ، وكان ابرز ما يميز هذه المرحلة الفراغ الداخلي ، وغياب القيادات الوطنية عن الساحة ٠ فقد كانت الحركة القومية منهكة ومنسحقة ، اذ كانت قياداتها قد نفيت او فرت خارج البلاد او قتلت خلال سني الثورة ٠ وكان الحاج امين الحسيني ، بتحالفه مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية قد قدم للبريطانيين خير عذر للابقاء على حظر النشاط السياسي في صفوف عرب البلاد ٠

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما سمحت السلطات البريطانية للمواطنين العرب بمعاودة بعض اوجه النشاط السياسي ، اخذت الدول العربية المبادرة في تنصيب القيادة السياسية الجديدة للحركة الوطنية ٠

ومن المهم ، عدم اغفال حقيقة ان انشاء الجامعة العربية كان وليد المخططات الاستراتيجية البريطانية ، وان الدول العربية التي لعبت دورا اساسيا في تقرير مصير فلسطين وهي الاردن والعراق والسعودية كانت خاضعة لنفوذ الاستعمار البريطاني ولا تتمتع من الاستقلال الا بمظاهره الشكلية ٠ وعندما اتخذت منظمة الامم المتحدة قرار التقسيم لم يلعب سكان فلسطين العرب الا دورا ثانويا في الصراع الذي نشب نتيجة لذلك ٠ فقد كانت الحكومات العربية المجاورة قد انتزعت منهم زمام المبادرة قبل ذلك بزمن طويل ، تلك الحكومات التي عارضت التقسيم لفظيا لتعمد الى تنفيذه عمليا عن طريق ارسال جيوشها الى الجزء الذي اخضعه قرار التقسيم للعرب والحيلولة دون اقامة الدولة العربية الفلسطينية ٠ وقد ظلت المبادرة حتى زمن قريب في ايدي الحكومات العربية ومارس الفلسطينيون دورا محدودا بالقدر الذي سمح به هذا النظام العربي او ذاك ٠

تاريخ يهوشع بوراث للحركة الوطنية الفلسطينية :

يشكل هذا الكتاب الجزء الثاني من مشروع بوراث لدراسة الحركة الوطنية الفلسطينية ، وقد عالج المؤلف الاول اعوام ١٩١٧ ـ ١٩٢٩ ٠ اما الجزء الثاني الذي بين ايدينا فيتابع تسلسل الاحداث حتى نهاية الثورة في فلسطين عام ١٩٣٩ ٠

لقد جمع الكاتب قدرا هائلا من المعلومات متابعا تطور الاحداث بتفصيل دقيق ، وربما بافراط في بعض الاحيان ٠ فهو يعرض بقدر كبير من الاستفاضة لامور عديدة ، منها على سبيل المثال وليس الحصر : مداولات القيادات السياسية الفلسطينية ، مراسلاتها مع السلطات الانتدابية ، تعاملها مع المندوب السامي ، مداولات وزارة المستعمرات البريطانية في المناحي التنظيمية لثورة ١٩٣٦ ، التكوين الاجتماعي للمشاركين في الثورة ، تقرير مفصل عن حركة الشيخ القسام ٠ ورغم تقديرنا للعمل الشاق الذي قام به المؤلف في سبيل جمع هذا القدر الشامل من المعلومات وهو امر يستحق الثناء ، الا ان الكتاب يشوبه بعض الضعف الذي يعود اساسا الى الافراط في الاستناد الى مصادر هيئات الاستخبارات اليهودية ٠ فكما كتب الدكتور

برنارد فاسرتين (استــاذ جامعــي بريطاني) في مراجعة مؤلف بوراث الاول، تشتهر تقارير المخابرات ، التي تعتمــد على الجواسيس والمجندين ، بافتقارهــا الى الدقة ، وفي بعض الاحيان كذبهــا المتعمد · وهي لذلك لا يمكن الاعتمــاد عليها لاستخلاص حقائق ثابتــة الا اذ دعمتها قرائن اخرى من مصادر اكثــر وثوقا · ورغم اعترافنا بصعوبة الحصول في كثير من الاحيان على مصادر اوليــة بصدد موضوع البحث الذي يتناولــه الكتاب · فانه من المؤسف ان الدكتــور بوراث وجد من الضروري الاعتماد على مصادر كهذه لا يمكن الا ان تعتبر بحـق مصادر متميزة اذا ما اخذ المرء بالاعتبار طبيعة الصراع في فلسطين · تكمن قـوة الكتاب في حجم المعلومات والتفاصيــل التي يحتويها ، بينما يكمن ضعفه فــي غياب التحليل وفي تبنيه ضمنا نظريــة تآمرية تجعل من الحاج امين الحسينــي « الداهية الشرير » · كما يصر الكاتــب على رؤية الحركة الوطنية الفلسطينية من منظار ديني ويقترب اسلوبه بعض الشيء من كتابات مدرسة « فرق تسد » التــي تحترف تبرير الاستعمار · فهو يحاول ان يفرق بين الدروز والمسلمين والمسيحييــن مدعيا معارضة بعضهم للخط العام للحركة الوطنية وتعاونهم مع الحركة الصهيونية·

كذلك يسيء الكاتب الى عمله القيــم باقحامه روايات تتحدث عن « معــادات العرب للسامية » و « اغتصاب الفتيات » ابان ثورة عام ١٩٣٦ ، و « الجبــن العربي » ·

اود فيما يتبع ان اعرض لبعض القضايا التي يثيرها بوراث والتــي تشكل امثلــة على نقاط قوة وضعف الكتاب ·

يركز الكاتب علــى نشاط راغــب النشاشيبي وانصاره الذين كانوا يشكلون داخل الحركة الوطنية كتلة المعارضــة للعناصر الاكثر راديكالية وللحاج اميــن الحسيني شخصيا · وكانت المعارضــة التي استقطبت تأييد فئات واسعة مــن ملاك الاراضي والبيــارات ورؤســـاء البلديات وزعماء الحمائل الكبيرة وجميع المعارضين لعائلة الحسيني ، تمثل القسم الاكبر من الحركة الوطنية ، وانه لمــن المؤسف ان الدور الهام الذي لعبته هـذه المجموعة قد اغفل سابقا اذ لم يكتب عن نشاطها سوى القليل · وقف راغــب النشاشيبي وانصاره منذ بداية الانتداب في مواجهة المنادين بالتصدي لسلطــات الاحتلال مطالبين باتباع « سياسة اكثــر ايجابية » · مظهرين استعدادهم للتعاون مع الحكم الاستعماري البريطاني · وقـد رفعوا في العشرينات شعارات التأييــد لمشروع المجلس التشريعي المعين · اما في المؤتمر الفلسطيني السابع عام ١٩٢٨ فقد نجحوا في ان يفرضــوا سياستهــم المهادنة للاستعمار على بقية الحركــة الوطنية ، وقد عرف هذا المؤتمر بكونـه اكثر المؤتمرات الفلسطينية « اعتدالا » · وقد وصف حمدي الحسيني ، احــد المشاركين في المؤتمر ومن نشيطي حــزب الاستقلال ، المؤتمر بقوله : « ··· كنـت ترى العناصر الحكومية سائدة فيـه ··· وكنت ترى الاصابع على الشفاه اسكاتـا لمن يريد ان يتكلم خوف الخروج عــن الموضوع والقلوب مسرعة الدقات خــوف الخوض في الابحاث السياسية التي تزعج الحكومة والحكوميين · كرفض الانتداب ووعد بلفور ، والسعي للاستقلال والوحدة العربية ·· ·وظننت نفسي في مؤتمــر موظفين جمعتهم الحكومة لامر مــن امورها ولست فــي مؤتمــر عربــي فلسطيني ··· » ·

وفي عام ١٩٣٣ مثلا ، وقفت «المعارضة» في مواجهة المظاهرات التي عمت البـلاد في اكتوبر من ذلك العام · وبينما كـان راغب النشاشيبي واعضاء آخرون بارزون

من مؤيديه يعلنون تأييدهم التام لمطالب الحركة الوطنية في العلن ، كانوا في الوقت ذاته ، كما يسجل بورات ، يؤكدون على ذلك في محادثاتهم السرية مع القيادات الصهيونية مؤكدين لهم استعدادهم التام الى التوصل الى اتفاق معهم . ومن هؤلاء الزعماء الذين يذكرهم بورات ، راغب وفخري النشاشيبي ، حسن صدقي الدجاني ، بولس شحادة ، الشيخ عبد الله القلقيلي ومغنم الياس مغنم . ويذكر كذلك ان العديد من شخصيات « المعارضة » طالبوا الوكالة اليهودية بعون مالي ، وان عددا من الصحف (مرآة الشرق مثلا) حصلت على دعم مالي من تلك الهيئات .

وقد كان من ابرز سمات نشاط « المعارضة » في سنوات الثورة محاولاتهم احباط مساعي الحركة الوطنية ووضع العراقيل في طريقها . وكانت استقالة راغب النشاشيبي من الهيئة العربية العليا في يوليو ١٩٣٧ النتيجة المنطقية لتغيبه المتعمد عن اجتماعاتها لاشهر عديدة . ويفسر بورات هذه الخطوة بانها جاءت تلبية لحض الامير عبد الله الذي كان على علاقات قوية مع « المعارضة » في فلسطين ويحظى بتأييدها وثقتها .

بالرغم من ان رجالات « المعارضة » قد اضطروا في البداية لاعلان تأييدهم للاضراب العام وكان من بينهم من لعب دورا بارزا في الثورة (مثل فخري عبد الهادي الذي كان احد قادة الفصائل المسلمة في منطقة جنين) ، الا انهم اعلنوا معاداتهم الصريحة لها فور بدء مرحلة الثورة الثانية في منتصف عام ١٩٣٧ . وقد طورت « المعارضة » ممارساتها الى ما يتعدى مجرد العداء اللفظي ، فقد توجه راغب النشاشيبي في ديسمبر ١٩٣٧ الى الوكالة اليهودية مطالبا اياها بدعم مادي بهدف تنظيم فرق مسلمة من انصاره لمقاتلة الثوار .

وقد اقام فخري النشاشيبي فيما بعد ما عرف بـ « فصائل السلام » التي مولت وسلحت من قبل الجيش البريطاني ، ولعبت دورا فعالا في مقارعة الثوار . وقد كان من ابرز قادة هذه المجموعة فخري عبد الهادي وفريد ارشيد وكلاهما ينتميان الى عائلات جنين الكبيرة .

وكان الوجه الاخر للعلاقات القوية بين الامير عبد الله والمعارضة يكمن في العلاقات الودية بين الامير والوكالة اليهودية . ويسجل بورات ان هذه العلاقة ترجع الى سنوات العشرينات ، ويشكل عام ١٩٢٣ حدا فاصلا اذ ان العلاقات اصبحت متينة لدرجة ان المشاورات السرية والمباحثات اصبحت امرا دوريا .

وفي عام ١٩٣٥ عرض الامير عبد الله على الوكالة اليهودية شراء اراض في غور الكبد في الضفة الشرقية لنهر الاردن ولكن المشروع فشل نتيجة لمعارضة البريطانيين الذين رغبوا في حصر النشاط الصهيوني في غربي نهر الاردن ، والابقاء على امارة شرق الاردن كمنطقة نفوذهم الخاصة . الا ان الوكالة اليهودية دفعت للامير عبد الله مبلغا كبيرا من المال من اجل الاحتفاظ بحقها في طلب تنفيذ العقد في المستقبل . وقد استمر الطرفان في التشاور خلال سني الثورة ، انطلاقا من مصلحتهما المشتركة في القضاء عليها . وقد ظهر موقف الامير عبد الله المعادي للثورة اثر لجوء احد قادة الثورة الشيخ يوسف ابو دره الى شرق الاردن عام ١٩٣٩ . فقد اعتقل ثم سلم للسلطات البريطانية في فلسطين ،التي قامت باعدامه في وقت لاحق . وكما يفسر بورات فان المصلحة المباشرة لعبد الله ولبقية الحكومات العربية كانت

وضع حد لهذه الثورة باسرع وقت ممكن. وقد حاولت الحكومات العربية تلك ان تؤدي دور الضاغط في سبيل الاعتدال على القيادات القومية الفلسطينية وفي سبيل منع احراق الجسور مع الاستعمار البريطاني ، مناشدة الفلسطينيين اظهار الثقة بحسن نوايا البريطانيين .

ان الاساليب التي استعملها الجيش البريطاني في سبيل القضاء على الثورة الشعبية المسلحة قد اصبحت الان في عداد الطرق المتعارف عليها لقمع الحركات الثورية . ولكن بعض اساليب الجيش البريطاني كانت من القسوة والبربرية الى درجة يحق معها للاستعمار البريطاني ادعاء شرف الريادة في هذا المضمار .

لقد استعمل البريطانيون اليد الحديدية مباشرة بعد مقتل اندروز في اكتوبر ١٩٣٧ ، واطلقوا موجة من الارهاب الحكومي تضمنت القاء القبض على المئات ونفي العشرات خارج البلاد . فقد اعلنت السلطات عدم شرعية اللجان القومية كما اصدرت اوامرها بالقاء القبض على اعضاء الهيئة العربية العليا . اما بالنسبة للحاج امين الحسيني فقد عزل من منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى ، ووجدت قيادة وكوادر الحركة الوطنية نفسها في معسكرات الاعتقال . لكن جميع هذه الاجراءات لم تأت بأية نتيجة . ويسجل بوراث انه في ايلول ١٩٣٨ كان الثوار يسيطرون على اكثرية الريف الفلسطيني . وان الادارة المدنية والسيطرة الحكومية على البلاد كانت شبه معدومة . في النهاية استطاعت القوات البريطانية ان تلحق هزائم عسكرية ساحقة بالثوار وكان سبيلها الى ذلك اعلان الحرب على الريف الفلسطيني باكمله . فانزلت العقوبات الجماعية على القرى وقصفتها من الجو ، واعدم قرابة المئة شخص ما بين سنوات ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨

وفي اكتوبر ١٩٣٨ اقتحمت القوات البريطانية مدينة القدس القديمة مستعملة اهالي العرب كـ « دروع بشرية » ،وانشأت مراكز شرطة اضافية في القرى ، وارغم سكان تلك القرى على تحمل نفقاتها . ولحماية القطارات البريطانية التي كانت معرضة للتفجير وهجمات الثوار ، ابتدع البريطانيون اسلوبا فريدا لتأمين سلامتها، يكمن في وضع اقارب قادة الثوار المعروفين في عربات مكشوفة تتقدم القطار . كذلك يسجل بوراث التعاون الوثيق بين الجيش البريطاني و « فرق السلام » . وتنظيم الضابط البريطاني وينجات لـ « فرق الليل الخاصة » التي تدرب فيها عدد كبير من قادة اسرائيل العسكريين وتعلموا فيها اساليب شن الارهاب المضاد . ولكن الكاتب لا يقدم تفصيلات وافية عن هذين الموضوعين .

عندما يعالج الكاتب قضية الاراضي في فلسطين ، فانه يصل الى نتيجة ان الارقام الحكومية لعدد الفلاحين الذين خسروا مصدر رزقهم نتيجة لعمليات الشراء الصهيونية ، قليلة جدا ، وينفي صحة الادعاء الصهيوني ان شراء الاراضي لم يؤد الى طرد او تجريد ملكية اعداد كبيرة من الفلاحين العرب ، ولكنه يصر متراجعا ان « بضعة الاف عائلة فقط قد اجليت عن اراضيها » . ويحاول ان يفسر ظاهرة بيع الاراضي كنتاج لرغبة الملاكين العرب في الحصول على سيولة مالية لتحديث اساليبهم الزراعية . ولكن الارقام التي يقدمها لا تؤكد ذلك (بين سنوات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، كانت ملكية ٦ر٥٢٪ من الاراضي المباعة لمالكين عرب غير فلسطينيين ، و ٦ر٢٤٪ لملاك عرب فلسطينيين،وفقط ٤ر٦٪للفلاحين، ويفسر بوراث نفسه بيع الاراضي من قبل الفلاحين الصغار ، كنتاج لديون هؤلاء الفلاحين لمرابي المدن الذين كانوا يتقاضون فوائد مذهلة ادت الى اجبار الفلاحين

على بيع اراضيهم لسداد الديون المستحقة. ويؤكد كذلك ان بيع الاراضي ادى الى نتائج اقتصادية سلبية في القطاع العربي في البلاد (وهو طبعا يغفل كون قضية انتقال ملكية الاراضي قضية سياسية في الدرجة الاولى) .

لقد كتب الكثير عن حركة الشيخ عز الدين القسام ومجموعته ولكن احدا لم يعطها ذلك القدر من الاهمية كمعالجة بوراث لها في كتابه وخصوصا خلال سنوات ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ .

يتابع الكاتب نشاط القساميين بعد موت القسام نفسه في اواخر عام ١٩٣٥ ، ويقدم جداول تبين المنشأ الجغرافي والاجتماعي للقساميين ولقادة الثورة البارزين . ان قلة المصادر ، وطبيعة حركة القسام من حيث كونها سرية ادت بمعظم الكتاب الذين عالجوا تلك الفترة اما الى صرف النظر عن الظاهرة واهمالها ، واما الى المشاركة في خلق « الرجل ـ الاسطورة» . لقد احرز القسام كظاهرة رومانسية مكانة في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بالرغم من انه لم يكن ممثلا لاي اتجاه سائد في صفوفها . لكن بوراث يرفض هذا التقييم ، ويؤكد ، ربما بافراط زائد على مكان حركة «اخوان القسام» الرئيسي في الحركة الوطنية .

كتب بوراث مقالا قبل بضع سنوات ذكر فيه انه باستثناء عصبة التحرر الوطني (تنظيم الشيوعيين العرب في فلسطين) لم يكن هنالك اي حزب عربي في فلسطين بالمعنى الغربي الحديث للتنظيم السياسي. وبالرغم من انه يكرس قسما من كتابه هذا لعرض الاحزاب السياسية العربية الفلسطينية في سنوات الثلاثينات ، فان معالجته للموضوع ليست شاملة ولا تتعدى العموميات . فهو لا يقدم تفصيلا للخلفية الاجتماعية لمؤيدي هذه الاحزاب ، ولا لمدى التأييد الذي كانت تتمتع به . ان الانطباع السائد هو ان تلك الاحزاب لم تكن اكثر من تجمعات لزعامات تقليدية تتمتع بتأييد عائلي وعصبية عائلية وتفتقر الى اي تنظيم قاعدي . ان بوراث يلمح الى هذا بتصويره مدى انتشار الصراع والتنافس بين العائلات التقليدية ، ولكنه لا يقدم تفسيرا لهذه الظاهرة ، ولا يخرج باي استنتاج بالنسبة لصواب او خطأ اضفاء صفة الحزبية على تجمعات كهذه .

وفي مجال عرضه للمنحى الراديكالي الذي اخذته الحركة الوطنية في سنوات الثلاثينات ، يؤكد بوراث على الدور الذي لعبه اعضاء حزب الاستقلال . ولكنه يهمل بعض الحقائق المهمة : (١) كون حركة الاستقلال نشأت في الاصل كحليف للهاشميين . (٢) وجود حركة الاستقلال كحزب منظم (!) لم تدم اكثر من سنين معدودة . (٣) كون اعضاء سابقين في حزب الاستقلال ، قد اتجهوا نحو معسكر الحاج امين الحسيني وتخلوا عن ارتباطاتهم السابقة . ان الاصرار على دور الاستقلاليين في سنوات الثلاثينات كرواد (تجذير) الحركة الوطنية لا يرتكز على اساس واقعي .

وبينما يحاول بوراث ان يظهر ان الحاج امين الحسيني كان يتبع سياسة ذات وجهين ، وانه كان بالفعل زعيم الجناح الراديكالي في الحركة الوطنية ، يهمل بيناته ويجد نفسه مضطرا الى الاعتماد على مصادر غير موثوقة مثل كتابات اميل الغوري . فبوراث يخفق في اظهار اية ادلة تؤكد ان المفتي كان يستعمل موارد المجلس الاسلامي الاعلى الحالية في سبيل تقوية الحركة الوطنية ، ويهمل كذلك حقيقة ان المفتي وحتى عام ١٩٣٦ كان معارضا لاي صدام مع الاستعمار البريطاني . كما واظب على رفض اتساع سياسة عدم التعاون مع الحكومة ، وظل في وظيفته الحكومية حتى عزلته سلطات الانتداب ابان الثورة .

بينما تحتوي دراسة الدكتور بوراث على عرض وقائعي شامل لتطور الحركة الوطنية . فهنالك اغفال تام لاي تحليل اجتماعي لهذه الحركة ولعوامل فشلها ·

ان هذا الفشل مصدره في الاساس اغفال الكاتب لسؤال اساسي يتعلق فيما اذا كان في الامكان التكلم عن حركة وطنية سياسية منظمة مشابهة على سبيل المثال للحركة الصهيونية واجهزتها · فبالرغم من وجود « الاحزاب » والتنظيمات العديدة ، وعقد المؤتمرات . ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية تتشكل من قيادة تفتقر الى التنظيم والى الهياكل والاطر التنظيمية المطلوبة ، فهي تتشكل من زعامات تقليدية ترتكز على العصبية العائلية ، منقسمة على نفسها ، تتبع سياسات محكومة بالمصلحة الشخصية على المدى القصير ، مظهرة بوضوح عدم الاستعداد وعدم القدرة على التصدي لمهام حركة التحرر الوطني ، والتمييز بين الاعداء والاصدقاء ·

موسى خليل البديري

Z. Brezeinski : Illusions dans lequilibre des puissances
(Edition de l'herne , Paris : 1977)

هذا الكتاب ، ليس تحليلا سياسيا عاما او نظريا بل محاولة لصياغة سياسة اميركية جديدة ، تتناسب مع المرحلة الجديدة ، مرحلة ما بعد فيتنام ، سياسة عملية تسعى الى الحركة والخروج من مبدأ المحافظة على « الوضع الراهن » · وفي هذه الزاوية فالكتاب شديد البساطة من حيث اسلوبه ، بالغ التعقيد من حيث مضمونه ، ذو ابعاد متداخلة ·

فبريجنسكي ، خليفة كيسنجر في الادارة الاميركية ، مستشار الامن القومي ، لا يتناول الواقع الستراتيجي كمعطى جامد ، بل انه يركز على التناقضات ، ويحاول استخدام تيارات الواقع المتعارضة لدفعها باتجاه معين وتغليب الميول المنسجمة مع مصالح الامبريالية الاميركية ·

١ ـ الستراتيجية والسياسة

يحاول بريجنسكي ان يلتقط خصوصية المرحلة الراهنة وان يتخطى « البهلوانية الكيسنجرية » · هزيمة فيتنام اجبرت اميركا في رأيه على اعادة النظر بمجمل سياستها الخارجية · ويفسر بريجنسكي هذه الهزيمة ، بطبيعة المجموعة التي

حكمت اميركا من الخمسينات الى السبعينات ، وهي مجموعة ذات تراث بروتستنتي منحجر ، انهارت مع انهيار المواقع الاميركية في جنوب شرقي اسيا . هذه النخبة هي التي صاغت فلسفة اميركا الغازية ، المتوحشة واحرقت صورة « اميركا الحرة » الداعية الى الحرية الفردية والديمقراطية . اميركا البدايات ، التي يستعيد بريجنسكي ذكراها الان بحنان ويستلهم رموزها .

وقد يبدو سهلا ان نجيب على هذا الرأي باستحضار القوانين العامة للامبريالية ، وبالقول ان التاريخ الاميركي كان لا بد أن يأخذ هذا المنحى . ولكن هذا الرأي يحمل شيئا من التبسيط بالنسبة لمفهوم التاريخ ، اذ يخفي احتمالاته المتعددة ، ويهمل المستوى السياسي الغني بمفاجآته المتنوعة .

والحقيقة ان ما يقوله بريجنسكي ، يطرح تساؤلات مهمة خاصة فيما يتعلق بالمنطقة العربية . فلماذا ورثت اميركا الامبريالية التشكيلات الاستعمارية من انكلترا التي ابقت عليها طوال قرن ، وبعد ان انتقلت في الداخل من الاستعمار الى الامبريالية نهائيا ؟ ان هذا التفاوت بين اشكال المجتمع الاميركي من جهة والتشكيلات التي يسيطر عليها واشكال هذه السيطرة من جهة اخرى ، هي لب المشكلة التي يثيرها بريجنسكي ، دون ان يطرحها . ويجيب عليها بشكل متسرع ، حاصرا ابعادها بتركيبة المؤسسات الاميركية وطبيعة النخبة الحاكمة .

وعلى كل حال ، فالكلام بريجنسكي هدف النقد المباشر ، هدف تحطيم هذه النخبة وورائثها ، ومحاكمة كيسنجر على اساس موقفه منها . كيسنجر لم يشكل في رأيه البديل المتجانس لهذه النخبة المنهارة ، لقد كان وليد هذا التخبط والفراغ في السلطة . ولكنه لم يستطع تمثيل مجموعة نخبوية ذات ايديولوجيا واضحة . ان كيسنجر ، او ادارة نيكسون بشكل عام ، هي برأي مستشار كارتر ، ادارة انتقالية اجلت الكارثة واخفتها بحذلقة و « شطارة » ، ولم تعالجها .

والكارثة هي ضعف القوة الاميركية وقدرة اميركا الستراتيجية على تركيز مواقع نفوذها في العالم . لقد ادار كيسنجر السياسة الخارجية وكأن موقع اميركا الستراتيجي لم يتغير في الواقع ، اي انه لم يغير سوى الشكل ، ولم يعترف بالكارثة ، وتلافى مواجهتها وجها لوجه . اي استعاد نفس انماط السياسة الخارجية التي سادت اوروبا بعد مؤتمر فينا والتي ارتكزت جوهريا على مبدأ توازن القوى بين الدول الكبرى الخمس .

كان كيسنجر يواجه توازن القوى الستراتيجي ، بمحاولة سياسية دائمة لتثبيت هذا التوازن والاستمرار بالوضع الراهن . ولكن اي توازن ستراتيجي ، بين اميركا والاتحاد السوفياتي يتضمن وهمين : وهم ثبات مواقع الخصم وقوته، ووهم اعتبار اوروبا واليابان والصين كقوى متساوية مع الاتحاد السوفياتي . فالواقع ، اي واقع الستراتيجية العالمية ، هو بنظر بريجنسكي واقع استقطاب ، واقع متجاذب بين قطبين متصارعين ، يحاولان استخدام القوى الرئيسية الثلاث الباقية ، او منع الخصم من استخدامها .

وضمن هذا العالم لا يمكن لاميركا ان تتعامل مع الاتحاد السوفياتي وكأنه قوة من بين هذه القوى ، يعادلها اهمية ، او ان تعامل نفسها على هذا الاساس . فهذا التعامل لن يؤدي الى توازن استراتيجي بل الى معادلة « سياسية » وهمية تفقد ضمنها الولايات المتحدة حلفاءها الاساسيين ، فاذا تعاملت هذه الاخيرة مع اوروبا كما تتعامل مع الاتحاد السوفياتي ، فلا شك ان اوروبا

ستصبح عرضة لتقدم النفوذ السوفياتي ·

لا بد لاميركا اذن برأي المؤلف ان تعتمد في استراتيجيتها على فهم الواقع الذي يتميز بالاستقطاب ، لا بتعدد القوى المتعادلة ، وان تعي ضعفها النسبي كي تصوغ سياسة تتناسب مع مصالحها ، وتخلصها من خطر الانكماش على نفسها، اي من انهيار مواقعها ·

سياسة بريجنسكي الجديدة تريد تغيير الواقع الستراتيجي ومناهضة تياراته العميقة · تناهض الاستقطاب ذا الطرفين او الذي يجمع قوتين متناقضتين بسياسة مثلثة الاطراف · اي باستخدام التحالفات لرفع مستوى القوة الاميركية الى حد يفوق قوتها الذاتية · يحاول اعطاءها قوة اضافية وذلك بمحاصرة الاتحاد السوفياتي وضرب تحالفاته ، وبجلب حلفاء اساسيين ، والانتقال من التحالف بين القوى في الجبهة الاميركية ، الى مبدأ القوة الموحدة التي تجمع الحلفاء ، وان كان هذا الانتقال يتطلب تنازلا اميركيا ضمن هذه الجبهة ·

عندما تضعف قوة اميركا عليها ان ترتب اوضاع جبهتها قبل ان تثبت توازنها الستراتيجي مع الاتحاد السوفياتي · ومن هنا فان المعاهدات والانفتاح على السوفيات الذي اقدم عليه نيكسون لم يفد · ذلك ان اميركا لم تستطع انذاك ضبط مواقعها ، فاتت هذه الخطوة لتعمق الهوة بينها وبين اليابان ، وكذلك بينها وبين اوروبا · التمييز بين الحلفاء والاعداء هو المبدأ السياسي الرئيسي ، اما تخفيف العداء فهو المبدأ الثانوي · من هنا فمعاهدات « السالت » لن تصل ابدا باهميتها الى مستوى العلاقات المثلثة بين اليابان ــ اوروبا ــ اميركا ، ومن الخطأ ان تصل ·

٢ ــ العلاقات المثلثة

الا ان هذه العلاقات المثلثة ليست علاقات موجودة وقائمة · بل هي هدف يجب تحقيقه عبر مشروع « هندسي » يتطلب جهودا شاقة · ذلك ان الضربات المتتالية التي تلقتها اوروبا خلال الحربين العالميين لم تجزئها فقط الى اثنين · بل ان اوروبا الغربية بعد انحسار مواقع نفوذها في العالم ، وبعد ان فقدت صفتها كقوة سياسية ذات حجم استراتيجي ، لا تسير الان نحو الوحدة بشكل تلقائي ، بل على العكس من ذلك · اي ان دولها القومية تأخذ اهمية اكبر من ذي قبل ، وان اقتصادها قد اصيب بالانكماش ، ويتوجه الان نحو الحماية لا نحو الانفتاح الى الخارج · اوروبا تتنازعها اليوم العقائد الليبرالية والاشتراكية ، وهي منبع التراث العقائدي ، ومصدر الفكر السياسي النظري الذي لم تعرفه الوضعية (الذرائعية) ولم يدركها انسانها البسيط ·

ولكن كيف « سينقذ » بريجنسكي اوروبا من ازمتها ، هل يضمها الى اميركا المتأزمة اصلا ، المهددة هي نفسها بالانكماش على الذات ؟

هذا السؤال طرحه « بيار كوت » في تقديمه لكتاب بريجنسكي ، الطبعة الفرنسية ، الا ان « كوت » لا يحاكم بريجنسكي من منطلق سياسي بل من ناحية اخلاقية ، فكأنه يرى في مبادىء كارتر الاخلاقية تلك الصرخات الانسانية التي تعبر عن حنين الى اميركا القديمة، مبادىء سياسية فعلية · فهو يطالب باستقلالية اوروبا ، وينتقد مشروع بريجنسكي من زاوية تاريخية ، زاوية قوانين الرأسمالية الاحتكارية ، فهذا المشروع متناقض ، اذ انه يدعو اوروبا للاضطلاع بمسؤولياتها ، وللمشاركة في القضايا العالمية ، بينما لن تتمكن اوروبا من ان تصبح قوة ذات شأن

دون شيء من الاستقلالية الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية · فاذا ظلت اوروبا امتدادا اميركيا ، فانها لن تقوى على التعبير عن نفسها بحرية ، او ان تطمح الى اكثر من بعض المسؤوليات الاقليمية · فهل ان اميركا مستعدة الان ان تأخذ بعين الاعتبار هذا الواقع وان تتقيد باستقلال اوروبا التقني او بالنسبة للتشريعات الجمركية ؟ هل انها ستحد من نشاط شركاتها المتعددة الجنسيات ؟

في الحقيقة ، ان المشكلة التي يطرحها كوت ليست المشكلة · اذ ان الغطاء الاخلاقي ، الذي يستخدمه بريجنسكي لا يهمنا هنا · فبريجنسكي واضح بالنسبة لما يريده من اوروبا · انه يضعها امام خيار لا مفر منه · فاما اميركا او الاتحاد السوفياتي ، وهذا يعني في سياق اشتداد الصراع بين القوتين الرئيسيتين ، ونظرا لميول الدول الاوروبية وطبيعتها ، ارتباطا اكيدا باميركا · احتدام الصراع مع العدو هو الذي يلجم الجبهة الاميركية · هذا هو المبدأ البسيط الذي يعبر عنه بريجنسكي حين يتكلم عن العلاقات المتوترة مع السوفيات سلبا وايجابا ، عن دفع الحياة السياسية الى اقصى حركة ، او عن بلوغ حافة الحرب العالمية دون الوقوع فيها ·

اوروبا القوية « غير المستقلة » اوروبا كما يريدها مستشار كارتر هي اوروبا المشتركة في الهجوم الدفاعي المستمر على الاتحاد السوفياتي ، والمشاركة في ضبط العالم الثالث ، وهي ، من اجل حل ازمتها الاقتصادية ، ومناهضة انكماش الرساميل ومجابهتها ، تندفع نحو توظيف الرساميل المنتجة في « العالم الثالث » ·

٣ ـ اعادة ترتيب « العالم الثالث »

فالهندسة المثلثة الاطراف التي تسعى الى زيادة القوة عبر مبدأ التحالف ، لا تكتمل اذن الا باعادة النظر في علاقات اميركا « بالعالم الثالث » · مناهضة النزعة الانكماشية تهدف الى الحد من الانكماش الاوروبي والى كسر الاتجاه الذي يدفع اوروبا نحو التشتت اقتصادي ، ان الازمة الرأسمالية لن تحل برأي بريجنسكي الا بالانفتاح على العالم الثالث باساليب جديدة ، وبطرق استتباع متطورة ·

لقد اهتزت بعد فيتنام المواقع الاميركية في العالم ، واثبتت الحرب في انغولا ، ان الدبلوماسية الاميركية قد فتحت ثغرة في حصونها ما لبث الاتحاد السوفياتي ان سارع الى العبور منها · ان بريجنسكي لن يرضى بعد الان أن ترتكب اخطاء كهذه · يجب التخلي عن دور « البوليس » الحافظ على الوضع القائم لقوى محلية في افريقيا والشرق الاوسط ، « لقوى فعالة » تتمتع « بوزن عملي » ، منخرطة في تكوين المنطقة · ان عصر روديسيا وافريقيا الجنوبية قد ولى ، وكذلك تعدل دور اسرائيل ١٩٥٦ او ١٩٦٧ ·

وباختصار ، فما يراه بريجنسكي هو ان اميركا لم تعد تستطيع ادارة مصالحها في « العالم الثالث » من الخارج ، اي بواسطة العنف الخارجي ، القهر الاستعماري القائم على مجموعات اقليمية غير منسجمة مع طبيعة المناطق التي تسيطر عليها · فاذا كانت اميركا ترسم الان سياسة دفاعية ، تحاصر بها الاتحاد السوفياتي الذي بلغ مرحلة هجومية ، ان بالنسبة للمحافظة على مواقعه الستراتيجية ، او لاكتساب مواقع جديدة ، فعلى الادارة الاميركية تفويت الفرص السوفياتية ، وكذلك تلافي الصدام المباشر مع الاتحاد السوفياتي ، **وذلك لا يتم الا اذا انتقلت اشكال النفوذ الاميركي من نمط التحكم الخارجي المبني على الاشكال الاستعمارية : النهب الاقتصادي والاعتماد**

على قوى متنافرة مع وسطها الاقليمي ، او هامشية ، الى نمط تحكم قائم على « برجوازيات » محلية منخرطة في الانتاج الرأسمالي العالمي ، وان كانت هامشية بالنسبة لدورة الرأسمال ، اي متخصصة في الصناعات الخفيفة · ان التحكم غير المباشر يقتضي كسر التيارات الانكمآشية الاوروبية والاميركية ، وتغليب تصدير التكنولوجية على نهب الثروات · فالانتقال من تحالف القوى الى مبدأ دمج القوى المتحالفة ضمن الشكل المثلث : اوروبا ـ اميركا ـ اليابان ، يقضي الانتقال من التحكم بالعنف الخارجي الى التحالف مع قوى محلية تابعة ، تفترض التعامل مع مبدأ « الزعامة المحلية » ·

ان عصرا جديدا تحاول ان تدخله الان اميركا تحت ضغط المكاسب التي حصلت عليها « الحركات الوطنية البرجوازية » في السابق ، وهجوم الاتحاد السوفياتي ، وضعف قواها الاقليمية الضاربة · عصر البرجوازيات غير الوطنية القوية ·

ولكن هذه الرؤية التي تحاول توزيع القوى للمحافظة على المواقع ، تصطدم بهدفها نفسه ، وهو الاستعاضة عن القوة المركزية بالتحالفات الاقليمية · فهذه التحالفات ، التي تقوم على تبديل في مراكز القوى الاقليمية · تتطلب اصلا قوة مركزية هائلة ·

لنأخذ ما يجري الان في « الشرق الاوسط » ، « فمبادرة السادات » ، المرحلة الاولى من « دوائر بريجنسكي الثلاث » همشت فعليا السياسة السوفياتية ، وكسرت التوازن المثل بمؤتمر جنيف · الا أن هذه المبادرة فشلت فعلا امام تصلب اسرائيل · ولكن هل ان تصلب اسرائيل هو تصلب امام السياسة الاميركية ؟ انه اتجاه في هذه السياسة · اتجاه يعكس حاجة اميركا الى ادواتها القديمة وعدم قدرتها على صياغة تحالفات جديدة مع قوى محلية تعطيها الفرصة كي تصبح قوى فعالة · فهل يمكن للسادات ان يتوسع نحو السودان ، وهو يراوح في سيناء ؟ وهل يمكن لاميركا ان تضبط الحركة التي قد تقلص دور اسرائيل وترسم حدودها ضمن ظرف عالمي لا يسمح لها بشن اي هجوم اقليمي او موضعي تستخدم فيه قوتها العسكرية المركزية ؟

يبدو لنا ان الانتقال من سياسة « الوضع الراهن » الكيسنجرية ، الى سياسة الحركة ، قد ارتطم في الشرق الاوسط قبل ان يبدأ ، وقد تصبح اميركا مضطرة بعد الان للعودة بصعوبة الى « سياسة الوضع الراهن » بدل المحافظة على « الوضع الراهن » !

نزيه جابر

شهريات

المقاومة الفلسطينية

صيغة الوفاق

استمر الموضوع الفلسطيني (٤/١٥ ـ ٥/١٥) مطروحا على رأس جدول اعمال السياسة اللبنانية · وجاء الغاء جلسة الملف الفلسطيني في البرلمان اللبناني يوم ٤/١٨ ليكون مدخلا لمحاولة الاتفاق على صيغة حل تمثل مواقف الاطراف السياسية (النيابية) بشكل فعلي · ومن المؤكد ان مداولات سرية جرت بين الاقطاب السياسيين ورؤساء الكتل البرلمانية والقصر الجمهوري مهدت لالغاء جلسة الملف والبدء بالبحث عن الصيغة المطلوبة· ففي ٤/١٨ ترأس كامل الاسعد اجتماعا مفاجئا لـ ٢٥ نائبا يمثلون جميع كتل المجلس التي كان مقررا عقدها يوم ٤/٢٠ ، واستبدلت جلسة الملف بلقاء نيابي يعقد في نفس موعد جلسة الملف ليبحث في امكانية الوصول الى « صيغة مقبولة » ·

عقد اللقاء النيابي صباح ٤/٢٠ بحضور ٤٠ نائبا ، وبعد جدل حاد ومتناقض حول الموقف من الوجود الفلسطيني المسلح تشكلت لجنة من ١٠ نواب ، (اصبحت عند اجتماعها ١٣ نائبا) ، واوكلت لها مهمة وضع صيغة حول الموقف اللبناني من الوجود الفلسطيني المسلح · وفور الاعلان عن تشكيل هذه اللجنة وبدء اجتماعاتها قدم الرئيس سليم الحص استقالة الحكومة اللبنانية ، واقترنت مسألة تشكيل الحكومة الجديدة المطلوبة بالصيغة المطلوب من اللجنة النيابية ان تتوصل اليها ، بحيث تكون هذه الصيغة مدخلا للوفاق اللبناني، ومدخلا بالتالي لتشكيل حكومة لبنانية على اساس هذا الوفاق الذي يتفق فيه الطرفان على أسلوب معالجة الموضوع الفلسطيني في لبنان · وترافقت استقالة الحكومة وتشكيل لجنة الصيغة مع موقفين لهما دلالتهما :

موقف الشيخ بيار الجميل الذي طالب الجناح الثاني (المسلم) في لبنان ان يقول رأيه بالوجود الفلسطيني ، معتبرا ان هذا الجناح « يبدو وكأنه يغطي الوجود الفلسطيني المسلح » ·

وموقف للبطريركية المارونية طالبت فيه الدولة « ان تمنع الوجود المسلح بكل ما لديها من وسائل » (٤/٢٢) ·

وحين اجتمعت لجنة الـ١٣ نائبا صباح ٤/٢٣ توصلت الى صيغة بيان من ٦ نقاط تتضمن الدعوة الى « وقف العمل المسلح ، الفلسطيني وغير الفلسطيني في جميع الاراضي اللبنانية » (البند الثاني) ،

و « منع اي وجود مسلح لغير قوى السلطة الشرعية اللبنانية » (البند الثالث) ٠ وبين البنود التي تتحدث صراحة عن الغاء الوجود الفلسطيني المسلح وبين مقدمة المشروع التي تشير الى اتفاقي الرياض والقاهرة وما يعنيه ذلك ضمنا من اقرار بشرعية الوجود الفلسطيني المسلح، برز مجال واسع لتفسيرات متناقضة لمضمون الصيغة ، واعلن ثلاثة نواب شاركوا في اعمال اللجنة (رشيد الصلح ، حسن الرفاعي ، كاظم الخليل) ان مشروع الصيغة لا يلغي اتفاق القاهرة ٠ واتسع نطاق النقاش حول هذه النقطة في اليوم التالي ٤/٢٤ ، فأعلن بيار الجميل ان مشروع الصيغة لم يتناول اتفاق القاهرة لا سلبا ولا ايجابا ، وتهرب كميل شمعون من الاجابة المباشرة قائلا « اقرأوا تفهموا » ٠٠أما خارج النطاق اللبناني فقد جرت الامور على شكل مختلف تركز على رفض الصيغة ، فأعلنت الحركة الوطنية رفضها للصيغة ككل مؤكدة ان اللجنة التي وضعتها « تمثل فريقا واحدا » ، وحذرت المس بالوجود الفلسطيني الذي « يستمد شرعيته من الاتفاقيات » ، واعلن الحزب التقدمي الاشتراكي ان « وجهة نظر وحيدة سيطرت على لجنة ال ١٣ » ، واعلن بشير الجميل بالمقابل رفضه لحل مليشيات « الجبهة اللبنانية » لان « الحاجة الى المليشيات تنتفي فور انهاء الوجود الفلسطيني المسلح على الاراضي اللبنانية كافة » ٠ وفي حمى هذا الجدل اعلنت منظمة التحرير الفلسطينية في بيان رسمي ، انها حريصة على وحدة لبنان ، وعلى اتفاق القاهرة في نفس الوقت ، واكدت ان الاتفاقيات التي اكتسبت شرعيتها في مؤتمرات عربية لا تفسخ من جانب واحد ٠

اجتمعت اللجنة النيابية الموسعة صباح ٤/٢٥ لتناقش الصيغة ، وقد اقرها ٢٦ نائبا من اصل ٢٩ حضروا الاجتماع ، بعد ان أدخلوا عليها تعديلات طفيفة ولكنها هامة ٠ ففي البند الذي يشير الى اتفاق الرياض ويرفق ذلك بعبارة (جمع الاسلحة) اتفق على تعديل يقول (ومنها جمع الاسلحة) ، واعتبر ذلك بمثابة اعتراف غير مباشر ببقاء اتفاق القاهرة، الذي يشير اليه اتفاق الرياض جنبا الى جنب مع موضوع جمع الاسلحة الثقيلة ، كأحد الشروط التي وضعت انذاك لانهاء الحرب اللبنانية ٠ كذلك حذفت من النص عبارة كانت تشير الى (مقررات مجلس الدفاع العربي المشترك) وهي مقررات كانت تدعو في حينه الى (وقف العمليات العسكرية) غير النظامية ضد اسرائيل ٠ وعقد الرئيس كامل الاسعد فور انتهاء اعمال اللجنة ندوة صحافية أعلن فيها ان المجلس النيابي اللبناني لا يستطيع الغاء اتفاق القاهرة لان ذلك من صلاحية السلطة التنفيذية الممثلة برئيس الجمهورية والحكومة ، وصدر في نفس اليوم بيان عن اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير تضمن ثلاث قضايا : الحرص على الوفاق اللبناني ، والتمسك باتفاق القاهرة ، واعلان الاستعداد لبحث تنظيم العلاقات بين المقاومة والسلطة بعد الانسحاب الاسرائيلي من جنوب لبنان ٠ ودعمت سوريا موقف المقاومة هذا بعد لقاء بين الرئيس حافظ الاسد وياسر عرفات (٤/٢٦) جرى التأكيد فيه على ان اتفاقي القاهرة وشتورا ينظمان العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية ٠ وفي ٢٧ نيسان اجتمع المجلس النيابي اللبناني في جلسة رسمية، ووافق على الصيغة بأغلبية ٧٤ نائبا بعد ان أدخل عليها تعديلا جديدا يشير الى « الالتزام » بمقررات مؤتمري الرياض والقاهرة (التي تتضمن اتفاق القاهرة) ٠

ويلاحظ ان لجنة الـ ١٣ التي وضعت الصيغة ، واللجنة النيابية الموسعة التي اعتمدتها ، وجلسة المجلس النيابي التي اقرتها ، تمت كلها دون تدوين محاضر

للمناقشات ، ولم يكن هناك بالتالـــي اي تدوين رسمي للتفسيرات التي وافـــق النواب بمقتضاها على بنود الصيغـــة ، الامر الذي يسمح لكل فريق بأن يقـــول بانه وافق على الصيغة بناء على فهمـــه لبنودها وتفسيره لها ، وهو وضع يسمح لفريق بالقول انها تؤكد ضرورة بقـــاء الوجود الفلسطيني المسلح ، بينما يستطيع الفريق الثاني ان يؤكد ان الصيغة تلغـي هذا الوجود ۰ ويلاحظ هنا ان الوصـــول الى هذه الصيغة اعتبر انجازا على طريق تحقيق الوفاق اللبناني ـ اللبناني ، وان الوضع بات يسمح بعدها بتشكيل حكومـة برلمانية ـ سياسية ۰ وفي ضوء هــــذا الاعتقاد الذي ساد الاوساط الرسميـــة جرى اعادة تكليف الدكتور سليم الحص بتشكيل الحكومة ، وما هي الا ايام حتـى تبين ان مسألة الوفاق اللبناني لم تحلهـا الصيغة التي وضعت ، وتعذر بالتالـــي تشكيل حكومة سياسية ، وجرى تعويـــم حكومة الحص نفسها ، ليعود الوضع الى النقطة التي كان فيها يوم الاستقالة ۰

الجنوب والاحتلال وقوات الطوارىء :

تمهيدا لانسحاب اسرائيلي ثالث عـن الجنوب ، قام كورت فالدهايم أمين عـــام الامم المتحدة بزيارة للبنان واسرائيـــل قابل خلالها ياسر عرفات في مقر قيادته ، وتحدد الموقف الفلسطيني خلال هــــذه الزيارة وبعدها من القوات الدولية كمـــا يلي :

☐ اعلن بيان للمنظمة ان عرفات ابدى للامين العام استعداد المنظمة لمساعـــدة الامم المتحدة في تأدية مهامهـــا فـــي الاشراف على الانسحاب الكامل للقـوات الاسرائيلية ۰ وأكد فالدهايم ذلك بقولـــه « ابلغني عرفات انه اصدر أوامره لقوات المقاومة الفلسطينيـــة باحترام القـــرار والتعاون مع القوات الدولية »۰(١٧/٤) ۰

☐ وعند انتقاله الى اسرائيل (١٩/٤) اعلن فالدهايم ان اسرائيل « وعدتـــه بسحب قواتها قبل ٣٠ نيسان من نحـــو ٦٥٪ من اراضي الجنوب المحتلـــة ، وان الانسحاب من باقي الجنوب سيستغـــرق وقتا ۰

☐ في ٢٤ نيسان وصل انزيو سيلاسفيو منسق القوات الدولية في الشرق الاوسط الى بيروت لبحث خريطـــة الانسحـــاب الاسرائيلي الثالث المنتظر ۰

☐ وفي ٣٠ نيسان بدأت اسرائيـــل انسحابها الثالث وأعلنت انه سينتهي في الخامس من ايار ۰ وشمل انسحابهـــا الجديد ٣٠ موقعا من مساحة تقـــدر بـ ٣٠٠ كلم٢ ، بينما كان من المقـــرر ان تنسحب من مساحة مقدارها ٥٥٠ كلم٢ ۰

☐ وفور اعلان هذا الانسحاب أعلـــن فالدهايم ان القوات الدوليـــة ستمنـــع التسلل وتستعمل القوة عند الضـــرورة ، وأرفق تصريحه هذا بالطلب الى مجلـــس الامن أن يزيد عدد القوات العاملة فـــي جنوب لبنان من ٤ الاف الى ستـــة الاف رجل (٢ أيار) ، وهو ما وافق عليـــه المجلس يوم ٣ ايار ۰

وقد حدث بعد الانسحاب الاسرائيلـــي الجديد ، وبعد تقدم قوات من المقاومـــة نحو المناطق التي شملها الانسحـــاب ، ان قامت القوات الدولية بمحاصرة مجموعـة فدائية من ٤٠ عنصرا قرب قرية العزيـــة (٢ أيار) واشتبكت القوات الدولية فـــي طيرديا مع عناصر من القوات الوطنيـــة اللبنانية سقط بسببها شهيدان من « جبهة المقاومة الشعبية لتحرير الجنوب » ، وقد امتدت هذه الاشتباكات لتشمل عدة قـرى منها العباسية والبص والبرج الشمالـــي ومعركة البازورية ورأس العين وباتوليـــة ، ولتصل في النهاية الى مدينة صور ، وسقط في هذه الاشتباكات جرحى من الطرفيـــن ودمر عدد من الملالات الفرنسية وحاملـــة

جنود . وبينما كان الكولونيل سالفان قائد القوات الفرنسية يخرج من ثكنة صور مع الرائد الفلسطيني تمراز ، ويتوجهان معاً الى مواقع الاشتباكات لتهدئتها ، حتى تعرضت سيارتهما لاطلاق نار كثيف أصيب على اثره الكولونيل سالفان بجراح وقتل مرافق الرائد تمراز . وتولى الهلال الاحمر الفلسطيني نقل سالفان الى مستشفى غزة في بيروت لمعالجته ، ثم جرى نقله في اليوم التالي الى مستشفى اوتيل ديو (٣ أيار) .

وقد اجتمعت قيادة فتح لبحث الموقف الناشىء والمتوتر ، ثم اجتمعت القيادة اللبنانية ـ الفلسطينية المشتركة ، وتقرر تشكيل لجنة لضبط الوضع في صور بالتنسيق مع قوات الطوارىء وساعد على تهدئة الموقف تصريح لسالفان أدلى به من المستشفى أكد فيه التعاون الذي كان قائماً بينه وبين منظمة التحرير لوقف الاشتباكات ، والتي كانت حصيلتها ثلاثة قتلى وثلاثة عشر جريحاً من القوات الدولية .

وقد أثارت هذه الاشتباكات ضجة دولية . فأعلن لوي دي غرينغو وزير الخارجية الفرنسي أسفه للحادث وربطه بعناصر غير منضبطة ، ودعت واشنطن الزعماء الفلسطينيين الى معاقبة الفاعلين. وذكر ناطق باسم القوات الفرنسية في الجنوب ان موقف قواته « حيادي ، والمقاومة أنقذت سالفان » .

وقد ساد على أثر كل ذلك هدوء في مدينة صور (٤ ايار) ، واعلن الجنرال ارسكين قائد القوات الدولية في الجنوب (٤ ايار) انه سيتفاهم مع الفلسطينيين لفرض الانضباط ، وان اهتمامه يتركز على التفاوض وليس على المجابهة ، وقال « لسنا هنا لنقاتل احداً ، ولكن علينا ان نمنع المسلحين من دخول مناطق واقعة تحت تصرفنا ، وسأوضح هذه النقطة لعرفات » . وبعد اجتماعه مع عرفات (٥ أيار) قال أرسكين « اتخذت اجراءات عملية لمنع وقوع صدامات ... والتسلل المسلح في مناطق قوات الطوارىء يجب ان يتوقف » .

وقد رد عرفات اثناء جولة له في السعودية ودول الخليج موضحاً موقف المقاومة من هذه القضايا ، فقال في مؤتمر صحافي في ابو ظبي ان « الثورة لن توافق على اي قرار لوقف اطلاق النار ، وقد ابلغت فالدهايم بهذا واننا لن نوافق على القرارات ٢٤٢ و ٣٣٨ و ٤٢٥ . وقواتنا تعمل في جنوب لبنان خلف خطوط العدو ، وطلبت من فالدهايم تموين قواتنا بالتعاون مع القوات الدولية ، وأوقفنا القصف المدفعي ليتمكن اللاجئون اللبنانيون والفلسطينيون من العودة » . (١١ ايار) .

ولكن الجنرال أرسكين عاد في ١٤ ايار ليعلن ان القرار رقم ٤٢٥ يتعارض مع اتفاق القاهرة ، وان « على عرفات انتظار تنفيذنا للانسحاب الاسرائيلي ثم يسوي مشكلاته مع السلطة اللبنانية » . وذكر ارسكين ان « القرار ٤٢٥ عهد الينا بالحيلولة دون وصول اية عناصر مسلحة الى الجنوب » . وقامت القوات الدولية في اليوم نفسه بمحاصرة مجموعة فدائية قرب صور ، واعلن صلاح خلف (ابو اياد) ان المقاومة « فوجئت بتصريح أرسكين الذي جاء مخالفاً لما دار بين عرفات وفالدهايم » . ولكن هذه المواقف من فالدهايم الى أرسكين أبرزت تناقضاً في فهم مهمة القوات الدولية من شأنه ان يؤدي الى خلاف متواصل حول حق قوات المقاومة في الحركة على أرض الجنوب ، اذ تعتبر المقاومةان تنفيذ القرار ٤٢٥ يعني ان تشرف قوات الطوارىء على تأمين الانسحاب الاسرائيلي فقط ، باعتبار ان تواجد المقاومة المسلح هو أمر شرعي حسب منطق اتفاق القاهرة بينها وبين

السلطة اللبنانية ·

عمليات المقاومة :

نفذت المقاومة الفلسطينية خلال هذه الفترة عدة عمليات فدائية في الداخل عكست حالة ملحوظة من النشاط العسكري · ومن هذه العمليات التي اعترفت بها اسرائيل :

☐ قنبلة على سيارة اسرائيلية قرب مخيم قلنديا بين القدس ورام الله اصيب فيها ٤ جنود (٤/١٦) ·

☐ قنبلتا مولوتوف القيتا على باص اسرائيلي في القدس ولم تنفجرا (٤/٢٤) ·

☐ قنبلة في نابلس على سيارة اتوبيس قتل فيها ٢ وجرح ٧ واعتقل ٤١ مواطنا للتحقيق ·

☐ قنبلة على سيارة جيب في جنين (٤/٢٧) ·

☐ انفجار قنبلة في القدس ، وانفجار شحنة ناسفة داخل سيارة في عكا واصابة ٣ بجراح (٥/٤) ·

☐ اطلاق صاروخ كاتيوشا في القدس سقط قريبا من منزل مناحم بيغن (٥/٧) ، عثرت السلطات الاسرائيلية على بقايا جهاز اطلاقه في اليوم التالي ·

☐ انفجار قنبلة في سيارة اتوبيس قرب البحر الميت (٥/٨) ·

☐ العثور على قنبلة موقوتة في نابلس (٥/١٣) ، جرت على اثرها حملة اعتقالات واسعة بين شباب المدينة ·

وضع فتح الداخلي :

عقدت اللجنة المركزية لحركة « فتح » اجتماعا يوم ٤/٢٥ بكامل اعضائها ·وفي ٤/٢٧ حضر كل قادة فتح مهرجانا شعبيا خطب فيه عرفات وقال « كثيرون يراهنون على شق وحدة حركة فتح ، ولكن وحدة الحركة أقوى مما يتصورون » ·

وفي مهرجان بمناسبة اول أيار اشار ابو اياد الى الموضوع نفسه فقال ان « فتح لا تنقسم » ·

ولوحظ في هذه الفترة موقفان متميزان لحركة فتح :

الاول : زيارة وفد من فتح برئاسة عرفات الى دمشق واجتماعه مع الاسد وخدام (٨ أيار) ، اعلن بعده ابو جهاد ان « اللقاء الاخير مع الاسد تركز على وضع خطة استراتيجية للتعاون بين فتح وسوريا ، وتم الاتفاق على تشكيل لجنة لوضع خطة التعاون » (٥/١١) ·

والثاني : اعلان ابو أياد يوم ١٠ ايار ان وفدا من فتح سيزور الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ، وتأكيده ان هذه هي أول مرة يتوجه فيها وفد من فتح الى هذه الدول ، واستطرد ابو أياد قائلا « نتحرك باسم فتح اسوة بغيرنا وليس في اطار منظمة التحرير » ·

وأصدرت حركة فتح في هذه الاثناء بيانا سياسيا حدد مواقف الحركة من القضايا المطروحة ، وابرز البيان هجوما حادا على السياسة الاميركية في الشرق الاوسط مع دعوة لدول النفط كي تعيد النظر بسياستها من الولايات المتحدة · وحدد البيان رفض الحركة لاي مؤتمر قمة عربي يتم في ظل مبادرة الرئيس انور السادات باتجاه اسرائيل ·

تنازلات السادات :

في العاشر من أيار دعا أثرتون مساعد وزير الخارجية الاميركي اسرائيل « للانسحاب على الاقل من جزء من الاراضي العربية المحتلة » · ولم يمض سوى يومين على ذلك حتى اعلن السادات في حديث لصحيفة « نيويورك تايمز »

الاميركية (٥/١٢) عن اقتراح جديد يشكل تنازلا جديدا من قبله عن موقفه السابق الذي كان يصر فيه على البحث بالقضية الفلسطينية مع اسرائيل وتحت شعار حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، ويدعو اقتراح السادات بدلا من ذلك الى اعادة الضفة الغربية للاردن، واعادة قطاع غزة لمصر . وقد اعلنت اسرائيل فورا رفضها لهذا الاقتراح ،ورد عليه عرفات من الكويت قائلا انه « ليس في استطاعة اي دولة تجاهل الثورة الفلسطينية » .

وفي ١٥ ايار قدم السادات تنازلا جديدا لاسرائيل عبر مجلة « شيكاغو تريبيون » حيث اعلن استعداد « لعقد صلح منفرد مع اسرائيل ، اذا كان ذلك يحقق السلام » ، وفي اليوم نفسه كشف عيزر فايتسمان وزير الدفاع الاسرائيلي النقاب عن ان « هناك تطورات مهمة ستتم خلال الاشهر القليلة المقبلة بين مصر واسرائيل » . وكان مناحم بيغن اكثر وضوحا في الكشف عن هذه التطورات حين قال امام مؤتمر جمعية الصناعيين الاسرائيليين ان ثمة مفاوضات جارية للوصول الى اتفاق جديد حول سيناء .

وبهذه التطورات وضع السادات مبادرته خارج اطار الشروط التي وضعها بنفسه لها ، وهي الشروط التي كانت تصر على الحل الشامل لازمة الشرق الاوسط ، وعلى ضرورة البحث بالقضية الفلسطينية وايجاد حل لها .

بلال الحسن

المناطق المحتلة

اخذت الانتفاضة التي تفجرت في المناطق المحتلة مع اندلاع الحرب الاخيرة في جنوب لبنان اشكالا عدة في مقارعة الاحتلال ، من بينها الاضرابات والتظاهرات ، والتصدي لوسائط النقل الاسرائيلية بالقنابل الحارقة ، وقد شهد الشهر الماضي سلسلة من اعمال قذف السيارات الاسرائيلية بالقنابل الحارقة ، ففي مخيم قلنديا القيت زجاجة حارقة على سيارة تقل جنودا اسفر انفجارها عن اصابة اربعة جنود بجراح ، كما وتمكن الفدائيون بالقرب من قريسة سلفيت من السيطرة على سيارة باص واشعال النار فيها ، والقيت زجاجة حارقة في مدينة جنين على سيارة باص تقل جنودا اسرائيليين ، واستشهد احد

المواطنين هناك نتيجة الاشتباك مع قوات الجيش الاسرائيلي ·

وفي السادس والعشرين من نيسان القيت قنبلة يدوية داخل سيارة باص في مدينة نابلس كانت تقل عددا من المتطوعين الالمان الذين قدموا الى اسرائيل للقيام بنشاطات لـ « افتداء جرائم النازية ضد اليهود » وينتمون الى منظمة تطلق على نفسها اسم « علامة التكفير » · واسفر الانفجار عن مقتل المانيين واصابة ستة اخرين بجراح ·

وكان من نتيجة تراكم اعمال المقاومة هذه واشتدادها ، ان اندفعت سلطات الاحتلال وفرضت اجراءات قمعية ضد سكان نابلس ، من بينها فرض نظام حظر التجول على اجزاء من المدينة ، وفرض الحصار حولها ، وسط اعمال التفتيش والمداهمات واعتقال المئات من ابناء المدينة · وقد استمرت هذه الاعمال اكثر من عشرة ايام · وخلال ذلك اصدر المجلس البلدي للمدينة بيانا دعا فيه سلطات الاحتلال الى فك الحصار المضروب حول المدينة ورفع نظام حظر التجول المفروض على بعض اجزائها ، كما وبعث رؤساء البلديات والمجالس المحلية والمؤسسات العامة ، وكذلك رئيس بلدية الناصرة بمذكرات تأييد لصمود المدينة ، واستنكار الاجراءات الارهابية لسلطات الاحتلال ·

وكانت مدينة نابلس قد شهدت مع المدن والتجمعات الفلسطينية في الضفة الغربية تظاهرات واضرابات ضد النشاط الاستيطاني الاسرائيلي في الضفة الغربية ، واستنكار مقتل احد المواطنين في مدينة جنين على يد قوات الاحتلال ·

وفي السابع عشر من نيسان ، وبمناسبة « يوم السجين » جرت تظاهرات واضرابات في عدد من المدن والقرى استجابة لنداء العناصر الوطنية ، واقام المتظاهرون في نابلس وجنين حواجز من الحجارة على الطرقات ، واشتبكوا مع قوات الاحتلال ·

الاعمال المشينة واقالة قائد الضفة الغربية

اقالت سلطات الاحتلال ، في اوائل شهر ايار الماضي ، العميد دافيد هجوئيل من منصبه كقائد للضفة الغربية ، وعينت مكانه العميد بنيامين بن اليعيزر ، واشفعت الاقالة بتقديم ثلاث ضباط من بينهم حاكم منطقة بيت لحم ومساعده الرائد نسيم كوهين الذي قاد عملية الاعتداء على كلية مدرسة اسكندر خوري في بيت جالا ، للمحاكمة ·

ومن المعروف عن دافيد هجوئيل الذي ذهب ضحية السياسة الاسرائيلية تجاه المناطق المحتلة ، انه اتخذ خطأ متعنتا عقب تسلمه مهام منصبه قبل قرابة عامين ضد رؤساء البلديات والمجالس المحلية وخاصة المؤيدين منهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فقد حاول خلال الفترة الماضية تنمية زعامات منافسة لرؤساء البلديات من بين اوساط رؤساء الغرف التجارية ، ودرج عند زيارته للمدن العربية على التغاضي عن رؤساء بلدياتها في محاولة منه للانتقاص من مكانتهم · ولم يكن ذلك مغايرا للخط السياسي العام الذي اتخذه التجمع العمالي عقب الانتخابات البلدية في الضفة الغربية ، تجاه البلديات ، وسار عليه بعد ذلك الليكود · لقد جاءت اقالة هجوئيل عقب سلسلة من الاعمال الهمجية التي قام بها الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان وفي المناطق العربية المحتلة ، ومن المشكوك فيه ان تتم اقالة هجوئيل لولا تزامن حدوث تلك الاعمال ، وتناقلها في المحافل الدولية · ففي جنوب لبنان قامت وحدات من الجيش الاسرائيلي ، علاوة على هدم قرى باكملها ، بنهب كل ما تقع عليه اليد في تلك القرى ، ولم

تنج حتى قطعان الماعز والابقار مـــن حملة النهب تلك ، وفي الوقت نفسه كانت وحدات الجيش الاسرائيلي تتصـدى بكل شراسة ، وباساليب متعددة ، للانتفاضـة في المناطق المحتلة طوال ايام القتال • وقد كذبت البيانات الرسمية الاسرائيلية فـي بداية الامر حدوث « تجاوزات » فـي جنوب لبنان وفي الضفة الغربية ، الا انها عادت واعترفت بحدوثها في جنوب لبنان، واضطرت للاعتراف بوجودها في الضفـة الغربية عقب تسرب معلومات عنها الـى الصحف العالمية ، ومن بينها التايمـز الاميركية •

وامام هذا الواقع ، وفي محاولة منها لتحسين صورة اسرائيل في الخـارج ، وجدت السلطات الاسرائيليـة نفسهـا مضطرة لاقالة دافيد هجوئيل من منصبه وتقديم عدد من الضباط للمحاكمة ، مرجعة اسباب اقالته الى عدم تقديمه تقاريـر دقيقة حول ما حدث في الضفة الغربيـة وخاصة في مدرسة اسكندر خوري فـي بيت جالا • الامر الذي اثر على مصداقية البيانات الاسرائيلية خاصة بعد تناقـل الصحافة العالمية صورة مغايرة تمامـا للتقارير الاسرائيلية • ومن هنا فـان اقالة هجوئيل تأتي لتحسين سمعة الجيش الاسرائيلي اولا ، وترميم مصداقيـة البيانات الاسرائيلية ثانيا ، ولم تكـن الاعمال الشينة او « التجاوزات » هـي سبب الاستقالة •

وقد ابدى عدد من المعلقين الاسرائيليين تخوفهم من ان تؤدي الاقالة الى عكس ما ترمي اليه ، وتثير تساؤلا حول التهم التي وجهت في السابق ضد تصرفات الجيـش الاسرائيلي ضد السكان العرب والتـي درجت سلطات الاحتلال على تكذيبها •

ومن الجدير بالذكر ان تظاهرة جـرت في القدس تأييدا لدافيد هجوئيل ، قـام بها انصار حركة « كاخ » التي يتزعمهـا الحاخام مئير كهانا ، واصفين الاقالـة بانها تخدم اعداء اسرائيل ، وطعنة فـي ظهر احد كبار ضباط الجيش •

ماذا حدث في مدرسة بيت جالا ؟

في الحادي والعشرين من اذار الماضي، وخلال احتدام المعارك في جنوب لبنان ، ووسط الانتفاضة الشعبية التي عمـت مدن وقرى المناطق المحتلة ، قامت مفرزة من الجيش الاسرائيلي بقيادة الرائـد نسيم كوهين ، مساعد الحاكم العسكـري لمنطقة بيت لحم باقتحام مدرسة اسكنـدر خوري في بيت جالا اثناء تلقي التلاميـذ دروسهم • والقى جنود المفرزة قنابـل الغاز المسيلة للدموع وسط الصفـوف ، الامر الذي دفع التلاميذ للقفز من النوافذ من الطابق الثاني ، وتسبب ذلك بكسـر ارجل سبعة من التلاميذ • وقد حدثـت اعمال مشابهة في مدارس رام الله ، كما وارتكبت قوات الاحتلال فظائع في عـدد من المدن اثناء تصديها للتظاهرات • وما حدث في مدرسة بيت جالا هو بمثابـة نموذج لما حدث في معظم التجمعـات الفلسطينية ، وتناقلته وكالات الانبـاء والصحف العالمية للتدليل على سياسـة القمع التي تنتهجها سلطات الاحتلال ضد السكان العرب • وكان لرئيس بلدية بيـت جالا بشارة داوود الذي تصفه المصـادر الاسرائيلية بانه مقرب مـن م·ت·ف ، وللعناصر الوطنية في المدينة ، الفضـل في نقل صورة ما حدث الى الراي العـام العالمي ، فقد عقد رئيس البلدية مؤتمـرا صحفيا دعا اليه مندوبين عن الصحافـة العالمية ، وابلغهم بحقيقة ما حدث •

وسنقف هنا على شهادات ثلاث ، نقلها الكاتب الاسرائيلي يوسف تسورائيـل (معاريف ٤ـ٥ـ٧٨) عن مدير المدرسـة وطالب وامرأة ، حول الاعتداء الـذي حاولت سلطات الاحتلال طمس اخباره •

قال لويس عبد ربه مدير مدرسة اسكندر خوري في مجال سرده لقصة ما وقع في المدرسة :

« في الحادي والعشرين من اذار ، وفي الساعة التاسعة والنصف صباحا ، كنت اجلس في مكتبي ، والتلاميذ يتلقون دروسهم في الصفوف · وفجأة دخل ساحة المدرسة حوالي ١٥ جنديا ، وامر القائد الذي وقف وسط الساحة كل جندي بالوقوف امام مدخل كل صف · تخوفت من هذا التأهب ، وتوجهت نحو القائد للتحدث اليه ، الا انه رفض التحدث معي ، وامرني بالانصراف من المكان ، واردت الاتصال هاتفيا بالمسؤول عن الجهاز التعليمي في المنطقة ، ولم يسمح لي القيام بذلك » ·

واضاف « عدت الى غرفتي ، وخلال دقيقتين حدث صخب مخيف · لقد اطلقت في الساحة قذيفتا غاز مسيل للدموع · وفي الوقت نفسه القيت قنابل غاز مسيل للدموع داخل الصفوف · وبعد ذلك انصرف الجنود بسرعة من المكان · وعندما شاهدتهم يتركون المدرسة ، سمعت اصوات الاستغاثة الصادرة عن التلاميذ وامتلأت عيناي ورئتي برائحة شديدة · خرجت الى الساحة لكي احاول فهم ما حدث · وما شاهدته عيناي كان امرا فظيعا ، الاولاد يركضون وكأنهم مسممون، يبحثون عن ماء لغسل اعينهم وحناجرهم· كان هنالك سبعة تلاميذ مستلقين في الساحة ، بعد ان قفزوا من الطابق الثاني وتكسرت ارجلهم ، وكان المعلمون حائرين » ·

ـ ويروي التلميذ بسام صرصور البالغ من العمر ١٥ عاما ، والذي حدث له كسر في ساقه ، قصة ما حدث :

« الحقيقة ان الجنود هم الذين القوا بقنابل الغاز المسيل للدموع داخل الغرف· حدث ذلك اثناء درس الرياضيات · كان المعلم واقفا يدرس وسط الصف ، وفجأة فتح الباب · بعد ذلك القيت قنبلتان واغلق الباب · كان المعلم منذهلا ، ولم يقل لنا كيف نتصرف ، ولكن لم يكن من الضروري قول اي شيء · شعرنا باننا نختنق ، قمنا وحاولنا الهرب · وقفزت الى الساحة ، واصبت بجراح » ·

وتروي ام التلميذ بسام قصة ما حدث بالقول :

« عندما شاهدت الاضطراب بالقرب من المدرسة ، اسرعت لنقل ابني الى البيت · اعتقدت ان حريقا قد هب او كارثة قد حلت ·وفي طريقي الى ساحة المدرسة دفعني جندي وضربني على ركبتي · وبعد لحظات شاهدت قريبي مأزن يحمل ابنه على ظهره · ونقلناه الى مستشفى الحسيني ، وهناك شاهدت عددا اخر من التلاميذ الجرحى » ·

النشاط الاستيطاني

تقوم حركة جوش ايمونيم في الوقت الحاضر ، باعمال استيطانية بدون ضجة في مناطق مختلفة من الضفة الغربية بمؤازرة الليكود والهيئات الاستيطانية · وتمكنت هذه الحركة حتى الان من اقامة ١٨ مستوطنة جديدة ، معظمها في عهد الليكود · وهذه المستوطنات هي : (١) معاليه ادوميم (٢) يريحو (٣) جبعون (٤) بيت حورون (٥) مفو حورون «ج» (٦) بيت ايل (٧) عفره (٨) النبي صالح (٩) شيلو (١٠) تبوح (١١) حارس (١٢) بئيريم (١٣) قرني شومرون (١٤) الون موريه (١٥) ترتسه (١٦) سيله الظهر (١٧) شومرون (١٨) دونان ·

ومن الجدير بالذكر ان هذه النقاط الاستيطانية لم تقم كلها داخل معسكرات للجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية ، كما اقرت بذلك حكومة الليكود بعيد

تسلمها مقاليد الحكم ، وانما اقيم العديد منها خارج نطاق المعسكرات ، كما توسع البعض الاخر منها ، وامتد الى خارج المعسكرات ، ورافق ذلك اعمال مصادرة للاراضي من بينها مئة دونم قبل قرابة شهرين في منطقة رام الله ·

بعد ان تمكنت حركة جوش ايمونيم من تثبيت النقاط الاستيطانية في اماكن مختلفة ومختارة في الضفة الغربية ، تركز الحركة الان على امرين : الاول ، مضاعفة عدد المستوطنين في المستوطنات القائمة ، حيث من المقرر اضافة مئة عائلة في كل مستوطنة ، والثاني ، مضاعفة المباني · وتقوم المصانع الاسرائيلية حاليا بانتاج منازل جاهزة تكفي لايواء مئة عائلة في كل مستوطنة · وتنشط الحركة الى جانب ذلك في اقامة مستوطنة مدينية في حارس، حيث تجري اعمال البناء بسرعة ·

وفيما يتعلق بالخطط المستقبلية البعيدة المدى ، كشف السكرتير العام لجوش ايمونيم يوحنان بن بورات في مؤتمر صحفي عقده في تل ابيب (معاريف ٢٤ـ٤ـ٧٨) النقاب عن ان حركته انتهت من اعداد خطة استيطانية في الضفة الغربية ، يصبح بموجبها عدد اليهود المستوطنين بعد ٢٥ عاما مليون مستوطن· وافاد ان حركته اقامت ١٦ مستوطنة في الضفة الغربية خلال ستة شهور فقط · وان الحركة تعتزم في المستقبل القريب الاحتفال بتدشين مستوطنة « قرني شومرون » الواقعة الى الشرق من قلقيلية ·

وكشف النقاب مؤخرا عن وجود هيئة استيطانية قذف بها مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، للعمل الى جانب جوش ايمونيم في استيطان الضفة الغربية تطلق على نفسها اسم « المجتمع الصهيوني السليم » ومتعاطفة مع « التجمع العمالي » المعارض، ويستحوذ على تفكيرها استيطان منطقة القدس عن طريق اقامة ضواح للشريحة المثقفة في مجتمع المهاجرين والمستوطنين · وقد وجهت هذه المجموعة مؤخرا طلبا الى وزير الزراعة ورئيس اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان اريك شارون تدعوه فيه للسماح لها باقامة اربعة نقاط استيطانية حول مدينة القدس ، وذلك لاستيعاب الفنانين والادباء (المصدر السابق) ·

وفيما يتعلق بنشاط الحكومة الاستيطاني فانه يتمثل في تنفيذ المشروعات الاستيطانية لجوش ايمونيم في الضفة الغربية · وقد وجدت حكومة الليكود في حركة جوش ايمونيم ، غير الرسمية ، ضالتها ، خاصة في مرحلة المفاوضات حول السلام التي تتطلب من الجهات الرسمية وقف الاستيطان « الرسمي » او تجميده لاضفاء صفة « الاعتدال » على الطرف الاسرائيلي المفاوض · وامام هذا المأزق ، ارتأت الحكومة ان حركة الجوش يمكن لها ان تمنحها الاستيطان الذي تريده دون ان تكون هي المسؤولة عن الاستيطان ! وابتدعت سياسة استيطانية جديدة : الاستيطان داخل المعسكرات واعتبار المستوطنين جنودا يقومون « بمهمات للجيش الاسرائيلي » · وقد اصبح من الواضح ان معظم المستوطنات اقيمت خارج المعسكرات ومدعومة بالاساس من الحكومة التي تقوم في الوقت الحاضر بتوسيعها ·

ومن الجدير بالذكر ان الحكومة الائتلافية بزعامة الليكود كانت قبل انضمام الحركة الديمقراطية للتغيير ــ التي اشترطت دخولها الائتلاف الحكومي بعدم اقامة مستوطنات اضافية ــ للحكومة اتخذت قرارا في الثالث والعشرين من تشرين الاول الماضي باقامة عشر مستوطنات جديدة في الضفة الغربية هي :

بيزك ، دوتان ، ترتسه ، تبوح ، سيلة الظهر ، شيلو ادورايم ، دوتان «ب» ، معاليه حورون ٠

وبقي هذا القرار طي الكتمان ، وازالت الستار عنه صحيفة عل همشمار (٣٠ـ٤ ـ٧٨) ٠ وقد رمت الحكومة من ورائه التحايل على الشرط الذي وضعته الحركة الديمقراطية للتغيير لدخول حكومة الائتلاف ، بحجة ان قرار اقامة المستوطنات قد اتخذ قبل دخول الحركة الحكومة ٠ بيد ان هذا القرار السري الذي اميط اللثام عنه مؤخرا يكشف مدى الترابط القائم بين المشروعات الاستيطانية للجهات الرسمية والجهات غير الرسمية ٠

الى جانب ذلك استكملت سلطات الاحتلال مؤخرا بواسطة الكيرن كييمت شق طريق بين البحر الميت والقدس على امتداد ٤٠ كم في جبال الخليل ٠

وفيما يتعلق بالنشاط الاستيطاني في سيناء ، وخاصة منطقة شرم الشيخ حيث ينعدم نشاط جوش ايمونيم هناك ، تقوم السلطات الرسمية لوحدها بالنشاط في المنطقة ٠ وقد قام خلال الجزء الاول من نيسان الماضي اعضاء لجان المالية والاقتصاد والعمل والرخاء التابعة للكنيست بجولة في المستوطنات الواقعة بين شرم الشيخ وايلات ، للوقوف عن كثب حول تطويرها ٠ وكان رئيس الحكومة مناحيم بيجن قد دعا الى الاستمرار في تطويرها على الرغم من مفاوضات السلام الجارية بين مصر واسرائيل ٠

وتسير اعمال التطوير هناك باشكال عدة من بينها :

١ ـ استكمال شق طريق بين شاطىء سيناء وحتى دير سانتا كاترينا على امتداد ٨٧ كلم ٠

٢ ـ اقامة فندق بالقرب من مطار جبل سيناء بلغت تكاليفه ٨ مليون ليرة ٠

٣ ـ مضاعفة عدد المباني في المستوطنات القائمة ، ففي مستوطنة اوفيرا المدينية ، والتي تحتوي على ٣٠٠ وحدة سكنية مأهولة ، يجري العمل لاقامة ٢٠٠ وحدة سكنية ، كما وتقرر اقامة ١٠٠ وحدة سكنية اخرى ٠ وفي مستوطنتي نفيعوت ودي زهاف يجري العمل لاقامة ٥٠ وحدة سكنية في كل منهما ٠ ويوجد في مستوطنة نفيعوت لوحدها ١٢٠٠ مستوطن ، ويطالب هؤلاء بالتوسع في اقامة المباني ، ويدعون لاقامة ٥٠٠ وحدة سكنية اخرى ٠

صفقات استملاك الاراضي في الضفة الغربية

الى جانب اقامة النقاط الاستيطانية الجديدة في الضفة الغربية بهدف تكريس الاحتلال وتهويدها ،تنشط سلطات الاحتلال في مجال مصادرة الاراضي واستملاكها بطرق عدة ، وقطعت في هذا الميدان شوطا بعيدا ، فقد كشف التقرير السنوي لعام ١٩٧٦ـ١٩٧٧ الصادر عن ادارة اراضي اسرائيل ، النقاب عن ان الادارة استكملت خلال العام الماضي في الضفة الغربية ٦٣١٧٦ دونما ، بلغت تكاليفها حوالي ٢٨ مليون ليرة ٠

وجاء في التقرير ان الادارة قامت بتحديد قطعة ارض تبلغ مساحتها ٢٠٠٠ دونم في « مفوحورون » في قضاء رام الله بغرض اقامة مستوطنة مدينية هناك ، وقامت بتحديد قطعة ارض اخرى مساحتها ٢٥٠٠ دونم في نفس المنطقة ، وحددت منطقة مساحتها ٢٧٦٨ دونما في « معاليه افرايم » ، وفعلت نفس الشيء بالنسبة لاراضي في منطقتي طولكرم وجنين (انظر يديعوت احرونوت ١٩ـ٤ـ٧٨) ٠

ومن ناحية ثانية كشفت نفس الصحيفة النقاب ، عن وجود خطة سرية تتدارسها الحكومة ، بخصوص شراء الاراضي واستملاكها في الضفة الغربية ٠ وافادت ان « مباحثات سرية بهذا الخصوص قد جرت بين وزارة المالية ووزارة الزراعة » لاقامة شركة حكومية تناط بها مهمة استملاك الاراضي في الضفة ٠

عبد الحفيظ محارب

اســـرائيليـــات

زيارة بيغن لواشنطن بين التفاؤل والحقيقة

قام كل من مناحيم بيغن رئيس الـوزراء الاسرائيلي ووزير خارجيتـه موشـي دايان ، في نهاية شهر نيسان وبداية شهر ايار بزيارة للولايات المتحدة بقصد تغيير الجو الذي طغى على العلاقـات الاميركية ـ الاسرائيلية خلال زيارة بيغن الاخيرة لواشنطن · ومع ان هذه الزيارة ليست رسمية ، اذ سافر بيغن الى اميركا بحجة المشاركة في الاحتفالات التي تقيمها الجالية اليهودية هناك بمناسبة مـرور ثلاثين عاما على قيام الدولة اليهودية ، فقد جاءت هذه الزيارة متعمدة للتخفيف من حدة التوتر الذي ساد العلاقـات الاسرائيلية مع اميركا مؤخرا · وقـد سبق دايان بيغن الى واشنطن للتمهيد للزيارة ، بعد ان استطاعت الحكومـة الاسرائيلية التوصل الى اتفاق يجعل من الممكن فك الجمود في المفاوضات حـول الشرق الاوسط · وهذا الاتفاق هو بمثابة محاولة جديدة تقـوم بهـا الحكومـة الاسرائيلية لفك عزلتها بعد ان واجهـت حملة عنيفة من الانتقادات الخارجيـة والداخلية ·

المخرج الاسرائيلي

عندما شعرت الحكومة الاسرائيليـة بحراجة الموقف بسبب فشـل المحادثات الاخيرة مع واشنطن وازدياد حركـة الاحتجاج الداخلية في اسرائيل ومشاركة العديد من الشخصيات اليهودية الاميركية في ذلك ، اخذت تبحث عن وسيلة الخروج من هذا المأزق · وقد وجدت ذلك فـي التلويح للولايات المتحدة بان تغيرا ما قـد حدث في السياسة الاسرائيلية · وكـان دايان قد عقد ، قبل زيارتـه الاخيـرة لواشنطن ، مناظرة تلفزيونية مع وزيـر الخارجية الاسرائيلية الاسبـق ، ابـا ايبان ، ذكر فيها بان قرار مجلس الامـن ٢٤٢ يسري على كافة الجبهات ، الامر الذي كانت ترفضه حكومة بيغن حتـى الان · وقال دايان في تلك المناظـرة : « ان حكومة اسرائيل مستعدة للتفاوض حول حل اقليمي وسط مع الاردن ، اذا ما ارادت هذه الدولة ذلـك » (يديعوت احرونوت ، ٢٤ـ٤ـ١٩٧٨) ·

ويمكن ان نستنتج من اقوال دايان هذه بان اسرائيل قد وافقت على التفاوض مـع الاميركيين حول هذا الموضوع ، بعـد ان عبر اولئك عن موافقتهم على بقاء الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطـاع غزة ، بعد فتـرة السنـوات الخمس الانتقالية ، وذلك لفترة غير محـددة · ويبدو ان هذا التطور هو الذي قرب بيـن مواقف الطرفين ، بحيث لا توجد الان بين مواقفهما فجوة لا يمكن تخطيها (المصدر نفسه) ·

ومن جهة ثانية ، قدمت الحكومـة الاسرائيلية ، على لسان وزير خارجيتها ، اقتراحا جديدا بهدف تحريك المفاوضـات ولكسب المزيد من الوقت · فقد اقتـرح دايان خلال محادثاته مـع مسؤولـي الادارة الاميركية ، وذلك عشية لقاء كارتر ـ بيغن ، التخلي عن فكرة «اعلان المبادىء» والبدء بمفاوضات مع مصر حول مستقبل الضفة الغربية ، الامر الذي رفضـت اسرائيل ايضا القيام به حتـى الان · وكذلك اعطت اسرائيل دورا رئيسيا فـي

المفاوضات لواشنطن بعد ان كانت ترفض ذلك ، بطلبها من الادارة الاميركية ان تترك الاطـــراف فـــي الشرق الاوسط تتفاوض وحدها دون اي تدخل · ولكن بعد ان لمست الحكومة الاسرائيلية ان ذلك لن يتـــم ، اتخذت موقفا جديدا ، فأعلن دايان « بان للولايات المتحدة وظيفة رئيسية وبدونهـــا لا يمكن التوصل الى اتفاق » (هآرتس ، ٣٠ــ٤ــ١٩٧٨) ·

وقبل سفر وزير الخارجية الى واشنطن جابه الحكومة الاسرائيلية السؤال : ماذا سيحمل معه الى هناك ؟ وقـــد وجـــدت الحكومة الجواب في ان اسرائيل توافـق على سريان القرار ٢٤٢ على كافة الدول بما فيها الاردن ، واما بالنسبة لموضـــوع المستوطنات ، اذا ما اثير ، فان باستطاعة دايان ان يوضح للاميركيين انه لن تقـام مستوطنات جديدة في سيناء (دون اعطاء تعهد رسمي مماثل بالنسبـــة للضفـــة الغربية) · ولكن هذا العرض ، بحسب رأي الاسرائيليين ، ليس « بضاعـــة » يمكن بواسطتها الاسراع في المفاوضـــات مع مصر ، لان اسرائيل لا « تعطـــي » شيئا للسادات في الضفة من اجل تشجيعه للدخول في المفاوضات ، وتمكينه مـــن ان يعرض مكاسب تتعلق بالغرب جميعهـم ، وليس بمصر وحدها · وهكذا ظهرت فكرة دايان بشأن التنازل عن اعلان المبـادىء والذهاب فورا للمفاوضات الموضوعيـــة (معاريف ، ٥ــ٥ــ١٩٧٨) ·

الموقف الاسرائيلي والتغير في السياســة الاميركية

يبدو واضحا من كافـــة التعليقـــات والتصريحات الاسرائيليـــة الرسميـــة والصحفية ، انه لم يطرأ اي تبدل فـــي الموقف الاسرائيلي من القضايا الرئيسيـة وخاصة فيما يتعلق بالضفة الغربيـــــة وقطاع غزة ، وان التبدل الاخر في ذلـــك الموقف انما هو لكسب الوقت فقط ، وعـدم الظهور بمظهر المعطل للوصـــول الـــى تسوية · وعلى الرغم من قول دايـــان ان القرار ٢٤٢ يسري على كافة الجبهـــات ، فقد نفى بيغن ذلك نفيـا قاطعـا وكـــرر الموقف الرسمي والاستراتيجي للحكومـة ، عندما صرح امام حشد من اليهود فـــي مدينة شيكاغو قائلا : « ان اسرائيـــل لا تنوي الانسحاب من الضفة الغربيـة ، لان جيلنا لا يستطيع ان يفعل ذلك ، وانه لـن يفعل ذلك » (يديعوت احرونوت ، ٤ــ٥ــ ١٩٧٨) ·

وقد أشار بعض المعلقين الاسرائيليـــين الذين رافقوا بيغن خلال زيارته الـــى ان الشعور الذي يسود الاوساط الاميركية هو ان بيغن لا يريد الانسحاب من الضفـــة الغربية ، وان زيارة دايان لواشنطن وكذلك زيارة فايتسمن للقاهرة انما هي منـاورات مخصصة لكسب الوقت ، حيـــث ستبدأ المنافسة على انتخابات الكونغرس خـلال شهرين او ثلاثة · وذكر يوئيل ماركـوس، احد المعلقين الاسرائيليين ان بيغن قـــد اخبره وهو في الطائرة (وذلك خلافـــا للانطباع الذي اعطاه دايان) انـــه « لا يوجد موقف جديد ، نحن لـــم نغيـــر مواقفنا » · واشار بيغن ايضا الـــى انه لن يسمح بان تتحول الضفة الغربية الـى قاعدة يمكن الوثوب منها على اسرائيل ، «وانه لن يقترح اي خيار على الفلسطينيين بشأن الاستقلال ، سواء كان ذلك مـــع الاردن او بدونه » (هآرتســـس ، ٣ــ٥ــ ١٩٧٨) · ويبدو ان الخطة الاسرائيليـة القادمة ، وكذلك المسار السياسي للحكومة الاسرائيلية ، سيعتمد خلال الفترة المقبلة على ايجاد مخرج ينقذها من المواجهـــة مع الولايات المتحدة حول مسألة الضفـة الغربية ، وينقذ ماء وجه السادات تجـــاه العالم العربي ــ وذلك بواسطة قيـــام اسرائيل بدراسة مشروع يبقـــي الضفة الغربيـــة عمليـــا تحت حكم اسرائيـل

وسيطرتها ، بينما يوهم لعرب بان اسرائيل ستمنح الفلسطينيين حق تقرير المصير في المستقبل ، اي سيحدث بالضبط ما حدث مع القرار ٢٤٢ ، بحيث يبقى الموقف مطاطا وغامضا ، فتفسره الحكومة الاسرائيلية كما تريد ، والسادات كما يشاء (معاريف ، ٥ـ٥ـ١٩٧٨) ٠

هناك دلائل كثيرة تشير الى ان زيارة بيغن الاخيرة قد حققت بعض الانجازات والمكاسب ، وذلك خلافا لما حدث خلال زيارته لواشنطن في شهر اذار الماضي ٠ فقد اشار بيغن الى ان محادثاته مع الرئيس كارتر ومع وزير الخارجية فانس، قد جرت في جو من الصداقة ، خلافا لجو الازمة الذي سيطر على محادثات اذار ٠ ويرى بيغن انه حقق انجازا كبيرا خلال هذه المحادثات خلافا لما جرى في محادثات حزيران من العام الماضي ، فقد « اختفت » ، حسب قولة م٠ت٠ف والدولة الفلسطينية من المواقف الاميركية ٠ كما ان المحادثات تجري الان على اساس المشروع الاسرائيلي للحكم الذاتي في الضفة ٠ وقد وافق الاميركيون على ان تقدم اسرائيل اقتراحا بديلا للاستفتاء العام على شرط ان يضمن الاشتراك الشعبي الواسع للعرب الفلسطينيين في رسم مستقبل الضفة (دافار ، ٣ـ٥ـ١٩٧٨) ٠ وقد لخص بيغن المكاسب السياسية التي تحققت خلال الزيارة الاخيرة ، والتي وصفها « بانها مكاسب من الدرجة الاولى » بما يلي :

- لم تعد م٠ت٠ف٠ تشكل طرفا في المنطقة ، بالنسبة للمواقف الاميركية ـ الاسرائيلية ٠
- ثم استبعاد قيام دولة فلسطينية من الحسبان ٠
- الموافقة على التواجد العسكري الاسرائيلي في الضفة الغربية ٠
- استبعاد فكرة الاستفتاء العام (يديعوت احرونوت ، ٢ـ٥ـ١٩٧٨) ٠

وتشير كافة الدلائل والتصريحات الى انه حدث تراجع في الموقف الاميركي بالنسبة لموضوع الضفة الغربية والمسالة الفلسطينية ، فقد اوضح الرئيس كارتر لرئيس الحكومة بيغن بان الولايات المتحدة ترفض اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، كما ابدت استعدادا للتنازل عن طلبها باجراء استفتاء عام في الضفة وغزة ، بعد مرور خمس سنوات على تطبيق مشروع الحكم الذاتي ٠ ولكن لم يتم الاتفاق بينها وبين اسرائيل حول أية وسيلة اخرى يمكن بواسطتها منح الفلسطينيين امكانية التأثير على مستقبلهم السياسي ، كما اتضح من التقارير التي بعث بها موشيه دايان الى القدس (هارتس ٣٠ـ٤ـ١٩٧٨) ٠ وهناك من يشير الى انه خلافا للانطباع الذي ساد لدى الجمهور فقد حدث تحرك كبير في مواقف الرئيس كارتر في موضوعين جوهريين : الموافقة على تواجد الجيش الاسرائيلي في نقاط استراتيجية في الضفة بعد فترة الخمس سنوات ، وفي الاستعداد لاختبار ضمانات والتوقيع على اتفاقية امنية بين اسرائيل والولايات المتحدة كجزء من اتفاقية الانسحاب (دافار ٢٦ـ٤ـ١٩٧٨) ٠

ومن جهتها قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل عدة اسئلة تتعلق بالحل الاسرائيلي المقترح بالنسبة للضفة الغربية ووضع الفلسطينيين ، وسيتطلب من الحكومة الاسرائيلية الرد عليها ٠ وقد أشار دايان الى انه ينبغي على الحكومة الاسرائيلية اتخاذ قرار بالنسبة للحلول العملية في سيناء وفي قطاع غزة والضفة الغربية التي ستوافق عليها في حال استجابة مصر للاقتراح الذي قدمته اسرائيل بشأن التخلي عن « اعلان المبادىء » والبحث في صلب القضايا الجوهرية ٠ ويقول دايان ، انه اذا ما وافقت مصر على هذا الاقتراح ، فان

اسرائيل مستعدة للتفاوض معها حول الحلول في سيناء وكذلك حول الوضع الذي سيسود الضفة بعد مرور السنوات الخمس الواردة بحسب مشروع الحكم الذاتي ٠ فبالنسبة للوضع في سيناء ، يشير دايان الى ان المحادثات ستتطرق الى الترتيبات الامنية ، وجود مناطق مجردة، مستقبل المستوطنات الاسرائيلية الخ ٠ واما المفاوضات بالنسبة للضفة والقطاع فستتطرق الى المسائل التالية : استمرار تواجد الجيش الاسرائيلي ، التنقل الحر للاسرائيليين في هذه المناطق ، مستقبل المستوطنات الاسرائيلية ، علاقات اليهود والعرب في هذه المناطق ، شروط هجرة الفلسطينيين اليها ، مسائل تصريف المنتوجات الزراعية من هذه المناطق الى اسرائيل ، تنقل القوى العاملة من الضفة وغزة الى اسرائيل وغيرها ٠ (هآرتس ٥ـ٥ـ١٩٧٨) ٠ وتتركز الاسئلة الاميركية التي طرحت على كل من بيغن ودايان ، حول مدى الانسحاب الاسرائيلي وشكله من الضفة ، المكانة التي ستمنح للفلسطينيين في المحادثات حول تحديد مستقبلهم ، شكل الحل السياسي للمشكلة الفلسطينية ، مستقبل المستوطنات الاسرائيلية في الضفة ، حجم وشكل التواجد العسكري الاسرائيلي فيها (المصدر نفسه ٣ـ٥ـ١٩٧٨) ٠ وأشار البعض الى الاسئلة العملية التي اثارها الاميركيون خلال محادثتهم مع دايان ، والتي تشير الى الاتجاه الذي تسعى اليه واشنطن ، فهناك من يقول ان واشنطن تسعى « لتحسين » مشروع الحكم الذاتي الاسرائيلي ، حتى يمكن اعتباره تجسيدا لفكرة « الكيان » الفلسطيني او شيئا قريبا منه ٠

فقد سئل فانس وزير الخارجية الاميركي ، دايان هل ستوافق اسرائيل على « الحكم الذاتي » بدلا مما ورد في مشروع الحكم الذاتي حول منح سكان الضفة والقطاع « سلطة ذاتية » ٠ وسأل ايضا من سيكون مسؤولا عن الشرطة ؟ ولكن الاميركيين يعتقدون خلافا لما ورد في المشروع الاسرائيلي ، حول تولي اسرائيل للامن والنظام في الضفة والقطاع ، ان وجود شرطة محلية مستقلة، يمكن ان يعطي دليلا خارجيا والى حد ما جوهريا ، للحكم الذاتي ٠ كما سئل فانس حول توزيع الصلاحيات بين المجلس الاداري للحكم الذاتي وبين السلطات الاسرائيلية ، لدى الغاء ادارة الحكم العسكري (معاريف ٥ـ٥ـ١٩٧٨) ٠

نقاط الخلاف

بات من الواضح ان اهم المشاكل التي تثير الخلاف بين وجهتي النظر الاميركية والاسرائيلية ، هي ماذا سيحدث في الضفة الغربية وغزة في نهاية السنوات الخمس من الحكم الذاتي الاداري طبقا لمشروع بيغن ٠

ففي حين تصر الادارة الاميركية على تلقي جواب اسرائيل منذ الان فان الموقف الاسرائيلي الرسمي لا يعتقد بضرورة تقديم الرد بسرعة ، فالرد يمكن ان يكون بعد خمس سنوات ٠ ويجب ان تبقى الفرصة مفتوحة طوال هذه المدة ٠ ويدور التساؤل داخل الاوساط الاسرائيلية ، عن السبب الذي يدفعها لاعتبار السنوات الخمس فترة زمنية تكون فيها انظار عرب الضفة الغربية متوجهة لهدف واحد ، حيث يدركون سلفا انهم في مرحلة مؤقتة وبالتالي فان الحكم الاداري في هذه الحالة سيكون مصيره الفشل ٠ وكذلك فان المطالبة بتحديد الذي سيحدث بعد خمس سنوات منذ الان، سيكون نصيبها الفشل أيضا ٠ وتذكر المصادر الاسرائيلية ، ان تلك كانت اجوبة كل من دايان وبيغن على اسئلة الاميركيين في واشنطن ٠ الا ان الاميركيين أصروا على تسلم جواب

واضح الان ، وابلغوا المسؤولين الاسرائيليين بأنه يجب تقرير ما الذي سيحدث بعد خمس سنوات والا فلا امل في التقدم في المفاوضات . كما أن الموقف الاميركي من مسألة الحكم الذاتي الاداري يختلف عن الموقف الاسرائيلي ، حيث يرى الاميركيون نقاطا مشجعة فيه وأخرى غير مشجعة ، وان هناك جدلا مبدئيا يدور حول النقاط التالية بين واشنطن وتل ابيب :

● متى يجب اتخاذ قرار بشأن منطقة الحكم الذاتي ؟ اليوم او بعد خمس سنوات .

● ما هو طابع الحكم الذاتي قبل السنوات الخمس ؟

● هل سيسمح بانتقال اللاجئين من لبنان الى المنطقة ؟

● ما هو العدد الذي سيسمح به ؟

● كيف ستكون الحياة بين الحكم الذاتي واسرائيل في ظل الحدود المفتوحة وامكانيات تشغيل عشرات الاف العرب في اسرائيل وربما الاقامة فيها ؟

● ماذا سيكون مصير المستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية ؟

● ماذا سيكون مصير الوجود العسكري ! متحركا او محددا ؟

● كيف سيكون بمقدور الجيش الاسرائيلي مراقبة الحدود بفعالية (راا ١٢ـ٥ـ١٩٧٨) .

ويمكن تلخيص الوضع السياسي ، بالقول ان اسرائيل لا تزال تنتظر الجواب المصري على مقترحاتها ، والتي اشارت بعض الدوائر الى ان هناك موافقة مصرية حول ذلك ، لانه كما قال وزير الدفاع الاسرائيلي ، فان السادات ، كان قد قدم له هذا الاقتراح ، خلال محادثتهما الاخيرة في القاهرة . في حين تنتظر واشنطن الحصول على اجوبة من اسرائيل حول الاسئلة التي طرحتها عليها واهمها ، البديل الاسرائيلي للاستفتاء العام الذي ارادت بواسطته كل من مصر والولايات المتحدة الى اشراك الفلسطينيين سكان الضفة وغزة في تحديد مستقبلهم (هآرتس ٥ـ٥ـ١٩٧٨) .

هل تغير الموقف الاميركي

هناك من يقول على ان الموقف الاميركي قد تغير بالنسبة للتسوية في الشرق الاوسط وخاصة فيما يتعلق بمسألة الضفة الغربية وقطاع غزة ، ويقف على رأس هؤلاء رئيس الحكومة بيغن ووزير خارجيته دايان ، وذلك في اعقاب التفاؤل الذي ساد جو العلاقات خلال المحادثات الاخيرة .

يقول بيغن « انه لم يحدث تغيير في موقفه هو ، وانما الذي حدث انهم اصبحوا يفهمونه ويفهمون مشروعه بصورة اكبر الان في واشنطن » ، واما دايان فيقول ، « بان الولايات المتحدة تبدي الان استعدادا للبحث عن طرق جديدة لحل النزاع في الشرق الاوسط بعد أن تأكد لها ، ان المحاولات التي قامت بها حتى الان والاساليب التي اتبعتها لم تعط نتائج ملموسة » . (معاريف ٥ـ٥ـ١٩٧٨) .

وهناك من يرى ان الادارة الاميركية قد توصلت الى استنتاج وهو ان موقف المواجهة لا يعطي ثمارا اكثر ، لانه قد حقق ما اراده الاميركيون . ففي اسرائيل ولدى الجاليات اليهودية في اميركا وفي الكونغرس ، بدأ الكثير من الشخصيات في ابداء الشك بالنسبة للمواقف الاسرائيلية : فقد تركت حركة « السلام الان » أثرها ، كما ان العديد من الشخصيات اليهودية المهمة ورجال الفكر اليهود في امريكا قد نشروا رسالة تأييد لحركة « السلام الان » ، وان الكونغرس قد ابدى موقفا مؤيدا لاسرائيل ولكنه اكثر اعتدالا من الماضي ، ومن هنا تعتبر الادارة الاميركية انها حققت كل ما

ارادته ، وانه حان الوقت للتوقف عن المجابهة والجدل مع بيغن ، وابداء الرغبة في التعاون بهدف ايجاد وسيلة للخروج من الجمود في المفاوضات (عيدو ديسنتسك ، معاريف ٥ـ٥ـ١٩٧٨) · ويرى البعض ان التغير الذي حدث على الموقف الاميركي يشير الى « نهاية فترة بيرجنسكي » ، وهي فترة توجيه الضغوط على اسرائيل من اجل كسر معارضتها للقيام بتنازلات تعرض أمنها للخطر · وهناك من يشير الى ان الاسباب التي دعت الى التغير في السياسة الاميركية يعود الى ان زيارة بيغن ستتم خلال مناقشة مسألة صفقة الطائرات الثلاثية ولهذا ارادت الادارة الاميركية ابداء بادرة طيبة بالنسبة لزيارته ، ومن هنا كان الاستقبال الحافل الذي اعد لبيغن في البيت الابيض، كما ان البيت الابيض خشي من احتمال توجه بيغن الى الرأي العام الاميركي ومهاجمته للادارة الاميركية ، لذلك كان لا بد من « تحرك » ما في السياسة الاميركية (هآرتس ٨ـ٥ـ٧٨) ·

وهناك رأي اخر معاكس يقول بانه لم يحدث اي تغير في الموقف الاميركي او السياسة الاميركية · وانتقد اصحاب هذا الرأي التفاؤل الذي عبر عنه بيغن خلال زيارته لواشنطن ، فقد وصفت بعض الجهات ان هذا التفاؤل « ليس في محله»، واجمعت كافة التعليقات من اصحاب هذا الرأي على القول ، انه ليست هذه هي المرة الاولى التي يعبر فيها بيغن عن تفاؤله الكبير ، الذي سرعان ما يبدو مناقضا للحقيقة · فقد حدث ذلك ثلاث مرات كما ذكرت بعض المصادر الاسرائيلية ، المرة الاولى : خلال زيارته لواشنطن في الصيف الماضية ، والثانية : في لقائه التاريخي في الاسماعيلية ، والثالثة : خلال زيارته الاخيرة لواشنطن · وينتقد البعض قول بيغن ان الفرق بين زيارته السابقة والحالية كالفرق بين الليل والنهار وكذلك قوله ان اليهود والمسيحيين يؤيدون المسألة الاسرائيلية · فقد علق يوئيل ماركوس على ذلك بقوله : « اذا كان بيغن يقصد المسيحيين الموجودين في البيت الابيض ووزارة الخارجية ، فانه مخطىء مرة اخرى · حيث انه لم يحدث اي تغيير حقيقي على مواقف الادارة · وانه لا توجد اية دلائل جدية للتحول ··· وان الاستقبال الحافل في البيت الابيض كان عملية مدروسة » (هآرتس ٨ـ٥ـ١٩٧٨) ·

وعلقت صحيفة دافار في افتتاحيتها (٣ـ٥ـ١٩٧٨) حول الموضوع بقولها : « ان تأييد الولايات المتحدة لاسرائيل لا يعني تأييدها لكل المواقف الاسرائيلية · لا توجد دائما وحدة في الاراء ولا تماثل في المصالح ··· ويوجد في الوضع الحالي خلاف في الاراء بين ادارة واشنطن والحكومة الاسرائيلية بالنسبة لعدة قضايا رئيسية فيما يتعلق بالمفاوضات مع مصر · اما بالنسبة للقضايا العملية التي تقف على المحك ، والتي يمكن ان تقرر شبكة العلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة في المستقبل القريب ، فانه لا يوجد اي سبب يدفع رئيس الحكومة الى التفاؤل ، الا اذا قرر خلال الايام الاخيرة تغيير مواقفه ··· وأنه لمن الافضل الا نخدع انفسنا ، بان تفاؤل رئيس الحكومة مرتكز على تقارب في المواقف بين الدولتين » وتطرق معلق اخر الى نفس الموضوع ، وهو شموئيل سيغف فلخص الموقف بقوله : « ان الولايات المتحدة لم تتراجع عن افكارها التي تدعو الى انه في اطار التسوية الشاملة ، سيتطلب من اسرائيل الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة ، بعد اجراء تعديلات طفيفة على الحدود · وان الولايات المتحدة لم تتخل عن وجهة نظرها التي تقضي باقامة « وطن » للفلسطينيين في الضفة الغربية ، بحيث سيكون مرتبطا مع الاردن » · (معاريف ٤ـ٥ـ١٩٧٨) ·

حمدان بدر

قضايا عسكرية

دعوة اسرائيلية لخفض تسلح مصر عن طرف واحد

نشرت مجلة « نيوزويك » الاميركية ، في عددها الصادر في ١ـ٥ـ٧٨ ، حديثا للجنرال « موردخاي غور » ، عقب احالته على التقاعد . في ١٥ـ٤ـ٧٨ ، قال فيه ، ردا على سؤال لمراسل المجلة « ميلان كوبيك » عما اذا كان مرتاحا لعرض اسرائيل اعادة سيناء لمصر ، « انني اعتقد اننا يمكن ان نتخلى عن سيناء كلها ـ باستثناء مطاراتها ـ وذلك سيساعد اسرائيل ومصر على التوصل الى اتفاق سلام حقيقي · والمطارات في ذاتها تعتبر هامة بالنسبة لنا طالما ان العرب ونحن نحتفظ بقوات مسلحة كبيرة على نحو شاذ · واني مقتنع بان تخفيض التسلح في الشرق الاوسط يعد امرا ضروريا واقعيا ، وانه يمكن القبول به من كلا الطرفين · ولكن على المصريين ان يقوموا بالخطوة الاولى · فانهم يستطيعون ، مثلا ، وضع بعض فرقهم العاملة في الاحتياطي ، أو ان يخفضوا قوتهم الجوية من ٦٠٠ الى ٤٠٠ طائرة · ولسوء الحظ ، فاننا يجب علينا الاحتفاظ بقوتنا لاننا نواجه ايضا الجبهة الشرقية، التي تضم سوريا ، والعراق والاردن ، والتي تحمل امكانية الحرب بصورة مضاعفة عن الجبهة المصرية · ولكنني آمل ان يتوصل المصريون الى فهم ذلك ، وان تتوفر لديهم الشجاعة لكسر الحلقة المفرغة · وانني اعتقد ، ان بقية العرب ، سوف يحتذون بعد ذلك حذو « القاهرة » » !

ويثير حديث الجنرال « غور » هذا عدة قضايا بالغة الاهمية ، من الناحيتين الاستراتيجية والعسكرية ، في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، نتناولها بالبحث والتعليق الموجز في النقاط التالية :

١ ـ يقول « غور » ان اسرائيل مستعدة للتخلي عن سيناء كلها لمصر ، لان ذلك سيساعد على التوصل لسلام حقيقي بينها وبين اسرائيل ، ولكنه يستثني المطارات الاسرائيلية الموجودة فيها ، نظرا لاهميتها العسكرية والاستراتيجية بالنسبة لاسرائيل ، في ظل الاوضاع القائمة حاليا بين العرب واسرائيل ، من حيث حجم القوات المسلحة لديهما ، وعدم التوصل بعد لاتفاقات خفض متبادل للتسلح بين الطرفين · والمطارات التي يقصدها « غور » هي مطار « ايتام » القريب من « رفح » في شمال سيناء ، ومطار « اوفيرا » القريب من « شرم الشيخ » عند مدخل خليج العقبة في الطرف الجنوبي لسيناء ، ومطار « عتسيون » القريب من قلعة « طابا » في الاراضي المصرية القريبة من « ايلات » في الطرف الشمالي من خليج العقبة ·

ويشكل مطار « ايتام » جزءا من منطقة المستوطنات الاسرائيلية المقامة قرب «رفح» ، والتي تريد اسرائيل الاحتفاظ بها الى الابد ، ودون ان تجد في ذلك تعارضا مع السيادة القانونية المصرية على سيناء ، وذلك ضمن خطتها الاستراتيجية العامة في اقامة حاجز بشري بين مصر وقطاع غزة ، بهدف السيطرة على طريق الاقتراب الرئيسي نحو الارض المحتلة في فلسطين ، في حالة خرق مصر مستقبلا ، وبعد عقد اتفاق السلام الدائم المفترض ، لشرط بقاء قواتها المسلحة المتقدمة عند ممرات سيناء المعروفة « رمانة » و « جفجافة » و « الجدي » و « متلا » ، الذي سيتضمنه الاتفاق المذكور · ومن ثم

فانه سيكون بمثابة قاعدة جوية متقدمة تسمح بسرعة التدخل الجوي الفعال ضد القوات المصرية ، التي قد تزحف على كلا المحورين الشمالي ، وهو محور « القنطرة ـ رمانة ـ العريش ـ رفح » ، والاوسط كذلك ، وهو محور « الاسماعيلية ـ جفجافة ـ ابو عجيلة » ٠ بل ان الطائرات المتمركزة فيه ، ذات المدى البعيد نسبيا ، مثل « الفانتوم » ، تستطيع التدخل منه ضد التحركات المصرية المحتملة على المحور الجنوبي ،سواء عبر ممر « جدي » نحو « بير تمادة » ثم بير الحسنة ، او سواء عبر ممر « متلا » نحو « نخل » ثم « التمد » و « الكونتلا » او « القسيمة » ٠ اما مطار « اوفيرا » المقام عند « رأس نصراني » قرب « شرم الشيخ » ، فيمكن للطائرات الاسرائيلية المتمركزة فيه ان تتحكم في مدخل كل من خليجي « العقبة » و « السويس » ، ومباشرة التدخل السريع الفعال ضد اي تحركات مصرية ، برية او بحرية ، نحو « شرم الشيخ » او نحو ابار النفط التي تنوي اسرائيل الاحتفاظ بها في جنوب سيناء وخليج السويس حتى عند التسوية النهائية (كما صرح بذلك وزير الطاقة الاسرائيلي في ٥ـ٤ـ٧٨) (١) ٠ وذلك فضلا عن ان الطائرات بعيدة المدى مثل « ف ـ ١٥ » تستطيع تأمين الملاحة الاسرائيلية في البحر الاحمر ، حتى مدخله الجنوبي عند مضيق « باب المندب » ، بسهولة اكبر بكثير مما لو انطلقت من مطارات في جنوب صحراء النقب قرب « ايلات » في الارض المحتلة بفلسطين ٠ ولذلك قال فايتسمان ، وزير الدفاع الاسرائيلي انه بدون مطار « اوفيرا » لا يستطيع الطيران الاسرائيلي الوصول ، فضلا عن العمل ، فوق هذا المدخل الحيوي في جنوب البحر الاحمر ٠

اما مطار « عتسيون » ، فهو يدعم القاعدة المتقدمة « اوفيرا » ، كما انه يمكن أن يلعب دورا هاما ضد الجناح الجنوبي للجبهة الشرقية المحتملة في الارض ، فضلا عن انه يمكن ان يستخدم ضد قاعدة « تبوك » السعودية التي تبعد نحو ٢٢٠ كلم عن « ايلات » ، في حالة تمركز طائرات « ف ـ ١٥ » السعودية فيها مستقبلا ، او في حالة سماح المملكة للاردن بأن يستخدم القاعدة المذكورة ، او غيرها من القواعد السعودية ، عند تعرض الاخير لهجوم اسرائيلي ، كما اشارت الى ذلك بعض الانباء الصحفية(٢) ٠وبالاضافة الى ذلك فان المطار المذكور تستخدمه ، فيما يبدو ، طائرات الاستطلاع الاميركية التي تقومبدوريات فوق البحر الاحمر والقرن الافريقي والمحيط الهندي ، منذ اوائل اذار (مارس) على الاقل ، كما ذكرت صحيفة « يديعوت احرونوت » في ٣ـ٣ـ٧٨ ، نقلا عن مصادر بريطانية (٣) ٠ وكما اكدت مصادر صحفية في واشنطن مؤخرا ايضا (٤) ٠ وبالاضافة الى ذلك فان لمطارات سيناء اهمية عسكرية ثانوية اخرى تتمثل في توفير اجواء تدريب اكثر ملاءمة فوق سيناء عن ارض فلسطين المحتلة المحدودة الاجواء ، وايضا في ضمان انتشار افضل للطيران الاسرائيلي تجنبا للضربيات الجوية العربية المفاجئة المحتملة مستقبلا ، او للتقليل من نجاحها ٠

٢ ـ ولا يكتفي « غور » ، والقيادة السياسية الاسرائيلية ايضا ، بمطالبة مصر بمنح اسرائيل حق الاحتفاظ بقواعدها الجوية المذكورة ومستوطناتها في سيناء كشرط من شروط التسوية السلمية ، وانما يطالب مصر ايضا بأن تقدم على خطوة مبادرة شجاعة لكسر حلقة سباق التسلح المفرغة بين العرب واسرائيل ، تتمثل في احالة بعض فرقها العاملة الى الاحتياطي، او تخفيض قوتها الجوية من ٦٠٠ الى ٤٠٠ طائرة فقط ، اي بنسبة الثلث تقريبا ، مع بقاء اسرائيل محتفظة بقوتها العسكرية ، البرية والجوية ، كاملة دون اي تخفيض ،

نظرا لمخاطر احتمال مواجهتها الحرب على الجبهة الشرقية !

واذا ترجمنا اقتراح « غور » الى الواقع القائم حاليا في مجال ميزان القوى العسكري العربي ـ الاسرائيلي بالنسبة للقوات البرية فاننا سنجد أن الجيش الاسرائيلي يتألف حاليا من نحو ٥٨٩ الف رجل ، في حالة التعبئة العامة ، يمكن تعبئة نحو ٣٧٥ الفا منهم خلال ٤٨ ـ ٧٢ ساعة فقط ، وانه يضم نحو ٦٠ لواء (٢٤ لواء مدرع و١٢ ميكانيكي و٩ مشاة و٦ مظليين و٩ مدفعية) ، لديها حوالي ٣٢٠٠ دبابة ونحو ٤٥٠٠ ناقلة جنود مدرعة و١٢٠٠ مدفع ميدان وهاوتزر (ذاتي الحركة ومقطور) و١٠٠٠ هاون ثقيل وراجمات صواريخ ومئات من المدافع المضادة للدبابات واخرى المضادة للطائرات الخ · (٥) في حين ، ان الجيش المصري يتألف من ٣٠٠ الف جندي ، بالاضافة لنحو ٥٠٠ الف من الاحتياطي ، ولكن يصعب ادخالهم في القوة الفعالة عند نشوب القتال فجأة ، نظرا لبطء اجراءات التعبئة والحشد ونقص مستوى تدريبهم ، على خلاف الحال بالنسبة لقوات الاحتياطي الاسرائيلية التي لا تقل كفاءة بصورة ملحوظة عن القوات العاملة · والقوات العاملة موزعة على ٢ فرقة مدرعة و٣ ميكانيكية و٥ مشاة و٣ الوية مدفعية و٢ هاون ثقيل ولواء صواريخ م/د ، اي ما مجموعه نحو ٤٧ لواء (١٠ منها مدرعة و٨ ميكانيكية و١٢ مشاة و٣ محمولة جوا ومظليين و٨ مدفعية وهاونات ولواء م/د) ، لديها نحو ٢٢٠٠ دبابة و٢٧٠٠ ناقلة جنود مدرعة و١٥٠٠ مدفع ميدان وهاوتزر و٣٠٠ هاون ثقيل و٤٠٠ راجمة صواريخ،و٢٨٥٠ مدفع م/ط الخ (٦) ومن الواضح ان الجيش الاسرائيلي يتمتع بتفوق واضح في اجمالي القوة البشرية المقاتلة الفعالة ، وكذلك في تشكيلات المدرعات والمشاة الميكانيكية والمظليين ، فضلا عن اجمالي الدبابات وناقلات الجنود المدرعة ، اي في القدرة الحركية الهجومية، بنسبة عامة تزيد عن ٥٠٪ ، ومن ثم فاي تخفيض في القوات العاملة المصرية (بنسبة الثلث مثلا ، كما يقترح غور بالنسبة للقوة الجوية) سيؤدي الى تدهور خطير في ميزان القوى بين مصر واسرائيل ، وقد يصل بالتفوق الاسرائيلي الكمي ، في الرجال والاسلحة والاليات المدرعة ، الى نسبة تزيد عن ٧٠٪ ، الامر الذي يعرض الامن القومي المصري ، فضلا عن العربي ، لخطر كبير دون توفر اي ضمانات عملية اخرى ضد التوسع والعدوان والسيطرة الاسرائيلية ، في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد · واذا انتقلنا الى اقتراح « غور » الثاني البديل ، وهو تخفيض قوة الطيران المصري بنسبة الثلث فسنجد الامر اكثر خطورة · ذلك لان الطيران الاسرائيلي لديه حاليا نحو ٦٨٠ طائرة قتالية (٢٥ منها « ف ـ ١٥ » و ٢٥٠ « فانتوم » و١٠٠ « كفير » و ٣٠ « ميراج ٣ » و٢٧٥ «سكاي هوك ») ، تستطيع ان تركز قوة نيران تبلغ نحو ٢٩٨٨ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة لها جميعا ، في حالة استخدامها في مهام القصف · ونحو ١٩٦٠ صاروخ جو ـ جو ، في الطلعة الواحدة ، في حالة استخدامها في مهام الاعتراض الجوي(٧)· على حين ان الطيران المصري لديه حاليا نحو ٥٣٤ طائرة قتالية (٢٥ قاذفة «ت يو ـ ١٦ » و٢٤٤ « ميغ ـ ٢١ » و٣٢ « ميغ ـ ٢٣ » و١٨ « ميغ ـ ٢٧ » و ٥٠ « ميغ ـ ١٧ » و٥٢ «ميراج ٣ و٥» و٤٨ «سوخوي ـ ٢٠ » و ٦٠ « سوخوي ـ ٧ »و٥ النيوشن ـ ٢٨ ») ، ويبلغ اجمالي القوة النارية لهذه القوة الجوية نحو ١١١٩ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة ، في حالة القصف · ونحو ١٠٤٤ صاروخا جو ـ جو ، في الطلعة الواحدة ، في حالة الاعتراض الجوي · وبمقارنة هذه القوة الجوية ، سواء من حيث عدد الطائرات او اجمالي القوة النارية ، بالقوة الجوية

الاسرائيلية الحالية ، سنجد انها تعاني تدنيا كبيرا بالنسبة لها ، خاصة في قوة النيران (١١١٩ طنا من القنابل مقابل ٢٩٨٨ طنا ، و١٠٤٤ صاروخا مقابل ١٩٦٠ صاروخا) ، ومن ثم فان تخفيضها بنسبة الثلث سيؤدي الى انعدام اي توازن في واقع الحال بين القوتين ٠ فأي شجاعة تلك المطلوبة من مصر أن تمارسها كمبادرة من طرف واحد في مجال خفض تسلحها بالنسبة لاسرائيل ، كي تكون نموذجا رائدا تتبعه بقية الدول العربية ؟! وهكذا تؤكد اسرائيل ، من خلال اقوال قادتها ، وتصرفاتها العملية ، انها تريد السيطرة الكاملة على مقدرات الامة العربية ، وحرمانها من اي قوة عسكرية تحمي مصالحها الامنية والوطنية بدعوى السلام الدائم !

الجنرال « ايتان » والجبهة الشرقية

في حديث له بمناسبة الذكرى الثلاثين لانشاء دولة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، يوم ١٥ـ٥ـ١٩٤٨ ، ادلى الجنرال « رفول ايتان » ، رئيس الاركان الاسرائيلي الجديد بحديث للاذاعة الاسرائيلية بثته يوم ٦ـ٥ـ٧٨ ، قال فيه « ان الجبهة الشرقية الاسرائيلية هي اشد الحدود خطرا ، لانه ينقصها العمق الاستراتيجي ، ولانها تضع اهم المراكز السكانية الاسرائيلية في مجال نيران العدو » (٨) ٠ ثم ادرج الاردن والعراق في لائحة دول المواجهة على الجبهة الشرقية بالاضافة الى سوريا ، مؤكدا « ان جيوش هذه الدول مجهزة ومدربة جيدا ، وان الجيش العراقي اقوى من الجيش السوري ، وان العراق سيكون سعيدا بالانضمام الى اي حرب ضد اسرائيل ، كما فعل في كل الحروب السابقة » (٩) ٠ كما قال « ايتان » ايضا ان السعودية ، التي تسعى للحصول على طائرات « ف ــ ١٥ » الاميركية ، هي جزء لا يتجزأ من الجبهة الشرقية (١٠) ٠ وتذكرنا اقوال « ايتان » الحالية بخصوص افتقار الجبهة الشرقية الاسرائيلية للعمق الاستراتيجي بالتصريحات التي كان يدلي بها القادة الاسرائيليون قبيل حرب ٦٧ ، والمتعلقة بتوضيح مدى خطورة استمرار الضفة الغربية والقدس القديمة تحت سيطرة الاردن على امن اسرائيل ، وذلك مثل « موشي ديان » الذي قال في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ، في مقال له بعنوان « مشكلة الحدود والامن في اسرائيل » نشرته مجلة «الشؤون الخارجية» الاميركية، ان اسرائيل تواجه مشكلة امن معقدة تعقيدا غير عادي ، نظرا لان مساحتها لا تزيد عن ٨١٠٠ ميل مربع وطول حدودها ٤٠٠ ميل، ولان « ثلاثة ارباع سكان اسرائيل يعيشون في السهل الساحلي الممتد من شمال حيفا الى جنوب تل ابيب ٠ ان متوسط عرض هذه المنطقة المكتظة بالسكان لا يتجاوز ١٢ ميلا بين البحر الابيض المتوسط وحدود الاردن ، وبالامكان رؤية مقر رئاسة الاركان الاسرائيلية الواقعة في السهل الساحلي ، وذلك من التلال الواقعة على الحدود الاردنية ٠ ان الطرق الرئيسية والسكك الحديدية معرضة للغزو السريع السهل ٠ ويكاد لا يوجد مكان في اسرائيل لا يطاله العدو باستثناء صحراء النقب » (١١) ٠

وقد شكلت مثل هذه الاقوال والحجج أسسا دعائية للاطماع التوسعية الصهيونية، التي وضعت موضع التنفيذ بعد ذلك في حرب ٦٧ ٠ وشعرت اسرائيل بالارتياح عقب قضمها للضفة الغربية في الحرب المذكورة ، الامر الذي عبر عنه « ايغال الون » قائلا « وبالنسبة لخط الحدود مع الاردن ، فقد طرأ عليه تغيير كبير ، اذ يمتد الان خط الحدود على مجري نهر الاردن ٠٠٠ هذا الوضع الجديد يلغي نقطة الضعف الجيو ــ ستراتيجي التي عانت منها اسرائيل حتى حرب الايام الستة ٠٠٠ ويرتكز التشكيل الدفاعي الاسرائيلي في الشرق اليوم على نهر الاردن وغور الاردن وسلسلة جبلية من الصعوبة

بمكان ان يمر جيش ميكانيكي حديث فيها » (١٢) ٠

ثم اخذت تبنى المستوطنات على طول خط المواجهة مع الاردن ، الامر الذي عبر عنه « آلون » وقتئذ بقوله ان على اسرائيل ان تعمد وبسرعة الى « خلق واقع استيطاني زراعي ودفاعي في تلك المناطق، والتي تعتبر هامة جدا من الناحية الدفاعية ، والتي لا يمكن التنازل عنها تحت اي ظرف ٠٠٠ والذي اقصده هنا هو الشريط الدفاعي الواسع على طول غور الاردن ٠ والذي يرتكز احد اجزائه على النهر ، ويرتكز الجزء الثاني على الجبل ، مع ابقاء حرية الاختيار لحلول مختلفة بشأن المستقبل السياسي لسكان الضفة الغربية » (١٣) ٠ وهكذا ظهر ما عرف بمشروع « آلون » ، الذي انشأت بموجبه عدة مستعمرات فوق المرتفعات المحاذية لنهر الاردن ، وبعمق عدة كيلومترات ، بحيث اصبحت الضفة الغربية معزولة عن الضفة الشرقية للنهر ، باستثناء ممر ضيق مسيطر عليه تماما يمر بمدينة « اريحا » ٠ والان ، وبعد ان استوعبت اسرائيل « قضمة » ٦٧ ، واقامت نظامها الدفاعي وشبكة الانذار الراداري على مرتفعات الضفة الغربية ، يأتي « ايتان » ليقول ان هذه الحدود الشرقية الجديدة « هي اكثر الحدود خطرا ، لانه ينقصها العمق الاستراتيجي ، ولانها تضع اهم المراكز السكانية الاسرائيلية في مجال نيران العدو » ! وكأنه بذلك يطرح مجددا مزيدا من التوسع نحو الشرق عبر نهر الاردن حتى المرتفعات الواقعة الى الشرق منه ، على الاقل ، كي تأمن الحدود الشرقية للكيان الصهيوني النيران المحتملة للمدفعية الاردنية مثلا في المستقبل ٠ الامر الذي دفع الملك حسين الى القول ، في كلمة القاها في ضباط الفرقة المدرعة نشرت في ٩ـ٥ـ٧٨ ، ان « الاردن يقف على اطول خط من خطوط المواجهة واخطرها ٠٠٠ فسلسلة جبال الاردن من اليرموك حتى العقبة عمقها محدود ، ومفتوحة الى قلب الوطن العربي الذي يضم مقدساتنا وثرواتنا ٠٠٠ ان هذه الرقعة الاستراتيجية التي نعيش عليها تجعلنا باستمرار هدفا للاطماع الصهيونية٠ فالضفة الشرقية مشمولة بوعد بلفور لاقامة دولة يهودية عليها وعلى فلسطين ولا أحد يعلم ما هي حدود خريطة الاطماع الاسرائيلية على الارض العربية ٠٠٠ وليست هناك بوادر او مؤشرات تدل على ان اسرائيل تريد السلام ، بل هي على العكس تخطط باستمرار للوقت المناسب لتغيير الواقع على الضفة الشرقية لنهر الاردن لتصل الى قلب الوطن العربي» (١٤)٠

وفي الوقت نفسه فانه بالاضافة الى التمهيد الدعائي الاولي لفكرة مزيد من التوسع شرقا ، التي بدأت اسرائيل في التحضير لها بتصريح « ايتان » هذا ، والتي تنتظر تنفيذها وقتا وظرفا مناسبين (مثل حرب جديدة يشارك فيها الاردن وتحقق اسرائيل فيها انتصارا) ، فان هذه التصريحات والاقوال تشكل هجوما مضادا ضد المطالبة العربية بانسحاب اسرائيل من اراضي الضفة الغربية المحتلة في ١٩٦٧ ، بحيث تتحول هذه المطالبة « الهجومية » العربية ، اذا صح التعبير ، الى مطالبة « دفاعية » تستهدف الحيلولة دون مزيد من التوسع الاسرائيلي لضم الضفة الشرقية لنهر الاردن ، فضلا عن استبقاء الضفة الغربية ! ولذلك عاد الجنرال « ايتان » وصرح في حديث تليفزيوني في ختام احتفالات الذكرى ٣٠ لانشاء « اسرائيل » يوم ١٢ـ٥ـ٧٨ ، فقال «ان هدف الدول العربية لا يزال هو ازالة اسرائيل عن الخريطة ٠٠٠ ان اعتقادي هو ان الهدف الاساسي للعرب لم يتغير ٠٠٠ وعلى رغم كل الوسائل الحديثة للحروب فان اسرائيل لا يمكن الدفاع عنها او المحافظة على حدودها من دون « اليهودية» و« السامرة » (اي الضفة الغربية) ومن

دون مرتفعات الجولان » (١٥) ٠

وسارع وزير الدفاع عيزر فايتسمان الى تبني حديث « ايتان » مؤكدا انه لم يتخط سلطاته ومشيرا الى ان مصر والولايات المتحدة تعترفان بأن اسرائيل في حاجة الى ضمانات امنية ، وان هذه المسألة لا تزال قيد البحث ، وذلك ردا على جملة المعارضة الاسرائيلية المضادة للتصريح المذكور، التي قامت على اساس ان التصريح يعد تدخلا من المؤسسة العسكرية في السياسة ومن شأنه عرقلة مفاوضات السلام الدقيقة مع مصر ٠ ويطرح هذا الواقع الاسرائيلي الواضح في دلالاته ، سواء من حيث الرفض المطلق للانسحاب من الضفة الغربية والجولان ، او من حيث تجسد الاطماع التوسعية الصهيونية في الضفة الشرقية لنهر الاردن في « قضمة » جديدة يجري الاعداد لتنفيذها مستقبلا ، يطرح مجددا على العرب مسألة الجبهة الشرقية،وضرورة تشكيلها ودعمها بقوة ، لانها تمثل حاليا درع العرب الرئيسي في التصدي للتوسع الصهيوني ، وفي العمل على تحرير الارض المحتلة عام ٦٧ في الجولان والضفة الغربية، اي باختصار من اجل خلق توازن استراتيجي فعال مع اسرائيل من اجل ردعها واحتوائها ٠ وهذه الجبهة تفترض بطبيعة الحال حد ادنى من وحدة العمل السياسي والعسكري بين كل من سوريا والاردن والعراق ، فضلا عن الثورة الفلسطينية٠ فهل تشكل الاطماع والتحديات الاسرائيلية المشار اليها ، القدر الكافي من الشعور بالخطر لدى القوى العربية المعنية .

هل تشكل طائرات الميراج عصب القوة الجوية المصرية

خلال زيارة لاحدى القواعد الجوية المصرية في ٦ـ٥ـ٧٨ قال الفريق اول «عبد الغني الجمسي » ، وزير الحربية المصري ، ان « طائرات الميراج هي عصب القوات الجوية وطائرات القتال الرئيسية حاليا ومستقبلا بناء على استراتيجية موضوعة تستمر سنوات طويلة ، وذلك سواء عن طريق شراء هذه الطائرات او تصنيعها محليا بواسطة الهيئة العربية للتصنيع»(١٦) واستطرد وزير الحربية المصري موضحا حقيقة موضع الـ ٥٠ طائرة «ف ـ ٥ اي » ، التي ستشتريها مصر من الولايات المتحدة ، ضمن القوة الجوية المصرية ، فقال ان الهدف من الحصول عليها هو استبدال طائرات « الميغ ـ ١٧ » الموجودة حاليا لدى الطيران المصري ، باعتبار انها اقل تطورا من «ف ـ ٥ » التي ظهرت في الستينات ، وذلك في انتظار استكمال تزويد القوة الجوية المصرية بطائرات « الميراج » ٠ ثم اردف قائلا ان « الطائرات الغربية احدث وافضل ومزودة بتسهيلات عدة » وان طائرات النقل الاميركية « سي ـ ١٣٠ هيروكوليز » تبلغ حمولتها «ضعفي حمولة الطائرة السوفييتية « انطونوف ـ ١٢ » المستخدمة حاليا في عمليات النقل الجوي » ٠ ويثير هذا الحديث ، الذي جرى قبيل موافقة مجلس الشيوخ الاميركي على صفقة الطائرات الثلاثية الاطراف لكل من اسرائيل والسعودية ومصر ، والذي تبدو فيه لهجة متحفظة بالنسبة لاهمية طائرات « ف ـ ٥ » ، يثير عدة نقاط جديرة بالقاء الضوء عليها ، نوجزها فيما يلي :

١ ـ لا شك في ان الطائرة « ف ـ ٥ » تعتبر بديلا اكثر تطورا من الناحية التقنية عن الطائرة « الميغ ـ ١٧ » الاقل حداثة ، والتي تمتلك مصر منها حاليا نحو ٥٠ طائرة من بقايا صفقات الاسلحة السوفييتية السابقة ، او اللاحقة مباشرة ، لحرب ١٩٦٧ ٠ وذلك سواء من حيث السرعة ، او الحمولة الحربية ، او المعدات الفنية المجهزة بها ، وانها بالتالي اقل تطورا من « الميغ ـ ٢١ » ، خاصة المنتمية منها الى طراز « م ف » المستخدمة في مهام الدفاع الجوي المصري ، وقد سبق ان ناقشنا ذلك من

الناحية الفنية ، عندما تناولنا صفقة الطائرات المذكورة في شهريات نيسان (ابريل) الماضي (١٧) ٠ الامر الذي يجعلها لا تشكل اضافة ، او تحديثا له قيمته العملية ، بالنسبة للقوة الجوية المصرية ، خاصة في ظل عملية التطوير الكمي والنوعي الجارية ، والتي ستستكمل بمقتضى صفقة الطائرات الاخيرة ، لدى السلاح الجوي الاسرائيلي منذ انتهاء حرب ١٩٧٣ ٠

٢ ـ يتألف الطيران المصري حاليا من نحو ٥٢٤ طائرة قتالية ، من بينها نحو ٥٢ طائرة « ميراج ٣ اي »و « ميراج ـ ٥»، على حين ان لديه نحو ٢٤٤ طائرة « ميغ ـ ٢١ » بانواعها المختلفة ، ونحو ٥٠ طائرة « ميغ ـ ٢٣ » « وميغ ـ ٢٧ » (والاخيرة نوع من الميغ ـ ٢٣ مخصص لمهام القصف الارضي) ، ونحو ٦٠ طائرة « سوخوي ـ ٧ » و ٤٨ « سوخوي ـ ٢٠ » ٠

وعلى ضوء هذه الرقمية التي اشرنا اليها سابقا ، يصعب علينا تصور ان طائرات « الميراج » تشكل عصب القوة الجوية المصرية حاليا ، خاصة وان اجمالي قوتها النارية يبلغ نحو ١٣٢ طنا من القنابل في حالة استخدامها في القصف الجوي (٣٨ طائرة « ميراج ٣ اي » تحمل الواحدة منها ٢ طن قنابل ، اي ما مجموعه ٧٦ طنا ٠ و١٤ طائرة « ميراج ـ ٥ » تحمل الواحدة منها ٤ اطنان ، اي ما مجموعه ٥٦ طنا) ، اما في حالة استخدامها في مهام الاعتراض الجوي ، فتبلغ قوتها النارية ٧٦ صاروخا جو ـ جو (تستخدمها طائرات « الميراج ٣ اي » فقط اما «الميراج ـ ٥ » فلا تستخدم الا في القصف) ٠ وهذه قوة نارية محدودة بالقياس لاجمالي القوة النارية للطيران المصري البالغ قدرها نحو ١١١٩ طنا من القنابل ، ونحو ١٠٤٤ صاروخا جو ـ جو ٠ ومن الناحية الفنية تكاد تكون متقاربة في السرعة وحمولة القنابل (باستثناء « الميراج ـ ٥ ») مع « الميغ ـ ٢١ م ف » ، وتفوقها بعض الشيء في المدى ، ولكن « الميغ ـ ٢٣ » تفوق « الميراج ـ ٥» في حمولة القنابل ، وتقاربها في بقية القدرات القتالية ٠

هذا بالنسبة للوضع الحالي للطيران المصري الذي ما زالت طائرات « الميغ ـ ٢١ » تشكل فيه عصب الطيران المصري وهي الطائرات التي قال وزير الحربية المصرية ، في حديث لاحق له يوم ١٧ـ٥ـ٧٨ ، ان القوات الجوية المصرية قد حققت بها الكثير خلال حرب تشرين ولا زالت قادرة على تحقيق المزيد من المهام التي تكلف بها (١٨) ٠ اما بالنسبة للوضع المتوقع في المستقبل المنظور ، فهناك احتمال ان يحصل السلاح الجوي المصري على نحو ٤٠ طائرة « ميراج ف ـ ١ » ، وهي طائرة ذات قدرات متقاربة مع قدرة « الميغ ـ ٢٣ » ، وان كانت الاخيرة اكثر حداثة من حيث ان اجنحتها ذات الهندسة المتغيرة ، الامر الذي يوفر لها مرونة اكبر في القتال الجوي ٠ وعلى اي حال فانها لن تكون ، ضمن محدودية العدد المذكور ، تشكل عصب القوة الجوية المصرية ، ما لم تخرج طائرات الميغ ـ ٢١ و٢٣ من الخدمة العملية بسبب مشكلات قطع الغيار ، وفي هذه الحالة ستتدنى القوة الحالية للطيران المصري ، من حيث العدد ، ومن حيث القوة النارية ، وهو امر له خطورته على ميزان القوى الجوي العربي ـ الاسرائيلي ، في ظل التزايد المضطرد في قوة الطيران الاسرائيلي ٠

٣ ـ أن وصف الطائرات الغربية ، على اطلاقها ، بانها أحدث وافضل ومزودة بتسهيلات عدة ، بالقياس للطائرات السوفييتية ، لا يعبر عن حقيقة موضوعية مطلقة ، وانما يتطلب الامر للتوصل الى مقارنة علمية سليمة ، تناول كل نوع متماثل في المهام ودرجة الحداثة بين الطائرات وبعضها البعض ٠ واذا ما انتقلنا الى التخصيص القائل بأن طائرات النقل

الاميركية الصنع « سي ـ ١٣٠ هيركوليز » تفوق طائرات النقل السوفييتية من طراز « انطونوف ـ ١٢ » من حيث الحمولة بنسبة الضعفين ، فاننا نجد الحقيقة التقنية ، وفقا لما تورده المصادر العربية ذاتها ، تخالف ذلك تماما ، اذ ان الطائرة الاميركية المذكورة تستطيع ان تحمل ٩٢ جنديا او ٦٥ مظليا او ١٩ طنا من المعدات والاعتدة المختلفة ، على حين ان الطائرة السوفييتية المذكورة تستطيع ان تحمل ١٠٠ جندي ، او ٧٠ مظليا ، او ٢٠ طنا من المعدات !

طائرات « سياسية » للعرب و « عسكرية » لاسرائيل ٠

بعد مناقشات مطولة ومعقدة وافق مجلس الشيوخ الاميركي في ١٦ـ٥ـ٧٨ على صفقة الطائرات الاميركية مع كل من اسرائيل والسعودية ومصر ، بأغلبية ٥٤ صوتا ضد ٤٤ ٠ وتتضمن الصفقة بيع اسرائيل ٧٥ طائرة من طراز « ف ـ ١٦ » ، يبدأ تسليمها اليها العام ١٩٨١ ويستمر حتى العام ١٩٨٣ ٠ و١٥ طائرة «ف ـ ١٥» ، يبدأ تسليمها في العام ١٩٨١ ، وينتهي في العام ١٩٨٢ (وذلك اضافة الى صفقة الـ ٢٥ طائرة « ف ـ ١٥ » التي تسلمت اسرائيل معظمها ، واستخدمت بعضها في العدوان الاخير على جنوب لبنان) ٠ وبيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، يبدأ تسليمها في العام ١٩٨١ ويمتد الى العام ١٩٨٤ ٠ وبيع مصر ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ اي » ، يبدأ تسليمها في نهاية العام ١٩٧٨ ، وينتهي في اواخر ١٩٨١ ٠ وقد تمت موافقة مجلس الشيوخ المذكورة بعد ان اكد وزير الدفاع الاميركي للمجلس بأن السعودية وافقت على القيود الموضوعة على استخدام الطائرات المذكورة ، يتعلق احدها بالمكان الذي ستوضع فيه الطائرات ، من حيث انها لن توضع في قاعدة « تبوك » شمال غرب السعودية ، التي تتيح لطائرات « ف ـ ١٥ » الوصول الى الارض المحتلة في فلسطين خلال دقائق معدودة ، وانما ستوضع في قواعد « الظهران » و« الطائف » و« الرياض » و« خميس مشيط » ٠ واحدها يتعلق بعدم تجهيزها بمعدات هجومية ٠ كما قال « براون » ايضا ان السعودية تعهدت باستخدام الطائرات في اغراض الدفاع عن النفس فحسب (١٩) ٠ كما قال « سيروس فانس » للمجلس المذكور ان الطيارين السعوديين هم وحدهم الذين سيتدربون على طائرات « ف ـ ١٥ » ، وان السعودية قد تعهدت بعدم تحويل الطائرات الى اطراف اخرى ٠ ومن جهته قال « بول وارنكي » ، رئيس وكالة الحد من التسلح ، امام مجلس الشيوخ « ان قدرة طائرة « ف ـ ١٥ » التي ستباع للسعودية لن تزيد عن قدرة طائرات سلاح الجو الاميركي المخصصة للدفاع الجوي ٠ اما قدرتها على الهجوم الارضي فستكون محدودة » ٠ اما الجنرال « دافيد جونز » ، ممثل هيئة الاركان الاميركية ، فقد قال للمجلس المذكور انه لو كان مكان رئيس الاركان الاسرائيلي فانه سيعتبر الـ ٦٠ طائرة من طراز « ف ـ ١٥ » الموجودة لدى السعودية ، عنصر دفاع جوي ، مع احتمال ضعيف جدا في الهجوم ، وانه لن يكون لديه شك في قدرة الطيران الاسرائيلي على مواجهة هذه الطائرات اذا ارتكب السعوديون الخطأ واستعملوا الطائرات للهجوم ، ولذلك لن يعتبر ان الطائرات المذكورة تشكل تهديدا لامن اسرائيل ٠ ثم قال ان قيادة الاركان الاميركية تدعم بيع الطائرات الى الدول الثلاث لان البيع يخدم مصلحة الامن القومي الاميركية (٢٠) ٠ اما بالنسبة لطائرات « ف ـ ٥ اي » ، التي ستتسلمها مصر ، فقد قال عنها «براون» انها « تختلف بطبيعتها عن طائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » لجهة القدرة ٠٠٠ واعتقد ان التوازن العسكري سيستمر ٠ لا بل سيزيد من التفوق الاسرائيلي العسكري

على الدولتين (مصر والسعودية) » (٢١)٠ كما قال « بول وارنكي » « اما بالنسبة الى طائرة الـ « ف ـ ٥ » الى مصر ، فلن تكون مجهزة بخزانات وقود اضافية ٠وعليه فان مداها سيكون محدودا ٠ كما انها لن تحمل الصاروخ جو ـ جو الموجه بواسطة اشعة لايزر » (٢٢) ٠ وقد سبق للرئيس السادات ان وصفها مرارا وتكرارا بأنها طائرة درجة عاشرة بالقياس للطائرات المعطاة لاسرائيل ، كما قال « الجمسي »، وزير الحربية المصري ، انها ستحل محل طائرات « الميغ ـ ١٧ » القديمة ٠ وسبق لنا ان تناولنا تأثير الصفقة على ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي بالتفصيل (شهريات نيسان ١٩٧٨) ، وكل ما نستطيع ان نقوله ان مصر والسعودية ستحصل على طائرات لن تستخدم ضد اسرائيل ، ولن يكون لها تأثير على ميزان القوى ضدها ، على حين ان اسرائيل ستحصل على ٩٠ طائرة جديدة (فضلا عن ٢٠ طائرة « ف ـ ١٥ » اخرى وعدت بها بعد انهاء الصفقة) ستزيد قوتها الجوية كما ونوعا الى حد خطير ٠

وهكذا يتبين لنا في النهاية ان الطائرات المباعة للجانب العربي تخدم السياسة الاميركية في المنطقة دون ان تلبي الحاجات العسكرية للعرب على عكس الحال بالنسبة لاسرائيل ٠

م٠ع٠

الحواشي :

١ ـ صحيفة النهار في ٦ـ٤ـ١٩٧٨ ٠

٢ ـ صحيفة الانوار في ١٧ـ٨ـ٧٧ نقلا عن صحيفة الوطن الكويتية ٠

٣ ـ صحيفة السفير في ٤ـ٣ـ١٩٧٨ ٠

٤ ـ صحيفة السفير في ١٢ـ٥ـ١٩٧٨٠

٥ ـ ميزان القوى العسكري في منطقة الشرق الاوسط ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ، قاسم جعفر ، محمود عزمي ، ربيع الاسير ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، ١٩٧٨ ، صفحات ١٩٨ ـ ٢٠١ ٠

٦ ـ المرجع السابق ، صفحة ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ٠

٧ ـ المرجع السابق ، صفحات ٤٣و٤٤ ٠

٨ ـ صحيفة السفير ، يوم ٧ـ٥ـ٧٨ ٠

٩ ـ صحيفة النهار ، يوم ٧ـ٥ـ٧٨ ٠

١٠ ـ المرجع السابق ٠

١١ ـ العابد ، ابراهيم ٠ مدخل الى الاستراتيجية الاسرائيلية ، مركز الابحاث، بيروت ، ١٩٧١ ، صفحات ٣٣ و٣٤ ٠

١٢ ـ المرجع السابق ، صفحة ٣١ و٣٢ ٠

١٣ ـ المرجع السابق ، صفحة ٢٨ ٠

١٤ ـ صحيفة النهار ، يوم ١٠ـ٥ـ٧٨ ٠

١٥ ـ صحيفة النهار ، يوم ١٢ـ٥ـ٧٨ ٠

١٦ ـ صحيفة النهار ، يوم ٨ـ٥ـ٧٨ ٠

١٧ ـ شؤون فلسطينية ، العدد ٧٧ ، صفحة ١٧٢ ٠

١٨ ـ صحيفة السفير ، يوم ١٨ـ٥ـ٧٨ ٠

١٩ ـ صحيفة النهار ، يوم ١٤ـ٥ـ٧٨ ٠

٢٠ ـ صحيفة النهار العربي والدولي العدد ٥٤ ، يوم ١٣ـ٥ـ٧٨ ٠

٢١ ـ صحيفة النهار العربي والدولي العدد ٥٤ ، يوم ١٣ـ٥ـ٧٨ ٠

٢٢ ـ صحيفة النهار العربي والدولي العدد ٥٤ ، يوم ١٣ـ٥ـ٧٨ ٠

المستقبل العربي

« ان وحدة مستقبل العرب رهن بوحدة عرب المستقبل »
« ومستقبل الوحـدة العربية رهن بمستقبل عرب الوحدة »
« ومستقبـل العـرب هـو بيد عرب المستقبـل »

صدر العدد الاول منها في أيار ١٩٧٨

المستقبل العربي

يصدر العدد الثاني في اول تموز (يوليو) ١٩٧٨
بقوة اكبر ٠٠ وثقة أكثر ٠٠ وتميز أوضح

يصدرها : « مركز دراسات الوحدة العربية »
(ص.ب ٦٠٠١ ـ ١١٣ ، بيـروت)

رئيس التحرير : د٠ أنيس صايغ

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center: *Editor*, Mahmoud Darwish; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 60. other Arab countries L L 75 or equivalent, Europe L L 100 elsewhere L L 125: *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 65. *Address:* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351261: Cables: MARABHATH.

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٨٥٠ درهماً في ج.ع.ف.